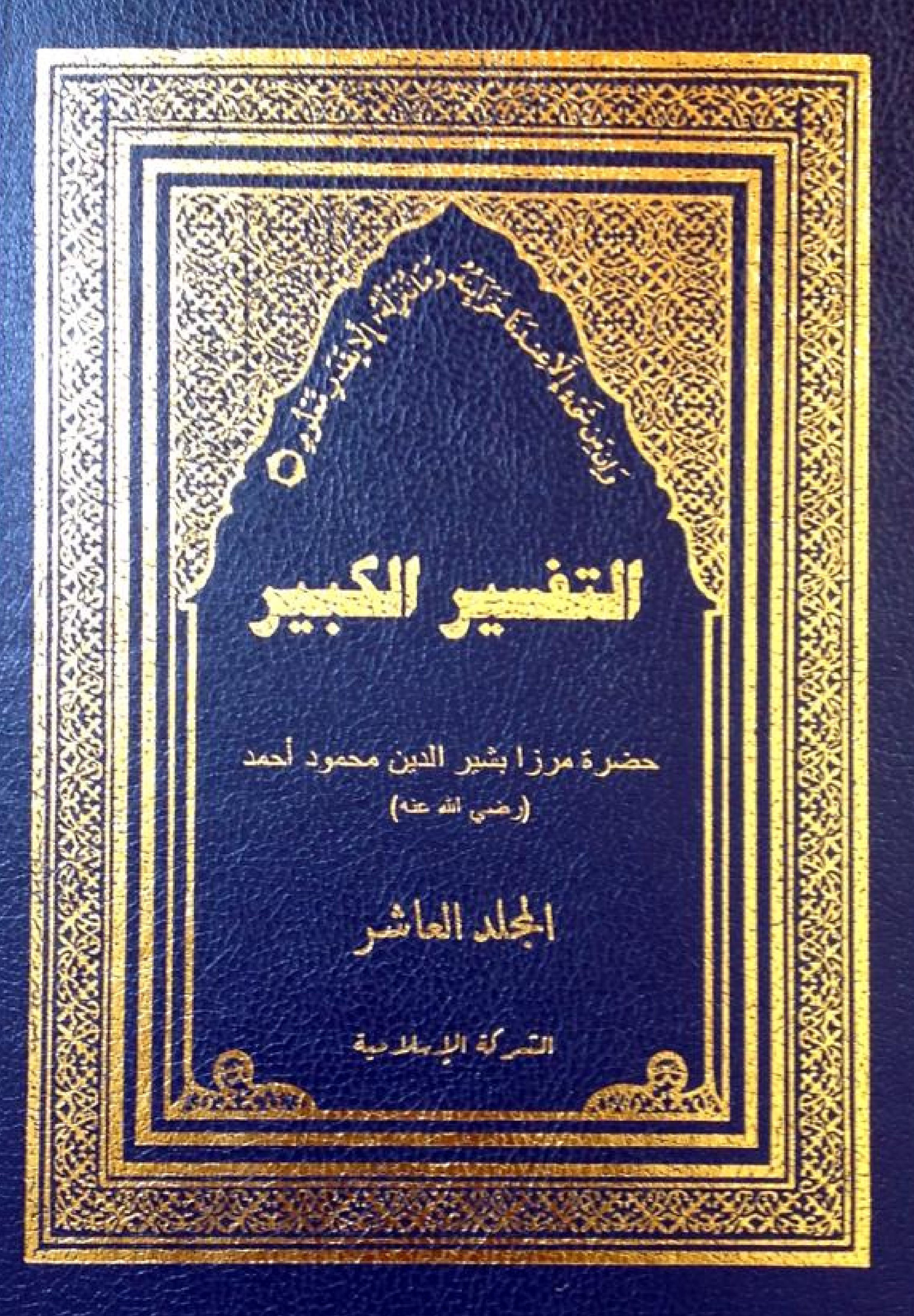


التفسير الكبير
حضرة مرزا بشير الدين محمود أحمد
(رضي الله عنه)
المجلد العاشر
الشركة الإسلامية

التفسير الكبير

مرزا بشير الدين محمود أحمد رضي الله عنه

الخليفة الثاني

لسيدنا المسيح الموعود والإمام المهدي عليه السلام

المجلد العاشر

من سورة الفيل إلى سورة الناس

الشركة الإسلامية المحدودة

اسم الكتاب: التفسير الكبير - المجلد العاشر
الطبعة الأولى: ١٤٣٢ هـ / ٢٠١١م

AT-TAFSĪR AL-KABĪR
"Commentary of The Holy Qur'ān"

By: Ḥaḍrat Mirzā Bashīr -ud- Dīn Maḥmūd Aḥmad,
Khalīfatul Masīḥ II

Volume: 10

SŪRAH AL-FĪL TO SŪRAH AN-NĀS

(Arabic Translation)

Translated from Urdu by: Abdul Momin Tahir

First Published in UK in 2011 by:
Al Shirkatul Islamiyyah
Islamabad
Sheephatch Lane
Tilford, Surrey GU10 2AQ
United Kingdom

ISBN: 978-1-84880-417-3



كلمة الناشر

نحمد الله تعالى حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه إذ وفّقنا لإخراج المجلد العاشر والأخير من هذا التفسير القيّم بلغة حبيبه وحبيبنا محمد المصطفى ﷺ.

وقد حاز شرف تعريبه الأستاذ عبد المؤمن طاهر، وراجَعه الأستاذ هاني طاهر. تقبَّلَ الله سعيهما وجعله خالصًا لوجهه الكريم. آمين.

يجدر توضيح ما يلي حول هذه الترجمة:

أوّلًا: لقد قام حضرة المفسر رضي الله عنه بهذا التفسير قبل أكثر من نصف قرن من الزمان، وتحديدا عند انقسام الهند ونشوء دولة باكستان، فلو أخذ القارئ الكريم هذا الأمر بعين الاعتبار سهُل عليه فهمُ كثير من الأمور والأحداث المذكورة فيه.

ثانيًا: لقد ذكر رضي الله عنه معظم الاقتباسات من الحديث النبوي الشريف والسيرة والتاريخ وغيرها من المراجع بألفاظه وأسلوبه، وليس بنصّها الحرفي؛ حيث إن هذا التفسير في مجمله دروس ألقاها حضرته، فقام المترجم بنقل هذه الاقتباسات بنصّها الحرفي ما استطاع إلى ذلك سبيلا، أما في الأماكن الأخرى فترجمَ المضمونَ مع الإشارة إلى النص الأصلي أو مرجعه في الهامش.

ثالثًا: أحيانًا أشار حضرته رضي الله عنه إلى بعض الأمور إشارةً عابرة، فقام المترجم بتوضيحها في الهامش تسهيلاً للقارئ العزيز.

رابعًا: ترقيم الآيات في التفسير هو باعتبار البسملة أول آية من كل سورة، كما هو اعتقادنا.

وأخيرًا فإننا نتقدم بخالص الشكر لكل مَن ساهم في إخراج هذا الكتاب، كما نطلب من القراء الكرام الدعاء لهم، ولا سيّما الأستاذ سيد مير محمود أحمد ناصر -عميد الجامعة الإسلامية الأحمدية (معهد تأهيل الدعاة) بربوة باكستان، لتفضُّله بالإشراف على مجموعات الأساتذة والطلاب الذين قاموا بتخريج أو توثيق معظم المراجع لهذا التفسير- الأستاذ مبشر أحمد أياز، الأستاذ خالد عزام، الدكتور محمد حاتم حلمي الشافعي، المهندس تميم أبو دقة، علاء نجمي، الدكتور وسام البراقي، عبد القادر عودة، هديل عودة، فضل عودة، تغريد عودة، محمد طاهر نديم، الحافظ عبد الحي بهتي، مير أنجم برويز، طارق خليل، طاهر أحمد بخاري، طارق حياة، محمد طاهر، سيد عمران أحمد شاه، ثاقب كامران، وذلك لمساعدتهم المشكورة في شتى المجالات العلمية والفنية. فجزاهم الله جميعًا أحسن الجزاء، وبارك فيهم وفي كل ما لهم، وأدخلهم في عباده الأخيار، آمين.

كما ندعو الله العلي القدير أن يجعل هذا التفسير سببًا لشفاء غليل الكثيرين من عباده علميًا وروحيًا، ووسيلةً لفهم كلامه سبحانه وتعالى والعمل به والفوز برضوانه عز وجل. آمين!

الناشر

ربيع الأول ١٤٣٢ هـ

شباط / فبراير ٢٠١١ م

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الفيل

مكية وهي ست آيات مع البسملة وهي ركوع واحد

نزلت في مكة. قال ابن عباس إنها مكية (فتح البيان)، كما قال المفسرون بلا خلاف إنها مكية. وقد اعتبرها المستشرقون مكية أيضا حيث يرى المستشرق الألماني الشهير "نولدكه" أنها من أوائل السور نزولا؛ حيث نزلت في زمن مقارب لنزول سورة التكاثر. (تفسير القرآن للقسيس "ويري")

الترابط:

إن أول ما يربط هذه السورة بما قبلها هو ما ذكرتُه من قبل عند تفسير السور السابقة، حيث بينتُ أن جميع السور الأخيرة من القرآن الكريم -إلا بضع منها- تتحدث بالتناوب عن فترة الإسلام الأُولى، ثم عن الزمن الأخير؛ فسورةٌ منها تتحدث عن الفترة الأولى للإسلام خاصة، بينما تتحدث السورة التي تليها عن الفترة الأخيرة للإسلام خاصةً. ولا أعني من ذلك أن السورة التي تتحدث عن الفترة الأولى للإسلام لا تتحدث عن الفترة الأخيرة للإسلام مطلقًا، كما لا أعني أن السورة التي تتحدث عن فترة الإسلام الأخيرة لا تتحدث عن فترته الأولى مطلقًا، بل الحق أنهما تحتويان على ذكر الفترتين عموما، بل في بعض الأحيان تذكرهما بكل شدّة، ولكن هذا الذكر ليس هو الهدف الأول، إنما الهدف الأول هو التركيز على إحدى الفترتين خاصة. ومن هذا المنطلق فإن سورة الفيل تتحدث عن الزمن الأخير للإسلام خاصة، مع أنها تتحدث عن فترة الإسلام الأولى أيضا. إن هدفها الأول هو الإشارة إلى حالة الإسلام في الزمن الأخير.

أما علاقتها القريبة بالسورة السابقة فهي أن الله تعالى قال في السورة السابقة ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾.. أي أن الذين يعيبون الآخرين ويؤذونهم ويضطهدونهم مزهوّين بما عندهم من مال وثراء؛ سيُدمَّرون بالعذاب ويبادون. ومع أن هذا الأمر يبدو عامًا كما توهم كلمة (كُلّ) في قوله تعالى ﴿وَيْلٌ **لِكُلِّ** هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾، لكنه يشير في المقام الأول إلى أعداء رسول الله ﷺ. لقد كان أعداؤه المعاصرون له ذوي مال وثراء وتجارات وعقارات وسيادة ومناصب، مما جعلهم يستكبرون ويظنون أن قوتهم وأموالهم ستمنعهم؛ فلن يُهزَموا على يد محمد وأصحابه، فيردّ الله عليهم بأنكم مخطئون في هذا الظن. إن محمدًا رسول الله ﷺ سينتصر عليكم حتما، ولن يكون مصيركم أنتم الذين تؤذون الفقراء مغرورين بأموالكم وسيادتكم إلا الخيبة والفشل. باختصار، إن سورة الفيل تنبئ أن هؤلاء القوم سيكابدون آلامًا كبيرة وسيبادون إبادة تامة، ويكون مصيرهم مؤلما جدًّا.

وهنا ينشأ سؤال طبيعي: كيف يحدث هذا؟ فمن غير المنطقي أن يصاب هؤلاء الكبار ذوو المال والسؤدد والعقل والتدبير والقوة بالهزيمة على أيدي الضعفاء، وأن ينتصر عليهم جيرانهم الذين هم هدف لاضطهادهم. وردًّا على هذا الاعتراض الطبيعي قد ذكر الله تعالى في هذه السورة حادثًا لا يصدّقه المنطق الظاهر، لأن كل ما وقع فيه إنما وقع بقَدر من الله تعالى، وكانت النتيجة خلاف ما يحكم به العقل تماما، فلم تملك الدنيا إلا الاعتراف أنْ ليس كل ما يقع في الدنيا يقبله العقل دائما، بل قد تقع فيها أحداث تبدو خلاف العقل، ومثاله واقعة أصحاب الفيل. فقد هجم على "مكة" ملِكٌ ذو قوة ومنعة ومملكة كبيرة منظَّمة، لكنه مُني بالهزيمة -كما سيأتي تفصيل ذلك لاحقا- بينما انتصر عليه الذين لم يملكوا قوة ولا حيلة.

لا جرم أن الهُمَزة واللُّمَزة يوجدون في كل مكان، ولكن المراد الأول منهم هنا أهلُ مكة، فهم الذين قال الله فيهم ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾(الهُمَزة:٣-٤).. أي أنهم يحسبون أنهم سينتصرون على محمد بقوتهم وأموالهم وثروتهم، فيرد الله تعالى عليهم: يا أهل مكة لقد وقع في قريتكم هذه

حادث يؤكد ما نقول. لقد غرَّكم أنكم أكثر قوة من محمد رسول الله، فهلّا فكرتم في مصير قوم كانوا أكبر منكم قوة وسيادة، فجاءوا مغترين بقوهم لمهاجمة مكة، فألقيتم أمامهم السلاح من دون مقاومة، ولكن كان من المقدر أن تكون مكة عاصمةً لحبيب الله تعالى، إذ كانت أرضًا حبيبة ومقدسة عند الله، فأفشل الله هذا العدو في هدفه ، وخيّبه في مكائده، فكانت مكة هي الغالبة في نهاية المطاف، ومُنِيَ ذلك العدو القوي بالخيبة والفشل.

لقد وقع هذا أمام أعينكم. كان انتصاركم على هذا العدو محالاً عقليا، ولكن الله نفذ مشيئة إرادته. ألا تدركون بعد رؤية هذا المثال كيف ينتصر محمد رسول الله الذي لا يملك مالاً ولا قوةً ولا أعوانًا، وكيف تنهزمون أمامه مع ثرائكم وقوتكم وأعوانكم؟ فكِّروا في واقعة أصحاب الفيل لتعلموا أن الله تعالى يريد أن يُري آية قدرته القوية هذه المرة أيضا كما فعل من قبل، وسوف يجعلكم مغلوبين أمام محمد رسول الله ﷺ.

والعلاقة الثانية لهذه السورة بالتي قبلها أنه قد أشير فيها -كدليلٍ بالأَوْلى- إلى أن الكعبة ليست مقصودة بحد ذاتها، إنما هي علامة للمبعوث الرباني الموعود؛ إذ كان من المقدَّر أن يُبعث إنسان عظيم لهداية الناس وفقًا لدعاء إبراهيم عليه السلام، ولتحقيق هذا الهدف كانت هناك حاجة لمركز، فجعل الله هذا المقام مقدسًا ومرجعًا للناس لهذا الغرض، ولكنه ليس مقصودا بحد ذاته في كل حال، بل المقصود الحقيقي هو ذلك المبعوث الذي كان سيظهر نتيجة دعاء إبراهيم عليه السلام، والذي كان من مهماته -كما قال الله سبحانه وتعالى - أنه ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾. هذا المقام كان مجرد علامة للمقصود الحقيقي الذي سيبعث هناك. والتدبر يكشف لنا أن لا أهمية للأمور الشكلية، إنما الأهم ما هو وراءها والدافع لها؛ فمن الأحداث الطريفة الشهيرة أن الشيخ "سعدي" كان مرّةً في سفر، فأقام في خانٍ، فأقام أحدُ عِلْية القوم مأدبةً وأعلن أن كل المسافرين المقيمين في الخان مدعوون للطعام عنده. فقال صاحب الخان للشيخ "سعدي" بأن لا طعام عنده اليوم لأن فلانا من الزعماء قد أقام مأدبة وأنتم مدعوون إليها. كان "سعدي"

يلبس لباسًا بسيطا، ولكنه كان إنسانًا عظيمًا شهيرا يحضر بلاط الملوك، وحيثما ذهب عظَّمه الناس وأجلسوه في الصدارة، فلما حضر بيت الزعيم جلس قريبا من مكان الصدارة دون أن يخطر بباله أن أهل هذه المنطقة يجهلونه لعدم مجيئه إليهم من قبل. وبينما هو جالس هناك إذ حضر أحدُ عِلْية القوم، فتوجّهَ أحد خدم البيت إلى "سعدي" وقال له أرجو أن تترك هذا المكان لهذا الزعيم، فترك مكانه وجلس في مكان آخر. وبعد برهة جاء زعيم آخر، فذهب الخدم إلى "سعدي" وطلبوا منه أن يتأخر أكثر. ولم يزل الزعماء يأتون و"سعدي" يتأخر حتى وصل إلى مكان الأحذية. ولما حضر الطعام تناولَه وذهب. وكان هذا الزعيم قد أعلن أن هذه المأدبة لثلاثة أيام. وكان الملوك الكبار –الذين كان "سعدي" معتادا حضورَ بلاطهم ومجالستهم– قد خلعوا عليه خلعًا ثمينة، فلما أراد حضور المأدبة في اليوم الثاني لبس خلعة ثمينة مرصعة بالآلئ واليواقيت، ووصل إلى بيت الزعيم وجلس في الخلف عند الباب، فجاء أحد الخدم وقال له: حضْرتُك جالس هنا! أرجوك أن تأتي وتجلس في الصفوف الأمامية، فتقدّمَ قليلا. ثم أتاه خادم آخر وقال: حضرة الشيخ، كيف تجلس هنا! أرجوك أن تتقدم إلى المقاعد الأمامية، فتقدم قليلا. ثم جاءه خادم آخر وقال: هذا المكان لا يليق بحضرتكم، أرجو أن تجلس قريبا من صدر المجلس. ولما حضر صاحب البيت بنفسه، ورأى لباس الشيخ "سعدي" ظنّه وزيرًا أو أحد كبار رجال المملكة، فتقدم إليه وقال: لماذا تهينني حضرة الشيخ؟ أرجوك أن تتفضل وتجلس في صدر المجلس. فأجلس الشيخَ في المكان الذي كان سيجلس فيه بنفسه. فلما حضر الطعام غمّس الشيخ "سعدي" طرف خلعته في إناء الطعام، فظنّه القوم مجنونًا، وقال له صاحب البيت: ماذا تفعل يا حضرة الشيخ؟ فأجاب: حضرة الأمير، هذه المأدبة ليست لي وإنما لخلعتي، فلذلك أُطعِمها. قال: لم أفهم قصدك؟ أجاب الشيخ: لقد حضرتُ المأدبة بالأمس، ولكنهم دفعوني إلى مكان الأحذية، أما اليوم فجلستُ عند الأحذية، ولكنهم لم يزالوا يقدّمونني حتى أجلسوني في صدر المجلس. فما دمتُ أنا نفس الشخص الذي حضر بالأمس، فلماذا عوملت اليوم معاملة أخرى يا ترى؟ أليس السبب أنني لبست اليوم هذه الخلعة التي لم ألبسها

بالأمس، فثبت أن المأدبة لخلعتي لا لي. لقد كان "سعدي" زاهدًا في متع الدنيا، فلم يبالِ بتلف خلعته. فأخذ صاحب البيت يعتذر إليه في ندم وقال: لقد أخطأْنا فاعذرْنا.

مع طرافة هذا الحادث، فالحقيقة أن الخلعة لم تكن تساوي شيئًا مقابل "سعدي". لقد ظن الأغبياء أن الخلعة هي سبب عظمة "سعدي"، لكن العقلاء كانوا يدركون أن الخلعة إنما نالت العزّة لأن "سعدي" لابسها، وليس العكس. وبالمثل لم تكن الكعبة في ذاتها معظَّمة، بل نالت هذا العز والشرف لأن إبراهيم عليه السلام رفع قواعدها كي يتخذها المبعوث الرباني الموعود في كل الأديان - عند ظهوره- قاعدة له، وهكذا جعل الله الكعبة مركزًا للاتحاد ومرجعًا لأمم العالم. ومن أجل ذلك يقول الله تعالى للكافرين هنا: عليكم أن تفكّروا في دعوى محمد. إنما دعواه أنه ذلك الموعود الذي من أجل ظهوره دعا إبراهيم عليه السلام ربه عند رفع قواعد الكعبة. تقولون إن محمدًا فقير ضعيف لا يملك قوة ولا ثروة، فكيف يقف في وجهنا؟ فهلا فكرتم فيما إذا كانت الكعبة أكثر قيمة أم محمد؟ إن الكعبة لم تُرفع أسسها إلا لكي يظهر محمد رسول الله، إذ قال إبراهيم في الدعاء الذي قام به عند رفع قواعدها صراحة: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾(البقرة:١٣٠). فثبت أن الكعبة لم تؤسَّس إلا ليظهر فيها ذلك النبيّ الذي سيوجِّه رسالته إلى الإنسانية كلها. وإذا كان الله تعالى قد أرى آية تدمير أبرهة وجنوده مِن أجل الكعبة التي هي علامة لظهور ذلك النبي؛ فيمكنكم أن تدركوا مِن هنا كم ستكون عظيمةً الآيةُ التي يُريها من أجل ذلك النبي الذي هو في حد ذاته مقصود الكعبة. ما دام الله تعالى قد دمّر أصحاب الفيل من أجل هذه العلامة، فيمكن أن تتصوروا مدى غيرته من أجل النبيّ الذي هو الغاية من وراء هذه العلامة، وأنتم يا أهل مكة لا تملكون ما كان أصحاب الفيل يملكونه من قوة. وكأن الله تعالى يقول لأهل مكة إنكم لا تساوون شيئا إزاء أصحاب الفيل، وما دام الله تعالى قد حمى الكعبة وإياكم من هجومهم مع كونكم

أضعف منهم قوة، فهل تظنون أنه لن يحمي محمدا من هجومكم وأنتم أحقر شأنا من أصحاب الفيل؟

والعلاقة الثالثة القريبة لهذه السورة بالتي قبلها تكمن في أن الله تعالى قد بين هنا أن حماية الكعبة كان -بلا شك- أحد أسباب دمار أصحاب الفيل، إلا أن حماية محمد كان هو السبب الحقيقي والهدف الأهم من وراء هذا الحادث. ذلك أنه يكون وراء أمرٍ ما أكثر من هدف أحيانًا؛ فمثلا عندما تقيم الدولة مأدبة على شرف وزراء دولة أخرى، فإنه يحضرها رئيس الوزراء ووزير الخارجية ووزير التعليم ووزير المالية وغيرهم، مع أنها تقام في الواقع على شرف رئيس الوزراء قبل غيره. كذلك فلا شك أن الله تعالى قد أنقذ أهل مكة حمايةً للكعبة، إلا أنه فعل ذلك تكريمًا لمحمد رسول الله ﷺ -الذي كان سيولد بعد أيام، وسيأتي تفصيل ذلك لاحقا- أكثر منه حمايةً للكعبة. باختصار، يقول الله تعالى هنا للكافرين: كيف تستغربون من انتصار محمد عليكم، مع أننا قد دمّرنا أصحاب الفيل من أجله حتى قبل ولادته؟ فهل تظنون أننا سنتخلى عنه بعد ولادته مع أننا قد أرينا هذه الآية العظيمة من أجله حتى قبل ولادته؟ فبوسعكم أن تدركوا كم سيعمل الله تعالى لإرساء شرف هذا الإنسان بعد ولادته وقد أرى الآيات من أجله حتى قبل ولادته. فحَذارِ ثم حذارِ من عداوته حتى لا تفسدوا عاقبتكم بعدائه؟

والعلاقة القريبة لهذه السورة بالتي قبلها هي أن الله تعالى قد ذكر في السورة السابقة أن العدو يتبجح بأنه يملك قوة ومالا وأن ماله سيخلّده، فردّ الله عليه في هذه السورة بذكر حادث أصحاب الفيل وقال بأنهم كانوا أكثر منك مالا وقوة.. ومع ذلك دمّرهم الله تدميرًا. لقد أخطأت في ظنك أنك لن تهلك أبدا لأنك تملك أموالا وقوة. كلا، بل إذا وقفت في وجه الله تعالى فلا بد أن يمزّقك تمزيقًا؛ إذ لا قِبل لأحد أمام سيفه، صغيرا كان أو كبيرا، بل الجميع يهلكون ويُبادون. إن هؤلاء قد شنّوا الهجوم على مكة حمايةً لكنيستهم التي دعوا المعماريين من أقاصي البلدان ليبنوها بأحجار المرمر ويرصّعوها بالذهب والأحجار الكريمة الثمينة، بحيث لا تساوي الكعبة إزاء تلك الكنيسة شيئًا في بادئ الرأي. فإذا كنتم يا أهل مكة

تتباهوْن بأموالكم فاعلموا أن أصحاب تلك الكنيسة كانوا أكثر منكم مالاً، ولكنهم لما حاربوا الله تعالى أهلكهم عن بكرة أبيهم.

والعلاقة الخامسة القريبة لهذه السورة بالتي قبلها أن الله تعالى قد قال في السورة السابقة ﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ * نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ * إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾(الهُمزة:٥-١٠). وقد بينتُ من قبل أن هذه الآيات تتحدث عن عذاب الدنيا خاصة، ولكنها تعني في الظاهر أن الكافرين يعذَّبون في الآخرة على هذا النحو، فكانوا يقولون عند سماعها وما على شاكلتها من الآيات بأنك تخدع الناس بتخويفهم من عذاب الآخرة، فمن الذي قد رأى الآخرة؟ إن ما تقوله لا يمكن التأكد منه في هذه الدنيا، فكيف نصدقك ونحن لا نؤمن بالآخرة؟ فمثَلُهم كمثل الكتّاب الأوروبيين الذين يعترضون اليوم بأن القرآن قد خوّف الناس من أنواع عذاب الآخرة لإدخالهم في الإسلام (موسوعة الأديان تحت كلمة: Ethics and Morality). وللرد عليهم، كلما تحدث القرآن عن عذاب الآخرة ونعَمِها، شفَعه بذكر عذاب الدنيا ونِعمها، وكأنه قال: تقولون كيف نصدق عذاب الآخرة ونعمها ونتائجها، إذ لم يرها أحد في الدنيا؟ فأجيب: حيث إنكم لا تستطيعون إنكار أمور الدنيا، فنذكر عذابَ الآخرة ونِعمها مقرونًا بأنباء تتعلق بهذه الدنيا وهي تبدو مستحيلة في الظروف الراهنة تماما، فإذا وقعت أمام أعينكم فاعلموا أن الله الذي جعل هذا المستحيل ممكنًا لقادرٌ على تحقيق ما يخبركم من عذاب الآخرة. ومن أجل ذلك نجد أن القرآن يذكر - عادةً- عذاب الآخرة ونِعَمها مقرونًا بعذاب الدنيا ونعمها ليشكّل حصول عذاب الدنيا ونعمها دليلاً على وقوع عذاب الآخرة ونعمها بحيث لا يجرؤ الكفار على إنكارها.

باختصار، لقد رد الله على اعتراض الكفار وقال: لا شك أن عذاب الآخرة يبدو لكم مخالفا للعقل ومستحيلا، ولكن دمار أصحاب الفيل أيضا كان يبدو مستحيلا بنفس المستوى. لقد كان هجوم أبرهة وجنوده شديدا بحيث وجد العرب أنفسهم بلا حول ولا قوة أمامهم فاستسلموا أمامهم، مدركين أن لا قِبل لهم به، ومع ذلك دمّرهم الله تعالى بأسباب لا نظير لها في العالم. عليكم أن تمعنوا النظر في

هذا الحادث وتفكروا لماذا وكيف دمر الله أبرهة وجنوده. إنما أهلكه الله وجنوده لأن إبراهيم ﷺ كان قد دعا الله تعالى فاستجاب الله دعاءه ووعده أنه سيجعل هذا البلد آمنا ويحميه من هجمات الأعداء. لا شك أن الناس في زمن إبراهيم قالوا إن ما تتنبأ به هو مجرّد دعوى، فما الدليل على أن مكة ستكون بلدا آمنا؟ إن ما تقوله يتعلق بالمستقبل ولن تكون ولا نحن على قيد الحياة عندها، فما الفائدة من هذا النبأ؟ ولكن، لما حان تحقق هذا النبأ الإبراهيمي رأى الراءون بأن الله تعالى قد حمى بيته الحرام من هجوم عدو قوي جاء بجيوشه الجرّارة، جاعلاً المستحيل ممكنا.

عندما أدلى إبراهيم ﷺ بهذا النبأ لم يكن هناك أيّ مدينة باسم مكة. لقد ترك زوجته وابنه الصغير الرضيع في ذلك المكان القفر حبًا لله وابتغاء مرضاته. لم تكن هناك عين ماء باسم زمزم، بل كان المكان واديا غير ذي زرع؛ لا ماء فيه ولا طعام. لقد ترك ابراهيم ﷺ معهما قربة ماء وكيس تمر، ثم غادرهما بأمر الله تعالى. إنه لم يخبر زوجتَه أنه يتركهما هنالك وحيدين بأمر الله تعالى، مخافة أن لا تتحمل أمومتها صدمة هذا الخبر. وعندما قفل إبراهيم ﷺ عائدا؛ أخذ يلتفت للوراء مرة بعد أخرى نتيجة الحب الطبيعي المغروس في الإنسان نحو زوجته وولده. لقد تحدث مع زوجته في البداية حديثًا لم تُدرك منه بأنه تاركهما هنالك وحيدين، بل يبدو أنه ترَكهما بحيث خُيّل لها أنه خرج بحثًا عن الحطب والماء. ولكنه لم يطق فراقهما وأخذ يلتفت إليهما بعد خطوات من غلبة محبتهما. فلما رأت "هاجر" ذلك أدركت أنها لحظة الفراق، وأنه تاركهما هنالك نهائيًا؛ فالرقة بادية في وجهه والدموع جارية في مقلتيه. فهبّتْ فزِعةً ولحقت به قائلة: هل تودّعنا؟ فلم يستطع أن يردّ عليها من غلبة الرقة وبَحَّ صوتُه، فولّى وجهه عنها، فأيقنت أنه يتركهما للأبد. ولما كانت ضَرّةُ هاجرَ قد تشاجرت معها من قبل، فظنت أنه يتركها من أجل ضَرّتها. ثم فكّرت أنه نبي الله، فلعلّ الله أمره بهذا، فقالت: آللهُ أمَرك بهذا؟ فلم يستطع إبراهيم ﷺ أن يجيبها بلسانه من غلبة الرقة وإنما حرّك رأسه بالإيجاب، فقالت: إذا كان الله تعالى قد أمرك بهذا فلن يضيّعنا، ويمكنك أن ترحل. (جامع البيان)

وكما قلت، عندما ترك إبراهيم زوجته وابنه في ذلك المكان لم يكن به بلــدة باسم مكة، ولا شيء للأكل والشرب، فترك عندهما قربة ماء وكيس تمر، وذهبَ. وقد تركهما لأن الله تعالى كان قد أمره في الرؤيا بذبح ابنه في سبيله. إنني علــى يقين كامل - وقد بينتُ مرارا وأستطيع أن أثبت من القرآن الكريم- أن رؤياه هذه لم تكن تعني الذبح الظاهري، بل المراد أنه سيؤمر في وقت من الأوقات بترك ابنــه إسماعيل في واد غير ذي زرع لا ماء فيه للشرب ولا غلال للطعام، بل هي بريــة مخوّفة، فيمكن أن يأتي ذئب في أي وقت ويفترسه. كان مكانًا لا بيت فيه للإقامة، بل لا يوجد حوله أثر للعمران لمئات الأميال. لم يكن تركُ إبراهيم ابنَه هنالك أقلَّ من القتل، بل كان أشدّ منه. ذلك أن القتيل يموت في دقيقة، أما ابنه فقد يمــوت هنالك في أيامٍ موتًا بطيئًا وهو يعاني ويلات الجوع والعطش. لذلك فأرى أن رؤيا إبراهيم هذه إنما كانت إشارة إلى أنه سيؤمر في يوم من الأيام أن يذهب بإسماعيــل ويتركه في تلك البرية، ذلك لأن الله تعالى أراد بناء بيتــه في مكــان خــال مــن المغريات، بل من الطعام والشراب والإقامة، لكي تبقى تلك البقعــة مــن الأرض محفوظة من أسباب الترف المادي الذي يتمتع به الآخرون حولها من العالم، فاختار هذا القفر لبيته ليطوّره وليجعله قرية ينشأ فيها قوم يبعث فيهم نبيَّه الأخير لهدايــة العالم. لا شك أن العرب كانوا غارقين في عبادة الأصنام وإهمال الدين وقلة الحياء، ومع ذلك كانت معادن الإنسانية ومُثُلها محفوظة فيهم بما لا مثيل لــه عنــد أمــة أخرى. وليس ذلك إلا لأن أهل مكة كانوا يعيشون في برية منعزلين عن باقي العالم ومحرومين من أسباب الرخاء والترف. لا ريب أن بعضهم كانوا ذوي ثروة، ولكن لم تكن ثروتهم إزاء ثروة باقي أهل الدنيا إلا كمائة أو مائتي ألف روبية يملكها أحد من جماعتنا اليوم، ويظن أنه أغنى أغنياء العالم، مع أنه يوجد في أوروبا أصــحاب مصانع يملك عُمّالها أكثرَ بكثير مما يملكه هذا الأحمدي. فلم تكن ثروة أهل مكــة تساوي شيئًا مقابل ثراء باقي العالم المعلوم. والحق أن كل ما حصل فإنما حــصل بحكمة الله تعالى الذي أراد أن يُسكِن في مكة قوما يعيشون منعزلين عــن العــالم الثري ورخائه محافظين على معادن الإنسانية. والحق أن من أكبر وسائل نجاح النبي

ﷺ أنه وجد هذه الأمة العربية التي ضربت في التضحية والإيثار أمثلة لا نظير لها على وجه البسيطة، ولقد ضحّوا بأنفسهم بما لم يسبق له مثيل في العالم، فتسببوا في انتشار الإسلام وازدهاره.

باختصار، لم يكن إبراهيم عليه السلام يملك قوة ولا قدرة عندما أسكنَ ذريته هناك وعندما رفع قواعد الكعبة. فمتى كان عليه السلام يستطيع أن يجمع الناس هنالك حين أخبر بأن الله تعالى سيبعث هناك من ذريته نبيًا يصبح مرجعا للخلائق، وحين دعا ربه قائلا: رب، اجعل الناس يأتوا هنا من كل أنحاء العالم ويحجّوا بيتك ويقضوا أوقاتهم في عبادتك وذِكرك ويرفعوا اسمك ويسبحوك ويحمدوك. وأَنَّى له أن يجلب الآخرين إلى ذلك المكان وقد ترك زوجته وابنه هنالك ليموتا جوعا وعطشا؟ ومع ذلك ترى كيف خلق الله أسباب عمران مكة، وكيف حقق دعاءه بشكل مذهل.

رجع إبراهيم عليه السلام ونفد الماء عند هاجر بعد أيام فأخذ ابنها يتقلب من شدة العطش. لم تستطع الأم رؤية ابنها المضطرب فصعدت الصفا والمروةَ علّها تجد وراءهما إنسانًا يدبر لهما الماء أو يدلّها على مكانه. ولكن أَنَّى لها أن تجد هنالك إنسانًا؟ فلما بلغ قلقها الذروة سمعتْ صوتا، فقالت بصوت عالٍ: يا عبدَ الله، أيًّا كنتَ، فأناشدك بالله أن تدلّني على الماء إن كنتَ تعرف مكانه، فابني يموت ظمأً. فأجابها الهاتف: يا هاجر، إنما أنا ملاكٌ، فارجعي وانظري فإن الله تعالى قد فجّر ينبوعًا عند قدمَي إسماعيل. فرجعتْ ووجدت بالفعل أن هناك نبعًا قد تفجر من الأرض. وهذا الينبوع هو الذي يسمّى زمزم، ومن أجل ذلك يتبرك الناس بمائه ويأخذونه إلى بلاد نائية، بل بعضهم يأخذون معهم أكفانهم ويبلّلونها بمائه.

ثم مرت بالقرب مِن هاجر قبيلة من بني "جُرْهم"، وكانوا يمرون بذلك المكان أثناء أسفارهم التجارية إلى اليمن، وكان بعضهم يموت عطشا لعدم الماء، فلما وجدوا الماء هنالك رغبوا في اتخاذ المكان استراحة لهم خلال سفرهم، فقال رئيسهم لهاجر: أتسمحين لنا بالإقامة هنا، ولسوف نعيش رعايا لكِ؟ فقبلتْ هاجر التماسه، وصار هذا المكان استراحة لهم. وأتى آخرون من "جُرْهُم" وأصبح المكان قرية بمرور الأيام. ثم تزوج إسماعيل عليه السلام بنتًا من هذه القبيلة. ما كان لإسماعيل أن يجد

زوجة في ذلك القفر الذي لم يكن حوله آثار عمران لمئات الأميـــال. إن الله هـــو الذي جعل "جرهم" يعمرون هنالك قرية، وهكذا وجد إسماعيل زوجة وبدأ نسله. (جامع البيان)

مَن كان يستطيع القول عندما عمَّر إبراهيم ﷺ بيت الله هنالك أن هذا المكان سيصبح مدينة في يوم من الأيام؟ ومن ذا الذي كان يستطيع أن يقول عنـــدها إن الناس سيأتون هنالك ويقضون أوقاهم في عبادة الله؟ ومن كان يستطيع أن يقـــول عندها أن هذه المدينة ستكون آمنةً دائما؟ وأن الله تعالى سوف يجعلها سبب أمـــنٍ للناس؟ كل هذه الأمور كانت ضربًا من المحال نظرًا إلى الظروف السائدة آنذاك. ما كان لأحد أن يقول إن مكة ستصبح مدينة، وما كان لأحد أن يقول إها ســـتبقى محميّة، ولكن عند هجوم أصحاب الفيل حقّق الله تعالى ما أنبأ به إبراهيم ﷺ بأن الله تعالى سيجعل مكة بلدًا آمنًا، وأها ستظل محفوظة من هجمات الأعداء.

السؤال الذي يفرض نفسه هنا: من ذا الذي منع أصحاب الفيل من الهجوم على مكة حتى ذلك الوقت؟ أي قوة ظلت حاميةً مكةَ تلك الفترة الطويلة؟ فهناك بـــيْن إبراهيم ﷺ وحادث أصحاب الفيل فاصل زمني يبلغ ٢٨٠٠ ســـنة، أو ٢٢٠٠ سنة بحسب بعض الروايات، وخلال هذه الفترة الطويلة لم يشنّ أحد هجومًا على مكة، ولم يرِد أحد هدم الكعبة. لم يرغب في ذلك يهودي ولا نصراني ولا أية دولة من دول العالم. لقد حكمت عادٌ ثم ثمود في هذه الفترة الطويلة (أرض القـــرآن)، وكانت لهما دول عظيمة قوية، ولكن لم تفكّر أي منهما في الهجوم على الكعبـــة، ولكن لما قربت ولادة محمد رسول الله ﷺ في شهر ربيع الأول -ســـنة ٥٧٠ م - ولم يبق على ولادته إلا شهرانِ شنَّ أبرهة الهجوم في شهر محرم، فأرى الله تعـــالى هذه الآية العظيمة بتدمير أبرهة وجنوده. فعدمُ تفكير أحد في الهجوم على الكعبـــة هذا الزمن كله، ثم هجوم أبرهة عليها قبيل ولادة النبي محمد ﷺ كان دليلا على أن هذا الهجوم كان آخر هجمة من الشيطان للقضاء على ذلك المكان الذي كان من المقدر أن يظهر فيه ذلك الإنسان الذي كان ثمرة الدعاء الإبراهيمي تحقيقًا للنبـــوءة الإبراهيمية أمام العالم. لا جرم أن تحقُّق نبوءته في تلك الظروف غير المواتيـــة، ولا

سيما قبيل ولادة النبي ﷺ، يدل على أن الله تعالى هو الذي كان وراء كل ما حدث.

لقد دعا إبراهيم عليه السلام صراحة قائلاً: رب، ابعثْ في ذريتي رسولاً يهدي العالم، كما سأل اللهَ تعالى أن يحمي الكعبة المشرفة. وبالفعل يتحقق الدعاءانِ في وقت واحد بكمال حكمة الله تعالى؛ إذ يهبّ هذا العدو لتدمير الكعبة في الشهر المحرم، وبعد شهرين يولد ذلك الإنسان الذي هو مصداق دعاء إبراهيم عليه السلام، بينما نرى أنه لم يهاجم الكعبةَ أحد خلال ٢٢٠٠ سنة، كما لم يقل أحد أنه مصداق دعاء إبراهيم عليه السلام. أمصادفةٌ هذا كله يا ترى؟ يمكن أن يقول العدو إن دعوى محمد (ﷺ) صدفة، ولكن هل يسعه أن يعتبر هجوم أبرهة على الكعبة صدفة أيضا؟ لا شك أن الشخص النـزيه من التعصب لن يعتبر دعوى محمد ﷺ صدفة، كما لن يعتبر هجوم أبرهة صدفة، بل يعترف حتمًا أن كل ما حصل إنما حصل بمشيئة الله تعالى ووفق قراره الأزلي. كان تحقُّق هذه النبوءة مستحيلا - نظرًا إلى الظروف السائدة غير المواتية أصلا- وما كان لأحد أن يقول بناء على العقل إن هذه النبوءة تتحقق، ولكن الله تعالى حققها وجعل المستحيل ممكنا. فإذا كان وقوع مثل هذه المستحيلات ممكنا في الدنيا، فكيف لا تتحقق الأنباء الإلهية التي تتعلق بالآخرة؟ وإذا كان تحقق هذه الأنباء المتعلقة بهذه الدنيا ممكنًا، فكيف لا يمكن تحقّق الأنباء المتعلقة بالآخرة؟

باختصار، لقد ربط الله تعالى هذه السورة بقوله: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ الوارد في السورة السابقة تفنيدًا لادّعاء الكفار، إذ قالوا كيف نصدّق الأنباء التي تتعلق بالآخرة، فقال الله تعالى: متى كان تحقُّق دعاء إبراهيم ممكنا؟ ومتى كانت نجاة إسماعيل من الموت ممكنة؟ ثم متى كان عمران الكعبة وتوجُّهُ العرب كلهم إليها ممكنا؟ ومتى كان ممكنًا أن لا يرغب العدو في الهجوم على الكعبة بجنوده وهدمها إلا بعد انقضاء ٢٨٠٠؟ ومتى كان تدمير هذا العدو ممكنا؟ ومتى كان ممكنا أن يولد بعد هلاك ذلك العدو بشهرين ذلك الشخص الذي كانت الكعبة قد عُمرت من أجل بعثته؟ فما دامت هذه المستحيلات قد صارت ممكنات، فكيف تعترضون

على الأنباء المتعلقة بالآخرة؟ إن الله الذي حقق هذه الأمور في الدنيا هو الذي سوف يحقق الأنباء المتعلقة بالآخرة أيضا.

باختصار، إن من أساليب القرآن الكريم أن يذكر أنباء الدنيا مقرونة بأنباء الآخرة، مثلما يذكر أخبار الجزاء والعقاب وأنباء التبشير والإنذار معًا، وذلك تقريبًا لها إلى الأذهان. فمثلاً إن من المستحيل أن يستوعب عقل الإنسان حقيقة الجنة والنار في الآخرة ما لم ير بأُمّ عينه تحقُّق الأنباء الإنذارية والتبشيرية المتعلقة بهذه الدنيا، وعندما يرى الأنباء المتعلقة بهذه الدنيا تتحقق؛ يوقن بالأنباء المتعلقة بالآخرة ويقول: ما دامت هذه الأمور التي كانت تبدو مستحيلة قد تحققت هنا، فلا بد أن تتحقق الأنباء المتعلقة بالآخرة أيضًا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

التفسير: آية البسملة مشتركة بين جميع السور التي تستهلّ بها. وحسب بحثي فإن البسملة مفتاح لمضامين كل سورة؛ حيث بيّن الله تعالى فيها أمورا تنفتح بها مضامين السورة تلقائيا.

إن أكبر ما بيّنه الله تعالى في البسملة هو أن كل سورة قرآنية تحتوي على أمر غير عادي حتما؛ فإما هو أمر غير عادي من حيث العقيدة، بمعنى أن الناس يحملون عقائد بينما يقدّم القرآن الكريم عقيدة معارضة لما عندهم، مما يدفعهم إلى اعتبارها باطلة، أو هو غير عادي من حيث الأحداث المستقبلية، أي أنه يحتوي على نبوءة محيّرة، أو هو غير عادي من حيث الأخبار السابقة، أي أن التاريخ يقول شيئا، لكن القرآن لا يصدقه ويبين حقيقة الواقع، أو أن القرآن يذكر أمرًا غير عادي من حيث مخالفته للنواميس الطبيعية حسب تصوّر الناس، فيقولون إن القرآن قد أخطأ وخالف العلومَ. باختصار، لا بد أن يكون هناك أمر غير عادي في كل سورة، ولذلك قد بدأ الله تعالى كل سورة بقوله ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾.. أي أبدأُ باسم الله

الذي يهيئ الأسباب من دون جهد وسعي واستحقاق من العبد، والذي يجزيه على جهوده أفضل جزاء إذا ما اجتهد مستعينا بالأسباب التي خلقها. فكما أن الناس في الدنيا يقدِّمون أحيانًا بعضَ الكبار شاهدًا على ما يقال، كذلك قدّم الله نفسه شاهدًا على ما يقول قبل كل سورة. وعلى سبيل المثال، لم يرَ أحد منا الهلال أول أمس، ولكن لو قال أحد الأحمديين لغيره سيبدأ شهر الصيام غدًا، لردَّ عليه وقال: كيف يمكن ذلك إذ لم يرَ أحد من أهل البلد كله الهلال؟ فلو قال في الجواب: لقد سمعتُ ذلك من خليفة المسيح، فلا بد أن يصمت الآخر لإدراكه أن الإنسان الذي ذُكر اسمه أمامه عظيم بحيث لا يمكن أن يكذب، ولا بد أنه قد بلغه خبر رؤية الهلال من مكان ما. ولما كان القرآن الكريم يذكر معارف غير عادية، فقد جعل الله تعالى البسملةَ قبل كل سورةٍ تبيانًا للناس بأنكم ستستغربون من الأمور المذكورة في هذه السورة قائلين: كيف نصدق أن هذه الأمور غير العادية ستتحقق حتما؟ فها نحن نخبركم أن هذه الأخبار ليست من إنسان، بل أنا مالكُ السماوات والأرض الذي قد أنبأ بها، فلا بد أن تؤمنوا بصدقها. هذه هي الحكمة من ورود البسملة في مستهل كل سورة، حيث بيّن الله تعالى أنكم إذا وجدتم فيها شيئا غير عادي أو مستحيلا في الظاهر، أو نبأً مستقبليا يبدو ظهوره مستبعَدًا؛ فلا تكذّبوه، لأنه من عند الله تعالى.

ما أعظمَ هذه الدعوى التي قدّمها القرآن الكريم أمام العالم! إن كل كتاب من الكتب السماوية الأخرى يدّعي أنه من عند الله تعالى، ولكنه لا يعتبر كل فقرة فيه من عند الله تعالى. فالنصارى أنفسهم كتبوا أن كذا وكذا من الأمور في الإنجيل باطلة (موسوعة الكتاب المقدس تحت كلمة: text and versions، وأبوكريفا ١٤/١١)، ومع ذلك يقولون إن الإنجيل من عند الله تعالى، وإذا قيل لهم: كيف تقولون من جهة إن في الإنجيل أمورا باطلة، ومن جهة أخرى تدّعون أنه كتاب الله؟ قالوا: إن الإنجيل كتاب الله في مجمله، وليس أن كل فقرة فيه قد نزلت من عند الله تعالى. ولكن انظرْ إلى فضل القرآن الكريم على الإنجيل، فقد جعل الله تعالى البسملة قبل كل سورةٍ إيذانًا بأن كل فقرة فيه من الله تعالى، ذلك كيلا يقول أحد

–كأهل التوراة والإنجيل– بأن الفقرة الفلانية ليست من الله تعالى، بل أضيفت من قبل البشر، والعياذ بالله. بتعبير آخر إن البسملة ختمٌ طبع به الله كل فقرة من القرآن الكريم معلنًا أنها من عنده تعالى، وأنه لو بطلت فقرة من القرآن فلا يمكن أن يكون هذا الكتاب من عند الله تعالى. إن المؤمنين بالكتاب المقدس يقولون إن ما يتحقق منه هو من عند الله تعالى، وأن ما لا يتحقق منه هو من قِبل البشر، أما القرآن الكريم فيعلن أنه إذا لم تتحقق فقرة من هذا الكتاب، فاعلموا أن كل الكتاب ليس من عند الله تعالى. باختصار، إن البسملة قد جعلت الله تعالى مسؤولاً عن كل فقرة في القرآن الكريم، حيث يعلن عن مسؤوليته هذه مرة بعد أخرى بتكرار البسملة. لا شك أن التوراة كتاب الله تعالى، ومع ذلك يقال عنه إن فيها أجزاء قد أُضيفت إليها من قبل البشر. كذلك يقال عن الإنجيل إنه كتاب الله تعالى، ومع ذلك يعترف النصارى أن فيه فقرات ليست من عنده تعالى. وهذه المشكلة كان يمكن أن يعاني منها القرآن أيضا لو وردت البسملة فيه مرة واحدة؛ إذ كان هناك احتمال أن يقول بعض المسلمين ذوي الإيمان الفاسد بأن السورة القرآنية الفلانية ليست من عند الله تعالى، وإنما أضيفت من قبل البشر؛ ودفعًا لهذا العيب قد أنزل الله تعالى البسملة قبل كل فقرة، معلنًا أن القرآن الكريم كله من عند الله تعالى. لو ثبت بطلان آية من التوراة، فلا يقول اليهودي إن التوراة كلها باطلة، ولو ثبت بطلان آية من الإنجيل فلن يقول النصراني أن الإنجيل كله باطل، لكن القرآن الكريم يعلن أمام العالم أن كل فقرة فيه من عند الله تعالى، إن أصغر سورة فيه من الله تعالى مثل أكبر سورة منه، ولو ثبت بطلان أي فقرة منه، فاعلموا أن القرآن كله باطل و لم ينزل من عند الله تعالى.

ما أعظمَ هذه الدعوى التي قدّمها القرآن الكريم أمام العالم! إذ ليس بوسع أي كتاب سماوي أن يباريه في هذا المجال. إن الناس يدفعون عنهم المسؤوليات، ولكن القرآن قد زاد مسؤولياته بتكرار نزول البسملة فيه. لو نزلت البسملة مرة واحدة لفُهم أن هناك فقرات في القرآن الكريم ليست من عند الله تعالى، لكن الله تعالى قد بين بإنزال البسملة قبل كل سورة أنه ليس في القرآن فقرة لا نتحمل مسؤولية

صدقها، فبطلان فقرة منه هو بمنـزلة بطلانه كله. ولكن من المحال تقديم أي فقرة قرآنية على أنها باطلة ويستحيل كشف صدقها على الناس.

باختصار، إن البسملة مفتاح لمعارف القرآن المشتركة ودليلٌ بيّن على أن كل فقرة منه قد نزلت من عند الله تعالى.

الواقع أن الله تعالى قد بيّن في قوله ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾ ملخص العقيدة الإسلامية التي تقول إن كل ما في الكون هو لله تعالى، وأن كل ما يحدث فيه إنما هو فعل الله تعالى، وليس هناك شيء هو خارج عن تصرفه، وليس هناك أمر هو ﷻ بحاجة إلى أحد بشأنه، وكل ما سواه محتاج إليه، ولا يستطيع أحد فعل شيء بدون عونه ﷻ. وهذا ما يسمى في العربية بالتوكل.. أعني أن الإنسان إذا عمل بحسب هذه العقيدة سُمّي عمله توكلا في المصطلح الإسلامي، فقوله تعالى ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾ تفسير للتوكل على الله تعالى؛ إذ معناه أننا نبدأ هذا العمل مستعينين بالله تعالى الذي هيأ لنا الأسباب كلها دونما جهد وسعي أو تدبير منا، والذي يجزي على الأخذ بالأسباب أحسن جزاء مرة بعد أخرى. هذا تفسير وجيز للبسملة. والحق أننا لو فسرناها لملأت مجلدات. بتعبير آخر تخبر هذه الآية الموجزة أن الحال بيد الله تعالى، لأن الإنسان إذا قال ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾.. أي أستعين بالله تعالى.. فإنه يعني أن الزمن الذي أنا فيه والذي أريد فيه هذا العمل؛ هو تحت تصرُّف الله تعالى، فما لم يكن الحال تحت تصرف الله تعالى، فكيف يمكن أن يستعين به؟ إنما يستعين المرء بمن يكون الحال في قبضته وتصرفه. فاستعانته بالله تعالى في عمله إنما هو بمثابة إقرار منه أن الله تعالى هو المتصرف القادر في هذا الزمن الذي أنا فيه.

ثم إن لفظ ﴿الرَّحْمنِ﴾ يعني أنني أستعين بمن هو رحمن، الذي يسدّ الحاجات كلها دونما جهد وسعي وخدمة من العبد (مفردات الإمام الراغب). فالرحمانية تشمل جميع ما يناله الناس من دون جهد وسعي، فهي تشمل خلق السماوات والأرض والماء والهواء، وجسم الإنسان وكل ما عنده من أعضاء وقوى من أنف وأُذن وعين وغيرها. ثم إن الرحمانية تشمل خلق الحيوانات والجمادات والقمر

والنجوم وغيرها. فكل شيء يوجد في الدنيا من دون أي جهد منا فهو نتيجة الرحمانية، وكل شيء بذلنا جهدًا في وجوده فهو نتيجة الرحيمية. علمًا أن الأشياء في الدنيا نوعان: أحدهما ليس في خلقه دخلٌ لعمل الإنسان، والآخر للإنسان دخل في وجوده. والأشياء التي ليس للإنسان دخل في وجودها تندرج تحت الرحمانية.

أما السؤال: لماذا استخدم الله تعالى كلمة ﴿الرَّحْمن﴾ لبيان هذا المفهوم؟ ولماذا لم يقل مثلاً إن هناك أشياء هي من خلق الله تعالى، وأشياء وُجدت نتيجة جهود العباد وسعيهم؟ فالجواب: هذا التعبير ناقص؛ إذ يُفهَم منه أن بعض هذه الأشياء هي من خلق الله وحده، ولكن لا يفهم منه ما إذا خلقها الله تعالى لفائدة أحد، أم أن بعضها لا فائدة فيها، أما كلمة ﴿الرَّحْمن﴾ فأوضحتْ أن كل ما خلقه الله إنما خلقه من أجل منفعة الإنسان؛ ذلك أن "الرَحْم" لا يُستعمل إلا للإشارة إلى نفع الغير عن قصد، فمثلاً لا يقال عن الشمس المضيئة إنها ترحم العباد، ذلك أن الرحم يتضمن شرطين، أولهما: أن يكون العمل لمنفعة الآخر، وثانيهما: أن ينوي فاعله منفعة الآخر. فمثلاً لو مرّ شخص بالطريق فسقط جنيهٌ من جيبه صدفةً، ومرّ بعده شخص آخر وأخذ الجنيه وانتفع به، فلن يقال أن الشخص الأول رحيم؛ ذلك لأن الثاني قد انتفع بجنيهٍ لم يعطه الأول قصدًا وإنما سقط منه صدفةً. فثبت أن الرحمة لا تتضمن مفهوم نفع الآخرين فقط، بل يشترط لها أيضا نيّة نفعهم. فباستعمال كلمة ﴿الرَّحْمن﴾ قد أشار الله تعالى إلى هذه الأمور الإضافية التي ما كانت لتُفهم من دونها.. أعني أن الله تعالى لم يبين بكلمة ﴿الرَّحْمن﴾ أنه خالق كل هذه الأشياء التي لا دخل للإنسان في خلقها فحسب، بل بين أيضا أنه لم يخلقها إلا لمنفعة الإنسان مع قصد وإرادة أن ينتفع منها الإنسان.

﴿الرَّحِيم﴾ على وزن فَعيل، وهو يدل على تواتر الفعل وطول زمنه، بينما ﴿الرَّحْمن﴾ على وزن فَعْلان، وهو يشير إلى سعة الفعل. فمعنى صفة ﴿الرَّحِيم﴾ أن الإنسان إذا انتفع بالأسباب التي خلقها الله برحمانيته، رتّب الله على عمله النتائج مرة بعد أخرى (لسان العرب)، فإذا تناول الطعام مثلاً فلن يشبع فقط، بل سينتج منه الدم الذي ينفع جسمه شهورا وسنوات، ثم بهذا الدم يتقوى دماغه وبصره

وعقله وأذنه شهورًا وسنوات، ثم بالدم نفسه تتولد فيه النطفة التي تعمل على استمرار التناسل. إذًا فكل فعل للإنسان تترتب عليه النتائج على التوالي والتواتر، وهذه هي الرحيمية. لو أدّى فعل الإنسان إلى نتيجة فورية واحدة لسمّيناه جزاءً، ولكان كالأجير الذي تؤدى له أجرته مرةً، ولكن هذا ليس من الرحيمية في شيء، إنما مثل الرحيمية كمثل معاش التقاعد، فإن المرء إذا توظف نال على عمله أجرا بصورة دخل شهري، كما يُكتَب في السجلات أيضًا أن يعطى الموظف على عمله أجرًا آخر متواترًا في المستقبل، ولذلك فإنه إذا تقاعد من الوظيفة -مثلاً- بعد عشر أو خمس عشرة سنة استحق عُشر دخله معاشا للتقاعد، وإذا تقاعد بعد عشرين سنة استحق ثلث دخله معاشا للتقاعد، وإذا تقاعد بعد خمس وعشرين سنة وقدّم شهادة طبية لإعفائه من العمل استحقّ نصف دخله معاشا للتقاعد، وإذا عمل ثلاثين سنة استحق نصف دخله معاشًا للتقاعد، وإذا استمر في وظيفته ثلاثين سنة ومن دون تقديم شهادة طبية استحق راتبا كاملا معاشًا للتقاعد. هذا ما يماثل الرحيمية.. أي أن المرء لا يُجزى على عمله فورًا فحسب، بل يوضع أساس نتائج طيبة لعمله تظهر في المستقبل أيضا.

هنا ينشأ السؤال: فما الفرق إذًا بين رحيمية الله ورحيمية الإنسان؟

الجواب: أن الإنسان يجزي غيره هذا الجزاء الإضافي لعلمه أن هذا سوف يموت بعد بضع سنوات، ولو أنه علم أن هذا لن يموت أبدًا لما أعطاه معاش التقاعد. أما الله تعالى فإنه يجزي الإنسان الجزاء الإضافي مع علمه أنه يظل خالدًا، بل إنه تعالى نفسه يعلن أنه لن يُفنيه نهائيًا، بل يكتب له حياة خالدة، فليس الأمر بأن الله تعالى يجزي الإنسان جزاءً إضافيًا لأنه مات صدفة، بل إنه يجزيه هذا الجزاء مع أنه نفسه يهيئ الأسباب لاستمرار حياته وخلوده الأبدي. فشتان بين رحيمية الله تعالى ورحيمية الإنسان.

واعلم أن ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ تشير إلى الحال، و﴿الرَّحْمنِ﴾ إلى الماضي، و﴿الرَّحِيمِ﴾ إلى المستقبل. وهذه الكلمات الثلاث تشير إلى أن أعمال الإنسان كلها منوطة بقدر الله تعالى. فقول الله تعالى ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ يشير إلى شيء من تدبير الإنسان.. أي أنه

يقول: سأقوم بهذا العمل بمعونة الله تعالى، وهذا إشارةٌ إلى نيته للعمل، لأنـه إذا لم ينو فعل شيء فكيف يقول: أبدأ هذا العمل بمعونة الله ﷻ؟ فثبت أن هناك شيئًا من تدبير الإنسان في العمل على كل حال. وبعدها يبدأ نطاق عمل الرحمانية التي تتعلق بالله خالصةً. أما الرحيمية ففيها إشارة إلى أن العبد يقوم بعمل ضئيل فيرتـب الله عليه النتائج التي لا نهاية لها. وهذا يعني أن أعمال الدنيا تجري بالتدبير والقدر معًا، إذ تكشف لنا البسملة أن القدر والتدبير متشابكان بحيث لا يمكن فصلهما. ثم بعد ذلك تصبح أعمال الإنسان عظيمة أو ضئيلة بحسب درجة إيمانه، فأمـا صـاحب الإيمان الكامل فيكون القدر الإلهي أكثر تأثيرًا في أعماله من تـدبيره، فكمـا أن الرحمانية خالصة لله تعالى، كذلك فإن تأثير القدر في أعمال العبد المقرب وحياتـه يكون أكثر من تأثير تدبيره. لا شك أنه يتخذ التدبير، لكن نتائج أعمالـه تكـون أكثر من تدبيره بكثير، ومثاله قول الله تعالى لرسوله الكريم ﷺ: ﴿وَمَا رَمَيْـتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾(الأَنْفال: ١٨). فإن النبي ﷺ رمى العدو بحفنة من الحصى (السيرة النبوية لابن هشام)، ولكن انظرْ إلى النتيجة، فلو أن عشرة آلاف شـخص رموا بحفنات من الحصى لما كانت نتيجته كنتيجة الحصى التي رماها الرسول ﷺ؛ إذ إنها أفشلت جيشًا قوامه ألف مقاتل محنك. لا شك أنه ﷺ ألقى الحصى، ولكنه لما ألقاها قال الله تعالى: لقد انتهى الآن عمل عبدي، وبدأ عملي؛ فأجرى الريـاح لتوصل الحصى إلى الأعداء. لقد أمرها أن تهبّ بشدة وتُلقي الحصى في عيونهم. إن حفنة من الحصى يمكن أن تقع في عيون بضعة أشخاص، ولكن الله تعـالى جـاء بعاصفة حملت الرمال والحصى وألقتها في عيونهم، مما يعني أن محمدا ﷺ ألقى حفنة من الحصى وأن الله تعالى ألقى ملايين الحصى. لا شك أنه إذا رمى الإنسان شـيئًا بيده تحرّكَ الهواء، ولا شك أن النبي ﷺ حين رمى هذه الحفنة قد تحـرّك الهـواء، ولكن هبوبه لا يساوي نفخ أحد بفمه، بينما نرى أنه ما إن حرّك النبي ﷺ يده إلا وأمرَ الله الرياح أن تهب بشدة وتعمي الأعداء، وهكذا خيّبهم في نواياهم تمامًا.

باختصار، كان التدبير الإنساني أقل تأثيرًا من القدر في هذه الآية التي أظهرها الله على يد رسوله ﷺ، وهذا هو الحال بالنسبة إلى أعماله ﷺ الأخرى، بل لأعمـال

الأنبياء الآخرين أيضا؛ فنصيب التدبير فيها أقل من نصيب القدر. أما أحباء الله الذين هم أقل درجة من الأنبياء فنلاحظ أن نصيب التدبير في أعمالهم أقل من نصيب القدر أيضًا. أما ضعاف الإيمان كالماديين والدهريين فالتدبير غالب في أعمالهم - لقد سميتهم ضعاف الإيمان لأن الدهريين أيضًا يكون عندهم شيء من الإيمان بالله، أو يؤمنون على الأقل بقوانين الطبيعة التي خلقها الله تعالى، فلا يمكن اعتبارهم عديمي الإيمان كليّة، بل نقول عندهم نصف الإيمان، بل في بعض الأحيان يكونون أكثر إيمانا بأفعال الله تعالى من المؤمنين أنفسهم، اللهم إلا المجانين الذين لا يراعون قوانين الطبيعة التي خلقها الله ولا يراعون أحكامه التي أنزلها في كلامه- فتأثير التدبير في أعمال ضعاف الإيمان والماديين والدهريين أكثر من القدر.

مع العلم أن القدر الإلهي يؤثر في أعمالهم حتمًا، فمثلا: عندما يأكل الدهري فلا بد أن تقوم معدته بهضم الطعام، والواضح أن هذا فعل القدر. فكل ما فعله هو أنه أراد تناول الطعام ووضع اللقمة في فمه، وقام القدر الإلهي بالباقي. كان الخليفة الأول للمسيح الموعود عليه السلام يقول مرارًا: إن أشد الناس إلحادًا أيضا لا يمكن أن يخرج عن قانون القدر الإلهي، فلو وضعتَ الحلوى على لسانه الذي لا يبرح يسبّ به الله تعالى، فلا بد أن يجد حلاوتها (حقائق الفرقان ج١ ص ٢٧٦-٢٧٧). فالقدر يعمل عمله في أعمال كل إنسان، ولكن جانب التدبير في أعمال ضعاف الإيمان هؤلاء يكون أقوى من جانب القدر. أما أهل الله المقربين فمعاملتهم على عكس ذلك، وأما المؤمنون الذين هم بين هذين الصنفين، سواء كانوا ممن يؤمن بكلام الله تعالى حقًا، أو لا يؤمن به -مثل المسيحي الذي يسمي نفسه مؤمنًا لإيمانه بالديانة المسيحية مع كفره بالإسلام، أو اليهودي الذي يسمي نفسه مؤمنا لاتّباعه الديانة اليهودية، أو الهندوسي الذي يسمي نفسه مؤمنا لاعتناقه الديانة الهندوسية- فأعمالهم مزيج من التدبير والتقدير، إذ إنهم يدعون الله تعالى أيضا وإن لم يكونوا من أتباع الدين الحق -فالنصارى واليهود والهندوس كلهم يدعون الله تعالى- ويتخذون التدابير أيضا.

باختصار، إن المؤمن الكامل الذي يصطبغ بصبغة الله تعالى يغلب على أعماله القدر، أما البعيد عن الله تعالى فيغلب على أعماله التدبير، أما الذي هو بينهما فأعماله مزيج من القدر والتدبير. هذا هو المعنى الذي بيّنه قوله تعالى ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾.

وحيث إنّ البسملة قد وردت في مستهلّ كل سورة، فإذا بدأ المرء قراءتها بقوله تعالى ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾ فكأنه أقرّ: سأسعى للانتفاع بالموضوع المذكور فيها بقدر إيماني وعرفاني، فلو كان من أصحاب الإيمان العالي أصبحت السورة بالنسبة له وكأنها قد أُنزلت له كما أُنزلت لمحمد ﷺ، أما إذا كان ممن يكنّون العداء للقرآن فلا ينتفع منها شيئا، بل تصبح كلها بلا نفع له، ويضيع قدر الله تعالى في حقّه، أما إذا كان متوسط الدرجة في الإيمان فإنه ينتفع من معارفها ومفاهيمها إلى حد معيّن، ولكن لا ينتفع كل الانتفاع.

أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ﴿٢﴾

التفسير: قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: أصلُه: أَلَمْ تَرَى، وسقطت الألف المقصورة بسبب "لَمْ" الجازمة.

والرؤية هنا ليست رؤية عين وبصر، بل رؤية قلب وبصيرة (لسان العرب)، ذلك أن الحادث الذي قد أُشير إليه هنا كان قد وقع قبل ولادة النبي ﷺ، فما كان بوسعه أن يراه.

هناك اختلاف بين المؤرخين عن زمن الحادث المشار إليه هنا، فقد وقع قبْل ولادة النبي ﷺ بسبعين عاما، أو خمسين، أو أربعين، أو ثلاثين، أو ثلاثة وعشرين، أو خمسة عشر، أو عشرة أعوام حسب مختلف الروايات (روح المعاني، ومجمع البيان). أما الرواية الصحيحة التي تدعمها قرائن تاريخية فهي أنه وقع في سنة ميلاد

النبي ﷺ (مجمع البيان). هذا هو التوقيت الذي تدعمه الشهادات التاريخية، وقرائنها موجودة في تواريخ العرب وتواريخ البلدان الأخرى.

لقد وقع حادث أصحاب الفيل في الشهر المحرم وهو الأول من السنة القمرية، بينما ولد النبي ﷺ في ربيع الأول من نفس العام (المواهب اللدنية للزرقاني).

ثم اختلف هؤلاء في يوم وقوع حادث أصحاب الفيل من شهر محرم، فمنهم من قال إنه قد وقع في الأيام الأولى منه، ومنهم من قال بوقوعه في الأيام الأخيرة منه (روح البيان).

كذلك اختلفوا في ولادة النبي ﷺ في شهر ربيع الأول، فبعضهم قالوا إنه ولد في اليوم الأول منه، وآخرون ذكروا أياما أخرى.

وبسبب هذا الاختلاف فقد اختلفوا على زمن أسبقية حادث الفيل لولادة النبي ﷺ؛ فمنهم من قال إنه قد سبق ولادته ﷺ بخمسة وخمسين يوما، وهذا قول الحافظ الدمياطي، أما السهيلي المؤرخ الكبير فيرى أنه سبق ولادته بخمسين يوما، وقال غيره إنه سبق ولادته ﷺ بأربعين أو ثلاثين يوما (روح المعاني). لكن عامة المؤرخين الإسلاميين والمحدثين يميلون إلى قول السهيلي.

ولما كان هذا الحادث قد سبق ولادة النبي ﷺ، سواء بثلاثين يوما أو ثلاثين سنة، فلا يمكن أن يكون ﷺ قد رآه بعينيه، فثبت أن الرؤية هنا رؤية قلب لا رؤية عين، وقوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يعني: ألم تعلم.

ومثل هذا الاستفهام يفيد معنيين عادةً: أوّلُهما معرفةُ ما إذا كان المخاطَب على علم بالحادث أم لا، وثانيهما التأكيدُ على أنه على علم به. فالتعبير الظاهر هنا نفيٌ، ولكنه إيجاب، بل تأكيد على الإيجاب. وهذا الأسلوب شائع بلُغتنا الأردية أيضًا حيث نقول: ألم تعلم أنني أستطيع فعل ذلك؟ والمعنى أنك تعلم جيدا أنني قادر على فعل ذلك. فهذا التعبير يفيد اليقين والتأكيد بدلاً من الشك. ولو كان قائله أحدًا من البشر فيمكن أن تنشأ شبهة فيما إذا كان في شك أم يقين، أما إذا كان القائل هو الله تعالى فمن المحال أن نتصور أنه تعالى يقول: إني لا أعلم ما إذا كنتَ تعلم

هذا الأمر أم لا، فأخبِرْني أتعلَمه أم لا. إذن، فهذا التعبير لا يفيد الشك إذا ما استعمله الله تعالى، إذ يخبرنا القرآن الكريم أنه لا تخفى عليه خافية.

فثبت من هنا أن هذه الجملة تفيد هنا اليقين والقطعية. فمع أن قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يعني حرفيًا "ألم تعلَمْ"، إلا أن المراد الحقيقي هو أنك تعلم جيدًا وتفهم جيدا، وأن الأمر ليس بخاف عليك.

وهناك سؤال آخر عن قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، وذلك أن القرآن يوجه خطابه للعالم كله عادةً، فهل قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ موجه إلى العالم كله أم إلى محمد ﷺ أم إلى أعداء الاسلام؟

والجواب: لا شك أن رسالة القرآن موجهة إلى العالم كله مع كون بعض الآيات تخاطب الرسول ﷺ مباشرة، غير أن الواضح من كلمات هذه السورة أنها تخاطب الرسول ﷺ مباشرة، وتخاطب العالم بواسطته، والدليل على ذلك هو قول الله تعالى بعد ذلك: ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّك﴾، فاللهُ ربُّ الجميع، ولكن ما دام الله تعالى يشير هنا إلى حادث ذي صلة بالعرب عامة وبحياة الرسول ﷺ خاصة، فتبينَ مِن لفظ (ربك) بجلاء أن الخطاب هنا موجه إلى النبي ﷺ خاصة. فضمير الخطاب الموجود في قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ وقوله تعالى ﴿رَبُّك﴾ يؤكدان أن هذا الحادث وثيق الصلة بالرسول ﷺ، وأن مضمون هذه السورة يتعلق بمحمد ﷺ بوجه خاص. فإذا لم تكن هذه السورة وثيقة الصلة بمحمد ﷺ فما الداعي أن يقول الله هنا ﴿ربُّك﴾؟ فنحن إذا تحدثنا فيما بيننا عن مصير الملك نادر شاه الأفغاني مثلاً فلن نقول ألم تر كيف فعل ربك بنادر شاه، بل نقول: ألم تر كيف فعل الرب بنادر شاه؟ لأن ضمير الخطاب يشير إلى علاقة خاصة بينك وبين نادر شاه، كذلك فقول الله تعالى لرسوله ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ لا يعني إلا أن ما فعلنا بأصحاب الفيل إنما فعلناه من أجلك. ولولا هذا المفهوم فما خصوصية محمد ﷺ في معرفة حادث أصحاب الفيل؟ إذ كان جميع أولاد العرب على علم بالحادث، بل كان بعض مَن شهدوا ذلك الحادث لا يزالون على قيد الحياة عند نزول الآية، فلا يصحّ -والحال هذه- أن يقول الله لرسوله ﷺ ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾؟ فما دام

الآلاف على علم بالحادث -بل كان العديد من شهود العيان عليه على قيد الحياة آنذاك- فأي خصوصية للرسول ﷺ في معرفته بالحادث؟ إنما تثبت خصوصيته ﷺ إذا كان للحادث علاقة خاصة به ﷺ.

واللافت هنا أن الله تعالى لم يقل هنا: "ألم تر ما فعَل ربك"، بل قال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾، وهناك بون شاسع بين التعبيرين. لو أراد الله تعالى ذِكر ما فعل بهم لما قال ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾، مما يعني أن التأكيد هنا ليس على ما فعل بهم، وإنما على كيفية ما فعل بهم. ومن خصائص العربية استبدال كلمة بأخرى لأداء مفهوم كبير. كان "الفارابي" من مشاهير فلاسفة المسلمين إذ بلغ من الصيت ما بلغه اليوم "هيجل" بين الفلاسفة الأوروبيين. كان الفارابي يقضي معظم أوقاته في دراسة الفلسفة والأدب، فكان أديبًا كبيرًا ولغويا عظيمًا. وبينما كان يمر بالسوق ذات يوم، وجد طفلا يبيع الحلوى، فقال له: كيف تبيع الحلوى؟ فقال: الرطل بدرهم. فأخذه الفارابي من تلابيبه وصاح: ما هذا الظلم الذي يُرتكب بحق لغتنا العربية بدون أن يحتج عليه أحد؟ فأخذ الطفل يصرخ، فاجتمع الناس ولكن لم يجرؤ أحدهم على مساعدة الطفل لكون الفارابي رجلا عظيما. يمكن أن تتخيلوا الشاعر الدكتور "إقبال" أو الشاعر "غالب" يمسك بطفل ويتهمه أنه يفسد اللغة الأردية، فهل يجرؤ أحد على الاعتراض عليه؟ فاحتار الناس و لم يتدخلوا بينهما، حتى جاء رئيس الشُّرَط، فأفزعه ما رأى، وكان ذكيا فتوسّل إلى الفارابي قائلا: أرجوك أن تسلّمنا هذا الطفل لنعاقبه. ثم سأله ما جريمته؟ فقال: تسألني عن جريمته؟ لقد سألته: كيف، فأجابني بكم. لقد أفسد لغتنا وظلمها ظلما عظيما.

فها هو الفارابي يتوقع من طفل صغير أن يتكلم بلغة عربية سليمة، ولكن المسلمين لا يتوقعون من الله تعالى أن يستعمل في وحيه كلمات سليمة؛ إذ يقولون إن الله تعالى قد قال هنا "كيف" بمعنى "ما" التي تفيد الكم وليس الكيف، مع أن الواقع أن لفظ "كيف" قد زاد الموضوع جمالاً وبهاءً. فقال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ تركيزًا على كيفية ما فعل بهم، وليس على كميته. إنه لم يقصد بذلك التركيز على موت عشرة أشخاص أو مائة شخص أو هلاك عامة الجنود أو قادتهم،

أو هلاك فيلهم أو كلاهما، وإنما أراد التركيز على الظروف غير العادية التي هلكوا فيها.. وحتى لو كان الهالك شخصا واحدا، فإنه قد هلك حين كانت الدنيا تقول إنه لن يهلك. فالمقصود هنا التركيز على الكيفية لا على الكمية.. أي أن الله تعالى يشير هنا إلى الظروف الخارقة التي خلقها لتدميرهم، والتي ليس بوسع العقل أن يستوعبها. ولكن المفسرين يقولون بأن الحجارة قد أصابت القوم في رؤوسهم وخرجت من تحتهم (روح المعاني)، أو أنه لم يستطع أحد منهم النجاة أو العودة إلى بلده، مع أن القرآن لم يرد التركيز على هذا الأمر، وإنما قال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾.. أي ألم تعلم وتفكّر كيف دمّر ربك أصحاب الفيل في ظروف غير عادية. لم يقل الله تعالى هنا إنهم قد هلكوا بكثرة، إذ إن الناس يموتون بكثرة بغرق سفينة أحيانًا. إن ما يركز الله عليه هو: انظروا إلى يدي التي كانت وراء الحادث، وفكّروا أن كل ما حصل إنما حصل من عندي، لا من طرف بشرٍ. فالحق أن الله تعالى لا يركز هنا على تفاصيل الحادث ووقائعه، وإنما يركز على كونه نادر الوقوع ومخفي الأسباب. وليس المقصود بيان ما إذا كان أبرهة وجنوده قد هلكوا جميعا أم أن بعضهم قد نجوا، بل المقصود كيفية هلاكهم، فلم يهلكوا بتدبير من البشر، إنما هلكوا نتيجة ظروف خلقها الله تعالى. فالله تعالى يركِّز هنا على كيفية ما فعل بأبرهة، وليس على كميته. يقول تعالى إننا أهلكنا أبرهة بحيث ما كان لأهل الدنيا أن يتصوروا هلاكه، وأننا إنما فعلنا ما فعلنا من أجل محمد رسول الله ﷺ فقط.

إذن، فالله تعالى يركز هنا على تكريمه لمحمد رسول الله ﷺ، وإظهارِ قدرته من أجله وحمايتِه له من هجوم العدو، أما حمايته للكعبة وإنقاذها من الهجوم فكان هدفًا ثانويًا، ومثاله أن يدعو المرء شخصية كبيرة للطعام ويدعو معها خدمه أو سكرتيره الخاص أيضا. وأي شك في أن الخدم والسكرتير الخاص ليسوا مدعويين في حد ذاتهم، وإنما المدعو الحقيقي هو هذه الشخصية الكبيرة التي أقيمت المأدبة على شرفها؟ كذلك لم تكن حماية الكعبة المشرفة الهدفَ الحقيقي في هذا الحادث، وإنما كانت حماية النبي ﷺ هو المقصود الحقيقي، ولذلك قال الله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾..أي ألم تعلم كيف عامل الله تعالى أصحاب الفيل؟ فقوله تعالى

﴿رَبُّكَ﴾ يدل بكل وضوح على أن الله تعالى لم يُرِدْ بهذا الحادث حمايةَ الكعبة بقدر ما أراد حماية النبي ﷺ. لو كانت حماية الكعبة هي الهدف الأساس، فكان يجب أن يقال: ألم تر كيف فعل رب الكعبة.

وما دامت يد الله تعالى هي التي كانت وراء هذه المعجزة؛ فمن حق الله وحده أن يخبرنا عن الذي أظهرها من أجله. لو كانت يد البشر وراء هذه المعجزة فكان بإمكان الناس أن يقولوا إنها ظهرت من أجل فلان أو فلان. ولكنها لم تحصل بيد إنسان، بل بيد الله فقط، فمن حق الله فقط أن يبين الهدف الحقيقي وراءها. لنفترض أن شخصا يقيم مأدبة على شرف زيد، فلا يحق لبكر أو عمرو أن يقول بأنه أقامها على شرف خالد، ولو قال ذلك لقلنا لصاحب البيت أن يخبرنا على شرف من أقامها، وسوف نرضى بقراره. وقد قال الله تعالى هنا أولاً ﴿كَيْفَ فَعَلَ﴾ ليبين أن هذه الآية لن تظهر بجهود إنسان، ثم قال ﴿رَبُّكَ﴾ ليخبر أنه قد أظهرها من أجل محمد ﷺ. وكأن الله تعالى يقول: يا محمد، لا شك أننا طيّبنا خاطر أهل مكة أيضا من خلال هذا الحادث، كما أرسينا شرف الكعبة أيضا، ولكنها أهداف ثانوية، إذ لم نُرِ هذه الآية إلا من أجلك، وكنتَ الهدف الحقيقي وراءها.

فالواقع أن هذه الآية إنما ظهرت من أجل محمد رسول الله ﷺ لا لغيره. لا شك أن أهل مكة كانوا يعترفون بهذه المعجزة، لكنهم لم يكونوا يعترفون أنها ظهرت من أجل أحد سِواهم. كانوا يدركون تمامًا أنها آية بيّنة على صدق دعاء إبراهيم عليه السلام (مجمع البيان)، ولكنهم لم يكونوا يصدِّقون أنها إنما ظهرت تكريمًا لمحمد ﷺ، ولو اعترفوا بذلك لآمنوا به ﷺ وأسلموا. ومن أجل ذلك يؤكد الله هنا هذا الأمر، وكأنه يقول لهم: لماذا لا تؤمنون بمحمد ﷺ أيها الحمقى وقد أريناكم هذه المعجزة حتى قبل ولادته؟ وما دمنا قد بدأنا إراءة الآيات من أجله حتى قبل ولادته، فلِمَ لا تدركون أننا لن نبرح نُري له الآيات حتى آخر أيام حياته.

ثم إن كلمة (رَبّ) في قوله تعالى ﴿رَبُّكَ﴾ إشارة أيضا إلى أن تربية محمد ﷺ وأعماله وثيقة الصلة بهذه المعجزة، إذ لولاها لأصبحت تربية محمد وإنجازه أعماله

ضربًا من المحال. فكلمة (رب) تبين أن الله تعالى قد دمر أصحاب الفيل كي تتم تربية محمد وتُنجَز أعماله على ما يرام.

وهنا ينشأ سؤال: ما علاقة هذا الحادث بمحمد رسول الله ﷺ؟

والجواب أن محمدا ﷺ قد بُعث تحقيقًا لنبوءة إبراهيم عليه السلام؛ لأن إبراهيم كان قد دعا ربه: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ (البقرة: ١٣٠).. أي ربنا ابعثْ في ذريتي الذين أتركهم في مكة نبيًّا، فقوله تعالى ﴿وَابْعَثْ فِيهِمْ﴾ يعني وابعثه في أهل مكة، و﴿مِنْهُمْ﴾ يعني أن يكون أحدًا منهم ومن أهلها، ويكون على صلة معهم، و﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾ يعني أن يقرأ عليهم آياتك، و﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ يعني أن يعلّمهم كتابك وما في أحكامه من حِكمة، و﴿يُزَكِّيهِمْ﴾ يعني أن يطهّرهم وينمّيهم.

والواضح من هذا الدعاء أن هذا الرسول كان سيُبعث بين أهل مكة، ليصلحهم ويجعلهم أمة عظيمة. لا شك أن الرسول ﷺ كان سيقوم بإصلاح باقي العالم أيضا، ولكن إصلاح أهل مكة كان مسؤوليته الأولى. ومن معاني التزكية: التنمية والترقية، وهذا يعني أن الرسول ﷺ كان سيجعل أهل مكة أمة عظيمة. ولكن لو دُمّرت الكعبة المشرفة لتشتّتَ أهل مكة وتفرقوا هنا وهناك بحثًا عن المعاش. كان أهل مكة يقيمون هناك سدنةً للكعبة شأنهم شأن المجاورين للزوايا والمقابر، ولو أمر الملك بهدمها لتشتتوا من حولها باحثين عن وسيلة معاش لهم إذ كانوا يقيمون هناك عائشين بما يجود به الناس على القبور من نذور وصدقات. ولو أن الكعبة دُمرت لما بقي لأهل مكة سبيل للمعاش، ولم يبقَ في قلوب الناس تعظيم وتكريم لهم، بل قالوا إن هؤلاء كانوا يدّعون عبثًا أنه مكان مقدس، إذ لو كان الأمر كما ادعوا لما دُمرت الكعبة هكذا. فلو خربت الكعبة لتشتت أهلها وتفرقوا في البلاد، ولعمَّ الخرابُ المكانَ الذي كان موعدا لظهور نبيهم الموعود. لو خربت مكة فمن أين كان سيُبعث هذا الموعود؟ وماذا كان سيفعل؟ كانت النبوءة الإبراهيمية تقول إنه سيظهر في مكة، وسيعيش بين أهلها، وما كانت هذه النبوءة لتتحقق إلا إذا ظلت مكةُ عامرةً، فلذا كان لا بد من حماية الكعبة المشرفة وبقائها ليظهر فيها هذا

الموعود لإنجاز مهمته. وإليه يشير الله تعالى بقوله ﴿رَبُّكَ﴾ حيث يقول لرسوله إن الهدف من هلاك أصحاب الفيل هو إرساء عظمتك أكثر من حماية الكعبة.

ثم يجب أن لا ننسى أيضا أن أبرهة قد خرج لهدم الكعبة بلا شك، ولكن جنوده لم يكونوا يريدون ذلك، وإنما أمر جنوده بالخروج معه فنفّذوا أمره، بينما يقول الله تعالى هنا ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾، وهذا التعبير لا يخلو من حكمة. فهل كان صعبا على الله ﷻ أن يقول مثلاً: أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بأبرهة؟ أو يقول: أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بملك اليمن؟ ولكن بدلاً من هذا القول البسيط المباشر قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾.. مما يدل بوضوح أن في هذا التعبير حكمة بالغة، وما هي إلا أن الله تعالى قد أعلن هنا أننا لم نُهلك أبرهة فحسب، بل أهلكنا قومه أيضا؟ لأن "أصحاب الفيل" ليس إشارةً إلى الجنود الذين خرجوا مع أبرهة فقط، بل أيضًا إلى الأمة الحاكمة على اليمن، فهم الذين تشير هذه السورة إلى هلاكهم. ذلك أننا لو دمّرنا مَدافعَ جيش أو كتيبة منه، فيمكننا القول إنا قد دمرنا هذه المدافع أو هذه الكتيبة، ولكن لا يمكننا القول إنا قد دمرنا أصحاب تلك المدافع أو الكتيبة؛ إذ لم ندمر الدولة التي قد بعثت هؤلاء الجنود، فتعبيرنا "إنا دمّرنا أصحاب المدافع" يعني أننا لم ندمر الجيش الذي جاء لمحاربتنا فحسب، بل قضينا أيضًا على قوة الدولة التي بعثتهم. هذا المثال يوضح أن هذه الآية لا تتحدث عن هلاك أبرهة وجنوده فحسب، لأن لفظ "أصحاب الفيل" لا يشير إلى أبرهة وجنوده فقط، بل أيضًا إلى الشعب الحاكم على اليمن الذي بعثهم.

إذًا فالله تعالى يعلن هنا أننا لم نُهلك أبرهة وجنوده فحسب، بل وجّهنا الضربة القاضية إلى قوة "النجاشي" نفسه -الذي كان اليمن ولايةً تابعة لدولته المسيحية- فضعفت قوة المسيحيين بسبب هذا الدمار.

وبيان الحكمة العظيمة في دمارهم أن هلاك جيش من جيوش دولة أو حكومة عظيمة لا يقلل الخطر على العدو، بل يزيده. فمثلا لو قُتل شرطيّ في اشتباك مع قُطّاع الطرق فهذا لا يقلل الخطر عليهم، بل يزيده، كذلك لو تمرد أهل منطقة على

دولة متحصنين بحصن، وهلكت الكتيبة التي أرسلتْها لإطفاء فتنتهم، فهلاكها لا يقلل الخطر على المتمردين بل يزيده، لأن الدولة سوف تنتقم لهم إذ تبعث كل قوتها قمعًا لفتنهم. فلو أن أبرهة هلك وفر جنوده منهزمين ومتكبدين خسائر فادحة فقط، لأخذت ثأرهم دولةُ اليمن التي كان يحكمها والٍ من قبل الدولة الحبشية المسيحية. وكان بإمكان هاتين الدولتين أن تسحقا العرب بكل قواها، ولو حدث ذلك لتعرضت بعثة النبي ﷺ لخطر شديد، إذ كان هناك احتمال أن تبعث الدولة المسيحية بعد كل فترة وأخرى جيشًا للهجوم على مكة، إذ كان اليمن قاعدة لقواها في الجزيرة العربية، وكانت قادرة على أن تبعث جنودها بكل سهولة من حين لآخر للقضاء على العرب، ولو حصل ذلك لاستحال أن يتربى النبي ﷺ ويترعرع بين أهل مكة حتى يبلغ الشباب وما كان بوسعهم أن يروا سيرته وأخلاقه، وبالتالي لم يستطيعوا أن يروا تحقُّق دعاء إبراهيم الذي سأل فيه ربه أن يبعث فيهم نبيًا منهم؛ إذ كان لا بد أن يتشتتوا ويتفرقوا نتيجة تعرضهم لهجمات الدولة الحبشية القوية، وحتى لو لم يتفرقوا ويتشتتوا فأيضًا لم يستطيعوا رؤية سيرة النبي ﷺ وأخلاقه وآيات صدقه في كل تصرف من حياته، وبالتالي لتعرّضَ أساس الإسلام نفسه للخطر. ومن أجل ذلك يخبر الله تعالى بأننا لم نهلك أبرهة وجنوده فحسب، بل قضينا على القوة التي كانت وراءه، فأُصيبوا بنكسة شديدة جعلت العرب يتمردون عليهم في اليمن، مما أدى إلى استيلاء الفُرس على اليمن وانتهاء حكم النجاشي هناك (البداية والنهاية: ذكر خروج الملك من الحبشة ورجوعه إلى سيف بن ذي يزن الحميري). ولم يكن بين أهل مكة والحكومة الفارسية اليمنية أية خصومة، فلزمت الصمت تجاههم. أما الحبشيون الذين كانوا يمكن أن يثوروا غضبًا على أهل مكة فاستأصلهم الله استئصالا. لا شك أن مُلك النجاشي ظلّ قائما في الحبشة بعد ذلك، لكنه فَقَدَ قاعدته في اليمن؛ ولأنه ما كان ليشن الحرب على العرب إلا عن طريق اليمن الذي وقع عندها تحت حكم الفرس فزال خطر هجوم النجاشي على العرب.

فالحق أن المراد من أصحاب الفيل هو دولة النجاشي، لأن الفيلة لم توجد في الجزيرة العربية، بل كانت تجلب من الحبشة، فقول الله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ يعني انظرْ كيف قضينا على الحكومة الحبشية المسيحية في أراضي العرب. وكأن الله يقول: لم نهزم أبرهة وجنوده فحسب، بل محونا مِن أرضهم (اليمن) آثار الحكومة الحبشية حتى لا يهددهم خطر الهجوم المتكرر من قِبلهم.

والآن أسرد هنا واقعة أصحاب الفيل من المنظور التاريخي الذي أراه صائبا.

لقد وقع هذا الحادث في سنة ميلاد النبي ﷺ وفقًا لأكثر الروايات وأوثقها، وبعشر سنوات قبل ولادته أو خمس عشرة أو ثلاث وعشرين أو ثلاثين أو أربعين أو خمسين أو سبعين سنة بحسب روايات أخرى ضعيفة، وبخمسين يوما حسب رواية السهيلي، وبخمسة وخمسين يوما بحسب رواية الدمياطي. بينما يرى البعض أنه وقع قبل ميلاده ﷺ بأربعين يوما، أو بشهر (روح المعاني).

أما تفاصيل هذا الحادث فهي كالآتي: كانت حِمْيَر -القبيلة العربية- حاكمةً على اليمن قبل واقعة أصحاب الفيل بسنوات، وكان اسم مِلكهم ذو نواس الحميري، الذي اعتنق اليهودية كما ذكر بعض المؤرخين، بينما يرى الآخرون أنه كان مشركا ومائلا إلى اليهودية (السيرة النبوية لابن هشام: مُلك ذي نواس، وتفسير ابن كثير). والأغلب أن فكرة كونه يهوديا نشأت لكونه عدوا للنصارى، أو لعله صار يهوديا بالفعل. وأرى أن منشأ هذا العداء هو أن اليمن يقع قريبًا من سواحل الحبشة، مما كان يؤدي إلى توتر العلاقات بين البلدين. فذات مرة اغتاظ ذو نواس الحميري من المسيحيين في بلده وألقى القبض على عشرين ألفا منهم، وحفر لهم الأخاديد وأحرقهم فيها أحياء، ولم ينج منهم سوى رجل واحد يقال له دوس ذو ثعلبان. ويرى المفسرون أنهم القوم الذين فيهم نزل قول الله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ (تفسير ابن كثير). وكان النصارى يعوّلون في ذلك الزمن على الحكومة الرومية المسيحية التي كان سكانها جميعا مسيحيين (أردو دائرة معارف

إسلامية، تحت كلمة: بوزنطيه، موسوعة الأديان تحت كلمة: Roman Religion)، وكانت دولة قوية مترامية الأطراف إذ كانت تحكم نصف الكرة الأرضية؛ فكانت مناطق الشام وفلسطين والأناضول تابعة لها، كما كان ملوك مصر وليبيا والحبشة تابعين للإمبراطور الروماني. وكان المسيحيون من كل مكان يهربون إليه ويلوذون به، شأنهم في ذلك شأن مسلمي الهند في الماضي الذين كانوا يظنون بأنه إن أمكنَ لأحد أن ينصر المسلمين في مصائبهم فإنما هو السلطان التركي ثم الملك الأفغاني. فهرب دوس ذو ثعلبان من اليمن ولاذ بقيصر الروم. وكانت الحروب تقع بكثرة بين الفرس والروم (أردو دائرة معارف إسلامية، تحت كلمة: ساسانيان) مما جعل القياصرة يقضون معظم أيام السنة في الشام. وكان القيصر آنذاك مقيما في الشام، فتوسل إليه دوس ذو ثعلبان بأخذ الثأر لضحايا هذه المجزرة، ولم تكن حدود الإمبراطورية القيصرية متصلة باليمن، بل كان يفصلهما منطقة حرة عرضها ٥٠٠ ميل أو ٦٠٠، فلم يستطع القيصر أخذ الثأر بنفسه، ولكن ما كان له أن يسكت عن هذه المجزرة بحق المسيحيين. فكتب من أجل "دوس" رسالةً إلى ملك الحبشة الذي كان تابعا له يأمره فيها بالاهتمام بما حدث وأخذ الثأر للضحايا. وكان بين الحبشة واليمنِ البحرُ الأحمر الذي كانت السفن تعبره عندها في يومين أو ثلاثة، أما اليوم فتعبره خلال بضع ساعات. وكان يطلق على ملوك الحبشة اسم النجاشي (Negus). وكان اسم الملك الحبشي آنذاك هو أصمحة بن بحر، وهو نفس الملك الذي هاجر إليه بعض صحابة النبي ﷺ في زمنه، والذي ورد أنه أسلم في آخر حياته. لقد وقع هذا الحادث في عهده (أردو دائرة معارف إسلامية، تحت كلمة: نجاشي)، وإليه بعث قيصر الروم رسالته لإغاثة دوس ذو ثعلبان.

فبعث النجاشيّ اثنين من قوّاده مع جيش جرار إلى اليمن، أحدهما أرياط والآخر أبرهة بن الصباح، ويكنى بأبي يكسوم (تفسير ابن كثير). وكانت العادة في الإمبراطورية الرومية والدول التابعة لها أن يبعثوا في كل مهمة اثنين من القواد بل من الطغاة، فمثلاً كان والدُ كليوباترا قد عيّنها وأخاها ملكين من بعده، فتزوّجَها طاغية روميّ (الموسوعة البريطانية، تحت كلمة: Cleopatra)، فقُتل أخوها نتيجة

الخلاف الذي حصل على المُلك. وكان هؤلاء الملوك يبعثون قائدينِ في المهمات مخافة أن يتمرد عليهم القائد الواحد، ولكن لو بعثوا اثنين فيكون أحدهما مراقبًا للآخر، ويكون مواليًا للملِك ومحافظا على حكمه، وهكذا لن يحدث فساد. مع أن مِن غير الطبيعي تماما أن يكون لقوم ملِكانِ. غير أن هذا الأمر استمر فيهم مدة طويلة.

وكان أبرهة بن الصباح أبيض البشرة (السيرة النبوية لابن هشام). علمًا أنه كان في الحبشة في تلك الأيام عِرقان: أسود وأبيض، وكانت الأسرة الملكية من العرق الأبيض، وكانوا في الواقع من شعب النوبَة الذين كانت لهم دولة قوية في القديم امتد سلطانها حتى أوروبا وآسيا، وكان وطنهم جنوب مصر والسودان، وكانوا من العرب أصلا ومن سكان الجزيرة العربية في الواقع (تاريخ الحبشة ص ٧،٩، أردو دائرة معارف إسلامية، تحت كلمة: نوبه)، ولم يزل حكمهم يمتدّ حتى استولوا على الحبشة؛ ولذلك نجد أن لغة الحبشة كانت تُعتبر لهجةً من العربية حتى في زمن قريب من النبي ﷺ، إذ توجد في القرآن الكريم عشرات الكلمات من اللغة الحبشية، وليست من العربية التي يتكلم بها عرب الجزيرة، إلا أن العرب ضمّوها إلى لغتهم لكثرة اختلاطهم واتصالهم بالحبشة. إذًا فكان النوبيون بيضًا -نسبيا- لكونهم من العرب، وكان أبرهة أيضا أبيض اللون، ويبدو أنه كان من العائلة المالكة.

باختصار، شن القائدان الحبشيان الهجوم على اليمن بجيش عظيم وهزما الدولة الحميرية وأقاما الحكم الحبشي المسيحي في اليمن. وبعد فترة شبّ الخلاف بين القائدين أرياط وأبرهة، وكان ذلك أمرًا طبيعيًا إذ كانا يتمتعان بنفس القوة والسلطة، فلم يتوصلا إلى اتفاق، وقرّرا الحرب، واصطفا بجنودهما. والقاعدة أن الأمة تفضّل المصالح العامة على المصالح الفردية ما دامت تتمتع بالتعقل والحياة، وإذا أصابها الانحطاط آثر أبناؤها المصالح الفردية على مصالح الأمة. وكان الحبشيون في اليمن لا يزالون يتمتعون بالتيقظ والتعقل الذي دفعهم للحفاظ على مصالح أمتهم، فلما اصطف الطرفان فكّر القائدان وقالا إن الحرب ليست إلا بيننا نحن الاثنين، فلماذا نسفك دماء القوم كلهم، فتحارُب الطرفين سيقضي على حكم النجاشي في

اليمن، فقرّرا تأجيل القتال للتفاوض، فأعلنا أنّ الحرب سوف تضر بشعبنا فعلينا أن نتبع ما نتوصل به إلى حلّ الخلاف دون الإضرار بالأمة. وبعد اللقاء والتفاوض قرر القائدان أن يتقاتلا، فمَن قتل الآخر نال الحكم. فتبارزا بعد أن أمرا جنودهما بعدم التدخل، فعاجلَ أرياطُ أبرهةَ بضربة أصابت أنفه وأذنه وخدّه، وكان أحدُ عبيد أبرهة -الذي كان يحبه لدرجة العشق- يراقب قتالهما عن كثب مختفيًا وراء حجر، فلما رأى سيّده قد سقط صريعًا لم يملك نفسه، وفيما كان أرياط يستعدّ للإجهاز على أبرهة خرج هذا العبد من وراء الحجر، فطعن أرياط بالخنجر فقتَله. فصار المنتصر ميتًا، وأصبح المهزوم حيًّا. وبعد أيام شفي أبرهة من جروحه وصار ملِك اليمن كله.

ولما بلغ النجاشيَّ أن أحد قائدَيه قد حمل على الآخر وقتله، حزن حزنًا شديدًا. وكان النجاشي شريفا بفطرته، بل الثابت من الشهادات التاريخية أن أبرهة أيضًا كان حليم الطبع (جامع البيان)، وأن ما فعله ضد مكة إنما فعله لأسباب سياسية كما سأوضح لاحقا. فغضب النجاشي وأقسم أنه سيأخذ بثأر القتيل من أبرهة، فيدوس مُلكه تحت الأقدام ويجزّ ناصيته، وذلك بحسب عادة الملوك في القديم، فإنهم إذا أرادوا إهانة شخص جرّوه من شعر ناصيته. فسمع أحد أصدقاء أبرهة مقالة النجاشي، فأبلغه أن النجاشي سوف يشنّ الهجوم على اليمن بسبب ما فعلت وسوف يعزلك. وكان أبرهة ذكيا، فدعا أحد الحلاقين وأمره بقص شعر ناصيته، ثم طلب كيسًا ملأه بالتراب، ثم بعث الشعر والتراب إلى النجاشي برسالة يعتذر إليه طالبًا العفو عنه، وموضحًا الأسباب التي كانت وراء قتالهما وقال: إن التقصير منّا نحن الاثنين، غير أن ما حصل لم يكن وراءه خداع، وإنما اتفقنا بعد التروّي والتفكير أن مَن يقتل الآخر يصير حاكما على اليمن، فلو قُتلت لتولى هو الحكم، ولكنه قُتل فصار الحكم إليّ بحسب القرار المتفق عليه، فليس فيما حصل أي خداع أو مباغتة. كما كتب إلى النجاشي: بلَغني أنك حلفت بجزّ ناصيتي، فها أنا أبعث إليك بشعر ناصيتي بَرًّا بقسمك، كما بلغني أنك حلفت أنك ستدوس أرض اليمن بقدميك، فها أنا باعث لك تراب اليمن في كيس فيمكنك أن تدوسه برًّا بيمينك،

أما أنا فإني رهنُ إشارتك وطَوْعُ أمرك وفخور بأني من عبيدك. فأُعجب النجاشي بفعل أبرهة، فكتب إليه: قد عفونا عنك وجعلناك واليا على اليمن. (السيرة النبوية لابن هشام، وتفسير ابن كثير)

ولما بلغ أبرهة أن الملك قد عفا عنه فرح فرحا كبيرًا، ونذر أن يبني في اليمن كنيسة كبيرة جميلة لا مثيل لها في تلك البقعة. فكتب إلى النجاشي يعبّر عن شكره وامتنانه على عفوه عنه وتعيينه واليا على اليمن، وقال: سأبني الآن كنيسة كبيرة عديمة المثال في هذه البلاد فرحًا وشكرًا على منّتك هذه. فدعا المعماريين والبنائين والمزخرفين من أقاصي البلاد وجمَع أفضل أنواع الخشب والمواد، وبنى كنيسة عظيمة عالية إذا نظر إليها الإنسان سقطت قلنسوته، ولذلك سماها العرب قُلَّيسًا (شرح الزرقاني على المواهب اللدنية ج١ ص ٨٣).

و لم يكتف أبرهة ببناء الكنيسة، بل سعى لأن يحجّها العرب بدلاً من الكعبة المشرفة ويتخذوها مركزا ومرجعا لهم (تفسير ابن كثير).

والآن سأذكر الموضوع الذي قد فتحه الله عليَّ خاصةً في هذا العصر، و لم يفتحه على أي مسلم قبلي خلال ثلاثة عشر قرنا، وهو أن سورتَي الفيل وقريش كلتيهما تكشف أن أعداء النبي ﷺ وأنصاره كلهم كانوا قد أخذوا أهبة الاستعداد لاستقبال النبي ﷺ قبيل بعثته، بل قبيل ولادته؛ أعني أن كل واحد من الحزبين كان ينتظر ظهوره، كلٌّ بأسلوبه. وكما يقول المثل: "الديك الفصيح من البيضة يصيح"، كذلك فإن الأنظار تتوجه دومًا منذ البداية إلى من قُدِّر له الرقي والازدهار. هذا مثلٌ ابتدعه أهل الدنيا، غير أن من سنة الله تعالى المستمرة أيضا أن الناس يأخذون في الحديث عن كل مبعوث رباني قبيل مجيئه، ويقولون بأنه قد أوشك بعثُ الموعود من عند الله تعالى. وإن لم يقدر أحد على إدراك هذه السنة الإلهية برؤية أحداث الماضي فلينظرْ إلى ما حصل في هذا الزمن، حيث نرى أنه قبل بعثة المسيح الموعود والمهدي عليه السلام بمائة سنة تقريبا قد تنامى عند الناس إحساس عام بظهوره عما قريب. وبالمثل قد تولد هذا الإحساس عند الناس قبل بعثة النبي ﷺ أيضا، و لم يوجد هذا التوجه عند أمة واحدة فقط، بل وُجد لدى اليهود والنصارى والعرب كلهم،

إذ قالوا: لقد قرب الآن ظهور إنسان عظيم في الدنيا. كان العرب يرون أنــه قــد أوشك ظهور الشخص الذي وُعدنا به في دعاء إبراهيم، وكان النصارى يرون أن "الفارقليط" أو ذلك النبيّ الذي أُخبر بمجيئه قد قرب ظهوره، وكان اليهود يــروْن أنه قد قربت بعثة ذلك النبي الذي يكون مثيلاً لموسى ويحرّرهم من العبودية.

علمًا أن اليهود توقعوا عندها أن ظهور ذلك الإنــسان المقــدس الموعــود في الصحف وشيك، مع أن الأنباء عن ظهوره كانت موجودة في صحفهم منذ زمــن موسى الذي كان قد أنبأ بنفسه أن مثيلا له سيظهر في يوم من الأيام حاملاً شريعة نارية (التثنية ٣٣ : ٢). فما دام هذا الأمل لم يكن جديدا، فالسؤال الذي يفــرض نفسه هنا: لماذا لم يترقبوا ظهور النبي الموعود في زمن داود أو سليمان أو زكريا أو حزقيال عليهم السلام؟ لا شك أن الإحساس بظهور هذا الموعود كان موجــودًا فيهم إلى حد ما في زمن المسيح عليه السلام، حتى سألوه: أأنت المسيح، أم إيليا، أم ذلك النبيّ (يوحنا ١ :١٩-٢١)، غير أنه اشتدّ وصار قويًا في زمن الرسول ﷺ خاصــة. وكما قلت إن من سنة الله تعالى أن يتولد الإحساس في طبائع الناس عامةً بمجــيء الموعود قبيل ظهوره، فترتفع إليه الأصابع، وقد توصلتُ بالتدبر في هذه السورة إلى أن الإحساس بظهور هذا الموعود كان قد تنامى لدى الناس قبيل بعثة النبي ﷺ، إذ كانوا يترقبون ظهور شخص عن قريب. فهذا الإحساس كان عند العرب، إذ كان إبراهيم عليه السلام قد تنبأ ببعثة نبي في مكة، وهذا البحث كان في قلوب اليهود أيــضا، لأن موسى عليه السلام كان قد أخبرهم ببعثة نبي مثله، وهذا الأمل كان عند النــصارى أيضا، لأن المسيح عليه السلام كان قد أخبرهم أن الروح الكامل (روح الحق) سيأتي قبل عودته وسيكشف الحقائق كلها (يوحنا ١٦: ١٢-١٣). إذن، فكــان النــصارى يأملون بظهور الروح الكامل من عند الله تعالى، وكان العرب يأملون بظهور نــبي العرب، وكان اليهود يأملون بظهور مثيل موسى (التثنية ١٨: ١٨)، وقد قوي هذا الإحساس عندهم لدرجة أن كل أمة كانت تتحدث عن هذا الأمل بكل حماس، بل كانت تعلن بكل فخر أن نبينا يأتي قريبًا لينتقم من أعدائنا. وهذا ما نراه في هــذا العصر حيث ظهر كثيرون ادعوا بالمسيحية في أمريكا وإنجلترا أو أعلنوا بأنهم جاءوا

ليجعلوا المسيحية غالبة، كما ظهر بين المسلمين العديد الذين ادعوا بالمهدوية، وليس ذلك إلا لأن ظهور المسيح والمهدي كان قد اقترب، وكان هناك هياج عام في العالم بهذا الشأن. وكما أن الرياح تسبق الأمطار إيذانًا بأن السحب آتية وأن السماء ممطرة، كذلك يحدث في العالم اتجاه عام قبيل بعثة المأمورين الربانيين، فيدّعي كثيرون أنهم مبعوثون من عند الله تعالى. وكان هذا الاتجاه قد جرى قبيل بعثة الرسول ﷺ، فكان العرب إذا اجتمعوا في نواديهم قالوا إن النبي الموعود في الدعاء الإبراهيمي على وشك الظهور، وكان اليهود إذا حضروا مجالسهم ذكروا أن الأمارات تنبئ أن ظهور مثيل موسى وشيك، وكان النصارى إذا اجتمعوا في مجالسهم قالوا إن الأنباء التي أدلى بها المسيح على وشك التحقق (السيرة النبوية لابن هشام). كانت كل واحدة من الأمم تظن أن موعودها سيكون غير موعود الأمم الأخرى، مع أنه كان شخصًا واحدًا، فإن الموعود الذي تنبأ عن مجيئه إبراهيم هو نفسه الذي أنبأ عن ظهوره موسى، والموعود الذي تنبأ عن ظهوره موسى هو نفس من تنبأ بظهوره إبراهيم وعيسى، والموعود الذي تنبأ عن بعثته عيسى هو نفسه مَن بشر به إبراهيم وموسى. فالحق أن الموعود كان شخصا واحدا، لكن كل أمة ظنت بناءً على ما عندها من أنباء أنه سوف يُبعث عندها، وسيقضي على الأمم الأخرى. فكان النصارى حين يسمعون أن اليهود يأملون بظهور موعود بينهم للنهوض بهم، قالوا: لا شك أن هذا الموعود سيأتي حتما، ولكنه لن يأتي من بين اليهود كما يتوقعون، بل سيظهر بيننا. كذلك عندما تنامى الإحساس عند أهل مكة أن مبعوثا ربانيا على وشك الظهور بين العرب تحقيقًا لدعاء إبراهيم الطَّيِّلاِ، كان النصارى يقولون: صحيح أنه سيأتي حتمًا، لكن ترقُّب العرب له خدعة سياسية؛ إذ كانوا يخافون أن يقوم بين العرب شخص يتّحدون على يده فيستولون على البلاد. وهذا كما حصل قبيل بعثة المسيح الموعود الطَّيِّلاِ، بل في زمنه أيضًا، فكلما سمع الإنجليز وغيرهم من أهل الغرب أن أحدًا من المسلمين قد ادعى بالمهدوية؛ قاموا لملاحقته فورا (الموسوعة الأردية تحت كلمة: مهدي)، مع أن هناك أمثلة كثيرة في إنجلترا وأمريكا؛ حيث ادعى العديد من المسيحيين بأنه المسيح أو إرهاص له، ولكنهم لم

يضيقوا منه ذرعًا، بل فرحوا قائلين: إذا كان كذابًا فلا حاجة بنا للتعرض لـــه إذ سيهلك تلقائيا، وإذا كان صادقًا فيُعَدّ هذا انتصارًا للمسيحية في العالم ويكـــون في هذا مصلحتنا. ولكن إذا تولّد عند المسلمين الإحساس بأن هذا الموعود ســـيظهر بينهم، فيقول المسيحيون أن هذه مؤامرة سياسية لإضعاف المسيحية. هذا الإحساس نفسه كان عند المسيحيين قبيل بعثة الرسول ﷺ. علمًـــا أن اليهـــود لم يكونـــوا حاكمين، ولذلك كلما سمعوا أن العرب أو النصارى يترقبون موعودا ربانيا يُبعث بينهم، تميزوا غيظا وقالوا: لو كان الحكم بأيدينا لأخبرناهم أننا لا نحتمل أفكارهم هذه. وبالمثل عندما كان العرب يسمعون أن كلاًّ من اليهود والنصارى ينتظـــرون بعثة هذا الموعود فيهم، فكانوا أيضا يحترقون كمدا، أما النـــصارى فكـــانوا ذوي حكم وقوة ويروْن أنهم يستطيعون القضاء على هذه الأفكار بالقوة، كما هو الحال اليوم فكلما ظهر مدّعٍ للمسيحية بين الغرب لا يستطيع المسلمون القضاء عليه، مع أنهم يعتبرونه عدوًّا لهم، ولكن النصارى إذا وجدوا مدعيًّا بالمهدوية بين المـــسلمين سارعوا إلى القضاء عليه. ففي زمن رسول الله ﷺ عندما كان النصارى يـــرون أن العرب يفكرون بأن هذا الموعود سيظهر بينهم وأن اليهود يرون بأن هذا الموعـــود سيبعث منهم، فكان إحساسهم بالعداء يدفعهم للتصدي لهم؛ إذ كانوا يعتـــبرون هذه الأفكار مؤامرات سياسية لإضعاف المسيحية. فلذلك فكّر "أبرهة" أن الكعبة يمكن أن تكون سببًا لاتحاد العرب كلهم على يد واحدة، ثم إن عندهم إحـــساسًا قويًا أنه قد حان وقت نهوضهم وتقدُّمهم في العالم، إذ قرب أن يبعـــث الـــشخص الموعود في دعاء إبراهيم. لا شك أن المسيحيين كانوا يعتبرون مثل هـــذا المـــدعي كاذبا، لكنهم أدركوا أن ظهور هذا المدعي -وإن كان كاذبا- ســـوف يـــشكّل تهديدا لهم، لا سيما وأن هناك سببًا لاتحادهم على يد واحدة، إذ يعظّمون الكعبـــة باعتبارها مكانا مقدسا، فظهور هذا الموعود يزيد العرب اتحادًا وبالتالي يُقضى على الحكم المسيحي في الجزيرة العربية.

علمًا أنه كانت في الجزيرة دولتان مسيحيتان؛ إحداها في اليمن، والأخـــرى في شمال المدينة المنورة؛ إذ كان القيصر الرومي قد احتل المنطقة الممتدة من فلسطين إلى

نحو مائتي ميل شمال المدينة وأرسى بها حكمه (تاريخ العرب قبل الإسلام ج٢ الفصل ٣٣: ساسانيون وبيزنطيون). وكانت تلك المنطقة وكذلك اليمن من المناطق المتمدنة، إذ وجدت بها الغلال والمعادن، كما كانت بين أهلها والفرس والروم تجارة واسعة، فاستولى المسيحيون على كل هذه المناطق المتمدنة خاصة، تاركين ما بينها من أراض.

فعندما تنامى الإحساس عند العرب بقرب زمن بعثة النبي الموعود لهم وظهرت عندهم آثار النهضة، فكّر المسيحيون أن العرب لو اتحدوا فسوف يخرجونهم من اليمن ومن شمال الجزيرة أيضا. ويبدو أن أبرهة فكّر في استغلال الكنيسة التي بناها في اليمن سياسيا، ليهوّن من شأن الكعبة في نظر العرب ويحوِّلهم عنها إلى كنيسته، محقّقًا بذلك فائدتين: انتشار المسيحية، والحيلولة دون اتحاد العرب، إذ لن يبقى عندهم بيت واحد يجتمعون فيه، فلو قام بينهم أي مدّعٍ مستقبلا، فلن يستطيع تكوين حكومة بسهولة. هذا ما حدا بأبرهة إلى هذه الخطة في رأيي. إن الكنائس تُبنى في العالم دائما، ولكن لم يستغلّ أحد أي كنيسة بهذا الشكل، أما أبرهة فالثابت تاريخيا أنه أعلن في المملكة كلها أن يأتي العرب لزيارة كنيسته "القُلَّيس" مستقبلا (تفسير ابن كثير)، ثم تنفيذًا لخطته دعا كبار رؤساء العرب ووعدهم بالجوائز الجزيلة وأمرهم أن يحثّوا العرب على حجّ كنيسته في صنعاء بدلاً من الكعبة. إن دعوة أبرهة هذه دليل واضح على أن كل العملية كانت مؤامرة سياسية، وإلا فهناك آلاف الكنائس في العالم، ولكن لماذا لم تصدر مثل هذه الدعوة بشأن أي منها؟

ثم هناك أمر آخر، وهو أنه مما لا شك فيه أن الكنيسة التي بناها في اليمن كانت ذات أهمية لأهل اليمن، ولكنها لم تكن ذات قيمة إزاء الكنائس الموجودة في الحبشة التي كان أبرهة تابعًا لحاكمها وواليا من قبله؟ فمع أن تلك الكنائس كانت أكبر وأعظم من كنيسته، إلا أن دولة الحبشة لم تسعَ قط لكي يتوجه العرب إلى كنائسها تاركين حج الكعبة. ثم ما بالك عن آلاف الكنائس في شتى أنحاء الإمبراطورية الرومانية القوية المترامية الأطراف؛ إذ بلغت من القوة أن كانت دول

الحبشة واليمن والشام وفلسطين وأنطاكية واليونان وغيرها من البلاد كلها تابعة لها، ولا جرم أنه كانت فيها كنائس عظيمة رائعة، ومع ذلك لم تحاول هذه الإمبراطورية قطّ أن تجبر الأمم الأخرى على أن تعتبر كنائسها مقدسةً وتأتي لزيارتها. فلماذا فعل أبرهة هكذا في اليمن يا ترى؟ إنما سببه أنه أراد أن يقلّل من حرمة الكعبة المشرفة عند العرب، إذ وجد عندهم شعورًا متناميًا عن ظهور نبي بينهم، ففكر أنه لو اجتمع هذان الأمران-أي تعظيم الكعبة وظهور مدّعٍ بينهم- فلا بد أن يستتبّ حكم العرب ويُقضى على حكمه. هذا الإحساس هو الذي دفعه إلى هذا الإعلان.

وقد ورد في بعض الروايات أن أبرهة لم يكتفِ بهذا الإعلان في مملكته فحسب، بل أخبر النجاشي أيضا أنه يريد صرف العرب عن الكعبة إلى كنيسته في صنعاء، وأن العرب قد علموا بأنه قد بعث رسالة كهذه إلى النجاشي (جامع البيان للطبري). وعندي أن النجاشي لم يكن مؤيدا لخطة أبرهة، وأغلب ظني أن أبرهة لم يكشف له خطته بالتفصيل، وإنما أبلغه الأمر مجملا، حتى إذا وقعت فتنةٌ بعد ذلك لم يغضب عليه الملك قائلا: لماذا لم تخبرني بخطتك؟ فقال للملك أنني أنوي -من أجل تعريف العرب على المسيحية- أن أعلن بينهم أن يتوجهوا إلى كنيسته "القُلَّيس" في صنعاء بدلاً من الكعبة. ولما علم العرب برسالته إلى النجاشي وإعلانه في مملكته أن يأتي الناس لزيارة كنيسته بدلاً من الكعبة، ثارت ثائرتهم وأدركوا أن الأمر ليس عاديا، فالكنائس تبنى في العالم دائما، وإذا كان أبرهة ذا مال وقد شيد بمساعدة بنّائين مهرة بناءً رائع الجمال والزخرفة بخشب غالٍ فهل يعني هذا أن يخبر الملكَ النجاشي بذلك ويخبر أنه ينوي أن تصبح كنيسته الآن مرجعا للعرب أيضا؟ فلا شك أنها كانت مؤامرة سياسية.

وكان طبيعيا أن يثور على ذلك أصحاب العقول السياسية والنزعة الدينية من العرب، فالجميع أحسوا أن هذه إساءة كبيرة للكعبة، وكان هذا الحماس على أشده في قريش خاصة.

عندما انتشر هذا الخبر على نطاق واسع ذهب أحد العرب إلى صنعاء ويبدو أنه لم يكن شهيرا بل كان شخصا عاديا، وربما كان رئيس قبيلة. ولما كانت الحكومة اليمنية منظَّمة، فكان العرب يأتون إلى عاصمتها صنعاء من أجل حاجاتهم وقضاياهم. فحصل هذا العربي بطريق أو آخر على السماح بالمبيت في كنيسة "القُلَّيس" -علمًا أنه لا يوجد في الكنائس الأوروبية غرف للمبيت، لكنها توجد في الكنائس الآسيوية- فبات هذا العربي في غرفة من غرف الكنيسة. وكما هو من دأب الرعاع فإنه فكّر تفكيرًا سيئًا، -وإن كان كل ذلك بحكمة من الله تعالى- فتغوّط في الكنيسة في مكان العبادة بالضبط، وهرب.

وفي رواية لابن جرير عن ابن إسحاق أن أبرهة لما أبلغ النجاشيَ بأنه لن يبرح حتى يجعل هذه الكنيسة مرجعا للعرب كلهم وشاع هذا الخبر بين الناس، غضب عربي من قبيلة "النُّسْأة" من بني فقيم -وهم فرع من بني مالك- وذهب إلى صنعاء، وتغوّط في الكنيسة. ولما جاء الكنّاس في الصباح لكنس الكنيسة وجد البراز في مكان العبادة، فأبلغ المسؤولين، فكتبوا لأبرهة أن شخصا قد تغوّط في كنيستنا المقدسة، ويبدو أنه عربي، لأن أحد العرب كان قد استأذن للمبيت فيها ثم غاب في الصباح، ويبدو أن قريشا وراء هذه الفعلة؛ لأنهم مغتاظون أنك جعلت معبدًا مقابل معبدهم. فجُنّ جنون أبرهة بسماع ذلك، وامتلأ كرهًا وحقدًا على مكة، وفي رواية أنه حلف بأنه سيهاجم مكة ويدكّ الكعبة دكًّا (جامع البيان للطبري، وتفسير ابن كثير).

ثم تلت ذلك أحداث زادت أبرهة شعورًا بأنّ كنيسته في صنعاء لا يمكن أن تزدهر ما دامت هناك الكعبة.

وفي رواية أخرى سجلها مقاتل بن سليمان أن فتية من قريش ذهبوا إلى صنعاء وأشعلوا النار لبعض شأنهم قريبًا من هذه الكنيسة، فتصادف ذلك هبوب ريح عاصف، فأصاب شرر النار الكنيسة، فاحترقت في لمح البصر (تفسير ابن كثير). وكانت مبنية من الخشب أساسًا على ما يبدو، وكان الخشب مطليًّا بالزيوت

والدّهان بكثرة كما هو الثابت من التاريخ (روح البيان)، مما ساعد على تـأجُّج النار فيها بسرعة.

على أية حال، احترقت الكنيسة بقدر من الله تعالى؛ ففي بعض الروايات أنها احترقت كلها وفي روايات أخرى أنها احترقت جزئيًا (ابن كثير والبغوي)، مما زاد أبرهة اقتناعًا أنه من المحال أن يقدس العرب كنيسته ما دامت الكعبة موجودة. ومن غرائب الصدف أن الذين تسببوا في احتراق الكنيسة كانوا عربًا، وأن الذي تغوّط فيها كان أيضا عربيًّا. نحن لا نستطيع الجزم فيما إذا كانوا قد أضرموا النار لحرق الكنيسة عمدًا، لأن الثابت من التاريخ أنهم أوقدوها لحاجة لهم، فتطايرَ شررها بهبوب الريح العاصف، فاضطرمت النار في الكنيسة. على أية حال، كان الأمر صدفة من الصدف التي تقع يوميا، إذ لا أحد يأخذ عهدًا من الرياح بأن تهبّ بشدة عندما يوقد النار. ولكن لما كان حادث التغوّط في الكنيسة قد سبق حادث اضطرام النار فيها، ازداد الوالي أبرهة اقتناعًا بأن كل الذي حصل إنما حصل بنية شريرة، فازداد بغضًا وكراهة لمكة. فدعا بعض زعماء القبائل العربية للقائه سعيًا منه لصرف العرب إلى كنيسته "القُلَّيس" بدلاً من الكعبة من دون أي هجوم عليها. فحضر إليه زعيمان من قبيلة خزاعة؛ وهما محمد وقيس، فوعدهما بمكافأة جزيلة على أن يسيروا بين العرب لإقناعهم بأن يتخذوا كنيسته في صنعاء مركزًا لهم بدلاً من الكعبة، ويحجّوا إلى "القُلَّيس" بدلا من الكعبة المشرفة. لم يكن هذان الزعيمان مسيحيين، ولكن يوجد في كل أمة مداهنون منافقون كما شاهدنا ذلك أيام حكم الإنجليز، فكثير من المسلمين كانوا مداهنين لهم، وعملوا لهم مقابل الإغراءات. فرضي هذان الزعيمان العربيان بالسير بين القبائل العربية، وتوجها نحو الشمال إلى مكة رأسًا بعد أن أخذا من أبرهة الوعود المغرية والتعليمات اللازمة. فأخذا يجمعان الناس في كل مكان وينصحانهم بالتوجه إلى كنيسة صنعاء بدلاً من الكعبة، فإن هذا يساعدهم على إنشاء علاقات طيبة مع الشعب الحاكم على اليمن، مما يجعلهم يزدهرون بسرعة. حتى وصلا إلى أرض بني كنانة، ولما علم أهلُ تهامة -أي مكة وما حولها- أن

أبرهة قد بعث زعيمين عربيين بدعاية أن يترك العرب الكعبة ويتخذوا كنيسته في صنعاء مركزا لهم، بعثوا لتحرّي الأمر عروةَ بن حياض زعيمَ هذيل (جامع البيان للطبري).

لا شك أن العرب كانوا وثنيين يعبدون الأصنام، إلا أنهم كانوا يعظّمون الكعبة تعظيمًا كبيرًا، ثم إن معيشة أهل مكة كانت منوطة بالكعبة تمامًا، وتوجُّهُ الناس إلى غيرها لن يجرح مشاعرهم الدينية فقط، بل سيقضي على مكانتهم السياسية، ولذلك سارعوا إلى تحرّي الأمر حتى يتحدوا فيحولوا دون دعاية محمد بن خزاعي وصاحبه. فذهب عروة بن حياض الهذلي، فوجد محمد بن خزاعي يقوم بدعايته ضد الكعبة، ففكّر الهذلي أن لا حاجة به الآن لاستشارة الآخرين، فوضع في قوسه سهمًا وأصاب به صدر محمد بن خزاعي. فهرب أخوه قيس بن خزاعي، وأبلغ أبرهةَ أن رسوله محمد بن خزاعي قد قُتل خلال رحلته بين العرب وهو يحثّهم على تنفيذ خطته (جامع البيان للطبري).

علمًا أنه كانت عند العرب فكرة عامة أن الرجل الموعود الذي هو معقد آمالهم سيكون اسمه محمدا، فلعل أبرهة قد اختار محمد بن خزاعي بسبب هذه الرواية الشائعة بين العرب، حتى إذا سمعوا هذه الدعاية مِن فمه ظنوا أنه هو الشخص الموعود، وأن هذه هي الحركة التي ستحقّق آمالهم.

على أية حال، فقد زاد هذا الحادث أبرهةَ غضبًا على غضب، فأيقن أن كنيسته لن تحظى بالقبول عند العرب ما دامت الكعبة موجودة.

وهناك رواية في ابن أبي حاتم وحلية أبي نعيم ولكنها لا تبدو محلّ ثقة عندي، إذ ورد فيها أن أكسوم بن الصباح الحميري -وهو ابن بنت أبرهة- ذهب لحج الكعبة المشرفة، فنهبه العرب في الطريق وقتلوه، كما نهبوا الكنيسة التي كان مقيمًا فيها، مما دفع أبرهة للهجوم على مكة.

وبالمناسبة يتضح من هذه الرواية أن أبرهة كان قد زوَّج ابنتَه من شخص ينتمي إلى العائلة التي كانت تحكم اليمن سابقا، والتي كان أبرهة وأرياط قد قضيا على حكمها وأقاما مكانه دولة مسيحية في اليمن.

إن أول ما يدحض هذه الرواية هو أنه لم يكن من عادة المسيحيين تزويج بناهم من غيرهم. ولو قيل: لم يكن ابن بنت أبرهة تابعًا لدين العرب بل كان مسيحيا، فأقول: فلماذا ذهب إلى حج الكعبة إذن؟ وإذا لم يكن مسيحيا فالمعلوم أن المسيحيين لم يكونوا يزوِّجون بناهم لغيرهم، لا سيما العائلات المسيحية الكبيرة، إذ كانت تأخذ الحذر الشديد هذا الشأن. فثبت أن هذه الرواية غير جديرة أن يعتدّ بها بناءً على شهادتها الداخلية.

وعندي أن هذه الرواية اختُلقت بتأثير مسيحي، إذ لا توجد بين الروايات المذكورة أعلاه أيةُ رواية تمنح أبرهة مبررًا سياسيا للهجوم على مكة، أما هذه الرواية فتبيح له ذلك، فما دام حفيده قد قُتل في الطريق، فمِن حقّه السياسي حتمًا أن يهاجم أهل البلد الذين قتلوه. فأرى أن هذه الرواية قد وُضعت بتأثير مسيحيّ لإثبات أن أبرهة كان محقًّا في هجومه على مكة. فالواقع أنه لم يكن هناك مبرر شرعي ومعقول للهجوم على مكة، مما كان يعرِّض المسيحيين للنقد الشديد، فاختلقوا هذه الرواية ليوهموا الناس أن أبرهة لم يقم بهذه الحملة من دون مبرر، بل قد تمتْ إثارته سياسيا، فكان له الحق كله للهجوم على العرب.

ثم إن فحوى هذه الرواية يتنافى مع العقل؛ إذ قيل فيها أن زوج بنت أبرهة كان من العائلة الحميرية الحاكمة على اليمن سابقًا، ولكن الثابت تاريخيًا أنه لم يكن لأبرهة أية صلة باليمن من قبل، وإنما أرسله النجاشي قائدا على جيشه لفتح تلك المنطقة، فكان حديثَ العهد باليمن، فإذا كان قد زوّج ابنته في اليمن فلا بد أنه قد زوّجها بعد وصوله إليه، وتقول الرواية إن ابنته رزقت ابنًا، ولا شك أنه ذهب للحجّ بعد أن كبر وشبّ، وحينها نَهَبه العرب في الطريق، فيمكن القول إن عمره عندها كان نحو ٢٠ أو ٢٢ سنة. ثم إن أبرهة لم يستولِ على بلاد اليمن كلها بمجرد وصوله إليها، بل لا بد أن هذه العملية استغرقت بضع سنوات. ثم يخبرنا التاريخ عن نشوب الخلاف بينه وبين القائد الآخر أرياط، حتى تحاربا، وصار أبرهة الملك الوحيد على اليمن بعد قتل الآخر، ولا بد أن تكون كل هذه الخصومات قد استغرقت قرابة ثلاث سنوات. وأما البحث عن زوج لابنته فلا بد أنه استغرق سنة

أو سنتين؛ لأن المرء لا يستعجل في تزويج بنته من الغريب. وبعد الزواج وُلد عند ابنته هذا الشاب الذي ذهب للحج في سنّ ٢٢ عاما تقريبا. لو قلنا إن إلحاق أبرهةَ الهزيمة بالملك الحميري وإرساءه السلام في اليمن استغرق ثلاث سنوات على الأقل، ثم لو كان البحث عن زوج لابنته بين الغرباء قد استغرق سنة، ولو كان ابن ابنته ذهب للحج في سن ٢٢ عاما، فيصير المجموع ٢٦ سنة، مما يعني أن أبرهة خطط للهجوم على الكعبة المشرفة بعد ٢٦ سنة من مجيئه إلى اليمن، لكن التاريخ يخبرنا أن النجاشي -الذي وقع هذا الحادث في عهده- هو نفسه الذي أسلم في زمن النبي ﷺ ومات على إسلامه، وقد أعلن النبي ﷺ دعواه في الأربعين من عمره (البخاري، كتاب المناقب)، وقد هاجر المسلمون إلى الحبشة بعد خمس سنوات من دعواه، مما يعني أن المسلمين وصلوا إلى الحبشة وسنّ الرسول ﷺ ٤٥ سنة. ومكث الرسول ﷺ ثماني سنوات أخرى في مكة، ولكن النجاشي لم يؤمن عندها، ولو جمعنا هذه السنوات الثماني إلى ٤٥ سنة لصار ٥٣ عاما، وبعدها هاجر النبي ﷺ إلى المدينة. وفي السنة الثامنة الهجرية بعث ﷺ الرسائل إلى مختلف الملوك ومنهم النجاشي، وهذا يعني أن الرسول ﷺ قد بعث رسالته إلى النجاشي التي أسلم بسببها وهو ﷺ في ٦١ من عمره، وتوفي النجاشي بعدها بستة أشهر (شرح المواهب اللدنية: ج٥ ص ٢٥). وإذا جمعنا الـ ٦١ سنة إلى ٢٦ سنة التي قضاها أبرهة في اليمن حتى حادث الفيل، لصار المجموع ٨٧ سنة، ولو أضفنا فترة حكم النجاشي قبل أن يبعث أبرهة إلى اليمن، ثم عمر النجاشي قبل توليه الحكم وهي ما بين ٢٥ إلى ٣٠ سنة، فيكون عمر النجاشي عند وفاته ١١٢ إلى ١١٧ سنة، وهذا عمر غير طبيعي إطلاقا، ولا يمكن أن يصدقه العقل ما لم يؤكده التاريخ تأكيدا قطعيا.

إذن، فهذه الرواية ساقطة تماما من حيث الدراية والعقل، ولذلك أرى أن النصارى قد اختلقوها فيما بعد، فسجّلها المفسرون في تفاسيرهم لسذاجتهم المعتادة؛ إذ كانوا يضمّون إلى تفاسيرهم الغث والسمين دونما فحص ونقد. لقد اختلقها بعض النصارى وأوصلوها إلى بعض المسلمين المرموقين، فأدخلها المفسرون في تفاسيرهم من دون تحرّي الحقيقة ومن دون أن ينتبهوا أنها اختُلقت لتبرير هجوم

أبرهة، إيهامًا للناس أن لهجومه على الكعبة مبررات سياسية، و لم يكن هجومًا غير شرعي.

والرواية التي تقول بتغوّطِ أحد العرب في كنيسة "القُلَّيس"هي الأوثق والأكثر رواجًا بين هذه الروايات الثلاث. أما رواية احتراق الكنيسة فهي أقل رواجا منها، وأما رواية حجّ أكسوم بن الصباح فهي أقل رواجًا وأبعد دراية، ولذلك أرى أن هذه الرواية الأخيرة المختلقة من قِبل المسيحيين خلافٌ للواقع أيضا. أما الروايتان الأخريان، فأولاهما أو كلتاهما صحيحتان، إذ يتضح منهما أن هذه العملية كانت عملاً فرديًا، أو أن الإساءة إلى الكنيسة لم تكن مقصودة بل كانت مصادفة. كما يتضح من هذه الروايات أن أبرهة كان مصمّمًا على التقليل من شأن الكعبة ومنعِ العرب من التوجه إليها بأي ثمن.

فالقضية لم تكن مجرد بناء كنيسة، بل كان المخطط بناء كنيسة تُسقط الكعبة من أعين الناس. كانت خطة مدبرة للقضاء على مقام إبراهيم، وبتعبير آخر كانت خطة للتشكيك في بعثة موعود الكعبة. لا شك أن المخطط لم يخطر بهذا التفصيل في ذهن أبرهة، إلا أنه هو النتيجة النهائية. فقول الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿أَلَمْ تَـرَ﴾ و ﴿رَبُّكَ﴾ -بمعنى أننا لم نفعل ما فعلنا بأصحاب الفيل إلا توطيدا لاحترامك وتعظيمك- لقولٌ صحيح ١٠٠%؛ إذ أراد الله تعالى إرساء تعظيم النبي ﷺ بذكر هذا الحادث أكثر من إرساء تعظيم الكعبة.

وباختصار، لقد استشاط أبرهة غضبًا وجمع جيشًا كبيرا وأخذ معه ثمانية أو اثني عشر فيلاً أحدها يدعى "محمود" بحسب بعض الروايات (ابن كثير).

لقد ورد في بعض الروايات أن النجاشي هو الذي بعث هذا الفيل (تفسير ابن كثير)، ولكنها رواية باطلة على ما يبدو، لأن هذا يتنافى مع سيرة النجاشي أولاً، وثانيا لا يذكر التاريخ أن النجاشي أُخبر بهذا الحادث.

لقد أخذ أبرهة الفيلة معه لبثّ الرعب في أهل مكة، إذ أراد هدم الكعبة دفعةً واحدة بربطها بسلاسل تجرّها هذه الفيلة، بدلاً من أن يهدمها رجاله، إذ كان هذا أشدّ تهويلا للعرب وأسرعَ في هدم الكعبة، والعياذ بالله.

لقد قلت من قبل إن انتظار أتباع الديانات المختلفة للمبعوث الرباني الموعود لهم بكل شدة قبيل مبعث النبي ﷺ، هو الذي جعل النصارى يخافون أنه لو استمر هذا الانتظار بين العرب وظهر مدعي نبوة فيهم لازدادوا وحدةً على وحدهم المتيسرة لهم بسبب الكعبة، وسوف تنشأ فيهم صحوة تقضي على الحكم المسيحي في الجزيرة ليقيموا مكانها دولة عربية. ومما يزيد هذا الدليل قوةً هو ما ذكره الطبري في جامع البيان -وقد سجلتُه من قبل أيضًا- وهو أن أبرهة قد أمر محمد بن خزاعي وأخاه قيس بن خزاعي بنشر دعاية بين العرب ليأتوا لحجّ كنيسته "القُلَّيس". فهذه الرواية تكشف لنا أن الناس كانوا قد أخذوا في تسمية أولادهم محمدا قبل بعثة النبي ﷺ، وهذا أمرٌ يعلمه المسلمون ولا يسع المسيحيين إنكاره أيضا. إن علماء الدرجة الثانية يظنون أنه لم يوجد بين العرب قبل بعثة النبي ﷺ أي شخص اسمه محمد، ولكن كبار العلماء يعارضون هذه الفكرة، إذ الثابت من كتب التاريخ أن بعض الناس كانوا قد سموا أولادهم باسم محمد قبل بعثته ﷺ كما ذكرت هذه الرواية اسم محمد بن خزاعي. والواقع أنه لم يكن هو الشخص الوحيد الذي اسمه محمد، بل نجد في كتب التاريخ خمسة أشخاص باسم محمد قبل النبي ﷺ، وليس سببه إلا ما ذكرت آنفًا بأن العرب واليهود والمسيحيين كلهم قد تولّد عندهم الإحساس قبيل بعثة النبي ﷺ بأنه قد حان ظهور المبعوث الرباني، بل وقد اعترف المؤرخون المسيحيون أنفسهم بوجود روايات تقول إن اسم النبي القادم هو محمد، ويبدو أن العرب فكروا في تسمية أولادهم باسم محمد بعد سماع هذه النبوءات من اليهود والنصارى، متفائلين أن يصبح ولدهم ذلك النبيَّ الموعود الذي ينتظرونه (السيرة الحلبية). ويتضح من كتب المسيحيين أيضا أن النبي الموعود يأتي حاملاً اسم محمد، فقد ورد صراحة في إنجيل برنابا -الذي ينكره المسيحيون دائما- أن شخصا باسم محمد سيظهر قريبا. فوجود اسم محمد بينهم يدل على أنهم أحسّوا أن الموعود قادم وأن اسمه محمد، فلذلك بدأ الناس يسمون أولادهم باسم محمد تفاؤلاً، فلعل الحظ يحالف ولدهم فيكون ذلك الموعود الذي أنبأت عن مجيئه كل الديانات، ويترقب الناس ظهوره بشدة. وبالفعل نجد في التاريخ خمسة أشخاص اسمهم محمد في الزمن

القريب لبعثة النبي ﷺ، أما الآخرون الذين كانوا يحملون اسم محمد و لم يـــذكرهم التاريخ فلا نستطيع أن نذكر عنهم شيئا. إلا أنه من المؤكد أن العرب لم يـــسمّوا أولادهم باسم محمد في أي زمن غير الزمن القريب من بعثـــة الـــنبي ﷺ. فعـــدم تسميتهم أولادَهم باسم محمد من قبل، ثم تسميتهم إياهم بهذا الاسم قبيل بعثته ﷺ لدليلٌ بينٌ على وجود إحساس عندهم يومها بأن ظهور النبي الموعود وشيك، لذلك بدءوا يسمون أولادهم باسم محمد على سبيل التفاؤل.

باختصار، لما بلغ أبرهةَ أن محمد بن خزاعي قد قُتل ثارت ثائرته وتميّزَ غيظًـــا، وازداد إصرارا على هدم الكعبة المشرفة (جامع البيان للطبري).

الحق أن قتل محمد بن خزاعي ما كان يمنحه أي مبرر سياسي لمهاجمة مكة؛ لأن بني خزاعة لم يكونوا تحت حكم اليمن، فقتلُ العربِ لشخص منهم جراء غدره لا يمنح أبرهة أي مبرر سياسي للهجوم، فكل قوم يمكن أن يقتلوا أحدًا منـــهم ولـــو ظلما. لقد وضّحت هذا الأمر إذ قد يقول قائل: كان هجوم أبرهة شـــرعيًا مـــن الناحية السياسية، لأن العرب قتلوا محمد بن خزاعي الذي بعثه أبرهة للدعاية بـــين العرب. كلا، إنه كان من العرب، وأحدُهم قتَله، وقتْلُه جريمة فردية لا جماعيـــة، وبنو خزاعة لم يكونوا تابعين لحكم اليمن حتى يُتَّخذ قتله مبررا سياســـيا للـــهجوم على مكة.

لما أخذ أبرهة في تجهيز الجيش حوّل الله تعالى انتباه العرب إليـــه ليزيـــد هـــذه المعجزة عظمةً، فتحمس عامة العرب للتصدي له، وكان أهل اليمن أولهم ثم تلاهم الآخرون؛ حيث حاول مَن تبقى مِن قادة العائلة الحميرية الحاكمة على اليمن قبـــل أبرهة استغلال هذا الوضع كي يستردوا مُلكهم ويبسطوا سلطانهم ثانية، فقـــاموا بتحميس العرب كلهم قائلين: لقد خذلتمونا ضد أبرهة من قبل، فترون الآن كيف أنه خرج للهجوم للقضاء عليكم جميعًا ولهدم الكعبة، فلا تزال عنـــدكم فرصـــة الحفاظ على كرامتكم، فتعالوا نحاربه متحدين. فقام "ذو نفر" الحميري وهو مـــن كبار العائلة الملكية اليمنية سابقًا بقيادة هذه الحملة (روح المعاني)، فـــنفخ حماسًـــا شديدًا في عامة العرب في اليمن باسم حماية الكعبة، فاجتمعت جميع القبائل العربية

في اليمن تحت رايته، فما إن خرج أبرهة من صنعاء حتى تصدى له ذو نفر بجيشه، واشتبك الفريقان. لا شك أن هؤلاء العرب كانوا مدفوعين بحماس دينيّ وحمية قومية، ولكن دولة اليمن كانت جزءا من الإمبراطورية الرومانية وكان عندها جيش مدرب تدريبا عاليًا على القتال. لا شك أن العرب كانوا منظَّمين إلى حد ما، غير أن مثَلهم مقابل جنود أبرهة المنظمين كمَثل جنود القبائل الأفغانية مقابل جنود الإنجليز، إذ كان هؤلاء أكثر من العرب عدة وعتادا، يتدربون على فنون القتال في المعسكرات، وكانوا كلهم جنودا نظاميين يتلقون رواتب نظير القتال، فأنَّى للعرب أن يقاوموهم؟ فمع أنهم أبلوا في الحرب بلاء حسنا مدافعين عن دينهم، لكنهم هُزموا في النهاية. فأسر أبرهةُ ذا نفر، ولما أراد قتله قال له: "لا تقتلني، فعسى أن يكون بقائي معك خيرا لك من قتلي". (تفسير الطبري)

هذا القول يبدو بسيطا، ولكنه ذو مغزى كبير، إذ يدل على أن "ذا نفر" كان على يقين أن كثيرا من القبائل العربية سوف تخرج لمحاربة أبرهة، فيعاني كثيرا من المشاكل، ولذلك قال في نفسه: لو بقيتُ معه لنفعتُه بالتصالح بين الفريقين فأنتفع منه فيما بعد. مما يوضح جليًا أن ما أراده أبرهة قد أثار العرب كلهم، فرأوا التصدي له واجبًا عليهم.

وبعدها سار أبرهة نحو الشمال حتى وصل إلى أرض بني خثعم الواقعة بين اليمن والطائف، فتصدى له جيش عربي آخر تحت قيادة نفيل بن حبيب الخثعمي، وكان يضمّ أيضًا قبيلتيْ شهران وناهس، ويرى البعض أن شهران وناهس جزء من بني خثعم، بينما يرى آخرون أنهما قبيلتان مختلفتان. المهم لقد حارب كلهم أبرهة دفاعًا عن الكعبة، إلا أنهم لقوا نفس المصير الذي لقيه الجيش العربي الأول، إذ كان هؤلاء القبليين يخرجون للحرب مرة كل ستة أشهر أو سنة، أما أبرهة فكان معه جيش منظم خبير يتدرب طول السنة في المعسكرات، ثم إنهم أكثر منهم عدّةً وعتادًا، فأنَّى للعرب أن يحاربوهم؟ لقد حاربوا ببسالة وقُتل الكثير منهم وجرحوا، ولكنهم مُنوا بالهزيمة، فأُسر قائدهم نفيل بن حبيب الخثعمي. ولما أراد أبرهة قتله

قال له نفيل: اتركْني حيًّا، فهذا أدعى لنفوذك على شهران وناهس. فاستبقاه وأخذه معه خفيرًا يدلّه على الطريق.

هذا يعني أن العرب كانوا قد أصبحوا ضعاف الإيمان، فمع أنهم حاربوا بشجاعة، ولكن إذا خافوا على أنفسهم تنازلوا مقابل الإغراء. وهذا ما فعل نفيل، فلما أراد أبرهة قتله قدَّم له خدماته قائلا: أمامك مَوماةٌ ستتيهُ فيها، فَاسْتَبْقِني حيًّا لأوصل جنودك إلى الكعبة، فقبِل عرْضه وأخَذه معه أسيرا. فسار بجيشه حتى وصل قريبا من الطائف، فخرج لاستقباله رئيسها مسعود بن معتَب زعيم بني ثقيف مع أعيان القوم. فقال مسعود الثقفي لأبرهة: أيها الملك، ليس بيننا وبينك خلاف. علمًا أن بني ثقيف هم الذين قضى النبي ﷺ بينهم أيام طفولته (السيرة النبوية لابن هشام، ج١ ص ١٦٩)، وهم الذين خاض ضدهم آخرَ حرب في حياته؛ أعني غزوة حنين (تاريخ الطبري: غزوة حنين)، والصنم "اللات" المذكور في القرآن الكريم -والذي يذكره شعراؤنا أيضًا بالأردية في شعرهم- كان معبده في مدينة الطائف. كان أهل الطائف يعظِّمون الكعبة بل كانوا يحجّونها، ومع ذلك كانوا يكنّون لها العداء بسبب صنمهم اللات؛ إذ كانوا يشعرون أن معبدهم لن يكون مرجعا للعرب ما دامت الكعبة موجودة.

وكان هناك سبب آخر وراء هذا العداء، وذلك أن أهل الطائف كانوا أكثر مالاً، وكانت أراضيهم خصبة جدا، فهي تنتج ألذَّ عنب ورمان في العالم. يرى الأوروبيون أن عنب إيطاليا أفضل عنب العالم، ولكني قد تناولت العنب الإيطالي خلال سفري إلى أوروبا وعنب الطائف أيضا، ولو أعطيتُ عنب الطائف مائة درجة فلن أعطِ العنب الإيطالي عشرة مقابله؛ إذ لا مقارنة بينهما أصلا. كما لم أذُقْ رُمّانًا أحلى من رمان الطائف؛ فهو شديد الحلاوة بحيث لا تريد أكل حلوٍ بعده. وإذ كان أهل الطائف أكثر مالا، وكان معبد اللات في مدينتهم، فكانوا يعادون أهل مكة حسدًا من عند أنفسهم، إذ كان معبدهم لا يحظى بنفس التعظيم الذي تحظى به الكعبة، فكانوا، مع حجّهم للكعبة، يسعون لأن يصبح معبد صنمهم اللات أكثر حرمة من الكعبة، أو مساويا لها. فلما رأوا أبرهة قادما لهدم الكعبة

ثارت حميتهم ضد أهل مكة فظنوا أن أبرهة لو تمكن من هدم الكعبة توجّهَ الناس إلى معبد اللات، فخرج زعيمهم مسعود بن معتب لاستقباله، وقال له: ليس بيننا وبينك خلاف، ولا الكعبة تعني لنا شيئا، ونحن خدامك وطوع أمرك، وسوف نبعث معك دليلا يوصلك إلى الكعبة رأسًا، فأمامك ودْيان مخوّفة، فنخاف على جندك أن يضِلّوا الطريق فلا تصل إلى مكة. ثم قال لأبرهة مؤكدًا ولاءه له: "فأرجوك ألا تتعرض لمعبدنا". مع أنه لم يخرج لهدم أي معبد سوى الكعبة المشرفة؛ إذ أيقنَ أن الكعبة تحول دون توجُّه العرب إلى المسيحية. فقبِل أبرهةُ التماسه، بل وعده بالمكافأة. فأرسل مسعود معه دليلا اسمه أبو رغال. ولكن مات هذا الدليل لما وصل جيش أبرهة إلى مكان قريب من مكة يسمى الـمُغَمَّس، فبنى قبره هناك، وكان العرب حتى بعثة النبي ﷺ بل بعده أيضا إذا مرّوا بقبره رشقوه بالحجارة إعلانا منهم أنه من الملعونين، حيث غدر بدينه وقومه وصار دليلا لأبرهة وجنده (روح المعاني). لا أستطيع القول ما إذا كان هذا القبر لا يزال موجودا اليوم أم لا، إذ ليس لدي معرفة بذلك.

هناك اختلاف عند المؤرخين فيما إذا كان أبرهة قد وصل بجيشه إلى المغمَّس أم تجاوزَه؛ فمنهم من يرى أنه لم يدخل حدود الحرم، ومنهم من يرى أنه وصل إلى عرفات؛ مما يعني أنه وصل قريبا من مكة باثني عشر ميلا. وبعضهم يرى أنه تجاوز أكثر، ووصل قريبا من مزدلفة؛ وهذا يعني أنه وصل قريبا من مكة بثمانية أميال. غير أن كل كتب التاريخ تتفق على أنه وصل حتمًا إلى المغمَّس التي تبعد عن مكة ١٦ ميلا على أكثر تقدير. فقد ورد في أبي داود عن عَبْد اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ حِينَ خَرَجْنَا مَعَهُ إِلَى الطَّائِفِ -أي في غزوة حنين- فَمَرَرْنَا بِقَبْرٍ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: هَذَا قَبْرُ أَبِي رِغَالٍ -وهو أبو ثقيف وكان من قوم ثمود- وَكَانَ بِهَذَا الْحَرَمِ يَدْفَعُ عَنْهُ، فَلَمَّا خَرَجَ أَصَابَتْهُ النِّقْمَةُ الَّتِي أَصَابَتْ قَوْمَهُ بِهَذَا الْمَكَانِ، فَدُفِنَ فِيهِ. (أبو داود، كتاب الخراج والفيء والإمارة، باب نبش القبور)

يبدو من هذه الرواية أن أبا رغال لم يكن دليلا لأبرهة، بل كان ممن يدافع عن مكة، لأن الرسول ﷺ يقول هنا: " وَكَانَ بِهَذَا الْحَرَمِ يَدْفَعُ عَنْهُ".. أي أنه جاء

للدفاع عن مكة. بينما تقول الرواية الأخرى أنه خرج مع أبرهة يدله على الطريق. ولا تبدو بين هاتين الروايتين أي علاقة في الظاهر، لأن إحداهما تعتبره عدوا للكعبة، والثابت تاريخيًا أنهم كانوا يرجمون قبره، بينما تقول الرواية الأخرى أن الرسول ﷺ أخبر أنه جاء دفاعًا عن مكة. وقد حاول البعض حلّ هذا الإشكال بقوله إن إحدى الروايتين صحيحة والأخرى باطلة آخذًا برواية أبي داود، بينما يقول الآخرون إن الرواية الأخرى أيضا قطعية تاريخية فلا يمكن اعتبارها باطلة (روح المعاني).

وقد حلّ المفسرون هذا الإشكال بقولهم إنهما شخصان اسمهما واحد، فأحدهما جاء للدفاع عن مكة، والآخر جاء دليلاً لأبرهة، وكان لهما قبرانِ. لو لم يكن هناك قبران لقال العرب: يا رسول الله، نحن نرجم قبره باعتباره غادرًا متمردا، وأنت تعتبره محافظا للكعبة (روح البيان). فثبت أن هذا القبر كان لأبي رغال آخر، ولذلك لم يقل أحد منهم يا رسول الله، ما هذا الذي تقول؟

إذًا فهناك أبو رغال الذي جاء مع أبرهة دليلا له ومات في الطريق، وهناك أبو رغال آخر جاء ليدافع عن مكة ومات فيما بعد. وهذا دليل آخر أن هناك شخصين باسم أبي رغال؛ فالأول مات قبل نزول العذاب على أصحاب الفيل، أما الآخر فمات بعد العذاب إذ ظل في مكة دفاعا عن الكعبة، فلما ذهب إلى قومه مستطلعا أخبارهم مات بالوباء الذي تفشّى في أصحاب الفيل وقومه.

وأرى أن سبب موت أبي رغال الأول بعد وصوله إلى المغمَّس هو أنه كان في قلبه شيء من الإيمان لكونه من العرب الذين يقدّسون الكعبة، ففكّر في شناعة غدره إذ خرج دليلاً لأبرهة؛ فشقّ ذلك على قلبه فمات بسكتة قلبية.

المهم أن أبرهة لما وصل مع جنوده إلى المغمَّس، بعث أسوَد بن مقصود الحبشي بكتيبة لاستطلاع أخبار أهل مكة (السيرة النبوية لابن هشام: الأسوَد يهاجم مكة).

وبالمناسبة فإن هذا الاسم (أسود بن مقصود الحبشي) أيضا يدل أن اللغة الحبشية كانت يومئذ مشابهة جدا للعربية. لقد ذكرتُ سابقًا أن اللغة الحبشية كانت تعتبر لهجة من العربية كما هو حال العبرية، وهناك كلمات كثيرة متماثلة في اللغتين، وقد انتقلت كثير منها من لغة إلى أخرى، حتى تجد كثيرا من الأسماء أيضا متشابهة

فيهما. خذوا مثلا هذا الاسم: أسود بن مقصود، فكلمة مقصود عربية، كذلك فإن أبرهة ويكسوم مطابقان لأوزان بعض الأسماء العربية (لسان العرب، تحت كلمتي: كسم، بره)، ولا تزال حتى اليوم مشاركة كبيرة بين اللغتين، أما في ذلك الزمن فكانت أكبر. والحق أن حكام الحبشة كانوا من نسل عربي، والأسرة الملكية الحالية من نسل عربي أيضا، وهذا هو سبب المشابهة بين اللغتين.

ونعود إلى حديثنا ثانية، فنقول: لما وصل أسود بن مقصود الحبشي بكتيبته قريبًا من مكة، وجد هنالك مواشي أهلها ترعى في الوديان، فساقها معه عندما عاد بعد جمع المعلومات اللازمة (السيرة النبوية لابن هشام: الأسوَدُ يهاجم مكة). وكانت الجِمال أكبر مالٍ لأهل مكة -علمًا أن الخيل قليلة في الجزيرة العربية، فعندما قمت بالحج عام ١٩١٢ لم تكن في مكة كلها إلا ثلاثة خيول أو أربعة، ولا أعرف عن الوضع الآن. والحصان العربي الشهير عالميا يوجد في شرق الجزيرة، أي في نجد وأطرافها. وأهل الشام وما حولها أيضًا يربّون الخيول، ولكن تربيتها عند أهل الحجاز قليلة، والسبب قلّة الكلأ. فالجِمال تعيش على أوراق الشجر وأشواكها، لكن الخيول لا تأكل هذه الأشياء، لذلك كانت الجِمال أكبر مال عند العرب عبر الزمن. وكان أهل مكة يستأجرون أناسًا يخرجون بالمواشي صباحا ويرجعون بها مساء كما هو الحال في بلادنا، أما الجِمال فما كان الرعاة يرجعون بها ليلا، بل كانوا يبيتون بها في الخارج، وبعد نحو أسبوع كانوا يرجعون بها ليراها صاحبها. فكانت جمال أهل مكة ترعى في الوديان حولها على مسافة ميلين أو ثلاثة، فساق أسود بن مقصود جمالهم، وكان بينها مائتا جمل لعبد المطّلب.

لما اقترب رجال أبرهة من مكة لاستطلاع الأخبار، ظنّ أهلها أن الهجوم وشيك، فاجتمع زعماء بني كنانة وهذيل وقريش للتشاور فيما إذا كان عليهم أن يتصدّوا لأبرهة أم لا -علمًا أن قريشًا ليست وحدها من بني إسماعيل، بل كان بنو إسماعيل قد انتشروا في الجزيرة كلها، وليست قريش إلا أولاد أحد أبناء كنانة الذي هو من نسل إسماعيل- فأجمعوا على أن لا قِبَلَ لهم بأبرهة وجنوده، فلا مجال للحرب، وهكذا تخلّوا عن فكرة محاربته (السيرة النبوية لابن هشام: أمر الفيل).

لقد سبق أن قلت إن أبرهة لم يخرج لإيذاء العرب أو معاقبة أهل مكة، وإنما كان هدفه هدم الكعبة حتى لا يتوجه العرب إلى مكة بعدها، بل يتوجهوا بدلاً منها إلى كنيسته في صنعاء، أو يتفرقوا ويتشتتوا فلا يبقى لاتحادهم سبيل. ومن أجل ذلك بعث إلى أهل مكة رسوله الخاص "حياطة"✵ الذي كان من بني حمير، ليخبرهم نيابة عن أبرهة أنه لم يأت إلا لهدم الكعبة، ولا يريد إيذاءهم أبدًا؛ إذ ليس بينه وبينهم عداوة، وهو لا يريد أن يزهقوا أرواحهم من دون داعٍ، فلو خلّوا سبيله ليهدم الكعبة فهم إخوانه ولا يريد أي فساد بين الطرفين (السيرة النبوية لابن هشام: أمر الفيل، رسول أبرهة إلى مكة، وروح المعاني).

ولما بلغ رسول أبرهة إلى مكة سأل عن زعيمها، فدلّوه على عبد المطلب، فوصل إليه وبلّغه رسالة أبرهة، فرد عليه في الجواب: إذا كان هو لا يريد حربنا، فوالله لا نريد حربه أيضًا، ثم أخبره صراحة وقال: لقد قرّرنا بعد التشاور ألا نتصدى له، إذ لا قِبَلَ لنا به.

أما جيش أبرهة فقد قال البعض إنه بلغ اثني عشر ألف مقاتل، بينما قال آخرون: كان عددهم عشرين ألف مقاتل (تفسير ابن كثير). والحق أن مثل هذا الجيش الكبير يكفي لغزو دولة، فإن محمد بن القاسم لما خرج لغزو الهند لم يكن برفقته إلا ثلاثة آلاف مقاتل، ولذلك صرح عبد المطلب لرسول أبرهة وقال: إننا لا نمنّ على أحد، بل الواقع أننا لا نقدر على محاربته. أما هذا البيت الذي نقدّسه فإننا نؤمن أنه بيت الله، وأن الله قد وعد بحمايته، وأن إبراهيم الذي كان خليل الله ونبيّه وحبيبه هو الذي قد بناه. ولا شك أنه لا قِبَلَ لنا بأبرهة وجنوده، ولكننا نريد أن نخبركم بصراحة أن الله تعالى لو أراد حماية هذا البيت فهو بيته، وهو المسؤول عن توطيد حرمته، فإذا كان هو لا يريد حماية هذا البيت ويتخلى عنه ليهدمه أبرهة

✵ ذكر بعض المراجع -مثل روح المعاني- اسمه "حياطة"، وبينما ورد في معظم المراجع "حناطة". (المترجم)

وجنوده، فليس عندنا سبيل لحمايته. فقال "حياطة" لعبد المطلب: إذا كنتم لا تريدون محاربة أبرهة فالأفضل أن ترافقني إليه، لأنه يرغب في لقاء أحد زعماء مكة، فأرجو أن تأتي معي وتخبر أبرهة أنكم لا تريدون محاربته، فهذا يفرحه، وربما يتراجع عن هدم الكعبة.

فأخذ عبد المطلب أبناءه وبعض رؤساء مكة وخرج إلى المغمَّس للقاء أبرهة. ولما كان العرب يخرجون في أسفار بكثرة كما هو مذكور في السورة التالية لهذه السورة، بعضهم إلى اليمن وبعضهم إلى الشام وبعضهم إلى الحبشة وبعضهم إلى العراق (تاريخ مكة المكرمة ج١ ص١٩٥)، فكان بينهم وبين أهلها صداقات وصلات، وكان بين عبد المطلب وذي نفر الحميري صلاتٌ متينة بلغت حد الصداقة، فلما علم عبد المطلب من خلال الحديث مع "حياطة" أن الحميري هذا كان قد خرج بجيش ضد أبرهة دفاعًا عن مكة وأنه هُزم وأُسر وأنه معه الآن، فكَّر في لقائه قبل لقاء أبرهة، لأن الحميري من اليمن ويعرف عادات الحبشيين معرفة تامة، فلعله يشير عليه برأي مفيد. فوصل إلى المعسكر وعلم بمكان إقامة الحميري، -لا شك أن الحميري كان أسيرا، ولكن الأسير في ذلك الزمن لم يكن يوضع في زنزانة، بل كان يعيش مراقَبًا مثل الإقامة الجبرية التي تفرض على بعض المجرمين اليوم- وقال له: كيف أصبحت عديم الاهتمام بالكعبة وأهلها.. أي لو كنت تحب الكعبة حقًّا، أو لو كان عندك أي اهتمام بالصداقة بيننا لسعيتَ لمنع هذا الهجوم على الكعبة. فقال ذو نفر الحميري: ماذا يمكن أن يفعله أسير لا يعرفُ صباحًا أَيَظَلُّ حيًّا حتى المساء، ولا مساءً أَيَظَلُّ حيًّا حتى الصباح؟! أنا تحت رحمة أبرهة كلية، فإذا شاء قتَلني مساءً أو صباحا. ولقد فعلتُ ما كان بوسعي. لقد حاربتُه فهُزمت وأُسرتُ. أتمنى لكم النجاة، لكن لا أملك شيئًا، فما قيمة رأيي؟ غير أنني قد أنشأتُ خلال أسري صداقةً مع سائس فيل الملك واسمه أنيس (روح المعاني)، فهو يكنّ لي الاحترام، فإذا شئت دعوتُه وطلبت منه أن يهمس في أذن الملك بكلمة خير من أجلك. وكانت عادة الملوك في القديم -وقد استمرّت عند ملوك الهند أيضًا

فترة طويلة- أن يقبلوا شفاعات خدمهم إلى حدّ كبير، إذ يرون رفضها خلافًا لمكانتهم، ويبدو أن هذه العادة كانت عندهم أيضًا. إن عمل سائس الملك مسؤولية كبيرة؛ فهو مسؤول عن حياته، إلا أنه ليس منصبا كبيرا كمناصب الضباط والقادة، وغاية ما يمكن أن نقول إنه سائس كبير، إلا أن كلمة "أنيس" كانت مسموعة عند الملك لكونه خادمًا مدلّلا له، ولذلك أشار ذو نفر على عبد المطّلب أنه يستطيع أن يدبّر مقابلة بينه وبين "أنيس". وكان عبد المطلب لا يملك حيلة ولا يهتدي سبيلا، فقبِل اقتراح ذي نفر مسرورا، فبعث ذو نفر إلى "أنيس" بأن عبد المطلب زعيمُ قريش، يشفق على الفقراء ويطعم الحيوانات فضلاً عن الناس، وقد أخذ فرسانُ الملك مائتي جمل له، فأرجوك أن تدبّر لقاء له مع الملك وتشفع له شفاعة حسنة إن استطعتَ.

وقوله هذا إشارة إلى ما كان يفعله الناس في الماضي، بل اليوم أيضا، فإنهم إذا ذبحوا حيوانا ألقوا شيئًا من لحمه للحِدْآن والكلاب. فكأنه قال إنه رجل كريم لا يعتني بالناس فقط، بل يرفق بالحيوانات أيضا.

فوعَده "أنيس" بما أراد، وذهب بعبد المطلب إلى خيمة أبرهة واستأذنه قائلا: لقد جاء عبد المطلب زعيم مكة راغبًا في زيارتك. ثم أخبره كما أشار عليه ذو نفر بأنه إنسان كريم يطعم الناس والحيوانات، ونرجو من ملكنا أن يخصّه بعنايته وكرمه. فسمح له الملك بالدخول. كان عبد المطلب جميلاً وجيهًا طويلا ضخم البِنية قويّ البنية أبيض البشرة، فلما دخل عليه أُعجبَ به أيما إعجاب -علمًا أن الأحباش قصيرو القامة عادة- فقام للقائه، فأراد أولاً أن يُجلسه معه على الأريكة، ولكنه غيّر رأيه؛ حيث فكّر أن هذا ربما يُسخِط قومه الأحباش، إذ يعتبرونه إساءة إلى ملكهم. غير أنه لم يُرِدْ أن يجلس عبد المطلب على الأرض وهو جالس على الأريكة، فنزل وجلس على السجاد وأجلس عبد المطلب معه. ثم قال لترجمانه: قلْ له: إني مسرور بلقائك، فما الذي وراءك؟ وماذا تريد مني؟ فقال عبد المطلب لترجمانه: قُلْ للملك: إن رجالك قد ساقوا مائتين من إبلي، وأريد أن يردّها لي. فلما نقل الترجمان كلامه لأبرهة قال له: قُلْ له: كنت أُعجبتُ بك حين رأيتك، إذ

ظننتك عاقلاً محنّكًا، ولذلك نزلتُ عن عرشي للقائك، ولكن رأيي قد تغير بعد سماع كلامك. فلعله قد بلغك أني جئت بجيش عظيم لهدم المكان الذي هو معبدك ومعبد آلهتك، وكنت على يقين أنك ستعرض أمامي هذه القضية وستطالبني بالعودة من دون التعرض لهذا المكان المقدس عندك، سواء قبلتُ طلبك أم لم أقبل، لكنك لم تشر إلى معبدك بل معبد آبائك من زمان سحيق، وإنما جئت تطالبني بردّ مئتين من إبلك. فهل هذا محل الحديث عن الإبل؟ تتحدث عن المائتين من إبلك التي قد ساقها رجالي، ونسيت ذلك البيت الذي هو ذو صلة وثيقة بدينك ودين آبائك؟

فقال عبد المطلب للترجمان: قل لملكك: أنا صاحب الإبل، و لم أطالبك بها إلا تذكيرًا لك بأنها جمالي ولذلك أنا قلقٌ بشأنها، وإذا كان للكعبة ربٌّ، فلا بد أن يكون مهتمًا بها؛ فإني لم أخطئْ في مطالبتي بإبلي، وإنما بيّنتُ لك هذا لأننا إذا كنا صادقين في إيماننا بأن هذا البيت لله فلن تنجو من العقاب إذا هاجمتَه، لأنني إذا كنت مهتمًا بجِمالي، فهل تظنّ أن رب الكعبة لن يهتم بها ولن يدافع عنها؟ إن كل إنسان يعمل بما في وسعه، فلو قاتلناك ومع ذلك هدمتَ هذا البيت فماذا ينفعنا هذا؟ أما إذا أراد الله تعالى حماية بيته هذا فلماذا نحاربك؟ فإن صاحبه سوف يتولى حمايته منك.

فبُهِتَ أبرهة، ولكنه قال: الآن لن يمنعني من هدم هذا البيت مانع. فقال عبد المطلب: إذًا فهذا بينك وبين صاحب هذا البيت، أما أنا فأرجوك أن ترُدَّ لي إبلي. فأمَر أبرهة بردِّ الجِمال لعبد المطلب (روح المعاني).

لقد سبق أن ذكرتُ أنه لم يكن في رفقة عبد المطلب عندها إلا أبناؤه الذين ذهبوا معه لحراسته أو بعضُ زعماء القبائل. وورد في الروايات أنه كان برفقته يعمر بن نفاثة زعيم بني كنانة وخويلد بن واثلة زعيم هذيل. كان عبد المطلب يغلب عليه طابعُ الزهد والنسك، أما يعمر وخويلد فكانا سياسيينِ، فقالا لأبرهة: لقد جئنا بعرضٍ من أهل تهامة وهو أن تأخذ ثلث غلالنا وتترك الثلثين على أن تنثني عن

هدم الكعبة. فقال أبرهة: كلا، إنما جئت لهدمها ولا رغبة لي في مـــالكم. فرجـــع القوم إلى مكة.

فجمع عبد المطلب أهل مكة وحكى لهم ما جرى في لقائه مع أبرهة، وأخبرهم بأننا قد اقترحنا عليه أن يأخذ ثلث أموال تهامة كلها على ألا يتعرض للكعبة، لكنه رفض. مما يدل أنه سيهاجم الكعبة حتمًا، وليس عندنا جيش ولا عتـــاد، فـــالرأي عندي أن تُخْلوا المدينة وتعتصموا بالجبال لكي يأتي أبرهة ويفعل مـــا يريـــد، أو يُحدث الله أمرًا، وبعدها سوف نرجع إلى مكة.

ثم توجّه عبد المطّلب مع بعض رجالات قريش إلى الكعبة بقلب مفعم بالرقّـــة واللوعة والألم، فأخذ حلقة بابها وأنشد داعيًا ربه في حرقة وألم:

لاهُمَّ إن العبد يمنع رحله فامنعْ حِلالكْ

لا يغلبنّ صليبُهم ومِحالُهم، غَدْوًا، مِحالَك

ولفظ "لاهُمَّ" أصله "اللّهمَّ"، حيث يحذفون الألف واللام لضرورة شعرية أحيانا. ومعنى البيت: يا ربّ، إن المرء يتصدى لمن يأتي لنهب بيته الذي يعيش فيه مع أهله وأولاده، فأتوسل إليك رب أن تحمي من العدو بيتك هذا الذي يجتمع فيه النـــاس لعبادتك. ربِّ سيأتي أبرهة غدًا لهدم الكعبة بصلبانه وقواته، فلا تَدَعَنَّه يتغلب على قدرتك وكيدك.

ثم اعتصمَ عبد المطلب مع قريش بالجبال ينتظر هجوم أبرهة.

وفي صباح اليوم التالي أشار أبرهة لجنوده بالتحرك، وأمرهم بإخراج الفيلة أولاً ليتبعها سائر الجيش، فلما ذهبوا يُخرِجون الفيلة لم يتحرك كبير الفيلـــة – واسمـــه محمود – من مربضه بقدرٍ من الله تعالى، فجميع المصادر التاريخية متفقة أنه كلمـــا وجّهوه إلى مكة لم يتحركْ وبرك. علمًا أنه كما يكون في الجيش قادة على كـــل مجموعة من الجنود يتحركون بأمره وتحرُّكه، كذلك يكون للفيلة قائد منها تتحرك بتحرّكه؛ فإذا قام قامت، وإذا هاجم هاجمت، فهي تتبعه في كل حـــال، أمـــا إذا خرجت من دون قائدها سارت سيرًا معوجًّا مشتّتا، وقد تتحرك أحيانا وهي تظن أن قائدها وراءها، ولكنها لا تخوض الحرب من دونه. فلما برك الفيـــل "محمـــود"

أصابهم القلق مخافة أن تفشل الخطة كلها، فضربوه ليقوم فأبى، فضربوه في بطنه ووجهه بالأسنة والمحاجن وغيرها، ولكنه لم يتحرك، وكلما أكثروا من ضربه قام فزعًا، وكلما وجهوه إلى اليمن أو إلى أي جهة أخرى قام مسرعا، ولكنهم إذا وجّهوه إلى مكة برك. فظلوا يضربونه في فزع ولكنه لم يقم، فتأخر تحرُّك الجيش (جامع البيان). وفيما هم في ذلك حتى بلغ أبرهة أنه قد ظهرت أعراض الجدري على بعض جنوده. علمًا أن بعض الأمراض مخصوصة ببعض البلدان، ومرض الجدري خاص بالأحباش، فقد انتشر أصلا من الحبشة، كما أن مرض الزُّهْري ظهر أولاً في أوروبا (الموسوعة البريطانية، تحت كلمة: Syphilis)، ولذلك سُمّي في الكتب العربية "داء الإفرنج". ولما كان أهل مكة قد خرجوا إلى الجبال تاركين بيت الله تعالى وراءهم، ولم يكن هناك ما يحول بين بيت الله وهذا الجيش، ولم يكن له حامٍ منه سوى الله، فنزل الله لحمايته في صورة وباء الجدري الذي هو أشد فتكًا بالأحباش من غيرهم. فلما بلغ أبرهة أن الجدري قد تفشى في جنوده، وأن أكبر الفيلة لا يتحرك مما بثّ الرعب فيهم؛ أجّلَ تحرُّك الجيش (السيرة النبوية لابن إسحاق: أبرهة يهاجم الكعبة).

ليس لدينا تفاصيل بهذا الصدد، إلا أن الثابت من كتب التاريخ أن الجيش لم يتحرك في ذلك اليوم لعدم تحرُّك الفيلة غالبًا، فانتشر الجدري فيهم على نطاق واسع حتى المساء وأخذ الآلاف يضطربون من ويلاته، وفي اليوم الثاني والثالث أخذوا يموتون. ومعلوم أن الجدري مرضٌ مُعْدٍ جدًّا؛ حيث ينتقل من الواحد إلى الآخر بسرعة، فانتقل من المصابين إلى الأصحاء ووقعت الفوضى في الجيش كله.

وكانت هذه أول حالة للجدري بين العرب، ولما تفشّى بين أهل الطائف -أي العرب الذين انضموا إلى جيش أبرهة طمعًا في تعظيم معبد صنمهم "اللات"- أدركوا أن هذا عقاب من الله تعالى على غدرهم ببيته الكعبة، إذ كان الجدري غريبا تماما بالنسبة إلى العرب، فلم يكونوا يعلمون ما الجدري وأعراضه، ولو كانوا على علم به لاعتبروا هذا الحادث صدفة، ولكن جهلهم به جعلهم يعتبرونه عذابا

من الله -وكان بالفعل عذابا من الله- ولكن جهلهم بهذا المرض جعلهم يـــدركون هذا الأمر بسرعة، ففروا فزعين.

إن الأمم التي يفشو بينهم الجدري وما شابهه من أوبئة تعرف علاجها أيـــضا؛ فمثلاً تفشّى الطاعون ذات مرة في الجيش الإسلامي في الشام في عهد سيدنا عمـــر ﷺ، وكان أبو عبيدة بن الجراح ﷺ قائد الجيش، فسأل أهلَ الشام ماذا تفعلون في مثل هذه الحالة؟ قالوا: نخرج من قرانا وننتشر على الجبال. فقال بعض الـــصحابة: علينا أن نترك هذا المكان ونذهب إلى الجبال، خاصة وأن الطاعون يخفّ في البرد. فقال أبو عبيدة: أتفرّون من قدر الله؟ فقال صحابي: نعمْ، نفرّ من قدر الله إلى قدر الله؟.. أي حيثما نذهب يكون قدر الله نفسه عاملا هناك أيضا، فلا يمكن القـــول إننا نفرّ من قدر الله.

وهذا هو علاج وباء الجدري عند الناس، فإنهم يتركون المكان الموبوء وينتشرون في أماكن مفتوحة (الموسوعة البريطانية).

فلما تفشى الجدري في جنود أبرهة قرّروا أن ينتشروا هنا وهنـــاك، ولكنـــهم واجهوا مشكلة كبيرة، إذ كانت جميع الوديان حول مكة وعرة وغير عامرة، حيث تمتدّ البرّية أميالاً وأميالا يضل فيها الناس. فلما انتشرت جنوده في الوديان ضـــلّوا الطريق، و لم يجدوا من يدلّهم عليه، لأن الذين رافقوهم من أهل الطائف قد فـــرّوا، فتبدّدَ جنوده إلى المدينة وإلى نجد وغيرهما من مناطق، بدلاً من أن يتجهوا ناحيـــة اليمن، إذ لم يعرفوا جهة بلادهم، فمات كثير منهم جوعا وعطشا تائهين في تلك الوديان؛ إذ كانوا قد ألقوا ما عندهم من الزاد في فزع وفوضى. وتفاقمت معاناتهم بسبب مرضاهم؛ إذ لو تركوهم هنالك فمن أين يأكلون ومن ذا الذي يعتني بهـــم، وإذا أخذوهم معهم فكيف وأين يأخذونهم؟ فترك كثير منهم مرضـــاهم هنالـــك وهربوا، وهكذا هلك هؤلاء المرضى جوعا وعطشا. أما الذين أخـــذوا مرضـــاهم معهم فصعب عليهم السفر أولاً، كما أصيبوا بالجدري أيضا مثلهم، فهو مـــرض مُعدٍ جدًا، وهكذا وقع معظم الجيش فريسة له.

أما أبرهة فقد هرب برؤية هذا الدمار، وحيث إنه كان ملِكًا فيبدو أن بعض كبار رجالاته رافقوه خوفًا منه، فتوجّه معهم نحو اليمن، ولكنه أصيب بالجدري بشدة حتى ملأت جسدَه البثورُ المليئة قيحا، وأخذ لحمه يتساقط. لا شك أن هناك بعض المبالغات في الروايات، ولكن لا يمكن إنكار أن أبرهة أصيب بالجدري الفتّاك، وتقول الروايات أنه عندما وصل صنعاء لم يبق منه إلا رأسه وعظامه، فمات هنالك (مجمع البيان، وروح المعاني).

كان دمارًا شديدا غير عاديّ، فوقعت ضجّة في البلاد، وذُعر الناس وأصابهم الهلع، وأدركوا أنه عذاب من الله.

سوف أذكر لاحقا الروايات التي سجلها المفسرون، أما هنا فأكتفي بالقول بأن الرواية الشهيرة بهذا الصدد تقول إن الطيور جاءت وألقت الحجارة على أبرهة وجنوده، فكان الحجر يصيب المرء في رأسه ويخرج من إِسته (روح المعاني).

وفي رواية عن عكرمة في تفسير روح المعاني أن من أصابه الحجر أصابه الجدري، ثم يقول: وهو أول جدري ظهر بأرض العرب، و لم يكونوا على عهد به من قبل.

وقد نقل الطبري عن يعقوب بن عُتبة قوله أنه حدّث أن أول ما رؤيت الحصبة والجدري في أرض العرب ذلك العامَ. (جامع البيان)

وأتناول الآن شتى الروايات التي ذكرها المفسرون. لا شك أن الروايات التي سجلتها من قبل منقولة عن المفسرين والمؤرخين، ولكني سجلتُ من قبل الروايات التي أراها أصحّ، أما الآن فأذكر الرواية التي بنى عليها المفسرون تفاسيرهم:

ورد في هذه الرواية أنه لما قرر أبرهة الهجوم على الكعبة وهو في مكان يسمى "المغمّس"، أمر فيلته بالتحرك أمام الجيش، فبرك كبير الفيلة وقائدها و لم يتحرك، وفيما هم في ذلك إذ رأوا طيورا قادمة من ناحية البحر، وكانت صغيرة، وجوهُها كوجوه البشر، ومناقيرها كأفواه الجِمال، ومخالبها كبراثن الأسود، مع كل طير منها ثلاثةُ أحجار يحملها، حجر في منقاره وحجرانِ في رجليه مثل الحمص والعدس، وكان على كل حجر منها اسمٌ لجندي، فعلى بعضها اسم أبرهة وعلى

غيرها أسماء الآخرين، وكان الطير لا يصيب به إلا مَن كُتب اسمه عليه، وإذا رماه به أصاب رأسه وخرج من إسته وأرداه قتيلا في مكانه.

كذلك ورد أن كلّ فرد من جيش أبرهة هلك بتلك الأحجار، ولم ينجُ منها سوى أبرهة، فهرب من هنالك، فلم يزل الطير الذي في منقاره حجرٌ باسمه يلاحقه، ولكنه لم يضربه به إلى أن وصل إلى اليمن، وأخذ من هنالك سفينة ركبها إلى ساحل الحبشة، وبعدها وصل إلى النجاشي بعد قطع المسافة بين الساحل وعاصمته في نحو خمسة عشر أو عشرين يومًا بالنظر إلى سرعة السفر في ذلك الزمن، فأخبر أنه خرج بنيّة الهجوم على الكعبة، فجاءت الطيور وألقت الحجارة من السماءِ فمات جنوده كلهم. فقال النجاشي: مِن غير المعقول أن تأتي طيور صغيرة ترمي الناس بحجارة وتقتلهم! وفيما هو في ذلك إذ سمعوا صوتًا، فرأى أبرهة في السماء طيرًا من تلك الطيور، فقال: أيها الملك، انظرْ، مثل هذا الطير كانت الطيور التي كانت تحمل في مناقيرها ومخالبها الحجارة وتقتل شخصا بحجر واحد، فلم يكد ينهي كلامه حتى أصابه الطير بحجر في رأسه فأرداه قتيلا. (روح المعاني، ومجمع البيان)

هذه الرواية هي التي قد ذكرها الرواة كاملةً، وهي تتحدث عن الحجارة بشكل غريب، مما يجعلها تخالف الرواية التي ذكرتُها من قبل، وتخالف العقل أيضا. لقد ذكرتُ من قبل أن معظم الروايات تذكر فرار أبرهة وتذكر إصابته بالجدري في الطريق ووصوله إلى اليمن وهلاكه قريبا من صنعاء. والحق أن الروايات التي تذكر أن الحجارة تصيب رأسهم وتخرج من إستهم مبالغ فيها، ولكن قد ورد في روايات مماثلة لها أيضا أن من أصابه الحجر أصيب بالجدري. وهذه الكلمات من الرواية تكشف لنا حقيقة الروايات الأخرى، حيث تكشف لنا أن كل ما في الأمر أنهم إنما أُصيبوا بالجدري، ولكن القصّاصين جعلوا من الحبة قبة. والثابت من رواية الصحابة المتواترة وروايات الآخرين أنهم قد أُصيبوا بالجدري، وأن هذا المرض ظهر في الجزيرة العربية أول مرة في جنود أبرهة، أما قولهم -محاولةً منهم لإقناع المسلم- بأن الله تعالى قد بعث خِصّيصًا من قِبل البحر طيورا لا أثر لها في العالم، إذ كانت

حجومها كحجوم الخطاطيف، ووجوهها كوجوه الآدميين، ومناقيرها كأفواه الإبل، ومخالبها كبراثن الأسود، فهو يدل على أن ناسج هذه القصة قد سبق في تخيُّله صاحِبَ "ألف ليلة وليلة". فلو أنه قال بأن هذه الطيور كانت عظيمة البنية - وذلك كما يصور بعض القصّاصين نسرًا عظيمَ البنية- وأن وجوهها وأعناقها عظيمة كوجوه الإبل الهائجة وأعناقها، ومخالبها عظيمة كبراثن الأسود، وأنها كانت تحمل في مناقيرها ومخالبها حجارة يزن كلّ منها خمسين كيلو غرامًا، فكانت ترمي بها جنود أبرهة فتقتلهم.. أقول لو صوَّرها القصّاص هكذا لكان في تصوره انسجام، ولكنه يقول إن مخالبها كانت مخالب عصافير، ولكنها كانت تبدو كمخالب الأسود، فأنّى لمخلب عصفور أن يظهر مخيفا كبراثن الأسد؟ ثم إن منقار العصفور يكون صغيرا كرأس القلم، فكيف يمكن أن يبدو مخيفا كفم الجمل الهائج؟ فالرواية مثيرة للسخرية. وأكبر ما فيها من سخرية هو أن كل من ألقت عليه هذه الطيور حجرا أُصيب بالجدري! وكأن الله تعالى لم يكن يعلم في ذلك الوقت كيف يخلق هذا المرض في داخل أجساد الناس، فاضطر لأن يخلق هذه الطيور الغريبة التي كانت وجوهها كوجوه الآدميين وأعناقها كأعناق الجمال ومخالبها كبراثن الأسود.. وأن يخلق تلك الأحجار الغريبة التي لا وجود لها اليوم في العالم، والتي إذا أصابت المرء في رأسه خرجت من إسته، وليست حصيلة كل هذا التعب والجهد إلا إصابته بالجدري. كل هذا يشكل في حد ذاته دليلا على أن هذه الروايات ليست إلا نتاجَ تخيُّلِ بعض العرب الجهّال الذين نسجوا هذه القصص الغريبة، والذين لم يعرفوا مرض الجدري. فقد يكون البعض قد ذكر أن جثث هؤلاء القوم وجدت مرمية بين الأحجار، وذكر البعض أن الطيور مزَّقت لحومهم، فظنّ الثالث أنّ هذه الطيور هي التي قتلتهم بالحجارة، ثم لما سمع الآخرون أن هؤلاء الجنود أُصيبوا بالجدري، ضمّوا هذا الأمر أيضا إلى قصته الملفَّقة، فقالوا إن كل من رمته هذه الطيور بحجر كان يصاب بالجدري.

الواقع أن هذه القصة تشبه الحكاية الشائعة عندنا بأن أحدا سأل صاحبه: ما السبيل لصيد طائر النورس؟ فقال له صاحبه هناك طريقة رائعة لصيده، فهو يوجد

في أيام البرد واقفًا منكمشًا على شاطئ ترعة، فخُذْ معك قطعة من الشمع، واقتربْ منه حبوًا، متخفيًا وراء الحجارة والأعشاب، ثم أَلْقِ على رأسه الشمع، ثم اختفِ وراء حجر بهدوء، فإذا طلعت الشمس أذابت الشمع شيئا فشيئا حتى يغطي الشمع عينيه، فتقدَّم عندها وأمسك به. فقال: لماذا لا أمسكه فور وصولي إليه بدلاً من أن أضع على رأسه الشمع وأنتظر طلوع الشمس وإذابتها الشمع وما إلى ذلك؟ فأجاب: لو أمسكت به بهذه الطريقة فأي مهارة في ذلك؟

هذا هو حال أصحاب هذه الروايات، إذ يقولون إن الله تعالى قد بعث طيورا يحمل كل واحد منها في منقاره حجرًا وفي مخلبيه حجرين، وكان يلقيها على كل جندي، فكان يُصاب بالجدري. لماذا لم يقولوا ببساطة إنهم أُصيبوا بالجدري؟ فهذا لا يتطلب نسج كل هذه الحكاية، فإن الله تعالى يصيب الناس بالجدري كل يوم ولا يبعث لذلك أي طير. إنما نسجوا هذه الحكاية لأن العرب لم يعهدوا الجدري و لم يجرّبوه قبل ذلك، فلم يدروا ماهيته. ومن المعلوم أن مرض الزُّهري أصلُه أوروبا، إذ بدأ هناك أولاً ثم تفشى في البلاد الأخرى. أما مرض الكوليرا فلم يوجد في أوروبا حتى ما قبل القرن التاسع عشر، وإنما كان أصله في آسيا الصغرى والصين (الموسوعة البريطانية، تحت كلمة: Cholera)، ومن هنا وصل أوروبا، فوقعت هناك حالات من الكوليرا. فالآن لو قال أحد بأن الله تعالى قد بعث جنًّا ضخامًا فنفخوا في أنوف الناس، فانتفخت أمعاؤهم، وأصيبوا بالإسهال، فأخذوا يموتون، بدلاً من أن يقول إن الكوليرا تفشت فيهم، فهل يصدِّقه أحد؟ فكل ما في الأمر أن هؤلاء أصيبوا بالجدري كما يصاب به الناس اليوم، ولكن لم يكن للعرب عهد بهذا المرض، فنسجوا قصة غريبة بعد سماع شتى أقوال الناس عن الحادث، فسمعوا من البعض مثلاً أن جثث القوم كانت ملقاة على الحجارة، وسمعوا من آخرين أن الطيور كانت تنهش لحومهم، وسمعوا أنه كانت بهم بثور بحجم العدس والسمسم، فجمعوا كل هذه الأمور واختلقوا منها هذه القصة الغريبة.

أما ما هي قصة الحجارة؟ فسوف نتناولها عند ذكرها في الآيات التالية.

باختصار، إن ما قلتُه تدعمه بعض الروايات الأخرى التي تبين أن الأصح هو أنهم أُصيبوا بالجدري. وفي "الدر المنثور" رواية عن عائشة رضي الله عنها رواها ابن إسحاق وهو من كبار المؤرخين -وقد وردت في كتب أخرى أيضا- أنها قالت: لقد رأيت أعميَين في مكة يتسولان الناس، فسألتُ من هما: فقيل لي: إنهما سائس فيلِ أبرهة وقائده (شرح الزرقاني على المواهب اللدنية ج١ ص ٨٨).

هذه الرواية توضح الأمر، فالجدري يصيب الناس بالعمى بكثرة، وكان العميان بالجدري كثيرين في الماضي، ولو سألت عن سبب عماهم لقال ٨٠% منهم: الجدري. ذلك أن الجدري عندما يشتد بالمرء تصيب البثور عينه أيضا، فيذهب بصره.

كانت الرواية الأولى تقول: كانت الطيور ترمي المرء بحجر، فيصيب رأسه ويخرج من إسته، فكان يصاب بالجدري، ولكن لم يذكر شيء من هذا القبيل فيما روته عائشة -رضي الله عنها- فهي لم تقلْ إنها رأت آثار ثقوب في رأسي الأعميين، بل تقول ببساطة إنها رأتْ أعميين يتسولان في مكة، فلما سألتْ عنهما قيل لها إنهما سائس فيلِ أبرهة وقائده.

ثم ورد في الرواية الأولى أن من أصابه الحجر مات في مكانه، لكن عائشة تقول إنها رأت بعض جنود أبرهة أحياء يتسولون، ولكنهم كانوا عميانًا. وهذه علامة واضحة للجدري، فمع أن مصلاً للجدري قد أُعِدَّ اليوم ويأخذه الناس للوقاية، إلا أنك لو سألت العميان عن سبب عماهم، لقال العديد منهم إنهم فقدوا بصرهم نتيجة الجدري.

كذلك ورد في حلية أبي نعيم: "ليس كلهم أصابه العذاب". والسؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: إذا كان الله تعالى قد كتب على هذه الحجارة اسم كل واحد من جنود أبرهة، فكيف يمكن أن لا يهلكوا جميعا في ذلك الحادث؟ فهذا دليل آخر أن الجدري قد تفشى بين هذا الجيش، فهلك به بعضهم ونجا الآخرون.

ثم ورد في التاريخ أن من أصابه الحجر أخذ لحمه يتساقط. وهذا أيضا من علامات الجدري، فعندما يشتد الجدري بالمصاب تخرج في جسده بثور كثيرة تفسد جلده تماما، فيتآكل ويتساقط لحمه.

ثم إن حجم هذه الحجارة -كما ذكروه أيضا- يماثل حجم بثور الجدري، حيث قيل بأن هذه الحجارة كانت أكبر من حب العدس وأصغر من حب الحمص، وهذا هو حجم بثور الجدري تماما.

باختصار، أرى أن مثل هذه القصص الخرافية قد نُسجت لعدم فهم الواقع على حقيقته، فلعل البعض قد وصف نزول هذا العذاب السماوي على أبرهة وجنوده قائلا: إن الله تعالى رجمهم، فظنّ السامع أن السماءَ أمطرهم بالحجارة فعلاً، مع أن هذا التعبير يفيد نزول العذاب فحسب، لا سقوط الحجارة فعلاً من السماء. وفي لغتنا أيضا يقولون ما معناه: سقطت عليك الحجارة. ثم لما شاهد القوم بعض من نجوا من الموت بالجدري، ووجدوا بأبدانهم آثار بثور حجمها أصغر من الحمص وأكبر من العدس، ظنوا أنها آثار جروح تلك الحجارة التي سقطت عليهم. وقد أُصبتُ أنا أيضًا بالجدري في الحادية أو الثانية عشرة من عمري، ولا يزال بمعصمي أثرٌ لاثنين من بثور الجدري، والغريب أن أحدهما بحجم العدس والآخر أصغر من الحمص قليلا. أما العرب فلم يكونوا على علم بهذا المرض، فلما سمعوا عن عذاب الجدري نسجوا حوله قصصا خرافية، ثم سجلها المفسرون في تفاسيرهم، مع أن كل ما في الأمر أن الجدري قد تفشّى في أصحاب الفيل، فشتّتهم وبدّدهم، فكثير منهم ماتوا وكثير منهم أصيبوا بالعمى، وبعضهم نجوا.

وكما قلت من قبل، فإن هذا الحادث شرحٌ لقوله تعالى ﴿كَيْفَ﴾، و﴿أَلَمْ تَرَ﴾ و﴿رَبُّكَ﴾. لقد بيّن القرآن الكريم هذا الموضوع بكلمة موجزة: ﴿كَيْفَ﴾.. أي لا تنظروا إلى ما وقع عندها، بل عليكم أن تروا كيف وقع؛ فإن أبرهة يخرج من اليمن بجيش جرّار، فيتصدى له العرب في طريقه فيُهزمون. هناك ثلاثة مواطن يمكن أن يقاومه فيها العرب، فوقعت الحرب في مكانين ومُني العرب فيهما بالهزيمة، أما في المكان الثالث.. أي في مكة نفسها.. فإن أهلها قالوا له صراحة: لا طاقة لنا

بمحاربتك. مما يعني أنه لم يكن هناك سبيل لصدّ أبرهة وجيشه عن الهجوم، ومع ذلك خاب وخسر فيما نوى. فالله تعالى لا يركّز هنا على عدد الهالكين من جنود أبرهة، وإنما يركز على أنهم هلكوا من دون أي تدابير بشرية؛ فكل القوى الدنيوية التي تصدّت له قد هُزمت؛ فقد ثار عليه أهل اليمن وحاربوه، فهُزموا بل أُسر قائدهم أيضا. ثم لما وصل أبرهة إلى ديار بني خثعم اجتمعت القبائل العربية وحاربوه، ولكنهم هُزموا أيضًا. ولما وصل قريبا من مكة تشاورت قبائل كنانة وهذيل وقريش وقررت أن لا قِبَلَ لها بأبرهة وجنوده. مما يُؤكد أنه فيما يتعلق بتدابير البشر فإما أنها فشلت ضده، أو لم تُتّخذ أصلاً إذ كانت غير مجدية. وعندما لم يبق سبيل لمقاومته خرج عبد المطلب مع أصحابه من مكة إلى جبالها ينتظر قدوم جيشه، لكنهم لم يدخلوها، فبعث عبد المطلب رجاله لمعرفة السبب، فعلموا أنه قد تفشى الجدري في جنوده بيد الله لا بيد البشر، وأنهم قد تشتّتوا وتبدّدوا فارّين بجلودهم بدلاً من شن الهجوم على مكة.

وكل هذا الحادث تفسير لقوله تعالى ﴿كَيْفَ﴾ الذي يفيد الكيفية، وليس لكلمة "ما" التي تفيد الكم، وإلا فإن هلاك جيش مكوَّن من اثني عشر ألف مقاتل ليس بأمر عجيب؛ فقد نُشر مؤخرا في الجرائد عن حرب الصين أنه قد قُتل فيها ثمانون ألف جندي، وجُرح وأُسر منهم مليون، فهلاك اثني عشر ألف لا يساوي شيئًا إزاء هذا العدد الضخم من القتلى والجرحى؟ وإنْ عرضتَ الحادثين على الناس لترى أيهما أكثر وقعًا في نفوسهم، فستجد حتمًا أن هلاك ثمانين ألفًا في حرب الصين أقلُّ وقعًا في نفوسهم من هلاك هذا الجيش المكوّن من اثني عشر ألف الذين تفشى فيهم الجدري وأهلكهم حين أرادوا الهجوم على مكة، ليس لأنهم عشرة آلاف أو اثنا عشر ألفا، وإنما لأن كيفية هلاكهم شيء مذهل. بل الحق أننا لو افترضنا أن اثني عشر شخصا هاجموا مكة وكان فيها سيدنا إسماعيل فقط، ومات هؤلاء المهاجمون بهذا الشكل، لكان موتهم أكبر وقعًا في النفوس من هلاك ١٢٠ ألفًا بسبب ما أرى الله تعالى من يد قدرته. إذ لو هلك ١٢٠ ألف شخص بتدبير البشر لقيل إنهم ماتوا بيد البشر، وهذا هو مآل التدابير البشرية دائما بأن أحد

الطرفين يكون غالبا والآخر مغلوبا، ولكن لو هلك اثنا عشر شخصا بيد الله تعالى لكان هذا أشد هيبة في النفوس، لأنه تجلٍّ عظيم لجلال الله وقوته. ومن أجل ذلك لم يقل الله تعالى هنا: "ألم تر ما فعل ربك بأصحاب الفيل؟"، أو "ألم تر كم عذّب ربك أصحاب الفيل"؟ بل قال ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾.. أي ألم تر كيف أهلكناهم هلاكًا لم يكن لتدابير البشر فيه دخلٌ. علمًا أن الجدري مرض لا سلطان للإنسان عليه، بينما هناك أمراض يمكن أن ينشرها البشر بكيدهم ولو بصعوبة بالغة، مثل الكوليرا والتيفوئيد والطاعون (الموسوعة البريطانية)، إذ إنهم لم يهتدوا بعد إلى طريق لنشر الجدري بين الناس. وقد اهتدوا إلى نشر الكوليرا والتيفوئيد والطاعون في هذا العصر فقط، أما قبلها فلم يكونوا يعرفون أن هذا ممكن. فتفشّي الجدري في جنود أبرهة قبل أربعة عشر قرنا حين لم يكن العرب على علم به -فضلاً عن معرفة علاجه- يؤكد قطعًا أن الله تعالى هو الذي خلق فيهم هذا المرض بقدره الخاص، ومن أجل ذلك ركّز الله هنا على كلمة ﴿كَيْفَ﴾ خاصةً، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾.

ثم إن كلمة ﴿رَبُّكَ﴾ تبين بوضوح أن الله تعالى يخبر هنا رسوله الكريم أننا لم نهلكهم إلا من أجلك. فكما أن الأم حين تقول لولدها مثلاً: ألم تر ما فعلتْه أُمُّك، فهي تعني إنما فعلتُه من أجلك، كذلك قال الله تعالى لرسوله: يا محمد، انظرْ كيف أرينا آيةَ قدرتنا من أجلك، فلا تنظرْ إلى هلاك اثني عشر ألفا، بل انظرْ كيف أُهلكوا، أبتدابير البشر أم بيد الله؟ لما فشلت تدابير البشر وحيلهم كلها أرى الله يد قدرته القوية، لأنه أراد أن يخلقك في مكة ويرسي عظمتك فيها ويجعلك سيد العالم كله. فانظرْ كيف دمّرنا جنودهم بنشر مرض فتّاك فيهم، وانظر كيف تصدّينا للجيش الذي فشل الناس في التصدي له وانهزموا وهربوا.

باختصار، إن كلمات ﴿كَيْفَ﴾ و﴿أَلَمْ تَرَ﴾ و﴿رَبُّكَ﴾ تدل على أن كل ما حدث في هذه الواقعة إنما حدث من أجل محمد رسول الله ﷺ فقط، وكان ذلك على النحو التالي:

فأولاً: لم يهاجم أحد مكة في فترة ألفي سنة، وعند حلول السنة التي ولد فيها محمد رسول الله ﷺ فكّر العدو في الهجوم عليها لهدم الكعبة. فسواء أرجعتَ هذا الحادث إلى إحساس اليهود والنصارى والعرب باقتراب ظهور الموعود الذي لم تزل صحف الأنبياء تبشر بظهوره، مما جعل النصارى يتوجسون الخطر أنه لو ظهر هذا الموعود بين العرب بحسب ما تقول الأنباء فسوف يخلق لهم مشاكل كبيرة، فأرادوا كسر قوة العرب بهدم الكعبة التي هي سبب اتحادهم.. أم أرجعت هذا الحادث إلى أن الشيطان لما رأى أن ظهور الإنسان العظيم الذي سيقوم بقتله وشيكٌ، حاولَ القضاء على هذه الحربة السماوية التي ستُستعمل لقتله؛ فأيًّا كان السبب، فمن المحال اعتبار هذا الهجوم صدفة. أليس مما يستدعي التفكير أنه إذا كان الهجوم على الكعبة قدرًا ربانيًا، فلماذا لم يتمّ هذا الهجوم في السنة الأولى لبنائها أو الثانية أو الثالثة أو الرابعة أو الخامسة؟ أو لماذا لم يهاجمها أحد في القرن الأول أو الثاني أو الثالث مثلا؟ لماذا ساد السكوت التام اثنين وعشرين قرنًا متتالية، ثم بمجرد أن اقتربت ولادة الشخص الذي بُشِّر بمجيئه عند رفع قواعد الكعبة -والذي كان سيبلغ دينُه العالَم كله، والذي سيكون مرجعا للأمم كلها- إلا ويخرج جيش لهدم الكعبة، مما يكشف بوضوح أن هذا التدبير كان لكسر شوكة ذلك الموعود حتما، سواءً اعتبرتَه من نتاج العقل البشري أو نتاج العقل الشيطاني.

وثانيًا: لم يكتف الله تعالى بإهلاك العدو الذي شنّ الهجوم على مكة فحسب، بل قضى على دولته نهائيا أيضا، ومن أجل ذلك لم يقل الله تعالى: أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بأبْرَهة، بل قال ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾.. أي ألم تر كيف قضى الله على تلك الدولة؛ إذ كان هناك خطر أن تكون عائقا في سبيل رسول الله ﷺ في المستقبل. علمًا أنه كانت بين اليمن ومكة صلات وثيقة، ولو استمر الحكم المسيحي في اليمن مع هلاك أبرهة وجنوده لظل هناك خطر أن تبعث الحكومة المسيحية اليمنية جيوشها لشن الغارات على مكة، مما يعرقل مهمة رسول الله ﷺ حتمًا، فدرءًا لهذا الخطر قضى الله على الحكم المسيحي في اليمن.

فثبت أن هذا الدمار قد تم بحسب مخطط رباني تمهيدًا للمبعوث الموعود. لو أراد الله تعالى لحارب أهلُ مكة أبرهةَ وجنوده، وكان الله قادرا على أن يجعلهم غالبين عليه، فهو القائل: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾(البقرة: ٢٥٠)، وقد فعل ذلك في بدر والخندق أيضا؛ إذ جعل جماعة قليلة من المسلمين غالبةً على الكفار الذين كانوا أضعافهم، إلا أن انتصار المسلمين في بدر لم يُلق في قلوب الكفار رعبًا يردعهم عن الهجوم عليهم بعدها، بل قالوا إن انتصارهم علينا ليس بأمر غريب، إذ يتغلب الواحد على ثلاثة أحيانا، بل قد يغلب الواحدُ عشرةً بل عشرين، أما الدمار الذي حل بهؤلاء الذين جاءوا يغيرون على الكعبة فظهر بيد الله تعالى دون تدبير إنسان، ليلقي الرعب في قلوب الناس فيوقنوا أن كل ما حصل إنما حصل بيد الله تعالى. فكاد الله تعالى كيدًا محكمًا، كما كاد الإنسان كيدًا محكمًا إذ بنى كنيسة لا ليُعبد فيها الله، بل ليحوّل العرب من الكعبة إلى كنيسته، ثم اختار منهم بعض الزعماء ذوي النفوذ ووعدهم بالجوائز مقابل دعاية بين العرب أن يأتوا لحج هذه الكنيسة في المستقبل بدلاً من الكعبة -مع أن الناس لا يحجّون الكنائس- مما يدل بوضوح على أنه لم يُرِدْ بناء كنيسة للعبادة، بل أراد التقليل من عظمة الكعبة، وبالمثل لم يُرِد الله تعالى بهذا الحادث إهلاكَ أبرهة، إنما كان الهدف الأساس هو إزالة كل العراقيل من طريق محمد ﷺ. ثم كما أن الهجوم على مكة لم يكن صدفة، كذلك لم يكن هلاك أبرهة صدفة. لقد أراد أبرهة القضاء على أية إمكانيات لرقي نبي العرب، وأراد الله تعالى أيضا بهذا الحادث القضاءَ التام على الحكم المسيحي في اليمن، لكي يتقدم محمد رسول الله ﷺ دونما تهديد أو خطر. وقلت من قبل بأن أمارات النبوءات المتعلقة بعصر النبي ﷺ والواردة في الكتب السابقة كانت قد أخذت في الظهور، وكان المسيحيون مطلعين على هذه النبوءات إما نصًّا في التوراة أو استنتاجًا من أقوال أوليائهم. كانت الأنباء التوراتية واضحة تمامًا مثل قول الله تعالى لموسى عليه السلام: "أُقِيمُ لَهُمْ نَبِيًّا مِنْ وَسَطِ إِخْوَتِهِمْ مِثْلَكَ" (التثنية ١٨: ١٨)، وقد وردت هذه النبوءة في مكان آخر أيضًا كالآتي: "يُقِيمُ لَكَ الرَّبُّ إِلَهُكَ نَبِيًّا مِنْ وَسَطِكَ مِنْ إِخْوَتِكَ مِثْلِي" (التَّثْنِيَة ١٨: ١٥). وما

دام الله تعالى قد قال لبني إسحاق أنه سيقيم نبيًا مثل موسى من وسط إخوهم، فكان واضحًا أنه ليس المراد من إخوهم إلا بنو إسماعيل. فإذا قلنا للسادات* مثلاً: "مِن إخوتكم" فلا يكون المراد السادات أنفسهم، وإذا قيل للأفغان أو المغول: "مِن إخوتكم"، فليس المراد الأفغان أو المغول أنفسهم، بل المراد شعب آخر. والجميع يعرف أنه كان من نسل إبراهيم عليه السلام قبيلتان معروفتان: بنو إسحق وبنو إسماعيل، فإذا قيل لبني إسحق إن الله تعالى سيقيم نبيًا مثل موسى من إخوانهم -كما ورد في نبوءة التثنية- فمعناه الواضح أن الله تعالى سيقيم نبيًا يكون من بني إسماعيل. ونعلم من العهد القديم أن بني إسماعيل قد استوطنوا برِّيةَ العرب، فهناك عبارات كثيرة عنهم؛ وقد ذُكر بنو إسماعيل بوجه خاص في كتاب النبي إشعياء في النبوءة المتعلقة بالعرب (إشعياء ٢١: ١٣-١٧)، مما يعني أن النبي إشعياء يؤكد أن بني إسماعيل كانوا مستوطنين برِّيةَ العرب. المهم، تعلن التوراة من جهة أن بني إسماعيل كانوا عربًا، ومن جهة أخرى تنبئ أن نبيًا سيُبعث في إخوة بني إسحق.. أي في بني إسماعيل. فبالجمع بين هاتين المجموعتين من النبوءات نتوصل إلى النتيجة الواضحة أن نبيًا كان سيبعث في بني إسماعيل.

فلما اقترب زمن تحقُّق هذه النبوءات بدأ الناس يُكثرون الحديث عن هذا الموعود. وكان أحد أسباب ذلك أيضا أن أولياء الله السابقين أيضا كانوا قد تنبأوا عن بعثة النبي ﷺ، وكان الناس على علم بذلك. الواقع أن من سنة الله تعالى أن ينبئ بأنباء عظيمة على لسان أنبيائه، كما يجعل أولياءه الآتين بعدهم أيضا ينبئون بأنباء مماثلة، ولذلك وُجدت في كتب اليهود أنباء كثيرة بحق النبي ﷺ لا توجد في التوراة، وهذه الأنباء قد أدلى بها أولياء اليهود في الحقيقة، شأنها شأن عشرات الأنباء التي قد أدلى بها أولياء الأمة المحمدية بشأن المسيح الموعود أيضا. لا شك أن الأنباء الأساسية أو الهامة تتم على لسان الأنبياء، ولكن الله تعالى يكشف بعض جزئياتها على يد الأولياء أيضا، مما يجعل العالم كله ينتظر هذا الموعود آخذًا في

* يعني "الأشراف"، أي نسل فاطمة الزهراء رضي الله عنها. (المترجم)

الحسبان كل هذه الأنباء المختلفة. ووفقًا لهذه السنّة الربانية؛ عندما اقترب زمن بعثة النبي ﷺ تنامى في النفوس إحساس عام بأن أحدا على وشك الظهور -وذلك كما حصل قبيل بعثة المسيح الموعود عليه السلام أيضًا، حيث أخذ المسيحيون ينتظرون المسيح، والمسلمون ينتظرون المهدي، والأمم الأخرى تنتظر موعودها- ولما كان النصارى يعتقدون بناءً على أنباء وردت في التوراة وفي أقوال أوليائهم أن هذا النبي سيُبعث من بين العرب؛ توجسوا خطر هجوم شديد على المسيحية. فقد ورد في البخاري وغيره من كتب الحديث أن قيصر الروم كان ينظر في النجوم وهو في الشام لمعرفة موعد ظهور النبي المختون.. أي نبي العرب، ولما بلغتْه رسالة النبي ﷺ كان أبو سفيان في الشام، ويقول أبو سفيان: إنه دعاني وسألني عن أحوال النبي ﷺ، ثم قال لقومه: أرى أنه هو نفس النبي الذي تشير إليه الأنباء في كتبنا. كذلك ورد في الحديث بأن قيصر نظر في النجوم ذات ليلة وقال إن النبي المختون على وشك الظهور (البخاري، كتاب بدء الوحي). وعندي أن قيصر الروم لما قال هذا الكلام بَعْدَ النظر في النجوم ظنّ أبو سفيان -بحسب الأفكار الشائعة في زمنه- أنه يتنبأ كما يتنبأ المنجّمون. وهذا كلام فارغ، إذ لا يوجد في العالم أي منجمين كهؤلاء ولا يدلون بأنباء كهذه، إنما الواقع عندي هو أن الأنباء الربانية عن ظهور نبي تتضمن أخبارًا ذات صلة بالنجوم والكواكب، فإذا وقعت دلّت على صدقه. وذلك كما كان الرسول ﷺ قد أخبر بأن لمهدينا آيتين لم تكونا منذ خلق السماوات والأرض لتصديق أي مدّعٍ، وهما أنه ينخسف القمر في أول ليلة من أُولى ليالي خسوفه من رمضان، وتنكسف الشمس في اليوم الثاني من أيام كسوفها في رمضان نفسه (الدارقطني)، فلو أن شخصا رأى خسوف الشمس والقمر وقال: قد علمتُ بالنظر في الشمس والقمر أن مدّعي المهدوية قد ظهر أو على وشك الظهور، فهل يصحّ القول بأنه قد قدّر هذا الأمر أو أدلى بهذه النبوءة بمجرد النظر في هيئة الشمس والقمر وحركاتهما؟ لا شك أنه سيقول إنه قد أدرك هذا الأمر برؤية الشمس والقمر، ولكنه يقصد أنه قد أدرك قرب ظهور الموعود برؤية تحقق النبوءة المتعلقة بالشمس والقمر. وبالمثل لم يكن المراد من قول قيصر الروم أنه نظر

كالمنجمين في النجوم وأدرك أن ظهور نبيّ العرب وشيك، بل الواقع أنه كانت هناك نبوءة معينة عن بعثة النبي ﷺ أدلى بها أولياؤهم وكانت ذات صلة بالنجوم، فلما رأى قيصر تحقُّق هذه العلامة برؤية النجوم أدرك أن ظهور النبي المختون قد قرب.

هناك حادث شهير في جماعتنا بأن أحد المشايخ المعارضين -لعله كان من منطقة "غُجْرات"- كان يقول للناس دائما: لا تنخدعوا من ادعاء الميرزا (يعني مؤسس جماعتنا)، لأنه قد ورد في الحديث النبوي صراحة أن من علامة المهدي كسوف الشمس والقمر في رمضان عند ظهوره، فما لم تنخسف الشمس والقمر في شهر رمضان بحسب هذه النبوءة، لا يمكن اعتباره صادقا في دعواه. وشاء القدر أن تحققت نبوءة خسوف الشمس والقمر في رمضان وهذا الشيخ حيّ، وقد أخبر أحد المسلمين الأحمديين الذي كان جارًا للشيخ أنه صعد على بيته في فزع عند الخسوف وأخذ يمشي على السقف ويقول: الآن سيضلّ الناس.. الآن سيضلّ الناس.

إن هذا الشيخ لم يفهم أنه ما دامت هذه النبوءة قد تحققت فإن الناس لن يضلّوا، بل سوف يهتدون بإيمانهم بحضرة الميرزا. كذلك كان حال النصارى عند بعثة الرسول ﷺ، فإنهم كانوا يرون أن جميع العلامات الواردة في كتبهم عن ظهور نبي العرب قد تحققت، ولكن من ناحية أخرى أخذوا يقولون عند سماع دعوى النبي ﷺ: لقد تزامنت دعوى هذا الكذاب -والعياذ بالله- مع تحقُّق هذه العلامات على سبيل الصدفة، شأنهم شأن مسلمي اليوم؛ حيث يقولون إن علامات ظهور المسيح الموعود والمهدي قد تحققت بلا شك، ولكن دعوى هذا الكذاب -والعياذ بالله- قد تزامنت معها على سبيل الصدفة. أليس غريبا أن تكون مثل هذه الصدفة من نصيب كاذب لا صادق؟

باختصار، إن ما أراه هو أنه كانت في الصحف الأولى أنباء معينة عن مواقع النجوم وحركاتها، وقيل لهم أنكم إذا رأيتم العلامة الفلانية في النجوم فاعلموا أن ظهور النبي الموعود قد اقترب. وبعد رؤية علامة كهذه في النجوم قال قيصر: إني

قد رأيت في النجوم علامة النبي المختون. ولكن الذين سمعوا كلامه لم يكونوا على علم بالحقيقة، فظنوا أنه قد نظر في النجوم كما يفعل المنجمون وتوهّمَ شيئًا.

كذلك لم يكن العرب يسمون أولادهم باسم محمد، كما قلت، ولكنهم أخذوا يسمون أولادهم محمدا قبيل بعثته ﷺ على سبيل التفاؤل، وليس ذلك إلا لأنهم فهموا من الأنباء الواردة في التوراة أن اسم النبي الموعود سيكون محمدا. وهذا دليل على أنه كان عند الناس إحساس عام عندها عن اقتراب ظهور النبي العربي. ومما يدل على ذلك أيضًا أن فئات من اليهود قد هاجروا من الشام واستوطنوا المدينةَ وخيبر، إذ كان أولياؤهم قد تنبأوا أن "ذلك النبي" على وشك الظهور، ولكنه سيظهر في المناطق التي تلي بلاد الشام من جهة الجنوب (وفاء الوفاء ج١ ص ١٦٠). كأنهم كانوا يشيرون إلى المدينة وما حولها، ناصحين قومهم أن يتوجهوا إلى تلك المنطقة، حتى إذا بُعث ذلك النبي نجوا ببركة اتّباعه من اضطهاد المسيحيين. إذن، فكان عندهم أخبارٌ بأنهم إذا آمنوا بذلك النبي الموعود رفع الله عنهم المحن. والثابت تاريخيا أن بعض اليهود المستوطنين المدينة وما حولها لم يهاجروا إليها إلا لمعرفتهم أن ذلك النبي سيظهر في تلك المنطقة، مما يدل على أن هجرة اليهود إلى الجزيرة واستيطانهم قرب المدينة لم يكن إلا بناء على الأنباء الإلهية.

كل هذه الأمور المذكورة أعلاه تدل على أن اليهود والنصارى كلهم كانوا ينتظرون بعثة رسول الله ﷺ بشدة. لقد رأى قيصر الروم علامات في السماء جعلته يعلن أن ظهور النبي المختون وشيك، وقد هاجر اليهود واستوطنوا قرب المدينة لأن أولياءهم تنبأوا بظهور النبي الموعود في تلك المنطقة، وأما العرب فأخذوا يسمون أولادهم باسم محمد قبيل بعثته ﷺ تفاؤلاً بأن يصبح ولدهم ذلك المنجّي الموعود للعالم. هذه الأمور الثلاثة تبين أنه كان عند العرب واليهود والنصارى كلهم إحساس عام وحديث عام بأن مولد ذلك النبي قريب، لأن علامات ظهوره قد تحققت بكل وضوح، ولكن اليهود والنصارى -أو معظمهم- ظنوا أنه سيكون من بينهم لا من أمة أخرى وإن كان عربي المولد. أما العرب فظنوا أنه سيظهر منهم. ولما كانت أنباء ظهوره شائعة بين كل الأقوام، فخاف كل منهم أن يستغلّها الفريق

الآخر استغلالا غير سليم. ولما كان المسيحيون سادة العالم ويرون أن انتشار هذه الفكرة بطابع سياسي يتنافى مع مصالحهم، ففكّر بعض ذوي السلطة منهم تشتيت كلمة العرب حتى لا يجتمعوا على مركز واحد نتيجة فكرة النبي العربي، فيسببوا المشاكل للمسيحية، ومن أجل ذلك بنى أبرهة كنيسته، ثم حاول ترويجها بين العرب بتقديم الرشاوى لبعضهم، ولما فشلت خطته هذه أراد هدم الكعبة نفسها، فأرى اللهُ عندها آيةً مهدت الطريق الذي حاول أبرهة إغلاقه، وهكذا كشف الله تعالى للعالم بأنه يوالي مَن أُسّست الكعبة مِن أجله، ويعادي مَن يريد هدمها، إذ لم يُرِدْ بهدمها الهجومَ عليها، وإنما أراد الهجوم على مَن أُسِّست مِن أجله.

ومن غرائب القدر أن الأمة التي حاولت إسقاط هذا النبيّ (ﷺ) صارت نفسها ملجأً وملاذا لجماعته فيما بعد. ذلك أن اليمن الذي كان يحكمه أبرهة كان ولايةً للنجاشي مَلِكِ الحبشة؛ وقد عاش النجاشي حتى زمن بعثة الرسول ﷺ. لقد هاجم جنوده مكة لهدم الكعبة حتى إذا ظهر مدعٍ بين العرب لم يستطع توحيد كلمتهم مستمدًّا قوته من هذا المركز. ولكن انظرْ إلى عجائب قدر الله تعالى، فقد وُلد النبي ﷺ في مكة وترعرع فيها، وأعلن النبوة بعد بلوغه الأربعين، فخالفه أهلها، ثم اشتدت معارضته بالتدريج حتى اضطرت فئة من جماعته للجوء إلى بلد آخر فرارًا من اضطهاد أهل مكة في السنة الخامسة لبعثته، وكان بلد هجرتهم هو بلد هذا النجاشي الذي هاجمت جنوده مكة لكسر شوكة النبي العربي الموعود. وذهب زعماء مكة وراء المسلمين إلى الحبشة وطلبوا من النجاشي أن يردّهم إليهم، ليصبّوا عليهم فظائعهم ثانية. أليس غريبًا أن المكيين الذين لم يجدوا حيلة للتصدي لأبرهة حين جاء يهاجم الكعبة حتى اعتصموا بالجبال؛ هم أنفسهم قد ذهبوا إلى النجاشي -وهو ملكٌ على أبرهة أيضا- للقضاء على جماعة النبي الموعود الذي أُسّست الكعبة من أجله، أما النجاشي الذي جاءت جنوده لهدم الكعبة حتى لا تقوم لمحمد ﷺ قائمة بين العرب، هو نفسه يهبّ لنصرته ﷺ في هذه المرة، فكأن المهاجم صار حاميًا، والحامي مهاجِما. (جامع البيان للطبري)

باختصار، لما وصل صحابة النبي ﷺ مهاجرين إلى الحبشة، بعثت قريش وراءهم بعض زعمائها -ومنهم عمرو بن العاص الذي أسلم فيما بعد، وعبد الله بن ربيعة- ليطلبوا من النجاشي أن يردّهم إليهم فيأتوا بهم إلى مكة. وقد ذهبوا إليه بهدايا كثيرة وقالوا له: أيها الملك، لقد أَبَقَ بعض عبيدنا إلى بلادك، فنرجوك أن تردّهم لنا. فدعا النجاشي المسلمين وسألهم عن حقيقة الأمر، فقالوا: أيها الملك، كنا نرتكب أنواع الفسق والفجور ونأتي صنوف المنكرات والمحرمات ونشرب الخمر ليل نهار حتى بعث الله فينا رسولا، فآمنّا به، وآمنّا بالله الأحد؛ نتجنّب الكذب ونتنكّب عن الفسق والفجور، ونرفع الصوت ضد الظلم، ونتعاون على البر والتقوى، ونسعى لفعل الخيرات والأعمال الصالحة النافعة للناس، ولكن قومنا اختلفوا معنا فصبّوا علينا أنواع الظلم، فلما اشتدّ اضطهادهم جئنا إلى بلادك لاجئين. أيها الملك، لقد سمعنا أنك ملك عادل، فنرجوك أن تعدل في قضيتنا، فلا تردّنا إلى قومنا. فقال الملك: عِيشوا في بلدي آمنين. ثم ردّ على زعماء قريش قائلا: لن أردّ المسلمين لكم.

فذهب هؤلاء في اليوم التالي وأثاروا القسيسين ضد المسلمين، وقالوا إن هؤلاء يسبّون مسيحكم. فثار القُسس في بلاط الملك وقالوا: كيف تترك هؤلاء القوم من دون عقاب، وهم يعارضون ديننا بشدة؟ فلا تهيئ لهم في بلدك ملاذا. فدعا المسلمين ثانيةً وقال لهم: ما هي عقيدتكم في المسيح وأمه مريم الصديقة؟ فقالوا: نحن نؤمن أنه نبي الله، وأُمه صِدّيقة، ثم قرأوا عليه أوائل سورة مريم التي تتحدث عن هذا الموضوع. فقال الملك: هذا لا بأس به (السيرة النبوية لابن هشام، ذكر الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة).

الواقع أن النجاشي كان مسيحيا موحِّدا؛ إذ رأى في صغره آية ربانية هدته إلى التوحيد. علمًا أنه لا تزال هناك حتى اليوم فرقة مسيحية موحّدة تؤمن بأن المسيح أفضل الأنبياء، وأنه لم يكنْ إلهًا، بل كان نبيا فقط (الموسوعة اليهودية، تحت كلمة:Unitarianism). فلما قال النجاشي إن المسلمين على الحق ثار قومه وقالوا: كيف تقول هذا؟ إن المسيح وأمه مريم متصفان بصفات الألوهية. فأخذ الملك قشة

وقال للمسلمين: والله ما زاد المسيح على ما تقولون نقيرًا. ثم قال لحاشيته: إذا كنتم تغضبون على ذلك فلا أبالي. لقد غدرتم بي حين كنت صغيرا (سِيَرُ أعلام النبلاء ج ١ص ٣٠٧-٣٠٩)، لكن الله تعالى ردّ لي المُلك، وجعلكم خائبين خاسرين. فكيف يمكن — بعد أن كبرتُ- أن أغدر بالله الذي أعطاني الملك وأنا صغير؟ إني لن أعظّم المسيح أكثر من الواقع.

وتفصيل الحادث الذي أشار إليه النجاشي هو أن أباه توفي وهو ابن ست سنوات أو سبع، فتولى عمّه زمام المُلك، ثم بعد فترة خطر بباله أن يتآمر مع القسس والأمراء، وقال سيضعف المُلك إلى أن يصل هذا الولد سن البلوغ، فهلا تعلنون تتويجي مَلِكًا؟ فرضوا باقتراحه إذ كان زمام الملك بيده والنجاشي لا يزال صغيرًا. وفي يوم من الأيام تكلم أحد رجال البلاط في بيته عن مؤامرتهم، فسمع ابنه الحديث، والأولاد يتحدثون لأصدقائهم بما يسمعون في بيوتهم، فجاء هذا الولد وأخبر النجاشي بأني سمعت أن عمّك على وشك إعلان تتويجه مَلِكًا. وكان النجاشي شجاعا، وكان عمه قد خرج في مهمة خارج العاصمة، فلما رجع عمه وقف النجاشي في الباب مصوّبًا السهم إلى قلبه وقال: انزلْ عن الحصان وسلِّمْ لي المُلك حالاً وإلا قتلتُك. فشاع خبر ذلك بين قادة الجيش، فتأثروا من شجاعة النجاشي الصغير وانضم إليه الشباب منهم متمرّدين على عمّه. فأدرك العم أن محاربة ابن أخيه لن تجديه نفعا، فسلّم له المُلك. هذا هو الأمر الذي أشار إليه النجاشي أمام حاشيته وقسسه وقال: إن أكثر ما تستطيعونه هو أن تطيحوا بعرشي، ولكن كيف يمكن أن أغدر بالله الذي نصرني عليكم وأنا صغير وأسبغَ عليّ نعمه في هذه المدة الطويلة؟ هذا محال مني. لقد علّمنا الله تعالى أن سيدنا المسيح نبي فحسب، فلن أعظّمه أكثر من ذلك. فخاف حاشيته ولزموا الصمت. ثم سمح الملكُ للمسلمين بالعيش في بلده آمنين.

أليس غريبا أن يخرج أبرهة مع جنوده لهدم الكعبة بل للقضاء على محمد ﷺ الذي هو الغاية من تأسيسها؛ إذ كان يؤمن أن النبي الموعود سيأتي من المسيحيين لا من غيرهم، ففكّر أن العرب ينتظرون بعثة هذا النبي من بينهم ويمكن أن تصبح

الكعبة نقطة اتحادهم إذا ما قام مدّع بينهم، فلو هدمها تشتّت شملهم وظلوا مغلوبين أمام المسيحية. أليس مذهلاً أن يهيّئ الله تعالى الملاذ للمسلمين في وطن أبرهة الذي أراد وَأْدَ محمد رسول الله ﷺ قبل ظهوره؟

رب قائل يقول هنا: كيف تقول إن مُلك النجاشي أصبح ملاذا للمسلمين وأنهم ازدهروا في كنفه، في حين أن مكة وطن المسلمين الأصلي، ولم يهاجر منها النبي ﷺ ولا خواص أصحابه إلى الحبشة؟

والجواب أن الهجرة إلى الحبشة قد أنقذت المسلمين من اضطهاد أهل مكة إلى حد كبير؛ فلم تقع بعدها أحداث قتلهم وسفك دمائهم كما وقعت قبلها، وليس ذلك إلا لأن الكافرين لم يريدوا قتلهم لعداء شخصي، وإنما أرادوا به القضاء على الإسلام، ولكن لما هاجر ٨٠% من المسلمين إلى الحبشة، علم الكافرون أنهم لن يستطيعوا الآن اجتثاث شجرة الإسلام ولو قضوا على الباقين منهم في مكة. وهكذا فإن هجرة المسلمين إلى الحبشة قد خفّفت موجة الاضطهاد الجارية في مكة إلى حد كبير. لا شك أن الكافرين قد فرضوا بعد ذلك الحصارَ والمقاطعة على النبي ﷺ في شعب أبي طالب، فظلّ يعاني هناك من الجوع والعطش، كما آذوا باقي المسلمين بطرق شتى، ولكن الاضطهاد كان قد خفَّ إلى حد كبير لإدراك الكافرين أن إيذاءهم باقي المسلمين لن ينفعهم كثيرا. فثبت أن هجرة الحبشة أدت إلى ازدهار جماعة محمد رسول الله ﷺ، وقد حققوه تحت ظلّ قوم جاءوا من قَبل لهدم الكعبة، وبتعبير آخر للقضاء على محمد ﷺ. وقد حصل حادث مماثل مع موسى عليه السلام؛ حيث جعله الله تعالى يتربى في بيت فرعون الذي أراد قتله. وهناك في حياة الرسول ﷺ أحداث مماثلة أخرى، فمثلاً قد تربى ﷺ في صغره في بني ثقيف، وهم الذين بعثوا دليلهم مع أبرهة ليوصله إلى مكة لهدم الكعبة، وبتعبير آخر قد تربى النبي ﷺ وقضى سنين عديدة في صغره بين قوم قدّموا خدماتهم لمن جاء لهدم الكعبة. ثم انظروا إلى ما حصل في هذا الزمن، فكل الذين ادعوا المهدوية قد تصدى لهم الإنجليز (الموسوعة الأردية تحت كلمة: مهدي)، ومع ذلك قد ازدهر المسيح الموعود عليه السلام تحت حكم الإنجليز. يعترض البعض على ذلك قائلا إن مؤسس جماعتكم قد

اعترف في كتبه بأنه قد تربى تحت ظل الإنجليز؟ يا ليت أحدًا يسأل هؤلاء الجهلة: ألم يجعل الله موسى يتربى في ظل فرعون؟ ألم يربِّ الله تعالى جماعة محمد ﷺ في ظل النجاشي؟ الواقع أن من سنة الله تعالى أن يجعل أنبياءه يزدهرون تحت ظلّ أعدائهم، ليكون ذلك دليلا آخر على صدقهم ومفخرة لجماعاتهم. الحق أنّ قول مؤسس الأحمدية إني قد تربيت تحت ظل الإنجليز هو في الحقيقة بمنزلة قوله للمعارضين: انظروا إلى عجائب قدرة الله تعالى أنه قد كتب لي الازدهار في ظل قوم هم أكبر أعداء المهديّ! فهذه سنة الله العظيمة المستمرة منذ القِدم، فيكتب الرقي لجماعته تحت ظل الأعداء، وقد تجلّت سنته هذه في زمن الرسول ﷺ، كما تجلّت في زمن المسيح الموعود عليه السلام أيضا، وقد تجلت في زمن المسيح الناصري عليه السلام أيضًا، حيث كان اليهود يتهمونه مرارا أنه يريد المُلك بالقضاء على الحكومة الرومانية، ولكن ما حدث هو أنه عليه السلام تربى تحت ظل تلك الحكومة، بل قد انضمت تلك الإمبراطورية إلى صفوف خدامه في نهاية المطاف. وبتعبير آخر قد قضى المسيح عليه السلام على تلك الدولة، وذلك بتغيير دينها وإدخالها في المسيحية.

يزعم القسيس "ويري" أن لا علاقة لهذا الحادث بموضوع المسيحية (تفسير القرآن لـ"ويري" ج٤ ص ٢٧٩).. أي كان المهاجمون مسيحيين وقد سماهم القرآن أهل الكتاب، أما أهل مكة فكانوا كفرة، فكيف يمكن أن ينزل العذاب على أهل الكتاب من أجل الكفرة؟ وكأنه يقول: يعتبر المسلمون هذه السورة وحيًا من الله تعالى، ولكنهم لجهلهم ينسبون إليه تعالى كلاما غير معقول، حيث يقولون إن الله تعالى عاقب أهلَ الكتاب نصرةً للمشركين! فكيف تكون هذه آية ربانية؟ إنها ليست آية، بل إساءة إلى الله تعالى؛ إذ كان الواجب أن يعاقَب المشركون لا أهل الكتاب.

وهناك أمرٌ آخر يراه "ويري" غيرَ منطقي، هو أن التاريخ يؤكد إساءة العرب إلى كنيسة صنعاء، إذ تغوّط أحدهم فيها، كما يؤكد التاريخ أن الكنيسة احترقت بفعل أحد العرب؛ فالذنب ذنب العرب، إذ أساءوا إلى مكان عبادة الله تعالى، ثم حاولوا إحراقه أيضا، ولكن إله القرآن جاهل غبيّ -والعياذ بالله- حيث أنزل العذاب على

مَن ذهب لأخذ الثأر من المسيئين إلى الكنيسة، ونصر قوما أساءوا إليها وأثاروا أهلها بلا سبب. فهذا إله عجيب، حيث أنزل العذاب على المظلوم وأيد الظالم. لقد أهلك المؤمنين لإنقاذ مشركين يعبدون الأصنام!

كان "ويري" قسيسا أمريكيا قضى معظم عمره في مدينة "لدهيانه" في الهند، وألّف تفسيرا للقرآن الكريم بزعمه (تفسير القرآن لـ"ويري" المقدمة ص٨)، والواقع أنه قد حاول أن يجمع فيه كل ما أثاره المسيحيون ضد الإسلام من مطاعن واعتراضات عبر الزمن في شتى البلاد ومختلف اللغات. وتفسيره هذا ممتع لإنسان مطّلع على علوم القرآن ومعارفه الواسعة اطلاعا سليما؛ إذ يحتوي على كل ما هو لغو وغير منطقي وغير موضوعي، ولا أساس له ولا سند، بحيث تأخذ المرء حيرة بقراءته. الغريب أن أتباع النبي الذي علّمهم أنه إذا ضربك أحد على خدك الأيمن فأَدِرْ له الأيسر أيضًا (متى ٥: ٣٩)، هم اليوم يعملون بمبدأ أن من لم يلطمك حتى منذ سبعة أجيال؛ فالطمْ سبعة أجيال له. فهذا القسيس لم يجد في هذه السورة ما يعترض عليه، إذ اعتبرها مجرد قصة فارغة - مع أنها ليست قصة فارغة، بل نرى أن كل القصص التي ذكرها القرآن الكريم تتضمن أنباء مستقبلية، حيث أخبر الله تعالى بها أن هذا ما حصل في الماضي، وسوف يتكرر مثله في المستقبل- فراح يقول: الغريب أن القرآن يعتبر هذا الحادث آية! وكيف يكون آيةً مع أن الذين عوقبوا هم أهل الكتاب، إذ كانوا يؤمنون بكتاب نزل من عند الله تعالى بحسب القرآن أيضًا، أما الذين ظهرت هذه "المعجزة" بحقهم فهم مشركو مكة عبدة الأصنام، أفليس غريبا إذاً أن يعلن القرآن من ناحية أنه كتاب الله، ومن ناحية أخرى يخبر أن الله تعالى لم تأخذه الغيرة على المؤمنين بالمسيح الناصري وبكتابِه، فأخزاهم وأهلكهم، بينما أنزل ملائكته لإنقاذ عبدة الأصنام الذين أدانهم القرآن مرة تلو المرة، والذين لا قيمة لهم مقابل أهل الكتاب يقينا! هذا الأمر لغو وغير منطقي تماما، ومسيء إلى الله تعالى إساءة كبيرة!

والأمر الثاني الذي يركز عليه "ويري" هو أنه من الثابت تاريخيًا أن عربيًا قد ذهب وتغوط في كنيسة صنعاء، فأثار غضب الأمة المسيحية كلها بتنجيس معبدهم

المقدس. فما دام الخطأ من العرب و لم يخرج أبرهة إلا لمعاقبتهم على هذه الإساءة؛ فكان ينبغي أن يؤيده الله، لكن القرآن يخبر أن الله تعالى عاقب مَن خــرج لأخــذ الثأر من قوم هتكوا حرمة معبد، وأيّد بنصره القومَ الذين تغوّط أحدهم في المعبد، مع أن العقاب يجب أن ينــزل على الظالم لا على المظلوم.

يتضح من نص ما كتبه "ويري" وما أثاره من طعن أنه لا يعترض على الحادث نفسه، إذ لا ينكر هجوم أبرهة على مكة بقصد هدم الكعبة ولا ينكر هلاكه أيضًا، كلا، بل يُقرّ بصحة الحادث كله، إلا أنه يعترض على مغزى القصة ولا يسلّم به.

والحق أنه ما دام الحادث قد وقع فعلاً، فلا يمكن الطعن في مغزاه، إلا إذا ثبــت أنه مجرد صدفة لا آيةً أو معجزة. فغاية ما يمكن أن يقوله "ويري" هو إن قولكم بأن الله تعالى قد أهلك أبرهة بعذابه فهو كلام غير سليم. لا شك أن الحادث قد وقع، ولا شك أن المهاجم قد هلك، فقد خرج أبرهة للهجوم يقينًا مع جــيش جــرّار، ولكن الدمار الذي نزل بجنوده لم يكن عقابًا من الله تعالى، إنما كان مجرد صــدفة، فلا يصح تقديمه على الناس آيةً على تعظيم مكة وخزي أبرهة.

لا جرم أنه لو ثبت أن هذا الحادث كان مجرد صدفة للَزِمَنا الإقرار بأنه لا يــدل على عظمة الكعبة ولا على خزي أبرهة. فمثلا لو ذهب البعض من مومبائ للحج، فمرض بالكوليرا في الطريق ومات، فلا يقال أنه قد حل به عذاب الله تعالى بسبب ذهابه للحج، وإنما سيعتبر الجميع موتَه مجرد صدفة، بل قد تغرق سفينةُ الحجاج في البحر، ولن يعتبر أحد غرقها عذابا من الله تعالى. ولو قيل: لماذا لا يُعتبر غرق هؤلاء المئات من الحجيج عذابا؟ لقلنا: ليست هذه السفينة هي الوحيــدة الــتي ذهبــت بالحجيج وغرقت، بل تذهب عشرات السفن بهم كل سنة، وغالبيتهم يــصلون إلى غايتهم بسلام، وهذا دليل على أنّ غرق سفينة كان مجرد صدفة لا عذابًا مــن الله تعالى؛ إذ لو كان عذابًا لنــزل على أكثرهم. كذلك إذا أصيب بعــض الحجــيج بالكوليرا فلن نعدّه عذابا ربانيًا، وإذا سئلنا لماذا لا نعتبره عذابًا؟ قلنا: يذهب مئات الآلاف من الحجاج كل سنة، وكلهم تقريبا يصلون مكة بسلام، ولو توفي واحــد أو اثنان منهم بالكوليرا فهو مجرد صدفة، أما لو مات أكثرهم بالكوليرا لكان هناك

احتمال أن يكون هذا المرض عذابا من الله، ولكن نجاة أكثرهم مع حدوث بعض الوفيات دليل على أن ما حصل مجرد صدفة لا أكثر. فمن حق "ويري" أن يقول إن الحادث مجرد صدفة، ولا يمكن أن يُعدّ ما نزل بأبرهة و جنوده عذابا من الله تعالى، وبالتالي فلا يمكن أن يكون دليلا على عظمة الكعبة وحرمتها. وبالفعل إذا كان هناك شبهة في كون هذا الحادث صدفة؛ فلا يحق لنا القول إن أبرهة قد تعرّض للعذاب وأن هذا دليل على عظمة الكعبة، بل يصبح هذان الادعاءان باطلين. فلذا لا بد أن نرى أولاً ما إذا كان هذا الحادث صدفة أم لا.

الواقع أن ما ذكرتُه من قبل في تفسير هذه السورة دليل على أن الحادث لم يكن صدفةً البتة؛ ذلك أنه كان هناك منذ زمن إبراهيم عليه السلام وعدٌ بحماية الكعبة وحفظها، وكان العرب يدّعون أن لا أحد يستطيع الهجوم على الكعبة المشرفة، ولو أراد فإن الله تعالى يمنع بيته بنفسه، وحادثة أبرهة خيرُ دليل على ذلك. وإلى هذا الأمر نفسه قد نبّه عبد المطلب أبرهةَ حين قال له: إنك إنسان غبيّ جاهل إذ تهتمّ بإبلك المائتين التي ساقها رجالي، ولا تبالي بالكعبة التي هي معبدك ومعبد آبائك؛ فإن عبد المطلب لم يردّ عليه إلا بقوله: إن ما قلتُه لك سلفًا هو ردّي على قولك؛ إنما طالبتك بإبلي المائتين لأني صاحبُها، وقد طالبتك بها تنبيهًا لك أن صاحب الشيء يهتم به، ولا يحتمل ضياعه، وإنني أؤمن أن الكعبة بيت الله، وأن الله صاحبه، وما دمتُ جئتك مطالبًا بإبلي، فكيف تظن أن الله تعالى لن يبالي ببيته؟ إذا كان الله تعالى هو صاحب هذا البيت، فلا بد أن يهتم به ويمنعك من الهجوم عليه. فالدليل الذي قدمه عبد المطلب على صحة موقفه هو أننا نؤمن أن الكعبة بيت الله، وأنه قد وعد بحمايته بنفسه، وإذا كان إيماننا صحيحا فلا بد أن تهلك إذا حاولت الهجوم على الكعبة.

هذا الحادث بحد ذاته دليلٌ على أن الوعد الإلهي بحماية بيت الله تعالى كان مستمرا منذ ألفي سنة، وكان العرب يعلنون أن الذي يهاجم هذا البيت فسيهلك حتما (تاريخ الطبري). وبعد انقضاء اثني عشر قرنا على دعواهم هذه، يخرج شخص للهجوم على بيت الله بجيش كبير عظيم العدة والعتاد مغرورا بقوته، ظنًّا

منه أن هدم الكعبة ليس بصعب عليه، فدُمِّر مع جنوده تدميرا حتى صار عبرة للعالم. فمن ذا الذي يمكن أن يعتبر هذا الحادث صدفة؟! كان العرب لا يزالون يدّعون منذ ألفي عام أن لا أحد يقدر على الهجوم على الكعبة، ولو حاول لهلك حتمًا، ثم بعد مرور ألفي سنة يهبّ شخص للهجوم عليها، ويهلك! أيُسمى هذا صدفة؟ إذا لم يكن عند العرب مثل هذه الدعوى عن الكعبة، ودُمِّر أبرهة وجنوده عند الهجوم عليها، لجاز لنا القول إنه صدفة، إذ جاء القوم للهجوم وتفشى فيهم مرض أفناهم، ولكن ادعاء العرب منذ ألفي سنة عن حماية مكة، ثم إيمانهم بذلك نسلا بعد نسل، ثم هجوم أبرهة بجنوده على الكعبة، ثم تحذيرهم لأبرهة بهذه النبوءة، ثم هلاكه بحسبها تماما.. كيف يكون هذا كله صدفة؟ فالقاعدة أنه إذا رُفعت أمامنا قضية فعلينا أن نرى أولاً فيما إذا كانت صادقة في بادئ النظر أم لا، أو ما هو انطباعنا الأول عنها، وماذا نستنتج منها في أول وهلة، وحينما ننظر إلى حادث أبرهة وفقًا لهذه القاعدة نجد أن أهل مكة ظلوا يعلنون منذ ألفي سنة أن من أراد الهجوم على الكعبة هلك، وبعد انقضاء ألفي سنة جاء عدو لهم بجنوده لهدم الكعبة، فحذره زعماؤهم أننا لا زلنا نتناقل منذ أجيال أن من يهاجم هذا البيت يُباد، فعليك أن ترتدع عما نويت، ولكنه لم يرتدع، فوقع ما حذّره منه والذي كانوا يتناقلونه منذ زمن إبراهيم الذي أدلى بهذه النبوءة، وهلك أبرهة مع جنوده. وإن كل من ينظر إلى ما حدث يدرك ببادئ الرأي أن هذه القضية تُحسم لصالح أهل مكة. إذن، فليس من واجبنا الآن أن نثبت أن هذا الحادث مجرد صدفة، وإنما هذا من واجب المسيحيين أن يثبتوا أنه مجرد صدفة ما داموا يدّعون ذلك. لقد كانت عند أهل مكة نبوءة عن حماية الكعبة منذ ألفي سنة، وقد أخبروا أبرهة عنها، لكنه رفض أن ينثني عن الهجوم عليها وهدمها، فما إنْ تقدّمَ خطوةً واحدة لهدم الكعبة حتى حلّ به عذاب الله، فهلك خائبًا. فمع وجود هذه النبوءة بينهم منذ ألفي سنة، وبعد تحقُّقها أمام الناس، كيف صار من واجبنا نحن المسلمين أن نثبت أن هذا الحادث كان صدفة! إنما هو من واجب المسيحيين أن يأتوا ببرهانهم على

أنها كانت صدفة، فإذا أتوْنا به فمن واجبنا تفنيده، ولكن ما لم يأتونا بدليل فمسؤولية إثبات كون هذا الحادث صدفةً إنما تقع عليهم هم.

ثم إن حدوث شيء على التوالي، يشكّل في حدّ ذاته دليلاً على صدقه. خُذوا مثلاً السلسلة، فالجميع يعلم أن السلسلة أَولى وأهمُّ من أيِّ حلقة من حلقاتها، لأن الحلقة تابعة للسلسلة، فلو كان عندنا دليل على أن فلانًا يصدق القول منذ عشر سنوات متتالية، حيث يشهد بعضنا أنه وجده صادق القول منذ تسع سنوات، والبعض يشهد أنه وجده صادقًا منذ ثماني سنوات، والبعض يقول إنه لم يجرب عليه الكذب منذ سبع سنوات متتالية، فهذا التسلسل والتوالي في قوله الصدق دليل على أنه صادق، ولو جاءنا شخص واتهمه أمامنا بالكذب، لم نلتفت لقوله مطلقًا، بل نصدّق ما جربناه على هذا الصادق منذ عشر سنوات، ونبرئه من هذه التهمة الجديدة ونرد على المتّهِم: إذا كنت مصرا على ما تقول فعليك أن تأتي ببرهانك. فلو قال في الجواب: بل عليه أن يأتي ببرهان على أنه لم يكذب، لاعتبرناه من الحمقى؛ إذ نقول له: يجب أن تأتي أنت بالبرهان على صدق ما تقول، إذ يكفي دليلا على صدقه أننا لم نجرب منه إلا الصدق منذ سنوات طويلة متتالية. وهذا هو الدليل الذي قدّمه رسول الله ﷺ على صدق دعواه أمام قومه؛ فعندما أعلن دعواه بأمر الله تعالى، فمنهم من رماه بالجنون، ومنهم من اتهمه بالكذب، ومنهم من قال إنه ساحر، ومنهم من قال لقد اعتراه بعض آلهتنا بسوء وعقاب. فكثرت أقاويلهم في النبي ﷺ وشاعت بين الناس، فجمع ﷺ أهل مكة كلهم وخطب فيهم قائلا: أنتم أقاربي وتعرفونني منذ زمان بعيد ومطلعون على خصالي وعاداتي كل الاطلاع، فهل جربتم عليّ الكذب مرةً؟ فقال الجميع بكلمة واحدة: كلا، إنك لتصدق القول دائما، وكلنا نشهد على صدقك وسدادك. فقال لهم النبي ﷺ قولا آخر لكي يؤكدوا على اعتياده الصدق دائما -علمًا أن هناك أماكن يختفي فيها الجيش بسهولة، ولكن يستحيل أن يختفي جيش في البراري الجرداء إذ يُرى فيها المرء من بعيد، وتوجد حول مكة مثل هذه البراري- إذ قال لهم: لو قلت إن وراء هذا التلّ جيشا عظيما يريد الإغارة عليكم، فهل تصدّقونني؟ ومع أن هذا الأمر كان

مستحيلا قطعا، إذ ما كان لجيش أن يختفي وراء ذلك التل الصغير، إلا أنهم قالوا: نعم، سوف نصدّق قولك ونكذّب أعيننا.

ما أقواه من دليل على صدق النبي ﷺ حيث اعترف أهل مكة بألسنتهم أنهم يصدّقون من أجله هذا المستحيل بداهةً. فلما اعترفوا بصدق النبي ﷺ علنًا قال: إذا كنتم موقنين بصدقي لهذه الدرجة فها أنا أخبركم أن الله تعالى قد قال لي أني رسوله إليكم، وأمرني أن أنذركم وأمنعكم من عبادة الأصنام، وإذا لم تقبلوا قولي فسوف تهلكون وتبادون. فما كان مِن هؤلاء الذين أعلنوا من قبل أنهم لم يجربوا منه الكذب قط إلا أن أخذوا يضحكون عليه ويستهزئون، ثم افترقوا بين قائل إنه كذاب، وقائل إنه مجنون، وقائل إنه مخبول. ولكنك لو رفعتَ هذا الحادث أمام عاقل فسوف يحكم حتمًا بجنون هؤلاء الذين كانوا قبل دقائق يعترفون بأنه ﷺ صادق القول، ولكنهم الآن يعدّونه كذابا.

باختصار، إن سلسلة الأحداث المتسلسلة المتواترة حقيقةٌ مسلّم بها بداهةً، ولو قال المرء خلافها فعليه أن يأتي ببرهانه، وليس من واجب الآخر أن يأتي بالبرهان. كان العرب منذ ألفي سنة يعلنون أن الكعبة بيت الله وأنه يتولى حمايته، ويمكنك أن تقول كانت دعواهم مجرد وهم ووسوسة وإلحاد وكفر، إلا أن سلسلة ادعائهم هذه امتدّت لألفي سنة، و لم يكن يجرؤ أحد على مهاجمة الكعبة خوفًا من دعواهم هذه، وبعد انقضاء ألفي سنة ينبري شخص للهجوم على الكعبة ويهلك، فلا يمكن لأحد -مع كون الكعبة محمية خلال تلك الفترة بلا انقطاع- إلا أن يصدّق دعوى العرب. وإذا زعم أحد أن هذا الحادث ليس حلقة من هذه السلسلة الطويلة المستمرة من حماية الكعبة، بل هي حلقة لا علاقة لها بتلك السلسلة، فعليه أن يقدم الدليل على ما يدعي، فهذه مسؤوليته هو. إلا أنه فيما يتعلق بتسلسل حلقات هذه السلسلة فلا بد من الاعتراف أن ما ادعاه أهل مكة بهذا الصدد كان صحيحا ١٠٠%، وأن الأحداث أيضا أكدت صحة دعواهم. والآن إذا اعتبر أحدٌ الحادثَ صدفةً، فمن واجبه أن يأتي ببرهانه، وليس من واجب المسلم أن يقدِّم الأدلة على أن الحادث لم يكن صدفة.

باختصار، إن دعوى أهل مكة ثابتة بالنظر إلى النبوءة الإبراهيمية، وأيضا إلى سلسلة الوقائع التي حدثت. وإذا قال أحد خلاف ذلك فعليه أن يأتي ببرهانه، ولكن هذا البرهان لم يقدمه "ويري" ولا غيره من القسس.

والاعتراض الثاني الذي يثيره المعترض هو أنه إذا لم يكن الحادث صدفة، بل آية ربانية، فكان ينبغي أن يريها الله تعالى بحق المسيحيين لا ضدهم، وحيث إنها ظهرت ضد المسيحيين فلا نسلّم بها.

هذا القول جنون كله، فما دام الله تعالى قد أرى هذه الآية فعلاً فلا بد من التسليم أن الله هو الأعلم بالحقيقة مِن القسيس "ويري". إن قوله هذا يماثل قولَ أحد الأفغان السذج الذي كان يقرأ كتابًا من كتب الحديث، فمرّ بحديث يقول: كان النبي ﷺ يصلي وهو يحمل حفيده الإمام الحسن ﵁، فلما ركع أنزله عن ظهره وأجلسه بجانبه، وكان هذا الأفغاني قد قرأ من قبلُ في كتب الفقه أن الحركة الزائدة تفسد الصلاة، فما إنْ قرأ هذا الحديث حتى صرخ: لقد فسدت صلاة محمد (ﷺ). فقال له القوم: أيها الأحمق، إن محمدا ﷺ هو الذي علّمنا الصلاة، فكيف تطعن في صلاته؟ كذلك كان الله هو الأدرى بما إذا كان سيري هذه الآية بحق المسيحيين أم ضدهم. ولما ثبت أنها آية ربانية، فمن منتهى الغباء أن يقال لماذا لم يُرِها الله تعالى بحق المسيحيين. إن مثل هذا القول يماثل قول الأفغاني: لقد فسدت صلاة محمد (ﷺ). إذا كان عقلك لا يستوعب الحقيقة، فعليك أن تعترف- وقد ثبت أن الحادث ليس صدفة- أن الله تعالى هو الأعلم بالأمر وأن عقلك قد أخطأ.

الواقع أن هنالك أناسًا يزعمون أنهم أعلم من الله تعالى، فقد قابلني أحد المثقفين بالثقافة الحديثة وكان محاميا، ووجه إليّ بعض الأسئلة، فأجبت عليها كلها، وقلت له: إنما السؤال الأساسي هو: آلله موجود أم لا؟ وإذا كان موجودا فلا يمكن أن تثار هذه الاعتراضات؛ إذ يقال عندها أأنت أعلمُ أم الله. فلم يلبث أن قال: أنا أعلم من الله. فضحك أصحابه على قوله. إلا أن هذا المحامي كان مضطرًا لذلك بعد إجابتي على مطاعنه كلها، إذ كان لا يستطيع إثبات ما يقوله، فلم يكن أمامه إلا أن يقول بأنه أعلم من الله، لأن الله تعالى إذا قال شيئا و لم يستوعبه عقله،

فكيف يقبله؟ وهذا هو حال "ويري" أيضا، فهو لم يقدر على أن ينكر وقوع الحادث أو يثبت أنه صدفة من الصدف، فراح يقول: لماذا أهلك الله المسيحيين بدلاً من مشركي مكة؟

غير أنه لا بد للمرء من الرد على مثل هذا المعترض، فها أنا أردّ على مطاعنه فيما يلي:

إن اعتراضه الأول هو قوله بأن المسيحيين كانوا أهل كتاب، وكان أهل مكة عبدة أصنام، فلماذا عذب الله المسيحيين ونصر الوثنيين؟

وجوابي هو إن اعتراضه هذا في حد ذاته يدل على إلحاد وجهل مُطْبِقين. ذلك أن الله تعالى لا يرى ما إذا كان الإنسان مسيحيا أو غير مسيحي، وإنما يراعي العدل والحق. فلو أن "ويري" قال: كان أبرهة على الحق وكان أهل مكة على الباطل، فكان ينبغي أن يعذَّب أهل مكة لا أبرهةَ، لكان قوله معقولاً -علمًا أن "ويري" قد احتجّ بهذا الدليل أيضا، وسأردّ عليه لاحقا- ولكنه يقول: لماذا عذّب الله المسيحيين إزاء الكافرين؟ وقوله هذا ظلم عظيم. الناس هم مَن ينحازون إلى الظالمين الموالين لهم، ويتهمون المظلوم، فهل يتوقع "ويري" من الله تعالى أن ينحاز للمسيحيين لكونهم مسيحيين فحسب، ضاربًا بالعدل عرض الحائط؟ إذا كان يرى أن ربه يمكن أن يفعل هكذا، فهذا شأنه، أما الإسلام فإنه يقدِّم إلها لا يظلم أحدا، بل يعلِّمنا نصرة المظلوم ومنع الظالم ولو كان أبانا أو أخانا أو صديقنا أو قريبا من أقاربنا. ذات مرة قال النبي ﷺ لصحابته: انصرْ أخاك ظالما أو مظلوما، فوجدوا هذه الوصية خلافا لبعض وصاياه السابقة، فقالوا في حيرة: يا رسول الله، نفهم كيف ننصر المظلوم، ولكننا لا نفهم كيف ننصر الظالم. قال ﷺ: انصروا الظالم بمنعه من الظلم، لأنه إذا استمر في ظلمه هلك (البخاري، كتاب المظالم). فكان نهيه ﷺ إياهم عن الظلم على هذا النحو أشد وقعًا في قلوبهم. لو قال لهم لا تنصروا الظالم لقال بعضهم إن المرء يضطر لنصرة إخوانه وأحبابه أحيانًا، ولكنه ﷺ بيّن هذا الأمر على هذا النحو وقال إذا نصرتم الظالم فقد أهلكتموه، فهكذا حقق الهدف الذي أراد، كما جعل كلامه أشد تأثيرًا في قلوبهم. إذًا، فالإسلام يعلّم أن يكون الإنسان

مع الحق والعدل بأي ثمن، ولكن هؤلاء القسس يرون أن الله تعالى -والعياذ بالله- أسوأ خُلُقًا من البشر، إذ يتوقعون منه أن ينحاز لدين أو طائفة، ضاربًا بالعدل عرض الحائط. إن المسيحية الحالية ليست بدين حق، ومع ذلك لنفترض أنها حق، فهل يرى "ويري" أن الظالم إذا كان من أتباع الدين الحق فعلى المرء أن ينصره ويؤيده ولا ينصر المظلوم ولا يسترد حقّه من الظالم؟ لا شك أن الأمم الغربية اليوم تتّبع هذه الاستراتيجية، ولكن لا أحد من الشرفاء والعادلين يعتبرها طريقا سليما. الحق أن أبرهة خرج لهدم معبد أهل مكة، وهذا ظلم شنيع، لا شك أنه كان مسيحيا، ولكنه كان مسيحيا ظالما، ولا أحد من الشرفاء ينصر الظالم، دَعْك أن تتوقع من الله تعالى أن ينصر الظالم ويسحق المظلوم لمجرد أن الظالم مسيحي والمظلوم وثني!

ثم ينبغي أن يوضع في الحسبان أن أبرهة لم يأت للإغارة على هؤلاء الوثنيين الكافرين، إذ أعطاهم أمانًا إذا لم يتعرضوا له، إنما جاء للهجوم على الكعبة نفسها. إن الذي تغوّط في كنيسة "القُلَّيس" هو أحد العرب، لكن أبرهة سارع لمهاجمة الكعبة بدلاً من مهاجمتهم. هل عملية التغوط صدرت من الكعبة حتى يهاجمها؟ إن عربيًا يتغوط، ولكن أبرهة يهاجم الكعبة! لا شك أن هذا العمل ينسجم مع تعاليم دين المسيحيين؛ إذ يؤمنون أن البشر أخطأوا ولكن الله تعالى صلب ابنه بدلاً منهم، ولكن لا أحد من العقلاء أو الشرفاء يجيز مثل هذه العملية، أي أن يقترف أحد جنايةً ويعاقَب غيرُه. ويتضح من التوراة أيضا أن معاقبة البريء مكان الجاني غير جائزة، فإن إخوة يوسف عليه السلام لما ذهبوا بأخيه بنيامين إلى مصر، أراد يوسف أن يستبقيه عنده، ولكنه لم يُبْدِ ذلك لأحد، ثم هيّأ الله الأسباب التي مكّنته من استبقاء أخيه عنده شرعيًا، إذ فَقَدَ القوم صُواعَ المِلك، وبينما هم يبحثون عنه سأل يوسف عليه السلام إخوتَه وهو يشكّ فيهم: ما عقابُ مِن وُجد الصواع في متاعه؟ قالوا: عقاب مثل هذا السارق إلقاء القبض عليه. فما لبثوا أن وجدوا الصواع في متاع بنيامين، فقال يوسف: الآن، لن يُسمح لبنيامين أن يرجع. فتقدّم أحد إخوته وقال: إن أباه شيخ كبير، وهو في معاناة من قبل لفقدان أحد أبنائه، وستزداد معاناته إذا لم يرجع

بنيامين إلى البيت، فنرجوك أيها العزيز أن تأخذ أَحَدَنا مكانه. قال يوسف عليه السلام: لستُ ظالما حتى آخذ البريء وأترك الجاني. مما يدل على أن التوراة تعترف أن عقاب البريء بدلاً من الجاني ظلم عظيم، ولكن المسيحيين يقولون لنا إن الناس أذنبوا، فصلب الله تعالى المسيح عليه السلام مكانهم. لا شك أن الأديان الأخرى أيضا ترفض هذه العقيدة، كما أن العقل والنُّبْل أيضا لا يرضيان بعقاب البريء عوضًا عن المجرم. ضَعْ هذا الأمر في الحسبان ثم فكِّر فيما حصل؛ يتغوط عربي جاهل همجي في كنيسة صنعاء، فيتميز الملك غيظا، ولكنه لا يعاقب ذلك العربي ولا أقاربه ولا قبيلته، بل يخرج بجيشه قاطعا مئات الأميال لهدم الكعبة التي هي مكان مقدس عند العرب كلهم. أي عاقل يمكن أن يعتبر هذه العملية انتقامًا عادلاً على الإساءة إلى الكنيسة؟ لقد أثبتُّ من الروايات التاريخية أن أبرهة أرسل إلى أهل مكة أنني لم آتِ لقتالكم، وإنما جئت لهدم الكعبة فقط، وإذا خلّيتم سبيلي رجعتُ بعد هدمها دون التعرض لكم. ما دام الخطأ من الإنسان فكان يجب أن يُعتبر هو مجرما، وإذا كان أحد يستحق العقاب فهو ذلك العربي الهمجي الذي تغوط في الكنيسة، وإذا كان الملك يريد أن يصبّ جام غضبه أكثر، فكان ينبغي أن يقبض على أقارب الجاني أو قبيلته أو يهاجم قومه، ولكن أبرهة يشنّ الهجوم على الكعبة بدلاً من عقاب المجرم. إنما مثله كمثل هندوسي يخاصم مسيحيا، فيستبدّ الغضب بالدولة المسيحية فتهدم معبدًا هندوسيًا، أو كمثل مسيحي يخاصم هندوسيا فتثور الدولة الهندوسية غضبًا وتهدم كنيسة مسيحية. يجب أن يكون بين الأمرين صلة وعلاقة. لو أخطأ زيد وألقي القبض على أفراد قبيلته لكان أمرًا مفهوما، أما أن يرتكب زيد جريمة فيُهدم معبد قومه، فهذا غير معقول. إن تصرُّف أبرهة نفسه يدل على أنه لم يخرج لحرب الكفار الوثنيين لإساءة أحدهم إلى كنيسته، وإنما ذهب لهدم الكعبة، ولذلك كان مجرمًا كبيرا عند الله تعالى، ولا يمكن تبرير فعلته بحجة أنه ذهب لأخذ الثأر لهتك حرمة كنيسته.

ثم إنني قد أثبت من قبل أن الهدف الأساس لهجوم أبرهة هو الحيلولة دون اتحاد العرب، وليس أيّ هدف ديني نبيل آخر، وإلا فهناك آلاف الكنائس في العالم،

ولكن المسيحيين لم يسعوا قط عند بناء أي كنيسة منها لأن يقدّسها أبناء الأمم الأخرى، أما أبرهة فلم يبنِ كنيسته إلا وسعى جاهدًا لأن يأتي الناس لزيارتها بدلاً من الكعبة، حتى إنه أعطى الرشاوى لبعض زعماء العرب ليقوموا بين قومهم بالدعاية لزيارتها. هل عملُه هذا من الدين في شيء؟ إن كل إنسان يحترم دينه من الأعماق، ولا يطيق سماع شيء خلاف دينه، ولم يكن العرب خَلْوًا من هذه المشاعر الدينية. كان أبرهة يعلم جيدا أن العرب يحبّون الكعبة من الأعماق، ولن يتخلّوا عنها بأي ثمن، ومع ذلك فقد عيّن بعض الزعماء العرب ليقوموا بالدعاية ضد الكعبة.

ثم إن محاولته لهدم الكعبة نفسها دليل على أنها كانت مكيدة سياسية من أجل غلبة المسيحية. كان هدفه أساسًا أن يقضي على ذلك الإحساس الذي تولد في قلوب العرب عن اقتراب ظهور نبي بينهم، تشتيتًا لشملهم وقضاءً على وحدتهم. إذًا فكان وراء هجومه هدف سياسي بغيض جدا، ومثل هذا الإنسان يستحق العقاب حتمًا، فعاقبَه الله بالفعل.

أما الاعتراض الثاني فهو أن أبرهة ذهب ليأخذ ثأر هتك حرمة الكنيسة، فلماذا عاقبه الله تعالى؟ لقد سبق أن أجبتُ على ذلك بأن أحد العرب ارتكب هذه الإساءة، ولكن أبرهة نفسه أعطى الأمان للعرب، فإنهم لما قالوا له إننا لا نريد التعرض لك ويمكنك أن تهدم الكعبة، فإنه تصالحَ معهم. إذا كان قد خرج لينتقم من العرب على هذه الإساءة، فكان ينبغي أن يغضب على ذلك العربيِّ الذي تغوط في كنيسته وعلى قبيلته وعلى قومه، ولكن توجّه إلى الكعبة رأسًا وظل يقول للعرب إني لا أعاديكم ولن أتعرض لكم إذا لم تتعرضوا لي. فالقول إنه ذهب لأخذ الثأر للإساءة إلى الكنيسة خلاف للواقع. هذا أولاً. وثانيًا: إن أخذ الثأر من معبد على إساءة ارتكبها إنسان ضد كنيسة ليس معقولاً.

ثم من المعلوم أن محاولة هدم المعبد المركزي لقومٍ لهو أمرٌ أشدُّ فظاعةً، والجميع يعرف أن كنيسة صنعاء لم تكن معبدًا مركزيا للأمة المسيحية، أما الكعبة فلم تزل معبد العرب المركزي منذ زمن إبراهيم عليه السلام. وإذا جاز عند النصارى هدم المعبد

المركزي انتقاما على الإساءة إلى معبد عام لهم، فهل يرضون أن يهدم المسلمون كنيستهم في القدس انتقامًا على الإساءة إلى بعض مساجدهم؟ فمن المعروف أنه كان هناك مسجد قديم بجنب محطة القطار بمدينة لاهور، وكان عمّال محطة سكة الحديد قد وضعوا فيه أدواتهم قليلة الاستعمال، وكان الإنجليز قد استعملوه مرابطَ كلابهم، فقام المسلمون مرة باحتجاج لتحرير المسجد، فأخذ عمال سكة الحديد متاعهم منه وفرّغوه، ولكن عاد المسجد بعد فترة غيرَ عامر، ولعلّه قد أصبح عامرًا بعد تأسيس باكستان.. فهل يحقّ للمسلمين أن يهدموا أكبر كنيسة للمسيحين في القدس بحجة أنهم قد أساءوا إلى مسجدهم هذا؟ فإذا كان جوابهم بالإيجاب سلّمنا بصحة موقفهم في قضية أبرهة. ولكن الواقع أنهم سيتميزون غيظا بمجرد سماع اقتراح هدم كنيستهم في القدس دَعْك أن يسمحوا بذلك. فأين العدل إذن؟ يقولون لنا إنّ أحد العرب المجانين قد تغوط في كنيسة صنعاء، وهذا مبرر كاف لهجوم أبرهة على الكعبة التي هي أقدس معبد عند العرب. كلا، بل إن ما فعل أبرهة كان جريمة عظيمة، وكان لا بد للظالم أن ينال العقاب، فعاقبَه الله تعالى.

لقد سبق أن ذكرتُ أن هذه السورة تشير في الحقيقة إلى الزمن الأخير للإسلام، حيث بين الله تعالى للمسلمين أن العالم المسيحي قد حاول الحيلولة دون انتشار دين محمد ﷺ وازدهاره حتى قبل ولادته؛ أعني أنهم لما رأوا تحقُّقَ أمارات تدلّ على قرب ظهور نبي العرب توجّهوا إلى الكعبة لهدمها، ليقضوا على نقطة وحدة العرب وليعرقلوا طريق ازدهار النبي الموعود الذي ينتظره العرب بشدة، لكن الله تعالى لم يسمح لهم بهدم الكعبة تعظيمًا لبعثة محمد ﷺ، وبذكر هذا الحادث قد نبّه الله تعالى المسلمين أن العالم المسيحي سيسعى في المستقبل للقضاء على قوة محمد ﷺ، فلا تيأسوا من مكائدهم، إذ كيف يمكن للهِ الذي قد أرسى تعظيم نبيه ﷺ واحترامه حتى قبل ولادته أن يسكت على الإساءة إليه ﷺ وإلى دينه ويدَع عدوَّه ينجح في نيَّاته الشريرة ويدمّر دينه بعد إعلان نبوته، وبعد تضحياته المذهلة التي لا نظير لها، وبعد ضرْبه أروع أمثلة على التفاني في حب الله تعالى، وبعد إنشائه جماعة من الصالحين الأطهار من الطراز الأول، وبعد عرضه على الناس شريعته الكاملة

المنـــزهة عن أي نقص وعيب، وبعد انتشار دينه في العالم كله؟ من المستحيل لكل عاقل عارف بهذه الأحداث ومؤمن بمحمد ﷺ أن يصدّق ولو لحظةً أن المـــسيحية يمكن أن تنجح في هذه المواجهة. من المحال أن تساور أيَّ مسلم الشبهةُ في أن هذه المواجهة بين الإسلام والمسيحية سيكون مصيرها كمصير أبرهة حين جـــاء لهـــدم الكعبة. لكن المؤسف أن المسلمين لا يوقنون اليـــوم أن الإســـلام سينتـــصر وأن المسيحية ستنهزم في هذه الحرب، مع أن القرآن بين أيديهم، ومع أن سورة الفيـــل بين دفتيه، ويروها ويقرءوها كل يوم فيه. ولا أعني باليقين مجرد ثرثرة لسان، بـــل أعني ذلك اليقين المعقول المقرون بجهود ومساعٍ. أما الدعاوى باللسان، فلا شـــك أن كل مسلم يعلن أن الإسلام سينتصر، ولكن فيما يتعلق باليقين بانتصار الإسلام وفوزه في هذه الحرب بين الديانتين، فإن ٩٩% منهم غير موقنين بذلك.

لعلكم تظنون أن ما قلته مخالف للواقع؛ إذ هناك حرب يخوضها المـــسلمون في فلسطين، وهناك جهود يبذلوها في الهند أيضا، فكيف يصح القول إن ٩٩% مـــن المسلمين لا يوقنون بانتصار الإسلام؟ وجوابي أن اليقين الصادق يكـــون مقرونـــا بالعمل دومًا، والإيمان بدون العمل لا يسمى إيمانا صادقًا، إنما هو وهم ووسوســـة وضعفٌ خُلقي. إذا كان المرء صادق الإيمان فلا بد أن يعمل بحسبه. وعلى ســـبيل المثال، إذا مرض ولدك، وكنتَ تعلم يقينًا أنه سينجو بالعلاج، فهـــل تقـــصّر في علاجه؟ إذا قصّرت في علاجه فلا يخلو ذلك من أمرين: فإما أنك جاهل بقـــوانين الله تعالى، والجاهلُ عديم الإيمان، إذ قال الله تعالى في القـــرآن الكـــريم مـــرارا إن العارفين والعلماء هم المؤمنون بالله تعالى؛ فإذا أُصيب ابنك بالالتهاب الرئوي مثلاً ولم تعالجه بل ظللتَ تقول إن الله تعالى سيرحم ابني بفضله، فمن ذا الذي يقول إن إيمانك بالله إيمان صادق؟ إذ إن الجاهل هو الذي ينسب إلى الله تعالى جهله وغباءه ويظن أن هذا دليل على إيمانه. وإما أنك لا تهتم بعلاجه لإدراكك أنـــه ســـيموت الآن حتمًا، فلا فائدة من إضاعة المال في دفع فواتير الأطباء. فثبـــت أن الـــذي لا يجهل قوانين الله تعالى ويوقن أن ابنه سيتماثل للشفاء، فلا يتقاعس في علاجه أبدا. فلو أن المسلمين أيقنوا أن الإسلام سينتصر على المسيحية حتمًا لما تقاعـــسوا عـــن

السعي والتضحية في الدفاع عنه، والتي لا بد منها لانتصاره. إنهم يرون بأم أعينهم أن المسيحيين أكبر منهم حكمًا إذ يحكمون على بقاع هي أوسع كثيرا من أراضيهم، ويدركون أنهم أكثر منهم مالاً إذ يملكون ١٠٠ ألف روبية مقابل كل روبية يملكها المسلمون، ويعلمون أنهم أكثر منهم سلاحًا إذ يوجد عندهم عشرات المدافع مقابل كل سيف، وطائرةٌ مقابل كل حصان ضالع، وقنابل إزاء كل حجرِ مقلاع عند المسلمين. وهذا الكلام ليس مبالغا فيه، بل يمكن أن يحلف الإنسان على ذلك، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: ماذا أعدّ المسلمون مقابل هذه المصيبة الكبرى التي حلّت بالإسلام؟ وما هي التضحيات التي يقدمونها للدفاع عنه؟ لقد قرأتُ قبل أيام في جريدة عراقية مقالاً عن فلسطين قال فيه صاحبُه لأهلها بكل قوة: تدّعون أنكم تكنّون لفلسطين حبًّا عظيما، وهل علامةُ حبكم أنكم بِعتم لأعدائكم بنادقكم حين وجدتم سبعين جنيها لكل بندقية بدلاً من عشرة جنيهات وهو ثمنها الحقيقي، دون أن تفكروا ماذا تفعلون. لقد غدرتم ببلدكم، وما دام هذا هو حال حبكم بلدَكم فكيف تدَّعون أنكم سوف تنتصرون في فلسطين؟ وهذا ما فعل المسلمون في الهند أيضا، ففي الأيام* التي كان السيخ فيها يختطفون نساء المسلمين وبناتهم، كان بعض الغدارين يشترون البنادق من حزب "مسلم ليغ" (المؤتمر الإسلامي) ويبيعونها للسيخ.

هذا هو عمل المسلمين، ومع ذلك يرفعون هتاف التكبير ظانين أنهم سينتصرون بالهتافات فقط. الحق أن هتافات تكبيراتهم زائفة، ودعاوى انتصاراتهم باطلة، وظنهم أنهم مؤمنون بالإسلام مجرد وهم وانخداع. إنهم لا يحبون الله تعالى ولا رسوله ولا القرآن ولا الإسلام، وإن رقيهم محال ما لم يُصلحوا أنفسهم.

لا تزال هناك ضجة في فلسطين ويظن العالم الإسلامي أن الفلسطينيين ذوو قوة ومنعة، مع أن إخواننا الموجودين هنالك يذكرون في رسائلهم ما ترتجف من هوله

---

* يشير حضرته ﷺ إلى أيام انقسام الهند وتأسيس دولة باكستان، حيث وقعت مجازر رهيبة واضطر كثير من المسلمين للهجرة إلى باكستان. (المترجم)

القلوب. فقد كتب أحد دعاتنا أن وزير الحرب في إحدى الدول العربية هنالك قابلَه وأخبره أنه ليس عندنا أي قدرة، فاكتبوا إلى أهل باكستان أن يساعدونا، فإن الدعاوى التي نطلقها مجرد خداع لا حقيقة لها. أما الوضع الراهن فهو أن مصر وسوريا والعراق ولبنان وشرقي الأردن كلها قد شنّت هجوما موحّدا على اليهود، ولكن اليهود ينتصرون في كل موطن باستمرار، وليس سبب ذلك إلا أن المسلمين ظلوا يعلنون أنهم سوف يقضون على اليهود دون أن يعدّوا لذلك عدّتهم، فلما نشبت الحرب أخذ العدو ينتصر عليهم باستمرار. يقال اليوم: ما ذنبُ المسلمين، فإن بريطانيا وأمريكا قد امتنعتا عن إمدادهم بالأسلحة! ولكن السؤال: ألم تكن هذه الدول قد امتنعت عن إمدادهم بالأسلحة قبل سنة، فلماذا لم يأخذوا عدّتهم قبل سنة؟ ولماذا يشتكون اليوم أن أمريكا وبريطانيا قد امتنعتا عن إمدادهم بالعتاد؟ الواقع أن المسلمين لو كانوا على يقين أن الله تعالى سوف ينصرهم على عدوهم كما نصر الكعبةَ ضد أبرهة لعمِلوا وأعدّوا عدهم، ولم يترددوا بالتضحية بأي شيء في سبيل رقي الإسلام، ولو فعلوا ذلك لحالفهم نصر الله تعالى. ولكن الإنسان لا يستعدّ للتضحية من دون سبب، إنما يستعدّ للتضحية نتيجة اليقين، فمَن أيقن أن عدوه لا يستطيع أن يهزمه لم يتردد في تقديم التضحيات، ومَن أيقن أنه لو مات دخل الجنة لم يتردد أيضًا في التضحية بأي شيء. إن اليقين هو الذي يولّد الشجاعة في الإنسان. إن اليقين هو الذي يحفّز على التضحية والإيثار. إن اليقين هو الذي يثبّت قدم الإنسان في الشدائد. وأيُّ شيء هو أدعى لليقين في قلب المؤمن من قول الله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾.. أي أيها المسلم، ألم تر كيف فعلْنا بأصحاب الفيل؟ فلماذا تصاب بالقنوط برؤية القوة المتزايدة للمسيحيين؟ إن ربك هو نفس الإله الذي كان في زمن أصحاب الفيل. إنه ﷻ لم يصبح مفلوجا ولا عجوزا ولا عاطلا ولا عديم القدرة. إنه حيٌّ اليوم كما كان حيًّا من قبل، وقويٌّ اليوم كما كان قويًّا من قبل، فكيف تظنون أنه لن ينصركم في ساعة العسرة هذه ولا يخرج بسفينة الإسلام إلى برّ الأمان؟ إذا تولد مثل هذا اليقين في قلب المرء فلا يبالي بالتضحية بنفسه وماله، بل يرى التضحية بنفسه وأهله وأولاده وماله

وعقاره أمرًا سهلاً بسيطا. ولو تحلى المسلمون بهذا اليقين اليوم لصاروا قوة عظيمة في العالم مرة أخرى، بل الأهم من ذلك أنهم لو تحلّوا بالتضحية والإيثار لنــزل الله من السماء لنصرتهم برؤية إيمانهم قائلا: لقد قام عبادي بالتضحية بدورهم، فإذا لم أنصرهم الآن فسوف أُتّهم بخيانة العهد. ولكن المؤسف أن المسلمين لا يتوجهون إلى هذا الأمر ويتخاصمون على أتفه الأمور. يهتمون بالمناصب والوزارات، ولا يهتمون بالهدف الذي هو مناطُ حياتهم وإيمانهم. هناك نيران مضطرمة في العالم، وروضة النبي ﷺ مهددة بالخطر، ولا يبرح اليهود يكتسبون القوة والنفوذ على مقربة من روضته ﷺ، بل يريدون الاستيلاء على الجزيرة العربية كلها. يروى أنه قبل عدة قرون من اليوم -حين لم يكن لليهود قوة- قد جاء بعض منهم إلى المدينة المنورة متنكرين، وحفروا نفقًا ليصلوا إلى قبر النبي ﷺ ويُسيئوا إليه، ولكن الله تعالى كشف أمرهم على السلطان المسلم عندها، فرآهم في الرؤيا وهم يقومون بهذه الفعلة الشنيعة، فألقى القبض عليهم. فإذا كان هؤلاء القوم لم يتورعوا في زمن ذُلّهم وهوانهم عن الإساءة إلى سيدنا محمد رسول الله ﷺ، فما بالك بهم إذا نالوا الحكم على الجزيرة والشام؟ فما أشدَّه من خطر يحدق بالإسلام اليوم! ولكن المسلمين للأسف منصرفون إلى أمور تافهة غافلين عن هدفهم الحقيقي، مع أن التضحية -والتضحية وحدها- هي التي سيحيا بها الإسلام ثانية. ما الضير لو متنا في هذه الحرب؟ فإن حياة ساعة بعزٍّ أفضل من حياة ألف سنة في ذلّ. لا جرم أن كل مؤمن غيور لن يطيق العيش في ذلّ، وإنما سيعتبر الموت بعزٍّ أفضل من العيش بذلّ آلاف المرات.

باختصار، إن قول الله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ يتضمن نبوءة عظيمة عن المستقبل، حيث بيّن الله تعالى أن المسيحية سوف تكتسب القوة في الزمن الأخير وستسعى للقضاء على الإسلام، ولكن الله تعالى سوف يحمي الإسلام من هجوم الأعداء كما فعل في الماضي، وسوف يكون مصيرهم كمصير أصحاب الفيل.

لقد أشرتُ من قبل أن العرب أخذوا يسمّون أولادهم باسم محمد تفاؤلاً قبيل بعثة النبي ﷺ بعد أن سمعوا أن النبي الموعود سيأتي باسم محمد، وهذه الظاهرة المتزايدة أقضَّت مضاجع المسيحيين، فأرادوا تدمير الكعبة حتى لا يبقى أي إمكانية لرقي العرب. وقد رأينا في هذا العصر أيضا اتجاهًا متزايدا إلى ادعاء المسيحية والمهدوية، وذلك لأن زمن ظهور هذا الموعود كان قد اقترب (تذكرة المهدي ج١ ص ١٩١-١٩٣). يمكنك أن تمعن النظر في تاريخ الإسلام كله، وستجد أن الذين ادعوا المهدوية في القرن الماضي وحده كانوا أضعافَ المدعين الذين ظهروا في القرون الاثني عشر التي سبقته. هذا الفرق الهائل دليل على وجود هذا الاتجاه المتزايد عند الناس، بسبب قرب زمن ظهور المهدي والمسيح. وكما أن المسيحيين أصيبوا بالقلق في زمن النبي ﷺ وقبيل بعثته، كذلك أقضّت هذه الظاهرة المتزايدة عن المهدوية والمسيحية مضاجعَ المسيحيين في هذا العصر، إذ ظنوا أن هذا سيضعف المسيحية مقابل الإسلام، ولكن كما أن جماعة النبي ﷺ في ذلك الوقت لاذت بالحكومة المسيحية التي أراد أحد ولاتها هدم الكعبة، كذلك نجد في هذا الزمن أن المهدي الموعود لاذ بحكومة قوم أرادوا القضاء على فكرة المهدوية.

يعترض بعض المعارضين في هذا السياق قائلين: تعتبر الجماعة الأحمدية قرية قاديان مكانًا مقدسا لها، فلماذا وقعت اليوم في قبضة الهندوس والسيخ!

فليعلم هؤلاء أن إخراج المسلمين الأحمديين من قاديان اليوم حلقة من سلسلة المؤامرة المسيحية هذه، فمع أن هذه العملية تبدو من فعل الهندوس، إلا أن العقل المدبر لها هو المسيحي اللورد "مونت بيتن" في الواقع. وكنتُ أوّل مَن قال في مقالاته إن منطقة غورداسبور لم تُقطع للهند عند تأسيس باكستان إلا لضمّ ولاية كشمير إلى الهند، وأن هذه المؤامرة قد نسجها اللورد "مونت بيتن" حتمًا. وقد بدأ اليوم بعض المسؤولين الحكوميين الباكستانيين وبعض الذين يقيمون خارج الهند يؤكدون قولي في مقالاتهم. بيد أن هذه السورة تشدّ من عزائمنا وتزيدنا يقينًا بأن أصحاب الفيل سيدمَّرون اليوم أيضًا كما دُمِّروا في الماضي.

وهناك وحي بالفارسية تلقاه المسيح الموعود عليه السلام وهو:

شخصے پائے من بوسید ومن گفتم کہ سنگ اسود منم. (التذكرة ص ٣٦)

أي: رأيت شخصًا يقبّل قدميّ، فقلتُ: نعمْ نعمْ، أنا الحجر الأسود.

والحق أن كل مأمور رباني في أي زمن يكون بمثابة الحجر الأسود لجماعته، لأنهم يقبّلونه ويلتفّون حوله مما يزيد الدين قوة. وإن تقوية الدين اليوم منوط بالمسيح الموعود وحده، وهو الحجر الأسود الروحاني في هذا العصر، إضافةً إلى الحجر الأسود المادي الموجود في الكعبة المشرفة. ثم إن آيات سورة الفيل قد أوحيتْ إلى المسيح الموعود عليه السلام أيضا. ثم كما أن الهدف الأساس لهجوم أصحاب الفيل هو القضاء على محمد رسول الله ﷺ، كذلك فليس سبب هذا الهجوم الذي شُنَّ على الأحمدية إلا أن كل هندوسي وسيخي ومسيحي يدرك جيدا أن الإسلام إذا أصبح غالبا اليوم فإنما يصبح بواسطة الأحمدية، فالهدف الأساس لهذا الهجوم هو القضاء على محمد رسول الله ﷺ أصلاً، إذ ليست مهمة المسيح الموعود عليه السلام أن يثبت وجوده، وإنما أن يثبت وجود النبي ﷺ. يقول حضرته عليه السلام في بيت شعر له بالأردية ما تعريبه: إنه ﷺ هو كل شيء ولستُ بشيء؛ وهذا هو قراري الفيصل.

فكما أن أبرهة وجنوده الذين جاءوا لهدم الكعبة في الماضي خابوا وخسروا، كذلك نحن نعلم بل نوقن يقينا كاملا أنه لو اجتمعت كل قوى العالم للقضاء على هذه الجماعة التي أقامها الله تعالى في هذا العصر لإقامة دين محمد ﷺ، فلن تنجح في ذلك. نحن نعلم أننا ضعفاء، وندرك أننا لا نملك قوة ولا حيلة، ولكننا نعلم أيضا أن جنود السماء سوف تنزل لنصرتنا، وأن العالم سيرى مشهد ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ باستمرار إلى أن يصبح الاسلام غالبا في العالم كله مرة أخرى على يد الإنسان نفسه الذي رفضه المسلمون الآخرون جهلاً منهم، وإن الذين يعارضوننا منهم اليوم سوف يرجعون إلينا نادمين قائلين لنا ما قاله إخوة يوسف له، وسوف نجيبهم بما أجاب به إخوته: ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾(يوسف:٩٣).

أليس من المستغرب أن العالَم الخارجي، أعني عالَم الكفر والإلحاد الذي تحاربه جماعتُنا، يدرك أن موت المسيحية إنما هو في انتشار الأحمدية، ولكن المسلمين الآخرين يظنون أن في انتشار الأحمدية هلاك الإسلام -والعياذ بالله. أتذكّر جيدا أنه جاء إلى قاديان لزيارتي في أوائل أيام خلافتي القسيسُ والتر (walter) وهو سكرتير النشر للحركة المسيحية الهندية All India Y.M.C.A، والقسيسُ هيوم (Hume)، والسيد ليوكس (Lucas) عميدُ كلية فورمن كريستشن بلاهور، وتحدثوا معي في شتى الأمور، وبعدما عادوا قال السيد ليوكس (Lucas) في محاضرة ألقاها أمام المسيحيين في كولومبو: لعلكم تحسبون أن الحرب ضد المسيحية ستجري في المدن الكبيرة والجامعات الضخمة، ولكني أخبركم أنني قد رجعتُ الآن من قرية لا يوجد فيها قطار ولا تلغراف -لم يكن القطار قد وصل إلى قاديان بعد ولا التلغراف- بل هي قرية بسيطة جدا، وغاية ما يمكن أن تسمّوها قرية كبيرة، ولكني قد رأيت هناك تجهيزات عظيمة لشن الحرب على المسيحية، مما جعلني أرى أن الحرب القادمة التي ستحسم حياة الإسلام أو حياة المسيحية لن تجري إلا في قاديان.

هذا رأي عميد كلية فورمن كريستشن بلاهور، وقد نُشر في جريدة في سيلان (سيريلانكا)، ولكن من سوء الحظ أن المسلمين الذين أقام الله تعالى هذه الجماعة الربانية لإخراجهم من الحضيض، هم أنفسهم يعرقلون سبيلها بشتى المكائد، بدلاً من أن ينتفعوا منها. فالله وحده يفتح عيونهم ويمنحهم الإيمان الحق والتقوى الحقيقية.

أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٣﴾

شرح الكلمات:

تضليل: ضلَّله: سيَّره إلى الضلال. (الأقرب).. أي أبعدَه عن الدين أو الحق أو الطريق. والمراد من قوله تعالى ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ أن الله تعالى أبعدَ كيدهم عن طريق النجاح، لأن هذا هو المعنى الذي ينطبق هنا مقابل الكيد.

التفسير: لقد تبين من معنى التضليل المذكور أعلاه صحة ما قلتُه في تفسير الآية السابقة. لقد قلت إن قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ إشارةٌ إلى أن الله تعالى قد أبطل مكائد المسيحيين لأمدٍ طويل وبشكل دائم، ولذلك لم يقل الله تعالى هنا: "ألم يُضِلَّ كَيدَهم".. بل قال: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾.. والتضليل مصدر، والمصدر يفيد الدوام وطول الأمد. فلو قلنا مثلا: قام زيد، فهذا يفيد قيامه فقط، أما قولنا: زيد قائم، فيعني أنه قائم منذ مدة طويلة، وهناك أملٌ أن يظل قائما هكذا. فقوله تعالى ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ يبين أنه لم يبطل مؤامرات المسيحيين حين جاءوا للهجوم على الكعبة المشرفة فحسب، بل أبطل بكسر شوكتهم مكائدَهم كلها التي كانوا سيكيدونها لفترة طويلة، ليمكّن رسولَه ﷺ من النمو والازدهار دونما عائق. وبالفعل ظل المسيحيون مغلوبين مقابل الإسلام فترة طويلة، ولكنهم نالوا الغلبة في الزمن الأخير ثانيةً بحسب أنباء القرآن الكريم، وقد قرر الله تعالى الآن أن يهزم المسيحية ثانيةً بأيدينا إن شاء الله.

وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٤﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٥﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٦﴾

شرح الكلمات:

أبابيل: هي كلمة لا مفرد لها، ولكن البعض يرى أنها جمعُ إِبَّوْل (جامع البيان).

يظن عامة الناس عندنا أن "أبابيل" هو نفس الطير الذي هو مشهور عندنا بهذا الاسم نفسه، ولكن هذا خطأ. ما نسميه الأبابيل عندنا يسمَّى الخفّاش بالعربية (لسان العرب). الحق أن الأبابيل لا تعني طيرًا معينا، بل تعني فرقًا وجماعات، والمراد من قوله تعالى ﴿طَيْرًا أَبابيل﴾.. أننا أرسلنا الطيور جماعاتٍ وأسرابًا (أقرب الموارد). وكلمة الأبابيل تعني الفِرَق، وتُستخدم للناس والحيوانات والطيور على السواء (القاموس المحيط تحت كلمة: أبل)، فيقال جاءت الخيل أبابيل.. أي جماعات من هنا وهناك. ولو سمي جيش عظيم من الناس أبابيل فالمراد كتائب وراء كتائب وفوج بعد فوج. كما يعني الأبابيل الجماعات العظام. ومن معانيها أقاطيع تتبع بعضها بعضا (تفسير البغوي وفتح البيان). فقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ يعني أنه تعالى أرسل عليهم الطيور جماعات وأسرابا مرة من هنا ومرة من هناك. وفي هذا أيضا إشارة الى تفشي مرض الجدري في هذا الجيش وافتراسه لهم، ففروا تاركين وراءهم جثث موتاهم، فجاءت أسراب النسور والحدآن من كل طرف وصوب لتأكل لحومهم نهشًا وضربًا وتمزيقا.

سِجِّيل: حجرٌ يشبِه الحجرَ المسنون من الطين اللازب (جامع البيان). ويرى طائفة من علماء اللغة أنها معربة من كلمة فارسية (سنگ وگل).. أي الحجر والطين. ولأن العرب لا ينطقون (گ) فحوّلوها إلى (ج)، فصارت سِجّيل (تفسير

ابن كثير). فالسجيل حجرٌ متكوّن من طين وأحجار صغيرة، أو متكوّن من طين صلب ويكون مسنّنًا كثير النتوءات.

قوله تعالى ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ﴾ يعني بحسب فهم العامة أنها كانت ترمي عليهم حجارة من سجيل، ولكنه يمكن أن يعني أيضا أنها كانت ترميهم على حجارة من سجيل، ذلك أن من عادة الطيور الجارحة آكلة الميتة من نسور وحدآن أن تأخذ قطعة من اللحم وتجلس على حجر وتضربها به وتأكلها.. ربما تضربها به لتليينها أو لتنظيفها.. لذا فالأصح أن الباء هنا بمعنى (على)، لا سيما وقد هلك القوم بمرض الجدري. وانتشرت جثثهم في العراء. فالمراد من الآية أن الطيور التي تأكل لحم الجيفة اجتمعت هنالك، فكانت تنهش جثثها ثم تأكل لحمها ضاربةً إياه على الصخور. والثابت من اللغة والقرآن الكريم أن الباء تأتي بمعنى (على). قال الشاعر:

أَرَبٌّ يبولُ الثُّعلبانُ برأسهِ.... لقد هانَ مَن بالت عليه الثعالبُ

وهو شعر صحابي قاله زمن شركه. لقد خرج ذات مرة في سفر آخذًا معه صنمًا له، فاحتاج إلى الماء الذي كان على مسافة قصيرة، فترك متاعه هنالك ليجلب الماء، ثم قال في نفسه مَن سيحفظ متاعي، فلعل سارقًا يسرقه، فأخرج الصنم ووضعه بجانب المتاع وتوسل إليه قائلا: أرجوك أن تحفظ متاعي في غيابي، فأنا ذاهب لجلب الماء. لقد ظنّ أنه أفضل حافظ لماله. ولما رجع وجد ثعلبًا يبول على الصنم، فكرهه كراهة شديدة ورماه بعيدًا وأنشد هذا البيت.. أي كيف يكون هذا الصنم ربًّا وهو لم يستطع أن يحمي نفسه من الثعلب الذي بال عليه؟

لقد قال هنا: (برأسه)، وهو يعني "على رأسه".

وقال الله تعالى في القرآن الكريم ﴿إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ﴾.. أي على قنطار.

وقال تعالى أيضا ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾..أي إذا مروا عليهم.

فقوله تعالى ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ﴾ يعني أن الطيور كانت ترميهم على حجارة صلبة.

التفسير: لقد رسم الله تعالى هنا صورة هلاك أصحاب الفيل. لا شك أنكم لاحظتم كيف تأكل الطيور الجارحة من نسر وحدأة وغراب وغيرها لحمَ الجيفة، إنها تأخذ قطعة من اللحم وتجلس في مكان وتضربها على حجر أو صخرة يمينا وشمالا مرة تلو مرة. وهذا هو المشهد الذي رسمه الله تعالى هنا ليبيّن أننا أهلكنا هؤلاء القوم الذين كانوا آلافا، فجاءت النسور والحدآن والغربان وغيرها من الطيور الآكلة للجيفة جماعاتٍ وأسرابًا من كل طرف وصوب، وأخذت تأكل لحوم هؤلاء القوم –الذين كانوا قادة كبارا يحرسهم الحرس كل حين، ويمشون متبخترين بملابس فاخرة– ناهشةً لحومهم بضربها على الحجارة. لا أظن أن هناك شخصا لم يرَ هذا المشهد، أما نحن فقد رأيناه مرارا، حيث تقطع الطيور لحم الجيفة وتأخذ في منقارها قطعة منه وتجلس على حجر أو لبنة وتضرب عليها قطعة اللحم ممسكةً إياها بمنقارها بقوة، مرةً من اليمين ومرة من الشمال، ولعلها تفعل ذلك من أجل تليينها أو لسبب آخر لا نعرفه. يبدو أن جنود أبرهة قد هلكوا بالجدري، فاجتمعت هذه الطيور الجارحة وأخذت تنهش جثثهم وتأخذ قطعًا منها وتأكلها ضاربة إياها على الحجارة.

وماذا حصل بعد ذلك؟ قال الله تعالى ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾.. أي أنه تعالى تركهم كسنبلة القمح التي أكلت الديدان حبوبها، ولم يبق منها غير القشور. لقد أكلت النسور والحدآن والغربان لحوم جثثهم ولم يبق منها إلا العظام أو الجلود أو شعر الرأس.

هذا هو الحادث الذي بيّنه الله تعالى في هذه السورة والذي ينسجم مع الآيات كلها. لكن الأسف أن المفسرين ملأوا تفاسيرهم بقصص واهية لا أساس لها ولا

طائل منها، بدلاً من التعمق في الآيات للوصول إلى الحقيقة. ويحتار المسلم من قراءة قصصهم، ويجد الخصوم فيها فرصة للسخرية من الإسلام.

سورة قريش

مكية وهي خمس آيات مع البسملة وهي ركوع واحد

هذه السورة لها اسمان: أحدهما "قريش"، كما ورد لها في الحديث اسم آخر وهو "إيلاف". (البخاري، كتاب التفسير)

إنها سورة مكيّة عند المستشرقين (تفسير القرآن لــ"ويري")، وروي عن ابن عباس أنها مكيّة أيضًا، لكنها مدَنيّة عند الضحاك والكلبي (فتح البيان)، وحيث إنهما ليسا من الصحابة، بل من التابعين، فهي عندي مكية، لأن رواية الصحابي أصحّ من غيره، فمَن عاصر الرسولَ ﷺ أقدرُ على بيان تاريخ تلك الفترة، ولا قيمة لرواية الذين أتوا فيما بعد مقابل قوله، إلا أن يكون هناك دليل. وقد اتفق باقي المفسرين مع رواية ابن عباس رضي الله عنه. وعامة المستشرقين أيضا يعتبرون هذه السورة مكية، بل يراها بعضهم من أوائل السور نزولا؛ فالمستشرق "نولدكه" الألماني يرى أنها مكية وأنها من أوائل السور، حيث تزامن نزولها مع سورة الفيل. والقسيس "ويري" أيضا اعتبرها مكية. (تفسير القرآن لــ "ويري")

والفرق بين ما يقوله المفسرون والمستشرقون بهذا الشأن هو أن المفسرين يبنون رأيهم على الرواية، أما المستشرقون فيبنون رأيهم على مضامين السورة ونصها بدلاً من الرواية، مع أن الحق أنهم لا يدركون مفاهيم القرآن الكريم إدراكا سليما، كما ليست عندهم معرفة كافية بالعربية حتى يتوصلوا إلى نتائج صحيحة نظرًا إلى نص السورة. يُعتبر "مارجوليت" من كبار المستشرقين، وهو بروفيسور في العربية والتاريخ، ولا سيما تاريخ الإسلام، وقد ألف سيرة للرسول ﷺ، وقد ادعى بمهارته بالتكلم بالعربية. وخلال زيارتي للندن أجبره شبابنا على التحدث بالعربية، ورغم أنهم لم يعيشوا في البلاد العربية و لم يكن عندهم مهارة بالحديث بالعربية، إلا أن

"مارجوليت" الذي كان قد عاش في مصر سنوات عديدة قال لهم بعد بضع جمل: إنني لا أستطيع الحديث بالعربية. فالواقع أن المستشرقين لا يعلمون من العربية إلا قليلا، وكل ما في الأمر أنهم قد قاموا بالبحث في مواضيع معينة، وقد نجحوا فعلاً في استنتاج بعض الأمور النافعة في بعض القضايا، ولو أردنا جمع تلك الأمور والمعلومات من المصادر العربية لاستطعنا ذلك، ولكن سنضطر لمطالعة الكثير من الكتب، وبوقت كثير. على أية حال؛ إن معرفتهم وإلمامهم بالعربية ضئيل جدًا، وادعاءهم بأن تلك السورة مكية وهذه مدنية بناءً على النظر في نصوصها وأسلوبها ادعاءٌ باطل. أما ترتيبهم للآيات والسور نظرًا إلى الأحداث التاريخية فليس غرضه إلا الهجوم على ديننا؛ إذ يعنون به أن القرآن الكريم نزل بحسب الزمن؛ بمعنى أن أحكام القرآن تغيرت بتغير الظروف والزمن. لا شك أن الله تعالى قد أنزل أحكام القرآن الكريم نظرًا إلى الأحداث، لكنا نقول أيضا بأن الله تعالى كان سيُنزل هذه الأحكام حتما وإن لم تقع تلك الأحداث؛ لأنها لا تخص أهل مكة أو أهل المدينة، بل هي للعالم أجمع. أما المستشرقون فيقولون إن الأحداث المذكورة في سورة ما توافق الفترة المكية أو المدنية، لذا فهي مكية أو مدَنية. ولما كانت الدنيا تهاب هؤلاء المستشرقين فنضطر للحديث عنهم، وحيث إن أهل هذا العصر أكثر اهتماما بأقوالهم، فنستدل بما كان مفيدا منها.

لا شك أن مضامين السورة أيضا تدل على أنها مكية أو مدنية أحيانا، لكنها ليست دليلا في كل الأحوال. أما هذه السورة فأرى أن مضمونها أيضا يدل على أنها مكية، ذلك أن الله تعالى كان قد وعد بحماية مكة من أي هجوم ما دام النبي ﷺ فيها، أما بعد هجرته إلى المدينة فأخذت النبوءات الإلهية نفسها تعلن أن الله تعالى سيجعله ﷺ يدخل مكة فاتحًا، لذلك نجد الأحداث المتعلقة بمكة تتفق مع الفترة قبل الهجرة.

لقد سبق أن قلتُ مرارًا إن السور الواردة في الجزء الثلاثين من القرآن تتحدث بالتناوب عن بداية الإسلام والزمن الأخير؛ بمعنى أن إحداها تتحدث عن الزمن

الأول للإسلام، والأخرى تتحدث عن الزمن الأخير له، وإن سورة قريش تتعلق بالزمن الأول للإسلام، أما سورة الفيل فتتعلق بالزمن الأخير له.

إن أول ما يربط هذه السورة بسابقتها هو أن الله تعالى قد بيّن في سورة الفيل كيف أنه تعالى قد قام بحماية الكعبة وأنه سوف يحميها مستقبلا أيضا. لا شك أن العالم لم يرَ بعدُ تحقق هذه النبوءة المستقبلية عن حماية الكعبة، وإنما يراها في وقتها إن شاء الله، ولكن أهل مكة قد رأوا بأم أعينهم الآية التي ظهرت في زمنهم، وإليها يشير الله تعالى هنا في سورة قريش ويخبر أن أهل مكة أكثر اهتمامًا بدنياهم من الله تعالى رغم رؤية هذه الآية العظيمة، مع أن المفروض أن يوقنوا بعدها أن الله تعالى حافظٌ وناصرٌ للذين ينتمون للكعبة ويقومون بخدمتها بصدق، وبالتالي كان عليهم أن يقللوا من اهتمامهم بالدنيا، ولكن المؤسف أن سيرهم تدل على عكس ذلك.

والعلاقة الثانية لهذه السورة بالتي قبلها تكمن في أن الله تعالى قد بيّن في سورة الفيل مصير أعداء الكعبة، أما في هذه السورة فأخبر عن مصير الذين يحبون الكعبة ويعظمونها، وبتعبير آخر إنه تعالى قد بيّن في السورة السابقة عاقبة أعدائه وفي هذه السورة أخبر عن معاملته مع أوليائه وإحسانه إليهم، رغم وجود بعض التقصيرات فيهم.

لقد بينتُ من قبل أن ما حدث بأبرهة وجنوده لم يكن صدفة، وإن ورود هاتين السورتين بهذا الترتيب يؤكد قولي هذا؛ ذلك أن من القواعد المسلَّم بها أنه إذا ذُكر الشيء بجهتيه كلتيهما وكان مكتملاً من الجهتين فمن المحال أن يُعتبر صدفةً. ولما كان واردًا أن يقال عن حادث أصحاب الفيل أنه صدفة، فأردف الله تعالى بعد سورة الفيل بسورة إيلاف دفعًا لهذا الاحتمال. لقد بين الله تعالى في سورة الفيل جزاء الذين يعادون الكعبة، أما في سورة قريش فبيّن فيها جزاء الذين يوالون الكعبة، فإذا كان الله تعالى قد صبَّ الخزي والذل على أعداء الكعبة، فإنه تعالى قد أنعم على أوليائها، وكل عاقل يدرك برؤية هاتين المعاملتين المختلفتين أن ذلك الحادث لم يكن صدفة، وإنما كان قدرًا مقدورًا من عند الله تعالى. فمَسّاحُ الأراضي مثلاً عندما يريد تحديد أراضي الناس يضع علامة بارزة ويقوم بمسح الأرض من

هناك، ثم يضع علامة أخرى ويمسح الأرض، فإذا تطابقت المساحتان لم يبق هنالك أي احتمال للخطأ في تحديد تلك القطعة من الأرض، بل يكون هناك اطمئنان تام بأن تحديد تلك القطعة تم على ما يرام تماما. كذلك تمامًا قد ذكر الله تعالى في إحدى هاتين السورتين معاملته مع أعداء الكعبة، وبيّن في الثانية معاملته مع أوليائها، وهكذا تبين أن ما فُعل بالأعداء كان بإرادته تعالى، وما فُعل بالأولياء أيضا كان بإرادته تعالى، وبالتالي ثبت أن دمار أعداء الكعبة لم يكن صدفة؛ تماما كما أنه إذا تطابقت مساحة قطعتي الأرض اللتين يقوم بهما المساح تبينَ أن تحديد المساحة دقيق.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿٢﴾ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٣﴾

شرح الكلمات:

لإيلاف: اللام في ﴿لِإِيلافِ﴾ تدل أن متعلقها محذوف، ذلك أن الجمل في العربية لا تبدأ بالحروف، بل بالفعل أو بالاسم، فيقولون مثلا: ذهب زيد، أو زيد ذاهب، والجملة التي تبدأ بالاسم تتركب من المبتدأ والخبر، والتي تبدأ بالفعل تتركب من الفعل والفاعل. فكل مَن عنده إلمام بسيط بالعربية يعلم أن هناك متعلقا محذوفا لقوله تعالى ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾، إذ لم يبدأ بالفعل ولا بالاسم، ومثاله قول الله تعالى: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، فهو يبدأ بحرف الباء، لذا لا بد من محذوف متعلق به، وهو أَقرأُ أو أَشرعُ أو اقرأْ أو اشرعْ (تفسير ابن كثير ج١ ص ٣٩). وبالمثل فهناك محذوف متعلق بـ"إيلاف".

ولو قال قائل كيف عرفتَ أن هناك محذوفا، ولماذا لا نعتبر قولك مجرد ظنّ؟ قلنا ليس الأمر ظنًّا ولا تخمينا، بل هناك قاعدة قد وضعها العرب نعرف بها أن هناك محذوفا أم لا، فمثلاً لو ذهبتَ إلى محطة التلغراف لإرسال برقية، وسمعتَ صوت

"تَكْ تَكْ"، وسألت العاملين هناك، كيف عرفتم أن هذا هو المراد من هذا الصوت، فسيقولون لك إن المخترع قد جعل شيفرات وبها نعرف أن هذا الصوت يعني "أ"، وهذا يعني "ب"، وهذا يعني "ج". كذلك هناك قواعد وُضعت في اللغة العربية نعرف بها أنه إذا بدأت جملة بحرف الباء أو اللام مثلاً فلا بد من محذوف متعلق به، وقد يكون هناك أكثر من محذوف في بعض الأحيان، ولكن من المحال أن تبدأ جملة بحرف ثم لا يكون لها متعلق محذوف. فحرف اللام في قوله تعالى ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ بيّن أن هناك محذوفا متعلقا به.

أما ما هو المحذوف هنا، فهناك أقوال مختلفة، ولكنها لا تعني اختلافًا حقيقيا، بل كل تلك الأقوال تنطبق هنا وكلها صحيحة. علمًا أن اختلاف الآراء في تحديد المحذوف لا يعني أن أحدها صحيح والباقية باطلة، كلا، بل إذا كان انطباق كل المعاني المختلفة ممكنًا فسوف نسلم بها كلها وإن كانت ثلاثة أو أربعة، كل ما في الأمر أننا نقول إن تفكير هذا النحوي مال إلى هذا المعنى وأن تفكير الآخر مال إلى ذاك.

لقد اختلف النحاة البصْريون عن الكوفيين في تحديد المحذوف هنا. علمًا أنه كانت هناك مدرستان كبيرتان للنحو؛ بصْرية وكوفية. إن نحاة هاتين المدينتين اختلفوا في قواعدهم، وبالتالي اختلفوا في استخراج المسائل النحوية أيضًا. إن معظم أهل الهند يتبعون الكوفيين في الفقه.. أعني أنهم يتبعون الإمام أبا حنيفة الكوفي، ولكن فيما يتعلق بالنحو فإنهم يتبعون البصْريين أكثر. أما مصر والشام فمعظم أهلها يتبعون النحاة الكوفيين، مع أنهم يتبعون الفقه الشافعي. هذا الاختلاف يوجد في كل مكان في الهند وخارجها؛ فبعضهم يتمسكون بآراء مدرسة، وغيرهم يتمسكون بآراء مدرسة أخرى.

المحذوف الأول: بعد هذا التمهيد أودّ أن أبيّن أن البصريين يرون أن المحذوف المتعلق باللام في قوله تعالى ﴿لِإِيلافِ﴾ هو ما ورد في آخر السورة السابقة، والتقدير عندهم: "فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ لِإِيلافِ قُرَيْشٍ" (جامع البيان للطبري).

وهناك سؤال ينشأ عن هذا التقدير وهو: أَحَمى اللهُ الكعبة مِن أجلها هي أم من أجل إيلاف قريش؟ ألم يكن الله تعالى ليُهلك أصحاب الفيل لولا إيلاف قـــريش؟ ولو أهلكهم، والحال هذه، فكيف يعتبر هلاكهم منّةً على قـــريش؟ إذن، فقـــول البصريين يؤدي إلى تناقض في الظاهر؛ إذ أخبر الله تعالى في السورة السابقة بأنـــه أهلك أصحاب الفيل إرساءً لتعظيم الكعبة، بينما قال هنا إنـــه أهلكهـــم إيلافًـــا لقريش. بل إن هذا الاعتراض يتقوّى أكثر في بادئ الرأي إذا أخذنا في الحـــسبان المفهوم الذي بينتُه؛ إذ قلت إن الله تعالى لم يهلك أصحاب الفيل تعظيمًا للكعبـــة فقط، بل لإرساء عظمة محمد ﷺ أيضًا، مما يعني أنه كان مِن قبل سببان لإهـــلاك أصحاب الفيل: تعظيم الكعبة وإيلاف قريش، فأضفتُ إليهما سببا ثالثا، وهو الأهم والأولى عندي.

لكن الحقيقة أن المعنى الذي بينتُه لا يدعم هذا الاعتراض بل يهدمه، ذلك أنـــي كنت ذكرتُ سببين لهلاك أصحاب الفيل، وقلت إن السورة السابقة تتحدث عن تعظيم محمد ﷺ وتعظيم الكعبة، فما دام تعدُّد الأسباب جائزا، وما دام ممكنًـــا أن يكون لفعل واحد سببانِ، فما المانع أن يكون له سبب ثالث أيـــضا. فمـــثلا لـــو سافرتَ من مدينة "لائلبور" إلى "راولبندي" لشراء أغراض، ثم فكّرتَ بأنـــك لـــو ذهبت من راولبندي إلى بيشاور لحقّقتَ هدفين: شراء حاجاتك، وزيارة أقاربـــك الموجودين هنالك أيضا، فلا بأس في ذلك. فثبت أن تعدُّد الأغراض من عمل واحد ممكنٌ تماما، وبالمثل قد أراد الله تعالى بإبادة أصحاب الفيل هدفين: تعظيمَ الكعبـــة وإرساءَ عظمة محمد ﷺ أيضا، بل الحق أن الهدف الثاني هو الأَولى عندي. والآن قد ذكر الله تعالى في سورة قريش هدفًا ثالثا لإهلاكهم، ولا اعتراض على ذلك، فكما أن السفر الواحد يمكن أن يحقق غرضين بل ثلاثة: كالقيام بشراءٍ وزيارة أقـــارب ولقاءِ صديق، كذلك تماما يمكن أن يكون وراء إهلاك أصـــحابِ الفيـــل ثلاثـــةَ أهداف. إذا كان تعدُّد الأغراض جائزًا بل مستحسن في الأمور الدنيوية، فلماذا لا يجوز في أفعال الله تعالى؟

إذًا، فلا اعتراض على المعنى الذي ذكره البصْريون لقوله تعالى ﴿لِإِيلاَفِ قُرَيْشٍ﴾؛ فيمكن أن يكون "إيلاف قريش" هدفًا إضافيا إلى الهدفين المذكورين في سورة الفيل؛ حيث أخبر الله تعالى في هذه السورة أن هذا الهدف أيضا كان وراء إهلاكهم.

ومن الناس من يعترض على تعدد الأغراض بشكل فلسفي قائلا: إذا كان لفعلٍ واحدٍ أهدافٌ شتى فلا بد أن يكون بعضها أهمّ من الآخر، وبالتالي تصبح الأهداف الأخرى ضمنية و لم يعُدْ أيٌّ منها مقصودا بحد ذاته.

ليكنْ معلوما أن الفلسفة المحضة هي لغو لا طائل منه، ونظرية بحتة تُذكر في الكتب ولا علاقة لها بواقع الحياة. علينا ألا نرى ما يقوله الفيلسوف، بل ما يفعله الناس على أرض الواقع. لو قال المتمسك بهذه الفلسفة لشخص متزوج: لقد كنت تقول من قبل بأنك ستتزوج لكي يكون لك أولاد، والآن تقول إن الزواج سوف يريحك من إعداد الطعام، فيجب أن يكون وراء زواجك هدف واحد لا هدفان! فبماذا سيردّ عليه يا ترى؟ سيعتبره مجنونا بالتأكيد. بل الواقع أن هناك هدفا ثالثا للزواج، وهو التقوى؛ لأن كل إنسان مزوَّدٌ بالقوة الشهوانية، والزواج يحقّق هذا الهدف أيضا. بل هناك أهداف أخرى للزواج، إذ قد يقول بعض أصحاب الطبائع المعوجة: ليس في بيتنا شخص متعلم، فلنزوّجْ ابنَنا من فتاة متعلمة لتكون سببًا لانتشار العلم في عائلتنا. وهكذا ترى أن الزواج يحقق أهدافًا كثيرة، ولا يعترض على ذلك أحد قائلا: كيف يقول الناس إن الزواج يحقق ثلاثة أهداف أو أربعة، فهذا ليس صحيحا، إذ ليس للزواج إلا هدف واحد فقط.

فباطلٌ قول الفيلسوف بأنه إذا كان لفعلٍ أغراض عدّة، فلا بد أن يكون أهمها هو الغرض الحقيقي وتصبح الأخرى ضمنية لا قيمة لها! الحق أن معرفة الحقائق يتم بامتزاج من علم النفس والفلسفة، وليس بالفلسفة وحدها. ولو قمنا بتحليل كل الأمور بفلسفة محضة لأصبح هذا العالم وهمًا كله. الواقع أنه من الممكن أن يقوم المرء بعملٍ لغرض واحد فقط، كما يمكن أن يستهدف من عمله الواحد أغراضًا عديدة؛ قد تكون كلها ذات أهمية واحدة، وقد تتفاوت أهميتها، ثم من الممكن ألا

يقوم به إذا كان وراءه أهداف ذات أهمية ثانوية، ومن الممكن أيضا أن يقوم به من أجلها فقط. بوسعنا أن نقول إن هذا الهدف أهم من ذاك، غير أننا لا نستطيع القول إن تعدد الأهداف غير جائز، لأن هذا خلافٌ للفطرة الإنسانية، وخلافٌ للواقع، ثم هو خلافٌ لصفات الله تعالى أيضًا، لأن الله تعالى قد خلق فطرة الإنسان مماثلة لصفاته ﷻ. ويمكن أن ندرك قياسًا على فطرتنا أن صفات الله تعالى أيضا تعمل على هذا المنوال، كما يمكن أن نتوصل إلى هذه النتيجة بالتدبر في صفات الله تعالى وحدها.

ويقول بعض المعترضين: لنفترضْ أن لعملٍ ما هدفا واحدا، فهل كان صاحبه سيقوم به أم لا؟ ونحن نقول: بل سيفعله حتمًا. فيقول المعترض: فلماذا يقال أن لعمله أهدافا أخرى؟ فنردّ عليه: إن صاحب الفعل هو الذي يقرر الغرض وراء فعله، فإذا هو قال إنه قام به لهدفين، وكانا هدفين معقولين، فلا بد من التسليم بقوله، ومَن اعترض على ذلك عُدَّ من الأغبياء؛ إذ لا يحق لنا أن نقول: إن هذا هو الهدف الحقيقي وراء فعله، أما الأهداف الأخرى فهي باطلة!

بعد فهم هذا التمهيد الذي قمتُ به، سيسهل علينا إدراك أنه قد كان لهلاك أصحاب الفيلِ الأغراضُ الثلاثة المذكورة، وباطلٌ قولهم: إذا كان الله تعالى قد أهلكهم إرساءً لتعظيم محمد ﷺ أو إنقاذًا للكعبة، فلماذا قال هنا إنه فعل ذلك لإيلاف قريش؟ وباطلٌ قولهم أنه ما دام وراء دمارهم الأغراض الثلاثة فلا بد أن يذكرها الله تعالى كلها: أعني إرساء تعظيم محمد ﷺ، وتوطيد عظمة الكعبة، وتذكير قريش بمنّته العظيمة عليهم.

إضافةً لما تقدّمَ، أقول بأن كل عمل يمكن أن يتمّ بأكثر من طريق، فمثلاً يمكن أن يتمّ بطريق يحقّق هدفًا، أو بطريق آخر يحقّق هدفين، أو بطريق يحقّق ثلاثة أهداف، فلو تمّ بالطريق الثاني عُلم أن وراءه هدفين، ولو تم بالطريق الثالث عُلم أن وراءه ثلاثة أهداف. لقد بينتُ من قبل بالتفصيل أن القضاء على أبرهة وجنودِهِ وحُكمِهِ لم يكن إرساءً لتعظيم الكعبة وحمايتها فقط، فالدمار الذي حلّ بهم كان أكبر مما يمكن به حمايةُ الكعبة، مما يدل على أنه كان وراء دمارهم أغراض أخرى.

فمثلاً لو مات بعض جنود أبرهة وهرب الآخرون خائفين لتمّت حماية الكعبة ونجت من هجومهم، أما إذا لم يتم القضاء على الحكومة المسيحية في اليمن نهائيًا لظلت تهاجم مكة مرة تلو مرة، وبالتالي استحال ازدهار محمد ﷺ، كما لم تتمكن قريش من رحلة الشتاء إلى اليمن كما هو مذكور في هذه السورة؛ إذ يستحيل السفر بحرية إلى بلد تشتعل فيها نيران الحروب؛ ولذلك لم يجعل الله تعالى أبرهة وجنوده يهربون خائفين، بل قضى على حكمه في اليمن نهائيا، وإلى هذا الدمار الشامل قد لفت الله الأنظار في سورة الفيل وقال: انظروا وفكّروا كيف دمّرنا أصحاب الفيل، وبالتالي لم ننقذ مكة من هجومهم فحسب، بل قضينا على حكم المسيحيين في اليمن نهائيًا. وأي شك في أن القضاء على حكمهم في اليمن هو الذي مهّد لنجاح مهمة الرسول ﷺ في مكة، وهذا الدمار نفسه مكّن قريشًا من رحلة الشتاء إلى اليمن؛ فأنّى لهم أن يخرجوا في رحلات الشتاء إلى اليمن وعدوُّهم ينتظرهم هنالك. كل ذلك يؤكد أن الله تعالى لم يرد القضاء على أبرهة وجنودِه فحسب، بل أراد حماية محمد ﷺ وحماية الكعبة وإزالةَ كل عائق يحول دون رحلات أهل مكة إلى اليمن. فكيفية هذا الدمار توضح أنه تم لإيلاف قريش أيضا، أي أن الله تعالى قد أراد بهذا الدمار حمايةَ قوم كانوا سيصيرون أمة النبي العربي، إذ كان نجاحه في مهمته يكمن في حمايتهم. فالحق أن الله تعالى لم يحمِ أهل مكة أو قريشًا لأنهم مكيون أو قرشيون، بل لأنهم كانوا سيصبحون أمة النبي العربي الأمي، ولو تشتتوا من هنالك لما صاروا من أمته. إذًا، فقد حماهم الله تعالى من أجل محمد ﷺ لا لأنهم أهل مكة، أي إنما حماهم لإنجاح محمد ﷺ.

باختصار، قد دُمر أصحاب الفيل تحقيقا للأهداف الثلاثة التالية:

الأول: إرساءً لعظمة محمد ﷺ

الثاني: توطيدًا لتعظيم الكعبة المشرفة

الثالث: إنقاذًا لقريش الذين كانوا سيصيرون حملة لواء دين المصطفى ﷺ، وليس لميزة ذاتية فيهم.

وهناك سؤال آخر أرى لزامًا أن أردّ عليه، وهو: ما دمنا نقول إن المتعلق باللام في ﴿لِإِيلافِ﴾ هو قوله تعالى في سورة الفيل ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾.. فلماذا لا نعتبر هذه السورة جزءًا من سورة الفيل بدلاً من اعتبارها سورة مستقلة؟ وقد أكد بعض العلماء قولهم هذا مستدلين بأن هاتين السورتين قد وردتا في مصحف أُبيّ بن كعب سورةً واحدة. والدليل الثاني الذي يقدمونه هو رواية تقول إن سيدنا عمر رضي الله عنه قرأ ذات مرة سورة التين في الركعة الأولى من الصلاة وقرأ في الركعة الثانية سورتي الفيل وقريش معًا بدون أن يقرأ بينهما البسملة، مما يدل أنه كان يعتبرهما سورة واحدة (الكشاف للزمخشري).

ولكن هذه الأدلة واهية لا قيمة لها. مما لا شك فيه أن أبيّ بن كعب كان أحد الأربعة الذين قال النبي ﷺ عنهم: مَن أراد أن يتعلم القرآن فليتعلمْ مِن قُرّاء الأُمة هؤلاء (البخاري، كتاب فضائل القرآن)، ولكن ليس بوسع أحد أن ينكر أن أبيّ بن كعب يمكن أن يخطئ كأي شخص آخر. فنحن عندما نكتب مقالا بأيدينا نرتكب فيه أخطاء شتّى، والنُسّاخ المهرة الذين يكتبون القرآن الكريم هم أيضًا يخطئون أحيانا في نسخه، فصدورُ مثل هذا الخطأ من أبي بن كعب ليس بمستبعد، فقد نسِي كتابة البسملة بين السورتين. أما المصحف الموجود بين أيدينا فقد وردت فيه هاتان السورتان منفصلتين، وقد فصلتْهما البسملة، وهذا المصحف لم يعمل في جمعه أبيّ بن كعب فحسب، بل عمل عليه معه صحابة آخرون لم يكونوا أقل مكانة منه في القراءة. لقد قام هؤلاء القراء الأربعة بجمع هذا المصحف بمساعدة سائر الصحابة، ولا جرم أن المصحف الذي جُمع من قِبل هؤلاء كلهم معًا هو الأصحّ.

ثم هناك احتمال لورود الخطأ في مصحف أُبيّ، إذ لم يناقشه أحد، أما هذا المصحف الذي بين أيدينا، فقد خضع للبحث والنقاش، وقد أدلى الصحابة بشهاداتهم على صحته، فلم تُكتب فيه سورة ولا آية ولا حركة إلا وجُمعت حولها شهادات من نوعين: كتابية وسماعية، بمعنى أن هذه الآية كانت قد كُتبت أمام الرسول ﷺ، وأنهم قد سمعوها هكذا منه ﷺ. ما أعظمَ هذه الجهودَ! وما أشدَّ هذه

الحيطةَ التي أُخذت بصددها! إذ لم يقبلوا أي شهادة شفوية ما لم تكن مقرونة بشهادة كتابية، ولم يقبلوا أي شهادة كتابية ما لم تكن معها شهادة شفوية. إذن، فلم يضموا في هذا المصحف سورة ولا آية ما لم تكن عليها شهادة كتابية وشهادة شفوية. وقد بلغ عدد هؤلاء الشهود أحيانا المئات. هناك آية أو آيتان فقط وجدوا لهما شاهدين قالا إننا سمعنا الرسول ﷺ يقرؤهما هكذا (البخاري، كتاب فضائل القرآن)، أما سائر السور والآيات فشهد على صحتها عشرون أو خمسون أو مئات بل آلاف. باختصار، لم يعتبروا أي آية قطعية أو يقينية ولم يضمّوها إلى القرآن الكريم إلا إذا ثبتتْ كتابتُها أمام الرسول ﷺ.. أي أنه أملاها بنفسه، ثم شهد الشهود شفويا بأنهم سمعوه ﷺ يقرؤها هكذا، أو علّمهم إياها هكذا.

فالمصحف الموجود بين أيدينا -الذي وردت فيه سورتا الفيل وقريش منفصلتين- يشكّل في حد ذاته دليلا يقينيا قطعيا على أن هاتين السورتين منفصلتان. أما إذا كان أحد يجمع المصحف بنفسه، فمن الوارد أن ينسى كتابة البسملة بين سورتين. فالحجة التي يقدموها ليست ذات قيمة.

وبالإضافة إلى هذا الدليل السلبي، هناك دليل إيجابي أيضا على ورود البسملة قبل سورة قريش، وبالتالي على كونها سورة منفصلة. وهذا الدليل الإيجابي هو أن الثابت بإجماع جميع المؤرخين والقراء والصحابة الذين كانوا خبراء هذا العلم أن سورة براءة هي الوحيدة التي لم تستهلّ بالبسملة، وأُبيّ بن كعب نفسه هو أحد هؤلاء الشهود، إذًا، فعدم ورود البسملة في بداية سورة قريش في مصحف أُبيّ بن كعب، هو خلافٌ للتواتر، فلا شك أنه قد حصل منه خطأ.

والثابت قطعيًا من الأحاديث الصحيحة أن النبي ﷺ إذا أملى البسملة قبل سورة، كان هذا دليلا قطعيا على كونها سورة مستقلة منفصلة، ومن أجل ذلك يوجد اختلاف حول سورة براءة فيما إذا كانت سورة منفصلة أم لا. وكان الخليفة الأول للمسيح الموعود عليه السلام يرى أن براءة ليست سورة منفصلة، بل هي قِسم من سورة الأنفال (حقائق الفرقان ج٢ ص٢٧٥). وأرى أن هذا هو الأصحّ؛ إذ توصلتُ بعد إعمال الفكر أن سورة الأنفال تُقدِّم دعوى، وقد جاء الدليل

التفصيلي عليها في سورة براءة، ولما كان هذا الدليل موضوعا مستقلا وهاما، فاعتُبر قسمًا من سورة الأنفال. فالحق أن براءة ليست سورة منفصلة، بل هي أحد فصول سورة الأنفال. ويكفي دليلا على ذلك ما ورد في الأحاديث صراحة أن النبي ﷺ كلما أملى سورة جديدة أملى قبلها البسملة دائمًا (أبو داود، كتاب الصلاة)، وحيث إن براءة لم تبدأ بالبسملة فهي ليست سورة منفصلة عن الأنفال، ولما كانت أحد فصولها، فقد سماها المسلمون سورة براءة.

وقد ردّ المفسرون على مَن اعتبر سورتي الفيل وقريش سورة واحدة بقولهم إن اتحادهما في المضمون ليس دليلا أنهما سورة واحدة (جامع البيان للطبري). وهذا الجواب صحيح تماما؛ ذلك أن القرآن الكريم كله مرتب ومنسق، ومضامينه منظومة كاللآلئ، فلا يصح القول أنه ما دام متعلِّق اللام في قوله تعالى ﴿لِإِيلافِ قُرَيْشٍ﴾ موجودًا في سورة الفيل، فهما سورة واحدة. لو سلّمنا بهذا الدليل فلا بد من اعتبار القرآن الكريم كله سورة واحدة؛ لكون مضامينه كلها مرتبطة بعضها ببعض. وأوضح مثال على ذلك موجود في بداية القرآن الكريم نفسه، فقد ورد في سورة الفاتحة دعاء ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، بينما ورد في مستهل سورة البقرة ﴿الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾.. أي أن القرآن الكريم هو ذلك الكتاب الكامل الذي طلبتموه في دعائكم، وفيه هدى للمتقين، مما يعني أن السؤال ورد في سورة الفاتحة وجاء جوابه في بداية سورة البقرة، فهل يجوز لنا، بسبب هذه العلاقة بين السورتين، أن نقول إنهما ليستا مستقلتين؟ كلا، و لم ينكر أحد استقلالهما بسبب هذه العلاقة بينهما.

المحذوف الثاني: والمحذوف الآخر للام في قوله تعالى ﴿لِإِيلافِ قُرَيْشٍ﴾ عند بعض المفسرين هو: اعجبْ يا محمد لإيلاف قريش.

لا شك أن اللام في العربية تفيد التعجب أحيانا، وإذا وردت لام التعجب في جملة فلا بد أن يسبقها فعل التعجب أو محذوف يقدَّر، وحيث إنه لا يوجد هنا لفظ التعجب، فيرى المفسرون أنّ هناك متعلقًا محذوفًا وهو "اعجبْ"، والتقدير:

"اعجبْ يا محمد لنِعَم الله على قريش في إيلافهم رحلة الشتاء والصيف"(جامع البيان للطبري)؛ إذ ساعدَ هذا على تقوية معاشهم وبثِّ هيبتهم في الآخرين. كان أهل مكة يحبّون بلدهم حبًا شديدا، و لم يرضوا بمغادرتها يوما، ولذلك يقول الله تعالى انظرْ كيف رضوا بالرحلات الدائمة إلى الشام صيفًا واليمن شتاءً مع حبهم الشديد لمكة -سوف أبين الحكمة من وراء ذلك لاحقا- مما كان يهيئ لهم المعاش ويبثّ هيبتهم في القبائل المجاورة، و لم يكن هذا الأمر صدفة، بل نحن ألقينا محبة هذه الأسفار في قلوبهم بقدرنا الخاصّ، فمن واجبهم أيضًا أن يعبدوا رب هذا البيت الذي بسبب بيته نالوا العز والهيبة.

المحذوف الثالث: ويرى آخرون أن المتعلق المحذوف باللام في قوله تعالى ﴿لِإِيلافِ قُرَيْشٍ﴾ هو قوله تعالى ﴿فَلْيَعْبُدوا رَبَّ هذا البَيْتِ﴾. هذا ما ذكره الزمخشري وبعض النحاة القدامى. والحق أنه قول الزَّجّاج الذي قبِل به الزمخشري وذكَره في تفسيره (الكشاف).

وقد اعترض البعض على هذا قائلاً: لقد وردت الفاء في قوله تعالى ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾، والفاء تأتي دائما في الجزء الأخير من الجملة، مع أن المحذوف المتعلق بـ ﴿لِإِيلافِ قُرَيْشٍ﴾ يجب أن يُذكَر في بداية العبارة لا في آخرها. يقول هؤلاء المعترضون: صحيح أن الشيء قد يؤخَّر ذِكرًا مع أنه يكون مقدّمًا مكانًا، ولكن الفاء في جملة ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾ تكشف أن هذه الجملة مؤخَّرة مكانًا وذِكرًا، فكيف تُعتبر متعلقا لحرف اللام الوارد في قوله تعالى ﴿لِإِيلافِ قُرَيْشٍ﴾ الذي يجب أن يكون مقدما مقاما ومعنى وإن لم يقدَّم ذِكرا؟

وقد أجاب عليه الزَّجّاج والزمخشري بأن الفاء تدخل على جواب الشرط، وهناك محذوف قبل الفاء، وأما الشرط قبل الفاء فمحذوف، وعليه تدل الفاء لا على (إيلافهم)، فالتقدير كالآتي: فإن لم يعبدوا بسبب نعمة أخرى فليعبدوا رب هذا البيت لإيلافه قريشًا رحلةَ الشتاء والصيف (الكشاف وروح المعاني).

علمًا أن "إيلاف" هو مصدر آلَفَ، ولفعل آلفَ مصدر آخر هو إلاف،

يقال: آلفَه مؤالفةً وإلافًا: آنسَه وعاشرَه، وآلفتُه مكانَ كذا إيلافًا: جعلتُه يألفُه (الأقرب).

وإذا ورد فعلُ "آلَفَ" وحده فلا نستطيع تحديد المعنى إلا من السياق، أمـا إذا ذُكر معه مصدره (أي الإلاف أو الإيلاف) فلا صعوبة في تحديد معناه. وحيث إن المصدر مذكور هنا وهو الإيلاف، فالمعنى: إلقاءُ حُبِّ شيء- وخاصةً حبّ مكان وبلد- في القلب. واللافت أن كبار العلماء أيضا يتعثرون أحيانًا، وهذا ما حـصل هنا أيضًا، فمع أن الله تعالى قد قال هنا صراحةً: "إيلاف"، إلا أن بعض المفـسرين فسروها بمعنى "إلاف". وقد وقعوا في هذا الخطأ بسبب صياغة هذه الكلمة، ذلـك أن آلَفَ هو في الأصل أَأْلَفَ، مثل آمَنَ الذي هو في الأصل أَأْمَنَ، حيث أُدغمـت الهمزتان وجُعلتا مدًّا. وآلَفَ له وزنانِ: أحدهما فاعَلَ، ومصدره إلاف علـى وزن فِعال، والآخر أفْعَلَ ومصدره إيلاف على وزن إفعال، ولذلك قلت إن فعل آلَـفَ إذا ورد بدون المصدر فمعناه يتحدد بالسياق. أما إذا ذكر مصدره معه عُرف معناه فورا. وقد ذكر الله تعالى هنا المصدر وهو "إيلاف" توضيحًا لمعناه، ومع ذلك قـد فسره بعض كبار العلماء بمعنى "إلاف"، بل قد أجاز بعضهم أن يُقـرأ في مكـانٍ "إلاف" وفي آخر "إيلاف"(جامع البيان للطبري).

يقال: آلفتُه مكان كذا، أي جعلتُه يألفه. وآلفَه إيلافا: هيّأه وجهّزه. وآلفَه إياه: ألزمه إياه.

ونظرًا إلى المعنى الأول -وهو آلفتُه مكان كذا: جعلتُه يألفه- سيعني قوله تعالى ﴿لِإِيلافِ قُرَيْشٍ﴾ أننا دمرنا أصحاب الفيل لإيلاف قريش رحلةَ الشتاء والصيف، أي أهلكناهم لنُلقي في قلوب قريش حُبَّ رحلات الشتاء والصيف.

أما نظرًا إلى المعنى الثاني -وهو آلفَ إيلافا: أي هيّأه وجهّزه- فستعني الآيـة: اعجبْ لتجهيزنا وإعدادنا قريشًا لرحلات الشتاء والصيف. بمعنى أنه من المستغرب استعدادُ هؤلاء القوم لهذه الأسفار وتهيؤُ كل نوع من الأسباب لرحلاتهم، ذلك أن التجهيز يعني الإمداد بالأسباب الضرورية أيضا، إذن، فقوله تعالى إشارةٌ إلى أن الله تعالى هيّأ لهم الأمن وفتح لهم الطرق وألقى حبهم واحترامهم في قلوب الناس. ثم إن

رغبتهم في هذه الأسفار أيضا أمر يثير العجب، لأن أهل مكة كانوا يعشقون هذه البلدة، و لم يكونوا يريدون مغادرتها والسفر عنها.

أما نظرًا إلى المعنى الثالث -وهو آلفَه إياه: أي ألزمَه إياه- فالآية تعني أننا أهلكنا أصحاب الفيل لكي نُلزم قريشًا برحلات الشتاء والصيف فلا يتركوها. فلولا تدمير أصحاب الفيل لاضطرت قريش لترك هذه الأسفار، ولكننا أردنا أن يواصلوا رحلاتهم، فأهلكنا أصحاب الفيل.

أما المعنى الرابع - وهو باعتبار قوله تعالى ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ متعلقا باللام في ﴿لِإِيلافِ قُرَيْشٍ﴾- فهو أن من واجب قريش أن يعبدوا رب هذا البيت شكرًا على أنه ألقى في قلوبهم حبّ رحلات الشتاء والصيف هذه. أي أن الله تعالى قد أنعم عليهم كثيرا إذ ألقى في قلوبهم حُبَّ هذه الأسفار، ثم هيأ لهم الأسباب لها، فوجب عليهم أن يشكروه عليها ويعبدوه.

والمعنى الخامس هو: اعجبْ يا محمد لالتزام قريش برحلات الشتاء والصيف، بمعنى: لماذا هم يخرجون لهذه الرحلات بدلاً من أن يعبدوا الله تعالى مجاورين بيته؟ وسوف أتناول هذا الموضوع تفصيلا لاحقا، بيد أني أكتفي بالقول هنا أنني لا أرضى بهذا المعنى في شكله هذا.

هناك أمر جدير بالذكر هنا قد بيّنه بعض المفسرين بصدد لفظ (إيلاف)، فقالوا لقد ورد هذا اللفظ هنا مرتين في قوله تعالى: ﴿لِإِيلافِ قُرَيْشٍ إِيلافِهِمْ﴾، وقد اختلف القراء في قراءته في المكانين، فقال بعضهم إن ﴿لِإِيلافِ قُرَيْشٍ﴾ تُقرَأ "لإلافِ قريش"، ولكنها تُكتَب "لإيلاف قريش" باتفاق الجميع، أما ﴿إِيلافِهِمْ﴾ فغالبيتهم يرون أنها تُقرأ "إيلافهم" وتُكتب "إلافهم".

وقد استدل المفسرون بذلك على أمر لطيف للغاية، فقالوا: إن في ذلك دليلاً عظيمًا على حفظ القرآن الكريم وحمايته، حيث إن كتابته وروايته كلتيهما قائمة كما هي، لا يحوم حولها الشك. فلو أن الذين يقرأون "إيلاف" بدلاً من "إلاف" شكّوا في كتابة القرآن الكريم لقالوا يجب أن يكتب هكذا في المصحف أيضًا، ولكنهم لم يفعلوا ذلك بل ظلوا يكتبونه إلافًا ويقرأون إيلافًا؛ مما يعني أنه لا يسعهم

أن ينكروا أن النسخة القرآنية التي وصلتنا من الرسول ﷺ كان مكتوبًا فيها (إلافهم)، وإلا أفليس غريبا أنهم يؤمنون أن القراءة هي "إيلافهم"، ومع ذلك يكتبون "إلافهم". فأي دليل أكبر من ذلك على حفظ القرآن الكريم؟

أما المصاحف المطبوعة في القارة الهندية فتُكتب"إيلافهم" فيها بالهمزة الواقفة هكذا: "إلافهم"، إلا أن الكلمة تبقى في الواقع "إيلافهم" في القراءة. والحق أن كلا الأسلوبين للكتابة بالياء وبالكسرة الواقفة متداول.

أما قوله تعالى ﴿إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ فكلمة "إيلافهم" جاءت للتأكيد، وهي بدل من (إيلاف قريش)، والبدل يعني أن تعاد الكلمة نفسها أو بكلمة مرادفة لها تأكيدًا للكلام. وفي لغتنا الأردية أيضا يؤكدون الكلام بإعادة الجمل، ولكن لا أدري ما إذا كانوا يسمونه بدلاً أم غير ذلك، فيقال مثلا: انظرْ، أنا أقول لك، أنا أقول لك. فثبت أن التأكيد يتم حينًا باللفظ وحينًا بالمعنى؛ فقوله تعالى ﴿إيلافِهِمْ﴾ يعني: أننا فعلنا ذلك لإيلاف قريش، نعمْ لإيلافهم.

هذا التأكيد يمكن أن يكون لرحلة الشتاء والصيف، أو للإيلاف، فالمعنى الأول: لقد قمنا بإيلاف قريش من أجل رحلة الشتاء والصيف، فالتأكيد هنا على رحلة الشتاء والصيف، أما المعنى الثاني فهو أننا دبرنا رحلة الشتاء والصيف لإيلاف قريش.

قد يقال هنا لقد فُسّرت هذه الآية بخمسة أو ستة معان مختلفة، فأصبح الموضوع مبهما!

الواقع أن هذا القول خطأ، فهذه المعاني المختلفة لا تجعل الموضوع مبهما، بل مثل هذا الاختلاف يوسّع معاني كلام الله تعالى، وكلها مقصودة في وقت واحد، لأننا نؤمن أن القرآن الكريم كلام الله العليم الخبير، وإذا كانت بعض آياته تحتمل ثلاثة مفاهيم أو أربعة، ولم يكن اثنان أو ثلاثة منها مقصودة عند الله تعالى، فما كان صعبًا عليه تعالى أن يوضح لنا أن هذا هو المعنى المراد هنا حصرًا، نافيًا المعاني غير المقصودة. فما دام الله تعالى قد استعمل جملة أو لفظا يحتمل عدة معان، وما

دام تعالى عليما خبيرا، فكان ينبغي أن ينفي المعاني غير المقصودة، محددًا المعنى المقصود فقط. لو كان هذا كلام إنسان لقلنا إن الإنسان يمكن أن يخطئ، إذ يستعمل كلمة لا يعرف جميع معانيها، أو لا يعرفها عند التلفظ بها، أو لا يستحضر معانيها عند التلفظ بها، وهكذا يقع في الخطأ.

هناك طريفة شهيرة في بلادنا عن المِلِك "نواب سعادة علي خان" بأنه كان ذات مرة في بلاطه بين حاشيته الذين كانوا يكيلون له المدح والثناء. وكان الجميع يعرف أنه ابنُ أَمةٍ، والقاعدة أن الحاشية يتكلمون بكلام يدفع عن المِلِك التهمة الموجهة إليه ليفرح بقولهم ويثق بولائهم، فقال بعض القوم: ما أعظمَ الملكَ شأنًا فإنه نجيب الطرفينِ، ولا نساويه شيئا. وكأنه أراد تبرئة ساحته من كونه ابنَ أَمةٍ. وكان بين الحاشيةِ السيد "إن شاء الله خان"، الذي كان مدلَّلاً عند المِلِك، وكان يحاول دائمًا أن يسبق الآخرين في مدحه ليعتبره أكثرهم ولاءً، فلما قال القوم إن الملك نجيب الطرفين قال السيد "إن شاء الله خان" في حماس: إنه ليس نجيب الطرفين فحسب، بل هو أنجبُ. وكان مراده أنه أكثر الناس نجابةً، ولكن من سوء طالعه أن كلمة (أنجبُ) تعني ابن أَمةٍ أيضا. لقد تلفّظَ بالكلمة غيرَ منتبه إلى معناها المسيء إلى المِلِك. والمرء يتفوه أحيانا بكلمة سيئة ولا ينتبه السامعون إلى ما فيها من سوء، ولكن من عجائب القدر أنه كان في البلاط علماء عظام، وكان المِلِك نفسه عالما بالعربية، فتبادر إلى أذهان الحاشية والمِلِك نفسه المعنى السيئ للكلمة، فساد الصمت البلاطَ كله. فحاول "إن شاء الله خان" تدارُكَ الأمر بالثناء الكثير على الملك ولكن دون جدوى. فأبغضه الملك بغضًا شديدا وأخذ يذله ويخزيه، حتى صار هذا الرجل الذي كان يقضي معظم وقته في بلاط الملك يسقط ويسقط إلى أن وصل إلى الحضيض.

إذن، فقد يستعمل المرء على سبيل الخطأ كلمةً لا يعرف معانيها العديدة، ولكن كيف يمكن أن يفعل الله هكذا؟ أليس الله يعلم كل المعاني المختلفة للكلمة التي يستخدمها؟ ما دام الله تعالى عليما وخبيرا بأن كلمة ما تنطوي على عدة معانٍ، وهو يقصد معنى واحدا منها، أفلا يليق به وبعظمته أن يحدّد المعنى المقصود دون

المعاني الأخرى؟ أما إذا كان كلام الله ينطوي على أكثر من معنى و لم يرفض بعضها، فمن قواعد التفسير أن نعتبر تلك المعاني كلها صحيحة، فهو كلام الله عالم الغيب، وإذا كان بعض معانيه غير مقصود فينبغي أن يوضح ذلك؟ ولذلك نجد في القرآن الكريم أن الله تعالى كلما استعمل كلمة ذات معان عديدة وكان هناك احتمال الخطأ في تحديد معناها المقصود، أزال الله تعالى احتمال هذا الخطأ دائما مبينًا المعنى الذي يعنيه دون المعاني الأخرى.

ولا يغيبنّ عن البال أيضًا أن الله تعالى قد أعلن في القرآن الكريم ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾(يوسف:١١٢).. أي أن هذا القرآن الذي أنزلناه ليس فيه أي مفتريات، إنما نزل مصدِّقًا الأنباء السابقة كلها، وفيه تفصيل المواضيع والقضايا كلها.

ولكن ما هو حجم هذا الكتاب يا ترى؟ إنه أصغر من الإنجيل أيضا. وما دام الله تعالى قد أعلن أن القرآن كتاب يحتوي على كل نوع من المواضيع والقضايا الدينية، فمن المستحيل بيانها كلها مفصلةً في كتاب صغير كالقرآن، إذ يتطلب هذا البيان المفصل آلاف المجلدات، ولو كان القرآن بهذا الحجم لم يستطع الناس حفظه عن ظهر قلب، وبالتالي صار حفظه وحمايته مشكوكا فيه. إن الناس إذ كانوا يحفظون القرآن بسهولة فإنما لكونه كتابًا صغير الحجم. يا ترى، كم سيكون عددُ حُفّاظ القرآن لو كان عشرين مجلدا مثل "الأغاني" و"لسان العرب"؟ لا شك أن القلة القليلة جدًا سيحاولون حفظه عن ظهر قلب، ثم إن ضخامته ستجعل أمر حفظه مشكوكا فيه، ولقيلَ: لا بد أن تكون بعض الأخطاء قد تسربت فيه لأن من المحال أن يحفظ الناس كتابًا ضخمًا مثله. لكن تجد اليوم حفّاظه يبلغون مئات الآلاف، حتى لم يملك ألد أعداء الإسلام مثل "وليام موير" و"نولدكه" و"سبرنجر" إلا أن يعترفوا قائلين: إننا مهما قلنا عن القرآن الكريم إلا أنه لا يسعنا إنكار أنه محفوظ حتى اليوم كما قدّمه محمد (ﷺ) إلى أصحابه (Life of Muhammad p562-563).

فترى أنه برغم أن هؤلاء القوم لا يعترفون أن القرآن قد نزل من عند الله تعالى، ولكنهم لا يملكون إلا الاعتراف أن هذا الكتاب محفوظ حتى اليوم كما قدمه محمد

لأتباعه، و لم يطرأ عليه أي تغيير. وقد اعترف بعضهم علنًا أنه لا يمكن الطعن في القرآن الكريم كما الإنجيل والتوراة. وليس سبب ذلك إلا لأن أحدا لا يحفظ كتبهم، بينما يوجد حفّاظ القرآن بمئات الآلاف. ولكن ما كان هذا الكتاب ليُحفظ عن ظهر قلب إلا إذا كان وجيزا. فمن ناحية كانت أهمية حفظ القرآن عن ظهر قلب تحتّم أن يكون كتابا وجيزا، ومن ناحية أخرى كان إعلان القرآن أن فيه تفصيل كل شيء يحتّم أن يضمّ المواضيع والقضايا الدينية كلها، فكيف يتحقق هذان الأمران فيه يا ترى؟ إن هذا ما كان ليتحقق إلا إذا كانت الجملة الواحدة من القرآن محتوية على مفاهيم عديدة. لو أنكرتَ هذا الأمر الحكيم فأخبرْني كيف كان القرآن سيضمّ المواضيع والقضايا كلها؟ فهذان الادعاءان القرآنيان بحفظه مشافهةً وكتابةً وباحتوائه المواضيع والقضايا كلها كانا يحتّمان أن تحتوي كل آية منه على عدة معان، بل قد أعلن الرسول ﷺ نفسه أن لكل آية قرآنيةٍ سبعةَ أوجُهٍ (البخاري، كتاب فضائل القرآن)، ولو كان في كل وجه سبعةُ معان لصارت لكل آية ٤٩ مفهوما. فالرسول ﷺ يؤكد سعة مفاهيم كل آية من آيات القرآن الكريم.

باختصار، ما دام القرآن الكريم يعلن احتواءه المواضيع كلها وبأنه سيُحفظ عن ظهر قلب ليصبح محفوظا ظاهرا، فهذا يحتّم نزول القرآن بعبارة موجزة واسعة المعاني، ولذلك لزم أن يستخدم الله تعالى هذا الأسلوب من الكلام، وإلا لتجاوز هذا الكتاب آلاف المجلدات. فالحق أن القرآن الكريم قد نزل بحيث إن كل جملة أو آية منه تحتوي على معان عديدة، وإذا لم يكن بعضها مقصودا نفاه الله تعالى في الآية نفسها أو في آية أخرى، وهكذا احتوت كلمات القرآن الموجزة معاني واسعة. والآيات قيد التفسير أيضا مثال لهذه الميزة الكمالية للقرآن الكريم، حيث أشارت باتّباع هذا الأسلوب الخاص إلى معان عديدة، وكلها صحيحة ومفيدة لتبليغ الحق.

فالحق أن كون كلمةٍ أو آيةٍ عديدةَ المعاني لا يؤدي إلى الإبهام، بل هو دليل على كمال القرآن، حيث تحتوي الجملة الموجزة على مفاهيم واسعة. خذ مثلاً هذه الآية القرآنية: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾(الإنسان:٩)، فقد بين الله تعالى باستعمال الضمير الغائب في كلمة ﴿حُبِّه﴾ هنا موضوعا واسعا

يمكن أن نؤلف في بيانه وتفصيله كتابا. فهذه الآية تبين موضوعا فلسفيا، وقد كتب بعض الفلاسفة الأوروبيين كتبًا مستقلة حول كل جزء منه (The New International Webster Comprehensive Dictionary p 1404). ذلك أن الآيات السابقة لهذه الآية تتحدث عن الله تعالى، لذا فمن معاني قوله تعالى ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا﴾.. أنهم بسبب حُبّهم لله تعالى يطعمون الطعام ذوي الحاجة. ثم لأن الطعام مذكور هنا فيمكن إرجاع الضمير إليه ويكون المراد: أنهم يُطْعِمُونَ الطَّعَامَ رغم حُبِّهم له.. أي أنهم رغم كونهم جياعًا ويحتاجون الطعام يؤْثرون الآخرين على أنفسهم، فيطعمونهم ويظلّون هم أنفسهم يعانون من الجوع. ومن معانيها: أنهم يُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِم إطعامَ الطعام.. أي أنهم يقومون بهذا العمل حبا له. فهذه مدارج أخلاقية عالية قد أشار الله إليها بهذه المعاني الثلاثة، وقد قام الفلاسفة الأوروبيون في هذا العصر بنقاشات طويلة حولها، حيث أثاروا سؤالا هاما: ما هو الخير؟ ولماذا نقوم به؟ ثم أجاب عليه بعضهم قائلا: إن الخير هو ما يفعله المرء من أجل الخير فقط، دون أن يبتغي به منفعة.

(Encyclopaedia of Religion and Ethics vol.5 p.467)

وقال آخرون: الخير هو ما يكون وراءه هدف سامٍ. وقال غيرهم: الخير ما تفعله لراحة الآخرين متكبدا العناء

(The New International Webster Comprehensive Dictionary p 1404)

وكل هذه النكات الفلسفية الثلاث قد تضمنها قول الله تعالى ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾، فإن القرآن يسلّم أن على المرء أن يعمل الخير مؤثرا راحة الآخرين على راحته، ويسلّم أيضًا أن الخير ما يتم لأجل الخير فقط لا لمنفعة ذاتية، فقال إن عباد الله المؤمنين يعملون الخير لمجرد حبهم له. ثم يسلّم القرآن أيضًا بأن الخير هو ما يتم لهدف سامٍ، فقال إنهم لا يطعمون الطعام لمنفعة مادية، إنما لهدفٍ سامٍ وهو الفوز برضا الله تعالى. وكما قلت إن الفلاسفة في هذا العصر قد ناقشوا هذه المدارج الأخلاقية الثلاثة طويلا، وقد اختلفوا في ترتيب هذه النقاط الثلاث من حيث الأولوية، أما القرآن الكريم فقد قدّم هذا التعليم السامي الذي يحتوي على

هذه الفلسفة كلها بمجرد استعمال ضمير الغائب في قوله تعالى ﴿حُبِّه﴾. فلو جاءنا فيلسوف وقال إنني أرى أن الخير ما يتم من أجل الخير فقط، قلنا له: نعـم، هـذا صحيح، وهذا ما يعلّمه القرآن، وسوف نضع أمامه هذه الآية. ولو جاءنا فيلسوف آخر وقال إني أرى أن الخير أن يعمل المرء لراحة الآخرين متكبدا العناء، قلنا لـه: نعم، وهذا ما يعلّمنا القرآن، وسنضع أمامه هذه الآية. ولو جاءنا فيلسوف آخـر وقال إني أرى أن الخير هو ما يتم لهدف سامٍ، قلنا له: نعم، وهذا ما يعلّمنا القرآن، وسنضع أمامه هذه الآية. ولكن لو استخدم الله تعالى هنا كلمة "الطعام" أو "لفظ الجلالة" أو لفظ "الإطعام" بدلاً من ضمير الغائب، لأدت معنى واحدًا فقـط دون الأخرى. هذه هي الحكمة وراء استعمال ضمير الغائب بدلاً من الاسم، وإلا فـإن الله تعالى كان بإمكانه أن يقول: وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّ الله، أو: وَيُطْعِمُـونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّ الطعام، أو: وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّ الإطعام، ولكنـه قـال ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾ ليرجع الضمير إلى المعاني الثلاثة في وقت واحد.

إذن، فمن عظيم كمالات القرآن الكريم أنه يودع الكلماتِ الموجزة مفـاهيمَ واسعة يحتاج بيانها إلى كتب ضخمة. وقد ثبت من هنا أن استعمال الكلام الموجز المفعم بمعان كثيرة ليس محل اعتراض قط. نعم، إذا كان لكلمة معنى يخـالف إرادة الله تعالى فإنه سبحانه يشير إلى ذلك، موجّها الأنظار إلى المعنى المقصود نافيًا المعنى غير المقصود. بل قد لوحظ أن القرآن يستخدم أحيانا كلمـة لهـا مفهومـان، ثم يشرحها مركِّزا على المعنى المقصود شرحًا يبين أنه يقصد هذا المعنى دون الآخر.

الآن، وقبل أن أقوم بتفسير هذه الآيات؛ أود أن أقول شيئا عن كلمة قريش.

لفظ "قريش" مشتقّ من القِرْش، يقال: قرَشه يقرُشه وقرَشه يقرِشه قرْشًـا: أي قطَعه. وقرَش الشيءَ: جمَعه من هنا وهناك وضمّ بعضه إلى بعـض. وقـرَش مـن الطعام: أي أصاب منه قليلا. وقرَش الجيشُ بالرماح: طعنوا بها. وقرَش فلان لعياله: كسَب. والقِرشُ: دابة تكون في البحر. وقُرَيش: دابة في البحر لا تـدَعُ دابـةً إلا أكلتْها، فجميع الدواب تخافها. وقريش قبيلة من العرب، وإن أردتَ بقريش الحـيّ

صَرَّفته، وإن أردتَ القبيلة لم تصرفه، لانضمام التأنيث إلى العَلَميّة. والنسبة إلى قريش قُرَشِيٌّ وقُرَيْشِيّ (الأقرب).

أما سيبويه النحوي الشهير فيرى أنه يجوز تصريف قريش باعتبارها حيًّا، وهو القاعدة الأصلية، ولكن يجوز عدم تصريفها باعتبارها قبيلة ولا اعتراض على ذلك.

فقد كتب المفسرون بناءً على روايات الملاَّحين في زمنهم أن القرش حيوان بحري عظيم يهاجم السفن ويقلِبها، ولا يخاف شيئا إلا النار والضوء. وعندما يهاجم أصحابَ السفن يشعلون النار ويواجهونه بها.

وعندي أن ما ورد في القواميس عن القرش فهو يشير إلى سمك الحوت، فهي التي تضرب السفن بذنبها فتكسرها. وتكثر الحيتان على السواحل الإفريقية، وتُشاهد أحيانا على شواطئ بحر العرب، وأحيانًا على الشواطئ قرب كراتشي، مما يعني أن الحيتان في سواحل إفريقيا تمرّ من أمام البحر الأحمر قريبًا من سواحل الجزيرة العربية. أو يكون المراد هنا سمك القرش (shark)، فهي أيضا تهاجم القوارب الصغيرة وتقلبها (البحر المحيط). إننا لا نستطيع الجزم بأنها تأكل الحيوانات الأخرى كلها، ويحتمل أنها كانت تأكل السمك الذي كان العرب يعرفونه. أما قريش فيُعتقد عادة أنها سميتْ نسبةً إلى هذه السمكة.

وقد أورد المفسرون رواية عن ابن عباس رضي الله عنه وأقوالاً لكبار العرب بهذا الشأن، فقد ورد أن معاوية سأل مرة عبد الله بن عباس عن سبب تسمية قريش بهذا الاسم، فقال: سُمُّوا به نسبةً إلى سمك القرش التي هي أكبر حيوانات البحر وتأكلها كلها، ولكن لا يأكلها أحد -فلأن قريشا أكبر قبائل العرب وكانت القبائل الأخرى تهابها فسُموا قريشا- فقال معاوية: هل يمكن أن تثبت ذلك من شعر العرب؟ فقرأ ابن عباس أبياتًا ورد فيها أن قريشًا سُمّيت بهذا الاسم لغلبتها على القبائل العربية الأخرى كغلبة سمكة القرش على حيوانات البحر الأخرى. *

* وردت هذه الأبيات في مختلف المصادر كالآتي:

وقريش هي التي تسكن البح ... ر بها سميت قريش قريشا

هذه الرواية ليست صحيحة عندي، لأننا إذا تفحّصْنا الأبيات الواردة فيها تبينَ أنها رواية مزورة؛ فقد ورد فيها أن نبيًا سيظهر قريبا وسيصبح مرجعا للعرب كلهم. فإذا كانت العرب تنشد أبياتًا كهذه فكيف يمكن أن يكفروا بالنبي ﷺ ويعارضوه معارضة شديدة ويقاوموه مقاومة شديدة؟ فالرواية موضوعة، بيد أنه لا يمكن إنكار أن العرب كانوا يرون -وهذا ما يؤكده التاريخ أيضا- أن قريشا سُمِّيت بهذا الاسم نسبةً إلى هذا الحيوان (تفسير الخازن).

ولكن السؤال هنا: لماذا سُمّوا قريشًا مع أن هذا الحيوان يسمى قرشًا؟

سوف أجيب على هذا السؤال بجوابين، أوّلهما: القرش حيوان عظيم يأكل سائر الدواب البحرية، وتخافه سوائر الدواب البحرية لأنه يأكلها، أما قريش فقبيلة صغيرة، فكان الأَولى أن تُسمّى قُريشًا.. أي قِرشا صغيرا، فكأنه اسم تصغير إشارةً

تأكل الغث والسمين ولا تت ... رك يوماً لذي جناحين ريشاً
هكذا في البلاد حي قريش ... يأكلون البلاد أكلاً كميشا
ولهم آخر الزمان نبي ... يكثر القتل فيهم والخموشا

وورد في مصدر آخر:

وقُرَيْش هي التي تَسْكُنُ البحر ... بها سُمِّيَتْ قُرَيْشٌ قُرَيْشَا
سلَّطَتْ بالعُلُوّ في لجة البحر ... على سائر البُحور جُيُوشَا
تأكل الغثَّ والسمين ولا تترك ... فيه لذي الجَناحَيْن رِيْشَا
هكذا في الكتاب حي قريش ... يأكلونَ البلاد أكلا كميشا
ولهم في آخر الزمان نبيٌ ... يُكْثِرُ القَتْلَ فيهم والخُمُوشَا

وورد في مصدر آخر:

هكذا في العباد حيُّ قريش ... يأكلون البلادَ أكْلاً كشيشاً
ولهم آخرَ الزمان نبيٌّ ... يَكثر القتل فيهمُ والخموشا
يملأُ الأرضَ خَيلةً ورجالاً ... يحشُرون المطيَّ حشْراً كميشاً

(انظر القرطبي، والدر المنثور، وروح المعاني، والبغوي)

إلى أنها كسمكة قرش صغيرة. بينما قال الآخرون ليس الأمر هكذا، بل إن صيغة التصغير تفيد التعظيم أحيانا، فقريش تعني قرشا كبيرا، والمراد قبيلة كبيرة.

أرى أن في هذه المعاني تكلفًا إلى حد ما، فمع أن الثابت عن الصحابة وعامة العرب أن قريشا سميت بهذا الاسم نسبة إلى هذا الحيوان، إلا أن هذا الاسم لم يُطلق عليهم في زمن الصحابة، بل سموا به منذ زمن قديم. ثم لم يَذكر هذا المعنى القرآنُ الكريم ولا الرسولُ ﷺ، فلو قال القرآن أو الرسول ﷺ إن قريشا سميت بهذا الاسم نسبة إلى سمك القرش لقلنا آمنّا وصدّقنا، لأن الله عالم الغيب، ورسوله كان يتلقى أخبار الغيب منه، ولكن لا نجد أي رواية ولو ضعيفة تذكر أن هذا هو السبب وراء تسمية قريش. أما الصحابة فإنما رووا ما سمعوه من قومهم، ثم ليس من الضروري أن يكون ما يُروى عنهم صحيحا، لأن بعض ما يروى عنهم صحيح وبعضه باطل، لذا فلسنا ملزَمين بتصديق ما ينسب إليهم بأن قريشًا سميت بهذا الاسم نسبة إلى سمكة القرش.

أما جوابي الثاني فهو أن لفظ "قريش" مشتقّ من قَرَشَ يقرِش، أي جمَع من هنا وهناك، وهذا هو المعنى الذي ذكره أيضا العلامة الكبير القرطبي الأندلسي في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن). وهذا هو المعنى الذي كنت أبينه دائمًا، ولكن لم أكن أعلم من قبل أن القرطبي سبقني به وأنني لست أولَ مَن ذكره. والقرطبي مفسر أندلسي كما قلتُ، ومن المستغرب الدالّ على حكمة إلهية أن ما كتبه مفسرو الأندلس هو أكثر معقولية مما ذكره مفسرو بغداد وعلمائها -ولعل الله تعالى قد أشار بذلك أن أهل أوروبا سوف يتفوقون على غيرهم مستقبلا ثانيةً في خدمة الإسلام- فأفضل الكتب المؤلفة في مختلف العلوم والفنون إنما كُتبت في الأندلس، إلا علم الحديث، ذلك لأن علم الحديث ما كان ليخرج وينتشر إلا من بين قوم عاشوا حول الرسول ﷺ، وقد كانت إقامة هؤلاء في بغداد أو دمشق، ولذلك لم يؤلَّف في إسبانيا كتابٌ في الحديث يبلغ مستوى الكتب المؤلفة في الجزيرة العربية وما حولها. أما العلوم الأخرى فقد نبغ فيها أهل الأندلس وألّفوا كتبًا ضخمة فيها. وعلى سبيل المثال، فنابغة الفلسفة "ابن رشد" كان أندلسيًّا، ونابغة التصوف عند

الجميع أعني حضرة "محيي الدين بن عربي" كان من الأندلس، أما نابغة الفقه الذي يُعتبر كلامه آخر شيء في الفقه أعني العلامة **ابن حجر**✪ فكان أيضا أندلسيا. أما القرطبي الذي هو من عظام المفسرين فكان أيضا أندلسيا. وكان العلامة أبو حيان -صاحب البحر المحيط- أيضا أندلسيا، وأرى أنه ليس بين التفاسير القديمة تفسير يساوي البحر المحيط، فصاحبُه هو المفسر الوحيد الذي ادعى، قبْل الجماعة الإسلامية الأحمدية، وجودَ ترتيب في القرآن الكريم، وقد حاول إثبات دعواه بأدلته، مع أنه لم يستطع إثباته كما أثبتنا، إلا أنه هو المفسر الوحيد بين القدامى الذي أعلن أن القرآن ليس كتابا غير مرتب، بل كله كلام مرتب منسق. كما كان أبو حيان إمامًا في النحو والأدب أيضا.

المهم، أن القرطبي -المفسر الأندلسي- هو الآخر قد رأى ما أراه بشأن تسمية قريش. المؤسف أن تفسيره لم يُطبع كله بعد، وقد صدرت منه ثلاثة مجلدات في مصر حتى الآن، وهي في حوزتي، وأما باقي تفسيره فلم يظهر إلى النور. وهناك أخطاء مطبعية خطيرة فيما طُبع من تفسيره، حيث توجد في كل الأحاديث الواردة فيه أخطاء، فإذا نقلتَ منه حديثًا وجدتَ فيما بعد أن فيه خطأ. يبدو أنهم لم يأخذوا عند طبعه حيطة كافية. باختصار، قد قال القرطبي أن لفظ "قريش" مشتقّ من قَرَش، ومعناه جمَع وضمَّ مِن هنا وهناك (لسان العرب). وقد ذكر "الذبياني" أيضًا هذا المعنى أيضا إضافة إلى معنى آخر.

وقريش في الواقع اسمٌ يطلق على أولاد النضر بن كنانة، وهذا مروي عن الرسول ﷺ، فقد سئل مَن هي قريش؟ فقال: قريش مِن وُلْدِ النضر.

كما ورد في حديث أن النبي ﷺ قال: إن الله اصطفى كنانة من بني إسماعيل، واصطفى من كنانة قريشا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم. (الجامع لأحكام القرآن للقرطبي)

✪ لقد حصل هنا سهو، فالفقيه الأندلسي الشهير هو ابن حزم، ولا بد أن يكون هو المقصود. (المترجم)

بينما ورد في حديث آخر: هُمْ مِن ولد النضر بن كنانة.

والحق أنه كان لكنانة أكثر من ابن، فأوضح النبي ﷺ هنا أن قريشا هم أولاد ابنه النضر فقط، لا جميع أولاد كنانة (مجمع البيان).

وقد قال البعض إن قريشا هم أولاد مالك بن النضر فقط (فتح البيان)، بل قالوا لم يكن لأي من بني النضر نسل إلا مالك. ولكن هذا مجرد شعوذة تاريخية نتجت بسبب الخصومات المذهبية بين السنة والشيعة، لأنّ تفحُّص الروايات يكشف أنها رواية شيعية. ذلك أن سيدنا أبا بكر وعمر رضي الله عنهما ليسا من أولاد مالك بن النضر، إنما هما من أولاد ابن آخر للنضر، فلفّق أعداؤهما هذه الرواية لإخراجهما من قريش، ثم قالوا: لقد أخبر الرسول ﷺ أن الأئمة من قريش (مسند أحمد، مسند أنس بن مالك رضي الله عنه)، ولكن أبا بكر وعمر ليسا من قريش. فالحق أن الشيعة وضعوا مثل هذه الروايات القائلة أنه لم يكن لأحد من أولاد النضر نسل إلا مالك، وبالتالي فليس أبو بكر ولا عمر من قريش. وهو قول باطل في الحقيقة، إذ كان أبو بكر وعمر من أولاد قصي بن حكيم بن النضر (المعارف لابن قتيبة ص ٩٨، ١٠٤).

الواقع أن إبراهيم عليه السلام كان قد أسكن إسماعيل عليه السلام عند الكعبة لحمايتها، ولكن خمد الحماس الديني في أولاد إسماعيل بمرور الزمن كما حال "السادات" اليوم، إذ يوجد الآن بينهم بعض السارقين وقطاع الطرق أيضا. لقد حافظ أولادهم على هذا العهد بضعة أجيال، ثم نسوه وانتشروا في الجزيرة كلها، بل وصلوا إلى الشام أيضا. وعندما قربت البعثة النبوية فكّر قصي بن كلاب بن مرة بأننا لا نفي بالوعد الإبراهيمي؛ إذ كان آباؤنا قد أوصونا بالإقامة عند الكعبة وتطهير هذا البيت وخدمة الحجيج والطائفين والعبادة هناك، ولكننا انتشرنا هنا وهنالك ناسين الخدمة الموكلة إلينا من قِبل آبائنا. وقد استولت عليه هذه الفكرة لدرجة أنه قاد حركةً بين بني النضر تدعوهم إلى ترك أعمالهم والعودة إلى مكة للإقامة هنالك خدمةً للكعبة، إذ لا يليق بهم أن ينسوا الوعد الإبراهيمي من أجل مصالحهم الدنيوية غير مبالين بوصيته. فما دام إبراهيم قد فوّض إليهم خدمة الكعبة فمن واجبهم أن يرجعوا إلى مكة لخدمة بيت الله والحجيج. فرضي قومه بوعظه فعادوا

واجتمعوا كلهم في مكة. وكانت تضحية عظيمة منهم، فقد كـانوا يعيـشون في مراعي خصبة واسعة، وكانوا ذوي أعمال وتجارة وزراعة وغيرها مـن حِـرف، ولكنهم كلهم تركوا أراضيهم وزراعتهم ومواشيهم وتجـارتهم فجـأة، وجـاءوا وأقاموا في واد غير ذي زرع وليس به أي مصدر آخر للدخل. وعندي لـيس في تاريخ العالم مثال هذه التضحية، حيث ترك القوم كلهم أعمالهم ومِهَنَهم وسكنوا في واد غير ذي زرع لمجرد أن أباهم إبراهيم أوصاهم بالبقاء هناك لخدمة قوم يأتون للحج والطواف وعبادة الله تعالى هنالك. كانت تضحية عظيمة حقًا، إذ اجتمعوا في مكة إيفاءً للوعد الإبراهيمي تاركين ديارهم وأعمالهم بعد أن تفرقوا هنا وهناك. وهذا هو سبب تسميتهم قريشا، فقد سبق أن ذكرتُ أن قَرَش يعني جَمَع من هنـا وهناك. إذًا، فقريش هي تلك القبيلة التي اجتمعـت في مكـة تحقيقًـا للنبـوءة الإبراهيمة. إنهم لا يُسمَّوْن قريشا لكونهم غالبين على القبائل العربية الأخـرى، أو لأنهم كانوا يأكلون غيرهم كما يأكل القرش الحيوانات البحرية الأخرى، إذ لم تنل قريش هذا العز والصيت بين العرب إلا قبيل بعثة الرسول ﷺ، أما قبلـها فكـانوا يعيشون مجاورين للبيت، دون أن تكون لهم أي غلبة على سائر القبائل الأخـرى. فالمراد من قريش تلك القبيلة التي جَمَعها قصي بن كلاب بن النضر من هنا وهنـاك وأسكنهم في مكة. وبتعبير آخر، يطلق اسم قريش على جزءٍ من أولاد إسماعيل لأنه جيء بهم من هنا وهنالك إلى الكعبة لخدمة بيت الله الحرام. فلفظ قـريش يعـني المجتمعين من هنا وهناك.

وهنا ينشأ سؤال: إن لفظ قريش هو اسم تصغير.. ومعناه مجموعة صغيرة مـن الناس اجتمعوا في مكة.. فلماذا سُمّي نسل إسماعيل عليه السلام مجموعة صغيرة؟

الجواب: أن بني إسماعيل كلهم كانوا مأمورين بالإقامـة في مكـة لعبـادة الله وخدمة الذين يأتون للحج والطواف، ولكن بعد تفرقهم من مكة لم يرجع إليهـا للإقامة فيها إلا بنو النضر بن كنانة الذين كانوا مجموعة صغيرة من بني إسماعيـل، فسُمّوا قريشًا للإشارة إلى أنهم مجموعة صغيرة اجتمعتْ عند بيت الله الحرام عاملين بوصية جدّهم إبراهيم عليه السلام لعبادة الله وخدمة الحجيج. ولعلـهم اختـاروا هـذه

التسمية -أي اسم التصغير- حثًّا للقبائل الأخرى على العودة إلى مكة والإقامة فيها، لكي يفكّر بنو إسماعيل الآخرون باستمرار أنه ما دامت جماعة قليلة منا قد أقامت هنالك متكبّدةً صنوف المشقّة والعناء، فحريٌّ بنا أن نقتدي بإخواننا هؤلاء، فنذهب إلى مكة ونقيم فيها لعبادة الله وخدمة الحجيج، عاملين بوصية جدّنا إبراهيم عليه السلام.

باختصار، لقد لبّى هؤلاء القوم نداء قصي بن كلاب وأقاموا في مكة، ولكن العرب ما كانوا يهتمون بالحج في البداية حتى يأتوا إلى مكة بكثرة وينتفعوا من بركات الكعبة، والدليل على ذلك هو مغادرة آل إسماعيل عليه السلام الكعبةَ رغم وصية جدهم بالإقامة هناك، ورغم النبوءات الإلهية العظيمة بصددها. لو كان الحجيج يأتون إلى مكة بكثرة لتيسرت لأهلها أسباب الرزق، فلم يضطروا لمغادرتها. فتركُهم مكة وانتشارهم في مناطق أخرى دليلٌ على أن العرب ما كانوا يأتون لحج الكعبة بكثرة عندها. انظر إلى مجاوري الكعبة اليوم، كم هي مُهينةٌ مِهْنتهم* التي يمارسونها لكسب لقمة العيش، إلا أنهم ليسوا مستعدين للتخلي عنها. فتركُ بني إسماعيل مكة دليل قطعي على أن قليلا من الناس كانوا يحجون في ذلك الوقت، فما كان أهل مكة يجدون لقمة العيش، فخرجوا منها وانتشروا في الجزيرة كلها. وعندما عادت جماعة قليلة منهم إلى مكة ثانيةً بتحريض قصي بن كلاب واجهوا نفس المشكلة. كان عدد الحجيج قليلا، وكان هؤلاء القوم ملازمين لمكة ولا يخرجون منها، فعاشوا في عسر لا يطاق، إذ لم يكن هنالك سبيل لرزقهم، حتى تعرّضَ بعضهم للجوع والفاقة، وصعب عليهم العيش بكرامة. إننا لا نملك إلا أن نثني على قريش، إذ تحمّلوا كل هذه الشدائد والصعاب ببشاشة، ولم يشتكوا قط.

لقد كانت بلا شك تضحيةً كبيرة أن يتركوا ديارهم وأعمالهم ومِهنهم وتجاراتهم وزراعاتهم ويقيموا مع أهلهم وعيالهم في واد غير ذي زرع يفتقر إلى

* لعل حضرته رضي الله عنه يشير إلى ما كان المجاورون يفعلون في تلك الأيام حيث كانوا يطلبون الإكراميّات من الحجيج بإلحاح بغيض؟ (المترجم)

أسباب الرزق، ومع ذلك كان من الممكن أن يقول قائل: لم يكن في إقامة بني إسماعيل في مكة أية تضحية حتى يُثنى عليهم، فلعلّهم أقاموا هناك طمعًا في المال والعز لأن الناس كانوا يعظّمون مكة ويأتون إليها لحج البيت؛ ودرءًا لهذه الشبهة وإرساءً لشرفهم وعظمتهم قد هيأ الله ﷻ لهم فرصة التضحية ثانية، وذلك أنه لما رجع أبناء إسماعيل هؤلاء من مختلف أنحاء الجزيرة للإقامة في مكة ثانيةً لم يكن عندهم مصدر للرزق، إذ كان العرب قليلي الاهتمام بالحج، فتعرّض هؤلاء للجوع والفاقة حتى الموت. لقد كانوا كافرين وثنيين لا دين لهم، ومصابين بمفاسد كثيرة، ولكنهم كانوا متحلين بالمحاسن العجيبة؛ فكلما نفد الطعام عند أهل بيت منهم وساءت حالتهم، ولم يستطع مساعدتَهم الجيرانُ والأصدقاء الذين كانوا هم الآخرون فقراء مُدقِعين، فما كانوا يُلقون اللوم على زعيمهم قصيّ قائلين بأنه هو الذي أشار عليهم برأي خاطئ، فلنهاجر من مكة الآن، وما كانوا يتأسفون على إقامتهم هناك قائلين بأننا قد أخطأنا إذ أقمنا في هذا المكان الذي لا طعام فيه، بل كانت هذه العائلة تأخذ خيمتها في صمت وتذهب مع أهلها وأولادها إلى خارج مكة بمسافة ميلين أو ثلاثة -علمًا أنه لم يكن للعرب بيوت إلا قليلا جدا، بل لا يزال أهل البادية منهم يقيمون في الخيام حتى اليوم- وتعيش هنالك حتى الموت جوعًا، بعيدةً عن أقاربها وأصدقائها وجيرانها حتى لا يروا معاناتها (الدر المنثور للسيوطي).

وأرى أنه لا يوجد في تاريخ العالم مثال لهذه التضحية. عندما يضطر الناس للجوع والفاقة يهاجرون من ديارهم ساعين لتحسين معاشهم، بل يفقدون الصبر فلا يتورعون عن مدّ يد السؤال للآخرين. لقد وردت في كتب صوفية الإسلام طريفة أن وليًا من أولياء الله تعالى قرر ترك المدينة والإقامة في البرية عاكفًا على عبادة الله تعالى، وألا يأكل إلا ما يبعثه إليه البعض من الطعام، وإلا فيبيت جائعًا. وعندما علم معارفه وأصدقاؤه بذلك أخذوا يبعثون له الطعام صباحا ومساء لما كانوا يعرفون من صلاحه. وذات مرة لم يصله الطعام من أي أحد، ولعل معارفه ذهبوا لبعض أعمالهم، أو ظنّ كل واحد منهم أن الآخرين قد بعثوا له بالطعام،

فظل جائعا يومين أو ثلاثة حتى ضعف و لم يطق الجوع. فرجع إلى مدينته بصعوبة بالغة، وطلب الطعام من صديق له، فأعطاه ثلاثة أرغفة وشيئا من الطبيخ، فأخذها ورجع إلى كوخه في البرية. وبينما هو يمشي رأى كلب صديقه يتبعه، فقال في نفسه: إن لهذا الكلب حقا في هذا الخبز، فرمى إليه رغيفا، فأكله الكلب بسرعة ثم تبعه. ففكر الرجل أن الكلب لم يشبع ولذلك يتبعه. وعندي أن الكلب تبعه لأنه كان كلب صديقه، وكان يراه من قبل حين يأتي لزيارته، فالكلب حيوان ذكيّ ووفيّ جدًّا يحبّ ويعرف جيّدًا أصدقاءَ صاحبه الذين يترددون عليه كثيرا، ولكن الصوفي ظنّ بحكم تأثير التصوُّف عليه أن الكلب يطالبه بحقه في الخبز، فخاطب الكلبَ قائلا: إنك أحقُّ مني بهذه الأرغفة بلا شك، إذ تظل تحرس بيت صاحبك كل وقت، أما أنا فلا أزوره إلا على فترات. ثم ألقى رغيفا آخر إلى الكلب، فأكله بسرعة وتبع الصوفيَّ ثانيةً. فغضب الصوفيّ، وقال للكلب: يا عديم الحياء، لقد أطعمتُك رغيفين، ومع ذلك لا تتركني! والمرء إذا غضب تكلّمَ مع الحيوانات أيضا، حيث نرى الفلاحين عندنا يتكلمون مع ثيرانهم، وأصحاب الحمير يحدّثون حميرهم، وأصحاب العربات يكلّمون خيولَهم حيث يقضي أحدهم نصف الوقت في الحديث مع الركّاب ونصفه مع الحصان، فيقول له مثلاً: هيّا أَسرِعْ فسوف أُطعِمك جيدا، وإذا تباطأَ سبَّه في غضب. و لم ينته الصوفي من كلامه حتى استولت عليه حالة من الكشف، فوجد الكلب واقفًا أمامه يكلّمه. علمًا أن الحيوانات والأرض والخشب وكل شيء يمكن أن يتكلم في الكشف، فلا غرابة في كلام الكلب. فوجده الصوفي يقول: أأنا عديم الحياء أم أنت؟ إنني لم أترك باب صاحبي قط مهما تعرضت للجوع والفاقة، أما أنت فذهبت وأقمت في البرية لعبادة الله تعالى، فتعرضت للفاقة ليومين فاستعجلت وعُدْت إلى المدينة. ثم زالت حالة الكشف عن الصوفي، فرمى الرغيف الثالث للكلب وتوجه للبرية. فما إن وصل إلى كوخه حتى جاء أصدقاؤه وغيرهم من القوم بالطعام وهم يعتذرون إليه بأنهم لم يستطيعوا خدمته منذ بضعة أيام ماضية. فقال لهم: لا عليكم، إنما أراد الله ﷻ بذلك اختباري.

قارِنوا هذه القصة بما تعرض له أهل مكة هؤلاء. كانوا مشركين، ولكن الله تعالى كان يدرّبهم ليكونوا أهلاً بأن يكونوا أمة محمد ﷺ. يا لها من تضحية قدّموها! كانوا يخرجون من مكة لمسافة ويضربون خيامهم هناك، ثم يموتون مع أهلهم وأولادهم جوعًا وفاقة، ولكنهم لم يكونوا يتركون مكة ولا يمدّون أكفّهم إلى الآخرين سائلين. وهذا يدل من جهة على حماسهم لخدمة الكعبة، ومن جهة أخرى يدل على عظيم قناعتهم، إذ كانوا لا يشقّون على الآخرين بالسؤال، وإنما كانوا يظلّون في خيامهم يصارعون الجوع جميعًا حتى الموت.

إن في ذلك درسًا لأبناء جماعتنا الذين يدّعون أنهم المؤمنون بما أنزل الله من تعاليم وأحكام، وأنهم الحَمَلَة لنوره في هذا العصر. وها إنني أوجّه خاصةً أنظارَ أبناء المسيح الموعود عليه السلام وأبناء أتباعه الخواص إلى واجبهم هذا. أرى أنه لم يتولد بعدُ فيهم ذلك الحماسُ للتضحية والإيثار في سبيل الدين الذي كان ينبغي أن يتولد فيهم نتيجة إيمانهم بالمسيح الموعود عليه السلام وانضمامهم إلى الأحمدية. إن خُطاهم جدُّ بطيئة، وحماسهم للتضحية والإيثار لا يزال ضعيفا جدًا، ومن المؤكد أننا بهذا المستوى لن نكون غالبين على العالم أبدا. فما لم يدرك كلٌّ منا أن الهدف الذي بايع ودخل مِن أجله في هذه الجماعة مقدَّمٌ على جميع الأهداف الأخرى، فلا يمكن القول إنه قدّم نموذجًا جيدا للإيمان. بل أرى أنه لا يجوز قطعًا لأبناء المسيح الموعود عليه السلام أن يباشروا أي عمل مِن شأنه أن يحول دون خدمتهم للدين، ومَن باشر عملاً كهذا عُدَّ من الذين يؤْثرون الدنيا على الآخرة. أما غيرهم من الأحمديين فعليهم أيضا أن يدركوا أن من واجبهم أن يتحلّوا بحماس لخدمة الدين بحيث إذا جاءهم نداء من الدين لبّوه تاركين أعمالهم كلها فورًا وانهمكوا في خدمته. إذا كان هؤلاء يباشرون الآن أعمال الدنيا فإنما لأن الدين لم يحتَجْ إلى خدمتهم بعدُ، ولكن حينما يحتاج الدين إلى نصرتهم فعليهم أن يتذكروا عندها أنهم قد بايعوا على أن يؤْثروا الدين على الدنيا. يجب أن يكون لهذا العهد معنى ومغزى. وأيًّا كان تفسيركم لهذا العهد، فلا بد لكم أن تؤثروا الدين على شيء من الأشياء في كل حال، فإذا كنتم تعنون بهذا العهد المالَ، فلا بد أن تؤثروا الدين على المال، وإذا كنتم تعنون به النفس فلا

بد أن تؤثروا الدين على النفس، وإذا كنتم تعنون به الخدمةَ فلا بد أن تؤثروا الدين على كل نوع من الخدمات. ما دام كل الأحمديين قد قاموا بهذا الإقرار والعهد، فمن واجبهم أن يفكروا ما هي الخدمة التي قدموها للجماعة بعد هذا الإقرار. إنهم يدَّعون أنهم يؤْثرون الدين على الدنيا، فأسأل: هل يوجد بينهم مَن ينفقون ٥١% من أموالهم في سبيل الدين؟ إن تقديمك الشيءَ يعني أنك تقدِّمه على ما سواه، فإذا كانوا يقدّمون الدين على الدنيا حقًّا، فيجب على كلٍّ منهم أن ينفق في سبيل الدين ٥١ روبية من مائة روبية يتقاضاها، وعندها فقط يُعَدّ من الصادقين. ولكن، هل يفعلون ذلك؟ هل هم يعملون في خدمة الدين ١٣ ساعة من ٢٤ ساعة في اليوم؟ وهل يقومون بالتضحية والإيثار فيقدمون الدين على الأهل والأولاد وغيرهم من الأشياء؟ وهل يؤْثرون الدين على الوطن أو على النفس؟ يجب أن يكون هناك مجال يمكن أن يقولوا إنهم قد آثروا فيه الدين على الدنيا. لو فكر كل أحمدي على هذا النحو، ثم لم يجد أي شيء أو مجال يؤْثر فيه الدين على الدنيا، فليعلمْ أنه مصاب بالنفاق إذ يدّعي بتقديم الدين على الدنيا ولكنه لا يعمل بحسب دعواه في أي مجال. فلا بد أن يكون لعهده معنى ومغزى. لا شك أن هذا العهد لا يفرض علينا أن نؤثر الدين على الدنيا في مجال واحد فقط، بل من واجبنا أن نؤثر الدين على الدنيا في كل مجال وفي كل أمر، ولكن الذي لا يمكن أن يفعل ذلك عليه أن يؤثر الدين على الدنيا في مجال واحد على الأقل حتى يستطيع القول إنه حاول جاهدا الوفاء بهذا العهد في هذا المجال. يجب أن يفي بهذا الوعد في ماله أو تجارته أو مهنته أو وطنه أو عمله أو وظيفته أو علاقته مع الأقارب والمعارف أو في مجال العبادة أو التضحية والإيثار، حتى يستطيع القول: "لقد قدّمتُ الدين على الدنيا في المجالات التي أُتيحت لي الفرصة فيها، وأما المجالات الأخرى فإني مستعدّ تمامًا لبذل جهدي للوفاء بعهدي فيها أيضًا". أما إذا لم يكن يفعل هكذا فليدرك أن ادعاءه بالإيمان مجرد نفاق ولن ينفعه شيئا.

هلا فكَّرتم فيما فعلتْ قريش؟ ألا تنظرون كم كانت تضحيتهم عظيمة، مع أنهم لم يكونوا حَمَلَةَ دينٍ حقّ، إنما كانوا عبدةَ أوثان لا دين لهم. إنهم لم يصبحوا عبئًا

على قومهم، بل قالوا لقد جئنا لوجه الله تعالى، ولا حقّ لنا أن يخدمنا قومنا في ضيقنا وشدتنا. فظلّوا يحملون خيامهم خارج مكة، ويموتون جوعًا: الابن أمام أبيه، والبنت أمام أمها، والزوج أمام زوجته، والآباء أمام أولادهم، والصديق أمام صديقه، والقريب أمام قريبه، ولكن لم تجرِ كلمة شكوى على لسان أيٍّ منهم، و لم يفكّر أحد منهم -رغم هذه المصيبة الهائلة التي حلت بهم- في مغادرة ذلك المكان. إن هؤلاء القوم لم يذهبوا إلى هناك بعد رؤية معجزة أو مشاهدة آية، و لم يجتمعوا هناك بعد الإيمان بوحي جديد، وإنما فكّروا أن جدّهم إبراهيم عليه السلام أوصاهم قبل ألفي سنة بوصية، فجاءوا إلى تلك البقعة عملاً بوصيته. لقد اضطروا للجوع والفاقة ولكنهم لم يتركوا ذلك المكان. لقد قبلوا الموت جوعًا ولكنهم لم يتركوا تلك البقعة. لقد عاشوا هناك سنوات في فقر وضيق وإفلاس، بدون طعام أو سبب معاش، ولكنهم قالوا سوف نموت ونفنى واحدا بعد الآخر ولكن لن نهاجر من مكة إلى غيرها. لا شك أنها تضحية عظيمة لا مثيل لها في تاريخ العالم حتما.

لقد استمرّ هذا الوضع حتى زمن هاشم بن عبد مناف -والدِ جدِّ الرسول ﷺ- فهو أدرك أن القوم سيشملهم الفناء إذا ما ظلّوا على هذا الوضع التعيس، فجمَع قومه وقام فيهم خطيبا وقال: إن الطريق الذي تتبعونه جيد في حد ذاته ولكنه اندفاعٌ وتهوّرٌ، ولن يحقق الهدف الذي أقمتم في مكة من أجله. ولو استمر هذا الوضع فسيفنى أكثركم، وتصبح مكة خرابا يبابا. لا شك أن ما تفعلونه عظيم من حيث الحماس والتصميم والعزيمة، ويستحق كل المدح والثناء، ولكنه عند التعقل لا نجده نافعًا. علينا أن نفعل ما يمكّننا من الإقامة في مكة وينقذنا من هذا الفناء أيضًا.

ولعل هاشم بن عبد مناف فكّر أنه لو استمر الوضع هكذا فإنه لن يترك انطباعًا حسنا عند القبائل الأخرى؛ إذ يقولون: "لقد جاء هؤلاء إلى مكة مجاورين للبيت، ولكنهم ماتوا جوعا وفاقة". وهذا سيقلّل من تعظيم الله تعالى في أعين الناس حيث يظنون أن لا خير في التضحية في سبيل الله تعالى، لذا فيجب أن نعيش هنا محافظين على كرامتنا عند الناس ونكون أحسنَ عيشًا من بقية القبائل. فقالوا له: لقد رضينا بما ترى. فقال: أرى أن نعيش في مكة، وفي الوقت نفسه نمارس التجارة لتحسين

حالتنا المادية. ما دمنا نسافر لأغراضنا المختلفة، فلِمَ لا نقوم برحلات تجارية تحسّن حالتنا الاقتصادية السيئة وتزيل ما بِنا من ضيق وشدّة (الدر المنثور للسيوطي). إنه لم يقترح عليهم الزراعة، لأنه لم يكن في مكة أية إمكانية للزراعة، و لم يقترح عليهم التجارة في الدكاكين البسيطة، لأن ذلك سيحول دون خدمة الكعبة، إذ إن صاحب الدكان مضطر للبقاء فيه كل الوقت، فاقترح عليهم استثمار أموال القوم برحلتين تجاريتين سنويًا: رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام. لقد اقترح رحلة الصيف إلى الشام لأنها منطقة باردة نسبيًّا، ورحلة الشتاء إلى اليمن لأنها منطقة حارة نسبيًّا. واقترح أن يخرج مندوبو أهل مكة بأموالهم لاستثمارها في سفرين تجاريين سنويا، ويجب أن يكون هذا السفر من أجل التجارة فقط وأن يكون من أجل القوم كلهم. وهذا يعني أن هاشم بن عبد مناف هو أول من بدأ نظام الشركات التجارية في العالم، أو في الجزيرة العربية على الأقل. لا شك إن التجار يخرجون لتجارتهم بشكل فردي دائما في العالم، فيجلبون البضائع ويبيعونها بأرباح، أما أن يخرج مجموعة من التجار للتجارة المشتركة.. أي لاستثمار أموال القبيلة كلها.. فهذا لم يحدث قط في تاريخ الجزيرة العربية على الأقل إلا على يد هاشم بن عبد مناف. فرحّب القوم برأيه، وبدأت قوافلهم التجارية تخرج في هذه الرحلات، فكان كل شخص يسلّم ماله لهؤلاء الممثلين عن أهل مكة كلهم، وتحت إمْرَة أحدهم. كان الأغنياء منهم يبعثون أحيانًا عبيدهم أيضا في هذه الرحلات. فإذا خرج رجال هذه القافلة أخذوا من مكة بعض الأشياء فباعوها في طريقهم إلى الشام للقبائل العربية التي كانت تعتبرها تبركًا مكيًّا. فمثلا كانوا يملأون القِرَب بماء زمزم ويأخذونها معهم، وكانت القبائل العربية التي كانت تعظّم الكعبة تفرح كثيرا بأنهم وجدوا ماء زمزم وهم في بيوتهم، فكانوا يزدادون احترامًا لقريش. كما كانوا يأخذون معهم من مكة التمر وبعض المصنوعات الحديدية، إذ كانوا يجيدون الحدادة، فيبيعونها لمن حلّوا عندهم من قبائل؛ وبالمقابل يشترون منهم ما يمكن بيعه لأهل الشام، وعند العودة من الشام كانوا يشترون من هناك البضائع التي يبيعونها للقبائل في طريق عودتهم ولأهل مكة، وهكذا كانوا يربحون ذهابًا وإيابًا، كما

كانت مختلف بضائع الشام وغيرها من الأقطار العربية تصل إلى مكة. وفي الشتاء كانوا يخرجون إلى اليمن، الذي كان بينه وبين مكة أيضا مسافة لا بأس بها، آخذين معهم هدايا وتبركات مكية ليبيعوها للقبائل العربية في طريقهم، وكانوا يشترون من منتوجاتهم الجيدة ويصلون بها إلى اليمن ويبيعونها هنالك، وعند العودة من اليمن كانوا يشترون الصناعات المحلية والغلال ويبيعونها للقبائل في طريق عودتهم ولأهل مكة. فصار أهل مكة بسبب هذه الرحلات التجارية أغنى العرب في بضع سنين.

وعند عودة القافلة التجارية كان كل مستثمر فيها يُخرج نصف أرباحه لفقراء مكة، فإذا ربح أحدهم مائتي روبية مثلاً، احتفظ بمائة منها ووضع مائة في صندوق القوم. وهكذا كانت أموال لا بأس بها تتوافر للنهوض بالفقراء، فتحسن وضعهم في مدة وجيزة. وهناك شاعر عربي يمدح أهل مكة على صنيعهم هذا قائلا بأنهم يتحلّون بأخلاق سامية إذ يوزّعون نصف أموالهم على الفقراء، فيصبح فقراؤهم مثل أثريائهم. لا شك أنه قول مبالغ فيه، إذ يستحيل أن يوجد عندها في مكة أكثر من خمسة عشر أو عشرين ثريا، وكان عدد سكانها نحو خمسة عشر أو عشرين ألفا، ولو وزّع أثرياؤها نصف أرباحهم على فقرائها لما وجدوا مالا كثيرا يجعلهم مثل الأثرياء. بيد أنه لا يسعنا إنكار أن وضع أهل مكة قد تحسن نتيجة هذه الرحلات التجارية، فنجوا من الموت الذي كانوا يقاسونه نتيجة الجوع والفاقة. و لم تزل قريش على هذه السُّنّة إلى أن جاء الإسلام، فصاروا أكثر العرب مالا وعزا.

لقد ثبت من الأحداث المذكورة آنفًا أمرانِ: أوّلهما أن بني إسماعيل لم يقيموا في مكة محافظين على الوعد الإبراهيمي طويلاً، بل غادروها بعد حين وانتشروا في شتى أنحاء الجزيرة العربية، ثم عادت مجموعة منهم وسكنت في مكة ثانيةً بدعوة من قصي بن كلاب، و قد سُمّي هؤلاء قريشا.. بمعنى أنها فئة كانت مشتتة من قبل ثم رجعت وأقامت في مكة بدعوةٍ من قصي. وثانيهما أن الفقر ضرَب هذه المجموعة أيضًا بقسوة بسبب إقامتهم في مكة، فحثّهم هاشمُ -والدُ جدّ الرسول ﷺ- على الخروج في رحلات تجارية إلى اليمن والشام لتحسين وضعهم الاقتصادي. فلو اعتبرنا الفرق بين جيل وآخر ٣٠ سنة، فهذه الدعوة للعودة إلى مكة والإقامة فيها

مرة أخرى تكون قد بدأت قبل مولد الرسول ﷺ بنحو ٢٢٥ سنة. لا شــك أن الناس يبلغون الستين أو السبعين أو الثمانين سنة من العمر، ولكن معدل عمــر أي شعب يكون أقل منه دائما، فمثلا كان معدل عمر أهل الهند ٢٢ سنة من قبل، أما الآن فتحسن قليلاً وصار نحو ٢٨ سنة. أما في أوروبا فلو مات هناك أحد في ســن الخامسة والثمانين لقالوا بأنه مات في شبابه وسنّ عمله، ومع ذلك يعتبر أكبر معدل للأعمار عندهم ٥٦ عامًا. وعلى العموم فإن معدل العمر في العالم هو ٤٠ ســنة، ولكن الهند بلد فقير، لذلك فمعدل العمر فيها الآن نحو ٢٨ سنة. فلو افترضنا عمْر الجيل الواحد عند العرب ٣٠ سنة في ذلك الوقت، فتكون هذه الحركة قد بــدأت قبل مولد الرسول ﷺ بــ ٢٢٠ أو ٢٢٥ عاما. وفارقُ الزمن بين إبــراهيم عليه السلام والرسول ﷺ يتراوح ما بين ٢٢٠٠ و٢٣٠٠ عام في رأيي، بينما هــي مــا بــين ٢٢٠٠ إلى ٢٨٠٠ عند الآخرين (معجم القرآن للدكتور غــلام جــيلاني بــرق ص٢٨-٣٠)، ولو أخذنا بالزمن الأقل وهو ٢٢٠٠ وحذفنا منــه ٢٢٥ -وهــو الزمن الذي بدأ فيه قصيٌّ بالدعاية للعودة ببني إسماعيل إلى مكة للإقامة فيها ثانية- لصار عندنا ٢٠٠٠ سنة. إذن، فقد ظلّ القوم غافلين عن واجبهم ألفي سنة.

والقاعدة أنه كلما قلّت الشقّة الزمنية، ظلّتْ ذكرى الآباء في قلوب الأبناء قويةً، وكلما زادت الشقّة الزمنية ضعفت ذكراهم في قلوب الأبناء. فكان ينبغي بحسب هذه القاعدة أن يكون الجيل الأقرب من زمن إسماعيــل أكثــرَ حفظًــا للوعــود الإبراهيمية؛ إذ القاعدة أن الابن يذكر الأب أكثرَ، أما الحفيد فيكون أقــل ذكــرًا لجده، وأما ابن الحفيد فأقلّ، أما بعد أربعة أجيال أو خمسة فينسى القوم أجدادهم، فإذا طال الزمن لم يعرفوا عن أجدادهم شيئا. وهذه الظاهرة تراها في كل الأمــم الكبيرة، فمثلاً كم كانت تضحيات نسل فاطمة بنت الرسول ﷺ عظيمة ومحــيرة في أول أمرهم، أما اليوم فتجد كثيرًا من "السادات" قد بعُدوا عن الإسلام بعــدًا عظيمًا. ثم انظروا إلى المغول.. العِرق الذي تنحدر منه عائلتنا.. فإن باتو خان الذي كان من تركستان الصينية وكان جدّ المغول قد خرج كالطوفان واســتولى علــى أوروبا كلها، أما قبلائي خان فاستولى على البلاد الشرقية حتى شــواطئ البحــر

الصيني (پنجاب کے مغل قبائل ص٨٩، وأردو دائرة معارف إسلامية تحت كلمة: قبلائي)؛ مما يعني أن قومنا قد وصلوا إلى حدود اليابان من ناحية، ومن ناحية أخرى داسوا أوروبا كلها تحت أقدامهم؛ أما اليوم فتجد كثيرا من المغول إذا رأوْا العدوّ ولوّا الأدبار بدلاً من مواجهته، ذلك لأنهم قد نسوا مفاخر آبائهم وإنجازاتهم. وأما الأفغان الذين جاءوا واستولوا على الهند كلها، فتجدهم اليوم قد تقلّص نفوذهم جدًا حيث يعيشون في منطقة صغيرة. ولو ظلّ هؤلاء متحلّين بعاطفة التضحية والإيثار كآبائهم لما صاروا لهذا المآل، ولما عاشوا محكومين بعد أن كانوا حاكمين.

باختصار، لو وضعنا القاعدة الطبيعية في الاعتبار فكان يُتوقع أن يكون تأثير ذكرى إبراهيم وإسماعيل على الأجيال الأولى أشدّ منه في الجيل الذي أتى بعد ألفي سنة، وكان متوقعًا أن ينمحي ذكرهما بين ذلك الجيل الأمي الجاهل، ولكننا نرى الواقع عكس ذلك، إذ دبت فيهم الحياة ثانية بعد ألفي سنة، فجاءوا وأقاموا في مكة مرة أخرى عملاً بوصية جدهم إبراهيم عليه السلام، ثم ظلوا هناك يعانون الشدائد جياعا عراة، ولكن لم يغادروا مكة. والسؤال هنا: أكان تولُّدُ هذا الإحساس فيهم للإقامة في مكة بعد انقضاء ألفي عامٍ صدفةً من الصدف؟ بحسب مبادئ علم النفس كان ينبغي أن ينمحي هذا الذكر بينهم كليةً بعد انقضاء ألفي سنة، ولكننا نرى أنه بعد ألفي سنة قام بينهم شخص ونادى بالعودة إلى مكة للإقامة فيها ثانية، فذهبت قبيلة من نسل إسماعيل وأقامت هناك وتولّت خدمة الكعبة رغم الظروف القاهرة. لقد قام هؤلاء بهذه الخدمة بحب وشوق لا نظير لهما، فكانوا يموتون ويرون أطفالهم وبناتهم وزوجاتهم يموتون أمام أعينهم مقاسين ويلات الجوع والفاقة، ولكنهم لم يتركوا مكة. يا ترى، لماذا تولد فيهم هذا الإحساس الشديد للبقاء في مكة بعد مضي ألفي سنة؟ ثم لماذا تولد هذا الإحساس القويّ خصوصًا في تلك القبيلة التي كان سيولد فيها الرسول ﷺ؟ إن التدبر يكشف لنا أن يد قدرة الله تعالى هي التي قد أشارت إليهم بأن الهدف الذي من أجله عمَر آباؤهم مكة قد حان أن يتحقق،

فعليهم أن يذهبوا ويسكنوا فيها. إذ كيف يُعتبر صدفةً رجوعُ هؤلاء إلى مكة بعد تيه ألفي سنة هنا وهناك، ثم كيف يعتبر صدفةً أن لا يرجع مِن هؤلاء القوم الكثيرين إلا تلك القبيلة التي سيولد فيها ذلك الموعود؟ يمكن أن يزعم العدو أن محمدا قام بدعوى زائفة والعياذ بالله، ولكن السؤال هنا: ما الذي جعل هذا القوم يجتمعون من كل حدب وصوب ليسكنوا في مكة قبيل بعثة هذا المدعي الكذاب؟! إنما اجتمعوا فيها لأن جدهم إبراهيم عليه السلام أوصاهم بالإقامة فيها وعمرانها، لأنها ستكون مركزا لدين عالمي. إن هذا التغير العظيم الذي أحدث في بني إسماعيل ضجة لدليلٌ على أن كل ما حدث إنما حدث بقدر الله تعالى تحقيقًا لوعده مع إبراهيم عليه السلام، فإنه كان قد دعا ربه قائلا ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(البقرة: ١٣٠). هذا الدعاء الإبراهيمي يبين أن ذلك الرسول سيظهر في مكة، وأنه سيخاطب أهلها أولاً؛ ولولا عمران مكة لما تحقق دعاؤه ﴿وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولا﴾؛ إذ مَن هم القوم الذين كان سيُبعث فيهم؟ وكان إبراهيم عليه السلام قد دعا أيضًا أن يتلو هذا الرسول عليهم آيات الله ويعلّمهم الكتاب والحكمة؛ ولو لم تكن مكة عامرة فمَن هم القوم الذين كان سيتلو عليهم آيات الله ويعلّمهم الكتاب والحكمة؟ ثم دعا إبراهيم عليه السلام ﴿ويزكّيهم﴾؛ فلو لم يكن في مكة أحد فمَن هم القوم الذين كان سيزكيهم هذا الرسول؟ فالحق أنه لولا عمران مكة لما تحقق أيٌّ من أدعية إبراهيم عليه السلام. فثبت من هنا أن ما حدث لم يكن صدفةً، إنما وقع بحسب خطة الله ومشيئته عز وجل. يمكن للخصم أن يزعم أن محمدا قد قام بادعاء باطل - والعياذ بالله- ولكن من الذي يمكن أن يعتبر هذه الأحداث صدفة؟ لقد ظلّ هؤلاء القوم تائهين هنا وهناك ألفي سنة متناسين كل النبوءات التي أدلى بها إبراهيم وإسماعيل، وعندما حان ظهور النبي صلى الله عليه وسلم دبّت الحياة فيهم فجأة، فقالوا: كيف ارتكبنا هذه الحماقة، وظللنا تائهين هنا وهناك كل هذه الفترة، مع أن جدنا كان قد أوصانا بالبقاء في مكة والعبادة هناك؟ لقد قال لنا جدُّنا إن كل رقيكم وتقدمكم منوط بالبقاء هناك، ولكننا انتشرنا هنا وهناك. فعادوا إلى مكة وأقاموا

فيها ثانية، ليس لأن مصنعًا أُنشئَ هناك، أو أن التجارة أصبحت رابحة هناك، أو أن الزراعة كانت مزدهرة هناك، وإنما لأن إبراهيم عليه السلام أوصاهم بالإقامة هنالك، فاجتمعوا هنالك عملاً بوصيته. فهل هذا كله صدفة، كلا بل كل ما وقع إنما وقع بمشيئة الله وقراره الأزلي.

ومن الممكن تماما عندي أن تكون روايات اليهود والنصارى أيضًا قد حدت هم إلى مكة، إذ كان لقُصيّ بن كلاب الذي أسكنَهم في مكة ثانية صلات معهم، وليس غريبا أنه لما كثر بينهم الحديث عن قرب ظهور النبي المختون، سمع قصيٌّ من علمائهم أن هذا النبي سيظهر بين العرب، فاستنتج مما سمعه منهم ومن روايات قومه العرب أن هذا الموعود إذا ظهر بين العرب فلن يظهر إلا في مكة، فقال في نفسه أن الله تعالى ما دام سيُنزل هذه النعمة من أجلنا فلماذا لا نغتنمها ونُسكن قومنا في مكة حتى إذا ظهر النبي العربي آمنّا به وتمتّعنا ببركات الله النازلة معه. شأهم في ذلك شأن أهل المدينة، فإنهم هم الآخرون كانوا قد سمعوا من اليهود عن اقتراب ظهور النبي الموعود، مما ساعدهم على تصديقه ﷺ؛ فقد ورد في التاريخ أنه لما أعلن النبي ﷺ دعواه وعارضه قومه، جاءت إلى مكة مجموعة من حجيج المدينة المنورة، وكان النبي ﷺ يقابل كل قبيلة أيام الحج ليخبرهم أنه جاءهم حاملاً لهم رسالة من الله تعالى بأن تعبدوا الله وحده لا تشركوا به شيئًا، وتتحلوا بحسن الخلق. فكانوا يضحكون عليه ساخرين وهم يتغامزون قائلين: هذا هو المجنون الذي سمعنا أنه ظهر في مكة، ثم يولّون عنه مدبرين (تفسير الرازي).

وأي شك في أن النبي ﷺ كان مصابًا بالجنون -بالمعنى الروحاني- لنجاة العالم؛ إذ كان باخعًا نفسه حتى ينجوا من هوة الهلاك والدمار، ولو سمّاه أحد مجنونا من هذا المنظور الروحاني، فنقول: فليكثُرْ مثل هؤلاء المجانين في العالم، لأن مثل هذا المجنون إنسان عظيم. ولكن القوم كانوا يذكرونه بهذه الأوصاف على سبيل العداء والمعارضة. كانوا يرفضون سماع كلامه، ولكنه ﷺ لم ييأس ولم يقنط، بل ظل يقابل كل قبيلة في موسم الحج لتبليغهم رسالة الله. وذات مرة جاءت من المدينة المنورة مجموعة من الحجاج، فقام بدعوهم إلى الله تعالى. كانوا شرفاء، ثم إنهم كانوا

قد سمعوا عن قرب ظهور نبيّ، فبينما كان النبي ﷺ يبلغهم واقفا، قالوا لـه هلـمّ نجلسْ في ناحية لنستمع إلى كلامك، فجلسوا جميعا فبلّغهم رسـالة الله (السـيرة النبوية لابن هشام: بدء إسلام الأنصار). فقالوا له: يقيم في بلدتنا قوم من اليهود، وإننا أكثر منهم عددًا، وأقوى منهم جانبًا في المعاهدات، ولكنهم يقولون لنا دائمًا: "إن نبيًا عظيما سيظهر في هذه البلاد قريبًا، وبواسطته سنكون غـالبين علـيكم، وسيظهر مِن بيننا وفي يثرب، ولذلك جئنا وأقمنا هنا، وسوف نزدهر ثانية بالإيمان به". ولكن يبدو من كلامك أن الله تعالى قد بعث بيننا بفضله ذلك الـنبي الـذي يقول اليهود أنه سيظهر من بينهم؛ فقد لمسنا الـصدق في كلامـك ونـرى أن العلامات التي يذكرها اليهود تتحقق فيك، ولكننا نخاف أننا إذا أخـذنا القـرار بأنفسنا فلعلّ قومنا يثورون علينا قائلين بأنكم قد استعجلتم في الإيمان به وتريدون أن تدفعونا نحن أيضًا إلى الخطأ نفسه، فاسمحْ لنا حتى نعرض كلامك علـيهم، ثم نؤمن بك نحن وقومنا جميعًا بإذن الله تعالى. فرحّب النبي ﷺ باقتراحهم. فرجعوا إلى أهليهم وأخبروهم بالأمر. وحيث إنهم كانوا يسمعون من اليهود عن النبي القـادم كثيرًا، فجاء اثنا عشر شخصًا منهم في السنة التالية للحج وآمنوا بالنبي ﷺ، وهكذا وصل الإسلام من مكة إلى المدينة المنورة (السيرة النبوية لابن هشام: العقبـة الأولى ومصعب بن عمير) .

ومن الممكن تماما عندي أن قصي بن كلاب كان قد سمع من علماء اليهـود والنصارى كلامًا كهذا، ففكّر أن الله تعالى يريد أن يفجّر ينبوع النبوة من بيتنا عن قريب ونحن تائهون هنا وهناك، فنصح قومه بالعودة إلى مكة والإقامة فيها للتمتـع ببركات ظهور الموعود القادم.

لقد قلت من قبل إن يد الله تعالى هي التي قد أشارت لقصي بـن كـلاب أن يجتمعوا في مكة، بينما قلت الآن إنه سمع من اليهود عن قرب ظهور النبي الموعـود وأنه سيظهر بين العرب، فاستنتج مما سمع منهم ومن روايات شعبه العربي عن الوعد الإبراهيمي أنه سيظهر في مكة، فهناك اختلاف بين الأمرين على ما يبدو. والحـق أنه ليس ثمة أدنى اختلاف في الواقع، ذلك أن قصيًّا إذا فعل ذلك بناءً على ما سمعه

من روايات اليهود والنصارى فإنّ ما سمعه كان أنباءً إلهية، والأنباءُ الإلهية أيضا بمنزلة يد الله التي ترشد الناس إلى الهدى، وإذا لم يكن قد سمع بهذه الأنباء منهم، فإن يد الله القوية هي التي ذكّرته قبل ظهور نبي العرب بنحو قرنين وربع ما كان قومه قد نسوه منذ ألفي سنة، فعادوا إلى صوابهم فرجعوا وأقاموا في مكة ثانية رغم تعرضهم لشتى المحن والشدائد. فسواء أجاء بهم بناءً على ما سمع من روايات اليهود والنصارى أو جاء بهم بدون سماع أي شيء منهم، فالحق أن كل ما تمّ إنما تمّ بإشارةٍ من يد القدرة الإلهية، وهكذا صار قصيّ أداةً للتدبير الرباني لجمع قومه في مكة.

ثم إن خطة إرسال القوافل التجارية إلى الشام واليمن في زمن هاشم أيضا تبدو حلقةً من حلقات هذا التدبير الرباني. كانت المسيحية قد أخذت عندها في الانتشار في اليمن، أما الشام فكانت المسيحية هي الغالبة فيها، وكان اليهود قد هربوا من الشام واستوطنوا شمال الجزيرة واليمن؛ فقد ذكرتُ من قبل -في السورة السابقة- أن ملك اليمن الحِمْيَري الذي أحرق عشرين ألف مسيحيّ كان يهوديا أو متعاطفا مع اليهود، مما يدل على أن اليهود كانوا قد هاجروا من الشام إلى اليمن. وكانت هاتان الأمتان.. اليهود والنصارى.. هما اللتان ستصطدمان بالإسلام مستقبلا. فأولاً جاء أبرهة من اليمن بنية الهجوم على الكعبة، ثم لما انتشر الإسلام أخذ نصارى الشام بمحاربته. إذن، فإن الله تعالى بكمال حكمته جعَل هاشم يقترح رحلات الشتاء والصيف ليطّلع أهلُ مكة على أحوال اليهود والنصارى. إن اكتساب الرزق شيء، أما اختيار هاشم بن عبد مناف هذين البلدين خاصة للرحلات فهو أمر آخر تماما. كان بإمكانه أن يقترح عليهم مجرد التجارة، أما اقتراحُه خطة الرحلات التي تربطهم باليمن والشام، ثم جَعْلُ الله تعالى سورة قريش بعد قوله ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾...... إلى آخر السورة، كل ذلك يبين بجلاء أن كل ما تم إنما تمّ بتخطيطٍ رباني محكم. لقد أراد الله تعالى بذلك أن يكتسبوا الرزق، وأن يطّلعوا على أحوال أهل الشام واليمن الذين كان من المقدر أن يصطدموا بهم في

يوم من الأيام. وكما قلت لقد وقع هذا الصدام مرة قبل بعثة النبي ﷺ، ومرة ثانية بعد بعثته ﷺ.

وكان طبيعيًا أن يصاب مَن يسمع مثل هذا الكلام باستمرار بنوع من الرهبة والرعب، فيظن أن فيه شيئًا من الصدق حتما، وحيث إن أهل مكة كانوا يسمعون من اليهود والنصارى هذا الكلام باستمرار، فكانوا يقولون في أنفسهم أن أحدًا آتٍ حتمًا، مما كان يصيبهم بصدمة ويضرب على كفرهم بقوة، وبالتالي يُحدِث صَدْعًا في جدار كفرهم. فكلما سافروا وسمعوا من اليهود والنصارى أنباء عن ظهور النبي القادم ثم حكوها لأهليهم في مكة، تحرك القوم كلهم ونما عندهم الإحساس بقدوم نبي. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى جعلتْ أسفارُ أهل مكة إلى اليمن والشام اليهودَ والنصارى يستشعرون خطرًا مِن قبلهم يجب أن يُعدّوا له عُدّهم لأن أنباء ظهور الموعود تشير إلى العرب.

باختصار، كان من حِكم الله تعالى البالغة وراء رحلاتهم الشتوية والصيفية أن تتكرر زيارات أهل مكة لليهود والنصارى فيسمعوا منهم الأنباء عن النبي الآتي، حتى إذا ظهر سهُل عليهم الإيمان به. وقد سبق أن ذكرت أن أهل المدينة إنما وُفّقوا للإيمان بالرسول ﷺ فقط لاتّصالهم واحتكاكهم باليهود، وقد أشار الله تعالى إلى ذلك في قوله: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾(البقرة: ٩٠).. أي أن اليهود يكفرون بمحمد ﷺ اليوم، مع أنهم كانوا من قبل يقولون للعرب إن نبيا سيُبعث قريبًا وسوف ننتصر به على أعدائنا. فثبت من هنا أن هذه الرحلات التجارية إلى الشمال والجنوب كانت تمكِّن أهل مكة الأمّيين من لقاء علماء اليهود والنصارى، فكانوا يطّلعون على أفكارهم وعقائدهم عن النبي الأخير. ومن أدلة ذلك ما ورد في الحديث أن أبا طالب لما ذهب بمحمد ﷺ في سفره إلى الشام رآه أحد الرهبان فقال: عليك أن تعتني بهذا الطفل، إذ توجد فيه علامات معينة، فلعله يكون إنسانا عظيما (السيرة النبوية لابن هشام، قصة بحيرى)، ولعل كلام الله عن العرب سيتحقق على يده. كان أهل مكة يسمعون مثل هذا الكلام باستمرار خلال رحلاتهم، وقد استعمله الله تعالى نفسه تمهيدًا لبعثة النبي ﷺ. فالحق أنه كان وراء

رحلات الشتاء والصيف هذه حكمةٌ ربانية عظيمة، وإلا فكَمْ كان صعبًا على الأمة التي لم يكن فيها وحي ولا شريعة وكانت بعيدة عن المناطق المتحضرة جدا بأن تؤمن بمحمد ﷺ بسماع دعواه، غير أنهم كانوا يسمعون كلام اليهود والنصارى عن النبي الموعود باستمرار خلال رحلاتهم، مما يُضعِف عقيدتهم الوثنية، فكانوا يقولون لعل ما يقال حق، ولعل الموعود آتٍ مِن بيننا. ومن أجل هذه الحكمة الربانية العظيمة الكامنة في هذه الرحلات، قال الله تعالى: اعجَبْ يا محمد لهؤلاء القوم الذين جاءوا واستوطنوا مكة ولم يريدوا الخروج منها رغم تعرضهم للموت جوعا وفاقة، ولكن انظرْ كيف يخرجون الآن إلى اليمن شتاءً وإلى الشام صيفا بالتزام، كما يخرج الناس للصلاة بالتزام. من ذا الذي أولعَهم بهذه الرحلات؟ نحن الذين فعلنا ذلك. لو ظلوا عاكفين في مكة لما عرفوا شتى أنبائنا المتعلقة ببعثة محمد ﷺ، ولكننا جعلناهم مغرمين بهذه الأسفار فخرجوا إلى الشام صيفا وإلى اليمن شتاء بلا انقطاع. فإذا ذهبوا إلى اليمن سمعوا من أهله أن نبيًا على وشك الظهور، ولعله يولد بين العرب، وإذا ذهبوا إلى الشام سمعوا من أهلها أنه قد حان ظهور نبي، ولعله يبعث من بين العرب، وهكذا لم نَزَلْ نلقي في أسماعهم هذه الأنباء المتعلقة بظهور محمد ﷺ كيلا يتسرعوا إلى تكفيرك بمجرد سماع دعواك.

كم كان صعبًا على أهل مكة أن يؤمنوا برسول الله ﷺ نظرًا لبُعدهم عن وحي الله تعالى! ولكن الأنباء التي سمعوها من اليهود والنصارى جعلت بعضهم يصدّقون الرسول ﷺ بمجرد سماع دعواه. لم يكن أبو بكر الصديق رضي الله عنه في مكة يوم أعلن الرسول ﷺ دعواه، بل كان خارجها، فنزل عند صديق له للاستراحة ظهرًا وهو عائد إذ كان الطقس حارا، فقالت أمَةٌ لصاحب البيت لقد أصبح صديقُ هذا مجنونًا للأسف. فنظر أبو بكر رضي الله عنه يمينًا وشمالاً، ثم علم أنها تتحدث عنه، فسألها: صديقُ مَن؟ فقالت: صديقك أنت، محمد. قال: ماذا حصل به؟ قالت: إنه يقول إن الملائكة تكلّمه. وكان أبو بكر على وشك الاستلقاء للاستراحة، ولكنه أخذ رداءه واستأذن صديقه للذهاب، فقال له: استرحْ قليلا فالطقس حار وستعاني في السفر. قال: لن أستريح الآن. ثم ذهب إلى النبي ﷺ رأسًا وطرق عليه الباب، ففتح ﷺ

الباب، فما إن دخل أبو بكر حتى سأل النبيَّ ﷺ قائلا: هل ادعيتَ أن الملائكة تنزل عليك وتكلّمك؟ فخطر في بال النبي ﷺ أن أبا بكر صديقه الحميم القديم، وأن عليه أن يشرح له الأمر حتى لا يصاب بالعثرة، فقال: يا أبا بكر، اسمعْ. فقاطعَه أبو بكر وقال: لن أسمعك، فقط أخبرْني أولاً هل قلتَ إن الملائكة تنزل عليك وتكلّمك؟ فقال له النبي: اسمعْ يا أبا بكر، إذ كان النبي ﷺ يخاف أنه لو أجابه بنعم فلعله يتعثر، فحاول أن يمهد لبيان دعواه، ولكن أبا بكر ناشده بالله وقال: لا تخبرني بشيء، بل أخبرْني فقط هل قلت إن ملائكة الله تنزل عليك؟ فلم يجد النبي ﷺ مناصًا بعد إصراره ومناشدته مِن أن يقول: نعم، إن ملائكة الله تنزل عليَّ وتكلّمني. فقال أبو بكر مِن توِّه: فاشهدْ أني بك من المؤمنين. يا رسول الله، كنت تريد أن تقلّل درجة إيماني بتقديم الأدلة على دعواك. لقد رأيت سيرتك وعرفت خصالك منذ مدة طويلة، فلا أحتاج بعدها لأي دليل على صدقك؛ فإني لا أؤمن بك بناءً على دليل آخر، إنما أؤمن بك بسببك أنت (شرح الزرقاني على المواهب اللدنية: باب ذكر أول من آمن بالله ورسوله).

يا ترى، ما الذي جعل أبا بكر يؤمن فورا؟ إنما سببه ما سمعه أهل مكة من اليهود والنصارى على التواتر من أنباء عن بعثته، ولكن لولا تلك الرحلات إلى الشام واليمن ما كان بوسع أهل مكة أن يطّلعوا على هذه الأنباء عن النبي الموعود، ولولا سماعهم لها مرة بعد أخرى لكانت دعوى النبي ﷺ بالنبوة أمرا كبيرا لهم، و لم يجد شخص مثل أبو بكر نفسه مهيّأً للتصديق به. وحيث إن أصواتًا تتناهى إلى آذانهم باستمرار أن في العالم رجالاً يدّعون مكالمة الله وأديانًا تدلي بالأنباء الإلهية، كما أنهم كانوا يسمعون من اليهود والنصارى بكثرة أخبارًا عن قرب بعثة نبي من بين العرب خاصة، وكانت آذانهم تسمع هذا كثيرا، فمهد كل ذلك الطريق لتصديقهم بالرسول ﷺ.

فالحق أن رحلات أهل مكة إلى اليمن والشام كانت إرهاصًا لبعثة الرسول ﷺ، إذ كان القوم يهيَّئون بها لتصديق الرسول ﷺ، ومن أجل ذلك قد جعل الله تعالى سورة قريش بعد سورة الفيل.

التفسير: حيث إن موضوع هاتين الآيتين ﴿لِإِيلافِ قُرَيْشٍ * إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ واحد، فتفسيرهما معًا أنسبُ وأَولى، وهذا ما سأفعله. ونظرًا إلى مختلف المتعلقات المحذوفة للاّم في قوله تعالى ﴿لِإِيلافِ﴾، وشتى المعاني للإيلاف، فيمكن تفسير الآيات بمعانٍ عديدة، وهي كلها ذات صلة فيما بينها.

فأول هذه المعاني: أننا دمّرنا جنود أبرهة وجعلناهم كعصف مأكول لكي نجعل قريشًا مغرمين برحلات الشتاء والصيف. وهذا المعنى يركّز على أن الحفاظ على الرحلتين كان جزءا من الخطة الإلهية؛ فلأن حكمة الله تعالى كانت تريد استمرار الرحلتين، فأهلك أبرهة وجنوده. غير أني قد قلت سلفًا أن هذا لا يعني أن الله تعالى قد دمرهم لهذا الغرض فقط، بل هو أحد الأغراض وراء تدميرهم؛ ذلك أن الفعل يتم لعدة أهداف أحيانًا، وقلت مرارًا بأنه كان لهذا التدمير أهداف عديدة؛ منها الحفاظ على هذه الرحلات. وقد قلت قبل قليل إن أكبر أسباب الحفاظ على رحلاتهم الصيفية والشتوية هو أن نبوءات بعثة الرسول ﷺ كانت محفوظة عند اليهود والنصارى، ولكن نبوءات إبراهيم عليه السلام المتعلقة بمجيئه ﷺ لم تكن محفوظة عند أهل مكة، بل كانوا قد نسوا معظمها بمرور الزمن الطويل، فكان ضروريا أن يُذَكَّروا بها بالاحتكاك بتلك الأمم.

علمًا أن إبراهيم عليه السلام لم يكن نبيًا تشريعيا، بل كان تابعًا لنوحٍ عليه السلام الذي كان نبيًا تشريعيا. نحن لا نتحدث هنا عن الشرائع التي نزلت في البلاد الأخرى، إنما نتحدث هنا عن الأمم التي انحدر منها بنو إسرائيل مباشرة، وكان نوح نبيًا تشريعيًا فيها بينما كان إبراهيم تابعا لشريعته، كما كان موسى نبيًّا تشريعيًّا، وكان عيسى تابعا له. كان نوح أول نبي في سلسلته، وكان إبراهيم آخر نبي فيها، مثلما كان موسى أول نبي في السلسلة الإسرائيلية، وكان عيسى آخر نبي فيها. وإلى هذا الأمر قد أشار الله تعالى في قوله ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾(الصافات:٨٤).. أي كان إبراهيم من جماعة نوح و لم يكن نبيا مستقلا، بل كان حلقة من تلك السلسلة النبوية النوحيّة، ولذلك لم يأت بشريعة جديدة. ويتضح من مطالعة التوراة أن

إبراهيم عليه السلام لم يأت بشريعة مستقلة، أما موسى عليه السلام فكلما جاء ذكره ذُكرت شريعتُه أيضا. وحيث إن إبراهيم لم يكن نبيا تشريعيا، فاستمر العمل في زمنه بشريعة نوح عليهما السلام.

أما بعد إبراهيم فبدأت النبوة أولاً في بني إسحاق ثم في بني إسماعيل رغم كون إسحاق الابن الأصغر لإبراهيم، ذلك لأنه كان من المقدر أن يكون محمد ﷺ هو النبي الأخير وأن يكون من بني إسماعيل. كان هناك وعود ربانية لإبراهيم بمجيء الأنبياء والملوك في نسل ابنيه كليهما (التكوين ١٧: ٦ -١٦)، ولو بدأت النبوة أولاً في بني إسماعيل لما تحقق وعد النبوة في بني إسحاق بمجيء خاتم النبيين في بني إسماعيل، إذ كان محالاً أن تبدأ بعد خاتم النبيين سلسلة نبوةٍ جديدة، ومن أجل ذلك بدأت النبوة في أولاد إبراهيم ببني إسحاق لكي ينتهي دورهم، ثم تبدأ سلسلة نبوة بني إسماعيل، لأن نبيَّ بني إسماعيل كان سيظهر بصفته خاتَمَ النبيين.

وقد ظهر موسى في سلسلة بني إسحاق بعد إبراهيم بفترة تتراوح ما بين أربعة إلى ثمانية قرون بحسب مختلف التواريخ والتقديرات، ولكن لما كان الفاصل الزمني بين عيسى ونبينا ﷺ ستة قرون فيمكن القول قياسًا عليه أن الفاصل الزمني بين إبراهيم وموسى أيضًا كان ستة قرون، ثم قياسًا على ذلك يمكننا القول أن الفاصل الزمني بين نوح وإبراهيم هو ١٤ قرنا كما كان الفاصل الزمني بين موسى وعيسى ١٤ قرنا.

والمهم، لقد ظهر موسى بعد إبراهيم بستة قرون، واستمر العمل بشريعة نوح في تلك الفترة كلها، ولما انمحت شريعته تماما بمرور الأيام نزلت شريعة جديدة في بني إسرائيل على موسى، أما بنو إسماعيل فلما كان من المقدر أن يكون النبيّ الموعود لهم خاتم النبيين ويظهر عند انتهاء السلسلة الموسوية، فلذلك نزلت الشريعة في بني إسحاق من جديد، مما ساعدهم على تذكُّر الأنباء المتعلقة بالنبي الموعود. أما بنو إسماعيل فلم تنزل فيهم شريعة جديدة، فظل جانب الدين يضعف فيهم باستمرار حتى انمحت الشريعة من بينهم كلية. كانوا يعيشون في البراري والفلوات منعزلين عن باقي الأمم، ثم كانوا غير متعلمين يجهلون القراءة والكتابة لدرجة أنهم ما كانوا

يقدِّرون الشخص الذي يعرفهما. لم يكن في مكة كلــها إلا ٥ أو ٦ أو ٧ أو ١١ شخصًا يعرفون القراءة والكتابة بحسب مختلف الروايات، ولكن ما قيمــة هــذه الأعداد من المتعلمين في مدينة يتراوح عدد سكانها ما بــين ١٥ و ٢٠ ألفــا؟ و لم يسمح القوم لهؤلاء بالتعلم إلا من أجل المراسلة مع الدول والحكومات الأخــرى وكتابة المعاهدات معها.. أي أنهم ما سمحوا لهم بالتعلم إلا من أجــل الــضرورة القومية، وإلا فما كانوا يرونه عملا محترما؛ إذ كانوا يرون أن القــراءة والكتابــة تُضعف الذاكرة. وهذا صحيح إلى حد ما، إذ إن القراءة تُضْعِف الرغبةَ في الحفظ. الواقع أن العرب كانوا مشغوفين بالأدب. إنهم لم يكونوا متعلمين، ولكنهم كــانوا يحفظون آلاف الأبيات، وقوة ذاكرتهم راجعة إلى عدم القراءة. ولكنهم كــانوا لا يستطيعون حفظ الأمور من خلال الكتابة لفقدان التعليم بينهم، ولذلك انعــدمت شريعة نوح عليه السلام من بينهم حتى نسوا نبوءات إبراهيم وتفاصيلها المتعلقة ببعثة النبي القادم. لا شك أن تلك النبوءات كانت عندهم، ولكن تفاصيلها غابت شيئا فشيئا بسبب جهلهم وطول الزمن. كانوا يعلمون فقط أن جدهم إبــراهيم عليه السلام قــد أسكنهم في مكة إذ كان رقيهم منوطًا بالبقاء هناك. شأنهم في ذلك شأن أبناء قبيلة (ساهنسي) في بلادنا الذين يقولون إن آباءنا قد تنبأوا بأننا سنحكم الهند في يوم من الأيام، ولكنهم لا يذكرون أي علامات ولا آثار ولا تفاصيل تحدد زمن تحقق هذه النبوءة المزعومة. فكان أهل مكة يعلمون فقط أن جدهم إبراهيم قد أســكنهم في مكة لأن تقدمهم موقوف على إقامتهم فيها، ولكنهم كانوا قد نسوا ما أدلى بــه نوح وإبراهيم من أنباء عن ظهور النبي الموعود لهم. هذه الأنباء وتفاصيلها كانــت محفوظة عند اليهود والنصارى، ولذلك لما رأى الله تعالى أنهم جــاهلون و لم يبــقَ عندهم شيء من شريعة نوح وإبراهيم، هيّأ الأسباب لاحتكاكهم واتصالهم باليهود والنصارى، فألقى في قلب هاشم بن عبد مناف فكرة خروج القوافــل التجاريــة لقريش إلى اليمن والشام لكي يتحسن وضعهم الاقتصادي، ويتمكنوا من الاتصال باليهود والنصارى، فيطّلعوا -مرة بعد أخرى- على الأنباء المتعلقة بظهور محمــد صلى الله عليه وسلم.

والمعنى الثاني لقوله تعالى ﴿لِإِيلاَفِ قُرَيْشٍ * إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ هو: اعجبْ يا محمد كيف ألقى الله تعالى في قلوب قريش حبَّ رحلات الشتاء والصيف.. أي كيف حفَّزهم على هذه الأسفار. وهذا المعنى مختلف عن المعنى الذي ذكرتُه من قبل، إذ المعنى السابق هو أننا حفزناهم على رحلات الشتاء والصيف لنهيئهم للدخول في دين محمد ﷺ، أما هذا المعنى فيشير إلى حكمة أخرى، وهي أننا جعلنا هاشما يشير على قريش بأنهم إذا لم يخرجوا للأسفار التجارية فسيموتون جوعًا، ويصبحون أذلةً بين الأمم الأخرى. فنحن الذين دبّرنا لرحلاتهم في الصيف والشتاء، إذ لم يكن عندهم إيمان حقيقي، إنما ظلوا مقيمين هنالك بسبب طقوسهم وعاداتهم الشعبية فقط، ولو استمر هلاكهم جوعًا وفاقة هكذا فترة أطول، فكان هناك احتمال أن يضطروا للهجرة منها ثانيةً، لذلك يقول الله تعالى هنا ما معناه: "نحن ألقينا خطة الرحلات التجارية في قلب هاشم ليظل أهل مكة مقيمين فيها"، وإلا فإن التاريخ يكشف لنا أن آلاف الشعوب هاجرت من بلد إلى آخر من أجل معاشها. فهؤلاء الآريون الذين يدّعون اليوم أنهم أصحاب الهند الأصليين، قد هاجروا من التبت والصين وغيرها من المناطق واستوطنوا في الهند (تمدن هند ص٢٤٠)، بينما هاجر بعضهم من ديارهم الأصلية واستوطنوا في أوروبا. أما الشعوب المغولية فبعضها ذهبت وأقامت في تركيا وبعضها في فنلندا، كما تجد المجرَ مليئةً بالمغول والأتراك، ثم إن المغول يوجدون في المناطق الواقعة شمال الصين (أعني منغوليا وغيرها)، بل يرى البعض أن منغوليا هي البلاد الأصلية للمغول (أردو دائرة معارف إسلام، تحت كلمة: مغل)، ومنها انتشروا حتى جاء بعضهم واستوطنوا الهند. والحال نفسه بالنسبة إلى الأفغان الذين نناديهم في الهند باسم "خان صاحب"، فقد جاءوا من بلدهم أفغانستان بحثًا عن لقمة العيش؛ بعضهم لتحسين وضعهم الاقتصادي وبعضهم فرارًا من ويلات الجوع. إذنْ فهناك آلاف الشعوب والأمم التي خرجت من بلادها، واستوطنت بلادا أخرى لأسباب معيشية، ولولا خروج أهل مكة في الرحلات التجارية فكان من الممكن تمامًا أن يضطرهم ضيق المعاش إلى مغادرتها. لا شك أن قصي بن كلاب جاء بهم وأسكنهم

هناك مرة أخرى، لكن كان من الوارد أن يخرجوا من مكة ثانيةً لنفس المشاكل المعيشية التي اضطرهم للهجرة منها أول مرة. لم يكن عندهم يقين بالله تعالى، و لم يكن أمامهم آيات ومعجزات، وما كانوا يعرفون الله تعالى، بل كانوا يعبدون الأصنام ليل نهار، ومع ذلك ظلوا مقيمين هناك. أليس قدر الله هو الذي جعلهم يقيمون هنالك ولا يخرجون منها رغم الظروف القاهرة، ثم أخيرًا حفَّزهم على الرحلات التجارية ضمانًا لرزقهم؟ فجعل فئة منهم تخرج في هذه الرحلات لتكسب الرزق لهم ولمن خلفهم، حتى أصبحوا أحسن معيشة من القبائل الأخرى. لم تكن هذه الرحلات طويلة، إنما كانوا يرجعون منها بعد شهرين أو ثلاثة ليعيشوا باقي الأيام في مكة. ثم لم يكن أهل مكة كلهم يخرجون للتجارة، بل يخبر التاريخ أن قوافلهم التجارية كانت تضم ٢٠٠ أو ٣٠٠ شخص من بين سكانها البالغ عددهم ١٥ أو ٢٠ ألفا، وقد كان عدد الشباب منهم ما بين ٣ و ٤ آلاف، ولو أضفنا إليهم الشيوخ لصار عددهم ٥ أو ٦ آلاف، الذين لم يكن يخرج منهم في القوافل التجارية إلى الشام أو اليمن إلا ٢٠٠ أو ٣٠٠ (تفسير الرازي). أما الباقون فيظلون في مكة لخدمة الذين يأتون للعمرة وغيرها. لقد ورد في الحديث صراحة أنه لم يكن كل أهل مكة يخرجون في السفر، حيث ورد عن أثرياء مكة أنهم كانوا يقضون الشتاء في مكة والصيف في الطائف، لأن الطائف منطقة جبلية باردة (جامع البيان للطبري). إذن، فلم يكن يخرج في هذه الرحلات التجارية إلا جزء من سكان مكة، ولكن هذا السفر كان يضمن المعيشة للجميع، وكانوا يقومون بخدمة الكعبة.

لما حان وقت تعليم سيد مير محمد إسحاق المحترم الذي يصغرني بسنتين إلا ربع السنة، ذهب أبوه -وهو جدّي لأمي- لاستشارة الخليفة الأول ﷺ، فأشار عليه أن

يعلّمه الدين قائلا: لقد علّمتَ أحد ابنيك الدنيا●، فعلِّمْ ابنك هذا الدينَ. فقال جدي المرحوم مِن عنده -أو بناءً على ما قالته جدتي بحسب رأيي: إذن، سيعيش هذا على لفاظات مائدة أخيه. فقال الخليفة الأول ﷺ: إن الله تعالى يرزق البعض بسبب البعض، فلماذا تقول إنه إذا قام بخدمة الدين عاش على لفاظات مائدة أخيه، بدل أن تقول إنه إذا خدم الدين فإن الله تعالى سيبارك بسببه في رزق أخيه؟ ثم حكى له قصة سيدنا أبي هريرة ﷺ بأنه لما أسلم أحبَّ البقاء في مجلس الرسول ﷺ لسماع كلامه، فكان يظل جالسًا في المسجد ليلَ نهارَ لكي يسمع كلام الرسول ﷺ حين يخرج من بيته. ولكثرة ما رواه أبو هريرة من أحاديث يظنّ الناس أنه صحابي قديم، مع أنه لم يُسلِم إلا قبل وفاة الرسول ﷺ بثلاث سنوات، ومع ذلك كان أكثر رواية للحديث من الجميع (أسد الغابة ج٥ ص٣٢٢). ولعل هذا السبب في أن الناس لا يعرفون الصحابة القدامى ولكنهم يعرفون أبا هريرة، حيث يرد في الحديث مرارا "عن أبي هريرة" و"قال أبو هريرة". باختصار، قد أسلم أبو هريرة متأخرا جدا، ولكنه كان متحمسًا لتعلم الدين، فلما آمن صمّم على البقاء في مجلس الرسول ﷺ كل الوقت قائلا في نفسه: لقد سمع الآخرون الكثير من كلام الرسول ﷺ وأما أنا فتأخرت في الإيمان به، فلن أغادر مجلسه أبدا. فكما أن قريشا جاءت إلى مكة ولم تتركها، كذلك جاء أبو هريرة ولازم المسجد وتعهد أن يقوم بخدمة الدين كيفما استطاع ولن يقوم بأي عمل دنيوي. وكان له شقيق قد أسلم، فظل يُحضِر له الطعام إلى المسجد فترة من الزمن لقوة إيمانه. علمًا أن طعام العرب كان بسيطا جدا، إذ كانوا يأكلون بضع تمرات ويشربون قليلاً من الماء، أو يتناولون قليلا من اللحم المجفف ويشربون بعض الماء، ويعتبرونه غذاء كافيا لهم، (ابن ماجه، كتاب الأطعمة). فلم يكن صعبًا على شقيق أبي هريرة إطعامه، ولكن حماسه خمد

● يقصد بالابن الأول حضرة سيد مير محمد إسماعيل ﷺ الذي صار طبيبا، وكان من العارفين الربانيين، أما حضرة سيد مير محمد إسحاق ﷺ فصار من كبار العلماء الربانيين وكان أستاذا لحضرة مولانا جلال الدين شمس ولحضرة مولانا أبي العطاء الجالندهري رحمهما الله. (المترجم)

بعد فترة وسئم إيصال الطعام له في المسجد -علمًا أن أبا هريرة كان من عائلة مسيحية وكانت أمه مسيحية- فجاء أخوه إلى النبي ﷺ وقال يا رسول الله، قُلْ لأبي هريرة أن يعمل ويكسب، فإنه يقضي كل النهار في المسجد ولا يقوم بأي عمل. فقال له النبي ﷺ: لعلك تُرزَق بسبب أخيك. وهذا ما ذكَّر به الخليفةُ الأول جدَّنا المرحوم، فقبِل نصحه وعلّمه الدين بدلاً من التعليم المادي.

إذن، فقد كانت تخرج مجموعة من أهل مكة في هذه القوافل التجارية لكسب الرزق، أما باقي القوم فيمكثون في مكة، فكان الله تعالى يبارك في تجارة أهل القافلة، فكانوا هم والباقون من أهل مكة يعيشون على ما يربحون؛ إذ كانوا يوزِّعون أرباحهم على الآخرين. وهذا العمل لم يكن شيئا عاديا، فكم حالة كهذه تجد في الدنيا؟ لو كان هذا تدبيرا بشريا محضا، فيجب أن نرى في الدنيا من يعملون مثلهم. من المستحيل أن نجد مثيلاً لأهل مكة في هذا المجال. خذوا جماعتنا مثلاً، فكم منهم يلبّون نداءنا لنذر الحياة لخدمة الدين؟! إنهم يدَّعون أنهم هم مصداق قوله تعالى ﴿وآخَرينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾(الجمعة:٤)، وأنهم الجماعة الموعودة عند البعثة الثانية للرسول ﷺ، ولكن كم منهم ينذرون حياتهم لخدمة الدين؟ إن الاستهانة بإنجاز الآخرين سهل، أما الاعتراف بالحقيقة فشيء آخر. يمكن لقائل أن يقول أن ما فعله أهل مكة شيء بسيط، ولكن السؤال: كم من الناس يفعلون اليوم ما فعل أهل مكة؟ أو كم منهم مستعدّون للعمل مثلهم؟ عندما اكتشف كولومبس أمريكا أخذ الناس يسخرون منه حسدًا ويحتقرون إنجازه، فحيثما ذهب طعنوا فيه قائلين: يقال إن كولومبوس قام بإنجاز كبير! لقد أبحر في سفينته فوجد أمامه بلدًا، فأي اكتشاف هذا؟ كان كولومبوس ذات مرة في مأدبة طعام حضرها أناس كثيرون، فأخذوا يستهزئون به محتقرين اكتشافه، فأخرج من جيبه بيضة وتحداهم أن يثبّتوها طوليًّا على الطاولة، فحاول بعضهم باذلين كل ما في وسعهم ولكن بدون جدوى، فأخرج كولومبس من جيبه إبرة وثَقَبَ بها البيضة، وأراق شيئًا من مائها اللزِج على الطاولة، ثم ثبَّت به البيضة. ثم توجه إليهم وقال: كنتم تزعمون أن كولومبوس أبحرَ ناحية أمريكا فاكتشفها، ولكن لم تتح لنا هذه الفرصة ولذلك لم

نكتشفها. وكنت قد منحت لكم الآن فرصة تثبيت البيضة على الطاولة ولكنكم فشلتم في ذلك. (Admiral of The Ocean Sea, V. 1 P. 349).

فالواقع أن إنجاز شيء صعبٌ، وأما الاستهانة بإنجاز الآخرين فسهل جدًا. لو كان هذا الأمر بسيطا فلماذا لم يفعل أحد في العالم ما فعل أهل مكة؟ هل توجد في الدنيا قرية يعمل أهلها ما عملت قريش، فيكسب بعضهم الرزق ليطعموا البقية قائلين لهم: امكثوا مكانكم مطمئنين، فنحن نكسب لكم ونطعمكم. كلا، بل إن ما رأيناه هو أن بعض عديمي الحياء من الأحمديين أيضًا يقولون بمنتهى الجسارة: ما قيمة هؤلاء الدعاة! إنهم لا يعملون مجانا، بل يأخذون رواتب. لم لا يقول أحد لعديمي الحياء هؤلاء: لا تعملون للدين مجانا، ثم لا ترضون لأحد أن يعمل للدين مقابل راتب، فمن ذا الذي سيعمل له إذن؟ لا شك أنه سيصبح مهملا. الحق أن الدعاة أيضا يستطيعون كسب رزقهم مثل الآخرين، والزعم أنهم إنما توجهوا إلى الدين لأنه ما كان بوسعهم بسبب فقرهم أن يتعلموا أو يحرزوا رقيًا ماديًا، لهو زعمٌ باطلٌ ويدل على جهل صاحبه. كان والد الدكتور الشاعر "إقبال" إنسانًا بسيطا جدا إذ كان يصنع القلانس، ولكن صار أحد أبنائه مهندسًا بينما صار الآخر علامةً دكتورا. وكان السير سيد أحمد خان- مؤسس جامعة عليكره الشهيرة في الهند- شديد الفقر، ولكنه تقدّمَ في الدنيا ونال من العز ما نال (حيات جاويد ص٩٥). فالقول إن الدعاة توجّهوا إلى الدين لأنهم ما كانوا قادرين على التقدم في الدنيا قولٌ باطل تماما، إذ هناك أمثلة كثيرة للفقراء الذين أحرز أولادهم مكانة مرموقة في الدنيا.

ثم إن الذي قد أثبت جدارته في الدين يستطيع أن يثبت جدارته في الدنيا أيضا، لكنه آثر العمل لله تعالى مُعرضًا عن الدنيا وزُخرفها.

الواقع أن البعض يثيرون هذا الاعتراض على دعاتنا حسدًا وغضبًا حين يقال لهم: لماذا لا تخدمون أنتم الدين. والحق أن طعنهم هذا هو منتهى الوقاحة.

فالقول إن أهل مكة إنما بدأوا رحلة الشتاء والصيف لتحسين حالتهم الاقتصادية أو معيشتهم وليس في ذلك أية تضحية، لقولٌ يدل على قلة التدبر في الأحداث.

فإذا كان كل إنسان يستطيع ذلك كما يزعمون فالسؤال هو: لماذا لم تفعل الأمم الأخرى ما فعلتْه قريش؟

الواقع أننا لو اعتبرنا فعلهم هذا نتيجة ميزة ذاتية فيهم، لكان معنى ذلك أنهم كانوا أكثر صلاحًا من أي جماعة أخرى، إذ فعلوا -مع كونهم كافرين لا دين لهم- ما لم يفعله كثير من المسلمين، بل كثير من جماعتنا. فهل من شك في أنهم سبقونا بل سبقوا صحابة الرسول ﷺ أيضًا في هذه التضحيات؟ فما داموا قد سبقوا صحابة الرسول ﷺ وأتباع المسيح الموعود عليه السلام في هذا المجال، فهل بقي مِن شك في أن إيلاف قريشٍ رحلةَ الشتاء والصيف كان آيةً أظهرها الله تعالى. لقد كان خطّةً سماوية كشفها الله تعالى. ما كان أهل مكة قادرين على ذلك، إنما كان هذا آية ربانية، بل كان معجزة من قدرة الله تعالى الذي أراد أن يبعث محمدا ﷺ في مكة. وهذا هو الأمر الذي أبرزه الله تعالى هنا بأن هؤلاء القوم -مع كونهم مشركين لا دين لهم وبعيدين عن الروحانية- قد فعلوا ما لم يفعله أي شعب في العالم قط. فكأن الله تعالى يقول إنهم لم يفعلوه بقدرتهم، إنما فعلوه بقدرته وتصرفه عز وجل. لم تكن تضحيتهم راجعةً إلى خصال ذاتية فيهم؛ لأن الناس رغم خصالهم العظيمة يتشتتون من مراكزهم هنا وهناك جراء ويلات الجوع والعطش، لذلك لا نملك إلا أن نسميه تصرفًا وتدبيرا من الله تعالى. غير أن هذا لا يعني ألا نتأسى بأسوتهم بحجة أن ما فعلوه لم يفعلوه بأنفسهم وإنما فعلوه بتصرف رباني. كلا، بل علينا أن نسعى جاهدين للتأسي بهم في هذه التضحية، وما لم نفعل ذلك لن نستطيع أن نُحدث انقلابا عظيما في الدنيا. لا شك أن الصحابة أحدثوا انقلابا عظيمًا في العالم، ولكنهم لم يستطيعوا ذلك إلا من خلال تقديم تضحيات مماثلة للتي قدّمها أهل مكة. ولو أنهم بلغوا في تضحياتهم المستوى الذي بلغه أهل مكة كمعجزة من الله تعالى تمهيدًا لظهور محمد ﷺ، لأحرزوا رقيًا أعظم، ولأرسوا أُسس الإسلام بقوةٍ أكبر، ولقضوا على الكفر بشكل أشملَ وأكملَ. ومن واجب أبناء جماعتنا أن يتفحّصوا أنفسهم وأعمالهم. إنهم إذا لقوا الذين هم ليسوا من جماعتنا قالوا لهم: انظروا كم تضحّي جماعتنا، وكيف ينذر شبابها حياتهم لخدمة الدين؛

وذلك لأن هذا يزيدهم عزًّا أمامهم، وإذا خلوا إلى زملائهم قالوا فيما بينهم: ما قيمة هؤلاء الدعاة والمشايخ؟! فإنهم يعملون مقابل رواتب! والحق أنه لو بلغ أبناء جماعتنا كلهم ذروة المستوى الذي بلغه أهل مكة في التضحية لانتشرت دعوتنا في الدنيا انتشارا مذهلا. إنّ دخْل أفراد جماعتنا الشهري يبلغ في تقديري ما بين مليونين ونصف وثلاثة ملايين روبية، ولست مخطئًا في هذا التقدير إذ إنني عندما دعوتُ الجماعة إلى التبرع في "صندوق حماية قاديان" مؤخرًا، فقد بلغت وعودُ تبرعاتهم مليونًا وثلاثمائة وخمسين ألفًا بحسب دخلهم الشهري، مع أن كثيرا من أبناء الجماعة لم يساهموا في هذا الصندوق، إضافةً إلى أن البعض لا يذكرون لنا دخلهم الصحيح؛ فإني أعلم شخصًا هو أكثر مني مالاً وعقارا، ولكنه أقل مني تبرعًا بكثير، ولعل ذلك نتيجة خطأ في تقدير أملاكه أو ضعف إيمانه. المهم، إنني أرى أن دخل أبناء جماعتنا الشهري هو أكثر من مليونين ونصف أو ثلاثة ملايين وليس أقل من ذلك. ولو قلنا إن دخلهم الشهري هو مليونين ونصف، ولو تبرعوا بـ ٥٠% من الدخل، لكان تبرعهم مليونًا وربع مليون، وإذا دفعوا ٥١% لكان تبرعهم مليونًا وثلاثمائة ألف. أما أهل مكة، فرغم كونهم مشركين غير مؤمنين، كانوا كلهم يُخرجون نصف دخلهم من أجل الضرورات القومية، أي ليوزَّع هذا المبلغ على فقرائهم لتظل مكة عامرة. لم يكن في قلوبهم إيمان، و لم يكن عندهم قرآن، و لم يكن عندهم خطة معينة للنهوض بالقوم، ولا هدفٌ سامٍ آخر، كل ما في الأمر أن قصيّ بن كلاب قال لهم إن أبانا إبراهيم قد أوصانا بالإقامة في مكة، فتعالوا نجتمع هنالك لتظل عامرة. فيا أبناءِ جماعتي، كم هو صغير هدفهم أمام هدفكم السامي؛ إذ تهدفون إلى فتح العالم، وتوطيد حكم محمد ﷺ بل حكم الله في الدنيا، ولكن انظروا كيف كان كل شخص من أهل مكة يعطي نصف أمواله لتحقيق هدفهم الضئيل قائلا: هذا المال لفقرائنا، كي لا يهاجروا من مكة فتظلّ عامرة، ولكنكم لا تقدّمون نفس التضحية لهدفكم الأسمى هذا. لو قمتم بمثل تضحيتهم لبلغ دخل جماعتنا السنوي ما بين ١٢ إلى ١٥ مليونا. ويمكنكم أن تقدّروا مدى إنجازاتنا

وسَعة دعوتنا لو بدأ أبناء جماعتنا يضحّون بقدر تضحية أهل مكة، أو نصفها أو ربعها.

لا جرم أن الصحابة قد قدّموا تضحيات جسيمة حين هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، ولكن لا شك أيضًا أن المسلمين لم يستطيعوا الحفاظ على هذا المستوى العالي من التضحية الجماعية لزمن طويل. لقد نشبت الفتنة في عهد سيدنا عثمان ؓ، ولنفترضْ جدلاً أنها نشأت لخطإٍ، ولكن هل يمكن إنكار أن الناس ثاروا عليه؟ إنهم لم يفكّروا أنهم مهدّدون بالهلاك الجماعي، وإنما فكّروا فقط أنهم على الحق وأنهم لن يتخلّوا عنه. لقد خرج على عثمان ؓ بعضُ الصحابة أيضًا، وبغَضِّ النظر عما إذا كانت مكانتهم عالية أم لا، إلا أنهم كانوا يسمَّون صحابة في كل حال. ثم في عهد سيدنا عليّ ؓ أيضا نرى أن الصحابة -مهما كانت درجتهم ضئيلة- خرجوا لحربه ؓ. ولنفترضْ جدلاً أنه ؓ كان على الخطأ تماما، ولنفترضْ أيضا أنه لم يستحقّ الخلافة قطعًا، ولكن خلافته ما كانت لتضرّ بالإسلام أبدًا، أما ضعفه فكان سيضرّ بالإسلام حتمًا، ولكنهم لم يدركوا هذا الأمر الواضح الجليّ، فأخذوا يحاربونه. كان الإسلام قد فتح نصف العالم في عهد الخليفتين الأوّلين، ولو ترك هؤلاء الأمورَ تجري بهدوء في عهد الخليفتين التاليين لانتشر الإسلام في باقي المعمورة ولم يقع ذلك الفساد والدمار والهلاك، ولكنهم لم يتمالكوا أنفسهم، إنما أصرّوا على أنهم على الحق وأنهم لن يتخلّوا عن حقهم، مع أنه كان من الصحابة مَن لم يُرِد الإشارة إلى حقه مخافة الفتنة. يروي عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- أنه كان جالسًا في المسجد جلسةَ الاحتباء، إذ جاء معاوية وقام خطيبا فقال: أرى أن ابني يزيد أَولى بالخلافة بعدي، فهو يملك كل الكفاءات الضرورية للحاكم، ولذلك أُعلن خلافته بعدي، فهل بينكم مَن يرى أنه أحق منه بالخلافة؟ يقول عبد الله بن عمر: فحَلَلْتُ حِبوتي لأقف وأقول له: إن الأحقّ بهذا المنصب مِن ابنك مَن كان أبوه يحارب في سبيل الإسلام حين كان أبوك كافرا، وكان هو نفسه يحارب دفاعًا عن الإسلام حينما كنتَ كافرًا، ولكنني فكرتُ أن لا فائدة في ذلك

للمسلمين، وإنما يزيدهم فرقةً، ولا يحق لي أن أضر بالإسلام وأعيق ازدهاره لمصلحة شخصية (البخاري، كتاب المغازي).

هذه هي التضحية الحقيقية، ولو أن المسلمين كلهم -صغارهم وكبارهم- أدركوا هذا الأمر لما تعرض الإسلام للفُرقة التي هزّت قواعده. لا شك أنهم كانوا على الحق في كثير من الأمور، ولكن على الإنسان أن يضحّي بحقه في كثير من المواقف. إذا كان المرء يصبو إلى هدف أسمى فلا ينفعه عندها شيء إلا التضحية وحدها. ولو أن المسلمين عملوا بهذا المبدأ و لم يقدّموا مصالحهم الشخصية على مصلحة الأمة لازدهر الإسلام ازدهارا يفوق التصور. ولكن المؤسف أن بعضًا منهم في زمن الخليفتين الأخيرين لم يستطيعوا أن يقدّموا تضحية بمستوى تضحية أهل مكة التي كان نتاجها ظهور النبي ﷺ.

باختصار، لا نجد في تاريخ العالم كله مثالاً واحدا بأن مجموعة من الأمة ظلوا قرونًا يكسبون للآخرين وينفقون عليهم مغلقين في وجوه أنفسهم كل طرق الرقي الشخصي، وذلك لكي يظل البيت الذي يرونه بيت الله تعالى عامرًا. لا شك أننا يمكن أن نجد أمثلة فردية لمثل هذه التضحية، ولكن لن نجد مثالاً واحدا لجماعة قاموا بمثل هذه التضحية المذهلة المتواصلة فترة طويلة. والحق أن الدنيا لن تجد حلا لمشاكلها بدون تضحية كهذه.

هناك سؤال يفرض نفسه هنا: لماذا أنزل الله تعالى سورة (لإيلاف قريش)؛ فإن ما فعلتْه قريش قد ولّى زمنه، وجاء زمن محمد ﷺ، ومدحُ قريش هكذا سوف يزيدهم بطرًا وكبرًا إذ يقولون: كيف يسمّينا أحد كفارا وقد قدّمنا هذه التضحية الرائعة؟ فلماذا أثنى الله عليهم يا ترى؟

والجواب: إنما مدحهم الله تعالى حثًّا للمسلمين على التأسي بأسوقم في التضحية. هناك مثل في لغتنا البنجابية مفاده: إذا أرادت الحماة وعظ كِنَّتِها لامت ابنتَها هي لتسمع الكِنّة كلامها فتتّعظ. كذلك قد أشاد الله تعالى هنا بتضحية قريش تنبيهًا للمسلمين بأن أمة كافرة وثنية جاءت وسكنت في مكة، وقدَّمت لعمرانها تضحية مذهلة غير مسبوقة في تاريخ العالم كله. لا شك أن الله تعالى هو

مَن وفَّقهم لذلك بقدرته وتصرفه، ولكن فضل الله عليكم عظيمٌ أيضا، فينبغي أن تتعظوا بهم وتقدِّموا في سبيل الإسلام مثل تضحيتهم.

خذوا مثلاً مركزنا في "قاديان"، فإن مجموعة من الأحمديين مقيمون هناك للحفاظ عليه●، وإن أبناء جماعتنا يكيلون لهم المدح أمام غير الأحمديين قائلين: انظروا ماذا فعلنا وماذا فعلتم! لقد هاجرتم جميعا من شرق البنجاب، أما نحن فلا نزال مقيمين هناك محافظين على مركزنا قاديان. ولكن قائل هذا الكلام لا يفكر أن الإقامة في قاديان ليس واجب الأحمديين الآخرين فقط، بل هذا واجبه أيضا. إنه يثني عليهم أمام الآخرين ولكنه إذا دُعي لهذه التضحية هَرَّبَ، مما يوضح بجلاء أنه يريد نيل الشرف فقط، وليس مستعدا للعمل، لأنه إذا جلس بين غير الأحمديين قال لهم: ألم تروْا ما ضربَتْه جماعتنا في قاديان من مثال رائع؟ ألم تروا إلى التضحية العظيمة التي تقدّمها جماعتنا هنالك؟ والسامع يثني على ذلك، ولكنه لا يعلم عن نظام جماعتنا، ولو علِمه لردّ على هذا الأحمدي قائلا: "لا شك أن هؤلاء القوم يقدّمون تضحية رائعة، ولكن أخبرْني بما فعلتَه أنت؟" فالحق أن الأهمّ هنا مساهمتُه في هذه التضحية؟ فإذا لم يساهم فيها فهي ليست مفخرة له، بل هي ملامة عليه. لو أن هذا الأحمدي وأمثاله قالوا للآخرين صراحة نحن لا نريد الذهاب إلى قاديان لحمايتها، فماذا نفعل بتلك الأكوام من الطوب والحجارة هناك، فمهما كان جوابهم باطلا إلا أنهم يستطيعون أن يقولوا أمام الله تعالى أننا لم نفعل إلا ما رأيناه صحيحا بكل صدق وأمانة؛ إذ كنا نرى أن حياة المؤمن أثمن من أن تُزهق دفاعًا عن الآجُرّ والحجارة. ولكنهم ما داموا يثنون على تضحية إخوانهم أمام غير الأحمديين فهذا يعني أنهم يدركون أن هؤلاء يحسنون صنعًا، ولكن عندما يأتي

● *يشير حضرته ﷺ إلى أيام انقسام الهند وتأسيس دولة باكستان في ١٩٤٧ حين اضطر أفواج من المسلمين للهجرة إلى باكستان، واضطر حضرته أيضًا للهجرة من قاديان تاركًا وراءه مجموعة من أبناء الجماعة للدفاع عن مركزها ضد هجمات الهندوس والسيخ. (المترجم)*

دورهم للتضحية يتخلّفون عنها قائلين: ما دام الآخرون يضحّون فلا داعي أن نضحّي نحن.

إذن، لم يُنزل الله تعالى قوله: ﴿لِإِيلافِ قُرَيْشٍ * إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ إلا لتعليمنا، وكأنه تعالى أعلن: "إني مستعدّ لأفعل لكم أيضًا اليوم ما فعلت لقريش بأصحاب الفيل، ولكن يجب أن تقدّموا نموذجا للتضحية قدمتها قريش".

يقابلني كثير من الناس ويقولون متى يعطينا الله قاديان ثانية؟ ومتى يُري لنا آية كآية أصحاب الفيل؟ فأقول لهم: أتعلمون الذين ظهرتْ لهم آيةُ أصحاب الفيل؟ لقد ظهرت للذين قدّموا لقرنين وربع على التوالي تضحية لا نظير لها في تاريخ العالم. لقد أزهقوا أرواحهم ولكنهم لم يتركوا مكة. كان يعانون ويلات الجوع أيامًا وأيامًا حتى يُنهِكهم، فإذا أشرفوا على الموت حملوا خيامهم وضربوها خارج مكة. كان أولادهم وزوجاتهم وإخوانهم وأخواتهم وأقاربهم وأصدقاؤهم يموتون جوعًا أمام أعينهم، ولكنهم ما كانوا يمدّون أيديهم إلى أحد للسؤال، وما كانوا يغادرون مكة أيضًا رغم هذه المحنة. لقد ماتوا واحدا تلو الآخر، وانمحوا، ولكنهم ما تركوا مكة. فإذا قدّمتم أنتم مثل تضحيتهم لرأيتم كيف يُري الله لكم آيةً كآية أصحاب الفيل. كانوا غير مؤمنين ولذلك ظهرت لهم تلك الآية بعد زمن طويل، ولكنكم مؤمنون ولسوف يعجّل الله لكم بهذه الآية، ولكن يجب أن تقدّموا التضحية أوّلاً، ثم يحق لكم أن تقولوا لله تعالى: ربنا لقد قدّمنا التضحية، فالآن أَرِنا الآية نصرةً لنا. ولكن ليس من الأمانة أن تتقاعسوا عن أداء واجبكم وتطالبوا الله تعالى بالوفاء بوعده. إن الله تعالى يفي بوعده حتمًا، فهو أصدق الصادقين، ولكنه لا يُري آيته لعبده إلا بعد أن يقدّم التضحية. فالسؤال هنا: أتتحلى جماعتنا بهذه الروح والحماس للتضحية؟ اعلموا أننا لن نحرز أي نجاح ما لم يتولد فينا هذا الإحساس، وما لم نرسّخه في أذهان إخواننا الآخرين أيضا. ماذا يمكن أن يفعله الخليفة وحده؟ إنه لا يستطيع أن يذهب إلى بيت كل واحد من نصف مليون أو مليون من أتباعه لنصحهم ووعظهم. إنما سبيله أن الذين يسمعونه يبلّغون كلامه

لغيرهم، وهم بدورهم يبلّغون الآخرين. ولكن هذا محال ما لم تضطرم في قلوبهم النار التي تضطرم في قلب الخليفة، وما لم تتولد في قلوبهم الرغبة العارمة لذلك كما هي في قلبه، وما لم يمسك كل أحمدي بيد أخيه قائلا له: يا أخي أنت مصاب بخطأ كذا فأصلحْه من فضلك. لقد اتّبع الرسول ﷺ أيضا الأسلوب نفسه عندما اقترب أجله حيث قال في خطبته يوم حجة الوداع في وصيته الأخيرة للمسلمين: "فَلْيُبلِّغِ الشاهدُ الغائبَ" (البخاري، كتاب الحج).. أي لقد بلّغتُكم وصيتي ولكنها لا يمكن أن تصل إلى آذان الجميع، إنما تصلهم إذا نقل كل من يسمع كلامي للآخرين. هذا هو سرّ رقي الأمم، هذا ما تحيا به الأمم، هذا ما تنتصر به الشعوب في العالم، وإلا فإن الخليفة خليفة وليس بإله. فمثلاً إن ما أقوله الآن لا يسمعه إخواننا في كراتشي، ولا مئات جماعاتنا في السند، ولا يسمعه آلاف جماعاتنا المنتشرة في البنجاب، ولا عشرات جماعاتنا في إقليم "سَرْحَد"، كما لا يصل صوتي إلى أبناء مئات جماعاتنا في الهند والباكستان الشرقية. لا شك أن خطبي هذه تُطبع، ولكن ليس تأثير المكتوب كتأثير المسموع. وما دام الشخص الواحد لا يستطيع إيصال صوته للجميع، فما هو السبيل الذي يتم به إصلاح الناس؟ إنما سبيله أن يعتبر كل أحمدي نفسه مسؤولاً عن إصلاح الآخرين. عليه أن يعكف على إنجاز هذا العمل مستعدًّا لأكبر تضحية في سبيله. ولو فعلتم ذلك لنزل عليكم فضل الله تعالى من السماء، ولرأيتم النجاح ماثلاً أمام أعينكم. إن عددنا لا بأس به بفضل الله تعالى، ولو تحلّينا بالحماس الحقيقي للتضحية بالنفس لنشرنا الدعوة في العالم كله، بل رفعنا لواءَ الإسلام في العالم كله مرفرفًا.

والمعنى الثالث لقوله تعالى ﴿لِإِيلافِ قُرَيْشٍ * إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ أن الله تعالى بفضله ومنته قد ألقى في قلوبهم حبَّ رحلة الشتاء والصيف التي جلبت لهم رزقًا وفيرا، وأتاحت لهم فرصة الاتصال بالأمم المتمدنة، فليشكروا الله على هذه المنّة العظيمة، وليعبدوا رب هذه الكعبة. كأنما أشار الله تعالى هنا إلى أن معاملتنا الخاصة هذه ليست بسبب ميزة ذاتية فيكم، وإنما غرضها أن تخدموا الكعبة. ذلك أنه إذا ذكرتَ نتيجة عملٍ، لاعتُبرت هي السبب الحقيقي وراءه،

فمثلا إذا أعطى السيد خادمه أجرًا، ثم عصاه الخادم يومًا، قال له السيد: نحن ندفع لك الأجرة، فعليك أن تطيعنا، فهذا يعني أن الهدف من أجرته هو الطاعة لسيده، كذلك قد بيّن الله تعالى في قوله ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ نتيجةَ إيلاف قريش، فكأنه تعالى قال: لقد قمنا بإيلاف قريش رحلةَ الشتاء والصيف ورتّبنا عليها أطيبَ النتائج، فعليهم الآن أن يعبدوا رب هذا البيت؛ فحرف الفاء هنا يدل على أن هذا الإنعام والإكرام والاحترام إنما غرضه أن يُنشئوا صلتهم برب هذا البيت.

هذا المعنى مبني على رأي كثير من النحاة الذين يرون أن المتعلق للام في ﴿لِإِيلافِ﴾ هو قوله تعالى ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾، فكأن الله قال لقريش: إننا نخصكم بهذه المعاملة المميزة لكي تعمروا هذا البيت وتذكرونا دائما، وهكذا قد نبّههم أن لا يظنوا أنه يعاملهم هكذا لميزة ذاتية فيهم، وذلك كما ظن اليهود أن الله تعالى يعاملهم بلطفه وكرمه دائمًا لأنهم أحباؤه، فقد ورد في القرآن الكريم أنهم قالوا لن يعاقبنا الله تعالى إلا أيامًا معدودة؛ فمنهم من ظن أنه لن يدخل من نسل إبراهيم في النار أحد، ومنهم من قال أنهم لن يعاقَبوا إلا ١١ شهرا، وسوف يخرجون من النار في الشهر الثاني عشر، ومنهم من زعم أنهم لن يعاقبوا إلا ٤٠ يوما، أو ١٢ يوما، بل سبعة أيام فقط (البحر المحيط)، ومنهم من ادعى أن أحدنا حين يؤخذ إلى الجحيم يقول لله تعالى: ألا تذكر مكانة جدنا إبراهيم عندك؟ فيرجعه الله تعالى ويدخله الجنة فورا. ولما كان واردًا أن تتسرب مثل هذه الأفكار إلى قلوب العرب أيضا، فيظنوا أن الله تعالى يخصهم بهذه المعاملة المميزة لأنهم من نسل إبراهيم؛ فلذلك دحض الله تعالى هذه الفكرة هنا.

الواقع أن كل أمة إذا فسدت أعمالها ونسيت واجباتها، أرادت أن تظفر بالنجاة بوصفة سحرية بدون فعل الصالحات، ولذلك قال الله تعالى ﴿لِإِيلافِ قُرَيْشٍ * إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾.. أي يجب أن يتذكر أهل مكة أننا مننّا عليهم هذه المنّة بسبب الكعبة فقط، لا لميزة ذاتية فيهم. لم نخصهم بهذا الفضل لأنهم من نسل إبراهيم، وإنما هدفنا أن يجدوا رزقًا وافرا لكي يتفرغوا لذكر الله وعبادته حتى يكونوا جاهزين للإيمان بالنبي الموعود لهم. فاعتبار

قوله تعالى ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾ متعلقًا باللام في ﴿لِإِيلافِ قُرَيْشٍ﴾ يكون تأكيدًا لنفي التفوّق العرقي لقريش؛ فباطلٌ ظنُّهم أن ما يفعل الله بهم إنما يفعله من أجلهم ولميزة فيهم. كلا، إنما يفعله مِن أجل الكعبة ونبي الكعبة وإقامة لذكر الله وعبادته.

وهذا العيب الذي تم نفيه هنا قد تسرّب اليوم إلى المسلمين أيضا، فضلاً عن الأمم الأخرى. الواقع أن الله تعالى إذا أنعم على أحد عباده العظام، فمن سنته أنه ينعم به على ذريته أيضا، ولكنهم يظنون بمرور الأيام أنهم أحبّاء الله وشعبه المختار، ويعنون بذلك أن الله تعالى صار عاشقًا لهم، وكما أن العاشق يقول للناس لن أتخلى عن حبيبي مهما آذيتموني، كذلك يظن هؤلاء أن الله تعالى عاشقهم ولن يتخلى عنهم مهما بلغوا في الإساءة إليه بعصيانهم له وإعراضهم عن دينه. هذه العقيدة الخاطئة موجودة عند المسلمين أيضًا بشكل أو بآخر؛ كانت أختٌ للخليفة الأول رضي الله عنه مِن مريدي بعض المتصوفين الزائفين، فجاءت مرة لزيارة الخليفة الأول، فقال لها: أختي، إنك تاركة للصلاة فبماذا ستجيبين الله تعالى يوم القيامة؟ قالت: إن الذي بايعتُه قد أخبرني أني مَعفيّة من كل أحكام الشرع بسبب بيعتي له. قال: أختي، اسألي هذا الرجل كيف يمكن أن يُعفى المرء من أحكام الله تعالى؟ إنه تعالى قد أمرنا بالصلاة وسوف يسألنا عنها يوم القيامة وقت الحساب، فكيف صرتُ معفية من الصلاة بسبب بيعتي لك؟ فوعَدَتْه أنها ستسأله عندما تعود إليه. وبعد فترة جاءت لزيارة حضرته ثانية، فقال لها: هل وجّهتِ ذلك السؤال إلى ذاك المتصوف؟ قالت: نعم، لقد سألتُه عن ذلك، فقال لي: يبدو أنك جئتني بعد زيارة أخيك نور الدين، فهو الذي علّمك هذا السؤال الشرير. فقلتُ: دعْكَ من هذا، وأجبْني على سؤالي. قال: إذا قال الله لك يوم القيامة لماذا لم تصلّي فقولي له: اسألْ صاحبي الذي بايعتُه، فقد قال لي عند البيعة الآن قد وقعتْ كل واجباتك الدينية عليّ، فلا حاجة بكِ لإداء الصلوات أيضا، وعندها سوف يخلّي ملائكةُ الله سبيلك. قلتُ له: سيدي، فماذا تفعل أنت وقد حملتَ ذنوب كل هؤلاء القوم الذين بايعوك؟ قال: عندما يحاسبني الله تعالى سأريه عيوني الحمراء بغضب قائلا: ألم يَكْفِك استشهاد

جدنا الإمام الحسين في كربلاء حتى بدأتَ تضايقنا؟ فيغضّ الله بصره، فأتسلل إلى الجنة فورا.

انظروا، كم تردّت حالة المسلمين! فما دام أنبياء الله ورسله الذين نتشرف بالإيمان بهم بحاجة إلى العمل ليل نهار، فما بال عامة الناس؟! الحق أن الله تعالى أيضا لا يزال يقوم بأفعاله كل حين. ألا نسمّيه رب العالمين؟ وما هو معنى رب العالمين؟ إنما معناه أنه لا يبرح يطعمنا ويربي أهلنا وأولادنا وأنعامنا وسمك البحر وطير الجو وغيرها من مخلوق. عندما نسميه خالق السماوات والأرض فهذا يعني أنه تعالى يقوم بالهندسة والبناء والزراعة، وحينما نقول إنه تعالى صنع هذه الأشياء بتركيبات كيماوية، فهذا يعني أنه صانع وعالم. فكل المهن التي نمارسها ننسبها إلى الله تعالى فعلاً. إننا لا نريد لله تعالى أن يصبح عاطلا ولا يعمل شيئا، مع أن البطالة لو كانت هي الأفضل لكان الله تعالى أَولى بها؛ أفلا يحق للذي خلق كل هذا الكون أن يستريح بعد هذا الإنجاز العظيم؟! وإذا كانت البطالة هي الأفضل فكان ينبغي أن يكون الله تعالى أكبر البطالين -والعياذ بالله- ولكنا نرى أن الله تعالى لا يفتأ يفعل أفعاله وكذلك رسلُه وخلفاؤه وعبادُه المؤمنون. ومع هذه الحقيقة الجلية يقول أتباع الأنبياء بعد مرور الزمن أن لا حاجة بهم الآن للعمل، لأن الآخرين قد حملوا عنهم مسؤولياتهم. الواقع أن هذا من علامات الانحطاط، وليس ترك المسلمين للعمل في هذا العصر إلا دليلاً على انحطاطهم الجماعي. إنهم يريدون أن يحمل غيرهم حملهم. يريدون أن يأتي المسيح ويملأ بيوتهم بالأموال من دون أن يعملوا شيئا؛ وكأنه ليس لله ولرسوله عملٌ إلا سلب أموال الناس كقطاع الطرق ووضْعها في أيدي المسلمين، واختطاف نساء الآخرين وتسليمها لشباب المسلمين، لكي يعيشوا عيشة بذخ وفسق وفجور.

ما أكبرَ الخطأَ العَملي الذي وقع فيه المسلمون بسبب عقائد خاطئة! وأنّى لأمّةٍ كهذه أن تزدهر في العالم؟ مع أن الواقع أن الحب الصادق يدفع إلى المزيد من العمل والتضحية. ألا ترون كم يزهق الوثنيون أنفسهم من أجل آلهتهم الباطلة! وكيف يتكبدون الشدائد ابتغاء مرضاتها! فالحق أن الحب الحقيقي يدفع المرء إلى العمل

أكثر وليس أن يجلس عاطلا. وهذا ما أكده الله تعالى في قوله ﴿لِإِيلافِ قُرَيْشٍ * إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾.. أي إذا كان أهل مكة يرون أننا قد خوّلناهم هذه المنّة الخاصة.. فأطعمناهم من جوع وأمّنّاهم من كل فقر ومن كل خوف آخر.. فكان حريًا بهم أن يعبدوا رب هذا البيت، ولكنهم رغم اعترافهم بمِنَنِنا عليهم أصبحوا عاطلين، حتى تركوا عبادتنا. لقد آلَفْناهم رحلةَ الشتاء والصيف التي جلبت لهم المنافع وأزالت جوعهم وفاقتهم، فكان المفروض أن يفكّروا لماذا أنعم الله عليهم بهذه المنن؛ فلا بد أن يكون وراء هذه المعاملة المميزة هدف، وما هو إلا أن يعمروا هذا البيت. فما دمنا قد أدينا واجبنا فكان ينبغي لهم أن يؤدوا واجبهم فيقضوا أوقاتهم في عبادة الله.

الواقع أن رحلاتهم التجارية هذه كانت سببًا عظيما لترغيب الناس بالكعبة وحجّها. لقد قلتُ من قبل إن العرب لم يكونوا مهتمين بالحج في البداية، ولكن الله تعالى وجّههم إلى حج الكعبة من خلال رحلات قريش هذه. فعندما كانوا يذهبون في قوافلهم التجارية إلى ديار العرب ويخبرونهم أننا جئنا من مكة التي فيها الكعبة المشرفة التي يحجها الناس، وحجها عمل مبارك جدا، فكانوا يتوجهون إلى الحج الذي كانوا غافلين عنه. فكانت رحلاتهم بمثابة دعاية للحج، كما كانت تضمن لهم الرزق.

والمعنى الرابع الذي ذكره المفسرون لقوله تعالى ﴿لِإِيلافِ قُرَيْشٍ * إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ هو: اعجبْ يا محمد لإيلافهم.. أي انظر كيف أن أهل مكة قد أوجبوا عليهم رحلة الشتاء والصيف مع أن المفروض أن يعكفوا على عبادة الله في الكعبة. عليهم أن يتركوا هذه الأسفار ويشتغلوا بعبادة الله تعالى هناك.

لكني أرى خطأً في هذا المعنى، لأن التاريخ وصياغة الآيات كليهما يبين أن الله تعالى لم يشجب عملهم هذا، بل استحسنه؛ فكيف تُفسَّر الآية بأن عليهم أن يتركوا هذه الأسفار ويعبدوا الله عاكفين هناك؟ هذا المعنى لا ينطبق هنا مع أنه صحيح لفظًا ونحوًا. هذا أولاً.

وثانيا: إنهم كانوا يخرجون في هذه الرحلات لكسب الرزق ليوزّعوه على إخوانهم لكي يمكثوا في مكة ولا يهجروها إلى مناطق أخرى بحثًا عن الرزق، أما التسليم بهذا المعنى فيعني أن الله تعالى نهاهم عن الخروج في هذه الرحلات وإطعامِ إخوانهم من أهل مكة، ولكن هذا غير معقول عند الجميع؛ فتفسير الآية بهذا المفهوم محال. إنما اضطر القوم لهذه الرحلات لأنهم كانوا يموتون جوعا وفاقة، ولو أنهم خرجوا من مكة بلا سبب لصحّ الاعتراض على خروجهم، ولكن ما داموا يخرجون في هذه الرحلات لهدف سامٍ فكيف يقال أن الآية تعني: لماذا تقومون بهذه الأسفار، فكُفّوا عنها واعبدوا الله عاكفين هنالك. فثبت أن هذا المعنى لا يصح أبدا، اللهم إلا أن نعتبره خاصًا بالعصر النبوي، فيقال: لم يكن برحلاتهم بأس قبل بعثة محمد ﷺ، أما بعدها فعليهم أن يتركوا مشاغلهم هذه كلها ويصدّقوه ويقوموا بخدمة الدين أكثر من ذي قبل. وهذا المعنى صحيح يقينا، وبالفعل نجد أن رحلاتهم هذه انتهت ببعثة الرسول ﷺ تلقائيا، لأن الله تعالى جعل الناس يُقبلون على الحج إقبالاً عظيما يضمن الرزق لأهل مكة فلم تعد بهم حاجة للخروج منها بحثًا عن الرزق. لم يكن التجلي الرباني لأهل مكة كاملاً قبل بعثة الرسول ﷺ، لذلك فكانوا يضطرون لهذه الرحلات، أما بعد بعثة النبي ﷺ فقد تجلى الله تعالى لهم تجليا كاملا، فلم يبقَ بهم أي حاجة للخروج من مكة في رحلات تجارية.

إذن، لا اعتراض على أخذ هذا المعنى بهذا النطاق المحدود، حيث نقول إن الله تعالى لم يشجب رحلاتهم كلية، بل نبّههم إلى أنه لا حاجة بهم إليها بعد ظهور محمد ﷺ، وإنما عليهم أن يتركوها وينتفعوا بعهده ﷺ ويعكفوا على عبادة الله تعالى.

وهذا المعنى يمثّل لومًا شديدًا للكافرين وثناءً عظيما للمسلمين؛ وكأن الله تعالى يقول هنا: إن المؤمنين أيضا يقيمون في مكة، وحاجاتهم مثل حاجات الآخرين، ومع ذلك قد انهمكوا فورَ إيمانهم في تبليغ الحق وخدمة الدين متناسين كل أعمالهم ومشاغلهم، فلمَ لا يفعل غيرهم من أهل مكة مثلهم؟

وإن هذا المعنى أيضًا يمثّل درسًا لأبناء جماعتنا. عليهم أن يفكّروا أن الله تعالى لم يعط أهل مكة نعمًا أكثر مما أعطانا؛ كلا، بل لقد أعطانا أنوفًا وآذاناً مثلما أعطاهم إياها، ومنَحنا نفس الكفاءات التي منحهم إياها، ووهبنا نفس العلوم التي وهبهم إياها، وآتانا نفس القرآن الذي آتاهم إياه؛ ومع ذلك يأمرهم الله تعالى بالتفرغ من جميع أعمالهم ومشاغلهم والانصراف إلى نصرة محمد ﷺ وخدمة الدين كل حين. والواقع أن هذا الحكم لم يكن خاصا بأهل مكة، فإذا كنا لا نختلف عنهم حالاً، وكنا نملك نفس الصدق الذي كان عندهم، وما دامت جماعتنا تدّعي أن الله تعالى قد أحيا جميع الحقائق على يد المسيح الموعود عليه السلام، فلا بد لنا من إحياء هذه الحقيقة المذكورة في سورة إيلاف من جديد. لا يجوز لنا أن نقول إن هذه السورة تخاطب قريشًا فلماذا نعمل مثلهم؟ إننا نؤمن أن الله تعالى قد بعث محمدا رسول الله ﷺ في هذا العصر بعثة ظلّية مجازية، وأن بعثة المسيح الموعود عليه السلام هي في الحقيقة بعثة ثانية للنبي ﷺ، وأن المسيح الموعود عليه السلام هو الظل الكامل للنبي ﷺ، فلا بد لنا من التسليم أيضًا أن المكان الذي يتجلى منه اسم الله في هذا العصر هو ظل لبيت الله، وأن الجماعة المؤمنة بالمسيح الموعود هي أظلال للصحابة، وبالتالي فإن الواجبات التي فرضها الله تعالى على المقيمين حول بيته هي نفسها واجبات جماعتنا أيضا. فهذا ما نراه في الدنيا أيضا، فإن الأب إذا مات قام مقامه أكبر أولاده، فلا يقول أحد من إخوته كيف قام أخونا الأكبر مقام أبينا، ذلك لأن العقل يحكم أنه إذا فُقد الأصل فلا بد أن يأخذ مكانه ظلُّه. ثم إن العقل يفتي أيضا أن مسؤوليات الأصل تصبح مسؤوليات الظلّ. فما دامت جماعتنا هي ظلّ جماعة محمد ﷺ ونائبة عنها، وما دمنا قد دخلنا في جماعة محمد ﷺ بإيماننا بظله ونائبه، فلا مناص لنا من القول إن هذه الآيات تخاطبنا أيضًا كما تخاطب صحابة الرسول ﷺ، ولا بد لنا من أن نعمل ما عمله الصحابة. لقد أمر الله تعالى هنا أهل العصر النبوي قائلاً ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾.. أي عليكم أن تمضوا أوقاتكم في عبادة الله وتعتادوا ذِكره؛ وهذا هو عملنا نحن الأحمديين أيضا، ولكن المؤسف أن الأحمديين لم يتبوأوا هذا المستوى بعدُ. فكم منهم بلغوا هذا المستوى يا ترى؟ لا شك أن منا مَن

يتبرعون أكثر مما يتبرعه غيرُنا، ولكن الدين لا ينتشر بالتبرعات وحدها، بل يقول الله تعالى ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾.. أي أن الدين يزدهر بتطهير النفس وكثرة العبادات؛ ولكني أرى أننا لا نهتمّ بذكر الله وعبادته إلا قليلاً. لا شك أن الأحمديين أكثر التزامًا بأداء الصلوات المفروضة من غيرهم، ولكنهم قليلو الاهتمام بالجلوس في المساجد لذكر الله، وبأداء التهجد في جوف الليل، وبالاعتكاف، مع أن كل هذه الأمور وثيقةُ الصلة بإصلاح النفس، وقد حث عليها القرآن الكريم. لقد كان من الأدعية التي دعا بها إبراهيم عليه السلام لأولاده: ربَّنا أَخْرِجْ من أولادي دائمًا قومًا يعتكفون لك ويمضون أوقاتهم في عبادتك.. لكني أرى أن الأحمديين لا يهتمون بهذا الأمر إلا قليلا، مع أن النفس لا تُصقَل إلا بالتركيز على هذه الأمور. إن جلاء النفس يتيسر بذكر الله دائما. أما الصلاة فأرى أنهم لا يهتمون بأدائها بهدوء ومهل. لقد رأيت الناس يتعجلون في أداء السنن ليخرجوا من المسجد في عجلة. لقد نبّهت إلى هذا الأمر باستمرار أيامَ إقامتي في لاهور أثناء مرض زوجتي أم طاهر، فرأيت بعد أسبوعين أو ثلاثة أن الإخوة قد اعتادوا أداء الصلوات بهدوء. عندما يصلي الناس الفريضة وراء الإمام يكونون مضطرين لأداء الصلاة بهدوء، ولو كان بإمكانهم لتركوا الإمام وهو راكع وسلّموا وخرجوا. لقد رأيت أنه عندما ينهي الإمام صلاة الفريضة، يؤدي الناس السنن مستعجلين كأنهم في سباق. هذا لا يليق بنا أبدًا، لأنه منافٍ لتعليم الإسلام. من واجب الإخوة أن يصلّوا بهدوء، ويقضوا معظم أوقاتهم في ذكر الله والدعاء، وأن ينصحوا المسلمين الآخرين أيضا بالاهتمام بذكر الله وعبادته، لأن الإسلام لن يزدهر ازدهارا حقيقيا إلا بالتركيز على ذكر الله وعبادته سبحانه وتعالى.

ورد في التاريخ أن السفير الرومي لما رجع بعد رؤيته المسلمين قال لمِلِكه: أيها الملك، لن تنتصر على المسلمين. قال لِمَ؟ قال: إنهم يحاربون عدوهم طول النهار، ويعبدون الله تعالى طول الليل. إنهم ليسوا أناسًا، بل هم جنّ.

الحق أن الاهتمام بعبادة الله تعالى يزوّد الإنسان بنورٍ يمكّنه من ضبط نفسه، وبالتالي يمكّنه من التغلب على قُوى الدنيا الأخرى. يظن الناس بتأثير الحضارة

الغربية في هذا العصر أن الجلوس على السجادة لذكرِ الله وتسبيحه وتحميده مضيعة للوقت، مع أن الذاكرين الله تعالى جالسين على السجادات هم الذين قلبوا نصف العالم في ١٢ سنة فقط، مما يدلّ دلالةً بيّنة أن هذا ليس مضيعة للوقت، بل بسببه يوضع في الإنسان بركةٌ تمكِّنه من إنجاز أعمال عظيمة في وقت قصير جدا. إن الجلوس على السجادة لذكر الله تعالى ليس بطالة، بل يزوّد الإنسان بمهارة في أعماله ويخلق في قلبه نورًا يساعده على القيام بمنجزات عظيمة في وقت قصير جدًا. إذا قضى المرء ثلاث ساعات في ذكر الله تعالى فلا شك أنها نقصتْ من وقته، ولكنه ببركة تلك الساعات سينجز في ثماني ساعات ما لا ينجزه الآخرون في أربع وعشرين ساعة. فعليكم بالإكثار من العبادة والتهجد وذكر الله ووقفِ حياتكم لخدمة الدين. لقد أخبرتكم أن عدد الإخوة الذين نذروا حياتهم لخدمة الدين قليل جدًا، ثم لا يزال بين هؤلاء الواقفين مَن لا يعرفون واجباتهم. خُذوا مثلاً فرع جماعتنا في مدينة "كُويته"، فإنها أفضل من فروع جماعاتنا الكثيرة، وقد ضربوا مثالا رائعا في كثير من المجالات بفضل الله تعالى، ولكنهم لا يزالون متأخرين جدًا فيما يتعلق بوقف الحياة لخدمة الدين.

وتقع أكبر مسؤولية على أفراد أسرة المسيح الموعود عليه السلام بهذا الصدد. إنني لا أعترض على الآخرين فقط، بل أضم إليهم أفراد عائلته عليه السلام أيضا. أرى أن فريقًا منهم قد نسوا واجب نذر الحياة لخدمة الدين واشتغلوا بأعمال الدنيا وتجاراتها، وهذا تقصير كبير جدًّا منهم، وأرى أيضا أن أفراد جماعتنا هم السبب وراء ذلك، حيث يدلّلونهم بألقاب مثل صاحبزاده (أي ابن السيد)، مع أن مَن نسي السيد فكيف يُدعى ابنًا له؟ إنهم يفتحون المحلات ويمارسون التجارات ويسعون لجمع أموال الدنيا، وإذا قيل لهم لماذا لا تنذرون حياتكم لخدمة الدين، قالوا: مِن أين نأكل إذنْ؟ وكأنهم يقولون: يمكن لغيرنا أن يعيش بثلاثين روبية، ولكننا لا نستطيع العيش بهذا المبلغ الزهيد. مع أن الله تعالى قد سمى المسيح الموعود عليه السلام بإبراهيم أيضا، وتريد المشيئة الإلهية من ذلك أن يتأسى أولاد المسيح الموعود عليه السلام بأسوة إسماعيل، فينذروا حياتهم لخدمة الدين، ويرضوا بما قسم الله لهم من الرزق قليلا

كان أو كثيرا. لقد كان في أمة موسى عليه السلام أنبياء اضطروا للجوع والفاقة، كما كان بينها أنبياءُ ملوكٌ مثل سليمان الذي بلغ عدد جنوده وخَدَمه الآلافَ.

وإني أرى أيضا أن السِّفْلة من الجماعة يحتقرون من يقوم بخدمة الدين ويثنون على الذين يتهافتون على الدنيا، وأرى أن فئة منهم جاهلون والأخرى منافقون، حيث يحاولون تدمير الجماعة بتصرفهم الخاطئ هذا. لكني أعلم أن فعل الله تعالى سوف يطهّر جماعته من هؤلاء السِّفْلة جميعا، لأن دور المؤمنين أيضا قادم.

باختصار، إنني أحذّر الجماعة بأنها ترتكب تقصيرا خطيرا في هذا المجال، إذ لا ينذر أبناؤها حياتهم لخدمة الدين بالقدر المطلوب. ثم إن الذين ينذرون حياتهم لا يؤدون واجبهم كما ينبغي، مع أننا لا نستطيع من دون الاهتمام بهذا الأمر أن نفي بما عاهدنا الله عليه عند البيعة. وإذا لم نفِ بعهدنا فلا نستحق أن يفي الله بعهده معنا.

أعود الآن إلى الموضوع الأساس ثانيةً وأقول: إن قول الله تعالى ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ هو نتيجة لقوله تعالى ﴿لِإِيلافِ قُرَيْشٍ * إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾.. أعني أن الله تعالى قد أعلن هنا أننا لم نمنّ على أهل مكة بهذه المنّة إلا ليعبدوني، إذ لم تكنْ فيهم أية ميزة ذاتية حتى نخصّهم بهذه المعاملة المميزة دون الآخرين، فهل كان أهل أوروبا أو الهند أو إفريقيا وغيرها أعداء لنا ولم يكونوا من مخلوقاتنا؟ إنما هيَّأنا هذه الأسباب الخاصة لازدهار أهل مكة لكي يقيموا عند بيتنا فلا يهجروه إلى مكان آخر مضطرين من ويلات الجوع والفاقة. لقد أمددناهم بالرزق ولكنهم نسونا، مع أن واجبهم أن يعبدوا رب هذا البيت شاكرين منتنا هذه.

هناك سؤال هام وهو: لماذا قال الله هنا ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ ولم يقل (فليعبدوا هذا البيتَ)؟

والجواب أن القرآن الكريم ينفي أن يكون هذا الشيء الجماد (أي الكعبة) يملك أي قدرة، بل القدرة كلها لله تعالى، فأضاف الله تعالى هنا لفظ "رَبّ" ليعلّمهم التوحيدَ الكامل، فكأن مفهوم الآية كالآتي: يظن أهل مكة أنهم قد نالوا هذا العز

والشرف بسبب هذا البيت، وهذا ظن باطل، إنما نالوه بسبب رب هـذا البيت. وكأنما قال لهم: لا تظنوا أن الكعبة قد عملتْ لكم كل هذا، كلا، إنها لا تقدر على فعل شيء، إنما هي بيت من تراب، ولا يقدر أن ينفع أحدًا شيئا، وإن رب هذا البيت هو صاحب القدرة كلها.

ورد في الحديث أن سيدنا عمر ﷺ كان يطوف بالبيت مرة، فمر بالحجر الأسود، فضربه بعصاه، ثم قبّله وقال: إنما أنت حجرٌ لا تقدر على شيء، ولكني أقبّلك لأن الله تعالى أمرني بذلك. إن عاطفة التوحيد هذه هي التي رفعت سيدنا عمر ﷺ في الدنيا. كان عاشقا كاملا لوحدانية الله تعالى، فلم يطق أن يشرك في قدرة الله شيئا. لا شك أنه كان يعظّم الحجر الأسود، ولكن ذلك فقط لأن الله تعالى أمره بتعظيمه، وليس لأن فيه ميزة ذاتية. كان ﷺ يرى أن الله تعالى لو أمرني بتقبيل أحقر شيء في الدنيا فسأقبّله، لأننا عباد الله تعالى لا عبادُ حجرٍ أو مكان معيّن. فكان يعظّم الحجر الأسود من دون أن يقصّر في وحدانية الله تعالى. وهذا هو مقام المؤمن الصادق. إن المؤمن الصادق يرى أن بيت الله ما هو إلا مثل آلاف البيوت المبنية من طوب وحجر، وأن الحجر الأسود ليس إلا مثل ملايين الأحجار الموجودة في العالم، ولكنه في الوقت نفسه يعظّم بيت الله ويقبّل الحجر الأسود، لأنه يعلم أن الله تعالى قد أمره بتعظيمهما، ولكنه مع تعظيمه لهذا البيت وتقبيله للحجر الأسود يوقن بكل قوة أنه عبد لِله الأحد وليس للحجر. هذه هي الحقيقة التي كشفها عمر ﷺ حين ضرب الحجر الأسود وقال: إنك لا تساوي شيئا عندي، وليس فيك ميزة أو قدرة ذاتية تُقبَّلُ بسببها، إنما أنت كأيّ حجر من ملايين الأحجار التي نراها في العالم، ولكن الله تعالى قد أمرني بتعظيمك، فلذلك أعظّمك، ثم تَقدّمَ وقبّل الحجرَ الأسود.

فلو قبّلنا الحجر الأسود مدركين بأن الله تعالى قد أمرنا بتقبيله مع أنه ليس أكثر من حجر، لَكُنّا متمسكين بالتوحيد، ولو أهملنا هذا الأمر وظننّا أن فيه ميزةً خاصة لأصبح تقبيلنا له عملاً وثنيا. لقد قبّل عمر ﷺ الحجر الأسود، لكنه لم يكن مشركا، إذ كان يدرك أن ليس له أية أهمية ذاتيه، وإنما قبَّله بأمر الله تعالى، ولكن لو

قبّل أحد الحجر الأسود ظنًّا منه أن فيه ميزة خاصة لصار مشركا. وإذا طاف المرء بالكعبة لأن الله تعالى أمر بذلك فهو موحّد عظيم، ولكن لو طاف بها ظنًّا منه أن في هذا البيت ميزة ذاتية وقدرة خاصة فهو مشرك.

هذا هو المعنى الذي بيّنه الله تعالى هنا، حيث قال لقريش:" تظنون أنكم تتمتعون بهذا الشرف والعزّ بسبب هذا البيت! أيها الحمقى، إن هذا كله ليس بسبب البيت، بل هو بسبب رب هذا البيت". إنما جعل الله هذا البيت مجرد علامة، مثلما كان الملوك في القديم يضعون علامة على كبش أو جمل أو فرس أو غيره ويطلقونه حرًّا، فما كان يجرؤ على إيذائه أحد، ومن آذاه فكأنما أساء إلى الملك فكان يشن عليه الحرب، ليس لأنه قتَل جمله أو فرسه أو كبشه، بل لأنه أهانه بقتله. كذلك قد جعل الله تعالى الكعبة مركزًا لأمة محمد ﷺ وسببًا لجمع ذرية إبراهيم عليه السلام، فهي مجرد علامة جعلها الله تعالى في الدنيا، فلو ظن أحد أن لهذا البيت ميزة خاصة فهو مشرك، وإذا أساء أحد إلى هذا البيت ظنًّا منه أنه ليس علامة جعلها الله تعالى في الدنيا، فهو أيضا عدو لله تعالى، فأحدهما يعامَل معاملةَ المشركين، والثاني يعامَل معاملة أصحاب الفيل، ومن قال إن ما حصل إنما فعَله ربُّ البيت وليس البيتُ نفسه، فهو الذي يُعَدّ موقفه صحيحًا. وإليه أشار الله تعالى في قوله ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾.. أي أن أهل مكة لا يَلقَون هذه المعاملة المميزة إلا بسبب رب هذا البيت. إذا لم يكن هناك رب لهذا البيت فمَن أهلك أصحاب الفيل؟ وإذا لم يكن هناك رب لهذا البيت فمن ذا الذي حمى مكة قرونا؟ إذا لم يكن هناك رب لهذا البيت فمن ذا الذي هيأ الرزق لأهل مكة؟ إذا لم يكن هناك رب لهذا البيت فمن ذا الذي جعل البركة في رحلاتهم هذه؟ إذا لم يكن هناك رب لهذا البيت فمن ذا الذي عرّف أهل مكة على هذه البلاد تذكيرًا لهم ببعثة النبي القادم الذي من أجله جُعل هذا البيت؟ وما دام الله تعالى هو الذي قد خصّهم بهذه المعاملة المميزة، فمن العار أن يتركوه ويعبدوا دونه اللات ومناة والعزّى ظنًّا منهم أن لهم أن يعملوا كما شاءوا فإنهم سدنة الكعبة. عليهم أن يتذكروا أن عزّ هذا البيت ليس إلا بسبب رب هذا البيت، وهو الذي قد منحهم هذا العز والرقيّ، فمن واجبهم أن يُقلِعوا

عن الشرك ويعبدوا الله وحده. فهذه الآيات قد جاءت تحثّهم على عبادته وتوحيده.

قد يقول قائل هنا: إن الآلهة الباطلة ومعابدها وعَبَدَتَها أيضا ينالون العز في الدنيا، أليس هذا دليلا على أن تلك الآلهة والأصنام هي التي منحت العزّ لمن يعبدها؟ بمعنى أنكم تقولون إن عز الكعبة إنما هو بسبب رب هذا البيت، ونجد في الدنيا معابد تعظّمها الناس، فلم لا يُنسب هذا العز إلى الأصنام التي تُعبد فيها، فيقال أن هذه الأصنام هي التي كتبت هذا العز لهذه المعابد؟

فالجواب أنه يوجد في الدنيا أشياء حقيقية وزائفة أيضًا، فيوجد هناك الذهب الخالص والزائف أيضًا، واللآلئ الخالصة والزائفة أيضا، والأحجار الكريمة والزائفة أيضًا، فهل يترك الناس الأشياء الخالصة بسبب الأشياء الزائفة، أم يفرقون الزائف من الأصلي بعلامات مميزة. إننا لا نرمي اللآلئ الأصلية بسبب الزائفة ولا الأحجار الكريمة بسبب الزائفة ولا الذهب الخالص بسبب الزائف، بل نعرف الزائف من الخالص بعلامات مميزة. وبالمثل لا بد لنا أن نرى فيما إذا كان العز الذي تتمتع به الكعبة هو من الله تعالى أم لا، فإذا كان من عنده تعالى فما هي العلامة التي تميز الكعبة عن غيرها من المعابد؟

ويمكن استيعاب هذا الأمر بمثال آخر، وهو أن الوالديْن يربّيان الولدَ، ويخدمانه نتيجة حبهم الفطري له، وقد يختطف اللصوص الولد أحيانا ويربّونه لتسخيره فيما بعد في تحقيق أهدافهم الخبيثة، حيث يريدون أن تفسد أخلاقه فيصبح من اللصوص وقُطّاع الطرق مثلا. وأي شك في أنهم مضطرون لتربيته بحب ولطف كحب الوالدين، وإلا هرب من عندهم. إنهم يحبونه، ولكنه حب زائف بلا شك، وإن تربيتهم بحبٍّ ليس دليلا على أن والديه أيضا لا يحبانه؟

فكما أن هناك بونا شاسعًا بين الأشياء الأصلية والزائفة، كذلك هناك فرق كبير بين العِزّ التي تتمتع به الآلهة الباطلة ومعابدها وعَبَدَتُها وبين العز الذي تتمتع به الكعبة؛ وذلك أن الكعبة لم تنل هذا العز والتعظيم صدفة، بل قد أُسّست بناءً على وحي الله حيث قال تعالى ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾(آل عمران:

٩٧).. أي أن هذا هو أوّل بيت بُني لفائدة البشرية كلها. والبـــديهي أن الأديـــان السابقة التي كانت خاصة بشعوبها ما كانت لتبني بيتًا لفائدة البشرية كلها، وإنمـــا يمكن أن يؤسس مثل هذا البيت من عند الله تعالى وبناءً على وحيه. ثم تمّ تجديد هذا البيت في عهد إبراهيم ﷺ بناءً على وحي الله تعالى، حيـــث ورد في القـــرآن أن إبراهيم قال بأبي أبني هذا البيت، يا رب، لكي يأتي إليه الناس ويطوفـــوا حولـــه ويعبدوا الله ويذكروه ويخدموا زائريه. ثم إن إبراهيم ﷺ دعا أيضا: رب اجعـــل هذا البيت آمنًا وارزقْ أهله من عندك، وابعثْ فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلّمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم. لقد قام بهذا الدعاء عند تأسيس الكعبة حين لم يكن هناك أية آثار لعمرانها ورقيّها، وإنما كان واديًا غيرَ ذي زرع لـــيس فيـــه جرعة ماء ولا حبة قمح؛ فالازدهار الذي حقّقتْه الكعبة راجع حتمًا إلى هذا الدعاء وهذه النبوءة، ولا مناص من القول إن هذا كله قد تمّ من عند الله تعالى فقط. هناك مئات الآلاف من المعابد في العالم، ولكن هل نال أيٌّ منها الازدهار بناءً على نبوءة كهذه؟ أم هل بوسعِ أهلِ أيٍّ من هذه المعابد أن ينشروا اليوم نبـــأً ممـــاثلاً عـــن ازدهاره؟ فلينشروه إن كانوا يملكون الجرأة ثم لينظروا عاقبتهم. أن ينال معبدٌ مـــا العزَّ والتعظيم شيء، أما أن ينال العز بناءً على نبوءة فشيءٌ مختلف تماما؛ فمثلاً لـــو قال أحدٌ في مجلس أن زيدًا سيأتي بعد قليل، ثم حضر زيد فعلاً لأمكن القـــول إن نبوءته قد تحققت، ولكنه لو ظل صامتا وعندما أتى زيد قال انظروا قد تحقق مـــا قلت، فلا شك أن الجميع سيضحكون عليه، ويقولون: متى تنبأتَ بمجيئـــه حـــتى تدّعي الآن أن قولك قد تحقق؟ كان إبراهيم ﷺ قد أدلى عند تأســـيس الكعبـــة بنبوءة أنها ستزدهر وسيحجّها الناس ويطوفون بها ويقيمون حولها، وأنهـــا ســـتظل محفوظة دائمًا فلن يقدر على تدميرها أحد، وأن أهلها سيُرزقون من عند الله تعالى رزقا خاصا؛ وما دامت كل هذه النبوءات قد تحققت واحدة تلو الأخـــرى رغـــم الأوضاع غير الملائمة، فتحقُّقها في حد ذاته دليل على أن هذا لم يكن صدفة، بـــل كان من عند الله فقط. أما لو نالت بعض المعابد الأخرى عزًّا، فسوف يُعتبر هـــذا صدفة، إذ لم تكن هنا نبوءة بشأنها.

ثم انظروا إلى موقع الكعبة الجغرافي، فقد بنى إبراهيم عليه السلام هذا البيت في مكان لم يوجد فيه أثر للعمران بل لم يوجد عمرانٌ لأميال وأميال حوله، وكان يفتقر إلى الماء والزرع، وكأنه اختار لبنائه موقعا يفتقر إلى أسباب الرقيّ كلها، ليكون عمرانه دليلا على قدرة الله المعجزة. إن العمران بحاجة إلى ماء وزرع وقرى قريبة، ولكن موقع هذا البيت كان يفتقر إلى كل هذه الأسباب، ومع ذلك تنبأ إبراهيم عليه السلام بناءً على وحي الله تعالى أن الناسَ سيأتون إلى هذا البيت ويحجّونه، ثم جاء الناس وقاموا بحج البيت، وصار هذا المكان الخراب اليباب بلدًا آمنًا عامرًا عظيما؛ فثبت أن ما حصل إنما حصل من عند رب هذا البيت. أما لو ذاع صيت بعض المعابد صدفة فلن يُعزى إلى صنم يُعبَد فيه، فمتى سبقت نبوءةٌ عن تعظيمه، ومتى ادعى أحد أنه سينال الشهرة والعزّ بين الناس؟ ومتى أعلن شعب أو دين بأن تحقُّق هذه الدعوى سيكون دليلا على صدقه وعظمته؟ فثبت أن تعظيم ذلك المعبد لم يكن إلا صدفة. خذوا مثلاً "لندن" التي أصبحت اليوم مدينة كبيرة، ولكن متى سبقتْ نبوءة عن ازدهارها؟ ونيويورك أيضا صارت مدينة عظيمة، ولكن لم تسبق أي نبوءة عن ازدهارها، فمع أنهما مدينتان كبيرتان إلا أن ازدهارهما لا يمكن أن يُعزى إلى الله تعالى. ولكن لو عُمرت في الدنيا مدينة لا تساوي ٢% من مساحة لندن بناءً على نبوءة ربانية فلا بد أن نعتبرها آية من الله تعالى.

لقد ثبت من هنا أن هناك بونًا شاسعًا بين التعظيم الذي تحوزه الكعبة والتعظيم الذي يحظى به أي معبد آخر. إن تعظيم الكعبة كان نتيجة نبوءات من الله تعالى، أما تعظيم بعض المعابد الأخرى فليس إلا صدفة. فكما أن هناك ذهبًا زائفا مقابل الذهب الخالص، كذلك ليس تعظيم أو ازدهار معبد من المعابد مقابل تعظيم الكعبة إلا تلميعًا وتزييفًا.

فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٤ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝٥

التفسير: هذه الآية قد أكّدتْ تماما المعنى الذي لا أزال أركز عليه منذ البداية. لقد قلت إن الموضوع الأساس في الآيات السابقة هو التركيز على ألوهية الله وقدرته ومنّته وفضله، حيث تبين هذه الآيات أن الله تعالى هو الذي ألقى في قلوب قريش حُبَّ رحلة الشتاء والصيف، وهو الذي سهَّل عليهم هذه الأسفار التجارية وكتب لهم العزَّ والصيت، وقد أشار الله تعالى هنا أيضًا إلى الموضوع نفسه مبينًا أننا قد أنعمنا على قريش بهذه المنن، فمن واجبهم أن يعبدوا الله تعالى الذي أطعمهم من جوع وآمنَهم من خوف.

من قواعد العربية أنهم يشيرون حينًا إلى المذكور القريب ثم إلى البعيد، وحينًا آخر يعملون العكس، وكلا القاعدتين قائمة وتُستخدم الضمائر بحسبهما، وقد أُشير في قوله تعالى ﴿الَّذِي أطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ إلى المذكور القريب أولاً ثم إلى البعيد، فالمذكور القريب هنا هو قوله تعالى ﴿لِإِيلافِ قُرَيْشٍ * إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾.. أي أن أهل مكة كانوا يموتون جوعًا، فأشار الله تعالى إليه أولاً بقوله ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ﴾، أما قوله تعالى ﴿وآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ فهو إشارة إلى المذكور البعيد وهو آخرُ آية من سورة الفيل ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾.. أي أنه تعالى أهلكَ أبرهة وجنوده وجعلهم كسنابل قمح فارغة. ولولا استئصال شأفتهم في اليمن لظلت مكة مهددة من قبل اليمن دائمًا، وأصبحت رحلة قريش إلى اليمن مستحيلة، كما استحالت رحلتهم إلى الشام أيضا بسبب توتر علاقاهم مع اليمن الذي كان ولايةً تابعة للروم الحاكمين على الشام،

فأرى الله تعالى هذه الآية المروعة ودمّر الحكومة المسيحية في اليمن، فاستولى الرعب على الشام أيضا، وبالتالي ظلت رحلات المكيين إلى البلدين مستمرة.

لقد تبين من هنا أن المفاهيم المختلفة التي بيّنتُها لقوله تعالى ﴿لِإِيلافِ قُرَيْشٍ * إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ كلها مفاهيم صحيحة.. أعني أن سورة قريش تحتوي على موضوع مستقل، كما أنها تشير إلى موضوع سورة الفيل أيضا، فقوله تعالى ﴿الَّذِي أطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ﴾ إشارةٌ إلى الموضوع المستقل المذكور في سورة قريش، وقوله ﴿وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ إشارةٌ إلى الموضوع المستقل المذكور في سورة الفيل أيضا. وعليه فيمكننا القول إن الله تعالى أهلك أصحاب الفيل لإيلاف قريش، كما يصح القول أن الله تعالى رغّب قريشا في رحلة الشتاء والصيف ليسهل عليهم كسب الرزق ولكي يقيموا في مكة مطمئنين.

على أية حال، قد أشار الله تعالى هنا إلى المِنّتَين كلتيهما، فقال لقريش: عليكم أن تعبدوا الله الذي أطعمكم من جوع؛ إذ ذهب بقوافلكم التجارية إلى الشام واليمن ليضمن لكم لقمة العيش، كذلك عليكم أن تعبدوا الله الذي بدَّل خوفكم أمنا.. أي دمّر أصحاب الفيل حين جاءوا مهاجمين وضَمِن لكم الأمن.

هناك سؤال: لماذا جاء التنوين على "جوع"؟ أعني لماذا قال الله تعالى ﴿مِنْ جُوعٍ﴾ ولم يقل "مِن الجوع"؟

يمكن أن يكون لذلك سببان وكلاهما ينطبق هنا، أوّلهما: أن التنوين يفيد التعظيم، وعليه فقوله تعالى ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ﴾ يعني يا أهل مكة قد أنقذناكم من جوعٍ هائل قاتل ما كان لكم أن تنجو منه. بالفعل كان القوم يعيشون في واد غير ذي زرع، فأَنَّى لهم أن ينجوا من الموت جوعًا في ذلك القفر؟ لا شك أن الطائف كانت ذات بساتين وزراعة إلى حد ما، ولكنها لم تكنْ لتكفيهم. كانت بعض الأسر الغنية هي التي تأتيهم بالغلال من الطائف، أما باقي

أهل مكة فكانت الغلال تأتيهم من اليمن ومن المدينة وضواحيها عادة، بل كانت تُجلب من الشام والحبشة أحيانًا. فبقوله تعالى ﴿أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ﴾ قد أشار إلى أنكم -يا أهل مكة- كنتم تعيشون في مكان لم يتيسر فيه الطعام العادي البسيط، فهيّأنا الأسباب لتزويدكم بالطعام الوفير، فنجوتم من ويلات الجوع. هذا هو السبب في أن الله تعالى لم يقل هنا "مِن الجوع"، بل قال ﴿مِنْ جُوعٍ﴾.. أي لم يكن ذلك جوعا عاديا، بل كان جوعا شديدا ما كان لكم أن تنجوا من ويلاته.

كذلك لم يقل الله تعالى هنا "وآمَنَهم مِن الخوف"، بل قال ﴿وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾، ليشير إلى أننا لم ننجكم من الخوف فقط، بل أنقذناكم من خوف شديد هزَّ كيانكم. وقد بينتُ عند ذكر حادث الفيل مفصلا كيف أن عبد المطلب قد قال لأبرهة صراحةً إننا لا نقدر على محاربتك، وإذا كان هذا بيت الله فهو سيحميه. ثم إن قبائل هذيل وبني كنانة أيضا قالوا لأهل مكة بعد التشاور إنهم لا يستطيعون أن يساعدوهم، وأشاروا عليهم أن الأفضل لهم أن لا يحاربوا أبرهة وجنوده، بل يدَعوه يفعل ما يشاء (روح المعاني). كم كان هذا الخوف شديدا! حيث أجمع القوم كلهم على الاستسلام وإلقاء السلاح! ومن أجل ذلك قال الله هنا ﴿مِنْ خَوْفٍ﴾ و لم يقل: "من الخوف".. أي أننا آمَنَّاكم من خوف شديد جدًّا.

والتنوين يفيد التحقير أيضا كما يفيد التعظيم، وعليه فكلمة ﴿مِنْ جُوعٍ﴾ تعني: مِن جوعٍ أدنى، وكلمة ﴿مِنْ خَوْفٍ﴾ تعني: مِن أدنى خوفٍ.. بمعنى أننا قد رزقنا أهل مكة رزقًا وافرًا حتى نجوا من جوع بسيط أيضًا. كم كان فضل الله عليهم عظيمًا إذ أسكنَهم في مكان قفر حيث لا سبيل للطعام، ومع ذلك هيَّأ لكل فرد منهم طعامًا وفيرا رغيدا حتى حفظهم من أدنى جوع أيضًا!

كذلك سيعني قوله تعالى ﴿وآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ أن الله تعالى نجاهم حتى من أدنى خوف، بمعنى أنه تعالى لم يدَعْ أبرهة وجنوده يدخلون في حدود الحرم، بل

أبادهم خارجه. لو أنهم دخلوا مكة ورموها بالمنجنيق مثلاً لأصاب أهلها شيء من الخوف، مثلما حصل بعد الرسول ﷺ عند هجوم الحجاج بن يوسف على مكة؛ حيث أصاب حجر المنجنيق الكعبةَ فاحترق جزء منها كما ورد في بعض الروايات.

وقد اعترض البعض قائلا هنا: لو كانت القصة المذكورة في قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ صحيحة فلماذا أصيبت الكعبة بحجرٍ واحترق جزء منها عند هجوم الحجاج؟ فأجاب عليه البعض وقال: إنه لم يُرِدْ ضرب الكعبة، وإنما أصابها الحجر صدفة، وثانيا: الحريق الذي شب في الكعبة قد أُطفئ فورًا فلم يصبها بضرر.

على أية حال، كان هلاك أصحاب الفيل إرهاصًا لبعثة النبي ﷺ، ولم تكن حماية الكعبة في حد ذاتها مقصودا، بل كانت حماية النبي ﷺ هي المقصود أساسًا، ولذلك لم تظهر آيةُ حماية الكعبة بعد بعثة الرسول ﷺ بالقوة التي ظهرت بها قبل بعثته.

باختصار، لقد حفظ الله تعالى أهل مكة حتى من أدنى خوف وأردى أبرهة في مكانه.

وروي أن عليًّا ؓ قال إن المراد من قوله تعالى ﴿وآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ أن الخلافة ستبقى في قريش دائما (الجامع لأحكام القرآن للقرطبي).

هذا منتهى السخف، ولا أصدّق أن عليًّا ؓ قال ذلك. وهذا ما أكده بعض المفسرين أيضًا فقالوا أن هذه الرواية قد نُسبت إلى عليّ ؓ باطلاً مخافة ألا تذهب الخلافة من قريش (التفسير الكبير للإمام الرازي).

فعلّق عليه أحد المؤرخين قائلا: لكنها ذهبت من قريش فعلاً.

الحق أن البعض يختلقون الروايات من عند أنفسهم ثم ينسبونها إلى غيرهم كما هو حال هذه الرواية على ما يبدو.

وقال البعض إن قوله تعالى ﴿آمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ إشارةٌ إلى القحط الذي أصاب أهل مكة في زمن الرسول ﷺ (جامع البيان للطبري)، إذ ورد في الحديث أنه لما آذتْ قريشٌ رسول الله ﷺ إيذاء شديدا دعا عليهم: اللهم خُذْهم بسنين كسِني يوسف (البخاري، كتاب التفسير).. أي خُذْهم بقحطٍ كما أخذتَ الناسَ بقحط في زمن يوسف ؏؛ فأصاب أهل مكة قحط شديد حتى توسلوا إلى الرسول ﷺ مع عدائهم الشديد له، فدعا لهم، فنزلت الأمطار فيما حولهم، كما أن حكومة الحبشة بعثت لهم بالغلال، فزال القحط.

ولكن هذا المعنى باطل عندي، لأن الثابت أن هذه السورة من أوائل السور نزولاً، أما القحط فأصابهم حين حاصروا النبي ﷺ في شعب أبي طالب، فثبت أن نزول هذه الآيات قد سبق هذا القحطَ فلا علاقة لها به. إن الله تعالى يقيم هنا الحجة عليهم بقوله إنه بدّل خوفهم أمنًا، وكيف يكون حجة عليهم ما لم يكن قد حدث بعدُ؟

خلاصة الكلام، إن هذه الآية تشير –على ما يبدو– إلى نبوءة إبراهيم ؏ عن ظهور النبي ﷺ، وليس إلى رحلات الشتاء والصيف فحسب. فإننا نقرأ في القرآن الكريم قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ..... رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾(إبراهيم: ٣٦-٣٨).

لقد قام إبراهيم ؏ بهذا الدعاء عند رفع قواعد البيت، وقد سأل هنا ربه شيئين لهم: الأمن والرزق، ثم بيّن كيف يريد لهم الرزق، فقال لا أريد أن يتيسر لهم الأمن والرزق بقوة الحكم والسيف. لا شك أن الدول ترسي الأمن بالقوة وتجلب الأموال من الناس، ولكني لا أريد لهم الأمن ولا الرزق بهذا الطريق، بل أسألك يا

رب أن تجعل أفئدة من الناس تميل إليهم، فيتيسر لهم الأمن والرزق حبًّا واحترامًا لهم، لا بقوة الحكم والسيف.

كم هي شديدة هذه الشروط التي وضعها إبراهيم عليه السلام في دعائه! إنما يماثل دعاؤه أن يذهب أحد إلى البرية ويقول: يا رب، أَنْزِلِ المطرَ خلال نصف ساعة، ثم لا تجعله ينـزل إلا حولي، ثم تنبت به الشجر حالاً. لقد أسكن إبراهيم عليه السلام بعضًا من ذريته في البرية، ومع ذلك يدعو الله تعالى أن يهيئ لهم الأمن. انظرْ أين يطلب لهم الأمن؟ إنه يطلب لهم الأمن في البرية التي يمكن أن تأتيهم فيها ذئاب وتفترسهم، أو يغير عليهم اللصوص وينهبوهم. ثم يطلب لهم الرزق، وأين؟ في واد غير ذي زرع! وليس هذا فحسب، بل يشترط أن لا يتوافر لهم الرزق والأمن بقوة السيف والسلطة، بل يجعلُ الله قلوبَ الناس تميل إليهم فلا يبرحوا يخدموهم من تلقاء أنفسهم مدفوعين بمشاعر الحب والاحترام.

ثم يَعِدُ إبراهيم عليه السلام ربَّه سبحانه وتعالى مقابل هذين السؤالين بأمرين بالنسبة إلى ذريته: أحدهما أنهم سيظلون عاكفين في مكة، والآخر أنهم لن يبرحوا يعبدون الله تعالى هنالك عبادة توحيد على الدوام. وإلى هذا الدعاء الإبراهيمي قد أشار الله تعالى بقوله ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾.. أي يا أهل مكة: لقد أنجزنا لكم وعدنا الذي قطعناه مع إبراهيم، والآن من واجبكم أن تفوا بعهدكم الذي عهد به جدُّكم نيابةً عنكم، وهو أنكم ستقيمون في مكة وتظلون مشغولين هنالك في عبادة الله تعالى عبادة توحيد. إننا لم نأخذ هذا العهد من إبراهيم و لم نقل له إنك تسألنا سؤالين فنطالبك بطلبيْن، بل إن إبراهيم قد فعل هذا من عند نفسه، فجدُّكم هو الذي عقد معنا هذه الصفقة، لذا فيجب أن تكونوا أكثر احتراما لها. لقد أدينا الواجب الذي جعله إبراهيم في ذمتنا. لقد طلب منا أن نهيئ لذريته الرزق في واد غير ذي زرع، ففعلْنا. لقد سألنا أن نهيئ لهم الأمن

في هذا المكان المخوف، فأَمَّنَّا لهم الأمن هنالك. لقد طلب منا أن نزودهم بـــالرزق والأمن بقوة الحب لا بقوة السيف، فجلعنا أفئدة من الناس تهوي إليهم، مما ضـــمن لهم الرزق والأمن. أفليس من واجبكم الآن أن تفوا بوعدكم الذي وعد به جدُّكم نيابةً عنكم بأنكم ستسكنون في هذا المكان وتعبدون الله وحده هنالك. لقد وفّينـــا بوعدنا منذ زمان، ولكنكم لا تبرحون تشركون بالله منذ آلاف السنين. وإننـــا لم نعاقبكم على الشرك إذ كان بإمكانكم أن تقولوا كيف نعاقَب و لم تأتنا أي تعاليم أو شريعة، أما الآن فقد أرسلنا إليكم محمدا ﷺ الذي يـــدعوكم إلى الله الأحـــد، ولكنكم، أيها الظالمون، لا ترجعون إليه ﷻ.

سورة الماعون

مكية وهي ثماني آيات مع البسملة وهي ركوع واحد

هذه السورة تسمى "الماعون"، وهي مكية عند أكثر العلماء. بينما يرى ابن عباس وقتادة أنها مدَنية. ويرى المفسر الكبير "هبةُ الله" أن نصفها مكي ونصفها مدني، ونـــزل نصفها المكي في العاص بن وائل، ونصفها المدني في أُبيّ بن سلول (فتح البيان).

أما المستشرقون فيرى "نولدكه" أنها نـــزلت في السنين الأولى من البعثة، ويرى "وليام موير" أنها نزلت في السنة الخامسة. أما القسيس "ويري" الذي يريد دائما أن يتظاهر بأنه باحث كبير ويحاول أن يأتي برأي جديد، فقال إنني أتفق مع المفسر "هبة الله" أن نصفها مكي ونصفها مدني (تفسير القرآن للقسيس "ويري").

وحيث إن أكثر المفسرين والرواة يعتبرونها مكية، فلا مبرّر أن نقدِّم بشأنها بحثًا آخر. لا شك أن ابن عباس ﵁ الذي يرى أنها سورة مدَنية هو صحابيٌّ، ولكن لم يكن عمره عند وفاة الرسول ﷺ إلا نحو ١٣ سنة، لذا فإن ٩٩% من مرويات ابن عباس هو مما سمعه من الآخرين، والذي فيه احتمال الخطأ أيضا. وعلى العموم كان ﵁ شديد الذكاء، فلذا كان مصيبًا في آرائه في معظم الأحيان. علمًا أنه فيما يتعلق بشأن زمن نزول السور فقد انخدع الصحابة والتابعون أحيانًا إذ اعتبروا آية أو سورة ما مكيةً لمجرد أن قال النبي ﷺ أو أحد الصحابة إنها نزلت في فلان الذي كان من مكة، أو اعتبروها مدَنية إذا كان من المدينة. ونظرًا إلى موضوع هذه السورة، أرى أن رأي أئمة الجمهور في اعتبارها مكيةً هو الصحيح. لا شك أنهم لم يدعموا رأيهم برواية عن صحابي، إلا أن اتفاق أكثر التابعين على ذلك يدل على أنه كانت هناك روايات بهذا الخصوص حتمًا، ولكنهم لم يروا حاجة لذكرها نظرًا لشهرتها .

سبب نزولها: اختلف المفسرون في شأن نزول هذه السورة، فمنهم من قال إنها نزلت في أبي جهل، بينما يرى غيرهم أنها نزلت في الوليد بن المغيرة، ويرى آخرون إنها نزلت في كل مِن العاص بن وائل، وعمرو بن عائذ، وأبي سفيان بن حرب، واثنين من منافقي المدينة (فتح البيان والقرطبي).

لم أكن بحاجة إلى ذكر هذه الروايات، ولكني ذكرتُها هنا لأنها مثال واضح على أن اختلاف الآراء في أمر يجعله أضحوكة أحيانا. فحيث إنه ليس لديهم أمرٌ يقيني في قضيةٍ، فحريّ بهم ألا يتحدثوا عنها. فمن ذا الذي يمكنه أن يخبر فيما إذا كانت هذه الآية أو تلك السورة نزلت في فلان إلا الرسول ﷺ؟ ولو أنه ﷺ أراد ذلك لذكَر اسم ذلك الشخص أو أشار إلى فعل تلك المجموعة من الناس، وليس أن يقول قد أَخْبرني الله تعالى أنها نزلت إما في فلان أو في فلان أو في فلان. كيف يُتصور أن يقول الرسول ﷺ مثل هذا القول الظني المريب في آية قرآنية كان يتلقى من الله العلمَ بشأنها؟ فالحق أن هذه الروايات ليست من عند رسول الله ﷺ، بل هي آراء الناس فحسب، ولا نستطيع أن نعرف بها سبب نزول آية أو سورة. لقد ذكرتُ هنا أسماء سبعة فقط من بين اثني عشر شخصا ممن تقول شتى الروايات إن هذه السورة قد نزلت في أحد منهم. فالحق أنه لم تكن هناك أي حاجة للإشارة إلى هذه الروايات لدى تفسير هذه الآية.

غير أن الروايات الواردة في شأن نزول هذه الآية ذاتُ قيمة حتمًا من منظور آخر، إذ قد اتضح منها جليًا أن سبب نزول آيةٍ من الآيات لا يعني أنها نزلت في ذلك الشخص أو في ذلك الحادث فعلاً، إنما المراد أن مضمونها ينطبق على ذلك الشخص أو الحادث أيضا. ولكن إذا لم نأخذ هذه الروايات -التي تذكر اثني عشر شخصا- بهذا المعنى، لأصبحت كلها باطلة لتناقُضها فيما بينها، وعُدَّ رُواتها مفترين -والعياذ بالله- سواء كانوا من الصحابة أو التابعين. إن صلاحهم وسدادهم يحتّم علينا ألا نعتبرهم مفترين، وعليه فليس السبيل إلى تأويل هذه الروايات إلا أن نقول

إنهم لم يعنوا أن الرسول ﷺ قال إن الله أخبرني أن هذه السورة نزلت في فلان، بل كان مرادهم أنها تنطبق على فلان تمامًا بالنظر إلى أحواله حسب رأيهم.

فمن الخطأ الفاحش تحديد معنى آية في حادث خاص بناءً على رواية تذكر سبب نزولها، لأن هذا بمثابة محاولة فاشلة لحصر بحر القرآن الكريم في كوب.

إن علماء المسلمين المعاصرين عمومًا مصابون بهذا المرض خاصة، فلو قرأتَ عليهم آية قرآنية وقلتَ بأنه يُستنتج منها مفهوم كذا، لردّوا عليك فورًا: كيف تكون لهذه الآية علاقةٌ بنا! إن سبب نزولها كذا وكذا وإنها نزلت في فلان. فكما أن القارب يُربَط بشجرة أو خشبة فلا يتحرك، كذلك يربط هؤلاء آية أو سورة ما بمنافق أو مؤمن أو مهاجر أو أنصاري أو مسيحي أو يهودي ويقصرونها عليه، مع أن القرآن الكريم لم ينـــزل لشخص معين، بل نزل للناس أجمعين. إن القرآن يخاطب محمدا ﷺ والمسلمين والنصارى واليهود والمجوس وغيرهم كلهم، بل يخاطب البشر إلى يوم القيامة. فمن الخطأ الفاحش حصر آية أو سورة منه بزيد أو بعمرو، بل لا أرى جائزا أن نعتبر القرآن خاصا بالرسول ﷺ. لو خاطب القرآنُ النبي ﷺ وحده في آية لما انتفع منها باقي العالم، مع أن القرآن نزل لخير البشرية جمعاء إلى يوم القيامة. فمثلاً إذا كان الله تعالى قد خاطب رسوله ﷺ بقوله ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾، فهل يعني هذا ألا يتدبر في هذا الحادث إلا الرسول ﷺ؟ إني لا أرى مبررًا لتخصيص سبب نزول آية أو سورة بالرسول ﷺ فقط، فضلاً عن أن نقول إنها نزلت في فلان من المنافقين أو المؤمنين أو الكافرين. لا جرم أن الله تعالى يقول للنبي ﷺ في القرآن مرة بعد أخرى بأننا قد أنزلنا عليك هذا القرآن، ولكن هذا لا يعني أنه لم ينـــزل من أجلنا؛ كلا، بل إنه قد نزل لنا كما نزل عليه. إنما وجهُ فضل النبي ﷺ علينا بهذا المجال هو أن الله تعالى خصه بإنزال وحيه عليه لعظيمِ صلاحه وتقواه وعرفانه وروحانيته، وجعَله أول المخاطَبين به. لقد أنزلَ كلامه على النبي ﷺ أول مرة بسبب تفوُّقه على الآخرين روحانيا وأخلاقيا وعقليا، أما بعد النـــزول فقد أصبح هذا الكلام لي ولمن يقرأ تفسيره ولسائر العالم على سواء.

وهربًا من مشكلة سبب النـــزول هذه قد قال الرازي وغيره من العلماء: يجب الاهتمام بمضمون هذه الآيات بدلاً من الاهتمام بسبب نـــزولها (الرازي). لكن الحق أن القوم قد أخطأوا في فهم معنى سبب النـــزول كما بينتُ من قبل، أما لو أخذوا بالمفهوم الذي سأبيّنه بشأن النـــزول فلم يعُدْ مفهوم هذه الآية محدودا.

أتناول الآن مضمون هذه الروايات. قال بعض الرواة: لقد نحر أبو جهل أو العاص بن وائل جملاً، فجاء يتيم يسأله من لحمه، فغضب وضرَبه بالعصا. ما كان بوسعه أن يأكل لحم الجمل وحده، بل كان لا بد له أن يوزّعه على الآخرين، ولكنه كان يريد توزيعه على قوم معينين رياءً وسمعة، فلما سأله اليتيم ضربه. وتذكر الروايات الأخرى أشخاصا آخرين وأعمالاً أُخرى، ولكنها كلها متفقة على أن الكافر أساء إلى اليتيم. إن ملخص هذه الروايات كلها يؤكد أن مفهوم هذه السورة يمكن انطباقه على كل كافر؛ سواء أكان أبا جهل أو الوليد بن المغيرة أو العاص بن وائل أو عمرو بن عائذ أو أبا سفيان بن حرب أو منافقا من المدينة، إذ كان كل منهم بخيلاً وظالًما لبُعْدِه عن روح دين محمد ﷺ. بل الواقع أن هذا المعنى لا ينطبق على عشرة أو اثني عشر شخصا فقط، بل ينطبق على الملايين. فمثلاً لو درستَ أحوال سكان العالم المعاصر -البالغ عددهم نحو مليارين- لوجدتَ أن مليارا منهم بل أكثر يكذّبون بالدين علنًا، أما ٦٠٠ أو ٧٠٠ مليون منهم فلا ينكرون الدين بأفواههم، ولكنهم من الفئة الأولى في الحقيقة، أما الباقون فأكثر من ٣٠٠ مليون منهم يؤمنون بالدين ولكن ينكرونه عمليا، أما المؤمنون بالدين حقًا فهم قلة قليلة لا يبلغون إلا الآلاف أو مئات الآلاف. فيمكننا القول إن هذه الآية قد نزلت بشأن هذا الكم الهائل من الناس جميعًا، وإلا فكيف يعدّهم الله تعالى مجرمين يوم القيامة؟ إذ يقولون بكل بساطة لم تنـــزل هذه الآية فينا، وإنما نزلت في فلان. إنما يمكن إقامة الحجة عليهم إذا قلنا إنها تخاطب كل من يكذّب بالدين، وهي ليست خاصة بأحد.

لقد قال المفسرون الذين يرون أن هذه الآية نزلت في أبي جهل أنه كان عنده مال ليتيم، فجاءه ذات مرة حافيًا عاريًا يطالبه برد ماله إليه، فنهره أبو جهل، فعاد

يائسا. فقال له بعض زعماء قريش الأشرار اذهبْ إلى محمد (ﷺ) واستعنْ به فإنه يدّعي نصرة الفقراء، وكانت نيتهم أنه (ﷺ) لو شفع له عند أبي جهل فلا بد أن يسيء إليه فتسخر منه البلد كلها، وإذا لم يشفع له قلنا للناس إنه يدّعي نصرة الفقراء ولكنه لم يشفع ليتيم جاء يستنصره. وكان النبي ﷺ قد تعاهد في "حِلْف الفُضول" على نصرة الفقراء، فلما جاءه اليتيم فما لبث أن خرج معه دون أن يفكّر أنه ذاهب إلى عدو لدود له، فطرق عليه الباب، فلما خرج أبو جهل قال له النبي ﷺ لقد احتفظت بمال هذا اليتيم أمانةً، فادفعه له فإنه بحاجة إليه. فدخل أبو جهل إلى البيت فورا وأتى بمال اليتيم وأعطاه إياه. فلما علمت قريش بذلك أخذوا يلومون أبا جهل ويقولون له لقد صبأت -علمًا أنه كانت في العراق طائفة تسمى الصابئة وتنتسب إلى إبراهيم عليه السلام، ولما كان الرسول ﷺ يسمي دينه دينًا حنيفا فكانت قريش تسمي مَن آمن به ﷺ صابئًا- فأجابهم أبو جهل والله ما صبأت، بل حين جاءني محمد رأيت على يمينه وشماله جملَيْن هائجين، فخفتُ أن يهاجماني إذا لم أنفذ أوامره.

لقد وردت هذه الرواية في بعض المصادر بشيء من الاختلاف، وأرى أن التي أوردتُها هي الأصح. فقد ورد أنه قبل دعوى الرسول ﷺ اجتمع ثلاثةُ نفر اسم كل واحد منهم "فَضْل" وشكّلوا جمعيةً سموها "حلف الفُضول" حالفين على نصرة المظلوم دائمًا -وقد دعوت أنا أيضًا إلى حلف كهذا تأسيًا بهؤلاء الشرفاء، ولكن الأسف أن دعوتي لم تنجح حتى الآن، وسوف تنجح حين يريد الله تعالى، وكنت دعوت إليه بناءً على رؤيا رأيت فيها وكأن الله تعالى قد أمرني أن أقول لأفراد أسرتي إنهم سينجون من الدمار ما داموا عاملين بحلف الفضول- ثم ذهب هؤلاء الفتية إلى الرسول ﷺ، فدخل معهم في هذا الحلف حالفًا على نصرة الفقراء والمظلومين. ولكن هؤلاء الفتية نسوا هذا الحلف بعد فترة، أما الرسول ﷺ فلم ينسه إذ كان إنسانًا صادقًا، فبعد أن أعلن دعواه أراد بعض المعارضين الأشرار اختباره، فقالوا: إنه قد حلف على نصرة المظلومين فتعالوا نجرّبه. وورد في الروايات أن أعرابيًّا كان قد ائتمن أبا جهل على بعض ماله، ولكنه امتنع عن ردّه له، فكان

هذا الأعرابي يأتي إلى مكة ويصرخ بين أهلها قائلا: إننا نأتي إلى مكة للبيع والشراء ولكن أهلها يظلموننا مع ادعائهم أنهم حماة بيت الله وأصحاب دين وخُلق. فكان القوم يسألونه عن مشكلته، فكان يخبرهم أن أبا جهل قد أخذ ماله ولا يردّه له. كان الأعرابي ساذجا ومظلوما أيضا، فلم يزل يأتي ويصرخ مرة تلو مرة، فقرر القوم بعد التشاور أن يبعثوه إلى محمد ﷺ. فقالوا له: اذهبْ إلى محمد فإنه سينصرك على أبي جهل، وكان بنيَّتِهم أنه ﷺ إذا رفض الذهاب معه لنصرته قالوا: انظروا إلى محمد، لقد حلف على نصرة الفقراء ولكنه لا يعمل بما حلف عليه، وإذا ذهب معه إلى أبي جهل فلن يقبل بشفاعته بل سيسيء إليه ويهينه. فذهب الأعرابي إلى النبي ﷺ وقص عليه قصته، فأخذ ﷺ رداءه وخرج معه لنصرته فورا، فطرق الباب على أبي جهل. فلما خرج قال له النبي ﷺ إن لهذا الأعرابي مالا عندك، وهو بحاجة إليه، فرُدَّ له ماله. قال: سآتي به حالا. فدخل وأتى بالمال ووضعه في يد الأعرابي. فلما علم أصدقاء أبي جهل بما فعل أخذوا يلومونه بأنك كنت تقول لنا إن أكل مال هؤلاء القوم حلال -كما يقول المشايخ اليوم أن سلب أموال المسلمين الأحمديين وأكلها حلال- ولكنك رددت له ماله فورا. لقد أردنا أن نهين محمدا، فأهنتنا نحن. فقال أبو جهل: لما خرجتُ إلى محمد رأيت على يمينه وشماله جملين هائجين كادا يهاجمانني، فخفت ورددت له المال.

هذه واقعة تاريخية. فسواء قلت إن الذي جاء النبيَّ ﷺ ليشفع له عند أبي جهل هو اليتيم أو الأعرابي، فإن الثابت من التاريخ أن النبي ﷺ ذهب إليه واستردّ منه مال المظلوم.

لقد ورد في الحديث أن النبي ﷺ سُئل مرة: هل هناك شيء في الجاهلية كنتَ تحبّه كثيرا؟ قال: نعم، "حلف الفضول"، ولا أزال أحبه في الإسلام، ولو دُعيتُ الآن لأجبتُ (السيرة النبوية لابن هشام: حلف الفضول).

إن نصرة المظلوم خلُق عظيم، ولكنه قد اندرس بين المسلمين للأسف الآن. إنهم يُبْدون عادة حماسا شديدا، ولكن لا يهبّون لنصرة المظلوم، بل إذا تطلب الأمر

نصرته نظر بعضهم إلى بعض، وانحاز لصديقه، مع أن التقوى الحقيقية هي أن يقف لنصرة المظلوم ولا يبرح بابَ الظالم حتى يستردّ له حقه.

ترتيب السورة: إن هذه السورة تتمة لموضوع السورة السابقة، فقد بيّن الله تعالى في السورة السابقة أننا وفّرنا لقريش رزقًا وفيرًا لكي يعبدوا الله تعالى عاكفين عند بيته، لكنهم أصبحوا عنه غافلين، أما في هذه السورة فبيّن أن الأمم إذا غفلت فلا تبرح غارقة في غفلتها حتى يُنسيهم حبُّ الدنيا الموتَ، فلا تؤمن بالحياة الآخرة. وهذه هي حالة أهل مكة أيضا، وإلا أفليس غريبًا أن تصبح ذريّة إبراهيم منكرة للقيامة؟

لقد كان إبراهيم عليه السلام من أولي العزم من الرسل وقد أراد إرساء الدين على أسس عميقة متينة، وكان أساس تعاليمه ومواعظه رضا الله تعالى وقربُه، أفليس مذهلا أن تقول ذريته إن الدنيا حلوة لذيذة، ومَن ذا الذي قد رأى الآخرة؟! إن هذا التغير الكبير لا يمكن أن يحدث في قوم إلا إذا أصابهم الفساد على نطاق كبير. ومما يبعثني على العجب أكثر أن كلتا الطائفتين من آل إبراهيم عليه السلام قد صاروا عندها منكرين للبعث بعد الموت. كان آل إبراهيم فرعين: بنو إسحاق وبنو إسماعيل، وكان بنو إسماعيل -وهم أهل مكة- لا يؤمنون بالحياة بعد الموت، أما بنو إسحاق فإن قليلا من الناس يعرفون أنهم محوْا ذكرَ البعث بعد الموت من كتبهم تماما. يظن عامة وعّاظ المسلمين أن اليهود كانوا يؤمنون بيوم القيامة، مع أنه لا يوجد ذكر للقيامة في الكتب اليهودية أصلا. إذا كان بعضكم قد طالع العهد القديم، فسوف يشهد على صدق ما أقول. ومن لم يكن يطالعه، فيمكنه أن يقرأه الآن، بل لا حاجة لأن يقرأه، إنما عليه أن يتصفح بضع صفحات منه من أي مكان ويقارنها ببضع صفحات من أي مكان من القرآن، ليرى كم مرة ذَكر القرآن الحياةَ بعد الموت، وكم مرة ذكرها العهد القديم، ولسوف يتبين له بجلاء أن القرآن الكريم قد ذكر البعث بعد الموت مرارا في هذه الصفحات القليلة، أما العهد القديم فلم يشر إلى البعث بعد الموت في تلك الصفحات، بل ولا في ضِعْفها. الواقع أن ذكر

الحياة بعد الموت كان قد اندرس من بين اليهود تماما قبل بعثة الرسول ﷺ. لا نصدّق أبدًا أن اليهود لم يُخبَروا بالحياة بعد الموت من قِبل أي من أنبيائهم مثل إبراهيم وموسى أو الأنبياء الذين أتوا بعد موسى تتْرًا كداود وسليمان وإلياس وزكريا ويحيى عليهم السلام. فخُلُوُّ العهد القديم من ذكر الحياة بعد الموت لدليلٌ بيّنٌ على أن اليهود قد حذفوا مثل هذه الأمور من كتبهم؛ إذ لا تجد فيها مجرد إشارة إلى هذه القضية البالغة الأهمية، بينما تجد القرآن الكريم مليئا بالحديث عن البعث بعد الموت. وعندي أن هذا التغيير في العهد القديم إنما حصل لأن اليهود طبّقوا آياته المتعلقة بالحياة الآخرة على هذه الدنيا خطأً، وعندما وجدوا أجزاء من كتابهم تلقي الضوء على فكرة الحياة بعد الموت حذفوها منه. شأنهم شأن المسلمين اليوم الذين قرأوا في القرآن الكريم قول الله تعالى ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾(الرحمن:٤٧).. أي أن له جنة في هذه الدنيا وجنة في الآخرة، فركّزوا كل التركيز على جنة الآخرة، فظنوا أنهم سينالون هاتين الجنتين في الآخرة. فاليهود لما رأوا أن الله تعالى قد وعدهم في كتبهم بأنواع النعم، ظنوا بسبب غلوّهم أنها كلها تتعلق بالدنيا إذ كانوا مولعين بنعم الدنيا، فحذفوا من كتابهم الأجزاء التي صعب عليهم إخضاعها لمعتقدهم الخاطئ هذا.

ويوجد في القرآن الكريم آيات كثيرة تتعلق بهذه الدنيا، ولكن المسلمين طبقوها على الآخرة خطأً، فهناك في الجزء الثلاثين من القرآن الكريم أنباء كثيرة تنطبق على هذه الدنيا حرفيًا، وعندما يقرأها المرء في القرآن، ثم يرى الأحداث التي تقع اليوم في الدنيا وفقًا لتلك الأنباء، فيرقص قلبه فرحًا، فلا يملك إلا أن يسبح الله تعالى ويزداد يقينًا بوعوده ﷻ. ولكن المفسرين يطبقون كل تلك الأنباء على القيامة، والطبيعي أن أحدا إذا أيقن أن سورة كيت وكيت تتحدث عن يوم القيامة قال: انتهى الأمر، فالآن لا حاجة بي للتدبر في هذه السورة. أما اليهود ففعلوا العكس، فطبّقوا كل الآيات التوراتية المتعلقة بالحياة الآخرة على هذه الدنيا. الواقع أن الصحف السماوية تتحدث عن الآخرة بلغة الاستعارة والمجاز دائمًا قائلة: ستكون في الآخرة أنهار من لبن وخمر وما إلى ذلك من النعم، واللَّبن في لغة الوحي يعني

العلم، والخمر يعني الحبّ"، ولكن اليهود ظنوا أنهم سيجدون هذه النعم كلها في هذه الدنيا، فلذلك طبّقوا كل الإشارات التي وجدوها في كتبهم عن الحياة بعد البعث على هذه الدنيا أو حذفوها من كتبهم نهائيا عندما وجدوها لا تخضع للتأويل، ومن أجل ذلك لا نجد في العهد القديم أي ذكر للحياة بعد الموت البتة.

إذن، إنه لمن المستغرب حقًا أن تمحو كلتا الطائفتين من نسل إبراهيم عليه السلام ذكر الحياة الآخرة من كتبهم قبل بعثة النبي ﷺ. لا شك أنه يوجد عند المسيحيين تصور للحياة الآخرة، ولكن ليس عندهم علامة معينة للحياة الآخرة. فلو سُئلنا نحن المسلمين عن الجنة والنار لوصفناهما كما لو أننا نراهما رأي العين، أو كما لو أننا نقوم بوصف مدينة قد زرناها، ذلك لأن الإسلام قد تحدث عن الجنة والنار كثيرا، ولكن لو سألتَ المسيحيين عن الجنة والنار لوجدت عندهم تصورًا غريبًا مشوشا. وعلى سبيل المثال، قد قال الرسول ﷺ "لا تَقُومُ السَّاعَةُ إلا عَلَى شِرَارِ النَّاسِ" (ابن ماجة، كتاب الفتن).. أي أنها تقوم عندما لا يبقى في الدنيا أخيار -علمًا أن هذا لا يعني أن خَلْق الله يفنى كلية، بل المعنى أن كونَنا هذا سيفنى، وسيخلق الله مكانه كونًا آخر- أما بحسب عقيدة المسيحيين فإن القيامة ستقوم على الأخيار، إذ يؤمنون أنه إذا جاء المسيح في الزمن الأخير ثانية سيفنى الأشرار كلهم وسيعيش الأخيار إلى الأبد، فتصبح هذه الدنيا نفسها جنة. مما يعني أن اليهود رضوا بهذه الدنيا المادية، أما النصارى فاعتبروها جنتهم، وما داموا سيعيشون في هذه الدنيا نفسها وهي التي تصبح لهم جنة، فهذا يعني أنهم سيأكلون لحوم خرفان هذه الدنيا ويشربون ألبان بقر هذه الدنيا ويأكلون ثمار هذه الدنيا. أما القرآن الكريم فأعلن أن أهل الجنة إذا أكلوا فواكه الجنة ازدادوا حبًّا لله تعالى، وإذ شربوا لبن الجنة ازدادوا معرفةً بالله تعالى، وبيّن أن نِعم الدنيا لا تساوي أمام نِعم الآخرة شيئًا، إذ لا مقارنة بينهما. وإذا كان النصارى يرون أن الأخيار الروحانيين عندما يعيشون في هذه الدنيا للأبد، فتصبح هذه الدنيا جنة لهم، فهذا يعني أن الناس لو أصبحوا في هذه الدنيا أخيارًا وعاشوا فيها عيشة الصالحين متجنبين الشر والعصيان، فلا حاجة لأي جنة أخرى عند المسيحيين، لأن هذه الدنيا نفسها تسمى جنة، وإذا كان الأمر

كذلك فإن تصور المسلمين للجنة التي يزداد فيها الإنسان روحانية حتى يرى الله تعالى هو تصور خاطئ تماما عند المسيحين، إذ يرون أنه إذا لم يبق من شرار الناس أحد في هذه الدنيا صارت جنةً، وأصبحت نِعمها نِعَمَ الجنة بالنسبة إليهم، وذلك مع أن علماءهم يعتبرون هذا الزمن أسوأ من الأزمنة الغابرة.

وهذا هو حال عامة المسلمين أيضا، إذ يرون الجنة مجموعة من النعم المادية الدنيوية؛ عقد المسؤولون في "دار الندوة"● اجتماعا في مدينة "لكهناو" عام ١٩١٢، واستدعى المرحومُ المولويُّ شبليّ لرئاسته العلامةَ رشيد رضا من مصر. والعلامة رشيد رضا تلميذ للمفتي محمد عبده الذي هو تلميذ لجمال الدين الأفغاني. وأسلوب تفسير الأفغاني يشبه أسلوب تفسيرنا إلى حدٍّ ما، وإن لم يبلغ درجته. ولأن المفتي محمد عبده كان يجتنب ما يخالف العقل والنقل وما يتيح لأعداء الإسلام فرصة الاستهزاء به، فلاقى تفسيره رواجًا كبيرا في مصر. وقد سلك رشيد رضا مسلكَ أستاذه، فتمتع بشعبية كبيرة في مصر، وإن كان دون أستاذه شعبيةً. المهم أن الشيخ شبليّ دعاه لرئاسة هذا الاجتماع، وكان هذا في عهد الخليفة الأول ﵁ للمسيح الموعود ؑ، وكنت عندها مسؤولا عن المدرسة الأحمدية، فأردتُ الخروج برفقة بعض علماء جماعتنا في جولة استطلاعية أزور خلالها المدارس العربية المشهورة في الهند وأرى نظام الإدارة والتعليم فيها، لأنتفع بهذه التجربة لرفع مستوى مدرستنا. فرأينا خلال هذه الجولة المدارسَ الدينية في "ديوبند"* و"فرنجي محل" و"رامبور" و"بنارس" و"دلهي"، كما زرنا مدرسة "العقائد" في "كانبور". فعَلِمَ المولوي شبليّ بخروجنا في هذه الجولة، ولم يكن كمشايخ اليوم بل كان إنسانا مرحًا غير متعصب، فأصرّ علينا أن نحضر هذا الاجتماع ونقيم عندهم. فوصلنا إلى

● "دار الندوة" مؤسسة دينية في الهند، قد تخرّج منها علماء كثيرون، وقد اشتهروا بالندويين. (المترجم)

* "ديوبند" اسم مدينة هندية فيها مؤسسة دينية باسم "مدرسة ديوبند"، قد تخرّج منها علماء كثيرون، وقد اشتهروا بالديوبنديين. (المترجم)

مدينة "لكهناو" لحضور الاجتماع، ولكنا لم نُقِمْ عندهم كيلا يعرف المشايخ المعارضون لنا بوجودنا هناك فيتضايقوا، ولكيلا تحدث أي مشكلة. ولكن لما علم المولوي شبليّ بأننا مقيمون في مكان آخر أَخَذَنا معه بإلحاح، فأقمنا عندهم وحضرْنا الاجتماع الذي استمر يومين، مما أدى إلى بعض المشاكل؛ حيث كال لنا غيرُ الأحمديين الشتائم، لكن المولوي شبليّ كان شهمًا قويًّا، فلم يبالِ بالمعارضين. وفي إحدى ليالي هذا الاجتماع ألقى البروفيسور عبد الكريم الندوي خطابًا حول الصلاة، وقد دُعي لاستماعه كبار زعماء البلد وعلمائها ومثقفيها. لا أتذكر أكان المولوي شبليّ موجودا في تلك الجلسة أم لا، لكننا حضرناها لنسمع خطاب البروفيسور. وكان المولوي شبليّ قد دعا الشباب خاصة لسماع هذا الخطاب ترغيبا للناس في أداء الصلاة، فحضره كثيرون بينهم المحامون وغيرهم. ولسوء الحظ، لم يكن المولوي شبليّ يعرف شخصيًا مبلغ علم البروفيسور عبد الكريم الندوي. لعله كان معلِّما جيدا للعربية فأحسن شبليّ به الظنَّ فدعاه لإلقاء الخطاب حول الصلاة. فقام خطيبا وتكلّم عن الصلاة بجملتين أو ثلاثٍ قائلا إن واجب المرء أن يصلي، لأن هذا أمر من أوامر الله، ومَن صلى دخل الجنة. ثم نسي البروفيسور موضوع الصلاة، واسترسل في وصف الجنة، فأخذ يرسم الجنة رسما خطيرا لم يكن مختلفا عن بيوت الدعارة. قال ستكون في الجنة صور مختلفة للنساء، وإذا أُعجب المرء بصورة تحولت إلى امرأة، فيأخذ في جماعها، وسيفعل كذا وكذا، ويكون عنده قوة جنسية هائلة، فيظل يجامعها ٢٤ ساعة! أتذكر أنه كان بجانبي بعض المحامين فعلّقوا على الخطاب قائلين: نحمد الله تعالى أن هذه المحاضرة أُلقيت بالليل، ولو أُلقيت بالنهار وحضرها غير المسلمين لاضطررنا لإخفاء وجوهنا منهم ندما وخجلا.

فعامة المسلمين أيضا قد جعلوا الجنة -التي هي في الحقيقة مكان الروحانيةِ ورؤيةِ البارئ تعالى- شيئًا مخجلا جدا. وليس هذا التصرف إلا بمنزلة إنكارهم للدين. فهل يعقل أن يقال لنا عن هذه الدنيا -التي هي مليئة بآلاف أسباب اللهو والغفلة عن الله تعالى- بأنك إذا غفلت فيها عن الله أصبحت كافرا، أما الدار الآخرة التي

سنتمتع فيها برؤية الله فيقال عنها بأننا سنكون في أحضان النساء كل حين، فلا صلاةَ ولا عبادة ولا مشاعر حب الله ولا أسباب الرقي الروحاني؛ فكأننا جُعلنا في الدنيا كافرين، وفي الجنة أيضًا كافرين.



شرح الكلمات:

أرأيت: يعني: أخبِرْني. وكلمة "رَأَى" تُستعمل لرؤية العين ورؤية القلب أيضًا. فمثلا لو قلتُ عن هذه الساعة الموضوعة أمامي: رأيت الساعة، فهذه رؤية عين (المفردات للإمام الراغب)، أما رؤية القلب فتعني أن تجد الشيء بوصف معين. يقال رأيت زيدًا أسدا، وهذا لا يعني أني رأيت له براثن أيضا، بل المراد أنك اختبرته في الشدائد فوجدته شجاعا باسلا كالأسد، فلأن قلبك استنتج ذلك بعد هذه الخبرة، فهي رؤية قلب، لأن الخبرة تكون بالقلب لا بالعين.

وهذا التعبير موجود في لغتنا الأردية أيضًا، إذ نقول: رأيته هكذا، ووجدته بهذه الصفة.

إذا أُريدَ بفعل "رأى" رؤية قلب فيكون له مفعولان، وإذا أريد به رؤية عين فيكون له مفعول واحد.

وإذا سبقت الفعلَ "رَأَى" همزةُ الاستفهام أفاد معنى لا يوجد في أصله، فمثلاً إذا قلت "أرأيت" كان المراد: أَخْبِرْني (الأقرب).

الدين: الدين في العربية تفيد ثلاثة عشر معنى، هي: الجزاء؛ المكافأة؛ الطاعة؛ الحساب؛ القهر والغلبة والاستعلاء؛ السلطان؛ التدبير؛ ما يُعبد به الله (أي الحركات الجسدية والكلمات التي نعبد بها الله تعالى والتي نسميها الصلاة)؛ الملة؛ الورع؛ الحال؛ القضاء؛ العادة؛ الشأن (الأقرب).

ولفظ الشأن يستعمل بمعنى الحالة، وأيضا بمعنى الحالة الخاصة أي بمعنى القدْر والمنـــزلة أيضا.

وجميع المفسرين والنحاة متفقون على أن قوله تعالى ﴿أَرَأَيْتَ﴾ يعني أخبِرْني. وقد قلت آنفًا إنه إذا أُريد بفعل الرؤية رؤيا قلب، فيكون له مفعولان، وأحد المفعولين ظاهر هنا وهو قوله تعالى ﴿الذي يُكَذِّبُ بالدِّينِ﴾، فأين المفعول الثاني يا ترى؟ إنه محذوف، وهو عند النحوي الشهير "الحَوْفي": "أليس مستحقًا عذابَ الله"؟ أما الزمخشري فيرى أن المحذوف هو: "مَن هو"؟ (روح المعاني والكشاف)

والزمخشري من المعتزلة الذين أفكارهم تشبه أفكار الطبيعيين في العصر الحاضر، لكنه طويل الباع في الأدب والنحو، وقد ألّف قاموسا للعربية، ومِن خدماته للقرآن الكريم استشهاده بأقوال العرب وشعرهم بكثرة في شرح مفردات القرآن ونحوِه، مما يكشف معانيه بجلاء. ومن خدماته أيضا أنه نزَّه تفسيره من كل رطب ويابس وكلام سخيف، وإنْ كان الزمخشري ينكر المعجزات إلى حدّ ما. الواقع أن الشخص المتَّبع للمنهج الطبيعي يحمل سيفًا ذا حدّين؛ يقطع به كلَّ ما هو لغو وعبث، والمعجزاتِ الحقّة أيضًا.

لو أخذنا بالمحذوف الذي ذكره الزمخشري فستعني هذه الآية: يا محمد، أو يا أيها المخاطب، أرأيت الذي يكذب بالدين مَن هو؟

وقد استدل الزمخشري على كون الرؤية هنا رؤيةَ قلب لا رؤيةَ عين برواية تقول إن عبد الله بن مسعود قال إن إحدى قراءات هذه الكلمة هي: "أرأيتك". والمعروف أنه إذا كان المقصود رؤية عين فلا يُستعمل كاف الخطاب (الكشاف والبحر المحيط).

ولكن لا داعي لتقديم أي دليل كهذا، فلا يمكن أن يراد هنا إلا رؤية قلب.

ويرى الحوفي أنه قد يكون المراد هنا رؤية عين، وليس ثمة محذوف (البحر المحيط)، والمعنى: أنك قد رأيت مَن يكذب بالدين حتمًا، فالهمزة هنا ليست للإنكار بل للتأكيد، مثل قوله تعالى ﴿أَلَمْ ترَ﴾.. أي قد رأيت بكل تأكيد.

الحق أن المراد هنا رؤية قلب لا رؤية عين، ذلك أنه إذا كان الحديث عن رؤيتك أناسًا كثيرين فلا يراد بها رؤية عين بل رؤية قلب. وقوله تعالى ﴿يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ ليس إشارة إلى شخص معين، بل إلى أهل مكة كلهم الذين كانوا يكذبون بالدين، بل إلى العالم كله؛ فما دام الحديث هنا عن قوم لا عن فرد واحد فليس المراد هنا رؤية عين بل رؤية قلب، إذ لم تُستعمل صيغة المفرد هنا إلا بسبب شخصية متصورة في الذهن، فكأننا تصورنا فِعْلَ أو عملَ أو طريقةَ قومٍ كشخصية قد تراءت أمام أعيننا. فالحق أن الأخذ بتأويل الحوفي أيضًا لا يجعل الرؤية رؤية عين بل هي رؤية قلب، وإنْ لم يكن هناك مفعول ثانٍ.

باختصار، هذا ما قاله الحوفي، أما سائر العلماء فمتفقون أن المراد هنا رؤية قلب.

لقد بينتُ مرارا أنه إذا كان للكلمات والتعابير المستعملة في القرآن أكثر من معنى، وكانت كلها منسجمة مع السياق، فسنأخذ بها كلها باعتبارها صحيحة، وعليه فنقول إن هذه الآية تحتوي على كلّ من معاني "الدين" المذكورة آنفًا ما دام منسجمًا مع مضمون هذه السورة، ولا يحق لأحد أن يرفض أيًّا منها.

وأقوم الآن بتفسير الآية بناء على هذه المعاني المختلفة لكلمة الدين.

فقوله تعالى ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ يعني:

١: أَخبِرْني مَن الذي يكذِّب بالجزاء والمكافأة.

٢: أَخبِرْني من الذي يكذِّب بالطاعة، أي النظام.

٣: أَخبِرْني من الذي ينكر غلبة الحق والعدل.

٤: أَخبِرْني من الذي ينكر السلطان (أي السلطة الإلهية).

٥: أَخبِرْني من الذي ينكر الدين.

٦: أَخبِرْني من الذي ينكر عبادة الله.

٧: أَخبِرْني من الذي ينكر النظام القومي (أي النظام الديني).

٨: أَخبِرْني من الذي ينكر رغبة تجنُّب الشبهات.

٩: أَخبِرْني من الذي ينكر قوة تأثير العادة.

١٠: أَخْبِرْنِي من الذي ينكر التدبير الصحيح.

١١: أَخْبِرْنِي من الذي ينكر قضاء الله وقدره.

١٢: أَخْبِرْنِي من الذي ينكر شؤون الله وتجلياته.

هذه اثنا عشر معنى وكلها تنطبق هنا. لقد تركتُ بعض المعاني المذكورة في القواميس، كالحال مثلاً، لأنه قريب جدًّا من الشأن الذي أخذته. وقسمتُ معنى الملة إلى اثنين، لأن كليهما ينطبق هنا. كما تركت معنى الحساب، لأنه مندرج في الجزاء والمكافأة.

وأقوم الآن بتفسير الآية على ضوء هذه المعاني واحدا تلو الآخر.

التفسير:

المفهوم الأول: أي: أَخْبِرْنِي من الذي ينكر الجزاء والمكافأة. وتعبيرُ "أَخْبِرْنِي" يدل على شناعة فعل المرء وعِظَمِ سوءه. وفي لغتنا الأردية أيضًا يقال: أَخْبِرْنِي من الذي قال هكذا. ولا يراد به السؤال عما إذا كان القائل هو زيد أو عمرو، بل يراد به التشنيع على قوله. وعليه، فإن الله تعالى يقول هنا إن قائل هذا الكلام سيئ جدا.

علمًا أن هذه المفاهيم الاثني عشر -التي سبق ذكرها- تشير في الواقع إلى سيئات أساسية تُورِّطُ المرءَ في آلاف المعاصي الأخرى، وكأن سيئة واحدة منها تنتج آلافًا مثلها. خذوا مثلاً مفهوم الجزاء والمكافأة، فإن منكره يتجرأ على كل أنواع المعاصي، لأن هناك آلاف الحسنات التي يقوم بها المرء خوفًا، وآلاف الصالحات التي يعملها أملاً. وليس الجزاء والمكافأة ما يكون في الآخرة فقط، بل إن ظاهرة الجزاء تبدأ من هذه الدنيا نفسها كما أكد القرآن الكريم ذلك في عشرات الآيات؛ فأنواع العذاب الذي يحلّ بمنكري الأنبياء وصنوف العقوبات التي تنـــزل بالذين يخالفون نواميس الطبيعة إنما تظهر في هذه الدنيا. إذن، فالذي يكذّب بالدين لا يراد به منكر الجنة والنار، بل يعني من ينكر جزاء الأعمال، سواء في الدنيا أو الآخرة.

إننا نشاهد أن الذين ينكرون الجنة والنار ولكنهم يؤمنون بالجزاء والمكافأة، هم أيضًا يتجنبون آلاف السيئات. فمثلا هناك قوم منهم يؤمنون بنتائج المفاسد القومية، بمعنى أن الأمة إذا أصيبت بمفاسد معينة هلكت، وإذا تحلّتْ بمزايا معينة نجتْ؛ فإذا تعلّمَتْ مثلاً، واعتادت الصدق، وتميّزت بالجد والكدح، وتحلّت بالتضحية والإيثار ازدهرتْ، وهذا هو الجزاء والمكافأة بعينه. إن الأمم التي يتنامى فيهم الشعور بأن هذه الأمور لا تخلو من عواقب، فإنها تُصلِح ما بها من عيوب وتحرز الرقي. لا شك أن الشعوب الأوروبية المسيحية تؤمن بأفواهها بالجزاء في الآخرة، ولكنها ملحدة عمليا، إذ لا يوجد أي أمل للحياة الآخرة إلا عند غير المثقفين منها، أو عند طبقة معينة من القسيسين، ومع ذلك فقد أدرك هؤلاء الملحدون بدراسة عميقة للتاريخ أن تصوُّرَ العامة بأن بعض الأعمال تبقى من دون نتيجة تصوُّرٌ باطل؛ كلا، ليس هناك عمل يظل بدون نتيجة فرديًّا كان أم جماعيًّا، بل كل عمل يُعقِب نتيجةً، فإذا كان حسنًا فحسنة، وإذا كان سيئا فسيئة. لقد أيقنوا من خلال النظر في القانون الطبيعي الجاري في الدنيا، لا بسبب ابتغائهم مرضاة الله، أنه ما من عمل إلا ويُجزى عليه صاحبه، ولذلك يسعون كأُمّةٍ جاهدين بالتحلي بالأخلاق السامية. إنهم لا يصدُقون القول فيما بينهم إرضاءً لله تعالى أو طمعًا في الجنة، بل لأن الناس لن يثقوا بهم بدون ذلك، وإذا لم يثقوا بهم لم يتعاونوا، وإذا لم يصدقوا القول مع الأمم الأخرى فقدوا ثقتها بهم وبارت تجارتهم. كانت للهند تجارة مع البلدان الأخرى تبلغ الملايين، ولكنها أصيبت بالكساد لأن أهلها لم يصدقوا القول. أما الأوروبيون فرغم أنهم لا يتورعون عن الكذب في المعاملات الفردية، إلا أن الواحد منهم لا يكذب كذبًا يضرّ بقومه. لو قلتَ لصاحب محل في بلادنا أن يبعث إلى بيتك سلعة معينة، فلن يبعث مما رأيته معروضًا في محله، ولكن لو طلبت شيئًا من محل في أوروبا أو أمريكا فسوف يأتيك كما طلبته تماما بعد ستة أشهر أو سنة. والسخرية التجارية التي نعانيها في بلادنا لن تراها في البلدان الأخرى، إذ ينشرون عندنا إعلانات في الجرائد أنك إذا اشتريت منهم بعض الأشياء لحصلت على هديّة؛ ساعةٍ أو قلم سائل، ثم يبعثون لك ساعة لا

تساوي نصف روبية، أو يعطونك قلمًا مستوردًا من ألمانيا ليس ثمنه إلا بضعة قروش، وهذا خداع مكشوف وغش صارخ لن تجده عند الأوروبيين، لأنهم يعرفون أنه إذا لم يكن خلُقهم القومي عاليا فازدهار تجاراتهم محال. إنهم يبيعون بضائعهم للبلاد الأخرى، ولذلك يعاملونهم معاملة تضمن لهم الصيت الحسن. هذا الأمر تجده في أهل إنجلترا وأمريكا خاصة. كانت في ألمانيا فئة من التجار يمارسون الغش، ولكن عامة الألمان ليسوا كذلك. وتجارة سويسرا مزدهرة بشكل خاص بعد تجارة أمريكا وإنجلترا. لو طلبت من هؤلاء القوم بضاعة وصلتك بحسب شروطك تماما. فلو طلبت من فرنسا شيئًا مثلاً جاءك مطابقًا لشروطك بنسبة ٩٠%، ولكنك لو طلبت من أحد تجار الهند بضاعة لكانت فاسدة بنسبة ٩٠%.

إذن فليس المراد من إنكار الجزاء والمكافأة هنا إنكار ما يلقاه المرء من ثواب أو عقاب من عند الله تعالى، بل المعنى أنه كل من لا يؤمن بظاهرة الجزاء والمكافأة في الدنيا، سواء لعدم إيمانه بتأثير الأعمال على الأخلاق، أو لعدم إيمانه بالله، فلا بد من فساد أخلاقه.

يعترض بعض الفلاسفة الحمقى بأن القيام بعمل طمعًا في المكافأة وخوفًا من العقاب ليس من الأخلاق الحسنة. الواقع أن هذه النظرية الحمقاء ليست من الفلاسفة، بل هي من القسس؛ ذلك أن كل الفلسفة التي كانت تُدرَّس في أوروبا في الماضي إنما كانت تُدرّس في مدارس القسيسين، إذ كانوا هم أصحاب تلك الكليات وأساتذتها، مما جعل الفلسفة الغربية تتشرب أمورًا كثيرة مطبوعة بطابع الدين المسيحي، وذلك كما نجد طابع الدين إلى حد كبير في العلوم الإسلامية التي كانت تُدرَّس في البداية؛ خذوا مثلا اللغة والشعر والتفسير، فتجدون فيها طابع العقائد الدينية واضحًا، ولذلك تسربت بعض الأخطاء إلى علومنا الإسلامية أيضا. إنما الفرق هو أن ديننا لم يتدخل في الفلسفة، لكن الدين الأوروبي تدخل فيها، وأن ديننا لم يتدخل في الطب، لكن الدين الأوروبي تدخل فيه أيضًا. أما اللغة العربية فلا بد من تسرب التأثير الديني فيها بشكل واضح، فمثلاً حين نجد صعوبة في شرح كلمة من القرآن الكريم ونراجع أحد القواميس نجد أن صاحبه يستدل بنفس الآية

التي وردت فيها تلك الكلمة التي نريد معرفة معناها، وهكذا ندور في حلقة مفرغة. وإذا وفّق الله أحدا منا فعليه أن ينـــزه القاموس العربي من هذا العيب الذي تسرب إليه بتأثير العقيدة، فمثل هذه الأمور لا تخدم القرآن، بل تظلمه. ذلك أن من اتّبع طريقا زائفا باطلا في البحث أغلق باب العلم. إن القرآن كتاب الله ﷻ، وعليهم أن يدركوا أن ما قال الله تعالى هو الصحيح، فإذا لم يجدوا في القواميس معنى لكلمة قرآنية فعليهم أن يبذلوا جهدهم في البحث والتحقيق وسوف يكشف الله عليهم طريقا للوصول إلى بُغْيتهم، ولكن ليس معقولاً أن يستدلوا بنفس الآية التي ورد فيها اللفظ الذي يبحثون عن معناه، ويُخضعوه للتفسير بدلاً من اللغة، مع أن اللغة هي التي ستساعدنا فيما إذا كان المعنى الذي أخذنا به صحيحا أم لا. ولو أنهم أمعنوا النظر أكثر بدلاً من التسرع هكذا لازدهرت اللغة ومعاجمها وانتشرت معارف القرآن أيضا أكثر. ولكنهم اتبعوا طريقا زائفا، حيث ذكروا في القواميس في بيان معنى كلمة قرآنية تفسيرَ مفسِّر سابق، وهكذا حالوا دون أن تكون اللغة خادمة للقرآن الكريم. وإنهم لم يرتكبوا هذا الخطأ في كلمة أو كلمتين، بل في كثير من الكلمات القرآنية، فلو نظرت في "لسان العرب" -وهو أكبر قاموس عربي- وجدت هذا العيب في عدد من مواضعه، فعندما يتناول صاحب "لسان العرب" كلمة قرآنية ويجد استعمالها خلافا للمعنى المعروف يأتي بمعناها من أحد التفاسير مستدلا بالآية نفسها، مع أن الواجب أن يرفض المعنى التفسيري باعتباره خلافا لُلغة العرب، أو يؤكده بأمثلة من أقوالهم مستشهدًا على أن العرب قد استخدموا هذا اللفظ أو هذا التعبير، أما إيراد الآية نفسها دليلا على المعنى الذي يريده فهذا لا يدرأ الاعتراض، بل يزيده قوة. ولو أنهم تحرّوا الأمر أكثر لوجدوا حلولاً كثيرة، ولكنهم تسرعوا، فتسرب هذا العيب إلى المعاجم.

فلأن القسيسين كان لهم دور كبير في تعليم الفلسفة الأوروبية في الماضي، فأدخلوا فيها أمورا كثيرة لا تمتّ إليها بشيء، وذلك بقصد الطعن في الإسلام. لقد أعلن القرآن الكريم مرة بعد أخرى أن هناك جنةً ونارًا بعد الموت، فأثار القسيسون بحثًا عقيمًا باسم الفلسفة بأن العمل الذي يقوم به المرء خوفًا من العذاب أو طمعًا

في الثواب لا يمكن أن يسمى برًّا، إنما هو خُلُق مذموم. والحق أنه قول باطل تماما. إذا كان هذا مذمومًا فليس في الدنيا أخلاق حسنة أصلا. فهل هناك عمل لا يعمله المرء خوفًا أو طمعا؟ لو وضعتَ أمام هذا القسيس المعترض حفنة من مسحوق الفلفل الحار وقلتَ له أن يأكلها فهل سيأكلها؟ كلا، بل سيقول إنني لا أستطيع ذلك لأني أُصاب بالإسهال. فثبت أنه لا يأكلها خوفًا؛ فهل يُعتبر تصرفه هذا سيئةً؟ إذا كان تجنُّب عملٍ نتيجة الخوف أمرًا سيئا، فلماذا يوجد في الدنيا شتى القوانين والتعزيرات؟ ولماذا يقال مثلاً إن السارق يُعاقَب بكذا وكذا من العقوبات؟ إذا كانت هذه الفلسفة المسيحية سليمة فكل الحكومات التي سنّت هذه القوانين والعقوبات تخالف هذا المبدأ الخلقي المسيحي. هذا المبدأ لن يقوم في العالم إلا إذا أعلنت الحكومات أننا لن نعاقب أي سارق، إنما عليه أن يقلع عن السرقة بنفسه إذا أراد، وأننا لن نعاقب أي قاتل، بل عليه أن يكفّ عن القتل بنفسه إذا أراد. هل ترضى أي حكومة بهذا الاقتراح؟ الحق أن هؤلاء القسس قد سوّدوا وجوههم بأيديهم بالطعن في القرآن والإسلام، حيث قدّموا فلسفة لا تعمل بها أمريكا ولا فرنسا ولا ألمانيا ولا غيرها من البلدان الغربية، بل إن العمل بها في الدنيا محال. الحق أن الأستاذ المسيحي الذي يعلِّم في الكلية أن القيام بعمل خوفًا من عقاب أو طمعًا في ثواب خُلُقٌ مذموم وعمل سيئ، هو نفسه لا يعمل بهذا المبدأ، إذ لا يقوم بالتدريس إلا مقابل أجر. ثم إنه يغرِّم خادمه بغرامة إذا أخطأ في خدمته. فهل يغرِّمه لإفساد أخلاقه يا ترى؟ إذا كان التخويف من العقاب يُفسد أخلاق المرء فلماذا يخوّف هذا الأستاذ خادمه من العقوبة؟ ولماذا يغرِّمه؟ إنه يغرِّمه لأنه يدرك كل الإدراك أن الناس ذوو درجات متفاوته من حيث الأخلاق؛ فبعضهم يتأثر بالعقاب، وبعضهم بالعطاء، وبعضهم يبلغ درجة التفاني في الحب والعشق فيعمل بغضّ النظر عن عقاب أو عطاء. فالدرجة الأولى في الأخلاق هي الخوف، والثانية هي الثواب، والثالثة هي أن المرء يُعمل فكره في فلسفة الخير وحكمتها، فيدرك قيمته الذاتية، فيعتاده، ويعمله حبًّا له ورغبة فيه، لا طمعًا في ثواب ولا خوفًا من

عقاب. وأكبر مراتب الأخلاق أن تعمل الخير تكميلاً للنفس تأسيًا بمثلٍ أعلى. وإهمالُ أيٍّ من هذه الأمور يدفع معظم الناس إلى السيئات.

فالحق أن هؤلاء القسس إنما جدعوا أنوفهم بتقديم هذه الفلسفة العقيمة عداءً للإسلام. كان المسلمون يتأثرون بكلامهم حين لم يكونوا مطّلعين على مكرهم وخداعهم، ولكن لما وصلت مطاعنهم إلى الذين يفهمون القرآن الكريم، فقد كشفوا خداعهم وفضحوهم تماما.

باختصار، لا يراد بالجزاء والمكافأة ما يكون في الآخرة فقط. فإذا تولّدَ في فرد أو قوم إحساسٌ بالجزاء والعقوبة -أعني أنهم أدركوا بأن الأخلاق الحسنة تساعد الأمة على التقدم، وأن الأخلاق الرذيلة تُفسدها وتهلكها، أو أن الأمم تُعاقَب على سيئاتها حتمًا، أو أن الله تعالى سيعاقب على السيئات ويكافئ على الصالحات يقينًا، سواء في الدنيا أو الآخرة، أو يكافئهم على أعمالهم الحسنة سواء في الدنيا أو في الآخرة- حالَ هذا الإحساس دون ارتكابهم السيئات يقينا. هذه حقيقة ثابتة جلية لا ينكرها إلا الذي يتعامى ويكابر.

إذن، فمن معاني قوله تعالى ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾: أَخبِرْني مَن الذي يقول أن لا جزاء ولا عقوبة في الدنيا! إن هذا القائل يمكن أن ينكر الله تعالى ولكن لا مناص له من الاعتراف أن بعض الأعمال تدفع الأمم أو الأفراد إلى الحضيض، وبعضها تساعدهم على التقدم. هذه حقيقة ثابتة مَن أنكرها تردى ووقع في المعاصي يقينًا.

المفهوم الثاني: أَخبِرْني من الذي ينكر الطاعة، والمراد من الطاعة النظام والضبط، وليس الرق والعبودية. إن القرآن والإسلام عَدوّان للرق، بل إن الإسلام أول دين قد قضى على الرق في العالم، ولكن هذا موضوع منفصل يتعذر الخوض فيه الآن. يظن الناس خطأً أن القرآن يجيز الرق! سأضع القرآن أمام أي شخص، فليُخرجْ لي منه آية واحدة تجيز الرق إن استطاع. إني لم أجد أي آية كهذه، مع أني أُكثرُ قراءةً للقرآن الكريم من المعترض مئات المرات. إن ما يسمى رِقًّا لا يوجد في القرآن ولا

الحديث. إني أُقِرُّ أن الرقّ قد ظل رائجا بين المسلمين خطأً، ولكن لا يجوز الاعتراض على القرآن أو الإسلام بخطأ المسلمين. عندما كان الهندوس هنا في باكستان، كان المسلمون يذهبون إلى السينما لمشاهدة الأفلام، ويفعلون ذلك بعد ذهاب الهندوس إلى الهند أيضًا، وكانوا يقومون بالرقص والغناء، ولا يزالون يرقصون ويغنّون بعد ذهاب الهندوس من هنا، فلو شغّلت المذياع قليلاً لسماع الأخبار فتجده يذيع برامج هزلية دائما؛ إذ تسمع أصواتًا مزعجة وكلامًا سخيفا. كذلك لا تلتزم نساؤهم بالحجاب، ويتعاطون الخمر بكثرة، حتى أعلنت حكومة إقليم السند أننا لو فرضنا الحظر على شرب الخمر في شهر رمضان أصابتنا خسارة بليون روبية. فأولاً أقول: إذا تكبدت الحكومة خسارة بليون روبية نتيجة هذا الحظر فأيُّ ضير في ذلك؟ وثانيًا: إن ما يقلقني أكثر هو أن خسارة مليون روبية كل شهر في السند يعني أن أهلها يتعاطون الخمر شهريا بما قيمته خمسة ملايين روبية، أي ستين مليونًا سنويا. وسكان أقاليم باكستان الأخرى يزيدون عن سكان السند ١٢ ضعفًا، ولو قسنا باقي الأقاليم على السند لكان معنى ذلك أن مسلمي باكستان يشربون في السنة خمرًا بقيمة ٧٢٠ مليونًا. فلماذا هذا التصرف الأحمق؟ لا أفهم! ومع ذلك ليس الإسلام مسؤولاً عن هذا، لأنه ينهى عن شرب الخمر.

فالطاعة هنا لا تعني الرق والعبودية، وإنما الطاعة عند الإسلام هي النظام وضبط النفس، أي لا يحق لأحد أن يقدِّم الحرية الفردية على مصلحة الأُمة. وكل القوانين التي تسنّها الدول بشأن النقل والمرور والقطارات والجوازات والتجارات وغيرها، يخضع لها سكانها كلهم؛ إذ تعلن الدول أن كل مواطن حر بلا شك، ولكنه لا يمكن أن يتمتع بحرية تضرّ بالشعب. سوف نمنح الفرد الحرية التامة، ولكن حيثما عارضتْ مصلحتُه مصلحةَ الأمة نضع حدًا لحريته.

هذا هو القانون الذي تمخّض آخذًا هذا الشكلَ بعد خبرة طويلة وجدال وحروب وشد وجذب، ويعترف به كل العالم، ولا سيما العالم المتمدن، وقد أشار إليه القرآن الكريم قبل ١٤ قرنا في قوله تعالى ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾.. أي أَخبِرْني عمّن لا يؤمن بالنظام وضبط النفس. وها إني أخبرك أن مثل هذا الإنسان

لن ينال عزًّا ولن يتسبب في مجد قومه، بل سيقع في المنكرات والسيئات حتمًا، لأن الذي يخالف هذا المبدأ أو القانون لا يمكن أن يبقى متمسكا بالخير.

ما أروعَ المعنى الذي تُبيّنه هذه الآية! لا يوجد فيلسوف أوروبي واحد قد بيَّن في عشر مجلدات ما بيّنه القرآن في هذه الآية الوجيزة من موضوع أخلاق الأمم. إنها جملة موجزة ولكنها تنطوي على موضوع يمكن أن تؤلّف فيه المجلدات. يقول الله تعالى إن الذي ينكر مبدأ ضبط النفس أو النظام لا يمكن أن يبقى صالحا، لأن ما يقوله خطأ تماما وسيؤدي إلى الفساد والخراب. فمثلاً لقد سنّت الدولة عندنا قانونًا يحتّم المرور على يسار الطريق، ولكن الذي يقول: لماذا ألتزم بهذا القانون، سأسير في أي جهة شئتُ ما دام مسموحًا لي بالمرور في الطريق، فمصيره واضح، فإما أن يصطدم بسيارة ويجرح نفسه، أو يصطدم بالمارة عند كل خطوة ويسبب المشاكل للجميع.

الواقع أن من المحال أن يسود السلام في العالم بدون اتباع النظام. فقول المرء لماذا أتّبع القانون الفلاني، إنما هو طريق الفساد.

غير أن الحفاظ على النظام لا يعني أن يأخذ البعض القانون بأيديهم، ثم يضغطوا على الآخرين كما شاءوا. فقد قرأت في الجريدة الإنجليزية (civil) أن الناس أخذوا شخصا غير صائم في مدينة "راولبندي" أو "لايلبور" وسوَّدوا وجهه ومرّوا به في الأسواق. ولو احتج أحد على ذلك وقال ليس من حق الناس تنفيذ القانون بأيديهم، فهو مصيب في قوله، فقد جاء النبيَّ ﷺ صحابي وقال يا رسول الله، لو رأيتُ رجلا غير محرم مع زوجتي في حالة مشبوهة، فهل أقتله؟ قال ﷺ: لا. وكانت عقوبة الزاني حتى ذلك الوقت هي الرجم، فقال: يا رسول الله، ألا يأمر الإسلام بقتل الزاني؟ قال ﷺ: نعم. قال: ما دام الإسلام يأمر بقتله فلماذا لا أقتله بنفسي؟ قال ﷺ: كلا، إذا قتلتَه عوقبتَ بجريمة القتل. عليك أن تأخذه إلى القاضي وترفع قضيتك إليه، ولا يحق لك تطبيق القانون بيدك (البخاري، كتاب الطلاق).

فالقانون الذي سنّته الدولة لا بد من الرجوع وفقَه إلى القاضي، وإلا فلن يُرسى السلام والأمن، بل سينتشر الفساد والفوضى. وإذا كان القانون مِن صُنْع المجتمع

فيُرجع فيه إلى قاضي المجتمع، أو لجنة التحكيم المحلي، ولكن لا يحق لكل من هب ودبّ أن ينفِّذ القانون بيده ويعاقب المجرم. يظن المرء في حالات كثيرة جدا بأن جريمة المتهم ثابتة، بينما يرى القاضي العكس، ذلك أن الجريمة لا تثبت عند القانون إلا بشروط قاسية. لو كانت هذه الشروط لينة لعرَّض الناس كثيرا من الأبرياء للعقاب، ولكن القانون يضع لإثبات الجناية معايير هي أكثر صرامة مما يتصوره العامة، وذلك إنقاذًا للأبرياء. ولو مُنح العامةُ حق إنزال العقوبة لعاقبوا كثيرا من الأبرياء لقلّة خبرتهم. القانون ليس هدفه عقابَ الجاني فحسب، بل هدفه أيضا أن لا يحل العقاب بالبريء. العامة يريدون أن يعاقبوا مَن اشتبهوا فيه، ولكن روح القانون منصف؛ فهو يعاقب ولكن بعد أن تثبت الجريمة ثبوتا يؤدي إلى عقاب المجرم وتبرئة ساحة البريء.

ملخص القول أن الله تعالى قد أعلن بقوله ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ أن الذي ينكر ضبط النفس والنظام سيقع في الإثم حتمًا. يقول لي كثير من الناس إن فلانا قد ارتكب الخطأ الفلاني، فهل نترك الصلاة وراءه؟ فأقول لهم دائما: كلا، بل ارفعوا أمره إلى الجهة المعنيّة، ثم اعملوا بحكمها، ولا يحق لكم أن تحكموا بأنفسكم، إذ قد يكون بينكم وبينه عداوة فلا يكون رأيكم محايدًا عادلا. فمخالفة القانون شيء، أما إثبات مخالفته التي لا بد منها، والتي من دونها لا يمكن أن يستتب النظام على ما يرام، فشيء آخر.

وليكن معلوما أن الذي يتبع النظام إنما يتبعه إذا أيقنَ أن رقي الأمة يضمن رقي الفرد. فهناك نظريتان في العالم اليوم، تقول إحداهما إن الأمة تتكون من الأفراد، ورقي الفرد هو الأصل. ويرى أصحاب هذه النظرية أن النظام ليس ضروريا، وإذا حال النظام دون رقي الفرد فمن حق الأفراد أن يخالفوه. أما النظرية الثانية فيقول أنصارها إن رقي الأمة يضمن رقي الفرد، ولا شك أن الحفاظ على حرية الفرد هو مسؤولية الأمة، ولكن لا يحق للفرد أن يخالف قانون الأمة إذا وجده خلافا لمصالحه. إذا وجد أن القانون الذي سنّته الأمة يعيق رقي الفرد فله الحق أن يعمل على إلغائه باتّباع الطرق المشروعة، ولكن لا يحق له أن يخالفه من عند نفسه. هذا

هو مفهوم قوله تعالى ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾.. أي أن الذي يقدِّم مصالح الفرد على مصالح الأُمّة لا بد أن يقع في إثم الأنانية، وتحقيقًا لمصلحته الشخصية يمارس أعمالا تدفع الأمة إلى كثير من الخطايا، فينفتح باب المعاصي على مصراعيه.

المفهوم الثالث: ومن معاني الدين الغلبةُ، ولكن لا يراد مِن مكذِّبِ الدين مُنكِرَ الغلبة فحسب، إنما منكر غلبة الحق والإنصاف والصالحات، ذلك أنه لا يخلو البلد من غالب ومغلوب، فإذا كان النظام سائدًا كانت الحكومة هي الغالبة، وإلا كانت الغلبة للُّصُوص وقطاع الطرق؛ وعليه فقوله تعالى ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ يعني: أَخْبِرْني من الذي لا يؤمن أن العاقبة تكون للأعمال الصالحة، لأنه سيقع في السيئات حتمًا، إذ إن قوله يماثل المثل البنجابي عندنا بأن هذه الدنيا حلوة لذيذة، فكيف نترك لذاتها ومُتعها من أجل الآخرة! فمن ذا الذي قد رأى الآخرة؟ إذ لا رادعَ له من السيئات، وليس عنده عاطفة تجذبه من مراتع المنكرات. إنه يفكر أن عليه أن يعمل لمصلحته أو مصلحة قومه في كل حال ولو بطريق غير مشروع، ولأن الطريق المشروع يتطلب منه تضحية فيتّبع طرق الإثم والمعصية في معظم الأحيان. أما الذي يوقن أن الغلبة للخير في نهاية المطاف فلا بد أن يتجنب اتباع الطرق غير المشروعة قائلا: لا ضير لو تكبدتُ خسارة مؤقتة بدلاً من أُلحق بنفسي ضررًا أبديًّا من أجل مصلحة مؤقتة؟

وليكن معلوما أن فكرة انتصار الخير في النهاية لا يمكن أن تخطر ببال أحد أبدًا من دون أن يوقن بيوم القيامة. إن الذي لا يؤمن بالآخرة لا يمكن أن يؤمن أن العاقبة للخير. فتجد الفلاسفة الأوروبيين مثلاً يركّزون كثيرًا على قولهم بأن الخير يجب أن يعمله المرء من أجل الخير فقط، وهذا يعني بتعبير آخر أن الغلبة للخير في النهاية؛ ولكن لن تجد دولة أوروبية واحدة تبني سياستها على هذا المبدأ، إنما تتمحور سياستهم على غلبة شعبهم، فيلجأون لتحقيق غلبتهم إلى طرق غير مشروعة كالغش والخداع. يقول المثل الإنجليزي الشهير: (End justifies the means).. أي الغاية تبرر الوسيلة، بمعنى أنه إذا كان الهدف خيرًا فلا بأس لتحقيقه

من اتباع الطرق غير المشروعة، مهما كانت شنيعة. لماذا نشأت عندهم هذه النظرية؟ إنما منشؤها أنه ليس عندهم إيمان بالحياة الآخرة. لا شك أنهم يقولون إن الأصل هو الخير، ويجب أن يُفعَل الخير من أجل الخير فقط، ولكنهم لما رأوا الواقع ووجدوا أن فاعل الخير يخسر أحيانا، اخترعوا هذه النظرية وقالوا لا حرج لرفعِ صرح الخير على أعمدة من الشرّ، لأن المقصود الحقيقي هو إرساء الخير. أما الذي يؤمن بالحياة الآخرة فلا يريد أن يرى عاقبة أعماله بشكل تام في هذه الدنيا، بل يقول لا بأس لو تكبدت أنا أو أمتي خسارة في سبيل التمسك بالخير، لأن هذه الخسارة سوف تُعوَّضُ في الآخرة، ومثل هذا الإنسان لن يتبع الطرق السيئة لإرساء الخير، بل لا يرى داعيًا لذلك؛ إذ يؤمن أن هذه الدنيا حلقة من حلقات الحياة التي ستستمرّ بعد الممات، ويوقن أن الخير سيغلب حتمًا ولو في الآخرة. ومن أجل ذلك تجد أنه لم يتمسك أحد بالمستوى الأعلى للخير إلا الذين يعبدون الله تعالى. إن الفلاسفة الأوروبيين يركزون كثيرا على التحلي بالأخلاق الفاضلة، وقد كتبوا عشرات الأمور في كتبهم بهذا الشأن، فلو قرأتَ ما كتبه هكسلي، وسبنسر، وهيجل، وكانْت، خُيِّل لك أنهم أكثرُ خيرًا ممن يؤمنون بالدين، ولكنك إذا فحصت سيرهم الذاتية لم تجدهم يساوون غِلْمانَ غلمانِ الأنبياء؛ وليس ذلك إلا لأنهم يقولون ما لا يفعلون؛ إذ يؤمنون أنه لا بد لنا من تحقيق مصالحنا بأي طريقة كانت. وعندما يرون تعارضًا صارخًا بين معايير الخير وبين مصالحهم ينسون كل ما قالوا من قبل، ويقولون لا بد لنا الآن من تحقيق أهدافنا بأي صورة ممكنة. أما الأنبياء فلا نجد موقفهم ولا عملهم يتغير مهما واجهوا من ظروف خطرة ومصاعب جمّة.

عندما أعلن جاليليو نظريته القائلة بأن الشمس لا تدور حول الأرض بل الأرض تدور حول الشمس، كفَّره القسس قائلين: لقد ورد في التوراة أن الله تعالى خلق الإنسان على صورته، وما دام الإنسان المخلوق على صورته سبحانه وتعالى يعيش على الأرض فلا بد أن تكون هي أفضل من الشمس، ولكن جاليليو قد كفر كفرًا بَوَاحًا بقوله هذا. فصبّوا عليه صنوف الأذى، فصبر عليها مدة من الزمن، ولكنه اضطر في

النهاية ليعلن قائلا: الآن قد فهمتُ الأمر على حقيقته، الواقع أن الشيطان أغواني عن ديني، فرأيت الأرض تدور حول الشمس، وهذا خطأ، والحق أن الشمس هي التي تدور حول الأرض، لأن هذا ما يقوله ديننا، فأتوب عن عقيدتي الجديدة.

كم كان هذا الابتلاء بسيطا، ومع ذلك انظروا إلى البون الشاسع بين ادعاء جاليليو وبين تمسكه بالصدق والخير! وهذا هو حال فلاسفة الغرب المعاصرين؛ إنهم يحثّون الآخرين على التمسك بالخير في كتبهم، ولكن إذا لم تتفق مصالحهم الشخصية أو مصالح أمتهم أو حروبها مع الخير، تناسوا فلسفتهم تماما وكذبوا بلا حدود. أما هذا النبي الأمي المبعوث في واد غير ذي زرع، والذي لم يكد يوقّع إمضاءه، فما كانت دعواه بسيطة كدوران الأرض حول الشمس أو العكس، بل إنه أعلن وحدانية الله تعالى خلافًا لعقائد قومه وبلده وطقوسهم وعاداتهم، وعندما عارضه قومه ظل ثابتًا على موقفه غير خائف ولا وجل. ولما طالت المواجهة فكّر زعماء قومه أن يضغطوا على عمه الذي له نفوذ عليه ليقول له أنه سيتخلى عنه لو استمر في تصرفاته. فقالوا لعمه لقد طالت الحرب التي أثارها ابن أخيك بيننا وبينه، فجئناك باقتراح لإنهائها. يجب أن نرى ما هو سبب هذه الحرب، فإن كان عقله قد اختلّ فيجب معالجته وسوف نتحمل نفقات علاجه، وإن كان يرغب في المال فنجمع كل ما يملك أثرياؤنا وفقراؤنا ونعطيه ثُلثه، وإن كان يرغب في أن يتزوج فتاة من أسرة عريقة فنعرض عليه فتيات رؤسائنا فليتزوج منهن من شاء، وإن كان يرغب في الحكم فنحن مستعدون لقبول سيادته.

هل هناك اقتراح أكثر سخاء من هذا من الناحية المادية؟ وهل كان بوسع عمه أن يحميه من القوم في حالة رفضه لهذا الاقتراح؟ ثم إنهم لم يطالبوا أبا طالب أن يأمر ابن أخيه أن يتخلى عن دعواه، إنما رجوه أن لا يذكر آلهتهم بسوء.

ثم قالوا لأبي طالب: إنك من زعمائنا ونحن نحترمك ونبجلك، ولذلك لم نتعرض لابن أخيك حتى الآن، فاعرضْ مطلبنا على ابن أخيك، وحاولْ إقناعه، أما إذا لم تستطع إقناعه ولم تستعدّ للتخلي عنه، فنعتبر ذلك إساءة منك إلى قومك. لقد عرضنا عليك أكثر ما نستطيع، والآن من واجبك إقناع ابن أخيك أو التخلي

عنه، وإلا فسوف نضطر لقطع أية صلة معك (السيرة النبوية لابن هشام: مباداة رسول الله ﷺ قومه، وما كان منهم).

هل هناك اقتراح أكثر عدلاً من هذا من الناحية المادية؟ لا أظن أن في الدنيا نظيره.

اعتبر أبو طالب كلامهم معقولا، وظن أنهم قد قدّموا أكبر تضحية ممكنة لهم. فلما رجعوا من عنده دعا ابنَ أخيه الأُمّيَّ المقيمَ في بلد غير ذي زرع والمترعرعَ في بلد غير متحضر، وقال له: يا ابن أخي، تعرف مكانتي عند القوم؛ لقد جاءوني اليوم وهددوني قائلين بأنهم لم يتعرضوا لك ويؤذوك من أجلي -كانوا يؤذون النبي ﷺ ولكن قولهم يعني أنهم لم يصبّوا عليه الأذى الذي يقضون به عليه- ولأن الأمر قد تفاقم الآن فيريدون إنهاءه بأي ثمن، وقد عرضوا عليّ اقتراحات لم أستطع أن أجيبهم عليها. لقد قالوا لي: يمكن لابن أخيك أن يقبل من هذه العروض ما شاء، أما إذا رفضها فعليك أن تتخلى عنه لأن تصرفه غير معقول ويدل على عناده ومكابرته، وإذا لم تتخلّ عنه فسوف نضطر للخروج عن سيادتك.

لقد قال أبو طالب هذا الكلام وهو يفكر أن القوم الذي خدمه طول حياته يريد التخلي عنه الآن، فاغرورقت عيناه. فلما رآه النبي ﷺ سالت الدموع من عينيه لفرط حبّه له وعلاقته القديمة معه، وقال: يا عم، إني لا أريد أن تتخلى عن قومك من أجلي، بل عليك إرضاء قومك. أما عروضهم فاعلم أني لم أدْعُهم إلى ما دعوتهم إليه طمعًا في منفعة مادية وإنما باعتباره صدقًا وحقًّا، فعروضهم لا تعنيني شيئًا، ووالله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري لن أتخلى عن الحق الذي أتاني من الله تعالى والذي أمرني بتبليغه. ولكني لا أريد أن تضحّي من أجلي، بل أرجوك أن تنضم إليهم واترك أمري بيد الله.

كان أبو طالب يتمتع بمكانة كبيرة بين القوم إذ كان سيدا لهم، وكان من الصعب أن يترك السيادة، ولكن كلام النبي ﷺ قد وقع في قلبه وقعًا عظيمًا، فأدرك أن ما يعرضه محمد على القوم لا زيف فيه، وليس من بنات أفكاره ولا من مكائده، إنما هو حق خالص وقد أثّر في قلبه تأثيرا لا تقدر أية قوة في العالم على

ردّه عنه، بل إنه سيرضى بالموت في سبيله. إن الجالس بالقرب من النار يشعر بدفئها، كذلك قد أحس قلب أبي طالب بدفء شعلة نور إيمان النبي ﷺ، فقال: يا ابن أخي، اذهبْ وواصِلْ مهمتك، فإني لن أتخلى عنك ولو تركني قومي.

هل يوجد بين فلاسفة الدنيا مثال كهذا مع كل هذه الظروف والملابسات؟ إني لا أريد مثالاً لفيلسوف قُتل مثلا، بل أريد مثالا لفيلسوف عُرضت عليه مثل هذه العروض في مثل هذه الظروف ثم ظل متمسكا بموقفه. كلا، لن تجدوا مثالاً كهذا بين فلاسفة الغرب، بينما تجدون آلافًا مثله بين أهل الإسلام، وليس في حياة النبي ﷺ فحسب، بل تجدونها في حياة أتباعه وخدامه ببركته ﷺ. قَتل أعرابي رجلا في عهد سيدنا عمر أو سيدنا عثمان -رضي الله عنهما- فرُفعت القضية إلى القضاء، فأدينَ وصدر الحكم بقتله. فقال للقاضي: لا شك أنني أستحق القتل، ولكن عندي أموال لبعض اليتامى، ولو متُّ ماتوا أيضا، وقد دفنتُ مالهم في مكان لا يعلمه غيري، فأمهلْني يومين أو ثلاثة حتى أذهب وأردّ إليهم أمانتهم ثم أعود. قال القاضي: مَن يضمنك، فلعلك لا تعود؟ لقد طالبَه بمن يضمن له عودته لأن الشعوب التي تعيش الفلوات والبراري يصعب القبض على المجرم فيها ثانيةً. فنظر الأعرابي يمنة ويسرة ثم قال مشيرا إلى أبي ذر الغفاري رضي الله عنه: هذا الرجل يضمنني. فسأله القاضي: هل تضمنه؟ قال: نعم. فأُطلق سراح البدوي فذهب. وظل القوم ينتظرون عودته في اليوم الثالث حتى حان العصر، ولم يبق إلى مغيب الشمس إلا ساعة أو ساعتان، فانتظروا أيضًا فلم يرجع، فاستبد بهم الخوف على حياة هذا الصحابي العظيم، فقالوا له: من هو هذا الشخص الذي ضمنتَه؟ لقد أوشك الموعد على الانتهاء ولكنه لم يعد ولا نعرف عنه شيئا. فقال الصحابي: أنا لا أعرفه. قالوا: فلماذا ضمنت مجهولا؟ قال: لقد نظر إلى الجميع واختارني من بينهم ضامنا له، فلمْ تتحمل غيرتي ألا أثق بمسلم يثق بي دون أية معرفة بيني وبينه، لقد أحسن بي الظن، فلماذا لا أحسن به الظن؟ وظل الميعاد يقترب وقلقُ الناس يزيد حتى رأوا الغبار من بعيد، فوجدوا فارسًا يحثّ فرسه على العَدْو، فلما وصل إليهم سقط حصانه ومات في المكان، فإذا هو الأعرابي نفسه الذي ينتظرونه. فقال: ها قد حضرت بعد رد

الأمانات إلى أهلها، فاقتلوني الآن. فلما رأى ورثة القتيل مدى إيمانه ووفائه بالعهد أعلنوا العفو عنه، ذلك أن ورثة القتيل يحق لهم العفو عن القاتل إذا شاءوا.

وليس هذا هو المثال الوحيد في تاريخ الإسلام، بل هناك آلاف الأمثلة التي لا سياسة فيها ولا دبلوماسية كالتي نجدها عند الأمم الغربية، إنما هي أمثلة بسيطة واضحة تدل على قيمة العدل والتضحية والاستقامة عند المسلمين، وتبين كيف أنهم فعلوا هذه الفضائل دونما خوف.

ولكن السؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: لماذا عملوا هكذا؟ والجواب: إنما فعلوا ذلك لإدراكهم أنهم لو ماتوا هنا فسوف يُجزون على هذه الصالحات في الآخرة. فثبت أن الخير الكامل لا يمكن بدون اليقين بالآخرة. إن الإيمان بالآخرة هو الذي يكشف للمرء أن الغلبة للخير في النهاية.

المفهوم الرابع: ومن معاني الدين: السلطان والمُلك والحُكم، وليس المراد منه الحكومة أو الملكية الدستورية المعاصرة التي تدار بالبرلمانات، بل المراد الحكومة أو الملكية التي عندها السلطة. كما لا يراد هنا الحكومات التي تدار بالعصا، والتي تقهر الناس على الطاعة بالقوة. فكلمة "السلطان" قد بينتْ أنه ليس المراد هنا الحكومات التي يديرها أناس هم ملوكٌ بالاسم فقط، وليس عملهم إلا التوقيع. أما كلمة "الحكم" فدلت على أنه ليس المراد الحكومات التي تدار بقوة العصا. فمن خصائص اللغة العربية أن كل كلمة فيها تنطوي على دلالة حكيمة. خذوا مثلا كلمة المُلك التي تُستخدم عندنا كثيرا، فإذا سألت أحدًا عن معناها قال: المنطقة التي نسكنها. ولكن العرب أو الذين عندهم معرفة بالعربية يعنون به ما تدل عليه مجموعةُ حروف "م ل ك"، ذلك أن من مزايا العربية أنها تتكون من حروف، وليس قصدي بذلك أن اللغات الأخرى لا تتكون من حروف، بل أعني أن الحروف فيها أمرٌ عرضيٌّ، أما العربية فكل حرف من حروفها ينطوي على معنى مستقل، ثم إن كل مجموعة حروف فيها تدل على معنى خاص؛ وبتعبير آخر إن النسبة بين العربية وغيرها من اللغات كنسبة اللغات الأخرى إلى اللغة الصينية، فكل جملة في الصينية تُعتبر حرفًا،

ولأداء مفهوم ما تُستعمل جُملٌ بعينها، فنقول مثلا: ائت بالحصان، وهي جملةٌ مستقلة، ويمكن أن نحدث فيها شيئا من التغيير عند الحاجة، فنقول مثلاً: أتى بالحصان، أو أتَوْا بالحصان، أو أتيتُ بالحصان، فغيرنا فيها الفعل فقط، أما في الصينية فإن جملة "ائت بالحصان" ستُعتبر حرفا مستقلا، وبتعبير آخر إن الجملة فيها تقوم مقام اللفظ، ولذلك نجد أن عدد حروف الهجاء في العربية هي ٢٨، أما الصينية فحروف الهجاء تبلغ الآلاف؛ فما داموا يصوغون جملة واحدة بحرف واحد فلا بد أن تبلغ حروف لغتهم آلافًا. فالفرق بين العربية والصينية أن الجملة في الصينية تصبح حرفا، أما العربية فالحرف يعمل عمل الجملة. ففي العربية ليست الكلمة فقط تكون ذات معنى بل إن الحرف أيضًا يعطي معنى معينا. فالمفهوم الذي يوجد في لفظ المُلك ليس نتاج اجتماع حروف "م ل ك" معًا، بل إن الميم له معنى خاص واللام له معنى خاص والكاف له معنى خاص، فإذا اجتمعت هذه الحروف في كلمة -بأي ترتيب- دلت على مفهوم معين دائمًا. والتدبر في الكلمات المركّبة من حروف "م ل ك" يكشف أنها تدل على القوة والقدرة، مثل المُلك والمَلِك والمَلَك، ولو غيّرت ترتيب هذه الحروف صارت كَلَمَ: أي جَرَحَ، ولكَمَ: أي ضرَبَ بقبضة اليد في وجه الآخر، وكل هذه الكلمات تشمل مفهوم القوة والقدرة. وهذا موضوع شيّق رائع، وقد استنتجتُ من خلاله آلافَ المفاهيم من كلمات القرآن الكريم والحديث الشريف، ولكن من المؤسف أن هذا العلم قد اندرس بين العرب في الزمن الأخير، وقد ألقى سيدنا المسيح الموعود عليه السلام عليه الضوء ثانيةً في كتبه التي أثبتَ فيها أن العربية هي أم الألسنة، حيث أضاء لنا الطريق الذي استنارت به عقولنا أيما استنارة. وقد كشف الله عليَّ مِن خلاله آلاف المفاهيم والمواضيع، والتي إذا سمعها العرب ذهلوا وقالوا: مِن أين استنتجتَها؟ إني لا أعني أن المسيح الموعود عليه السلام هو مؤسس هذا العلم، وإنما أقول إنه أتمّه وأكملَه. لقد وُضع أساسه في بداية الإسلام، حيث ذكَره العلامة السكاكي في كتابه "مفتاح العلوم"، وابن سيده في "المخصص"، وابن جِنّي والثعالبي وغيرهما أيضا، ولكنهم لم يُكمِلوه، أما المسيح الموعود عليه السلام فقد وسَّعه وأكملَه في العصر الحاضر.

أما لفظ الحُكم -المركَّب من حروف "ح ك م"- فلا يدل على مجرد استخدام القوة فقط، بل يدل أيضا أن وراء استخدامها سببًا معقولا، ومنه قد اشتُقّت كلمة الحكمة التي تعني فلسفة الشيء؛ إذنْ فلفظ الحُكم يدل على أن ما تؤمر به ليس عبثًا، بل وراءه هدف أو فائدة. ولا يمكن استخدام هذا اللفظ إلا مع هذا الشرط، وإلا فكان استخدامه خطأ.

إذن، فكلمة السلطان والمُلك والحُكم هنا قد بينت معًا أن الحديث هنا ليس عن الملكية الدستورية التي تكون بالاسم فقط، ولا تمتلك أي سلطة ولا قوة؛ إذ يؤتى بأوراق القرارات إلى الملِك كي يوقع عليها ويرجعها، وإذا قيل للوزراء ما الفائدة من مَلِكٍ لا سلطة له، قالوا: نقوم بهذه المهزلة لإرضاء العامة الذين يريدون أن يكون لهم ملِكٌ يوالونه، لأن هناك كثيرا من الحمقى يقولون لا نقبل قرار البرلمان، وإنما نقبل ما يقوله ملِكُنا، ولتهدئتهم جعلناه ملِكًا بدون قوة ولا سلطة، فهو كالدمية التي تلعب بها البنات. وعلى النقيض، نجد في الدنيا ملوكًا يأمرون بقتل فلان وحرق فلان وإعدام فلان، وإذا سئلوا عن سبب ذلك قالوا: هذا هو قرارنا وكفى.

الحق أنه ما دمنا نؤمن أن العربية لغة الوحي، فلا بد لنا من التسليم أيضا بأن الدوافع العاملة وراءها هي أيضا إلهامية، وعليه فإن مفهوم الحكومة عند الإسلام يتولد بتركيب هذه الكلمات الثلاث: السلطان والمُلك والحُكم. فمن القواعد المتّبعة في المعاجم أنهم إذا وضعوا عند شرح مفردةٍ ما واو العطف بين معانيها المذكورة كان مرادهم أن معناها يكتمل بالجمع بينها كلها، ولا يقول المعجم أن الدين معناه السلطان أو الملك أو الحكم، بل يقول معناه السلطان والملك والحكم، أي أن كل هذه المعاني الثلاثة معًا تؤدي مفهوم الدين بشكل كامل سليم.

فلفظ السلطان قد وضّح أن الحديث هنا ليس المراد عن حكومة شكلية فحسب، ولفظ الحُكم أوضح أن أوامر هذه الحكومة لا تكون بلا سبب وحكمة، بل يكون وراء كل أمر من أوامرها سبب معقول وحكمة بالغة ودافع قوي، ولفظ المُلك بيّن أن هذه الحكومة ذات قوة عظيمة. إذن، فلفظ السلطان أشار إلى عمقها،

ولفظ المُلك إلى سعتها، ولفظ الحكم إلى معقوليتها، إذ لا تخلو أوامرها من حكمة وغاية، وليس فيها جبر وإكراه، وفيها منافع للناس.

ما أروعَه من تعريف للحكومة قد بينه القرآن الكريم! وما أعظمَها من حكومة ترسمها هذه الآية!

رُبَّ قائلٍ يقول هنا: أين مثل هذه الحكومة في العالم؟ فنجيبه: لو قامت مثل هذه الحكومة في الدنيا ألا ترى أنها تكون أفضل من أية حكومة كانت؟ فهي واسعة النطاق، عميقة الجذور، حكيمة الأوامر، إذ تأمر بكل ما هو ضروري ومتّسم بالحكمة والمعقولية، وليس في أوامرها إكراه ولا قهر، بل فيها نفع كبير للناس. الحق أنه لو عُرضت حكومة كهذه على الناس فلن ينكرها إلا مجنون أو معاند؛ ومن أجل ذلك يقول الله تعالى ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾.. أي أَخْبِرْني من الذي ينكر مثل هذه الحكومة. يمكن أن لا يرضى أحد بمجرد الحكومة التي تمتلك السلطة فقط، أما إذا توفرت هذه الميزات في حكومة فلن يرفضها أحد، ومَن رفضها فذلك الذي يدُعُّ اليتيم.. أي لا بد أن يكون من الذين لا دين لهم ولا أخلاق. أما الذي يرضى بهذه الحكومة فلا بد أن يكون ذا خلق عظيم ويكون له سيطرة تامة على نفسه وأعماله.

وهذه هي الحكومة الإلهية في المصطلح الإسلامي. ولكن لا أقصد من ذلك تلك الحكومة الإلهية التي يثيرون الضجة من أجلها في هذه الأيام. ومَثَل الداعين إليها كمثل أطفال بلادنا يلعبون لعبة يركب فيها أحدهم ظهر الآخر مقلوبا، فيناديه مَن تحته: انزلْ لأركب، فقد جاء دوري الآن. هذا هو حال المطالبين بالحكومة الإلهية في عصرنا هذا، إذ لا يريدون الحكومة الإلهية حقًا، إنما يتنافسون على الشهرة والمناصب والوزارات. إن الحكومة الإلهية إنما يقيمها الله لا العباد. إنما يقدِر على تأسيسها مَن يعلن أني جئت من عند الله تعالى لإرساء الحكومة الإلهية في العالم. ثم إن الحكومة الإلهية لا تعرف الحدود، فإذا قامت، قامت في العالم كله، ومن أجل ذلك لا أزال أكرر في محاضراتي أن الدستور الإسلامي لا يمكن تنفيذه في باكستان حاليا، ولكن كلما قلت ذلك أثار أصحاب الجرائد ضجة بأن هذا

يقول كلاما مخالفا للشريعة مع كونه رجل دين. والحق أني لم أقل أبدًا أن شريعة الإسلام لا يمكن تطبيقها في باكستان، إنما أقول إن الدستور الإسلامي لا يمكن تطبيقه حاليا. وهناك فرق بين الدستور الإسلامي وبين الشريعة الإسلامية. إن الدستور الإسلامي يتعلق بالخلافة؛ التي تعني أن يصبح مسلمو العالم كلهم تابعين لها. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: هل تصبح البلاد الإسلامية -العربية منها وغير العربية- تابعةً لباكستان؟ هل تصبح فلسطين تابعة لها، أم هل تصبح إندونيسيا تابعة لها؟ هذا محال؛ إذ لا خلافة بين المسلمين اليوم. ولما كان من المحال أن يكونوا تابعين لباكستان، فلا يمكن تطبيق الدستور الإسلامي فيها. نعم، يمكن تطبيق الشريعة فيها في كل آن. الحق أن الحكومة الإلهية إنما هي في السماء، وليس في الأرض إلا ظِلّها. وقد عدَّ الله تعالى في القرآن الكريم كلَّ حرب على هذه الحكومة حربًا عليه ﷻ، وكلَّ عدوٍّ لها عدوًّا له، ومَن حاربها حارب الله تعالى. فأَنَّى لإنسان تأسيس حكومة كهذه؟

إن ما أعارضه هو أن يقول المسلمون إنهم سيطبّقون دستور الإسلام، لأن دستوره لا يطبَّق من دون الخلافة. إن دستور الإسلام عبارة عن مبادئ معينة ذات صلة وثيقة بالخلافة، ولكن المسلمين لا يؤمنون بالخلافة بينهم الآن، وهذه الخلافة كلما قامت كانت روحانية؛ فمثلا إني أعتبر نفسي خليفة، ولكن خلافتي ليست دنيوية، ثم إني لا أقول إنني قد أصبحت خليفة بنفسي، إنما دعواي أن الله هو الذي جعلني خليفة، والبديهي أن الله يتولى عقابي لو كنت كاذبا في دعواي، ولو كنت صادقا فلن تضرني معارضة الناس شيئا.

باختصار، إن الحكومة الإلهية لا يمكن أن تتأسس في الدنيا من دون نظام الخلافة، ولكنها لو قامت فليست هناك حكومة هي أفضل منها. وإلى ذلك قد أشار الله تعالى هنا وقال: أرأيت الذي ينكر الحكومة الإلهية؟ لا جرم أن مثل هذا الإنسان لن يعيش متخلقا بأخلاق حميدة، وإنما يعيش في الرذائل أسيرًا لمشاعره الأنانية.

لا شك أن الإيمان الكامل بوجود حكومة الله في الدنيا عقيدة هامة، لكنها لا تتولد بالكلمات والخطب، إنما تتولد من داخل الإنسان. فما هو معنى قيام الحكومة الإلهية يا ترى؟ أتظن أن المسيحيين لا يؤمنون بالله تعالى، أو أن اليهود لا يؤمنون به سبحانه؟ إنما المراد من الحكومة الإلهية إيمان المرء بأن الله تعالى هو المتصرف في الكون كله تصرفا كاملا؛ أي أن لا يقرّ بوجود الله تعالى بلسانه فقط، بل يؤمن أيضا أنه هو الفعّال المتصرف في كل ذرة من الكون.

غير أن هذا لا يعني أيضا ما يفهمه جهلاء المسلمين من لفظ القدر الإلهي، إذ ينسبون إلى الله تعالى سرقة السارق وفسق الفاسق وقتل القاتل. هذه سخرية شنيعة واستهزاء بشعٌ بأحكام الله تعالى. فما داموا لا ينسبون إلى الناس من الأعمال إلا ما يليق بمكانتهم، فكيف ينسبون إلى الله تعالى هذه المنكرات والقبائح؟ فمثلا إذا كان هناك مِلِكٌ مقتدر يحكم البلد، وقلنا إنه يدير أمور بلده كلها، فإنما نعني بذلك أنه يتولى كل الأمور المتعلقة بتقدم بلده وسد حاجات جيوشه، فلو اعترض أحد على قولنا هذا قائلا: "كيف تقول إن المِلِك يدير البلاد؟! هذا كذب، فالكنّاس هو الذي يكنس المراحيض لا المِلِكُ"، فلا بد أن يضحك عليه الجميع ويعتبروه مجنونا. كذلك إذا قلنا إن الله تعالى خالق السماوات والأرض وهو مدبر الكون، فكيف ساغ لأحد أن يفهم من ذلك أنه تعالى هو الذي يدفع السارق ليسرق، والفاسق ليفسق، والظالم ليظلم، والخائن ليخون؟ هذه وقاحة ما بعدها وقاحة. هذا ليس من القدر الإلهي في شيء، إنما هو منتهى الكفر والإلحاد. إن هؤلاء الحمقى لا يفكرون أن الله تعالى إذا أراد مساعدة أحد في أعماله فإنما سيساعده على ترك الكفر لا على نشره، وعلى الإيمان لا إلى الإلحاد، وعلى ترك السرقة لا ارتكابها. فمتى يحث الشريفُ على السرقة أو القتل أو الخيانة؟ لو نُسبت هذه الأعمال إلى هؤلاء الذين ينسبونها إلى الله تعالى باسم القدر لاعتبروه سُبّةً ولتميّزوا غيظًا، ومع ذلك يقولون أن خالق الكون ومنبع الخير كله ﷻ هو الذي يدفع السارق ليسرق والخادع ليخدع، وهم يظنون أنهم مسلمون، بل يزعمون أن هذا ما يعلّمه القرآن الكريم، والعياذ بالله. انظرْ إلى مدى تردِّي المسلمين وانحرافهم عن الدين؛ حيث ينسبون هذه العقيدة

السخيفة الباطلة إلى هذا الكتاب المقدَّس المنـــزّه عن العيب، وهم يحسبون أنهم مسلمون. إنهم يقرأون في القرآن أن الله تعالى يعلن صراحة أنه لو أراد جمع الناس على أمرٍ بالجبر والإكراه لجمَعهم على عقيدة التوحيد، ثم يقرأون على الناس أحاديث تقول: قد كتب الله تعالى ما هو كائن في الدنيا وقد جفّ به القلم (مسند أحمد، مسند عبد الله بن العباس)، ومع ذلك لا يفكِّرون كيف ينسبون إلى القرآن والحديث ما يتنافى مع ألوهية الله تعالى. إن نسبة هذه العقيدة المخالفة لتعاليم الإسلام والقرآن إلى الله تعالى باسم القدر الإلهي عملٌ شنيع لا يتحمله مؤمن عاقل غيور. ليس هناك قدر إلهي كهذا أبدا. يمكن أن يُعزَى هذا القدر إلى اللصوص، لا إلى ربِّنا القدوس. إن قدر ربنا القدوس يعمل لتطهير العالم لا لتنجيسه.

عندما نقول -نحن المسلمين الأحمديين- أن هذا مكتوب في قدر الله تعالى، فلا نعني به ما يعنيه عامة المسلمين، بل نعني أن الله تعالى مالك يوم الدين، أي هو الذي يُظهِر نتائج أعمال الناس كلها. الواقع أن الله تعالى لا يجلس على عرشه عاطلا، فلا يمكن أن يسرق سارق فيصمت الله عليه، بل إنه يظهر نتائج كل جرم وفعل يرتكبه المرء، عاجلا أو آجلا، بشكل أو بآخر، فلذلك يقال إنّ عصا الله لا تُرى، لكن إذا وقعت على أحد وقعت بقسوة. فالقدر الإلهي إنما يعني أن الله تعالى لا يصمت على أفعالنا، بل يرتب النتائج عليها كلها، أما الذين يظنون أن الله تعالى جالس صامتًا لا يتدخل في أمور العالم، فلا أثر للإيمان في أعمالهم وأفكارهم. يظنون أن ما قال الله لنا بأنكم إذا فعلتم كذا فسوف أفعل كذا، إنما هو كلام فارغ -والعياذ بالله- فإنه لا يتدخل في أعمالنا مطلقا، وإنما يتفرج ويضحك علينا جالسًا على العرش! ولكننا لا نؤمن بمثل هذا الإله، بل نؤمن أن الله تعالى يتدخل في أمور أهل الدنيا ولا يزال يرتب النتائج الحسنة والسيئة على أعمالهم، وإلى ذلك أشار الله تعالى في سورة الفاتحة فقال ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.. فما دام الله تعالى مالك الجزاء والثواب، فلا بد أن يُظهر نتيجة كل فعل في الدنيا عاجلا أو آجلا؛ ولو ظلت نتيجته في طي الكتمان هنا، لظهرت في الآخرة حتمًا. ولطالما أنكرت الدنيا هذه الحقيقة التي قد بينها القرآن الكريم، ولكن قد أثبتَ

العلماء منذ بضع سنين أنه توجد في نطفة الإنسان الجينات أو المورّثات التي تختزن الصفات الوراثية وتنقلها، فهناك جينات الغضب والأمانة والكذب والصدق مثلا، فإذا كان في بعض أجداده خصال معينة -حسنة أو سيئة- فهي ستظل تنتقل في نطفة نسله على شكل جينات، وبعد بضعة أجيال ستظهر في نسله خُلقًا، حسنًا أو سيئًا. ولنفترض أنها كانت جينة سرقة، فإذا كبر هذا الولد الذي تنتقل إليه هذه الجينة لأصبح سارقا، فيستغرب أهله كلهم كيف أصبح هذا سارقا مع أن أباه وجدَّه لم يكونا سارقيْن، مع أن هذا التأثير ليس من أبيه وجده، بل من أحد أجداده القدامى الذي كان سارقًا، فلم يزل ينتقل من جيل إلى جيل من خلال النطفة وظهر الآن في الجيل السادس أو السابع مثلا. وهكذا لا تزال أعمال الكذب والغش والخداع والظلم كلها تؤثر على نطفة المرء وتترك علامات في جيناتها ثم تظهر في الأجيال اللاحقة. فالمرء يظن أن عمله أصبح في طيّ الكتمان، ولكنه لا يختفي في الواقع، بل يظل قائما باستمرار ويظهر في أجياله القادمة في وقت من الأوقات.

وهذا الأمر ليس مجرد وهْم، بل حقيقة ثابتة تؤكد أن الله تعالى يرتب النتائج على كل فعل في هذه الدنيا. وهذه هي العقيدة التي يتولد بها الخير من الطراز الأول في الدنيا، والذي ينكرها يصبح غافلا عن مسؤولياته الأخلاقية والاجتماعية فلا يهتم بإصلاح أمته بسبب أنانيته.

لقد علّم المسيح الناصري عليه السلام أتباعَه الدعاء التالي: "لِيَأْتِ مَلَكُوتُكَ، لِتَكُنْ مَشِيئَتُكَ كَمَا فِي السَّمَاءِ كَذلِكَ عَلَى الأَرْضِ" (متى ٦: ١٠)، ويظن المسيحيون أن معناه أن تكون غلبة أحكام الله على الأرض أيضا، مع أنها غالبة فيها سلفًا! إنما المراد أن يسلِّم أهل الأرض بحكم الله تعالى كما يسلِّم به أهل السماء. الواقع أنه لو أيقن الناس أن ملكوت الله جارٍ في هذه الدنيا لانمحى منها كل فساد. إن اليقين بالإله القادر على كل شيء يحفز المرء على التضحية الحقيقية. انظروا كيف ضحّى الصحابة بكل شيء. كانوا ذوي أهل وأولاد، ولكنهم كانوا موقنين بأن ربهم حيٌّ، فإذا ماتوا فسوف يتولى أهليهم وأولادهم، ولو مات أهلوهم وأولادهم أيضا فسيجزيهم في الآخرة. مَن كان يؤمن بأنه لا يخفى على الله شيء ولو كان مثقال

ذرة فلن يظلم الفقراء، ولن يسكت على غفلة قومه لعِلْمِه أن الله تعالى سيعاقبهم وسيصيبه نصيب من العقاب، ولن يقصّر في أداء مسؤولياته الروحانية، ولن يقوم بأعماله برياء، إذ إنه يريد الجزاء من الله الذي يراه، فلِمَ الرياء؟ وما دام يفعل الخير، فكيف يمكن أن يمنع الآخرين من فعل الخيرات؟

ثم لا يغيبنّ عن البال أنه مما لا شك فيه أن حكم الله تعالى وقانونه جارٍ في الدنيا منذ الأزل وسيظل كذلك إلى الأبد، إلا أنه يتجلى بشكل ساطع في الدنيا في زمن بعثة المأمور الرباني. لا جرم أن الله تعالى يعاقب الظالم دائما، ويكتب الازدهار للصالحين دوما، ولكنه حين يقيم جماعة من الصالحين المتقين على يد مأمور من عنده، فإن قانونه هذا يظهر بشكل جليّ. حين اختفى النبي ﷺ في غار ثور مع أبي بكر عند الهجرة، خرجت جماعةٌ من كفار مكة مع خفير يبحثون عنه، حتى وصلوا متتبعين آثار أقدامهما إلى فم الغار الذي لم تكنْ مساحته أكثر من مترين أو ثلاثة. ومن عجائب قدر الله وحكمته أن العنكبوت نسج بيته على شجرة على فم الغار بعد دخول النبي ﷺ وأبي بكر فيه، والعنكبوت ينسج بيته في دقائق كما هو معلوم لدى الذين رأوه. كان هذا تأييدا ربانيًا لنصرة النبي ﷺ، فإن الدليل الذي جاءوا به لتتبُّع أثره ﷺ لّما وصل إلى الغار وقال لهم بأن الأثر انقطع هنا وأن محمدا ليس إلا في هذه المغارة، كان بإمكانهم أن ينظروا إلى داخلها بكل سهولة، وأَنَّى لهم أن يفعلوا ذلك ما دام الإله الفعّال لما يريد لا يريد ذلك؟ لقد منع الله أعناقهم من أن تمتد إلى داخل الغار.

لقد خرجوا مع الدليل من مكة إلى مسافة ستة أميال ومع ذلك لم يصدّقوه وقالوا: لقد أصبحت مجنونا، إذ كيف يمكن أن يدخل أحد في غار قد نسج العنكبوت بيته على فمه؟ ألا يخرب بيته بدخوله.

فترى أنه من حيث التدبير الإنساني فقد كان محالاً أن لا يروا النبي ﷺ لو نظروا إلى داخل الغار، ولذلك نجد أن سيدنا أبا بكر رضي الله عنه قلق على النبي ﷺ وقال له: يا رسول الله، لقد اقتربوا منا حتى لو نظر أحدهم إلى داخل الغار قليلا لرآنا، فقال النبي ﷺ: لا تحزنْ إن الله معنا. لم يأت هؤلاء للقبض على أبي بكر، إذ لو أخذوه

لضربوه ثم خلّوا سبيله، إنما جاءوا للقبض على النبي ﷺ، ولكنه ﷺ قال بكل طمأنينة: لا تحزن إن الله معنا.. أي أن الله تعالى ليس جالسا على عرشه عاطلاً، بل إنه يتصرف في كل ذرة من العالم تصرفا كاملا، فأَنَّى لهم أن يرونا؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله، إنني لا أخاف على نفسي، لأنهم لو قتلوني فلا بأس، إنما أخاف عليك، لأنهم لو أصابوك بضرر لهلك الدين (المواهب اللدنية، ج ١ باب هجرة المصطفى وأصحابه إلى المدينة).

انظر إلى هذا اليقين العظيم الذي كان عند النبي ﷺ بوجود ملكوت الله على الأرض. كان موقنًا أنه ليس بوسع أحد أن يفعل خلاف مشيئة الله شيئًا.

ثم حين لم يستطع الصحابة الثبات في غزوة حنين نتيجة مطر سهام الكافرين حتى لم يبق مع النبي ﷺ إلا شخص واحد، أراد ﷺ أن يتقدم إلى العدو، فأمسك أبو بكر بلجام ركابه قائلا: يا رسول الله، هذا ليس وقت التقدم، لننتظرْ اجتماع القوم ثانية، فقال النبي ﷺ بحماس شديد: دَعْ لجام فرسي، ثم حثّ حصانه نحو العدوّ قائلا: أنا النبي لا كذبْ، أنا ابن عبد المطلب.. أي أنا نبي الله الذي قد وعدني قائلا: والله يعصمك من الناس. (الطبقات الكبرى لابن سعد: غزوة رسول الله إلى حنين، والسيرة النبوية لابن هشام: غزوة حنين)

يا له من دليل ساطع على قوة إيمان النبي ﷺ بأن الله فعّالٌ لما يريد! كان يعلم أن الله تعالى ليس جالسا على العرش فقط، بل إن حكمه جار في الأرض أيضا، والسهم عبدٌ لله ﷻ، لا سيدًا عليه، ولا يصيب هدفه إلا بأمره تعالى، فكيف يصيبني أيٌّ من سهام العدو بدون إذن الله؟ انظرْ إلى قوة إيمانه ﷺ! فهناك ٤ آلاف رام يمطرون السهام نحوه في ممر ضيق، ولكنه ظل يمضي قدمًا وهو يقول: أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب.. أي أنا نبي الله حقا، وقد وعدني أن العدو لن يقدر على قتلي، فكيف يمكن لسهامهم أن تقتلني؟

وذات مرة أمر ملكُ الفُرْس بالقبض على النبي ﷺ، وكان ذلك بتحريض اليهود، إذ قالوا له إن دولة جديدة تتأسس في الجزيرة العربية وسوف تسبّب لك المشاكل، فبعث الملك لغبائه إلى واليه على اليمن: لقد سمعتُ أن شخصًا قد ادعى النبوة بين

العرب، فأَلْقِ عليه القبض وابعثْه إليّ. فبعث الوالي رجاله إلى المدينة المنورة، فقالوا للنبي ﷺ: لقد بعثَنا الوالي بأمر من ملك الفرس لنأخذك إليه، فنرجوك أن تأتي معنا؛ فقد أمرنا الوالي أن نخبرك أنه سيشفع لك عند الملك ويخبره أنه قد بلغه خبر خاطئ عنك؛ إذ لا خطر منك على أمن البلاد، والأمر مجرد سوء فهم. فقال النبي ﷺ: انتظِروا وسوف أجيبكم بعد الدعاء، فحضروا إليه في اليوم التالي ثم الثالث فأجابهم بالجواب نفسه، ولما كان اليوم الرابع جاءوا إلى النبي ﷺ وقالوا: نرجوك أن تخبرنا بقرارك. فقال ﷺ: اذهبوا إلى واليكم، وقولوا له إن ربي قد قتل ربه البارحة. فتوسلوا إلى النبي ﷺ أن يعيد النظر في قراره، إذ لا يكون مآله خيرا لبلاد العرب، بل سيحل بها دمار كبير، ولن يبقى حجر على حجر؛ فالخير له أن يأتي معهم، وأنه لن يصيبه الملكُ بسوء، إذ وعد الوالي أنه سيشفع له عنده. فقال النبي ﷺ: لقد قلت لكم اذهبوا وقولوا للوالي إن ربي قد قتل ربه البارحة. فرجعوا وبلّغوه الخبر. فقال لدى سماع جواب النبي ﷺ إما أن هذا الرجل مجنون، أو أنه نبي الله حقًا؛ إذ لا يمكن أن يتفوه بهذا الكلام شخص عادي. وبعد انقضاء أسبوعين بلغ الواليَ خبرُ وصول سفينة مَلَكية، فبعَث سكرتيره لاستقبالها، فلما قدّم سفير الملك الفارسي رسالته للوالي قبَّلها باحترام على عادة الفرس، ولكنه لما وجدها مختومة باسم ملكٍ آخر قال لحاشيته: يبدو أن ما قاله نبي العرب حقّ، ثم فتح الرسالة فإذا بابن الملك السابق يقول فيها: اعلمْ أننا قد قتلْنا الملكَ في اليوم الفلاني بسبب ظلمه وأصبحنا ملِكًا، فخُذْ عهد طاعتنا من جميع المسؤولين. وكان من الأوامر الغاشمة التي أصدرها أبي أن يُلقى القبض على مدعي النبوة الذي ظهر في الجزيرة العربية ويُبعث إليه أسيرا، ولكننا قد ألغينا هذا الأمر، فلا داعي لتنفيذه. ثم وجد الوالي أن الرسالة مؤرخة في نفس اليوم الذي قال فيه النبي ﷺ لرجاله أن يبلّغوه أن ربه قد قتل ربه البارحة (تاريخ الرسل والملوك ج٣، ذكرُ خروج رسل رسول الله إلى الملوك).

فما أعظمَها من آية ساطعة على أن الله تعالى فعال لما يريد، حيث أهلك الله الملِك بيد ابنه، مؤكدًا أن حكمه سبحانه وتعالى سارٍ على كل ذرة من الكون.

هذه هي العقيدة التي تضمن العدل والإنصاف في الدنيا، ولذلك يقول الله تعالى هنا ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾.. أي أَخْبِروني مَن ينكر وجود حكومة إلهية في الدنيا، لأن الذي ينكر ملكوت الله على الأرض لا يتحلى بالتقوى الحقّة أبدًا. إن الذي يعلم أن الله تعالى يدير هذا الكون كله ويرتب النتيجة على كل فعل، فأَنَّى له أن يرتكب معصية؟ وكلما ازداد المرء يقينًا بهذه الحقيقة ازداد ورعًا وتجنّبَ السيئات أكثر.

المفهوم الخامس: ومن معاني الدين الديانة. اعلمْ أن الدين -وإنْ لم يكن دينا حقًّا- يحول دون المساوئ كثيرا، لأنه ينهى عن المعاصي ويحثّ على التحلي بالأخلاق الفاضلة. يقال أن الدين أكبر سبب لانتشار الحروب والمفاسد في العالم، ولكن التدبر يكشف أن الدين ليس السبب وراء نشوب الحروب والفتن، وإنما السبب عدم العمل بالدين. خذوا مثلا السيخية التي أساسها على تعاليم حضرة "بابا نانَك" -رحمه الله- الذي قال: عيشوا بسلام، وارحموا بني جنسكم، ولا تثيروا الفتن ولا تعثوا في الأرض مفسدين. وهذا هو حال الهندوسية أيضا. إنّ تابع أيِّ دين يمكن أن يقع في أعمال الفتنة والفساد خلافًا لتعاليم دينه، إلا أن ضميره لا بد أن يؤنّبه في وقت ما أن ما يفعله خطأ وأن عليه تجنُّبه. فكم مِن فظائع قد ارتكبها العالم المسيحي! فقد استَعْبدوا العالم بالرق طيلة خمسة قرون بما لا نظير له في العالم، مع أن الإنجيل لم يعلّمهم إلا "مَنْ لَطَمَكَ عَلَى خَدِّكَ الأَيْمَنِ فَحَوِّلْ لَهُ الآخَرَ أَيْضًا..... وَمَنْ سَخَّرَكَ مِيلاً وَاحِدًا فَاذْهَبْ مَعَهُ اثْنَيْنِ" (مَتَّى ٥: ٣٩-٤١). ومع هذه الفظائع التي جناها العالم المسيحي إلا أن أيًّا من المسيحيين عندما يتدبر الإنجيل لا بد أن يمتلئ قلبه بمشاعر الرحمة، فيقول يجب أن أرتدع عن ظلم الناس. أما الديانة الهندوسية فقد أتت بتعاليم أخلاقية عظيمة. لقد قمت بمطالعة كتابها "الفيدا"، فأيقنت أنه من عند الله تعالى. لا شك أنه قد تسربت في "الفيدا" خرافات

وترهات أيضا، ومثالها تلك القصة التي تقول إن أحد "الريشيين"◈ نزَع إزاره ووضعه جانبًا، فوُلد من الإزار ولد وقال: لقد وُلدتُ هكذا لأني لم أرد أن أولد من الطريق الوسخ المعروف! ومع ذلك ذُكرت صفات الله تعالى في "الفيدا" ذكرًا رائعا يُشعر قارئها كأنه يصعد من الأرض ويحلّق في السماء. فرغم تسرُّب هذه الأمور الخرافية إلى الفيدا إلا أن منبعه الأصلي هو الله تعالى، وكل من يطالع الفيدا من دون تعصب سيمتلئ قلبه بمشاعر الروحانية حتمًا. وهذا هو حال الإنجيل والتوراة والزندافستا وغيرها من الكتب السماوية.

إن الدين -سواء كان حقًا من عند الله تعالى أم كان باطلا زائفا- لا يمكن أن ينتشر من دون أن يعلِّم فعل الخيرات. هل هناك دين في العالم يعلّم الخداع والفحشاء؟ لا شك أن هناك فرقة هندوسية باسم الدامارغية✸ تجيز الفحشاء، ولكنها ليست ديانة، بل هي فلسفة، إذ لا ينسبون أنفسهم إلى أي دين سماوي، بل يفسرون كتابه السماوي تفسيرا باطلا، فمثلا إذا قال "الفيدا": على المرء فعل الخير، ففسّروه بأن عليه أن يعمل الفحشاء. فالحق أن الدامارغية ليست ديانة إنما هي فلسفة زائفة فحسب، لأن الدين يعني أن يقوم إنسان بدعوى أن الله تعالى قد أمره بكذا وكذا. ولكن لا يوجد في العالم كتاب سماوي يأمر بالفحشاء، ولا يمكن أن يدعو أي دين إلى ذلك، وإلا فلن يحظى بالقبول بين الناس. إن الدين يتقدم دائما بشَقّ طريقه من خلال تيار العقائد المخالفة السائدة، وما دام يعلِّم ما يخالف التيار السائد، فكيف يمكن أن ينتشر لو دعا الناس إلى ما هو خلاف الفطرة أيضا؟ تكون

◈ كلمة "الريشي" يطلقونها على عالِمِ دين هندوسي أو ناسك على شاكلة الرهبان في المسيحية، وقد أُخذت هذه الكلمة في الأصل من أربعة أشخاص نزل عليهم كتابُ الهندوس "الفيدا" في بداية الكون حسب اعتقادهم، وكل واحد منهم يسمى "ريشي". (المترجم)

✸ الدامارغية: طائفة هندوسية ترى أن غاية خلق الإنسان لا تتحقق إلا إذا عمل على تحقيق رغباته كلها -مهما كانت سيئة وبشعة- لأن الله تعالى ما دام هو خالق فطرة الإنسان، فكل رغبة تتولد في قلبه تكون موافقة لمشيئته تعالى. (المترجم)

الطقوس والتقاليد والعادات السائدة خلافه سلفًا، فلو كان خلافًا للفطرة أيضا، فكيف ينتشر يا ترى؟ لا شك أن الدين يعارض بشدةٍ الطقوس والتقاليد السائدة، ولكنه يتفق مع الفطرة والعقل تماما، فينتصر في آخر المطاف رغم معارضة العالم، لأن الفطرة والعقل تُحدِثان في قلوب الناس ثورةً لصالح الدين.

بعث إليّ شخص من بورما ذات مرة كتابا عن البهائية وقال: انظرْ كم هي رائعة تعاليم البهائية، إذ تأمر الناس: قولوا الحق، وعلِّموا النساء، ولا تظلموا أحدا، وتجنبوا السيئات! كيف يمكن أن يكون مثل هذا التعليم باطلا وافتراء؟ فقلت له: لا شك أنها تعاليم جيدة جدا، مع ذلك لا أتفق مع النتيجة التي توصلتَ إليها. تقول: ما أروع تعاليم البهائية التي تقول: لا تكذبوا، ولا تخدعوا، وأدُّوا حقوق النساء، وكونوا أُمناء، فابعثْ لي مِن كتب الديانات العظمى اليهودية والإسلام والهندوسية والزرادشتية تعليمات تقول: اكذبوا، ولا تصدقوا القول، ولا تكونوا أمناء، ولا تعدلوا، ولا تعطوا النساء حقوقهن، فإذا وجدتَ في كتاب أي ديانة تعاليم كهذه، سأتفق معك بأن البهائية تقدّم تعاليم رائعة. ما دامت الأديان كلها تعلِّم شيئا واحدا، فما الذي يميز البهائية عنها؟ إنها تعليمات فطرية ولا بد لكل دين أن يقدمها، إذ كيف يمكن أن ينجح دينٌ يدعو إلى ما يتنافى مع الفطرة؟

فثبت أن كل دين -حقًا كان أم باطلا- يأمر بالتحلي بالأخلاق الحميدة، ومن أجل ذلك قد أجاز القرآن الكريم لنا الزواج من الكتابية، ولكنه لم يُجِزْ لنا الزواج من نساء غيرِ أهل الكتاب، وأحلَّ لنا ذبيحة أهل الكتاب، ولكنه لم يُحلّ لنا ذبيحة غيرِ أهل الكتاب؛ ذلك أن المسلم إذا تزوج من مسيحية -مهما كانت ضعيفة الإيمان- فلا بد أن تهذّب تعاليمُ الإنجيل سلوكها إلى حدّ ما، وإذا تزوج يهوديةً فلا بد أن تضبط أحكام اليهودية تصرفاتها، وإذا تزوج هندوسية فلا بد أن تمنعها تعاليمها من الإباحية واللادينية. أما المرأة التي لا دين لها وتنكر نزول أي كتاب من عند الله تعالى لهداية العالم، فلا بد أن تسلك مسلكًا لا نتوقعه. فيما يتعلق بالمرأة المسيحية أو اليهودية فنعلم ما يمكن أن تفعله لأن تعاليم ديانتها تضبط سلوكها، ولكن المرأة التي لا دين لها فلا يمكن أن نتوقع ما ستقوم به؛ إذ ليس هناك تعاليم

تصوغ سلوكها. وكما قلت إن أكْل ذبيحة أهل الكتاب جائز لنا، فقد استجاب النبي ﷺ لدعوة طعام من قِبل امرأة يهودية، وأكل طعامها (السيرة النبوية لابن هشام: بقية أمرُ خيبر: أمرُ الشاة المسمومة). لا شك أنها دست السم في طعامه، ولكنه تصرف فردي، إذ إن اليهودية لا تُعلِّم دسّ السمّ في طعام أحد.

باختصار، لا بد أن يكون عندنا أساس يضمن لنا السير في طريق محفوظ، وليس ذلك الأساس إلا الدين. ولذلك يقول الله تعالى هنا ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾.. أي لو تفحصت أحوال الناس تبينَ لك أن الدين -كل دين حقًا كان أم باطلا- يحول دون ارتكاب كثير من السيئات. لو كان دينًا حقا فهو نور على نور، وسوف يحمي من كل أنواع المفاسد والسيئات، أما إذا كان دينًا باطلا فسينقِذ من كثير من السيئات أيضا، لكونه يعلِّم الأخلاق حتما. إن الذي يؤمن بالدين فإن ضميره يؤنبه عند فعل المنكر بأنه يرتكب خطأً خلاف تعاليم دينه، أما الذي لا يسلّم بضرورة الدين ستجده يقع في أنواع المساوئ، ثم يصر عليها بأنه يحسن صنعا. واستباحة السيئة أمر خطير جدا.

المفهوم السادس: ومن معاني الدين العبادة، وعليه فقوله تعالى ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ يعني: أَخبِرْني عن الذي ينكر عبادة الله سبحانه وتعالى.

إن عبادة الله أيضا تساعد صاحبَها على فعل الخيرات العظيمة وتكفّه عن السيئات كثيرا، سواء كانت عبادة حقة أم باطلة. ليس ضروريا أن العبادة التي يعلّمها الدين الحق هي وحدها التي تمنع من المنكرات، كلا، بل كل عبادة لله تعالى تنهى عن السيئات؛ سواء عبادة الهندوس أو عبادة النصارى أو اليهود أو الزرادشتيين. وعلى سبيل المثال عندما يدعو المسيحيُّ اللهَ تعالى قائلا: "لِيَأْتِ مَلَكُوتُكَ، لِتَكُنْ مَشِيئَتُكَ كَمَا فِي السَّمَاءِ كَذلِكَ عَلَى الأَرْضِ. خُبْزَنَا كَفَافَنَا أَعْطِنَا الْيَوْمَ" (مَتَّى ٦: ١٠-١١)، فلا بد أن يملأ هذا الدعاء قلبه بخشية الله. والملك الجبّار المستبدّ إذا قام أمام الله تعالى ولو مرة واحدة في اليوم ودعا ربه قائلا: "خُبْزَنَا كَفَافَنَا أَعْطِنَا الْيَوْمَ"، فلا بد أن يخلق هذا الدعاء في قلبه شيئًا من التواضع لإدراكه

أنه بحاجة إلى أحد، وهذا التفكير لا بد أن يدفعه إلى فعل الحسنات. فثبت أن عبادة الله تعالى في حد ذاتها تنجي من المنكرات، وهذا ما بيّنه الله تعالى في قوله ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾، وقد أشار إلى الأمر نفسه في قوله: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾.. أي أَخْبِرْنِي عن الذي ينكر عبادة الله، فستجده مصابًا بعيوب كثيرة، فهو يظلم اليتامى، ولا يؤدي حقوق المساكين، ويقوم بالرياء والمداهنة والنفاق. لقد قال الله تعالى في آيةٍ سابقة بأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، أما هنا فقال إن منكر الصلاة يقع في المعاصي، والحق أن مفهومهما واحد.

ما هي العبادة؟ وما هو الخير الحقيقي؟ لقد قام الفلاسفة الأوروبيون بجدال كثير حول هذا الموضوع في عدة مجلدات، وقد توصلوا بعد بحوث طويلة إلى أن الخير هو ما ينفع أكثر الناس، وعرّفوه عدّة تعريفات، ولكنها كلها عرضةٌ للاعتراض بشكل أو بآخر. خذوا مثلاً قولهم أن الخير هو ما ينفع أكثر الناس، فلو قرر أكثر الناس نهب الآخرين، فهل يصبح النهب خيرا؟ بحسب هذا التعريف إن نهب الأكثرية للأقلية جائز، مع أنه ليس بجائز في الواقع. وهذا هو حال تعريفاتهم الأخرى، فكلها باطلة. هناك تعريف واحد صحيح للخير عندي، وهو ما تعلّمناه من القرآن الكريم بأن الخير هو أن يعكس الإنسان صورة الله في نفسه ويصطبغ بصبغته. وهذا هو معنى التعبد؛ فعبادة الله تعني محاولة المرء عكس صورة الله تعالى في نفسه والاصطباغ بصبغته. إن الذي ينكر وجود البارئ تعالى يجب أن يقتنع أولاً بوجوده، وإذا اقتنع فلا مناص له من الاعتراف أن الله هو الكامل المنــــزه عن كل عيب، وبالتالي ليس الخير إلا أن يسعى الناس لأن تنعكس ذات الإله الكامل البريء من العيب في أنفسهم، فيصبحوا صورة له ﷻ. وإذا أصبح الإنسان مظهرًا لصفات الله تعالى، فلا بد أن يحسن إلى خلقه كلهم، فتشمل رحمتُه الصديق والعدو، لأن الجميع عباد الله تعالى، فأبو جهل أيضا من عباده، ومحمد ﷺ أيضا من عباده. وهذا هو الدرس الذي يعلّمنا إياه حادثُ يونس ؑ؛ لقد أخبره الله تعالى بوحيه أن أهل نينوى سوف يدمَّرون بالعذاب بعد ٤٠ يوما، فخرج منها إلى البرية ينتظر نزول العذاب عليهم، وبعد انقضاء ٤٠ يوما قابلَه بعض أهالي نينوى فسأله عن مصير أهلها،

فقال: كلنا بخير. ففكر يونس عليه السلام أنه لو رجع إلى نينوى فسيتعرض للندم الشديد، فركب سفينة مهاجرًا إلى بلد آخر. فجاءها العاصفة، فقال يونس عليه السلام لأصحاب السفينة بأن هذا العذاب إنما أحاط بهم بسببه لأنه عبدٌ آبقٌ من عند سيّده سبحانه وتعالى، فألحّ عليهم أن يلقوه في البحر لينجوا من العذاب. فألقوه بعد إصرار وإلحاح منه، فالتقمه حوت، ثم تقيّأه بعد ثلاثة أيام ونبذه على الشاطئ وهو حيّ. لقد بلغ منه الضعف كل مبلغ لبقائه في بطن الحوت، فأنبت الله تعالى هناك شجرة يقطين، فاستظلّ بظلها وارتاح. فأمر الله سبحانه وتعالى دودة، فقطعت الشجرة في الليل، فلما رآها يونس عليه السلام في الصباح أخذ يلعن الدودة التي قطعتها، والإنسان إذا غضب سبّ الجمادات ولعن الحيوانات. فأوحى الله تعالى إليه: يا يونس، أأنت أنبتَّ هذه الشجرة؟ قال: لا يا رب. قال الله تعالى: لم تزرع الشجرة ولم تنبتها، وإنما استمتعت بظلّها، ولكنك غضبت غضبا شديدا حين قُطعت حتى أخذتَ تلعن الدودة التي قطعتْها! لقد حزنت لهذه الدرجة على قطع شجرة، فهلا فكّرتَ في أن أهل نينوى عبادُنا وإن كانوا آثمين، وما داموا قد تابوا فكيف تتوقع منا أن نقطع دابرهم؟

هذا هو إلهنا الذي لا يحابي أحدًا ولا ينحاز إلى الأقوياء أصحابِ الأعوان والأنصار. إنه يريد الرحمة لعباده، والرحمة فقط. فكلما استرحمه عبد من عباده رحِمه وعفا عنه قائلا: اذهبْ قد غفرنا لك، شريطة أن تكون التوبة صادقة. يقول الله تعالى ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ﴾(الإسراء:٢١).. أي أن ميزة ملكوته أنه يرزق محمدا صلى الله عليه وسلم ويرزق أبا جهل أيضا، وأن شمسه إذا طلعتْ نفعت المؤمن والكافر أيضا. فإذا اصطبغنا بصفات هذا الإله فلا يمكن أن نكون على الخطأ. فعبادة الله لا تعني مجرد السجود والركوع، وإنما العبادة الاقتداء بهذا النموذج السامي، فمَن صاغ حياته بحسب هذا النموذج عاش عيشة سامية جدا، فالواضح أن الذي يتخذ الذات الإلهية نموذجًا له لا بد أن يكون أفضل عملاً وأحسن أسوة من الجميع.

المفهوم السابع: ومن معاني الدين الملة، والملة لها مفهومان، أحدهما: الشريعة والدين، وثانيهما: الأمة. علمًا أن هناك فرقًا بين معنى الدين والملة، فيمكن أن نقول دين الله، ولكن لا نقول ملة الله، لأن الشريعة تأتي من الله تعالى، ولكن الله تعالى أسمى من أن ينحاز إلى قوم أو أمة. والملة أوسعُ معنى من الدين، فالملة تشمل الدين (أي الشرعَ)، ولكن لا يشمل الدين الملة. غير أن هناك معنى آخر للدين يشابه مفهوم الملة، وهو الخدمة، يقال: دان فلانًا: خدَمه (الأقرب). ولما كانت الآية التالية تقول ﴿فَذلِكَ الَّذي يَدُعُّ اليَتِيمَ﴾، فالدين هنا يعني خدمة الأمة أيضا. والواقع أن الأمور المشار إليها في قوله تعالى ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ مِن خدمة اليتامى والإحسان إلى المساكين وحثّ القومِ على حسن معاشرة الناس ليست أعمالا فردية، بل كلها أعمال جماعية وتندرج في خدمة الأُمة، إذ ليس ضروريا أن يكون هذا اليتيم أو المسكين من أقاربك، وعليه فقوله تعالى ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ يعني أيضا: أَخبِرْني عن الذي ينكر ضرورة خدمة الأمة، وبتعبير آخر: الذي ليس عنده حماس لخدمة الأمة وللنهوض بمجتمعه.

قال النبي ﷺ: "الكفر ملة واحدة" (الموطّأ:كتاب الفرائض، باب لا يرث المسلم الكافر، والبحر المحيط: تفسير الآية ٨١ من سورة آل عمران)، والملة هنا لا تعني الشرع، لأن الأمم الكافرة من يهود ونصارى وغيرهم ليس لها شرع واحد. فاليهود مثلاً يؤمنون بالله الأحد رغم تفشي الفساد والضلال بينهم على نطاق واسع، أما النصارى فيختلفون عن اليهود في مسألة وحدانية الله التي هي أساس قضايا الدين كلها، فيعتقدون أن المسيح عليه السلام ابن الله، وقد اتخذ الله تعالى السيدة مريم أداةً لولادة ابنه، بل إن فرقًا عديدة من المسيحيين الأرثوذكس تعبد مريم وتعتبرها بمثابة زوجة الله تعالى. فشتان بين عقائد اليهودية والمسيحية مع أنهما حلقتان من سلسلة واحدة.

أما الزرادشتيون فشريعتهم مختلفة تماما. فإذا كان اليهود يرون أن علامة رضا الله أن يُنعِم في هذه الدنيا، فإن الزرادشتيين يؤمنون أن الموعد الحقيقي للإنعام

الرباني هو ما بعد الموت؛ فلو قرأت التوراة والإنجيل بإمعان النظر وجدهما يقولان إن الجزاء والثواب يظهران في هذه الدنيا نفسها، أو تجدهما -على الأقل- يركّزان على الجزاء المادي كثيرًا، بينما تجد الزرادشتية تجعل الجزاء والنعم كلها مخصوصة بالآخرة، حيث يركّز كتابها "الزندافستا" على الحياة بعد الموت كل التركيز ويخبر مرة بعد أخرى أن هنالك جحيمًا للعصاة وجنة للصالحين، فهناك تشابهٌ كبير بين تعاليم الزندافستا وتعاليم القرآن الكريم بهذا الشأن. إذا كان الإسلام يتشابه مع اليهودية في تفاصيل الشرع، فلا مشابهة بين الإسلام وبين اليهودية والمسيحية فيما يتعلق بالحياة بعد الموت، بل يبدو القرآن والزندافستا متشابهين بهذا الشأن تشابهًا كبيرًا وكأنهما قد خرجا من منبع واحد. أما الهندوسية فلا مشابهة بينها وبين اليهودية أو الزرادشتية، إنما أساس الهندوسية كله على أن بعض الأمم تفوق غيرها عِرْقًا وأن الله تعالى ينعم عليها فقط. لا شك أن اليهودية أيضًا تدّعي تفوُّقها العرقي على الأمم الأخرى، لكنها لا تشدّد على ذلك كما هي الحال عند الهندوسية، حيث تُعامل الأمم الأخرى معاملة العبيد والمنبوذين، لأن أساس الهندوسية كله على التفوق العرقي.

أما عقيدة التناسخ الهندوسية فلا تجد لها أي أثر في كتب اليهود ولا المسيحيين ولا في الزندافستا الزرادشتي.

فثبت من هنا أن قول الرسول ﷺ: "الكفر ملة واحدة" لا يعني أن عبادة الأديان الأخرى واحدة وعقائدها واحدة، وكتابها واحد، إذ يوجد بينها اختلاف هائل واضح، لذا فلا يستعمل ﷺ الملة هنا بمعنى الشرع، بل بمعنى الجماعة، أي أن كافة الأديان الموجودة في العالم جماعة واحدة ضد الإسلام، فخذوا الحذر منها أيها المسلمون ولا تظنوا أنها أمم مختلفة؛ فهؤلاء مسيحيون وهؤلاء يهود وأولئك زرادشتيون، كلا بل كلهم يد واحدة على الإسلام.

وإن تاريخ القرون الثلاثة عشرة الماضية شاهد على صدق قول النبي ﷺ. أما اليهود فقد أحسن المسلمون إليهم خلال حكمهم بما لا نظير له في الدنيا، فقلدّوهم مناصب مرموقة وأعطوهم أعمالاً هامة، ولكنهم لم يرفعوا السيف إلا على

المسلمين. أما الهندوس فكم أحسن الملوك المسلمون المغول إليهم، ولكنهم صاروا لهم أعداء في الأخير. أما السيخ فمعظم ولاياتهم الحالية إنما هي منحة من قبل الملوك المسلمين، وليست الضيعات التابعة لمعابدهم إلا هبة من المسلمين، بل الحق أن "أحمد شاه أبدالي" هو الذي أسس حكومة السيخ، ومع ذلك ينضم السيخ إلى صفوف الهندوس ضد المسلمين دائمًا. هذه هي الحال بالنسبة للزرادشتيين. إذًا، فقول النبي ﷺ "الكفر ملة واحدة" لا يشير إلى شريعة هذه الأمم، بل إلى تحزُّبها واتّحادها ضد الإسلام حيث بيّن ﷺ أنها تصبح يدًا واحدة ضد أهل الإسلام دائمًا.

فثبت من هنا أن من معاني الملة اتحاد الأمم بالإضافة إلى معنى الدين، وقد بينت سلفًا أن الملة تعني الإحساس بالأمة وضرورة خدمتها، وعليه فقوله تعالى ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ يعني أَخْبِرْنِي من الذي ينكر ضرورة التعصب القومي واتحاد الأمة، فمثل هذا الإنسان لا بد أن يركن إلى الفساد دومًا.

الغريب أن بعض الألفاظ تستعمل أحيانًا بمفهوم خاطئ تمامًا ومنها كلمة التعصب. أذكر جيدًا أن الخليفة الأول رضي الله عنه كان يقول دائمًا: إن الناس يقولون لغبائهم أن التعصب سيئ مع أنه ليس بسيئ بل هو حسن. وكانت ثقافتي عندها ضئيلة جدًا، فكنت أرتجف بسماع قوله هذا وأقول في نفسي كيف يقول حضرته أن التعصب محبّذ مع أنه سيئ جدًا. ثم انكشفت عليّ الحقيقة رويدًا رويدًا بمرور الأيام، وأدركتُ أن هذا اللفظ عربي ومعناه في العربية غير معناه في الأردية، وله معنى سيئ وآخر حسن أيضًا، إذ يعني لغةً إبداء المرء الغيرةَ من أجل دينه وطريقته ودفاعُه عنهما عند الهجوم. وهو معنى جيد بلا شك، فإظهار الإنسان غيرته لشيء عزيز وتضحيته في الدفاع عنه عمل محمود. أما نحن فقد أخطأنا في استعمال هذا اللفظ إذ حصرناه في معناه القبيح فقط، وهذا ما جعَلني أستغرب عندها من قول الخليفة الأول رضي الله عنه. فنحن نعني من التعصب الانحياز للقبيلة والقوم، غاضين الطرف عن مفهومه الآخر في العربية.

لقد بينتُ من قبل أن هذه الآية تتحدث عن جذور الحسنات، حيث بيّن الله تعالى ما هي الحسنات التي يفتح إهمالُها بابَ السيئات على مصراعيه، وما هي

الحسنات التي تساعد على المزيد من الحسنات. وقد قلت أيضا إن المفهوم الأساس لهذه الآية هو أن إنكار الدين خلافٌ للفطرة، ولا ينكره إلا الذي يضرب بالفطرة عرض الحائط، فبالتركيز على ضرورة الإقرار بالدين، أي بالملة، قد نبّهنا الله تعالى إلى أن الفطرة السليمة تُرغِّب الإنسان في خدمة أمته، فمَن أدرك ضرورة خدمة أمته فلا بد أن يكون أكثرَ فعلاً للحسنات ممن يقدّم حاجات الفرد على حاجات الأمة. لا شك أن هناك حقوقًا للأفراد، ولكن التركيز عليها يصبح إثمًا في بعض الأحيان؛ فمثلا تقول المسيحية بأن على الإنسان أن لا ينتقم، ولكن المسيحي يكذب حين يقدّم هذا التعليم أمام العالم، إذ لا توجد في الدنيا في هذا العصر أمة هي أكثر انتقاما من الأمة المسيحية. أما الإسلام فيقول: انتقِموا إذا كان الانتقام نافعًا. إذا رأيتم أن الانتقام من الظالم سينفع المجتمعَ أو الظالِمَ نفسه فانتقِموا منه، وإلا فلا تنتقموا؛ لأن الأصل هو نشر الخير. كان العرب شديدي التعصب.. أعني كانت عندهم عاطفة كبيرة لخدمة الأمة والتضحية من أجلها، ولكنهم أساءوا استخدام هذه العاطفة، وتشددوا فيها جدا، فتحولت هذه الحسنة سيئة. لقد استمرت بعض حروبهم لقرن من الزمان باسم حماية الفقير والمسكين، فذات مرة وضعتْ كلبة جِراءها في حقل بعض العرب، فجاء جمل وداسها برجله فماتت، ففكّر صاحب الحقل أنّ عليه أن ينتقم لجِرائها ما دامت قد اتخذت حقله مأوى لها، فقتَل الجمل الذي كان مِلْكًا لضيف حلّ عند بعض أهل القرية، فرأى المضيف أن عليه أن ينتقم لجملِ ضيفه، فقتل صاحبَ الحقل. فاجتمع قوم القتيل للانتقام له، وقررت قبيلة القاتل نصرة أخيهم، وبدأت الحرب بينهما، فأخذت قبائل أخرى تنضم إلى الطرفين حتى اشترك فيها بلاد العرب كلها، واستمرت قرنًا من الزمان (الكامل في التاريخ: ذكر مقتل كليب والأيام بين بكر وتغلب)، وراح ضحيتها آلاف الناس بسبب الانتقام الخاطئ، كان هناك مئات منهم لم يؤخذ ثأرهم بعد حتى وهب الله تعالى لنبيه ﷺ مُلْكَ الجزيرة، فللقضاء على هذه الفتنة التي لا تعرف النهاية قال النبي ﷺ في خطبته يوم حجّة الوداع: إن لبعض القبائل دمًا على غيرها، ولكن يجب وضع الحدّ لهذا الانتقام، وإلا ستذهب ريح العرب كلية، ولذلك أُعلن اليوم أن

الدولة ستأخذ ثأر كل قتيل، ولا يحق للأفراد أن ينتقموا لقتيلهم، وألغي اليوم كل دم سلف، وأعلن العفو عن الجناة؛ فلا يحق لأحد أن يأخذ ثأر قتيله بعد الآن. فاطمأن القوم وساد السلام. ولكن لو استمر العرب في عادهم للانتقام وأخْذ ثأر قتلاهم على هذا النحو، لاستمرت عملية سفك الدماء طويلا في الإسلام أيضا. ولكن النبي ﷺ قام بتعديل عاطفة خدمة القوم هذه ووجَّهَها إلى مسارها الصحيح وإلى ما فيه الخير كله، وبيّن لهم أن الانتقام على هذا النحو لا يخدم الأمة بل يدمرها. وهكذا ولَّد فيهم عاطفة صحيحة لخدمة الأمة، ونجاهم من بلاء عظيم.

لقد سبق أن ذكرت أن من معاني الدين ضبط النفس والنظام؛ وهناك فرق بينه وبين الإحساس بخدمة الأمة، فضبط النفس والنظام يتعلق بالأمر الظاهر، فإنك مثلاً تمشي على الجهة اليسرى* من الطريق، ليس لأنك تحب ذلك بل اتّباعًا لنظام مجتمعك، إذ من الممكن أن تحب المشي على الناحية اليمنى، أما خدمة القوم فتعني أن الفرد إذا رأى أمته تتجه إلى الهلاك والدمار فلا يتردد في التضحية بنفسه دفاعا عنها؛ فالضبط والنظام يتعلق بطاعة أمر من الأوامر، أما عاطفة خدمة الملة فلا تكون طاعةً لأمرٍ أُمرتَ به، وإنما تهتم بأمتك بنفسك، وتشعر بضرورة رقي وطنك، وهذا الإحساس للنهوض ببلدك وأمتك يدفعك للتضحية في سبيلهما. خلال الحرب العالمية الماضية (الثانية) كان العدو قد مدَّ في طريق الجيش الياباني سياجًا مكهربا، فما استطاعوا التقدم، فبذلوا كل ما في وسعهم ولكن دون جدوى، فانبرى فتية منهم للتضحية بأنفسهم، فربطوا القنابل على بطونهم وألقوا بأنفسهم في السياج المكهرب، فتقطّع، وهكذا مهّدوا الطريق لجيشهم. إنهم لم يؤمروا بذلك، ولكنهم لما رأوا أنه لو استمر الوضع هكذا فسوف يتأخر تقدُّم جيشهم، ضحّوا بأنفسهم إنقاذاً للآخرين. إنني لا أناقش هنا ما إذا كان هذا الطريق للتضحية يتفق مع تعاليم

* في الهند وفي معظم البلاد التي كانت تحت حكم الامبراطورية الإنجليزية، كانت السيارات تسير في يسار الطريق كما هو الحال في إنجلترا، وذلك خلاف لكثير من دول العالم (المترجم).

الإسلام أم لا، وإنما ذكرت هذا المثال لأبين الفرق بين التضحية لخدمة الأمة وبين الضبط والنظام.

عندما بدأت الحروب ضد المسيحيين بعد الرسول ﷺ، خرج جيش مسيحي كبير لمحاربة المسلمين الذين كان عددهم ضئيلا جدا، وعرف المسيحيون بمكان الصحابة الموجودين في الجيش المسلم، فعيّنوا مجموعة من الرماة على جبل، وأمروهم أن يصوّبوا سهامهم إلى الصحابة خاصة، لإدراكهم أنهم لو قتلوا هؤلاء ذهبت ريح المسلمين وانهزموا. فاستُشهد كثير من الصحابة، وأُصيب العديد منهم في عيونهم بسهام العدو، فأصاب المسلمين قلق شديد لإدراكهم أن العدو سيقضي على الصحابة كلهم لو استمروا في التقدم. فتقدم فتية منهم بعد التشاور –وكان أكثرهم حماسا لذلك ابنُ ذلك الإنسان الذي زرع بذرة عداء الإسلام في مكة.. أقصد عكرمة بن أبي جهل– وقالوا: نحن نضحي بأنفسنا، لقد قدّم الصحابة خدمات عظيمة، والآن جاء دورنا نحن المتأخرين، فلا تحرمونا هذا الثواب، ودعُونا نغتنم هذه الفرصة. سوف نشنّ الهجوم على قلب جيش الأعداء ونقتل قادتهم. فقال لهم قائد الجيش المسلم أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه: هذه مخاطرة كبيرة ستقضي على كل الشباب الذين يذهبون لهذه المهمة. قالوا: صحيح، ولكن لا مناص من ذلك الآن. فهل تحب أن ينجو الشباب ويُستشهد الصحابة؟ فتشاورَ مع خالد بن الوليد الذي أيّدَ رأيَ عكرمة وقال: نعمْ، إن العدو قد علم نقطة ضعفنا، ويريد القضاء على الصحابة، فاسمحْ لنا أن نأخذ معنا سِتِّين فتى، فنهاجم قلب جيش العدو. فلما رأى أبو عبيدة رضي الله عنه إصرارهم سمح لهم بذلك، فأغار هؤلاء الفتية السِّتُّون على قلب جيش العدو وهزموه، ولكن معظمهم استُشهدوا في القتال. ويروي أحد الصحابة أنه لما هُزم المسيحيون وفرّوا، ذهبتُ إلى ساحة القتال لتفقّد الجرحى، فوجدتُ عكرمة جريحا يضطرب، فأدركت أنه عطشان، فتقدمتُ إليه بقربة ماء لأضعها في فمه، فأشار إلى الفضل بن العباس الذي كان يضطرب بالقرب منه من شدة جراحه، وقال: إنه أشد عطشًا مني وأحقّ بالماء، فاذهبْ إليه واسقه. فتوجهتُ إلى الفضل الذي أشار إلى جريح آخر يضطرب قريبًا منه. يقول

الراوي: كان هناك عشرة من الجرحى يضطربون في ذلك المكان، فكلما ذهبتُ إلى أحد منهم أشار إلى الآخر وقال: اسقه فهو أحق مني بالماء، وعندما وصلت إلى الأخير وجدتُه قد فاضت أنفاسه، فرجعتُ إلى التاسع فوجدته قد استُشهد، ثم إلى الثامن والسابع وهلمّ جرًّا، فوجدت الجميع قد لفظوا أنفاسهم. فظلّت قربة الماء في يدي ومات هؤلاء الجرحى واحدا بعد الآخر دون أن يشربوا من الماء جرعة (البداية والنهاية: وقعة اليرموك).

وليس ذلك إلا لأن كل واحد منهم كان يرى أن صاحبه أشدُّ منه عطشًا وأحق منه بالماء. هذه هي الروح الجماعية.. أي أن يقدّم المرء مصالح الأمة على مصلحته ويضحي بنفسه من أجل أمته ورقيها. ولكن لا يتولد الحماس السليم للتضحية من أجل الأمة إلا بعاطفة سليمة لخدمتها. إذا تحلى المرء بعاطفة خدمة أمته بشكل صحيح استعدَّ للتضحيات لها بلا هوادة، إذ يتسع أفق طموحاته. فلو أمعنتَ النظر في أضعف الناس وأجهلِهم لوجدت أن قوته الفكرية ليست ميتة كما يظن الآخرون. انظرْ إلى أشد الأمهات جهلاً، فكم تعتني بسد حاجات ولدها كلها وتهتم به كيلا يصاب بأذى؟ لو زرتَ أشدَّ بيوت القرية فقرًا لوجدتَ ربّة هذا البيت تُخرج عند زفاف ابنتها قطعة قماش من كيس أو إناء وتضعها في جهاز العروس، ولو سألتَها متى اشتريت هذا القماش لقالت: قبل عشر سنوات، واحتفظتُ به لهذا اليوم. لو كانت هذه قليلة العقل والتفكير فكيف فكّرت هكذا من أجل هذا اليوم؟ ثم تجد أن الفلاح إذا لم يجد مالاً يدفعه ضريبة لأرضه، أخرجتْ له امرأته شيئًا من المال، ولو سئلتْ مِن أين جاءت بهذا المال لقالت: لقد جمعتُه قرشا قرشا منذ سنوات طويلة لينفعنا عند الحاجة.

لماذا تفعل هذه المرأة البسيطة هكذا يا ترى؟ إنما ذلك لأن فيها عاطفة خدمة العائلة التي تدفعها إلى التفكير، وعندما تفكِّر فهي تلاحظ المصاعب، فتفكِّر في علاجها، فتنجح في التغلب عليها أخيرًا. كذلك كل رجل يفكّر في مستقبل أولاده حتمًا: كيف يعلّمهم وكيف يدبّر لهم الغذاء والكساء، وما هي المشاكل التي ستواجهه في تحقيق ذلك، وكيف يتغلب عليها. ولو تحولت قوة التفكير الفردية

هذه إلى قوة تفكير جماعية، لأخذ كل فرد من الأمة يفكّر في حاجاتها، حتى إن الإنسان الذي تظنه جاهلا لا يصلح لشيء، إذا بدأ يفكّر لمصلحة الأمة فسوف تتّسع آفاقه وطموحاته.

الواقع أننا عندما نسمي أحدًا جاهلا فإنما المراد أن عقله لم يتوجه بعد إلى التفكير لصالح الأمة، وليس أنه لا يقدر على التفكير أصلاً. لقد رأيت في مجلس الشورى لجماعتنا -وخبرتي هذه في الشورى ممتدة إلى عشرين أو خمس وعشرين سنة- أن حلقات القرار لا تكتمل في بعض الأحيان ما لم نضمّ إليها رأي الشخص العادي البسيط. إنني لا أضطر لاتخاذ القرار بنفسي إلا في واحد بالمائة من المرات، أما في ٩٩% منها فأتخذ القرار بأخذ شيء من هذا الرأي وشيء من ذاك الرأي. ولو لم نشرك عامة الأحمديين في مجلس الشورى لظلوا يفكرون في حاجات عائلاتهم، ولكن بعد أن أشركناهم في الشورى استنارت عقولهم، وبأخذ بعضٍ من آرائهم تكتمل خطتنا النهائية والقرار الجماعي الذي يكون نافعًا جدًا لجماعتنا. فكما أن الفرد يضع خطة له بالتفكير في حاجاته، كذلك لو وجّهنا عقله للتفكير في حاجات الأمة لأخذ الجميع يفكرون في حاجاتها. وكما قلت إن كل إنسان مزود بشتى الكفاءات والقدرات، سواء كان يعيش في الغاب أو الجبال أو في القرية أو المدينة. كل إنسان يمكن أن يفكر في مستقبل باكستان ومستقبل فلسطين، وفي كل قضية سياسية في العالم، إنما العيب أننا لم نولِّد فيه شعورا بأن عليه واجبات تجاه الأمة، ولذلك نجده يفكّر حينًا في زوجته وبناته وأولاده وأقاربه وسدّ حاجاتهم، ولا يفكّر في حاجات بلده وأمته ودينه. ليس ذلك لعدم قدرته على التفكير، إنما لأنه ليس معتادا على ذلك. لو تولدت في أفراد الأُمة عاطفة خدمتها، فإن أدنى فرد منها أيضا سيأتي لسدّ حاجاتها بمخططٍ ما بسيطٍ أو ذي بال. أما إذا لم تتولد عاطفة خدمة الأمة في أفرادها فإن المثقفين منهم أيضا -فضلاً عن العامة- سيظلون غافلين عن أمتهم، فلا يعرفون ما فيها من عيوب وما علاجها، حتى يصبح نظامها كله منخورا.

الواقع أن القوم لم يدركوا أن هناك عقلاً جماعيا، كما أن هناك عقلا فرديا. إن العقل الجماعي شيء غير مادي فلا يُرى، ولكنه يقيني قطعي بحيث لا يوجد في الدنيا شيء أكثرَ منه يقينا. وعندما تتولد عاطفة خدمة الملة في أفراد أمة يبدأ الجميع في سد حاجاتها، وتفكير الأفراد في حاجات الأمة يؤدي إلى الروح الجماعية، وهذه الروح تولِّد العقل الجماعي الذي لا يُرى، ولكنه حقيقة ثابتة لا يسع أحدًا إنكارها. والأمة التي يتولد عندها تفكير جماعي تنتصر على الآخرين رغم قلة ثقافة أفرادها، أما الأمة التي لا يتولد عندها تفكير جماعي تنهزم رغم تفوُّق أفرادها ثقافة. فكما أن من المحال أن يقوم الفرد مقام الحكومة، كذلك من المحال أن يحل العقل الفردي محلّ العقل الجماعي. لقد اتخذ بعض المسلمين تدابير فردية لحمايتهم خلال الفتنة التي حصلت في البلاد مؤخرا•، ولكنهم لم يتخذوا تدبيرًا جماعيا -لا شك أنهم قد اتخذوا تدابير جماعية في بعض المدن مثل أمرتسر، ولكن المدن مقابل الدولة هي بمنـــزلة الفرد مقابل الأمة- فلاقوا هزيمة مخزية على يد العدو. كان السيخ في البنجاب الشرقية يشكلون ٢٢% من السكان، بينما كان المسلمون يشكّلون ٤٤%، ولكن هؤلاء القلّة ضربوا أصحاب الكثرة ضربات شديدة فلم يستطيعوا أن يتقدموا خطوة واحدة. وليس ذلك إلا لأن السيخ يتمتعون بتفكير جماعي، والمسلمون يفتقرون إليه. والأمة إذا لم يكن لديها تفكير جماعي فلا تقدر على مواجهة المصائب الجسيمة ولا إحراز تقدُّم عظيم. يوجد في الجسم الإنساني آلاف الأعضاء المعقدة التي تقوم بأعمالها، فالأسنان تمضغ الطعام، والمريء يوصله إلى المعدة التي تهضمه، فيتحول إلى دمٍ خالصٍ يصل إلى القلب والدماغ وغيرهما من الأعضاء، فتستمر الحياة. ويوجد في الجسم شيء مماثل، بل هو أهم وأعقد من هذه الأعضاء الأخرى، وهو الروح التي عليها مدار الحياة كلها، والتي لم يستطع العلماء بعدُ إدراك كُنْهِها. إنها خلاصة آلاف العمليات المعقدة. لا شك أن الروح لا تُرى

• يشير حضرته ﷺ إلى المجازر التي وقعت سنة ١٩٤٧عند انقسام الهند وتأسيس دولة باكستان. (المترجم)

بالعين المادية، ولا جرم أن الدنيا لا تقدر على تحديد العضو الذي توجد فيه الروح، إلا أنه لا يسع أحدًا الإنكار أن هناك شيئا إذا غاب أصبح الجسد عاطلا تماما. عندما يموت الإنسان تكون أعضاؤه مِن قلب ومخ ومعدة وأمعاء وأيد وأرجل كلها موجودة ولا تختفي أبدًا، ومع ذلك ينهار نظام قلبه وأعصابه كله فجأة، مما يعني أن شيئًا آخر كان في جسده، نحن لا ندري أكان في بنانه أو يده أو قلبه أو مخه، إلا أنه لا يسعنا إنكار وجوده. وكما أن في جسد الإنسان روحًا هي مدار حياته تماما، كذلك هناك روح وعقل للأمة، وما دام هذا العقل الجماعي عاملا في أمة، فإنها تظل غالبة على الأمم الأخرى، ولا تقدر أمة على مواجهتها. انظروا إلى الإنجليز مثلا، فعندهم عقل جماعي يغلبون به الشعوب الأخرى دائما. يقول الألمان عن الإنجليز تعييرًا لهم: إنهم جهلاء ولا يخرجون من بينهم علماء أفذاذ، ويقول الفرنسيون أيضا تعييرًا للإنجليز: إنهم مقلّدون لا يوجد بينهم مخترعون. وأيُّ شك في أن الإنجليز لا يقدرون على مجاراة الألمان فيما يتعلق بالمخترعات الفردية؟ وأي شك في أنهم قد اقتبسوا من فلاسفة الألمان؟ ولا جرم أنهم لا يقدرون على مجاراة فرنسا في الآداب وفنون السلوك، كما ليس بوسعهم منافسة الفرنسيين والإيطاليين في مجال الفنون. ومع أن الألمان والإيطاليين والفرنسيين أفضل من الإنجليز من حيث العقل الفردي، إلا أن الإنجليز كأُمةٍ يغلبون هذه الشعوب دائمًا، ذلك أن عقل الإنجليز الجماعي أفضل منهم. إن الغلبة التي حازها المسلمون في بداية الإسلام إنما كان سببها عقلهم الجماعي، وإلا فإنهم كانوا أقلَّ من الرومان علمًا وثقافة، وكان بوسع الرومان أن يعلّموا المسلمين سنوات وسنوات بما عندهم من علوم، وكان الفُرس أفضل من المسلمين بكثير تجارةً ومدَنيّة. وهذا هو حال المجالات الأخرى، فما كان للمسلمين أن يجاروا الروم أو الفرس في أي ميزة فردية، إلا الدين، ومع ذلك حيثما ذهبوا هزموا الرومان والفرس. فما الذي كان المسلمون يتمتعون به؟ إنما ذلك أنه كان عندهم التفكير الجماعي ببركة الإسلام. هذا التفكير الجماعي لا يمكن أن يجاريه التفكير الفردي. والتفكير الجماعي يعني أن يكون عند كل فرد من الأُمة إحساس بأنه ليس بشيء، وإنما أُمته هي كل شيء. إن التضحيات التي قدّمها

الصحابة من أجل النبي ﷺ دليلٌ بيِّن على أنهم فضّلوا مصلحة الأمة على كل شيء. لم يكن النبي ﷺ فردًا، بل كان رمزًا لمجد الأمة، وكل التضحيات التي قدّموها من أجله ﷺ لم تكن لفرد واحد، بل كانت للأمة. ويمكنك تقدير تضحياتهم العظيمة من الحادث التالي:

كان العدو يمطر السهام نحو الرسول ﷺ في إحدى الغزوات، فكان طلحة رضي الله عنه يحمي بيده وَجْهَه ﷺ حتى شُلّت يده و لم تصلح لشيء بعد ذلك (البخاري، كتاب المغازي). ما أروعَها مِن عاطفة إيمان جعلتْه لا يتأفف ولا يحرك يده من أمام مطر السهام! فسئل طلحة رضي الله عنه مرة: ألم تكنْ تتأفف من شدة الألم عندما كانت السهام تصيب يدك؟ فقال: كنت أريد التأفف من شدة الألم، ولكن لم أفعل مخافة أن تتحرك يدي فيصاب النبي ﷺ.

إن هذا الحادث دليلٌ عظيم على أن القوم كانوا يرون أن لا قيمة للفرد، وإنما واجبهم أن يضحّوا في سبيل الأمة أو رمزِها محمد ﷺ ليل نهار بكل غال ورخيص وحتى بالأرواح.

بعد انتهاء القتال في غزوة أحد بعث النبي ﷺ صحابيًا لتفقُّد الجرحى، فوجد أنصاريًا قد أشرف على الموت، فاقترب منه وقال له: هل عندك رسالة تبلّغها أقاربك؟ فقال: كنت أنتظر أحدًا من أهل المدينة بفارغ الصبر لأوصل على يده رسالة إلى أهلي، فالحمد لله أني وجدتك؛ ضَعْ يدك في يدي وعاهِدْني على تبليغ رسالتي لأهلي وأقاربي وإخواني، ففعل، فقال الأنصاري: بلِّغهم أن محمدا رسول الله ﷺ أمانةُ أُمّتِنا التي لا تقدَّر بثمن، وإني على يقين أنكم تدركون قيمة هذا الكنز الثمين، ومع ذلك أرى واجبًا عليّ أن أقول لكم إننا لم نَخُنْ هذه الأمانة وبذلنا في حياتنا كل ما في وسعنا للحفاظ عليها، والآن نحن نموت واضعين هذه الأمانة المقدسة في أيديكم، وآمل أن يكون أولادي وإخواني وأقاربي كلهم أشدّ حرصًا على حفظ هذه الأمانة المقدسة منهم على أرواحهم، وألا يقصّروا في أداء هذا الواجب أبدًا (السيرة الحلبية: غزوة أحد).

إن الإنسان إذا أشرف على الموت فكّر في زوجته حينًا وفي أولاده حينًا، وقال: لي مال عند فلان وعليّ قرض لفلان، ويجب تعليم أولادي هكذا، والإنفاق على زوجتي من مال كذا، ولكن انظروا إلى ذلك الصحابي فإنه لم يفكّر عند الموت إلا في أمته، بل في البشرية كلها. لقد وجد روحَ أُمته، بل روحَ البشرية كلها قد انكمشت في شخص الرسول ﷺ، فأنساه حبُّه للأمة حقوقه الفردية، فلم يفكّر عند موته إلا في الأمة ورمزِها، ولم يوص أهله بالحفاظ على حياتهم، بل ببذل أرواحهم، ولم يوصهم بأخذ حقوقه، بل بالتضحية بحقوقه، وذلك لإدراكه أن مجد الفرد والعائلة ونجاحهما إنما هو في مجد الأُمة وحمايتها.

والواقع أن المسلمين لو تحلوا بهذه العاطفة اليوم أيضا فلن يقدر السيخ ولا الهندوس على مواجهتهم. إنهم يضحكون على السيخ عادة على أنهم أمة غبية، ولكن السيخ يتمتعون بتفكير جماعي، أما هم فمحرومون منه، ولذلك نجد هؤلاء السيخَ القلة قد هزموا المسلمين الكُثر في البنجاب الشرقية.

باختصار، إن التفكير الجماعي شيء ثمين جدا، وعلامتُه أن كل فرد من الأُمة يفكر في مصلحتها، فكلما اجتمع بعضهم في مجلس كان حديثهم عنها؛ فقالوا إن أمتنا مصابة بكذا وكذا من العيوب والنقائص، ويجب علاجها هكذا، وإذا التقى أهل حيّ بأهل حي آخر، كان حديثهم على المنوال نفسه، وإذا اجتمع أهل مدينة بسكان مدينة أخرى تحدثوا عما يهمّ الأمة أيضا، مما يولّد فيهم تفكيرا جماعيا مشتركا، وينفخ في الأمة روحا جماعيةً، فيصبو الجميع إلى هدف واحد. هذه هي العاطفة التي يتمتع بها الهندوس والتي جعلتهم ناجحين. عندما يرفع أبسط هندوسي شكوى ضد مسلم فإن أكبر مسؤول هندوسي في الدوائر الحكومية لا يلبث أن يقول -عندما يقرأ في آخر الشكوى اسما هندوسيا- أن ما يقوله هذا هو الحق، أما إذا رفع مسؤول كبير مسلم شكوى ضد هندوسي فيقول هؤلاء المسؤولون الهندوس إنه على الخطأ ولا بد أن يكون الهندوسي على الحق. أما المسؤولون المسلمون فلو رُفعت إليهم قضية مسلم وهندوسي، فلا بد أن يؤيدوا الهندوسي حتى يقول الهندوسُ إنه مسلم عادل، وإن كان قراره منافيًا للعدل والإنصاف. إنه

يُخالف المسلم إرضاءً للهندوسي، ثم يسمي هذا إنصافا، وذلك لأن المسلمين يفتقرون إلى عاطفة خدمة الأمة، والحق أنهم لم يُهزَموا عند حلول المصيبة الأخيرة هزيمة نكراء إلا لهذا السبب، ذلك أنه عند حلول المصائب الجماعية، لا ينفع العقل الفردي بل العقل الجماعي، ولكن لا يتولد العقل الجماعي عند أفراد الأمة إلا إذا كانت عقولهم جميعا تفكّر تفكيرًا موحَّدا، وتسعى لتحقيق هدف واحد. وقد بيّن الله تعالى الحقيقة نفسها في قوله ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾.. أي أَخْبِرْني عن الذي ينكر عاطفة خدمة الأمة، فإنه هالك لا محالة. وقد أشار الله تعالى بهذا إلى أن أهل مكة وغيرهم من قبائل العرب يفتقرون إلى العاطفة السليمة لخدمة الأمة، فاتحادهم عابر، وستُري الأيام أنه سيخرج مِن بينهم خونةٌ لأمتهم، أما المسلمون فيتمتعون بعاطفة خدمة أمتهم ويتحلّون بتفكير جماعي، وقد انخرط فقراؤهم وأغنياؤهم في سلك واحد ساعين لتحقيق هدف واحد، وقد أبوا أن يضحّوا به من أجل مصالحهم الشخصية بأي ثمن، لذا فلا بد أن يحالفهم النصر، وينهزم أعداؤهم.

المفهوم الثامن: ومن معاني الدين الورع، الذي يعني السعي لتجنّب الشبهات.. أي أن يتمنى المرء ويسعى جاهدًا لأن يجتنب السيئات والأفعال غير المرضية.

لقد ذكر القرآن الكريم للنفس الإنسانية ثلاث حالات؛ منها النفس الأمّارة المشار إليها في قوله تعالى ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾.. أي حين تحفز النفس الإنسانَ على السيئات فإنه يعتادها حتى يحبّ الآثام والمنكرات. ومن هذه الحالات الثلاث للنفس ما يسمى النفس المطمئنة، أي حين تصبح النفس راضية وتدرك أن الله تعالى قد خلَقها بمشيئته الخاصة لتحقيق أهداف معينة، وأن ما خلقه الله لها من أسباب هي تناسبها تمامًا، وبتعبير آخر إن مثل هذا الإنسان يرضى بحاله ويطمئن، ولا يعمل كالمجنون الذي يذهب إلى الله مرة وإلى الشيطان أخرى، وإلى الدين تارة وإلى الدنيا أخرى، بل صاحب النفس المطمئنة يرجع إلى الله تعالى ويقيم عنده ولا يتحرك من هناك. والحالة الثالثة للنفس هي ما يسمى بالنفس اللوّامة، فصاحبها يدرك شناعة السيئات فورًا، فيلوم نفسه عند الاقتراب منها فيجتنبها، وإذا ما

ارتكب سيئة تأسفَ واستغفر ولامَ نفسه بشدة، كما يشير إلى ذلك لفظ اللوامة. وهذه الحالة أدنى من الورع، لأن الورع الحقيقي هو أن يمنع الإنسان النفس عن السيئات ويجتنبها.

والنفس اللوامة تسمى عند المثقفين بالإنجليزية (Conscience) وتسمى "الضمير" في لغة الآخرين. والضمير في العربية يعني باطن الإنسان، وصوت الضمير يعني ما تطالبه به الكفاءاتُ الكامنة في باطن الإنسان؛ غير أن الأوروبيين ينكرون الضمير هذا. كانوا في الماضي يرددون كلمة Conscience كثيرًا، أما اليوم فقد وُلد بينهم فلاسفة قالوا بأن هذا الكلام فارغ، إذ ليس هنالك شيء اسمه النفس اللوامة أو Conscience أو الضمير، وإنما هو رَدُّ فعلٍ للعادات والتقاليد؛ فكل ما في الأمر أن المرء عندما يسمع شيئًا يتنافى مع ما اعتاده من عادات وتقاليد بتأثير محيطه فإنه يكرهه. فمثلا لا يأكل الهندوسي لحم البقر، بل لو تكلّم أحد أمامه عن أكله تقيّأَ، أما المسلم فيأكله ولا يجد في ذلك غضاضة، وكذلك الإنجليزي يأكله ولا يجد في ذلك كراهة، فلو كان هذا صوت الضمير فلماذا لا يتقيأ الإنجليزي أو المسلم عند أكل لحم البقر كما هو حال الهندوسي؟ أو خذوا مثلا لحم الخنزير، فإن اليهودي والمسلم لا يأكلانه، بل إذا ذُكر أكل لحم الخنزير أمامه تقزّزَ، ولكن الإنجليزي أو السيخي لا يجد في ذلك غضاضة، بل يشتهي أكله، فلو كان أكل لحم الخنزير أمرًا طبيعيا فيجب أن يرغب في أكله الإنجليزي واليهودي والمسلم والهندوسي كلهم؛ فثبت أن الأمر لا يتعلق بطبيعة الإنسان ونفسه، بل يتوقف على عاداته وتقاليده، فمن اعتاد عدم أكل لحم الخنزير يعاف قلبه حتى سماع ذكره، أما من اعتاد أكل لحمه، لم يجد أي غضاضة في أكله ولا ذكره. ولو كان الأمر معاكسًا لكانت النتيجة معاكسة أيضًا، أي لو كان الهندوس معتادين أكل لحم البقر، وكان الإنجليز غير معتادين أكله لتغيرَ الوضع، ولما كره الهندوس أكل لحمه، ولعافَ الإنجليز أكله؛ أما لو كان المسلمون معتادين أكل لحم الخنزير لما كرهوا أكله. فثبت أن الأمر لا يتعلق بالطبع والنفس بل يتعلق بالعادة، لأن المرء لا يكره ما اعتاده، إنما يكره ما كان خلاف عادته.

هذا ما يقوله هؤلاء الأوروبيون، وإنه لقول باطل، وإن هذه الأمثلة لا تغيّر الواقع شيئًا. فالسؤال هنا ليس عن لحم البقر أو الخنـــزير، ولا أحد يقول إن أكل لحمهما أو عدم أكله ذو علاقة بالطبع والفطرة والنفس، إنما هي أحكام دينية، وهناك فرق بين أحكام الدين وما تأمرنا به الفطرة. إننا نناقش هنا النفس اللوامة لا الشريعة، وأكلُ لحم الخنـــزير أو البقر يتعلق بالشريعة لا بالنفس اللوامة. نحن أيضا نقرّ أن المسلمين لا يعافون أكل لحم البقر لأنه حلال في شريعتهم، ويكره الهندوس حتى سماع ذكر أكل لحمها لأنه حرام عندهم، أو يعاف المسلمون سماع أكل لحم الخنـــزير لأنه حرام عندهم، أما المسيحيون فلا يعافون أكله لأنه حلال عندهم. هذا صحيح تماما، بل نعترف بأن اعتبار المرء بعض الأمور حسنة وبعضها سيئة بسبب ما يأمره به الشرع، لا علاقة له بالفطرة، إذ هي تفاصيل شرعية يضطر الإنسان لاعتبارها حسنة أو سيئة. إن ما نسمّيه النفس اللوامة هو الضوابط والدوافع الأخلاقية، ولا علاقة لها بالدين والشريعة، بل هي توجد عند كل قوم. نحن نعترف أن النهي عن أكل لحم البقر أو الخنـــزير جاء في شرائع أمم معينة، ولكن الكذب والخداع والرياء ونكران الجميل وخيانة الأمة ليست مخصوصة بأمة معينة. لا شك أن المسلم إذا لم يصلِّ أو لم يصم أخذه القلق، بل إنه يصوم في مرضه أحيانًا بغضّ النظر عما أعطاه الله من رخصة في حالة المرض، كذلك يوجد عند الهندوس أيضًا أنواع الصيام باسم "شراده"، وغيره، كما يأمرهم شرعهم بحرق الموتى، وإننا لا نقول بأنها أحكام طبْعية، فإحراق الموتى ليس حكمًا طبْعيا، بل هو حكم شرعي. ولو أُمر المسلمون بحرق الموتى لفرحوا بذلك، ولو أُمر الهندوس بدفن الموتى لفرحوا بذلك. وإننا عندما نتحدث عن النفس اللوّامة الدافعة إلى الخير حتى وإن لم يكن هناك شريعة، فلا نعني بالخير ما يعتبره الشرع خيرًا، بل نقصد عندئذ الأخلاق الفطرية، إذ لا علاقة لتلك النفس اللوامة أو الضمير بأحكام الشرع، وإنما تتعلق بالحسنات الطبعية الفطرية المسلّم بها عند جميع الأديان. لا شك أن هناك فرْقًا بين دين وآخر من حيث الأحكام، فمثلا يقول الإسلام للمسلم أن يصلي هكذا، بينما تقول الهندوسية للهندوسي عليك أن تتعبد هكذا، ولكن هل تجد دينًا يأمر

أتباعه بألا يصدقُوا القول؟ لا شك من وجود مفتريات وأباطيل في بعض الأديان، ولكنها لن تأمر أحدا بالكذب. ولا جرم أنه قد نُسبت إلى بعض الأديان تعاليم غاشمة، فمثلا يعتقد عامة المسلمين اليوم عقيدة بشعة بأن من ارتد عن الإسلام وجَب قتله، ولكن الإسلام لم يعلّم ذلك قط، إنما نسبوه إلى الإسلام باطلا، ومع ذلك لو سألت أيًا من المشايخ ما إذا كان القرآن يأمر بالظلم، لكان جوابه بالنفي. كذلك توجد في الديانة الهندوسية عشرات الأحكام الظالمة، ولكنك لو سألت علماءهم لقالوا جميعا: إنما يعلّم ديننا ألا نظلم أحدا. إذن، فيمكن أن تختلف الأديان في أحكام الشرع، ولكن لا اختلاف عندها عن المُثل الطبعية الفطرية؛ ولن تجد أيًا من أتباع الزرادشتية أو الهندوسية أو المسيحية أو غيرها يقول: إن ديننا يعلّم الإخلال بالأمن والخيانة والكذب والذل. هذه هي الحسنات الفطرية الأساسية، وهي التي تتعلق بالنفس اللوامة، وهي التي توجه نفسُ الإنسان له لومًا بسببها في وقت من الأوقات، فيندم على ما فعل.

كان الخليفة الأول ﵁ طبيبًا حاذقًا وكان الناس من كل الطبقات والشرائح يأتونه للعلاج، فجاءه لص ذات مرةً، فقال له حضرته: ما هذا الإثم الذي ترتكبه؛ تسلب أموال الناس وتأتي بالمال الحرام إلى بيتك؟ فقال: حضرةَ الشيخ، كيف تسمي ما نكسبه حرامًا؟ ومن ذا الذي هو أكثر كسبًا للحلال منا؟ ألا تعلم أننا نخرج لعملنا في جوف الليل واضعين أرواحنا على الأكف والناس يستمتعون بالنوم. فأي شك في أننا نكسب رزقًا حلالا بمشقة وعناء؟ يقول حضرته: فعلمتُ مِن قوله أن فطرته السليمة نائمة الآن، فغيرتُ مجرى الحديث، ثم قلت له بعد قليل وقد نسي ما كنا فيه من حديث: هَلا أخبرتَني كيف تقومون بالسرقة؟ فقال: إن الشخص الواحد لا يستطيع السرقة، وإن ما يأخذه الشخص الواحد من مال الآخر فنسميه اختلاسًا، والمختلس لا نسميه لصا ماهرا. إننا نحتاج من أجل السرقة إلى عدة أشخاص، فأحدنا يتجسس على البيت ويدلنا على مكان المال، أما الآخر فيكون ماهرًا في اختراق الجدار بحيث لا يُحدث صوتًا يوقظ أهل البيت. أما الثالث فيكون ماهرًا في المشي في البيت وفي كسر الأقفال من دون صوت، فيدخل مِن

ثقب الجدار ويأتي بالمال. أما الرابع فيقف خارج البيت ويستلم منه المال. وكل هؤلاء يلبسون سراويل قصيرة جدا ضيقة. أما الخامس فيكون واقفا على ناحية الشارع بلباس الشرفاء، وواجبه أن يراقب ما إذا كان حارس قد اقترب أم لا، وأن يستلم المال من زملائه، وحتى لو انتبه أهل البيت وأثاروا ضجة فلا يشتبه الناس فيه بسبب لباسه. أما السادس فهو الصائغ الذي نذهب بالمال إليه، فهو يفصِل الجواهر واللآلئ والأحجار الكريمة عن الذهب ثم يبيعها، فنتقاسم الأموال بحسب الشروط المتفق عليها. فقلتُ للص: لو أن الصائغ احتال عليكم، وأكل أموالكم التي كسبتموها بشق الأنفس، فماذا تفعلون إذن؟ فاحمرّ وجهه وقال في غضب: كيف يتجاسر على أكل أموال الآخرين بغير حق؟ فقلتُ: هذا يعني أن أكل أموال الآخرين حرام. فانتبه بقولي إلى خطأه، وندم وصمت.

وذات مرة جاء إلى حضرته ﷺ شخصٌ دَيّوثٌ للعلاج، فأخذ في وعظه وقال: لماذا تمارس هذه المهنة النجسة؟ فقال: حضرة الشيخ، كيف تقول إنها مهنة نجسة؟ قال: هل في الدنيا مهنة أشد نجاسةً من هذه؟ تُزوِّجون أولادكم من بنات الآخرين، ثم تجعلونهن يمارسن الزنا في بيوتكم!! قال: حضرة الشيخ، مَن يفقد الحياء حتى يرتزق بدفع بنات الآخرين للزنا؟ إنما نسأل بناتنا نحن، لا زوجات أولادنا، ليكسبن لنا بهذا الطريق؟ (خطبات نور ص٥٣٤: خطبة ١٩١٢/١١/١)

وهذا يعني أنه كان عند هذا الديوث أيضًا الإحساس بالفحشاء رغم ارتكابه هذا الحرام.

فثبت من هنا أن لا علاقة للنفس اللوامة بالأمور التي هي من قبيل العادة والتقليد، بل إنها تختص بالمشاعر الإنسانية التي هي جزء من فطرة الإنسان، وستجد في بلدان العالم كلها صوت واحد بشأنها.

ويقول فلاسفة أوروبا ردًا على ذلك: هذا أيضا خطأ منكم، فإن الأمانة والصدق والإحسان أو الكذب والظلم وما إلى ذلك إنما يعتادها المرء تقليدًا، ولو عوّدت أحدًا الكذبَ لكذب في حديثه وكرِه الصدق، ولو عوّدته الخيانة لاعتادها وكرِه الأمانة. غير أنه لا يُعوَّد على العموم الكذبَ والخيانة فيعافهما بسبب ذلك،

ولكنكم تعتبرون كراهته لهما أمرًا طبيعيا فطريا، مع أنه ليس من الفطرة في شيء، بل هو نتيجة العادة والتقليد.

ونقول في الجواب: هذا أيضًا ليس صحيحا، فنحن أيضا نقرّ أن النفس اللوّامة أيضا يمكن أن تموت في الإنسان، إذ إن النفس الأمارة لن تنشأ إلا بموت النفس المطمئنة؛ فإذا عوَّدْنا أحدًا الخيانةَ أو الكذب فلا بد أن يموت عنده الإحساس بشناعتهما، ولكن الأمر أننا هنا لا نناقش تعويد أحد على فعل، وإنما نتحدث هنا عن المُثل التي توجد في الناس جميعا على حد سواء على اختلاف أديانهم وبلدانهم وأحوالهم وظروفهم، فكيف يمكن أن تُعَدّ هذه نتاج العادات والتقاليد؟ فكم هو شاسعٌ الفرقُ بين لغات أهل القارات العظيمة كآسيا وأوروبا وأمريكا وإفريقيا ومناطق الجنوب والشرق! فأهل الهند وحدها يتكلمون عشرات اللغات. أما عندنا في باكستان فلو سألت البلوشيين لوجدتَ عندهم لغات عديدة، ثم إن لغة القبائل الأفغانية عندنا تختلف عن لغتنا، والحال نفسه فيما يتعلق بأهل البنغال. ولو خرجت من القارة الهندية وجدت بين اللغات اختلافا كبيرا مذهلا، فأهل الصين عندهم لغة، وعند الروس لغة أخرى، والأفارقة عندهم لغات مختلفة تماما، وكذلك الهنود الحمر في أمريكا لديهم لغة مختلفة. وهناك اختلاف شاسع بين الناس من حيث اللغات. أما لو نظرت إلى أديانهم، فتجد فيها اختلافا كبيرا أيضا. فلو زرت إفريقيا لوجدت أديانهم تختلف من منطقة إلى أخرى، ولو ذهبت إلى مختلف الجزر وجدت في أديانها اختلافا كبيرا.

إذن فقد ثبت بطلان قولكم أن الناس إنما يميلون إلى هذه المُثُل الفطرية والقِيَم الطبعية بتأثير تعاليم الأديان. كانت حجتكم أن الناس يكرهون الكذب لأن الدين قاوم الكذب، أو يتحلّون بالأمانة لأن الدين حضّ عليها، ولكنا نقول إن الدين نفسه كان قد دعا الناس إلى الله ورسله وكتبه، ومع ذلك نجد أن الصينيين يقولون عن الدين غير ما يقوله المنغوليون، والأستراليون يقولون ما لا يتفق مع عقائد الهنود الحمر، وهذا هو حال اليهود والنصارى وغيرهم؛ فالسؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: ما دامت تعاليم الدين الأخرى كلها قد تغيرت من شعب إلى آخر وبين بلد

وآخر، فلماذا لم تتغير هذه الْمُثل الأخلاقية عندهم؟ لقد ثبت من هنا بجلاء أن هذه الْمُثل ليست أحكام الدين، إنما هي مُثل طبيعية مغروسة في الفطرة الإنسانية. إن الأحكام التي كانت تتعلق بالدين قد تغيرت، لكن هذه الأمور الفطرية ظلت على حالها. فاتفاق الناس كلهم في هذه الأمور الحسنة الطبعية واختلافهم في أحكام الأديان واللغات والعادات والتقاليد لدليلٌ بيّن على أن الأمور المتعلقة بالفطرة هي غير التي تتعلق بالشريعة. لقد اختلف الناس في ألسنتهم وعاداتهم وتقاليدهم وظروفهم وأحوالهم في كل مكان في العالم، أما إحساسهم عن الصدق أو الكذب أو الأمانة أو الخيانة فظل على حاله لم يتغير قط. يختلف الناس اختلافًا كبيرا في طريقة حياتهم ومعاملاتهم وعاداتهم عند الزواج والموت، فبعضهم يدفنون موتاهم وبعضهم يحرقونهم، بل يوجد في "جُزر فيجي" أُناس يأكلون آباءهم وأمهاتهم، حيث يذبحونهم عند مرضهم ويأكلونهم ويعتبرون ذلك علامة حب لهم، ويقولون بأن مِن واجبنا أن نأكل لحمهم ولا ندَعه يضيع هكذا. فكم هو كبير هذا الاختلاف بينهم وبين باقي سكان المعمورة! ولكنك لو سألت سكان إفريقيا أو اليابان أو الصين أو سويسرا أو النرويج أو فنلندا أو أحد الهنود الحمر من الأمريكان عن الصدق أو الكذب أو الأمانة أو الخيانة، لقال الجميع إن الصدق حسن والكذب سيئ والأمانة حسنة والخيانة سيئة، وذلك مع اختلافهم في كل شيء من لغة وعادة وتقليد ومعيشة وما إلى ذلك.

فهذا برهان ساطع على أن هذا الصوت هو صوت الفطرة الإنسانية، إذ لم يتغير هذا الصوت رغم تغير الأديان. لقد تغيرت الأمور المتعلقة بالعادات والتقاليد واللغات، ولكن هذه الحسنات الطبعية والْمُثل الفطرية لم تتغير عند أحد. إذن، فلماذا لا نستنتج مِن عدم تغيُّر هذه الأمور عندهم -مع تغيُّر العصور والبلدان والأديان- أن هذه العواطف ليست نتاج العادات، بل إن العادات والتقاليد الموجودة عند شتى الأمم هي نتاج هذه العواطف الطبعية الفطرية؟ يقول فلاسفة أوروبا أن هذه العواطف تولدت نتيجة العادات، ولكنا نقول لو كانت هذه العواطف الفطرية نتاج العادات، للزم أن يختلف الناس فيها بتأثير العادات والتقاليد

المختلفة، ولكنا لا نجد بين شتى أمم العالم أي اختلاف في هذه العواطف الطبعية، ولذلك نقول إن شتى العادات القومية هي نتاج هذه العواطف الطبعية وليس العكس.

باختصار، إن الإحساس بحسن الصدق والأمانة والعدالة والإنصاف والرحمة وغيرها من الحسنات الفطرية موجود في كل بلد وعند كل شعب وحتى القبائل البدائية. لقد قمت بمطالعة كتب ضخمة لدراسة أخلاق أهل الأديان والشعوب والقبائل المختلفة، ودرست أخلاق الأمم الحديثة والعتيقة وحتى عادات القبائل التي لا تزال تعيش عارية في الغابات، ولا يَدَعون أحدًا يقترب منهم، وإلا قتلوه بالسهام، فتوصلت إلى أن هناك مُثُلاً أخلاقية يتفق عليها البشر كلهم رغم آلاف الاختلافات الأخرى. لن تجد في هذه المُثل الأخلاقية أي اختلاف بين أهل الدنيا من شرقها إلى غربها. والحق أن هذا الإحساس الموجود عند شتى الأمم عن ضرورة تجنُّب هذه السيئات المعينة إنما هو نتيجة للنفس اللوامة أو ما يسمى Conscience أو الضمير، وليس نتاج العادات والتقاليد القومية. إذن، فكل من يؤمن بقوة النفس اللوامة فلا بد أن يصغي لصوتها ويجتنب السيئة.

لقد قلت بأن الفلاسفة الأوروبيين يقولون بأنه ليس هناك ما يسمى الضمير أو صوت الفطرة الذي يلوم صاحبه على ارتكاب السيئة، بل الحق أن الإنسان يحب ويعمل ما يعمله آباؤه، ويكره وينتهي عما نهوه عنه، وهذا ما أشار إليه الله تعالى هنا وأخبر أنه لا بد وأن يقع في المعاصي ويُحرَم حسناتٍ كثيرة مَن يكذّب بالدين (أي الورع) .. أي مَن ينكر وجود الإحساس الفطري في الإنسان بتجنب السيئات، فقال تعالى ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾.. أي أَخْبِرْني عن الذي ينكر الورع ويقول إن الإحساس بتجنب المعاصي أو السيئات ليس نتيجة رغبة فطرية موجودة في الإنسان، فمثل هذا لا بد أن يكون ضعيف السيرة ولا بد أن تفسد أخلاقه، أما الذي يؤمن بالورع فسوف يزداد صلاحا يقينًا.

لقد قدم الله تعالى النفس اللوامة في القرآن الكريم دليلا على وجوده تعالى، وأي شك في أن خلق النفس اللوامة في الإنسان تدبير رباني؟ لقد كان الإنسان عرضةً

لشتى الابتلاءات، فلم يُرد الله تعالى أن يتركه من دون حماية، فخلَق في فطرته صوتًا ينبّهه دائمًا. إن صوت الفطرة هذا يجذبه إلى الخير دوما. إن بعض الناس يخرجون بعيدًا في متاهة السيئات، فيجذبهم صوت الفطرة هذا إلى الخيرات ثانية وكأنهم لم يقترفوا السيئات قط، وبعضهم تحيط بهم خطيئاتهم فيُحرَمون الحسناتِ كلية.

لقد أخبر النبي ﷺ أن المرء يتقدم في الحسنات أحيانًا حتى يخيّل أنه لن يقترب من السيئات أبدا، ولكنه فجأةً يصاب بزلّة تدخله في النار، وأحيانا لا يزال يرتكب المعاصي حتى يبدو وكأنه لن يقترب من الحسنات، فيصاب بهزّة ويدخل الجنة (البخاري، كتاب الجهاد). ونجد في الدنيا آلاف الحالات التي تؤكد صدق قول النبي ﷺ. وهذا التغير الفجائي لا يكون نتيجة لأمر غير طبيعي، بل يكون وراءه سبب طبيعي حتما، ألا وهو هذه القوة التي زود الله تعالى بها كل إنسان، فهي التي تجذبه وتعمل هذا العجب العُجاب.

يُروى أنه كان يسكن في جوار وليّ من أولياء الله تعالى أحدُ عِلية القوم الذي كان شغله الشاغل التمتع بالرقص والغناء وشرب الخمر، وكان يتفاخر بعلاقاته مع الملِك وكبار المسؤولين قائلا بأنه لا أحد يقدر على منعه من ذلك. فنصحه الرجل الصالح كثيرا، ولكنه لم ينتصح وظل يقول له: لن تستطيع منعي من هذا. وكان يشوِّش عليه الصلاة والعبادة باشتغاله بالرقص والغناء طول الليل، فضاق منه الرجل الصالح ذرعًا وهاجر إلى مدينة أخرى. وذات مرة ذهب الرجل الصالح للحج، فوجد هذا الزعيم يحج بيت الله الحرام، فذُهل وقال في نفسه: كيف جاء هذا الملحد الشرير هنا؟ فتقدم وصافحه وسأله: كيف جئتَ للحج وقد تركتُ مدينتي بسببك، إذ كنت تشوِّش عليّ صلواتي وتحول دون استمتاعي بالتهجد وتركيزي في أدعيتي باشتغالك بالرقص والغناء طول الوقت حتى تركت المدينة بسببك؟ لقد قرأتُ عليك القرآن، ووعظتُك بالحديث، فلم يُجدِك وعظي نفعًا، فكيف جئت اليوم لحج البيت؟ فأجاب وقال: كل ما تقوله صحيح تماما، ولكن الله تعالى قد جعل لهداية كل إنسان موعدًا. فبينما كنت أستمتع مع النَّدامى والأصدقاء بشرب الخمر بعد عصر يوم على سقف بيتي، ونتعاطى الكأس تلو الكأس، مستمتعين بألحان

الموسيقى، إذ مر شخص بالشارع وهو يقرأ قول الله تعالى ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾(الحديد:١٧)، فما إن تناهى صوته إلى مسامعي حتى ارتجف قلبي وصرخت باكيًا، وأمرت بكسر أواني الخمر وقلت لأصدقائي أن يذهبوا من عندي. لم أدرِ ما إذا كان الشخص المار بالشارع هو الذي كان يقرأ آية من القرآن أم أن الله تعالى هو الذي أَطَلَّ من السماء وهدَّدني قائلا: ألا ترتدع عن المعاصي؟ فقمت بتوبة صادقة وكانت نتيجتها أنك تراني اليوم هنا (تذكرة الأولياء ص ٤٩-٥٠).

إذن، فالضمير لا يموت، ولكنه يصبح ممسوخًا أو مشوَّها. إن الضمير يمكن أن يُدفَن تحت المعاصي، ولكنه لا يمكن أن يموت أبدا. إنه لا ينفك يهزّ الإنسان ويوقظه، فأما مَن استمع لندائه و لم يقتلْه انفتح أمامه طريق الخيرات فلا يزال يمضي فيه قُدمًا، وأما مَن قتل ضميره فسيقع في المعاصي حتمًا، ولذلك قال الله تعالى ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾.. أي أَخبِرْني عن الذي ينكر صوت الضمير ويقول إنه مجرد وهْم، فستجد أن مثل هذا الشخص يقع في أنواع المساوئ ويُحرَم من الحسنات، لأنه قد دمَّر الوسيلة التي تؤدي إلى الحسنات.

المفهوم التاسع: ومن معاني الدين العادةُ. والحق أن العادة أيضًا تساعد على تجنب السيئات كثيرًا، ولكن ليس المراد هنا مجرد العادة، بل عادةُ فعل الحسنات. وكما هو واضح من السياق، فليس المراد أن من اعتاد أكْلَ اللحم لن يظلم اليتامى، ومن اعتاد ارتداء اللباس الإنجليزي حُفظ من السيئات. هذا كلام فارغ. لقد بين الله تعالى هنا أن الذي يُقرّ أن للعادة دخلا كبيرا في رقي الإنسان وأنها تساعده على المضيّ قُدمًا في الحسنات وتجنُّب السيئات، فلا بد أن يحرز التقدم، أما الذي لا يسلّم بما في العادة من فوائد جمّة، فلا بد أن يقع في السيئات ويُحرَم الحسنات.

واعلمْ أن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي قدّم الفلسفة القائلة بأن كل الكفاءات الكامنة في فطرة الإنسان إنما هي لفائدته ونفعه ورقيه. إن القرآن الكريم لا يعتبر أيًا من العواطف الفطرية في الإنسان لغوًا وعبثًا، بل يعلن بإصرار أن كل

عاطفة فطرية فيه إنما خُلقت لحكمة ما ولفائدته. والقرآن الكريم حافل بهذا الموضوع، إذ يعلن مرارًا أن الله تعالى لم يخلق أي شيء عبثًا، بل في كل شيء فائدة للناس، وقد ذكر بعض الأمثلة على ذلك، ومنها أن الموت الذي تخافونه لا يخلو من فائدة، والابتلاء الذي تخشونه أيضًا فيه منفعة، فهو يعلن بإصرار وتكرار أن الله تعالى قد خلق الأشياء كلها لمنفعة الإنسان وليس لضرره، إنما يصيبه الضرر نتيجة استعماله الخاطئ لها. ذات مرة جاءت النبيَّ ﷺ عباءةُ حرير، فدعا عمر رضي الله عنه وأهداها له، فجاء عمر إلى الصلاة وهو يلبسها، فلما رآه النبي ﷺ علت وجهَه أمارات السخط وقال له: كيف لبستَ لباس الكافرين؟ قال: يا رسول الله، أنت الذي أهديتني إياها، ثم تسخط عليّ حين لبستُها؟ قال ﷺ: يمكن أن تُهديها لزوجتك أو بعض بناتك، فمتى أمرتُك أن تلبسها؟ (البخاري، كتاب اللباس والزينة)

إذن، لم يخلق الله في الدنيا شيئا إلا وفيه فائدة للإنسان، غير أن كل شيء يجب أن يستخدم في محله. خُذ الذهب مثلا، فإن الله تعالى هو الذي خلقه، ولكنه قال أيضًا في القرآن الكريم بأن الذين يكنـــزون الذهب سوف يُحمى عليهم وتُكوى به أجسادهم يوم القيامة. وهنا إشكال في الظاهر، حيث خلق الله سبحانه وتعالى الذهب، ثم أعلن أيضًا أنه سيعاقب على كنـــزه! وليس جواب ذلك إلا أن الله تعالى لم يخلق الذهب ليكنـــزه الناس، بل لكي يتداولوه في تجاراتهم واقتصادهم، أو يستعملوه في الصناعة وفي جبر العظام والأسنان، إذ هو أقلّ المعادن تآكلاً. إذًا فلم يخلق الله تعالى الذهب لكي يصنع منه الناس حُليًّا ويكنـــزوه، إلا الحُليّ القليل الذي تستعمله المرأة للزينة.

باختصار، لقد خلق الله تعالى الأشياء كلها لمنفعة الإنسان، ومِنها العادة التي هي وثيقة الصلة برقي الإنسان.

يزعم البعض أن العادة -حسنة كانت أو سيئة- شيءٌ سيئٌ، وحجتهم هي: كيف يُثاب المرء على العمل إذا قام به عادةً؟

والحق أنه قول باطل، لأن العادة هي مِن نعم الله العظمى. إنها تسهّل على المرء رحلة الخير جدًّا، ولولاها لصعبت هذه الرحلة. إن العادة تسهل للمرء كل عمل تال. هناك مثل عربي يقول: العَود أحمدُ.. أي عليك أن تعيد عملك، لأنك كلما أعدٍته أتقنتَه. فمثلاً لو أخذتَ الإبرة والخيط لتخيط ثوبًا بسيطا جدا، فلربما استغرقتْ خياطته خمسة أيام، وتكون الخياطة معوجّة غير سليمة، بينما سيخيطه الخيّاط في بضع ساعات. فما الذي يميّز الخيّاط عليك؟ إنما هي عادته للخياطة. والحال نفسه فيما يتعلق بالأعمال الأخرى. يقول الناس إذا تعلّمَ المرء ركوب الدراجة فلن ينساها، ولكني نسيتها، فقد حاولت ركوبها في بيتي بعد سنوات طويلة، فسقطت على الأرض، بينما لم أنسَ السباحة، لأنني معتاد عليها، وذات مرة سبحتُ في النهر بعد انقطاع خمس وعشرين سنة عن السباحة، وتابعتُ حتى قطعتُ ثلاثة أميال. فسواء السباحة أو ركوب الدراجة أو أي عمل أو مهنة أخرى، فإن الماهر فيه هو الذي يسبق الآخرين؛ وليس ذلك إلا لأنه معتاد عليه. يسأل الناس دائمًا عن السائق الماهر أو الطبيب الماهر والجراح الماهر والمعلّم الماهر. فمن هو السائق الماهر؟ إنما هو من اعتاد قيادة السيارة مدة طويلة. ومن هو الطبيب الماهر؟ إنما هو من اعتاد معالجة الناس مدة طويلة. ومن هو الجراح الماهر؟ إنما هو من اعتاد الجراحة زمنًا طويلا. ومن هو المعلّم الماهر؟ إنما هو من اعتاد التدريس سنوات وسنوات. ومن هو الطباخ الماهر؟ إنما هو من اعتاد الطبخ مدة من الزمن. لا شك أن العقل أيضا يلعب دورًا كبيرًا في إتقان شتى الأعمال، ولكن للعادة دخل أكبر فيها. إنما يصبح المرء ماهرا متقنا لأي عمل أو مهنة أو فن نتيجة العادة، ولولا العادة لما أتقنه.

فالقول إن العادة شيء سيئ لهو الغباء والحمق. كلا، بل إنها من نعم الله العظمى. يقال بالفارسية:

"کسبِ کمال کُنْ که عزیزِ جهاں شوی"

أي: عليكَ الحذق في عملك ليحبّك الناس.

وهذا أيضا يعني أن على المرء أن يعتاد الشيء.

باختصار، إن ازدهار أي عمل أو حرفةٍ منوطٌ بالعادة. إن كل عمل تقوم به يسهّل عليك عملاً مماثلاً آخر. قال النبي ﷺ إذا عمل الإنسان خيرا جعلت الملائكة على قلبه نكتة بيضاء، وإذا عمل سيئة جعلت على قلبه نكتة سوداء، ولا تزال هذه النكت تزداد، حتى إذا غلبت عليه النكت البيضاء حُفظ من السيئات، وإذا غلبت عليه النكت السوداء حُرم الحسنات وخُتم عليه (مسلم، كتاب الإيمان).

وهذا القول النبوي أيضا يعني أن اعتياد المرء على الخير يكرّه إليه السيئة بالتدريج حتى يصبح ارتكاب السيئة عنده بمترلة إخراج السمكة من الماء وإلقائها على اليابسة، أو يعتاد السيئة لدرجة يصبح فعل الخير عنده بمثابة إلقاء السمكة خارج الماء، فإذا دُعي إلى الخير ذُهل و لم يقوَ على التقدم خطوة واحدة. وليس سبب هذا سوى العادة.

إن الجيش أهم مؤسسة في الدولة، ولكن لماذا يكون الجندي شجاعا يا ترى؟ إنما سببه اعتياد استخدام السلاح. لقد هُزم جنود "نابليون" أمام جنود الإنجليز في معركة "واترلو" بسبب خطأ بسيط ارتكبه أحد قادته. كان قائدًا باسلا، ولكنه ارتكب خطأ فاحشا، لقد أمره نابليون بالرحيل قبله للاستيلاء على جبل "واترلو"، فخرج و لم يزل يتقدم حتى وصل أسفل الجبل، فأشفق على جنوده المرهقين وأمرهم بالاستراحة بجانب الجبل، وفكّر أنه سوف يستولي عليه في الصباح. ولكنه أبلغَ نابليون أنه قد استولى على الجبل. فجاء الجنود البريطانيون واستولوا على الجبل تحت غطاء الليل، وفي الصباح لما علم القائد الفرنسي ذلك أراد تنفيذ أوامر قائده الأعلى، فلم يزل يشنّ الهجمة بعد الهجمة على الجنود الإنجليز، ولكن لم يُجْدِه هذا شيئًا، بل أهلكَ جنوده كلهم. وعندما وصل نابليون إلى الجبل اضطر لقتال الإنجليز بنفسه ومُني بالهزيمة، لأن الإنجليز كانوا على الجبل. وكانت الكتيبة التي بعثها نابليون للاستيلاء على الجبل مِن كتائبه المفضلة، فلما نفدتْ ذخائرها بالهجمات المتكررة وهُزم الجيش الذي فيه نابليون، مرَّ بهم شخص وقال: قد هُزمتم فلماذا لا

تهربون؟ فأجاب: لم يعلّمنا نابليون الفرار من القتال، وبتعبير آخر كان قد عوّدنا القتال لا الفرار.

(Napoleon as a Military Commander by General Sir James Marshall – B.t p.62,96 Cornwall)

فثبت أن العادة من أهم القوى الموجودة في الدنيا. والحق أن التأقلم اسم آخر للعادة. فلو عوّدنا الأشجار على النمو في أرض معينة تأقلمت فيها واتصفت بخصائص جديدة بتأثير البيئة الجديدة وأتت بأجود الثمار. وهذا هو حال الحيوانات أيضا. كذلك لو حاولنا تعويد الناس على عادات جديدة لأخرجنا أناسًا من نوع جديد متطور. ولو حاولنا خلق عادات طيبة في نسلنا آخذين في الحسبان قانون العادة، لأخرجنا أجيالاً من الطراز الأعلى. إن خلق الإنسان الأمثل (The Superman) ممكن شريطة أن يتدبر الناس في فلسفة العادة ويسعوا لاستيعاب حقيقتها، ولكن المؤسف أنهم يتركون أجيالهم من دون حماية ورقابة كالأشجار النابتة تلقائيا، والنتيجة أن الأب إذا كان صالحًا خرج ابنه فاسدا. ثم إن العادات الطيبة تتولد بتأثر المجتمع الطيب. إن أكثر الناس صلاحًا سيفشل في تربية أولاده حتمًا إذا لم يتيسر لهم محيط طيب، وإذا لم يكن أفراد المجتمع متحلّين بأخلاق عالية وعادات سامية. ولو أن الأمة كلها أصلحت عاداتها لجاء النسل التالي من الطراز الأول أخلاقا وسيرة، متحليًا بعاطفة خدمة الملة، فلن تقدر أية أمة في العالم على مواجهتهم.

والأمم الأوروبية تضع هذا الأمر في الاعتبار في مدارسها خاصة، وتسعى لتطوير السلوك القومي. فكلما تحدَّث الأوروبيون عن العدل قالوا: هذه هي الحضارة المسيحية، أو هذا ما تقتضيه الحضارة المسيحية؛ وهم يعنون بذلك أن هذا ما تقتضيه المكانة العالية التي بلغتها أوروبا في مجال الأخلاق في العصر الحاضر. الحق أن الأوروبيين لم يبلغوا حتى أدنى المستوى الخلقي الذي يصبو إليه الإسلام، ومع ذلك لا يبرحون يرددون مصطلح الحضارة المسيحية حتى مُلئ الآخرون رعبًا منهم، فقد كان بعض المسلمين أيضًا يقولون في خطبهم خلال الحرب العالمية الماضية

(الثانية) إن الألمان يتصرفون تصرفات تخالف الحضارة المسيحية. والحق أن هؤلاء القائلين لم يفتحوا الإنجيل ليقرءوا ما فيه، ومع ذلك يثيرون ضجةً حول الحضارة المسيحية. المهم أن الأمم الأوروبية تسعى دائما لخلق الإحساس بالتفوق القومي عند شبابهم لإثبات تفوقها القومي، ولذلك اخترعوا هذا الاصطلاح، ولكن بعض المسلمين الحمقى يقلّدونهم ليثبتوا أن الأخلاق الإسلامية أدنى من أخلاق الأوروبيين.

فثبت من هنا أن العادة قوة عظيمة، والأمة التي تستوعب هذه الحقيقة تجلب منافع كثيرة، والتي لا تدركها تترك شبابها من دون رقابة فيفسدون. كذلك فإن الفرد الذي أدرك أن العادة نعمة عظيمة سعى للانتفاع منها أكثر فأكثر، أما الذي لم يدرك ذلك حُرِم الحسنات.

الواقع أن الله تعالى لما خلق الإنسان في هذا العالم خلَق آلاف الفرص للحسنات، وإذا تصرف المرء بطريق خاطئ صارت سيئات. فلو تفحّصنا أحوال الناس تبين أن بعضهم قادرون على حسنات معينة، ولكن لا قدرة لهم على حسنات أخرى. أمعنوا النظر في حالكم أنتم، فإن منكم من يكذب فورًا، ولكن لا يخون أبدا، ومنكم من لا يتردد في أكل مال الآخرين، ولكن لا يكذب الحديث، ومنكم من لا يشتم أحدا، ولكن لا يتردد في لطمه. ومنكم من لا يضرب أحدا، ولكنه لا يتورع عن شتم الآخرين، ومنكم من هو واقع في عيوبٍ هي نتاج الرفق الزائد عن اللازم، ومنكم من هو متورط في نقائص تتولد من العنف، فمع أن الرفق والعنف أمران فطريان، لكنهما يؤديان إلى نتائج مختلفة في مواطن مختلفة. إن القويّ سيتقدم للقيام بعمل يتطلب القوة، ولكن إذا تطلب الموقف الرفقَ فلن يرفق، أما صاحب الطبع اللين فسيعمل ما يتطلب رفقًا، ولكنه لن يستطيع فعل شيء إذا استدعى الأمر المواجهة بقوة. وكان النبي ﷺ يدرك هذه الأمور جيدا، فكان يعامل كل إنسان بحسب طبعه. فعند صلح الحديبية جاء للتفاوض مِن قبل الكفار زعيم كان للهَدْيِ وقعٌ كبير في قلبه، فلما علم النبيُّ ﷺ بقدومه أمر بعرض كل الهديِ من إبل وغيرها ليراها في طريقه وهو قادم. فلما رآها واقفة قال: ما هذه الأنعام؟ فقال الصحابة:

إنها الهديُ جئنا بها. فتأثر من هذا المشهد، فلما رجع إلى قومه قال: يا قوم، اسمحوا للمسلمين بدخول مكة حتى لا تضيع هذه الهَدْي. كان الرجل يحبّ الحرب والقتال، ولكنه لما رأى هذه الهديَ المجلوبة باسم الله تعالى، لم يرضَ أن تضيع ولا تُذبَح باسمه تعالى.

وقد قال سيدنا عمر رضي الله عنه في هذا الموضوع: إذا قال لك أحد أن جبل أُحد قد تحرك من مكانه فصدِّقه، ولكن لا تصدق من قال لك إن فلانا قد تغير طبعه وفطرته. إنّ هذا صحيح تماما؛ إذ يسهل على المرء فعلُ ما يتفق مع طبعه، ويصعب عليه فعلُ ما لا يتفق مع طبعه. ألا ترون فيمن حولكم أن بعض الناس يتبرع بسخاء، ولكن إذا حانت الصلاة تهرّب، وبعضهم يصلي الصلاة في موعدها، ولكنه يبكي إذا دُعي للإنفاق في سبيل الله تعالى، وبعضهم يضحي بكل ما عنده في سبيل الله، ويهاجر من وطنه، ولكنه إذا دُعي إلى القتال طار قلبه خوفًا. لم يشترك حسان بن ثابت ولا أبو هريرة في قتال، وفي غزوة الأحزاب كان حسان بن ثابت يقوم بواجب حراسة النساء، فجاء يهودي إلى تجمُّعهن للتجسس، فقالت صفيّةُ عمّةُ النبي ﷺ: اقتلْه يا حسان، فهو جاسوس على ما يبدو، فقال لها: اقتليه إن شئتِ، فأنا لا أستطيع ذلك. فأخذتْ خشبة وضربت بها رأس اليهودي فسقط على الأرض مغشيا عليه، وانكشفت عورته، فحولت صفية وجهها وقالت لحسان: لقد سقط مغشيا عليه فاقتلْه الآن. قال: لا يا سيدتي، فلا يزال به حياة، فأخاف أن يهاجمني، فاقتليه أنت. فوضعت على وجهها خمارا، وقتلت اليهودي بالخشبة. (البداية والنهاية: غزوة الخندق)

هذا لا يعني أن حسانًا لم يكن من المؤمنين- والعياذ بالله- كلا بل كان من كبار الصحابة المخلصين، ولكن القتال كان خلاف طبعه.

فثبت من هنا أن ما توافقَ مع طبع المرء سهل عليه القيام به، وما لم يتفق مع طبعه ومزاجه صعب عليه فعلُه. وليس علاج هذا الضعف إلا العادة. فمثلاً إذا كانت هناك ١٠٠ حسنة و١٠٠ سيئة، وكانت ٥٠ من الحسنات والسيئات موافقة لطبعك، و٥٠ منهما خلاف طبعك، فسوف يصعب عليك التصرف تجاه

هذه الخمسين، وستحتاج إلى بذل جهد كبير فيها. والواضح أنك لن تستطيع القيام بها أو تجنُّبها إذا لم تساعدك قوةٌ كقوة الطبع. فأنت بحاجة حتمًا إلى سلاح يساوي الطبع قوةً لتستعين به، وهذا السلاح هو العادة. فعندما تستعين بها يسهل عليك فعل الخيرات وتجنُّب السيئات التي لا توافق طبيعتك.

لا يزال بين الناس جدال فيما إذا كان الطبع أقوى تأثيرًا من العادة أم العكس. هناك قصص غريبة بهذا الشأن؛ يقال أنه قد جرى بين المهراجا رانجيت سنغ وزوجته نقاش فيما إذا كان الأصل أشد تأثيرا من الصحبة أم العكس -والمراد من تأثير الأصل هنا الطبع، ومن الصحبة العادةُ- كانت زوجته تقول إن الطبع أقوى تأثيرا من العادة، وكان زوجها يرى العكس. فقرّرا أخيرًا أن يقوما بتربية طفل من عائلة تسمى "ميراثي"●، فقاما بكفالة ولد ميراثي وغيّرا محيطه تمامًا وألحقاه بالمدرسة، وبعد مضيّ سبع أو ثماني سنوات أراد المهراجا أن يختبر ما إذا كان طبع هذا الطفل أقوى من عادته، فوضع طعامه في حذاء بالٍ متكسر ملفوف بمنديل بدلاً من أن يضعه في صينية جميلة، فلما رجع الولد من المدرسة وأراد أن يأكل، أزال الغطاء عن طعامه، فأخذ يبكي بكاءً مرًّا، فلم يلبث المهراجا أن قال لزوجته: انظري، لقد ثبت أن العادة أقوى تأثيرا من الطبع، فلأنه قد تربى عندنا نحن الشرفاء فقد آذاه ما فعلناه به من مزاح سخيف. فقالت زوجته: دَعْنا نسأله عن سبب بكائه. فلما سئل قال: لقد أكلتم رغيفين وأعطيتموني رغيفا واحدا. فقالت: ألم تر أن الطبع أقوى من العادة، فإن طبعه الذي ورثه من عائلته الخسيسة لم يتغير رغم عيشه بيننا سنوات طويلة.

الواقع أن الطبع قوة عظيمة، ولكن إذا كان في الدنيا شيء يمكن أن يبعد الإنسان عن طبعه فإنما هو العادة. إذا لم نستخدم سلاح العادة فيقول الإنسان اللين الطبعِ إنني لا أستطيع القيام بما يتطلب شدةً، لأن هذا خلاف طبعي، ويقول غيره إنني لا أستطيع هذا العمل لأنه لا يتفق مع طبعي الشديد.

● عائلة "ميراثي" تُعتبر من الطبقات الدنيا في القارة الهندية. (المترجم)

كان سيدنا عمر ﷺ يسلّ سيفه فورًا على كل صغيرة وكبيرة، بل كان يقول للنبي ﷺ يا رسول الله، لو أمرتَني لقتلتُ فلانا، ولكن عمر هذا قد لانَ بتأثير تعليم الرسول ﷺ، لدرجة أنْ قال الصحابة إنهم لم يروا في زمن خلافته أحدًا هو أشد بكاءً منه على كل صغيرة وكبيرة. الواقع أن طبعه لم يتغير بل كان هُوَ هُوَ، إنما تمكّنَ من ترويضه بسلاح العادة.

نعترف أن الأولاد يصابون بكثير من المفاسد بتأثير الوالدين والبيئة الفاسدة والتعليم الفاسد، ولكن الله تعالى قد جعل إزاءه العادةَ، فما تعتاده يصبح سهلاً عليك. وعلى سبيل المثال، إن الإنسان يكره المرارة بفطرته، والخمر مُرٌّ، ولكن إذا شربها أسبوعين اعتادها ولن يشعر بمرارتها مطلقا، بل استمتع بها. ولذلك يذكّرنا الله تعالى هنا أنه قد خلق لنا سلاح العادة للقضاء على السيئات. لا شك أنكم تعافون بعض السيئات وتكرهونها طبعًا، فتجتنبونها بسهولة، أما السيئات الأخرى فعليكم أن تعوّدوا أنفسكم على تركها. فاسعوا للإقلاع عن سيئة معينة، فسوف تعتادون ترْكها حتى تتخلصوا منها نهائيًا. وهكذا السيئة الثانية والثالثة، وفي الأخير تتخلصون من جميع السيئات شيئا فشيئا.

من أجل ذلك قال سيدنا المسيح الموعود عليه السلام: إن على المسلم أن يعاهد على ترك سيئة معينة في رمضان في كل مرة، فما دام قد ترك طعامه وشرابه لله تعالى فلِمَ لا يسعى لتجنب تلك السيئة أيضا؟ ثم إذا حل عليه شهر رمضان التالي عاهدَ على ترك سيئة أخرى، وهكذا سوف ينسلخ من كثير من السيئات بعد بضعة أعوام. وهذا القول أيضا يماثل تعويد المرء نفسه شيئًا، لأنه إذا عاهد في هذا الشهر المبارك على ترك سيئة معينة فسوف يعتاد تركها، وهكذا يتطهر من المعاصي كلها في نهاية المطاف.

يقول البعض إن ما يفعله المرء من خير على سبيل العادة فهو ليس خيرا حقيقيا.

هذا قول باطل. صحيح أن ما يفعله المرء من خير كعادةٍ لا يُعَدّ خيرا في ظرف معين، ولكنه خير في ظرف آخر. إذا اعتاد المرء عملاً قبل بلوغه سنّ الرشد ثم لم يجد فرصة التدبر فيما اعتاده وإدراك كنهه، فلا شك أنه لا يُعتبر حسنةً حقيقية.

فمثلا لو اعتاد المرء في صغره صِدْقَ القول وأداء الصلاة، ثم لم تُتح له فرصة التدبر فيما يفعله، و لم يفعله عن بصيرة وفهمٍ واستيعاب، بل فعَله تقليدًا وعادةً فحسب، فأعماله هذه تُعتبر مجرد عادة، أما الذي يعتاد فعل الخير عن إرادة ووعي ويسعى لفعل الخير ولتجنُّب السيئة، فعادته تُعَدّ ثمرةً لجهوده، لأن المرء يكافأ دائما على العمل الحسن. ذلك أن الشخص الذي اعتاد الكذب في صغره لا بد أن يعاني كثيرًا في ترك الكذب لو أراد تركه، ولكنه لو واصل سعيه هذا واعتاد الصدق أخيرًا بعد أن ألقى نفسه في خطر بسبب صدق القول مرات ومرات، فلا بد أن تُعَدّ عادته هذه ثمرةً لجهوده، إذ كيف يمكن أن يُحرَم أحدٌ ثمارَ جهوده؟

فثبت من هنا أن السيئة التي يقلع عنها المرء بجهوده، أو الحسنة التي يعتادها بإرادته القوية وبجهوده المتكررة، هي عملٌ حسن لا بد من استحسانه وتقديره، ومن الخطأ القول أن الحسنة التي يعتادها المرء ليست حسنة. ما دام قد اعتادها بعد جهود متكررة، فكيف يُحرم من نتيجتها؟ ومن أجل ذلك قال الرسول ﷺ مَن نام وهو يدعو الله تعالى فقد بات الليلة كلها في دعاء وعبادة (مسلم: كتاب الرؤيا). ذلك أن في كل إنسان ما يسمى (subjective mind) أي العقل الباطن.. الذي يعمل كخزينة لعقله، وإذا نام المرء وهو يدعو الله تعالى فلا يزال عقله الباطن يعمل خلال نومه. والظاهر يقتضي أن لا يُثاب على دعائه هذا الذي يقوم به نائمًا؛ حيث إنه لا يدعو به عن إرادة، إلا أنه يثاب عليه بالفعل لأنه نتاج الدعاء الذي قام به في يقظته.

المفهوم العاشر: ومن معاني الدين القضاءُ، وعليه فقوله تعالى ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾.. يعني أَخْبِرني عن الذي يكذّب بقضاء الله، فسوف تجد أنه يدُعّ اليتيم.

ليس المراد من قضاء الله تعالى هنا ما يعتقده بعض المسلمين اليوم وما يعتقده أهل الأديان الأخرى مِن أن الله تعالى قد خلق كل إنسان مجبورا، وأنه هو الذي جعل البعض مؤمنا والبعض كافرا، أو عالما أو جاهلا، أو بصيرا أو أعمى، أو

ضعيفا أو قويا، وأن الإنسان لا يقدر على تغيير حالته. إن القبول بهذا المعنى يجعل هذه الآية عبثًا ولغوًا. إذا كان الإنسان قد خُلق مجبورا ويسير بحسب القانون الإلهي ولا يستطيع مخالفته، فكيف يقال هنا أَخبِرْني عن الذي يكذّب بقضاء الله وقانونه، فإنه مجرم كبير؟ الواقع أن قضاء الله هنا يعني ما أشار الله تعالى إليه في قوله ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾(الذاريات:٥٧). فليس المراد من قوله ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ أن يؤدوا العبادات الظاهرة، بل المراد أن يكونوا عبادا لله حقًّا حتى يتجلّى الله على قلوبهم فعلاً. لو كان المقصود من قوله تعالى ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ العبادات الظاهرة، فلماذا قال في مكان آخر ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ﴾؟ مما يعني أن بعض الصلوات تصبح لعنة لأصحابها، وبعضها تصبح رحمة لهم. فثبت من هذا أن الحديث هنا ليس عن العبادات الظاهرة، بل المراد أن تنعكس صفات الله تعالى في الإنسان، فيصبح مَظْهرًا لصفاته تعالى فعلاً. هذا هو الهدف من خلق الجن والإنس، وهذا هو قَدَر الله تعالى وقضاؤه المذكور في قوله تعالى ﴿لِيَعْبُدونِ﴾. وقد ذكر الله تعالى هذا الهدف أو القضاء حصرًا، لأنه إذا جاءت "إلا" بعد "ما" في جملة فإنها تفيد الحصر. إذن، فقوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إلا لِيعبُدونِ﴾ يعني أنه هذا هو الهدف الوحيد وراء خلقهم، وليس هنالك هدف آخر.

كما أن قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾ لا يعني أيضًا أنه خلَقهم ليصبحوا مخلوقاته؛ فما دام قد خلقهم فعلاً وهم مخلوقاته بلا ريب، فلماذا يطالبهم أن يصبحوا مخلوقاته؟ فثبت أن مفهوم هذه الآية هو أن يصبحوا عباد الله الحقيقيين، وبتعبير آخر أن يسعوا جاهدين لتنعكس فيهم صفاته سبحانه، فيصبحوا عباده المؤمنين المخلصين الصادقين. هذا هو قضاء الله، وإليه قد أشار تعالى بقوله ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾، لأن الذي ينكر قضاء الله هذا يستحيل أن يكون من الصالحين، بل لا بد أن يقع في أفعال نجسة. أما الذي يدرك قضاء الله هذا، ويعلم ويوقن أنه لم يُخلق إلا ليكون عبدًا مؤمنا مخلصًا لله تعالى، فلا بد أن يصلح

نفسه، إذ يؤمن أنه قادر على التغلب على السيئات، لأن غاية خلقه أن يكون من الصالحين.

الواقع أن الإثم يزداد نتيجة القنوط؛ والذين يصيبهم اليأس تضعف فيهم قوة المقاومة، فينهارون أمام الشيطان. يوجد في الدنيا آلاف من الناس الذين يقولون إن الله تعالى لم يحدد لنا طريقًا للنجاة، فيصابون بالقنوط. يقولون ما دام الله تعالى لم يرد لنا طريق النجاة فما الفائدة من مقاومة السيئة؟ الحق أنهم يظنون لغلبة السيئات عليهم أنه لم يبق أمامهم طريق للنجاة، فلا يسعون للإصلاح حقًا.

يقول الله تعالى ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾(السجدة:١٤).. أي لو أراد الله تعالى تنفيذ مشيئته لجعل الجن والإنس كلهم عبادًا مخلصين له، وهداهم جميعا، ولم يتركهم لينحرفوا عن سبيل الهدى. إنه تعالى لم يخلقهم ليصبحوا لصوصا وقطاع طرق، بل ليصبحوا عبادا له مخلصين. غير أن الله تعالى قد أوضح أيضا أن له قانونا آخر يجب أخذه في الحسبان وهو ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

يخطئ بعض الناس في فهم هذه الآية فيظنون أن الله تعالى قد قرّر قرارًا مبرمًا أن يُدخل الناس والجن كلهم في النار، مع أن الآيات الأخرى تبطل هذه الفكرة، فقد قال الله تعالى ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾.. أي أن له جنة في الدنيا وجنة في الآخرة. فمتى يدخل مثل هذا الإنسان النار؟ فهناك مرحلتان فقط: الدنيا والآخرة، فما دام سيدخل الجنة هنا ويدخلها هنالك أيضا، فمتى يدخل النار؟ فالمذكورون في هذه الآية لن يدخلوا النار. فكيف يصحّ إذنْ أن يفسَّر قوله تعالى ﴿لَأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أن كلّ فرد من الإنس والجن سيدخل النار؟

كذلك يقول الله تعالى ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ (الفجر:٢٨-٣١). وقوله تعالى ﴿ارْجِعِي﴾ إما يتعلق بهذه الحياة الدنيا أو بالحياة بعد الموت، ولا يمكن أن يتعلق بفترة أخرى. وما دام هذا الإنسان قد رضي عن الله تعالى ورضي الله عنه في هذه الدنيا، فكيف يدخل النار؟ وما دام سيقال لهذا بعد الموت فورًا: ﴿فَادْخُلِي فِي

عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾، فمتى يدخل النارَ يا ترى؟ فثبت أنه باطلٌ قولهم أن كل نفس تدخل النار.

وقال الله تعالى أيضا ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(النحل:٣١-٣٣).. أي سيقال للمتقين: ما رأيكم فيما أنزله ربكم، أوَليس هو بكلام حكيم؟ فيقولون إن ما أنزله حق وخير.. أي ليس فيه أي حكم ضار بنا، بل كل ما أنزله الله تعالى نافع ومبارك ومساعد على الرقيّ. وما دام كلام الله خيرا في خير وحسنا في حسن، فلا بد أن يفوز الذين يعملون به بالحسنة في الدنيا والحسنة في الآخرة، ولهم جنات خالدة تتحقق لهم فيها كل أمانيهم، وهكذا يكون جزاء المتقين. سوف تقبض الملائكة نفوسهم وهم مؤمنون مخلصون، قائلين لهم سوف ينـــزل عليكم سلام عظيم، فادخلوا جنة الله.. أي سوف تنعمون بعد دخولها بالوصال الإلهي الذي هو رأس السلام.

فما دام المؤمن ينال الجنة في هذه الدنيا وفي الآخرة فلم يبق هناك احتمال لدخوله النار.

علمًا أن قوله تعالى ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ يبين أن المراد من المتقين هنا قوم يموتون في حالة التقوى، وليس أهم كانوا صالحين منذ الصغر حتى آخر لحظة من العمر. فمن أصبح صالحا كاملا قبل الموت هو المتقي، وإذا كان قد ارتكب بعض الذنوب فسوف يغفر له.

ثم إن حديث الشفاعة أيضًا يوضح أن المؤمن الكامل لا يدخل النار. قال النبي ﷺ: ثمانون* ألفًا مِن أمتي يدخلون الجنة بغير حساب.. أي أنهم لن يكابدوا عناء

* هكذا ورد في النص، غير أن ما وجدناه في الروايات هو: "يدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ (البخاري: كتاب الرقاق). (المترجم)

السؤال والجواب، بل سيدخلون الجنة رأسًا. والواضح أن الذين يدخلون الجنة بعد السؤال والحساب هم أكثر منهم عددًا بكثير.

فقد ثبت من هنا أن قوله تعالى ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ لا يعني أبدًا أن كل فرد من الجن والإنس سيدخل النار.

لقد قال كثير من المفسرين في تفسير هذه الآية أن النار ستتحول جنةً للمؤمنين فور دخولهم فيها، فيرون فيها بساتين وثمارا. (تفسير الطبري، قوله تعالى "وإن منكم إلا واردها..")

هذا التفسير مهزلة أوّلاً، إذ كيف يُدخل الله ﷻ أنبياءه وصلحاءه في النار أولاً، ثم يحوّلها جنة!

وثانيًا: هذا الطريق يسبب للمؤمنين معاناةً حتما إذ يفكّرون أن الله تعالى ساخط عليهم ولذلك أرسلهم إلى الجحيم، وإن كانوا سيعرفون بعد دخولها أنها ليست نارا، بل جنة ذات بساتين وأزهار وثمار، فلماذا يُلقَون في هذا العناء يا ترى؟

وثالثا: كيف يصحّ الظن أن محمدا وإبراهيم وموسى ونوحًا عليهم السلام أيضا سيدخلون النار بعض الوقت؟

الواقع أن كل هذه الآيات تبين بوضوح أن كثيرا من المؤمنين -والله أعلم ما إذا كانوا ملايين أم بلايين- سيدخلون الجنة رأسًا ولا تقترب منهم النار مطلقا.

إذن، فما هو المراد من قوله تعالى ﴿لَأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾؟

فاعلم أن "ال" في قوله تعالى ﴿مِنَ الجِنَّةِ والنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ عهديةٌ -علمًا أن "ال" قد تكون جنسيةً، أي تشمل جميع أفراد جنس معين، وقد تكون إشارةً للمعهود الذهني أو الذِّكري، أي إلى الجماعة المذكورة من قبل أو المتصوَّرة في الفكر، فمثلا يقال جاء الرجال، فإن "ال" هنا ليست جنسيةً بل هي عهدية، إذ ليس المراد أن رجال العالم كلهم جاءوا، بل المراد أن الذين ننتظر مجيئهم أو الذين مرّ ذكرهم قد جاءوا (مغني اللبيب).

وعليه، فقوله تعالى ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ هو أن كل الجن والإنس المذكورين من قبل سوف يدخلون النار. والمذكورون من قبل هنا ليسوا مؤمنين،

بل هم كافرون، وعليه فإنما المراد أن كبار الكفار وعامتهم كلهم سيدخلون الجحيم، لأنهم سواسية عند الله تعالى، ولن يفرّق الله تعالى بين فقيرهم وغنيهم عند العذاب.

وثمة مفهوم آخر لقوله تعالى ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ وهو أن طريق الجنة يمرّ من خلال جهنم. وليس المراد هنا جهنمُ سخطِ الله تعالى، بل مجرد المصائب والأذى. الواقع أن النار نوعان؛ أحدهما نارُ سخطِ الله، والأخرى نارٌ يوقدها الإنسان بيده لقتل نفسه الأمّارة، بتعبير آخر: نارٌ يعدّها الله للإنسان ونارٌ يُعِدّها الإنسان بيده. والنار التي يُعدّها الإنسان بيده لقتل نفسه الأمّارة فتبدو نارًا في الظاهر، ولكنها تكون جنةً في الواقع، ولا تدلّ على سخط الله عليه، بل يَصلاها بنفسه ابتغاء مرضاة الله تعالى. فمثلاً يستيقظ بالليل لعبادة الله غيرَ مبال براحته؛ فبينما يستمتع الآخرون في فراشهم بنوم عميق، فهو يعاني من أجل الله تعالى، وبينما يجمع الآخرون الأموال، فهو ينفق ماله في سبيل الله ابتغاء مرضاته تعالى متكبدًا المشقة والعناء، وبينما يتلذذ الآخرون بأشهى الأطعمة والمشروبات من سمك ودجاج وماء زلال مبرد بالثلج، فإن المؤمن يصوم ويحرم على نفسه الماء والطعام العادي طول النهار. أليس كل هذا جحيما؟

لقد صرّح الله تعالى من جهة أن المؤمن الكامل سيدخل الجنة رأسا، ومن جهة أخرى أعلن أنه لن ينال الجنة أحد ما لم يمرّ بأشواك الجحيم، فثبت من هنا أنه لا مناص لكل إنسان من المرور بالجحيم سواء تلك التي يُعدّها بيده لإصلاح نفسه بإلقاء نفسه في المعاناة والتضحيات وكفّ لسانه ونفسه عن الشهوات، أو تلك التي هي جهنمُ سخط الله تعالى. والحق أن أنبياء الله تعالى هم أكثر الناس مرورا بالجحيم الأول. فمن ذا الذي هو أكثر منهم إلقاءً لنفسه في أنواع المشاق والتضحيات لوجه الله تعالى؟ إن الأنبياء هم الذين يُعِدّون لأنفسهم أكبر جهنم.

وقد قال النبي ﷺ ما معناه: مَن كان أكثرَ حبًّا لله تعالى كان أكثرَ دخولاً في جحيم مصائب الدنيا●.

خلاصة الكلام أن قوله تعالى ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ إشارةٌ إلى الكفار كما يدل عليه السياق، أو هو إشارةٌ إلى النوع الآخر من الجحيم التي لا تشتعل بسبب سخط الله على الإنسان، بل هي جحيم المصائب والأذى التي يمر بها المؤمن عن طواعية ابتغاء مرضاة الله تعالى.

ومن الآيات التي تنفي دخول كل فرد من الجن والإنس النارَ قولُ الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ * وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ * وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ * أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾(الأعراف:٤٣-٥٠).

● لعل حضرته رضي الله عنه يشير إلى الحديث الوارد في مسند أحمد: عَنْ مُصْعَب بْنِ سَعْدٍ قَالَ قَالَ سَعْدٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاءً؟ قَالَ الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ،حَتَّى يُبْتَلَى الْعَبْدُ عَلَى قَدْرِ دِينِهِ ذَاكَ. (المترجم)

لقد بين الله تعالى هنا أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لن نشق عليهم ولن نضع عليهم عبئًا لا طاقة لهم بحمله. إنهم أصحاب الجنة وسوف يعيشون فيها للأبد.

انظرْ إلى روعة هذا المعنى! فَلِكَي لا يظن أحد أن دخول الجنة يحتّم على المرء ألا يصاب بزلةٍ ولا يقترف أي خطأ بدءًا من الميلاد إلى الممات، فقد صرح الله هنا بأن الذي يبذل جهده لإصلاح نفسه ويعمل الصالحات فسوف نغفر له ذنوبه وندخله الجنة رأسًا، حتى ولو مات قبل بلوغ غايته.

ثم يقول الله تعالى هنا سنخرج من قلوبهم كل حقد، وستجري من تحتهم الأنهار وسيحمدون الله تعالى على ما هداهم إلى سبيل الجنة، إذ لولا ذلك لما اهتدوا. كان هذا قضاء الله الذي ظهر من خلال رسل الله المبعوثين إليهم، ولولا بعثة الرسل إليهم لما نالوا الهدى. وسيقال لهم لقد ورثتم الجنة لقيامكم بالصالحات في الدنيا.

ثم يخبر الله تعالى أن أصحاب الجنة سيقولون لأصحاب النار: لقد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًّا فهل أنجز لكم ربكم ما وعدكم به؟ فيقولون: نعم، لقد حقق لنا ما وعدنا به. فيقول المنادي أن لعنة الله على الظالمين.

فلو كان أهل الجنة قد دخلوها بعد أن دخلوا في الجحيم لما وجّهوا إلى أهل النار هذا السؤال؟ فقد رأوا هنالك أهل الجحيم، فلماذا يسألونهم هل تحقق لكم ما وعدكم الله به أم لا؟ هذا دليل بيّن أن أهل الجنة لم يدخلوا النار قبل دخولهم الجنة. هل كانوا عميانا أم كانت عيونهم معصوبة إذ ينادون أهل النار ويسألونهم هذا السؤال مع أنهم قد مرّوا من خلالها كما زعم كثير من المفسرين؟

ثم يقول الله تعالى ﴿وَبَيْنَهُما حِجَابٌ﴾.. أي أن الله تعالى سيضرب بين المؤمنين والكافرين حجابًا لكيلا يخاف المؤمنون برؤية أهل النار. انظرْ كم يراعي الله تعالى مشاعر المؤمن، حيث يخبر هنا أنه سيحفظ المؤمنين مِن رؤية عذاب النار من بعيد أيضا، ولكن المسلمين اليوم يظنون أن كل إنسان يدخل الجحيم.

ثم يخبر الله تعالى أن الرجال على الأعراف سيعرفون الجميع بملامحهم، فينادون أهل الجنة الذين لم يدخلوها بعد بل يرجون دخولها؛ أنْ سلام الله عليكم. لقد

اتضح من هنا أن هذه الجماعة من المؤمنين أيضًا ستكون واقفة خارج النار، فيقول لهم أصحاب الأعراف أنْ سلام الله عليكم.

إن المفسرين قد أخطأوا في تفسير هذه الجملة أيضًا، إذ قالوا بأن أصحاب الأعراف قوم لا يكون الحكم قد صدر بعدُ فيما إذا كانوا يدخلون الجنة أم لا. مع أن الله تعالى يخبر هنا أن أصحاب الأعراف هؤلاء ينادون أهل الجنة وأهل النار ويسألونهم عن مصيرهم، ومثل هذا المقام لا يتبوأه إلا كبار المؤمنين. الحق أن أصحاب الأعراف ليسوا مؤمنين عاديين، بل هم طائفة الأنبياء والصلحاء الكاملين. هم الذين سيقولون للمؤمنين العاديين لا تخافوا، لأن سلام الله سيستركم، ذلك أنهم لا يكونون قد دخلوا الجنة بعد، بل يرجون دخولها، فيكونون خائفين، فيُطَمْئِنُهم أصحابُ الأعراف أنْ سلام عليكم، فلا تخافوا ولا تحزنوا.

ثم يخبر الله تعالى أن أبصار هؤلاء المؤمنين الكبار ستُصرف إلى أهل النار، فيدْعون الله تعالى: ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين.

الغريب أن المفسرين يقولون أن أصحاب الأعراف هم أدنى المؤمنين درجةً (تفسير الخازن)، ولو سلّمنا برأيهم جدلاً، أفليس غريبًا أن الله تعالى يخبرنا أن أدنى المؤمنين درجةً أيضا سيدخلون الجنة وينجون من النار، إذ يقولون ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين؟ بينما يزعم المفسرون أن المؤمنين العاديين لن يدخلوا الجنة.

ثم يخبر الله تعالى أن أصحاب الأعراف يقولون للكافرين لم تنفعكم أحزابكم. كنتم تتمنون للمؤمنين شرًّا، ولكنهم سيدخلون اليوم الجنة. ثم يقولون للمؤمنين اذهبوا وادخلوا الجنة.

لقد تبين من هنا أمران، أوّلهما أن المؤمنين لن يدخلوا الجحيم؛ إذ قيل هنا أن المؤمنين يكونون واقفين بعيدا عن النار حين يأمرهم أصحاب الأعراف بدخول الجنة. والأمر الثاني هو أن أصحاب الأعراف ليسوا ضعاف المؤمنين، إذ يخبر الله تعالى هنا أنهم يقولون للمؤمنين اذهبوا وادخلوا الجنة؛ وليس هناك عاقل يتصور أن المؤمنين الضعفاء سيأذنون لكبار المؤمنين بدخول الجنة.

لقد تبين من هذه الآيات أن قدر الله وقضاءه هو أن يدخل كل إنسان الجنة، أما الذي يدخل النار فمثلُه كمسافر يضلّ عن طريقه، ولكنه أيضا سيدخل الجنة في نهاية المطاف. ولو أن أهل النار هؤلاء أيقنوا بقضاء الله هذا وأدركوا أن الله تعالى إنما خلقهم ليكونوا عباده المؤمنين المخلصين لبذلوا جهدهم لفعل الخيرات وإصلاح أنفسهم. فالحق أن المرء إذا لم يوقن بقضاء الله هذا تعثّرَ ووقَع في شتى المساوئ؛ وهذا هو حال النصارى فيما يتعلق بإيمانهم بقضاء الله تعالى، إذ يؤمنون أن الإنسان يُخلق آثما، ولا يمكن أن يتطهر من إثمه ما لم يؤمن بالفداء والكفّارة. وكذلك الهندوس لا يوقنون بقضاء الله هذا، وإنما يؤمنون بالتناسخ، إذ يرون أن الإنسان قد خلقه الله للنار لا للجنة، وأنه يجزيه على حسناته ولكنه يستبقي بعض سيئاته من دون عقاب ليرجعه بسببها إلى الدنيا ثانيةً. وإن القليلين جدًا هم الذين يحالفهم الحظ فيستحقون الجنة بفضل حسناتهم، لكن الله تعالى يرجعهم إلى الدنيا ثانية ببعض ذنوبهم التي استبقاها ولم يعاقبهم عليها، وهكذا لا يبرح الإنسان في دورة الولادات المتكررة التي لا نهاية لها أبدًا (ستيارته بركاش ص٣١٦-٣١٧). وهذا يماثل معاملةَ المرابين الهندوس مع المسلمين؛ حيث إن المسلم إذا استدان مِن بعضهم ثم جاء لتسديد دينه، فلا يستلم منه المرابي المبلغ كله، بل يُبقي شيئًا منه بدون دفع، ولكنه يقول للمسلم: قد سددتَ ما عليك، فيرجع المسلم مطمئنا، بينما يتضاعف ما بقي من الدَّيْن مع الربا، وبعد فترة يذهب المرابي إلى المسلم ويقول له: لقد أخطأتُ حين قلت لك قد دفعتَ كل ما عليك من الدين، الواقع أنه قد بقي بعض دينك بدون سداد، وقد صار الآن مع الربا كذا وكذا، وهكذا لا تنتهي سلسلة الربا المتراكمة على المسلم. فالهندوس يرون أيضا أن الله تعالى يعامل الناس كما يعاملون المسلمين، حيث لا يُنهي الحساب مع الإنسان، فلا يغفر له ذنوبه كلها بل يستبقي بعضها كي تتضاعف، فيرجعه الله إلى الدنيا في ولادة جديدة عقابًا عليها.

الواقع أنها كلها أوهام واهية وأفكار باطلة. لقد خلقَنا الله تعالى للجنة، ثم إنه لا يزال يساعدنا على دخولها. ومَن أدرك قضاءَ الله هذا فلا بد أن يحنّ شوقًا للجنة، ويبذل لها أقصى ما في وسعه، ويجاهدَ لإصلاح نفسه ليكون أهلاً لدخولها؛ فإذا

كان قد ارتكب المعاصي في حياته السابقة فلن ييأس ولن يقنط أيضا، بل لا يبرح يأمل أملاً قويًا أنْ لا زال عنده فرصة لأن يدخل الجنة بفعل الخيرات.

إذن، فالإيمان واليقين بقضاء الله تعالى لا يُضعف همة الإنسان، بل يرفعها. فلو أيقن المرء بقضاء الله المذكور في القرآن فلا بد أن يسعى كل السعي لدخول الجنة. أما الذي لا إيمان له بهذا القضاء، فيصاب بالقنوط، فيلقي بنفسه في بحر الآثام قائلا ما دامت عاقبتي وخيمة، فلماذا لا أستمتع الآن بملذات الدنيا ومتعها؟

المفهوم الحادي عشر: ومن معاني الدين التدبيرُ. والحق أن منكر التدبير أيضا يقع في المعاصي ويُحرم الحسنات. إن الذي ينكر التدبير والسعي للإصلاح ويظن أنه إذا سقط مرةً فقد سقط للأبد، فنجاته محال. إن الله تعالى ينبّهنا هنا ويقول: لا تظنوا أننا لم نزوِّدكم بالقوى والكفاءات للتدبير ومكافحة السيئات. لقد زودناكم بهذه القوى كلها، فمن كان منكم صادق النية للإصلاح وسخَّر هذه القوى فلا بد أن يجتنبَ السيئات، أما الذي ينكر التدبير ويظن أنه إذا ارتكب الإثم فنجاته محال، فسيظل عرضة لسيئات شتى. فما دام قد أنكر التدبير أصلاً فأنى له أن يسعى للتخلص من المعاصي؟

كان لي صديق في صغري، فعلمت أنه قد ارتكب بعض المعاصي، فسألته: أصحيح أنك ارتكبتها؟ قال: أجل، وإني أعلم أيضًا أنني قد ارتكبت من المعاصي ما لا نجاة لي بعده من العقاب، بل سأدخل النار حتمًا، ولذلك أقترفها الآن بلا هوادة، لكي أستمتع بهذه الحياة على الأقل. فقلت له: إن الله تعالى قد زود الإنسان بقدرة يستطيع بها التغلب على السيئات لو أراد. ففهم الأمر وأخذ يبذل جهده لإصلاح نفسه حتى تغَلَّب على السيئات وأصلح نفسه.

يقول الله تعالى ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ﴾(الإسراء:٢١).. أي نساعد المؤمن والكافر أيضا. وبالفعل نشاهد أن الله تعالى يرزق المؤمن والكافر، ويثمر جهود الأول وجهود الآخر أيضا. فكأن الله تعالى يقول لنا ما دمنا نساعد الكافر في جلب المنافع المادية مع أنه ليس بيننا وبينه صلة، فلمَ لا نساعد المؤمن الذي يسعى جاهدا

لوصالنا؟ وما دمنا نساعد عدونا فلماذا لا نساعد صديقنا؟ فالحق أن باب التدبير مفتوح على مصراعيه.

ويقول الله تعالى ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ (الأعلى:١٠).. أي عليك أن تواصل التذكير والنصح، لأن التذكير ينفع دائما، ولن يذهب هذا التدبير سدى، وكل من يحاول إصلاحه يفلح دومًا. علمًا أنّ حرف (إنْ) قد جاء هنا للتأكيد والقطعية.. أي أن النصح ناجع دائما.

وكذلك قال الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾(آل عمران:١٣٦-١٣٧).. أي أن الذين إذا ارتكبوا إثما أو وقعوا في خطأ، ثم ذكروا الله تعالى وحاولوا الإصلاح، واستغفروا ربهم -وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلا اللَّهُ- ثم لم يصرّوا على خطئهم متعمدين، وعلموا أن الله تعالى قد جعل لهم طريقا للنجاة، وأن بوسعهم الإقلاع عن السيئات إذا أرادوا، فجزاؤهم أنهم سيحظون بقرب الله تعالى بسبب ما بذلوا من جهود، وسوف يغفر لهم الله ويعطيهم بساتين تجري من تحتها الأنهار، وهذا الجزاء لا يكون مؤقتا، بل سوف يقيمون في تلك البساتين للأبد. فما أروعَ جزاءَ العاملين! أي أن الذي يبذل جهده في هذا السبيل فلن يرى الفشل.

انظر كيف سهّل الله الطريق إلى الجنة. فمَن سعى واجتهد تخلّص من المعاصي والسيئات، بل أقول حتى لو لم يتخلص منه وقُتل في حربه ضد الشيطان فثوابه مضمون؛ فهل من المعقول أن يغضب أهل البلد على الجندي الذي يُقتل خلال الحرب قبل الانتصار؟ هل يغضبون عليه لأنه قُتل قبل الفتح؟ كلا، بل إن ما نراه هو أن الذين يُقتلون في الحرب يُمنحون أوسمة عظيمة بعد الحرب، فالبريطان يمنحون جنودهم ما يسمى (Victoria Cross)، والألمان يمنحون ما يسمى (Airon Cross). فالحق أن الذي يموت مجاهدًا بصدق، فلن يدخل الجحيم وإن لم ينجح في جهوده كل النجاح. إنه جندي من جنود الله، وقد قُتل أثناء القتال. إنه لم

يمت باختياره، وإنه لم يتمنَّ الموت، وإنما قُتل في الحرب بحسب القانون الإلهي، فموته موتُ مؤمن. أيستحقّ الجندي الذي يُقتل في الحرب الثناءَ أم العقاب؟ فما دام يستحق الثناء لا العقاب، فكيف يلقى في النار مَن مات خلال سعيه لوصال الله تعالى؟

ورد في الحديث أن رجلا قتل ٩٩ شخصا، فأراد أن يتوب، فذهب إلى عالِم وسأله: هل لتوبتي مِن سبيل؟ قال: كلا، لا سبيل لتوبتك أبدا. قال: إذا كانت توبتي لن تقبل فَلْأقتلْك أيضًا، فأي ضير لو قتلت شخصًا آخر؟ فقتَله. ثم ذهب إلى علماء آخرين، وظل يقتلهم واحدا بعد الآخر، حتى أشار عليه البعض بالذهاب إلى عالم يقول إن باب التوبة لا يُغلق في وجه أحد أبدًا. فخرج للقائه، ولكنه مات في الطريق. فاختصمت الملائكة عند موته -علمًا أن كل هذا الكلام استعارة ومجاز- فقالت ملائكة النار: إنه من أهل النار، لأنه لم يتُبْ بعد، وقالت ملائكة الجنة: إنه من أهل الجنة، لأنه كان يريد التوبة، ولكنه مات في الطريق. فرفعوا الأمر إلى الله تعالى ليحكم بينهم، فأمرهم أن يقيسوا الأرض، فإذا كان أقرب إلى الأرض التي خرج منها فهو من أهل النار، وإذا كان أقرب إلى الأرض التي قصدها من أجل التوبة فهو من أهل الجنة. ثم أمر الله الأرض أن تنكمش وتتقرب من الجهة التي كان متوجها إليها، ثم قاست الملائكة الأرض، فأخبروا الله تعالى أنه أقربُ إلى الأرض التي كان ذاهبًا إليها، فأمرهم الله تعالى أن يدخلوه الجنة. (مسلم: كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل)

لقد بين الله تعالى في هذه القصة المجازية أن كل من مات جاهدًا للنجاة فهو من أهل الجنة، وإن لم ينجح في محاولته للتخلّص من المعاصي، شريطة أن يكون صادقًا في نيته وعاطفته وجهده. أما الذي ينكر التدبير والجهد فأخبر الله عنه في الآية قيد التفسير أنه سيقع في المعاصي دائمًا لظنه الخاطئ أنه غير قادر على محاربة السيئات. إن المؤمن يعلم أن الله تعالى قد فتح أمامه سبيل التدبير على مصراعيه، وأن بوسعه التغلب على المعاصي ببذل الجهد والتدبير. إذا كان التدبير غير مُجدٍ في سبيل التخلص من السيئات فلماذا أمرنا الله بالحوقلة والاستغفار والتعوّذ؟ إنما علّمنا الله

تعالى بذلك أن باب التدبير مفتوح دائما، وكل من حاول وسعى نجح في إصلاح نفسه وتغلّبه على الإثم.

المفهوم الثاني عشر: ومن معاني الدين الشأنُ، ومن مفاهيم الشأن "الخَطْب العظيم" (الأقرب)؛ "والحالُ والأمرُ الذي يتِّفق ويصلُح، ولا يقال إلا فيما يعظُم من الأحوال والأمور" (المفردات). فالشأن لا يُطلق على ما يفشل فيه المرء، وإنما يطلق على الأمر الذي تتيسر أسباب نجاحه ويتم فعلاً، ويكون على عظام الأمور. إذن، فالشأن يعني: الحالة العظيمة أو المهمة العظيمة التي تنجح حتما. وقد ورد لفظ الشأن في القرآن الكريم بهذا المعنى نفسه في قول الله تعالى ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾(الرحمن:٣٠).. أي أن الله تعالى يضع خطة معينة في كل عصر، ويوفر الأسباب الملائمة لتحقيقها، ثم ينجزها دومًا. والمراد من ﴿كُلَّ يومٍ﴾ عصرُ الأنبياء. علمًا أن هذه الآية من سورة الرحمن قد جاءت في معرض الحديث عن بعثة الرسول ﷺ؛ حيث يقارن الله تعالى بين عصره ﷺ وعصور الأنبياء السابقين، ويخبر أنه قد قسم الزمن بحسب عصور الأنبياء، وأنه قد وضع خطة لعصر كل نبي، وقد نجحت خطته دائمًا كما أراد، فالذين ينكرون الخطة الإلهية أو يُعرضون عنها يحلّ بهم عقاب الله. علمًا أن هذه الخطة تكون في البداية موجَّهة إلى المنكرين، أما في الفترة المتوسطة والأخيرة، فإلى المؤمنين بها في الظاهر والمعرضين عنها في الواقع. فقوله تعالى ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾.. يعني أَخْبِرْني عن الذي ينكر أن الله تعالى يضع خطة معينة في عصر كل نبي، وأنه قد وضع خطة في عصر محمد أيضا. ومن أنكر هذه الخطة المحمدية فستجده يقع في أنواع المعاصي والآثام.

واعلم أن الله تعالى يتجلى بقدرته في كل عصر، ولكنه يتجلى بها في عصر الأنبياء خاصة، حيث يعمل على تنفيذ خطة معينة، وخطته هذه تنجح حتمًا مهما حاول العدو إعاقتها وإفشالها. لقد وضع خطة في عصر موسى عليه السلام؛ ومع أنه قد عاداه فرعون -ذلك الملك الجبّار ذو القوة والنفوذ- إلا أنه لم ينجح في إفشال

الخطة الإلهية، كما لم تنجح أمة موسى أيضًا حين أعرضت عن تلك الخطة قائلة له: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا ههُنَا قَاعِدُونَ﴾(المائدة:٢٥).. أي لن نعمل بخطتك، بل سوف نحقق الرقي بأساليبنا، فقال الله ﷻ لموسى: حسنًا، الآن سيظلون تائهين في البراري والفلوات أربعين سنة. لقد أحرزت أُمته نصرا بعد نصر بعد خروجها من مصر، فلما عصتْه تركَها الله تعالى تائهة في الفلوات، ولم يحالفها النجاح إلا بعد أن تابت على يد يوشع عليه السلام.

وهذا ما فعل الله تعالى في عصر عيسى عليه السلام الذي أتى بخطة إلهية جديدة، فبذل أعداؤه كل ما في وسعهم لإفشالها، ولكنهم فشلوا، ونجحت خطة الله، ولم يقُمْ حُكم اليهود إلا بعد أن تبعوا الطريق الذي دعاهم إليه عيسى عليه السلام، ما عدا نجاحهم في الاستيلاء على فلسطين أخيرًا، ولكنه نجاح عابر مؤقت، وقد تنبأ به القرآن الكريم نفسه. ولمعرفة المزيد عن نجاحهم العابر هذا، راجِعْ تفسيرَنا لسورة الإسراء.

ليس بوسعكم تقدير المعاناة الطويلة التي تعرضت لها أمة عيسى عليه السلام. لقد عاشوا ثلاثة قرون عيشة ذل وهوان، وكانوا خلال هذه الفترة الطويلة يختبئون تحت الأرض في مغارات رطبة الأرضية على عمق ثمانين قدمًا لسبع سنوات متتالية في بعض الأحيان. لقد زرت هذه المغارات في إيطاليا وتسمى (Catacombs).. أي سراديب الموتى، وهي مغارات مخيفة لا تستطيعون تصورها. وظني أنه لو تعرضت جماعتنا لتلك الشدائد لارتد كثير منهم عن الأحمدية، ولكن جماعة مخلصة من المسيحيين قد عاشوا مختبئين في تلك الحفر والمغارات سبع سنوات متتالية في بعض الأحيان حفاظًا على إيمانهم، وإن كان ضعاف الإيمان منهم يرتدون خوفًا. كانوا يخرجون منها سرًّا، وكان المتعاطفون معهم يمدّونهم بالطعام من المدينة. كانت مغارات مظلمة، فكانوا يضيئونها بإشعال الشموع ليل نهار. والحق أنه بعد رؤية هذا المكان لا يمكن لأحد أن يعترض ويقول لماذا آتى الله تعالى المسيحيين الحُكم والمُلك لهذا الزمن الطويل؟! الواقع أن هذا المُلك ثمرة تضحيات آبائهم التي لم ينسها الله تعالى. عندما زرت هذه السراديب ذات الطوابق العديدة لم أستطع أن

أنزل فيها أكثر من طابقين. كنت أنوي أن أنزل أكثر تحت الأرض فيها، ولكن رفقائي أصرّوا عليَّ أن لا أنـــزل أكثر، لأن هذا سيزيد مرضي. لم ننـــزل فيها طابقين حتى انهارت قوانا ولم تبق في أجسادنا قوة. هذه المغارات طولها سبعون ميلا، لكن المسيحيين كانوا يعيشون هنالك ليل نهار، فهنالك كانوا يلدون الأولاد، ويبنون الكنائس، وتجد هنالك في كل مكان شواهد مكتوب على بعضها العبارة التالية: كان أهلي وأولادي وإخوتي وأخواتي جالسين هناك حين داهمتهم الشرطة الرومانية نتيجةَ وشايةٍ من أحد، فقتلوهم في مكانهم، ولكني نجوت بفضل الله، وها إني أنصب هذا الشاهد هنا لكي يقرأه الناس ويدعوا لهؤلاء. ومكتوب على بعضها: هنا استُشهد قسيسنا، وهو يقوم بالوعظ، على يد الشرطة الرومانية، وها إني أنصب هذا الشاهد تذكارا له.

انظر إلى استقامتهم المذهلة! وانظر إلى تضحياتهم الرائعة! فلا يصح بعد ذلك الاعتراض على ما آتاهم الله من المُلك كل هذه المدة الطويلة.

باختصار، فإن الله تعالى يضع خطة جديدة في كل عصر، كما فعل في زمن كرشنا، ورام شندر، وزرادشت، والرسول عليهم السلام، وكلّ مَن لا يعمل بحسب الخطّة الإلهية لا يمكن أن يترقَّى في الخير، إنما يزداد إثما، وكلٌّ مَن يقوم لمحاربتها يكون مآله الخيبة والخسران. كان العرب أوّل معارضي النبي ﷺ، فمن آمن به منهم نجح وتقدَّم. لم يكن لأبي بكر فضلٌ على أبي جهل في بادئ الرأي، بل كان الأخير أكثر ذكاء من الأول عند قومه، مع ذلك قد نال أبو بكر تلك المكانة المرموقة ببركة إيمانه بالرسول ﷺ، بينما سقط أبو جهل في الحضيض نتيجة كفره بالنبي ﷺ.

ولا يصح هنا قول قائل: إن الأمة الفلانية أيضًا ترتكب المعاصي، فلماذا لا تُعاقَب؟ وما دام قد حالفها النجاح مع اقترافها المعاصي، فكيف لا ننجح بدون العمل بأحكام الإسلام من صلاة وصوم وحجاب وغيرها؟

ذلك أن الخطط الإلهية تكون ذات شِقّين: شِقٌّ يتعلق بعقاب الكافرين قبل غلبة النبي، وشِقٌّ آخر يتعلق بعقاب أتباعه بعد غلبتهم. ذلك أن أتباعه إذا أعرضوا عن

الدين عمليًا، عاقبَهم الله تعالى أكثرَ غاضًّا الطرف عن أعدائهم قائلا لهؤلاء المؤمنين في الظاهر: إن الأمم الأخرى لا تدّعي العمل بخطّتنا كما تدّعون، وإنكم أنتم المسؤولون عن إنجازها لا هم، لقد سبق أن عاقبناهم في عصر النبيّ، فلا حاجة لعقابهم على سوء أعمالهم بقدر الحاجة إلى عقابكم على سوء أعمالكم.

ففي هذا العصر أيضًا إنما يحرز المسلمون الرقي بالعمل بأحكام الإسلام فقط، وإنهم لن يزدهروا أبدًا وهم معرضون عن دينهم. فهم مسؤولون عن تحقيق الخطة الإلهية في هذا العصر، فإذا هم أعرضوا عنها فكيف تتحقق مشيئته هذه؟ لو كان بوسع المسلمين الازدهار مع إعراضهم عن الدين، فلماذا وضع الله هذه الخطة إذن؟ فلا جرم أنّ تقدّم المسلمين مستحيل في هذا العصر من دون العمل بالإسلام. نعم، إنهم لن يعودوا مسؤولين عن تنفيذ هذه الخطة الإلهية بعد أن تصبح الأحمدية غالبة في العالم، وازدهارهم المادي ممكن عندها، أما قبل غلبة الأحمدية فإنهم مسؤولون عن العمل بهذه الخطة مثل المسلمين الأحمديين، ولن يحالفهم النجاح بدون ذلك. وكما قلت إن الأمم الأخرى يمكن أن تزدهر ماديا من غير العمل بالإسلام لأنها ليست مسؤولة عن إنجاح هذه الخطة الربانية، لقد أعرضَتْ عن الله تعالى سلفًا، وفسادهم الزائد لن يضر بالخطة الربانية في هذا العصر؛ أعني بالإسلام، أما لو ازدهر المسلمون ماديًا معرضين عن الإسلام فسوف يُهملون الإسلام كليةً، ولن يبقى في الدنيا مَن يحمل لواء الهدي الإلهي، وستفشل الخطة المحمدية، ولذلك لن يكتب الله لهم الرقي المادي بغير العمل بالإسلام ليعود بهم إليه، ولتَصْرِفهم المحن والبلايا إلى الله تعالى ثانية، لتظلّ الخطة الإلهية التي بدأت بالإسلام قائمة مزدهرة. إذا كان المسيحيون لا يعملون بدينهم فإن بإمكانهم أن يحرزوا الرقي المادي مع فسادهم، وإذا كان الهندوس لا يعملون بدينهم فيمكنهم التقدم مع فسادهم، لأن الأديان الأخرى قد أصبحت فاسدة محرفة، ولم تتعطل مسيرة الخطة الإلهية بفساد تلك الديانات، أما لو ترك الله تعالى المسلمين يزدهرون ماديًا مع فسادهم، فإن مسيرة خطته ستتعطل، لأن المسلمين أدوات هذه المسيرة، فلو تركهم يتهاونون لتعطلت مسيرته وفسدت.

خلاصة القول، إن الله تعالى يقول هنا: أَخْبِرْني عن الذي ينكر شأن الله، أي ينكر خطته التي وضعها في هذا العصر.. أي خطة النبوة المحمدية، إذ بدأها الله في هذا العصر، فمَن رفض النبوة المحمدية لن ينجح أبدا، إنما يحرز الرقي والنجاح في هذا العصر من عمل بالنبوة المحمدية، وصار أداةً فعّالة في هذه المسيرة الروحانية.

لقد قلت من قبل إن الحديث هنا عن الشق الأول من الخطة الربانية أي عن فترة ما قبل غلبة الإسلام، أما بعد غلبته فيبدأ الشق الثاني من هذه الخطّة عمله.

فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٣

شرح الكلمات:

يدُعّ: دَعَّه دَعًّا: دفَعه دفعًا عنيفا. وفي "الأساس": دَعَّ اليتيمَ: دفَعه بجفوة. (الأقرب)

التفسير: لقد بيّن الله تعالى هنا أن الذي يكذّب بالدين فهو الذي يدُعّ اليتيم.. أي ينهره ويزجره.

اعلمْ أن هناك محذوفًا قبل الفاء هنا، إذ لا يمكن أن يكون قوله تعالى ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾ جوابًا لقوله تعالى ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾. وقد قلت من قبل إن المفسرين قد أتوا بتأويلات شتّى، فيرى الزمخشري صاحبُ الكشّاف -الذي ليس له مكانة عالية في التفسير، غير أنه يُعتبر إمامًا في اللغة والنحو- أن المحذوف هنا هو: "إنْ لم تعلم"، والمعنى: أيها المخاطَب إن كنت لا تعلم من الذي يكذّب بالدين فأخبرك أنه موصوم بكذا وكذا من العيوب.

وقد أثار بعض المفسرين اعتراضًا على هذه الآية وقالوا إن هذا المحذوف (إن لم تعلم) يدل على شك، والله عليم خبير ولا يمكن أن يشك فيما إذا كان المخاطَب يعلم أم لا يعلم.

وقد أجيبَ عليه بإجابات شتى، لكن الجواب عندي كالآتي: أولاً: الخطاب هنا ليس موجَّهًا إلى شخص معين، بل إلى كل الناس أو إلى كلّ مَن يقرأ القرآن الكريم، والواضح أنه إذا كان المخاطَبون أكثر من واحد، فبعضهم يعلم الأمر المذكور هنا وبعضهم لا يعلمه، وبالتالي فليس هنا أية دلالة على شك مِن قِبل المتكلم وهو الله ﷻ، وإنما قيل ذلك نظرًا إلى حالات مختلفة للمخاطَبين، فكأنه قيل: أيها المخاطب، إن كنت لا تعلم الجواب فهذا هو الجواب.

والجواب الثاني هو ما بيّنتُه من قبل بأن الاستفهام في قوله تعالى ﴿أَرَأَيْتَ﴾ لا يفيد النفي، بل يفيد التأكيد، ومعناه: أَخبِرْني، وما دام ليس هنالك أي سؤال من الله تعالى فلا مجال لأي شك منه تعالى.

وليكنْ معلومًا هنا أن تاء المخاطب للمفرد في ﴿أَرَأَيْتَ﴾ لا تشير إلى شخص واحد، بل إلى كثيرين؛ ومثاله ما قال الله تعالى لرسوله ﷺ بشأن والديه ﴿فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾(الإسراء:٢٤). والواضح أن الأخذ بالمعنى الحرفي للآية واعتبار الخطاب هنا موجهًا للرسول ﷺ باطل، إذ وُلد النبي ﷺ يتيمًا، بل قد توفيت أمه أيضًا في صغره، وقد ذكر القرآن الكريم كونه يتيمًا في سورة الضحى؛ فثبت أن الخطاب في قوله تعالى ﴿فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾ ليس موجهًا إلى الرسول ﷺ، وبالتالي فهو موجه للمسلمين جميعا. وقد جيء بضمير الخطاب المفرد لتوجيه الخطاب إلى كل فرد من المسلمين تأكيدًا للأمر، والمراد: يا زيد، ويا بكر، ويا عمرو، اسمعْ جيدًا: إذا بلغ أبواك عندك الكِبَرَ وأصبحا عصبيّين، فعليك بالصبر على سرعة غضبهما، ولا تقلْ لهما أُفٍّ ولا تنهرهما، أي لا تقل: كفى يا أبي أو يا أمي.

إذن، فثبت أن لفظ المفرد يستخدم للجمع أحيانا، ويراد به كل فرد من البشر أو من الأمة، وعليه فالخطاب في قوله تعالى ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ موجه إلى كل فرد من المسلمين، أو إلى كل فرد من البشر؛ فقيل: يا مَن تعلم هذا أو لا تعلم، تذكَّرْ أن الذي يكذّب بالدين يقع في شتى المساوئ حتمًا.

والنحوي الشهير "الحَوْفي" أيضا يقول إن همزة الاستفهام في قوله تعالى ﴿أَرَأَيْتَ﴾ ليست للنفي، بل للتأكيد (البحر المحيط)، والمعنى: أنك تعلم يقينًا مَن يكذِّب بالدين، وها نحن نخبرك عن مصيره بأنه سيقع في أنواع المعاصي حتمًا. وعليه، فستصبح هذه الآية بمنـــزلة نبوءة، حيث أخبر الله تعالى أن معارضي الإسلام سيقترفون أنواع السيئات؛ وهذا ما حدث بالضبط.

إن إساءة معاملة اليتيم وزجْره لِمن أسوأ الأعمال بحسب القرآن الكريم، وقد نبّه الله تعالى إلى ذلك مرارًا كقوله تعالى ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ﴾ (الضحى:١٠)، وكل الكلمات الواردة في القرآن الكريم بشأن اليتيم تنهى عن نهره وقهره وإذلاله. وقد نشأ عليه سؤال هام وهو: هل كان هذا التعليم ردَّةَ فعلٍ من محمد ﷺ الذي كان يتيمًا؟ (تفسير القرآن لِـــ"ويري"). لقد أثار هذا السؤال قومٌ يرون أن القرآن الكريم هو صوت فطرة محمد، وليس صوت الله تعالى. وهؤلاء فئتان: فئة من المسلمين وفئة من غير المسلمين، أما المسلمون منهم فيرون أن الرسول ﷺ كان نقيّ الفطرة طيّب القلب، فلما رأى المجتمع مصابًا بهذه المفاسد رفع صوته احتجاجا عليها، وهذا الصوت الدال على نقاء فطرته وطيب نفسه كان بمنـــزلة صوت الله تعالى. أما غير المسلمين من هؤلاء المعترضين فقالوا: كان محمد (ﷺ) شديد الذكاء، فلما رأى هذه المساوئ منتشرة في المجتمع تولدت عنده ردّةُ فعل، فأخذ يناجي نفسه ضد هذه المفاسد، ومناجاته هذه هي القرآن في الواقع، ولكنه لقلة علمه – والعياذ بالله– ظنّها صوتًا من الله ووحيًا منه سبحانه وتعالى، مع أنه لم يوحَ إليه شيء. كل ما في الأمر أنه كان مرهف الحسّ حسن الطبع نقيّ الفطرة، فنشأت في نفسه هذه الأفكار الطيبة، فظنها كلام الله تعالى.

إذن، فهم يقولون: لم لا نعتبر تركيز محمد ﷺ على احترام اليتيم والنهوض به ردّةَ فعلٍ منه على يُتْمه، فلكل فعل ردّةُ فعل، وهي تظهر أحيانًا بصورة معاكِسة له، وأحيانًا بالصورة نفسها، فبعض الناس عندما يرون الفظائع في الدنيا يتأثرون بها فيصبّون الظلم على الآخرين ظنًا منهم أنهم ينتقمون من الظالمين، وأما الآخرون فإذا رأوا الظلم في المجتمع ثاروا ضده بإرساء العدل وتقديم أي تضحية في هذا السبيل.

فعلْم النفس يخبرنا أن الناس يُظهِرون ردة فعلهم على خطأ بممارسة الخطأ نفسه أحيانًا، وأحيانا أخرى تكون ردة فعلهم على الخطأ بفعل معاكس، ولذلك يقول معارضو الإسلام: لماذا لا نعتبر هذا التركيز الشديد من قِبل محمد على النهوض باليتيم ردةَ فعل، إذ كان هو الآخر يتيمًا؟ فكأنهم يقولون إن هذه الآيات ليست وحيًا من الله تعالى، إنما هي صوت فطرة محمد إذ كان يتيمًا وتعرض للظُلم، ففكر أن كل ما يحدث معه إنما سببه أنه كان يتيما. كان مرهف الحس فأراد أن ينتقم من أهل الدنيا على ما فُعل به. لقد ثارت نفسه على تعرّض اليتامى مثله للظلم والأذى والمعاملة السيئة، فقال: حسنًا، الآن سأنتقم من الظالمين بالتعيير بهم وافتضاحهم وكشف مساوئهم نصرةً لليتامى. كان حَسَن الطبع، فتولدت فيه ثورة وانطلق من داخله صوت طبيعي، ولكنه لقلة علمه –معاذ الله– اعتبره وحيًا من الله تعالى.

ونقول ردًّا على هؤلاء القوم: ليس صحيحًا البتة أن القرآن الكريم صوت فطرة محمد ﷺ، وأن تعاليمه ليست إلا ردة فعل تولدت في قلبه برؤية مفاسد ذلك الزمان. لا شك أن عقيدتنا أن القرآن الكريم كلام الله تعالى، غير أننا نوقن بناءً على العلم الظاهر أيضا أن القرآن ليس نتيجة ردة فعل نفسية.

فنقول للمسلم المتشكك: إن القرآن الكريم ليس كلام محمد ﷺ، بل هو كلام الله تعالى؛ وباطلٌ القول بأنه ردة فعل محمد ﷺ. هل الله تعالى أيضا يتيم ومسكين حتى يقال أنه تولد عنده أيضا ردة فعل برؤية ما يُصبّ على اليتامى والمساكين من ظلم وجور، فكشف حالته لمحمد ﷺ؟

أما منكر الإسلام فنقول له في الجواب: حتى لو غضضنا الطرف عن دعوى القرآن الكريم، فإن ما يقولونه لا يصحّ عقلاً، لأن الوقائع تؤكد أن تعاليم القرآن الكريم حول اليتامى والمساكين ليست تعاليم انتقاميّة، بل إصلاحيّة؛ ذلك أننا عندما ننظر إلى الزمن الذي كان فيه الرسول ﷺ يتيما، نجد أن يتمه لم يكن شديدًا بحيث يولد عنده ردة فعل كهذه. فلو كان الرسول ﷺ بدون أقارب، أو كان أقاربه ظالمين يعاملونه بقسوة واحتقار وإيذاء، لجاز القول أن هذا الصوت كان صوتا انتقاميا لا إصلاحيا، لكن الواقع يكشف أنه لم يأت على النبي ﷺ يوم شعر فيه

بيُتْمه. لا شك أنه ﷺ كان يتيمًا، لكن الله تعالى هيّأ له أسبابًا خفّفت عليه يُتْمَه فلم يشعر به. فعندما تُوفّي أبوه ﷺ تبنّاه جدّه عبد المطلب، ولكنه ترَكه في رعاية أمه ﷺ، ولم ينتزعه منها كما يفعل بعض الأقارب الظالمون حيث يأخذون اليتيم من أمه بقصد إيذائها بحجة رعايته وتربيته. لو انتزعه عبد المطلب من أمه ﷺ لشعرت بالأذى الشديد وبالتالي تأذى هو بسببها، ولكانت هناك إمكانية صدور ردة فعل منه، إذ لو سمع أقرانَه ينادون أمهاتهم، أو رأى آباءهم يقومون برعايتهم ويعتنون بهم، لقال ليتني كنت مع أمي لتعتني بي، وليت أبي كان حيًا حتى لا ينتزعني أحد من أمي. ولكن عبد المطلب لم يفعل شيئا كهذا، بل ترك النبيَّ ﷺ عند أمه، وقال لها: قومي برعايته وتربيته وإذا احتجتِ إلى شيء فأخبريني، ولا تظني أن أباه قد توفي، فإني أبوه من الآن. وما دام هذا هو الأمر الواقع فكان طبيعيا أن لا يتولد فيه أية ردة فعل بسبب يُتمه.

وكان أهل مكة يبعثون مواليدهم خارجها لكي تتحسن لغتهم وصحتهم بالعيش في البادية؛ إذ كان أهل البادية أرقى لغةً. علمًا أن هناك فرقًا بين بلاد العرب وغيرها، فإن اللغة في العالم تكون في المدن أرقى منها في الريف والبادية، أما في بلدان العرب فالوضع على عكس ذلك. كان مستوى اللغة واحدًا في المدن والبادية في كل الجزيرة في أول الأمر، ثم تسربت إلى لغتهم كلمات أجنبية على مر الأيام بحكم اختلاط أهل المدن بالأجانب، ولذلك كان أهل مكة يبعثون أولادهم إلى البادية ليعيشوا هناك خمس سنوات أو سبعا ليكونوا أحسنَ صحة وأقوى بنية برضاعة نساء البادية القويات، وليتعلموا اللغة الأصيلة البريئة من تأثير اللغات الأجنبية. ففي أيام ميلاد النبي ﷺ جاءت نسوة البادية إلى مكة ليأخذن من أهلها مواليدهم من أجل تربيتهم عندهن. وأرادت أم النبي ﷺ أن تسلّم ابنها لإحدى البدويات لتربّيه عندها، ولكن لم ترضَ أيٌّ منهن أن تأخذ محمدًا لأنه يتيم، ولن يعطيها أهله مكافأة مُرضية! وكانت السيدة حليمة بين هذه البدويات. كانت امرأة فقيرة، وقد جاءت لتبحث عن ولدٍ من عائلة ثرية لتنال مكافأة مُرضية على رعايته وتربيته، فذهبت إلى أم النبي ﷺ، فأخبرتها عن أحوالها المادية بصدق، فرجعت

حليمة يائسةً من عندها بحثًا عن وليد آخر. وكان أهالي المواليد أيضا يبحثون عن مراضع تنتمي إلى أسر ثرية لكي يتربى أولادهم عندهن تربية محترمة، أما حليمة فكانت فقيرة، فلم ترضَ أية عائلة أن تبعث معها وليدها. فرفضت كل مرضعة أن تأخذ معها النبي ﷺ لأنه يتيم، ورفضت كل عائلة أن تسلّم وليدها لحليمة لأنها فقيرة، فرجعت حليمة في آخر النهار إلى أم النبي ﷺ وقالت: سآخذ ابنك معي، فرضيتْ أم النبي ﷺ فرحةً مسرورة إذ كانت المراضع الأخرى قد رفضته، وهكذا وضع القدر الإلهي في حِجر حليمة ذات الحظ السعيد ذلك الوليد الذي كان من المقدر أن يصبح إنسانا تاريخيا.

فلو أن أمه ﷺ لم تجد له مرضعا و لم تبعثه إلى البادية لِقضاء سنوات من عمره هنالك، فكان من الممكن أن يشعر بالحرمان بسبب يُتمه، ويفكر عند رؤية غيره من الأولاد أنهم قد عاشوا خارج مكة في البادية في جوٍّ أفضل، وقد صاروا أحسنَ منه لغةً وأقوى جسدًا، فيقول: لَيتني لم أكن يتيمًا، فأذهب إلى البادية في صغري، فأُمارس هناك ألعابها وأشرب ألبانها، فتتحسن صحتي ولغتي أيضا؛ وعندها يمكن أن يتولد فيه ردة فعل ويقول: الآن سوف أنتقم من الناس على يُتمي. ولكن قلبه ﷺ لم يُصَب بهذه الجراح و لم يشعر بالحرمان نتيجة يتمه قط، فكيف يمكن أن يتولد فيه رد فعل على ذلك؟

ثم لما وصل النبي ﷺ إلى بيت حليمة تحسّنَ وضعها المادي وحلّت البركة في بيتها، فأدركتْ أن كل هذا ببركة هذا الوليد، فأحبّته هي وزوجها وأهلها صغارا وكبارا حبًّا جمًّا، وجعلوا يفدونه بأرواحهم. ولكن لو أن أهل حليمة ظلّوا فقراء وعاش النبي ﷺ عندهم في ظروف أقل رخاء مما عاش فيه أقرانه لكان هناك احتمال أن يتولد عنده ردة فعل على هذا الحرمان الناتج عن يُتمه (انظر: السيرة النبوية لابن هشام: ولادة رسول الله ﷺ ورضاعته).

ثم لما رجع النبي ﷺ من البادية إلى مكة، جعل جدُّه يفديه بقلبه وروحه ويسهر على راحته وخدمته. وعندما توفيت أم النبي ﷺ أخذه جدّه إلى بيته. يروي أبناؤه أن أباهم كان عظيم الهيبة، فإذا جلس في مجلس لم يجرؤ أحد منهم -وهم شباب-

أن يرفع إليه بصره هيبةً منه، ذلك لأن العرب كانوا يحترمون الكبار جدًّا، ويعلّمون احترامهم. أما النبي ﷺ فكان بسبب صغره يلعب مع جده ويركب على أكتافه أحيانا، فكان أبناء عبد المطلب ينظرون إليه بغضب، ولكن جده ينهرهم بشدة قائلا: لا تنظروا إلى ابني نظرة غضب.

باختصار، لم تأتِ على النبي ﷺ لحظة شعر فيها بالحرمان بسبب يتمه. كان عمره ﷺ ثماني سنوات أو تسعًا حين توفي جده (السيرة النبوية لابن هشام: ذكر وفاة عبد المطلب...)، فدعا قُبيل وفاته ابنه أبا طالب وقال له: أنت موضع ثقتي وأُحسن بك الظن أكثر من سواك من أولادي؛ وها إني أضع الآن في يدك أمانتي محمدًا، فعليك بتربيته كتربية أولادك ولا تجعله يحس بضيق أو حِرمان. فوفّى أبو طالب بعهده، فأحبه حبًّا جمًّا، حتى إنه كان يناديه: ابني ابني، مع أنه لم يكن ينادي أولاده هكذا.

كان النبي ﷺ وقورا في صغره أيضا كما يخبرنا التاريخ. فمع أن زوجة أبي طالب لم تكنْ تحبّه كثيرا، و لم تكن بينهما قرابة دم، كما لم يكن جدُّ النبي ﷺ قد أوصاها بشأنه أية وصية، إلا أن الثابت من التاريخ أنها لم تعامله بقسوة قط. فإذا أرادت توزيع شيء بين الأولاد بدأت بأولادها -ولعل ذلك لأنهم كانوا أصغر من النبي ﷺ- فكانوا يلتفّون حولها وكان كل منهم يصرخ أن تعطيه أولاً، بينما كان الرسول ﷺ يظل جالسا في هدوء ووقار ولا يشترك في هذه الضجة (السيرة الحلبية: ذكر وفاة عبد المطلب...). فإذا حضر أبو طالب في حينها ورأى النبي ﷺ جالسًا في ناحية، قال في نفسه لعله جالس هكذا لأنه يفكّر أن لا حق له على أهل هذا البيت، مع أن النبي ﷺ كان يجلس هادئا بسبب طبعه الوقور الذي امتاز به منذ صغره، فما كان أبو طالب يملك نفسه من شدة حبه للرسول ﷺ، وكان يقدّمه إلى زوجته قائلا لها: لِمَ لم تُعْطِي ابني شيئًا بعد؟ فكان أبو طالب يناديه دائما بابني، فكيف يمكن أن يشعر بيتمه؟ كان عند النبي ﷺ شعور واحد بأن أقاربه يحبّونه ويحسنون معاملته. لا شك أن الله تعالى هو الذي جعلهم يعاملونه بالحسنى، إلا أنه كان يشعر دائمًا أن أهله وأقاربه يلقونه بترحاب ويحبونه ويحسنون معاملته.

باختصار، لم يحدث في حياته ﷺ ما يُشعِره بيتمه قطّ. فثبت أن هذا التعليم القرآني ليس نتاج شعوره بالحرمان بيتمه حتى يسمى تعليمًا انتقاميا أو نتاج عقدة نفسانية عنده. وحتى لو اعتبرناه جدلاً نتيجة العوامل النفسية، فهو تعليم إصلاحي وليس انتقاميا أبدًا؛ إذ يقال عندها أن محمدًا ﷺ فكّر أن أقاربه الطيبين لم يدَعوه يشعر بيُتْمه، ومِن واجبه الآن أن يعمل من أجل دفع معاناة اليتامى. من الممكن عقلاً أن يتولد عنده ﷺ هذا الإحساس، ولكن لا يقبل العقل أن يتولد عنده أي إحساس آخر. غير أن الأمر الواقع هو ما ذكرتُ بأن الثابت عقلاً ونقلاً أن هذه التعاليم سماوية وليست من تأليف بشر.

وهناك اعتراض آخر ينشأ هنا: كيف يقال أن النتيجة الطبيعية لتكذيب الدين هي نَهرُ اليتيم واحتقاره وقهره؟

والجواب: لا شك أن إنكار الدين بمعناه الحرفي لا يؤدي إلى قهر اليتيم واحتقاره، إلا أن إنكار أيٍّ من المفاهيم الاثني عشر التي ذكرتُها للدِّين يؤدي حتمًا إلى احتقار اليتيم وغيرها من المنكرات. فيجب ألا يؤخذ الدين هنا بمعناه التقليدي، بل يجب الأخذ في الحسبان بجميع مفاهيمه الاثني عشر المذكورة آنفا، لأن إنكار أي واحد منها يؤدي إلى المعاصي والآثام يقينًا. ونَهر اليتيم واحتقاره من أكبر المعاصي، وقد اختاره الله تعالى هنا خاصة لأنه ليس إثما فحسب، بل فيه دليل على أن صاحبه دنيء يفتقد إلى أدنى درجات الإنسانية. ثم إن هذا الإثم يضر بالمجتمع ويقضي على اتحاد الأمة ويؤثّر سلبيًا على أخلاق الأجيال التالية وتضحيات الأجيال الحالية. فلم يذكر الله تعالى هذا الإثم إلا مثالاً فحسب، لأن إنكار الدين يؤدي إلى سيئات كثيرة بما فيها نَهر اليتيم واحتقاره.

ثم إن من الحِكَم وراء ذِكر هذه السيئة خاصة هو ما أشرت إليه آنفا بأن إهمال اليتيم يؤدي إلى انحطاط الأمة. إن تقدُّم الأمة منوط بإيثار أفرادها وتضحيتهم بأنفسهم، والشيء الذي يبقى بعدهم هو أولادهم، والمرء يريد التضحية بنفسه من أجل الأمة، ولكنه يتردد في ذلك إذا خاف على أولاده مِن بعده، إذ يتساءل: مَن يرعاهم بعدي؟ لو كان الأمر يتعلق بالتضحية بنفسه فحسب لم يكترث لها، ولكنه

يتعلق بمصير أولاده، فيتردد في التضحية مخافة أن يضيعوا مِن بعده، ومن أجل ذلك تجد أن الشباب هم الذين يتقدمون عند التضحية، ليس لأنهم أكثر ذكاء من الكبار، بل لأنهم يكونون عُزّابًا، أو لا يكون عندهم أولاد حتى يفكّروا في مصيرهم بعد موتهم، فلا يمنعهم مانع من التضحية، أما الكبار فيكون عندهم أهل وأولاد، فيقولون لو قُتلنا لأصبحت زوجاتنا أرامل وأولادنا يتامى، ولن يكون هناك من يرعاهم ويحسن إليهم فيضيعون، فهذه الفكرة تجعلهم يترددون في التضحية.

فالاعتناء باليتيم يحثّ أفراد الأمة على الإيثار والتضحية، والحق أن مستوى تضحيةِ الأُمة يكون بحسب مستوى اعتنائها بأيتامها، وكلما كانت أكثر رعايةً لليتامى كان أفرادها أكثر إيثارا وتضحية. ولا يرعى الناس الأيتامَ باعتباره واجبًا دينيًّا فحسب، بل باعتباره واجبًا دنيويًّا أيضا، فالأوروبيون مثلاً يعتنون بأيتامهم جدا، وبعضهم ينذرون حياتهم في سبيل رعايتهم، فيفتحون لهم دُورًا كبيرة وينفقون عليها ويجمعون التبرعات من أجلها. أما في بلادنا فيفتحون دور اليتامى للمنافع الشخصية، إذ يجبرون اليتامى على التسول. الحق أن مستوى التضحية عند أمة لا يمكن أن يرتفع من دون أن يكون عندها نظام لرعاية اليتامى، ولذلك قد ذكر الله تعالى هذا الأمر هنا خاصة، فقال إن الذي ينكر الدين بأيٍّ من مفاهيمه المذكورة لا بد أن يظل محرومًا من الحسنات الفردية والجماعية؛ والتي إحداها رعاية اليتامى والأخرى النهوض بالمساكين. أما الذي يؤمن بالدين فلا بد أن يهتم بطهارة نفسه وخدمة أمته، فهو بالإضافة إلى القيام بالحسنات الأخرى يؤمن أن الله تعالى سيعاقبه هو وأولاده إذا أساء إلى اليتامى، فلا يسيء إليهم أبدا.

كان المجتمع الإسلامي في زمن الرسول ﷺ يقوم برعاية اليتامى بوجه خاص، أما المشركون فإذا قُتل أحدهم لم يرعوا أولاده اليتامى. كان أهل المدينة يضعون اليتامى على الرأس والعين، ولذلك كانوا لا يترددون في الإيثار والتضحية؛ إذ لم يكونوا يخافون على أولادهم بعد موتهم. أما أهل مكة فكانوا يخافون أنه لن يكون هناك مَن يرعى أولادهم بعدهم إذا ماتوا.

ونجد اليوم كثيرًا من الأرامل بلا زوج، أما في عهد الرسول ﷺ فما كانت الأرملة تكمل أيام عِدّهّا حتى كان الناس يخطبونها ليقوموا برعايتها ورعاية أولادها. لقد تزوج النبي ﷺ عدة أرامل من أجل رعايتهن وأولادهن. وسأل النبي ﷺ شابا مرة قائلا: لماذا لم تتزوّج بِكْرا؟ فأجاب: تزوجتُ أرملة من أجل أيتامٍ لأخي، إذ كانوا بحاجة إلى أرملة خبيرة تقوم بتربيتهم.

وكلما استُشهد أحد الصحابة أو تُوفّي سأل الآخرُ الرسولَ ﷺ أن يزوّجه من أرملته كي يعتني بأولاده الأيتام فيثاب عند الله تعالى. فما كان في ذلك المجتمع إمكانية أن يبقى الأيتام من دون رعاية. ورُبَّ يتيمٍ كان يمسك بيد النبي ﷺ إذا مرّ بالسوق ويذكر له حاجته، فكان يتوقف له ويقول: تعال نسدّ حاجتك أولاً. وكان من الصحابة مَن تزوّج مِن أرملة ثم قسم أمواله على أولادها. وهذا هو السبب وراء عدم تردّد الصحابة في تقديم التضحيات والموت في سبيل الله. كانوا يعلمون أنهم إذا ماتوا فهناك كثير من أصدقائهم الذين يقومون مِن بعدهم برعاية أولادهم وتربيتهم. لا شك أنهم يضحّون بأرواحهم نتيجة إيمانهم ورغبتهم في وصال الله تعالى، ولكن إذا اجتمع معه الحافز الدنيوي أيضا كانت التضحية أفضل وأروع.

هناك عيب في أفراد جماعتنا بأنهم لا يرعون اليتامى كما ينبغي، ولذلك يخاف أبناؤها الموت. لو تمّت رعاية اليتامى في الجماعة كما ينبغي وأدرك أبناؤها أنهم لو ماتوا فلن يضيع أولادهم من بعدهم، بل ستتم تربيتهم على ما يرام، لازدادوا حماسًا للتضحية. إنني لا أفتح دارًا لليتامى الآن لأني قد فتحتُها مرارا من قبل، فبدأوا يسخِّرونهم في أعمالهم الشخصية، ففضّلتُ أن أُسكن الأيتام في المدينة الطلابية.

وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٤﴾

شرح الكلمات:

لا يحضّ: حَضَّه على الأمر: حمَله عليه. (الأقرب)

التفسير: لم يقل الله تعالى هنا "يَدُعُّ"، بل قال ﴿لا يَحُضُّ﴾.. أعني أنه تعالى لم يقل هنا: ستجد أنّ مَن يكذّب بالدين يدُعّ المساكين، بل أخبر أنه لا يحضّ غيره على إطعام المسكين؛ وفي هذا إشارةٌ إلى أنه يُطعِمهم ولكن بنية غير خالصة، إذ لو أطعمهم بنية حسنة لحضَّ الآخرين على إطعامهم، لأن المرء إذا أحب شيئًا رغّب فيه غيره؛ فما دام هذا يطعم المساكين ولا يحض غيره على إطعامهم، فثبت أنه يطعمهم رياءً وخجلاً من الآخرين، لا حبًا ورغبةً في هذه الحسنة.. كأنه قيل: إنه يطعم المسكين إذا سأله، ولكنه لا يرغب في مساعدة الفقراء عمومًا. الحق أن تحريض المرء الآخرين على إطعام الفقراء يكفل لهم الطعام من دون سؤال، إذ لا يضطرّون في هذه الحالة للسؤال.

هنا ينشأ سؤال وهو: لماذا استعمل الله تعالى فِعْلَ ﴿يَدُعُّ﴾ عند ذكر اليتيم، واستعمل فَعْلَ ﴿لا يَحُضُّ﴾ عند ذكر المسكين؟

والجواب أن اليتيم يكون صغير السن عادة، فلو نَهَره أحد لم يُثِرْ ضده احتجاجًا ولا ضجة، غاية ما يفعله أنه سيذهب ويجلس بعيدا عنه، أما الشخص الكبير فلا ينهره الناس مخافة أن يثير ضجة واحتجاجا. فحيث إن الناس قليلا ما يزجرون المساكين فقال الله تعالى ﴿وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾.

وهناك سؤال آخر: لماذا ذكر الله تعالى هنا نهر اليتيم وعدم حث الآخرين على إطعام المساكين، مع أنهما من العيوب الهامشية إزاء الحسنات الأساسية المذكورة من قبل؟

والجواب أن الحديث هنا يتمحور حول ضرورة النظام والنهوض بالأمة، وأيُّ شك في أن إهمال اليتامى والفقراء دليل على ضعف عاطفة خدمة الأمة؟ فإذا ضعفت هذه العاطفة في الأمة ضعف اتحادها، وإذا لقِي اليتامى الإهمالَ تردّدَ الناس في تقديم التضحيات في سبيل الأمة. ثم إن الفقراء يُساعَدون لكي يساعِدوا عند الحاجة، وإذا لم يُساعَدوا فلن يساعِدوا. والأمة التي يُحسَن فيها إلى الفقراء فإن فقراءها يتحمسون لتقديم التضحية لها. فالعمال في أمريكا وبريطانيا وفرنسا مثلاً

يُعطَون أجرة كافية، فيعتبرون أنفسهم جزءًا من أُمّتهم، فلا يترددون في تقديم التضحية في سبيلها. باختصار، إن إهمال الفقراء يؤدي إلى ضعف الأمة، وإهمال اليتامى يقلّل من عاطفة التضحية فيها، وكلا العيبين كافٍ لدفعها إلى هوة الدمار.

فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٥﴾

شرح الكلمات:

ويل: كلمةُ عذاب، يقال: ويلٌ له، وويلاً له، وويلٍ له. (الأقرب)

التفسير: الفاء في قوله تعالى ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ يدل على أن الآيات السابقة أيضًا كانت تتحدث عن المصلين، وإلا فلا تبقى هناك أية علاقة بين هذه الآية والتي قبلها، إذ كيف يمكن أن يقوم بتكذيب الدين ودَعِّ اليتيم قومٌ، وتنـزل اللعنةُ على المصلين؟ هذا غير معقول.

لقد سبق أن بيّنتُ أن سُوَر جزء (عم) تتحدث بالتناوب عن العصر الأول للإسلام ثم عن العصر الأخير منه، فسورة الفيل تتحدث عن الزمن الأخير، وسورة قريش تتحدث عن زمن الرسول ﷺ، وعليه فإن سورة الماعون أيضًا تتحدث عن الزمن الأخير، مما يؤكد أن الحديث في الآيات السابقة كان عن المسلمين والمصلين. ولا يصحّ الاعتراض هنا: كيف يمكن أن يُعَدّ المسلم والمصلي منكرًا للدين؟ ذلك أن الأحداث قد أكدت أن طائفة من المسلمين اليوم لا يوقنون بالحشر والنشر رغم إيمانهم بالقرآن، إذ يوجد بينهم من يقول كما ورد في المثل البنجابي عندنا: هذه الدنيا حلوة لذيذة، فكيف نترك لذاتها ومُتعها من أجل الآخرة التي لم يَرَها أحد؟ فإنك إذا عرضت عليهم أحكام الإسلام قالوا بأفواههم آمنّا وصدّقنا، ولم تؤمن قلوبهم بها. فالحق أن مسلمي الزمن الأخير هم الذين يؤمنون بالإسلام بأفواههم، ولم تؤمن قلوبهم؛ وهم الذين يزجرون اليتامى، ويهملون المساكين، ويرتادون

السينما، ويحضرون الرقص والغناء، وإذا خرجوا من هناك هتفوا: الله أكبر، الله أكبر، وطالبوا بالقضاء على الحكومة التي لا تعمل بشريعة الإسلام. نساؤهم يحضرن محافل الرقص والغناء، ويذهبن إلى السينما ويشاهدْن في الأفلام أفعالاً سخيفة من تقبيل وعناق بين الرجل والمرأة. إن الإسلام يعلّم أن لا يدخل الأولاد على أبويهم حين يتحدثان براحة على انفراد إلا بعد الاستئذان، أما في السينما فلا يكون هناك أولاد الممثلين والممثلات بل أولاد الآخرين، فيشاهدون هذه الأفعال السخيفة هناك، ثم يطالبون بتطبيق الشريعة الإسلامية! ما هذا الجنون! يقولون بأفواههم ما لا يعملون به. فيجب أن لا ينخدع أحد بكلمات تكذيب الدين، فيظن أن الحديث هنا عن الكافرين، كلا، بل صدور كل هذا ممكن من المسلمين، بل قد صدر منهم فعلاً كما رأينا بأم أعيننا في هذا الزمن؛ فإياهم يعني الله تعالى حين قال ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾.. أي أنهم ملعونون إذ يصلّون ثم يأتون هذه المنكرات، ولو أنهم أنكروا الإسلام أصلاً لكان أفضل؛ إذ يسيئون بأفعالهم إلى الرسول ﷺ إساءة بالغة مع ادعائهم الإسلام.

إذًا، فالفاء في قوله تعالى ﴿فَوَيْلٌ﴾ تؤكد أن الآيات السابقة تحدثت عن المسلمين لا عن أبي جهل؛ إذ لم يكن يصلي، والفاء في المصلين هي للعهد الذِكْريّ، والمراد: ويل للمسلمين الذين سبق ذكرهم.

والسؤال هنا: كيف قيل هنا: ويل للمصلين؟ مع أن الصلاة لا تؤدي إلى الويل، بل قال الله تعالى ﴿إنَّ الصَّلاة تَنْهى عَنِ الفَحْشَاء وَالْمُنْكَرِ﴾(العنكبوت:٤٦) .

وقد جاء الجواب على هذا السؤال في الآية التالية.

ﵟٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ٦ﵞ

شرح الكلمات:

ساهون: سها في الأمر وعنه: نسيه وغفَل عنه وذهَب قلبُه إلى غيره.... وقيل: إذا عُدِّيَ سها بِـــ "فِي" كان معناه الترك من غير علم، وإذا عُدِّيَ بِـــ "عَنْ" كان معناه الترك عن علم (الأقرب).

أي أنه إذا قيل: سها في الصلاة، فمعناه ترَك شيئا منها وزاد شيئا فيها نسيانا، أما إذا قيل: سها عنها، فمعناه ترَك شيئًا منها أو أحدث فيها شيئًا عن عمد.

التفسير: لم يقل الله تعالى هنا: "الذين هم عن الصلاة ساهون"، بل قال ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ﴾، وفي كلمة ﴿صَلاتِهِمْ﴾ إشارةٌ إلى أنهم يصلّون في الظاهر فقط.. أي أنهم ليسوا تاركي الصلاة كلية، بل يصلّونها في زعمهم، ولكنهم يتركونها أحيانًا، وأحيانًا يصلّون دونما تركيز فيفسدونها.

وباستعمال حرف (عن) قد بين الله تعالى أنهم لا يتركون الصلاة خطأً، بل يتركونها عمدًا؛ ولا رغبة لهم فيها.

إذن، فقد أشار الله تعالى هنا إلى اثنين من عيوبهم، أوّلهما أنهم يتظاهرون أنهم يصلّون صلاةَ الله، مع أنهم يصلّون صلاتَهم، والثاني أنهم لا يركّزون في الصلاة؛ إذ لا يصلّون رغبةً وشوقًا، وإنما عادةً وتقليدا مخافةَ أن يلومهم القوم والأقارب والزوجة والأب والأخ. والحق أن جميع هؤلاء يصلّون خجلاً ورياءً للطرف الآخر، فالشيخ يصلي خجلاً من المقتدي، والمقتدي يصلي خجلاً من الشيخ، ومن أجل ذلك نجدهم إذا ذهبوا إلى بلاد الكافرين تركوا الصلاة كلية، غير أنه إذا كان هناك اجتماع للمسلمين حضروا بعمائم طويلة ضخمة ومشوا بين القوم ليظنوا أنهم من كبار المصلين. أو إذا مات كبير من القوم حضروا جنازته ليعلَم الناس أنهم مسلمون. لو كانوا يوقنون بالآخرة حقًا لما صلّوا رياءً، وحيث إنهم لا يوقنون بضرورة الصلاة فكيف يوقنون بالحياة الآخرة؟ وما داموا لا يوقنون بالآخرة فلماذا

يصلّون صلاة الجنازة إذن؟ الواقع أنهم لا يصلّون الجنازة ليدعوا لهؤلاء الموتى، وإنما يحضرون الجنازة رياءً للناس وتظاهرًا بإيمانهم، لأن الناس يجتمعون بكثرة عند وفاة كبراء الناس، فيجد هؤلاء فرصة جيدة للتظاهر بإيمانهم.

ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ﴿٧﴾

شرح الكلمات:

يُرَاءُونَ: راءيته مُراءاةً: أي أريتُه على خلاف ما أنا عليه. (الأقرب)

التفسير: يوجد بين المسلمين في هذا العصر فئة تركوا الصلاة كلية، وفئة أخرى يصلّون رياءً لا حبًّا لها وشوقًا، أي قد صار بعضهم لادينيّين كلية، فلا يؤمنون بالإسلام ولا الصلاة، وبعضهم يُظهرون التدين في المناسبات العامة آخذين بالقشر معرضين عن اللب، وليس هدفهم إلا التظاهر بالصلاح أمام القوم.

وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ﴿٨﴾

شرح الكلمات:

الماعون: المعروفُ؛ كلُّ ما انتفعتَ به؛ أو كلُّ ما يستعار مِن فأس وقَدّوم وقِدر ونحوها من منافع البيت.... قال أبو عبيدة: الماعون في الجاهلية كلُّ منفعة وعطيّة، وفي الإسلام الطاعةُ. (الأقرب، والبحر المحيط)

التفسير: أي أنهم ينهون غيرهم عن الإحسان إلى الناس، أو يمنعونهم مِن إعارة أشيائهم البسيطة لهم، أو أنهم بأنفسهم يمتنعون عن إيتاء هذه المرافق البسيطة للآخرين. وكأن الله تعالى يخبر هنا أن المسلمين سيبلغون الحضيض في يوم من الأيام، ويفسدون لدرجة أنهم لن يُسْدوا أدنى معروف إلى الآخرين لمصلحة الأمة. وهذا المشهد المخزي نشاهده كل يوم ولا سيما في القرى، حيث تجد أحدهم إنْ

لمس شيئا لغيره، احمرَّت عيناه. هذا ما أخبر الله تعالى هنا بأنه سيأتي على المسلمين زمان يتردوْن فيه إلى الحضيض، فإذا صلّوا صلّوا رياءً، ولن يفكّروا لمصلحة الأمة، ولن يضحّوا أدنى تضحية لمصلحتها.

أما نظرًا إلى المعنى الذي ذكره أبو عبيدة للماعون، فستعني الآية أن المسلمين لن يبقى عندهم طاعة ولا انقياد، وهذا ما نلاحظه بأم أعيننا في هذا العصر، فكلٌّ منهم مائلٌ إلى التمرد والعصيان، وانمحى عندهم الإحساس بالأمة. كلٌّ يفكّر من أجل مصلحة نفسه أو أصدقائه، أما التفكير بالأمة فمعدوم بينهم. لا شك أنهم يردّدون اسم الأمة كثيرًا، ولكن إذا كان في ذلك مصلحتهم الشخصية أو مصلحة حزبهم وقبيلتهم. إنا لله وإنا إليه راجعون.

سورة الكوثر

مكية وهي أربع آيات مع البسملة وهي ركوع واحد

هي مكية عند أكثر الرواة، بينما يرى الحسن البصري وعكرمة وقتادة أنها مدَنية (البحر المحيط، وروح المعاني). أما المستشرقون فيرون أنها مكية، وقد نزلت في أوائل الإسلام. (تفسير القرآن للقس "ويري")

لما أعلن النبي ﷺ النبوة اعتبره بعض مشركي مكة مجنونا -والعياذ بالله- و لم يُعيروه بالا، ومنهم مَن قالوا إن هذا يريد أن يفسد دين العرب، فتجب محاربته، فقاموا لإيذائه، ومنهم من قالوا لإخوانهم بأنكم إذا عارضتموه وآذيتموه صرفتم أنظار الناس إليه من دون داعٍ، فإن الناس يأتون إلى مكة من خارجها، فإذا رأوا إيذاءكم له ثار فضولهم، فيسألون عنه ويرغبون فيه، فيزداد صيتًا وعزًا. لا شك أننا لا نرضى بما يقول ويفعل، وأن ما يدعو إليه يتنافى مع ديننا، ولكن خير لنا ألا نتعرض له، لكي لا يكتسب صيتًا وأهمية بين الناس. وكان من هذه الفئة الأخيرة العاص بن وائل الذي كان أحد زعماء مكة، فقال: "دعُوه، إنما هو رجل أبتر لا عقب له، لو هلك لانقطع ذِكرُه واسترحتم منه". (البحر المحيط)

وهذا يعني أن العاص بن وائل كان يرى أن محمدا ﷺ إنما يريد السيادة التي لا تُنال ولا تستمر إلا بالأولاد الذكور -ذلك أن النبي ﷺ لم يرزق إلا البنات، وكان العرب يرون أنه لا قيمة لهن إزاء الذكور، إذ يذهبن بعد الزواج إلى عائلات أخرى. ولا يحافظ على اسم المرء إلا أولاده الذكور- فإذا توفي محمد انتهت دعوته تلقائيا، إذ ليس له أولاد ذكور يحافظون على دعوته، فلا داعي لمعارضته وإذاعة صيته. ويرى المفسرون أن الله تعالى قد أنزل هذه السورة ردًّا على العاص بن وائل ومَن على شاكلته.

والثابت تاريخيا أن العاص لم يكن الوحيد الذي سمى النبي ﷺ أبتر، بل كان هناك آخرون فعلوا مثله، وكان من بينهم أبو جهل، إذ كان عندهم أولاد ذكور، بينما لم يكن عند النبي ﷺ ولدٌ ذكر. وكان العرب يرون أنه لا بد من الأولاد الذكور للتحزب والسيادة، ولذلك قال بعضهم لبعض: دعُوه وشأنه، فإن دعوته ستموت بموته. إنها سحابة صيف، عن قليل تَقَشَّعُ، فلا داعي للتعرض لها، لأن هذا يزيده صيتًا ورقيًّا.

ولأن هذه السورة تفنّد آراء قوم سموا الرسول ﷺ أبتر، فظنّ البعض خطأً أنها سورة مدنيّة. لقد قالوا: لما توفي إبراهيم عليه السلام ابن الرسول ﷺ في المدينة، قال الكافرون: قد صار محمد أبتر، فنزلت سورة الكوثر تفنيدًا لهم (روح المعاني، والسيرة الحلبية: باب ذكر أولاده ﷺ).

ولكن ما دامت الروايات تؤكد أنها سورة مكية، فلا يصح اعتبارها مدنيّة لمجرد ورود كلمة أبتر فيها. فالسؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: لماذا ظل الكفار صامتين حتى يولد إبراهيم عليه السلام ويتوفى؟ لقد وُلد إبراهيم قبل وفاة النبي ﷺ بثلاثة أعوام، مما يعني -بحسب منطق هؤلاء المفسرين- أن أحدًا من الكفار لم يعيّر النبي ﷺ بكونه أبتر إلا قبل وفاته بثلاث سنوات. من ذا الذي يصدِّق أنهم ظلوا ينتظرون حتى يرزق النبي ابنًا ثم يتوفى فيسمّوه ﷺ أبتر؟ لم يكن عند النبي ﷺ أيُّ ولدٍ ذَكرٍ في السنوات العشرين بعد دعواه، وكان عندها قد دخل في شيخوخته أيضا، ومع ذلك لم يسمّه أحد أبتر! وما داموا قد انتظروا حتى ولادة إبراهيم ووفاته، فلماذا لم ينتظروا إلى ما بعد وفاة النبي ﷺ أيضا؟ لقد توفي إبراهيم عليه السلام وعمره سنة ونصف، وعاش النبي ﷺ بعد ذلك سنة ونصفا، فهل يصبح المرء عاجزًا عن الإنجاب في سنة ونصف؟ إنما هو مجرّد ظنّ لا يدعمه العقل.

هذه السورة تتحدث عن زمن النبي ﷺ بحسب القاعدة التي بيّنتُها مرارًا بأن السور الأخيرة من الجزء الثلاثين تتحدث بالتناوب -على العموم- عن الزمن الأول للإسلام وعن الزمن الأخير له. علمًا أنه ليس ضروريا أن لا تتحدث السورة المتعلقة بزمن الرسول ﷺ عن الزمن الأخير لأمته، أو العكس، بل يمكن أن تتحدث سورة

واحدة عن الفترتين، إلا أنها تركّز على إحداهما. وحيث إن سورة الماعون تحدثت عن الزمن الأخير للإسلام وبينت أن أمة النبي ﷺ ستصاب بأنواع المساوئ والفساد، وأن فئة منها سيصلّون رياءً، وسيفقدون روح الصلاة.. لذلك فإن سورة الكوثر تتحدث الآن عن الزمن الأول للإسلام، أي عن عصر الرسول ﷺ.

بعد سورة الكوثر تبقى سور قصار نسبيًّا، وكما أن الأذكياء من الكتّاب عندما يصلون إلى نهاية كتابهم يذكرون ملخص محتواه بهدف التأثير على القارئ، كذلك لما اقترب القرآن الكريم إلى نهايته صارت سوره قصيرة، حيث لخص الله تعالى فيها مواضيع القرآن.

لقد قلت من قبل إن هذه السورة قد نزلت في أوائل البعثة، وقلت الآن إنها تشير إلى بلوغ القرآن ختامه، وهناك تعارض في القولين في بادئ الرأي، والواقع أنه ليس هنالك مِن تعارض. لقد أثبتُّ في تفسير الجزء الأول من سورة البقرة● أن للقرآن ترتيبين: أحدهما ترتيب نزولي؛ وهو بالنظر إلى الفترة الأولى للإسلام، والآخر ترتيب تدويني؛ وهو بالنظر إلى عُمْر الإسلام، أي بالنظر إلى الأحداث إلى يوم القيامة، وهو الترتيب الحقيقي للقرآن الكريم، وإن من معجزات القرآن الكريم أن في الترتيبين حِكَمًا بالغة. فمع أن سورة الكوثر قد نزلت في أوائل البعثة، إلا أن الله تعالى كان يعلَم أنه سيضعها في ختام القرآن عند تدوينه، فأنزلها بحيث يكون موضوعها في تناغُم تام مع موضوع السور الواردة في ختام القرآن، ليدل على عظمة ترتيبه. فمع أن سورة الكوثر هي من أوائل السور نزولاً إلا أن موضوعها ينسجم مع مواضيع السور المتأخرة نزولاً كل الانسجام، حتى يخيل أنها قد نزلت بعد تلك السور. فقد أشير في سورة الكوثر إلى أن القرآن قد أوشك على الختام، فقد اكتمل بيان مواضيعه ومطالبه كلها، وقد اشتمل على المحاسن والمزايا كلها، فحريٌّ بها أن يطلَق عليها "سورة الكوثر". والحق أن سورة الكوثر تشير إلى اسم القرآن الكريم، حيث بين الله تعالى للكافرين أنه عندما أعلن محمد ﷺ دعواه لم

● ورد هذا في مقدمة تفسير سورة البقرة. (المترجم)

يكن قد نزل من القرآن الكريم إلا بضع سور قصار، فلما قيل لكم إن هذا الكتاب يحتوي المعارف والمواضيع ويسد الحاجات الإنسانية كلها، قلتم: ليس فيه إلا شيء من الأحكام التي تتعلق بالأخلاق، فما هو رأيكم الآن في هذا الكتاب وقد بلغ ختامه؟ أهو مجرد مجموعة أخلاق قليلة؟ ألم يحوِ المعارف والمطالب كلها؟ ألا يسد حاجات البشر كلها؟ وكأن الله تعالى قد نبّه الناس عند ختام القرآن إلى تحقّق أهداف نزوله تمامًا، وبيّن لهم أن الدعوى التي قام بها في بداية الإسلام قد تحققت بجلاء باكتمال نزول القرآن الكريم.

ثم إن سورة الكوثر تشير إلى أن محمدا رسول الله الذي نزل عليه هذا الكتاب هو أيضًا جامعٌ للعلوم والمعارف كلها. وكأن الله تعالى قد نبّه الكفار بقوله ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ بأن محمدا ﷺ قد أوشك على نهاية عمره، كما أوشك القرآن على ختامه؛ ألم تروا بعد أن القرآن قد حوى مواضيع واسعة سعةً غير عادية؟ ألم تروا أن محمدا الذي قلتم إنه أبتر، قد حقق الارتقاء والازدهار؟ ألم تنتصر أخلاقه الفاضلة؟ ألم يُعطَ الكوثرَ بعد؟

سئلت عائشة -رضي الله عنها- مرة عن أخلاق الرسول ﷺ فقالت: كان خُلقه القرآن. (مسند أحمد). لا حاجة أن أخبركم عن أخلاقه، اقرأوا القرآن تعرفوها، فكلما أمر القرآن بشيء عمل به، وكلما نهى عن شيء انتهى عنه، فإذا قال القرآن صلوا صلى، وإذا قال صوموا صام، وإذا أُمر بإخراج الصدقة تصدّقَ، وإذا أُمر بالرفق في موطنٍ رفقَ، وإذا أُمر بمعاملة المجرم بما يصلحه، عاملَه بما فيه إصلاحه، وإذا أمر القرآن بالعفو عن الناس عفا عنهم. وكأن عائشة رضي الله تعالى عنها تقول: لا حاجة لدراسة تاريخ حياته وبيان سيرته، فالقرآن صورة كاملة له، وكأن القرآن والرسول ﷺ لؤلؤتان خرجتا من صدفة واحدة، وكما التَوْأَمَين يشبه أحدهما الآخر حتى يصعب التفريق بينهما، ويضع الأطباء عليهما علامةً ليعرفوا مَن وُلد أولاً؛ فكذلك هو حال القرآن الكريم ومحمد رسول الله ﷺ، إذ تعرفون أحدهما برؤية الآخر. أي أن ما تعنيه عائشة -رضي الله عنها- هو أنكم إذا أردتم رؤية القرآن فانظروا إلى محمد ﷺ، وإذا أردتم رؤية الرسول فانظروا إلى القرآن الكريم،

فكل ما يوجد في القرآن يوجد في محمد، وكل ما كان يفعل محمد ﷺ يـأمر بـه القرآن، وكل ما كان ينتهي عنه محمد ﷺ ينهى عنه القرآن. وكأن أحـدهما يـنير الآخر، فالقرآن يجلو محمدا ﷺ، وهو يُبرز نور القرآن.

من المستغرب حقًا أن تنـزل سورة الكوثر في أوائل البعثة مشتملةً على أنبـاء مفصلة مذهلة عن أواخر حياة النبي ﷺ، حيث أخبر الله تعالى فيها عن العظمة التي سيبلُغها الرسول ﷺ عند وفاته، والقرآنُ الكريم عند ختامه. عنـد نـزول هـذه السورة.. أي في السنة الثانية أو الثالثة من البعثة، لم يكن للنبي ﷺ شأن يـذكر، إذ كان عندها خامل الذكر، ولم يؤمن به إلا ٨ أو ١٠ من الناس، ولم تنـزل عليـه إلا ١٥ أو ٢٠ من السور القصار، ولم تكن هناك فرص لانكشاف أخلاقه الفاضلة بحسب منصبه ونبوته، ولم تكن قد تحققت بعد النبوءات الإلهية بحقه ﷺ سواء التي تنبأ بها الأنبياء السابقون أو التي كان قد أدلى بها بنفسه. كان لا يزال بمثابة نـواة لشجرة كبيرة لم يخرج منها إلا ساقها، فمن ذا الذي كان بوسعه أن يقول يومها إن هذا الساق الصغير الناعم سوف يصبح في يوم من الأيام دوحة عظيمة يأكل الناس ثمارها ويستظلّون بظلها؟ كان ساقًا ناعمةً ضعيفةً يمكـن للمـاعز أن تدوسـها بأرجلها، وللدودة الصغيرة أن تقطعها. في تلك الحالة من الضعف والخمول أعلـن الله تعالى على الملأ مخاطبًا نبيَّه ﷺ وقال: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾.. أي يا أهل مكة، لا تظنوا أن القرآن ليس بشيء، وأنه مجرد مجموعة تعاليم أخلاقية قليلة، كلا، بـل سيصبح القرآن كتابا كاملا مكتملا. ولا تظنوا أنه ليس لمحمد شأن يذكر، كـلا، بل إنه سيحرز مكانة عظيمة هي الكوثر؛ فلفظ الكوثر إشارةٌ إلى كل ما حدث في حياته من وقائع، وإلى كل ما وُهب من علوم ومعارف وأخلاق فاضلة وفتوحات وانتصارات. هل كان بوسع بشر، يا ترى، أن يقدّم أي برهان على تفوُّق أخلاقه ﷺ في وقت كان هو ورفاقه هدفًا لصنوف الأذى والتعذيب؟ لو قال أحد عنـدها إن محمدا رحيم كريم، لقال العدو كيف تسميه رحيمًا كريمًا مع أنـه ضـعيف لا يملك حيلة، حتى جعلناه عرضة لأنواع التعذيب ولنا الغلبة عليه؟ فما كان خُلقه ﷺ هذا ليتجلى ما لم يصبح غالبًا على أعدائه ثم يرحمهم؟ لم يكن حول النبي ﷺ يومها

إلا أصحاب قلائل ضعفاء وبسطاء، فمتى كان بوسع أحد منهم أن يقول لرفاقه إذا اجتمعوا: إن جماعتنا الضعيفة القليلة العدد ستبلغ مئات الآلاف؟

فيا لها من معجزة عظمى! فقد أخبر الله تعالى- في ذلك الزمن المبكّر الذي لم يكن فيه ما يُثبِت تفوُّقَ أخلاق النبي ﷺ واكتمالَ كتابه- أنه سيأتي يوم يضطرّ فيه العدو للاعتراف بأن محمدًا والقرآن كليهما كوثر حقًا.

ماذا كان عند النبي ﷺ في أوائل بعثته يا ترى؟ لم يكن بحوزته ﷺ إلا شيء من وحي الله وشيء من وعوده ﷻ. ويمكنك تقدير مدى تأثُّر الناس بقول الله تعالى عندها: انظروا كيف نعامل محمدًا معاملة مذهلة؟ فمن ذا الذي كان سيصدّق ذلك؟ كلا، ما كان هذا الكلام مجديا إلا بأن يذكر الله تعالى معه بعض الأمثلة التي تدل على صدق وعده قائلا: انظروا كيف نصرْنا محمدًا في موطن كذا، وكيف عاملناه معاملة مميزة، سواء فيما يتعلق بالوحي النازل عليه أو فيما يتعلق بخُلقه العظيم. وكان ينبغي أن تكون هذه المعاملة الإلهية ذات شقّين: معاملته معه ﷺ مباشرة، ومعاملته معه ﷺ بواسطة العباد، أما بدون ذلك فما كانت أهمية هذه الدعوى لتنكشف على الناس. لقد وعده الله تعالى في بداية البعثة: إننا سنعطيك كل ما هو خير، ونعطيك بغير حساب. سنعطيك الكوثر في كل مجال، وستتجلى أخلاقك ومحاسنك مُبهِرةً للناس، وسنخصّك بكرمنا بلا نهاية، وسنعطيك كتابًا عديم المثال؛ ثم تحققت كل هذه الوعود في حياته ﷺ، حتى شهد العدو والصديق على ذلك. فما أعظمَها من معجزة!

عندما يبعث الله الأنبياء يَعِد كلاًّ منهم بالغلبة والانتصار. لقد جاء إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء -عليهم السلام- وأعلنوا جميعًا غلبتهم على أعدائهم، ومن سنة الله تعالى أنه يجعل أنبياءه غالبين على أعدائهم فعلاً. أما محمد ﷺ، فلم يعلن عن غلبته على كفار مكة وغيرهم من العرب فحسب، بل أعلن أنّ غلبتَه ستكون أفضل من غلبة إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام. لو قال النبي ﷺ إنني سأصبح غالبا لكان معناه أنه سينتصر على أعدائه كما انتصر موسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء، لكن الله تعالى قد قام هنا بدعوى أكبر من ذلك، وهو

أنه ﷻ لن يجعل محمدًا غالبًا على أعدائه فحسب، بل سيكتب له غلبة منقطعة النظير، وهي لن تسمى غلبة، بل تسمى كوثرًا، ولن يعطيه كتابًا فحسب، بل كتابًا لا تنتهي معارفه، ولن يهب له أخلاقا فحسب، بل أخلاقًا هي أسمى وأعظم من أخلاق سائر الأنبياء. ستكون معاملة الله تعالى معه أعظمَ ما تكون. وهي ميزة لم تتيسر لإبراهيم ولا موسى ولا عيسى ولا غيرهم من الأنبياء عليهم السلام؛ ذلك لأن نبينا ﷺ لم يدّع أنه نبي فقط، بل ادّعى أنه خاتم النبيين، وقد تم هذا الإعلان في سورة الكوثر حين لم يكن للنبي ﷺ شأن يذكر، إنما كان إنسانا بسيطا خامل الذكر، فأخبره الله تعالى آنذاك أننا لن نعاملك معاملة الأنبياء الآخرين، بل نعاملك كسيد الأنبياء. فما أعظمَه من إعلان وما أكبرَه من تحدٍّ! حيث يعلن الله تعالى أننا لن نجعله ﷺ غالبًا على أعدائه فحسب، بل نكتب له من الغلبة ما تتضاءل أمامه غلبةُ الأنبياء الآخرين. وبالفعل فقد أخذ كل مفهوم من مفاهيم الكوثر ينكشف للناس بمرور الأيام وتغيُّر الأوضاع، وبدأ الكتاب -الذي كان يبدو من قبل بضع سور مشتملة على قليل من المسائل العلمية والقضايا الأخلاقية- يحوي علوم الدنيا ومعارفها كلها، حتى إذا اكتمل صارت كتب الأنبياء الآخرين كلها ضئيلة القيمة إزاءه. فعندما اكتمل نزول القرآن الكريم؛ لم ينكشف للناس زيف عقائد أهل مكة ولم يتضاءل أمامه شعر شعراء العرب فحسب، بل تضاءل أمامه الزبور والتوراة والإنجيل والفيدا والزندافستا كلها، وعندما بلغ النبي ﷺ أواخر أيام حياته، فلم ينبهر بسموّ أخلاقه وعظمة روحانيته أبو جهل والعاص بن وائل فحسب، بل أكدت وقائع حياته أن الكوثر الذي أُعطيَه ﷺ لم يتيسر لموسى ولا لغيره من الأنبياء، وأن النصرة التي حالفته لم تحالف غيره من الرسل. إن إنجازَ النبي ﷺ مهمتَه قبيل وفاته لم يدل على أنه كان يحظى بنصرة الله وتأييده الغيبي مقابل أبي جهل والعاص وغيرهما من الأعداء فحسب، بل دل أيضا على أنه كان أكثر حظاً من موسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء فيما يتعلق بنصرة الله وتأييده.

لم يؤمن بالنبي ﷺ في البداية إلا قِلّة من الناس، ومع ذلك وعده الله بأنه سيبارك في جماعته، فلا يستطيع أحد مجاراته في هذا المجال. فتغيرت الأوضاع بمرور الأيام

وألقى الله في قلوب الناس حبًا شديدا له ﷺ، فاتسعت رقعة نفوذه من ناحية، ومن ناحية أخرى أثّرت تعاليمه في أهل البلد كلهم حتى رأى العالَمُ أن الله تعالى قد أعطاه -قبْل أن تأتيه المنيّة- أتباعًا أفضل من أتباع موسى وعيسى عليهما السلام، دَعْ عنك أتباع أبي جهل والعاص، حتى قال النبي ﷺ: لو كان موسى وعيسى حيّين ما وسعهما إلا اتّباعي (اليواقيت والجواهر ج٢ ص ٣٤٢).. أي لو كانا على قيد الحياة لم يكن لهما بدّ من أن يدخلا في أصحابي ويطيعاني. ما أعظمَ هذا الكوثرَ الذي أُعطيَه النبي ﷺ! لو نظرنا إلى حالته المبكرة وإلى معاملة الله معه في أوائل أيامه، وإلى تجلّي أخلاقه على مر الأيام، وقارنّا بين نهايته ومصيره، لامتلأت قلوبنا إيمانا.

والعلاقة المباشرة لسورة الكوثر بسورة الماعون تكمن في أن الله تعالى قد بيّن في سورة الماعون أن الذي يكذّب بالدين يصاب بأربعة عيوب، أوّلُها: البخل، كما قال الله تعالى ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾، وثانيها: ترك الصلاة، أي أن قلبه يخلو من حب الله، وثالثها: ضعف الإيمان.. كما قال الله تعالى ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ (الماعون:٥-٨).. مما يلوّثه بالشرك ويجعله غافلا عن الله تعالى، فلا يصلّي أولاً، وإذا صلّى، صلّى بلا خشوع ولا تركيز، ويعتبر الناسَ آلهةً؛ إذ يصلّي رياءً لهم كي لا يعاتبوه، بل ليعتبروه من كبار المصلين؛ وبتعبير آخر، إنه ينكر عبوديته لله من جهة، ويؤلّه الناس من جهة أخرى. ورابعها أنه لا يفعل حتى أبسط الخيرات، كما قال الله تعالى ﴿وَيَمْنَعُونَ الماعُونَ﴾.. أي أنه لا يُسدي إلى جيرانه أبسط معروف مع أنه لا يكلّفه عناء ومشقة. لقد أخبر الله تعالى من قبل أنه بخيل.. أي أنه لا ينفق على الآخرين من الأشياء الغالية، أما هنا فأخبر أنه لا يعطيهم حتى الرخيص البسيط الذي لا يكلفه عناء ولا خسارة، فمثلا لو استعار منه بعضهم مطرقةً أو منشارًا لبعض الوقت لم يعطه إياه، مع أنه لا يكلفه أي خسارة.

هذه هي العيوب الأربعة التي توجد في المنافقين وضعاف المسلمين، والتي ذُكرت في السورة السابقة. ومقابلَها قد ذكر الله تعالى في سورة الكوثر محاسن المؤمنين، فقال إن المؤمنين – الذين أفضلُهم محمد رسول الله ﷺ- يتحلون بأربعة خصال حميدة، أُولاها: الكوثر، أي أنهم يعطون بسخاء -علمًا أن الكوثر يعني الكثير، كما يعني الإعطاء بسخاء- فعندما أعطى الله نبيّه الكوثر، أعطى الناس أيضا الكوثرَ.. أي بسخاء. والميزة الثانية هي: ﴿فَصَلِّ﴾؛ لقد ذكر الله تعالى في سورة الماعون أن ضعاف المسلمين والمنافقين لا يصلّون بتركيز وخشوع، والآن بيّن أن المرء إذا بلغ مقام الكوثر واظب على الصلوات. والميزة الثالثة هي: ﴿لِرَبِّكَ﴾؛ لقد أخبر الله تعالى في السورة السابقة أن ضعاف الإيمان يصلّون رياءً للناس، فقال الآن مقابل ذلك: ﴿لِرَبِّكَ﴾.. أي أن المؤمن الكامل يصلّي لربّه لا من أجل الآخرين. والميزة الرابعة هي: ﴿وَانْحَرْ﴾؛ لقد أخبر تعالى في السورة السابقة أن ضعاف الإيمان هؤلاء يمنعون الماعون، أي لا يصنعون مع جيرانهم أدنى صنيع، أما الآن فقال مقابل ذلك: ﴿وَانْحَرْ﴾.. أي يا عبديَ المؤمن عليك أن تضحّي وتساعد أمتك بكل طريق.

إذن، فقد ذكر الله تعالى في السورة السابقة أربعة مساوئ لضعاف الإيمان والمنافقين، ثم ذكر مقابلها في سورة الكوثر أربعة محاسن للمؤمنين، مما جعل تناغمًا لطيفا بين موضوع السورتين.

لقد أُدخلتْ الفاء في قوله تعالى ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانْحَرْ﴾، وهنا أيضًا مماثلة بين هذه السورتين، حيث أُدخلت الفاء في قول الله تعالى ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ في سورة الماعون أيضا، وكما أن الفاء هناك تدل على نتيجة الأمور المذكورة من قبل، كذلك فإن الفاء في قوله تعالى ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ هي للنتيجة.. أي أن المرء إذا أُعطيَ الكوثر -أي كانت له صلة متينة بالله تعالى- ازداد دينًا وإيمانًا، تماما كما أن الذي يكذّب بالدين يُحرَم الحسناتِ باستمرار.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

الكوثر: الكثير من كل شيء؛ السيدُ الكثيرُ الخيرِ؛ الرجلُ الكثيرُ العطاءِ والخير؛ نهرٌ في الجنة. (الأقرب)

هذا المعنى الأخير الذي ذكره صاحب "أقرب الموارد" ليس ثابتًا من اللغة، و لم تستعمل العرب لفظ الكوثر بهذا المعنى قبل بعثة النبي ﷺ، بل الواقع أنه عندما استُعمل لفظ الكوثر في القرآن والحديث وفسّره المسلمون أنه نهر يُعطاه النبي ﷺ في الجنة، وراج هذا المعنى بين الناس، فأدخله اللغويون في المعاجم متأثرين بهذه العقيدة، وإلا فالكوثر لا يعني إلا المعاني الثلاثة الأُولى.

هذا المعنى الأخير للكوثر نشأ بتأثير ما ورد في بعض أحاديث الرسول ﷺ الواردة في البخاري ومسلم أيضا، حيث روي أن الرسول ﷺ قال وهو يصف حادث المعراج: "أَتَيْتُ عَلَى نَهَرٍ حَافَتَاهُ قِبَابُ اللُّؤْلُؤِ مُجَوَّفًا، فَقُلْتُ: مَا هَـذَا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا الْكَوْثَرُ." (البخاري، كتاب التفسير)

وقد ورد هذا الحديث في مسلم بلفظ آخر.

وأما ابن جرير التابعي والمفسر الشهير الذي يقع تفسيره "جامع البيان" في ثلاثين مجلدا فقد أخرج عن أنس رواية تقول: سئل النبي ﷺ عن الكوثر، فقال: "هُوَ نَهْرٌ أَعْطانيهِ اللهُ في الجَنَّةِ، تُرَابُهُ مِسْكٌ أَبْيَضُ مِنَ اللَّبَنِ، وأحْلَى مِنَ العَسَلِ، تَرِدُهُ طَيْرٌ أعنَاقُهَا مِثْلُ أعناقِ الجُزُرِ". قال أبو بكر: يا رسول الله، إنها لناعمة؟ قال: "آكِلُها أنْعَمُ مِنْها" .

وقد أخرج الإمام أحمد هذه الرواية في مسنده، غير أنه ذكر أن عمر رضي الله عنه هو الذي سأل هذا السؤال.

وهناك في البخاري✪ رواية عن عائشة –رضي الله عنها– أنها عندما سئلت عن الكوثر، قالت: نهرٌ أُعطيَه نبيّكم ﷺ في الجنة.

وفي رواية عن عائشة رضي الله عنها قالت: مَن أراد أن يسمع صوت الكوثر، فليضعْ أصابعه على أذنه، فيسمع صوت الكوثر. وهذه رواية أبي كريب، وهو محدث كبير. (جامع البيان)

يظن الناس أن معنى هذه الرواية أن الصوت الذي يسمعه المرء إذا وضع أصابعه في أذنه هو صوت نهر الكوثر. وهذا غير معقول البتة، لأن الصوت الذي يحدث في الأذن لا علاقة له بالخارج، أما صوت الكوثر فشيء خارجي، فثبت أن هذا المعنى يدل على جهل صاحبه، ولا يمكن أن ينسبه ذو عقل وفهم إلى عائشة رضي الله عنها.

وقد أزعجَ هذا المعنى شرّاحَ الحديث، فقالوا: إنما المراد أن الصوت الذي يحدث في الأذن يشبه صوت الكوثر. (ابن كثير)

وأرى أن ما روته عائشة –رضي الله عنها– صحيح تماما، ولكن الذين فسروه هكذا قد أكدوا جهلهم وغباءهم، لأن هذا المعنى غير مذكور عن عائشة –رضي الله عنها– ولا عن الشرّاح، بل الحق أن المعنى الذي ذكره الشرّاح باطل أيضًا. يجب أن نضع في الاعتبار أن عائشة –رضي الله عنها– لا تقول إنها سمعت هذا من الرسول ﷺ، كما لم تكن هي معه ﷺ عند المعراج حتى ترى الكوثر وتسمع خرير مائه؛ إذ لم تكن زوجة للنبي ﷺ وقتها. وما دام النبي ﷺ قد ذهب للمعراج وحده، وهو الذي رأى الكوثر وسمع صوته، فهو الذي يقدر على وصف صوت الكوثر. لو أن عائشة قالت إن النبي ﷺ هو الذي وصف لها صوت الكوثر لاتفقنا مع هذا المعنى، ولكنها لم تقُل ذلك.

✪ نص الرواية (في البخاري: كتاب التفسير): عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَ: سَأَلْتُهَا عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾، قَالَتْ: نَهَرٌ أُعْطِيَهُ نَبِيُّكُمْ ﷺ، شَاطِئَاهُ عَلَيْهِ دُرٌّ مُجَوَّفٌ، آنِيَتُهُ كَعَدَدِ النُّجُومِ. (المترجم)

ثم نقول: إذا كان الكوثر نهرًا، فلا يمكن أن يكون له صوت جديد غريب، بل لا بد أن يكون مشابهًا لأصوات الأنهار في هذا العالم، ولا حاجة لوضع الأصابع في الآذان لسماع صوته؛ فهذا غير معقول.

الحق أن المرء يتكلم في بعض الأحيان كلامًا مجازيًا، ولكن السامع يفسّره على غير ما أُريدَ به. أتذكّر أنني كنت ذات مرة راجعًا إلى البيت بعد أداء الصلاة في أيام الجلسة السنوية، فأعطاني شخص من وسط الزحام عنبًا، فلم أستطع معرفة الرجل. وكان العنب حلوًا جدا، فقلت في البيت: لقد أعطاني ملاكٌ هذا العنب، وكنت أعني أن الله تعالى هو الذي بعث لي هذا العنب عن طريق هذا الإنسان، ولكن بدأ الإخوة يروون فيما بينهم أن ملاكًا حقيقيا قد أعطاني العنب بالفعل، حتى أخذ بعضهم يطالبوني أن أبعث إليهم شيئًا من هذا العنب المبارك إذا بقي منه شيء، فقلت لهم: لقد أعطاني أحد الإخوة العنب، ولكن لم أستطع أن أعرفه لزحام الناس، فقلت إن ملاكا أعطانيه. والقضية نفسها هنا؛ لقد دفع البعضَ غباؤه أن يسأل عائشة -رضي الله عنها- عن صوت الكوثر، فأجابته بلغة الاستعارة: ضَعْ أصابعك في آذانك تسمع صوته؛ وكانت تقصد أنه إذا أغلق المرء آذانه عن مشاغل الدنيا وسمع صوت قلبه..أي صوت الفطرة السليمة.. صوت الإسلام، فقد سمع صوت الكوثر.. أي أصبح أهلاً للوصول إلى الكوثر. ولكن السامعين فهموا من هذه الرواية أن المرء إذا وضع أصابعه في آذانه ليسمع صوتا، فهو سيسمع صوت الكوثر.

إن معنى الكوثر -أي نهر في الجنة- ثابت عن الرسول ﷺ، فلا يمكن إنكار ذلك، فقد ورد في الروايات التي معظمها عن أنس بن مالك وبعضها عن عائشة. إنها أحاديث صحيحة، ولكن هذا لا يعني أن هذه السورة تتحدث عن نفس الكوثر الذي هو نهر في الجنة. لقد سئل النبي ﷺ ما هو الكوثر، فقال: لقد صعدتُ ليلة المعراج حتى رأيت نهرًا، فسألت جبريل ما هذا؟ فقال: هذا الكوثر، فكيف يُستنتج من جوابه ﷺ هذا أنه نفس الكوثر المذكور في سورة الكوثر؟ مع أن نزول سورة الكوثر قد سبق المعراجَ بزمن طويل. لا شك أنها سورة مكية، وحادث المعراج

أيضا وقع في مكة، ولكنها نزلت قبل المعراج بست سنوات أو سبع. لا جــرم أن تصوُّر شيء عند ذكر شيءٍ مشابهٍ له أمرٌ طبيعي، ولكن حصرُه في الشيء المشابه له يخالف العقل. كانت في جماعتنا معلّمة، وكانت سيدة مخلصة جدا، واختلّ عقلها، وذات يوم وقع زلزالٌ وهي جالسة في بيتنا على السرير مع جدتي وامرأتين أخريين، فاهتز السرير فقالت جدّتي المرحومة: هذا زلزال، فقالت المعلمة: اجلسي بهــدوء، فليس هناك زلزال إنما أُصبتُ بدوخة. فهذه المعلمة كانت تصاب بدوخة أحيانًــا، ولكن السرير إذا كان قد اهتزّ نتيجة الزلزال فعلاً، فهذا لا يعني أنه لم يهتز وإنمــا أصابت هذه المجنونةَ دوخةٌ. والأمر ذاته هنا، لقد رأى النبي ﷺ في المعــراج أن في الجنة نهرًا ترابُه مسك وماؤه أبيضُ من اللبن، وأحلى من العسل، واسمــه الكــوثر، فاستنتج منه الناس أن سورة الكوثر تتحدث عن ذلك النهر نفسه، مع أن الكــوثر المذكور في هذه السورة شيء، وكوثر الجنة شيء آخر، ولا يمكن حصر الكــوثر المذكور هنا في كوثر الجنة.

إذن، فحتى لو سلّمنا أن هذه السورة أيضا تتحدث عن الكوثر الذي يُعطاه النبي ﷺ في الجنة، فلا يمكن أيضًا حصر معنى الكوثر في نهر الجنة.. أي لا نقــول بــأن الكوثر يعني ذلك النهر في الجنة فقط، بل نقول بأن النهر الذي يُعطاه الرســول ﷺ في الجنة، إنما هو مثالٌ على الكوثر المذكور في هذه السورة.

لقد بيّن القرآن الكريم مبدأً فيما يتعلق بنعماء الجنة فقال الله تعــالى: ﴿كُلَّمَــا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَــالُوا هَــذَا الَّــذِي رُزِقْنَــا مِــنْ قَبْــلُ وَأُتُــوا بِــهِ مُتَشَابِهًا﴾(البقرة:٢٦)، وقال تعالى أيضا: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُــرَّةِ أَعْيُنٍ﴾(السجدة:١٨). فترى أن الله تعالى يعلن من جهة أن لا أحد يعلــم نعمــاء الجنة، ومن جهة أخرى يخبر أن المؤمنين سيقولون برؤية نعماء الجنة إنها تشبه مــا أوتينا في الدنيا؛ وهو قول يدل على الاحتقار الشديد في الظــاهر، فمــثلاً إذا زار صديق صديقه فقال له: سأطعمك ثمرة لم تذقها في حياتك، فلن يقول له صديقه - إذا كان من ذوي الأدب واللباقة- لقد أكلتُ ثمرة مثلها من قبل، وإنما يقول إنهــا ثمرة لذيذة رائعة. فالإنسان لا يقول لصديقه كلامًا غير لائق كهذا، فكيف يُتصور

أن يقول أهل الجنّة ذلك لله تعالى؟ يقول الله عن ثمار الآخرة إنكم لم تروها في الدنيا، فلو قال المؤمنون عند رؤيتها: لقد أكلناها من قبل لأصبح قولهم كذبًا، والكذب محال على أهل الجنة. وعليه فتفسير هذه الآية بالمفهوم الذي تفسَّر به عادةً مستحيلٌ. إن الله تعالى يعلن عن النعم التي يعطاها المؤمنون: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشابِهًا﴾.. مما يعني أن الله تعالى يعتبرها مشابهة لنعم الدنيا من جهة، ومن جهة أخرى يعُدّها مختلفة عنها تماما. فثبت أن الحديث هنا ليس عن النعماء أو الثمار المادية، بل الحق أن النعماء الروحانية التي استمتعوا بها في الدنيا ستتمثل لهم في الآخرة ثمارا وبساتين؛ فعندما يأكل المؤمن في الجنة العنب مثلاً فيقول إنه نفس العنب الذي أوتيته في الدنيا، بمعنى أن المتعة التي كنت أجدها في الصلاة أجدها في هذا العنب، وحينما يُعطَى الشمّام يقول: أجد فيه نفس المتعة التي كنت أجدها في الصوم في الدنيا؛ وهذا يعني أن العبادات التي قام بها في الدنيا تتمثل له في الآخرة على هذا النحو.

ونجد أمثلة على ذلك في الحديث أيضا. قال النبي ﷺ: رأيت مرة أني دخلتُ الجنة، فأتاني الملاك بعنقوديْ عنبٍ وأعطاني إحداهما قائلا: هذا لك، فسألته لمن الآخرُ؟ قال: لأبي جهل. ففزعت من قوله حتى تنبهت من نومي، وقلت: كيف يتساوى عند الله رسولُه وعدوُّه حتى يعطى عنقود من عنب الجنة لرسوله وعنقود آخر لعدوه؟ ثم قُتل أبو جهل في بدر، ثم لما فتحت مكة هرب منها ابنُه عكرمة غيظًا قائلا: لن أعيش في هذه البلدة الآن. فذهبت زوجته وراءه وقالت له: ما هذا الغباء! ارجعْ إلى الوطن، فإن محمدا كريم وقد أحسن معاملتنا بما لا يتأتى إلا مِن رسول مِن عند الله، وقد وعدني أن يعفو عنك إذا رجعت إلى مكة وألاّ يكرهك على اعتناق دينه. فلم يصدّق عكرمةُ أن محمدًا ﷺ -الذي يكنّ له عداءً شديدًا حتى إنه لم يرض بالإقامة في مكة أيضًا- سيعفو عنه بل لن يُكرِهه على تغيير دينه أيضًا، غير أنه رجع مع زوجته إلى النبي ﷺ، وقال له: أصحيح ما تقوله زوجتي بأنك ستعفو عني مع بقائي على ديني لو عشتُ في مكة؟ قال ﷺ: نعم. وكان هذا خلافًا لما يتوقعه عكرمة؛ إذ كان يرى أن من المستحيل أن يعفو محمد عن عدو

لدود مثله، إذ لم يألُ جهدًا في معارضته وإيذائه وتعذيب المؤمنين به وإراقة دمائهم، حتى إنه لم يرضَ بالبقاء في مكة بعد فتحها، وكان أبوه أيضًا قد صبّ على النبي ﷺ فظائع لا نظير لها، فلما سمع قول النبي ﷺ لم يملك نفسه إلا أن قال: إذا كان الأمر هكذا فها إني أعلن أنك رسول الله، لأن هذا التصرف محال إلا من نبي. فقال النبي ﷺ: هذا تأويل رؤياي من قبل، وقد علمتُ الآن أن عنقود العنب الذي أُرسلَ لأبي جهل إنما يعني إيمان ابنه عكرمة. (السيرة الحلبية: فتح مكة)

فانظر كيف أن النبي ﷺ يرى في المنام عنقود عنب الجنة لأبي جهل، ويكون تأويله إيمان ابنه عكرمة ﵁.

وكذلك رأى النبي ﷺ مرةً أنه قد أُعطيَ إناء لبن، فشرب منه حتى ارتوى، ثم رأى عمر ﵁ فأعطاه ما بقي فشربه، ثم أوّلَ النبيُّ ﷺ اللبنَ أنه العلم، مما يعني أن شرْب اللبن في المنام تأويله علم الدين. (البخاري، كتاب التعبير)

هذه الأمثلة تكشف لنا حقيقة نعماء الجنة، حيث يقول الله تعالى من جهة ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾، ومن جهة أخرى يقول ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾، فالآية الأُولى تبدو متناقضة مع الآية الثانية. ثم ورد في الحديث عن وصف نعماء الجنة، بأن الله قد أعدّ لعباده الصالحين فيها "ما لا عينٌ رأت، ولا أُذنٌ سمعت، ولا خطر على قلبِ بَشرٍ" (البخاري، كتاب التفسير)، وما دامت خفيةً عن الناس لهذه الدرجة فكيف يقال ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾؟ فثبت من هنا أن ما قلتُه هو الصحيح، أي أنهم لا يُعطَوْن في الجنة نعَمًا تشبه نِعَم الدنيا، بل المراد أن النعم الروحانية التي كانوا يستمتعون بها في الدينا هي التي ستتمثل لهم في الآخرة فواكهَ شتى، تمامًا كما رأى النبي ﷺ الإيمانَ على صورة عنقود عنب في الرؤيا، والعلمَ الروحاني على صورة اللبن، فإذا أكل الإنسان العنب الروحاني هنالك ازداد إيمانا، وإذا شرب اللبن الروحاني فلن يسبّب له الغازات في الأمعاء، بل سيزيده روحانيةً ومعرفة بالدين. ولقد بيَّنَ سيدنا المسيح الموعود ؑ هذا الموضوع في كتابه "فلسفة تعاليم الإسلام" بيانا لطيفا رائعا، فجزاه الله أحسن الجزاء.

باختصار، لقد بيَّنَ القرآن الكريم هنا أن نعم الآخرة كلها تكون تمثلاً للنعماء الروحانية التي نتمتع بها في الدنيا. وقد كشف الله تعالى لنا هذه الحقيقة أيضًا في قوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾(الرحمن:٤٧)؛ جنة في الدنيا وجنة في الآخرة. لقد كشفت هذه الآية أن الإنسان لن ينال أي نعمة في الآخرة إلا إذا كان قد استمتع بمثلها في الدنيا.

وقال الله تعالى أيضًا: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَـذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى﴾(الإسراء:٧٣). ولا يمكن أن يراد هنا أعمى العيون المادية، فهذا ظلم عظيم، إذ كيف يجوز أن يولد أحد كفيفًا أو يصاب بالعمى نتيجة مرض، ثم يُبعَث أعمى في الآخرة أيضا؟ هذا المعنى باطل تمامًا، إنما المراد هنا المصاب بالعمى الروحاني، حيث بيَّنَ الله تعالى أن الذي يظل أعمى روحانيا في هذه الدنيا سيُبعث في الآخرة أيضا أعمى، ولن يحظى بقرب الله تعالى.

لقد ثبت من هذه الآية أيضا أن كل نعمة سينالها المرء في الآخرة، لا بد أن يكون قد نالها في الدنيا أيضا. ولما كانت نعماء الجنة تمثلاً للنعماء الروحانية في الدنيا، فلا بد أن يكون النهر الذي يملكه الرسول ﷺ أيضًا في الآخرة تمثلاً لنعمة روحانية قد نالها في الدنيا. إذا كان إيمان المرء في الدنيا يتمثل له في الآخرة عنبًا، وعلمه الروحاني في الدنيا يتمثل له في الجنة لبنًا، كذلك لا بد من التسليم أن يكون الرسول ﷺ قد أُعطي في هذه الدنيا نعمة يُعطاها في الآخرة على شكل نهر.

باختصار، إذا فسّرنا الكوثر بأنه نهر في الجنة، فلا بد أيضا من القول أن يكون الرسول ﷺ قد نال نعمة عظيمة في الدنيا تتمثل له في الآخرة نهرًا. ولا يجوز حصر معنى الكوثر في نهر، وهذا ما تؤكده آراء الصحابة. فقد ورد في البخاري -وهو أصحّ الكتب بعد كتاب الله- عن ابن عباس أنه قال في الكوثر: هو الخير الذي أعطاه الله إياه (البخاري، كتاب التفسير). فابن عباس رضي الله عنه أيضا يؤكد المعنى الذي ذكرته آنفا، أي لا بد أن يكون الرسول ﷺ قد أُعطي في الدنيا ما يُعطاه في الآخرة على صورة نهر.

وكذلك ورد في البخاري أن أبا بِشْر قال لسعيد بن جبير -وهو أحد كبار التابعين وعلماء الحديث- إن الناس يزعمون أنه نهر في الجنة! فقال سعيد: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه (البخاري، كتاب التفسير).. أي أنا لا أقول بأن النهر الذي يُعطاه النبي ﷺ في الجنة ليس كوثرًا وُعد به، بل أقول إن الكوثر أنواعٌ، وأحدها ذلك النهر في الجنة.

هذه الرواية أيضا تدعم تفسيري وتبين أنه يمكن تفسير الكوثر بأنه نهر في الجنة، ولكن لا يجوز حصر الكوثر في نهر في الجنة، فإنما ذلك النهر جزء من الكوثر يتمثل في الآخرة.

وورد في البخاري عن ابن عباس قال: الكوثر: الخير الكثير. وقال أبو الفداء ابن كثير: وهذا التفسير يعمّ النهرَ وغيره؛ لأن الكوثر من الكثرة، وهو الخير الكثير، ومن ذلك النهرُ، كما قال ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد ومحارب بن دِثَار والحسن بن أبي الحسن البصري. حتى قال مجاهد: هو الخير الكثير في الدنيا والآخرة. وقال عكرمة: هو النبوة والقرآن، وثواب الآخرة. (ابن كثير)

مما يعني أن للكوثر مفاهيم كثيرة، وحصرها في النهر غير جائز. وقد أكد موقفي هذا الصحابةُ والتابعون أيضا، أو قُلْ: إن تفسيري هذا يتفق مع تفسيرهم الذي سبقوني فيه، وإن كان أسلوب استنتاجهم غير أسلوبي، وأدلتهم غير أدلتي، و لم أرفض أدلتهم، لكني أضفت لها أدلة أخرى كثيرة.

وعن عطاء بن السائب، قال: قال لي محارب بن دثار: ما قال سعيد بن جُبير في الكوثر؟ قال: قال ابن عباس: هو الخير الكثير. فقال: صدق والله. (جامع البيان)

ولكن روي عن ابن عمر أنه نهرٌ في الجنة. وهذا لا يتنافى مع المعنى السابق -أي الخير الكثير- بل هو مندرج فيه كما بينتُ من قبل، ومثاله قولك: عند فلان مال كثير، وعنده ساعة أيضا، فقولك عنده ساعة أيضا، لا ينفي كونه ذا مال كثير، بل يعني أن الساعة من ضمن ماله الكثير. فالنهر الذي يعطاه النبي ﷺ في الجنة خاصةً هو ضمن مفاهيم الكوثر التي بينتُها.. أي هو أيضا كوثر. وشتان بين أن تقول: هذا هو الكوثر، وبين أن تقول: هذا أيضا كوثر. فلو قلنا مثلاً: هذا الدينار لزيد،

فلا يعني ذلك أنه هو الدينار الوحيد في العالم، ولا يوجد فيه دينار آخر، كذلك قد وُهب النبي ﷺ أنواعا كثيرة من الكوثر إضافةً إلى النهر الذي يُعطاه بحسب هذه النبوءة.

باختصار، لا داعي لتضييق المعاني الواسعة لهذه الآية القرآنية وخاصة وأن هذا المعنى -أي الخير الكثير- لا يتنافى مع مفهوم هذه الرواية، إذ إنها تذكر معنى النهر على سبيل المثال لا الحصر.

وهنا لا بد من الرد على سؤال هام وهو: إذا كان للكوثر مفاهيم أخرى غير النهر في الجنة، فلماذا لم يذكرها النبي ﷺ؟

والجواب: لم يثبت من النبي ﷺ أنه قد بيَّنَ كل تفسير القرآن ومفاهيمه، وإنما قال: أنزل القرآن على سبعة أحرف (أي أوجه) (البخاري، كتاب فضائل القرآن)، ولكل وجه سبعة مفاهيم، مما يعني أن لكل آية ٤٩ مفهوما على الأقل، ولما كان النبي ﷺ قد ذكر أحد مفاهيم الكوثر -وهو نهر في الجنة- فأين بقية مفاهيمه الـ٤٨ يا ترى؟ لقد روي عن النبي ﷺ معنى واحد للكوثر، فلا يزال عندنا مجال لبيان ٤٨ مفهوما باقيًا. ولو اكتفينا بوجه واحد لهذه الآية فأين الستة المفاهيم الباقية لهذا الوجه؟ هذا يعني أنه لا يزال عندنا فرصة بيان ستة مفاهيم أخرى للكوثر.

أما السؤال: لماذا بيّن الرسول ﷺ مفهوما واحدا فقط؟ فالجواب: أن معاني القرآن الكريم تنكشف بالتدبر والاستنباط. لقد أخبر الله تعالى أنه إذا أشكل على الناس معنى آيةٍ، فلا يتوصل إلى المعنى الصحيح لها إلا الراسخون في العلم (آل عمران، الآية ٨)، فثبت من هنا أن معاني القرآن الكريم تنكشف بالتدبر وإمعان النظر. كان هناك مفهوم لآية الكوثر ما كان لينكشف على الناس بالتدبر، وهو معنى نهر في الجنة، إذ كان من المستحيل أن يبينه إلا مَن رأى الجنة أو تلقّى الوحيَ بهذا الشأن، فبيّن النبي ﷺ هذا المعنى الخفي، أما المعاني الأخرى للكوثر فانكشافها بالتدبر كان ممكنًا، فما كانت هناك حاجة لذكرها خاصة. من الواضح أنه ما من أحد سوى النبي ﷺ ذهب إلى الجنة -في المعراج- ورأى النهر الذي قيل له ﷺ أنه

أُعطيَه هناك، فما كان لأحد سواه ﷺ أن يبين ذلك المعنى للكوثر الذي هو ذو علاقة بذلك النهر.

والآن أسوق أدلتي على أنه لا يمكن حصر الكوثر في نهر في الجنة.

أولاً: هو ما ذكرتُه مرارا بأن القاعدة في ألفاظ القرآن الكريم أن يؤخذ بكل المعاني المختلفة للّفظ الوارد في آية، إلا ما أبطله الله تعالى في الآية نفسها أو في آيات أخرى. فلو كان معنى الكوثر الذي ذكره ابن عباس والعالم الكبير سعيد بن جبير والوليُّ الحسنُ البصري والمحدّثان الكبيران مجاهد ومحارب وعكرمة خاطئًا، لأبطله الله في هذه الآية أو في آية أخرى، وما دام الأمر ليس كذلك، فثبت أن الله تعالى لم يُرد حصر الكوثر في نهر في الجنة.

ثانيًا: أن الله تعالى يقول هنا ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾، وقد أمر الله نبيه ﷺ بهذه الأمور الثلاثة نتيجةً لإعطائه الكوثر، لأن الفاء هنا للتعقيب والنتيجة، وهو كقولنا مثلاً: تزوّجَ فرُزِقَ ابنًا.. أي أن ولادة الابن عنده كانت نتيجة الزواج، أو هو كقولنا: ذهبتُ إلى بيته فسألتُه، فسؤالك إياه نتيجة لذهابك إلى بيته؛ كذلك فقوله تعالى ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾ هو نتيجة لقوله تعالى ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾، إذًا المعنى: لقد أعطيناك الكوثر فعليك الآن أن تصلّي وتقدِّم الأضحية ولسوف يصبح عدوك هو الأبتر. أما القول بأن المراد هو: أننا أعطيناك نهرًا في الجنة، لذلك ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾، فهو قول لا ينسجم مع السياق، لأنه يماثل القول: فلان تزوج فوقع زلزال في المدينة، إذ سيقول الجميع: ما علاقة الزلزال بالزواج؟ فالصلاة والتضحية وكون العدو أبتر، لا يمكن أن يكون نتيجة لإعطاء الله نبيَّه نهرًا في الجنة. لو كان الأمر هكذا لكانت هناك رواية تقول مثلاً: لقد صلّى النبي ﷺ ركعتي نفلٍ في يوم كذا، أو نَحَر جملاً، أو مات أبناء عدو له فصار أبتر، بسبب أن الله تعالى قد أعطاه ﷺ نهرًا في الجنة. كلا، لا توجد رواية كهذه أبدًا. إن تفسير هاتين الآيتين بأننا أعطيناك خيرا كثيرا، فلذلك صلِّ وانحر، فهو أمرٌ يمكننا أن نثبته من عمل الرسول ﷺ. أما الذي يقول بأن معنى الكوثر هنا؛ نهر في الجنة، فلا بد له أن يثبت أن النبي ﷺ صلىّ

ركعتي نفلٍ في يوم كذا شكرًا على ذلك النهر في الجنة، أو نَحَر جملاً، أو مات أبناء عدو له فصار أبتر، وإذا لم يثبت ذلك فهذا يعني أن الرسول ﷺ قد خالف أمر الله تعالى -والعياذ بالله- إذ أمره الله أن يصلي وينحر شكرًا على تلك المنّة، ولكنه لم يأتمر بأمره ﷻ. هذا يتنافى مع عظمة الرسول ﷺ. ثم يجب أن تكون هناك رواية تقول بأن الرسول ﷺ قال إن الله تعالى قد أعطاني نهرًا في الجنة، وسيكون نتيجة ذلك أن أبناء فلان من الأعداء سيموتون، فيصبح أبترَ، أما أنا فيعطيني الله ابنًا يعيش؛ ولكن ليس هنالك أي رواية كهذه أيضا.

باختصار، لو فسرنا الكوثر بمعنى النهر في الجنة فقط، فلا يبقى هناك انسجام بين هذا المعنى والأمور المذكورة في الآية.

ولو قيل أن الله تعالى أمَره ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ شكرًا على ما خوله من نهر في الجنة، فالسؤال: هل كان هذا النهر نعمة عظيمة حتى يأمره الله تعالى بالشكر عليه؟ كلا، بل إن نعمة القرآن الكريم ونعمة لقاء الله أعظمُ من نهر، فكيف يعقل أن لا يأمر الله تعالى نبيه ﷺ بالصلاة والنحر شكرًا عليهما، بينما يأمره بشكره على نهر؟ يجب أن نرى ما هو المقدَّم والأفضل عند الله تعالى. نقرأ في الروايات أنه لما حانت وفاة الرسول ﷺ كان رأسه مستندا إلى حجر عائشة -رضي الله عنها- حيث كانت تسنده لكي يتنفس بسهولة (البخاري، كتاب المرضى). وتقول عائشة رضي الله عنها أنها كانت تظن من قبل أن الآثمين هم الذين يلفظون أنفاسهم بعناء شديد، ولكني حينما رأيت معاناة الرسول ﷺ عند النزع لمتُ نفسي كثيرًا وأدركت أن لا علاقة بين المعاناة عند الموت وبين الإيمان (البخاري، كتاب المغازي)، وتخبر عائشة أن النبي ﷺ تُوفّي وهو يردّد: إلى الرفيق الأعلى، إلى الرفيق الأعلى.. أي أني ذاهب إلى الله رفيقي الأعلى. إنه ﷺ لم يقل في تلك الساعة: إني ذاهب إلى الكوثر، مما يعني أنه لم يتمنّ عند الوفاة إلا لقاء الله تعالى، ومع ذلك لم يأمره الله تعالى بالصلاة والنحر شكرًا على نعمة لقائه، بينما أمره بذلك على إعطائه نهرا في الجنة كما يزعمون! هل كان هناك خطر أن يُسلب هذا النهر منه حتى يأمره الله تعالى بالصلاة والدعاء وتقديم التضحيات؟ أم هل كان النهر في الجنة

أعظم من النعم الروحانية التي أُعطِيَها النبي ﷺ حتى يأمره الله تعالى بالصلاة وتقديم الأضحية شكرًا عليها؟

لقد أعطى الله نبيَّنا ﷺ نعمًا عظيمة كالقرآن وختم النبوة وسيادة الأنبياء كلهم التي لا يساوي أمامها نهر في الجنة شيئًا، ومع ذلك يظن المفسرون أن الله تعالى أمره بصلاة النوافل شكرًا على هذا النهر! مع أن نوافل الشكر إنما تؤدى على النعم العظيمة لا الصغيرة. كل هذا يؤكد أن الآية لا تعني أن يصلي النبي ﷺ ويضحّي شكرًا على نهر في الجنة، بل أمره الله تعالى بهذا ليتفادى العقبات التي سيواجهها نتيجة حصوله على الكوثر. الواقع أن النبي ﷺ ما كان ليواجه العقبات إلا في طريق حصوله على الكوثر المقدّر له في هذه الدنيا، إذ كان بإمكان البشر أو الشيطان أن يسعى لمنعه من الحصول عليه. أما الكوثر الذي هو في الآخرة فلا يمكن للشيطان ولا للبشر أن يعيق طريقه في حصوله عليه. فلأن هذا الكوثر كان مقدرا له ﷺ في هذه الدنيا، فقال الله تعالى له: سوف نخوّلك نعمًا عظمى، ومن حاز نعمًا عظمى عاداه الناس وحسدوه لتُنزَع منه. وبالفعل نرى في الدنيا أنه إذا تقلَّد أحدٌ منصبًا مرموقًا، حسده الناس وماتوا كمدًا منه، ومن أجل ذلك قال الله تعالى لنبيه: سنعطيك نعمًا عظيمة لم يُعطَها أحد منذ آدم، ولن يعطاها أحد إلى يوم القيامة، وسوف يحسدك الناس عليها وسيضعون في طريقك عراقيل كبرى، ولكننا سندلّك على ما تبدّد به هذه العقبات لتخرج ناجحًا في نهاية المطاف، ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾.

وكذلك لا علاقة لقوله تعالى ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾ بنهر في الجنة، بل هو ذو صلة بكوثر ناله النبي ﷺ في هذه الدنيا؛ إذ لو كان هذا الكوثر أُخرويًا فلن يُعرف أن عدوَّه أبتر إلا في الآخرة؛ إذ كيف يقتنع العدو بقولنا: لأن محمدا ﷺ سيعطى الكوثر في الآخرة، لذلك سوف يتبين هنالك أن عدوه هو الأبتر. إن قوله تعالى ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ يدل صراحة أن العدو سيكون أبترَ في هذه الدنيا، وبالتالي لا بد أن ينال النبي ﷺ الكوثر في هذه الدنيا نفسها؛ إذ كيف يمكن أن يحسد أبو جهل النبيَّ ﷺ لشيء لم يتيسر له في الدنيا؟ فلو قال النبي ﷺ لأبي جهل: سوف

أجد نهرًا في الجنة، لَرَدَّ عليه: إني لا أؤمن بالجنة، فلماذا أحسدك على الكوثر هناك؟ الحق أن الحسد إنما يكون في الدنيا على النعم التي ينالها المرء هنا؛ وهذا هو المراد هنا؛ إذ يعلن الله تعالى لرسوله بأننا سنعطيك ما يجعل العدو يحترق حسدا وكمدا، غير أننا نخبرك أن علاج حسد العدو هو الآتي: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾، فإذا فعلت ذلك حُميتَ من حسده، ولم تزل تتقدم باستمرار تحت رحمتنا وفضلنا.

الواقع أن من المحال للبشر أن يقدّروا الخير الكثير الذي أُعطيه النبي ﷺ؛ ذلك أن الله تعالى يسمي هذا الخير الكثير كوثرًا، بمعنى أنه أكثرُ من الكثير جدا؛ فأنى للإنسان أن يقدره؟ الحق أن تفسير الكوثر محال بيانًا وكتابةً، إنما الله تعالى وحده الذي يستطيع بيانه، بيد أننا نستطيع أن نضرب بعض الأمثلة تقريبًا لمفهوم الكوثر إلى الأذهان، وهذا ما سنحاوله لاحقًا.

التفسير: لقد بدأ الله تعالى هذه السورة بقوله ﴿إِنّا﴾، و(إنّ) حرف توكيد، أما (نا) فضمير متكلم للجمع، والسؤال هنا: لماذا استخدم الله تعالى هنا أولاً (إنّ)، ثم لماذا استخدم ضمير الجمع للمتكلم مع أنه واحد لا شريك له، فقال: ﴿إِنّا﴾ بدل (إني). ما الحكمة في ذلك؟

والجواب أن النعمة التي وعد الله رسولَه بها لنعمةٌ عظيمة، وبرؤية حالة النبي ﷺ في أوائل دعوته كان الناس يستبعدون أن ينال تلك النعمة العظمى، فاستخدم الله تعالى أولاً حرف "إنّ" تأكيدًا على تحقُّق هذا الوعد. كان النبي ﷺ في بداية الدعوة خامل الذكر ضئيل الشأن، ولم يؤمن به عندها إلا عشرة أو اثنا عشر شخصًا، فقال الله تعالى له: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾، وكان الجميع يقولون في استغراب: ما هذا الذي يدَّعي به؟ وكيف يحققه؟ فلذلك أكَّد الله هذا الوعد باستخدام أداة التوكيد (إنّ) أولاً، كما استخدم فعل الماضي ﴿أعْطَيْناكَ﴾ تأكيدًا ثانيًا، لأن الماضي مكان المضارع يفيد التأكيد؛ فكأنه تعالى يقول: لقد أعطيناك ما وعدناك به. وهذا الأسلوب موجود عندنا أيضا، فعندما يذهب أحد إلى قريبه ويخطب ابنته لابنه يقول له هذا حينًا: حسنًا، سنزوِّجها ابنَك، وحينًا يجيبه: قد زوّجناها ابنك، مع

أن الزواج يتم فيما بعد. إنه يستخدم صيغة الماضي إعلامًا منه أن هذا الزواج قد صار أمرًا يقينيا قطعيا. وإضافةً إلى هذين التوكيدين: أعني استعمال حرف (إنّ) وفعْل الماضي في قوله تعالى ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ﴾ نجد أن هذا الوعد الرباني يزداد تأكيدًا على تأكيد حين نرى أن الذي قطع هذا الوعد هو الله ﷻ؛ إذ هو قادر يقينًا على تحقيق ما يعد، فلا مجال للقول أن الوعد كان قطعيًا ولكنه لم يتحقق لبعض العوائق.

أما السؤال: لماذا استعمل الله تعالى هنا ضمير الجمع للمتكلم مع أنه واحد لا شريك له؟ فجوابه أن الله تعالى قد استخدم صيغة الجمع للإشارة إلى أن وعده هذا متعدد الجوانب والمفاهيم، وإلى أنه سينصر رسوله ﷺ بنفسه وبملائكته وبقوانينه الطبيعية، ذلك أن من أساليب القرآن أن الله تعالى يستخدم صيغة الجمع إذا وعد رسولَه وعدًا يشترك معه في تحقيقه ملائكته ونواميسه الطبيعية للدلالة على سعة الوعد وتنوُّعه، وكأنه يقول: لقد أمرت ملائكتي ونواميسي لتحقيق هذا الوعد، فنحن جميعا سنحققه.

ولو قيل هنا: هل قدرة الملائكة وقدرة نواميس الطبيعة منفصلة عن قدرة الله تعالى حتى يستخدم صيغة الجمع للدلالة على أنهم كلهم سيعملون على تحقيق هذا الوعد؟ فملائكة الله ونواميسه لا تضيف إلى قدرته تعالى شيئا، إنما تستمدّ قوّتها منه تعالى. فلماذا استُعملت صيغة الجمع؟

الجواب الأول: لا شك أن ملائكة الله وقوانينه الطبيعية لا تضيف إلى قدرة الله تعالى شيئا، فهو الذي خلقها، وهي تابعة له ولا تعمل أي شيء مباشرة، بل تعمل بإذنه؛ فإذا كان من النواميس الطبيعية أن الماء يُغرق ويُطفئ النار، فالله تعالى هو الذي جعل الماء يُغرق ويُطفئ، ولا يزيد الماء في قدرة الله شيئا؛ وهو الذي جعل النار تحرق أو تُنضج الطعام، ولا تزيد النار في قدرته تعالى شيئا. غير أن الناس أنواع، ورسالةُ القرآن موجّهة إلى الجميع، فمنهم مَن يؤمن بالله تعالى ولكن لا يؤمن بالملائكة، ومنهم مَن يؤمن بالله وبالملائكة أيضا، ولكن لا يؤمن بأن محمدا رسولُ الله أو أنه مؤيد من ملائكة الله، ومنهم من لا يؤمن بالله ولا ملائكته، ولكنه يسلّم بالقوانين الطبيعية. فلأن الله تعالى يريد أن يؤكد مضمون هذه الآية بشكل

خاص، فاتّبع هنا أسلوبًا يطمئنّ به كل هؤلاء الناس ذوي الميول المختلفة؛ فأما الذين يؤمنون بالله تعالى وبأن الافتراء عليه إثم عظيم، ولا يفتري عليه مَن عنده صلاح وحياء، فقد نبّههم الله تعالى هنا بأنكم ترون أن محمدًا يقوم بهذه الدعوى مستشهدًا بالله تعالى؛ أما الذين هُمْ أكثرُ تمسكًا بالأدلّة الأخلاقية بدلاً من الله تعالى، فضَمَّ مِن أجل اطمئنانهم الملائكةَ مع اسمه تعالى، فنبّههم أن صوت ضميرهم الذي تحرّكه الملائكة يؤيد دعوى محمد ﷺ، أما الذين ينكرون الله تعالى والملائكة فضمَّ مِن أجل اطمئنانهم النواميسَ الطبيعية، ليبين أنها هي الأخرى تؤكد أن محمدًا سينال بركات كثيرة. إذن، فتأكيدًا على تحقُّق وعده هذا قد ذكَر الله تعالى هؤلاء الشهود الثلاثة معًا، ولذلك استعمل صيغة الجمع ﴿إِنَّا﴾ بدل "إني".

وهنا ينشأ سؤال آخر وهو: إذا كان هذا الوعد سيتحقق مستقبلاً، فما هو الأمر الجديد الذي تولّدَ بذكر هؤلاء الشهود الثلاثة والذي يُقنِع المنكرَ -ولو إلى حد ما- بأن هذا الوعد سيتحقق حتمًا؟

الجواب: هو أنني قد قلت آنفًا بأن الإنسان الصالح غير المخادع، والعاقل غير المجنون، والقانع غير الطامع، والمنطقي الذي لا يؤمن بعقيدة غير منطقية؛ هذا الإنسان إذا أعلن دعواه في كامل عقله ووعيه بأن الله تعالى هو الذي قد أمَره بهذا، فقوله هذا يكفي دليلا عظيما على صدق دعواه لمن كان يؤمن بالله تعالى؛ فإن أبا بكر وخديجة وعليًّا وزيدًا -رضوان الله عليهم أجمعين- قد آمنوا بالرسول ﷺ بمجرد سماع دعواه دون أن يطالبوه بأي دليل. بل كان هناك آخرون أيضًا ممن انتفعوا بهذا الدليل وحده، فمثلاً؛ جاء إلى النبيّ ﷺ في المدينة أعرابي من أصحاب الطبائع السليمة بعد سماع دعواه وقال له ﷺ: هل تستطيع أن تُقسِم بالله تعالى بأنه هو الذي بعثك؟ فقال ﷺ: نعمْ، أُقسِمُ بالله العظيم أنه هو الذي بعثني، فما لبث الأعرابي أن آمنَ. إذن، فإذا كان هناك شخص بهذه الخصال المذكورة أعلاه، وادعى بأنه من عند الله تعالى، أو قال بأن الله قد وعدني بكذا، فهذا الدليل وحده يكفي المؤمنَ بالدين لمعرفة صدقه؛ لأن فطرته السليمة ترفض أن يقوم شخص موصوف بهذه الخصال بدعوى كاذبة أو خاطئة. وكما قلت من قبل كان هذا الدليل متوفرا للنبي ﷺ.

غير أن هناك أُناسًا لا يكونون بدرجة أصحاب الفطرة السليمة، فهم يريـــدون المزيد من الأدلة الروحانية، ويوفّر الله تعالى هذا الدليلَ الروحاني بإلقاءِ حُبّ مبعوثه في قلوب الكثير من أهل الصلاح من الطراز الأول في زمنه، فيؤمنون به، أو يؤمن به برؤية بعض الآيات والشواهد آخرون لا يكونون معروفين بالصلاح من قبل، إلا أنهم يتغيرون بعد الإيمان به رأسًا على عقب كأنهم ملائكة يمشون على الأرض، فلا يجد ذوو العقل السليم مناصًا من الاعتراف أن تحوُّل هؤلاء إلى ملائكةٍ يمشون على الأرض دليلٌ ساطع على أن هذا المدعي مؤيد بتأييد الملائكة التي تتـــرك تأثيراتهـــا الملائكية على هؤلاء. وهذا الدليل أيضًا كان متوفرًا للنبي ﷺ. فقد كان أبو بكـــر رضي الله عنه ملاكًا عند أهل مكة قبل إيمانه بالرسول ﷺ (السيرة النبوية لابن هشام: إسلام أبي بكر الصديق رضي الله عنه)، غير أن الكثير من الآخرين الذين كانوا قد بلغوا المنتهى في سوء الأعمال والفساد والظلم، قد تغيّروا تمامًا لما أيقنوا بصدق النبي ﷺ، وصـــاروا بين عشيّةٍ وضحاها عابدين زاهدين متقين متواضعين حليمي الطبع رحماء كرمـــاء أوفياء صادقين محسنين إلى خلق الله. ولا شك أن هذا كان دليلا على صدق الـــنبي ﷺ وعلى أن معه ملائكة الله التي تلقي عليهم تأثيراتها الطيبة وتحوّلهم ملائكةً يمشون على الأرض.

والدليل الثالث الذي ذكره الله تعالى هنا أن نواميس الطبيعة أيضا ستؤيد محمدًا ﷺ، وقد ظهر هذا الدليل أيما ظهور. فتعاليم النبي ﷺ تتفق مع نواميس الطبيعـــة، وتتضمن حقائق أزلية لا مناص للفطرة السليمة من تصديقها. إنها تعاليم منـــــزهة عن الأوهام والخرافات، قد امتزج فيها المنطق الخالص مـــع الروحانيـــة الخالـــصة امتزاجا بحيث إنها تدخل شغاف قلب المرء إذا نزع عصابة التعصب عن عينيه. وقد رأى أهل مكة أمثلةً عديدة على ذلك؛ ومنها ما حصل مع عمر رضي الله عنه، فقد خـــرج بنيّة قتل النبي ﷺ، ولكن سيف صدق النبي ﷺ قتله، حيث حضر إليـــه ﷺ نادمًـــا باكيًا على تقصيراته وذنوبه (السيرة النبوية لابن هشام: إسلام عمر بـــن الخطـــاب رضي الله عنه).

إذن، فمع أن هذا الوعد كان سيراه الناس في المستقبل، إلا أنه كانت أمام أهل مكة لدى نزول هذه السورة براهين تدل على أن الله تعالى يؤيد النبي ﷺ، وأن ملائكته تنصره، وأن نواميس الطبيعة تدعمه، ولذلك استخدم الله تعالى هنا صيغ الجمع للمتكلم ليقول: إني وملائكتي ونواميس الطبيعة كلنا سوف نعطيه كوثرًا؛ فإذا كنتم لا تستطيعون سماع صوتي، أفلا تسمعون صوت الملائكة أيضا؟ وإذا كنتم لا تستطيعون سماع صوت الملائكة، أفلا ترون أن أديان العالم كلها تعتقد عقائد خرافية لا يقبلها العقل وتعمل أعمالاً تتنافى مع الفطرة، أما عقائد هذا المدعي فليس فيها ما هو خرافي غير منطقي، وليس في أحكامه ما يتنافى مع الفطرة؛ فلماذا لا تدركون من هنا أن ديار أعدائه ستخرب، وأن معابدهم ستنهار، وأنهم سيخرّون عند قدميه طوعًا أو كرها في نهاية المطاف، وأن العاقبة له. اعلموا أني وملائكتي والنواميس الطبيعية كلنا سنعطيه كوثرا.. أي ازدهارا ورفعة وعظمة لم ولن يعطها أحد من العالمين.

والجواب الثاني هو أن من عادة الملوك الكلام بضمير الجمع، فاتّبع القرآن الكريم هذا الأسلوب الملَكي، فحيثما أراد التركيز على ملكوت الله تعالى استخدم له صيغة الجمع. والملِكُ يتكلم بصيغة الجمع إعلامًا منه أنه ليس وحيدا، بل معه أعوانه وأتباعه الذين يقولون ما يقوله وسينفذون أمره، وقد تكلم الله تعالى في القرآن الكريم بصيغة الجمع بهذا المعنى أحيانا.

ثم إن الكُتّاب أيضًا يستخدمون صيغة الجمع أحيانًا، ويعنون بذلك أنهم ليسوا وحدهم الذين يحملون هذا الرأي، بل هناك آخرون يوافقونهم الرأي.

إذن، فهذا تعبير شائع في العالم. والعقل يعتبر الجماعةَ أقوى من الفرد، ولذلك قد استخدم الله تعالى صيغة الجمع دائمًا حيثما أراد التركيز على قدرته وقوته، ليبين للناس أنه واحد بلا شك، ولكنه أشدُّ قوةً من الجماعات. وإن الله تعالى قد وعد رسوله ﷺ هنا وعدًا عظيما، ولذلك قال هنا إننا نعلن بصفتنا "مالِك المُلْك" بأن جميع القوى سوف تعمل على إنجاز هذا الوعد وسوف يتحقق يقينا.

وأبيّن الآن المفاهيم التي تدل عليها كلمة الكوثر.

بحسب ما تقدم من شرح، فإن كلمة الكوثر تشير إلى كل الأمور التي لها علاقة بنبوة الرسول ﷺ، حيث أعلن الله تعالى أنه قد أعطاه الكوثر من كمالات النبوة كلها أو من كل ما هو وثيق الصلة بها. لو فسِّر الكوثر بمعنى أنه ﷺ قد فاق الآخرين في كمال واحد لما كان هذا نعمةً تُذكر، وليس في ذلك أية خصوصية للنبي ﷺ، لأن تفوُّق البعض على البعض في كمال معيَّن أمرٌ عادي، ولا يمكن أن يُسمى كوثرًا، فكل نبي يفضَّل على غيره في بعض المجالات. وعلى سبيل المثال، إذا كان في القرية خمسون أو ستون شخصًا، فلا بد أن يكون كل واحد منهم يفضَّل على غيره في مجال معين؛ فإذا كان عشرة منهم يملكون الأراضي، فأحدهم يملك أراضي أكثرَ من غيره، وهكذا فهو أفضل من هؤلاء في هذا المجال المعين، أما البنّاء منهم فيفضَّل على جميع أصحاب الأراضي، إذ لا يعرفون فن البناء، أما النجّار فيفضَّل على البنّاء والمزارعين؛ إذ يجهلون النجارة، أما الحدّاد فيفضل على هؤلاء جميعًا، إذ لا خبرة لهم بالحدادة، أما السقّاء فيفضل على غيره لخبرته في السقاية، والحال نفسه بالنسبة إلى الغسّال والعطّار وغيرهما. فكل إنسان يفضَّل على غيره بشكل أو بآخر، ويتميز بميزة لا توجد في غيره، فهذا سمين وذلك رشيق، وهذا طويل وذلك قصير، وهذا عالم وذلك جاهل. إن تفوُّق أحد على غيره في مجال معين نعمة ربانية بلا شك، ولكنها لا تجعله أفضل من الجميع. ولما كانت هذه الآية قد جاءت لتؤكّد فضل الرسول ﷺ على الأنبياء كافةً من دون حصر تفضيله في مجال معين، فلا بد من القول بأن الله تعالى قد أعلن هنا أنه قد أعطاه الكوثر في جميع كمالات النبوة، فلا يباريه نبيّ في أي منها. اللهم صلِّ على محمد وآل محمد وبارك، إنك حميد مجيد.

لقد ذكرتُ من قبل أن من معاني الكوثر: الخير الكثير، ولفظ "الخير" اسمُ تفضيل، أي أنه يدل على التفوّق على الآخرين؛ مما يعني أن هذه الآية لا تتحدث عن الأمور المادية، إذ ليس هنالك تاريخ محفوظ يُعرف به من هو الأفضل من غيره في الأمور المادية، بل إن تاريخ النِّعم الروحانية والسماوية هو المحفوظ فقط. وهذه

الآية تعقد المقارنة بين النبي ﷺ وغيره من الأنبياء، فلا بد أن يكون الحديث فيها عن الأمور التي يمكن المقارنة فيها، وليست هذه الأمور إلا أمور النبوة والدين.

ومن معاني الخير: وجدانُ الشيء بجميع كمالاته اللائقة (الأقرب)، أي وجود هذا الشيء في أحدٍ مع جميع كمالاته الضرورية التي بسببها أُطلقَ هذا الاسم عليه؛ فمثلاً لو قلتَ: وجدتُ الشمّام الخير، فهذا يعني أنه يوجد فيه كل ما هو ضروري وجودُه في الشمّام؛ وإذا قيل: أن النبي وجد النبوةَ الخيرَ، فمعناه أن كل الكمالات التي هي ضرورية للنبوة توجد فيه ﷺ في أروع شكل.

كذلك قد ورد في القاموس عن تعريف الخير: "وقيل: حصولُ الشيء بما مِن شأنه أن يكون حاصلاً له".. أي أن الخير عند أئمة اللغة هو: وجود الشيء في أحد مع كل ميزاته الذاتية. إذن، فلفظ الخير يشير إلى عظمة الشيء وكذلك إلى سعته؛ فإذا قيل: أنه ﷺ أعطيَ خيرَ نبوةٍ، فمعناه أنه مُتَحَلٍّ بجميع الكمالات الضرورية للنبوة وبأروع صورة، وأنه منزّه عن جميع النقائص التي تتنافى مع النبوة. ولأن لفظ الكوثر يشتمل على معنيين: الخير، والكثير منه، فيكون المراد أن النبي ﷺ قد نال النبوة بجميع كمالاتها، كما حاز كل كمال منها بأروع صورة؛ وبتعبير آخر: إن النبوة التي حازها النبي ﷺ هي الأفضلُ كَمًّا وكَيفًا.. أي أنّ كمالات النبوة التي قد حازها النبي ﷺ هي أفضل درجةً وأكثر عددًا من كمالات الأنبياء الآخرين.

والحق أن التدبر يكشف لنا أن لفظ "الكوثر" يشير إلى ختم النبوة في الحقيقة. إن المرء ليستغرب حقًا حين يرى أن الصحابة كانوا يؤمنون بأن النبي ﷺ هو النبي الكامل والموعود الأخير، مع أن لفظ خاتم النبيين لم يرِدْ في حقه إلا في سورة الأحزاب التي لم تنزل إلا في السنة السادسة بعد الهجرة؛ فكيف علِم الصحابة سلفًا ما كشفه الله عليهم في أواخر فترة البعثة يا ترى؟ وكيف علِم النبي ﷺ أيضا بذلك سلفا؟ ولكن لا تبقى أية غرابة بعد قراءة هذه السورة، فإنها قد نزلت في السنة الرابعة أو الخامسة من البعثة، وهي تعلن ختم النبوة على النبي ﷺ.. بمعنى أنه قد حاز كمالات النبوة بأكمل شكل وأكبر قدر، والبديهي أن مَن نال مثل هذه النبوة فلا بد أن يكون خاتم النبيين وأفضلَهم، ولذلك نجد أنه لما نزلت سورة

الأحزاب التي أُعطيَ فيها النبي ﷺ لقب خاتم النبيين، لم تقعْ أيةُ ضجة بين الصحابة، ذلك أن هذا اللقب لم يكن بشيء جديد عندهم. لو كان أمرًا جديدا لثارت بينهم ضجّة، ولكن التاريخ يخبر أنه لم يحدث ذلك قط، مما يعني أن النبي ﷺ وصحابته كانوا يعتبرونه خاتم النبيين سلفًا. فالحق أنه عندما نزلت سورة الكوثر أدرك الصحابة أنه ﷺ خاتم النبيين وأفضلهم.

ومن معاني الكوثر: الرجلُ الكثيرُ العطاء والخير، وعليه فإن الله تعالى قد وعد نبيّه ﷺ في قوله تعالى ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ﴾ أنه سيهب له رجلا كثير العطاء والخير. وليس معنى ذلك إلا أنه سيولد بين أتباعه مَن يكون كثير العطاء والخير.

وأتناول الآن هذه المعاني المختلفة واحدًا بعد الآخر بالتفصيل:

المعنى الأول: إحراز النبي ﷺ كمالات النبوة بأفضل وجه وأكبر قدر. وهذا الموضوع واسع سعةً لا نهاية لها، ولا أحد يحيط به علمًا وبيانًا إلا الله ﷻ. ولكن أولاً وقبل كل شيء يجب أن نرى نوعية دعوى النبي ﷺ، إذ لا بد لمعرفة محاسن المرء مِن معرفة نوعية دعواه؛ فمثلا لو جاءنا أحد وقال أنا أفضل المعلّمين، فعلينا أن نرى أتتوافر فيه شروط المعلم ومزاياه أم لا؟ فإذا حاز تلك الميزات أفضلَ من غيره اعترفْنا بأنه أفضل المعلّمين. ولكن إذا ادعى أحد أنه أفضل المعلّمين، ولما سئل عن المزايا التي يتحلى بها، قال: إني أُكثر من أكل البيض أو من الرياضة واللعب مثلاً، فلا بد أن يضحك عليه الجميع ويعتبروه جاهلا أحمق. أما إذا ادعى أحد أنه أقوى مصارع، ولو سئل عن عمله وميزته قال: أنا أكثر أكلاً للطعام وحملاً للأثقال وأكثرَ رياضةً وأبرعَ في الألعاب البهلوانية، فسوف نصدقه، أما لو قلنا له: أتعرف فلسفة "كانط" مثلا، لردَّ علينا: ما لي ولِكانط، وما للمصارعة والفلسفة؟ فإني لم أدَّعِ أنني فيلسوف، بل ادعيت أني مصارع كبير. كذلك فإن النبي ﷺ حين ادعى أنه أفضل من الجميع، فيجب أن نرى نوعية دعواه، ونرى مَن الذين تشبه دعواهم دعواه حتى تسهل علينا المقارنة بينه وبين غيره، ونعرف ما إذا كان صادقًا فيما ادعى أم لا.

والتدبر يكشف لنا أنّ دعوى النبي ﷺ مذكورة في قوله تعالى ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولا﴾(المزمل:١٦). فأنبياء السلسلة الموسوية هم أشهرُ أنبياء العالم -لا شك أننا، نحن المسلمين الأحمديين، نؤمن بنبوة كرشنا ورام تشندر عليهما السلام، وذلك على عكس اعتقاد عامة المسلمين، إلا أن تاريخهما ليس محفوظا، فلا نعرف شرائعهما مفصلة، فهناك كتاب واحد يُنسب إلى كرشنا عليه السلام واسمه "گيتا"، ولكنه يتحدث عن الحروب والأحداث التاريخية عادةً دون أن يذكر دعواه مفصلة- وكان موسى عليه السلام سيد الأنبياء في السلسلة الإسرائيلية الذين تاريخهم محفوظ إلى حد ما، وقد أخبر الله تعالى هنا أنه قد بعث رسوله ﷺ مثيلاً لموسى عليه السلام.. أي أن النبي ﷺ مِن نفس جنس الأنبياء الذي كان منه موسى. والآن لو تبيّن أن الرسول ﷺ كان أكثرَ حظًّا من الكمالات التي أُعطيَها موسى، لثبت أن نبينا ﷺ قد أُعطيَ الكوثر، لأن الله تعالى لم يقل أن موسى ومحمدا ﷺ متساويان درجةً وكمالا، بل قال الله تعالى ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾.. أي أن ما أُعطيَه النبيُّ ﷺ لم يُعطَه غيره، وبتعبير آخر: لقد أُعطي ﷺ كمالاتِ موسى بل أكثر من ذلك.

والآن هلمّ نرَ الأحداث الهامة والظروف البارزة في حياة موسى عليه السلام لنقارنها مع أحداث النبي ﷺ، ليتبين لنا كيف أعطاه الله الكوثر. وعند تفحّص أحوال موسى عليه السلام يتبين لنا ما يلي:

أولاً: لا شك أن موسى عليه السلام قد بُعث لنشر كلام الله تعالى وتعليم الناس علوما روحانية. والبديهي أن العلوم المادية تساعد كثيرا على التعليم؛ لأن المثقّف أقدرُ على تعليم الآخرين مِن غيره. كان موسى عليه السلام يعرف القراءة والكتابة عند بعثته، مما يعني أنه كان متسلِّحًا بهذا السلاح المادي عندما فُوِّضت إليه مهمة النبوة، فكان أهلاً لأداءِ مهمّته على أحسن وجه. ولكن النبي ﷺ لم يكن يعرف القراءة والكتابة عندما عُهدت إليه مهمة النبوة، ومع ذلك كان أكثر نجاحًا من موسى عليه السلام. وهذا فضل كبير للنبي ﷺ على موسى عليه السلام.

ثانيا: لقد بُعث موسى عليه السلام إلى أمة متمدنة، إذ كانت الأمة المصرية عند بعثته بينهم من أرقى أمم العالم، وكان بنو إسرائيل أيضا مثقفين ومتمدنين مثل المصريين بحكم عيشهم بينهم، والبديهي أن تعليم الدين وإقامة النظام وخلق الشعور الجماعي بين أُمةٍ متعلمة متمدنة أسهلُ كثيرًا. أما الرسول ﷺ فقد بُعث في أمة غير متمدنة وجاهلة بالعلوم المادية. لما نشبت الحرب بين المسلمين والفرس في زمن عمر رضي الله عنه قال كسرى لحاشيته مرة: إنكم لا تحسنون معاملة العرب على ما يبدو، ولذلك قد ثاروا علينا، فائتوني بهم لأعطيهم بعض المال ليعودوا إلى ديارهم فرحين. فبعث كسرى إلى قائد جيش المسلمين أن يوفد إليه وفدًا من عنده، فلما حضر الوفد قال لهم كسرى: أنتم أمّة متخلفة، تأكلون الميتة والضبّ، فما لكم وللمُلك؟ إني معطيكم مالاً، فاستمتِعوا به واجلسوا في بيوتكم بهدوء، وقد قررت أن أعطي كل قائد منكم دينارين وكل جندي دينارا،* فماذا ترون؟ فلما انتهى من كلامه قام الصحابي الذي ترأس الوفد ورد على كسرى قائلا: أيها الملك، إن ما تقوله صحيح، فقد كنّا أمّة متخلفة، نأكل الميتة والضبّ، ونسيء معاملة يتامانا ونتزوج أمهاتنا (أي زوجات آبائنا)، ولكن الله تعالى بعث فينا رسولاً فآمنّا به، فتخلَّصْنا من هذه العيوب و لم نعُدْ كما كنا من قبل، أما المال؛ فاعلم أننا لن نخضع لهذه المغريات. لقد نشبت الحرب بيننا، وسيحسم هذا الأمر الآن في ساحة القتال لا بإغرائنا بالمال، فإما أن نقتلك في الحرب أو نُستشهد. فدعا كسرى أحد الخدم وأمره بإحضار كيس من التراب، فلما جاء به أمر هذا الصحابيَّ أن يتقدم إليه، ثم أمر بوضع كيس التراب على عنق الصحابي. لم يستطع الصحابي الرفض، فانحنى بأدب وحمَل الكيس، فقال كسرى: ارجعوا بهذا التراب، فهذا هو جزاؤكم عندي. فخرج الصحابي راكضًا من البلاط وصائحًا بأصحابه قائلا: هلم نرجع، فقد سلّم

* نص ما ورد في "البداية والنهاية" هو: "قد أمرتُ لكم بكسوة، ولأميركم بألف دينار وكسوة ومركوب." (المترجم)

لنا كسرى أرضَ بلاده بيده. كان الملِك مشركًا، والمشرك كثير التوهّم، فلما سمع كلام الصحابي ارتجف وقال لحاشيته: أسرِعوا وارجعوا بهم حالاً، ولكن المسلمين كانوا قد خرجوا بعيدًا على متون خيولهم بسرعة، فلم يُدركوهم (البداية والنهاية: غزوة القادسية).

فالأمة أو البلد الذي عمِل فيه موسى عليه السلام كان أكثرَ تمدنًا كما تؤكد ذلك الآثارُ في مصر، فالبنايات التي بناها المصريون في ذلك العصر ضخمة وعظيمة جدًا بحيث تبدو بنايات اليوم أمامها ضئيلة جدًا. أما العلم فكان متطورا في مصر بحيث حَفِظ أهلُها جثث موتاهم بالتحنيط. لقد رأيتُ هذه المومياوات بأم عيني، وإذا رأيتَ إحداها خُيِّل لك أنها لا تزال حية، ولو أزلت عنها أكفانها ظننت أنك ترى إنسانا نائما إلا أنه أصبح نحيفا. ما زال الأوروبيون يحاولون حتى اليوم حفظ جثث الموتى مثل المصريين ولكن لم ينجحوا في ذلك بعد. لقد أخذوا عينات من مادة هذه المومياوات وقاموا بتحليلها وصنعوا مادة استطاعوا بها حفظ الموتى إلى حدٍّ ما، ولكنها لا تبقى محفوظة أكثر من ١٠ أو ١٢ سنة. أما مومياوات المصريين فهي محفوظة منذ آلاف السنين؛ وربما أكثر من ٣٤٠٠ سنة. يمكنك أن تقدر تطوُّر العلم عند المصريين القدماء بحيث إن الناس اليوم لا يستطيعون مباراتهم في هذا المجال! ثم كان علم الصناعات الذهبية متطورًا عند المصريين، وهذا دليل بيِّن على تقدمهم المدهش. ومن هنا يمكنك تقدير مدى تمدُّن الأمة الإسرائيلية ورقيها إذ كانت تعيش بين المصريين.

باختصار، لقد قام موسى عليه السلام بمهمة النبوة بين قوم متمدنين مثقفين بالعلوم المادية، أما محمد ﷺ فعمل بين قوم كانوا يسيئون إلى أمهاتهم، بل كان بعضهم يتزوجونهن (روح المعاني: سورة النساء)، بالإضافة إلى وقوعهم في عيوب كثيرة أخرى، ومع ذلك كان ﷺ أكثر نجاحا من موسى عليه السلام.

ثالثًا: عندما اختار اللهُ تعالى موسى عليه السلام نبيًا قال: رب، إنها مهمة صعبة لا أستطيع القيام بها وحدي، فاجعلْ لي وزيرا يساعدني. وليس هذا فقط، بل طلب أن يكون هذا الوزير من أهله وأقاربه. انظرْ إلى الشعور الذي انتابه عند ذلك! لقد

عهد الله إليه مهمة النبوة، ولكنه رفضها. نحن نسلِّم أنه عليه السلام رفضها تواضعًا، ولكن يجب أن يكون للتواضع حد. لقد قال الله تعالى له مرة بعد مرة: ﴿اذْهَبْ إلى فِرْعَوْنَ﴾، ولكنه ظل يرفض كما يتبين من التوراة، ثم يصرّ على أن يكون له مساعد، ثم يلحّ أن يكون هذا المساعد من عائلته؛ مما يدل على أنه عليه السلام كان يريد أسبابا مادية لإنجاز مهمته التي أمره الله بها. أما نبيّنا ﷺ فمع أنه كان قد بُعث في زمن بعيد جدا عن عصر النبوة -علمًا أن موسى بُعث في فترة قريبة جدا من بعثة إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام، أما رسولنا ﷺ فقد بُعث بعد إبراهيم وإسماعيل بنحو ٢٥٠٠ سنة، ولم يُبعث في قومه أيّ نبيٍّ في هذه الفترة- إلا أنه ﷺ كان أكثرَ معرفةً من موسى عليه السلام، وعندما جاءه الملاك وقال له: اقرأْ، قال: ما أنا بقارئ، أي لا أعرف القراءة والكتابة -علمًا أن قول جبريل له (اقرأْ) لا يعني أنه أمره أن يقرأ كتابًا وضَعه أمامه، إذ لم يأته بأي كتاب، ومعلوم أنه إذا جاءك أحد من دون كتاب ثم قال لك اقرأْ، فإنما يعني أن تردد وراءه ما يقرأ- فلما قال له الملاك: أيها الرجل رَدِّدْ ورائي ما أقول -لقد ناداه هكذا لأنه ﷺ لم يكن قد بُعث نبيًّا بعدُ- قال: ما أنا بقارئ، أي لا أعرف القراءة والكتابة. انظرْ إلى ذروة تواضعه ﷺ، فكان يرى أن مهمة عظيمة ستُعهد إليه، واللهُ عظيم وهو عبد ضعيف، فلعله لن يستطيع أداءها على ما يرام، ومن أجل ذلك قال: ما أنا بقارئ، أي لا أعرف القراءة والكتابة، فكيف أُنجزها؟ فقال له الملاك ثانية: اقرأْ، فردّ عليه النبي ﷺ: ما أنا بقارئ. فقال له الملاك للمرة الثالثة: اقرأْ، فأخذ النبي ﷺ يردّد وراءه. هذا هو عين التواضع، إذ لم يصرّ على إنكاره، بل أدرك أن الله تعالى مفوّض إليه هذه المهمة في كل حال، فانصاع لأمر الله تعالى مدركًا أن الرفض الآن سوءُ أدب. ثم إنه ﷺ لم يطلب وزيرًا ولا مساعدا، بل رضي بحمل العبء وحده ما دامت هذه هي مشيئة الله. هذا هو ما يدل على فضل النبي ﷺ على غيره. لقد عُهدت إلى موسى عليه السلام مهمة أدنى ومع ذلك طالب بوزير مساعد، أما النبي ﷺ فعُهدت إليه مهمة عظمى، فانبرى لإنجازها وحده، ثم أنجزها على أحسن وجه. فما أعظمَ فضلَ النبي ﷺ على موسى عليه السلام في هذا المجال!

رابعا: لقد أُعطيَ موسى عليه السلام كتابًا كما أعطيَ نبيُّنا ﷺ كتابا، ولكن الفرق أن كتاب موسى لم يبق محفوظًا رغم مجيء الأنبياء بعده تَتْرَى ، أما النبي ﷺ فكتابه لا يزال محفوظا حتى اليوم رغم انقضاء ١٣ قرنا، ورغم أنه لم يُبعث في هذه الفترة أي نبي. فمن الحقائق الثابتة أن التوراة كانت قد صارت محرفة قبل بعثة عيسى عليه السلام، فقد ورد في المصادر اليهودية أن نُسَخ التوراة كلها كانت قد احترقت أو ضاعت عندما دمَّر "نبوخذ نصّر" مُدن اليهود ومعابدهم وقام بترحيل بعضهم إلى أفغانستان وإيران وبعضهم إلى كشمير. فقام النبي عزرا بجمع التوراة بمساعدة بعض الحفاظ وأربعة أو خمسة من الكَتَبة. (Apocrypha(ii) Esdrass 14 pg. 44-46)

مما يعني أن التوراة امحت بعد موسى عليه السلام بستة قرون فقط.

إضافةً إلى ذلك، هناك شهادات داخلية في التوراة تدل على أنها تعرّضت للعبث والتحريف، فقد ورد فيها: "فَمَاتَ هُنَاكَ مُوسَى عَبْدُ الرَّبِّ فِي أَرْضِ مُوآبَ حَسَبَ قَوْلِ الرَّبِّ" (التثنية ٣٤: ٥). فهل يعقل أن يكون هذا الكلام من الوحي الذي نزل على موسى عليه السلام؟

ثم ورد فيها: "وَلَمْ يَقُمْ بَعْدُ نَبِيٌّ فِي إِسْرَائِيلَ مِثْلُ مُوسَى الَّذِي عَرَفَهُ الرَّبُّ وَجْهًا لِوَجْهٍ" (التثنية ٣٤: ١٠). هل يمكن أن يكون هذا مما أوحيَ إلى موسى عليه السلام؟

ثم ورد فيها: "وَدَفَنَهُ فِي الْجِوَاءِ.... فِي أَرْضِ مُوآبَ.... وَلَمْ يَعْرِفْ إِنْسَانٌ قَبْرَهُ إِلَى هذَا الْيَوْمِ" (التثنية ٣٤: ٦). وهذه الجملة أيضا قد أضافها البعض إلى التوراة فيما بعد.

لقد تبين من هنا أن التوراة الحالية ليست ذلك الكتاب الذي نزل على موسى عليه السلام. لو كان مكتوبا في القرآن الكريم مثلاً: "ثم مات محمد رسول الله"، فهل يصدِّق النصارى والهندوس وغيرهم أن القرآن كتاب محفوظ؟ كلا، بل سيسخرون منا ويضحكون علينا بسبب هذه الجملة ويقولون: لقد أصبح كتابكم محرفًا مبدلا. أما التوراة فمكتوب فيها أن موسى مات بعد ذلك، وأن بني إسرائيل ظلوا يبكونه أربعين يوما، وأنه لم يولد إنسان مثل موسى في بني إسرائيل حتى اليوم، وأن قبره

غير معروف. كل هذا يدل أن هذا الكتاب ليس ذلك الوحي الذي نزل على موسى ، وأن الأنبياء الذين بُعثوا بعده لم يستطيعوا الحفاظ على التوراة. أما الكتاب الذي نزل على محمد ﷺ فلا يزال محفوظا منذ ١٣٠٠ سنة، لم يتغير منه حتى حركة واحدة، مع أنه لم يُبعث في هذه الفترة أي نبي بعده ﷺ، حتى إن ألدَّ أعداء الإسلام -مثل وليام موير ونولدكه وغيرهما- لم يجدوا بدًّا من الاعتراف بأن القرآن الكريم لا يزال محفوظا كما كان في زمن محمد ﷺ. فيقول وليام موير الذي لا يترك فرصة لمعاداة الإسلام:

"There is otherwise every security internal and external that we posses that text Mohammad himself gave forth and used."

(Life of Mohammad by Sir William Muir. P28)

أي أن لدينا كل ضمان داخلي وخارجي على أن الكتاب الذي بين أيدينا هو بنصِّه الذي قدّمه محمد للناس واستعمله.

إذن، فإن أشدّ الناس عداوة للإسلام أيضا لم يجدوا مناصا من الاعتراف بكون القرآن الكريم محفوظًا. فما أعظمَه مَن فضلٍ خُصَّ به النبي ﷺ!

قد يقال هنا: أنتم أيضا تؤمنون أن حضرة الميرزا -عليه الصلاة والسلام- نبي، فكيف تقولون أنه لم يُبعث بعد محمد ﷺ نبيٌّ لحفظ القرآن وحمايته؟

والجواب: أن حضرته لم يُبعث للحفظ الظاهري للقرآن الكريم، فسواء بُعث أم لم يُبعث فإن الله تعالى كان قد هيّأ الأسباب لحفظ القرآن الكريم ظاهرًا، وكان من المستحيل بعده أن يحدث فيه أي تحريف، فبعثة المسيح الموعود لا تشكّك في هذه المعجزة القرآنية، إذ لم يكن له دخلٌ في الحفظ الظاهري للقرآن، إذ كان سيظل محفوظا ظاهرا إلى يوم القيامة وإن لم يأتِ أي مجدد، ولن يتغير أبدا كما لم يتغير حتى اليوم.

خامسًا: لما خرج موسى من مصر مع قومه وطارده فرعون خاف قومه خوفا شديدا وظنوا أنه سيبطش بهم، فصرخوا وقالوا لموسى كما ورد في القرآن الكريم: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾(الشعراء:٦٢-٦٣)..

أي سوف ينقذنا ربي من عدونا. وبالفعل حماه الله وأغرق فرعون وجنوده. ونبينا ﷺ أيضًا كان قد خرج مهاجرا من مكة واختفى في غار ثور، فتتبّعَ آثارَه دليلٌ خبير جاء مع الكافرين حتى وصل إلى فم الغار الذي كان النبي ﷺ مختبئا فيه مع أبي بكر، فقال: إن محمدا مختبئ فيه أو قد صعد في السماء. وكان الأعداء قد اقتربوا منهما حتى خاف أبو بكر وقال يا رسول الله، لو نظر هؤلاء في الغار لرأونا، فهدّأ النبي ﷺ مِن رَوعه وقال: ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾(التوبة:٤٠)، ومع أن العدو كان قد وصل إلى فم الغار، إلا أنه رجع خائبا خاسرا ولم يستطع القبض عليه ﷺ (الروض الأنف: الرسول ﷺ وأبوبكر ؓ في الغار، والمواهب اللدنية: باب هجرة المصطفى ﷺ وأصحابه إلى المدينة).

هذا يعني أنه كما قال موسى ؑ: إن معي ربي، وسينصرنا على العدو، كذلك قال النبي ﷺ: إن الله معنا وسوف ينصرنا. ولكن التدبر يكشف لنا أن أعداء موسى ؑ قد هلكوا بطريقة لا يزال العدو يقلّل من شأن هذه المعجزة حتى اليوم، فيقولون: لقد مر موسى وقومه بالبحر وقت الجَزْر، بينما أدرك المدُّ فرعونَ وجنودَه فغرقوا، فما المعجزة في ذلك؟ أما الرسول ﷺ فإن الله تعالى قد نجّاه من عدوه الذي وصل إلى الغار متتبعًا آثاره، ومع ذلك لم يستطع أن يراه؛ فمع أن دليلهم الخبير قد أصرَّ عليهم أن محمدا مختفٍ في الغار أو صعد إلى السماء، إلا أن الله تعالى جعلهم لا يصدّقونه، فلم ينظروا في الغار، فرجعوا خائبين.

ثم إن الكافرين قد جعلوا مكافأة مائة من الإبل لمن يأتي بمحمد ﷺ أسيرًا (السيرة النبوية لابن هشام: هجرة الرسول ﷺ)، فخرج الناس بحثًا عنه طمعًا في المال ولتحسين وضعهم المادي، إذ كانت مائة من الإبل مكافأةً مغرية جدًا آنذاك بل اليوم أيضا؛ فإن الحكومات عندنا تجعل جائزة ١٠ أو ١٢ ألف روبية لمن يقبض على بعض كبار المجرمين، أما ثمن مائة من الإبل بسعر اليوم فيبلغ ٦٠ أو ٧٠ ألف روبية على الأقل. باختصار، خرج الكثير طمعًا في هذه الجائزة المغرية، لكن واحدا منهم فقط اتّبع الطريق الذي سار عليه النبي ﷺ إلى المدينة، فرأى النبيَّ ﷺ وظنّ أنه سيتمكن من القبض عليه، فلما اقترب منه أُصيب حصانه بكبوة وغاص في الرمال

إلى الرُكب، ضرب القرعة بالسهام على عادة العرب ليعرف ما إذا كان عليه أن يتقدم أم لا، فخرج السهم بالنفي، ولكنه لم يقوَ على مقاومة المكافأة المغرية: مائة من الإبل، فاستحثّ حصانه ثانية، ولما اقترب من النبي ﷺ كبا حصانه ثانية وغاص في الرمال إلى بطنه، فاستولى عليه الخوف وأدرك أن الأمر ليس كما ظنّ، فأتى النبيَّ ﷺ في غاية الأدب وقال: لقد خرجتُ مطاردًا إياك، ولكني سأرجع الآن، لأني قد أيقنت أنك نبي الله حقًا وسوف تصبح غالبا في نهاية المطاف، فأرجوك أن تكتب لي الأمان على رقعة، حتى إذا كتب الله لك الغلبة عاملتَني معاملة طيبة. فأمر النبي ﷺ أبا بكر◈ أن يكتب له بالأمان وبأن يعامله المسلمون بالحسنى عند غلبتهم، ففعل. (البخاري، كتاب المناقب)

وهذا يعني أن النبي ﷺ لم ينجُ من الموت مرةً مثل موسى عليه السلام، بل نجا مرتين. لقد حاول الأعداء القبض عليه مرتين، ففشلوا.

ثم إن فرعون كان قد رأى موسى عليه السلام لما خرج مع جنوده على أثره، أما أعداء النبي ﷺ فلم يستطيعوا رؤيته رغم وصولهم قريبًا منه.

ثم إن العدو لما أراد القبض على النبي ﷺ في المرة الثانية فشل، بل اعترف بغلبته.

ثم إن عدو موسى عليه السلام قد آمن بالله تعالى وقت الغرق، حيث ورد في القرآن الكريم أن فرعون لما أوشك على الغرق قال آمنت برب موسى وهارون، فردّ الله عليه: إنك تؤمن وأنت مشرف على الموت، والآن لن ننجيك، بل ننجي بدنك فقط لتكون عبرة للآخرين. أما النبي فإن عدوه الذي خرج للقبض عليه ظلَّ حيًّا، واعترف في حياته أنه نبي الله الحقّ، بل طلب منه ﷺ أن يكتب له أمانًا بأن يُعامَل معاملة طيبة عند غلبته. ثم إن الله تعالى قد جعل هذا العدو يحيا حتى يرى غلبة

◈ لقد ورد في المرجع المشار إليه هنا أن النبي ﷺ أمَر عامرَ بن عامر بن فهيرة –مولى أبي بكر– ليكتب الأمان لهذا. (المترجم)

الإسلام ليحسن إليه المسلمون. فما أعظمَ هذا الفضل الذي تميّز به النبي ﷺ على موسى عليه السلام!

سادسًا: ومن أفضلية النبي ﷺ على موسى عليه السلام أن موسى لم يستطع أن يستولي على مُلك أعدائه رغم هلاكهم -لا شك أن بعض المشايخ الجاهلين يقولون بناءً على استنتاج خاطئ من آية قرآنية بأن موسى عليه السلام قد استولى على مُلك المصريين بعد غرقهم، والحق أن لا دليلَ على صحة موقفهم لا في القرآن الكريم ولا في الكتاب المقدس. وما قيمة قول من دون دليل- إن الواقع الذي يؤكده القرآن الكريم هو أن موسى عليه السلام وقومه ظلّوا تائهين في الفلوات والبراري بعد خروجهم من مصر، و لم تصل أُمته إلى غايتهم المنشودة إلا بعد مدة طويلة، أما الرسول ﷺ فاستولى على مُلك أعدائه بعد أن هزمهم، وهذا أحدُ أوجهِ فضل النبي ﷺ على موسى عليه السلام.

سابعًا: إن أول مواجهة بين قوم موسى وعدوهم كانت في البحر الأحمر، ولكن لم تقع هناك حرب بين الطرفين، وإنما كان بنو إسرائيل يهربون خائفين أن يمسك بهم فرعون، فلما رأوه وجنوده قالوا في فزع: إنا لمدرَكون. ثم لما جاء وقت القتال وأمرهم موسى عليه السلام أن يتقدموا ويقاتلوا عدوهم، رفضوا القتال، مع أن أرض كنعان صغيرة، إذ إن مساحة فلسطين هي عشرة آلاف ميل مربع، ومساحة أرض كنعان منها ألفان أو ثلاثة آلاف ميل مربع، ولما أمرهم موسى بالقتال لِفَتْح هذه الأرض وقال -كما ورد في القرآن الكريم والكتاب المقدس- لقد رأيتم كيف نصركم الله على المصريين، فادخلوا هذه الأرض واستولوا عليها لتوطيد ملكوت الله فيها، قالوا ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾(المائدة:٢٥).. أي سندخلها إذا فتحتَها، ولسنا مستعدّين للقتال. لقد كنتَ تخبرنا بأن الله سيعطيكم هذه الأرض، فليعطنا إياها الآن، فلماذا تطالبنا بالقتال؟ ألم يعدْك بهذا مِن أجلنا؟ مما يعني أنهم لم يتعلموا مع بقائهم في صحبة موسى عليه السلام لثمان أو عشر سنوات أنه لا بد للعباد من السعي بعض الشيء حتى يحقّق الله لهم ما وعدهم. وإنما قالوا لموسى عليه السلام بكل وقاحة: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾. أما نبيّنا ﷺ

فلما بلغه أن قافلة تجارية للمكيين قادمة من الشام، محرّضةً القبائل في طريقها على المسلمين، خرج ﷺ مع بعض أصحابه لوضع الحد لشرورهم. ولم يخرج معه الصحابة كلهم، إذ رأوا أن القافلة صغيرة ولا يريد الرسول ﷺ أي قتال وإنما يريد إزالة تأثير دعايتها المسمومة حتى لا يجرؤ العرب على مهاجمة المسلمين. ولكن الله تعالى أخبر الرسول ﷺ أن جيشا كبيرا قادما من مكة لحماية قافلتهم التجارية، كما أمره الله تعالى ألا يخبر صحابته بذلك لأنه يريد اختبارهم، فظل النبي ﷺ يتقدم في سيره، حتى إذا قطع أشواطا جمَع صحابته وقال إن الله أخبرني أن العدو آتٍ بجيش كبير من مكة، ولعلّ الله يجعلكم تشتبكون مع هذا الجيش أو مع القافلة القادمة من الشام (السيرة النبوية لابن هشام: غزوة بدر الكبرى). ثم تقدّمَ أكثر فكشف الله عليه أن المسلمين سيشتبكون مع الجيش القادم من مكة لا مع القافلة. كان جيش الكافرين مكونًا من مقاتلين مجربين مسلحين، وكان أكثرَ من المسلمين عددًا وقوة. أما فيما يتعلق بالتمدن فكان الطرفان سيِّين، إذ كانوا جميعا من العرب، أما أصحاب موسى عليه السلام فكانوا متمدّنين منظَّمين، بينما كان الكنعانيون قبائل غير متمدنة وجاهلة، ومع ذلك لما حان القتال رفض بنو إسرائيل أن يقاتلوا العدو، أما أصحاب النبي ﷺ فلم يرفضوا القتال مع أنهم كانوا أضعف من عدوهم من كل النواحي؛ إذ كانت فئة منهم من أهل المدينة الذين لم يكن لهم خبرة بالقتال البتّة (الطبقات الكبرى لابن سعد: غزوة بدر). ثم كان عدد المسلمين ٣١٣ فقط، وكان العدو ألف مقاتل، ثم إن العدو كان أكثر منهم خبرةً وعدّةً وعتادًا، إذ كان عندهم أسلحة وخيول، والمعروف أن الخيل أنفع من الإبل في القتال، أما المسلمون فلم يكن عندهم إلا فرس واحد (البخاري: كتاب المغازي، والسيرة النبوية لابن هشام: غزوة بدر الكبرى). فجمع النبي ﷺ أصحابه وقال لقد علمتُ علم اليقين أننا سنقاتل الجيش القادم من مكة تحت قيادة أبي جهل، فماذا ترَون؟ فجعل المهاجرون يقفون واحدا بعد آخر ويقولون: يا رسول الله، سوف نحاربهم، ولكن الرسول ﷺ ظلّ يقول: أيها الناس، أشيروا عليَّ بما ترون. لقد لزم الأنصار الصمت لظنِّهم أن الجيش الذي جاء من مكة مكوَّن من أقارب المهاجرين وإخوانهم، فلو

قالوا إنهم مستعدّون لمحاربة الكافرين، فلربما ظنّ المهاجرون أنهم لا يحبّونهم ولـــذلك يتحمسون لقتال هذا الجيش الكافر المكون من إخوانهم وأعمامهم وأبناء إخوانهم. ولكن الرسول ﷺ ظلّ يقول: أيها الناس، أشيروا عليَّ بما ترون. فقـــام أنـــصاري وقال: يا رسول الله، لقد أبدى القوم برأيهم، ومع ذلك تقول أشيروا علـــيّ أيهـــا الناس، فلعلك تعنينا نحن الأنصار؟ فقال ﷺ: نعمْ. فقال الأنصاري: يا رسول الله، لقد كنّا صامتين مخافة أن نجرح مشاعر إخواننا المهاجرين. ويا رسول الله، عنـــدما التقى بك ٧٢ من إخواننا في مكة أول مرة بايعناك على محاربة العـــدو بأموالنـــا وأنفسنا إذا شنّ الهجوم على المدينة، ولن نحاربه معك إذا حاربك خارجهـــا، إذ لا طاقة لنا بالعدو خارجها، ولعلك تسألنا الآن مرة بعد أخرى بسبب تلك المعاهدة، لأن هذا القتال سيقع خارجها؟ فقال النبي ﷺ: أجلْ. فقال الأنصاري: يا رســـول الله، عندما عقدنا معك ذلك العهد لم تكن عظمتك قد انكشفت علينا بعدُ، أمـــا وقد عشنا معك هذه الفترة ورأينا سموّ خلقك وعظيم صلتك بالله تعـــالى، فقـــد انكشفت علينا عظمتك تماما، فلا حاجة الآن للتقيّد بتلك المعاهدة. يا رسول الله، لو أمرتَنا أن نخوض هذا البحر أمامنا لخضناه وما تخلَّف منا أحد. لقد قال ذلك لأن مقام بدر كان قريبا من البحر. ولعل هناك سببا آخر لقوله هذا وهـــو أن العـــرب كانوا يخافون البحر كثيرا. ويبدو أن الله تعالى قد ألقى في قلب هذا الأنصاري بأن لا يظن النبي ﷺ أن الأنصار سيتخلفون عن القتال معه كما فعلت أمـــة موســـى عليه السلام، فلذلك قال: يا رسول الله، لن نقول كما قال قوم موسى ﴿فاذْهَبْ أَنْـــتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا ههُنَا قَاعِدُونَ﴾(المائدة:٢٥). يا رسول الله، لو نـــشبت الحـــرب فسوف نقاتل عن يمينك وعن شمالك، ومِن أمامك ومن ورائك، ولن يخلُص إليك العدو إلا على جثثنا الهامدة.

قارنْ هذا الحادث بحادثة قوم موسى عليه السلام حين قالوا له ﴿فاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّـــكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾، لتعرف البون الشاسع بين مكانة صحابة النبي ﷺ وبـــين قوم موسى عليه السلام. وما أعظمَ فضلَ النبي ﷺ على موسى عليه السلام في هذا المجال أيضا!

ثامنا: حينما قال قوم موسى عليه السلام له: ﴿فاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ﴾ قال الله تعالى لموسى إن قومك قد أساءوا إساءة كبيرة ولن يحالفهم الآن هذا الفتح الذي وعدناهم به عقابًا منا. فاذهبوا تائهين في الفلوات أربعين سنة واستغفروا على ذنوبكم حتى يغفر الله لكم. فلم يُعْطَ قومه مُلْكَ كنعان إلا بعد التيه في تلك الفيافي والفلوات أربعين سنة. أما صحابة الرسول ﷺ فقد أعطاهم الله تعالى الحُكم على كل العالم المتمدن في ذلك الوقت خلال ١٢ سنة بعد وفاته ﷺ. ولا شك أن هذا أيضًا يشكل فضْلا لنبينا ﷺ على موسى عليه السلام.

تاسعًا: ومن الخصائص التي تميّز النبي ﷺ على موسى عليه السلام أن سلسلة نبوة موسى انتهت، ولكن سلسلة النبي ﷺ مستمرة ولن تنتهي إلى يوم القيامة. لا شك أن السلسلة الموسوية امتدت إلى عيسى عليه السلام، بل حتى زمن الرسول ﷺ، ولكن بالاسم فقط، لأن قوم عيسى أخذوا يفضّلونه على موسى بعد فترة من وفاته، بل اعتبروه ابن الله. أما نبينا ﷺ فسلسلة نبوته لن تنتهي إلى يوم القيامة.

عاشرا: لقد تنكّر لموسى عليه السلام أتباعُ المسيح الناصري عليه السلام آخرِ خليفة لموسى، وأنكروا أفضليته. وكان سبب ذلك في الحقيقة انخداع قوم عيسى بكلمات ذات معنيين خرجت من فمه كتسميته نفسه ابن الله تعالى، أمّا النبي ﷺ فإن آخر خليفة في سلسلة نبوته.. أعني المسيح الموعود عليه السلام مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية.. قد أعلن بمنتهى الأدب:

وہ ہے میں چیز کیا ہوں بس فیصلہ یہی ہے

أي: أن قولي الفيصل هو أن النبي ﷺ هو كل شيء، ولستُ بشيء إزاءه.

وبتعبير آخر: إن كل ما حُزته من فضل وكمال فإنما هو ببركة كوني خادمًا للرسول ﷺ، فلا أساوي شيئًا إزاء النبي ﷺ.

وهناك بيت شعر للمسيح الموعود عليه السلام يطعن فيه الناس، ولكننا نستمتع به، وهو:

ابنِ مریم کے ذکر کو چھوڑو

اس سے بہتر غلامِ احمد ہے

أي: اتركوا ذكر ابن مريم، فإن غلام أحمد خير منه

يقول الطاعنون أن المسيح الموعود عليه السلام قد ادعى هنا أنه أفضل من ابن مريم عليه السلام. والحق أنه عليه السلام لم يدّع هنا أنه أفضل من المسيح عليه السلام، بل بيّن أن غلامَ أحمدَ صلى الله عليه وسلم أفضلُ من ابن مريم. وهناك فرق كبير بين التعبيرين، إذ المراد من أحمد هنا هو محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعنى البيت: إذا كان غلامُ محمد صلى الله عليه وسلم هو أيضًا أفضل من عيسى عليه السلام، فما بالك بمحمد صلى الله عليه وسلم نفسه؟

باختصار، إن من فضل النبي صلى الله عليه وسلم على موسى عليه السلام أن جماعة آخر خليفة في السلسلة الموسوية اعتبروا نبيَّهم عيسى أفضلَ من مؤسسها، أما محمد صلى الله عليه وسلم فإن آخر خلفائه عمِل على إرساءِ عظمة وفضل سيده معلنًا بكل قوة أن كل ما حازه من فضل وكمال فإنما حازه ببركة فيوض النبي صلى الله عليه وسلم.

حادي عشر: كل الأنبياء الذين جاءوا بعد موسى عليه السلام كانوا أنبياء مستقلين. لا شك أنهم لم يأتوا بشريعة جديدة، لكنهم قد تشرفوا بالنبوة مباشرة مِن دون توسط موسى عليه السلام، إذ لم يكن الشرع الموسوي قادرا على أن يوصل أحدا إلى درجة النبوة، أما النبي صلى الله عليه وسلم فيتميز على موسى عليه السلام بأنه لا ينال أحد من أتباعه صلى الله عليه وسلم أيَّ منصب روحاني ولو منصب النبوة إلا ببركة اتّباعه، فكل ما ينالونه فإنما ينالونه ببركة الفيوض المحمدية. لا شك أن عيسى عليه السلام كان تابعًا لموسى عليه السلام، ولكنه نال النبوة مباشرة؛ إذ لم تكنْ تعاليم موسى قادرة على إيصال أحد إلى مقام النبوة، أما القرآن فمِيزته أن الإنسان يمكن أن يبلغ درجة النبوة بالعمل به، غير أنه يبقى تابعًا لمحمد صلى الله عليه وسلم وخادمًا للقرآن الكريم.

ثاني عشر: لقد أُعطيَ موسى عليه السلام معجزة العصا التي كانت تتحول إلى ثعبان يلدغ، أما الرسول صلى الله عليه وسلم فقد أُعطيَ سيف القرآن الذي هو رحمةٌ في رحمة إلى الأبد، وقد أشار الله تعالى إلى هذا السيف القرآني قائلا: ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾(الفرقان:٥٣).. أي خُذْ بيدك سيف القرآن وجاهِدْ به باستمرار؛ واعلمْ أن الحروب التي تُدار بالسيوف تكون بسيطة وتنتهي بسرعة، ولكن سيف القرآن سينفعك ضد العدو دائما، وستؤدّي إلى الرحمة دومًا، ومن أجل ذلك سُمي النبي

ﷺ مرارا رحمةً للعالمين، وقد فضَّل في تعاليمه الرفقَ والحبُّ على التعذيب والانتقام. لقد علّم موسى عليه السلام مثلاً أنه إذا لطمك أحد على خدك فالطمْه، وإذا فقأ عينك فأَخرِجْ عينه، وإذا كسر سنَّك فاكسرْ سنَّه، أما الإسلام فيعلِّمك أن لا تتخذ أي خطوة إلا بعد التروي ودراسة الظروف، فإذا كانت المصلحة في العفو عن العدو فاعفُ عنه، ولا تصرّ على عقابه، ويجب أن يكون هدفك هو الإصلاح لا الانتقام.

ثالث عشر: لقد أُعطيَ موسى عليه السلام معجزة اليد البيضاء.. أي كانت يده تلمع أحيانا، وأما النبي ﷺ فقد سماه الله تعالى سراجًا منيرا؛ والواضح أن الشمس كلها تضيء وليس جزء منها، مما يعني أن يد موسى عليه السلام فقط كانت تلمع، بينما كان جسد الرسول ﷺ كله منوّرًا. ثم إن الشمس تضيء كل حين لا في بعض الأحيان، ولكن يد موسى عليه السلام كانت تلمع أحيانا. وفي هذا إشارة إلى أن رسول الله ﷺ كان هاديا في كل الأمور، وأنّ هُداه سيظل قائما باقيًا على الدوام، لا أنه ينفع أحيانا ويتوقف أحيانا.

رابع عشر: لقد بُعث موسى عليه السلام رسولاً إلى بني إسرائيل فقط، أما نبينا ﷺ فأخبره الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾(سبأ:٢٩). وهذا أيضا أحد أوجُهِ فضل النبي ﷺ على موسى عليه السلام.

خامس عشر: وكان من معجزات موسى عليه السلام هلاك الأبكار من أولاد المصريين، وموت الأبكار ليست آية ذات شأن، لأن كل إنسان لا بد أن يموت حتمًا، أما الرسول ﷺ فقد أُعطيَ معجزة لا نظير لها في العالم، فلم يُمتْ أبكار أولاد الكافرين به فحسب، بل مات أولادهم كلهم، ثم أُحيوا وانضموّا إلى جماعته ﷺ. كان الوليد عدوًا لدودا للرسول ﷺ، إذ كان يحرّض القبائل على محاربته ﷺ وقتله. وكان العاص بن وائل يكن له ﷺ عداء شديدًا، إذ كان يحيك المكائد ضده، ويجهّز الجيوش لحربه ﷺ. وكم كان أبو جهل شديدًا في عداوته للنبي ﷺ! لقد قضى حياته كلها في محاربته ﷺ. ولكن انظروا كيف أن خالد بن الوليد آمنَ بالرسول ﷺ إيمانًا صادقًا حتى إن المسلمين يسمون أولادهم باسم خالد تذكارًا له، ويخوّفون أعداء الإسلام بأنه لا يزال عندنا خالد. كان الوليد هو الشخص الذي أقسم أنه لن

يبرح حتى يجعل محمدًا ذليلا مهانا بين الناس، أما ابنه خالد فهو القائد نفسه الذي فطن في غزوة أحد إلى أنّ ظَهْر جيش المسلمين أصبح مكشوفا، فاغتنم الفرصة وشنّ عليهم الهجوم من ورائهم، فانقلب نصر المسلمين هزيمة مؤقتة. ولكنه أسلم فيما بعد وبلغ من الفداءِ والتضحية ما بلغ، حتى إن التاريخ يخبرنا أنه لما حانت وفاته جاءه أحد أصدقائه لعيادته، فوجده باكيًا، فقال له مستغربا: خالد، مالَكَ تبكي؟! لقد قدّمتَ للإسلام تضحيات عظيمة، فعليك أن تفرح إذ تُجزى الآن عليها جزاء عظيما بإذن الله. فقال خالد: ادنُ مني، واكشِف ظهري، فكشف ظهره، فقال له خالد: هل تجد في ظهري مكانًا يخلو مِن أثرٍ لجرح؟ قال: لا. قال: الآن، اكشف الثوب عن صدري، ففعل، فقال: هل ترى فيه مكانا لا تجد فيه أثرٍ لضربة سيف؟ قال: لا. قال: اكشف رجليّ الآن، فهل تجد فيها مكانا خاليا من أثرٍ لضربة سيف؟ قال: لا، بل أجد آثار الضربات في كل مكان. فأخذ خالد بالبكاء ثانية وقال: إني لا أبكي من الموت، بل أبكي لأني حاربت النبي ﷺ زمن الكفر، ثم شرّفني الله بالإسلام، فبذلت كل ما في وسعي لأُستشهد وتكون شهادتي كفّارة عن ذنوبي وذنوب عائلتي، وأنت شاهد على أني لم أقصّر في هذه المحاولة إذ لا تجد أي عضو من قمة رأسي حتى أخمص قدمي إلا ويوجد فيه آثار الجروح. ثم أجهش خالد بالبكاء وقال: ولكن انظرْ إلى سوء حظي؛ إذ لم تتحقق أمنيتي، وها أنا أموت على السرير بدل أن استُشهد في ساحة القتال (الإصابة في تمييز الصحابة: خالد بن الوليد ﷺ، وأُسد الغابة: خالد بن الوليد ﷺ).

ما أعظمَها مِن آية أُعطيها النبي ﷺ! إذ آمنَ به ألدّ أعدائه، ثم قدّموا في سبيله تضحيات عديمة المثال. لقد أهلك الله تعالى الأبكار من أولاد أعداء موسى عليه السلام مِن دون أن يحبّوه، أما الرسول ﷺ فقد قتَل الله تعالى أولاد أعدائه إيمانًا وحبًّا له ﷺ، حتى جعلوا يتحسرون على أنهم لم يُستشهدوا في الحرب، بل يموتون على السرير.

عندما حانت وفاةُ عمرو بن العاصي -الذي سُمّي فيما بعد عمرو بن العاص ﷺ- وجده ابنُه في قلق واضطراب، وكان ابنه هذا قد أسلم قبله وكان صحابيا

كبيرا، فقال له: يا أبت، ما لي أراك قلقًا؟ لقد وهبك الله تعالى درجة عظيمة وشرّفك بالإيمان. فتنفّسَ الصعداء وقال: يا بني، كنتُ أعادي النبي ﷺ قبل إيماني عداء شديدا حتى لم أُطِق النظرَ إلى وجهه، وكلما مرّ أغمضتُ عينيّ كي لا أرى وجهه، ثم شرّفني الله بالإيمان، فأحببته ﷺ حبًّا شديدا لم أُطق معه النظر إلى وجهه، بل كنت أغضّ الطرف دائمًا أمامه، فلم أُوفَّقْ لرؤية وجهه الكريم في الكفر بغضًا له وفي الإيمان حبًّا له، ولو سألني اليوم أحد عن ملامحه لم أستطع وصْفها. يا بني، لا شك أن الله تعالى قد وفّقني للقيام بكثير من الحسنات، ولكنْ قد وقعت بيننا بعد وفاة النبي ﷺ خصومات وحصلت منا تقصيرات، فلا أدري كيف أقابل النبي ﷺ يوم القيامة (مسلم: كتاب الفتن، باب كون الإسلام يهدم ما قبله).

انظرْ كمْ كان هذا الرجل يعادي النبي ﷺ في حالة كفره، ولكن لما شرّفه الله تعالى بالإيمان كان عظيمًا في إيمانه حتى قتله حبُّ الرسول ﷺ.

أما أبو جهل الذي كان شهيرًا في عدائه الشديد للنبي ﷺ، فإن ابنه "عكرمة" آمنَ بالنبي ﷺ، ثم قدَّم تضحية لا نظير لها إنقاذاً لأصحاب النبي ﷺ، حيث خاض في قلب جيش العدو البالغ عدده ما بين ثلاث مئة ألف إلى مليون حسب مختلف الروايات، وجرَح قائدَهم الأعلى، وبعثرَ صفوفهم، واستُشهد في النهاية.

أما أبو سفيان فقد آمنَ بالنبي ﷺ في حياته. وأما ابنه "معاوية" فصار من أبطال الإسلام. لا شك أنه قد صدرت منه بعض الأخطاء، ولكنه قد خدم الإسلام خدمات بارزة أيضا.

باختصار، لقد مات الأبكار من أولاد أعداء موسى ؑ، أما نبينا ﷺ فمات أولاد أعدائه كلهم بإيمانهم ودخولهم في أولاده ﷺ الروحانيين، متبرئين من آبائهم.

سادس عشر: ومن الآيات التي أُعطيَها موسى ؑ آية القحط الذي حلَّ بأعدائه واستمرّ سنة، حيث اجتاح الجرادُ البلادَ وأكل المحاصيل، أما الرسول ﷺ فقد نزل القحط على قومه سبع سنوات متتالية، حتى اضطروا أن يتوسلوا إليه ليدعو لهم الله تعالى، فدعا، فزال عذاب القحط عنهم بدعائه (البخاري، كتاب التفسير).

سابع عشر: لما تجلى الله لموسى عليه السلام على الجبل لم يتحمل التجلي الإلهي وسقط مغشيا عليه، وذلك واضح من القرآن الكريم والتوراة. أما محمد رسول الله ﷺ فقد وصف الله تعالى مقامه العالي بقوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾(النجم:٩-١٠).. أي لقد رغب محمد ﷺ في لقاء الله رغبة عارمة، وأخذ يصعد إلى السماء للقائه تعالى، أما الله تعالى فهو أيضًا أحبَّ لقاءه بشدة، فنزل من السماء لكي لا يتأخر لقاؤهما، ثم التقيا واتّحدا ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾. كان مِن عادة العرب أن الرجلين إذا تحابّا أطلق كلٌّ منهما سهمًا من قوس واحدة، للإشارة إلى أنه حيثما يتوجه سهم حبيبي يتوجه سهمي أيضًا، وحيثما يتوجه سهمي يتوجه سهمه أيضًا (معالم التنزيل: سورة النجم). إذن، فنبيّنا ﷺ لم يَرَ التجلّي الإلهي فقط، بل عاهدَه الله تعالى قائلا: سيتوجه سهمي حيث توجِّهُ سهمك، ويتوجَّه سهمك حيثما توجَّهَ سهمي. وهذا ما شاهدناه على أرض الواقع أيضًا، فإن النبي ﷺ وجّه سهمه دائما حيث توجه سهم الله تعالى، حتى ولو كان ضدّ أقاربه ﷺ، والله تعالى قد أطلق سهمه حيثما توجه سهم محمد، وإلى ذلك قد أشار الله تعالى في قوله لرسوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾(الأنفال:١٨).. أي يا محمد، عندما رميتَ حفنة من الحصى في وجه العدو فلم ترمِها أنت، بل أنا الذي رميتها، لأننا وعدناك أنه حيثما تصوب سهمك سنصوّب إليه سهمنا.

هذا فيما يتعلق بمعاملة الله معه بشأن أعدائه ﷺ، أما فيما يتعلق بمعاملته بأصدقائه ﷺ فقال الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾.. أي أن يدنا على أيدي الذين يبايعونك ويدخلون في زمرة أتباعك، لأنهم قد وضعوا أيديهم في يدك.

باختصار، قد اتّحد الله ورسوله وأصبحا واحدًا، وكذلك كان سهماهما ينطلقان في جهة واحدة، وكان بصرهما يرتفع في جهة واحدة. ما أعظمَ هذا التجلي الذي تجلى به الله على محمد ﷺ! هل من مقارنة بين هذا التجلي الإلهي وبين التجلي الإلهي الذي ظهر لموسى عليه السلام؟

ثامن عشر: لقد أُعطيَ موسى عليه السلام كتابًا فقط، أما محمد ﷺ فقد أُعطيَ كلام الله تعالى بالإضافة إلى الكتاب. هناك فرق هائل بين الأمرين، ذلك أن الكتاب يعني الحُكْم (الأقرب)، والحُكْم الإلهي يمكن بيانه بكلمات البشر، أما كلام الله فلا يمكن تبديله؛ وبتعبير آخر، إن الكتاب لا يُشترط فيه الكلمات بعينها، أما كلام الله تعالى فيشترط فيه ألا تتغير كلماته تعالى.

كان من عادة الملوك العرب أن يتخذوا كبار الأدباء وزراء لهم، وكان عند مِلِكٍ وزيرٌ في لسانه لُكْنةٌ، إذ كان لا يستطيع نطق الراء، بل كان يحوّلها إلى اللام، كما يفعل الصغار عندنا. فقال البعض للملِك: ما شأن هذا الأديب الذي اتخذتَه وزيرا، فإنه لا يقدر على نطق الراء، وسوف يفضحك هذا إذا ما جاء أحد الملوك لزيارتك. فقال الملك: إني لم أشعر بهذا العيب فيه مع أنه يجالسني دائما؟ فقال الرجل: سوف أثبت لك صدق ما أقول، أرجوك أن تملي عليه عبارة يتكرر فيه حرف الراء وسوف ترى ما ترى. فأنشأ الملِك عبارةً ودعا الوزير للاختبار، وكانت العادة أن الكاتب ما كان يُعطَى شرفَ إملاء الملِكِ عليه مباشرة، بل كان الملِك يملي على الوزير، والوزير يملي على الكاتب، فقال الملِك: اكتبْ: "أمَر أميرُ الأمراء أن يُحفَر بئرٌ في الطريق، ليشرب منه الوارد والصادر". فما لبث الوزير حتى أملى على الكاتب ما يلي: "حكَم حاكمُ الحكّام أن يُقلَب القليب في السبيل، لينتفع منه الصادي والبادي".

فذُهل الملِك من براعة الوزير، أما المشتكي فقال للملك: انظرْ أيها الملك، إنه لم يستطع نطق الراء، فردّ عليه الملك: إن ما فعله صاحبي زادني إعجابًا به، هو لا يدل على عيب فيه، بل على براعته، إذ كيف صاغ أوامري في كلمات أخرى في لمح البصر. إنني لا أستطيع أن أتخلى عن نابغة مثله.

لقد ثبت من هذا المثال أن كلمات الحُكم يمكن أن يغيّرها السامع، وقد يخطئ عند نقله. وهناك اصطلاح عند المحدثين بأن هذا الحديث باللفظ وهذا الحديث بالمعنى، والحديث باللفظ عندهم هو ما بلغهم بالكلمات نفسها التي سُمع بها من فم الرسول ﷺ؛ ومثاله أن تكون هناك رواية قد نقلها أهل الشام بالكلمات نفسها التي

نقلها بها أهل بخارى ومصر بحيث نستطيع القول أنها الكلمات نفسها التي سُمعت من الرسول ﷺ، ومثل هذه الأحاديث النبوية تكون بكلمات قصيرة موزونة عادةً مما يساعد على حفظها بسهولة، كحديث الرسول ﷺ: "كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ (البخاري، كتاب الأيمان والنذور)، فحيث إن كلماته موزونة فيُحفَظ من دون صعوبة. إذن، فالحديث الذي وصلنا من مختلف الرواة بالكلمات نفسها يسمى حديثًا باللفظ، أما الحديث الذي يرويه الراوي بكلماته هو فهو حديث بالمعنى.

إذن، فالكتاب الذي أُعطيَه موسى عليه السلام هو بمعنى الحكْم، أعني أن الله تعالى أعطاه عليه السلام أحكاما، فحَفِظَ بعضها بنَصِّها وفَصِّها، وبيّن بعضها الأخرى بكلماته هو، فأُدرجت في التوراة. أما نبينا ﷺ فأُعطي كلام الله الذي أنزله عليه كله مِن أوله إلى آخره؛ مِن باء البسملة في الفاتحة إلى السين في ﴿النّاس﴾ آخرِ كلمة في القرآن، وليس فيه لفظ ولا حركة أدخلها النبي ﷺ من عنده، بل كله كلام الله. فما أعظمَه من فضل للرسول ﷺ على موسى عليه السلام! ليس بوسع يهودي ولا نصراني في العالم أن يحلف أن التوراة هي نفس الكتاب الذي نزل على موسى عليه السلام؛ وإذا لم يكن الأمر كذلك فليُهلِك الله أهلي وأولادي ويلعنني في الآخرة. وكيف يحلف وليست كلمات التوراة هي نفسها التي نزلت على موسى عليه السلام؟ ولكننا نستطيع أن نحلف اليوم وفي المستقبل أيضا بأن كلمات القرآن الكريم هي نفسها التي نزلت على نبيّنا ﷺ، إذا لم يكن الأمر كذلك فليهلك الله أهلي وأولادي ويلعنني في الآخرة.

فما أعظمَ ما فُضّل به الرسول ﷺ على موسى عليه السلام في هذا المجال أيضًا!

المعنى الثاني: بالإضافة إلى المعجزات والكرامات التي أتى بها موسى عليه السلام بحسب القرآن الكريم أو التوراة، والتي عقدنا من خلالها مقارنة بينه وبين نبينا ﷺ، وأثبتنا أن ما أُعطيَه نبينا ﷺ كان أكثرَ مما أُعطيَ موسى عليه السلام، فإن هناك سبيلا آخر للمقارنة بينهما وهو دعاءٌ لإبراهيم عليه السلام قد ورد في سورة البقرة؛ فإنه قد دعا في

حق النبي الموعود لبني إسماعيل: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(البقرة: ١٣٠).

الحق أن هذا الدعاء يذكُر واجباتِ الأنبياء وأعمالهم الخاصة، وقد أشار الله تعالى في سورة الكوثر إلى أن هذا الدعاء لم يتحقق في حق الرسول ﷺ فحسب، بل قد تحقّق بأروع صورة. فقد بيّن الله تعالى هنا أن محمدا ﷺ لم يقم بتلاوة الكتاب على قومه وتعليمهم الكتاب والحكمة وتزكيتهم فحسب، بل أُعطيَ الكوثر من كل صفة من هذه الصفات الأربع، وهكذا فُضِّل على الأنبياء كافة.

وعندي أن بعض آيات القرآن الكريم هي بمثابة المفتاح لغيرها من الآيات، إذ تساعد على كشف معانيها تمامًا، فالبسملة مفتاح مشترك بين جميع السور، كذلك هناك آية في كل سورة هي بمثابة مفتاح موضوع تلك السورة كلها. في أوائل شبابي طلب مني بعض الأصدقاء أن أعلّمهم القرآن، فلما بدأنا بسورة البقرة أُلقيَ في رُوعي أن مفتاح هذا السورة هو قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(البقرة: ١٣٠). فطبّقتُ موضوعها على السورة كلها، فتبين لي أن موضوع كل السورة يتمحور حول هذه الآية. أما الآن فقد كشف الله عليّ أن سورة الكوثر جواب لدعاء إبراهيم هذا، حيث أخبر الله تعالى أنه لم ينجز بحق محمد ﷺ وَعْدَه الذي قطَعه مع إبراهيم فحسب، بل أعطاه ﷺ كوثرا من كل صفة من الصفات المذكورة في الدعاء الإبراهيمي. لقد دعا إبراهيم عليه السلام ربه قائلا: رب ابعثْ في أهل مكة رسولا يكون منهم لا من أمة أخرى. وكلمة ﴿رَسُولاً﴾ تدلّ على أن هذا الدعاء يتعلق بالمستقبل، إذ كان بينهم -عندما قام إبراهيم بهذا الدعاء- رسولان: إبراهيم وإسماعيل؛ فثبت أنه لا يصح هذا الدعاء إلا عن المستقبل، وإلا أفليس غريبًا أن يسأل اللهَ تعالى ما هو موجود سلفًا. أما لو قال إبراهيم عليه السلام "رسلاً منهم" لقلنا إنه سأل الله تعالى أن يُبعث في أهل مكة رسول بعد رسول، ولكنه قال ﴿رَسُولاً مِنْهُمْ﴾، مما يعني الإشارة إلى بعثة رسول عظيم بينهم في المستقبل، كما يدل عليه التنوين على لفظ ﴿رَسُولاً﴾، فهذا التنوين يفيد

التعظيم. إذن، فالمراد من دعائه ﴿رَبَّنا وَابْعَثْ فيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ﴾: رَبِّ ابْعَثْ بين ذرية إسماعيل رسولاً عظيما يكون منهم. لقد وعدتَ بني إسحاق بوعود، فلا تنسَ بني إسماعيل، بل ابعثْ فيهم رسولا عظيما منهم يقوم بالأعمال التالية:

أولاً: يتلو عليهم آياتك، وثانيا: يعلّمهم كتابك الكامل، وثالثا: ويعلّمهم الحكمةَ، أي يبيّن لهم حكمة الأحكام وفلسفتها، ورابعا: ويزكّيهم..أي يطهّر قلوبهم ويدلّهم على سبل الرقي المادي أيضا. ثم قال: ﴿إنَّكَ أنْتَ العَزيزُ الحَكِيمُ﴾.. أي رَبِّ أنت الغالب ذو الحِكَم، ومثل هذا السؤال ليس كبيرًا أمام غلبتك وحكمتك.

لقد ورد هذا الدعاء في الآية ١٣٠ من سورة البقرة، ثم ورد في السورة نفسها في الآية ١٥٢ قوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾.. أي قد أرسلنا فيكم رسولاً دعانا إبراهيم لِبعثته، ثم ذكر الله تعالى نفس الأمور التي طلبها إبراهيم في دعائه. لقد دعا قائلا: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِك﴾، فقال الله هنا: ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾، ودعا: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾، فقال الله هنا: ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾، ودعا: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ فقال الله هنا: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾. فكل ما سأله إبراهيم عليه السلام في دعائه مذكور هنا، مما يدل صراحة على أن الله تعالى قد أخبر هنا أننا قد استجبنا دعاءه، وقد جاء محمد مدّعيًا أنه جاء تحقيقًا لدعاء إبراهيم الذي ذكر فيه أربع واجبات: تلاوة آيات الله، وتعليم الكتاب، وتعليم الحكمة، وتزكية النفوس. وبتعبير آخر، إن غرض بعثته ﷺ هو هذه الأهداف الأربعة العظيمة.

ولكن الواضح أن كل نبي يقوم بهذه المهام. فما الذي يمكنه أن يفعل غيرَ ذلك؟ فثبت أن إنجاز النبي ﷺ هذه المهام لا يدلّ وحده على أنه قد نال الكوثر، وإنما يثبت ذلك إذا أنجزها إنجازًا لا مثيل له عند الأنبياء الآخرين. إذا كان ﷺ قد قرأ عليهم آيات الله فلا شك أن الوعد الإبراهيمي قد تحقق، ولكنه إذا كان أكثر قراءة لها من الأنبياء الآخرين فثبت أنه قد أُعطيَ الكوثر. كذلك إذا علّمهم كتاب الله،

فلا شك أن الدعاء الإبراهيمي قد تحقق، ولكنه لو قرأ عليهم الكتاب قراءةً لا مثيل لها عند الأنبياء الآخرين لثبت أنه قد أُعطيَ الكوثر. وإذا علّمهم الحكمة فلا شك أن الوعد الإبراهيمي قد تحقق، ولكنه إذا علّمهم الحكمة تعليما لا نظير له عند الأنبياء الآخرين لثبت أنه قد أُعطيَ الكوثر. ثم لو قام بتزكية النفوس لثبت أن الوعد الإبراهيمي قد تحقق، ولكنه لو قام بتزكيتهم بما لا مثيل له في الدنيا لكان دليلا أنه قد أُعطيَ الكوثر. فإعطاء اللهِ النبيَّ الكوثرَ يعني أنه لم يستجب دعاء ابراهيم بحقه ﷺ فحسب، بل أعطاه أكثرَ مما سأله إبراهيم وبما لا مثيل له عند أي نبي آخر.

باختصار، لقد بُعث النبي ﷺ تحقيقًا لدعاء إبراهيم عليه السلام ولذلك قال الله تعالى لرسوله عند ختام القرآن الكريم في سورة الكوثر: ألم نحقّق فيك دعاءَ إبراهيم؟ ألم نعطك كل ما سألَنا إياه؟ بل ألم نعطك إياه بما لم يُعطَه نبيٌّ آخر؟

إن دعاء إبراهيم عليه السلام هذا بالغ الأهمية، إذ هو الأساس لبعثة النبي ﷺ، ولذلك قد أكّد الله تعالى تحقُّقه في شتى آيات القرآن الكريم بعبارات مختلفة، منها قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(آل عمران:١٦٥). وقد ذكَر هنا الأمور الأربعة المذكورة في دعاء إبراهيم عليه السلام.

ثم قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (الجمعة:٣).

كذلك ذكر القرآن الكريم أجزاءً من هذا الدعاء في آيات أخرى، فقال: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾(النساء:٥٥).. أي أن اليهود يحسدون أهل مكة على أن الله تعالى قد أعطاهم من فضله. لا شك أن بني إسحاق أولادُ إبراهيم، وقد أعطيناهم من فضلنا العظيم، ولكن أهل مكة أيضا من أولاد إبراهيم، فكيف لا يُنزل الله فضله عليهم؟ كان ينبغي لليهود أن يفرحوا على ذلك حيث خصَّ الله أسرهم كلها بهذا الشرف، ولكنهم بدلاً من ذلك يحسدون أهل مكة على ما أعطاهم من فضله.

يجب أن يفكروا كم أعطيناهم من نعم لكونهم من آل إبراهيم، وما دام بنو إسماعيل أيضا من آل إبراهيم، فكان من المفروض أن يُعطَوا الحُكمَ كما أُعطي اليهود، فلماذا يغضبون إذا أعطينا بني إسماعيل من فضلنا؟

ومما يدل على أن الحديث هنا هو عن بني إسرائيل، أن الله تعالى قد ذكر قبل هذه الآية: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلا﴾(النساء:٥٢).. أي انظر إلى الذين أُوتوا نصيبا من الكتاب كيف يؤمنون بكل ما هو لغو ومِن تعليم الشيطان، فيقولون عن الكافرين بأنهم أهدى من المؤمنين، مع أن الكافرين مشركون وثنيون، وهؤلاء مؤمنون موحدون. ثم بعد ذلك يقول الله تعالى بأنه إذا كان قد أعطى بني إسماعيل مِن فضله فكان المفروض أن يفرح أهل الكتاب هؤلاء، لأن الله تعالى إنما خصّ أسرهم بهذا الشرف العظيم، وليس أن يحترقوا حسدًا ضدهم.

وكذلك قد أشار الله إلى ما ورد في دعاء إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾(النساء:١١٤). فهنا أيضا ذكر بوجه خاص إنزالَ الكتاب والحكمة على النبي ﷺ.

وقال الله تعالى أيضًا: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾(الأحزاب:٣٥).

وقال الله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾(لقمان:٣).

وقال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾(آل عمران:٥٩)

ثم قال تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾(يونس:٢)

ثم قال تعالى: ﴿يس* والقُرآنِ الْحَكِيمِ﴾.. أي نُقسِم بالقرآن ذي الحكمة.

لقد تبين من هنا أن القرآن الكريم قد ذكر مرارًا أن لبعثة النبي ﷺ أربعة أهداف: ١: تلاوة آيات الله، ٢: تعليم الكتاب، ٣: تعليم الحكمة، ٤: تزكية الأمة. ثم أكد

القرآن الكريم مرة بعد أخرى أن النبي ﷺ قد أنجز هذه المهام كلها. لقد قلت قبل قليل إن الأنبياء كلهم يقومون بهذه المهام في نطاق عملهم، لذا يجب أن نرى الآن ما إذا كان النبيُّ ﷺ قد أُعطيَ الكوثرَ في هذه الصفات الأربع أم لا.

أولاً: تلاوة الآيات

اعلمْ أن كلمة ﴿آيَاتِكَ﴾ هنا يمكن أن تكون إشارةً إلى أمرين، ١: الأمور العقلية التي تهدي إلى الله أو إلى صفاته، ٢: المعجزات التي يُريها الله تعالى تكريمًا لعباده الأطهار. وأرى أن الأمرين كليهما مقصود هنا.. أعني أن الله تعالى قد أشار هنا إلى البراهين العقلية التي تهب معرفة الله، وأيضا إلى المعجزات والآيات التي يُريها الله تعالى.

الأمر الأول: وفيما يتعلق بمعرفة الدين (الله)، فلا بد لها من الأمور التالية:

١: إثبات وجود البارئ تعالى. إن أساس الدين هو الله تعالى، فمن واجب كل دين أن يأتي ببراهين تزيد المرء يقينًا بذات الله تعالى.. أي أن يخبر ما إذا كان الله موجودا، وما هي الأدلة على وجوده.

٢: الشرح الصحيح لصفات الله وما بينها من علاقة، فمجرد القول إن الله تعالى متصف بشتى الصفات لا يغني الإنسان شيئًا، بل لا بد مِن بيان صفات الله تعالى كلها والأدلّة عليها، وهذا واجب الدين.

٣: الملائكة

٤: الأنبياء

٥: القضاء والقدر

٦: البعث بعد الموت.

فلو جعلنا صفات الله تعالى تابعة للحديث عن ذاته تعالى فهي خمس قضايا، وإلا فهي ست، وهي أهمّ ما في الدين. والحق أن ما يعلّمه الإسلام بشأنها لم يعلّمه أي دين آخر، مما يميز الإسلام على الأديان كلها.

١: إن أعظمَ ما في الدين هو وجود البارئ تعالى. إننا لا نقول أنه لا ذِكْرَ لله تعالى في الصحف السابقة. ما دام الله تعالى هو أساس الدين، فكيف يمكن أن يقوم

ويستمر دين يخلو من ذكره تعالى؟ ما دمنا نعتبر الكتاب المقدس والزندافستا والفيدا وغيرها من الكتب صحفًا سماويةً فلا بد أن تتحدث عن الله تعالى. غير أنه ينبغي أن نرى فيما إذا كانت هذه الكتب قد قدّمت الأدلة على وجود البارئ أم لا؟ ذلك أن مجرد القول بوجود الله تعالى لا يهب اليقين بأنه موجود فعلاً، أو أنه متصف بصفات كثيرة. إن هذا بحاجة إلى براهين شتى، وتقديمها من واجبات الكتاب السماوي. والواقع أن الكتب السماوية لا تقدّم هذه الأدلة، ما عدا القرآن الكريم. لا شك أنك إذا سألت أحد الهندوس فسوف يقدم لك بعض الأدلة على وجود الله تعالى، وكذلك المسيحي سوف يقدِّم شيئًا بهذا الصدد، ولكنك إذا سألتَ أيًّا منهما فيما إذا كان كتابه السماوي يقدّم هذه الأدلة أم لا، فلا بد له من الاعتراف أنها لا توجد في كتابه، إنما يقدّمها مِن عنده. فتقديمه هذه الأدلة من عنده دليلٌ بيّنٌ على أن الله تعالى لم يعطِ أتباع هذه الأديان الكوثرَ، بل هم الذين أعطوا اللهَ الكوثرَ. أما كتابنا "القرآن الكريم" فلا يقدّم أيَّ دعوى إلا ويسوق الأدلة عليها، وهذا هو الفرق العظيم الذي يميز القرآن عن الصحف الأخرى. إن القرآن لا يعلن للناس أن الله موجود فحسب، بل يقدّم لهم البراهين الدالة على وجوده تعالى، والتي لا يسع أحدًا من أصحاب الفطرة السليمة إنكارُها، أما الكتب الأخرى فلا تقدّم الأدلة على وجود البارئ تعالى.

والحال نفسه بالنسبة إلى صفات الله تعالى: فمجرد قولهم إن ربنا رحيم كريم محسن لا يقدّم صورة صحيحة لصفات الله تعالى، إذ من الممكن أن يكون قولهم هذا مجرد نتيجة تأثير الأفكار الشائعة؛ فمثلا إذا وجد هؤلاء أن الناس يحبّون الكريم الجواد قالوا إن الله كريم، وإذا رأوا أن الإحسان محمود قالوا إن ربنا محسن. إن المطلوب من الدين أن يقوم بشرح سليم لصفات الله تعالى ويوضّح ما بين صفة وأخرى من علاقة؛ فمثلا تخبرنا التوراة أن الله يقول إنه سيعاقِب، ولكنها لا تبين الحكمة من وراء العقوبة. ثم إنها لا تبين كيف يوصف الله تعالى بأنه رحيم مع أنه يعاقِب؟ إذا كان رحيما فكيف يقال إنه يعاقب؟ التوراة صامتة بشأن ما بين هاتين الصفتين من علاقة. إنما القرآن هو الذي ساق لنا الأدلة مفصّلة على وجود البارئ،

كما أمدّنا بعلم مفصّل عن صفاته تعالى. وإنني أتحدى أتباع الأديان الأخرى أن يقدّموا من كتبهم دليلا واحدا على وجود الله تعالى، ولن يستطيعوا ذلك أبدًا. وإذا كانوا يقدّمون الأدلّة على وجود البارئ تعالى من عند أنفسهم لا من كتابهم، فهذه مِنّةُ العباد على الله تعالى لا العكس.

٢: أما الملائكة فلا شك أن الصحف الأخرى تذكُرها، أما السؤال: لماذا خلقها الله وما أعمالها وما نوعية علاقتها مع الله ومع العباد.. فالكتب الأخرى لا تلقي أي ضوء على ذلك، بل لم تمسّ هذه القضيةَ مطلقا. إنما القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي لا يأمر بالإيمان بالملائكة فحسب، بل يبين أيضا لماذا خلَقها الله تعالى، وما الحاجة إليها مع قدرة الله على فعل كل شيء، وما هي أعمالها، وما الأدلة على وجودها، وما علاقتها مع الله ومع العباد.

٣: أما النبوة فكل الأمم تؤمن بها، فالهندوس مثلاً يذكرون مجيء "أَوْتَار"● عندهم، ويقول العراقيون القدامى بمجيء الأنبياء، ويعلن اليهود والنصارى بأن الله تعالى قد بعث الأنبياء، لكن الغريب أن هذه الأديان مع ادعائها هذا لا تلقي أي ضوء على النبوة، مع أن ورود كلمة نبي أو "أَوتار" في كتاب لا يشفي غليل الإنسان، وكيف يطمئنّ ما لم يبيَّن له بالتفصيل مَن هم الأنبياء، وما أعمالهم وصفاتهم، وما أهداف بعثتهم، وعلامات صدقهم، وإلى أي مدى تجب طاعتهم، وما هو مقامهم، وما علاقتهم مع الله ومع العباد؟

ذات مرة أرسلتُ رسائل مسجّلة إلى اليهود والنصارى ليعرِّفوا لي النبوّة مِن كتبهم، ولكن لم يفعل ذلك أيٌّ منهم، بل اعترف قسيس كبير من لاهور بأن كُتب دينه صامتة بهذا الصدد تماما.

● "أوتار" بمعنى النبي، فالعقيدة الهندوسية تقول أن الله تعالى يأتي إلى الدنيا لإصلاح الخَلق متقمصًا في صورة إنسان يسمّى "أوتار". (المترجم)

ما أعظمَ فضلَ القرآن على سائر الكتب بهذا الصدد! إن القرآن كتاب صـــغير الحجم مقارنةً بالكتب الأخرى، ومع ذلك قد احتوى كل القضايا الضرورية الهامة. دعوا الأمور الأخرى جانبًا، فلو فكَّرتم في كلمة النبي لعرفتَم مهمة الأنبياء بسهولة. هناك كلمتان في العربية: رسول ونبي.. وفيهما بيانٌ كافٍ لأعمال المبعوثين من الله تعالى، فالرسول يعني المرسَل، والنبيّ يعني مَن يدلي بأنباء عظيمـــة. لقـــد خـــاض المسلمون لسوء حظهم في نقاش لا طائل فيه وقالوا بأن الرسول هو غير النبي، مع أنهم لو تدبّروا هاتين الكلمتين لما خاضوا هذ النقاش العقيم. فهل يعقل أن الـــذي يدلي بأخبار هامة لا يكون مرسَلاً من عند الله؟ إذا لم يكن أحد مرسلاً من عند الله تعالى فماذا عسى أن يخبر به؟ وإذا كان أحد مرسلا من عند الله تعالى فهل يـــأتي ويجلس صامتًا؟ كلا، لا بد أن يدلي ببعض الأنباء. الواقع أن النبي والرسول اسمـــان يطلقان على المبعوث الرباني من منظورَيْن مختلفين، فهو يسمَّى رسولاً من حيث إن الله بعثه برسالة، ونبيًا من حيث إنه يبلّغ الناسَ هذه الرسالة. فهل يمكـــن لـــساعي البريد أن يتسلم البريد ثم يجلس في بيته قائلا: لقد أديت واجـــبي؟ ألا يقـــول لـــه مسئوله: لماذا تجلس في البيت الآن؟ لقد أُعطيتَ البريد لتوزيعه على الناس لا لتضعه في الكيس وتغلقه. كذلك أيجلس مَن يرسله الله تعالى في بيته مطمئنا، أم يبلّغ الناس رسالةَ الله؟ فإذا بلَّغها أصبح نبيًّا، وإذا لم يبلّغها فهو ليس بنبي، بل هـــو كـــذّاب. كذلك إذا ادّعى أحد أنه نبي، ولكنه ليس مرسَلا من الله، فهو أيضا كـــذاب، وإذا كان صادقًا فلا بد أن يكون مرسلا من الله. فالرسول والنبي ليـــسا شخـــصيتين منفصلتين، بل هما اسمان لشخص واحد من منظورين مختلفين.

المهم، لقد تناول القرآن الكريم كل قضية ببيان مفصل تطمئن به النفس. إنه لم يكتفِ بتقديم تعريف النبي فقط، بل استفاض في بيان الغرض من بعثـــة الأنبيـــاء، وواجباتهم وعلامات صدقهم، ونوعية علاقتهم بالله وبالناس، وخصوصياتهم.

٤: أما القضاء والقدر، فإن كل الكتب السماوية صامتة بـــصدده إلا القـــرآن الكريم. فلو سألت أتباع الأديان الأخرى عن القضاء والقدر لم يـــستطيعوا إلقـــاء الضوء عليهما من كتبهم السماوية، مع أنها قضية بالغة الأهميـــة ووثيقـــة الـــصلة

بالروحانية. غايةُ ما يقولون لك هو: لا خيار لنا فيما نعمل، وإنما تصدر منا الأعمال كما يريد الله ويشاء، وهذا هو القضاء والقدر. مع أن الواقع عكس ذلك، إذ لا نشعر في الدنيا أن أحدًا يتدخل في أعمالنا ويُكرِهنا على القيام بها. فكيف يصح القول بأن الله يكرهنا على ما نعمل؟ إذا كان الله تعالى يجبرنا على ما نفعل، فما الدليل على ذلك؟ وهل يمارس هذا الجبر في جميع أعمالنا أم في بعضها؟ فإذا كان يكرهنا على بعضها ولا يكرهنا في بعضها فكيف نعلم أنه قد تدخل في هذا العمل و لم يتدخل في ذاك؟ لو قلنا إنه يُكرهنا على كل عمل نقوم به، فإن السارق سيقول بكل بساطة: إن الله هو الذي قد أجبرني على السرقة، وسيقول الغشّاش إن الله هو الذي قد أجبرني على الغشّ. أما إذا قلنا إن الله تعالى لا يتدخل في أعمالنا مطلقًا، لصار كل ما نقوم به من عبادات وأدعية لله تعالى عبثًا. إذن، فلم يبق أمامنا إلا أن نقول: إن الله تعالى يتدخل في بعض أمورنا ولا يتدخل في بعضها، وإذا صحّ ذلك فمن واجب الدين أن يبين لنا الأمور التي يتدخل فيها والأمور التي لا يتدخل فيها، وإلا لاشتبهَ الأمر على الناس و لم يعرفوا الأمور التي هم أحرار فيها والأمور التي هم خاضعون فيها لقدر الله تعالى. في إحدى المرات جاء شخص إلى المسيح الموعود ؑ وقال إن عيسى ؑ كان يخلق الطيور، فبيّن له حضرته أن هذه العقيدة مخالفةٌ للقرآن الكريم، ولكنه رفض وظلّ مصرًّا على موقفه، فقال له: حسنًا، إذا كان المسيح ؑ يخلق الطيور، فأين ذهبتْ طيوره التي خلَقها؟ قال: لقد اختلطتْ بالطيور التي خلَقها الله تعالى (تحفة غولروية، الخزائن الروحانية ج١٧ ص٢٠٦). فلو أن الله تعالى لم يبين مدى تدخُّله في أفعال الناس لاشتبهت عليهم حقيقة أعمالهم كلها، لذا فمن واجب الدين أن يبين الأمور التي يتدخل الله فيها والتي لا يتدخل فيها. والقرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي قد تناول هذا الأمر بالبيان، أما سائر الكتب فهي صامتة في بيان معنى القضاء والقدر، والعلاقة بين القدر والتدبير، وما هو الغرض من القدر، وأن القدر لا يعني الجبر والإكراه، وكيف أن الإنسان يظلّ حرًّا في أعماله رغم القدر، وأنه لا يُعاقَب إذا لم يكن حُرًّا في عمله، وما هي دائرة القضاء والقدر. إن القرآن الكريم وحده يلقي الضوء على

هذه الأمور، وإذا ادعى أحد من أتباع الأديان الأخرى أن كتابه السماوي يتضمن التعاليم الصحيحة عن القضاء والقدر، فإننا نتحداه أن يُبين هذه القضية الهامة بناءً على ما ورد في كتابه إزاء ما بيّنه القرآن الكريم، ولكنا على يقين أن لا أحد منهم يستطيع بيانها من كتابه السماوي. وهذه إحدى المزايا التي يفضُل بها القرآن الكريم على الصحف الأخرى.

٥: أما البعث بعد الموت فإن الكتب الأخرى إما صامتة عنه؛ مثل الكتاب المقدس والفيدا، أو تذكر شيئًا من تفاصيله من دون أن تذكر الأدلة عليه، ولا الحِكَم وراءه، ولا هدف الحياة الآخرة، ولا غرض الجزاء والعقاب ولا الحكمة فيه. لقد تناول الزندافستا موضوع الحياة الآخرة إلى حد ما، أما الكتاب المقدس والفيدا فكلاهما صامت بشأنها. إذا قرأت ما ورد في الزندافستا عن الجنة والنار خُيّل لك أن هناك صلة وثيقة بين القرآن الكريم والزندافستا، بينما لا تجد أيّةَ مشابهةٍ بينهما في بيان قضية الحياة الدنيوية؛ بل القرآن الكريم أكثرُ شَبَهًا بالكتاب المقدس بهذا الشأن. أما فيما يتعلق بالحياة الآخرة، فإن القرآن أشبهُ بالزندافستا. المهم، إن هذين الكتابين لا يبيّنان الفرقَ بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة، ولا الحكمةَ في الجزاء والعقاب، ولا قواعدهما، أما القرآن الكريم فقد ساق الأدلة على البعث بعد الموت، وبيّن حكمته، وهدف الحياة الآخرة، وغرض الجزاء والعقاب والحكمةَ فيهما، والتفاصيل الصحيحة عن الجنة والنار.

فالكوثر الذي أُعطيَه النبي ﷺ في تلاوة آيات الله على الناس وبيانها لهم، هو من الحقائق الثابتة، ويمكن أن نبيّنه بشكل دقيق، ويمكن إثبات فضل الإسلام على كافة الأديان الأخرى وفضل النبي ﷺ على سائر الأنبياء في هذا المجال.

الأمر الثاني: لقد بينت من قبل أن قوله تعالى ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾ إشارةٌ أيضًا إلى المعجزات والآيات التي تحوّل البراهين العقلية على معرفة الله إلى المشاهدة واليقين الكامل. ونثبت الآن أن القرآن الكريم إذ برهنَ على القضايا الدينية الهامة بالدلائل العقلية والنقلية، فقد أثبتها بتقديم المعجزات والآيات أيضًا، التي برؤيتها

والتدبر فيها يتحول عِلْمُ الإنسان النظريُّ والعقليُّ إلى علم العين واليقين، مما يدل دلالة واضحة على فضل النبي ﷺ على سائر الأنبياء.

إن أكبر معجزة أُعطِيَها النبي ﷺ هو كونه خاتم النبيين، أي قد خُتمتْ به كمالات النبوة كلها. فختم النبوة عليه ﷺ ليس مجرد دعوى كما يظن عامة المسلمين، بل هي حقيقة ثابتة يمكن أن يلمسها الناس ويختبروها في أي عصر كآية على صدق النبي ﷺ. إن معنى ختم النبوة كما هو شائع بين العامة قد يكون حجةً على الناس يوم القيامة، أما قبْلها فلا يمكن أن نُقنِع به أيًّا من غير المسلمين. فمثلاً لو قيل لليهود والنصارى في حياة النبي ﷺ إنه خاتم النبيين بمعنى أنه لن يأتي بعده نبي، فماذا عسى أن يقدمه لهم المسلمون من دليل على صدق دعواهم؟ وكيف يصدق الخصوم هذه الدعوى؟ البديهي أن وجه الفضْل إنما هو ما يمكن إثباته، أما ما لا يمكن إثباته فكيف يُعتبر فضلا؟ وختم النبوة هو أكبر فضل للنبي ﷺ على سائر الأنبياء بحسب عقيدة المسلمين؛ وإذا لم نستطع إثبات هذه الدعوى فكيف يثبت فضْله ﷺ؟ فلو قال الصحابة لليهود والنصارى إن نبيّنا أفضل الأنبياء لأنه لن يأتي بعده نبي، لضحكوا عليهم وقالوا لهم: أوّلاً، إنكم تؤمنون بأنفسكم بعودة المسيح، وثانيا: كيف تقومون بهذه الدعوى و لم يبعث نبيّكم إلا البارحة؟ ألم تعلموا أن النبي لم يكن يُبعث بعد النبي فورا، وإنما كان الأنبياء يُبعثون على فترات عادةً، فقد بُعث نبيكم بعد المسيح بستة قرون، فلننتظرْ ستة قرون. فماذا عسى أن يردّ به المسلمون على هؤلاء يا ترى؟ مما يعني أن إثبات المفهوم التقليدي لختم النبوة كان سيتطلب انتظار ستة قرون.. وبتعبير آخر: لظلّتْ دعوى ختم النبوة من دون دليل طيلة تلك القرون الستة. والحق أنه ما كان بوسع المسلمين أن يثبتوا دعواهم هذه بعد تلك القرون أيضا؛ لأن اليهود والنصارى كانوا سيواجهونهم بقولهم: ما رأيكم بالنبي القادم الذي تسمّونه مسيحا؟ كما كان بوسعهم أن يقولوا للمسلمين: لقد بُعث يوشع بعد موسى ببضع سنوات، أما موسى فقد بُعث بعد يوسف بقرابة ثلاثة قرون، ومن أجل ذلك نجد أن بني إسرائيل أخذوا يقولون بعد يوسف لطول الفترة التي لم يبعث لهم فيها نبي: ﴿لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولا﴾(غافر:٣٥)، مما يعني

أن النبي كان يُبعث بعد وفاة النبي فورًا حينًا، وحينًا بعد فترة طويلة، بل قد جاء نبيكم بعد المسيح بستة قرون حسب دعواكم، فإذا كان الله تعالى لم يبعث في هذه القرون الستّة أي نبي فهذا ليس دليلا على أنه لن يبعث بعد محمد أي نبي إلى يوم القيامة. لا شك أنه لن يأتي بعد النبي ﷺ أي نبي تشريعي، ولكن ليس بوسعنا أن نثبت بالمفهوم التقليدي لختم النبوة فضْلَ النبي ﷺ على الأنبياء الآخرين أمام الخصم إلى يوم القيامة؛ وهكذا سيظل فضْل ختم نبوة الرسول ﷺ خفيًا إلى يوم القيامة، مع أنه أكبر فضل له ﷺ على سائر الأنبياء. أما إثبات فضْله هذا يوم القيامة فلن ينفع أحدًا شيئا.

أما إذا قلنا: إن المراد من كونه ﷺ خاتم النبيين هو أن النبي في الماضي كان يقضي على تعاليم أنبياء أمة واحدة فقط، أما الرسول ﷺ فقد قضى على نبوّات أنبياء جميع الأمم في العالم كله، فهذه دعوى يمكن إثباتها منذ أول يوم بما لا يبقى معها مجال شبهة؛ ذلك أن علامة النبي الصادق بحسب الكتب السابقة والقرآن الكريم والعقل إنما هي أن يكون على صلة مع الله تعالى وأن يكون أتباعه من خلاله على صلة مع الله، مما يشكل حجة قاطعة على المنكرين بأنه صادق في دعواه وأنه مبعوث من عند الله تعالى. إذا كان هذا الدليل صحيحا -وهو صحيح بما لا يحوم حوله شك ولا شبهة- فإن المسلم يستطيع أن يتحدى أتباع الأديان كلها منذ أول يوم ويقول إن الدليل على كون نبينا خاتم النبيين هو أنه قد أنهى نبوّات الأنبياء كلهم، فلا يمكن أن يحظى أيٌّ من أتباع أمم الأنبياء السابقين بوصال الله تعالى، بل إن أتباع النبي ﷺ وحدهم الذين سيحظون بوصال الله تعالى بطريق مباشر. وجواب منكري الإسلام لا يخلو من أمرين: فإما أنهم سيقولون: إن الوصال المباشر بالله محال، أو يقولون بأنه لا يزال عندهم أناس يحظون بوصال الله تعالى مباشرة، والأمر محسوم بسهولة في كلتا الصورتين. فإذا أجابوا بالجواب الأول فسوف يقدّم المسلمون الآياتِ التي منَّ بها الله على أخيار هذه الأمة تدليلاً على أن أفرادها يحظون بوصال الله تعالى مباشرة، ولما كان الخصوم يعتبرون باب وصال الله مسدودا الآن، فيثبت أيضًا أن الله تعالى يتصل بجماعات أنبيائه مباشرة حتما، ولكن

لا يحظى بوصاله الآن إلا أفراد أمة محمد ﷺ دون غيرها، مما يدل على أن نبـوّات الأنبياء السابقين قد انتهت، وأن نبوة محمد ﷺ هي الجارية، وثبت بالتالي أنه خاتم النبيين. أما إذا ادعى الخصوم بوجود رجال في أممهم يحظون بوصـال الله تعـالى، فسوف يطالبهم المسلمون بتقديم ما منَّ الله به عليهم من وحي وإلهـام ليُعـرف صدقهم من كذبهم، وحيث إن الله تعالى قد قطَع بعد بعثة النبي ﷺ اتصاله المباشـر مع أتباع الأديان الأخرى كلها -إلا الاتصال الذي يكون مؤقتـا فقـط- فلـن يستطيعوا أن يحققوا هذه المطالبة، وهكذا أيضا يثبت أن النبي ﷺ هو خاتم النبيين.

وهذا المعنى الذي ذكرتُه ليس مجرد دعوى، بل هو آية بيّنة؛ ذلك أن الـدعوى المجردة هي ما يقدّمه المرء بدون أن يكون عليه دليل خارجي، أما الآية البينة فيوجد عليها دليل خارجي. ومفهوم ختم النبوة الذي ذكرتُه آنفا، فدليلـه موجـود في الخارج بين المسلمين وكذلك بين الأمم الأخرى. إنه موجود بين المسلمين بشكل إيجابي وبين غيرهم بشكل سلبي.

والمفهوم الثاني لختم النبوة هو كمالها، وهذا هو المعنى المتبادر مـن الآيـة، لأن الخاتم قد ورد فيها بفتح التاء، أي أنه يعني الختم والطابَع. والختم يفيد التـصديق، وخاتَم النبيين يعني أنه ختْمُهم.. أي طابَعُهم.. بمعنى أن من المحال أن تثبت نبوة نبي إلا بتصديقه ﷺ. وهذا المعنى أيضا ثابت في كل حين وفي كل عصر. فهو ثابـت بالنسبة إلى الأنبياء السابقين من حيث إنه لا تثبت نبوةُ أيٍّ منهم من دون شـهادة القرآن؛ فمستحيلٌ إثبات صدق المسيح عليه السلام من الإنجيـل، وموسـى عليه السلام مـن التوراة، وكرشنا ورام تشندر من الكتب الهندوسية، وزرادشت من الزندافستا، إنما هي البراهين والآيات القرآنية التي تدل على صدق هؤلاء الأنبياء جميعًا. أما الـنبي الذي يُبعث بعد محمد ﷺ، فهو ختْمُه.. أي أن من المحال أن ينال أحد درجة النبوة من دون اتّباعه والارتباط به ﷺ.

ولو قال قائل: كيف يكون هذا محالاً؟ فالجواب أن القرآن الكريم يقف دلـيلاً حيًا على ذلك. إنما يأتي النبي المستقلّ إذا تطرق الفساد إلى كتاب الـنبي الـسابق، ولكن القرآن الكريم محفوظ بكلماته وتأثيراته منذ أول يوم. أما حفـظ كلماتـه

فالخصوم أيضا يعترفون بذلك، وأما تأثيراته فيشهد عليها وجود الصلحاء والروحانيين في الإسلام في كل وقت وعصر، الذين يسمى الواحد منهم مجدِّدًا حينًا، ونبيًا تابعًا حينا، ووليًا لله حينا، وكلهم يعترفون باتّباع النبي ﷺ، فأي دليل أكبر من ذلك على ختم نبوة الرسول ﷺ؟

باختصار، إن ختم النبوة هو أكبرُ آية على فضل الرسول ﷺ على سائر الأنبياء، والذي هو ثابت له دومًا بحسب المفهوم الذي بينتُه، ويمكن إثبات صدقه أمام الخصوم في كل حين، كما نثبته أمامهم دائما.

والآية الثانية التي أظهرها الله تعالى للنبي ﷺ هي أنه بوّأه ذلك المقامَ الأسمى الذي وصفه بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾، فنبيُّنا ﷺ هو الوحيد الذي تجلّى الله عليه بتجلّيه الكامل.

ثم هو النبي الوحيد الذي قال الله تعالى له: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾(آل عمران:٣٢).

ثم قال الله تعالى في بيان مكانته العظيمة ﷺ: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾(النساء:٧٠). فما أعظمَ المنّةَ التي مَنَّ بها الله على رسوله ﷺ؛ إذ وعد الذين يتّبعونه بالنبوة والصدّيقية والشهادة والصالحية. والحق أن الأعظم هو مَن يعمل تحته عظماء. يا ترى، ما هو الفرق بين مدرّس الابتدائية والبروفيسور الذي يعلِّم طلاب الماجستير؟ إنما الفرق أن هذا المدرّس يعلّم صغار الطلاب، أما البرفيسور فيعلّم طلابا كبارا يدرسون الماجستير. إنهما يشتركان في الاسم، إلا أن أحدهما أكبر درجةً لأن تلاميذه كبار، والآخر أصغر درجة لأن تلاميذه صغار. كذلك الأنبياء فهم سواسية في التسمية، إلا أن الأعظم بينهم من كان أتباعه ذوي كفاءات عُظمى. وإلى هذه الحقيقة نفسها قد أشار الله تعالى هنا وقال بأن الذين يطيعون اللهَ والرسولَ.. أي محمدًا ﷺ.. فسوف يُدخلهم الله في الذين أنعم عليهم بنعَمه الخاصة.. أي يجعلهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وما أحسنَ هؤلاء الرفقاء! وكأن الله تعالى يقول هنا بأن تلاميذ محمد ﷺ سيكونون من الأنبياء

والصدّيقين والشهداء والصالحين. أما تلاميذ الأنبياء الآخرين فلم يستعمل الله تعالى في حقهم كلمة الأنبياء، بل قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾(الحديد:٢٠).. فلم يقل الله تعالى هنا: "والرسول"، بل قال: ﴿وَرُسُلِهِ﴾، إشارةً إلى الرسل السابقين.. فتبين أن الأتباع الكاملين للرسل السابقين كانوا ينالون درجة الصِدّيقين والشهداء فقط لا درجة الأنبياء. إذن، فإن الله تعالى قد فضَّل النبي ﷺ على الأنبياء السابقين بأن أتباعه الكُمَّل يمكن أن ينالوا نعمة النبوة أيضًا، أما أتباع الأنبياء السابقين فلم يبلغوا إلا درجة الصديقية والشهادة. ومن الأدلة على ذلك قول النبي ﷺ: "لو كان موسى وعيسى حيّينِ لما وسِعهما الا اتّباعي." (اليواقيت والجواهر ج٢ ص ٣٤٢)

باختصار، لقد فضَّل الله نبيه ﷺ على الأنبياء السابقين بأن تلامذته الكُمّل يمكن أن يبلغوا درجة النبوة، ولكنها نبوة ظلية بروزية.. أعني أنهم -مع كونهم أنبياء- يظلون تلاميذه التابعين له تمامًا.

يعترض البعض بأننا -نحن المسلمين الأحمديين- نسيء إلى النبي ﷺ إذ نشرك معه الآخرين في اسم النبوة. والحق أن منشأ هذا الاعتراض هو قلّة التدبر؛ فإننا نرى في الدنيا أن الأستاذ وتلميذه أيضًا يكونان حائزين على شهادة الماجستير، ولكن هل يستويان درجة؟ ألا نرى أن عميد الكلية والأساتذة الآخرون بل تلاميذهم أيضا يكونون حائزين على شهادة الماجستير، فهل في ذلك إساءة إلى العميد أو الأساتذة؟ الحق أنه كلما ازداد عدد تلاميذ الأستاذ الحاصلين على شهادة الماجستير ازداد عظمةً رغم اشتراكهم معه في الظاهر. فالاشتراك في الاسم لا يعني شيئا، إنما الاعتبار بالدرجة. ونحن نؤمن أن لا أحد يستطيع أن يسبق النبي ﷺ درجةً، فإنه سيظل تابعا له مهما نال من مقام. فإذا كان أحد من تلاميذ النبي ﷺ قد نال درجة النبوة ببركة اتّباعه ﷺ، فهذا يكشف عظمته أكثرَ ولا يسيء إليه أبدا، تماما كما أن حصول تلاميذ عميد الجامعة على شهادة الماجستير لا يسيء إليه بل يزيده رِفعة؛ إذ يقال إن من يعلّمه هذا العميدُ ينال درجة الماجستير.

باختصار، إن تلامذة النبي ﷺ يمكن أن يصبحوا أنبياء، أما تلامذة الأنبياء الآخرين فلا يبلغون إلا درجة الصِّدّيقية والشهادة. وهذا من أكبر ما يميّز النبي ﷺ على الأنبياء الآخرين.

ثانيا: تعليم الكتاب

والآن نتناول الجزء الآخر من دعاء إبراهيم عليه السلام وهو ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾. اعلمْ أن الأنبياء نوعان: أنبياء تشريعيون، وأنبياء غير تشريعيين، وكلهم يقومون بتعليم الكتاب، غير أن التشريعيين منهم يأتون بكتاب جديد، أما غير التشريعيين فلا يأتون بكتاب جديد. وكان النبي ﷺ نبيًا تشريعيا، وكان بلا شكٍّ أفضلَ من الأنبياء أجمعين بنوعيْهم، ولكننا نعقد المقارنة هنا بينه وبين الأنبياء التشريعيين، فإذا ثبت أنه أفضل منهم ثبت تلقائيا أنه أفضل من غيرهم أيضًا، لأن غير التشريعين أدنى درجة من الأولين.

والأنبياء التشريعيون الذين بُعثوا قبل بعثة النبي ﷺ هم اثنان بحسب القرآن الكريم وهما: نوح وموسى عليهما السلام. وكتاب موسى، وهو التوراة، موجودٌ، أما كتاب نوح فغير موجود، وكل ما ذكره القرآن بهذا الشأن عن نوحٍ هو: ﴿وإنْ مِن شيعَتِهِ لإِبْراهِيم﴾(الصافات:٨٤).. أي كان إبراهيم من جماعة نوح عليهما السلام. كان نوح صاحبَ شريعة، وكان إبراهيم تابعًا لشريعته. أما داود وزكريا وسليمان ويحيى –عليهم السلام– فكانوا كلهم تابعين لشريعة موسى. وإضافةٍ إلى ذكر هذين النبيّين التشريعيين فقد بين الله تعالى لنا في القرآن الكريم مبدأً هامًا وهو: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾(فاطر:٢٥).. أي ليس هناك قوم إلا وجاء فيهم نبيّ. فلو جاءنا اليوم شخص وقال لنا: إن فلانا كان قد بُعث نبيًّا في الدنيا وأحوالُه مشابهة لأحوال الأنبياء –اللهم إلا بعض القصص الخرافية التي تنسج وتضاف إلى الحقائق عادة– وقلنا له إنه ليس نبيا، لخالفْنا تعليم ديننا في الواقع. فمثلاً لو جاءنا هندوسي وقال إن "الفيدا" كتاب أنزله الله تعالى، وقد بُعث فينا أيضا أنبياء، أو قال كان "رام تشندر" نبي الله، أو قال كان كرشنا نبيا وكتابه "گيتا" موجود حتى اليوم وهو يحتوي على بعض ما أُوحيَ إليه، فكذّبْناه، أو جاءنا أحد البوذيين وقال: لقد

جاء في الهند نبي باسم بوذا، وكان الله يكلّمه، فكذَّبناه وقلنا إن كل هؤلاء كانوا كذّابين وخدّاعين، فإن هؤلاء سيُخرجون لنا هذه الآية من القرآن الكريم ويقولون إن كتابكم يعلن أنه قد جاء في كل أمة نبيٌّ، فأخبِرْونا الآن أيُّ نبي بُعث في الهند ما دمتم تنكرون كون كرشنا ورام تشندر وبوذا أنبياء الله؟ إذا أنكرنا كون هؤلاء أنبياءَ، فمِن أين نأتي بأنبياء آخرين في الهند، إلا أن نعترف بجهلنا. إنهم سيقولون لنا حتمًا إن كتابكم يدّعي أن الله تعالى قد بعث أنبياءه في كل بلد وفي كل قوم، فما الدليل على صحة هذه الدعوى؟ ولا شك أن هذا السؤال سيلقينا في ورطة، فإما أن نُصِرَّ على الإنكار مكابرةً، أو نضطرّ لفعل ما فعله أحد الأفغان؛ يُحكى أن أفغانيًا اشترى حبّات من الشمام، فوجد أنها ليست جيدة بل طعْمها مُرٌّ، فاستشاط غضبًا وبال عليها، ثم ذهب يعمل. وبعد حين شعر بالجوع فرجع إلى الشمام وأخذ حبة منها وقال في نفسه: هذه لم أبُلْ عليها، ثم أكَلها. ولم يزل يأتي بعد كل فترة ويأكل حبةً من الشمام حتى بقيت واحدة، فشعر بقرصات الجوع فقال: الحبات التي أكلتُها هي التي بُلْتُ عليها، أما هذه فلم أبُلْ عليها، فأكَلها أيضا. فلو رفضنا هؤلاء الأنبياء باعتبارهم كذّابين فيقول لنا المعترض: فمن ذا الذي بُعث في الهند إذن؟ فهل عندنا أي خيار إلا أن نقول له: نعمْ، كان رام تشندر وكرشنا وبوذا كلهم أنبياء الله تعالى. وما دمنا نضطرّ لتصديقهم في الأخير، فلماذا لا نقول بنبوتهم من البداية؟

وفيما يتعلق بكرشنا ورام تشندر، فإن صوفية الإسلام والأولياء قد شاهدوا بعض الرؤى التي تدل على كونهما من أنبياء الله تعالى. فقد ورد أن شخصًا جاء إلى حضرة "مَظْهَر جان جانان" -وهو أحد كبار أولياء الله في الهند- وقال له: إن رام تشندر وكرشنا كذّابان، لأني قد رأيت في المنام نارا ملتهبة، وكرشنا قائم في وسطها، ورام تشندر على حافتها. فقال له حضرته: إنما تُؤوَّل الرؤيا بلغة الرؤيا، واعلمْ أن النار في الرؤى تعني حُب الله، وإنما تأويل رؤياك هو أن كرشنا في بؤرة حُبّ الله تعالى، وأنه أفضل درجة من رام تشندر، ولذلك رأيت كرشنا في وسط النار ورام تشندر على حافتها.

باختصار، لقد أعلن القرآن أنه قد جاء إلى كل قوم نبيٌّ، فلو جاءنا أحد وادعى أن فلانًا كان نبيًا بُعث إلى قومه، ثم وجدنا وقائع حياته مماثلةً لأحوال أنبيـــاء الله تعالى فنقول لهذا: الحمد لله، لقد سهَّلتَ لنا الأمر. في نقاشاتي مع النصارى واليهود والهندوس أقول لهم دائمًا بأن القرآن قد سهَّل لنا الأمر بإعلانه هذا، أما أنتم فالأمر صعب عليكم جدًا؛ ذلك أن اليهودي حين يقول بأن موسى كان نبيًا، سيقول لـــه الهندوسي مستنكرا: كلا، إنه ليس بنبي؟ والزرادشتي حين يقول إن زرادشت كان نبيًا في إيران، سيصاب اليهودي والهندوسي بالهلع ويقولان: كيف نثبـــت الآن أن زرادشت كان كذابًا؟ ولو قيل للزرادشتي بأن بوذا كان نبيًا في الهند، لأصابه القلق وقال: يجب أن أثبت بأي طريق أنه لم يكن نبيا. أما نحن المسلمين فقد سهّل لنـــا القرآن الكريم الأمرَ تماما بإعلانه: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾، فلو جـــاءني الآن هندوسي وقال: كان رام تشندر وكرشنا نبيين في الهند، فأقول له: ما شـــاء الله! لقد سهّلت لي الأمرَ وجنّبتَني عناء البحث والتحقيق، وأكّدتَ لي مـــا قالـــه القرآن سلفًا، إذ لو سألتَني: أيُّ نبيّ بُعِثَ في الهند؟ لكنتُ في مـــشكلة. ثم عنـــدما أذهب إلى الصين وأسمع أهلها يقولون بأن كونفوشيوس كان نبيا عنـــدهم، أجـــد اليهود والنصارى يثيرون ضجة قائلين: لا يمكن أن يكون كونفوشيوس نبيًا، أما أنا فأقول: سبحان الذي سهَّل لي الأمر! إذ لو سألني أهل الصين: أخبِرْني مَن هو النبي الذي بُعث عندنا؟ لواجهت مشكلة، ولكنهم قد وفّروا علـــيّ عنـــاء البحـــث إذ أخبروني أن كونفوشيوس قد بُعث فيهم نبيًا، وهذا هو نفس ما علّمـــني القـــرآن. وعندما أذهب إلى إيران وأجد أهلها يقولون إن زرادشت قد بُعث نبيا فينا، وأجد اليهود والنصارى والهندوس يتضايقون من هذه الدعوى قائلين: هذا كذب، إذ لم يُبعث نبي إلا في أمتنا، أما أنا فيتهلل وجهي فرحًـــا وأشـــكر الله تعـــالى وأقـــول للإيرانيين: شكرًا لكم إذ أخبرتموني بأنفسكم باسم النبي المبعوث في أمتكم، وهكذا وفّرتم عليّ عناء البحث، واعلموا أن هذا ما يقوله كتابي القرآن أيضا.

فالحق أن كلّ مدّعي نبوةٍ بُعث في أمته لإصلاحها و لم يتعـــرض لعـــذاب الله، سنصدّقه شاكرين الله تعالى، لأن القرآن يخبرنا أن النبي الكاذب يتعرض لعذاب الله.

إذن، فالمبدأ الذي يعلّمنا القرآن الكريم إياه هو أنه قد بُعث في كل أمة نبيٌّ، إلا أننا لا نعلم من الأنبياء التشريعيين الذين شريعتهم لا تزال موجودة إلا اثنين؛ وهما موسى وزرادشت عليهما السلام. لا شك أن كتاب الفيدا الهندوسي يشتمل على شريعة، ولكن "الريشيين" الذين نزل عليهم "الفيدا" مجهولون، فلا نستطيع عقْدَ مقارنة بين النبي ﷺ وهؤلاء المجهولين. كذلك فإن شريعة نوح عليه السلام مفقودة. وهناك شخص آخر، وهو حمورابي، قد قدّم بعض القوانين، ولكن لا نعرف شريعته كاملةً؛ إن كتاباته تشير إلى نزول الوحي عليه وأنه كان موحدا، وأنه قد قدَّم مبادئ أخلاقية رائعة، ولكن لا نعرف تفاصيل شريعته، ولا نعرف ما إذا كان قد قدّم شريعة جديدة أم شريعة نبي سابق. فالحق أنه ليس هناك إلا نبيّان قبل النبي ﷺ شريعتهما معلومة، وهما موسى وزرادشت. والبديهي أن من المحال أن يخفي أحدُ أنبياءِ الله تعاليمَه، إذ كيف يمكن أن يبعث الله شخصًا برسالة إلى الناس فيخفيها عنهم. فالنبي لا يمكن أن يخفي أحكام الشريعة، إلا أنه قد يخفي بعض الوحي لمصلحة مؤقتة، ومثاله ما فعل النبي ﷺ يوم بدر، حيث أخبره الله تعالى بأن القتال سيقع بين المسلمين والجيش القادم من مكة، غير أن الله تعالى أمَره أن لا يكشف هذا الأمر لأصحابه الآن، فأخفاه عنهم ثم أخبرهم به فيما بعد في الوقت الملائم؛ وذلك لأن الله تعالى كان يريد اختبارهم. أما أحكام الشرع فلا يجوز إخفاؤها إطلاقًا.

فالحق أن الأنبياء كلهم يقومون بمهمة تعليم الكتاب. وهنا ينشأ سؤال: إذا كان الأنبياء كلهم قد بُعثوا لتعليم الكتاب كما بُعث النبي ﷺ للغرض نفسه، فما هو وجهُ فضْله عليهم؟

والجواب: المقارنة هنا ليست في تبليغ التعليم للناس، بل في كمال التعليم. الأنبياء سواسية فيما يتعلق بتبليغ التعليم، ولكن فيما يتعلق بكمال التعليم فليس هناك نبي يمكن أن يباري نبيّنا ﷺ، ومن أجل ذلك قال الله تعالى هنا في وصفه: ﴿يُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ﴾. والتعريف بـ "ال" في ﴿الكِتابَ﴾ يفيد الكمال كما هو ثابت من لغة العرب (مغني اللبيب)، والمراد أن هذا النبي يعلّمكم الكتاب الكامل.

لقد بينت آنفًا أن هناك نبيين شريعتهما معروفة، وهما موسى عليه السلام الذي كتابه التوراة، وزرادشت عليه السلام الذي كتابه الزندافستا، وعندما نقارن هذين الكتابين مع القرآن الكريم نجد الفرق هائلا، وإليك بيانه:

١: لم يذكر أيٌّ من الكتب السماوية الهدفَ الأساسي من أحكام الشرع إلا القرآن الكريم. والواضح أن الله تعالى لم ينزل الشرائع للاستمتاع كما يفعل الناس؛ حيث نجد الناس في إسبانيا مثلاً يستمتعون بمصارعة الثيران، وفي الهند يتفرج الملوك على مصارعة الفيلة. فلا يمكن القول بأن الله سبحانه وتعالى يستمتع ويضحك في السماء حين يتوضأ العبد في البرد القارس أو حين يصوم فلا يستطيع من شدة الجوع والإرهاق أن يخطو خطوة ويصفرُّ وجهه. هذا محال على الله تعالى، إنما أنزل الله أحكام الشرع لفائدتنا. فإن الحكومات الدنيوية أيضًا مهما كانت فاسدة، قلّما تسنّ قانونًا يخلو من منفعة، بل يكون في قوانينها شيء من مصلحة الرعايا حتمًا. كذلك فإن أحكام الله تعالى تنطوي على مصلحة ما للإنسان. ولكنك إذا نظرتَ في الكتب السماوية وجدتَ أنها كلها -ما عدا القرآن الكريم- تُقدِّم الشريعة كأنها غرامة تُفرَض على العباد. ففيما يتعلق بالفيدا -كتاب الهندوس- فإنه مختبئ تحت الحُجُب تمامًا، ولا أثر فيه للشريعة. أما التوراة والزندافستا فتكشف لك دراستهما أن فيهما شريعة، إلا أنه يخيل لك أن الله تعالى لم ينزل هذه الأحكام لمصلحة الناس، إنما أنزلها لأنه أراد هكذا، مما لا يحقّق الغرض الحقيقي من الشريعة، ألا وهو الإصلاح. لا شك أن في هذين الكتابين أحكامًا يتضح منها أنها لمنفعة الإنسان، ولكنها بحكم النادر والشاذ. إنما القرآن الكريم؛ وحده الذي يبين أن كل أحكام الشرع إنما هي لمنفعة الإنسان. لا شكّ أن الله تعالى ينزل بعض الأحكام ليختبر بها العباد، ولكن الأصل في أحكامه أن فيها مصلحتهم. يقول الله تعالى عن الأضاحي والقرابين: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾(الحج:٣٨).. أي أنتم الذين تأكلون لحوم الأضاحي والقرابين ولا يصل إلى الله لحومها ولا دماؤها، وإنما يصله تقوى قلوبكم التي هي وراء هذه الأضاحي. إنما

أمركم الله تعالى بتقديم الأضاحي لتتحلوا بـــالإخلاص وخـــشية الله والـــصلاح والسداد، وليس أنه يريد أن يفرض عليكم غرامة.

٢: ما هو نطاق الشرع؟ وما هي الأمور التي يأمرنا فيها وما هي الأمور التي لا يتدخل فيها؟ إن جميع الكتب الأخرى صامتة بهذا الشأن، بينما يلقي القرآن الكريم الضوء الساطع على هذه القضية. ما دام الشرع يتدخل في بعض الأمور ولا يتدخل في بعضها، فالسؤال: لماذا لا يتدخل في بعضها؟ أتركها نسيانًا أم عمدًا؟ والقـــرآن هو الكتاب الوحيد الذي تناول هذا الموضوع، مما يميّز القرآن الكريم على غيره من الصحف.

٣: ضرورة العقل مع وجود الشرع، وضرورة الشرع مع العقل. هذه قـــضية بالغة الأهمية إذ التسليم بضرورة الشرع مِن دون حلّها محال. لا شك أن الجاهـــل يسأل المشايخ عن كل شيء ويظن أنه لا حاجة به لإعمـــال الفكـــر في أحكـــام الشرع. وهذه العادة شائعة في أهل ولاية "أُتَر بَرْديش" في الهند بشكل خـــاص، إذ يذهب أهلها إلى الشيخ يسألونه، فيخترع لهم من عنده ما شاء من أجوبة. كان في "أتربرديش" طبيب من أقاربي، وقد خرج ذات يوم للصيد، فاصطاد غزالا، فجاءه أحد الفلاحين يسعى وقال له: أتعرف ما يُقرأ عليه عند الذبح؟ قال ســأقرأ عليـــه الكلمات التي أقرأها على الدجاج والكبش. قال: لا لا، هناك تكبيرة خاصة علّمَنا شيخنا إياها لذبح الغزال وهي: "لماذا كنت تقفز هنا وهناك وتأكل زروع الناس؟ فالآن لك الذلة ولنا العزة، الله أكبر". فالبسطاء يظنون أن هناك حكمًا إلهيًا معيّنًـــا لكل شأن من شؤونهم، فيذهبون إلى الشيخ عند كل صغيرة وكبيرة وهم يظنون أنه سيخفي عنهم المسألة الحقيقية، فيتوسلون إليه ألا يُخْفِي عنهم حُكم الله في ذلـــك الأمر، فإذا كان الشيخ عالمًا حقًا قال لهم: اذهبوا، فحُكْمه لا يختلف عن حكم كذا وكذا، أما الجاهل من المشايخ فيخترع حُكمًا من عنده متظاهرًا لهم بالعلم.

هناك عادة في بعض مناطق الهند بأن أهل كل بيت يحتفظون بـــسكين خـــاص بذبح الحيوان، وعندما يذبحون به حيوانا لا يـــذكرون اســـم الله ولا يكبّرونـــه،

ويقولون إن شيخنا قد قرأه على هذا السكين، وقراءته تُجزِئنا، ولا حاجة بنا إلى قراءة شيء بعده.

هذه العادة كانت ولا تزال عند اليهود أيضا، إذ يحتفظون لذبح حيوانات مختلفة بسكاكين معينة قد قرأ عليها رجال دينهم ما قرأوا، فلا يرون بعدها حاجة لقراءة شيء عند الذبح.

هذا هو حال بسطاء المسلمين، أما المثقفون منهم فيقولون: ما للهِ ولأعمالنا؟! أنحن أغبياء حتى يتدخل الله في أمورنا؟ إنما أنزل الله هذه الأحكام للجاهلين في الأيام الغابرة، أما نحن فنعلم كل المسائل والعلوم والفنون جيدًا، ونملك العقل والذكاء، فنحن في غنى عن هذه الأحكام.

إذن، فعامة الناس يُقحمون الشرع فيما لم يُرِد الله تعالى، والمثقفون يقحمون العقل فيما لم يرد الله تعالى، فكان حقًا على الله تعالى أن يبين لماذا يحتاج المرء إلى العقل مع الشرع وإلى الشرع مع العقل، ولكننا لا نجد كتابًا سماويًا يلقي الضوء على هذه القضية سوى القرآن الكريم.

والآن أتناول هذه الأمور بالتفصيل. فيما يتعلق بأصول الشرائع فهي خمسة في الإسلام:

أوّلها: الإيمان بالله، ويندرج فيه الإيمان بصفات الله وملائكته وكتبه ورسله والقضاء والقدر والبعث بعد الموت. وقد تناولنا هذه الأمور مفصّلةً فيما مضى.

وثانيها: العبادة، وهي ثلاثة أنواع: (أ) العبادة التي هي عبارة عن حركات الجسد وذِكْر الله، كالصلاة، (ب) العبادة الذِّكرية ومثاله ذِكر الله، (ج) العبادة الفكرية.. أي التدبر في صفات الله تعالى. وقد ذكر القرآن الكريم هذه العبادة بجميع أنواعها.

النوع الأول للعبادة، الصلاة: إن الصلاة في الإسلام تشتمل على حركات جسدية وأذكار وأدعية، مما يجعل الصلاة الإسلامية أفضلَ من صلاة الأديان الأخرى. إن جميع الحركات الجسدية فيها ذات وقار وفيها أهداف ومنافع، وقد رُوعي فيها جميع أساليب التعظيم والاحترام الشائعة عند مختلف الأمم. فالأمة

الفارسية تعتبر الوقوف مع إسبال اليدين منتهى التعظيم، أما الأمة التركية فترى الوقوف بأيد مربوطة على الصدر علامة قمة التعظيم، أما الهندوس وغيرهم من الأمم فيرون الانحناء منتهى الأدب. وأهل الهند والأفارقة يعتبرون السجود منتهى التعظيم، بينما تعتبر الأمم الأوروبية الجلوس على الركب منتهى الاحترام. بعد انقسام الهند لا يوجد في باكستان الآن هندوس وسيخ بكثرة، أما قبل الانقسام فكان هؤلاء يزوروننا بكثرة ويخرّون على أقدامنا تعظيمًا مهما نهيناهم عن ذلك. في بداية خلافتي جاءني أحد السيخ باكيًا إذ كان يحب المسيح الموعود عليه السلام بشدة، وقال لي شاكيًا: لقد ظلمتْني جماعتك ظلما عظيما. فظننت أنه قد تشاجر مع بعض الأحمديين فضرَبه، فقلت له: لا تحزن، فإني سأتحرى الأمر وأعاقب هذا الظالم، ولكن أخبِرْني ماذا حدث. قال: لقد ذهبت اليوم إلى "بهشتي مقبرة"، فلما سجدتُ لقبر حضرة الميرزا أخذني الأحمديون وأخرجوني من المقبرة. فقلت له: لقد أصابوا فيما فعلوا. قال: ولكن ما فعلتُه صحيح في ديانتنا، ولكم دينكم ولي دين، وسوف أفعل كما أريد، ولا يحق لأحد أن يمنعني من ذلك. فشرحت له الأمر بإسهاب حتى زال غضبه.

ورأيت أن الأتراك يقفون رابطي الأيدي عند قراءة أبيات "المثنوي" التي هي من نظم "الرومي" الصوفي الشهير. والمغول أيضًا يقفون رابطي الأيدي تعظيما، أما الإيرانيون فيقفون سابلي الأيدي تعبيرًا عن الأدب والاحترام. فكل أمة قد اتخذت علامة لمنتهى التعظيم، وقد جمع الإسلام في الصلاة كل هذه العلامات، وإن في ذلك منافع كثيرة؛ ذلك أنه مما لا شك فيه أن المؤمن يستمتع بالصلاة كلها عموما، ولكنه عندما يصل فيها إلى علامة التعظيم الخاصة بقومه فتبلغ مُتْعتُه بصلاته الذروةَ. فكل من يعتنق الإسلام من مختلف الشعوب يجد سكينة عظيمة في الصلاة الإسلامية، فالمسيحي يستمتع بجلسة التشهد أكثر، والهندي يجد المتعة في حالة السجود أكثر، والإيراني يجد لذة في حالة الوقوف، واليهودي يستمتع بحالة الركوع. فما أعظمَ الميزة التي يتميز بها الإسلام! وكأنه قد أشار بذلك إلى أن الناس

من كل الأمم والشعوب سيدخلون في الإسلام. ولكننا لا نجد هذا الأمر بهذه الروعة في عبادات الأمم الأخرى.

ثم إن الإسلام قد فرض الوضوء قبل الصلاة، وهو أمرٌ هام جدًّا لتكميل العبادة، إذ الثابت بالخبرة أن الإنسان إذا ركَّز أفكاره في شيء ضاعت طاقته من أطراف مختلفِ أعضائه التي تنتهي عندها أطراف الأعصاب، فتتشتت أفكاره ويفقد التركيز، ولو تمَّ رشُّ هذه الأعضاء بالماء لتركّزت أفكاره ثانية. وقد جُعل الوضوء منعًا لتشتُّت الأفكار.

وتحقيقًا لهذا الغرض لم نؤمر بالوضوء فقط، بل قد جعل الله تعالى السنن والنوافل قبل صلاة الفرض وبعدها، كما حثّ على ذكره تعالى بعد الانتهاء من الصلاة. وهكذا لم يجعل الله سدًّا أمام مختلف الأفكار قبل صلاة الفرض فقط، بل بعدها أيضا.

والحق أن التجهيز لكل عمل يبدأ قبل موعده بوقت، فمثلاً إذا أردنا أن نركب قطارًا سيتحرك في الساعة العاشرة، فنبدأ التفكير بذلك في الساعة الثامنة، وإذا أردنا الإفطار من الصوم سنبدأ التفكير والاستعداد لذلك قبل مغيب الشمس بربع ساعة أو ثلثها. وهذا هو حال أعمالنا الأخرى، أعني أن تأثير العمل السابق على نفسنا يستمر بعض الوقت، كما يبدأ التفكير في العمل القادم قبل موعده بوقت، فلولا أن الله تعالى جعل الوضوءَ قبل صلاة الفرض والنوافلَ بعدها، لضاعت نصفُ صلاة المرء في التفكير في العمل السابق ونصفُها في التفكير في العمل الآتي بعدها، ودفعًا لهذا العيب قد جعل الله تعالى الوضوء والسنن والنوافل قبل صلاة الفرض وبعدها أيضا، وهكذا جعل الصلاة محمية بين سدّين. ولو ضاعت صلاة المرء بعد هذه التدابير أيضا فهذا تقصيره هو، أما الله تعالى فقد أتاح له الفرصة لأدائها في معزل عن هجوم أفكار الدنيا، وحمى هذه العبادة مِن أي هجمة شيطانية ممكنة.

وبالمقابل نجد أن العبادة في الهندوسية والمسيحية ليست إلا غناء وموسيقى، وهي مجرد تلذُّذٍ وليست بعبادة في الحقيقة، أو جعلوا العبادة طقوسًا أخرى لا جدوى منها، إذ يوقدون النار ويضعون عليها الزيت، وإذا اشتعلت رددوا بعض الكلمات.

كيف يتطهر القلب بطقوس كهذه؟ لا شك أن قولنا: "سبحان الله العظيم" يطهّر القلب، ولكن ماذا سينفع المرء ترديد كلمة (صاحا) عند اضطرام النار؟

أما الزرادشتيون فيعبدون متجهين إلى الشمس أو الماء. لا شك أن هناك أدعية في عبادهم، ولكنها قد اتخذت طابع الوثنية.

أما صلاة اليهود فهي خالية من السجود، ثم إنها ليست مبنية على أي أصل.

باختصار، إن الصلاة الإسلامية

(١): تحوي جميع أركان التعظيم وعلاماته.

(٢): لقد عيّن الإسلام للصلاة قِبلةً لا بد منها للاتحاد، الأمر الذي لا يوجد عند الآخرين. لا شك أن الأمم الأخرى أيضا تتوجه إلى جهة معينة عند الدعاء الجماعي، ولكن لا يكون عندهم إحساس أن إخوانهم الآخرين في العالم كله أيضا مشتركون معهم في هذا العمل. أما المسلمون فالأفارقة منهم يتجهون خلال الصلاة نحو الشرق، والأوروبيون منهم يتجهون نحو الجنوب، والإيرانيون منهم إلى الجنوب الغربي، والهنود منهم إلى الغرب، فحالتهم جميعًا خلال الصلاة تشبه حالة الهندوس حول "هَوَن"● إذ يكونون -أينما وُجدوا في العالم- متجهين خلال عبادهم إلى قبلة واحدة. أما اليهود والنصارى والهندوس فيتّجهون في عبادهم حيثما شاءوا، فبعضهم يتجه نحو الشمال، وبعضهم نحو الجنوب، وبعضهم نحو الشرق، وبعضهم إلى الغرب، إذ يكون مقعد هذا موجهًا إلى ناحية، ومقعد ذاك إلى ناحية أخرى. عندما يؤمّ القسيس المسيحيين في عبادهم يجلس بعضهم على يمينه، وبعضهم على شماله، ويقف بعض نُوّابه وأعوانه وراءه حاملين الماء أو الشمع دون أن يكون عندهم أي إحساس بالاتحاد. أما المسلمون فيكون عندهم إحساس عند الصلاة أنهم متجهون إلى جهة واحدة، سواء كانوا من شمال الكرة الأرضية أو جنوبها أو شرقها أو غربها. وهذا سبب عظيم للاتحاد شريطة أن ينتفع منه المسلمون.

● هَوَنْ وهَوَمْ: عبادة هندوسية يحرقون خلالها السمن على النار ويتحلّقون حولها. (المترجم)

غير أن الإسلام قد بيّن -درءًا للشرك- أنه ليست في القبلة ميزة ذاتية، فقال الله تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾(البقرة:١١٦).. أي أن الشرق والغرب سيّان عند الله، فأينما تتوجهون تجدون الله تعالى.

باختصار، ليست هنالك ديانة سوى الإسلام بلَّغت العبادةَ الذروةَ والكمال، مما يشكّل دليلاً عظيمًا على فضل الإسلام على غيره من الأديان.

(٣): ثم إن الإسلام قد أرسى مبدأ الجماعة في العبادة، وهذا هو هدف الدين. ذلك أن الحياة الإنسانية ذات جهتين: فردية وجماعية، ولا بد من مراعاتهما في مجال الدين والسياسة والأمة والأخلاق والتمدن وما إلى ذلك، وإلا لفسَد المجتمع. والأمم التي لم تُراعِ في سياستها الحياة الجماعية والمسئوليات الجماعية أصابها الضعف في النهاية، أما الأمم التي اعتبرت الإنسان قطعة من آلة السياسة، فقد سدّت طريق التقدم أمام الناس، كما فعلت الشيوعية. إنما المبدأ الأصيل والناجح في السياسة هو الحفاظ على التوازن السليم بين الفردية والجماعية في وقت واحد. وهذا هو المبدأ الناجح والنافع في الدين أيضا. والإسلام وحده الذي قد عمل بهذا المبدأ، فهو الوحيد بين الأديان الذي قد أعطى الروح الجماعية مقامها اللائق والمحترم لأوّل مرة في تاريخ الأديان. خذوا مثلا الصلاة، فقد بيّنت آنفًا أن الأمم الأخرى أيضا تجتمع للعبادة: المسيحيون في كنائسهم، والهندوس في معابدهم التي يسمونها "مَنْدَر"، والسيخ في معابدهم التي يسمونها "غُرُودَاوارا"، ولكن لا يوجد عند هذه الأمم الطابع الجماعي الموجود في الصلاة الإسلامية. ثم إن صلاة الجماعة ليست فرضًا عندهم.. أعني أن مَن لم يقم بالعبادة الجماعية عندهم لا يُعتبر آثما، أما الإسلام فقد فرض صلاة الجماعة على كل مسلم إلا إذا كان عنده عذر. لا شك أن المسلمين قد غفلوا عن دينهم اليوم، ولا يحضرون المساجد كما ينبغي، ولكن لا يهمّنا هنا عملهم، إنما يهمّنا تعاليم الإسلام. إن ما يعلّمه الإسلام هو أن صلاة الجماعة فرض على الجميع، وكل مسلم يقرّ -مع ضعف التزامه- أنها فرض. إذن، فأحد الفروق البارزة بين عبادة الإسلام وبين عبادات الديانات الأخرى أن الإسلام قد فرض

صلاة الجماعة، بينما لم تفرضها الأديان الأخرى، بل خيّرت أتباعها في حضورها وعدمه.

ثم إن الإسلام فرض علينا صلاة الجماعة مرات عديدة في اليوم، الأمر الذي لا نظير له عند الأديان الأخرى. ففي الإسلام هناك صلاة قبل طلوع الشمس، وبعد زوالها، وقبيل غروبها، وبعد مغيبها، وقبل النوم. لقد فرض الإسلام هذه الصلوات الخمس على كل مسلم، ولم يخيّره في أدائها. متى توجد العبادة بهذه الكثرة وبالجماعة عند الآخرين؟ فمع أن المسلمين قد صاروا غافلين عن دينهم اليوم، إلا أننا لو جمعنا صلوات الذين يحضرون المساجد في سنة واحدة، لفاقت عبادة المسيحيين في عشر سنوات. فمثلا إذا كان ٥% من المسلمين يصلّون، فهذا يعني أن ٢٠ مليون من مجموع ٤٠٠ مليون مسلم يصلّون، وهؤلاء العشرون مليونًا من المصلين يؤدون ١٠٠ مليون صلاة في اليوم، و٧٠٠ مليون صلاة في الأسبوع، وكلها صلوات بالجماعة، أما المسيحيون فلا يصلي منهم إلا ٢% أو ٤ % منهم فقط. لا شك أن نسبة المصلين المسيحيين في الهند أكثر من البلدان الأخرى، لكنهم يصلّون على العموم رياءً، أما في أوروبا فلا يصلي إلا نحو ٢% منهم، فلو زرت الكنائس الضخمة هناك، لم تجد فيها إلا ٥ أو ٦ من المصلين، ومع ذلك لو اعتبرنا أن ٥% من المسيحيين يصلّون فهؤلاء لا يصلّون إلا مرة في الأسبوع، أما المسلمون فكل واحد من الـ٥% منهم يصلّي ٣٥ صلاة في الأسبوع ، ويصلي الـ٥% من المسلمين في الأسبوع ١٧٥ صلاة. فانظرْ البون الشاسع بين صلوات المسلمين والمسيحيين، حيث يصلي ٥% من المسيحيين في الأسبوع صلاة واحدة، بينما ٥% من المسلمين يصلون في الأسبوع ١٣٥ صلاة.. وهذا يعني أنه لو افترضنا أن عدد المسيحيين مثل عدد المسلمين وأن الذين يحضرون للصلاة في كنائسهم يماثلون عدد المسلمين المصلين – مع أن الأمر ليس كذلك– مع ذلك؛ فإن المسلمين يصلّون ١٧٥ ضِعفًا أكثر من المسيحيين.

أما الهندوس فلا توجد عندهم العبادة بهذا القدر أيضا. أما الزرادشتيون؛ فيذهب كاهنهم إلى شاطئ البحر، فيقوم بدعاء قصير هناك.

فثبت أن صلوات الأديان الأخرى لا تساوي شيئًا إزاء الصلاة الإسلامية. لم تبقَ عند النصارى العبادة الأسبوعية أيضا، وإنما يعلن قسيسهم أنه سيكون غناء في الكنيسة في اليوم الفلاني، فيجتمعون للاستمتاع بالغناء، أما المسلمون فيحضر إمامُهم إلى المسجد بهدوء، ويحضر المصلون وتُقام الجماعة. لا شك أن أكثر المسلمين لا يصلّون اليوم، ولكن نسبة المصلين بينهم أكثر بكثير بالمقارنة مع المصلين في الأديان الأخرى. فمبدأ الصلاة في الجماعة الذي أرساه الإسلام من أجل اجتماع الأمة واتحادها لا نظير له في الأديان الأخرى. ثم إن الإسلام قد اشترط لصلاة الفرض أن يؤديها المرء في مسجد حيِّه (الترمذي: أبواب الجمعة)، ولكن هذا الشرط ليس عند الأديان الأخرى، بل يمكن لأحدهم أن يصلّي في أي معبد أو كنيسة، ولكن عدم صلاة المرء في مسجد حيّه قد يؤدي إلى سريان نزعة الاختلاف فيه مع جيرانه أو أهل حيّه أو مع إمام الصلاة، فلا يمكن إصلاحه في وقته. فالإسلام قد حاول بهذا الحكم تكميل المنافع الكامنة في صلاة الجماعة. ورد في الروايات أن أحدًا قال لصحابي: تعال نصلِّ في مسجد الحي الفلاني، فقال الصحابي: لقد سمعت الرسول ﷺ يقول أن على المسلم أن يصلي في مسجد حيِّه، لذا فيجب أن نصلي في مسجد حيِّنا.

فالإسلام يأمر بأداء الصلاة جماعة وفي أقرب مسجد لبيته، إلا أن يكون في مسجد آخر مناسبة خاصة للوعظ والنصح. ولكن هذا الأمر لا يوجد عند المسيحيين ولا الزرادشتيين ولا السيخ ولا غيرهم. إذا صلى الناس في مساجد الأحياء الأخرى فلا يصبح المؤمنون جماعةً، ولا يتحقق الغرض من الصلاة جماعةً؛ ذلك إذا لم يحضر المرء في مسجد حيِّه، علِم الجميع بذلك وعُرف فورا، وإذا قال عند السؤال بأنه يصلي في مسجد حيٍّ آخر، قيل له: لماذا تصلي هناك مع أن المفروض أن تصلي في مسجد حيِّك. ولو قام الناس بتحرّي الأمر لوجدوا أن هناك مشكلة، فقد يكون ساخطًا على إمام المسجد مثلاً، وفي هذه الحالة من واجب الجماعة ونظامها الإصلاحُ بينهما، وهكذا تتّحد كلمة المسلمين ثانيةً.

باختصار، هذه ميزة للإسلام لا نظير لها في أي ديانة أخرى.

(٤): ثم إن الله تعالى قد مهّد بالصلاة الإسلامية للتدبر في صفاته تعالى. يقرأ المسلم القرآنَ في صلواته كلها، ويقوم بالأدعية الكثيرة في الركوع والسجود، ويردّد في سورة الفاتحة قوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ويتدبر فيها. عند النصارى دعاء محدد يردّده القس، أما المسلم فواجبه أن يقرأ هذه الأدعية بنفسه، وهكذا فتح له الإسلام طريق التدبر في صفات الله تعالى.

(٥): لقد جُعلت الصلاة الإسلامية وسيلةً للقاء الله تعالى، فعندما يبدأ المسلم صلاته بقوله: الله أكبر، فكأنما يحضر في بلاط الله تعالى، فلا يكلّم أحدًا. أما المسيحيون فإذا دخلتْ عليهم في الكنيسة فتاة جميلة أخذ الجميع يحملقون بها، أما في صلواتنا فلا يجوز النظر هنا وهناك، بل يصبح المصلي مستغرقا في صلاته كل الاستغراق حتى لا يجوز له الرد على سلام الآخر، بل إذا أخطأ المصلي في صلاته فلا يحق لمن لا يصلي معه جماعةً أن ينبّهه إلى خطئه، فمثلا إذا نقص المصلي سجدة أو زادها وكان هناك شخص يراه ويعرف أنه قد أخطأ فلا يحق له أن ينبهه إلى خطئه إلا إذا كان المخطئ إماما وكان هذا يصلّي خلفه. إذن، فالمسلم يكون ماثلا أمام الله تعالى في بلاطه وقت الصلاة، ولا يحق لأحد أن يتدخل في صلاته. كما لا يجوز للمسلم أن ينظر هنا وهناك خلال الصلاة، فقد قال النبي ﷺ: مَن نظر في الصلاة هنا وهناك حوّل الله تعالى رأسه رأسَ حمار*. وهذه إشارة إلى حمقه. وأيّ شك في أن مثل هذا أكبر أحمق! يا ترى، لماذا ينظر هذا يمنة ويسرة في صلاته؟ إنما سببه أنه يرى شيئا يثير عجبه. وهل هناك ما هو أشدُّ إعجابا من الله تعالى؟ فإذا

* ورد في الحديث أن النبي ﷺ قال: "أَمَا يَخْشَى أَحَدُكُمْ، أَوْ لا يَخْشَى أَحَدُكُمْ، إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ قَبْلَ الإِمَامِ أَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ رَأْسَهُ رَأْسَ حِمَارٍ، أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ صُورَتَهُ صُورَةَ حِمَارٍ (صحيح البخاري:كتاب الأذان). وورد أيضا عن رسول الله ﷺ أنه قال: "لا يَزَالُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مُقْبِلاً عَلَى الْعَبْدِ وَهُوَ فِي صَلاتِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ، فَإِذَا الْتَفَتَ انْصَرَفَ عَنْهُ." (أبو داود: كتاب الصلاة). (المترجم)

كان يصرف بصره عن الله تعالى وينظر إلى أشياء أخرى، فلا شك أنه حمـــار. إن أمامه وجه جميل، ولكنه ينظر إلى القط والفأر؛ فأي شك في كونه حمارًا؟

فالحق أن الصلاة الإسلامية وسيلة عظيمة للقاء الله تعـــالى، ولكـــن صـــلوات الديانات الأخرى ليست وسيلة للقاء الله تعالى. فعندما يقود القـــسيس النـــاسَ في عبادتهم في الكنيسة يحمل أحد زملائه مصباحا، والآخر ماء، والثالث يقوم بعمـــل آخر، ومع ذلك يقال أنهم يصلّون. أما الصلاة الإسلامية فلا يجوز لأحد أن يتكلم فيها أو ينظر خلالها هنا وهناك، الأمر الذي لا أثر له في عبادات الأديان الأخرى. كان الصحابة في أول أمرهم يتكلمون فيما بينهم خلال الـــصلاة، إذ لم يكونـــوا مدركين بعدُ حقيقة الصلاة تمامًا، فإذا حضر أحدهم متأخرا، سأل المصلين في أيـــة ركعة أنتم الآن؟ فكان يجيبه على سؤاله، ولكن النبي ﷺ نهاهم عن ذلك (البخاري، كتاب الجمعة)، فلا يجوز في الإسلام أن يردّ المصلي على أحد سلامَه ولو كان أباه أو أخاه أو ابنه أو مديره أو أحدًا من معارفه، ذلك لأن المصلي لا يكون في هـــذا العالم خلال الصلاة. لو كان هنا لرد عليهم سلامهم، إنما يكون قد ذهـــب إلى الله تعالى، فكيف يرد عليهم السلام؟ ومن أجل ذلك يبدأ المصلي صلاته بقولـــه: الله أكبر، وكأنما يعلن: أيها الإخوة والأقارب، أنتم أعزّةٌ عليَّ، ولكن الله أعزُّ عليّ مِن كل عزيز؛ فإني ذاهب إليه قاطعا أي صلة معكم. وعندما ينهي صـــلاته يقـــول: السلام عليكم، معلنًا أنه قد رجع الآن مِن عند الله إليهم، فيكون مَثله عندئذ كمثل مَن يأتي من الخارج ويسلّم على أهل بيته. يا لها من صلاة خالصة ومكتملة!

(٦): لقد فتح الإسلام من خلال الصلاة طريق الدعاء. والدعاء نوعان: محـــدَّد الكلمات، وغير محددها. والأدعية المحددة هي أفضل الأدعية وأروعُها، أمـــا غـــير المحددة منها فهي تلك التي نقوم بها بلساننا حسب حاجاتنا. وحيث هناك احتمال أن نترك بعض الأدعية الهامة الرائعة أو لا نتذكرها، فلـــذلك حـــددها الله تعـــالى بواسطة رسوله ﷺ، فدعاء الفاتحة مثلا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَـــالَمِينَ * الـــرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ هو مِن الأدعيـــة

التي ما كانت لتخطر ببالنا، وكذلك ما كان دعاء: "سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد" ليخطر لنا على بال، ولذلك جعلها الله تعالى ورسوله من الأدعية المحددة التي نقرأها في الصلاة، ومن ناحية أخرى سمح الله تعالى لنا بترديد بعض الأدعية بلغتنا حسب حاجاتنا عند خسارة مال أو فساد وظيفة أو كساد تجارة أو أية حاجة أخرى. ولا توجد مثل هذه الأدعية الفردية أو الجماعية في عبادات الأمم الأخرى.

(٧): ومن خصائص الصلاة الإسلامية القراءةُ بالجهر والسرّ. أما عند المسيحيين فتجد أن قسيسهم يقوم للوعظ ويقرأ آية من الكتاب المقدس ويشرحه في خطابه، وهذه تُعتبر عبادهم. ثم يدعو مثلاً: لِيَأْتِ مَلَكُوتُكَ، لِتَكُنْ مَشِيئَتُكَ كَمَا فِي السَّمَاءِ كَذلِكَ عَلَى الأَرْضِ. خُبْزَنَا كَفَافَنَا أَعْطِنَا الْيَوْمَ. (مَتَّى ٦: ١٠-١١)، وما إلى ذلك من أدعية معروفة عندهم. أما الإسلام فقد قسم الصلاة قسمين، أحدهما بالجهر والآخر بالسر. ثم هناك أجزاء من الصلاة يجهر الإمام فيها بالقراءة ونردّد وراءه سرًّا عندما يتوقف قليلا، مثل سورة الفاتحة، وأجزاء أخرى يجهر بها الإمام بالقراءة ولا نردّد وراءه، وإنما ننصت إليه في صمت، مثل الآيات القرآنية التي يقرأها بعد الفاتحة.

ثم إن النبي ﷺ قد أمرنا أن يكون أتقى القوم إمامًا في الصلاة، ذلك أن أتقى الناس إذا صلى بهم فلا بد أن يمتزج في صوته حرقة ولوعة تؤثّر على الآخرين وتحدِث فيهم تغيرا طيبا. كان الخليفة الأول رضي الله عنه يحكي أنه كان في مدينة "راولبندي" مؤذن عذب الصوت، وكان أحد كبار السيخ جارًا للمسجد، فقالت له ابنته يومًا: يا أبت، سوف أصبح مسلمة. فقال: ماذا رأيت في الإسلام؟ قالت: إنه دين حق، فإني أشعر في صوت مؤذنهم حرقة تدل على حب الله تعالى. فدعا السيخيُّ المؤذنَ وأعطاه عملاً مقابل أجرة مغرية جدًّا ورحّله من المسجد، فجاء مؤذن آخر قبيح الصوت، وبعد أيام قال السيخي لبنته: ما رأيك الآن في الإسلام؟ قالت: لا أرغب فيه الآن، لأني علمتُ أن بين المسلمين أخيارا وأشرارا أيضا، كما هو الحال عندنا نحن السيخ.

إذن، عندما نسمع من الإمام الذي هو أتقانا صوتًا ممزوجًا بلوعة قلبية فلا بد أن تلتاع قلوبنا، ونزداد خشوعا ودعاء في الصلاة.

(٨): ثم إن الإسلام لم يجعل إمامة الصلاة خاصة بأسرة أو قبيلة معينة، بينما لا يمكن أن يؤم النصارى في عبادهم إلا قسيس خاص. وأما الهندوس فلا يمكن أن يؤمهم في عبادهم إلا عالم دين من عرق خاص، وأما السيخ فلا يمكن أن يؤمهم في عبادهم إلا عالم خاص يسمونه "غارنثي". لقد قضى الإسلام على هذه العادات، وأعلن أن كل إنسان تقيّ -بغض النظر عن عرقه أو عائلته وطبقته- يمكن أن يكون إمامًا في الصلاة. عندما يزور الأوروبيون بلادنا تأخذهم الحيرة عند رؤية هذه الخصوصية في صلاتنا، إذ لا يمكن أن يؤمّهم في عبادهم إلا قسيس حاصل على شهادة دينية معينة، ولكن الله تعالى قد أرسى المساواة في بلاطه بإعطاء حق الإمامة لكل مسلم بشرط التقوى.

ثم لا يمنح الإسلام المصلين أي امتياز من عرق أو غيره خلال الصلاة في المسجد. أما لو ذهبت إلى كنائس الإنجليز وجدت فيها مقاعد خاصة بعائلات معينة، ومكتوب عليها هذا المقعد لِلَّوْرد فلان وذلك لفلان لأنه يدفع للكنيسة ٥٠ باوند سنويا مثلاً، وهذا يعني أنهم يبيعون مكان عبادة الله للناس. وهذا هو حال الأمم الأخرى أيضا، حيث يخصصون أماكن للكبار، فالبانديت الهندوسي أو الغارنثي السيخي إذا ما رأى أحد الكبار قد حضر للعبادة، فلا يلبث أن يرحب معلنًا: ها قد جاء فلان، ثم يقول له: تعال اجلس هنا، وذلك خلال إمامته للناس بالعبادة أو قراءته كتابهم عليهم. وهذا محال عند المسلمين، ولو فعل هذا أحدُ أئمتهم لخاصمه الجميع قائلين: اخرجْ فقد بطلت صلاتك.

عندما أصبح المسلمون ذوي ثروات بعد الرسول ﷺ وأصيبوا بالكبر والغرور، فإن ملوكهم إذا جاءوا للحج ذهب بعض خدمهم إلى المسجد الحرام مبكرا ووضع هناك سجادة للملك، وذات مرة جاء مسلم فقير ووقف على سجادة مِلِكٍ ليصلي، فقال له جندي: لماذا تقف هنا، فهذا مُصلّى الملك؟ فأجابه: هذا ليس بلاط الملك، هذا بلاط الله، والجميع سواسية هنا. فحاول الجندي الضغط عليه، فهبَّ جميع

المصلين وقالوا: هذا بلاط الله مِلكِ الملوك، والمِلكُ هنا مثل الخادم، والضعيف هنا مثل القوي، وثارت ضجة في المسجد، فلم يجد المِلك بدًا إلا أن يخضع لرأيهم. فبنى الملوك بجوار المسجد مكانًا خاصًا يصلون فيه، ولا يدخلون المسجد، لأنهم إذا دخلوه فلا بد أن يقفوا مع الآخرين. لقد جاءت حكومات إسلامية كثيرة، ولكن لم تجرؤ أي منها على تحديد مكان خاص بالملك داخل المسجد، فلا يستطيع أحد أن يمنع أحدا من أصحاب المهن البسيطة من غسّال وحلاّق وفُخَّاري وغيره من الوقوف بجانب المِلك في الصلاة، بل لا يقدر المِلكُ نفسه على منعه من ذلك.

إذن، فإن الإسلام إذ أعلن أن الجميع سواسية في حق إمامة الصلاة، فقد أعلن أيضًا أن الجميع سواسية في أداء الصلاة في أي مكان في المسجد، وهكذا أرسى المساواة بين الناس.

(٩): ثم إن الإسلام قد أزال من العبادة قيدًا آخر، فالمسيحي إذا أراد الصلاة فلا بد أن يصليها في كنيسته، والهندوسي لا بد له أن يذهب إلى معبده، والسيخي لا بد أن يذهب إلى معبده، أما الرسول ﷺ فأعلن: جُعلتْ لي الأرض مسجدا (البخاري، كتاب الصلاة). تقام العبادة عند المسيحيين في الكنائس فقط وعند الهندوس في معابدهم فقط، أما المسلمون فهم يسجدون في كل شبر من الأرض. عندما نذهب إلى الجبال نختار للصلاة أماكن مختلفة متعمدين، لكي لا يبقى هناك مكان لم يُعبد الله فيه. انظرْ كَمْ وسّع الإسلام موضوع الصلاة، فإذا كان الله تعالى قد أرسى المساواة بين الناس بمنح حق الإمامة لكل مسلم وجعْلِهم سواسية في مساجدهم، فقد جعل كل شبر من الأرض مساويًا لشبر آخر فيها حين قال رسوله ﷺ: جُعلت لي الأرض مسجدا.

(١٠): وإذا كان الله تعالى قد جعل الأرض كلها مسجدا للمسلمين بقول الرسول ﷺ هذا، فإنه تعالى قد جعل بيت كل مسلم مسجدا، ذلك أن الرسول ﷺ قد استحب أداء النوافل في البيوت قائلا: "لا تجعلوا بيوتكم مقابر" (مسلم، كتاب صلاة المسافرين).. أي لا تظنوا أن الصلاة لا تجوز في البيوت كما في المقابر، بل

عليكم أن تصلوا بعض صلاتكم في المساجد وبعضها في البيوت. وهكذا قد مهّد الله تعالى لعبادته في كل شبر من الأرض.

النوع الثاني للعبادة، العبادة الذِكْرية:

بالإضافة إلى العبادةِ التي تتم بصورة معينة من حركات ومواقيت؛ أعني الصلاة الإسلامية، هناك عبادة ليس لها شكل معين، بل هي عبادةُ فكر وذكر. وقد جعلها الله بشكل غير معين، لأن الصلاة لا يمكن أن تُؤدَّى في كل وقت، أما صلاة الذِّكر فيمكن أن يؤديها الإنسان في كل حين وحال.. في النوم واليقظة وفي الوقوف والمشي. لقد سئل أحد أولياء الله تعالى: كيف نقوم بأعمالنا إذا كنا سنتعبَّد في كل حين؟ فأجاب:

دَسْت در كار ودل با يار

أي قُوموا بأعمالكم بأيديكم واذكروا الله في الوقت نفسه، ومارِسوا مهنكم وتجاراتكم وغيرها من مشاغل الدنيا واذكروا الله أيضا في الوقت نفسه.

كان حضرة "مظهر جان جانان" من كبار الأولياء وفحول الشعراء، وكان له مريد مقرب اسمه "ميان غلام علي"، فبينما كان حضرته جالسا في مجلسه إذ جاءه شخص بحلوى مصنوعة من القشطة تسمى "لَڈو"، وكان حضرته يحبّ أكلها، فأخذ حبّتين من الحلوى وأعطاهما تلميذه المقرب قائلا: لعلك تحبّها، إنها حلوى لذيذة. وبعد برهة قال له: يا ميان غلام علي، ماذا فعلتَ بالحلوى؟ قال: قد أكلتُها. فقال: أكلتَها بهذه السرعة؟ قال: كانت حبتين فقط فوضعتهما في فمي وأكلتهما. قال حضرته في حيرة: أكلتَ الاثنتين! يبدو أنك لا تعرف كيف تؤكل "لڈو". قال: فعلِّمْني يا سيدي كيف تؤكل؟ قال: إذا أتتْنا ثانيةً سأعلّمك كيف تأكلها. وبعد بضعة أيام جاءه بها أحدهم، فقال المريد: سيدي، لقد وعدتني أن تعلّمني كيف تؤكل هذه الحلوى، فعلِّمْني الآن. كان حضرته شديد الاهتمام

بالنظافة مثل الشاه ولي الله الدهلوي -رحمهما الله- والمشهور عن الشاه الدهلوي أنه كان يلبس كل يوم لباسا نظيفا، إذ كان مَلِكُ "دهلي" يبعث له كل يوم ثوبا جديدا إذ كان من زمرة مريديه، وكان حضرة "مظهر جان جانان" أنيق الطبع، فكان لا يطيق أن يرى أي شيء غير مرتب، وكان يقول: كيف يمكن أن يكون قلبه طاهرا مَن لا يستطيع أن يضع الأشياء مرتبة؟ وذات مرة جاء الملك للقائه، وأحس وزيره بالعطش، فحمل كأس ماء وشرب، ثم وضع الكأس بطريق غير مرتب، فرآه حضرة مظهر جان جانان وغضب وقال للملك: كيف اتخذت وزيرا من لا يعرف أن يضع الكوب في مكانه بشكل صحيح؟

باختصار، كان حضرته شديد الاهتمام بالنظافة، فأخرج منديله من جيبه وفرَشه على السجاد ثم وضع عليه حبتين من الحلوى، وأخذ منها قطعة صغيرة جدًا ووضعها في فمه وقال: سبحان الله، سبحان الله. ثم قال لتلميذه المقرب: هل فكّرت كيف صُنعت هذه الحلوى؟ إن سيدك مظهر جان جانان لا يساوي شيئًا، إذ خلقه الله تعالى من ماءٍ مَهينٍ تحوَّلَ إلى مضغة بمرور الأيام، ثم كُسي لحماً، وإنه سيموت في نهاية المطاف، ولكن انظرْ إلى ألطاف ربه المستوي على العرش، والخالقِ لكل شيء من أرض وسماء وما بينهما، والمالكِ للأشياء كلها، والعالم بكل شيء، والقادر على ما يشاء، فإنه فكّر أنه سيخلق عبده "مظهر جان جانان" في يوم من الأيام، وأن عبده هذا سيحبّ هذه الحلوى المصنوعة من القشطة، فخلَق الأسباب لصنعها. هل فكّرتَ كيف يصنع السكر؟ إن الله تعالى هو الذي ألقى فكرة صنع السكر في قلب الفلاح، فزرع قصب السكر، فلما استوى الزرع سخّر الله تعالى مئات الناس لصنع السكر لمجرد أن يأكل عبده "مظهر" هذه الحلوى. ثم ظل حضرته يبيّن تفاصيل صنع هذه الحلوى قائلا لتلميذه: يا ميان غلام علي، هل فكّرت كيف صُنعت القشطة؟ لقد أكلت البقرةُ أنواع الكلأ والحشيش الذي تحول إلى اللبن، فصُنعت منه القشطة، ثم صنع الحلواني هذه الحلوى من السكر والقشطة لكي يأكلها "مظهر جان جانان". وفيما كان حضرتُه يبين هذه التفاصيل بكل دقة

ويذكر مِنن الله عليه، أذَّن المؤذِّن، فخرج حضرته للصلاة وبقيت الحلوى في مكانها (حكايات أولياء ص٣٠-٣٣).

باختصار، لو صلينا كل وقت فلا نستطيع القيام بأعمال الدنيا من وعظ ونصح وغير ذلك من مشاغل الحياة. أما الذكر فيمكن أن نقوم به كل حين. فالخبّاز مثلاً يمكن أن يصنع الخبز ويردّد بلسانه: سبحان الله، سبحان الله. فمتى يمنعه هذا من العمل؟ عليه أن لا يبرح يسبح الله تعالى وهو يأخذ قطعة من العجين ويدوّرها ويرقّقها ثم يمدّدها على القماش ثم يضعها في التنور، ثم يحرك الرغيف فيه، ثم يخرجه منه، بدلا من أن يشتغل بالحديث مع أصدقائه، وهكذا سيصنع الخبز ويقوم بالذكر أيضا. ويمكن للمرأة أن تطحن القمح مثلاً وهي تردّد بلسانها: الله أكبر، سبحان الله، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وما إلى ذلك من أذكار، فهذا لن يفسد طحينها ولن يقلله. وبوسع الطبيب أن يقوم بالعملية الجراحية بيده، ويسبح الله بلسانه ويفكّر في صنع الله الذي خلق هذا النظام الرائع في جسم الإنسان. فصاحب كل مهنة يمكن أن يمارس مهنته وهو يذكر الله ويسبحه. إن الصلوات لا يمكن أن نؤديها في كل وقت، أما الذكر فيمكن أن نقوم به في كل حال، فيمكن أن نسبّح الله تعالى قائمين أو ساجين أو رامين السهام أو سائقين السيارات. لكن مثل هذا الذكر لا يوجد في أي ديانة سوى الإسلام. قُلْ للهندوسي أو الزرادشتي أن يُخرج مثل هذا الذكر من كتابه! كلا، لا يوجد أثر لمثل هذا الذكر عند أي ديانة أخرى. إذن، فإن الله تعالى قد مهّد الطريق لعبادته بحيث لا مناص لكل إنسان صادق من ذكر الله تعالى.

١: وأكبرُ الذكر هو "بسم الله". لقد أمر الرسول ﷺ أن نبدأ كل عمل باسم الله تعالى، وإلا فلن يبارك فيه. فعليك أن تقول "بسم الله" عند لبس الثوب أو الحذاء أو شرب الماء أو غسل الإناء وذبح الحيوان أو طبخ اللحم وما إلى ذلك من أعمال الحياة وأشغالها؛ ذلك أن البسملة إشارةٌ إلى أن كل ما في الدنيا من أشياء إنما هي مِلْكٌ لله تعالى وأنك تستعملها بإذنه. فإذا قلت "بسم الله" عند ذبح حيوان

فكأنك تقول: إني لم أسرق هذا الحيوان، بل اللهُ مالِكُه وهو الذي أذن لي بأكل لحمه، ولذلك أذبحه. وهذا هو حال كل ما عندك من النعم مِن ملح وفلفل وفحم وإناء وغيرها، فكلها مِلْكٌ لله تعالى وقد أعطاك إياها لتنتفع منها مؤقتًا.

يروى أن حضرة عبد القادر الجيلاني -رحمة الله عليه- كان شهيرًا بتناول أطيب طعام ولبس أفخر لباس، وكان الناس يعترضون عليه بسبب ذلك، فكان يقول: ماذا أفعل؟ فإنني لا آكل طعامًا إلا بعد أن يقول الله تعالى لي: يا عبد القادر، أستحلفك بجلالي أن تأكل هذا! ولا ألبس لباسًا إلا بعد أن يقول الله لي: يا عبد القادر، أستحلفك أن تلبس هذا. فكان حضرته لا يقوم بأي عمل إلا بأمر الله تعالى. والحق أن كل مسلم إذا بدأ عمله باسم الله تعالى فإنما يفعل ذلك بأمره تعالى.. مما يعني أن كل مسلم كهذا، لا يأكل إلا بأمر الله ولا يلبس إلا بأمر الله (خزينة الأصفياء ج١ ص ١٦٠).

٢: والذكر الثاني هو "الحمد لله" الذي يقال عند انتهاء كل عمل. يقول الله عن المؤمنين: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(يونس:١١).. أي أن آخر قولهم أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

٣: والذكر الثالث هو "سبحان الله" الذي يقال عند الإعجاب بشيء. والتدبر يكشف لنا أن هذا الذكر أيضا ينطوي على حِكم عظيمة.

٤: ثم هناك الذكر الذي أمرنا الإسلام بترديده عند حلول المصائب، وهو: "إنا لله وإنا إليه راجعون". فكل ما عندك من أقارب وأشياء إنما هو منّة ربانية، فإذا تُوفّي لك قريب، قلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، أي لا داعي للهم والحزن فكلنا من الله تعالى وكلنا إليه نرجع. أو إذا انكسر إناء ما من كوب وغيره، قلتَ: إنا لله وإنا إليه راجعون.. أي أن الله تعالى هو الذي أعطاني إياه وسوف نرجع إليه وسوف يعطينا المزيد. فترديدك هذه الكلمة عند كل خسارة تطهِّر نفسك من الصدأ الروحاني.

٥: وأما إذا رأى أمرًا مكروها وشاهد مشهدا فظيعًا فعلَّمه الإسلام أن يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله.

٦: وإذا فكّر الإنسان في ارتكاب إثم فعليه أن يقول: أستغفر الله.. أي أريد ملاذ الله تعالى من هجمات الشيطان.

٧: وإذا أردنا القيام بأي عمل هام يمكن أن يعيق الشيطان طريقنا إليه فعلّمنا الله ذِكْرًا هو: أعوذ بالله. فتلاوة القرآن مثلاً عمل هام يمكن أن يضع الشيطان فيه العراقيل، ولذلك قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾(النحل:٩٩).

٨: وهناك ذكر يقوم به المرء قبل النوم، حيث أمرنا الرسول ﷺ أن نقرأ آية الكرسي وسورة الإخلاص والمعوذتين، ثم ننفث في اليدين ونمسح الجسد (البخاري: كتاب الدعوات، وكتاب بدء الخلق).

٩: وإذا استيقظنا من النوم فالذكر الذي علّمنا الله هو: "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ". (البخاري: كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا نام)

١٠: ثم هناك ذكرٌ عند المرض وذكرٌ عند الشفاء (البخاري: كتاب المرضى، باب دعاء العائد للمريض).

١١: إن التغوّط فعلٌ منفِّر في الظاهر، ولكن الرسول ﷺ علّمنا ذكرًا لهذه الحالة أيضا، وهو: اللهم إني أعوذ بك من الخُبُث والخبائث. (البخاري: كتاب الوضوء)

١٢: ثم هناك ذِكرٌ عند الغسل والاستحمام (الترمذي، أبواب الطهارة، باب فيما يقال بعد الوضوء).

١٣: أما العلاقات الخاصة بين الزوجين فلها أيضا ذكرٌ علّمَنا إيّاه سيدُنا صاحبُ الكوثر، فأمر الزوجين أن يدعوا الله تعالى قبل لقائهما: اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّب الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا. (البخاري: كتاب الوضوء، باب التسمية على كل حال)

فليس من مناسبة من مناسبات الحياة –حتى ولو كانت تتعلق بالتعبير عن المشاعر والأحاسيس– إلا وقد علّمنا الإسلام بصددها دعاءً وذِكرا.

النوع الثالث للعبادة، العبادة الفكرية:

إضافة إلى هذا، فإن الإسلام قد ذكر طرقًا أخرى للعبادة وهي عشر:

١: التفكُّر.. أي إمعان الفكر في المعضلات العقلية والفلسفية. وهذا أيضا يساعد في الوصول إلى الله تعالى.

٢: الشكر.. قال الله تعالى ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (إبراهيم: ٨).. فعاطفة الشكر تساعد الإنسان على التفكر، وتفتح أمامه سبل قرب الله تعالى.

٣: التذكّر: يختلف التذكر عن التفكر، فالتفكر هو إمعان النظر في معضلة عقلية منطقية، أما التذكّر فهو استنتاج شيء بإمعان النظر في حادث سابق، وهذا يسمى الاعتبار أيضا. وهي وسيلة عظيمة لتطهير القلب.

٤: الشعور: والمراد منه إمعان النظر فيما أُودعت الفطرةُ الإنسانية من مشاعر وعواطف وإثارتها. فهناك أحاسيس وعواطف كثيرة في فطرة الإنسان، وإثارتها تساعد كثيرا على التقدّم الروحاني.

٥: العلم: ومعناه معرفة ما حدث بالآخرين. فالتذكر يعني إمعان النظر فيما حدث بك في الماضي، أما العلم فيعني التدبر فيما حدث بالآخرين. فمثلاً إذا علم المرء أن فلانًا وقع في المصاعب بسبب اقترافه أعمالاً معينة، فهذا ينفعه كثيرا، إذ يمنعه من ارتكابها.

٦: الفقه: إن عادة التفقه في الأمور أيضا يحفّز الإنسان على الخير. قال الله تعالى ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾(التوبة:١٢٢). والفقه يعني تفكيرنا في التأثيرات الباطنية لكل مسألة علمية ظاهرة. فالفكر ذو علاقة بقضية فلسفية، والتفقه ذو علاقة بمسألة علمية ظاهرة.

٧: العقل: لو أعمل الإنسان عقله لتولدت فيه عاطفة تمييز الخير من الشر ومَنَعته من السيئات. فالعقل في دماغ الإنسان بمثابة الكوابح في السيارة.

٨: الإبصار: قال الله تعالى ﴿أَفَلا تُبْصِرونَ﴾.. والإبصار يعني الرؤية بالعيون الروحانية، وهذا أيضا يؤدي إلى أمور كثيرة عظيمة تساعد على إصلاح الإنسان.

٩ و١٠: الرؤية والنظر: وهما متقاربان معنىً في الظاهر ولكن بينهما فرق، فالرؤية تكون مقرونة بشعور القلب، أما النظر فمقرون بقوة الفكر.

إذن، فهذه الأمور العشرة -التفكر والشكر والتذكر والشعور والعلم والفقه والعقل والإبصار والرؤية والنظر- هي أجزاء من العبادة الإسلامية. وقد ذكرها الله تعالى في مواقع مختلفة، وليس هناك دين سوى الإسلام ذكَر أي جزء من أجزاء العبادة هذه.

وثالثها: الزكاة

لقد تناول القرآن الكريم مسألة الزكاة بتفصيل لا نظير له في أي كتاب سماوي آخر. لا شك أنه قد ورد في العهد القديم أن على المرء أن يُخرج عُشْر ماله زكاةً (التثنية ١٤: ٢٢-٢٩)، كما أن في الهندوسية أحكاما بإخراج الصدقات (ستيارتھ بركاش، السؤال رقم ٨٣، ص ٤٥٨)، ولكنها تفتقر إلى التفاصيل التي بيّنها الإسلام، حيث ذكر للزكاة مبادئ عديدة بيانُها كالآتي:

المبدأ الأول: فأول مبدأ قدّمه الإسلام في الزكاة أن كل شيءٍ مِلْكٌ لله تعالى، فقد قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾(الشورى: ٥٠). أي أن الله تعالى هو المالك الحقيقي لكل ما في السماوات والأرض، وليس الإنسان.

المبدأ الثاني: أن الله تعالى قد خلَق كل هذه الأشياء من أجل فائدة عباده أجمعين.

المبدأ الثالث: أن كل العباد لهم الحق في كل هذه الأشياء. فكما أن لأهل القرية كلهم حقًّا في الأراضي الخالية هناك، كذلك لكل الناس الحق في جميع الأشياء، ولكن أنصبة الناس في الأراضي الخالية في القرى تكون متفاوته، أما فيما يتعلق في هذه الأشياء التي خلقها الله فإن نصيب الجميع متساو فيها.

هناك سؤال ينشأ عن هذه المبادئ الثلاثة وهو: ما دام لكل البشر حقّ في هذه الأشياء والأملاك، فكيف يحصلون على حقوقهم؟ فمثلاً هناك جبل في أمريكا،

وهذا المبدأ يجعل لنا –نحن أهل القارة الهندية– حقًا فيه، فكيف نحصل على حقنا هذا؟ وماذا نفعل، فالجبل تحت قبضة الأمريكان؟ ولحل هذه المشكلة قد قدّم القرآن مبدأ آخر هو التالي:

المبدأ الرابع: هو أن للقابض على شيء أو العامل عليه حقًا زائدًا فيه، فهذا الجبل يمكن أن يبقى تحت تصرف الأمريكان بشروط، وهي:

١: أن يُقِرّوا بحقوق الآخرين في الجبل الذي تحت قبضتهم.

٢: وإذا زاد إنتاج الجبل أكثر من الحد الأدنى لحقّهم، فعليهم أن يؤدوا ضريبة رأس المال لأصحاب الحق الآخرين. وطريقته أن يدفعوا لهم واحدًا من أربعين من دخلهم، ويجب ألا يفعلوا ذلك مرة فقط، بل مرة في السنة ولأربعين سنة، أما بعد الأربعين سنة فيصبح هذا الشيء مِلْكًا للقابضين عليه، وهكذا يدر عليهم دخلا زائدا مستمرًا إلى الأبد. وهذا ما يسمى الزكاة.

المبدأ الخامس: أن لا يكنز أحد المال في صورة نقود، بل يجب أن يجعل ماله يدور بين الناس لكي ينتفع به الآخرون.

المبدأ السادس: أن مساعدة الفقراء مسؤولية الأثرياء رغم أداء زكاة أموالهم. فيأمر الإسلام الأثرياء أنه إذا بقي فقير رغم تزكية أموالهم فالإنفاق عليه مسؤوليتهم، والله سيسألهم عنه يوم القيامة. فقد ورد في الحديث أن الله تعالى يقول لعباد له يوم القيامة: لقد رضيت عنكم، لأني كنت جائعا فأطعمتموني، وظامئًا فسقيتموني، وعريانًا فكسوتموني، ومريضًا فعُدْتموني. فيقولون مستغربين: كيف تجوع ربَّنا وتظمأ وتعرى وتمرض؟ فيقول تعالى: يا عبادي، لقد جاءكم عبدي فلان جائعا فأطعمتموه، فإطعامكم إياه هو إطعام لي، وقد جاءكم عبدي فلان عاريا فكسوتموه، فإذا كسوتموه فقد كسوتموني، وقد جاءكم عبدي فلان ظامئا فسقيتموه، وإذا سقيتموه فقد سقيتموني، وقد جاءكم عبدي فلان مريضا فقمتم بعيادته، فعيادتكم إياه عيادة لي. ثم يقول الله لأناس آخرين: كنت جائعا فلم تطعموني، وظامئًا فلم تسقوني، وعريانًا فلم تكسوني، ومريضا فلم تعودوني، فيقولون: رب، متى كان ذلك؟ سبحانك اللهم، فأنت أعظمُ مِن أن تجوع وتظمأ

وتعرى وتمرض! فيرد الله عليهم: لقد جاءكم عبادي الفقراء جياعا وعطاشى وعراة ومرضى، فلم ترعوهم و لم تساعدوهم، فكأنكم لم ترعوني و لم تساعدوني، فاذهبوا وادخلوا النار. (مسلم: كتاب البر والصلة، باب فضل عيادة المريض)

فأداء الزكاة لا يكفي، بل إذا بقي فقير بعد أدائها فالإسلام يوجب على كل مسلم مساعدته.

المبدأ السابع: أن الله تعالى جعَل مساعدة الفقراء كفّارةً لشتى ذنوبنا، فحينًا فرض علينا تحرير العبيد، وحينًا أمرنا بإطعام الفقراء وكسوتهم كفّارةً عن ذنوبنا.

المبدأ الثامن: أن الإسلام قد جعَل عند كل عبادة جديدة حقًا للفقراء، فقال مثلاً: إذا وُفّقتم للصيام فأطعموا الفقراء، وإذا جاء العيد فأخرجوا الصدقات للمساكين (البخاري: كتاب الزكاة، باب الصدقة قبل العيد)، وإذا أردتم الحج فأنفقوا على ذوي الحاجة.

المبدأ التاسع: لم يُهمِل الإسلام حقوق الفقراء عند الانتصارات والفتوحات أيضًا، بل أمَر بإعطاء الفقراء نصيبهم من أموال الغنائم.

المبدأ العاشر: عند ولادة طفل أمَر الإسلام بالعقيقة والوليمة لإطعام الفقراء (سنن ابن ماجه: كتاب الذبائح، باب العقيقة).

المبدأ الحادي عشر: أمَر الإسلام بإقامة الوليمة عند الزواج لإطعام الفقراء (البخاري: كتاب النكاح، باب الوليمة).

المبدأ الثاني عشر: أمَرنا الإسلام بإعانة الفقراء من أموال المتوفَّى، إضافةً إلى تقسيم تركته على ورثته.

المبدأ الثالث عشر: جعل الإسلام حقًّا للفقراء عند كل حصاد أو ثمر جديد، قال الله تعالى: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾(الأنعام:١٤٢).. أي إذا أتيتم البيت بأي محصول أو ثمر مِن قمح أو بقل أو قطن أو مانجو، فآتوا الفقراء حقهم فيه أولاً ثم استهلكوا منه.

باختصار، لقد جعل الإسلام حقوقًا للفقراء عند كل مناسبة، وهي خصوصية لا يشاركه فيها أي دين آخر، فليس في الدنيا دين قدَّم هذه العبادة بهذا الشكل، بل لا يوجد عند الديانات الأخرى عُشْرَ مِعْشار تعاليم الإسلام بهذا الشأن.

ورابعها: الصيام

أما الصيام فلا يوجد عند أية أمة أخرى صوم جماعي. نعمْ، يوجد عند المسيحيين بعض الصيام ولكن بشكل ناقص، كما يوجد مثل هذا الصيام عند الهندوس أيضا، فمثلاً يمنعهم البانديت عن أكل المطبوخ على النار، فلا يأكل أحدهم ما مسّته النار، ولكنه يشرب خمسة لترات من الحليب الذي لم تمسّه النار، ويقول إني صائم! أما الإسلام فقد فرض صيام شهر كامل، ثم أمَرنا ألا نكتفي بالإقلاع عن الطعام والشراب فقط، بل علينا أن نكثر من القيام والعبادة والدعاء في شهر رمضان، ولا سيما في العشر الأواخر منه إذ فيها ليلة القدر. فالإسلام يتميز عن الأديان الأخرى في مجال الصيام أيضًا.

وخامسها: الحج

والحج أحد أركان الإسلام، وهو وسيلة عظيمة لاجتماع الأمة واتحادها. الحج ليس فرضًا في أي ديانة أخرى، لكن الإسلام فرض على كل مَن استطاع إليه سبيلا أن يحضر في مركز الإسلام مرة في حياته على الأقل. وفي الحج منافع شتّى؛ منها أنه إذا اجتمع الغني والفقير والحاكم والمحكوم والعالم والجاهل كلهم في مكان واحد، فلا بد أن يُعملوا فكرهم في حاجات الأمة، ويتنبهوا إلى أخطائهم وتقصيراتهم ويسعوا للتخلص منها. كما أن الإسلام قد نبَّه بالحج إلى إصلاح مركز الإسلام، الأمر الذي يؤدي إلى إصلاح الأمة وتقدُّمها.

باختصار، لقد آتى الإسلام بشأن العبادة والزكاة والصوم والحج من تعليمات للناس ما لا يوجد عُشْر مِعْشاره في أي دين آخر.

بعد إثبات فضل القرآن الكريم على الكتب الأخرى في مجال أصول الشرائع، أتوجه الآن إلى تفاصيل الشرائع لأثبت أن القرآن الكريم لا يتفوق على الكتب السابقة في بيان المبادئ فحسب، بل لقد أعطى الله تعالى نبيَّنا ﷺ كوثرًا بشأن تفاصيل الشرائع أيضا، بحيث ليس بوسع كتاب سماوي آخر أن يجاري القرآن الكريم في هذا المجال أيضا.

وأول ما يخصّ تفصيل الشرائع هو حقوق النساء. فعندما ذكر الله تعالى آدم في القرآن الكريم ذكَر معه زوجته التي استمر منها النسل الإنساني وازدهر، أما الصحف الأخرى فلن تعثر فيها على حقوق النساء، كما لن تجد بينها كتابًا يركّز على أن المرأة أيضًا كائن بشري. إن القرآن هو الكتاب الأول الذي أقرّ حقوق النساء، بل ركّز عليها بحيث فتح بابًا للعلوم والمعارف الجديدة. خُذْ مثلا الآيات الثلاث التي اختارها النبي ﷺ لتُقرَأ عند عقد القران - وهو اختيار مبني على الوحي عندنا- فهي تركّز على حقوق النساء تركيزا عظيمًا، وتوضّح أهمية هذا الأمر بجلاء تام. إذ قال الله تعالى في الآية الأُولى منها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾(النساء:٢). فقد بيّن الله تعالى هنا أنه خلق الناس كلهم من نفس واحدة.. أي خلق الرجل والمرأة من جنس واحد، وكلاهما خُلق بعقل مماثل وأحاسيس وعواطف متشابهة. انظرْ كيف بدأ الله الحديث هنا مركِّزًا على حقوق المرأة، ونبّه الرجالَ ألا يظنوا أن النساء لا عقل عندهن وأن لهم أن يسيطروا عليهن ويعاملوهن كما شاءوا. كلا، بل إن المرأة أيضا خُلقتْ بمشاعر وأحاسيس وعقل مثلكم، فلا تعتبروها أدنى منكم وأحقر.

وبالإضافة إلى هذا التعليم المبدئي فقد أمر الرسول ﷺ أتباعه باستشارة النساء في الأمور الهامة، وكان بنفسه يستشير نساءه، وقد منحهن قدرا كبيرا من الحرية بهذا الشأن، حتى ورد في الحديث أن النبي ﷺ أراد أن يقيم مرة خارج بيته، فشاع بين الصحابة أنه قد طلّق نساءه، وكانت بنت عمر رضي الله عنه من زوجات النبي ﷺ المطهرات، فعلِم مِن بعض أصدقائه أن النبي ﷺ قد طلّق زوجاته كلهن، فلم يلبث

عمر أن ذهب إلى بنته، فوجدها تبكي، وقال: ما شأنك؟ قالت: لقد قرّر النبي ﷺ الإقامة خارج البيت، وقد خرج من البيت فعلاً. فحضر عمر إلى النبي ﷺ وقال يا رسول الله، كنا نصلح نساءنا بالعصا، ولكنك بدأتَ تعلّمنا ما سلّط النساءَ علينا، فقد قلت لزوجتي مرةً: لا تتكلمي في هذا الأمر، فردّت عليَّ: لا تقلْ لي هكـــذا، فقد ولّت الأيام التي لم تكونوا تعطونا فيها أي حق، أما الآن فـــإن الرســـول ﷺ يستشير نساءه، فكيف تمنعني من الكلام في هذا الأمر؟ وكنت أخاف هذا! فـــانظرْ كيف اضطررتَ اليوم لتطليق زوجاتك. فضحك النبي ﷺ وقـــال: إني لم أطلـــق زوجاتي، وإنما قررتُ اعتزالهن بعض الوقت لمصلحة (البخاري: كتاب المظالم، باب الغرفة والعلية المشرفة في السطوح وغيرها).

لقد تبيّن من هنا أن الرسول ﷺ كان يركّز على حقوق النساء حتى أدركن أهن لسن أقلَّ درجة من الرجال. والتاريخ يخبرنا أن عمر رضي الله عنه في عهد خلافته إذا أمـــر النساء بشيء، فكانت بعضهن تقول له أحيانًا: كيف تأمرنا بذلك والرسول ﷺ قد قال خلافه؟ (الجامع لأحكام القرآن: سورة النساء، قوله تعالى: وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ). وبغضّ النظر عن صحة ما قلن له، إلا أن هذا يكشف لنـــا أن الإسلام قد منح النساء حقّ إبداء رأيهن في الأمور التي تخص الجماعة. وقد ركّـــز على ذلك تركيزا لا مثيل له في أي كتاب سماوي آخر.

ثم أعلن الرسول ﷺ أن المرأة لا تُزوَّج مِن دون إذنها. كانت العادة قبل الإسلام أن الوالدَين كانوا يزوّجون بناهم من دون إذنهن، فما كـــان لهـــن إلا الخـــضوع لقرارهم. لا شك أن المسلمين في هذا العصر قد هضموا حق المرأة هذا، ولكن هذا ليس دليلاً على عيب في تعاليم الإسلام، كلا، بل إن الإسلام قد أعلن أن تـــزويج المرأة من دون إذنها باطل (أبو داود، كتاب النكاح). ما أعظمَ الحقَّ الذي منحه الله للنساء!

ثم إن القرآن قد خيّر المرأة في إرضاع الوليد، وقد تناول هذه القضية بتفاصيل لا يوجد لها نظير في أي كتاب آخر.

ثم إن الإسلام قد منح المرأة حق البيت المنفصل، وجعل لها مهرًا، وجعَلها وارثةً لأموالها وأملاكها. لقد اعتُرف بهذا الحق للمرأة في أوروبا لأول مرة قبل نحو نصف قرن فقط، أما قبل ذلك فلم تكن أملاك المرأة تُعتبر أملاكا لها، بل كان بعض الناس يتزوجون النساء خداعًا متظاهرين بأنهم من الرؤساء الكبار، ثم يستولون على أملاكها أو يبيعونها من دون أن يكون للمرأة أي حق في التصرف فيها. أما الإسلام فقد اعتبر أملاك المرأة وعقاراتها مِلْكَها الشخصي، وقد ركّز على هذا تركيزا جعل الصحابة يظنون أن أخذ شيء من أموالها، ولو بإذنها، حرام عليهم، حتى أنزل الله تعالى أحكامًا خاصة بهذا الصدد مبينًا لهم أنه يجوز للمرء أن يأخذ ما تعطيه زوجته من مالها عن طيب نفس. باختصار، لقد حافظَ الإسلام على حقوق المرأة بما لا مثيل له في أية ديانة أخرى.

أما الوالدان فهما الأَولى بِبِرِّ الولد؛ إذ يتسببان في استمرار النسل الإنساني. فكل ما يتحلى به المرء من كفاءات فإنما هو بسبب والديه، فإذا هما لم يقوما بتربيته فكيف يكبر ويترعرع؟ وإذا لم يهتما بتعليمه فكيف ينال العزة في الدنيا؟ ومع ذلك إنه لمما يثير العجب أنه ليس هناك دين -سوى الإسلام- سلَّم بحق الوالدين في أموال أولادهما. لا شك أن هناك أحكامًا في التوراة باحترام الوالدين (الخروج ٢٠: ١٢)، ولكنها لم تجعل لهما حقًّا في أموال أولادهم. إنما القرآن وحده الذي أقرّ هذا الحق الهام للوالدين. لقد جعل القرآن الوالدين ورثةً فيما يتركه الأولاد، بل جعل لهما حقًّا أزيدَ من حقّ أولاد المتوفى أنفسهم، ذلك أنه إذا كثُر أولاده نال والداه أكثرَ مما يناله كل واحد من الأولاد، وهذا أمرٌ لا نظير له في الدنيا؛ إذ ليس هناك دينٌ أقرَّ للوالدين هذه الحقوق. لا شك أن جميع الأديان تأمر بالبر بالوالدَين واحترامهم وإكرامهم، ولكنه مجرد كلام. إنما الإسلام وحده الذي أقرّ حقّ الوالدين في أموال أولادهم، مؤكدًا مكانتهما العالية.

ثم إنه لم يكن للبنت حق في الإرث قبل الإسلام، فأقرَّ حقَّها فيه وأعلن أنها ترث مال المتوفى حقًّا لها كما يرثه ابنه.

الواقع أن الإسلام قد نبّهنا إلى أمر هام، ألا وهو أن أموال الدنيا ثروة مشتركة لأهلها وليست مِلْكًا حقيقًا لفرد واحد، كذلك فإن لجميع الناس حقا فيما يكسبه الفرد، لأنه لا يستطيع أن يكسب وحده، بل لا بد أن يستعين بالآخرين، فيصير للآخرين حق فيما يكسبه من مال. وأوضحُ مثال لذلك هو أن كل التجارات الكبيرة تكون في المدن لا في القرى، وذلك لتيسُّرِ مرافق النقل والحركة والطرق المرصوفة والقطارات والشاحنات وما إلى ذلك. يا ترى، لماذا تُفتح الفنادق والمطاعم في المدن لا في القرى؟ إنما سببه كثرة الناس في المدن. ولو فتح المرء مطعمًا أو فندقًا في قرية لبار وكسد. لم تكن توجد في القرى خانات لمبيت المسافرين في الماضي، بل كانت في المدن. ثم لا توجد مستودعات كبيرة في القرى لادخار البضائع. هذه المرافق والتسهيلات لا تتيسر في المدن إلا بسبب كثرة السكان هناك، ولذلك يصبح للآخرين نصيب فيما يكسبه أهل المدن، ومن أجل ذلك قد سنّ الإسلام قانونًا بأن للجيران حقًا فيما يكسبه المرء؛ إذ لولاهم لما كسب شيئا. ثم بيّن الله تعالى أن هذا الحق لا يُمنح للجيران مجانًا، وإنما لأن وجودهم ينفع المرء ويساعده على كسب المال، إذ لولا أهل المدينة لما كسب شيئا. فلما كان الآخرون يتسببون في كسب المال، فجُعل لهم الحق فيه.

كذلك لا يستطيع أي تاجر ممارسة عمله من دون مساعدة أفراد عائلته، فكيف يخرج في سفر تجاري إذا لم تكن له زوجة ترعى بيته في غيابه؟ فإنما يكسب هو لأن زوجته تدير بيته ليكسب وهو فارغ البال. ثم إن أولاده أيضا يساهمون في تجارته إلى حد ما، ويبقى ماله محفوظا بسبب بيته العامر. ومن أجل ذلك جُعل لهؤلاء حق في ماله.

ثم جُعل لأخيه أيضا حق في ماله، لأنه يساعده في عمله بطريق غير مباشر وإن لم يساعده مباشرة، ذلك أنه لو أقرض أحدا مالاً، فلا يُسدَّد له الديْن إلا بسبب، ذلك أن ذوي الأخلاق العالية يسدّدون ما عليهم من دين بأنفسهم، ولكن الذي لا خلاق له فإنما يدفع دَيْنه خوفًا من إخوته وقومه؛ ومن أجل ذلك جعل الأقارب الأقربين- كالوالدين والزوجة والابن والبنت والأخ والأخت وغيرهم- ورثةً في

أموال الميت، وإذا لم يوجدوا فالجدّ والجدّة للأمّ والأب، والحفدة والحفيدات وأبناء الأخ وغيرهم.

والقرآن هو الكتاب الوحيد بين الكتب السماوية كلها الذي بيّن أن هناك حقًا لأفراد العائلة في ما يكسبه المرء.

ثم إن الإسلام قد حثَّ على تعليم البنات، فعن عائشة -رضي الله عنها- أنها أخبرت النبي ﷺ أن امرأة فقيرة جاءتها مع ابنتيها، فأجلست إحداهما على يمينها والأخرى على شمالها، ثم سألتها شيئا من الأكل، و لم يكن عندها طعام، إنما وجدتْ تمرة واحدة فقط، فأعطتْها إياها قائلة: هذا كل ما يوجد الآن. فشقّت التمرة نصفين، وأعطت كل واحدة منهما نصفًا، و لم تأكل منها شيئا. فقال النبي ﷺ: مَن كان له بنتان فأحسن تربيتهما وعلّمهما أوجب الله له الجنة (البخاري: كتاب الأدب، باب رحمة الولد، وابن ماجه: كتاب الأدب، باب بر الوالد).

انظرْ كيف ركّز الإسلام على تعليم البنات وتربيتهن. إن الناس في هذا العصر يعلِّمون بناتهم للحصول على وظيفة، ولكن الله تعالى لم يجعل من واجبات النساء أن يتوظَّفن. لا شك أن بنات المسلمين يعملن في هذا العصر، ولكن الإسلام قد فرض على المرأة مسؤوليات البيت، لذلك فإنها لا تتعلم لتتوظف وتعمل، إنما تتعلم لمجرد التعليم. ومع ذلك قد حثّ الإسلام على تعليم النساء، الأمر الذي لا يوجد في الصحف الأخرى.

ثم هناك حقوق الزوجة، وقد فصّلها الإسلام تفصيلا، فأمَر الرجلَ أن يعامل زوجته بالحب والرفق. لا شك أن كل زوج يحبّ زوجته، بل بعضهم يعشقون زوجاتهم، حتى إنهم يتركون دينهم من أجلهن. ولكن السؤال هنا: ما هي الحقوق التي أقرها دينهم لزوجاتهم؟ إنما الحبّ أمرٌ فطريّ قد يدفع إلى الضلال أو إلى الهدى، لذلك فالسؤال هنا: ماذا يعلِّم الدين عن المرأة؟ الواقع أن الأديان الأخرى لم تُقِرّ للزوجة أية حقوق، إنما أقرها الإسلام وحده؛ فهو يأمرنا ألا نضرب نساءنا، وأن نعاملهن برفق ولطف. ثم بيّن أن المرء مسؤول عن إطعامها وكسوتها (أبو داود، كتاب النكاح). إن العادة في أوروبا حتى اليوم هي أن مال الزوجة يُعتبر مال

الزوج، ينفقه كيف يشاء، فهو حرٌّ في أن يحتفظ به أو يرجعه لها، ولا خيار للزوجة فيه. ولكن الإسلام قد اعتبر المرأة مالكةً لمالها وعقارها، تتصرف فيه كما تشاء وتعطيه من تشاء. والرجل مسؤول عن كفالة زوجته والإنفاق عليها، فلو كانت الزوجة مثلاً تملك نصف مليون روبية، والزوجُ يملك خمس روبيات فقط، فعليه أن يطعمها من الخمس الروبيات، لأنه اتخذها زوجة له، فهو المسؤول عن طعامها وكسوتها، ولا يحق له أن يأخذ من مالها جبرا.

أما الطلاق فقد وضع له الإسلام شروطا معينة حفاظًا على حقوق المرأة. أما ضرب المرأة فقد أمر الإسلام الرجل بأخذ منتهى الحذر في عقابها، فيجب ألا يضربها ضربًا يترك أثراً على جسمها. وقال الرسول ﷺ: خيرُكم خيركم لأهله. (الترمذي: أبواب المناقب عن رسول الله، باب ما جاء في فضل من رأى النبي ﷺ وصحبه).

باختصار، لقد بين الإسلام حقوق المرأة بما لا نظير له في أي كتاب آخر.

أما الأولاد فقد أصدر الإسلام بشأنهم أيضا أحكامًا كثيرة. في القديم كان الآباء يرون من حقهم بيع أولادهم وحتى قتلهم لأنهم من نطفتهم، فكانت بعض القبائل العربية تقتل بناتها (معالم التنزيل، تفسير سورة التكوير)، وكذلك بعض الآباء كانوا يبيعون أولادهم، فحظر الإسلام كل هذه العادات القبيحة وأعلن أن مَن باع حرًّا فقد استوجب القتل.

كما نهى الله تعالى عن قتل البنات، وقال: لا تظنوا أنكم لن تُسألوا عن قتلهن، كلا بل ستُسألون عن قتلهن يوم القيامة ولن تقبل حجتكم أنها بنتكم أو من نطفتكم. إنها أَمَةٌ لنا قبْل أن تصبح بنتًا لك، فكيف يحق لك قتلها؟ قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾(التكوير:٩).. أي لا يحق لكم قتلها، إنما جعلناها سببًا لاستمرار النسل الإنساني، ولو قتلتم بناتكم فسوف تُسألون يوم القيامة.

باختصار، لقد منح الإسلام المرأةَ حقوقًا لا أثر لها في الكتب السابقة

ثم هناك حقوق المجتمع. عندما يخرج الإنسان من أهله يأتي إلى مجتمعه، وحقُّ الجار مقدَّم على حق غيره من أفراد المجتمع. لا شك أن الأديان الأخرى أيضا قد

أعطت تعليمات بحق الجيران، ولكن الإسلام قد منح الجار حقوقًا لا مثيل لها في الأديان الأخرى. لقد ركّز الإسلام على هذا الأمر جدًّا حتى قال النبي ﷺ: ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه (البخاري: كتاب الأدب، باب الوصاة بالجار). ثم إن الإسلام قد أعطى أحكاما مفصلة عن حقوق الجيران، وقد حث على أدائها حثًّا. روي أنه كان لابن عباس● -رضي الله عنهما- جار يهودي، وكان كلما جاء إلى البيت سأل أهله: هل أرسلتم لجاري اليهودي شيئًا أم لا؟ لقد كان شديد الاهتمام به حتى اعتبر إهمال أمره إثما.

ومن حقوق المجتمع توفير الغذاء والهواء والماء للمواطنين، لأن تلوُّثها يؤدي إلى انتشار الأمراض، وقد ركز الإسلام على ذلك كثيرا، فقد نهى النبي ﷺ عن البول في الماء الراكد وإلقاء القاذورات فيه (البخاري، كتاب الوضوء). فكون الماء نقيًا ضمان لصحة أهل المناطق التي فيها شُحُّ الماء. إن الناس اليوم يعرفون مبادئ الوقاية، ولكن الرسول ﷺ قد قدّم هذه التعليمات عن الماء قبل أكثر من ١٣ قرنا حين لم يكن عند الناس إلمام بمبادئ الوقاية. فما أعظمَ فَضْلَ الإسلام على الأديان الأخرى في هذا المجال!

ثم إن العيش في المناطق الضيّقة المكتظّة بالسكّان يضعف صحتهم، ولذلك أمر النبي ﷺ بجعل الأزقة والشوارع واسعة كي لا تتضرر صحة الناس بالهواء غير النقي. كانت الجِمال والخيول هي وسائل النقل والمرور في ذلك العصر، ومع ذلك قد أمر الرسول ﷺ أن تكون سعة الشارع ما بين ٨ إلى ١٠ أقدام، والطريق ما بين ١٥ إلى ٢٠ قدما على الأقل.

وإذا كانت هذه السعة ضرورية للطريق الذي تمرّ به الجمال والخيول، فيمكننا القول قياسا عليه أنه لا بد من أن يكون الطريق الذي تمرّ به السيارات والحافلات

● ورد حادث كهذا عن عبد الله بن عمرو وليس عن ابن عباس (أبو داود، كتاب الأدب) (المترجم)

اليوم ثلاثة أضعاف على الأقل. وهكذا فالشوارع يجب أن تكون سعتها ما بين ٢٠ إلى ٣٠ قدما والطرق ما بين ٤٥ إلى ٦٠ قدما.

ثم إن النبي ﷺ قد نهى عن البصاق في مكان يجلس فيه الناس، وقال: إذا بصق أحدكم في المسجد فليأخذه وليدفنه في مكان آخر (البخاري: كتاب الصلاة). ومن هنا نستنتج قانونًا عاما بعدم إلقاء الأوساخ في مكان يجتمع فيه الناس. أما الطرق فقال الرسول ﷺ: إن في إماطة الأذى عن الطريق صدقة (البخاري، كتاب المظالم)، بل كان النبي ﷺ يزيل من الطريق بيده ما يؤذي الناس من شوك وغيره. كما نهى الرسول ﷺ عن التغوط في الطرق قائلا: إن هذا مما يثير غضب الله (مسلم، كتاب الطهارة).

لقد أعطى النبي ﷺ هذه التعليمات في زمن يسمى زمن الجاهلية، ولكنك لو نظرتَ اليوم في شوارع لاهور وكويتة وبيشاور وغيرها من المدن الكبيرة عندنا لوجدت القاذورات ملقاة أمام بيوت الناس. مع أن الرسول ﷺ لم ينه عن ذلك فحسب، بل اعتبره عملاً يعاقَب عليه صاحبه.

باختصار، قد نهى الرسول ﷺ عن البول في الماء الراكد وإلقاء النفايات فيه، وأمر بجعل الشوارع واسعة، ونهى عن إلقاء النجاسات والنفايات في مكان يجتمع فيه الناس. كما أمر بالاغتسال والتطيّب قبل الخروج إلى مكان الاجتماع دفعًا للرائحة الكريهة الخارجة من الأجساد والأنفاس (البخاري، كتاب الجمعة)، واستحب تعطير مكان الاجتماع وتبخيره كي تنتشر فيه الروائح العطرة وتقتل الجراثيم (الترمذي، أبواب الجمعة)، فالغسلُ يزيل ما يخرج من الثياب الوسخة ومن الإبط من رائحة كريهة، والعطر يزيل ما بقي من الرائحة الكريهة. فيا لها من تعليمات حكيمة! وقد أعطاها النبي ﷺ حفاظًا على صحة الناس وكي لا يصابوا بالأمراض، فيتأخروا عن التقدّم في الدنيا.

ومن حقوق المجتمع ألا يتطرق الفساد إلى معاملات الناس وتجاراتهم، والإسلام لم يهمل هذا الحق أيضا، فقد نهى عن رفع الأسعار أو تخفيضِها عمدًا بهدف الإضرار بتجارة الآخرين أو المشترين، ففي إحدى المرات مرّ سيدنا عمر ﵁ برجل

يبيع الزبيب أرخصَ مما يبيعه الباعة الآخرون في المدينة، فزجره وقال: لماذا تضرّ بالباعة الآخرين؟ (فقه حضرة عمر للدكتور محمد رواس قلعه جي ص ١٧٣)

ثم إن الإسلام قد نهى أهل مدينة موبوءة عن الانتقال إلى مدينة أخرى، لأن هذا سيؤدي إلى تفشّي المرض فيها أيضا. لقد ظنّ الناس خطأً أن الخروج من مدينة موبوءة ممنوع، مع أن هذا جائز، وهذا ما فعل الصحابة، إنما الممنوع هو أن يهاجروا إلى مدينة أخرى، أما أن يخرجوا إلى الغابات والبراري فليس بممنوع بحسب الشريعة أبدا. عندما نشبت الحرب بين المسلمين والقيصر الروماني بعد الرسول ﷺ كان أبو عبيدة بن الجراح قائد الجيش الإسلامي، فتفشى الطاعون في الجيش وفتك بكثيرين منهم، فاستشار أبو عبيدة سكانَ تلك المنطقة، فأشاروا عليه بالخروج إلى العراء للعيش في الهواء الطلق، فأخذ أكثر الصحابة بمشورتهم وذهبوا إلى الجبال، ولكن أبا عبيدة لم يرحل من المكان، فمرض واستشهد بالطاعون (البخاري، كتاب الطب). إذن، كان الصحابة يرون أن الإسلام ينهى عن الخروج من المنطقة الموبوءة إلى مدينة أخرى كي لا ينتقل المرض إلى الآخرين، أما الخروج إلى الفلوات والجبال والبراري فليس ممنوعا.

فما أروعَه من قانون سنَّه الرسول ﷺ في وقت لم تكن فيه الأمراض المعدية قد اكتُشفت بعدُ؛ بل قد اكتُشفت بعد ذلك بكثير، فنهى ﷺ الناس مستنيرًا بنور الله وفيوض القرآن عن الهروب من مدينة موبوءة إلى أخرى لكي لا تنتقل العدوى إلى الآخرين. غير أنه لم ينهَهم عن الخروج إلى السهول والفلوات.

ثم إن الإسلام قد اهتمّ بتعليم الأُمّة. كان الناس في الماضي يعلّمون أولادهم بشكل فردي، ولكن الإسلام أقرَّ حقَّ تعليم أولاد الأُمة، فقد قال الرسول ﷺ لأسرى غزوة بَدْرٍ لا نأخذ منكم فدية، بل كلّ مَن علّم منكم عشرةً من أولاد المدينة فهو حرٌّ (مسند أحمد بن حنبل، مسند عبد الله بن العباس)؛ فقام كل واحد منهم بتعليم عشرة أولاد، وهؤلاء قد علّموا غيرهم، وهكذا صار كل أنصاريّ متعلمًا. إن ما يقدّمه الأسير من فدية هو مالُ الأمة، وقد أوضح الرسول ﷺ بتعليم

أولاد المدينة على أيدي هؤلاء الأسرى أن مال الأمة يمكن أن يُنفَق على تعليم أبنائها، وأن التعليم من واجب الدولة.

ثم إن الإسلام هو الذي أقرَّ حقوق المواطنين، حيث يعلن أن الدولة مسؤولة عن توفير الغذاء والكساء والسكن لكل مواطن. وإن الإسلام هو أوّل من أقرَّ هذا المبدأ. لقد بدأت الدول الأخرى الآن تقليد الإسلام ولكن بشكل ناقص، حيث تقوم بالتأمين وتقدِّم المعاش للعائلات، أما أنْ توفر الدولة الغذاء والكساء والسكن للمواطنين في شبابهم وشيخوختهم فهذا المبدأ لم يقدّمه أي دين قبل الإسلام. تقوم الحكومات الدنيوية بإحصاء السكان بهدف فرض الضرائب عليهم أو معرفة عدد الشباب الذين يمكن تعبئتهم في الجيش عند الحاجة، أما الدولة الإسلامية فقامت بإحصاء سكانها في زمن عمر ﵁ أول مرة، ولكن ليس لفرض الضرائب ومعرفة عدد الشباب لتعبئتهم في الجيش عند الحاجة، بل لتوفير الغذاء والكساء لكل مواطن (تاريخ الطبري ج ٣ السنة الثالثة والعشرون). لا شك أن إحصاءً قد أُجري في زمن الرسول ﷺ (البخاري، كتاب الجهاد والسير)، ولكن لم يكن حُكْم المسلمين مستتبًّا في ذلك الوقت، فكان ذلك الإحصاء لمعرفة عدد المسلمين فقط.

إن توفير الغذاء واللباس للمواطنين أمرٌ بالغ الأهمية لإرساء الأمن في العالم، أما القول بأن مَن كان بحاجة إلى شيء فليقدم طلبه للحكومة لتنظر فيه، فهذا لا يحتمله كل غيور ذي كرامة، ولذلك جعل الإسلام الدولةَ مسؤولة عن توفير هذه الحاجيّات لكل مواطن -فقيرا كان أم ثريا، ولو كان مليونيرا، بل ولو أهداه بعد استلامه من الدولة لشخص آخر- وذلك كي لا يكون عنده إحساس بالدونية. وهذا ما فعل الإسلام كي لا يشعر أحد بالإهانة.

أما التجارة فقد وضع لها الإسلام قواعد شتى لكي لا يغشّ فيها أحد. فمثلا قد نهى عن شراء شيء من دون رؤيته، فلا يجوز لأحد أن يبيع كومة من القماش، بل إذا أراد المشتري أن يراه ويتفحصه فعلى البائع أن يسمح له بذلك. كما لا يجوز للبائع أن يقول للزبون أنه لو اشترى البضاعة كما هي فسوف يخفض له من سعرها. ولا يسمح الإسلام أن يقول المشتري مثلا: ألقي هذه الحصاة فما وقعت

عليه فهو لي، أو يقول: أشتري هذا القمح مثلا مِن دون وزنه. خرج النبي ﷺ مرة إلى السوق فوجد البعض يقول أن هذه الكومة من القمح بكذا، وتلك بكذا، فأدخل ﷺ يده في القمح فوجده مبللا، فقال في غضب: لماذا هذه الحبوب مبللة؟ قال: يا رسول الله، بلّها المطر. قال ﷺ: فلماذا خبّأها و لم تُظهرها للناس؟ ثم حرَّم مثل هذه الصفقة. كذلك نهى النبي ﷺ عن بيع وشراء فيه غش. (مسلم: كتاب الإيمان، والبخاري: كتاب البيوع).

ثم إن الإسلام حرّم القمار، لأن المقامر يكسب بطريقة تضر بكثير من الناس، كما أن القمار يرغّب الناس عن التجارة الصحيحة. واليانصيب الذي يمارسه المسلمون اليوم أيضا قمار، والقمار ممنوع بأي شكل كان، سواء بالقرعة أو برمي سهم.

ثم إن القرآن يأمر بالكتابة عند البيع والشراء. الشركات الغربية اليوم تعطي إيصالا، وكل الغرب يفتخر بذلك، مع أن القرآن هو أول من علّم هذا المبدأ التجاري، ولكن المسلمين قد أهملوه لسوء حظهم.

أما الرهن فقد أوصى الإسلام أن يكون مقبوضا ومكتوبًا.

ثم إن الإسلام أحلّ بيع السَّلَم، ◈ الغريب أن المسلمين اليوم يتعاملون بالربا، ولكن يحرّمون بيع السلَّم، مع أن الإسلام أحلّه وحرّم الربا. يقال اليوم أنه لا حرج في أخذ الربا الذي تعطيه البنوك، مع أنه قول باطل تماما. الربا ربا.. أيا كانت تسميته، وهو محرم. كذلك قد وضع الإسلام مبادئ كثيرة أخرى للتجارة، ولا بد من الالتزام بها لازدهارها. لقد بدأ النظام البنكي في البلاد الإسلامية نتيجة غفلة المسلمين عن هذه الأحكام، ولا يمكن إيقافه الآن دفعة واحدة، لأن ذلك يؤدي إلى انهيار الدول اقتصاديا. ولو أن المسلمين استمروا في بيع السَّلَم منذ البداية لما أحكمت البنوك قبضتها عليهم اليوم، غير أنه يمكن إيجاد طرق أخرى بإعمال العقل

◈ بيع السَّلم: مبادلة الدين بالعين، أو بيع شيء مؤجل بثمن معجل. (المترجم)

والفكر لاستمرار التجارات. لقد كان الناس يمارسون التجارة في الماضي أيضا، وكان بين المسلمين تجار كبار يقومون بالتجارة من دون ربا، ولم يكن عندها أي بنوك.

أما الزراعة فقد وضع الإسلام لها قوانين رائعة، فمثلاً قد نهى الرسول ﷺ عن بيع الثمر والزرع قبْل نضجه (البخاري، كتاب البيوع)، لأن فيه مغامرة، إذ قد تهبّ العواصف، فيسقط الثمر، وتخرج الغلال أقلّ من المتوقع. لقد نهى الإسلام خاصة عن بيع الثمار قبل نضجها إلا أن تُباع الأرض مع أشجارها، حتى إذا خسر المشتري في الثمار غطّى هذه الخسارة بالزراعة.

باختصار، إن بيع الثمر قبل نضجه ممنوع.

ثم قال الله تعالى بشأن الزراعة: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾(الأنعام:١٤٢).. أي إنما يجوز لكم الانتفاع بالمحاصيل إذا أديتم حق الفقراء فيها، وإلا فلا.

أما قضية إيصال الماء مرورًا بأراضي الآخرين، فأوصى الإسلام بألا يمنع المرء غيره من أخذ الماء مرورا بأرضه (البخاري، كتاب المساقاة)، وإلا فإن هذا يؤدي إلى خراب الأراضي.

أما الزواج فقد وضع له الإسلام قواعد عديدة، وعلى سبيل المثال قد جعل المهرَ للمرأة، وحثَّ على رؤية الفتاة قبل الزواج تفاديًا لأي فتنة فيما بعد. إن رؤية الفتاة قبل الزواج بعد تراضي الأسرتين على الزواج يحمي من فتن كثيرة. أراد شاب في زمن الرسول ﷺ الزواج من فتاة، وأعجب بها، غير أنه قال لأبيها إني متفق معك على كل شيء، فاسمح لي أن أرى البنت أيضا، وكان حُكم الحجاب قد نزل، فرفض أبوها طلبه، فذهب الشاب إلى النبي ﷺ وحكى له قصته، فقال ﷺ: لقد أخطأ أبوها، ما دمتَ قد اتفقت مع أبيها على كل شيء فلا بأس أن تراها. فذهب الشاب إلى أبيها وبلّغه قول الرسول ﷺ، فقال أبوها: ولكن غيرتي لا تحتمل ذلك، فلن أسمح لك برؤية ابنتي. وكانت الفتاة تسمع تحاوُرهما، فخرجت من وراء الحجاب مكشوفة الوجه، وقالت للفتى: ما دام الرسول ﷺ قد قال أنه يجوز لك رؤيتي، فكيف يمنعك أبي من رؤيتي؟ فها أنا واقفة أمامك. فتأثّر الشاب من قولها

وغضّ طرفه و لم ينظر إلى الفتاة وقال: سأتزوجها من دون النظر إليها لإيثارها حبّ النبي ﷺ على حب أبيها.. فتزوّجَها من دون أن ينظر إليها. (ابن ماجـه: كتـاب النكاح)

فالإسلام قد وقى المسلمين بفرض الحجاب من الفتن التي تأتي من المـرأة مـن ناحية، ومن ناحية أخرى تفادى الفتن الناجمة عن اللون أو الملامح أو الصورة التي قد تتولد نتيجة التسرع في الزواج، فقال ﷺ بأن لا حرج في رؤية البنـت قبـل الزواج.

أما فيما يتعلق بالحُكْم، فقد تناول القرآن هذه القضية أيضا وبيّن حقوق الحاكم وواجباته ومدى سلطته وأوامره، وقد تناول الإسلام كل هـذه القواعـد ببيـان مفصل. كما أمر أن يتم اختيار الحاكم بالانتخاب، إذ ليس هناك دين آخر قـدّم فكرة انتخاب الحاكم.

ثم إن الإسلام يأمر الحاكم باحترام الرأي العام إلا إذا كان فيه مخالفة للدين أو ضرر بمصلحة الأمة. بعض الحكام يقولون نحن منتَخَبون من الجماهير فلا داعي أن نستشير أحدًا، ولكن الإسلام لا يُجيز هذا، بل يأمر الحاكم بتشكيل هيئة استشارية وأن يلتزم بقرار أغلبيتها، إلا أن يكون خلافًا لمصلحة الأمة. والواضح أن الحـاكم إذا كان منتخبًا من الجماهير فلن يخالف قرار أكثرية الهيئة الاستـشارية مـن دون سبب، إنما يخالف رأيها إذا كان خلافًا لمصلحة الدولة أو الأمة، ولا يمكن أن يَتّخذ مثل هذه الخطوة إلا مَن هو أمين ويخاف الله تعالى. باختصار، قد أوضح القـرآن الكريم أهمية المشورة كل الإيضاح، بل أمر الله تعالى رسوله قائلا: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ (آل عمران:١٦٠). وهذا الأمر لا يوجد في أي ديانة أخرى. إن الديمقراطية التي ينادي بها الديمقراطيون اليوم إنما قدّمها الإسلام بشكلها السليم، ولا يمكن لدين أن يبلغ شأو الإسلام في هذا المجال.

والآن أتناول أحكام الإسلام المتعلقة بالأعداء: كلما بعث الله تعالى رسله لهداية الناس آمن بهم البعض وعاداهم الآخرون. وأمْرُ العَداء والـصداقة لـيس خاصًـا

بجماعات الأنبياء، بل هذا ما نراه في مجال السياسة أيضا؛ فبعض الدول تصادق دولاً أخرى، وبعضها تعاديها. ولكن ليس هنالك دين بيَّن الحقوق والقواعد بشأن الأصدقاء والأعداء أيضا سوى الإسلام. ورد في التوراة أنكم إذا اقتحمتم بيوت الأعداء فاقتلوا البالغين منهم جميعا وأْسِروا نساءهم وأطفالهم، بل تأمر التوراة بقتل أنعامهم أحيانًا، وهذا منتهى العنف (التَّثْنية٢٠: ١٠-١٦، ويشوع ٦ :٢٠-٢١). ولكن الإسلام أعطى تعليمات سامية هي ذروة العدل، فمثلا قال الله تعالى عن الحرب: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾(البقرة:١٩١).. أي حارِبوا الذين يحاربونكم، أما الذين لا يرفعون عليكم السيف فلا يحق لكم قتالهم ورفع السيف عليهم.

ثم إن الإسلام ينهى المسلمين أن يرفعوا السيف على المرأة وإن كانت مشتركة في الحرب، إلا في حالات استثنائية. ورد في التاريخ أن صحابيا رأى في ساحة القتال شخصا يحرّض الكفار على قتال المسلمين، فتقدّمَ نحوه وأراد ضربه بالسيف، ثم امتنع ورجع؛ فقال له أصحابه: لماذا لم تقتله؟ فقال: عندما اقتربت منه عرفت أنها امرأة في لباس رجل، فلم أستسغ قتلها. (السيرة الحلبية: ج٢ غزوة أحد). فمع أن المرأة كانت تحرّض الكافرين على القتال، وكان كثير من المسلمين قد تضرروا بسببها، إلا أن الصحابيّ لم يتعرض لها، لأن الرسول ﷺ منع من قتل المرأة.

كذلك ورد في الحديث أن الرسول ﷺ كان ذات مرة يتفقد ساحة القتال بعد انتهاء المعركة، فوجد امرأة مقتولة فاحمرَّ وجهه وقال: إنّ مَن قتلها قد ارتكب منكرا، لا يجوز قتل النساء (البخاري، كتاب الجهاد).

وكان النبي ﷺ إذا بعث جيشًا أوصاهم بأنْ قاتِلوا في سبيل الله، ولا تغدروا، ولا تخونوا، ولا تغشّوا، ولا تُمثِّلوا بجثث الأعداء، ولا تقتلوا وليدًا ولا امرأة ولا المتعبدين في معابدهم ولا شيخا هرمًا. (أبو داود: كتاب الجهاد، باب في دعاء المشركين)

لقد ثبت من هنا أن الإسلام قد أقرّ حقوق الأعداء أيضًا وأمر بالإنصاف إليهم. وعندي أنه لا يوجد نظير لهذه الرحمة في أي ديانة أخرى. لا شك أنه قد سُنّ الآن

قانون عالمي للحرب وُضعتْ فيه قواعد مشابهة لأحكام الإسلام هذه، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا: عندما لم تكن هذه القواعد الحربية والسياسية قد وُضعتْ من قِبل الناس و لم يكن أحد يعرف هذا النظام، فمَن الذي أعطى هذه التعليمات الذهبية للعالم، وأخرج الناس من حضيض الوحشية والهمجية وعلَّمهم الإنسانية والمؤاخاة؟

كان النبي ﷺ إذا سار إلى الأعداء لقتالهم، أقام خارج ديارهم ليعرفوا بقدومه، كي لا يهاجمهم خطأً أو على حين غرة منهم، فكان ينتظر حتى الصباح، فإذا سمع الأذان من ديارهم لم يهاجمهم، وإذا لم يسمع الأذان من عندهم، حمل عليهم بعد الصباح حتى لا يتضرر أحد من حلفاء الإسلام والمتعاطفون معه (مسلم، كتاب الصلاة). أما اليوم فإن الناس يغيرون العدو ليلاً على حين غفلة منه، الأمر الذي كان النبي ﷺ يتفاداه دائمًا. لا شك أن المسلمين كانوا يباغتون العدو ليلاً أحيانًا، لكنهم لم يكونوا هم البادئين في ذلك البتة، بل كان العدو هو البادئ في ذلك، فكانوا يضطرون للانتقام منه بمثله. لقد أعطى الرسول ﷺ تعليمات صريحة أن لا يهاجَم العدو ليلا ومن دون إعلامه، وألا يقتلوا النساء ولا الأطفال ولا الشيوخ ولا القسس والرهبان المنقطعين إلى عبادهم في الصوامع والكنائس، ولا يقتلوا الذين جلسوا في بيوهم و لم يشتركوا في القتال. إنما يقاتلون الذين يشتركون في قتالهم.

ثم إن الإسلام جعل من قواعد الحرب ألا يتم قتال قوم من دون إعلان الحرب عليهم. إن القانون العالمي اليوم أيضا يطالب بإعلان الحرب قبل القتال، ولكن الإسلام هو الذي وضع هذا المبدأ قبل غيره، وأمر المسلمين بشأن قوم بينهم وبينهم معاهدة: ﴿فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾(الأنفال:٥٩).. أي أنّ عليهم قبل بدء قتال هؤلاء الذين عقدوا معهم صلحًا، أن يعلنوا نيّتهم في قتالهم ويخبروهم أنه لا يمكن أن يستمر الصلح بين الطرفين بسبب الظروف الحالية؛ وذلك لكي تتاح للعدو الفرصة لإصلاح خطئهم، فإذا لم يفعلوا ذلك فيمكن قتالهم.

كذلك قد علّم الإسلام أنه إذا وضع العدوُّ السلاح فكُفّوا عن قتاله، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾(الأنفال:٦٢).. أي إذا أراد العدو التصالح فلا ترفضوا الصلح، ولا يجوز لكم قتاله بعد إعلان الصلح.

أما فيما يتعلق بالعلاقات الدولية فقد سنّ الإسلام لها قوانين لا يمكن أن يجاريه فيها دين آخر. لقد وضع الإسلام لإزالة الخلافات بين الدول تعليمات شاملة مكتملة لا توجد حتى في قوانين "عصبة الأمم" التي كانت سابقا، ولا في قواعد "هيئة الأمم المتحدة" التي تكونت حديثا؛ لأن هاتين الهيئتين لم تأخذا باقتراحات القرآن الكريم بشكل كامل. وقد ذكرتُها بالتفصيل في كتابي "الأحمدية". يقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾(الحجرات:١٠).. أي إذا تحاربت دولتان فمن واجب الدول الأخرى أن تضغط عليهما لإزالة خلافاتهما، وإذا توصل هؤلاء إلى قرار، وخالفتْه إحداهما وشنت الهجوم على الأخرى، فمن واجب جميع الدول أن تشنّ حربا موحدة عليها لكي تنتهي عن القتال وتخضع للقرار؛ وإذا خضعت فيجب عدم محاربتها، بل يجب تنفيذ القرار، ولا يجوز للدول الأخرى استغلال تلك الدولة ونهْبها، وإنما عليهم أن يكتفوا بإحلال السلام.

كنتُ في إنجلترا عندما تكوّنت عصبة الأمم، وكنت قد أعلنتُ في حينها أنها لن تنجح، لأن القرآن الكريم قد اشترط أنه إذا اختلفت دولتان و لم تخضع إحداهما لقرار الأمم الأخرى، فمن واجبها كلها شن الحرب عليها، ولكن لم تضع عصبة الأمم في قواعدها أي اقتراح لشن الهجوم على الدولة المعتدية. أما هيئة الأمم المتحدة التي تكونت حديثًا فأقول إن مصيرها هو مصير عصبة الأمم، فهي أيضًا لن تنجح أبدا ما لم تغير قواعدها، إذ لا تتضمن قواعدها ما يعلّمه الإسلام. لا شك أنهم وضعوا فيه خيار شنّ الهجوم على الدولة المعتدية، ولكن لم يحددوا طريقة تنفيذه بدقة. ثم إنهم قد ضمّوا إلى هذه الهيئة دولاً دون دول، منها إسبانيا مثلاً، فما دامت إسبانيا مستعدة للعمل بشروط هذه الهيئة فيجب ضمّها إليها. كذلك منحوا

بعض الدول خيارات أكثر من الأخرى، مما يعني أهم يتعاملون بالتمييز الذي يرفضه الإسلام بشدة، ولذلك قلت إن مآل هذه الهيئة أيضًا الفشل.

إن أوروبا مبتهجة اليوم بأهم قد وضعوا مثل هذا القانون، وما يدريهم أن هذا القانون قد نزل متكاملا من كل النواحي في القرآن الكريم قبل أكثر من ١٣ قرنا! ولو أهم عملوا به لزالت جميع الخصومات التي دفعت بالعالم اليوم إلى هوة الهلاك والدمار، ولعاشت الإنسانية بسلام واستقرار ثانية.

ما ذكرتُه آنفًا هو تعاليم الإسلام بشأن الناس، والتي لا مثيل لها عند الأديان الأخرى. وأبين الآن أن الإسلام لا يعطينا التعليمات بشأن البشر فقط، بل إنه يعتني بالحيوانات ويأمر بالرفق والعناية بها، قال الله تعالى ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾(الذاريات:٢٠). ومن معاني ﴿الْمَحْرُومِ﴾ أناسٌ لا يستطيعون السؤال، وكذلك الحيوانات التي لا تقدر على السؤال كالقطط والكلاب وغيرها. لا شك أن بعض الأمم الأخرى أيضا ترفق بالحيوانات كثيرا، فالإنجليز مثلاً يرفقون بالكلاب كثيرا، والكلب عندهم خير من عشرة من الآسيويين، ولكنهم لا يرفقون بالكلاب لأن المسيح عليه السلام علّمهم ذلك، وإنما يحبونها برغبتهم وشوقهم. أما المسلمون فيرفقون بالحيوانات لأن الله تعالى أمرهم بذلك. ورد في الحديث: "دَخلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبطَتْهَا، فَلَمْ تُطْعِمْهَا وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ" (البخاري ومسلم). وكذلك ورد أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فَنَزَلَ بِئْرًا، فَشَرِبَ مِنْهَا ثُمَّ خَرَجَ، فَإِذَا هُوَ بكَلْب يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنْ الْعَطَشِ، فَقَالَ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مِثْلُ الَّذِي بَلَغَ بِي؛ فَمَلَأَ خُفَّهُ ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ ثُمَّ رَقِيَ فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ (البخاري: كتاب المساقاة، باب فضل سقي الماء). وقال صحابي: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَانْطَلَقَ لِحَاجَتِهِ، فَرَأَيْنَا حُمَّرَةً مَعَهَا فَرْخَانِ، فَأَخَذْنَا فَرْخَيْهَا، فَجَاءَتْ الْحُمَّرَةُ فَجَعَلَتْ تَفْرِشُ (أيْ تُرَفْرِفُ)، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: مَنْ فَجَعَ هَذِهِ بِوَلَدِهَا؟ رُدُّوا وَلَدَهَا إِلَيْهَا. (أبو داود: كتاب الجهاد، باب في كراهية حرق العدو بالنار)

وورد في الحديث أن النبي ﷺ مَرَّ بحمارٍ قد وُسِمَ في وجهه، فقال: أما بلغكم أني لعنتُ مَن وسم البهيمةَ في وجهها أو ضرَبها في وجهها، فنهى عن ذلك. (مسند أبو يعلى، مسند جابر)

فالإسلام لم يراع حقوق الناس فقط، بل حافظ على حقوق الحيوانات أيضا.

ثالثًا: تعليم الحكمة

والأمر الثالث الذي ذكره الله تعالى في هذه الآيات من سورة البقرة جوابًا على دعاء إبراهيم عليه السلام هو تعليم الحكمة، والحكمة في العربية هو ما يسمى بالإنجليزية (Philosophy).. أي الفلسفة، فكما أن التاريخ شيء وحكمة التاريخ شيء آخر، وعلْم اللغة شيء وحكمتها شيء آخر، والقانون شيء وفلسفته شيء آخر، كذلك الأحكام الشرعية شيء وحكمتها شيء آخر، فالأحكام تتعلق بالأحداث وتفاصيلها، أما الحكمة فتتعلق بخلفيات الأحداث ونتائجها. فالصلاة مثلاً عبادة معينة، لها أوضاعها وشروطها كالوضوء والنية وقراءة الفاتحة والركوع والسجود وترديد آيات وأدعية من القرآن الكريم والتسليم، أما فلسفة الصلاة فشيء آخر. فلو سئلنا ما هي الصلاة، لذكرنا تفاصيلها، أما لو سئلنا لماذا نصلي، فلن نذكر طريقة الوضوء والقيام والركوع والسجود، بل نبين سبب فرضيتها وهدفها وغايتها وفائدتها. فالمراد من فلسفة الشيء الحافزُ وراءه وغايتُه.. أي أن الفلسفة هي دوافع الشيء التي وقعت قبل حدوثه، أو نتائجه التي ترتبت بعد حدوثه؛ فمثلاً إذا أحسن إليك أحدٌ شكرتَه، فحافز الشكر قد سبَق شكرك، ولكنا أحيانًا نقوم بالعمل أولاً ثم نأخذ أجره الذي هو نتيجته، فأحيانا تصبح غاية العمل حافزًا له، وأحيانا تصبح بدايته حافزًا له؛ فإذا بيّنتَ سبب الشيء وغايته، فهذه هي الفلسفة، كذلك إذا بينتَ ما في الُحكْم مِن مصالح ومنافع ومزايا فهذه هي الحكمة والفلسفة. والقرآن الكريم هو الوحيد بين الصحف السماوية الذي أعلن أن كل عمل يجب أن يتم لحكمة وغاية. وهذا الأمر لا يخص الإنسان فقط، بل الله تعالى أيضا لا يفعل شيئا من دون حكمة وسبب. وقال الله تعالى ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾

(نوح:١٤).. أي: إذ ترفضون أن يقال بأنكم تفعلون أي شيء من دون هدف وحكمة، فكيف تقولون بأن الله تعالى خلَق السماوات والأرض عبثًا؟ ومِن أجل ذلك نجد أن الله تعالى قد ذكر من أسمائه "الحكيم"، وقد بيّن الحكمة وراء كل حكْم من أحكامه، و لم يقل: لأنني إلهٌ فلذلك آمرُكم بكذا وكذا. لو أن الله تعالى أمر الإنسان بشيء من دون بيان حكمته لضعُف إيمانُه إلى حد كبير، وقال: لم أستوعب الحكمة وراء ما يأمرني به الله. لقد سمى الله تعالى نفسه حكيمًا للإشارة إلى أنه لا يخلو أيُّ فعلٍ من أفعاله مِن حكمة وغاية، وإليه أشار الله تعالى في قوله ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾.. أي لو كنتم عقلاء لسعيتم ألا يخلو عمل من أعمالكم من الحكمة والمعقولية، إذ كيف تظنون أن أفعال الله تعالى تخلو من حكمة وغاية، وأنه قد اتخذ ولدًا! ولماذا يتخذ ولدًا!؟ إنما يرغب الإنسان في الأولاد ليكونوا تذكارًا له في الدنيا بعد موته، فمتى كان الله تعالى عرضةً للفناء حتى يتخذ ولدا؟ والسبب الثاني لرغبة الإنسان في الأولاد هو أن يكون له أنصار وأعوان ينصرونه، فهل الله عرضةٌ للضعف وتهديدِ العدو وغيرُ قادر على إدارة الكون حتى يتخذ ولدًا يساعده؟ ما دمتم لا تعملون أي عمل إلا لحكمة وغاية، فلماذا تظنون أن الله تعالى يفعل أفعاله عبثًا دونما حكمة وغاية؟ هل هناك أي معقولية في تصرفكم هذا؟

والآن أضرب بعض الأمثلة البسيطة التي تبين كيف أن الإسلام قد أسس جميع أحكامه على الحكمة. لقد نهى الإسلام الناس عن شتى السيئات التي قد ورد تفصيلها في القرآن والحديث، ولكن السؤال هنا: كيف ينشأ الإثم؟ إذ لا بد أن يكون هناك سبب لنشوء السيئة. إن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي بيّن أن للسيئات أبوابا إذا أغلقتموها تغلبتم على المساوئ. لقد قال المسيح الناصري عليه السلام: لا تنظر إلى امرأة بنية سيئة،* ولكننا نقول: إنما تسوء نية المرء بعد أن ينظر إلى امرأة

* نص ما ورد في الإنجيل هو: "إنَّ كُلَّ مَنْ يَنْظُرُ إِلَى امْرَأَةٍ لِيَشْتَهِيَهَا، فَقَدْ زَنَى بِهَا فِي قَلْبِهِ" (متَّى ٥: ٢٨). (المترجم)

جميلة، لا قبل ذلك، فكيف قيل: لا تنظرْ إلى امرأة من غير المحارم بنيّة سيّئة؟ فقد ثبت أن هذا الحكم بلا معنى وبالتالي لا فائدة منه. أما القرآن الكريم فيقول: لا تنظرْ إلى غير المحارم مطلقًا لا بنية حسنة ولا بنية سيئة، فإنك لا تدري ما إذا كانت فتنة لك أم لا. إذا كانت فتنة لك كان حبك لها حراما، فعليك إغلاق هذا الباب نهائيًا حتى يظل قلبك محفوظا من لوثة الإثم تماما.

كذلك لا ينهى الإسلام عن الفاحشة فقط، بل ينهى الرجال والنساء من غير المحارم عن الاختلاط، أما الأديان الأخرى فتقول بأنه يمكنكم الاختلاط ولكن لا ترتكبوا الفاحشة، مع أن تجنب السيئة صعب جدًّا مع توفُّر دواعيها.

كذلك تقول الأديان الأخرى بأنْ لا تنفقوا المال بطريق غير جائز، مع أن الواقع أن المرء إذا جمع المال فلا بد أن ينفقه أيضًا، أما الإسلام فيقول بأنْ لا تكنزوا المال، وإذا لم يُكنَزْ فلا سبيل لإنفاقه بطريقة خاطئة. لا شك أن الإسلام سمح للمرأة باقتناء شيء من الحلي للزينة، ولكنه حرّم المبالغة في ذلك.

ثم إن الإسلام قد جعل الأكل والشرب مقيّدًا بقيود، إذ قال الله تعالى ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا﴾(الأعراف:٣٢).

إذن، فقد سَدَّ الإسلام طرق إهدار المال كليةً؛ فنهى عن الإسراف في الأكل والشرب، وعن اقتناء الكثير من الحلي، بل نهى المرأة عن التبرج، كما نهى عن الرقص والغناء وشرب الخمر. باختصار، قد حرم الإسلام جميع الأسباب التي تؤدي إلى الإسراف، مما يعني أنه لا ينهى عن الإثم فحسب، بل يغلق أبوابه أيضا. وهكذا بيَّن فلسفة الإثم بيانا لطيفا رائعا.

أما العبادات، فالإسلام هو الدين الوحيد الذي قد بيَّن فلسفتها وحكمتها. لقد أوضح لنا أن الصلاة ليست غرامة، بل إنها تنهى عن الفحشاء والمنكر. وكأن الإسلام يقول لك: صَلِّ، ولكن ليس لأن الله يريد أن تقوم بهذه الحركات الجسدية لعشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة، وإنما لأن الصلاة وسيلة لإصلاحك، فهي تنهى

عن المنكرات وتمحو الخطايا. أما كيف تنهى الصلاة عن السيئات؟ فهذا موضوع طويل لا أستطيع الخوض فيه الآن، إنما أكتفي هنا بالقول بأن القرآن الكريم لا يأمر بالصلاة فقط، بل يبين أيضا حكمتها وغايتها.

أما الصوم، فبيّن الله تعالى حكمته قائلا: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.. أي عليكم أن تصوموا لأن الصوم يزودكم بالتقوى، والتقوى تساعدكم على تجنب كل نوع من السيئات. عندما يشعر الصائم بالجوع فإنه يفكر بأنه قد تعرض لهذه المعاناة الشديدة رغم تناوُله وجبتين في اليوم، فما بالُ الذين يعانون الفاقة أيامًا! وهذا الإحساس يحفّزه على مساعدة الفقراء، الأمر الذي لا بد منه لتقدُّم الأمة.

باختصار، إن الإسلام لم يأمر بالعبادة فحسب، بل قد بيّن حكمتها أيضا، وأوضح أن العبادة إنما هي لمنفعة الإنسان، وليس أن الله تعالى يريد بها إظهار حُكْمه وهيمنته على العباد.

ومن أعظم محاسن القرآن الدالة على وجود الحِكم في أحكامه أنه قد التزم بالاعتدال فيها لكي لا تشقّ على الإنسان، فيصاب بالملل. لقد أمر الإسلام بالاعتدال في كل شيء من أكل وشرب، حتى في الصلاة والصوم وإنفاق المال. وإنه إذ نهانا عن كنْز المال، فقد نهى عن المبالغة في الإنفاق أيضًا، حتى لا يصبح المرء صفر اليدين، فيتحسر على إفلاسه. وإنه إذ أمرنا بالصيام فقد نهانا أيضا عن الصيام المستمر بلا انقطاع. ورد في الحديث أن عبد الله بن عمرو قال: أُخْبِرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنِّي أَقُولُ: وَاللَّهِ لَأَصُومَنَّ النَّهَارَ وَلَأَقُومَنَّ اللَّيْلَ مَا عِشْتُ. فَقُلْتُ لَهُ: قَدْ قُلْتُهُ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي. قَالَ: فَإِنَّكَ لا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ، فَصُمْ وَأَفْطِرْ، وَقُمْ وَنَمْ، وَصُمْ مِن الشَّهْرِ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ، فَإِنَّ الْحَسَنَةَ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وَذَلِكَ مِثْلُ صِيَامِ الدَّهْرِ. قُلْتُ: إِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ. قَالَ: فَصُمْ يَوْمًا وَأَفْطِرْ يَوْمَيْنِ. قُلْتُ: إِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ. قَالَ: فَصُمْ يَوْمًا وَأَفْطِرْ يَوْمًا، فَذَلِكَ صِيَامُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلام وَهُوَ أَفْضَلُ الصِّيَامِ. فَقُلْتُ: إِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لا أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ (البخاري: كتاب الصوم، باب صوم الدهر). وفي رواية أن عبدَ الله بن عمرو لما بلغ الكِبر و لم يقدر

على صوم يوم وإفطار يوم قال: "يَا لَيْتَنِي قَبِلْتُ رُخْصَةَ النَّبِيِّ ﷺ." (البخاري: كتاب الصوم، باب حق الجسم في الصوم)

وكذلك سمى النبي ﷺ مَن يصوم يوم العيد شيطانًا. *

أما الصلاة فقد نهى النبي ﷺ عنها إذا كانت الشمس في كبد السماء، أو عند شروقها أو غروبها (النسائي: كتاب الصلاة، ومسند أحمد). والحكمة في ذلك أنه لا بد للإنسان من وقت يستريح فيه ذهنه، وإلا ضعُف واختلّ. روي أنه دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ بيته، فَإِذَا حَبْلٌ مَمْدُودٌ بَيْنَ السَّارِيَتَيْنِ، فَقَالَ: مَا هَذَا الْحَبْلُ؟ قَالُوا: هَذَا حَبْلٌ لِزَيْنَبَ، فَإِذَا فَتَرَتْ (أُرهقتْ) تَعَلَّقَتْ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لا حُلُّوهُ؛ لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ، فَإِذَا فَتَرَ فَلْيَقْعُدْ. (البخاري: كتاب الجمعة، باب ما يُكرَه مِن التشديد في العبادة)

وورد في الحديث أن شخصًا نذر بالحج مع شروط معينة، فلم يستحبّه الرسول ﷺ، إذ ورد أَنَّ النبي ﷺ رَأَى شَيْخًا يُهَادَى بَيْنَ ابْنَيْهِ، قَالَ مَا بَالُ هَذَا؟ قَالُوا: نَذَرَ أَنْ يَمْشِيَ. قَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَنْ تَعْذِيبِ هَذَا نَفْسَهُ لَغَنِيٌّ. وَأَمَرَهُ أَنْ يَرْكَبَ. (البخاري: كتاب الحج، باب من نذر المشي إلى الكعبة)

كذلك عندما جاءت الغنائم أمر الله تعالى رسوله أن يجعل جزءًا منها للفقراء، ولما كان واردا أن يقال: لماذا لا توزَّع الغنائم على الفقراء والأغنياء على السواء ما داموا قد اشتركوا في الحرب، قال الله تعالى ﴿كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾(الحشر:٨).. أي لقد جعلنا للفقراء نصيبًا خاصا في الغنائم لأن الأغنياء ذوو مال سلفًا، ولو وُزّعت الغنائم سوية بين الجميع لاجتمعت الثروة في أيدي الأثرياء

* نص الرواية التي وجدناها بهذا الصدد هو: "عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: يَوْمَانِ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: عَنْ صَومِهِمَا: يَوْمُ فِطْرِكُمْ مِنْ صِيَامِكُمْ، وَالآخَرُ يَوْمٌ تَأْكُلُونَ فِيهِ مِنْ نُسُكِكُمْ (مسلم: كتاب الصيام، باب النهي عن صوم يوم الفطر ويوم الأضحى). (المترجم)

فقط، ولذلك قد جعل الله في الغنائم نصيبًا خاصًّا للفقراء بالإضافة إلى توزيع الغنائم على جميع المجاهدين على السواء.

ثم إن الإسلام وحده الذي بيّن أن كل ما خلقه الله تعالى إنما خلقه لفائدة الإنسان، فقال الله تعالى ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾(الجاثية:١٤). لقد بيّن الإسلام هذا الأمر قبل ١٣ قرنا حين كان العالم يجهل العلم الحديث. إن هذه البحوث المعاصرة تزيد صدق ما قال الإسلام جلاءً، حيث يكتشف العلماء كل يوم منافع آلاف الأشياء التي كانوا يعتبرونها من قبل ضارّة أو خالية من أي نفع. خذوا مثلاً الأفعى، فهي حيوان سامّ، ولكن العلماء ينتفعون اليوم مِن سُمّها منافع كبيرة، إذ هو نافع جدًّا في علاج مرض السلّ. كان في مدينة "بهاولبور" شخص مصاب بمرض السلّ، فقال له الأطباء أن لا علاج له، غير أنهم أشاروا عليه باستخدام السكر ليتزود بالطاقة، فأخذ يمتصّ قصب السكر باستمرار، وتماثل للشفاء، واكتُشف فيما بعد أن ثعبانا كان مدفونا تحت شجر قصب السكر، فسرى تأثير سمه إلى القصب الذي كان يمتصه فشُفي من مرضه. فسُمُّ الأفعى يُستخدم في العلاج بالمثل منذ سبعين عاما، وقد جربتُ هذا الدواء على كثير من المرضى، فنفعهم نفعًا غير عادي.

ثم خذوا الزرنيخ؛ الذي إذا تناوله الإنسان مات، ولكن الله تعالى لم يخلقه لقتل الناس بل لشفائهم من أمراضهم. فقد اخترع الأطباء منه أدوية كثيرة، وهو يستعمل خاصة لشفاء المصابين بالحمى المزمنة الخفيفة، وقد شُفي به مئات الآلاف.

ثم خذوا مثلاً البراز؛ الذي هو نجاسة كبيرة، ولكنها تُستعمل سمادًا لزروعنا، ولذلك يبيع مسؤولو البلدية مياه المجاري بأسعار عالية، مع أننا نعتبرها عديمة الفائدة.

أما البلغم؛ فيقوم الأطباء بتشخيص المرض بفحصه عبر المجهر، وإذا لم يكن عند المريض بلغمٌ أصيبَ الأطباء بالقلق وقالوا: يجب أن نولّد البلغم فيه ليساعدنا على تشخيص مرضه. وقد صُنع من البلغم ما يسمى (Autovaccine)، أي لَقاح ذاتي، وهو دواء نافع في شفاء الأمراض المزمنة.

فالحق أنه ليس هنالك شيء سيئ في حد ذاته، إنما يصبح سيئًا أو حسنًا بحسب الظرف. وهذا الأمر الذي اكتشفه أهل العلم الآن قد بيّنه القرآن الكريم قبل قرون.

أما الأخلاق الفاضلة؛ فبيّن الإسلام أنها اسم للاستعمال الصحيح لما في الفطرة الإنسانية من كفاءات. إن هذه الكفاءات تصبح سيئةً باستعمالها السيئ وحسنةً باستعمالها الحسن؛ فمثلا قد جعل الله تعالى في يد الإنسان قدرةً على أخْذ الأشياء، فإذا أخذ بها ما لا يجوز له أخذُه سُمي سارقًا، وإذا أخذ بها ما هو مِلْكٌ له سُمي عاملاً، ولا أحد يعيب العامل. أما إذا لم تكن بيده طاقة فكيف يعمل؟ باختصار، قد بين الإسلام أن كفاءات الإنسان الفطرية حسنة طيبة، إنما سوء استعمالها هو الذي يؤدي إلى الفساد، فإذا استخدمها في محلها وعند الضرورة استعمالاً سليما سُميت أخلاقا فاضلة. وهذه الحكمة لم تبيّنها أي ديانة سوى الإسلام.

رابعًا: تزكية النفوس

والأمر الرابع الذي كان لا بد من توفُّره للرسول ﷺ والذي سأله إبراهيم عليه السلام في دعائه هو تزكية النفوس، إذ قال الله تعالى استجابة لدعائه: لقد بعثنا فيكم رسولاً يطهّر قلوبكم ويذكي فيها نار حب الله تعالى، أما في سورة الكوثر فأخبرَ الله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾.. أي أننا لم نستجب لدعاء إبراهيم بأن يقوم هذا الرسول بتزكية قومه فحسب، بل أعطيناه الكوثر في هذا المجال.

والتزكية ثلاثة أنواع: تزكية المشاعر والعواطف، وتزكية العمل، وتزكية الفكر. والنفس الإنسانية بحاجة إلى التطهير بكل أنواعها: أوّلها تزكية العواطف؛ لأن المشاعر هي أول ما ينشأ في الإنسان، فأعمال الوليد مبنيّة على المشاعر فقط، لأن زمن العمل والتفكير يأتي لاحقًا، فجوعه وصراخه وبكاؤه على فراق أُمّه، كل هذه الأمور أساسها العواطف والمشاعر. ثم إذا قدر على المشي والحركة قام ببعض الأعمال، وإذا دخل سنّ البلوغ بدأ في التدبر والتفكير والاستنتاج. وإذا اكتملت هذه الثلاثة اكتمل نموه.

أبدأُ أولاً بأمر تزكية العمل، فأقول: لقد تبين مما ذكرته قبل قليل من أمور أن التزكية نتيجة حتمية للعمل بأحكام الإسلام، وأن الإسلام وحده الذي يولّد التزكية الحقيقية. والواقع أنه إذا كانت أحكام الدين صحيحة وعمل بها الناس، فلا بد أن تتيسر لهم التزكية، ولكن إذا كانت الأحكام غير صحيحة وعمل بها المرء، فلا بد أن يتعثر. فمثلا: قد أَمَرنا الإسلام بالعفو إذا كان نافعًا، وبالعقاب إذا كان مفيدا، فمَن لم يعمل بهذا الحُكم فهذا شأنه، ولكن الذي يعمل به فلا بد أن يصبح أفضل إنسان. ولكن اليهودية تأمر بمعاقبة كل مجرم، فهي تعلّم أن الأنف بالأنف والأذن بالأذن والعين بالعين، فمَن لم يعمل بهذا الحُكم فهذا شأنه، ولكن الذي يعمل به فلا بد أن يقع في الخطأ ويرتكب الظلم والعدوان آلاف المرات. ويقول الإنجيل مثلاً: "مَنْ لَطَمَكَ عَلَى خَدِّكَ الأَيْمَنِ فَحَوِّلْ لَهُ الآخَرَ أَيْضًا. وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُخَاصِمَكَ وَيَأْخُذَ ثَوْبَكَ فَاتْرُكْ لَهُ الرِّدَاءَ أَيْضًا. وَمَنْ سَخَّرَكَ مِيلاً وَاحِدًا فَاذْهَبْ مَعَهُ اثْنَيْنِ" (مَتَّى ٥: ٣٩-٤١).. فمن لم يعمل بهذا التعليم فهذا شأنه، ولكن الذي سيعمل به فلا بد أن يقع في الإثم مرة بعد أخرى. فعلى سبيل المثال؛ لو اقتحم اللصوص بيته فيجب -بحسب هذا التعليم الإنجيلي- أن يُخرج لهم ما لم يأخذوه من أثاث بيته قائلا: لقد أخطأتم إذ لم تأخذوا هذا، فها إني أضعه أمامكم. فماذا تكون نتيجة العمل بهذا التعليم يا ترى؟ سيُقضى على أمن البلاد وتنتشر الفوضى والفساد في كل مكان، وتكثر حالات السرقة وقطع الطرق ويعتاد الناس الجرائم. أما الإسلام فأعلن أن مَن قُتل دون ماله أو عِرْضه فهو شهيد (الترمذي: أبواب الديات، وأبو داود: أبواب السنة). وهذا هو التعليم القادر على إرساء السلام في العالم؛ ذلك أنه إذا هاجم قُطّاع الطرق قرية وخرج أهلها للتصدي لهم فلن يجرؤوا على اقتحامها، لإدراكهم أن أهلها مستعدّون لحربهم. ثم إذا علم كلّ فرد من المجتمع أنه إذا قُتل دون ماله أو عِرضه فهو شهيد، فلن يخاف الموت، لعلمه أنه إذا قُتل في هذا الاشتباك فهو شهيد، وإذا نجا من القتل فإنه يكون قد حمى ماله وعرضه أيضا.

فالحق أن تعاليم الإسلام هي التي تقدر على توطيد السلام وليست تعاليم المسيحية أو اليهودية.

كذلك تقول كتب اليهود لهم: إذا فتحتم بلدًا فاقتلوا رجالهم، بل اقتلوا مواشيهم، وخذوا نساءهم وأطفالهم أسرى!● ما أشدَّ هذا الحُكمَ قسوةً ووحشية! وكيف يمكن إرساء السلام به؟! فإذا كان اليهود يقتلون رجال القوم ويأسرون نساءهم وأطفالهم، فلا بد أن يفعل أعداؤهم بهم ما فعلوا كلما وجدوا فرصة لذلك، لأن لكلّ فعل ردّ فعل. وماذا ستكون النتيجة في النهاية؟ سوف تهلك الزروع والأموال، ويقلّ أفراد القوم، وتقلّ الأيدي العاملة عند الطرفين، لأن الجميع قد قُتلوا. أما الإسلام فيأمر بأنكم إذا اضطررتم للقتال فـ ﴿قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾(البقرة:١٩١).. أي لا تقاتلوا إلا الذين يقاتلونكم. لا حرج أن تحاربوا الذين يُخِلّون بأمن البلاد منتهكين القانون والأخلاق والمُثل العليا، ولكن كيف يحقّ لكم أن تقاتلوا الذين لم يشتركوا في القتال؟ يمكنكم أن تقتلوا الذين يرفعون السيف لقتلكم، ولا حرج في قتلهم، ولكن لماذا يُقتَل الجالسون في بيوتهم آمنين ولم يخرجوا لقتالكم ولا يشتركون فيه بأي طريق، حتى مع انتمائهم إلى الأمة المحاربة؟

ثم إن الإسلام ينهى عن قتل النساء والأطفال والضَّعَفة. والثابت تاريخيًا أنه لم يشترك جميع الصحابة ولا جميع الكفار في أي حرب، وكان عدد سكان الجزيرة عندها قرابة ثلاثة مئة ألف، وكان عدد الذين يشتركون في الحرب من الطرفين عدة آلاف فقط، ولو أن الصحابة قَتلوا -كما تأمر اليهودية- جميع الكافرين بعد انتصارهم عليهم؛ المشتركين منهم في القتال وغير المشتركين لما بقي في الجزيرة إلا

● ورد مثلا: "اعْبُرُوا فِي الْمَدِينَةِ وَرَاءَهُ وَاضْرِبُوا. لاَ تُشْفُقْ أَعْيُنُكُمْ وَلا تَعْفُوا. اَلشَّيْخَ وَالشَّابَّ وَالْعَذْرَاءَ وَالطِّفْلَ وَالنِّسَاءَ، اقْتُلُوا لِلْهَلاَكِ."(حِزْقِيَال ٩: ٥-٦)

وورد: "وقَتَلوا بحدِّ السيف إكرامًا للربِّ جميع ما في المدينة من رجالٍ ونساءٍ وأطفالٍ وشيوخ، حتى البقر والغنم والحمير" (يشوع ٦:٢١). (المترجم)

قليل من المسلمين، وإذا قُتل الكفار كلهم فبَيْن مَن كان الإسلام سينتشر؟ فثبت أن تعليم اليهودية ناقص، وأن تعليم الإسلام هو القادر على إرساء السلام في العالم حقّا.

وليس هذا فحسب، بل إن الرسول ﷺ قد عفا عن أعدائه كلهم يوم فتح مكة، إلا سبعة مِنهم، إذ كان هؤلاء قد ارتكبوا فظائع يندى لها جبين الإنسانية، ضاربين كل القيم والأخلاق الإنسانية عرض الحائط، فأمر ﷺ بقتلهم حيثما وُجدوا، ولكنه قد عفا عن أكثرهم أيضًا فيما بعد (السيرة النبوية لابن هشام: باب من أمر رسول الله ﷺ بقتلهم). وكانت من بينهم هند زوجة أبي سفيان، وهي التي كانت قد مثّلت بجثّة سيدنا حمزة ﷺ، فجدعتْ أنفه وأذنيه ومضغتْ كبده (البداية والنهاية: غزوة أحد)، فبسبب جرائمها الوحشية هذه التي لا علاقة لها بالحرب -فالحرب تعني أن يَقتل المقاتِل خصمه- أمر الرسول ﷺ بقتلها. وكان من جرائمها أيضًا تحريض الكافرين على قتال المسلمين دائما. لكنها انضمت إلى مجموعة النساء اللواتي جئن لبيعة الرسول ﷺ يوم الفتح متنكرةً متنقبة لأن حكم الحجاب كان قد نزل عندها، فظلّت تردّد كلمات البيعة معهن وراء النبي ﷺ، وعندما وصل النبي ﷺ إلى قوله: قُلن إنكن لن تشركن بالله تعالى، لم تملك هند نفسها وقالت: وهل نشرك بعد كل هذا؟ كنا آلافًا و لم يكن معك إلا قِلّة من الناس، كنا أقوياء وكنت ضعيف الحيلة، كنا ذوي عدة وعتاد للحرب، و لم يكن بيدك شيء، وما كان بوسعك أن تنتصر علينا حتى لو لم تنصرنا آلهتنا، ومع ذلك انتصرت علينا، فثبت أن القوة لإلهك، لا لآلهتنا. فقال النبي ﷺ: أأنت هند؟ لقد كانت من أقارب النبي ﷺ، فعرَفها من صوتها. وكانت حادّة الطبع، فلم تلبث أن قالت: نعم، يا رسول الله؛ ومع أنك قد أمرتَ بقتلي حيثما وُجدتُ، لكنك لا تستطيع الآن قتلي، لأني قد أسلمتُ. فقال النبي ﷺ: صدقتِ، فقد صار قراري لاغيًا الآن. (السيرة الحلبية: فتح مكة شرّفها الله تعالى)

والشخص الثاني الذي أمر الرسول ﷺ بقتله حيثما وُجد هو عكرمة بن أبي جهل. لقد هرب يوم الفتح من مكة متوجها إلى الحبشة حتى وصل إلى الساحل،

وكانت زوجته قد أسلمت منذ فترة سرًّا، فجاءت إلى النبيّ ﷺ وقالت: يا رسـول الله، إني مسلمة منذ زمن، لكن زوجي ظلّ يحاربك. وقد عارضك لأنه كان يرى أنك على الباطل، وإلا لماذا يحاربك؟ وقد أمرتَ بقتله حيثما وُجد. يا رسول الله، إنك كريم رحيم فاعفُ عنه، لأنه لو خرج إلى بلد آخر لهلك. أتريد أن يهلك أحد أقاربك أم تريد أن يهتدي؟ فقال ﷺ: لو هُدي لكان خيرا، ومع ذلك أقول: إنه لو ظل على دينه وعاش في الجزيرة العربية فلن يتدخل أحد في دينه. قالت: يا رسول الله، فهل تعِدني بالعفو عنه لو جئتُ به؟ قال: نعم. فخرجت بحثًا عـن زوجهـا، فوجدته بالساحل وهو يركب سفينة متجهة إلى الحبشة، وكان يحب زوجته كثيرا، فلما التقيا قالت: أليس الأفضل أن تختار سيادة عربيّ على سيادة أعجمـيّ؟ ثم ألا تفكّر أنك بلغت في عداوته ﷺ الذروة، ومع ذلك فإنه قد قال لي: لـو جـاءني عكرمة فسأعفو عنه، ولن يتدخل أحد في دينه؟ فقال: أحقًّا قال هذا؟ قالت: نعم، إنك زوجي فكيف يمكن أن أكذب عليك وأعاديك. لقد وعدني الرسـول فعـلاً بذلك. قال: لكني لا أصدّق ذلك، إذ لا مجال للعفو عني بعدما بلغتُ من عدائه ما بلغت. قالت: لقد أخذتُ من النبي ﷺ عهدًا، فتعال واسأله بنفسك. فرجع عكرمة إلى النبي ﷺ، فقال: يا محمد -لقد ناداه ﷺ باسمه لأنه لم يكن قد أسلم بعد- لقـد لحقتْ بي زوجتي وأخبرتني أنك قد وعدتَها بأنك ستعفو عني ولن تكرهني علـى الإسلام لو رجعتُ، فهل هذا صحيح؟ قال النبي ﷺ: نعمْ. وكان هذا أمـرًا غـير عادي بالنسبة إلى عكرمة، إذ ما كان ليتصور أنه ﷺ سيعفو عنه ولا يُكرهه علـى الإسلام، فتطهّرَ قلبه دفعة واحدة، فما لبث أن قال: يا رسول الله، ها إني أؤمـن بك، لأن هذا العفو والإحسان لا يمكن أن يصدر إلا من نـبي. فـسُرّ الـنبي ﷺ بإسلامه كثيرا، وقال يا عكرمة: سَلْ ما تريد؛ وكان ﷺ يعني أنه إذا أراد إنقاذ ماله وعقاره فسيحقق له رغبته، ولكن عكرمة الذي كان عدوا لدودا للنبي ﷺ كان قد انقلب رأسًا على عقب، فأجاب: يا رسول الله، لا أريد الدنيا، لقـد بلغـتُ في عدائك الذروة، وكل أمنيتي الآن أن تدعو الله تعالى ليغفر لي خطيئاتي، ولا أريـد أكثر من ذلك (السيرة الحلبية: فتح مكة).

هذا هو الشخص الثاني الذي أمر الرسول ﷺ بقتله حيثما وُجد.

والشخص الثالث من هؤلاء السبعة هرب إلى الشام، وظل مشردًا هنا وهناك، فقال له القوم: لماذا تعيش تائهًا هكذا بعيدا عن الشخص الذي يمكن أن يحسن إليك، فارجعْ إليه واطلب منه العفو. قال: كيف أطلب منه العفو، وقد أمر بقتلي حيثما وُجدتُ؟ قالوا أنت رجل ذكيّ، فارجعْ إليه متنكرًا واطلبْ منه العفو. وكان هذا شاعرًا وابن شاعر، فوصل إلى المدينة متنكرًا، فعرفه المهاجرون إذ كان من أقاربهم، ولكنهم أعرضوا عنه، فوصل إلى النبي ﷺ متنكرا، وقال: لقد قلت فيك شعرًا فاسمح لي بإنشاده، فسمح له النبي ﷺ، فأنشد قصيدته المشهورة بالبردة، وكعادة العرب بدأ قصيدته بالحديث عن حبيبته وناقته ثم عرج إلى ذكر الرسول ﷺ فقال ما معناه: يقول لي الناس، يا ابن كلثوم، إنك تدخل على الأسد في عرينه، وسوف تُقتل، ولكني أقول لهم: دعوني مِن هذا، فإن رسول الله كريمٌ عفوٌّ. فلما قال ذلك أدرك الأنصار أنه أحد السبعة الذين أمر الرسول ﷺ يوم الفتح بقتلهم حيثما ثُقفوا، فأخرجوا سيوفهم من أغمادها منتظرين أوامر الرسول ﷺ احتراما له، حتى أنشد الرجل:

إنّ الرسول لسيفٌ يستضاء بِهِ   مُهنَّدٌ مِن سيوف الله مسلولُ

(السيرة النبوية لابن هشام: أمر كعب بن زهير بعد الانصراف عن الطائف، وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية: قصة كعب بن زهير)

ثم قام بمدح القرآن الكريم، فأخذ النبي ﷺ رداءه وألقاه عليه إعلامًا بأنه قد عفا عنه. فاستبشر الصحابة وتهلّلوا فرحين.

لقد تُوفيت إحدى بنات النبي ﷺ الحوامل نتيجة إيذاء الكافرين (الاستيعاب في معرفة الأصحاب: زينب بنت رسول الله ﷺ)، وتُوفّيت زوجته الحبيبة خديجة جوعًا وفاقة، ومات عمه أبو طالب أيضًا جوعًا وهو الذي قد خدمه كثيرا رغم عدم إيمانه به (السيرة الحلبية: باب ذكر وفاة عمه أبي طالب وزوجته ﷺ خديجة رضي الله عنها)، كما استُشهد عمه ﷺ حمزة وجُدع أنفه وأذنه وبُقر بطنه، وتعرّضَ ﷺ لصنوف الأذى الأخرى، ومع كل هذا التعذيب وسفك الدماء من قِبل الكافرين لم

يكن عدد الكفار الذين أمر الرسول ﷺ بقتلهم حيثما ثُقفوا إلا سبعة، ثم عفا عن ثلاثة منهم، أما الباقون فلم يثبت قتلهم بحسب التاريخ. إن هذه الأسوة الحسنة التي قدّمها الرسول ﷺ لأمته هي التي قامت بتزكية قلوب الصحابة ونفوسهم، وجعلتهم هداة للعالم.

ثم تقول الديانة اليهودية: لا تأخذ الربا من يهودي، ويمكنك أخذه من غير يهودي (انظر: التثنية ٢٣: ١٩-٢٠)، أما الإسلام فيقول: لا تأخذ الربا من مسلم ولا من غير مسلم. إذا كان الربا سيئًا فالتمييز بين يهودي وغيره في الربا عبث.

فالحق أنه لا يوجد في أي ديانة نظيرٌ لتزكية الأعمال كما في الإسلام.

والأمر الثاني هو تزكية العواطف والمشاعر. والحق أن تعريف الأخلاق الذي قدّمه الإسلام لا يقدّمه أي دين آخر قبله. لقد أعلن الإسلام أن من الخطأ اعتبار أفعال معينة سيئةً، لأن العمل في حد ذاته لا يكون سيئا، بل إن استخدام المرء قواه الفطرية في محلها أو غير محلها هو الذي يجعل عمله حسنًا أو سيئًا. فالمسيحية مثلاً تأمر بالترهُّب، مع أن الله تعالى هو الذي قد خلق الشهوة في الإنسان، ولو أمرت ديانةٌ بعدم التناسل وعدمِ استعمال ما خلقه الله بنفسه في الإنسان فالسؤال الذي يفرض نفسه هو: لماذا خلق الله الشهوة في الإنسان أصلاً؟ فكما أن هناك شهوة للطعام عند الإنسان، فهناك شهوة العلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة، فإذا كان الإنسان لا يستطيع أن يعيش من دون طعام، فكيف يمكن إصلاح أخلاقه بدون إشباع الرغبة الجنسية بين الزوجين؟ لقد اعتبرت الأديان الأخرى لجهلها علاقة الزوجين سيئةً، ولكن أطباء هذه الأمم أنفسهم قد أثبتوا أن هناك علاقة وثيقة بين القوة العقلية والقوة الرجولية، فإذا صار المرء مشتَّت الفكر وصفوا له حقنة (برندرين)●. وما هو برندرين؟ إنها تلك المادة الكيماوية التي هي سبب القوة

● "برندرين" هو اسمٌ طبي لهرمون التستستيرون؛ وهو الهرمون الذكري المسؤول عن القوة الجنسية عند الرجل، وهو إنْ توفّرَ في جسم الإنسان بِنسَبِه الطبيعية فهو يحافظ على البنية العضلية

الرجولية في الإنسان؟ يقول أطباؤهم إنه إذا ضعف المرء جنسيًا ضعف عقله أيضا، أي أنهم بقولهم هذا يؤيدون الإسلام ويدللون على صدقه. تقول المسيحية بوجوب قتل المشاعر الفطرية، وتعتبر إشباع الشهوة الجنسية بالزواج إثمًا، وتقول: تَرهّبوا، ترتقوا روحانيًا. ولكن الإسلام يعلن أنَّ قتْلَ المشاعرِ الفطريةِ والترهّبَ إثم، إنما عليكم أن تتزوّجوا وتنجبوا وتزيدوا نسلكم. تقول المسيحية أن ترهُّبَ المرأة علامةٌ على صلاحها (رِسَالَةُ بُولُسَ الرَّسُولِ الأُولَى إِلَى أَهْلِ كُورِنْثُوسَ ٧: ٢٦- ٢٩ ورُؤْيَا يُوحَنَّا اللاَّهُوتِيِّ ١٤: ٣-٥)، بينما يعلن الإسلام أن المرأة إذا لم تتزوج أثمتْ، بل يأمر بحثِّها على الزواج إذا لم تتزوج، وكذلك يأمر الرجل بالزواج حتمًا، بل قال الرسول ﷺ: "تَزَوَّجُوا الْوَدُودَ الْوَلُودَ" (أبو داود: كتاب النكاح).. مما يعني أن المسيحية قد قتلت الفطرة، أما الإسلام فقد رفع من شأنها. فيمكن أن تحكم بنفسك أي من الديانتين تقوم بالتزكية. إن غير المتزوج كلما رأى امرأةً فَقَدَ التزكية، لأن عنده شهوة إلى المرأة، ولكن المتزوج لن ينظر إلى امرأة بسوء، لأنه شبعان من هذه الناحية. إن مَثَلَهما كمثل الجائع الذي إذا رأى الناس يأكلون فلا بد أن ينظر إليهم بطمعٍ، أما الشبعان فإذا رآهم يأكلون فلن يرغب في الأكل. فالمتزوج كرجل قد زال جوعه وشَبِع، فلن يرغب في امرأة يراها. لا شك أن هناك استثناءات إذ نجد بعض المتزوجين الطامعين ينظرون إلى نساء الآخرين بسوء، مثلما نجد أن الشبعان لا يطمع في طعام الآخرين عادة، ولكن بعض الجشعين ينظرون إلى طعام الآخرين على شبعهم. فالقانون العام أن الزواج يزوّد المرء بالتقوى، ولذلك قد نهى الإسلام عن الرهبانية، بينما اعتبرتْها المسيحية فضيلة. تقول المسيحية: اقتلوا عواطفكم، ويقول الإسلام: استعمِلوا عواطفكم في محلها؛ إذ لا تتيسر التزكية من دونها.

والقوام، ويقي من أمراض السكري والقلب والأعصاب والسمنة والاكتئاب ومرضِ الخَرَف الذي يصيب الدماغ والمعروف بالزهايمر. (المترجم)

ثم إن أحكام الإسلام عن الإرث تساعد على التزكية أيضا؛ إذ تقول الأديان الأخرى بأن الأب مالكُ أمواله وعقاره، فله أن يهبْها من شاء من أبنائه، أما الإسلام فيعلن أن لجميع الورثة حقًّا في مال المتوفى، ولا يحلّ أن يُعطَى شخص واحد كل المال والعقار الذي تركه المتوفى، ومن أجل ذلك قد جعل الإسلام نصيبا لكل وارث في ماله، ولا بد أن يعطى كل واحد منهم نصيبه، ومن خالف هذا القانون من دون سبب -أيْ سبب ديني- فإنه آثم. أما المسيحية فيكون الابن الأكبر فيها هو وارث مال أبيه عادة، فماذا عسى أن يقول أبناؤه الآخرون؟ لا شك أنهم يرمون أباهم بالجهل إذ حرمهم من ماله، بل من الممكن أن يقول الأوروبيون أن التقصير ليس من أبيهم وإنما الذنب على الدولة، فهي التي سنّت هذا القانون. أما المسلمون فليس عندهم أي عذر كهذا.

باختصار، لقد أمر الإسلام بتوزيع مال الميت على جميع أولاده وألا يُحرم أحدٌ منهم حقَّه فيه، وهكذا لم يحافظ الإسلام على حقوق الأولاد فحسب، بل قام بتزكية مشاعرهم أيضا، لأن الابن الذي لا ينال نصيبه من مال أبيه لا بد أن يلومه طول حياته. وكيف ينبع الدعاء من قلبه لأبيه؟

باختصار، إن تعاليم الإسلام هي التي تقوم بتزكية مشاعر الناس وتطهير قلوبهم.

والأمر الثالث هو تزكية الفكر: والفكر قوة عظيمة. إن المشاعر والعواطف تولِّد في المرء حماسًا عابرا كالجوع والعطش والشهوة، أما الفكر فيعني تدبُّر المرء فيما عنده من علوم سابقة والاستنتاج منها. إن العواطف تتعلق بالقلب، والفكر يتعلق بالعقل، وتعاليم الاسلام تُصلح فكْر الإنسان أيضا، وقد اتّبع لإصلاح فكره عدة طرق، أوّلها: أنه أمَر برفع الأذان في الأذن اليمنى للوليد، والإقامة في الأذن الأخرى فور ولادته. ويستغرب الناس مِن رفْع الأذان في أذن وليد لا يتكلم ولا يعي شيئا، ولكن علم النفس قد كشف لنا اليوم أن الأصوات التي تقع في آذان الوليد تترك فيه تأثيرا قويا. كانت في فرنسا سيدة تتكلم في بعض الأحيان بلغة ألمانية فصيحة تذهل الناس، مع أنها لم تكن تعلم اللغة الألمانية، فأخذ البعض يقولون

بأنه قد تلبّسَها جنّيٌّ، وهو الذي يتحدث بلسانها. فلما شاع خبرها حضر عندها أحد علماء النفس، فوجدها بالفعل تخطب أحيانًا خطبة فصيحة بالألمانية، فوجّه إليها أسئلة شتّى، منها فيما إذ كانت أُمّها تعمل عند أحد الألمان؟ فتبين له أنه عندما كان عمرها سنة ونصف، كانت أمها تعمل عند قسيس ألماني. فذهب عالم النفس هذا للقاء القسيس، فعلِم أنه قد تقاعد ورجع إلى وطنه. فذهب العالم إلى وطن القسّ، فأخبره الناس أنه قد توفي وخلّف ابنًا. فلقي العالم ابنَ القس وسأله ما إذا كان عنده شيء من خُطب أبيه، فأخرج له بعض خطبه بالألمانية. فقام عالم النفس بتفحص هذه الخطب، فعَلِمَ أن الخطبة التي تلقيها هذه السيدة بعض الأحيان موجودة بين تلك الخطب. ثم علم أن القس هذا كان يلقي خُطبه وهذه البنت في حضن أمها. فانظر كيف أن خطب القس كانت ترتسم في قلبها وعقلها مع أن عمرها كان سنة ونصف فقط.

إذن، فقد استنتج علم النفس المعاصر أن هناك مراكز في دماغ الإنسان يرتسم عليها كل صوت يسمعه، وإن كان عمره يومًا واحدا فقط. وقد نبّه الإسلام إلى هذا الأمر قبل ١٣ قرنا عندما كانت الدنيا تجهل العلوم المعاصرة، فأمَرنا بالأذان في أذن الوليد فور ولادته تنبيهًا إلى أن عملية تربيته يجب أن تبدأ منذ لحظة ولادته، فمن واجبكم أن تلقوا في أذنه أمورا حسنة دائما، فإذا أسمعتموه أمْرًا حسنًا في اليوم الأول، فيجب أن تلقوا في أذنه ما هو أحسن منه في اليوم التالي. إذن، فتزكية الأفكار أمر بالغ الأهمية عند الإسلام، حتى إنه أمر كل مؤمن أن يلقي في أُذُنَي وليده منذ يوم ميلاده أمورا حسنة، وإن لم يفهم منها شيئًا، حتى إذا كبر اعتاد الفكر الصحيح.

الواقع أن الفكر الخاطئ يفسد عقائد الإنسان. فمثلا يعتقد المسلمون في هذا العصر لسوء حظهم أن عيسى عليه السلام حي في السماء، وسيرجع إلى الدنيا، وسوف ينهب أموال الناس ويضعها في أيدي المسلمين. وقد دفعت هذه العقيدة الخاطئة بالأمة كلها إلى الكسل والغفلة بشكل مرعب. فلو كان فكرهم صحيحا لأدركوا أن انتصارهم على العالم محال من دون تضحية، إذ لم تكن في الدنيا أمة أحرزت

النجاح من دون تكبّد المصاعب والمحن. إن أنبياء الله تعالى هم أفضلُ البشرِ، ومع ذلك قدّموا تضحيات عظيمة. من ذا الذي هو أفضلُ من الرسول ﷺ؟ إن المهدي أو عيسى أيضا سيأتي خادمًا للنبي ﷺ، وما دام هو لم يجد مناصًا من تقديم التضحيات، فكيف يستثنى المهدي أو عيسى من تقديمها؟ فثبت أن فساد الفكر يؤدي إلى فساد العقائد أيضا، ومن أجل ذلك قد ركز الإسلام على تصحيح الفكر أيما تركيز. وليست عقيدة حياة المسيح عليه السلام فقط، بل هناك عقائد فاسدة عديدة أخرى تسربت إلى المسلمين بفساد فكرهم، فيقولون مثلا بأن المسيح عليه السلام إذا عاد، أكره الكافرين على الإسلام بحد السيف، ومن لم يُسلِم منهم ضرب عنقه. إنهم لا يفهمون أن بوسعك أن تُكره المرء على الإقرار بالحق باللسان، ولكن كيف تؤثّر في عقله وقلبه؟ وإذا لم يقرّ بالصدق بقلبه، فما الفائدة من إيمانه؟ وإنما تجعله منافقا، إذ يقول الله تعالى لرسوله ﷺ بأن المنافقين يأتونك ويقولون: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾(المنافقون:٢). إذا كان إكراه أحد على الإيمان لا بأس به، فإن هؤلاء المنافقين كانوا يقرّون بأفواههم برسالة محمد رسول الله ﷺ، فكان يجب أن يفرح لذلك، ولكن الله تعالى يقول أنْ لا اعتبار لما يقولون بأفواههم، إذ لا يُقرّون به بقلوبهم، فهم كاذبون. فإذا أكرهت أحدا على الإيمان بالعصا فإيمانه لن يؤثر في عقله وقلبه، ولن ينفعه شيئا. مثلاً هناك شخص يؤمن بثلاثة آلهة، فإذا أكرهتَه على التفوه بأن الله واحد وقلبُه مقتنع بأن الله ثلاثة، فهذا سيولِّد فيه النفاق بدل الإيمان، الأمر الذي يجب ألا نفرح به، لأنه إذا كان متمسكًا بعقائده وكان ظاهره كباطنه، ستكون هناك إمكانية -رغم فساد عقيدته- أن نشرح له الأمر ونقنعه بالأدلة ونهديه إلى الحق، أما إذا أجبرناه على تغيير عقيدته، فهذا يعني أننا نقول له أن يقرّ بلسانه ما لا يؤمن به بقلبه.. أي أننا نعلّمه النفاق، وبالتالي عدم الإيمان.

فالحق أن تصحيح الفكر أمرٌ بالغ الأهمية، والإسلام وحده الذي علّمنا ما يُصلح الفكر.

باختصار، إن التزكية نتيجة حتمية لاتّباع تعاليم الإسلام، وهو الدين الوحيد القادر على التزكية.

لقد قدّمتُ حتى الآن أحكام الإسلام التي تساعد على تزكية القلوب، والآن نرى ما إذا كان الإسلام ولا يزال يقوم بالتزكية فعلاً أم لا، وما إذا كانت الأديان السابقة قد قامت بتزكية مثلها، وما إذا كانت قادرة على ذلك الآن أم لا.

كان العرب أوّلَ من خاطبهم الرسول ﷺ بدعواه، وكان بين المؤمنين به في أول بعثته قِلّةٌ من النساء والولدان والرجال، وكان من بين هؤلاء الرجال عبيدٌ لا مكانة لهم في المجتمع ولا بيت ولا حقوق مواطنة، وإذا ضربهم أسيادهم ما كان هناك من يسألهم عما فعلوا، إذ كانوا يُعتبرون مِلكًا لأسيادهم، و لم يكن هناك قانون يحميهم. وعندما آمن هؤلاء العبيد بالرسول ﷺ أخذ الكفار في تعذيبهم بإلقائهم على الرمال المحرقة وجَرِّهم على الحجارة حتى كانت جلودهم تتمزق ويصابون إصابات بالغة، وإذا اندملت جروحهم أعادوا هذه المعاملة الوحشية بلا انقطاع، حتى أصبحت جلود بعضهم كجلود البقر والجواميس. فقد ورد عن سيدنا بلال ﷺ أن سيده كان يلقيه على ظهره ويقفز عليه بنعاله ويصر عليه أن يكفر بوحدانية الله، وكان بلال حبشيًا لا يتقن النطق العربي جيدا، فكان يجيبه على ظلمه وإصراره: "أسهد" ألا إله إلا الله. ولما صار بلال مؤذِّنَ الرسول ﷺ في المدينة كان الشباب يضحكون على قوله في الأذان: "أسهد" ألا إله إلا الله؛ لأنهم لم يروا ذلك المشهد الأليم الذي تعرض له بأيدي الكافرين، إذ كانوا يقفزون على صدره ويُصرّون عليه أن يقر بوجود آلهة دون الله، فكان يرفض قائلا: "أسهد" ألا إله إلا الله. وذات مرة رأى النبي ﷺ هؤلاء الشباب يضحكون على أذان بلال، فقال لهم: إن الله تعالى يحب قول بلال "أسهد ألا إله إلا الله" حُبًّا لا قيمة بعده لشهادتكم مقابل شهادته، وما يدريكم عن الظروف التي كان يعلن فيها وحدانية الله قائلا: أسهد ألا إله إلا الله؟ لم يكن له أم ولا أب ولا أخ ولا ابن ولا قبيلة ولا ناصح متعاطف يقوم بحمايته ونصرته، فكان الكافرون يرقصون على صدره ويجرّونه في الشوارع ملحّين عليه أن يقرّ بوجود آلهة مع الله، فكان يرفض بشدة قائلا: أسهد ألا إله إلا الله.

يا له من إيمان تحلى به سيدنا بلال ﷺ! من المحال أن يدرك قوة إيمانه إلا الذين رأوا ذلك المشهد، أو الذين منحهم الله حُبّه وحبَّ رسوله. وكان بلال ﷺ لا يرفع الأذان بعد وفاة النبي ﷺ، إذ لم يكن هناك بعد الرسول ﷺ مَن يقدّر أذانه حق التقدير، وبعد مدة مديدة أصرّ عليه المسلمون الجدد أن يرفع الأذان كما كان يرفعه في عهد رسول الله ﷺ ليستمتعوا بصوته، فرفض، فأصرّ عليه الصحابة أيضا، فرضي بعد إلحاحهم الشديد، فما إنْ بدأ بالأذان حتى تذكّرَ الصحابة عهد الرسول ﷺ، وأخذوا يبكون بكاءً مرًّا حتى صار مجلسهم مأتما. أما بلال ﷺ فلما انتهى من الأذان أُغمي عليه، ثم توفي بعد أيام. (الإصابة في تمييز الصحابة: بلال بن رباح، والاستيعاب: بلال بن رباح)

انظرْ إلى مدى تزكية نفوس الصحابة وحُبّهم العظيم للرسول ﷺ! هل من نبي يوجد بين أتباعه نظير لهذا الحب! أما في الإسلام فهناك آلاف الأمثلة كهذه!

أما أبو بكر ﷺ فكان له أيادٍ على أهل مكة كلهم، وكان ينفق ماله على تحرير العبيد، فخرج مرة من مكة مهاجرا، فلقيه أحد زعمائها، وسأله عن قصده، فأجاب: لم تعُدْ هذه المدينة آمنة لي، فأُهاجر منها. فقال هذا الزعيم: إذا خرج منها إنسان صالح مثلك فسوف يعمّها الخراب، فلن أسمح لك بمغادرتها. ثم أجاره في جواره. فكان من عادة أبي بكر أن يقرأ القرآن في الصباح، وكان أطفال الحي ونساؤه يجتمعون ويصغون إلى قراءته؛ إذ كان صوته عذبًا رقيقا مليئًا بالحزن، ثم إن الجميع كانوا يفهمون ما يقرأه، فكان لقراءته وقع عظيم فيهم. فلما شاع خبر ذلك وقعت ضجة في مكة وقالوا: إن هذا سيؤدي إلى فساد ديننا، فجاءوا إلى الزعيم الذي أجار أبا بكر وقالوا له: لماذا أجرْتَ أبا بكر؟ فإنّا نخشى أن يفتن أبناءنا ونساءنا. فأتى إلى أبي بكر وقال له: أرجوك ألا تقرأ القرآن هكذا، فهذا يثير سخط القوم. فقال أبو بكر: يمكنك إذنْ أن تستردّ إجارتك، لأني لن أترك قراءة القرآن، فاستردّ ذمته منه (البخاري: كتاب المناقب).

يا لها من آية عظيمة على تقوى أبي بكر وتزكيته! كان القوم يعادون رسول الله ﷺ عداء شديدا، ويسبّونه ويشتمونه، ولكنهم كانوا معترفين بطهارة أبي بكر، حتى تجد زعيمًا منهم يقول له: إذا خرجتَ من هذه البلدة فسيشملها الخراب.

وهذا هو حال عمر رضي الله عنه أيضا، إذ كان الناس يثنون عليه وعلى صلاحه، ومدحُ العدو له دليل على كمال طهارته (أسد الغابة: عمر بن الخطاب).

أما عليٌّ رضي الله عنه فكان القوم معترفين بصلاحه أيضًا. والحال نفسه فيما يتعلق بالصحابة، إذ كان القوم يعترفون بأنهم من كبار الصلحاء.

ثم إن الصحابة قد ضربوا أمثلة رائعة للصلاح والتقوى لا مثيل لها في الأمم الأخرى. فهل مِن أمة تجد فيها مثالاً للتضحيات التي قدّمها الصحابة في بدر والأحزاب وحنين؟ ففي غزوة الأحزاب كان عدد المسلمين ٧٠٠ مقاتل فقط، بينما كان جيش الكافرين مكونًا من ١٥ ألف مقاتل، فلذلك نجد "وليام موير" – العدو اللدود للإسلام- يقول بأنه من المذهل حقا أن تصدّ حفنةٌ من المسلمين هذا الجيش العرمرم! ثم يقول بنفسه بأنه لم يصدّ هذا الجيش العظيم إلا حبُّ أصحاب محمد له، إذ بلغ حبُّهم له درجة الجنون (حياة محمد لوليام موير ص ٣٢٢-٣٢٣). فكم من مرة عبر العدو الخندق وكاد أن يدكّ المدينة، ولكن الأعداء عندما كانوا يتوجهون إلى خيمة محمد كان صحابته يجتمعون حول خيمته كالمجانين، ويدافعون عنه دفاعًا مستميتا ويشتتون العدو الذي جاء بالآلاف. ولم يحدث هذا المشهد مرة، بل تكرر مرات ومرات. فحيثما نظرتَ وجدتَ الصحابة يضحّون دفاعًا عنه كالفراشات التي تتراقص حول الشمعة.

في إحدى المرات أخذ الكافرون معهم اثنين من الصحابة خداعًا، وباعوهما لقومٍ قُتل آباؤهم في حرب مع المسلمين، فلما أراد هؤلاء قتْل أحدهما اجتمعَ الجميع بمن فيهم أبو سفيان لرؤية مقتله، ولما أرادوا ضرب عنقه قال: اسمحوا لي بأداء ركعتين، فسمحوا له، فلما انتهى من صلاته قال: كنت أريد أن أطيل الصلاة ولكنني استعجلتُ كي لا تظنوا أنني أخاف الموت، ثم أنشد وقال:

ولستُ أبالي حين أُقتَلُ مسلِمًا... على أيّ جنبٍ كان للهِ مصرعي

وذلك في ذات الإله وإنْ يشأ...... يباركْ على أوصالِ شِلْوٍ ممزَّعِ

أما الصحابي الآخر الذي وقع في أيدي أهل مكة، فقالوا له: ألا تريد أن تكون جالسًا بين أهلك مطمئنا ويكون محمد مكانك هنا؟ فردّ عليهم: إني لا أحب أن يُشاكَ النبي ﷺ في شوارع المدينة بشوكة وأنا جالس بين أهلي. (مغازي الواقدي، باب مقتل خبيب)

يا له مِن دليل على قوة تزكية النبي ﷺ! فقد أحبَّه صحابته حبًّا لا مثيل له عند أُمّة على وجه البسيطة! إن الرجال عندنا حين يخرجون للحرب تبكي نساؤهم، أما نساء الصحابة فكُنَّ يحرّضنهم على الخروج للجهاد. لما سار النبي ﷺ لغزوة تبوك رجع أحد الصحابة من سفرٍ استغرق أيامًا، وبمجرد أن دخل بيته أراد مداعبة زوجته، فدفعتْه بقوة وقالت: ألا تستحي؟ لقد خرج النبي ﷺ للحرب وأنت تداعبني؟ فما كان من الصحابي إلا أن تركها وخرج من البيت ليلحق بالنبي ﷺ. فما أعظمَه من حبّ كان الصحابة يكنّونه له ﷺ!

بينما نجد أن أمة موسى عليه السلام عندما واجهوا العدو قالوا له: ﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾(المائدة:٢٥)، وإنا لن ندخل المدينة ما لم تعطِنا إياها مفتوحة.

أما المسيح عليه السلام فنجد أنه لما ألقى الجنود الرومان القبض عليه وذهبوا به، تبعه بطرس -أكبرُ حوارييه الذي صار خليفةً له فيما بعد- فقال بعض القوم: خُذوه فهو أحد تلاميذه، فأُلقيَ عليه القبض، فقال: إني ألعن هذا الرجل ولا أعرفه، فتركوه. وبعد قليل قال بعض القوم ثانية: خُذوه فإنه مِن تلاميذه. فقال بطرس ثانية: إني ألعن هذا الرجلَ، فأطلَقوه. وبعد وقت قليل نبّههم بعض القوم بأنه حواري للمسيح، فأخذوه مرة ثالثة، فلعن بطرسُ المسيحَ عليه السلام للمرة الثالثة، فلما انتهى من لعنه، صاح الديك (إنجيل متى ٢٦: ٦٩-٧٥). وكان هذا في الواقع تحقيقًا لنبوءة للمسيح عليه السلام، ذلك أن بطرس كان يقول للمسيح عليه السلام إني أحبّك حبًّا ولن أتخلى عنك، فقال عليه السلام: ستلعنني ثلاث مرات هذه الليلة قبْل أن يصيح

الديك. فما إن انتهى بطرس مِن لعن المسيح عليه السلام أمام الناس ثلاث مرات حتى صاح الديك وتحقّق ما قاله المسيح عليه السلام تماما.

فشتّان بين ما قدّمه صحابة الرسول ﷺ من التضحيات والفداء وبين ما فعَله أتباع موسى والمسيح عليهما السلام!

ثم نجد بعد وفاة النبي ﷺ مشاهد تدلّ على عظمة أخلاق الصحابة. لما فتح المسلمون القدس● ولكنهم لم يستطيعوا بعدها البقاء فيها لتغيّر الظروف فانسحبوا منها، وكان ذلك في عهد سيدنا عمر رضي الله عنه. كانت هذه المدينة مركزًا للمسيحيين، وكان سكانها مسيحيين، فدعاهم المسلمون وردّوا لهم ما أخذوا منهم من ضرائب قائلين: نحن ذاهبون، وقد أخذْنا منكم هذه الضريبة بشرط حمايتكم، فلا حقّ لنا في هذه الأموال الآن. ويخبرنا التاريخ أنه لما خرج المسلمون من هذه المدينة خرج معهم النساء والأولاد لعدة أميال ليمنعوهم من الذهاب، وكانوا يدعون الله تعالى أن يرجع بهم إليهم ثانيةً. مما يعني أنهم كانوا يفضّلون أن يحكمهم المسلمون بدلاً من النصارى؛ إذ وجدوهم أهل صلاح وعدل (الخراج لأبي يوسف: فصل في الكنائس والبيع والصلبان).

المشاهدُ في العالَم أن جيوش الدول الأخرى إذا انسحبتْ من مدينة العدو، سلبتْ أهلها، أما هنا فنجد قائد الجيش المسلم يردّ لأهل هذه المدينة ما أخذوا منهم من أموال الضريبة. فما أروعَها من آية على قوة تزكية النبي ﷺ!

في إحدى الحروب عقد الكفار المحاربون المتحصنون الصلح مع أحد المسلمين الأفارقة بنيّة الخداع، ثم فتحوا باب الحصن، فلما تقدَّمَ الجيش المسلم لاقتحامه قالوا: كيف تفعلون ذلك وقد تمّتْ بيننا وبينكم هدنة؟ فقال القائد المسلم: أنا قائد الجيش، فمتى عقدت معكم صلحًا؟ قالوا: ولكنا عقدنا صلحًا مع مسلم إفريقي منكم. قال: أنا القائد، ولا يحقّ لغيري عقد صلح معكم. قالوا: نحن لا نعرف شيئا؛

● وقد وقع هنا سهو، والصحيح هو حمص، وقد ذكر حضرة المفسر رضي الله عنه ذلك في هذا الجزء نفسه في صفحة ٥٧٢. (المترجم)

لقد عقدنا معكم صلحًا، فلا يحق لكم الآن قتالنا. فرُفع الأمر إلى أمير المؤمنين عمر ﷺ فكتب في الجواب: لا أحبّ أن يُعتبر مسلم كاذبًا، فأتموا هذا العهد معهم الآن، وخُذوا الحيطة في المستقبل (تاريخ الطبري: ج٤ ذكر مصالحة المسلمين أهل جنديسابور).

لم توجد مثل هذه الأحداث في زمن الصحابة فقط، بل لقد ضرب المسلمون بعدهم أيضًا أروع أمثلة التزكية والطهارة. يقول المؤرخ الأوروبي الشهير "غِبن" عن السلطان التركي السلجوقي المسلم "ألب أرسلان" بأن أباه مات وعمره ١٨ سنة، فثار عليه عمّه وأخوه وأعلنا أنهما أحقُّ بالملك منه. وكان رئيس وزرائه العلامة نظام الدين الطوسي شيعيا، فقال لألب أرسلان: تعال نذهبْ لنصلي عند قبر حضرة موسى الرضا، وندعو الله تعالى لانتصارك. فذهب وقام بالدعاء عند قبره. فلما فرغ الطوسي من الدعاء قال لأرسلان إعرابًا عن إخلاصه وولائه له: أيها الملك، لقد دعوتُ الله تعالى أن يكتب لك الفتح في الحرب غدًا ويهلك عدوك. فقال ألب أرسلان: ولكني يا أستاذي، لم أدعُ بهذا الدعاء. قال: فبماذا دعوتَ؟ قال: لقد دعوت: يا رب، إني لا أعلم مَن هو أكثرُ نفعًا لدينك ومُلْكك، فإذا كنتُ لا أصلح للمُلك فلا تكتبْ لي النصر في الحرب غدا، بل أَمِتْني كي لا يتضرر الناس بسببي.

وبعد كتابة هذا الحادث يقول "غبن" الذي يشير إلى المسلمين عادةً بكلمة الكافرين: هذا ما يدعو به هذا الأمير الكافر، ولكني لا أجد بين كبار الملوك في المسيحيين المؤمنين كلهم أحدًا يفعل ما فعله هذا الشاب الكافر.

(Edward Gibben: The decline and fall of the Roman Empire page:984)

إن ما فعَله هذا الشاب إنما هو نتيجة للتزكية التي قام بها الرسول ﷺ لأتباعه، والتي لا نجد لها مثيلا عند أي نبي آخر. مما يعني أن الله تعالى قد أعطى نبيّنا ﷺ كوثرًا في هذا المجال أيضًا، وهو دليل حيٌّ على فضل النبي ﷺ على سائر الأنبياء.

ومن أدلة فضل الإسلام والرسول ﷺ أن الإسلام هو الوحيد بين الأديان الذي يدّعي اليوم بقرب الله تعالى، الذي هو الدليل الحقيقي على تزكية النفس، وهو الذي يعلن أمام العالم أن الله تعالى يكلّم عباده المؤمنين اليوم، وينزل عليهم ملائكته، ويخبرهم بأخبار المستقبل، ويُظهر لهم آياته عند المحن والشدائد. والواضح أن الشجرة تُعرف بثمارها وأن الدعوى إنما تثبت بأدلّتها، لأن كل إنسان يمكن أن يدّعي بأنه يحب الله تعالى وأنه تعالى يحبه، ولكن ما قيمة هذه الدعوى بدون الدليل عليها؟ والقرآن هو الكتاب الوحيد الذي ذكر لأتباع الرسول ﷺ الكاملين علاماتٍ يَعرف بها كلُّ ذي بصيرة أنهم محظوظون بحب الله تعالى وقربه. من المؤسف أن المسلمين قد نسوا هذه الميزة العظيمة للإسلام، وبدلاً من أن يقولوا للهندوس واليهود والنصارى بأنهم هم المحرومون من هذه الميزة العظيمة، أخذوا يقولون: إننا محرومون اليوم من هذه الميزة. مع أن الله تعالى يعلن: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾(فُصّلتْ: ٣١-٣٢).. أي أن الذين يعلنون أن الله ربهم، ثم يتعرضون للأذى والاضطهاد بسبب هذا الإعلان، فيتحلون بالثبات والاستقامة والصبر بما لا مثيل له، فإن ملائكة الله تنزل عليهم وهي تقول لهم: لا تخافوا مما سيحدث لكم مستقبلا، ولا تحزنوا على ما فاتكم من قبل، بل استبشِروا وتَهلّلوا بالجنة التي وعدكم الله بها.

والسؤال هنا: أين ستكون هذه الجنة الموعودة لهم؟ هل يدخلونها في هذه الدنيا أم في الآخرة، أم في كلتيهما؟ لقد أجاب الله على هذا فقال هنا بأن هذه الجنة لن تكون في الآخرة فقط -كما يزعم غيرنا من المسلمين- بل تقول ملائكة الله للمؤمنين: سوف نكون معكم في هذه الدنيا وفي الآخرة أيضا؛ فقد أمرنا الله تعالى بنصرتكم هنا وهناك، مما يعني أن لفظ الجنة قد ورد لهذه الدنيا وللآخرة أيضا. هكذا يعامل الله تعالى الأفراد الكاملين من هذه الأمة، وسيظل يعاملهم هكذا. ولن يتم هذا في الآخرة فقط، بل يحدث في هذه الدنيا وفي الآخرة أيضا.

فقد كشف الله تعالى هذه الحقيقة في آية أخرى إذ قال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾(الرحمن:٤٧).. أيْ جنّةٌ في هذه الدنيا وجنّةٌ في الآخرة. فالقول بأن الجنة تكون في الآخرة فقط قولٌ باطل، لأن الله تعالى قد صرّح هنا أن المؤمن سينال الجنة في هذه الدنيا وفي الآخرة أيضا. إذا كانت لنا الجنة في الآخرة فقط، فما هو الدليل الذي يمكن أن نقدّمه لأهل دين آخر إذا قال: إنني لا أؤمن بالآخرة؟ فما لم نُرِه أن نصرة الله وتأييده حليفنا هنا في هذه الدنيا، فلن يثق بوعود الآخرة. أما لو أريناه ما خصّنا الله به من معاملة مميزة وتأييد ونصرة في هذه الدنيا فلا مناص له من الإقرار بأن الله تعالى سيعاملنا وينصرنا هكذا في الآخرة أيضا.

والحق أن هذا وعدٌ عظيم قُطع للمؤمنين؛ حيث أخبر الله تعالى بأنهم مع ضعفهم وقلّة حيلتهم سيكونون هم الغالبين، ولن يكون إلا ما يريدون، وستكون كلمتهم هي العليا، وسيصبح أعداؤهم في النهاية من الخائبين.

إن هذه الدعوى لقرب الله تعالى وعلاماتها البارزة التي ذكرها القرآن الكريم لا توجد في أي دين غير الإسلام، مما يدل على أن التزكية الحقيقية لا تتيسر إلا لأتباع النبي ﷺ فقط.

ثم لا بد لتزكية الآخرين أن يكون الداعي إليها نفسُه مزكًّى، إذ لا يقدر على تعليم الآخرين إلا المتعلِّم. وعندما ندرس حياة النبي ﷺ من هذا المنظور، نجد أن الله تعالى قد أعطاه كوثرًا في هذا المجال، بل إن الله تعالى بحكمته ومشيئته قد اختبره في شتى الظروف لتعرف الدنيا أنه ﷺ كان مزكًّى حقًّا.

١: إن أول دليل على كونه ﷺ مزكًّى، نجده في ريعان شبابه؛ فقد عاش حياة العزوبة ٢٥ سنة، وقد حافظ خلالها على عفّته بحيث لا يقدر أي عدو أن يتهمه بالاختلاط بأي امرأة أو الحديث غير اللائق معها، دَعْ عنك علاقات غير مشروعة. لقد قضى الفترة التي كان فيها ممتلئًا قوةً وشبابًا وهو عازب، ومع ذلك لم يُتَّهم بشيء، بينما نجد أن عيسى عليه السلام -الذي رُفع حيًّا إلى السماء عند البعض، ومات على الصليب ثم أُعيد إلى الحياة ورُفع إلى السماء عند الآخرين- فيقول الإنجيل عنه إنه كان يعيش بين النساء دائمًا، فكُنَّ يقمن بتدليك جسمه ورأسه ويمسحنه

بالزيت والعطر (لوقا ٧: ٣٨). فشتان بين محمد رسول الله ﷺ الذي لم يستطع العدو أن يَصِمَه بشيء في مدة خمس وعشرين سنة من حياته التي عاشها عازباً، وبين المسيح عليه السلام الذي يقول عنه الإنجيل نفسه ما لا يليق بمقامه. لا شك أننا نؤمن أن المسيح عليه السلام قد عاش حياة طهر وعفاف، إلا أن محمدا رسول الله ﷺ كان أكثر منه طهارةً وعفّةً. والفرق بين العفيف والأعفّ بيّنٌ. كان عيسى عليه السلام عفيفًا، أما الرسول ﷺ فقد أُعطي الكوثر في العفة.. أي لقد بلغ ذروة العفة، فشتان بينهما.

٢: كان النبي ﷺ فقيرا، ولكنه تحلى بالاستغناء الشديد رغم فقره. كانت عائلته من سدنة الكعبة (السيرة النبوية لابن هشام: غلب قصي بن كلاب على أمر مكة...)، ولكن ليس بوسع أحد أن يثبت أنه ﷺ سأل أحدًا شيئا قط، أو تمنى أن يسأل أو يأخذ من أحد شيئا. عندما توفي أبوه كفله جده عبد المطلب، وبعد وفاة جدّه عاش عند عمه أبي طالب، ولكن ليس بوسع أحد أن يثبت أنه سأل أحدا شيئا. كان أبو طالب يحبّ النبيّ ﷺ جدًّا بسبب وصية أبيه، وأيضًا بسبب صلاحه ﷺ، فكان أعزَّ عليه مِن أولاده. كان سنّه ﷺ عندها ٨ سنوات أو ٩، وكان أبو طالب يحضر إلى البيت في بعض الأحيان، ويرى زوجته توزّع شيئًا على أولادها ومحمدٌ ﷺ جالس في ناحية بمنتهى الوقار، فكان يتوجه إليه ويحتضنه من فرط حبه ويقول لزوجته: لَمْ تعطِي ابني شيئا؟! أما النبي ﷺ فلم يكنْ يبالِي بذلك مطلقا. هذه خصاله في الصغر. أما بعدما بلغ أشُدَّه تحلى بخُلُق الاستغناء، وكان من نتيجة استغنائه أن البلد كله سماه "الأمين" إذ كان منَزَّهًا عن أي طمع وجشع، ويدفع أمانات الناس إليهم كاملة. ثم سموه "الصادق المصدوق" (البخاري: كتاب التفسير، والسيرة النبوية لابن هشام: حديث بنيان الكعبة). وهذا دليل بين على كونه ﷺ مزكًّى.

٣: ومما يدلّ على سموّ خُلقه وعظيم تزكيته أنه ﷺ تزوج سيّدةً بلغت الأربعين، بينما كان هو في ريعان شبابه، فكان أحسنَ زوج.

رُبَّ خصمٍ يقول هنا: لقد تزوّجَها محمد (ﷺ) طمعًا في مالها، ولكن الأحداث تؤكد أنه لم يرغب في مالها قطّ، إنما الواقع أن خديجة هي التي تزوجته لصلاحه وأمانته. كان أثرياء قريش يبعثون مندوبيهم في القوافل التجارية، وكانت خديجة امرأة ثريّة وأرملة لأحد الأثرياء. وكانت تبعث مندوبيها في هذه القوافل، فلما سمعتْ عن صلاح النبي ﷺ وأمانته، أرسلته مرةً مندوبا لها مع القافلة ليتولى أمر تجارها، فربحتْ في هذه المرة أرباحًا قياسية، فسألت خدمها الذين رافقوا النبي ﷺ في هذه الرحلة عن سبب الأرباح غير العادية، فقالوا إنها ببركة هذا الرجل؛ فمن عادة مندوبي الناس أنهم إذا وجدوا صفقة رابحة استثمروا أموالهم الشخصية فيها، أما هذا الرجل فلم يفعل ذلك، بل كلما وجد صفقة رابحة استثمر أموالكِ، وكنا مِن قبل نأكل من أموالكِ بغير حق، لكنه نهانا عن ذلك، كما لم يأكل منها، بل كان يقول لنا بأن المال كله لصاحبه، ولن أعطيكم منه إلا ما وافق عليه سلفًا، فالنتيجة هذه الأرباح القياسية. هذا الأمر ترك في خديجة وقعًا كبيرا، ففكّرت في الزواج من النبي ﷺ. فاستشارت صديقاتها، فأخبرنها أنهن قد سمعن الكثير عن حسن سيرته، فلا حرج في زواجها منه. ثم بعثتْ خديجة إحدى صديقاتها إلى أبي طالب، فقالت له: ما رأيك في زواج خديجة من ابن أخيك؟ قال: إن زواجها منه مستحيل، فهي امرأة ثرية، وابن أخي لا يملك شيئا. قالت: أترضى بهذا الزواج؟ قال: يا ليت. ثم ذهبتْ صديقتها إلى الرسول ﷺ وقالت: ما رأيك بالزواج من خديجة؟ قال: إنها امرأة ثرية وأنا فقير، فكيف نتزوج؟ قالت: إذا رضيت خديجة فهل ترضى؟ قال: إذا كانت هذه رغبتها فأنا راضٍ. فتفاوضَ الأقارب من الطرفين وتم الزواج. مما يعني أن زواج النبي ﷺ من خديجة كان نتيجة صدقه وصلاحه، وليس أنه ﷺ تزوّجَها طمعًا في مالها.

ثم مع أن الفارق بين عمره ﷺ وعمرها كان ١٥ سنة؛ إذ كان سنه ٢٥ وسنها ٤٠، ومع أنها دخلت بعد عشر سنوات من الزواج في سن الكهولة -وهي مرحلة تتجاوز فيها المرأة سنَّ الزواج- إلا أنه ظلّ وفيًّا لها ومحافظًا على هذه العلاقة بما يندر له مثيل. لقد تُوفيت خديجة -رضي الله عنها- قبل الهجرة بنحو ثلاث

سنوات، أي بسنّ ٦٥ سنة، والمرأة في هذا السن تصبح عجوزا وتفقد بريق حسنها وجمالها الذي يخلّد ذكراها في قلب الرجل، ومع أن النبي ﷺ قد تزوج بعد وفاتها عدةَ نساء بعضهن فتِيَّات وجميلات، إلا أنه ظل يذكر خديجة بمنتهى الحب والتقدير قائلا: أما خديجة! فلا مثيل لها (السيرة النبوية لابن هشام: حديث تزويج رسول الله خديجة ، والسيرة الحلبية: ج١ باب ذكر وفاة عمه أبي طالب وزوجته خديجة).

كانت عائشة -رضي الله عنها- زوجة شابة جميلة مطيعة وفيّة للنبي ﷺ، ثم هي بنت أبي بكر، وكان النبي ﷺ أيضا يحبّها، ولكنها تقول: كنتُ أتضايق من كثرة حديث الرسول ﷺ عن خديجة وأقول له: يا رسول الله، لقد أعطاك الله زوجات أفضل من خديجة، فلماذا لا تبرح تذكرها؟ فكان ﷺ يقول دائما: عائشة، وما يدريك وفاءها لي! إنك تتضايقين من كثرة حديثي عنها، ولكني لا أقدر على نسيانها.

وفيما كان النبي ﷺ جالسًا عند عائشة -رضي الله عنها- ذات يوم حتى دقّ أحدٌ الباب واستأذن، وكانت هذه أختَ خديجة وكان صوتها يشبه صوتها!، فتغيّرَ وجه النبي ﷺ بسماع صوتها وقام بسرعة قائلاً: ربّ، أهي خديجتي؟ لقد تذكّرَ خديجة بسماع الصوت واغرورقت عيناه رغم انقضاء ١٢ سنة على وفاتها (البخاري، كتاب المناقب).

هذا هو نموذج وفاء الرسول ﷺ لزوجته خديجة رضي الله عنها. لم تكن عند وفاتها ذات جمال، إذ توفيت في الـ ٦٥ من عمرها، إذا توفيت المرأة في شبابها فيمكن أن يذكرها زوجها لجمالها، ولكن الوضع كان مختلفا هنا، فقد توفيت زوجته حين لم يكن قد بقي فيها جمال يجذبه ﷺ، ومع ذلك كان شديد الحب لها بحيث إذا سمع صوتًا مشابهًا لصوت خديجة بعد وفاتها بـ ١٢ سنة، فلم يملك نفسه، فتغيرَ وجهه، وهبَّ مسرعا وهو يقول: إلهي، هذه خديجتي! ثم فكّر وقال: أنت فلانة! قالت: نعم، يا رسول الله، أنا أخت خديجة.

هذا الحادث دليل بيّن على ما كان يكنّه لخديجة من وفاء لم يسبق له نظير في الأنبياء فضلاً عن العامة. إن المسيح عليه السلام لم يتزوج مطلقًا بحسب الإنجيل، غير أن

هناك احتمالاً أن تكون النسوة اللاتي كن يعشن حوله كل حين زوجات له، وإن كان هذا أمرًا غير موثّق. ثم ليس هنالك ما يدل على وفائه ﵇ لهن. فثبت أن النبي ﷺ وحده الذي تحلّى بهذا الوفاء الذي لا مثيل له في العالم.

٤: كانت خديجة -رضي الله عنها- شديدة الذكاء. لما تزوّجها النبي ﷺ أدركتْ أنه سوف يضطر لسؤالها عند الحاجة كونها غنية وهو فقير، ولعله لن يطيق ذلك، فكيف يعيشان حياة هادئة، ففكّرت أن تضع كل ثروتها في يده، لأنه في هذه الحالة لن يفكّر أن هذا مال زوجته، بل يتصرف فيه كيفما يشاء. فلم تمض على زواجهما إلا أيام حتى قالت للنبي ﷺ: اسمح لي بتقديم اقتراح لك. قال: هاتِ. قالت: لقد قررتُ أن أضع كل مالي وعبيدي تحت تصرفك حتى يصير مِلْكًا لك، وإذا قبلته مني فهذا مدعاة سروري. فقال ﷺ: يا خديجة، فكّري جيدا، لأنك إذا وضعتِ مالك في يدي فيصبح ملكًا لي لا لك. قالت: لقد فكّرتُ جيدا، ورأيت أن هذا هو أفضلُ سبيل لنجاح حياتنا الزوجية. قال: أعيدي النظر ثانية. قالت: لقد فكرتُ جيدا. قال: فما دمتِ قد وهبتِ لي كل أموالك وعبيدك فإني لا أحبّ أن يُدعى أي إنسان مثلي عبدًا لي، فأول ما أفعله أني سأقوم بتحريرهم جميعا. قالت: لقد أصبح كل شيء مِلْكا لك، فتصرّفْ فيه كما شئت. فغمرته الفرحة بقولها، فخرج إلى الكعبة وأعلن أن خديجة قد وهبتني أموالها وعبيدها، وها إني أحررهم جميعا.

لو نال أحدٌ اليوم مالاً لفكّر في شراء سيارة أو بناء بيت أو رحلة إلى أوروبا، ولكن انظرْ إلى النبي ﷺ فإنه قال في نفسه: لماذا يبقى عباد الله الذين يملكون العقل مثلي عبيدًا للآخرين؟ و لم يكن هذا الأمر غريبا بالنسبة إلى العرب فقط، بل للعالم كله، ولكنه فَعَلَ هذا الغريب، كما أنفق ماله على الفقراء بسخاء أيضا.

٥: عندما أعلن النبي ﷺ أنه حرّر جميع العبيد الذين عنده، لحقوا جميعا بأهليهم إلا زيد بن حارثة الذي دُعي فيما بعد بزيد بن محمد، فجاء إلى النبي ﷺ وقال: لقد حرّرتني، ولكنني لا أريد هذه الحرية، بل سأبقى معك. فأصرَّ عليه النبي ﷺ أن يعود إلى بلده وأهله لأنه حرٌّ الآن، ولكنه قال: لقد أصبحتَ أحبَّ إليَّ مِن كل حبيب

بعدما رأيت منك من حب وإخلاص. كان زيد ﵁ من عائلة غنية، ولكن اللصوص خطفوه في صغره وباعوه، فلم يزل يباع من شخص إلى آخر حتى وصل خديجة، رضي الله عنها. فلم يزل أبوه وعمه يبحثان عنه في كل مكان، حتى ذهبا إلى بلاد الروم، ثم أتوا إلى مكة، حتى وصلا إلى الرسول ﷺ، وقالا له: لقد سمعنا عن نُبْلك وكرمك، وإن ابننا عبدٌ عندك، فنرجوك أن تطلق سراحه بأي ثمن شئتَ، فأُمُّه العجوز قد عميت من كثرة البكاء عليه. فقال ﷺ: إن ابنكم ليس عبدًا لي، بل قد أعلنت أنه حرٌ. ثم دعا زيدًا وقال له: ها قد جاء أبوك وعمك، فارجعْ معهما إلى أهلك، فإن أمك العجوز قد فقدت البصر من كثرة البكاء عليك. لقد أعلنت من قبل أنك حر، فاذهبْ معهم. قال زيد: لقد حررتني، لكني لا أريد أن أتحرر، بل أعتبر نفسي عبدا لك. فقال النبي ﷺ: لكن أمك تعاني بسبب فراقك، ثم انظرْ كيف جاء أبوك وعمك متكبدين وعثاء السفر الطويل، فاذهبْ معهما. ثم نصحه أبوه وعمه كثيرا، ولكنه رفض الذهاب معهما قائلاً: لا شك أنكما أبي وعمي، وإني أحبكما، ولكني لا أستطيع قطع أواصر القرابة التي نشأت بيني وبين محمد ﷺ. إني حزين بأن أمي تعاني بسبب فراقي عناء شديدًا، ولكني لن أحيا بفراق محمد ﷺ. فلما سمع النبي ﷺ مقالة زيد ذهب إلى الكعبة وأعلن أن زيدا ابنه منذ اليوم لما رأى منه مِن حُبٍّ نادر. ففرح أبوه وعمّه ورجعا مسرورين، إذ وجداه يعيش مع النبي ﷺ فرِحًا مرتاحًا. فمِن سموّ أخلاق النبي ﷺ أنه أحسن إلى زيد لما رأى منه هذا الوفاء العظيم (الطبقات الكبرى لابن سعد: ج٣ طبقات البدريين من المهاجرين).

٦: ثم لما نزل الوحي على النبي ﷺ تصرف بتواضع لا مثيل له. إننا نرى أن بعض الناس إذا تلقَّى إلهاما أو رأى رؤيا، سارع إلى الآخرين ليخبرهم بأنه قد تلقى وحيًا كذا أو رأى رؤيا كذا، أما النبي ﷺ فلما جاءه جبريل وقال له: اقرأْ، أجاب: ما أنا بقارئ، حتى أعاد عليه جبريل قوله ثلاثا، فلما رأى ﷺ أن الله تعالى يريد ذلك منه في كل حال، استجاب لأمره بشجاعة نادرة، فلم يقل كما قال موسى

السَّلِيْلا: ربِّ أعطِني وزيرا مساعدا، بل تقدّم وحمل هذه الأمانة وحده دون أن يسأل الله تعالى أي مساعد.

٧: ولما عرض النبي ﷺ دعواه على الناس عارضوه معارضة شديدة، فصبر عليها صبرًا خارقًا. لقد تعرض لصنوف الأذى والتعذيب، ولكنه تحمّلَها بصمت مذهل. ففي إحدى المرات كان جالسًا على حجر بالقرب من الكعبة، فجاء أبو جهل يسبّه ويشتمه، وكان النبي ﷺ مستندا إلى خدّه، فظلّ جالسا كما هو ولم يـردّ عليـه بشيء. فازداد أبو جهل غضبًا، فضرب النبيَّ ﷺ بقضيب في يده، وأوسعَه سـبًّا، ومع ذلك لم يرفع ﷺ يده دفاعا، وإنما قال: أتنقمون مني أني أبلّغكم رسـالة الله؟ ومع ذلك لم تهدأ ثائرة أبي جهل، وظلّ يكيل له الشتائم حتى سئم منـه وذهـب. وكانت أَمَةٌ لحمزة -عم النبي ﷺ- قد سمعت هذه الضجّة، فخرجت من البيـت ورأت وسمعت كل ما دار بينهما، فآلَمَها ذلك وظلّتْ تغلي غضبًا، وتنتظر بفارغ الصبر عودة حمزة الذي كان قد خرج للصيد. كان حمزة ﷺ قد سمع عن دعـوى الرسول ولكنه لم يُلق لها بالاً، إنما كان يستمتع بالقنص والصيد ليـل نهـار. وفي المساء رجع حمزة إلى البيت والقوسُ على كتفه والصيدُ في يده وكأنه قائد رجع من المعركة، فاستقبلته أَمَتُه -والإماء اللاتي يعملن في البيوت طويلاً يـصبحن كأهـل البيت، فيتكلمن معهم كما يردن دونما تردد وخوف- فقالت له: أتظـنّ نفـسك بطلاً مغوارًا؟ هل قَتْل الحيوانات بطولة؟ فكل واحد يمكن أن يصيدها. فها هو ابن أخيك قد سبّه أبو جهل اليوم سبًا شديدًا وضرَبه، فظلّ صامتًا ولم يردّ عليه بشيء؛ أما أنت فتلهو بالصيد! فقال حمزةُ: أخبريني ماذا حدث؟ فقصَّتْ عليه ما حـدث. فثارت غيرة حمزة، فخرج من توّه إلى الكعبة، فوجد أبا جهل يتحدث مع زعمـاء مكة الآخرين، فلما رأوه أفسحوا له المجال لأنه أحد زعمائها. فتقدمَ حمـزةُ إلى أبي جهل وضرب وجهه بقوسه قائلا: سمعت أنك قد ضربتَ ابن أخي فظلّ صامتًا لم يردّ عليك، فها إني قد ضربتُ وجهك بقوسي أمام القوم فتعال وانـتقمْ مـني إن استطعتَ. فغضب القوم تعصبًا لدينهم وأرادوا أن يتصدوا لحمزة، ولكن أبا جهل منعهم قائلا: بالفعل قد أسأت إلى محمد اليوم، وإني نادم على ما فعلت. ثم رجـع

حمزة من الكعبة في فورة حماسه إلى الرسول ﷺ، وقال يا رسول الله، ها إني أؤمن بك. وكان إيمان حمزة نتيجة الصبر الخارق الذي تحلى به النبي ﷺ (السيرة الحلبية: ج١ باب استخفائه ﷺ وأصحابه في دار الأرقم بن أبي الأرقم).

٨: لما رفض القوم سماع كلام النبي ﷺ لم يأخذه اليأس، مع أن ضعاف القلوب يصابون بالقلق عادة ويقولون: كيف نقوم بنشر الدعوة والناس لا يصغون لنا؟ أما الرسول ﷺ فلم يصبه قلق ولا يأس، بل ظلّ مثابرا على أداء مهمته بثبات. لقد نذر حياته لهذا الهدف، وظلّ منهمكا في نشر الدعوة ليل نهار. كان يخرج إلى سوق عكاظ لدعوة الناس إلى الله الأحد، وكلما رأى مجموعة من الناس ذهب إليهم وقال: أتسمحون لي أن أُسمِعكم شيئًا من كلام الله. فكان القوم يتغامزون فيما بينهم بأنه ذلك المجنون المكيّ، ثم يتسللون، إذ كان أهل مكة قد أشاعوا بين الناس أنه ﷺ مجنون، والعياذ بالله. فكان يتوجه إلى مجموعة ثانية ثم ثالثة، فكان الجميع يفعلون به ما فعله الأولون، رافضين سماع كلامه، ولكنه ﷺ ظل مثابرًا على دعوتهم حتى خرج منهم في الأخير قوم آمنوا به وقدّموا للإسلام خدمات عظيمة. إن مثابرته النادرة هي التي جعلته ناجحا في الأخير. وهذه الاستقامة العجيبة هي التي يقول عنها الناس إنها أعظم المعجزات. وبالفعل، لا تنجح الدعوة من دون مثابرة تُشبِهُ الجنون (البداية والنهاية: ج ٣ عرض رسول الله نفسه الكريمة على أحياء العرب).

٩: لما آذى القومُ النبيَّ ﷺ وصبّوا عليه أنواع الظلم، تحلّى بضبط النفس وظل ناصحًا للقوم بشكل خارق. فلما ذهب إلى الطائف ودعا أهلَها إلى الله تعالى حرّشوا عليه الكلاب، ورشقوه بالحجارة، فرجع من عندهم وغوغاؤهم يرشقونه وكلابهم تطارده. فثارت غيرة الله تعالى، فأمر ملائكته أن اذهبوا إلى رسولي وانصروه. فرأى ﷺ ملاكًا يقول له: إني الملَك المسؤول عن هذا الجبل الذي أمامك، وقد أرسلني الله تعالى لنصرتك، فلو أمرتَني ألقيتُ هذا الجبل على الطائف وأهلكت أهلها. فقال النبي ﷺ: كلا، إذا هلك هؤلاء فمن يؤمن بي؟ كان جسده

ﷺ قد أُصيب بالجروح من رأسه إلى قدميه، وكان الدم ينـــزف، ومع ذلك ظـــل مشفقًا على أهل الطائف وناصحًا لهم، ولم يرد أن يهلكهم الله بعذابه.

وكانت أراضي الطائف زراعية، وكان بعض رؤساء مكة قد اشتروا بعضًا من أراضيها، وكان لأحد رؤساء مكة بستان خارج الطائف على بعد ٧ أو ٨ أميال، فجاء النبي ﷺ ومعه زيد ليستريح هناك، وكان صاحبُ البستان مِن أعداء النبي ﷺ، ولكنه لم يُطِقْ رؤية هذا المشهد الدموي، فدعا أحد عبيده وقال له: خُذْ مِن أطيب العنب واذهبْ به إلى هذين. وكان هذا العبد من أهل نينوى، فلما جاء إلى الـــنبي ﷺ سأله عن وطنه؟ فقال أنا من أهل نينوى؟ فقال النبي ﷺ: إذن، أنت مِن بلـــد أخي يونس عليه السلام! تعالَ أُسمِعُك مِن كلام الله تعالى. لقد بدأ ﷺ بدعوتـــه ناســـيًا جروحه وإرهاقه. كان هذا العبد مسيحيا، وكان قد سمع الأنباء المتعلقـــة بـــالنبي الموعود، فتأثر من كلام النبي ﷺ جدا حتى خرَّ على قدميه وأخذ يمسح عن رأســـه الدم ويقبّل شعره. فرآه سيده وكانت جذوة الشفقة قد خبتْ في قلبه، فقال لعبده: هذا المجنون من مكة ومن أقاربي، فلا تصدّق كلامه. فقال العبد: إنه ليس مجنونـــا، بل إنه يتكلم بكلام الأنبياء (السيرة الحلبية: ج٢ باب ذكر خـــروج الـــنبي ﷺ إلى الطائف).

كم كان النبي ﷺ ناصحًا لقومه، وكم كان شديد الضبط لنفسه! لقد ظلمـــه أهل الطائف ببشاعة حيث حرّشوا عليه الكلاب ورشقوه بالحجارة، ومع ذلك دعا لهم قائلا: ربِّ ارحم قومي فإنهم لا يعلمون أنني نبيك، إذ لو علموا لم يفعلوا مـــا يفعلون.

١٠: ثم كم كان النبي ﷺ ناصحًا لصحابته لما تعرضوا لاضطهاد القوم. عنـــدما يتعرض الناس لظلم الآخرين يجمعون حولهم أنصارهم ليحموهم من الظلـــم، أمـــا النبي ﷺ فنصح أصحابه بالهجرة إلى الحبشة وألا يقلقوا عليه. فهاجرَ معظم الصحابة ولم يبق مع النبي ﷺ في مكة إلا بضعة منهم (السيرة النبوية لابن هشام: ذكر الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة).

١١: وعندما حانت هجرته ﷺ من مكة -التي كانت وطنه العزيز، وكانت سببًا في مجد آبائه، وفيها الكعبة التي كان يعبُد الله فيها في بعض الأحيان- ضحّى بحبّ وطنه أيضا بشجاعة لا مثيل لها. أما مدى حبه ﷺ لوطنه فيكفي عليه دليلاً أنه لما خرج من غار ثور متوجهًا إلى المدينة قال أبو بكر: لعن الله قرية عارضت نبيها حتى طردته منها. فقال النبي ﷺ: لا تقلْ هكذا يا أبا بكر. ثم قام النبي ﷺ متوجها إلى مكة، وقال: أنت أحبُّ بلاد الله إليّ يا مكة، ولكن أهلك لا يدَعونني أعيش فيك.

ما أروعَه من مثال لحبّ الوطن! ولكنه ﷺ قد ضحّى بهذا الحب لوجه الله تعالى ببسالة.

١٢: ثم لما وصل النبي ﷺ إلى المدينة فما لبث أن جمَع أهلها ونظّمهم، فأقرّ حقوقا للمهاجرين، وعقَد معاهدة مع اليهود اتقاءً لشرورهم؛ وهكذا تجلى ذكاؤه الفذّ بما لا مثيل له في العالم. لم يجد في مكة فرصة لتنظيم سكان حارة واحدة، أما في المدينة فبدا كأنه ملِكٌ مجرَّب ومدير عبقري، فقام بتنظيم أهل المدينة الذين كانت القبائل الأخرى تستضعفهم وتقهرهم دائما، حتى أصبحوا قوة يحسب لها حساب بين العرب جميعا (السيرة النبوية لابن هشام: باب هجرة الرسول ﷺ).

١٣: ثم لما بدأت الحروب دلّل ﷺ على شجاعته الخارقة. فلو تُوفّيَ قبل تَولِّي المُلك لقال الناس إنه صبر على الشدائد بسبب ضعفه، ولكنه أثبتَ بعد تولّي الحكم أنه لم يصبر و لم يعفُ عن ضعف، وإنما عن حلم ورحابة صدر.

لما تمكّن النبي ﷺ من الهجرة إلى المدينة أخذ أهل مكة يبعثون الكتائب في كل طرف دفعًا للعار الذي لحق بهم، فاضطر النبي ﷺ لقتالهم دفاعًا، ولكنه ضرب في هذه الحروب أروع أمثلة في الخُلق الحسن. إن كبار الملوك أيضا لا يتورعون عن الإغارة ليلا، ولكنه ﷺ لم يُغِرْ ليلا.

ومما يدل على ذكائه الخارق أنه خاض عشرات الحروب في ثماني سنوات متتالية، ولكن لم يحدث مرة واحدة أن شنّ هجوما وعلم به الكفار مسبقًا، أو أنهم فاجأوه بالهجوم. المستغرب أن الكفار كلما جهزوا للإغارة عليه علم بذلك، فذات

مرة أعدّت بنو المصطلق عُدّهم ليفاجئوه بالهجوم، وكان النبي ﷺ على بُعْد عشرة منازل منهم أو اثني عشر، ومع ذلك فاجأهم الرسول ﷺ وهم لا يزالون يجهزون للخروج ونساؤهم يعملن العجين في بيوتهن، و لم يخطر ببالهم أن محمدا ﷺ يمكن أن يباغتهم هكذا (البداية والنهاية: ج ٤ غزوة بني المصطلق).

ثم لما خرج لفتح مكة كان خروجه مفاجئًا جدًّا، حتى إن الكافرين لما رأوا الجيش المسلم من بعيد قالوا لأبي سفيان: لعل هذا جيش المسلمين؟ فقال: كلا، فقد جئتُ من المدينة قبل قليل، و لم أرَ هناك أي تجهيزات للحرب. وبينما هو يحدّثهم حتى أتى جنود المسلمين وألقوا القبض عليه. كان أهل مكة جالسين مطمئنين في بيوتهم وهم يظنون أن أبا سفيان قد ذهب إلى مكة و لم يتوقعوا أي هجوم، ولكن الرسول ﷺ دخل مكة في اليوم الثاني بجيش عظيم.

باختصار، ليس هناك مثال واحد في عشرات الحروب التي خاضها النبي ﷺ في ثماني سنوات أن خرج لمهاجمة العدو فعرف العدو بذلك مسبقا، أو هاجمه العدو و لم يعرف ﷺ بهجومه مسبقا؛ الأمر الذي لا يوجد له نظير في تاريخ الدول ولا الأديان.

١٤: وبعد وصوله ﷺ إلى المدينة قد أكّد على استغنائه وتقواه الخارقيْن: أعجبته قطعة أرض لأيتام صغار، فدعا الوصي عليهم، فقال: يا رسول الله، إنها لأبناء أخي الأيتام، ولكنهم يهَبُونها لك عن طيب نفس. فقال ﷺ: ولكنا لا نأخذ أموال اليتيم، ويمكنهم أن يبيعوها لنا إذا أرادوا.

١٥: كان ﷺ يراعي مشاعر الآخرين كثيرا؛ فلما هاجر إلى المدينة أقام في بيت الصحابي أبي أيوب الأنصاري، فعرض عليه أن يسكن في الطابق العلوي ويقيم أهله في الطابق الأرضي، فقال ﷺ: لا، بل أفضِّل الطابق الأرضي، لأن الناس يأتون لزيارتي بكثرة، مما سيزعجكم. فقال: يا رسول الله، كيف نرضى أن تسكن في الطابق الأرضي ونسكن أعلى منك؟ ولكن الرسول ﷺ لم يقبل عرضه. وفي إحدى الليالي أهرق أهل البيت ماءً كثيرا خطأً، فخاف الأنصاري أن يتساقط الماء من السقف إلى الطابق الأرضي حيث الرسول ﷺ، فأخذ هو وزوجته لحافهما وقام

بتجفيف أرضية الغرفة وباتا من دون لحاف، فلما علم النبي ﷺ بذلك تحرّجَ وقال: حسنًا، سأقيم في الطابق العلوي وتقيمون في الطابق الأرضي. مما يعني أنه ﷺ قد تحلّى بأسمى الأخلاق في الحالتين؛ فلم يرضَ أولاً بالسكن في الطابق العلوي من أجل راحة الأنصاري وأهله، وفي المرة الثانية عندما علم بمعاناتهما رضي بالمبيت في الطابق العلوي من أجل راحتهما (البداية والنهاية: ج٣ فصل في دخوله عليه السلام المدينة وأين استقر منـــزله).

١٦: كان حبه ﷺ لوحدانية الله منقطع النظير. لا شك أن كل نبيّ يُبعث لإرساء الإيمان بالله الأحد في الدنيا، وهذا ما تتفق عليه الديانات كلها إلا المسيحية التي يدعي أتباعها اليوم أن عيسى عليه السلام جاء لإرساء عقيدة الثالوث، مع أنه لا أثر للثالوث في أقوال المسيح عليه السلام في الأناجيل، بل إن دراستها تكشف أنه بُعث لإقامة وحدانية الله تعالى، وهو نفسه يقول: "لا تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأَنْقُضَ النَّامُوسَ أَوِ الأَنْبِيَاءَ. مَا جِئْتُ لأَنْقُضَ بَلْ لأُكَمِّلَ" (مَتَّى ٥: ١٧). وما دام عليه السلام قد جاء تابعًا لأحكام التوراة، فمن المستحيل أن يبدّل أي كلمة منها. والتوراة تعلّم وحدانية الله تعالى، ولا ذِكر للثالوث فيها. المهم أن كل نبي يبعث لإقامة وحدانية الله في العالم، إلا أنه ليس هناك نبي يمكن أن يجاري رسولنا ﷺ في إرساء التوحيد والغيرة على وحدانية الله تعالى. لقد علّم المسيح عليه السلام وحدانية الله تعالى بطريقة أثارت شبهةَ الشرك في تعليمه، لذا أصبح المسيحيون وثنيين بمرور الأيام، وتَخَلَّوْا عن وحدانية الله كليةً. لا شك أن الشرك قد سرى إلى المسلمين أيضا، ولكنه شركُ الجهال منهم، سواء من العوام أو من المشايخ، أما الشرك الموجود في المسيحية، فهو عند كبار علمائهم. ثم هناك فرق آخر بين الأمتين في هذا المجال، فمع سريان الشرك إلى المسلمين، إلا أنه يوجد بينهم علماء حاربوه بشدة. فخذوا مثلاً حضرة عبد القادر الجيلاني رحمه الله، فكُتبه مليئة بالحثّ على وحدانية الله تعالى، فلا يمكن أن ينخدع أحد بوقوع بعض مريديه في الشرك، لأنه إذا وقع فيه أحدهم، وضعنا أمامه كُتبه وقلنا: إن حضرته كان موحدا عظيما، فعليك أن تتّبعه بصدق. مما يعني أن هناك فرصًا لكشف أخطاء المسلمين الذين وقعوا في الشرك. أما المسيحية فإن كبار

علمائها وحتى البابا الحالي ومَن سبقه من عشرات البابوات، قد وقعوا في الشرك. وهذا الشرك المسيحي ليس من قِبل الجهال، بل من قبل كبار علماء المسيحية، ومن أجل ذلك من الصعب بمكان كشفُ خطأ الشرك على المسيحيين، وأما كشفُ خطأ الشرك على المسلمين فسهل جدًا.

المهم أن أكبر دليل على غيرة الرسول ﷺ على وحدانية الله تعالى، أنه ظل يحث على التمسك بالتوحيد في أحلك الظروف أيضا. ففي غزوة أحد كتب الله النصر للمؤمنين وهزم الكفار في أول الأمر، وكان النبي ﷺ قد عيّن جماعة من الرماة لحماية ممر جبلي هناك، وأوصاهم ألا يتركوه سواء أانتصر المسلمون أم هُزموا، وسواء أقُتلوا أم نجوْا. وكان المسلمون متحمسين للاشتراك في الجهاد، فلما كتب الله النصر للإسلام، قال هؤلاء الرماة لأميرهم: دَعْنا نشترك في الجهاد قليلاً، فقد كتب الله النصر للإسلام، ولم يبق هناك خطر. فقال: لقد أمرنا رسول الله ﷺ بعدم التحرك من هنا في أي حال، فيجب أن نبقى هنا. قالوا: لم يعنِ الرسول ﷺ أن لا نتحرك من هنا حتى في حالة النصر، إنما أوصانا بالبقاء هنا من باب الحيطة والحذر، أما الآن فقد فرّ العدو وانتصر المسلمون، فلا حرج في ترك المكان والاشتراك في الجهاد. فقال الأمير: إذا أمر الحاكم بأمرٍ فلا يحقّ للمحكوم أن يؤوّل أمره؛ لقد أمرنا رسول الله ﷺ بالبقاء هنا في كل حال، ونهانا عن ترك هذا المكان في حالة انتصار المسلمين أو هزيمتهم أو حياتهم أو هلاكهم. فيجب أن لا نتحرك من هنا. ولكنهم عصوْه وأصرّوا على خطئهم قائلين: إذا أردتَ فابقَ هنا، أما نحن فذاهبون للقتال. فذهب معظمهم، ولم يبق هناك إلا الأمير وبضعة آخرون. ولم يكنْ خالد بن الوليد وعمرو بن العاص قد دخلا في الإسلام بعد -كانا شديدي الذكاء والخبرة في القتال وقد صارا لاحقًا من القادة العظام في الإسلام وحققا إنجازات عظيمة- وإنما جاءا مع جيش الكافرين لمحاربة المسلمين، وبينما هما يهربان مع الهاربين، نظر خالد إلى الممر ووجده خاليا، فقال لعمرو: عندنا فرصة ذهبية لمباغتة المسلمين، فأخذ كلٌّ منهما أصحابه وجاء أحدهما من طرف والآخر من طرف آخر، وقتلوا المسلمين القلائل الموجودين في الممر، ثم فاجأوا المسلمين بالهجوم من

ورائهم. وكان المسلمون يظنون أنفسهم محميين من طرف هذا الممر، وكانوا قد تفرقوا هنا وهناك وقد تقوَّضت صفوفهم وهم يطاردون مَن بقي من العدو، ففوجئوا بهجوم خالد وعمرو المباغت، فقُتل بعضهم وجُرح الآخرون، أما الباقون فلم يستطيعوا الصمود أمام الهجوم الجارف، حتى وصل العدو إلى النبي ﷺ ولم يبق حوله إلا ١٢ شخصا. وكان خالد وعمرو قد استدعوا القادة الآخرين إلى الهجوم، فجعل الجيش الكافر المكوَّن من ٣٠٠٠ محارب يجرف المسلمين المتفرقين المتشتتين كالموج جرفًا، بين رامٍ بالحجارة ورامٍ بالسهام وضاربٍ بالسيف، ومع أن الصحابة قد قدّموا تضحيات منقطعة النظير، إلا أنهم لم يستطيعوا الصمود أمام ٣٠٠٠ محارب في ذروة نشاطهم وحماسهم. فأصيب النبي ﷺ في هذا الهجوم الجارف، وسقط اثنان من أسنانه، وأصاب خوذتَه حجر فدخلتْ حلقتها في خده، فسقط مغشيا عليه في حفرة، ووقعت عليه جثث الصحابة الذين كانوا يدافعون عنه، حتى اختفى جسده المبارك تحت جثثهم، وشاع بين المسلمين أن الرسول ﷺ قد استشهد. فنزل هذا الخبر كالصاعقة على المسلمين العاجزين عن الثبات أمام هذا الهجوم المكثف الجارف. ومن غرائب القدر أنه لما بلغ الكافرين إشاعةُ مقتل النبي ﷺ توقفوا عن متابعة الهجوم، إذ ارتأوا أن الأفضل أن يرجعوا إلى مكة بسرعة سالمين، ويبلّغوا أهلها بشارة مقتل محمد- والعياذ بالله. أما المسلمون فلما سمعوا خبر استشهاد الرسول ﷺ سارع إليه مَن استطاع منهم وأخرجوه من تحت الجثث، فوجدوه حيًّا يتنفس، فحاولوا إخراج الحلقة من خده ففشلوا، فنزعها صحابي بأسنانه بصعوبة حتى انكسرت اثنتان من أسنانه، ثم رشّوا على النبي ﷺ الماء فأفاق. وكان معظم الصحابة قد تفرّقوا ولم يكن حول النبي ﷺ إلا قليل جدا منهم، فقال ﷺ لهم: الأفضل أن نلوذ بسفح الجبل، فذهب بهم هنالك، أما باقي المسلمين فاجتمعوا حوله رويدا رويدا. وبينما كان الكافرون يرجعون نادى أبو سفيان بصوت عالٍ: لقد قتلنا محمدًا. فأراد الصحابة أن يردّوا عليه، ولكن النبي ﷺ منعهم من ذلك قائلا: إن معظم أصحابنا مشتتون، وقد قُتل كثير منهم وجرحوا، ونحن قليلون ومنهكون جدًا، أما الكافرون فإنهم ثلاثة آلاف مقاتل، ولا بأس بهم، فليس

من الحكمة الرد عليهم، فدَعُوهم وشأنهم، فلزم الصحابة الصمت. فأعلن أبو سفيان وقال: لقد قتلنا أبا بكر. فنهى النبي ﷺ عن الرد عليه. ثم أعلن أبو سفيان قائلا: لقد قتلنا عمر أيضا. وكان عمر حادّ الطبع، فأراد أن يردّ على أبي سفيان، ولكن الرسول ﷺ منعه، وقد قال عمر للرسول ﷺ فيما بعد: كنت أريد أن أقول له: إن عمر لا يزال حيًا ليشجّ رأسك. وعندما لم يتلق أبو سفيان أي جواب هتف عاليًا: اُعْلُ هُبَل.. أي أن إلهنا هبل قد أهلك محمدا وأصحابه. فظلَّ الصحابة صامتين لأن الرسول ﷺ كان قد منعهم من قبل، أما النبي ﷺ ذلك الإنسان المقدس -الذي كان قد نهاهم عن الرد على أبي سفيان من قبل عند ادعائه بقتله ﷺ وقتل أبي بكر وعمر، لأن الجيش المسلم مشتت، وهناك خطر تكرار الهجوم من العدو- ثارت غيرته على وحدانية الله تعالى لما سمع هتاف "اُعْلُ هُبَل"، فالأمر الآن لا يتعلق بمحمد أو أبي بكر أو عمر، بل قد أصبح مساسًا بعظَمَة الله، فقال لأصحابه بحماس شديد: لماذا لا تردّون على أبي سفيان؟ فقالوا: يا رسول الله، بماذا نردّ عليه؟ قال: قولوا: اللهُ أعلى وأجلّ، الله أعلى وأجلّ.. أي: ما قيمة إلهكم وصنمكم هُبَل أمامَ الله الأعزّ والأجلّ؟ (السيرة الحلبية: ج٢ غزوة أحد، والسيرة النبوية لابن هشام: خبر عاصم بن ثابت، والبخاري: كتاب الجهاد والسير)

يا لها من غيرة على وحدانية الله تعالى. لقد نهى ﷺ صحابته عن الرد ثلاث مرات، مما يعني أنه كان مدركًا لخطورة الموقف كل الإدراك. كان يعلم أن الجيش المسلم مشتت وليس حوله ﷺ إلا قِلّة من أصحابه، وأكثرهم جرحى أو منهكون، وأن العدو لو علم باجتماع فئة من المسلمين فقد يهاجمونهم ثانية. ومع ذلك لم يُطِق النبي ﷺ السكوت حين أصبح الأمر يمسّ بعظمة الله، وقرّر الرد على العدو غير مبالٍ بالنتائج. فقال لصحابته: لماذا لا تردّون؟ لماذا لا تقولون: اللهُ أعلى وأجلُّ؟ الله أعلىٰ وأجلُّ؟

١٧: كان النبي ﷺ شديد العناية بالضعفاء. كان عدد الكافرين في غزوة الأحزاب ١٥ ألفًا، أما عدد الجيش المسلم فلم يزد عن ١٢٠٠ -هناك اختلاف في عدد الطرفين في تلك الغزوة، فالمستشرقون الأوروبيون يقولون تهربًا من عار الهزيمة

التي حلت بالكفار أنه لم يكن عددهم إلا عشرة آلاف مقاتل فقط، أما المؤرخون المسلمون فقد ذكر بعضهم أن عدد الكفار كان ٢٤ ألفا. أما أنا فأرى بناءً على دارسة مختلف كتب التاريخ أن عدد الكفار كان نحو ١٥ ألفا، أما الجيش المسلم فأرى أن الرواية التي تذكر أن عددهم ١٢٠٠ هي أصح الروايات- كان في أحد أطراف المدينة بيوت بني قريظة وهي الباقية من بين القبائل اليهودية في المدينة، وكان بينها وبين المسلمين معاهدة، فظن النبي ﷺ أن هذه الجبهة محمية لأن هذه القبيلة مع المسلمين، أما الناحية الثانية فكان هناك جبل، فرأى المسلمون أن العدو لن يهاجمهم من هناك، وإذا هاجم فسوف يعلمون ويتصدون لهم، أما الناحية الثالثة فقد كان هناك بيوت المسلمين التي كانت بمنزلة سدّ منيع يحمي المدينة، وكان الطرف الرابع أرضًا فارغة، فحفر المسلمون هناك خندقا.

ولما رأى الكافرون فشلهم في التغلب على المسلمين تآمروا مع اليهود، وحرّضوهم على قتالهم، فانضموا إلى العدو ووعدوهم بالهجوم على المسلمين من ورائهم إذا حمي الوطيس. كان النبي ﷺ مطمئنا من طرف اليهود، ولكن الأنصار أعربوا له عن عدم ثقتهم باليهود، فقال النبي ﷺ: إن بيننا وبينهم عهدًا، فلا تسيئوا بهم الظن. ولكن عندما كثرت الأخبار عن غدر اليهود، بعث النبي ﷺ إليهم لاستطلاع الأحوال أنصاريَّيْن كانا لهما علاقات طيبة معهم، فأدركا من كلامهم أنهم مصممون على الغدر، فأبلغا النبي ﷺ أن جانب اليهود غير مأمون. لكن الرسول ﷺ ظل محافظًا على هذه المعاهدة وقال: لا يحق لنا أن ننقضها من طرفنا (السيرة النبوية لابن هشام: غزوة الخندق، والبداية والنهاية: ج٤ غزوة الخندق).

وكان النبي ﷺ قد جمع نساء المدينة في مكانين، فجمع مجموعة منهن في منازل ذات طابقين، وجمع في مكان آخر قريبٍ من طرف اليهود نساءَ أسرته ﷺ ونساء الصحابة اللاتي كان يُخاف أن يسعى العدو للهجوم عليه، إذ تُعتبر الإساءة إليهن إساءةً إلى الأمة كلها. فرأت صفيّةُ عمّةُ الرسول ﷺ ذات يوم يهوديا يُطلّ من فوق الجدار ناحية النساء، فقالت لحسان بن ثابت الذي كان يقوم بحراسة النساء: هناك يهودي يطلّ من فوق الجدار، فَقُمْ واقتلْه. وكان حسان ضعيف القلب فقال لها:

لعله أحد المارّة، وتوهّمْتِ أنه يُطلّ من فوق الجدار. فقالت: لقد رأيته بأم عيني يُطلّ. ثم أخذتْ خشبةً وضربت بها رأس اليهودي فسقط، وقد انكشفت عورته، فقالت صفيّة لحسان: اذهبْ واقتلْه الآن. فقال: لا أقدر على ذلك، فاقتليه أنت. فألقت على وجهها الحجاب وشجّت رأس اليهودي (البداية النهاية: ج٤ غزوة الخندق). ولما علم الرسول ﷺ بتصرفات اليهود العدائية وأنهم قد بدأوا يبعثون جواسيسهم على المسلمين لم يأمن طرفهم، فبعث لحماية النساء في المكانين ٥٠٠ مقاتل -٢٠٠ في مكان، و٣٠٠ في مكان آخر- فلم يبق معه لمحاربة الأحزاب إلا ٧٠٠ مسلم.

فما أروعَ التضحية التي قام بها لمساعدة الضَعَفَة، إذ فصل جزءًا كبيرا من الجيش الذي كان عليه حماية المدينة، وأرسله لحماية النساء، مما يدل أنه كان مستعدًّا لأي تضحية مهما كبرت لحماية النساء.

لقد تجلّى خلقه ﷺ العظيم في غزوة بدر أيضا. لم يكن عمّه العباس رضي الله عنه قد أعلن إسلامه بعد، إنما كان مسلمًا بالسرّ، فأخذه الكفار معهم للقتال، ومع أنه لم يشترك فيه عمليا إلا أنه أُسر مع غيره من الأسرى حين هُزم الكافرون، وكانوا عندها يربطون أيدي الأسرى بالحبال وبشدة حتى يتألموا، إذ لم تكنْ في ذلك الزمن أصفاد يقيدونهم بها، ولا أسلاك شائكة يضعونها حول المكان الذي يحبسونهم فيه. ونزل المسلمون في الطريق منزلاً، فوجدوا النبي ﷺ مصابا بالأرق لا ينام، فقال بعضهم: لعل أنين عمّه العباس من شدة آلامه هو الذي يؤرّقه، فقرّروا إرخاء الحبل المقيد به، فلما أرخوه توقّفَ عن الأنين. والحُبُّ يولّد الوهْم، فلما توقفت أنّاته ظنّ النبي ﷺ أنه قد مات أو أُغمي عليه من شدة الآلام، فقام فزعًا ودعا صحابته وقال: لماذا لا أسمع صوت العباس الآن؟ فقالوا يا رسول الله، لقد رأينا أنك تتألم من أنينه، فأرخينا له الحبل. كان المفروض أن يفرح بذلك، ولكنه ﷺ قال: لا أرضى بذلك، فإما أن ترخوا حبال الأسرى جميعًا أو أن لا تُرْخوا حبل العباس؛ فإما أن يكون الجميع في ألم أو في راحة. وهذا يعني أنه لم يُطِق آلام العباس من قبل، ثم لم يُطِق أن يُرخى حبله هو فقط بينما يظل الآخرون مشدودي الحبال. وهكذا قد ضرب ﷺ

بعمله أروع مثال للمساواة الإسلامية (أسد الغابة: ج٢ ص٥٤٤ العباس بن عبد المطلب).

١٩: عندما دخل النبي ﷺ مكة فاتحًا رأى العالمُ مشهدًا مذهلا. كان أبو سفيان قد قُبض عليه خارج مكة، إلا أن الرسول ﷺ أذن له أن يذهب ويعلن باسمه بين أهلها أن مَن دخل الكعبة فهو آمن، ومَن دخل بيت أبي سفيان فهو آمن، ومَن جاء تحت راية بلال فهو آمن، ومَن أغلق عليه بابه فهو آمن. ثم لما توجه الجيش المسلم إلى مكة في الصباح قال أبو سفيان للعباس، وكان صديقًا له: أرجوك أن تُريني مشهد الجيش المسلم قبل أن أدخل مكة، فرضي وأجلسه معه في مكان يرى منه كتائب الجيش المسلم تمر من أمامه، وكلما مرت كتيبة عرَفها وقال للعباس مستفسرا: أهؤلاء بنو فلان؟ فكان العباس يقول نعم، حتى مرّت كتيبة كبيرة من أمامه فقال له مستغربا: من هؤلاء القوم؟ قال العباس: هؤلاء أنصار المدينة. فسمع قائد الكتيبة قول أبي سفيان، فقال له في حماس: تسأل مَن هؤلاء! نحن الأنصار، وسنصل إلى مكة بعد قليل لنشجّ رأسك. فسارع أبو سفيان إلى الرسول ﷺ وقال: يا رسول الله، لقد عفوتَ عني حتى قلت بأن مَن دخل بيتي أو دخل الكعبة أو جاء تحت راية بلال أو أغلق عليه بابه فهو آمنٌ، ولكن هذا القائد الأنصاري هددني قائلا: سنصل إلى مكة بعد قليل لكسر رؤوسكم. فقال النبي ﷺ: كلا، لن يُخزى أهل مكة؛ وكيف يذل مَن أعزّه الله؟ ثم دعا النبي ﷺ القائد الأنصاري وعزَله عقابًا على جرحه مشاعر أبي سفيان، غير أنه ﷺ راعى مشاعر القائد الأنصاري أيضا إذ لم يفعل ما فعله إلا مِن فرط حبه للإسلام، فعيّن ﷺ ابنَه قائدًا للكتيبة مكانه (السيرة الحلبية: ج٣ ص ٢٢ فتح مكة).

والحق أن تغيير القائد وقت الهجوم بسبب جرح مشاعر العدو ليس بأمر هين، بل قد يؤدي إلى تمرد الجيش، ولكن الرسول ﷺ لم يكترث للعواقب مؤكدًا خُلُقه العظيم في ذلك الموقف الحرج أيضًا بما لا مثيل له في تاريخ أي نبي.

٢٠: أما عفوه ﷺ العظيم عند فتح مكة عن أعدائه المتعطشين لدمائه بقوله: لا تثريب عليكم اليوم (السيرة الحلبية: ج٣ ص ١٤ فتح مكة)، فهو أروع مثال على

خُلقه العظيم. غير أن هناك أمرًا بالغ الأهمية أود ذكره هنا إذ لا يتنبه الناس إليه عادة. علمًا أنني بفضل الله تعالى عالِمُ نفسٍ، فمع أنني لم أتجاوز امتحان الابتدائية، إلا أن كبار علماء النفس يهابونني عند الحديث معي. ومع أنهم قد درسوا مئات الكتب في علم النفس إلا أنهم لا يستطيعون أن يباروني في هذا المجال بفضل الله. فعندي أن الرسول ﷺ قد ضرب مثالاً رائعا في علم النفس عند فتح مكة. إنه أمرٌ بسيط في الظاهر، لكنه عظيم من منظور علم النفس. فقد أعطى ﷺ الرايةَ سيدَنا بلال ؓ عند الفتح وأعلن: مَن جاء تحت رايته فهو آمن، وسيُعفى عنه. لا جرم أنه مثال عظيم على خُلقه العظيم من منظور علم النفس. فالجميع يعرف أن بلالاً كان عبدًا، وكان سيدُه يعذبه أشد التعذيب في مكة، فكان يجرّه على الحجارة، ويلقيه على الرمال المحرقة، ويقفز بنعاله على صدره، ملحًّا عليه أن يقرّ بأن الأصنام تملك القدرة، ولكنه كان يقول: "أسهد" ألا إله إلا الله. وكان طبيعيا أن يفكر بلال ؓ في الانتقام من هؤلاء الظالمين عند غلبة الإسلام، وأن رسول الله ﷺ والمسلمين الآخرين أيضا سينتقمون منهم له، ولكن عند فتح مكة قال أبو سفيان للنبي ﷺ: نحن قومك، فاعفُ عنا، فأعلن النبي ﷺ العفو العام قائلا: إن مَن دخل الكعبة فهو آمن، ومَن دخل بيت أبي سفيان فهو آمن، ومَن أغلق عليه بابه فهو آمن. فكاد قلب بلال يحترق حسرةً على ذلك، ولكن كيف يمكن للرسول ﷺ ألا يراعي مشاعر صحابيه الوفيّ مع أنه كان يراعي مشاعر أعدائه، فأضاف إلى الأحكام الثلاثة حكمًا آخر وأعلن أن مَن جاء تحت راية بلال فهو آمن أيضا. وهكذا نسب العفو إلى بلال، وكأنه ﷺ قال: إن هذا العفو العام ليس مني، وإنما هو من بلال، وهكذا أثلج صدر بلال ومنحه ذلك الشرف العظيم بقوله بأن الذين كانوا يظلمون بلالاً لن يُعفى عنهم إلا إذا لجأوا إلى ملاذه. وهكذا فإن الرسول ﷺ قد انتقم من أجل بلال، كما عفا عن أهل مكة أيضا. لقد راعى مشاعر بلال ؓ، كما راعى مشاعر أهل مكة وعفا عنهم. وبتعبير آخر؛ قد رفع النبي ﷺ مكانة بلال بهذا الانتقام، كما أنقذ أهل مكة من العقاب.

٢١: أما مثال الشجاعة والتمسك بالتوحيد الذي ضربه الرسول ﷺ في غزوة حنين فلم يسبق له نظير عند الأنبياء الآخرين. كان النبي ﷺ محاصرا بين أربعة آلاف من الأعداء، وكان مئات الرماة يصوّبون سهامهم إليه من يمينه وشماله، وكان جيش المسلمين مشتّتًا، ولكنه لم يبالِ بالعدو في هذا الموطن الحرج مطلقا، وأخذ يتقدم نحو العدو. فقال أبو بكر ﵁: يا رسول الله، لا تتقدَّم، بل علينا أن ننسحب قليلاً ونجمع أصحابنا، ثم نغير على العدو، فرد عليه الرسول ﷺ: اتركْ زمام حصاني، ثم حثّه على العدْو وهو يرتجز عاليًا: أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب (البخاري: كتاب المغازي). فكأنه ﷺ أعلن: لا تظنّوا، بسبب تقدُّمي نحو العدوّ غير مبالٍ بسيوفه وسهامه، أنني قد اتصفت بصفات الله تعالى. كلا، بل أنا بشرٌ مثلكم، فأنا ابن عبد المطلب. بتعبير آخر، إنه ﷺ قد دلّل على شجاعته النادرة، كما دلّل على تمسكه بوحدانية الله.

٢٢: وهناك مثال آخر على شجاعة النبي ﷺ النادرة. يقول الصحابة بأنهم كانوا يتلقون الأخبار أن جيوش قيصر قادمة للهجوم على المسلمين في المدينة، وكانوا يقومون بحراستها كل ليلة. فسمعوا أصواتًا في إحدى الليالي، فخرج بعضهم من بيوتهم، واجتمع بعضهم في المسجد النبوي، وبعضهم في الميدان، وركض بعضهم في مختلف ضواحي المدينة لاستطلاع الخبر، فوجدوا الرسول ﷺ قادمًا على فرس، وقال لهم: لقد سمعت أصواتا فخرجت لتفقد الأوضاع، لا تُراعوا، فليس هناك أي خطر.

انظر كيف أن النبي ﷺ يخرج وحده من المدينة في جوف الليل، وبينما صحابته ما زالوا يفكّرون ماذا يفعلون، رجع ﷺ وأخبرهم ألا خطر عليهم، فلا داعي للخوف (البخاري: كتاب الأدب).

٢٣: وكان ﷺ شديد الاهتمام بأداء حقوق الناس، فقد ورد أنه أنهى الصلاة ذات مرة، ثم ما لبث أن دخل بيته مسرعًا كأنه يتخطى رقاب الناس كما قال الصحابة، ثم رجع بعد قليل وفي يده دينار، وقال: كنا نقسم الغنائم والصدقات، فسقط هذا الدينار ونسيته، فتذكرت خلال الصلاة أنني لم أوزعه، فلذلك سارعتُ

إلى البيت حتى لا أنساه مرة أخرى، فيضيع حقٌّ لعباد الله (البخاري، كتاب الزكاة).

كذلك ورد في التاريخ أنه جيء بتمر الزكاة إلى النبي ﷺ، فذهب الحسن ﷺ وهو ابن ثلاثة أعوام، وأخذ تمرة ووضعها في فيه، فقال له النبي ﷺ: أَلْقِها. وكيف يمكن للطفل الصغير أن يلقي تمرة حلوة؟ فأخرجها الرسول ﷺ مِن فمه بإصبعه، وقال: هذا ليس من حقك، بل هو حق الآخرين (البخاري، كتاب الزكاة).

٢٤: ومما يدل على عظيم عاطفة شكره وامتنانه ﷺ أنه خاض حربًا ضد قبيلة طيّ، فأسرهم جميعا بعد أن هزمهم. فلما عُرضوا عليه تقدمت إليه ﷺ فتاة فقالت له: أتعرف من أنا؟ قال ﷺ: لا. قالت: أنا ابنة ذلك الكريم الذي ذاع صيته في الجزيرة العربية؛ فأنا ابنة حاتم الطائي. فقال النبي ﷺ: كان أبوك يحسن إلى الناس، فلا يليق بأن تبقى بنته في الأسر، فأطلق سراحها. فقالت: يا رسول الله، إني لا أرضى أن أعيش حرة وقبيلتي يعيشون أسرى. فقال ﷺ: ها إني أطلقهم أحرارًا. ثم استشفعت لأخيها الهارب، فقَبِلَ النبي ﷺ شفاعتها فيه، وعفا عنه (السيرة الحلبية: ج ٣ ص ٢٢٣-٢٢٤ سرية علي بن أبي طالب).

ما كانت لحاتم الطائي أيّة منّة على الإسلام، وإنما كان شهيرًا بكرمه وسخائه في منطقته، ولم يُسْدِ أي معروف لرسول الله ولا لجماعته، بل حاربْته قبيلته فهُزموا وأُسروا، ولكن النبي ﷺ قد عفا عنهم جميعا لأنه كان يحسن إلى الفقراء، وأعلن ﷺ أنه لا يليق بنا أن نأسر قوم هذا الإنسان الذي كان يحسن إلى الفقراء في حياته.

٢٥: أما ضيافته ﷺ، فذات مرة نزل عنده يهودي ضيفا، وقال: جئتك لأسمع منك عن الإسلام. فذهب به النبي ﷺ إلى بيته وقدّم له حقّ الضيافة. فمكث عنده يومًا أو يومين، فظلّ ﷺ يبلّغه دعوة الإسلام. ثم تسّللَ اليهودي فجأة بعد أن تبرّزَ في فراشه، إذ لم تكن في تلك الأيام أسرَّة. وفي الصباح أخذ النبي ﷺ يغسل الفراش بيده، فبدأت المرأة التي تريق الماء على الفراش -حين كان ﷺ يغسله- تسبّ اليهودي وتدعو عليه، فقال لها النبي ﷺ: لا تفعلي هذا، فلعله قد أصيبَ بالإسهال.

٢٦: لقد أصبح النبي ﷺ مِلكًا، ومع ذلك فقد آثر الفقر. فذات مرة جاءته فاطمة -رضي الله عنها- وأرته يديها التي عليها آثار الثآليل لكثرة الطحن بالرحى، وقالت: يا رسول الله، أقوم بكل أعمال البيت وحدي من طحن وطبخ وطهي وتربية أطفال صغار، فأعطِني خادمًا يساعدني. و لم يكن وقتها نظام معين للسجناء من أسرى الحرب، بل كانوا يُوزَّعون على الناس، فكانت فاطمة -رضي الله عنها- تريد أن يعطيها النبي ﷺ أسيرًا منهم ليساعدها في أعمال البيت، ولكنه ﷺ أجابها: يا ابنتي، لماذا تتضايقين من مشاقّ الحياة؟ عليك بذكر الله تعالى بعد كل صلاة، فسيكشف عنك كل هذه الشدائد بفضله. وهكذا قد جبَر خاطرها مؤثِرًا الفقر على عيشة البذخ كالملوك (البخاري: كتاب النفقات).

٢٧: ومما يدل على تقواه ﷺ النادرة أنه لما اقتربت وفاته قال لصحابته يوما: مهما كان الإنسان عظيما فهو عرضة للخطأ، والله تعالى يعاقب على الإثم حتمًا، فأخاف أن أكون قد آذيت أحدا منكم فأُعَدَّ مجرما عند الله تعالى، فإذا كنت قد آذيت أحدًا منكم فلينتقمْ مني الآن. وكان الصحابة يحبّون النبي ﷺ حبًا يفوق التصور، فطار صوابهم بسماع قوله هذا، غير أن أحدهم تقدّمَ إليه بهدوء وقال: يا رسول الله، نعمْ، لقد آذيتني ذات مرة حين كنتَ تسوّي الصفوف، فأصبتَني بمرفقك من ورائي، وأريد أن آخذ منك ثأري. فقال ﷺ: تعال. واحمرّت عيون الصحابة غيظا ولولا الرسول ﷺ كادوا يمزّقونه إربا. ولكن الصحابيَّ لم يبالِ بهم، وقال: يا رسول الله، كنتُ مكشوف الظهر حين آذيتني، أما أنت فتلبس قميصًا، فقال ﷺ: فارفعْ قميصي، فرفع قميص النبي ﷺ وقبّل ظهره في منتهى الحب والعشق. ثم قال باكيًا: يا رسول الله، من ذا الذي يفكّر في الانتقام منك؟ إنما وجدتُ فرصةً للتعبير عن حبي لك فانتهزتُها، فلعلّي لا ألقاك بعدها. فلما رأى الصحابة هذا المشهد زال غضبهم وغبطوه قائلين: ليتنا فكّرنا مثلما فكّر، لنعبر عن حبنا له ﷺ! (المعجم الكبير للطبراني: ج ٣ ص ٥٩)

فالتقوى هي التي جعلت النبي ﷺ يقول -رغم ما قدَّمه من خدمات عظيمة لصحابته- بأنني إذا كنتُ قد أصبت أحدا منكم بأي أذى، فلينتقمْ مني الآن.

٢٨: وقد بلغ من تواضعه ﷺ أنه كان ينهى الناس عن القيام عند مجيئه تعظيمًا له، وقال: هذه هي عادة الفرس، وأنا لستُ بملِك، إنما جعلني الله نبيًا (سنن أبي داود، كتاب الأدب).

ومما يدلّ على تواضعه ﷺ الجمّ أنه ذهب مرة لعيادة أنصاري، وعندما أراد العودة من عنده قدَّم له الأنصاري فرسًا يركبه إلى البيت، وأمر ابنه أن يرافقه ﷺ في العودة لكي لا يجفل منه الفرس ولكي يقوم بحراسته في الطريق، ويرجع بالحصان لعله لن يجد مَن يبعثه معه. وبعد قليل رجع ابنه، فقال له: لقد بعثتُك مع النبي ﷺ فلماذا رجعتَ! فقال ابنه: لقد رجعتُ مضطرا، لأن النبي ﷺ أمرني بالركوب وراءه، فاعتذرت إليه لأن فيه إساءة إليه ﷺ، فقال لي: إذن، فإني لا أحتمل أن تمشي وأنا راكب، فإما أن تركب معي أو ترجع، فرجعتُ.

ومما يدل على حبّه ﷺ الشديد لصحابته وتقديره لمشاعرهم وأحاسيسهم، أنه لقي مرة أحد صحابته الفقراء العمّال في السوق، وكان دميم الشكل وقد تصبّب عرقا بسبب مشقته في العمل وقد علتْ وجهه أمارات الحزن، فذهب إليه النبي ﷺ مِن ورائه وغطّى عينيه بيديه كما يفعل الصغار أثناء لعبتهم، فأدرك الصحابي أن هذا ليس إلا النبي ﷺ، فمن ذا الذي يمكن أن يلاطف فقيرًا دميم الشكل مُغبرًّا يتصبب عرقًا سوى النبي ﷺ؟ ثم إنه لمس جسد الرسول ﷺ بيده ليتأكد أنه هو، إذ كان جسده المبارك ناعما. فثارت عاطفة حبه للنبي ﷺ وأخذ يلامس جسده بجسده المبارك، فلما رأى النبي ﷺ سروره ورضاه قال: أيها الناس، إني أبيع عبدي هذا، فمن يشتريه؟ فقال الصحابي: يا رسول الله، إذنْ ستجدني كاسدًا! فقال ﷺ: ولكنك غالي الثمن عند الله ورسوله. (مسند أحمد، مسند أنس بن مالك رضي الله عنه)

وهناك حادث مماثل لأبي هريرة رضي الله عنه. كان يسكن في المسجد لكي لا يفوته شيء من كلام النبي ﷺ، وكان لا يكسب شيئًا من الدنيا، فكان أخوه يرسل له الطعام إلى المسجد، ولكنه سئم من ذلك بعد فترة وتوقّفَ عن إطعامه، فكان أبو هريرة رضي الله عنه يضطرّ للفاقة أيامًا في بعض الأحيان، فتسوء حالته من شدة الجوع. واشتد به الجوع ذات يوم، فوقف في باب المسجد وفكّر أنه سيمرّ من هنا الصحابة

فيسألهم عن معنى الآية التي تحض على إطعام الفقير، فلعل بعضهم يطعمه شيئًا. فمرّ أبو بكر ﵁، فقال له أبو هريرة: ما معنى قوله تعالى ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾(الحشر:١٠)، قال: معناه أنهم يهتمون بالآخرين، حتى إنهم يجوعون ليطعموا غيرهم، ثم ذهب أبو بكر. ثم مرّ به عمر ﵁ فوجّه إليه السؤال نفسه، فأجابه بالجواب نفسه وذهب. فغضب أبو هريرة وقال: أيظنّان أنهما أكثرُ فهمًا للقرآن مني؟ كنت أظن أنهما سيدركان برؤية وجهي أني جائع فيطعماني، لكنهما فسّرا لي الآية وذهبا! وبينما هو واقف عاتبًا عليهما، سمع من ورائه صوتًا لطيفا يقول له: أجائعٌ أنت يا أبا هريرة؟ وكان صاحب الصوت هو الرسول ﷺ. مما يعني أن الرسول ﷺ قد أدرك بسماع صوت أبي هريرة ما لم يدركه أبو بكر وعمر برؤية وجهه. فالتفت أبو هريرة إلى الوراء قال: نعمْ، يا رسول الله، إن بي جوعًا قارصًا. فقال ﷺ: إني جائع أيضًا، وقد بعث بعض أصحابنا إناء حليب، فتعال نشربه. ففرح أبو هريرة وتبِعه، فقال له النبي ﷺ: اذهبْ إلى المسجد، فلعل هناك أناسًا جياعا فأْتِ بهم. ويقول أبو هريرة: فتأسفت كثيرا بأن الحليب قليل، فكم من شخص سيكفي هذا القدر من الحليب؟ غير أني لم أجد بُدًّا من طاعته ﷺ، فذهبت ووجدت في المسجد ستة أشخاص، فناديتهم وأنا أتأسف وأفكر ماذا يحدث الآن، إذ كنت أظن من قبل أني سأشرب الحليب وحدي وأشبع، أما الآن فجاء هؤلاء كلهم فلن أجد من الحليب إلا جرعة أو جرعتين. ولما وصلْنا إلى النبي ﷺ ظننت أنه سيناولني الحليب أولاً لأن بي جوعا شديدا، ولكنه حمل الإناء وناولَه أحدهم، ففقدتُ الأمل نهائيا. فلما شرب، قال له النبي ﷺ: اشربْ حتى الشبع. فشرب المزيد وقال: لقد شبعت ولا أستطيع شرب المزيد. فناول النبي ﷺ القدح شخصًا آخر، ثم ثالثا ثم رابعا، وقلت في نفسي: لن يبقى لي الآن شيء منه. فلما جاء دوري وجدتُ الإناء مليئا كما هو -علمًا أن القدح كان كبيرا، ثم إن الله تعالى يضع البركة في يد الأنبياء- فقال الرسول ﷺ يا أبا هريرة، اشرب الآن. فشربت حتى شبعت. فقال ﷺ: أبو هريرة، اشربْ. فشربتُ ثانية، فقال ﷺ للمرة

الثالثة: اشربْ. فقلت: يا رسول الله، كاد الحليب يتفجر الآن من أناملي. فأخذ مني النبي ﷺ الإناء وشرب بعدنا نحن السبعة (البخاري، كتاب الرقاق).

هذا الحادث أيضا يكشف لنا مدى حرص النبي ﷺ على جبر خاطر صحابته وخدمتهم.

٣٠: ومما يدل على ما كان يكنّ في قلبه ﷺ من كرهٍ شديد تجاه الشرك، أن عائشة -رضي الله عنها- تروي أنه لما حانت منيّته ﷺ أخذ يتقلب في الفراش في قلق ويقول: "لعَن الله اليهودَ والنصارى، اتخَذوا قبور أنبيائهم مساجد" (البخاري: كتاب الجنائز، باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور). والواضح أنه ﷺ لم يُرِدْ بقوله هذا مجرد توجيه اللوم إلى اليهود والنصارى، إنما أراد تنبيه أمته أنه يكره الشرك جدًا حتى إنه يلعن فاعليه وقت مماته، لكي لا يتخذوا قبره بعده مسجدا. والواقع أن من نتائج قلق النبي ﷺ هذا أن الله تعالى قد نجّى المسلمين مِن اتخاذ قبره المبارك سببًا للشرك إلى الأبد، رغم تسرُّب آلاف المفاسد فيهم. لا شك أن المسلمين قد وقعوا في الشرك فيما يتعلق بالعقائد، إذ يؤمن بعضهم أن النبي ﷺ عالم الغيب وأنه كان يحيي الأموات الماديين، إلا أن الله تعالى قد حفِظ قبره ﷺ من الشرك للأبد.

لو أخذنا في الاعتبار بشكل مجمل ما ذكرتُه آنفًا من أحداث ووقائع، بل لو أخذنا كل حادث منفردا أيضا، فلا يبقى هناك شبهة في أن نبينا ﷺ هو أفضل الأنبياء كلهم، ولا مناص للإنسان من الإيمان بأنه أفضل النبيين حقًّا. بل أقول: حتى لو غضضنا الطرف عن كل هذه الأمور، فهناك أمر مؤكد بأنه لم يوجد بين الأنبياء أحدٌ له وجود تاريخي سوى النبي ﷺ. فقد كانت حياته ﷺ كلها صفحة مفتوحة أمام العالم، ولا توجد ثانية واحدة من حياته منذ ولادته إلى وفاته إلا وهي مكشوفة بين يدي الدنيا. متى حفظ التاريخ حياة الأنبياء الآخرين هكذا؟ خذوا كتاب موسى عليه السلام مثلا، فليس فيه أي ذكر لأحواله في بيته، وكيف كانت معاملته مع زوجته وأولاده وجيرانه، أما الرسول ﷺ فكل فعل من أفعاله وتصرف من تصرفاته حتى بُصاقه وقضاء حاجته، مسجل في التاريخ. فلم يخف على الدنيا

شيء من أفعاله داخل بيته أو خارجه. لقد روت زوجاته في الأحاديث كيف كان نومه ﷺ واستيقاظه وتهجُّده وأكله وشربه ولباسه وفراشه واغتساله وملاطفته نساءه حتى علاقاته الخاصة معهن، ومعاملته مع باقي أهل البيت والأطفال. فما من عمل من أعماله ولا لحظة من لحظات حياته إلا هو أمام أعين الناس. هل هناك نبيّ سواه نجد كلّ لحظة من حياته مكشوفة للعالم؟ كلا، ليس هناك نبي كهذا. إن ذكْر الأحداث الهامة من حياة نبي ليس دليلاً على أن حياته كلها كانت طاهرة، وإنما يُعرف ذلك إذا كانت جميع أحداث حياته معروفة للناس. ولكن ليس في العالم نبي سوى نبينا ﷺ كانت حياته كلها معروفة للعالم. فكأن النبي ﷺ كان يمرّ داخل ممرّ زجاجي، وكان العالم كله ينظر إليه. يمكن للمرء أن يعامل الناسَ رياءً ساعتين أو أربعًا، ولكن لا يمكنه ذلك خلال ٢٤ ساعة. ويمكنه أن يتظاهر بالصلاح خلال يوم واحد، ولكن من المحال أن يخفي رياءه هذا شهورا وسنوات. أما النبي ﷺ فأحداث حياته كلها معروفة للعالم كما هي، فكانت زوجاته في بيته بمنزلة الجواسيس عليه، فأخبرن كيف كان يغتسل ويأكل ويلبس ويلاطفهن، وكيف كان يعامل الأطفال والجيران والأقارب والنسوة اللواتي يحضرن إلى بيته. فما مِن عمل قام به داخل بيته إلا وذكرنه للآخرين، أما إذا خرج من بيته فكان هناك صحابته - مثل أبي هريرة- الذين أبوا إلا أن يتتبّعوه في كل مكان ويراقبوا كل عمل له ويذكروه للآخرين. فما من قول قاله أو عمل فعله أو سؤال وُجِّه إليه، أو تصرّفٍ ليّن أو قاسٍ قام به، أو معاملة قام بها، أو شيء سُئل إياه، أو عطاء أعطاه، أو صدقة جمعها، إلا وكان الصحابة يحفظونه ثم يحدّثون به الآخرين. فما بقي جانب من جوانب حياته ﷺ إلا وقد أشاعوه.

أما عيسى العَلَيْهِ السَّلامُ فيقال أنه عاش ٣٣ سنة فقط، إلا أن أحداث حياته الـ٣٣ سنة أيضا لم تُذكر في الإنجيل كاملة، بل تجد هناك فراغًا وانقطاعًا يمتد شهورا بل سنوات. كذلك هو حال موسى وإيليّا وسليمان وزكريا وغيرهم من الأنبياء - عليهم السلام- المذكورين في القرآن أو التوراة. فليس بينهم نبيٌّ حفِظ التاريخ أحداث حياته. أما الأنبياء الذين لم يرد ذكرهم في التوراة أو القرآن، ولكن يتضح

من أحوالهم أنهم كانوا رسل الله في عصورهم، مثل كرشنا ورام تشندر وبوذا وزرادشت -عليهم السلام- فلا نجد أحداث حياهم كاملة. أما نبينا ﷺ فكل فعل من أفعاله قد ظهر وتبين وانكشف للعالم كما لو تعرِض على أحد معطفك مِن خارجه ثم تمزِّقه ليرى ما في طيّاته من قماش وغيره أيضا.

باختصار، كان الرسول ﷺ مزكًّى أكبر، ولذلك كان أكبر المزكِّين. فكل المطالب التي ذكرها إبراهيم عليه السلام في دعائه لهذا المبعوث -والتي أخبرنا الله في الآية ١٥٢ من سورة البقرة أنه قد حققها له استجابة لدعائه- قد أخبر الله الآن في سورة الكوثر أنه لم يستجب لدعائه في حقه ﷺ فحسب، بل حققه بشكل خارق منقطع النظير؛ فأعطاه كوثرا، فوهب له ﷺ كل شيء بأكثر مما سأله إبراهيم عليه السلام من أجله ﷺ. اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد وبارك وسلم إنك حميد مجيد.

لقد ذكرت من قبل أن من معاني الكوثر الرجلَ الكثير العطاء والخير. وهذا المعنى مذكور في "المفردات في غريب القرآن"، وهو مِن أوثق القواميس التي تشرح مفردات القرآن، وقد ألَّفه العلاّمة أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني المعروف عادة بالإمام الراغب، ويذكره بعض المؤرخين باسم الأصفهاني فقط. وإني لا أقتبس من كتابه في تفسيري إلا نادرا، لأننا نستهدف في منشوراتنا دحْضَ التأثير المسموم للمستشرقين الذين لا يثقون بالقواميس ذات الطابع التفسيري، ولذلك أقتبس من القواميس ذات الطابع الأدبي خالصةً أو من مؤلفات المسيحيين أنفسهم حتى لا يبقى للمستشرقين أو المتأثرين بهم مهرب من القبول. ولكن المعنى الذي أذكره هنا خاص بالمسلمين، ولذلك أقتبسه من "المفردات" خاصة، مع أن هذا المعنى ليس خاصًا بالمفردات، بل قد ورد في أمهات القواميس مثل "تاج العروس" وغيره، كما يؤيده فئة الأدباء أيضا كل التأييد.

يقول الإمام الراغب في مفرداته: "﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ قيل: هو نهرٌ في الجنة يتشعب منه الأنهار. وقيل: بل هو الخير العظيم الذي أعطاه النبي ﷺ. وقد يقال للرجل السخيّ كوثر."

وقد ورد في "أقرب الموارد"، إضافةً إلى معاني الكوثر التي أوردتُـه في البداية: "الكوثرُ: السيدُ الكثيرُ الخير؛ الرجلُ الكثيرُ العطاء والخيرِ."

فهذا هو المعنى الثالث للكوثر الذي اعترف به المفسرون وأصحاب القواميس التي تشرح مفردات القرآن، بالإضافة إلى المعنى المذكور من قبل وهو نهر في الجنة.

إذن، فمن معاني قوله تعالى ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾: إنا أعطيناك رجلا كثير العطاء والخير. وعليه، فنستنتج من قوله تعالى ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ ومِن قوله تعالى ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ -وسيأتي شرحه لاحقًا- أن هذا الرجل الذي يُعطاه النبيُّ ﷺ سيكون ابنًا روحانيا له، لأن الله تعالى لم يقل هنا إن رجلا سيظهر في أمته ﷺ، بل قال: إِنَّا أَعْطَيْنَاك هذا الرجل. وكان للنبي ﷺ اسمان من حيث رسالته: أحمد ومحمد؛ وإذا ما وضعنا اسم "أحمد" مكان ضمير الخطاب "ك" في هذه الآية فسيكون تقديرها كالتالي: "إنا أعطينا أحمدَ الكوثرَ، ولأن ما يُعطاه المرء يصبح غلامًا وعبدًا له، فكأنما يقول الله تعالى هنا: سيأتي إلى الدنيا غلامُ أحمدَ ﷺ الذي يكون كثيرَ العطاء والخير. فكون هذا الموعود من غلمان وخدام الرسول ﷺ ظاهرٌ من قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ﴾، لأن هذا العطاء يمكن أن يفسَّر بطريقين: إما إن يكون هذا ابنًا مِن صلبه، أو يكون ابنًا روحانيا له.. أي غلاما وخادمًا له؛ ولما كانت الآية ٤١ من سورة الأحزاب تنفي كون أحد ابنًا للرسول ﷺ مِن صُلْبه، فثبت أن الإشارة هنا إلى ابنه الروحاني. والآية التالية أيضا تبين هذا المعنى وتؤكده، حيث قال الله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾.. أي سنهب لك غلامَ أحمدَ، فعليك أن تهتمّ بالدعاء والتضحية. ولا شك أن الدعاء والتضحية يتمّان دائمًا عند ولادة طفل، إذ يأمرنا الإسلام عند ولادة طفل بحلْقِ شَعْره، وذبْح كبش عقيقةً له، وإخراج شيء من الصدقة. فثبت أن المرء يقوم بالدعاء والتضحية عند ولادة طفل له؛ وعليه فقوله تعالى ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ يكشف أن الحديث هنا عن ابنٍ روحانيّ.

أي أن محمدا ﷺ سيوهب رجلاً يكون من أبنائه الروحانيين، لا من خدامه الماديين فقط، إذ ليس ضروريا أن يكون الخادم تابعًا لطريقة سيده أيضا. فمثلاً

هناك كثير من المسلمين الذين عندهم خدمٌ من الهندوس والنصارى، بل وقد قال الرسول ﷺ نفسه: "إِنَّ اللَّهَ لَيُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ" (البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب إن الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر)، والتأييد هنا ليس بروحاني بل مادي من قبيل المساعدة بالمال أو القتال، إذ من المحال أن يختار اللهُ الفَجَرَةَ لتأييد دينه روحانيًا، ويترك المتدينين حقًا الذين يستحقون هذا الشرف. فلأن الله تعالى يبشّر هنا نبيّه ﷺ بأن هذا الرجل الآتي لن يكون خادمًا له فحسب، بل يكون ابنًا روحانيا له، فقال: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾.. أي عليك أن تقوم بالدعاء وتنحر الأضاحي شكرًا لله تعالى على هذا الابن الروحاني، كما يدعو الناس ربهم ويذبحون الأضاحي لإقامة ولائم العقيقة عند ولادة ابن عندهم.

هذه الآية ردٌّ على الذين يقولون بأن الذي وُعد ببعثته لإصلاح هذه الأمة لا يكون فردًا منها، بل يأتي من خارجها؛ ذلك أن هذه الآية تؤكد أن الرجل المذكور هنا سيكون من هذه الأمة لا من خارجها. لقد انتشرت عند المسلمين فكرة خاطئة أن الرجل الذي وردت الأنباء عن بعثته في الأمة الإسلامية في الزمن الأخير هو المسيح الناصري عليه السلام، مع أنه لو كان هذا الموعود هو عيسى عليه السلام، الذي هو فرد من أمة موسى، فكان ينبغي أن يقول الله هنا: (إنا أعطينا موسى الكوثرَ)، بدلاً من قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾. فقد تبين من هنا أن المراد من إعطاء الله محمدًا ﷺ الكوثرَ أنه سيهب له ﷺ ابنًا روحانيا، إذ إن المرء يقوم بالعقيقة والأضاحي والأدعية عند ولادة ابنه وليس ابن غيره.

يمكن أن يثار على هذا الاستدلال الاعتراض التالي: إذا كان قوله تعالى ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ إشارةً إلى بعثة موعود في الأمة، فلماذا لا نقول إن هذا الموعود هو غير المسيح الموعود؟ أعني لماذا لا نقول: إن هذه النبوءة تتحدث عن شخص آخر، لا عن الموعود الذي يُبعَث حاملاً اسم عيسى؟

والجواب أولاً: إن في أحاديث الرسول ﷺ نبوءات واضحة وصريحة عن بعثة المسيح والمهدي، حيث أخبر ﷺ أنه سيولد في الزمن الأخير مسيح ومهدي يقوم بإصلاح الأمة. وهذه النبوءات إما أنها تشير إلى بعثة شخص واحد أو شخصيتين

تظهران في زمن واحد، أما نحن فنرى أنها نبوءة عن شخص واحد يكون مسيحًا ومهديًا أيضا، أما عامة المسلمين فيرون أنهما شخصيتان تظهران في زمن واحد، أحدهما المسيح والآخر المهدي. وسواء أخذنا بمفهومهم أو بمفهومنا إلا أنه لا يسع أحدًا أن ينكر أنه لم ترِدْ في المصادر الإسلامية نبوءة عظيمة للرسول ﷺ عن بعثة شخص في الإسلام سوى المسيح والمهدي. فثبت من هنا أن الشخص الذي يذكره القرآن هنا هو إما أحد هذين الشخصيتين الموعودتين بحسب اعتقاد عامة المسلمين، أو هو نفس الشخص الموعود الذي يكون المهدي والمسيح في وقت واحد بحسب عقيدتنا. من المستحيل أن نصدّق أن تكون هذه النبوءة النبوية العظيمة عن شخصٍ نكرةً، فإن الرسول ﷺ قد عظَّم هذه النبوءة جدًّا حتى قال إن جميع أنبياء الله تعالى منذ آدم قد أنذروا عن هذه الفتنة الكبرى التي تظهر في آخر الزمن (البخاري: كتاب الفتن، باب ذكر الدجال). والواضح أنه كلما كبُرت الفتنة عَظُم شأن الذي يُبعث للقضاء عليها.

باختصار، قد ركّز النبي ﷺ جدًّا على المبعوث الذي يظهر في الزمن الأخير، والأحاديث مليئة بالأنباء عن ظهوره. لو قلنا إن المراد من الكوثر شخصًا نكرة وهو غير المهدي المسيح، لكان معنى ذلك أن الله تعالى صامت عن المبعوث الذي يخبر النبي ﷺ عن بعثته بهذا التأكيد، والنبيُّ صامت عن الشخص الذي يخبر الله عنه بكلمة الكوثر. وهذا لا يقبله العقل. إن النبي ﷺ إنما يركّز على ما ركّز الله عليه، وإن الله تعالى إنما يؤيد ذلك الخبر الذي أدلى به رسوله ﷺ. فالحق أن النبوءة الموجودة في لفظ الكوثر إنما تتعلق بالشخصية التي سُمّيت مسيحا ومهديا.

وثانيًا: إن ما يدعم هذا الاستنتاج هو أن دعاء إبراهيم عليه السلام - الوارد في الآية ١٣٠ من سورة البقرة، والذي أجاب الله عليه هنا بكلمة الكوثر- يقول: ربِّ ابعثْ في أبناء إسماعيل مَن يعلّمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم. وقام إبراهيم بهذا الدعاء بحق إسماعيل مقابل الدعاء الذي قام به بحق ابنه الآخر إسحاق، وقد ورد ذكره في التوراة، وببركة هذا الدعاء قد بدأت في نسل إسحاق سلسلةُ الأنبياء التي تسمى السلسلة الموسوية التي كان موسى عليه السلام أول حلقة فيها، وعيسى آخرها.

والآن كان ضروريا من أجل التوازن والتشابه بين إسماعيل وإسحاق أن يُبعث في ذرية إسماعيل شخص يكون مثيلا لموسى وشخصٌ آخر يكون مثيلا لعيسى، بل كان يجب أن يكونا أفضل من مثيليهما، لكون تضحية إسماعيل أعظمَ ولكون الوعود المقطوعة بشأنه أعظمَ. ومن أجل ذلك قد بعث الله تعالى في ذرية إسماعيل محمدا ﷺ الذي هو مثيل لموسى، ولكنه أعظم منه شأنًا. ثم بشّر الله على لسانه ﷺ ببعثة مأمور آخر يحمل اسم المسيح -مثلما أُطلقَ اسم موسى على محمد ﷺ في القرآن الكريم-• حتى قال النبي ﷺ عن هذا الموعود: كيف تهلك أمة أنا في أوّلها وعيسى ابن مريم في آخرها (كنز العمال، ج١٤ رقم ٣٨٦٨٢)، مما يعني أن ما أُعطيتْه السلسلةُ الموسوية التي جرتْ في ذرية إسحاق، قد أُعطيه النبي ﷺ أيضًا، وهكذا تمت المشابهة التامة بين سلسلتي بني إسماعيل وبني إسحاق، كما ثبت فضل بني إسماعيل على بني إسحاق أيضا.

باختصار، نتيجةً لدعاء إبراهيم بحقّ ذرّيّة إسحاق، قد بدأت السلسلة الموسوية التي أسسها بموسى وانتهت بعيسى، كذلك فببركة دعاء إبراهيم بحق ذرية إسماعيل بدأت السلسلة المحمدية التي أسسها محمد ﷺ وأُنبئَ عن بعثة المسيح الثاني (أي المسيح الموعود) آخرها، لكي تكتمل المماثلة بين السلسلتين.

باختصار، فالمراد من خبرِ إعطاء غلامٍ أو ابن روحاني كثير الخير والعطاءِ هو أن هذه الحلقة الأخيرة من هذه السلسلة لا بد أن تكتمل -أي لا بد أن يُبعث المسيح الموعود- لتتمّ المشابهة بين السلسلة المحمدية والسلسلة الموسوية، بل لا بد أن يكون الموعود الأخير من السلسلة المحمدية أعظم شأنا وأعلى مكانةً وأدعى للمسرّة وأحسن مصيرا من الموعود الأخير من السلسلة الموسوية.

• يعني حضرته رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قد سُمي مثيلاً لموسى عليه السلام في القرآن الكريم، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولا﴾(المزمل:١٦) (المترجم)

ثالثًا: ومما يدعم هذا الاستنتاجَ أن هذه الآية كما تنبأت عن رجل معطاء كثير الصدقة والسخاء، كذلك نجد في كلام الرسول ﷺ نبوءة عن بعثة شخص بهذه الصفة. فالحق أن الشخص المذكور في كلام النبي ﷺ وفي هذه الآية شخصية واحدة؛ لأنه إذا كانت النبوءتان عن سلسلة واحدة وكانت العلامات المذكورة فيهما متشابهة، وعن زمن واحد، فلا بد أن يكون المشار إليه شخصا واحدا. والنبوءة التي أدلى بها الرسول ﷺ تقول: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلاً فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ وَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ وَيَفِيضَ الْمَالُ حَتَّى لا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ" (البخاري: كتاب البيوع، باب قتل الخنزير). فكلمات هذا الحديث تبين أن الرسول ﷺ يخبر هنا أن المسيح الذي يبعث في أمته في الزمن الأخير سيوزع الأموال على الناس. ولو وضعتَ قوله ﷺ: "يفيض المال" إزاء معنى الكوثر، لوجدتهما متشابهين.،فقوله: "يفيض المال"، والمعنى: "الرجلُ الكثيرُ العطاءِ والخيرِ" يشير في الواقع إلى شخصية واحدة. وحيث إن نبوءة الرسول ﷺ قد قامت بتحديد هذا الشخص الموعود، فلا مناص لنا من تفسير النبوءة الواردة في سورة الكوثر على ضوء التوضيح النبوي. إذن، فلسنا محقّين في اعتبار المسيح الموعود مصداقا للنبوءة الواردة في سورة الكوثر بناءً على التوضيح النبوي فحسب، بل ليس أمامنا خيار آخر؛ ذلك أن الرسول ﷺ مهبط وحي القرآن، وهو الأحق والأولى بتفسيره، وما دام قد وصف المسيحَ الذي يظهر في الأمة في آخر الزمان بأنه سيفيض المال، فلا بد من القول بأن الابن الروحاني -الكثير الخير والعطاء الذي أُخبر عنه في كلمة الكوثر- هو المسيح المحمدي نفسه.

لعل قائلا يقول هنا: هل يمكن أن يوزّع أحد الأموال على الناس ولا يقبلها أحد؟

والجواب: أن هذه النبوءة القرآنية قد ذكرتْ بحق هذا الموعود لفْظَ الكوثر فقط.. أي كثير العطاء والسخاء.. أما الرسول ﷺ فقد ذكر في نبوءته أمرا إضافيا بحق هذا الموعود؛ فأخبر أن هذا السخيّ المِعطاء سيفيض المال ولا يقبله أحد. وهذا يعني أنه ﷺ كان يعلم أن بعض الجهلة -وليس العقلاء- سيفسرون النبوءة القرآنية

تفسيرًا خاطئا، فزاد ﷺ هذه الكلمة ليفهم الناس نبوءة سورة الكوثر مع هذا الشرح، حتى لا يخطئوا في فهمها. ذلك أن الأموال التي يرفضها الناس إنما هي روحانية لا مادية، فعبارة "لا يقبله أحد" جاءت شرحًا للكوثر، وكأنه ﷺ أوضح بأن هذا الرجل الموعود المعطاء لن يوزّع الذهب والفضة التي لا يرفضها الناس عادةً، بل سيوزّع الكنوز الروحانية التي يرفضها معظم الناس. وتشبيه العلوم الروحانية بالكنوز والأموال سنّةٌ قديمة في صحف الله ولغةِ الأنبياء؛ فقد ورد في الإنجيل أن أعداء المسيح عليه السلام جاءوه وقالوا له: إن المِلك الروماني يطلب منا الخراج، فهل نعطيه أم لا؟ فَقَالَ لَهُمْ المسيح: أرُوني ما يطالبكم به؟ فأرَوه العُمْلة الرومانية التي عليها نقش صورة القيصر، فقال: هذه لقيصر، "أَعْطُوا إِذًا لِقَيْصَرَ مَا لِقَيْصَرَ، وَللهِ مَا للهِ" (مَتَّى ٢٢: ٢١). فقد شبَّه المسيح عليه السلام هنا الروحانيةَ ومعارفها بالأموال والكنوز، وطالب قومَه بضريبة روحانية، ولكن أعداءه وخصومه ظنوا بسبب استخدامه اللغة المجازية أنه يطالبهم بدفع الضريبة الحكومية له، واعتبروه باغيًا على الدولة، فذهبوا إليه للتأكيد على ذلك ولتجريمه، وسألوه ما إذا يدفعون الخراج للحكومة الرومانية أم له، فتنبّهَ المسيح عليه السلام إلى نواياهم الشريرة، فشرح لهم الخراجَ الذي طالبهم به، وقال بأن هذه العملة عليها صورة القيصر، وهذه حقُّه هو، فكيف أطالبكم به؟ إنما أطالبكم بالمال الذي عليه نقش الملكوت السماوي.. أي بالتضحيات الروحانية والمعارف الروحانية. فثبت من هنا أن المسيح عليه السلام كان يستعمل لفظ المال والعملة بالمعنى الروحاني.

ومما يدل على عظمة بلاغة الرسول ﷺ وفصاحته أنه أيضًا تنبأَ عن مثيل للمسيح عليه السلام بلغة مجازية، كما كان يستعملها المسيح عليه السلام نفسه.

ونجد أن القرآن الكريم أيضا قد استعمل لفظ "الخزائن" لغير الثروة المادية، فقال: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ وَكَانَ الإِنْسَانُ قَتُورًا﴾(الإسراء:١٠١). علمًا أن الآيات التي قبْلها تتحدث عن أمور الدين ونزول كلام الله وبعثة الأنبياء، فالمراد الأول من الأموال والخزائن هنا هو كلام الله والمعارف الروحانية.

كذلك قال الله تعالى في معرض الحديث عن بعثة الرسول ﷺ: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ﴾(الطور:٣٨).. أي أن توزيع النعم والكمالات والأسرار الروحانية هو مما يخصّ الله وحده، وقد احتفظ ﷻ بخزائنها في قبضته و لم يضعها في أيديهم، فكيف يعترضون إذا تبوّأ محمد ﷺ هذا المقام العظيم؟ هل يملكون خزائن الله الروحانية فيعطوها من يشاءون ويحرموها من يشاءون؟

لقد تبين مما سبق أن العلوم الروحانية تسمى أموالا وخزائن في الصحف السماوية وكلام الأنبياء. والحق أن المعارف الروحانية هي الخزائن الحقيقية، فقد قال المسيح عليه السلام "لَيْسَ بِالْخُبْزِ وَحْدَهُ يَحْيَا الإِنْسَانُ، بَلْ بِكُلِّ كَلِمَةٍ تَخْرُجُ مِنْ فَمِ اللهِ" (مَتَّى ٤: ٤). فالمراد من نبوءة الكوثر ومن توزيع المسيح الموعود للكنوز أنه سوف يوزّع كنوز العلوم والمعارف، ولكن الناس سيرفضوها كما فعل الناس مع الأنبياء السابقين.

وقد ذكرنا في البداية أن من معاني الكوثر: الخير الكثير، والخيرُ يعني الإسلام والدين، وهناك وحي للمسيح الموعود عليه السلام: "الخير كله في القرآن"(سفينة نوح، الخزائن الروحانية ج١٩ ص ٢٧). فالذي يوزّع معارف القرآن إنما يوزّع الخير، وهذه هي مهمة المسيح الموعود كما ورد في الحديث. وقد قام المسيح الموعود عليه السلام بتوزيع الثروة القرآنية بلا حدود، ولكن المسلمين أنفسهم للأسف قد رفضوا هذه الخزائن لسوء حظهم، ناهيك أن يرفضها غيرهم. وأنّى لهؤلاء الرافضين أن يعرفوا عظمة هذه الكنوز؟ نحن الذين قبلنا هذه الكنوز، ونعرف قيمتها وعظمتها إذ إنها لا تُقدَّر بثمن. لقد تلّقينا هذه الثروة حتى امتلأت بها بيوتنا. فشَخْصي أنا دليل على ذلك؛ فإنني لم أتجاوز الابتدائية من ناحية العلوم المادية، إذ كنت أتعلم في مدرستنا الخاصة، فكانوا يرفِّعونني تلقائيًّا للصف التالي كل سنة، ثم فشلتُ في امتحان المتوسطة، ولكنهم رفَّعوني إلى الثانوية، وعندما دخلتُ امتحان الثانوية الحكومية انكشفت حقيقة دراستي، إذ لم أنجح إلا في العربية والأردية، ثم تركتُ الدراسة بعدها. مما يعني أن دراستي الظاهرة ليست بشيء، ومع ذلك لم يحدث قط أن أثار أحد أمامي اعتراضًا على القرآن الكريم ثم كان مصيره غير الخجل والندم. وها إنني

أقولها على الملأ اليوم أيضا: أنه لو أثار أيُّ عالِمٍ -مهما كان عظيمًا- أيَّ اعتراض على القرآن الكريم أمامي، فلا بد أن يُفحَم ويُهزم ويخجل. لقد زرت أوروبا ومصر والشام، وناقشتُ كبار العلماء من مختلف العلوم والمجالات في الهند، ولكن لم يحدث مرة واحدة أن لم يحالفني الفتح بفضل الله تعالى، بل كلما ناقشوني في العلم والدين اعترفوا بتفوقي وقوة أدلتي دائما.

ذات مرة جاء لزيارتي وفد مسيحي يضمّ السيرَ "ليوكس" الذي كان عميد كلية "فورمان" المسيحية، والذي كان قد عارضَه الطلبة الهنود فجاء مكانه السيد "دِتّه"، والسيدَ هيوم الذي كان سكرتير مؤسسة و.م.س.أ. المسيحية، والسيدَ "وولتر" الذي كان سكرتيره الثقافي، فوجّهوا إليَّ أسئلة، فرددت عليها ردًّا أفحمَهم. وبعدها قال السير ليوكس في خطاب ألقاه في سايلون (سريلانكا): اعلموا أن هذه الحرب الدائرة بين الإسلام والمسيحية لن تحسم في مدينة كبيرة، وإنما تحسم في قرية صغيرة اسمها قاديان.

عندما كان سني ١٥ أو ١٦ سنة، سمعتُ في الرؤيا صوتًا يشبه الصوت الذي يحدث عند النقر على كوب معدني، ثم أخذ الصوت ينتشر حتى تمثّلَ وصار كإطار، ثم تحوّلَ الإطار إلى صورة، فتحركتْ وخرج منها شخص فقال لي: إني ملَكٌ من ملائكة الله وقد جئتُ لأعلّمك تفسير سورة الفاتحة. فقلتُ: علِّمْني. فبدأ يعلّمني تفسيرها، وعندما وصل إلى قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال: كل التفاسير التي تمت إلى الآن لم تتجاوز هذه الآية، فهل أعلّمك تفسير ما بعدها؟ قلت: نعم. فعلَّمني تفسير الآيات التي تلتها.

لقد مضت على هذه الرؤيا ٤٤ سنة، وإني بفضل الله تعالى أستطيع الردَّ على أهل كل دينٍ ومذهب من سورة الفاتحة وحدها بناءً على ما كشفه الله عليّ من علومها في هذه المدة. وإني أرى أن الفاتحة تردّ على كل ما في الدنيا من نظريات اقتصادية اشتراكية أو رأسمالية وغيرها.

وكنت قد حكيتُ هذه الرؤيا للناس في حينها وأخبرتُهم بأن الله تعالى قد علّمني تفسير سورة الفاتحة، ثم بعدها ذهبْنا -نحن طلاب مدرستنا الأحمدية- إلى مدينة

"أمرتسر" لنلعب مباراةً ضد كلية "الخالصة" السيخية، فقـدَّم فريقنا أداءً رائعًا وهزمناهم. وكان هناك معارضة للأحمديين من قبل المسلمين الآخرين في تلك الأيام، ولكن الفِرَق الإسلامية المختلفة تتّحد في مثل هذه المناسبات، فلما هزمنا فريق السيخ فرح المسلمون الآخرون، وأقامت الجمعية الإسلامية بأمرتسر مأدبةً لنا.

لم أكنْ عضوًا في الفريق، وإنما ذهبتُ لمشاهدة المباراة فقط كوني أحد الطلاب، وبعد تناول الطعام طُلب مني أن ألقي كلمة، ولم أكنْ قبلها قد ألقيتُ أي خطاب في اجتماع عام مثل هذا، وإنما كنت ألقي الخطب في المدرسة، أما هناك فكان كبار الناس وزعماء المدينة، فاعتذرتُ وقلت لست مستعدا لهذا. فأصرّوا عليَّ وقالوا: لا بد أن تلقي كلمة بأي موضوع شئت. فدعوتُ الله تعالى وقلتُ: يا رب، لقد علّمتني تفسير سورة الفاتحة بوساطة ملاك، مما يعني أنك ستكشف لي معارفها الجديدة، وقد ذكرتُ هذه الرؤيا للناس، وها قد حان اختباري، فاكشفْ لي بفضلك من مفاهيم الفاتحة ما لم يخطر ببال أحد من قبل. وبعد هذا الدعاء استهللتُ خطابي، فألقى الله في رُوعي فجأة مفهومًا لم يُذكر في أي تفسير من قبل، فقلتُ: لقد علّمنا الله في الفاتحة دعاءً بألا نكون من المغضوب عليهم ولا الضالين، والثابت من الحديث أن ﴿المَغضُوبِ عَلَيهِمْ﴾ هم اليهود و﴿الضَّالِّينَ﴾ هم النصارى (الترمذي، أبواب تفسير القرآن). فكأن الله تعالى قد علّمنا أن ندعوه: ربّ، لا تجعلنا نحذو حذو اليهود والنصارى. والجميع متفقون على أن سورة الفاتحة مكية، إذ هي من أوائل السور نزولاً، والغريب أنها نزلت في حينٍ لم يكن النبي ﷺ يتلقى أي معارضة من اليهود أو من النصارى، وإنما كان يعارضه مشركو مكة، فكان المفروض أن يعلّمه الله تعالى عندها أن يدعو: "ربنا لا تجعلنا من المشركين"، لكنه تعالى علّمه أن يدعو: "ربنا، لا تجعلنا يهودا ولا نصارى!" فما الحكمة في ذلك؟ وما السبب في أن الله تعالى لم يذكر في هذا الدعاء المشركين الذين كانوا يعارضون النبي ﷺ في مكة بشدة، وإنما ذكر اليهود والنصارى الذين كان وجودهم في مكة نادرًا جدًا؟ إنما السر في ذلك أن الله عالِمَ الغيب الذي أنزل القرآن كان يعلم أن عقيدة أهل مكة ستنتهي وتُباد بقَدَره، ولن يبقى لها مِن أثر في المستقبل، فلا داعي

لتعليم الدعاء بصدد عقيدة قد قضى الله تعالى أن لا يبقى لها مِن أثر؟ أما الأديان التي قدّر بقاءها، وكان من المقدر أن تقع بينها وبين الإسلام مواجهة روحانية ومادية، فعلَّمنا الله تعالى دعاء بصددها. فعدمُ ذِكْرِ الكفار المشركين في هذه السورة وذِكْرُ اليهود والنصارى فيها كان بمثابة نبوءة أن عقيدة مشركي مكة ستنتهي قريبًا، وأن ديانة اليهود والنصارى ستبقى. وهذا ما أكَّدته الأحداث فيما بعد. إذن، فمن خلال هذه السورة (الفاتحة) قد أعلن الله تعالى في أوائل نبوة الرسول ﷺ عن هلاك مشركي مكة كليةً، كما أخبر أن الإسلام سيلقى مواجهة مِن قبل اليهود والنصارى خاصة، فعلى المسلمين أن يستعيذوا بالله تعالى من شرور هؤلاء القوم. وهكذا قد قدّم الله تعالى في سورة الفاتحة دليلاً عظيما على صدق القرآن الكريم.

هذا هو المفهوم الذي قد ألقاه الله في قلبي قبيل الخطاب بثوان، والحق أن هذا الاستدلال العظيم الذي قمت به لم يخطر ببال مفسّر قبلي. وبعدها قد فتح الله عليَّ مئات معارف الفاتحة، وإنني لا أزال أعلن أنه لو أُثيرَ أمامي اعتراض، و لم تحضرني أية آية قرآنية أخرى للرد عليه، فإن الله تعالى سوف يلهمني الردّ من سورة الفاتحة نفسها.

هذه هي الكنوز التي وزّعها علينا المسيح الموعود ؏، وامتلأت بها بيوتنا، ولكن المؤسف أن المسلمين الآخرين رفضوا هذه الكنوز.

رابعًا: ومما يدعم هذا الاستنتاج الذي قمت به هو: أن كلمات آية الكوثر تبيّن أن الرجل الآتي سيكون ابنا روحانيا للرسول ﷺ، إذ هذا هو مفهوم ﴿أعْطَيْناكَ﴾ كما بينت من قبل، ومن ناحية أخرى نجد أن الرسول ﷺ أيضا يخبر عن بعثة ابنٍ روحاني له، حيث ورد في الحديث أن سلمان الفارسي ؓ كان في مجلس الرسول ﷺ، فوضع ﷺ يده على كتفه وقال: "سَلْمَانُ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ"(المستدرك: كتاب معرفة الصحابة، باب ذكر سلمان الفارسي)، وقال أيضا: "لَوْ كَانَ الإِيمَانُ عِنْدَ الثُّرَيَّا لَنَالَهُ رِجَالٌ أَوْ رَجُلٌ مِنْ هَؤُلاءِ" (البخاري: كتاب التفسير، والمستدرك: كتاب تعبير الرؤيا)

وواضح أن سلمان ﵁ كان فارسيا، و لم يكن من أبناء الرسول ﷺ، فاعتباره من أهل البيت إشارةٌ إلى القرابة الروحانية. ثم إن قوله ﷺ بأن رجالاً من نسل سلمان أو عائلته سيعودون بالإيمان من السماء، إنما يعني أن رجلا (أو رجالا) من أبنائه ﷺ الروحانيين من أهل فارس سوف يقومون بهذه المهمة. ويتضح من الحديث أن زمن ارتفاع الإيمان إلى السماء هو زمن المسيح والمهدي (مسلم، كتاب الفتن)، فثبت من هنا أن هذا الرجل الفارسي الذي يعود بالإيمان من السماء يكون مهديَّ آخر الزمان. وآية الكوثر أيضا تخبر عن ظهور المهدي وتعتبره ابنًا روحانيا للرسول ﷺ كما بيّنت من قبل.

لعل أحدا يقول هنا: حتى لو قبلنا بتفسيركم، فإن هذه النبوءة القرآنية تتعلق بالمهدي، أما أنتم فتطبقون آية الكوثر على المسيح الموعود؟

وجوابنا على ذلك هو الحديث النبوي: "لا الْمَهْدِيُّ إِلا عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ" (ابن ماجة: كتاب الفتن).. أي أن المهدي وعيسى اسمان لشخصية واحدة، وليس شخصيتين منفصلتين. ولفظ الكوثر أيضا يدل أنها شخصية واحدة، حيث يقول الله تعالى ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾، فلو كانا شخصيتين لقال الله تعالى: إنا أعطيناك الكوثريْن. إذن، فالحديث النبوي الوارد في ابن ماجة وهذه الآية يؤكدان أنها شخصية واحدة. هذا أولاً.

وثانيًا: إن صفة السخاء الكثير لم تردْ عن المهدي، وإنما وردت عن المسيح (مسلم، كتاب الفتن)، فما دامت النبوءة القرآنية تطلق صفة العطاء الكثير والخير على الابن الروحاني للرسول ﷺ من جهة، وما دامت نبوءة الرسول ﷺ تصف المسيح بإفاضة المال، فثبت أنه شخص واحد لا اثنين.

وثالثًا: لقد ثبت من آية الكوثر أن هذا الآتي سيكون ابنًا للرسول ﷺ، والمسيحُ الناصري لا يمكن أن يكون ابنًا له، وإنما كان ابنَ سلسلة النبوة الموسوية. وهذا أيضا يؤكد أن الآتي لا ينزل من السماء، وما دام المسيح أيضا سيظهر من الأرض، فلا داعي لاعتبار الرجل الموعود شخصيتين.

رابعًا: لقد وصَف الحديثُ النبويُّ المهديَّ بأنه سيأتي من السماء، حيث ورد أنه سيعود بالإسلام من السماء رجل فارسي الأصل. وما دام الإسلام يعتبر المهدي قادمًا من السماء أيضا، فما الداعي لاعتبار الآتي شخصيتين؟ إن تعبير المجيء من السماءِ هو الذي سبّب المشكلة، وما دام صعود المهدي إلى السماءِ وعودته بالإيمان منها ثابت، فهو الذي يسمى مسيحًا أيضا.

قد تنتاب بعض القلوب شبهةٌ بأنه لماذا لا يقال هنا أن المراد من الكوثر هو أبو بكر ﷺ بحسب عقيدة أهل السنة، أو عليٌّ ﷺ وفق عقيدة الشيعة، ولماذا تُطبَّق هذه النبوءة على المسيح المهدي؟

والجواب: أولاً، لقد وُصف الآتي هنا بأنه كثير العطاء والسخاء، وهذا الوصف لا ينطبق على أبي بكر ولا على عليّ -رضي الله عنهما. لا شكّ أن الفتوحات قد بدأت في عهد أبي بكر، ولكن لم تأت الثروات عندها، وإنما أتت في عهد عمر ﷺ، الذي لا يعتبره أحد أفضلَ من أبي بكر، فلا يمكن اعتبارهما مصداقًا للكوثر. أما علي ﷺ فلا يمكن أن يسمى كثير العطاء والسخاء، لأن الثروات قلَّت في عهده بدلاً من أن تزداد؛ فالثابت تاريخيا تمرّدُ أهل الشام ومصر في عهده، وهما قُطْرانِ ذوا الثروات والأموال، ومنهما تُجلب إلى المسلمين. ولما خرجت هذه المناطق الغنيّة من قبضته ﷺ سُدّت حاجات أهل الحجاز بصعوبة. إذن، فلا يمكن اعتبار عليّ ﷺ أيضا كثير العطاء والخير. لقد جاءت الأموال والثروات بكثرة في عهد عمر وعثمان -رضي الله عنهما- ولكن لا أحد من أهل السنة ولا الشيعة يعتبر أيًّا منهما أفضل شخصية بعد الرسول ﷺ.

ثم إن كلمات هذه النبوءة تبين أنها تشير إلى أفضل إنسان بعد الرسول ﷺ، وهذه الشخصية هي المسيح والمهدي، حسب العقيدة المتفق عليها. إن زمن المسيح والمهدي هو الذي قال النبي ﷺ عنه: لا أدري أأهلُ ذلك الزمن خير أم أهل

زمني[◈]، وكذلك قال النبي ﷺ عن هذا الموعود بأن اسم أبي يواطئ اسم أبيه، واسم أمي اسم أمه،[✹] ويُدفَن معي في قبري (أبو داود: كتاب المهدي، ومشكاة المصابيح: كتاب الفتن).

يظن العامة أن معناه أنه يُدفَن في القبر المادي للرسول ﷺ. وهذا باطل بالبداهة، فأيُّ عديم الحياء هذا الذي يأخذ المعول وينبش قبر الرسول ﷺ ليدفن فيه هذا المهدي؟ ألا تنزل الصاعقة عليه؟ الحقّ أن كلام الرسول ﷺ استعارة ومجاز، وفيه إشارة إلى أنه لا فرق بينه وبين النبي ﷺ، وأن الله تعالى سوف يُسكنه معه. ولكن عامة المسلمين يظنون لجهلهم أن قبر الرسول ﷺ سيُنبش ليدفن فيه المسيح. والمعنى الذي بيّنتُه لدَفْنِ المسيح الموعود عليه السلام مع الرسول ﷺ ثابت من القرآن الكريم، إذ قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ (الطور: ٢٢). هذا ما يعنيه الرسول ﷺ، إذ أخبر أن هذا الموعود سيكون ابنًا روحانيا له وسيسكنه الله تعالى قريبًا من مقامه الروحاني. وأيُّ شكّ في أن إقامة الأولاد مع الآباء من دواعي سرورهم وراحتهم، وإن لم يكونوا من درجتهم؟

وكذلك قد أطلق القرآن الكريم على الرجل الآتي اسم الطارق. والطارق هو مَن يأتي ويطرق بابك في ظلام الليل، وفيه إشارة إلى أن هذا الموعود يُبعث في عصر الظلمة والضلال. أما أبو بكر وعلي -رضي الله عنهما- فقد جاءا في عهد النور، فكيف يمكن أن يكونا مصداقًا لهذه النبوءة؟

إذن، فكلمات هذه النبوءة تشير إلى إنسان يكون أفضل الأُمّة بعد الرسول ﷺ، ومن أجل ذلك سماه الله تعالى كوثرًا.. أي أنه يُثبت فضْل أمة المصطفى ﷺ على أمم الأنبياء الآخرين، ومن خلاله سيثبت أن الله تعالى قد أعطى محمدا ﷺ الكوثرَ..

[◈] لعل حضرته رضي الله عنه يشير إلى الحديث النبوي: "مثل أمتي مثل المطر، لا يدرى أوّلُه خير أم آخره." (الترمذي: أبواب الأمثال، ومسند أحمد: مسند الكوفيين)

[✹] لم نعثر على رواية تذكر أن اسم أمي اسم أمه. (المترجم)

أي سيثبت على يده فضلُ أمة النبي ﷺ على الأمم الأخرى. والحق أنه ما لم يوجد في أمة المصطفى ﷺ شخص هو أفضل من جميع الرسل -ما سوى النبي ﷺ- فلا يثبُت فضلُ أمّته ﷺ على غيرها من الأمم. لا شك أننا نؤمن أن نبينا محمدا ﷺ هو أفضل الرسل، ولكن ليس ضروريا أن يكون أولاد أفضل إنسان أيضا أفضل الناس؛ فمثلا كان سليمان عليه السلام نبيًا عظيما، ولكن كان ابنه فاسدا، فثبت أنه ليس ضروريا أن يشابه الأولاد آباءهم في الفضل دائما؛ ولذلك لا يثبت فضل أمة الرسول ﷺ على الأمم الأخرى إلا إذا وُجد في أمته مَن هو أفضل من سائر الأنبياء، مع كونه من أُمّته ﷺ وتابعا له.

إذن، فنظرًا إلى المعنى الأخير للكوثر -وهو الرجل الكثير الخير- فإن هذه الآية نبوءة عن المسيح والمهدي الذي هو شخصية واحدة، حيث بشر الله رسوله ﷺ بابن روحاني يكون ميلاده دليلاً على كون أمته ﷺ أفضل من أمم الأنبياء الآخرين، لأن ابنه يكون من أمته، ثم يكون أفضل من السابقين من الرسل، فأفضليته تكون دليلا على أفضلية الأمة الإسلامية، ومن أجل ذلك قال الرسول ﷺ: "لو كان موسى وعيسى حيّيْن لما وسعهما إلا اتباعي." (تفسير ابن كثير، تفسير سورة آل عمران) قد يقال هنا بأن هذا الحديث هو مجرد دعوى لا دليل عليها، فإن موسى وعيسى قد توفيا، فكيف يُعرف أنهما لو كانا حيين لتبعا النبي ﷺ؟ يمكن المقارنة بين الأحياء، ولكن كيف يمكن المقارنة بين الأموات الذين لا نستطيع أن نرجع بهم إلى الدنيا، فأي دليل على صدق هذه الدعوى؟

هذا سؤال طبيعي عن هذا الحديث، ولا يمكن الإجابة عليه إلا أن يولد في أمة الرسول ﷺ شخص يعتبر نفسه خادمًا له، ثم يعلن أفضليته على موسى وعيسى أيضا.. عندها يقال بلا شك: لو كان موسى وعيسى حيّينِ ما وسِعهما إلا اتباع النبي ﷺ؛ إذ قد وُلد في أمته ﷺ شخص هو أفضل من موسى وعيسى. ونحن نؤمن بأنه بحسب دعوى النبي ﷺ هذه، فقد بُعث المسيح الموعود وأعلن أنه أفضل من موسى وعيسى، مع كونه خادمًا للرسول ﷺ. يقول المسلمون الآخرون: إن مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية قد أساء إلى المسيح عليه السلام حين قال ما معناه:

اتركوا ذكْر ابن مريم، فإن غلام أحمدَ أفضلُ منه. والحق أن قوله هذا ليس إساءةً للمسيح عليه السلام، بل هو شرْحٌ للحديث النبوي: "لو كان موسى وعيسى حيين لما وسعهما إلا اتباعي"، حيث يصرح المسيح الموعود عليه السلام أني خادمُ أحمدَ ﷺ، ومع ذلك أنا أفضل من عيسى عليه السلام. ونتوصل من هذه الدعوى إلى نتيجة أن هذا المبعوث الذي هو أفضل من المسيح الناصري، ما دام خادمًا للرسول ﷺ فَلِمَ لا يكون عيسى من خدامه ﷺ لو كان حيًّا؟ كذلك إذا كان هذا الرجل أفضلُ من موسى عليه السلام، ومع ذلك يقول أنا خادم للمصطفى ﷺ، فهذا يعني أنه لو كان موسى حيا لكان من خدام الرسول ﷺ أيضا. فالحق أن كل دعوى للمسيح الموعود عليه السلام تتفق مع آيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ تماما، وهو الرجل الذي بُشّر النبي ﷺ ببعثته في قول الله تعالى ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾.

قد يقال هنا بأن الله تعالى قد استخدم هنا صيغة الماضي: ﴿أَعْطَيْنَاكَ﴾، مما يعني أن هذا الابن الروحاني قد أُعطيَه الرسول ﷺ في الماضي، فكيف يقال بأن هذا الابن الروحاني هو مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية؟

والجواب: أن العرب يستعملون الماضي بمعنى الاستقبال للتأكيد والقطعية، فإذا قلت لأحد: سأعطيك هذا الشيء يقينا، فقال لك: متى؟ فتقول: قد أعطيتك.. أي كأني قد أعطيتك. كذلك قد استخدم الله تعالى هنا الماضي تأكيدا على هذا الخبر اليقين، بمعنى أنه تعالى سيعطيه ﷺ الكوثر حتما، وكأنه قد أعطاه.

ومن لم يرضَ بهذا الجواب فنقول له: إنك تفسّر الكوثر بأنه نهر في الجنة، فمتى أُعطيَ النبي ﷺ هذا النهر في عهده؟ كلا، لم يُعطَه في حياته. فلو قلتَ في الجواب بأن الله تعالى قد أعطاه ﷺ هذا النهر وإن لم يضعه في قبضته في حياته، بل قد ناله بعد الوفاة، فنحن أيضًا نقول: بأنَّ قَدَرَ الله تعالى قد أعطى النبي ﷺ هذا الابن الروحاني، وإن كان سيظهر في الزمن الأخير.

وقد قال قوم بأن المراد من الكوثر بركاتُ القرآن الكريم. فنقول لهم: هل كان النبي ﷺ قد أُعطيَ جميع بركات القرآن عند نزول هذه السورة؟ علمًا أنها نزلت في أوائل الإسلام، وكان القرآن لم يكن قد نزل كله عندها، فكيف يقال إنه ﷺ قد

أُعطيَ كل بركات القرآن الكريم عندها؟ وطبعًا لن يكون جوابهم على ذلك إلا أن يقولوا بأن هذا الوعد كان قطعيا، وكان ﷺ سيعطى بركات القرآن كلها حتمًا، فاستخدم الله صيغة الماضي، وكأنه قيل له ﷺ: قد أُعطيتَها. وبالمثل نقول إن قول الله تعالى ﴿أَعْطَيْنَاكَ﴾ لا يعني أن الله تعالى كان قد وهب النبي ﷺ هذا الابن الروحاني عندها، بل المراد أن ميلاد هذا الابن الروحاني في الزمن الأخير كان قدرًا مقدورا وأمرًا قطعيًا، فاستعمل الله له فعْل الماضي.. كأن الله تعالى قال: إن مشيئتنا الأزلية قد أعطتْك هذا الابن الروحاني سلفًا، غير أنه سيظهر في الزمن الأخير.

فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٣

شرح الكلمات:

فَصَلِّ: الصلاة معناها العبادة المعروفة؛ الدعاء. (الأقرب)

والفاء في العربية تفيد العطف أو العاقبة، فإذا كانت عاطفةً فتفيد الترتيب عادةً (مغني اللبيب، حرف الفاء)، أي أن هذا الفعل وقَع بعد الفعل الأول. أما الفاء هنا في قوله تعالى ﴿فَصَلِّ﴾ فهي للعاقبة، والمراد: أننا أعطيناك الكوثر، ولذلك صَلِّ أو ادْعُ وقَدِّم الأُضْحيّة.

وَانْحَرْ: النحْر له عدة مفاهيم منها:

المفهوم الأول: نَحَر الصلاةَ: صلاها في أوّل وقتها (الأقرب). علمًا أن لكل صلاة موعدين؛ الأول والأخير، فموعد الظهر مثلاً يبدأ بدقائق بعد الزوال ويستمرّ إلى أن يصير ظل الجسم ضعفَيْ طوله. أما العصر فيبدأ موعدها بعد أن يصير الظل ضعفين ويستمرّ إلى اصفرار الشمس قبيل مغيبها. أما المغرب فيبدأ ميقاتها بعد غروب الشمس حتى اختفاء الشفق. وأما العشاء فيبدأ وقتها باختفاء الشفق حتى منتصف الليل عند البعض، وإلى صلاة الفجر عند الآخرين. ويبدأ وقت الفجر عند تبيُّن

الخيط الأبيض من الأسود حتى شروق الشمس. إذن، فلكل صلاة موعدٌ أوّل وموعد أخير.

لقد اختلف الفقهاء فيما إذا كان موعد الصلاة هو كل الوقت الموجود بين بداية موعدها ونهايته، أم أن وقتها الحقيقي هو وقتها الأول، أما بعدها فتُعتبر الصلاة قضاءً. فيرى بعضهم أن وقتها الحقيقي هو الأول، أما ما يصليه المرء بعده فهي صلاة قضاء، أما إذا تأخّر أكثر حتى بدأ موعد الصلاة التالية فلا تُعتبر صلاته الأولى قضاءً أيضا. بينما يرى آخرون أن أداء الصلاة في وقتها الأول أفضل، ولكن ليس هو وقتها الأصلي فقط، فلو صلاها بعدها فإن صلاته صحيحة ولا تعتبر قضاء.

والفقهاء الذين يرون أن وقت الصلاة إنما هو وقتها الأول وما يصليه المرء بعدها فهو قضاء، يقولون: لو انقضت ربع ساعة من الموعد الأول للصلاة -وهو وقت يمكن أداء الصلاة فيه- ولم يصلِّ فيها المرء ومات، فيعتبر تاركًا لها وآثمًا؛ إذ كانت عنده فرصة لأدائها ولم يؤدها. أما الذين يرون أنه إذا أداها في آخر وقتها صحّتْ، فيقولون إن موعد أداء الصلاة طويل، ولو توفي المرء قبل انتهاء هذا الموعد فلا يُعتبر آثما.

والثابت من سنة الرسول ﷺ أنه اعتبر كل هذه الفترة ما بين الموعدين وقتًا للصلاة، إذ ورد في الحديث أن النبي ﷺ قد أدى الصلاة في آخر موعدها عمدًا في بعض الأحيان (الترمذي، أبواب الصلاة)، ولم يحدث قط أن قام صحابي وبدأ الصلاة في هذه الفترة بحجة أن موعدها سينتهي، بل كان ينتظر بكل حال. فلو كان صحيحًا أن المرء إذا لم يصلّ في الوقت الأول.. أي خلال ربْع الساعة الأولى، فمات فهو آثم، لكان معنى ذلك أنه لو مات أحدٌ من الصحابة في مجلس النبي ﷺ بسكتة قلبية، ولم يستطع أن يؤدي الصلاة في وقتها الأول لاعتبر آثما بسبب تأخير الرسول ﷺ للصلاة، وهذا أمرٌ لا يقبله العقل. فالحق أن كل هذه الفترة هي وقت الصلاة، فإذا أدّاها في آخر موعدها فلا إثم عليه، إلا أن أداءها في وقتها الأول أكثَرُ ثوابا.

وقوله تعالى ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ يعني: فَصَلِّ لِرَبِّكَ وأدِّها في أول وقتها.

والمفهوم الثاني: نَحَرَ: وضَع يمينه على شماله.. يعني في الصلاة، حيث يضع الوهابيون أيديهم فوق الصدر، والأحناف تحت الصدر، وعليه فالمراد من قوله تعالى ﴿وَانْحَرْ﴾: صَلِّ واضعًا يدك اليمنى على اليسرى.

المفهوم الثالث: والنحرُ ما بين أسفل الحلق وأعلى الصدر، وعليه فقوله تعالى ﴿وَانْحَرْ﴾ يعني: الِمسْ أعلى الصدر أو ضَعْ يديك هناك في الصلاة. حيث يرى أهل الحديث أن طريقة وضع الأيدي في الصلاة عندهم هي الصحيحة، ولكن مثل هذه الاستدلالات واهية جدا. لا شك أننا نحن المسلمين الأحمديين أيضا نصلي واضعين أيدينا على الصدر، مثل أهل الحديث، ذلك لأن هذا ثابت من أكثر الأحاديث وسنة الرسول ﷺ (أبو داود، كتاب الصلاة)، وليس لأن هذا ما يُستنتج من قوله تعالى ﴿وَانْحَرْ﴾. فمثل هذه الاستدلالات لا تدعم الحق، بل تجعله مثيرا للضحك.

المفهوم الرابع: نَحَرَ: انتصبَ بنحره إزاء القبلة.

المفهوم الخامس: نَحَرَ: انتصبَ ونَهَد صدره.. أي وقف منتصب القامة لا ينظر هنا وهناك.

ونظرًا إلى هذه المعاني المختلفة للنحر فقوله تعالى ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ يعني: فَصَلِّ لِرَبِّكَ -الذي يمنّ عليك دائما- في أول وقت الصلاة رابطًا يديك متوجهًا نحو القبلة دون النظر هنا وهناك؛ أو المعنى: ادعُ ربك بكامل الثقة واليقين.

وإضافة إلى المعاني المذكورة آنفًا، هناك معنى آخر للنحر، وهو تقديم أضحية الجَمل؛ ذلك أنهم إذا أرادوا نحر الجمل طعنوا منحره (أسفلَ رقبته) بالرمح، فيُقطع وريده ويخرج الدم فجأة بغزارة، فيسقط مغشيا عليه، فيذبحونه. وحيث إن النحر يطلق على تقديم أضحية الجَمل وما شابهه من حيوان، فالزرافة مثلا تُنحر قياسًا على الإبل، ولكن لا يُستخدم لفظ النحر للبقر والكبش وغيرها من الحيوانات الصغيرة، لذا فقوله تعالى ﴿وَانْحَرْ﴾ يعني: قَدِّمْ أضحية كبيرة.

التفسير: قوله تعالى ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ إيماءٌ إلى أن الطاعةَ أو الدعاءَ -أي طلب الحاجة- كلاهما منوط بالذي عنده مقدرة؛ فمثلاً هناك فقير يذهب للتسول في منطقة غريبة، فيرى هنالك بيتًا فخمًا يحرس بابه بعض الخدم، فيظن أن صاحبه ميسور الحال، فيتوجه إليه أملاً أن يجد منه شيئا، لكنه يُخيّب آماله، بينما تراه امرأة عجوز فقيرة لا تملك إلا كوخًا فتترحم عليه وتناديه: تعالَ هنا، وتعطيه كسرات خبز أو حفنة دقيق. إنه لم يتوجه إليها أولاً لعدم علمه بالواقع، إنما توجه إلى الثري وكأنه يطلق السهم في الظلام، إذ يظن أنه سينال شيئا منه، ولكنه لا يعلم حتمًا أنه سيعطيه، أما لو كان يعلم أنه يجد شيئًا من الثري في معظم الأحيان، فسوف ينادي على بابه بكامل الثقة واليقين لعلمه أنه لن يرجع خاوي الوفاض. فلكي يخلق الله الثقة في العبد قال هنا: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾.. أي لإلهك الذي يقوم بتربيتك وترقيتك، وهكذا وجَّه نظر الإنسان إلى أن الله الذي تدعوه وتسأله لا يملك القدرة على إعطائك ما تسأل فحسب، بل لم يزل يربيك ويحسن إليك ويعطي عباده دائما.

ولما كان بعض الكرماء لا يعطون الجميع، إذ يكون في جوارهم كثير من الفقراء، فلا يهتمّون بسدّ حاجاتهم جميعا، فالسؤال هنا: هل الله تعالى مثل هؤلاء، فيسدّ حاجات البعض ويهمل الآخرين؟ فدرءًا لهذه الشبهة قال الله تعالى ﴿لِرَبِّكَ﴾.. أي أيها السائل، إنه تعالى ليس فقط جوادًا كريما لا يرد السائل صفر اليدين، بل إن له صلة خاصة بك، فكنْ على ثقة أنه لن يرد دعاءك، لأنه صاحب مقدرة وسخاء، ثم إنه يعتني بك خاصة.

ثم قال الله تعالى ﴿وَانْحَرْ﴾.. أي: شكرًا على ما وهبك الله الكوثرَ، عليك أن تصلي وتدعو الله تعالى وتقدِّم تضحيات كبيرة.

لقد بينت من قبل أن الكوثر تفسَّر عادةً بثلاثة مفاهيم، أحدها نهر في الجنة، ولكن لا نجد أي علاقة بين نهر في الجنة وبين قوله تعالى ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾، إذ يصبح المعنى في هذه الحالة: لأنك ستجد نهرًا في الجنة فعليك أن تصلّي وتقدّم تضحيات عظيمة، وهذا المعنى مثير للضحك؛ فإن الله تعالى قد وعد رسوله بما هو

أعظم من نهر في الجنة، ومع ذلك لم يقل له ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ شكرًا عليه. فمثلا قد وعده الله تعالى بلقائه، ولكنه لم يأمره عندها بالصلاة وتقديم التضحيات، مع أن هناك بونًا شاسعًا بين النهر ولقاء الله تعالى! إذا كان الله تعالى قد أمر رسوله ﷺ هنا بالصلاة والتضحيات شكرًا على نعمة عادية (أي نهر في الجنة)، فكان ينبغي أن يأمره تعالى بصلوات وتضحيات أكثر على نعمة عظمى هي لقاء الله تعالى، لكنه لم يفعل. فثبت أنه لا انسجام بين مفهوم النهر في الجنة وبين قوله تعالى ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾.

أما إذا فسرنا الكوثر بالخير الكثير، أصبح قوله تعالى﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَر﴾ منسجمًا مع باقي السورة كل الانسجام. ذلك أن الله تعالى عندما يُنعم على عبد بكثرة يحسده كثيرون؛ فمثلا يوجد في الدنيا آلاف العلماء الذين يتباهون بكونهم مثقفين وعمداء كليات وأساتذة جامعات وأئمة مساجد وشيوخ جوامع، فإذا جاء شخص خامل الذكر لا يساوي أمامهم شيئا في الظاهر، وقال لهم: عليكم أن تبايعوني، فلا بد أن يتميزوا غيظًا قائلين: كيف نبايع على يدك؟ إنك لا تساوي شيئًا إزاءنا. فبمجرد أن يعلن نبوته يكثر حسّاده في الدنيا، وإلى الأمر نفسه يشير الله هنا ويقول لرسوله ﷺ: سيحسدك الناس ويعارضونك على ما أنعمنا أو سننعم عليك من منن، فعليك أن تستعدَّ لمواجهتهم، فأكثِرْ من الصلاة والدعاء والتضحيات ليكشف الله عنك هذه البلايا والشدائد.

وبالنظر إلى المعنى الأول للكوثر -وهو الكثير من كل شيء- نجد أنه كلما أنزل الله المزيد من القرآن، ازداد العدو حقدا وبغضًا، وازداد المسلمون أيضا صلاة ودعاء وتضحيات، فنذروا أموالهم وأنفسهم في سبيل نصر الإسلام بما لم يسبق له نظير في العالم. سئل بعض الصحابة ذات مرة: مَن الذي كان أشجعكم في عهد الرسول ﷺ -فكما يثار هذا السؤال في هذه الأيام بين الشيعة والسنة كثيرا، كذلك كان الناس عندها أيضًا يكيلون الثناء والمدح لمن ينحازون له- فقال الصحابة: كان أشجعنا، أقرَبنا من الرسول ﷺ موقعًا في القتال. والحق أن هذا الأمر لا يستوعبه إلا الخبير بالقتال؛ ذلك أن العدو يسعى دائمًا للقضاء على روح الأمة وقائدها حتى

تنتهي القضية بانتهائه، ولذلك يكثّف هجومه حيث قائد العدو، فلا يتثبت حوله إلا أشجع القوم (تفسير الخازن، تفسير سورة التوبة). ثم أخبر الصحابةُ أن أبا بكر كان أكثرنا وقوفًا بجانب النبي ﷺ، لذلك فهو أشجعنا.

يقول العدو اللدود للإسلام "وليام موير" بأن عدد المسلمين في غزوة الأحزاب كان قليلا جدا مقابل العدو، فلا يدري المرء كيف كانوا يحاربونهم. كان عدوهم - لكثرة عدده- يتناوب في الحرب، فكان يشنّ عليهم هجمات متكررة دون توقف، حتى ينهكهم، إذ كان قوام الجيش المسلم ١٢٠٠ مقاتل فقط، وقد عُيِّن ٥٠٠ منهم على حراسة النساء، فلم يبق منهم إلا ٧٠٠ فقط، أما العدو فبلغ ١٥ ألف مقاتل. ولو وزّع العدو جنوده على خمسة كتائب لاشتملت كل كتيبة ٣٠٠٠ مقاتل، ولو قاتلت كل كتيبة خمس ساعات، فكان بوسعهم أن يقاتلوا المسلمين بالتناوب ٢٤ ساعة. أما المسلمون القلائل فكانوا لا يستطيعون أن يوزعوا جنودهم إلى قسمين يتناوبان في الحرب. ثم إنهم كانوا موزعين على جبهة تمتد ميلاً، فعندما كانت الكتائب الخمس للعدو تغير عليهم بالتناوب، كانوا يضطرون للتصدي لهم ٢٤ ساعة، في حين لم يبلغ عددهم ربع كتيبة العدو، فلم يجدوا فسحة للنوم، حتى إن الرسول ﷺ لم يستطع أن ينام عدة أيام، إذ ورد في التاريخ أن النبي ﷺ قال لبعض أزواجه مرةً في إحدى الليالي: لم أذق طعم النوم منذ أيام، وأرى أن عليَّ أن أنام قليلا لكي لا تتدهور صحتي، ولكن العدو لا يبرح يشن الغارات على طول الجبهة باستمرار، فلا بد من أخذ الحيطة أيضا، فليت هناك مَن يحرس خيمتي لبعض الوقت حتى آخذ قسطًا من النوم. ففيما هو في ذلك إذ سمع أصوات السلاح خارج خيمته، فقال ﷺ: مَن؟ فقال أنصاري: يا رسول الله، أنا فلان، وقد رأيتك لم تنم منذ أيام، فجئت لأحرسك لكي تنام بعض الوقت لأن القتال قد خفَّ قليلا (البخاري، كتاب الجهاد والسير).

يا لها من تضحية! وما أروعه من إيثار! لم يكن النبي ﷺ قد ذاق النوم لأيام متتالية، فلما بلغ منه الإرهاق الذروةَ، جاء صحابي لم ينم مثله ليحرس خيمته ﷺ!

هذا ما يشير الله إليه في قوله ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾.. أي عليك أن تُواصِل في الدعاء وتقديم التضحيات الجسيمة، لأن مواجهتك مع العدو ستكون شديدة، فلو ثابرت على الدعاء والتضحيات لتغلّبَ خيرك الكثير على العدو. وهذا ما حدث بالفعل، فكان من نتيجة أدعية النبي ﷺ وتضحياته أن الله تعالى قد أعطاه الكوثر وقضى على معارضة العدو. كذلك لما أخبر الله رسوله ﷺ بأخبار أمته في الزمن الأخير دعا لها بأدعية كثيرة، كما رفَع من همة المسيح الموعود ومعنوياته، ونصح المسلمين أن من واجبهم أنه إذا ظهر الإمام المهدي فليذهبوا إليه ولو حبوًا على الثلج ويبايعوه ويبلّغوه سلامه (ابن ماجه: كتاب الفتن، ومسند أحمد: مسند أبي هريرة)

والسلام يعني الدعاء بالسلامة، فتبليغهم سلام النبي ﷺ للمسيح الموعود يعني أن يقولوا له بأن محمدا رسول الله قد دعا لك ولنجاحك كثيرا، فلا تخشَ معارضة الأعداء، بل واصِل مهمّتك واثقًا مطمئنًا.

أما نظرًا إلى المعنى الآخر للكوثر –وهو الرجل الكثير العطاء والخير– فالمراد من هذه الآية: يا محمد، يا رسولي، إننا سنَهَبُ لك ابنًا روحانيا عظيما، وكما أن الناس يشكرون الله تعالى ويقدّمون الأضاحي عند ولادة ابن عندهم، فعليك أن تشكر الله تعالى شكرًا خاصا وتقدِّم تضحيات عظيمة على ولادة ابنك الروحاني العظيم هذا، لكي يرفع الله اسمك إلى الأبد.

إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٤﴾

شرح الكلمات:

الأبتر: لقد ورد في بعض الروايات أن الكافرين كانوا يعيّرون النبي ﷺ بكونه أبترَ –والعياذ بالله– ويدّعون أن دعوته ستنتهي سريعا. فأنزل الله تعالى قوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾. ولكن النبي ﷺ قد رُزق بنات لا أبناء، فلذلك قال المفسرون بأن الأبتر مَن ليس له أولاد ذكور.

ولكن الأبتر يعني عادة: مَن لا أولاد له مطلقا، أو مَن ليس له ولدٌ ذَكَرٌ. فقد ورد في "تاج العروس"، وهو أحد أكبر قاموسين عربيين: "الأبترُ: المنبتِرُ الذي لا ولد له. قيل: لم يكنْ يومئذ وُلِدَ له. قال: وفيه نظرٌ، لأنه وُلد له قبل البعث والوحي، إلا أن يكون أراد: لم يعشْ له ولدٌ ذَكرٌ." (تاج العروس)

وهذا يعني أن الأبتر هو مَن وُلِدَ له ولدٌ ذَكرٌ ولكنه لم يعشْ، أو لم يولد أصلاً.

التفسير: ورد في الروايات أن هذه الآية نزلت ردًّا على طعن العدو، ولم يكن العدو يعيّر النبي ﷺ بأن لا أولاد له، وإنما قال بأنه ليس له ﷺ ولدٌ ذَكرٌ، وعليه فقوله تعالى ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾ يعني: أن الأعداء يقولون إن محمدًا ليس عنده ولد ذَكرٌ، وأن عندهم أولادًا ذكورا، وسيرى هؤلاء أنهم كانوا يكذبون، إذ سيرى العالم أنه لن يبقى لهم ولد ذَكرٌ، وأن محمدا سيُعطيه الله ابنًا.

ولكننا عندما ننظر إلى الواقع، نجد أن أعداء الرسول ﷺ كلهم كانوا ذوي أولاد، وقد استمرّ نسلهم، ولم يبقَ أحدهم أبتر. خُذوا مثلاً أبا جهل، فكم كان عدوًا لدودًا للرسول ﷺ، ولكن كان عنده ابن اسمه عكرمة ؓ، وقد شبَّ ولا يزال نسله موجودا حتى اليوم، وإن كانوا لا ينتسبون إلى أبي جهل، بل ينتمون إلى مَن بعده من آبائهم وأجدادهم، وذرّيّته موجودة في الجزيرة العربية وفي الهند، وفي محافظة "سرجودها" في البنجاب أيضا.

وكان عتبة والوليد من كبار أعداء النبي ﷺ. لا علم لي بأولاد عتبة، لكن الوليد كان له ابن هو خالد ؓ الذي يفتخر به المسلمون اليوم. وكان من أولاد خالدٍ "عبدُ الرحمن" الذي يسمى في المصادر الإنجليزية (Sagacious Judge).. أي القاضي الحصيف؛ إذ كان ذكيًا عبقريا ووجيها، وقد أسدى للإسلام خدمات عظيمة.

وكان "العاصي" من أعداء النبي ﷺ، بينما كان ابنه "عمرو بن العاص" من كبار قادة الإسلام، فقد فتح مصر وقادَ حروب المسلمين في الشام، وخلّف ذريةً منهم

عبد الله بن عمرو، الصحابي المقرب إلى الرسول ﷺ، وقد آمن قبل أبيه وسنه ١٤ عاما، وكان له ذرية (الإصابة: عبد الله بن عمرو بن العاص).

إذن، فكان الأب العاصي يحارب النبي ﷺ من قبل الكفار، بينما كان الابن عمرو يحارب مدافعا عن الرسول ﷺ.

أما أبو سفيان الذي اشتهر بعدائه للإسلام فكان له ذرية؛ منهم معاوية، الذي ينتسب إلى عائلة بني أمية الذين حكموا إسبانيا، ولا تزال ذريته موجودة حتى اليوم.

إذن، فقد كان لأعدى أعداء الرسول ﷺ أولاد، بل إن الذين عيروه ﷺ بكونه أبتر كانوا أيضًا أصحابَ أولاد وذريات. أما الرسول ﷺ فقد وُلد له أولاد ذكور، لكنهم لم يعيشوا. لقد رُزق ﷺ في آخر عمره مِن زوجته مارية القبطية ابنَه إبراهيم عليه السلام، لكنه توفي وهو ابن سنتين. أليس غريبًا أن يعلن الله في قوله: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾، مما سيثبت أن عدوك هو الذي سيظل أبتر، ولن يكون له أولاد ذكور، بينما الواقع لا يصدّق هذا الإعلان الرباني، إذ كان لجميع أعدائه ﷺ تقريبًا أولاد ذكور، واستمر نسلهم أيضا، أما النبي ﷺ فلم يعش أحد من أولاده الذكور، وهكذا انتهى نسله المادي؟

هذا اعتراض كبير على هذه الآية، مما يجعل المسلم مذهولا حيران لا يدري بماذا يجيب.

أما الجواب فليكن معلومًا أن قوله تعالى ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ جاء مقابل قوله ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾، وسبق أن بينتُ أن من معاني الكوثر الرجل المعطاء أو صاحب الخير الكثير●، وعليه فالآية تعني: إننا نبشّرك برجل كثير الخير والعطاء، فعليك أن تدعو الله تعالى وتضحي كثيرا شكرًا على هذه المنة الربانية، مما يجعل عدوك أبترَ.. أي محرومًا من الأولاد الذكور، ويجعلك صاحبَ أولاد ذكور. وقد بيّنت من قبل أن هذه الصفات -أي الرجل المعطاء وصاحب الخير الكثير- هي

● ورد في "القاموس المحيط": الكَوْثَرُ: "الرجُلُ الخَيِّرُ المِعْطاءُ". (المترجم)

صفات المسيح والمهدي، وبسببه قد أمَر الله نبيَّه قائلا: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾. إذن، فكما أن قوله تعالى ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ لا يشير إلى أبناء ماديين بل روحانيين، كذلك فقوله تعالى ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾ لا يشير إلى أبناء ماديين بل روحانيين، إذ أخبر الله رسوله أن أعداءك سيظلّون دومًا محرومين من أولاد يتبعون عقائدهم، أما أنت فيكون لك أولاد ينشرون عقائدك. وبالفعل نجد أن عكرمة ﷺ الذي كان ابنًا ماديا لأبي جهل، أصبح بإسلامه ابنًا روحانيا للنبي ﷺ، مما يعني أنه ما كان لأبي جهل -رغم كونه والدًا لابن ذكر- أن يدّعي أنه صاحب أولاد. علينا أن نفكّر هنا ماذا كان العدو يقصد بتعييره الرسول ﷺ بكونه أبتر. إنما كانوا يقصدون أن لهم أولادًا ينشرون عقائدهم بعدهم، وليس لمحمد أولاد ينشرون تعاليمه بعده، ولذلك ستنتهي دعوته فور وفاته. ولكن ما حصل قد خيب آمالهم ومزاعمهم، فإن عكرمة ابن أبي جهل أسلمَ وأخذ ينشر عقائد محمد ﷺ وقدَّم للإسلام تضحيات عظيمة. كان أبو جهل يظن أنه إذا مات سينشر ابنه عقائده وأفكاره من بعده، أما محمد فلن تقوم دعوته، إذ لا أولاد له، ولكن زعمه هذا بطل بإسلام ابنه عكرمة.

ثم إن "الوليد" الذي كان من كبار أعداء الإسلام، يظن أن له أولادا ينشرون عقائده من بعده، ولكن ابنه "خالد" دخل في الإسلام وقدَّم في سبيله تضحيات رائعة، حتى أصبح بين المسلمين مضرب المثل في الشجاعة، إذ يقول المسلم لابنه: كُنْ خالدًا. كان الوليد يعادي النبي ﷺ عداء شديدا حتى إنه كان يلقي عليه القاذورات؛ فذات مرة جاء بكرشِ جزور وألقاه على النبي ﷺ وهو يصلي، ولكن ابنه خالد أسلم وأصبح يفدي النبي ﷺ بروحه وقلبه، وقضى حياته كلها في خدمة الإسلام. فدخوله في الإسلام جعل أباه أبتر، رغم كونه أبًا له.

أما "العاصي" فكان شيخا كبيرا، يعادي الإسلام عداء شديدا ويحرِّض الناس على المسلمين ليل نهار، ولكنّ ابنه عمْرًا أسلمَ وصار صحابيا جليلا، وفتَح مصر وحارب في سبيل الإسلام في الشام، فالعاصي أصبح أبترَ، لأن أولاده صاروا أبناءً للرسول ﷺ.

أما أبو سفيان فأسلم بنفسه، فلم يعُدْ يعادي النبي ﷺ، أما ابنه معاوية فأصبح من كبار خدام الإسلام.

باختصار، لا يستقيم معنى هذه الآية إذا فُسّر الأبتر من منظور الأولاد الماديين، ولكنها تصبح حقيقة ثابتة إذا فسّرنا الأولاد هنا بالروحانيين، ونستطيع القول إن أبا جهل كان أبتر؛ إذ لم يبق له أولاد ينشرون أفكاره وعقائده، وكان الوليد أبترَ لأن أولاده أيضا دخلوا في أتباع النبي ﷺ، وكان العاص أبتر لأن أولاده لم يعملوا على نشر أفكاره وعقائده، بل نشروا تعاليم الرسول ﷺ. لو فسّرنا الآية بمعنى الأولاد الماديين بطُل كلا الأمرين اللذَين أعلنتْ عنهما: فإنها أخبرتْ أولاً أن عدو النبي ﷺ لن يكون له ولدٌ ذكرٌ، مع أنه كان له أولاد ذكور؛ وأخبرت ثانيًا أنه سيكون للنبي ﷺ أولاد ذكور، مع أنه لم يعِش له أي ذكور. أما لو فسّرنا الآية بالمعنى الروحاني لثبت كلا الأمرين بجلاء، أعني لثبت أولاً أن كُلاً من أبي جهل والوليد والعاص صار أبتر، وثانيًا أن النبي ﷺ كان له أبناء روحانيون عملوا على نشر دعوته واستمرارها. أما عتبة فلا أذكر الآن ما إذا كان له نسل أم لا *، ولو كان له نسل فلا بد أن يكونوا قد انصهروا بين المسلمين. باختصار، قد قال الله تعالى هنا لرسوله ﷺ بأننا سنعطيك يا محمد ابنًا روحانيا كثير الخير يكون دليلاً على أنك لم تكن أبتر، بل كان عدوك هو الأبتر.

وهناك أمر آخر يجب أخذه بالحسبان، وهو أن الله تعالى قد سمى أزواج النبي ﷺ أمهات للمؤمنين، فأصبح النبي ﷺ أبا للمؤمنين، وصاروا كلهم أبناءه، والأبناء يشملون الذكور والإناث أيضا، ولكن الله تعالى يخبر هنا: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ..... إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾.. أي أننا نعطيك ابنًا روحانيا كثير الخير، وأن

* كان لعتبة بن ربيعة بن عبد شمس نسلٌ منهم الصحابي الجليل أبو حذيفة، الذي كان من فضلاء الصحابة ومن المهاجرين الأولين. صلّى القبلتين، وهاجر الهجرتين جميعًا. شهد بدراً وأحداً والخندق والحديبية والمشاهد كلها، وقُتل يوم اليمامة شهيدًا، وهو ابن ثلاث أو أربع وخمسين سنة. (الاستيعاب في معرفة الأصحاب ج ٢ / ص ٢٠) (المترجم).

عدوك يظل أبتر. والآن لا بد من منصب يُثبت أنه كان للنبي ﷺ أولاد ذكور، و لم يكن أبتر. وعندما نفكّر في الأمر من هذا المنظور نجد أن الإناث يشاركن الذكور في الإيمان، ويمكنهن أن يبلغن درجة الشهادة والصدّيقية مثل الرجال، ولكن النبوة هي المنصب الذي لم يوهب لهنّ، فهو خاص بالرجال، وحيث إن الرسول ﷺ قد بُشّر هنا بابن روحاني عظيم، فيكون مفهوم هذه الآية أن عدوك سيظل أبتر، بينما سيولد مِن نسلك رجل يتبوأ مقام النبوة. وهذا المعنى قد ذكره الله تعالى في آية أخرى أيضا إذ قال: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾(الأحزاب:٤١). وسورة الأحزاب نزلت في السنة الرابعة للهجرة، حيث بيّن الله تعالى فيها أن محمدا ليس أبا أحد من رجالكم، أما سورة الكوثر فنزلت في أوائل النبوة، حيث أخبر الله فيها رسوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾.. أي أن عدوك هو الذي سيظل محرومًا من الذكور، وأما أنت فلن تُحرَم منهم.

وهنا نجد تعارضًا كبيرًا بين الآيتين في الظاهر؛ حيث قال الله تعالى في سورة الكوثر أنه سيكون للنبي ﷺ أبناء ذكور، بينما أعلن في سورة الأحزاب أنه لن يكون له أبناء ذكور، وبتعبير آخر قد سلَّم القرآن بصحة الاعتراض الذي كان الكفار يثيرونه ضده ﷺ بأنه أبتر -والعياذ بالله- أي أنه ليس أبًا لأحد من الرجال ولن يكون.

والرجل يعني الإنسان البالغ، ومعظم المعاجم تقول: إنه الشاب، حيث ورد في تاج العروس: "إنما هو فوق الغلام وذلك إذا احتلم وشبَّ". بينما نجد بعض القواميس تقول أن الرجل هو الذكر، ولكن لا سند له في اللغة، إنما هو قول بعض العلماء. فقوله تعالى ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ إنما يعني أنه لم ولن يصل أحد أولاده الذكور سن البلوغ. مما يعني أن ما رُزق النبي ﷺ قبل هذه الآية وبعدها من أولاد ذكور لا يتنافى مع هذه الآية، إذ لم يبلغ أحدهم سن البلوغ. لقد رُزق النبي ﷺ قبل نزول هذه الآية الأبناء التالية أسماؤهم:

١: القاسم، الذي كُنِّيَ به النبي ﷺ واشتهر بأبي القاسم. ويتضح من التاريخ الصحيح أنه تُوفي في صغره، وإنْ ورد في بعض الروايات أنه توفي بعد أن بلغ سنّ ركوب الدابة. والحق أنها رواية ضعيفة، ثم إنه لم يرد في أي تاريخ ولا حديث أنه بلغ سن البلوغ.

٢: عبد الله، الذي لُقّب بالطيب، والطاهر أيضا، ويرى بعض المؤرخين أنه وُلد قبل دعوى النبوة، بينما يرى غيرهم أنه وُلد بعدها، والأصح أنه وُلد قبلها، لأن هذا ما تذكره الروايات القوية. أما لقباه الطيب والطاهر فلا يعرف ما إذا كان الرسول ﷺ هو الذي أطلقهما عليه أم غيره، أو أنه ﷺ سماه عبد الله، وأطلق عليه أبو طالب أو خديجه الطيبَ والطاهرَ، تعبيرًا عن حبهما له. ويتضح من الروايات الموثوق بها أنهما لقبان لابن واحد، وإن ورد في رواية ضعيفة أنهما اسمان لابنين. وقد توفي القاسم والطيب كلاهما في صغرهما، فالقاسم توفي وهو ابن ٧ أو ٨ سنوات. أما عبد الله فقد توفي وهو ابن سنتين أو ثلاث (السيرة الحلبية ج٣ ص ٣٩١-٣٩٢ باب ذكر أولاده).

٣: أما إبراهيم فهو الابن الثالث، وقد وُلد بعد نزول آية خاتم النبيين في سورة الأحزاب، وذلك مِن مارية القبطية التي أهداها المقوقس حاكمُ مصر للنبي ﷺ. وقد وُلد في السنة الثامنة للهجرة وتوفي في ٢٩ من شوال السنة العاشرة للهجرة - وتاريخ وفاته بحسب التقويم الميلادي هو ٢٧-١-٦٣٧م- أي أنه عاش نحو سنتين (السيرة النبوية لابن هشام: تزويج رسول الله ﷺ خديجةً، والسيرة الحلبية: ج٣ ص ٣٩٣-٣٩٥ باب ذكر أولاده).

لقد تبين من هنا أنه لم يصبح أيٌّ من أبناء النبي ﷺ الثلاثة رجلاً، وهذا ما بيّنه الله تعالى في هذه الآية، إذ قال أنه لم ولن يكون محمَّد أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ.. أي لم يبلغ أحد من أبنائه ﷺ سنّ البلوغ قبل نزول هذه الآية، كما لم يكن له ابن بالغ عند نزولها، ولن يبلغ أحد من أبنائه سن البلوغ بعد نزولها.. أي أن الله تعالى قد نفى أبوة الرسول ﷺ لأي رجل في الأزمان الثلاثة، وهكذا ألغى عادة التبني الشائعة بين العرب، إذ كانوا يُنْزِلون المتبنَّى منْزلةَ الابن الحقيقي.

وقد أدى هذا الإعلان الرباني إلى شبهة أخرى؛ فلو قال الله تعالى: ليس محمد أبا أحد من رجالكم، لما ثارت أية شبهة، إذ لم يكن للنبي ﷺ عندها ذكور بالغون، وكان الإخبار عن الماضي فقط دون المستقبل، أما قوله تعالى ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ فأنبأ فيه أنه لن يكون له ﷺ ذكور في المستقبل أيضا. وكأن الله تعالى قد فنّد صراحةً النبوءة الواردة في قوله تعالى ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾. لقد نزلت آية الأحزاب هذه في بداية السنة الرابعة للهجرة، ورُزق ﷺ في السنة الثامنة للهجرة ابنه إبراهيم عليه السلام الذي توفي في السنة العاشرة، مما يعني أن العدو فرح فرحتين: الفرحة الأولى عندما سمّى النبيَّ ﷺ أبتر، ثم بعد فترة امتدت إلى ١٦ سنة لم يولد له ﷺ خلالها ذكور بل لم يكن هناك أمل في الظاهر في ولادة ذَكر عنده، نزل قول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾، فقال العدو بأنه ﷺ بعد أن يئس من الذَّكَر غيَّر النبوءة الأولى ليستغلّ تعيير الكفار بعدم ولادة ذكور عنده قائلا بأنه لم يرزق الذكور بحسب هذه النبوءة. ولكن النبي ﷺ رُزق بعد انقطاع ١٩ سنة ابنًا سماه إبراهيم، ففرح العدو فرحة ثانية قائلاً: ها قد بطلت نبوءته الثانية أيضا بولادة ابن عنده. وما كان لمسلمٍ -لما يكنّه من حب شديد للرسول ﷺ- أن يجرؤ على القول أن هذا الابن لن يعيش أيضا، ولكنه توفي بعد سنتين فعلاً، وهكذا أزال الله اعتراض العدو على النبوءة الثانية، إذ لم يبلغ إبراهيم عليه السلام سن الرجال، غير أن الاعتراض الأول -بأنه ﷺ كان يدّعي أنه سيُرزق ذكورًا وأن عدوه هو الأبتر- ظلّ بحاله، ودحضًا لهذا الاعتراض قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنْ رَسولَ اللهِ وَخاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾. وحرف "لكن" يفيد الاستدراك.. أي أنه يدفع الشبهةَ الناشئة من الكلام السابق أو متعلَّقِه. ويقال: "لكنْ"، "لكنَّ"، "ولكنَّ".

والسؤال هنا: ما هي الشبهة التي نشأت من قوله تعالى ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُم﴾ واستُدركت بـ "لكن"؟

والجواب أن الله تعالى كان قد أخبر في سورة الكوثر أن عدو النبي ﷺ هو الأبتر، وأنه ﷺ سيُرزق ذكورا، بينما أخبر في آية الأحزاب أنه لم ولن يكون له ﷺ ذكور بالغون، فكان في القولين تناقضًا في الظاهر، فاستدركه الله تعالى بقوله:

﴿رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾. والواو هنا للعطف، مما يعني أن لفظ ﴿خَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ قد جيء به لنفس الغرض الذي يحققه لفظ ﴿رسولَ الله﴾، ومثاله أن نقول: ذهب زيد وبكر، أي كلاهما ذهب، أو نقول: أكلتُ لحمًا وخبزا، أي أكلتُ كليهما. فلفظ ﴿خَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ يدفع نفس الشبهة التي دُفعت بلفظ ﴿رسولَ الله﴾. والشبهة التي نشأت هنا هي: أنه إذا صحَّ أنه لم ولن يكون للنبي ﷺ أولاد ذكور بالغون، فقد بطلتْ نبوءة سورة الكوثر، وبالتالي فهو ليس رسول الله، ودرءًا لهذه الشبهة قال الله تعالى أولاً ﴿ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ﴾.. أي أن رسالته ثابتة بعشرات البراهين البيّنة لا بدليل واحد؛ إذ يدل على صدقه براهين في القرآن، وبراهين في التوراة، ودعاءُ إبراهيم، ونبوءاتُ عيسى وإشعياء وإرمياء وحزقيال وغيرهم من الأنبياء، التي قد انطبقت كلها عليه. فإذا اشتبه أمرُ تحقّقِ نبوءةٍ فهذا لا يعني أن النبوءات الأخرى قد بطلت. فمثلاً إذا أُصيبت أعصاب عين المرء بالفالج و لم يستطع أن يرى الشمس الساطعة في كبد السماء، فهذا لا يعني أن الوقت صار ليلا، إذ توجد هناك علامات أخرى -كضوء الشمس وحرارته وحركة الناس وانشغالهم بأشغالهم المختلفة- تدل كلها على أن الوقت نهار. فإذا وجد هذا المفلوج في عينه العالَم مظلمًا مع وجود علامات النهار، فهذا لا يعني أن الليل قد حلَّ فعلاً، كذلك إذا اشتبهتْ على أحد نبوءةٌ من نبوءات الرسول ﷺ، فهذا لا يقدح في رسالته. وهذا هو الدليل نفسه الذي قدّمه الله تعالى في قوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾(آل عمران:١٤٥).. وذلك أنه لما شاع بين الصحابة في غزوة أُحد أن النبي ﷺ قد قُتل وانهارت هممُ كثير منهم، أنزل الله هذه الآية ليقول لهم: إذا قُتل محمد ﷺ أو توفي، فهل تعتبرونه غيرَ صادق -والعياذ بالله- وترتدّون؟ وواضح أن المسلم ما كان ليشتبه في نبوة الرسول لمجرد موته ﷺ، إنما سببُه النبوءة الموجودة بحقه: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾(المائدة:٦٨).. أي أن الله تعالى كان قد وعده ﷺ بعصمته من القتل بأيدي الناس، فلو قُتل لبطلت هذه النبوءة. وقد أشار الله تعالى هنا إلى الأمر نفسه وقال بأن عدْم تحقُّق نبوءةٍ ما، لا يمكن أن يدل على كذب محمد، وإنما يثبت كذبه إذا لم توجد فيه شروط النبوة،

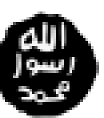
وعدم القتل ليس شرطًا للنبوة، فكيف ثبت كذبه ﷺ بسبب عدم تحقق نبوءة واحدة؟ فما دامت هناك عشرات الأدلة والبراهين الأخرى على صدقه، فعلينا أن نفهم أن لهذه النبوءة -التي لم تتحقق في رأينا- معنى آخر لم نستوعبه؛ إذ لو كان كذابًا لما تحققت فيه العلامات والأدلة الأخرى التي تدل على نبوّته.

وهذا الدليل نفسه قد أورده الله هنا وقال بأن صدق محمد في رسالته ثابت ببراهين أخرى منها تحقُّقُ نبوءاتٍ بحقه ﷺ قد أدلى بها موسى وعيسى وداود وإشعيا وإرميا ودانيال وغيرهم من الأنبياء وقد تحققت لصالحه، وكتابٌ منقطع النظير قد نزل عليه، وقوةٌ قدسية أُعطيَها، وغلبةٌ كُتبتْ له على أعدائه، وتأييدٌ رباني حالفه؛ وبعد رؤية كل هذه البراهين الدالة على صدقه ﷺ، إذا لم يستوعب أحد دليلاً من أدلة صدقه، فليدركْ أنه قد أخطأ وأن محمدا ﷺ صادقٌ باليقين.

إذن، فبقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ قد دحض الاعتراضَ القائل أنه ﷺ كان كاذبا -والعياذ بالله- إذ لم يعش له أولاد ذكور، حيث بين الله تعالى أنه استنتاج باطل. فمع أن مضمون هذه الآية يتعارض في الظاهر مع مفهوم قوله تعالى ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾، إلا أنه لا شك في صدق محمد ﷺ، لأنه رسول الله، بمعنى أنه جاء برسالة مفصَّلة من الله، وإذا شككت في أمر ما ولم تستوعب دليل صدقه فيه، فماذا تفعل بآلاف الأدلة الأخرى على صدقه؟ الحق أنه إذا انكشف على المرء صدقُ نبوءة واحدة منسوبة إلى الله تعالى واشتبهَ عليه أمر عشرة أو عشرين نبوءة أخرى، فمن مقتضى التقوى ألا يسارع إلى التكذيب، لأن من المحال عليه أن يؤول النبوءة الواحدة التي قد تحققت بتأويل يصرفها عن حقيقتها. أما إذا تحققت مئات النبوءات ولم يفهم حقيقة نبوءة واحدة فقط، فمن واجبه ألا يسارع إلى التكذيب بسببها، بل يجب أن يتّهم عقلَه ويخطِّئه، ولا يكذب النبوءة، بل يعتبرها قابلة للشرح والتأويل.

قد يقول قائل بعد ذلك: صحيح أن اشتباه نبوءة من النبوءات لا يبطل دعوى النبي ﷺ، بل هو صادق فيها، ولكن مِن واجب الله تعالى أن يزيل شبهتي أيضًا؟ فجاء الرد على ذلك في قوله تعالى: ﴿وَخاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾، والخاتم هو ما يُختم به،

والختم هدفه التصديق، فقد ورد في الحديث أن الرسول ﷺ لما أراد بعث رسائله إلى الملوك قال له بعض أهل الخبرة من الصحابة أن الملوك لا يبالون برسالة غير مختومة، فصنع ﷺ ختمًا رسمُه كالآتي:



حيث جاء لفظ "محمد" منقوشًا في الأسفل، وفوقه "رسول" وفوقهما "الله". لقد صنع ﷺ هذا الختم ليختتم به رسائله تصديقًا منه بأنه مرسل من عند الله تعالى (البخاري: كتاب اللباس). وهذا ما تفعله المحاكم أيضا في هذه الأيام، حيث تقول: إن الإعلان يصدر بختم المحكمة، أي بتصديقها. فالمراد من كون النبي ﷺ ﴿خَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ أنه مصدّقهم، فمن كان عليه ختمه ﷺ فهو نبي حق، ومن لم يكن عليه ختمه فليس بنبي حق.

ثم إنك لا تضع الختم على كل شيء، وإنما على ما هو مِلْكٌ لك، فقوله تعالى ﴿وَخاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ إشارةٌ إلى أنه ليس بعد النبي ﷺ نبوة إلا التي تكون تابعة له وخادمة. فلو ادعى بعده أحد أن نبوة محمد ﷺ قد انتهت -والعياذ بالله- فلا شك في كونه كاذبًا، لأن عصر نبوته ﷺ لن ينتهي إلى يوم القيامة. بل لو ادعى أحد أنه يماثل النبي ﷺ درجةً فهو أيضا كاذب، إذ لا يمكن أن يماثله أحد درجةً. أما من يعلن أن الله تعالى قد أقامه لنشر دين محمد ﷺ، وأن كل ما ناله من درجة وفضل إنما ناله ببركة طاعته واتّباعه للنبي ﷺ، ثم كان القرآن وحديث النبي ﷺ مصدّقَيْن له، فلا بد أن يكون صادقًا في دعواه، لأنه مختوم بختم النبي ﷺ، ومَن خُتم بختمه ﷺ فلا بد أن يكون هو ابنه الروحاني، لأنه من أمته ومن تلاميذه.

والحق أن هذا الابن الروحاني هو الذي قد بُشِّر به النبي ﷺ في سورة الكوثر، ولكن الناس ظنوا خطأً أن الحديث فيها عن الابن المادي. فأزال الله تعالى في سورة الأحزاب هذا اللبس وقال بأنكم قد أخطأتم في تطبيق آية الكوثر على الأولاد الماديين، مع أننا نقصد أن محمدا ﷺ وحده يتبوّأ ذلك المقام الأسمى بأن الإنسان

يمكن أن ينال ببركة طاعته واتباعه ﷺ درجة النبوة أيضًا. وهذا المقام إنما يوهب للرجال دون النساء، فإذا تبوّأَ أحد من أمة محمد ﷺ هذا المقام، كان هذا دليلاً على أن له ﷺ أبناء روحانيين، أما أعداؤه فلا أبناء روحانيين لهم. وبتعبير آخر إن سلسلة أبنائه ﷺ الروحانيين ستمتدّ إلى يوم القيامة بحيث سيتبوّء أتباعه أسمى الدرجات الروحانية ببركة طاعته ﷺ، مما يكون دليلاً على أن الله تعالى قد أعطاه أبناء ذكورا، بينما ظل أعداؤه محرومين من أبناء روحانيين.

ثم إن نبوة الأنبياء السابقين لا تثبت إلا بتصديق النبي ﷺ، إذ كيف يمكن أن نصدّق نبوة موسى وعيسى -ناهيك عن نبوة الأنبياء الآخرين عليهم السلام- لولا أن القرآن قد صدّقهما؟ ذلك أن نبوة موسى الطَّيِّلاً لا تثبت بما ورد في التوراة من أحواله، ولكن القرآن يعلن أنه كان نبيا صادقا، ولذلك نؤمن بنبوته. فلم نؤمن بموسى الطَّيِّلاً لأن التوراة تقول بنبوته، وإنما آمنّا بنبوته بسبب ختم النبي ﷺ على نبوته. كذلك نؤمن بنبوة عيسى الطَّيِّلاً لأن القرآن الكريم يقول ذلك، وإلا لن نستطيع أن نصدقّه بناءً على ما ورد في الإنجيل عنه، إذ يقول الإنجيل بأنه كان يشرب الخمر مرة بين ضيوف، فنفدت الخمر، فقلقتْ مريمُ التي كانت هناك، فأخبرتْ عيسى الطَّيِّلاً، فمسح جرار الماء بيده، فصارت خمرا (يوحنا ٢: ١-١١).

ثم ورد في الإنجيل أيضا أن تلاميذ المسيح -الطَّيِّلاً- دخلوا زرعًا وأكلوا ثماره من دون إذن صاحبه، فاشتكى إلى المسيح، فنهره بدلاً من أن يلوم تلاميذه، وقال: لا يمكن أن يعترض أحد على أكل الثمر والعريس موجود. (متى ١٢: ١-٨)

وكذلك ورد في الإنجيل أن المسيح الطَّيِّلاً أدخل الجنَّ في قطيع من الخنازير، فقفزت كلها في النهر وهلكت.. أي أنه أصاب صاحبها بخسارة مالية كبيرة (لوقا ٨: ٢٦-٣٤).

فكيف يمكن أن نصدّق بعيسى الطَّيِّلاً مع وجود هذه الأحداث في الأناجيل؟ إنما نؤمن بأن المسيح الطَّيِّلاً نبي الله، لأن القرآن يعلن أنه نبي الله، ولأن محمدًا ﷺ يقول إنه نبي الله.

كذلك لو قام بعد النبي ﷺ مدّعٍ مكذِّبًا تعاليم النبي ﷺ وعائبًا عليه، فلا بد أن نعتبره كذّابا؛ إذ ليس على نبوته ختم النبي ﷺ. أما إذا قام أحد معلنًا أنه يتّبع خطوات النبي ﷺ، ثم كانت نبوءاته ﷺ تؤيده وتدعمه، فبعثتُه لن تسيء إلى النبي ﷺ، إذ يأتي لكشف محاسنه، ولن يكون شخصا مغايرا، بل يكون ابنًا روحانيا له.

وأرى لزامًا عليَّ أن أذكر أن عامة المسلمين يفسّرون ﴿خَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ بأنه آخر الأنبياء محتجين بحديث الرسول ﷺ: "أنا آخر الأنبياء، ومسجدي آخر المساجد" (مسلم: كتاب الحج).

فالسؤال هنا: ماذا يعني هذا الحديث؟

والجواب: أن مقطعه الثاني يفسّر مقطعه الأول. فالنبي ﷺ لم يكتفِ بقوله: "أنا آخر الأنبياء"، بل أردفه بقوله: "ومسجدي آخر المساجد". فهل من مسلم يمكن أن يفسر قوله "ومسجدي آخر المساجد" أنه لا يجوز بناء أي مسجد بعد المسجد النبوي؟ لقد بنى المسلمون بعد مسجده ﷺ آلاف المساجد في العالم، ولا أحد ينكر قداستها. فلو كان قوله ﷺ: "ومسجدي آخر المساجد" يعني أن مسجده آخر مسجد تشييدًا، فلماذا يبني المسلمون المساجد في كل دولة وإقليم ومدينة وبلدة وقرية؟ إن تشييدهم المساجدَ في كل مكان دليلٌ ساطع على أنهم يفهمون من قوله ﷺ: "آخر المساجد" أنه لا يمكن أن يسمى مسجدًا إلا ما يُبنى اقتداءً بالمسجد النبوي. فما دام تشييد المساجد الأخرى بعد مسجد النبي ﷺ اقتداءً به لا يتنافى مع كون مسجده "آخِرَ المساجد"، فكيف يكون مجيءُ نبيٍّ تابعٍ له ﷺ ومِن أمّته وغيرِ منفصل عنه منافيًا لكونه "آخر الأنبياء"؟ يبدو أن الرسول ﷺ قد توجس الخطر من الوساوس التي قد تساور الناس في المستقبل بهذا الشأن، فأردف قوله "أنا آخر الأنبياء" بقوله "ومسجدي آخر المساجد".. تبيانًا بأن المسجد الذي يُبنى اقتداءً بمسجده لا يكون ناقضًا لكون مسجده آخر المساجد، كذلك فإن النبي الذي يأتي من أمته ﷺ تابعًا له ومتّبعًا خطواته فلا يكون ناقضا لكونه آخر الأنبياء. وبتعبير آخر: إن الذي يدّعي بالنبوة غيرَ متّبعٍ خطواتِه ﷺ، ومستقلاً عنه، ومنكرًا فيوضه، فلا شك أنه يتنافى مع كونه ﷺ آخر الأنبياء، أما الذي يأتي متّبعًا خطواته، ومقيمًا

لشريعته، وناطقًا بشهادته، ومصليًا صلاة الإسلام، وعاملاً بتعاليمه، فلا تتنافى نبوته مع كون النبي ﷺ آخر الأنبياء، تماما كما أن المسجد الذي تكون قبلتُــه كقبلــة مسجد الرسول ﷺ، وتؤدَّى فيه الصلوات كما تؤدى في مسجده، وتُقرَأُ في هــذه الصلوات نفس الكلمات التي كان يقرأها النبي ﷺ في صلواته، فلا يكــون هــذا المسجد ناقضًا لكون مسجده آخر المساجد. إذا بُني مسجد كهذا فلا يعني ذلــك أبدًا أن المسجد النبوي لم يعُد آخر المساجد، كلا بل هو جزء من مسجده، وجزء الشيء لا يكون ناقضًا له، كذلك فإن النبي الذي يكون تلميذًا للرسول ﷺ وابنًــا روحانيًا له، وفائزا بهذه المكانة ببركة فيوضه ﷺ، ومقيمًا لشريعته ودينه، فهو أيضا لا يتنافى مع كونه آخر الأنبياء، ويُعتبر جزءًا منه ﷺ. إنما مَثَله كمثل اليد التي تكون جزءًا من الجسد، ومتى يقول أحد بأن اليد شيء والجسم شيء آخر؟ إنمــا مَثلــه كمثل ظله، ومتى يقول أحد بأن الظل شيء مناف للأصل؟

باختصار، إن قول النبي ﷺ: "ومسجدي آخر المساجد" شرح لقوله: "أنا آخر الأنبياء"، فكما أن بناء مسجد اقتداءً بمسجده ﷺ لا يخالف كون مــسجده آخــر المساجد، كذلك فإن بعثة نبي تابع للرسول ﷺ لا تتنافى مع كونه آخر الأنبياء.

ومما يحتج به خصومنا حديث "لا نبي بعدي" (البخاري: كتاب الأنبياء). ولــو فسّرنا هذا الحديث بأنه لا يكون أي نبي بعد وفاة النبي ﷺ، فالسؤال الذي يفرض نفسه هنا: هل يمكن أن يُبعث نبي في حياته ﷺ؟ ما دام النبي ﷺ قد بُعث إلى العالم كله فكيف يمكن أن يُبعث نبي آخر في حياته؟ وما دام لا يمكن أن يبعث نبي آخر في حياته، فالسؤال: ما هو المراد من قوله ﷺ لا نبي بعدي أي بعد وفاتي؟ الحق أنما المراد من قوله هذا بأنه لن يأتي على نبوته ﷺ زمن تنتهي فيــه. وهــذا صــحيح ١٠٠%، وهذا ما نؤمن به، فعصر نبوته ﷺ ممتد إلى يوم القيامة. وإذا كنا نــؤمن بنبوة المسيح الموعود عليه السلام، فإننا نؤمن أيضا أنه خادم كامل للرســول ﷺ ومقــيم لشريعته، و لم يأتِ بشهادة جديدة ولا صلاة جديدة. كان الناس قد نسوا أحكــام القرآن الكريم، فبعثه الله تعالى ليحيي دين المصطفى ﷺ من جديد؛ مما يعني أن نبوته عليه السلام نبوة ظِلّية، والظلّ لا يكون منفصلا عن أصله، وإنما هو انعكاس له. فثبت أن

مفهوم الحديث "لا نبي بعدي" و"ومسجدي آخر المساجد" بالمعنى نفسه. إن النبوة المسيئة إلى الرسول ﷺ إنما هي تلك التي ينسخ مدّعيها نبوة الرسول ﷺ، وينكر فيوضه الروحانية، ويعلن أن نبوته مستقلة، وأنه قد نالها من دون وساطة الرسول ﷺ، وينسخ أحكامه ﷺ وشريعته كليًّا أو جزئيًّا، ولو كان حُكمًا واحدا؛ ومن ادعى ذلك فإن قول النبي ﷺ "لا نبي بعدي" يعدّه من الكاذبين، ولا بد أن نعدّه من الكافرين الدجالين، ولن يصدّقه حتى أضعف المسلمين. بل الحق أن خلافنا مع خصومنا من المسلمين ليس إلا لقولهم بأن عيسى عليه السلام سيترل من السماء في الزمن الأخير، أما نحن فنقول: كان المسيح نبيًّا من سلسلة النبوة الموسوية، و لم ينَل نبوته ببركة فيوض النبي ﷺ، والاعتقاد بعودة نبيّ كهذا الذي ليس خادمًا للرسول ﷺ إساءةٌ بالغة إليه، إذ يعني ذلك أنه لما فسدت أمة الرسول ﷺ فلم يبعث الله تعالى لإصلاحها أحدًا من بينها، بل اضطرّ الله تعالى لأن يعود بنبي بُعث قبل ألفي سنة. وأيُّ شك في أن مثل هذه العقيدة تمثّل إساءة بالغة للرسول ﷺ، لأن معنى ذلك أن أمة المصطفى ﷺ احتاجت إلى أمة موسى عليه السلام. وهذا اعتقاد لا يطيقه أي مسلم صادق. الغريب أن هؤلاء القوم يسمّون الرسول ﷺ سيّدَ وَلَدِ آدمَ وسيّدَ الأنبياء من جهة، ومن جهة أخرى يزعمون أن أُمّته ﷺ حين تفسد سيُبعَث لإصلاحها نبيٌ من خارجها.. أي من أمة موسى عليه السلام؛ إذ لن يوجد في أمة المصطفى ﷺ شخص قادر على إصلاح فسادها. إنما يماثل اعتقادهم قولَ قومٍ يهاجمهم العدو فيقولون: لا شك أن ملِكنا قويّ جدًّا، ولكنه لا يملك جيشا يتصدى للأعداء، فيجب أن يأتي جيش من الخارج ليدافع عنا.

يستغرب المرء من عقول هؤلاء القوم، إذ كيف فقدوا الصواب لهذا الحد! كيف يؤمنون أن أُمّة الرسول ﷺ عندما تتعرض لهجمة الشيطان، فلن يكون عنده ﷺ أيّ جيش، بل يأتي نبيٌّ من أنبياء بني إسرائيل للدفاع عنه ضد عدوهم، وهكذا يجعل النبيَّ ﷺ تحت منّته. إننا نرى أن مثل هذه العقيدة بشعة ظالمة مسيئة جدًّا إلى الرسول ﷺ ولن يرضى بها مَن يملك ذرّةً من الإيمان وحُبِّ الرسول ﷺ.

وليكنْ معلومًا أن قوله ﷺ: "أنا آخر الأنبياء" لو فُسّر بكونه آخـرَهم مبعثًا، فسيعني ذلك أنه ﷺ واقفٌ في آخر صف الأنبياء فقط، كما هو ظاهر من الترتيب التالي:

الله تعالى، أنبياء آخرون، محمد رسول الله ﷺ، ثم الناس كلهم.

والواضح أن الذي يقف في آخر الصف لا يكون أفضلَهم حتى يُعتبر هذا ميـزةً للرسول ﷺ. إنما مَثَلُ قول خصومنا هذا كقول من يقول: إن الجندي الأخـير في صف الجنود هو أفضلُهم لأنه واقف في آخرهم، مع أنه لا فـضل في وقوفـه في آخرهم، وإنما هو جندي كغيره من الجنود. فلو اعتبرنا محمدًا ﷺ في آخـر صـفّ الأنبياء -كما يقول العلماء غير الأحمديين- فليس فيه ما يدل على فضله، وإنما يدل على أنه نبيّ كأحد الأنبياء.

والأغرب من ذلك أن هذا الحديث إذا سمّى الرسول ﷺ آخر الأنبياء، فهنـاك حديث آخَر يجعله أول الأنبياء، إذ قال النبي ﷺ: "كنتُ عبد الله وخاتم النبيين وآدمُ منجدلٌ في طينه"* .. أي حين كان آدم لا يزال في المرحلة الطينية من تطوُّر خلْقه. مما يعني أن النبي ﷺ كان خاتم النبيين حتى قبل ولادة آدم عليه السلام، وبتعبير آخر كان أوّلَ النبيين. والآن لو اعتبرنا النبي ﷺ في آخر صف الأنبياء -كما يقول العلماء غير الأحمديين- فلا يبقى أوّلَ الأنبياء، أما إذا اعتبرناه أوّلَ الأنبياء فلا يبقى آخـرَهم. ولكن لو قرأنا الحديثين على ضوء كشف للرسول ﷺ لاستقام معناهما تمامـا.. أي ثَبتَ أنه ﷺ أوّلُ الأنبياء وآخرُهم أيضا، وأنه أفضلهم أيضًا. فقد أخرج أحمد بـن حنبل في مسنده أن النبي ﷺ قال: عندما صعدتُ إلى السماء خلال المعراج، رأيت آدم عليه السلام في السماء الأولى، فصعدت إلى السماء الثانية فرأيت فيها عيـسى عليه السلام، ثم صعدت إلى الثالثة فرأيت فيها يوسف عليه السلام، فصعدت إلى الرابعة فرأيت فيهـا إدريس عليه السلام، فصعدت إلى الخامسة فرأيت هناك هـارون عليه السلام، فـصعدت إلى

* أقرب نص وجدناه بهذا المعنى هو: "إني عند الله في أول الكتاب لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدلٌ في طينته". (المستدرك للحاكم، ذكر أخبار سيد المرسلين وخاتم النبيين ﷺ)

السادسة فرأيت فيها موسى ﷺ، فصعدت إلى السابعة فرأيت هنالك إبراهيم ﷺ، قال لي جبريل: اصعدْ، فصعدت حتى وصلت إلى سدرة المنتهى، فلقيتُ الله هنالك (مسند أحمد: مسند الشاميين).

وهذا الصعود إلى الله تعالى يوضّحه الرسمُ التالي:

الله

سدرة المنتهى	سيدنا محمد رسول الله ﷺ
السماء السابعة	سيدنا إبراهيم ﷺ
السماء السادسة	سيدنا موسى ﷺ
السماء الخامسة	سيدنا هارون ﷺ
السماء الرابعة	سيدنا إدريس ﷺ
السماء الثالثة	سيدنا يوسف ﷺ
السماء الثانية	سيدنا عيسى ﷺ | سيدنا يحيى ﷺ
السماء الأولى	سيدنا آدم ﷺ

أهل الأرض

فمَن نظَر إلى هذا الرسم واقفًا من جهة أهل الأرض رأى آدمَ أولاً والنبيَّ ﷺ في آخر الأنبياء، وكأنه يعتبر النبي ﷺ آخرَ الأنبياء، وهكذا يصحّ حديث "أنا آخر الأنبياء"، كما أنه سيعتبر النبيَّ ﷺ أفضلَهم أيضًا، لأنه ﷺ قد تجاوزَ آدمَ وعيسى ويوسف وإدريس وهارون وموسى وإبراهيم كلهم. أما إذا نظَر المرء إلى هذا الرسم من جهة الله تعالى، وجَد النبي ﷺ قبل إبراهيم وموسى وهارون وإدريس ويوسف وعيسى وآدم عليهم السلام، وهكذا يصبح النبي ﷺ أوّلَ الأنبياء وآخِرَهم أيضا،

ولكن بالمعنى الذي ذكرتُه، وإلا فقوله ﷺ: "كنتُ خاتم النبيين وآدم منجـــدل في طينه" لا يصحّ من حيث الولادة!

والمعنى الذي ذكرته آنفًا يشرح معنى الحديث الذي قال فيه النبي ﷺ: "أوتيـــتُ فواتحَ الكَلِمِ وجوامعَه وخواتَمه" (مسند أحمد، مسند عبد الله بن عمرو)، لأن الذي يكلّمه اللهُ تعالى في أقرب مقام إليه، لا بد أن يُعطى "فواتحَ الكَلِمِ"، أما إذا نظرنـــا إليه ﷺ من جهة مقام العباد، فلا بد أن يُعطى "خواتم الكلم"، لأنّ الأنبياء الآخرين قد تلقّوا من الله تعالى وحيهم وهم في مقام أدنى من مقامه ﷺ، ثم لما كان ﷺ قـــد تجاوز مقام الأنبياء الآخرين لتلقي وحيه فأُعطي "جوامـــع الكلـــم". الواقـــع أن الحديثين: "لا نبي بعدي"، و"أنا آخر الأنبياء" مبنيّان على حادث المعـــراج الـــذي يشرحهما، ولكن المسلمين الآخرين استنتجوا منهما خطأً أن النبوة بكل أنواعها قد انتهت بعد الرسول ﷺ.

ويبدو أن الصحابة أنفسهم أدركوا أن الناس سوف يميلون إلى الإفراط في عقيدة ختم نبوة الرسول ﷺ، ولن يستوعبوا قصده ﷺ وراء تركيزه على خـــتم نبوتـــه، فأقوالهم التالية تلقي الضوء الكافي على هذا الأمر:

أولا: لقد نقل صاحب الدر المنثور عن ابن أبي شيبة أن عائـــشة -رضـــي الله عنها- سمعتْ بعض الصحابة يقولون إنه خاتم النبيين ولا نبي بعـــده، فقالـــت في حماس: "قولوا: خاتم النبيين، ولا تقولوا: لا نبي بعده" الدر المنثور، تفسير ســـورة الأحزاب). وبديهي أن عائشة ما كانت لترفض ما قاله الرسول ﷺ، إذ كيف يمكن أن يقول: لا نبي بعدي، وتقول هي: لا تقولوا: لا نبي بعده؟ هذا محال منها. إنمـــا كان مرادها أن كلمة ﴿خَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ موجودة في القرآن الكـــريم ولا يمكـــن أن يخطئ أحد فيها، أما قوله ﷺ "لا نبي بعدي" فيمكن أن يـــسيء الـــبعض فهمـــه، ولذلك قالت: قولوا خاتم النبيين، ولا تقولوا لا نبي بعده. إن العارف يعلم أن قول

الله تعالى ﴿خَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾، وقولَه ﷺ "لا نبي بعدي"، إنما معناهما أنه لن يكون بعده ﷺ مَن ينسخ دينه وشريعته، أما السذَّج فيمكن أن يظنوا منه أنه لن يكون بعده ﷺ نبي ولو كان تلميذًا له وناشرًا لدينه. لذلك قامت عائشة -رضي الله عنها- بهذا التوجيه وقالت: "قولوا خاتم النبيين ولا تقولوا لا نبي بعده"، كي لا تنتشر بين الناس عقيدة خاطئة تماثِل ما حدث بقول آخر للنبي ﷺ، وبيانه أنه قد ورد في الحديث أن النبي ﷺ كان جالسًا بين صحابته في المسجد، فخرج ولم يرجع فترة طويلة، فخاف عليه الصحابة، إذ كانت المدينة في تلك الأيام مهددة بخطر هجوم الروم المسيحيين، فخرجوا بحثًا عنه. ويقول أبو هريرة أنه وصل إلى بستان له جدار وله باب كبير مغلق، فلم يصبر فدخل إلى البستان من فتحة تحت الجدار كما تدخل القطط، فرأى النبي ﷺ جالسا هناك، فقال: يا رسول الله، لقد خفنا عليك جدًّا، فالحمد لله على سلامتك. فقال له النبي ﷺ: اذهبْ وبشِّرْ مَن وجدته بأن مَن قال "لا إله إلا الله"، دخل الجنة. قال: يا رسول الله، مَن يصدّقني على هذا الأمر العظيم! فأعطِني علامة. فأعطاه نعليْه. فخرج ولما وصل إلى الباب وجد عمرَ ﷺ قادما، فقال له: لقد أمرني رسول الله ﷺ أن أبشّر كل من ألقاه أن مَن قال لا إله إلا الله دخل الجنة. فدفَع عمر بيده في صدره وقال: أتريد أن تفسد إيمان الناس؟ فجرى أبو هريرة إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله، لقد أمرتَني أن أبشّر الناس، ولكن عمر ضربني. ثم جاء عمر وقال: يا رسول الله، أقلتَ له أن مَن قال لا إله إلا الله دخل الجنة؟ قال: نعم. قال: يا رسول الله، إذنْ سيترك الناس العمل. فنهى النبي ﷺ عن إعلان ذلك (مسلم، كتاب الإيمان).

هذا يعني أن الرسول ﷺ قال أولاً شيئا، ثم نهى عن إعلانه.

ومن الناس من يقول إن هذه البشرى تخصّ عمر، فلما بلغتْه نهى النبيُّ ﷺ عن إعلانها بين الناس. لكن هذا الفهم غير صحيح، بل الواقع أن هذه البشرى تخص

كل مؤمن، وكان الرسول ﷺ يعني به أن كل من قال لا إلـه إلا الله بـصدق، ثم عمِل بحسبها، دخل الجنة حتمًا؛ إذ كيف يمكن أن يؤمن أحد بالله تعالى ثم لا يعمل بأحكامه ووصاياه؟ فثبت أن المراد من قوله ﷺ هذا أن من قال لا إله إلا الله بصدق وإخلاص فلا بد أن يدخل الجنة، وليس المراد أن من تفوه بأن لا إله إلا الله بلسانه فقط دخل الجنة، كما يظن عامة المسلمين اليوم.

باختصار، قال عمر للرسول ﷺ أن الناس سيأخذون بألفاظك دون استيعاب رسالتك، فيظنون أن لا حاجة لهم للعمل الآن، ولذلك نهى النبي ﷺ عن القيام بهذا الإعلان.

وبالمثل فإن عائشة -رضي الله عنها- خافت أن يظن الناس من قول النبي ﷺ "لا نبي بعدي" أنه لن يكون بعد الآن كبارُ الصلحاء في الإسلام، أو أن باب النبوة قد أُغلق الآن إلى الأبد، فنهتْهم عن قول "لا نبي بعده". أما كلمة ﴿خَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ فهي كلمة قرآنية لا يمكن أن ينخدع بها أحد، فقالت: يمكن أن تكتفوا بقولكم ﴿خَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾، دون أن تقولوا أنه لن يكون بعده نبيّ. مما يدل على أنها -رضي الله عنها- كانت تؤمن أن القول بانقطاع النبوة كليةً يتنافى مع تعليم الإسلام، إذ لو كان باب النبوة مغلقا إلى الأبد فلماذا قالت لهم "لا تقولوا لا نبي بعده" مع أن الرسول ﷺ نفسه قد قال "لا نبي بعدي". لقد قالت ذلك لأنها رأت أن لفظ ﴿خَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ أحوطُ وأبعدُ عن سوء الفهم، ثم هي كلمة قرآنية، فيمكنهم أن يقولوا إنه ﴿خَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾، أما كلمة "لا نبي بعده" فهي صحيحة في حد ذاتها، غير أن هناك احتمالا أن يسيء الناس فهمها لأسباب أخرى، فنهتْهم عن استعمالها على عمومها.

يعترض البعض على هذه الرواية قائلين: ما دامت هذه كلمات الرسول ﷺ، فكيف يحقّ لعائشة أن تمنع مِن استعمالها؟ مما يدل أنها لم تكن على علم بها، فنهتْ عن ترديدها، والفتوى المبنية على عدم العلم لا قيمة لها ولا يؤخذ بها.

والجواب أن هذه القضية تتعلق بالقرآن الكريم، وقد كثرت الأحاديث بشأنها، فلا يُفترض عدم علم الصحابة إلا بقضية لا يعلمها إلا القلة، أما هذه القضية فهي ليست من هذا القبيل، فلا يمكن القول أن عائشة -التي قال الرسول ﷺ عنها: تَعلَّموا منها نصف الدين- كانت تجهل هذه القضية.

ثم إن كلمات هذه الرواية تبين أن عائشة -رضي الله عنها- قالت هذا الكلام لجماعة من الناس، أو كانت تكثر من قولها هذا، وعليه فلا يمكن أن يُتصوَّر أن أحدا منهم لم يرفض قولها أو لم يفنّده رغم انتشاره الواسع بينهم، إذا وجده خاطئًا. فثبت أنها كانت على علم بحديث الرسول ﷺ "لا نبي بعدي"، ومع ذلك كانت تنهى عن ترويج هذه الكلمات كي لا يسيء الناس فهمها.

أما الاعتراض بأنه كيف يمكن أن يُمنَع أحدٌ من ترديد ما قاله النبي ﷺ، فهو ليس في محله، إذ لم تمنع عائشة -رضي الله عنها- من استعمال تلك الكلمات، وإنما من استعمالها الخاطئ.. تماما كما أشار عمر رضي الله عنه على النبي ﷺ أن ينهى عن الإعلان أن "من قال لا إله الا الله دخل الجنة"، ليس لأنها عبارة خاطئة، إذ كيف يحقّ لعمر أن يعتبر كلام النبي ﷺ خاطئا؟ إنما لأنها عبارة لا يستوعب معناها الصحيح إلا أهل الفهم، أما العامة فقد يسيئون فهمها.

والرواية الثانية أيضا من ابن أبي شيبة وهي: قال رجل عند المغيرة بن شعبة: صلّى الله على محمد خاتم الأنبياء لا نبي بعده، فقال المغيرة: حسبك إذا قلتَ خاتم الأنبياء، فإنا كنا نحدّث أن عيسى عليه السلام خارج، فإن هو خرج فكان قبْله وبعْده. (الدر المنثور، تفسير قوله تعالى: "وخاتم النبيين"). لقد تبين من هذه الرواية ما يلي:

أولا: ما كان المغيرة بن شعبة يفهم من قوله تعالى ﴿وخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ أنـــه لـــن يبعث بعده أي نبي.

ثانيا: أن كلمة "لا نبي بعده" ليست أَحْوَطَ، كما هي كلمة "خاتم النبيين".

ثالثا: أنه كان يؤمن بإمكانية مجيء نبي بعد الرسول ﷺ.

رابعا: أنه لم يكن يؤمن بأن عيسى عليه السلام حيٌّ في السماء؛ إذ لم يقل إنه نازلٌ من السماء، بل قال: كنا نحدِّث أن عيسى عليه السلام خارج.. أي خارج من الأرض. فكان يرى على ما يبدو أن عيسى عليه السلام قد توفي، ولكنه سيُعاد إلى الحياة ويُبعث ثانيـــة، لذلك لم يقل إنه نازل من السماء، بل قال خارج.

أما الرواية الثالثة فقد ذكرها ابن الأنباري في كتاب "المصاحف"، فعـــن عبـــد الرحمن الأسلمي قال: كنت أُقْرِئُ الحسنَ والحسين، فمرّ بي عليّ بن أبي طالب وأنا أُقرئهما "خاتِم النبيين" بكسر التاء، فقال: أَقْرِئْهما ﴿خَاتَمَ النبيين﴾ بفتح التاء والله الموفق. فسيدنا عليّ رضي الله عنه يفتي أن قراءة "خاتِم النبيين" تابعة لقراءة "خاتَم النبـــيين" بفتح التاء، ولكن المشايخ يقولون أن العكس هو الصحيح. لو كان معنى ﴿خاتَم﴾ ما يفهمه العلماء، فكان ينبغي أن يفرح عليّ رضي الله عنه عندما رأى عبد الرحمن الأسلمي يعلِّم ابنيه لفظ (خاتِم) بكسر التاء، ولكنه أمره أن يعلّمهما ﴿خاتَم﴾ بفتحهـــا لا بكسرها، مما يؤكد أن قراءة ﴿خاتَمَ النبيين﴾ بالفتح هي الأحوط عند علـــيّ رضي الله عنه. صحيح أن قراءة (خاتِم) بالكسر جائزة، ولكنه رضي الله عنه خاف أن يظن ابناه أن لا نـــبي بعد الرسول ﷺ حتى ولو كان تلميذا له وتابعا له ﷺ، فلذلك أمَـــر معلِّمَهمـــا أن يُقرِئهما ﴿خاتَم﴾ بفتح التاء لا بكسرها. مما يعني أن عليًّـــا رضي الله عنه يـــرى أن كلمـــة ﴿خَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ لا تعني المعنى الذي يفهمه العامة -أي الذي يختم النبيين ويُنـــهِي النبوة كليةً- وإلا لما نهى معلِّم ابنيه من قراءة (خاتِم) بكسر التاء.

أما الرواية الرابعة التي تلقي الضوء على هذا الموضوع فهي رواية ابن مندة، عَن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمَّا مَاتَ إِبْرَاهِيمُ ابْنُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ صَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: إِنَّ لَهُ مُرْضِعًا فِي الْجَنَّةِ، وَلَوْ عَاشَ لَكَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا، وَلَوْ عَاشَ لَعَتَقَتْ أَخْوَالُهُ الْقِبْطُ وَمَا اسْتُرِقَّ قِبْطِيٌّ (ابن ماجة، كتاب الجنائز). وقد واجهَ العلماء مشكلة كبيرة هنا، لأنه إذا لم يكن هناك نبي بعد الرسول ﷺ فلماذا قال: وَلَوْ عَاشَ لَكَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا؟ وقد قال البعض حلاً لهذه المعضلة بأن ابن كلّ نبيٍّ نبيٌّ، وقد أمات الله تعالى إبراهيمَ لكي لا يصبح نبيًّا وليتحقق قولُه تعالى ﴿وخاتَمَ النبيين﴾. لكنه قولٌ باطل، لأنه لو صحّ أن ابن النبيّ نبيٌّ، فيجب أن يكون الناس كلهم أنبياء، لأنهم أبناء آدم، فإذا لم نعتبر آدم نبيًّا، فيجب أن يكون نصفُ العالم أو رُبْعُه أنبياء، لأن أكثر الناس هم أبناء نوح، بل كل الناس أبناؤه بحسب روايات بني إسرائيل.

كذلك لو صحّ أن ابن كل نبي نبي فيجب أن يكون جميع أبناء يعقوب عليه السلام أنبياء، لكننا نجد بينهم مَن باعوا أخاهم يوسف عليه السلام، وكذبوا على أبيهم بأن الذئب قد أكل يوسف. ثم لماذا لم يكن أبناء يوسف أنبياء؟ بل الحق أنه قد شاع بين الناس بعد وفاته عليه السلام أنه لن يبعث الله بعده نبيًّا. فلو أن أبناءه كانوا سيكونون أنبياء فلماذا قال الناس ذلك؟ فثبت أن القول أن ابن النبي نبي خلاف للواقع.

ويقول البعض أنه لما كان من المقدر أن لا يكون بعد النبي نبي، فخاف النبي ﷺ أنه لو عاش إبراهيم لصار نبيًّا، فلذلك أماته الله تعالى كي لا يصبح نبيا. ولكنه قول غير معقول ألبتة، لأن ما لم يكنْ مقدّرا من عند الله تعالى لا يقال عنه مثل هذه الكلمات. إن النبوة أمرٌ شرعيٌّ وليست بأمر طبيعي، وما دام بابها كان قد أُغلقَ، فأنَّى لإبراهيم أن يصير نبيا؟ ما دام الله تعالى قد قرر ألا يكون بعد النبي نبي فكيف يمكن لإبراهيم أن يكون نبيا، حتى ولو عاش؟ فمن الخطأ القولُ أن الله تعالى أماته كي لا يكون نبيا، كلا، بل تُوفّي بحسب نواميس الله الطبيعية. وقد كانت نبوةُ

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ منسجمة مع الأحداث الواقعة بعدها، وليس أن تلك الأحداث قد وقعت تحقيقًا لهذه النبوءة. وإن كان صحيحًا أن الله تعالى يخلق بعض الأحداث أحيانا تحقيقا لبعض النبوءات.

باختصار، إن هذا الحديث يثبت إمكانية النبوة، وإلا لما قال النبي ﷺ: لَوْ عَاشَ لَكَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا.

سورة الكافرون

مكية وهي سبع آيات مع البسملة وهي ركوع واحد

هي مكية عند ابن مسعود، وهو قول الحسن وعكرمة. أما ابن عباس وقتادة والضحاك وابن الزبير فيرون أنها مدنية (فتح البيان). وعن ابن عمر أنه رأى الرسول ﷺ ٢٤ مرة يقرأ هذه السورة في الفجر والمغرب. (مسند أحمد، مسند عبد الله بن عمر)

وعندي أن العدد ٢٤ ليس مقصودا بذاته، إنما يراد به الكثرة. ويتضح من هذا الحديث أن الرسول ﷺ إذ كان يتلو في الفجر طوال السور بكثرة، فكان أحيانًا يقرأ قصار السور مثل "الكافرون" و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أيضا.

وعن أبيٍّ بن كعب أن الرسول ﷺ كان يقرأ عادة في صلاة الوتر: ﴿سبِّحِ اسمَ رَبِّكَ الأَعْلى﴾ والكافرون و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. (المستدرك للحاكم، كتاب التفسير)

وعن عبد الله بن عمر أن الرسول ﷺ قال:﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تَعدِل ثُلث القرآن، و ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ رُبْعَه، وقد قرأ هاتين السورتين في صلاة الفجر مرات عديدة (الترمذي، أبواب فضائل القرآن).

هذه الرواية قد وردت في المعجم الأوسط للطبراني.

وليس المراد من هذا الحديث أن ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تساوي ثُلث القرآن و﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ تساوي رُبْعَه حرفيًا، إذ لو كان الأمر كذلك فما كان هناك حاجة لإنزال سائر القرآن. إنما المراد أن الحقائق في أصلها مختصرة جدا، فمثلا: إن خلاصة الدين بحسب القرآن والسنة هي حُبُّ الله والشفقةُ على العباد، فلو قال أحد إن الشفقة على العباد هي نصف الدين، فهذا لا يعني أنه لم تعُدْ هناك حاجة إلى ما تبقى من الدين، وإذا قال أحد إن حُبَّ الله أمرٌ بالغ الأهمية، فلا يعني ذلك ألا حاجة لما تبقى من الدين. إذن، إنما المراد من قول الرسول ﷺ هذا أنّ مفاهيم

هاتين السورتين بالغة الأهمية، وإذا تدبّرَها الإنسان تدبُّرًا سليمًا حُلَّت له كثير من مسائل الدين التي صعب عليه فهمُها. فعلى سبيل المثال، إن سورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تركِّز على التوحيد، والحق أن وحدانية الله روح الدين، وإذا فهِمها أحدٌ اتضحت له الكثير من قضايا الدين بجلاء، وهدتْه فطرتُه السليمة إلى الكثير من تفاصيل الدين. أما سورة الكافرون فتركّز على الاستقامة على الدين، وأيّ شكّ في أن الاستقامة على الحق ليست أقلَّ أهمية من تصديقه. فإذا كان إنكار الحق يؤدي إلى مفاسد معينة، فإن عدم الاستقامة عليه يؤدي إلى مفاسد مثلها أو أكثر. لقد جاء الإسلام، فاعتنقه الناس، فكشف الله تعالى قوة الإسلام وشوكته فانتشر إلى أكناف العالم، ورغم أنه لم يؤمن به حتى نصف سكان العالم، إلا أنه صار غالبا على العالم كله، ولم يكن هناك في الظاهر ما يُضعفه، ولكنه تقلَّص وانكمش حتى ارتفع إلى السماء بحسب التعبير النبوي (البخاري، كتاب التفسير). لماذا حدث ذلك؟ لم يحدث هذا لأن المسيحية أو اليهودية أو البوذية أو الهندوسية هزمت الإسلام، كلا، إنما لأن المسلمين غفلوا عن الاستقامة والتمسك بالإسلام، وألقوه كما تُلقى الثياب البالية. لو أنهم استقاموا عليه لكان العالم كله مسلما اليوم، وكانوا غالبين مقتدرين في العالم بدلاً من أن يَؤولوا إلى ما نراهم فيه اليوم من ضعف وقلة حيلة. ولو أن رسول الله ﷺ قد اعتبر سورة الكافرون نصف القرآن لهذا السبب نفسه فقد صدق، والحق أنه لو اعتبرها أكثر أهمية من ذلك ما جانبَ الحقَّ والصدق أبدًا.

وعن نوفل بن معاوية الأشجعي قال: يا رسول الله، علِّمْني ما أقرأُه قبل النوم، فقال رَسُولُ اللَّهُ ﷺ: اقْرَأْ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، ثُمَّ نَمْ عَلَى خَاتِمَتِهَا؛ فَإِنَّهَا بَرَاءَةٌ مِن الشِّرْكِ (أبو داود والنسائي والترمذي وأحمد). هذا الحديث يدعم الاستدلال الذي قمت به آنفا، ذلك أن عزيمة المؤمن بأنه لن يتخلى عن الحق ولن يرضى بالباطل مهما حدث، تُولِّدُ فيه قوة مذهلة، أما إذا أبى الناس التخلّي عن أفكارهم السابقة أو أفكار آبائهم أو مشايخهم، فأيُّ شبهة في هلاكهم ودمارهم؟

كما أن هذا الحديث يؤكد أن الأفكار التي ينام بها المرء، تترسخ في ذهنه بقوة. والحق أن الإسلام هو وحده الذي كشف هذا الأمر، واللافت أن المسلمين هم الذين قد نسوا هذا الأمر. إن عقل الإنسان لا يفكّر في شيء حين يقع على مسامعه فحسب، بل لا يبرح عقله يفكّر فيه وقت فراغه، ومن أجل ذلك أمَرنا الشرع بالأذان في أذن الوليد اليمنى والإقامةِ في أذنه اليسرى فور ولادته. وكذلك قد أمَرنا الرسول ﷺ حين الفراغ من مشاغل الدنيا والإيواء إلى الفراش بنفْض أفكارنا الدنيوية وقراءةِ بعض الأدعية متدبرين فيها قبل النوم. والحكمة في ذلك أن عقل المرء يظل فارغًا طوال الليل فيستعيد أحداث النهار، ولذلك يحلم في منامه أحيانًا بما وقع معه من أحداث، أو اختلج في قلبه من أفكار، وما رأى من مشاهد خلال النهار، ولو أنه نامَ مردّدًا بعض الأدعية الرائعة والتسبيح والتحميد ومتدبرًا فيها، فلا بد أن تحول الأدعية والأذكار في عقله الفارغ خلال نومه، وبالتالي ترتسم وتترسخ في عقله بقوة، ولن تنمحي منه بسهولة، فيزداد إيمانا واستقامة.

وقد ورد في معجم الطبراني ومسند أبي يعلى عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: ألا أدلّكم على كلمة تنجيكم من الإشراك بالله؟ تقرأون ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ عند منامكم.

وهذا الحديث أيضا يدعم استنتاجي السابق.

وقد أخرج ابن مردويه عن زيد بن أرقم أن مَن لقي الله تعالى بسورتين لم يحاسبه، وهما: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾. (الدر المنثور: سورة الكافرون، وكنز العمال: ج١، الكافرون)

هذا الحديث إنما يعني أن الذي يؤمن بالتوحيد متمسكًا بما في هاتين السورتين من رسالة بقوة وثبات واستقامة، سيمرّ من دون حساب.

وقد نقل الطبراني والبزار وابن مردويه عن الخباب أنه كلما أَوَى رسول الله ﷺ إلى فراشه قرأ سورة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، ولم يحدث قط أنه أوى إلى فراشه بدون قراءها كلها (فتح البيان).

وفي صحيح مسلم عن جابر ﵁ أن رسول الله ﷺ كان يقرأ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ في ركعتي الطواف (مسلم، كتاب الحج).

وفي مسند أحمد، عن ابن عمر قال: "رمقتُ النبيَّ ﷺ شهرًا، فكان يقرأ في الركعتين قبل الفجر ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ و﴿قل هو الله أحد﴾.

أما عن فضائل هذه السورة فقد روى جبير بن مطعم قال: قال لي رسول الله ﷺ: أتحبّ يا جبير إذا خرجتَ سفرًا، أن تكون مِن أمثَلِ أصحابِك هيئةً، وأكثرِهم زادًا؟ فقلت: نعم، بأبي أنت وأمي. قال: فاقرأْ هذه السورَ الخمس: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، و﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، وافتتحْ كلَّ سورة ببسم الله الرحمن الرحيم..... قال جبير: وكنتُ غنيًا كثيرَ المال، فكنت أَخرُج مع مَن شاء الله أن أخرج معهم في سفر، فأكون أَبَذَّهم هيئةً، وأقلَّهم زادًا، فما زلتُ –منذُ عَلَّمَنيهنّ رسولُ الله ﷺ وقرأتُ بهن– أكونُ مِن أحسنِهم هيئةً وأكثرِهم زادًا. (مسند أبي يعلى، حديث جبير)

الملاحظ هنا أن الرسول ﷺ قال له أن يبدأ كل سورة بالبسملة، وهذا دليل على أن البسملة جزء من كل سورة.

لا شك أن في قراءة سور القرآن بركات، فمَن قرأ القرآن أصبح محبوبا عند الله تعالى ومهبطًا لفضله، غير أن هناك أمرًا آخر في هذه السور وهي أنها تُقدِّم مقارنةً مع الأديان الأخرى، وتحثّنا على التخلص من كل ضعف وتقصير، وعلى الاستقامة عند الشدائد، والتمسكِ بالتوحيد، والامتناعِ عن الخصومة والشجار. وعندما يتدبر الإنسان في هذه المعاني مرةً تلو مرة، يبقى متحليًّا بهذه الخصال الحميدة وتنكشف عليه أهميتها وقيمتها أكثر، وبالتالي يزداد عزًّا في أعين الخصوم، ويكون سببًا في اتحاد الأمة في أعين الأحباب. إن الخصوم إذا رأوا أحدًا قد رُعب منهم، ارتفعت معنوياتهم واحتقروا قومه؛ فعندما زرت إنجلترا في عام ١٩٢٤ لدراسةِ فُرَصِ نشر دعوة الإسلام، كنتُ ألبس نفس الثياب التي ألبسها في الهند، والأوروبيون لا يحتقرون لباسنا هذا فحسب، بل يعتبرونه لباس نوم، لكونه فضفاضًا مثل لباس

نومهم، وبتعبير آخر إنهم يعتبروننا عراةً في هذا اللباس، لأنهم لا يخرجون بلباس نومهم أمام الآخرين. فجاءني داعيتنا المسؤول يومًا وقال لي في قلق: إنّ لباسكم هذا يسبّب عثرةً للكثيرين، فإذا كان حضرتك لا تستطيع أن تلبس بنطلونًا فيمكنك أن تلبس سروالاً دافئًا كالذي يلبسه سكان مدينة "عليكره" بالهند، وتُدخل القميص فيه. فقلت: لماذا أفعل هكذا، وكيف يحق لهم الاعتراض على لباسي القومي؟ قال: الأمرُ لا علاقة له بالحق وعدمه، إنما أقول أن هذا يعطي انطباعا سيئا ويتسبب في احتقار قومنا. وفي اليوم نفسه جاء لزيارتي عميدُ كلية الاستشراق (School of Oriental College) السير داني سن راس (SIR DANY SUNROSS) في رفقة بعض كبار القوم، فناقشتُ معهم القضية نفسها وقلت: هل تحتقرون لباسنا هذا؟ قالوا: لا، لا، كيف يمكن أن نحتقره؟ إنه لباس رائع. فعرفتُ أنهم يخفون ما في قلوبهم ولا يقولون ذلك إلا بسبب المجاملة التي يشتهر بها الأوروبيون، فأصررتُ عليهم وقلت: إنكم أصدقائي، فأَخبِروني بصدقٍ رأي شعبكم في هذا اللباس. فقالوا: الحق أن أهل بلادنا يستاءون ممن يظهر أمامهم بهذا اللباس ويحتقرونه. وكان السير داني سن راس (SIR DANY SUN ROSS) قد عمل أستاذا في جامعة "عليكرة" وجامعة في كالكوتا أيضا، فقلت له: لقد عشتَ في بلادنا، فهل كنت تلبس السروال أو الإزار مثلنا؟ قال: لا. قلتُ: إذا ذهبتَ إلى بلادنا وعشتَ هناك بلباس بلدك فلا حرج في ذلك، ولكن لو جئنا إلى بلادكم بلباسنا فتستاءون منه! ألا يعني ذلك أنكم تعتبرون قومكم أفضل من الآخرين وتحتقرون قومنا، فتطالبوننا بما لن تفعلوه لو طُلب منكم في الظروف نفسها؟ وما دام الأمر هكذا فكيف تقبَل الغيرة القومية للهندي أن يغيّر لباسه إرضاءً لكم؟ ثم قلت له: أخبرْني بصدق، ألا تفرحون حين يلبس هنديٌّ المعطف والبنطلون قائلين بأنه قد اعترف بتفوقكم القومي، ولذلك اختار لباسكم؟ فقال: هذه الفكرة تكون في عقلهم الباطني حتمًا، سواء فكَّروا هكذا تماما أم لا. قلتُ: هذا يعني أنكم تغضبون على من يلبس لباس قومه في بلادكم وترون في ذلك إساءة إليكم، ولكن تفكّرون في عقلكم الباطن أيضا أن هذا الشخص لم يرتعبْ منكم ولا من

حضارتكم. فقال في شيء من الخجل: هذا صحيح إلى حدّ ما. فقلت له: عند خروجي من الهند كنت قد أخذت معي بسبب الجوّ البارد هنا بعض السراويل التي تشبه البنطلون والتي تشبه ما يلبسه أهل "عليكره" عندنا -إذ هو يبدو كالبنطلون ولكن يكون فيه تِكَّة لشدِّه بدل الحزام- ولكني لن ألبسها الآن أبدًا بل سأرجع بها معي، لأني لا أعتبر أهلَ بلادي أقلَّ منكم درجةً بسبب حُكْمِكم على الهند، ولا أعتبر بلادي أقلَّ حضارة من حضارتكم، ولستُ مستعدًّا لتقليد الحضارة الإنجليزية.

فقول الرسول ﷺ لجبير بأنك إذا قرأت هذه السور أصبحتَ أمثَلَ هيئةً وأكثرَ هيبةً، إنما هو إشارة إلى أن هذه السور تقدّم التعاليم الإسلامية الأساسية، وتحض على الاستقامة بها رغم المعارضة، ومن الطبيعي أن الذي يتمسك بتعاليمه وأفكاره بشجاعة في الظروف الصعبة، فهو يرسي بين الناس عِزَّه وعِزَّ أُمته. أما قول النبي ﷺ لجبير بأن هذا سيجعلك أكثرهم زادًا، ففيه إشارة إلى أن الذي يرفض الخضوع أمام الآخرين، لن يفكّر أن يأتي الآخرون لتفقُّد حاله ومساعدته، وعندما يحرّر فكره من مساعدة الآخرين فلا بد أن يسعى جاهدًا لكسب الرزق الحلال المحترم.

ليت شبابنا يرددون هذه السور ويتدبرونها عند السفر إلى البلاد الغربية أو خلال أسفارهم في تلك البلاد، فهذا يحميهم من التأثر من قوى الكُفر دائمًا، فلن ينتابهم إحساس بالضعف وهوان قومهم ودونيّتهم.

الحق أن المرء لا يتأثر بالظروف المحيطة به في الظاهر بقدر ما يتأثر من عقليته المنهزمة. إن الأوضاع السيّئة يمكن تغييرها بكل سهولة، أما العقلية المنهزمة فتغييرها صعبٌ جدا. إذ يوجد في آسيا رغم تدهور معيشتها مئات الآلاف من أصحاب الملايين والمليارات، ولكن قليل منهم الذين ليس لديه عقلية منهزمة. إننا نحن الآسيويين قد كسبنا الأموال رغم العراقيل الشديدة من قِبل الأوروبيين، ولكن لم نستطع حماية عقليتنا من هجماتهم، وهذه السور تحثّنا على إصلاح هذه العقلية المنهزمة، وتمدّنا بما يساعدنا على هذا الإصلاح.

قال الأصمعي بأنه في زمن الصحابة والتابعين كان يقال لـ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ المُقشقِشتان، أي أنهما تُبرِّئان من النفاق، وقال أبو عبيدة: كما يقشقِش الهناءُ● الجرَبَ فيبرئه. (القرطبي)

زمن نزولها:

يرى المستشرق "نولدكه" أن هذه السورة نزلت في مكة في أواخر الفترة الأولى من الدعوة.. أي في حوالي السنة الرابعة تقريبا، إذ صار محمدا (ﷺ) عندئذ قادرًا على نقاش الكفار، إذ تحدّدتْ نظريات المسلمين والمشركين الرئيسة في ذلك الوقت بعد النقاش المبدئي بين الطرفين في الزمن الأول من البعثة. وأي شك في أن ذلك هو الوقت الحقيقي للنقاشات الدينية (تفسير القرآن للقس "ويري").

لقد أصاب "نولدكه" في قوله أن حقيقة النظريات التي يقدّمها أي دين في بدايته لا تكون لِجدّتِها واضحةً على الكافرين بشكل كامل، فلا يكون النقاش الديني في بداية الدعوة إلا سطحيًا، ولكن بعد مرور وقت من النقاش ومداولة الآراء بين الطرفين يصبح أتباع الدين الجديد قادرين على تقديم أفكارهم بشكل محدد، كما يصبح أعداؤهم قادرين على تقديم أفكارهم المشتتة بشكل محدد. ولا شك أنه عند قيام حركة جديدة مكان الحركة السابقة البالية، لا يقدر الناس على دراسة أفكار الطرفين بشكل محدد وتحليلِها، إلا بعد قيامها ببضع سنوات. فلأن هذه السورة قد وجَّهت تحديًا قطعيًا للكافرين، فاستنتج "نولدكه" من شهادتها الداخلية هذه أنها نزلت في أواخر الفترة الأولى من البعثة النبوية.

لقد قلنا مرارًا بأن نزول القرآن الكريم ليس تابعًا للظروف والأحوال، وإنما نزل بسبب الحاجات الأساسية، فنهى عن السيئات وبيّن الحسنات، ورغم هذا الأمر الأساس، فإننا نسلّم –بصدد هذا التحدي الذي وجّهَتْه هذه السورة للكافرين– بأنه

● الهِناءُ: هو ما يُطلى به البعيرُ من الجرب. (المترجم)

قد تمَّ فعلاً، وذلك حين أصبح معارضو الإسلام قادرين على استيعاب هذا التحدي وقبوله، ولهذا فإننا لا نتردد في قبول رأي "نولدكه" هذا بأن هذه السورة نزلت في بداية السنة الرابعة من البعثة أو قبلها بقليل، بشرط ألا تكون شهادة التاريخ خلاف ذلك، لأن هذا هو الوقت الذي صار معارضو الإسلام فيه قادرين على استيعاب دعواه بشكل محدد، وكذلك على تحديد مبادئ دينهم إزاء الإسلام، فبرؤية إقبال الناس على الإسلام فكّروا في التصالح مع المسلمين بشكل ما. وسوف أبين لاحقًا أن هذه السورة لا تتناول هذا الموضوع فقط، بل تحتوي على مفاهيم واسعة جدا، غير أنه ليس بمستبعد أن تكون قد نزلت بسبب هذا الموضوع في وقتها المناسب. باختصار، إن "نولدكه" مستشرق كبير، بل هو رأس المستشرقين، وبالتالي فلا يسعهم إنكار أن زمن نزول هذه السورة هو السنة الرابعة أو أوائل السنة الخامسة على الأكثر، وذلك بحسب القواعد التي وضَعها زعيمُ فئتهم. والحق أن التسليم بقول "نولدكه" هذا يفنّد كل الروايات التي ينقلها هؤلاء عن القصة المتعلقة بسورة النجم؛ إذ نزلت سورة النجم في السنة الخامسة أو بعدها. فما دامت سورة الكافرون قد سبقت سورة النجم نزولا - كما هو إيماننا، وكما هو ثابت بحسب القواعد التي وضعها المستشرقون أنفسهم- فكيف يعقل أن تكون مطالبة المشركين التي قد رُفضت في سورة الكافرون رفضًا باتا، قد أثّرت في الرسول ﷺ عند نزول سورة النجم، حتى جَرَتْ على لسانه -معاذ الله- كلمات تؤيد الشرك إلى حد بعيد؟ إذن، فالبحث الذي قام به المستشرقون حول زمن نزول سورة الكافرون لدليلٌ قاطع على زيف القصة الملفقة حول سورة النجم.

الترتيب والترابط:

وكما قلت من قبل، إن هذه السورة تتعلق بالزمن الأخير للإسلام على ما يبدو، إذ تتعلق السورة السابقة بزمن النبي ﷺ. لا شك أن الحديث فيها يمكن أن يكون عن أهل زمن الرسول ﷺ، بل هو فعلاً هكذا، ولكنها تركّز عما سيحدث في

الزمن الأخير خاصة؛ حيث بيّن الله تعالى أنه سيأتي على الناس زمان يصبح الكفر فيه غالبًا على الإسلام مرة أخرى، حتى يكاد يقضي على الإسلام من الناحية المادية، غير أن روح النبي ﷺ ستظهر في العالم ثانية متمثلةً في أحد تلامذته الذي يكون ظِلاًّ له، والذي سيوجِّهُ لأهل الكفر نفس التحدي الذي وجّهه النبي ﷺ في زمنه قائلا لهم بأنكم مهما بذلتم من جهد، فإني لن أخضع أمام الكفر، ولن أقبل ما يقدِّمه. وهو نفس الزمن الذي يسمى زمن المهدي والمسيح، والذي كان من المقدر أن ينال فيه الدجالُ أو يأجوجُ ومأجوجُ -أي المسيحيةُ- الغلبةَ الدينية والسياسية على الإسلام، ويرسي الحكم المسيحي في العالم بالقضاء على قوة الإسلام وشوكته في الظاهر. فهذه السورة تنبئ أن عامة المسلمين سيُلقون السلاح بتأثير الأفكار الغربية، ولكن روح محمد ﷺ ستأبى الاستسلام أمام هذه الأفكار غير الإسلامية كل الإباء، وسيكون الإسلام غالبًا على الكفر ثانيةً بدون اللجوء إلى العنف والإكراه، فتتطهر القلوب من الكفر والإلحاد وترغب في الإسلام مرة أخرى.

ومما يربط هذه السورة بالتي قبلها أن الله تعالى أخبر في سورة الكوثر أنه سيُنعم على محمد ﷺ بنِعم عظمى لا نظير لها عند أي نبي في العالم، وسيقدمه أمام الدنيا كآدم جديد، إذ يُهلِك نسل أعدائه، فلن يستمر إلا نسله ﷺ؛ أما في هذه السورة، فقد أشار الله تعالى إلى مضمون سورة الكوثر، فقال: يا مَن تنكرون محمدا رسول الله، ما دمتم لا تؤمنون به مع رؤية ما خوّلناه من منن عظمى، فكيف تظنون أن أتباعه سوف يتخلون عن دينهم متأثرين بعقائدكم الباطلة وحججكم الواهية؟ إذا كان الوهم يأبى أن يتخلى عن موقفه، فكيف يمكن أن تحيد المشاهدة عن موقفها؟ فجهودكم هذه غير عقلانية؛ إذ كان ينبغي عليكم -والحال هذه- أن تلزموا الهدوء وتنتظروا حكم الله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿٢﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٣﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٤﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٥﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٦﴾

التفسير: يمكن أن يراد بـ "الكافرون" هنا فئة معينة من الكافرين، أو كل الكفار الذين كانوا في زمن الرسول ﷺ أو الذين يأتون بعده. وكما قلت فيما سبق، فإن المراد هنا الكفار في كل زمن، أي أن الخطاب هنا موجه للكافرين من مشركي مكة وغيرهم في زمن الرسول ﷺ، وأيضا للكافرين من المسيحيين وأتباع الأديان الأخرى الذين سينالون القوة والغلبة في الزمن الأخير. فالمعنى: أقول لكم يا أيها الكافرون من مكة، أو يا أيها الكافرون إلى يوم القيامة، ولا سيما كفار الزمن الأخير الذي يصبح فيه الإسلام ضعيفا ومغلوبا على أيديهم.

أما قوله تعالى ﴿قُلْ﴾، فمعَ أن الخطاب هنا للرسول ﷺ في الظاهر، إلا أنه موجّه في الواقع إلى الذين يأتون بعده، لأن مفهوم الآية أوسعُ كثيرًا. والحق أن فيه إشارة إلى أن شخصية الرسول ﷺ ستظهر مرة بعد أخرى في الدنيا ظهورًا بُروزيًّا.. أي مجازيا. لو كان الخطاب هنا موجها إلى الناس العاديين فقط، لكان له معنى آخر، ولكن الله تعالى قد أمر الرسول ﷺ أن يتحدى بذلك أهلَ كلّ زمن، وفيه دلالة واضحة على ظهور قوته القدسية في كل زمن؛ حينًا على نطاق صغير، وحينًا على نطاق كبير، وإلى هذا الأمر نفسه قد أشار حديث الرسول ﷺ: "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها" (أبو داود: كتاب الملاحم).. أي مَن يزيل ما تسرب إلى الناس من أخطاء دينية في ذلك القرن. فكلمة ﴿قُلْ﴾ إشارةٌ إلى هذا الأمر نفسه، فكأن هذا الحديث يبين أن الرسول ﷺ سيظهر على رأس كل

قرن على الأقل في هذه الدنيا ليتحدى المنحرفين عن سبيله قائلا بأني لـن أتّبـع طريقكم، وإنما أتّبع صراط الله الذي دلّني عليه، وهكذا سوف يتجـدد الإسـلام ويتطهر من كل الشوائب في كل عصر. أما في زمن المسيح والمهدي فيتجلى هـذا الأمر بصورة أجلى، لأن هناك أنباءً عن ظهور فتن عظمى في زمنه، حـتى قـال الرسول ﷺ بأنه ما بُعث نبي إلا وقد أنذر أمته الدجال. (أبو داود: كتاب الملاحم، باب خروج الدجال)

أما حرف النداء (يا) الوارد في قوله تعالى ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ فقد أضيف إليه ﴿أيُّها﴾ لوجود (ال) التعريف في ﴿الْكَافِرُونَ﴾، لأن اقتران (يا) بِـ (ال) غـير مستساغ عند العرب، فيفصلون بينهما بِـ (أيها). هذا ما ذكره بعـض النحـاة، بينما يذكر آخرون سببًا إضافيا، وهو التنبيه. فسواء كان هناك سـبب واحـد أو اثنان، إلا أن العرب يضيفون بعد "يا" لفظ "أيها" إذا كانت الكلمة التالية تبدأ بِـ (ال) التعريف. غير أنهم لا يضيفون "أيها" قبل لفظ الجلالة، فلا يقولون: يا أيهـا الله، مع وجود (ال) في لفظ الجلالة، مما يدل على أن (ال) هنا ليس للتعريف وإنما هو جزء من هذا الاسم الذاتي لله تعالى.

أما الذين قالوا بأن الهاء في ﴿أيُّها﴾ هي للتنبيه والتأكيد، فيقولون إن المعنى هنا: اسمعوا وَعُوا يا كافرون مِن أي مكان وزمان. أما المعنى العادي الخالي من التنبيـه فهو: يا كافرون؛ سواء من العرب وغيرهم، وسواء من عصر الرسول ﷺ، أو مِـن أي زمن آخر (مغني اللبيب).

أما ﴿الْكَافِرُونَ﴾، فاعلم أن الكفر يعني إنكار أي شيء كان، فقد ورد الكفر في القرآن الكريم بمفهوم جيد وسيئ أيضا، فمثال وروده بالمعنى الجيد هـو في قولـه تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُـرْ بِالطَّـاغُوتِ وَيُـؤْمِنْ بِاللَّـهِ فَقَـدِ اسْتَمْـسَكَ بِـالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾(البقرة:٢٥٧).. أي أن الذين يرفضون ما يقوله الشياطين أو إخوانهم من الناس ويؤمنون بالله بصدق، فهم ثابتون على صخرة قوية. أما مثال ورود الكفـر بالمعنى السيئ فهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾(النساء:١٥١).

لقد ثبت من هنا أن لفظ الكفر في حد ذاته ليس حسنًا ولا سيئا، إنما معناه الأصلي الإخفاء والكتمان، فإخفاء السيئة أو الحسنة كفرٌ، ولكن قد كثر استعماله في القرآن الكريم بمعنى إنكار الخير، لذلك يراد به المعنى السيئ عادةً إلا إذا كانت هناك قرينة تخالف هذا المعنى. كما أن "الإيمان" يُستخدم عادةً بالمعنى الحسن، إلا إذا كانت هناك قرينة؛ إذ ورد لفظ الإيمان في القرآن الكريم بالمعنى السيئ أيضا، كقوله تعالى ﴿يُؤْمِنونَ بِالجِبْتِ والطّاغوتِ﴾(النساء: ٥٢).. أي أنهم يؤمنون بالشيطان والأمور الشيطانية.

والحق أن استعمال القرآن الكريم لهذه الكلمات بمعان معينة لا يخلو من حكمة، فرغم أن لفظ الإيمان يعني التصديق، ولكنه يعني أصلاً إتاحة الأمن والبركة للآخر، وحيث إن معناه الأساسي هذا حسنٌ، فاستعمله القرآن بالمعنى الحسن عادةً، إلا أن يكون هناك قرينة. أما لفظ الكفر فيعني الإخفاء والكتمان، وهذا المعنى ليس جيدًا أساسًا؛ إذ يشير إلى الشر والسوء، لأن الشر هو الذي يُخفى عادةً، فاستخدم القرآن لفظ الكفر بالمعنى السيئ عادةً، إلا أن يكون هناك قرينة. إذن، فلفظ الكفر سيئٌ إلا أن يكون هناك قرينة، ولفظ الإيمان حسنٌ إلا أن يكون هناك قرينة.

أ: لقد قال المفسرون كلهم -تقريبا- أن الحديث هنا عن كفّار مكة. لقد سجّل السيوطي في "الدر المنثور" روايات مفادها أنّ هذه السورة نزلت ردًّا على بعض أسئلة المشركين.

أما الشوكاني صاحبُ "فتح القدير" فقال: إن "ال" في ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ هي للجنس.. أي أن الآية إشارةٌ إلى الكافرين كلهم، إلا أن المقصود هنا هم كفار مكة الذين وجَّهوا للنبي ﷺ بعض الأسئلة وماتوا على الكفر.

أما ابن جرير فقال في تفسيره: "قُلْ يا محمد لهؤلاء المشركين الذين سألوك" (جامع البيان).

أما الشيخ إسماعيل حقي البروسي فقال: "وهُمْ كَفَرَةٌ مخصوصة، فلا يَرِدُ أن مقتضى هذا الأمر أن يقول كل مسلم ذلك لكل جماعة من الكفار" (روح البيان).

أما العلامة الألوسي فقال: "قال أجِلَّةُ المفسرين: المراد بهم كفرةٌ من قريش مخصوصون، قد علم الله تعالى أنهم لا يتأتى منهم الإيمان أبدا". (روح المعاني)

أما العلامة القرطبي فقال: الألف واللام هنا للمعهود الذهني، أي أنها تشير إلى الكافرين الذين في أذهان الناس. أما لو اعتبرناها للجنس، فأيضًا ليس المراد منها إلا أولئك الكفار الذين قد قضى الله أن يموتوا بكفرهم، فاللام هنا للتخصيص لا للعموم. (الجامع لأحكام القرآن)

أما الماوردي فقال: "عُني بالكافرين قوما معينين، لا جميع الكافرين، لأن منهم مَن آمن، فعَبَد الله، ومنهم من مات وقُتل على كفره". (الجامع لأحكام القرآن)

أما الزمخشري فقال: "المخاطبون كفرةٌ مخصوصون قد علم الله منهم أنهم لا يؤمنون." (الكشاف)

أما العلامة أبو حيّان فقال: "والكافرون ناس مخصوصون وهم الذين قالوا له تلك المقالة." (البحر المحيط)

لقد تبيّن من هنا أن جميع المفسرين يرون أن هذه الآية خاصة بمشركي مكة، بل بجماعة مخصوصة منهم، كانوا قد سألوا النبي ﷺ بعض الأسئلة.

لا شك أن اللفظ العام يخصَّص بسبب بعض الدلالات الخاصة أو السياق، وهناك أمثلة على ذلك في القرآن الكريم، ولكن تخصيص العامّ بلا سبب لا يجوز، لأن هذا يعني تحديد مفاهيم القرآن الواسعة، ومحاولة حصر محيطه في نهر صغير، وهذا ليس خدمةً للقرآن، بل عداءٌ له، لذلك فعلينا أن نرى ما إذا كان هناك قرينة تجبرنا على تحديد المعاني الواسعة الثابتة من اللغة وأسلوب القرآن. فالكافر يعني لغةً المنكِر، سواء كان مشركًا أو غير مشرك، مكيًّا أو غير مكيّ، فالمراد من ﴿الْكَافِرُونَ﴾ هنا كل المنكِرين.

لا شك أنه في اللغة العربية -بل في كل لغة تقريبًا- تكون الكلمة مخصوصة المعنى في الظاهر أحيانًا، وهي تعني العموم في الواقع، كما يحدث العكس أيضًا، ويُلجأ لهذا الأسلوب من أجل الاختصار والإيجاز، فمثلاً إذا قلتَ واضعًا في الحسبان شخصا معينا: إن الشرير يعاقَب دائما، فلفظُ الشرير عامّ، ولكنك تقصد

به شخصا معيّنا، كذلك نقول لكاذب أحيانا: لقد كذبتَ وسوف تخزى الآن، ونعني بذلك أن كل كاذب يذل ويهان، وكذلك سيخزى هذا أيضا. فتعميم الخاص وتخصيص العام قاعدة في كل لغة تقريبا، بل هو ركن أساس في اللغة، ولولاها لاضطررنا لاستعمال عبارات طويلة لبيان أمر بسيط. لا شك أن هذا الأسلوب قد يؤدي إلى الإبهام، لكن يمكن تفاديه بالنظر إلى سياق الكلام ومحله. وقد اتبع القرآن أيضا هذا الأسلوب، غير أن علماء أصول الفقه قالوا بأنه مع أن العام قد يُراد به الخاص، والخاص قد يراد به العام، إلا أن القاعدة الغالبة أن العموم فوق الخصوص، بمعنى أنه إذا كان المعنى عامًّا فلا يمكن تخصيصه لورود كلمات مخصصة، بل يراد به العموم، أما تخصيص العموم فيحتاج إلى قرينة واضحة قوية، ولا يجوز تخصيص المعنى العام إلا بدليل قويّ؛ فقد قال السيوطي: "اختلف أهل الأصول؛ هل العبرة بعموم اللفظ أو بخصوص السبب، والأصح عندنا الأوّل" (الإتقان، ج١ ص ٥٠ النوع التاسع: معرفة سبب النزول). وكتب الشيخ محمد الخضري، أستاذ التاريخ الإسلامي في الجامعة المصرية: "العام إذا ورد أُخِذَ على عمومه، إلا إذا قام دليل التخصيص، وهو المخصِّص." (أصول الفقه للشيخ الخضرمي: ص٢٤١)

فالحق أن الموضوع يكون عامًا في بعض الأحيان، ويراد به قوم مخصوصون، وأحيانًا تخاطَب به فئة معينة، ولكن يراد به الناس جميعا، شريطة أن يكون هناك قرينة؛ ولذلك أقول: لو كان بيد المفسرين الذين طبّقوا هذه الآية على قوم أو أفراد مخصوصين دليلٌ فلا يمكن أن نخطّئهم، لأنه جائز ومستعمل في القرآن وفي لغات العالم أيضا. فالسؤال الأساس هنا: هل في هذه السورة قرينة تجعل قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ مخصوصا بفئة معينة، وتمنع من تعميمه؟ لمعرفة ذلك علينا أن نرجع إلى كلمات هذه السورة. لقد قال الله تعالى هنا: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، وقد أطلق القرآن كلمة الكافر على غير المشركين أيضا في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾(البينة:٢).

فكلمة الكفر أُطلقت على اليهود والنصارى وغيرهم من الكفار مثلما أُطلقت على المشركين، فثبت أن لفظ ﴿الكافِرونَ﴾ عامٌّ وليس خاصًّا.

والآن نرجع إلى مضمون هذه السورة، فآياتها التالية تقول: ﴿لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾. والواضح أن موضوعها عام، لأن الرسول ﷺ وصحابته ما كانوا يتجنبون عبادة الأصنام فقط، بل لم يكونوا يعبدون بمفهوم العبادة الذي كان عند اليهود والنصارى وغيرهم من أتباع الأديان الأخرى. فمثلاً لم يصلِّ الرسول ﷺ الصلاة على الطريقة اليهودية ولا النصرانية، كما أن اليهود والنصارى لم يصلّوا الصلاة الإسلامية قط. فموضوع هذه الآية -أي لن تعبدوا كما أعبد، ولن أعبد كما تعبدون، أو لن تعبدوا معبودي ولن أعبد معبودكم- كما ينطبق على مشركي مكة فهو ينطبق على غيرهم من كفار العالم أيضا، وذلك لأسباب منها أولاً: لا يوجد في الدنيا دين سوى الإسلام يقدِّم التوحيد الكامل، وإذا كان دين ما يعلّم التوحيد في الظاهر فإنه يختلف مع الإسلام في بيان صفات الله تعالى اختلافًا كبيرا؛ فالديانة اليهودية مثلاً تقول بأن الإله لا يمنح قربه إلا للشعب اليهودي، فمتى كان للرسول ﷺ أو لأي مسلم آخر أن يعبد مثل هذا الإله الذي اتخذ بني إسرائيل أحباءه والذي فرّق بينهم وبين الشعوب الأخرى في معاملته؟ إن عبادة مثل هذا الإله تعني ببساطة أن الإسلام باطل، لأن مؤسسه غير إسرائيلي.

والديانة المجوسية أيضًا -وأهلها أيضا من أهل الكتاب يقينًا- تختلف مع الإسلام في بيان صفات الله تعالى اختلافا كبيرا.

فلو كان أتباع الأديان الأخرى -أعني سوى مشركي مكة- مستعدّين لأن يرضوا بالإله الذي يقدّمه الإسلام أو بطريقة العبادة التي يعلّمها الإسلام، أو لو كان الرسول ﷺ وأتباعه مستعدّين لأن يعبدوا آلهة الأديان الأخرى أو يتّبعوا طريقة عبادتهم، لجاز لنا القول بأن لفظ ﴿الْكَافِرُونَ﴾ هنا -رغم كونه عامًا- مخصوص بقوم لا يمكنهم أن يعبدوا عبادتنا، كما لا يمكننا أن نعبد عبادتهم، ولكن الواقع

خلاف ذلك، إذ ينطبق مفهوم هذه السورة على الكافرين كافة، وبالتالي لا يمكن تخصيص معنى ﴿الْكَافِرُونَ﴾ هنا.

بعد مناقشة الموضوع على ضوء قواعد اللغة العربية وأسلوب القرآن ومضمون هذه السورة، نتوجه الآن إلى تحليل الشهادات الخارجية التي بسببها حدّد المفسرون مفهوم ﴿الْكَافِرُونَ﴾ هنا.

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني عَن ابن عَبَّاسٍ، رضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ قُرَيْشًا دَعَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِلَى أَنْ يُعْطُوهُ مَالاً فَيَكُونَ أَغْنَى رَجُلٍ بِمَكَّةَ، وَيُزَوِّجُوهُ مَا أَرَادَ مِنَ النِّسَاءِ، فَقَالُوا: هَذَا لَكَ يَا مُحَمَّدُ، وَكُفَّ عَنْ شَتْمِ آلِهَتِنَا، وَلا تَذْكُرْ آلِهَتَنَا بِسُوءٍ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَإِنَّا نَعْرِضُ عَلَيْكَ خَصْلَةً وَاحِدَةً وَلَكَ فِيهَا صَلاحٌ، قَالَ:"مَا هِيَ؟"، قَالُوا: تَعْبُدُ آلِهَتَنَا سَنَةً وَنَعْبُدُ إِلَهَكَ سَنَةً. قَالَ:"حَتَّى أَنْظُرَ مَا يَأْتِينِي مِنْ رَبِّي". فَجَاءَ الْوَحْيُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾، وأنزل الله ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ إلى قوله ﴿الشَّاكِرِينَ﴾ (الدر المنثور).

والآيات التي أشير إليها هنا من سورة الزمر هي: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ * وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (الآيات:٦٥-٦٧).

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن الأنباري في "المصاحف" عن سعيد بن ميناء مولى أبي البختري قال: لَقِيَ الوليد بن المغيرة والعاصي بن وائل والأسود بن المطلب وأمية بن خلف رسولَ الله ﷺ فقالوا: يا محمد، هلمَّ فلتعبدْ ما نعبد ونعبد ما تعبد، ولنشتركْ نحن وأنت في أمرنا كله، فإن كان الذي نحن عليه أصحَّ مِن الذي أنت عليه كنتَ قد أخذتَ منه حظًّا، وإن كان الذي أنت عليه أصحَّ مِن الذي نحن عليه كنّا قد أخذْنا منه حظًّا، فأنزل الله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُون﴾ حتى انقضت السورة. (الدر المنثور)

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن وهب قال: قالت قريش للنبي ﷺ: إنْ سَرَّك أن نتّبعك عامًا وترجع إلى ديننا عامًا؟ فأنزل الله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ إلى آخر السورة. (الدر المنثور)

وأخرج عبد بن حُميد وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن قريشاً قالت: "لو استلمتَ آلهتَنا لعَبَدْنا إلهَك، فأنزل الله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ السورة كلها." (الدر المنثور)

هذه هي الروايات التي يقول المفسرون بناءً عليها أن لفظ ﴿الْكَافِرُونَ﴾ هنا يعني كفارًا مخصوصين أثاروا أمام رسول الله ﷺ قضية عبادة آلهتهم.

وفيما يتعلق بوعد الكفار للرسول ﷺ بالإعزاز والإكرام شريطة أن يتخذ موقفًا ليّنًا تجاه آلهتهم، فهذا ليس ثابتًا من الحديث فقط، بل من روايات كثيرة من التاريخ، ومروي بالتواتر، أما القول بأن هذه السورة قد نزلت لهذا الغرض نفسه، ففيه نظرٌ وشكّ.

ولنأخذ الروايات الثلاث الأخيرة من المذكورة آنفًا، فهي مختصرة وملخّصها أن الكفار عرضوا على النبي ﷺ أن يعبد آلهتهم سنة فيعبدوا إلهه سنة، أو أنهم عرضوا عليه عرضًا مفتوحًا بدون شرط السنة أيضًا. إن مثل هذا الكلام ليس غريبا من الكفار، لأن الإنسان إذا اتخذ موقفا منافيا للعقل، ثم وجد قوله لا يؤثّر في القوم، بل وجدهم ينحرفون عن عقيدته، فإنه يضطرّ لمثل هذه العروض السخيفة غير المنطقية.
ولكن السؤال هنا: هل نزلت هذه السورة بسبب هذه المطالبات فعلاً؟ وهل هناك ضرورة أن تنزل سورة في القرآن على مطالبة كهذه؟ وهل نزولها لهذا السبب معقول؟

والجواب على الأمر الأول أنه لا يوجد في الصحاح الستة أي حديث بهذا المعنى. أليس مستغربا أن تخلو الصحاح من ذكر واقعة تبلغ من الأهمية أن الله تعالى أنزل بشأنها سورة في القرآن الكريم ردًا على عرض الكافرين هذا؟

أما السؤال الثاني: هل هناك ضرورة عقلاً لنزول سورة على مثل هذا العرض؟ فجوابه واضح جدا. لقد نزل الوحي على الرسول ﷺ منذ أول يوم مركِّزًا على

التوحيد، فأول سور القرآن نزولاً جاءت تحثّ على عبادة الإله الأحد، وإنْ لم ترد فيها كلمة التوحيد؛ قال الله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(العلق:٢-٦).. أي قُمْ بالدعوة بين الناس باسم ربك الذي خلق الكون كله، والذي أودعَ حُبَّه الإنسانَ عند خلقه. نعمْ، انشرْ في الدنيا اسمَ ذلك الإله الذي هو الأكرم، الذي علَّم الإنسان شتّى المعارف والعلوم بالكتابة.. أي منَحه التعاليم الأبدية والمعارف التي لم يعرفها من قبل.

فمضمون هذه الآيات يدل على كمال ذات البارئ تعالى أولاً، وثانيًا: يشير إلى أن الله تعالى وحده لم يبرح يهدي الإنسانية بوحيه، وثالثًا: أن وحي الله تعالى يحتوي علومًا لا يمكن أن يعلَمها أحد. وكل هذه الأمور تقضي على الشرك، فما دام الله تعالى يعلِّم العباد على أيدي الأنبياء على مر العصور، ويُنزل الهدي الكامل على الدوام، فمتى يبقى للآلهة الباطلة مكان في هذا النظام الروحاني؟

والوحي الثاني الذي نزل بعد ذلك هو سورتا الْمُزَّمِّل والْمُدَّثِّر؛ قال الله تعالى في سورة المزمل: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إلا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلا﴾ (الآية:١٠)، وقال تعالى في سورة المدثر: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ (الآيات:٤-٦).. أي عليك أن تبتعد عن الشرك كل البعد ولا تُكبِّر إلا ربك، واعلمْ أن إله المشرق والمغرب إله واحد لا شريك له، فعليه توكَّلْ.

فأيُّ حاجة -بعد هذا البيان الواضح البيّن عن التوحيد- أن يُنزل الله تعالى سورة مستقلة ردًّا على عرض الكافرين هذا؟

ثم إن الرسول ﷺ كان لا يزال يعبد الله الأحد منذ السنوات الأربع السابقة لنزول سورة "الكافرون"، وكان يؤكد بعَمله أن لا إله إلا الله وحده، وما كان الخصام بينه وبين أهل مكة إلا لقوله أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، فكيف يصح القول -والحال هذا- أن الكفار عرضوا عليه ﷺ هذا العرض، فطلب من الله الهداية، فنزلت هذه السورة تنهاه عن عبادة الآلهة الأخرى؟ ما أسخفَه من قول وما أبعدَه عن العقل! فهل يمكن لأحد أن يصّدق أن مسيحيًا قال لأضعف مسلم

في العالم: تعال اعبدْ إلهنا عيسى أيامًا، ونحن نعبد إلهك أياما، فقال المسلم له: انتظرْ حتى أسأل علماءنا؟! وما دام هذا محالاً على أضعف وأجهلِ مسلمٍ، فكيف يقال أن سيد العقلاء ورافع راية التوحيد ﷺ ظل ينتظر أن يخبره الله كيف يردّ على هذا العرض؟ أو أنه ﷺ كان بحاجة إلى مثل هذا التوجيه بعد سماع عرض الكافرين هذا، رغم انقضاء أربع سنوات على دعواه؟ إني لا أستغرب من مثل هذا العرض من الكفار، لأن الأمة المنهزمة ترتكب كثيرا من الحماقات المماثلة جراء القلق والاضطراب، إنما أقول أن من غير المعقول أن يتردد الرسول ﷺ لدى سماع عرضهم ويظلّ ينتظر حتى يأتيه الجواب من الله تعالى. أنا على الأقل لا أصدق أنّ شخصا عاقلا سيسلّم بهذا الافتراض ولو للحظة. فهذا السؤال لم يردّ عليه القرآن سلفًا فحسب، بل فيه نقائص أخرى كثيرة بحيث من المحال أن ينتظر الرسول ﷺ وحي الله بصدده. فهل قولهم: سنعبد إلهك إذا عبدتَ آلهتنا، هو مما ينتظر الرسول ﷺ وحي الله تعالى للرد عليه؟ الواقع أنهم طالبوا الرسول ﷺ أن يعبد آلهتهم التي لا يؤمن بها، وعرضوا عليه أن يعبدوا الله الذي كانوا يؤمنون به ويعبدونه سلفا. إنما يماثل عرضهم هذا الطريفةَ الشهيرة عندنا بأن امرأة ذهبتْ إلى جارتها تستأذنها بأن تقوم بطحن الحبوب برحاها، فأذنت لها، فبدأت بالطحن، ففكّرتْ صاحبة البيت أن تساعد جارتها في الطحن قليلا، فقالت لها: دعيني أطحن مكانك قليلا؛ وبينما اشتغلت صاحبة البيت بالطحن رفعتْ جارتها غطاء مائدتها وأخذت تأكل طعامها قائلة: إنني أستحيي أن تقومي بعملي ولا أعمل لك عملا، فاطحني حبوبي من أجلي وأنا آكل طعامك من أجلك.

لقد أُلّفتْ هذا الطريفة لكشف حماقة بعض السذج، فهل من عاقل يقول عند سماعها: ما هو الحل لقول هذه المرأة الحمقاء؟ إن عرض الكفار ليس أقلَّ غباءً من قول هذه الحمقاء. لعل المفسرين ظنوا أن مشركي مكة كانوا يؤمنون بآلهتهم و لم يكونوا يؤمنون بالله تعالى، فعرضوا على النبي ﷺ أن يعبد آلهتم وسيعبدون إلهه، ولا شك أن عرضهم كان خلاف الإيمان وخلاف الدين بلا شك، ولكن لم يكن غير منطقي. والحق أن عرضهم كان خلاف الإيمان والدين والعقل أيضا؛ ذلك أنهم

كانوا يؤمنون بالله تعالى كما يؤمن الرسول ﷺ، وكانوا يعتبرونه ﷻ سيّدَ الآلهة كلها، إنما خطؤهم أنهم كانوا يرون بضرورة اتخاذ آلهة أخرى مع الله، إذ يقول الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾(الزمر:٤).. أي أن الذين يتخذون آلهة من دون الله تعالى يقولون إنما نعبدها لتزيدنا قربًا من الله تعالى. لقد تبين من هنا أن أهل مكة كانوا يؤمنون بالله تعالى، وبأنه مَلِكُ الكون كله.. غير أنهم كانوا يدّعون أن هناك آلهة أخرى مقرَّبة عند الله، وأنهم يعبدونها لكي تزيدهم قربا من الله وتشفع لهم عنده. فلما كان مشركو مكة يؤمنون بالله تعالى وبضرورة قربه، وما كانوا يعبدون الآلهة الباطلة إلا لتشفع لهم عند الله تعالى، فكيف يُتصور أنهم ما كانوا يعبدون الله تعالى؟ وإذا كانوا يعبدونه تعالى، فكم كان سخيفًا بأن يقولوا للرسول ﷺ أن يعبد آلهتهم فيعبدوا إلهه؟ إن الإيمان بالله تعالى كان أمرًا مشتركا بين المسلمين والمشركين، إنما كان النزاع حول الآلهة الباطلة، فمطالبتهم النبيَّ ﷺ أن يؤمن بما لا يؤمن به سلفًا، فيؤمنوا بما هم مؤمنون به سلفًا، لهو أمرٌ يُضحك المخبول أيضًا، إذ يقول لأصحاب هذا العرض: ماذا تُعطون محمدًا مقابل مطالبتكم؟ إنكم تُعطونه ما هو مِلْكٌ له، وتطالبونه بما لا تملكونه ولا غيرُكم. فما هذا الصلح الذي تدعونه إليه؟

فمطالبة الكفار التي وردت في هذه الروايات خلاف للعقل، وتتعلق بأمور قد حسَمها القرآن سلفًا، فلم تكنْ بعده حاجة لنزول سورة لحسمها، فإن خدام النبي ﷺ -ناهيك عن رسول الله ﷺ نفسه- يستطيعون الردّ على عرض الكافرين هذا ردًّا مفحمًا. فمطالبة الكفار حماقة منهم، ومن المستحيل أن يكون الرسول ﷺ قد قال ردًّا على حماقتهم: إنه سؤال وجيه ولا أستطيع الرد عليه، وسوف أجيبكم بعد أن أسأل الله تعالى. ثم إنه من غير المعقول أن يُنزل الله تعالى للرد على عرضهم السخيف سورةً لا تتضمن إلا ما كان المسلمون يعلنونه منذ أربع سنوات، ويضحي من أجله رجالهم ونساؤهم وأحرارهم وعبيدهم بأرواحهم واحدا بعد الآخر.

لا أقصد مما ذكرتُ من قبل أن الكافرين كانوا يعبدون الله تعالى مثلما كان محمد رسول الله ﷺ يعبده، كلا، بل ما كانت الأمم الموحِّدة في زعمها كاليهود والنصارى أيضا تعبد الله تعالى كما كان يعبده النبي ﷺ. إن طريقة العبادة في الإسلام طريقة جديدة فريدة من نوعها لا نظير لها في الماضي، لأن النظرية الإسلامية هي نظرية التوحيد الكامل، إذ لم يوجد توحيد كامل في الدنيا قبل الإسلام. فلا شك أن أهل مكة لم يكونوا يعبدون الله تعالى كعبادة المسلمين له، إلا أنهم كانوا يعبدونه ﷻ حتمًا، وكان مِن طرُق عبادتهم تقديم النذور لله تعالى، كما هو ثابت بجلاء من القرآن الكريم؛ حيث قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾(الأنعام:١٣٧). فكان هؤلاء يرون أن الله تعالى أعظم شأنًا من الآلهة الأخرى، ولذلك فما هو لله يصير إلى آلهتهم الأخرى -تمامًا كما يصير مال الأب إلى الأبناء -ولكن ما هو لآلهتهم لا يصير إلى الله ﷻ.

فالتدبر في هذه الآية يكشف أن القوم كانوا يعبدون الله تعالى، غير أنه لم يكن في عبادتهم لله تعالى ركوع ولا سجود، إذ لم يكونوا يركعون ويسجدون لأصنامهم أيضا، إنما كانوا يثنون عليها في شعرهم ويقدمون النذور باسمها، أو يقفون أمامها للدعاء رابطي الأيدي إذ كانوا يرونها ماثلة أمامهم. فثبت أن أهل مكة كانوا عبدة أصنام بلا شك، لكنهم كانوا يعبدون الله أيضا. كانوا يعبدون أصنامهم ويعبدون الله أيضا بحسب فهمهم وتقاليدهم.

وهناك أحداث كثيرة في التاريخ تؤكد أنهم كانوا يعبدون الله تعالى فعلاً، فهناك حادث شهير لعبد المطلب قد وردت تفاصيله في السيرة النبوية لابن هشام، وملخّصه أنه قد روي عن أبي طالب أن أباه عبد المطلب حين أَمَر بحفر بئر زمزم قال: إنّي لَنَائِمٌ فِي الْحِجْرِ إذْ أَتَانِي آتٍ، فَقَالَ: احْفِرْ طَيْبَةَ. قَالَ قُلْت: وَمَا طَيْبَةُ؟ قَالَ ثُمّ ذَهَبَ عَنّي. فَلَمّا كَانَ الْغَدُ رَجَعْتُ إلَى مَضْجَعِي، فذكَر لي اسمًا آخر للبئر. ثم لم يزل يأتيه الملاك في المنام ويذكر له اسمًا جديدا للبئر في كل مرة، حتى ذكَر

اسم زمزمَ مع علاماته ومكانه. وبناءً على هذه الرؤيا أخذ عبد المطلب المعولَ وخرج مع ابنه الحارث، وكان ابنه الوحيد حينذاك، وأخذ يحفر المكان -علمًا أن بئر زمزم قد فجّره الله تعالى من أجل إسماعيل الطَّيْلاً، وكانت هاجر قد جعلتْ حوله حاجزًا، ثم حوَّله العرب إلى بئر فيما بعد، ثم رُدمت واختفى أثرها، فكشف الله تعالى مكانها لعبد المطلب في الرؤيا ثانية- فلما رأى عَبْدُ الْمُطّلِبِ آثار البئر كَبّرَ -وهذا دليل على أن أهل مكة كانوا يؤمنون بالله تعالى ويرفعون اسمه- فَعَرَفَتْ قُرَيْشٌ أَنّهُ قَدْ أَدْرَكَ حَاجَتَهُ، فَقَامُوا إلَيْهِ فَقَالُوا: يَا عَبْدَ الْمُطّلِبِ، إنّهَا بِئْرُ أَبِينَا إسْمَاعِيلَ وَإِنّ لَنَا فِيهَا حَقّا، فَأَشْرِكْنَا مَعَك فِيهَا؛ قَالَ: مَا أَنَا بِفَاعِلِ، إنّ هَذَا الأَمْرَ قَدْ خُصِصْتُ بِهِ دُونَكُمْ وَأُعْطِيتُه مِنْ بَيْنِكُمْ. فَقَالُوا لَهُ: فَأَنْصِفْنَا فَإِنّا غَيْرُ تَارِكِيك حَتّى نُخَاصِمَك فِيهَا. قَالَ: فَاجْعَلُوا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مَنْ شِئْتُمْ أُحَاكِمُكُمْ إلَيْهِ. قَالُوا: كَاهِنَةُ بَنِي سَعْدٍ هُذَيْمٌ. قَالَ نَعَمْ........ فَرَكِبَ عَبْدُ الْمُطّلِبِ مع جماعة من قريش قاصدًا الكاهنة، فنفد ماؤهم في الطريق، فحاولوا البحث عن الماء كثيرا من دون جدوى، حتى حفروا بئرًا، ولكن لم يخرج الماء، فقال عبد المطلب: ما الفائدة من الجلوس هنا؟ تعالوا نبحث عن الماء فيما حولنا. فركبوا مطاياهم، وتَقَدّمَ عَبْدُ الْمُطّلِبِ إلَى رَاحِلَتِهِ فَرَكِبَهَا. فَلَمّا انْبَعَثَتْ بِهِ انْفَجَرَتْ مِنْ تَحْتِ خُفّهَا عَيْنُ مَاءٍ عَذْبٍ، فنادى: قد سَقَانَا اللّهُ -ومن هنا أيضا يتضح أنهم كانوا يؤمنون أن الله هو المعبودٌ- فقالوا له: قَدْ وَاَللّهِ قُضِيَ لَك عَلَيْنَا يَا عَبْدَ الْمُطّلِبِ، وَالله لا نُخَاصِمُك فِي زَمْزَمَ أَبَدًا، إنّ الّذِي سَقَاك هَذَا الْمَاءَ بِهَذِهِ الْفَلاةِ لَهُوَ الّذِي سَقَاك زَمْزَمَ"-هنا أيضا ترى أنهم يقسمون بالله- فَرَجَعُوا جميعا إلى مكة. فنذر عبد المطلب حين لقي من قريش ما لقي عند حفر زمزم: لئنْ وُلِدَ له عشرة نفر، ثم بلغوا معه حتى يمنعوه، لينحرَنَّ أحدَهم لله عَجَّلَّ عند الكعبة. فلما توافَى بنوه عشرةً، جمَعهم ورؤساءَ قريش عند الكعبة، ثم أخبرهم بنذْره الذي نذر، ودعاهم إلى الوفاء لله بذلك، فأطاعوا له، وقالوا له: كيف تصنع؟ فدخل بهم على "هُبل" في جوف الكعبة، وكان عند "هُبل" سبعة أقداح يقترعون بها، فوقف بجانب "هُبل" يدعو الله تعالى عند إلقاء القرعة، فخرجتْ باسم ابنه "عبد الله"، فقال القوم: لن نسمح لك بنحره. وبعد جدال

طويل تحاكموا إلى كاهنة في يثرب، فأشارت عليهم بنحر عشرة جِمال فداءً عن عبد الله، ولكن عبد المطلب لم يرضَ إلا أن يُلقوا القرعة، وشرع في الدعاء فخرجت القرعة باسم عبد الله، فزاد عشرةَ جمال أخرى، فصارت عشرين جملاً، ومع ذلك خرجت القرعة باسم عبد الله، و لم يزل يزيد حتى جعلها مائة جمل، فخرجت القرعة بمائة جمل بدلاً من عبد الله -سبحان الله، وكأن الملائكة لم تزلْ تصرّ على الله تعالى بأن يزيد الثمن، فعبدُ الله هو والدُ محمد ﷺ- فقال أهل مكة لعبد المطلب: الآن قد رضي ربك، فنحرَ مائة جمل (السيرة النبوية لابن هشام: في ذكر زمزم وما جرى من الخُلف فيها).

لقد تبين من هذه الواقعة أن أهل مكة كانوا يؤمنون بالله تعالى، ينذرون له النذور ويدعونه عند الشدائد، ويعتقدون أن الأصنام آلهة تابعة لله تعالى، وعليه، فلا يصحّ أن يقال بأنهم كانوا يعبدون الأصنام فقط و لم يكونوا يعبدون الله تعالى. فعرضُهم على الرسول ﷺ بأن يعبد أصنامهم ليعبدوا إلهه دليلٌ بيّن على حمقهم وغبائهم، لأن النبي ﷺ لم يكن يؤمن بأصنامهم، ولكنهم كانوا يؤمنون بإلهه. فأنْ يتمنى النبي ﷺ نزولَ سورة على عرضهم السخيف هذا يتنافى مع العقل؛ لأن أي طفل مسلم يستطيع الرد على عرضهم.

أما السؤال الثالث: هل يمكن أن تنزل سورة مستقلّة كاملة ردًّا على سؤالهم هذا؟ فجوابه: كلا، لأننا لو قلنا بأن هذه السورة نزلت ردًّا على سؤالهم، فلا تبقى لها قيمة، إذ إنها ستعني عندها فقط: أيها الكافرون إني لا أعبد آلهتكم ولا تعبدون آلهتي، ولكم دينكم ولي دين. وحصرُ سورةِ كتابٍ عظيم كالقرآن الكريم في هذا المعنى المحدود الخالي من أية معارف أو دقائق أو أمورٍ روحانية، لدليلٌ على السطحية المفرطة؛ ذلك أن أية سورة من القرآن الكريم لا تخلو من معارف رائعة واسعة، أما مضمون هذه السورة -كما تقدِّمها هذه الروايات- فبسيطٌ جدًّا أولاً، ومحدودٌ جدا ثانيا، ولو اختصرناه لكان كالتالي: اذهبوا أيها الكافرون، فإنكم لا تستمعون إليّ، فلن أستمع إليكم. إننا لا نجد في القرآن الكريم أي سورة أو آية تشتمل على مفهوم سطحي جدًا هكذا، بل الحق أن كل كلمة قرآنية نبعٌ يفيض بالمعارف. فلأن

هذه الروايات تضيّق مضمونَ هذه السورة، فلذلك يمكننا القول أن من المحال أن تنزل سورةٌ ردًّا على الأسئلة السخيفة الواردة في هذه الروايات؛ وهذا هو السبب في أنني أسهبت في الردّ على هذه الفكرة، وإلا فما كان هناك حاجة لذلك مطلقا.

والآن أتناول الرواية الأولى التي نقلها ابن جرير عن ابن عباس. لقد ورد فيها أن الكافرين عرضوا على النبي ﷺ عرضين، فقالوا له أوّلاً: نعطيك مالاً حتى تصبح أغنى شخص في مكة، ونزوّجك بأجمل امرأة ترضى بها، شريطة أن لا تذكر آلهتنا بسوء، وثانيًا: وإذا لم ترضَ بذلك فنعبد إلهك سنة وتعبد آلهتنا سنة (جامع البيان).

والأمر الأول المذكور هنا ثابتٌ تاريخيا من روايات كثيرة، إلا أنها تذكر أيضا أن الرسول ما لبث أن ردّ على عرضهم بقوله: واللهِ، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري، فلن أترك عبادة الله الأحد (السيرة النبوية لابن هشام: ما دار بين الرسول ﷺ وأبي طالب). وبعد هذه الإجابة، كم هو سخيف ما يُذكَر بأن النبي ﷺ قال لهم على عرضهم هذا: "انتظِروا حَتَّى أَنْظُرَ مَا يَأْتِينِي مِنْ رَبِّي". فكلّ الروايات الأخرى من الحديث والتاريخ تُجمِع على أن الرسول ﷺ لما سمع مطالبتهم رفَضها فورا وقال: لن أتخلى عن عبادة الله الأحد مهما فعلوا. فكيف يمكن لمن أجابهم هكذا مِن قبل، أن يقول لهم هذه المرة: انتظِروا حتى أسترشد ربي؟ فهذه الجزئية من هذه الرواية باطلة وغير منطقية على ضوء الأحاديث الأخرى والتاريخ.

ثم هناك اختلاف عند المحدثين في مضمون هذه الرواية، فبعضهم قد نقلوها دون أي ذكر بأن النبي ﷺ طلب منهم أن ينتظروا حتى يسترشد ربه، فقد نقل الزمخشري مثلاً: "رُوي أنّ رهطًا من قريش قالوا: يا محمد، هلمّ فاتّبعْ ديننا ونتّبعْ دينك: تعبُدُ آلهتَنا سنةً ونعبد إلهك سنة. فقال: "معاذ الله أن أشرك بالله غيره". (الكشاف)

فهذه الرواية تكشف أن الرسول ﷺ لم يقُلْ لهم بأن ينتظروا حتى يسترشد ربه، بل ردَّ عليهم ردًّا يتفق مع غيرته الإيمانية وقال: معاذ الله، أن أشرك بالله غيره.

وهذه الرواية قد أوردها الألوسي في "روح المعاني"، والشيخ إسماعيل حقي البروسي في "روح البيان"، تمامًا كما أوردها صاحب الكشاف.

أما العلامة أبو حيان فقد ذكر في تفسيره هذا الحديث دون أي ذكرٍ بأن النبي ﷺ ردَّ عليهم: معاذ الله، أن أشرك بالله غيره، إلا أنه لم يذكر أيضا الأمر الذي نرفضه، أعني أنه لم يذكر أن النبي ﷺ ردَّ عليهم قائلا: انتظِروا حتى أسترشد ربي (البحر المحيط). فعدمُ ذكر أبي حيان لهذه الكلمات لدليلٌ بيّن على أنه اعتبرها باطلة.

أما الإمام ابن كثير فهو أيضا لم يورد هذه الجملة في تفسيره. علمًا أن الإمام ابن كثير هو أكثر دقةً بين المفسرين الذين يذكرون الأحاديث في تفاسيرهم، إذ يسعى دائما أن يذكر الروايات الموثوق بها.

أما العلامة القرطبي الفقيه الشهير فهو أيضا لم يذكر هذه العبارة في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن).

أما كبار المفسرين الذين لا يسعون لجمع الأحاديث أيا كان مستواها، بل يجمعون بين الرواية والدراية، فالغريب أن الرازي منهم لم يكتفِ بنقل هذه الرواية مع هذا المضمون الخاطئ فحسب، بل أضاف إليها تنميقاتٍ من عنده؛ حيث قال بأن هذه الآية تعني: يا محمد، لقد جاءك قومك وأغروك بأهم سيتّبعون دينك شريطة أن تتّبع دينهم، فلم ترفض عرضهم، رغم كل ما أنعمتُ عليكم من الأيادي والمنن (تفسير الرازي).

نعوذ بالله من هذه الخرافات.

أما كبار المفسرين الآخرين الذين يهتمون بالدراية مع الرواية، فإما أهم نقلوا روايات معارضة لهذه الروايات -ولكنهم للأسف لم يذكروا رُواقا- أو أهم نقلوا هذه الرواية من دون أن يذكروا هذه الجزئية السخيفة، وهكذا أكدوا أهم اعتبروها باطلة.

إن التدبر في هذه الأمور كلها يكشف أن هناك روايات أخرى تدحض ما ورد في هذه الروايات من كلام سخيف، وأن التاريخ أيضا يفنده بالتواتر أيضا. لا شك أن التاريخ يؤكد أن الكافرين عرضوا على الرسول ﷺ لغبائهم أن يتخذ موقفًا ليِّنا تجاه آلهتهم فيتخذوه سيدًا عليهم، ولكنه لم يلبث أن رفض عرْضهم بشدة، مما

يبرهن على أن هذه السورة لم تنـزل ردًّا على عرضهم، بل إن مضمونها أعظم وأسمى من هذا السؤال، وإن كان الجاهل يمكن أن ينخدع بكلماتها، فيظن أنها تتعلق بعَرْضهم.

ب: لقد أثار البعض هنا شبهة أخرى بأن هذه الآية بدأت بكلمة ﴿قُلْ﴾، مما يدل على أنها نزلتْ ردًّا على سؤال أثاره بعض القوم (جامع البيان).

والجواب أنه إذا اعتبرنا منطقهم هذا صحيحا، فيقال لهم: ما هو السؤال الذي نزلت سورتا الفلق والناس ردًّا عليه، فكلتاهما تُستهلُّ بكلمة ﴿قُلْ﴾ مثل سورة "الكافرون"؟ لماذا لزم الصمتَ المفسرون الذين أثاروا هذه الشبهة هنا، و لم يشعروا بحاجة للرد على هذا السؤال؟

الواقع أن كلمة "قُلْ" هنا تفيد الإعلان، والمعنى: أعلِنْ مضمون هذه السورة بين الناس. لا شك أن مضامين جميع السور حَرِيّةٌ بأن يتمّ الإعلان عنها، إذ ليس في القرآن ما يجب إخفاؤه، فقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾(المائدة:٦٨)، ولكن الظروف تحتّم بعض الأحيان نشْر مواضيع بعض السور على نطاق واسع، فلذلك يتم التركيز على إعلانها خاصة. وهناك خمس سور في القرآن الكريم تستهل بقوله تعالى ﴿قُلْ﴾، وهي: سورة الجن، والكافرون، والإخلاص، والفلق، والناس، إضافةً إلى نحو ٣٠٦ آيات* تستهلّ بلفظ ﴿قُلْ﴾؛ وفي كل مكان ورد تأكيدًا لأهمية الموضوع المذكور هنالك، ولو أمعنّا النظر في كل تلك السور والآيات لانكشف علينا موضوع رائع لطيف حتمًا، لكن لا مجال للخوض في ذلك الآن، وإنما يكفي القول هنا بأن لفظ ﴿قُلْ﴾ قد ورد هنا لتبيان أهمية الموضوع المذكور هنا والإعلان عنه، لا ردًّا على سؤال سائل كما يظن البعض.

* هكذا ورد في الأصل، ويظهر أنه سهو، إذ إن عدد الآيات التي وردت فيها كلمة ﴿قُلْ﴾ هو ٣٠٧ آيات، بينما تكررت كلمة ﴿قل﴾ مع لواصقها ٣٣٢ مرة. (المترجم)

والحكمة في استهلال السور الأخيرة في القرآن بكلمة ﴿قُلْ﴾ هـي أن القـرآن الكريم كان على وشك الختام، فقدّم الله تعالى فيها ملخص القرآن مركِّزًا على أهمية نشر مضامينها خاصة، لكي يطّلع الناس من خلال هذا الملخص علـى مـضمون القرآن كله بشكل مجمل.

وهناك سؤال آخر يجب الرد عليه وهو: لا جرم أن الله تعالى حـين خاطـبَ رسوله، كان استعمال كلمة ﴿قُلْ﴾ مناسبًا، ولكن عندما قرأ نبيه ﷺ هذا الـوحي على مسامع الناس، فما الفائدة من الإبقاء على هذه الكلمة؟ كان ينبغي أن يبـدأ الوحي بـ ﴿قُلْ﴾ عند نزوله على الرسول ﷺ، أما أن يضاف هذا اللفظ في الوحي القرآني المتلو فهذا لا يبدو مستساغًا. أليس غريبًا أن يقول المرء ﴿قُلْ﴾ عند البـدء بقراءة هذه السورة؟ فمَن الذي يقول له: ﴿قُلْ﴾؟ لذا، كان الأَولى حـذف هـذه الكلمة في الوحي القرآني المتلوّ!

والجواب هو ما ذكرتُ آنفا بأن لفظ ﴿قُلْ﴾ قد ورد قبل المواضيع أو الـسور التي قد حثَّ الله بالإعلان عنها بين الناس على أوسع نطاق. والواضح أن شخـصًا واحدا لا يقدر على الإعلان عن أمرٍ ما على نطاق واسع، وإنما يقدر عليه جماعـةٌ من الناس نسلاً بعد نسل، حتى تصل هذه الرسالة إلى كل قوم وبلد وفي كل عصر. فلو لم يوضع لفظُ ﴿قُلْ﴾ في الوحي المتلوّ.. أي المصحف.. لتمّ هذا الإعـلان في حياة الرسول ﷺ بلسانه و لم يستمرّ بعده. أما بعد الإبقاء على هذا اللفظ في وحي القرآن الكريم، فسيتم هذا الإعلان باستمرار إلى يوم القيامة. عندما قال الله تعـالى لرسوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾.. أي: لم ولن أعبد آلهتكم قطعًا، قام ﷺ بهذا الإعلان بينهم امتثالاً لأمره ﷻ، ولكن لولا كلمة ﴿قُـلْ﴾ في القرآن الكريم، لظنّ المسلمون أن هذا الإعلان كان من واجب الرسول ﷺ، وقـد قام به وانتهى الأمر، ولكنه ﷺ لما قرأ عليهم قول الله تعـالى: ﴿قُـلْ يَـا أَيُّهَـا الْكَافِرُونَ﴾، أدرك كل منهم أن هذا الأمر الرباني لا يخص الرسول ﷺ وحده، بل

يخصّه أيضا، لأنه لما قُرأ عليه هذا الوحي قائلا: ﴿قُلْ﴾، صار كل مسلم أوّلَ المخاطَبين بـ ﴿قُلْ﴾، وليس محمد ﷺ وحده، فهو القائل، والمسلم هو السامع، فقام هذا المسلم بنشر هذه الرسالة إلى غيره عملاً بهذا الحكم الرباني، وهذا الآخر لما سمع من الأول لفظ ﴿قُلْ﴾، نقل هذه الرسالة إلى الثالث قائلا له: ﴿قُلْ﴾، لأن هذا اللفظ جزءٌ من الوحي ولا يمكن تركُه، وهكذا لم يزل هذا الأمر ينتقل من الثالث إلى الرابع فالخامس والسادس وهلمّ جرّا، عملاً بقول الله ﴿قُلْ﴾، وهكذا جعل الله تعالى هذا الإعلان يتكرر باستمرار إلى يوم القيامة. فانظرْ إلى الفائدة العظمى من إبقاء لفظ ﴿قُلْ﴾ في المصحف. عندما يقرأ المرء سور القرآن الأخرى فلا شك أنه يتلقى الرسالة الموجودة فيها، ولكنه عندما يقرأ سورة أو آية تُستهلّ بكلمة ﴿قُلْ﴾، فيدرك أن عليه تبليغ ما فيها من رسالة إلى الآخرين أيضا، فيعمل بها، كما ينصح الآخرين بالعمل بها، ويحثّ السامعَ أن يبلّغها غيرَه باستمرار.

ألا تدل هذه الحكمة الكامنة في كلمة ﴿قُلْ﴾ على خطأ مَن قالوا بأن الله تعالى أراد بها أن يأمر رسوله ﷺ بتبليغ هذا الكلام للناس، ففعل، فما الفائدة بعد ذلك من بقاء ﴿قُلْ﴾ في المصحف؟ الواقع أنه لولا ضمّ كلمة ﴿قُلْ﴾ إلى الوحي المتلو لما تحققَ هدف الإعلان العام بدون انقطاع، ولما أمكن تبليغ هذه الرسالة باستمرار. ولقد اتّبع النبي ﷺ هذا الأسلوب الخاص لتحقيق هدف الإعلان المستمر في حجه الأخير الذي يسمى حجة الوداع، حيث قال لصحابته في نهاية خطبته في منى: "أَلا لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فَلَعَلَّ بَعْضَ مَنْ يُبَلِّغُهُ يَكُونُ أَوْعَى لَهُ مِنْ بَعْضِ مَنْ سَمِعَهُ. ثُمَّ قَالَ أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ (مسلم: كتاب القسامة والمحاربين، باب تغليظ تحريم الدماء). فقال ﷺ بأن من واجب كلّ حاضرٍ أن يبلّغ رسالته كلَّ غائب، لأن الذين يأتون فيما بعد يكونون أحيانا أدرى بأهمية الأمر والعمل به. وفي هذه الأيام أيضا نجد أن بعض الناس يبعثون رسائل من دون ذكر أسمائهم راجين من الطرف الآخر نقْلَها إلى عشرة أشخاص آخرين على الأقل، فيعمل البعض بنصيحة المرسِل، وهكذا تنتشر فحوى الرسالة في البلد كله. لا شك أن هذا الأسلوب متّبع في نشر كثير من الأمور السخيفة، إلا أنه طريق رائع للنشر والإعلان، ففي الإبقاء على كلمة ﴿قُلْ﴾

في بداية بعض السور والآيات قد حثّ الله على اتّباع الأسلوب نفسه، مما يعني أن القرآن هو أول من ابتكر هذا الطريق للإعلان العام المستمر.

والآن أتناول الجزئية الثانية من هذه الرواية؛ وهي أن العرض الثاني الذي عرضه الكافرون على النبي ﷺ هو أن يعبد آلهتهم سَنَةً، وهم يعبدون إلهه سنة.

هذا الكلام أيضا يكشف أن أحدا قد خلط هنا أمرين بلا مبرر، لأن القاعدة أنك إذا اقترحت على الخصم أمرين فلا بد أن يكون الاقتراح الثاني أسهل وأخفّ، لأنك تعني: إذا كنتَ لا تقبل العرض الأول لكونه صعبًا، فخذ الثاني فهو أسهل؛ ولكن لا يخفى هنا أن ما عرَضه الكفار على النبي ﷺ أولاً كان أفضل؛ إذ لم يطالبوه بعبادة آلهتهم، بل عرضوا عليه أموالهم وبناهم وسيادهم شريطة ألا يشتم آلهتهم، وكان المنطق والعقل يحتّم أن يكون عرضهم الثاني أكثرَ إغراء، ولكن الواقع أهم لم يعطوه شيئًا في العرض الثاني، وإنما عرضوا عليه أن يعبدوا إلهه، مع أهم كانوا يؤمنون به ويعبدونه سلفا، وبالمقابل طالبوه بما هو أشدّ، إذ لم ينهوه عن شتم آلهتهم، بل بعبادها أيضا؛ مما يعني أن العرض الثاني بجُزْأَيْه كان أقسى وأصعب. إذن، فاعتباره عرضًا متبادلا غايةٌ في الحمق. وما دام النبي ﷺ قد رفض عرضهم الأول بشدة من قبل بكلماته التاريخية بأهم لو وضعوا الشمس في يمينه والقمر في يساره، فلن يتخلى عن عبادة الله الأحد ولن يعبد آلهتهم، فمن غير المعقول أن يتجاسروا بعده على أن يعرضوا عليه فورًا العرض الثاني الأصعب. وعليه، فلا بد من القول أن ابن عباس كان قد ذكر أمرين مختلفين يتعلقان بمناسبتين مختلفتين، ولكن الراوي خلَطهما وذكَرهما معًا ساهيًا، أو أن الراوي الساذج سمع من الناس روايتين مختلفتين، فجمَعهما ثم نسبهما إلى ابن عباس.

لقد ورد في هذه الرواية أن الكفار عرضوا على النبي ﷺ المال والنساء والسيادة على أن لا يشتم آلهتهم، فعلينا أن نرى هل كان قولهم هذا صحيحًا؟ أعني هل كان الرسول ﷺ يشتم آلهتهم فعلاً؟

تكشف دراسة القرآن لنا أنه ﷺ لم يشتم الآلهة الباطلة أبدا، بل كان ينهى أتباعَه عن سبّها. قال الله تعالى: ﴿وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا

بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾(الأَنعام: ١٠٩)، أي: أن المرء إذا استُفِزَّ فلا يبالي عند الجواب ما إذا كان ينقض مسلّماتِه أيضا، بل يجيب في ثورة الغضب بما يمثّل هجوما على الطرفيْن، فإذا قمتم، أيها المسلمون، بسبِّ مَن يعتبرهم الكفارُ آلهةً، فسوف يثورون غضبًا ويسبّون إلهكم، مع أن إلهكم وإلههم واحد؛ لا شك أن تصرّفهم هذا سيكون دليلاً على جهلهم، إلا أنكم أنتم الذين تتسببون في سبّ إلهكم، فلا تسبّوا آلهتهم.

فثبت أن الرسول ﷺ لم يكن يشتم آلهتهم، بل إن الكتاب النازل عليه ينهى عن سبّها.

والسؤال هنا: لماذا كان الكفار يقولون إنه يشتم آلهتنا؟

والجواب أنه إذا ادعى المرء كذبًا بأن فلانًا يتبوأ منصبًا عاليًا كذا، فلا يمكن إبطال ادعائه إلا بنفي الخصائص والمزايا الضرورية لصاحب ذلك المنصب؛ فمثلا إذا قيل عن شخص كذبًا أنه طبيب، فلا بد أن نثبت أنه لم يتخرج من كلية الطب، ولا يعرف من العلاج والتداوي شيئا، وإذا فعلنا ذلك فلا بد أن نحطّ من شأنه، ولكن هذا لا يُعتبر سبًّا، لأن ما قلناه إنما قلناه من أجل الضرورة وتدليلاً على صحة موقفنا، إذ لا مناص من إبطال دعوى الخصم إلا بهذا الطريق. كذلك فإن القرآن الكريم قد وصَم آلهتهم الباطلة بما فيها من عيوب ونقائص، مما يدل أنها ليست آلهة، إذ لا يمكن إثبات بطلانها إلا بهذا الطريق. فالحق أن قولك شيئا لإبطال دعوى الخصم والتي لا يثبت بطلانها إلا بذكره، ليس سبًّا ولا شتمًا، بل هو بيان لواقع الأمر. أما إذا قلتَ ما يتنافى مع الحقيقة و لم يكن ذكره ضروريًا لإبطال دعوى الخصم، وقصدت به تجريح مشاعره بلا مبرر، فهو السب والشتم بلا شك. ولكن القرآن لم يستعمل أي كلمة كهذه بحق آلهتهم الباطلة.

وفي عصرنا هذا قد اتّبع مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية عليه السلام الأسلوب نفسه، فنبّه بعض المشايخ والعلماء المعارضين إلى أخطائهم وعيوبهم، ولكن أتباعهم يثيرون اليوم ضجةً مغرورين بكثرتهم بأن هذا قد سبَّ العلماء أو المسلمين. والحق أن حضرته عليه السلام لم يتعرض للعلماء والمسلمين و لم يسبّهم، وإنما قال ما قاله ضد

أولئك العلماء والمسلمين الذين افتروا عليه وظلموه واعتدوا عليه، وكالوا له السباب والشتائم. ثم إنه لم يقلْ إلا ما وافقَ الأمرَ الواقع. لقد استعملَ حضرته عليه السلام لبيان هذا الواقع المرّ كلمات مجازية قد استعملَها بعض صلحاء الأمة أيضا على هذا النحو، ولكن المشايخ الجهلاء المفسدين يعرِضونها على الناس بشرح خاطئ لإثارتهم واستفزازهم، غير أن الذين لهمْ إلمامٌ بالتراث الإسلامي وأقوال صلحاء الأمة واللغة العربية، فهم يعلمون أن هذه الكلمات قد وردت استعارة ومجازا، وقد استُعملت لإصلاح الطبائع الزائغة كما يستعمل الطبيب مشرطه لعلاج بعض المرضى.

ت: لقد اختلف المفسرون في هذه الآية اختلافا عجيبا، فقال القرطبي وغيره أن البعض قال: إن قوله تعالى ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ* لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُون﴾ يعني: "قُلْ للذين كفروا: لا أعبد ما تعبدون"، وزعم أن ذلك هو الصواب. وذلك افتراء على رب العالمين، وتضعيفٌ لمعنى هذه السورة، وإبطال ما قصده الله مِن أن يذلّ نبيُّه للمشركين بخطابه إياهم بهذا الخطاب الزريّ، وإلزامهم ما يأنف منه كل ذي لب وحِجا." (الجامع لأحكام القرآن)

ويقصد القرطبي وغيره من المفسرين الذين يتبنون هذا الرأي أن جملة: "قل للذين كفروا" تعني أن الرسول ﷺ لو قال لشخص أو خطَب في مجلس بهذا الحكم فقد نفَّذ أمر الله، أما جملة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ فالمقصود منها أن يدعو الكافرين هؤلاء في مجلسه، ثم يقوم بزجرهم وتوجيه اللوم لهم.

فيما يتعلق بالقراءة فلا مجال للنقاش فيما إذا كان الوارد في القرآن الكريم ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، أم "قل للذين كفروا"، إذ لا أعرف أي قراءة أخرى غير ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، ولم أعثر على أي قراءة أخرى في كتب القراءات. فالحق أن الذي قال أن المعنى: "قُلْ للذين كفروا"، إنما استدلّ بأن قول الله هذا يعني فقط أن يُبلَّغَ الكافرون هذا الأمر، وليس أن يَدْعوهم في مجلسه ليذلّهم ويهينهم، أما الذين

ركّزوا على كلمات ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ فإنما يعنون أن لفظ "أَيُّ" هنا للتنبيه، أي للتأكيد على أن يوضّح هذا الأمر للكفار، أو يكشف عليهم موقفهم غير المعقول.

وعندي أن هذا النـزاع مجرد نزاع لفظي لا يبنى عليه فائدة؛ لأن المفهوم الحقيقي مذكور في الآيات اللاحقة، وفيه تنبيه وتأكيد أيضا، وهذا المفهوم يمكن أن يوصله الرسول ﷺ إلى الكافرين سواء باستدعائهم إلى مجلس أو من دون استدعائهم. أما التأكيد الموجود في العبارة فلا يمكن إنكاره، لأن الذي بلّغتَه بأنك لا تعبد ما يعبد، ولا يعبد ما تعبد، فهذا محال ألبتة، فلا يحتاج إلى أيّ زجرٍ أشدّ من ذلك؟

لا شك أن كلمة ﴿يَا أَيُّهَا﴾ تفيد التأكيد، ولكن ليس في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُون﴾ ولا في عبارة: "قل للذين كفروا" ما يدل على الاحتقار ولا الإساءة. ولا يسيء إلى المرء ما يقوله الناس عنه، وإنما تصرفاته هو تسبّب له الإساءة والاحتقار. وما دام الله تعالى قد ذكر هنا أفعال وعقائد الفريقين، فقد تبينَ بذلك حُسْنُ عقائد المسلمين وشناعةُ عقائد الكافرين تلقائيا، فبِضدِّها تتبيّنُ الأشياء.

لم يفكر هؤلاء المفسرون أنهم أنفسهم يُضعفون مفهوم هذه الآية بتضييق معانيها بقولهم أنها خاصة بأفراد مخصوصين من كفار مكة، فإذا كان هذا هو كل ما فيها من مفهوم، فأين المعنى الإضافي الذي يقال عنه أنه لا يمكن أن يفعله عاقل؟ كل ما قيل للكفار هنا هو: لا تعبدون الإله الذي أعبده، ولا تتّبعون طريقة العبادة التي أتّبعها، فما هو المعنى السيئ هنا حتى قيل أن العاقل لا يتصرف هكذا؟ يجب أن يذكروا ما في هذه السورة من مفهوم مسيء إلى الكفار. هل يُستنبط من قوله تعالى ﴿أيُّها﴾ فقط، أيُّ مفهوم سيئ؟ أقول لهؤلاء المفسرين: لقد صرتم بأنفسكم عائقًا في استنتاج أي مفهوم آخر -سيئ أو حسن- من هذه الآية، إذ قلتم بأن الخطاب هنا لأفراد معينين من الكفار، وبالتالي حصرتم مفهوم هذه السورة جدًّا وكأنه ليس أكثر من الآتي: "أيها الكافرون القلائل، لا تستمعون لي ولا أستمع لكم، ولكم دينكم ولي دين." أين في هذا المفهوم دليلٌ عقلي يثبت غباء الكفار وحماقتهم؟ هذا هو السبب في أني قد ركّزتُ بإطناب وإسهاب على قولي بأن مفهوم هذه السورة

ليس مخصوصًا بقلّة من الكفار المخصوصين كما ظن المفسرون، إذ الأخذ بما أقوله هو ما يوجّه أنظارنا إلى المضمون الحقيقي لهذه السورة وسعة معانيها.

وفيما يتعلق بقوله تعالى ﴿أَيُّها﴾، فليكنْ معلومًا أيضًا أن التنبيه في العربية لا يعني الزجر من شيء سيئ، وإنما يعني التذكير ولفت النظر للشيء. لقد وردت كلمة ﴿يا أيُّها﴾ في القرآن عشرات المرات، وقد خوطب بها المجرمون والمؤمنون والمعارضون والناس كلهم والرسل والأنبياء، مما يدل أنه ليس فيها أي مفهوم للزجر والتوبيخ، بل تُستعمل للتنبيه ولفت النظر فقط. ويتم تنبيه الأنبياء والمؤمنين والمجرمين والكافرين والناس جميعا أيضا، ثم يتم تنبيه المرء في محل الحب والغضب أيضا، فمثلا قال الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾(الأحزاب:٤٦)، فهذا محل الحب وليس الزجر، وإنما نبّه الله تعالى رسولّه ﷺ إلى عظمة نعمته عليه. كذلك قال الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾(المائدة:٤٢).. والتنبيه هنا في محل الشفقة وليس التوبيخ والزجر.

لقد ثبت من هنا أن قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا﴾ لا يتضمن أي معنى من الزجر والتوبيخ أو التحقير، وإنما يبين أهمية الأمر. وأي شك في أن قوله تعالى ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ يعني: أيها الكفار، إن الموضوع الذي نلفت أنظاركم إليه هام جدًّا؟ ولكن من سوء حظنا أن هؤلاء المفسرين يصفون المفهوم الذي يقول الله إنه بالغُ الأهمية بأنه ينحصر في العبارة التالية: "أيها الكافرون، إني لا أستمع لكم ولا تستمعون لي، ولكم دينكم ولي دين". ما هو المهمّ في هذا المعنى؟! يجب أن يكون هناك دليل يبين السبب وراء ما قيل لهم بأننا لم ولن نستمع لكم، و لم ولن تستمعوا لنا، ثم يجب أن تُذكر هنا نتائج هذه الدعوى، وعندها تنكشف أهمية هذا الادعاء. ولكن المفسرين بتحديد مضمون هذه السورة وتضييق معناها قد حالوا دون هذه الأمور الثلاث.

ثم قال الله تعالى: ﴿لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾.

اعلمْ أن موضوع هذه السورة يجعلُ تفسيرَها آيةً آيةً أمرًا صعبا، بل لو حاولْنـــا تفسير آياتها هكذا اختلّ موضوعها، أو على الأقل لا أقدر أنا على تفسيرها آيةً آيةً مع المحافظة على الارتباط الموجود بينها. فأيًّا كان السبب، فإني مضطر لبيان تفسير آياتها كلها معًا هنا.

لقد تناولتْ هذه السورةُ موضوعًا واحدا بأسلوبين، وأعادته مرتين، فأولاً قال الله تعالى: ﴿لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾، ثم قال: ﴿وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾، ثم قـــال: ﴿وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾، ثم قال: ﴿وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾.. فالموضوع نفسه قد أُعيدَ -في الظاهر- مرة بالكلمات نفسها، وأخرى بـــشيء مـــن التغـــيير في الكلمات. والحق أن لا تكرار في القرآن، فلماذا فعل الله هكذا يا ترى؟

وأجاب المفسرون بثلاثة أجوبة في تبرير هذا التكرار. أولاً: قال الـــذين بنـــوا تفسيرهم على الروايات بأن الكافرين قد قدّموا سؤالهم بشكلين، فجاء الرد عليهم مرتين. وثانيًا: هذا التكرار يفيد التأكيد ودفع مطامعهم. ثالثا: أن الجملتين الأوليين تنفيان العبادة في الحال، أما الجملتان الأخيرتان فتنفيان العبادة في المستقبل. هذا قول الثعلبي والزجاج (الجامع لأحكام القرآن، وفتح البيان).

ولكن الزمخشري خالفَ هذا الرأي الأخير وقال: إن قوله تعالى ﴿لا أَعْبُدُ مَـــا تَعْبُدُونَ﴾ يتعلق بالمستقبل، لأن "لا" حرفٌ لا تدخل على المـــضارع إلا إذا أفـــاد الاستقبال، لذا فالحق أن الجملتين الأوليان -لا الأُخـــريين- تنفيـــان العبـــادة في المستقبل، والجملتان الأُخْريان —لا الأُوليان- تنفيان العبادة في الماضي.

وقد فنّدَ خصوم الزمخشري قوله بقولهم أن اسم الفاعل -كما هو في قوله تعالى هنا: ﴿عابِد﴾ و﴿عابدون﴾- يعمل عمل الفعلِ، فلا يفيد إلا الحال والاســـتقبال، فقوله تعالى ﴿ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُـــدُ﴾ لا يتعلـــق بالماضي بل يتعلق بالحال والاستقبال (البحر المحيط).

وقد رد عليهم أنصار الزمخشري أنه إذا كان الكلام حكاية، فيجوز أن يدلّ اسم الفاعل على الماضي، كقوله تعالى ﴿وَكَلْبُهُمْ باسِطٌ ذِراعَيْهِ بِالوَصيدِ﴾.. فهذا الكلام عن الماضي وليس عن المستقبل ولا الحال.

وقد اعترض عليه البعض قائلا: لقد قال الله هنا أولاً: ﴿وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾، ثم قال في الجواب: ﴿وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾، حيث جاء ﴿أَعْبُد﴾ وهو المضارع إزاء ﴿عَبَدْتُم﴾ وهو الماضي، مما يعني أن المقصود هنا ليس الماضي (البحر المحيط).

وقد قال أنصار الزمخشري هنا أن سبب ذلك أن الكافرين كانوا يعبدون الأصنام قبل بعثته ﷺ، أما هو فبَدَأَ عبادة الله تعالى بعد البعثة، فلذلك استعمل الله لهم صيغة الماضي بينما استعمل للنبي ﷺ صيغة المضارع (روح المعاني، وروح البيان).

فردَّ عليهم خصومهم بأن العبادة لا تعني هنا الصلاة الإسلامية التي نصلّيها، وإنما العبادة في أصلها هي توحيد البارئ تعالى، وكل الأنبياء كانوا موحدين قبل بعثتهم بما حباهم الله مِن عقل وفراسة؛ فلا يصحّ القول أن الله تعالى استخدم للنبي ﷺ كلمة ﴿أعبُد﴾ التي تدل على الحال لأنه لم يكن يعبد الله تعالى قبل بعثته، كلا بل إن النبي ﷺ كان قبل بعثته أيضا يعبد الله تعالى الأحد بالمفهوم العام للعبادة، أي الإقرار بوحدانيته والإصرار عليها. فإذا كان الكافرون يعبدون الأصنام قبل بعثته ﷺ، فقد كان النبي ﷺ يعبد الله الأحد قبل بعثته، وإنْ كان شكل عبادته مختلفًا عن الصلاة الإسلامية؛ فاختلاف شكل العبادة لا يُخرِجه عن نطاق العابدين لله وحده؛ فكانت صلاة عيسى وموسى ونوح ومحمد ﷺ مختلفة شكلا، ومع ذلك نقول إنهم جميعا كانوا يعبدون الله تعالى.

إن تفسيرات المفسرين هذه تجعل الموضوع يشْكل على القارئ جدًا، فلا يَتوصل منها إلى حقيقة الأمر. لذا أذكر فيما يلي ما أراه بهذا الصدد:

اعلمْ أن حرف "لا" إذا دخلت على المضارع أفاد الاستقبال عند أئمة اللغة والأدب، إلا ابن مالك الذي يرى أن هذا ليس ضروريًا في كل حال، وقد استدلّ على ذلك بقول العرب: "جاء زيد لا يتكلم" (أقرب الموارد)، فهو يرى أن كلمة "لا يتكلم" تفيد هنا الماضي.

والحق أن ما يقوله ابن مالك إنما هو مجرد استثناء في القاعدة، فالمثال الذي ذكره مشروط بشروط، أوّلُها: أن "لا" قد دخلت هنا على فعل هو تتمة للجملة السابقة.

ثانيا: أنه قد سبقه فعل الماضي الذي يدل على الحال معنًى، وإن لم يكن يدل على الحال لفظًا.. أي أنه يتعلق بالحالة التي كان فيها عندئذ لا قبْلــه. وعليــه، فهــذا الاستعمال لا يفنّد القاعدة، بل نقول: إذا دخلت "لا" على المضارع مــع بعــض الشروط أفاد الحال أيضا، أما إذا دخلت على المضارع من دون قيود أفاد الاستقبال دائما، وعليه فقوله تعالى: ﴿لا أعبُدُ﴾ يعني أنني لن أعبد آلهتكم في المستقبل أيضًا.

والحرف الثاني الوارد في هذه الآيات هو "ما"، وهي تفيد عدة أغراض منها: أنها تأتي نافية، واسمية.. أي موصولة. والموصولة تُستعمل لغــير ذوات الأرواح، وقــد تستعمل لذوي العقول أي للناس والملائكة ولله تعالى، وتعني عندها "مَــن"، الــتي تُستعمل للعاقل عادة. كما تكون "ما" مصدرية وذلك إذا دخلت علــى الفعــل كقول الله على لسان المسيح: ﴿وَأَوْصاني بِالصَّلاةِ والزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾.. فقوله: ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ يعني: طوال حياتي. وكذلك تقول العرب: لا أصحبكم مَا دُمْتُ حَيًّا.. أي حياتي كلها.

أما "ما" الواردة في قوله تعالى ﴿ما تَعْبُدُونَ﴾ و﴿مَا أَعْبُدُ﴾ و﴿ما عَبَــدْتُمْ﴾ و ﴿مَا أَعْبُدُ﴾ فيمكن أن تكون مصدرية أو موصولة، وإذا اعتبرناها موصولة هنا، فقد تكون لذوي العقول وغير ذوي العقول أيضا؛ وعليه فقوله تعالى ﴿لا أَعْبُــدُ مَــا تَعْبُدُونَ﴾ يعني: لن أعبد الأشياء التي تعبدونها، سواء كانت من ذوي العقول أو من غير ذوي العقول؛ أو المعنى: لن أعبد بالطريقة التي تعبدون بها؛ وهي هنا مصدرية.

أما قوله تعالى ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ فيكون معناه: لا يمكنكم أن تعبدوا، أو لا تريدون أن تعبدوا ذلك الإله الذي أعبده؛ أو المعنى: لن تعبدوا أو لا يمكنكم أن تعبدوا بالطريقة التي أنا أعبد بها.

وأما قوله تعالى ﴿وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾ فسيعني: ولا أنا أنوي، أو لا أستطيع أن أعبد مَن تعبدونه أو كنتم تعبدونه.

أما قوله تعالى ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ فيكون معناه: ولا أنتم يمكنكم أن تعبدوا، أو لا تنوون عبادة مَن أعبده، أو بالطريقة التي أنا أعبد بها.

ولو طبقنا هذه المفاهيم المختلفة على هذه الآيات الأربع لوجدنا في الآيتين الثانية والرابعة تكرارًا في الظاهر، أما الآية الأولى والثالثة فلا يوجد فيهما تكرار لاختلاف كلماتها. وحيث إن كلام الله تعالى منـــزّهٌ عن أي تكرار غير هادف، فنقـــول إن "ما" هنا موصولة ومصدرية أيضا، فقد استعملها الله تعالى موصـــولةً في الآيـــتين الأُوليين، ومصدريةً في الأخيرتين، توسيعًا لمعاني السورة، فهكذا لا يبقى هناك أي تكرار. ويكون معنى هذه الآيات كالآتي:

لن أعبد مَن تعبدونه، ولن تعبدوا ولا يمكن أن تعبدوا مَن أعبد. ولن أعبـــد ولا يمكن أن أعبد بالطريقة التي تتعبدون بها، ولن تعبدوا ولا يمكن أن تعبدوا بالطريقة التي أتعبد بها أنا.

هذا المفهوم يزيل كل تكرار، مع بقاء كل كلمة في مكانها ومع انكشاف هدفها وغرضها.

هذا المفهوم الذي بينته الآن واضح تمام الوضوح من حيث الكلمات العربيـــة، وكان من المفروض أن ينكشف على المفسرين الأوائل، ولكن لم تنتقل أذهانهم إليه لأن مفهومًا خاصا كان قد سيطرَ على عقولهم. وإن مفخرة تبيان هذا المعنى راجعةٌ إلى أبي مسلم الأصفهاني، حيث طبّق هنا قاعدة نحوية واضحة وأزال بها إشـــكالية التكرار، وأخرج مفهوم هذه السورة من وراء الحجب (البحر المحـــيط، وإعـــراب القرآن لأبي جعفر النحّاس).

إنه نفس الرجل الذي يُرمى بالردة والزندقة، ولكن يُنسب إليه أحيانًا تفاســـير للقرآن الكريم تجعل المرء يشكّ فيما يُرمى به، ويقول: لعلّ رداء التعصب أخفـــى إيمانه عن الأعين. إنه هو الشخص الوحيد بين القدامى الذي أنكر وجود النسخ في القرآن الكريم. لا شك أنه قام بمجرد دعوى عدم وجود النسخ في القرآن الكـــريم (الرازي، قوله تعالى: ما ننسخ من آية...)، فهو يماثل السير سيد أحمد خان مؤسس جامعة "عليكره" في دعواه بوفاة المسيح عليه السلام، أما المسيح الموعود عليه السلام فقد برهن على عدم وجود النسخ في القرآن الكريم بأدلة قاطعة، كما أثبت وفاة المسيح عليه السلام ببراهين ساطعة (الحق: "مباحثةُ لدهيانه"، الخـــزائن الروحانيـــة ج٤ ص ٩٢-٩٣

وإزالة أوهام، الخزائن الروحانية ج٣ ص٤٢٣- ٤٣٥). فيمكننا القول أن أبا مسلم والسير أحمد خان قد أصابا كبد الحقيقة في هاتين القضيتين بمساعدة ضوء نجم الفجر، أما المسيح الموعود عليه السلام فقد أضاء لنا الشمسَ بعينها، فجزاه الله خيرًا عن المسلمين والناس أجمعين، وأخزى أعداءه ومعانديه.

لقد ذكرت من قبل أن الرسول ﷺ قد قال إن سورة "الكافرون" تعدِل رُبْعَ القرآن، وهو قول عجيب في الظاهر، إذ كيف يمكن أن تساوي سورةٌ لا تتجاوز بضع آيات صغيرة رُبْعَ القرآن؟ إن هذا لا يعني قطعًا أنها تساوي ربع القرآن حجمًا، إنما المراد أنها تشتمل على مفاهيم بالغة الأهمية جعلتْها تساوي ربْعه. والتفسير الذي سوف أبيّنه لاحقًا سوف يؤكد أن هذه السورة الوجيزة تحوي بالفعل معارف واسعة جدا، ولم يبالغ الرسول ﷺ حين اعتبرها رُبْعَ القرآن. وإضافةً إلى احتوائها على مفاهيم بالغة الأهمية، فلها خصوصيات أخرى أيضا لا توجد في سور أخرى، ومنها:

أولاً: أن ما ورد في بداية هذه السورة مرتبط تماما مع موضوع السورة السابقة.. الكوثر.. بحيث ليس هناك في القرآن سورة أخرى يمكن أن تُعتبر أوائل آياتها نتيجةً لجميع مضامين السورة السابقة. إن سورة الكافرون وحدها تتميز بهذه الخصوصية.

ثانيًا: أن مضامين السورة التالية لها ..سورة النصر.. كلَّها قد جاءت دليلا على ما تدّعيه هذه السورة؛ وهكذا فإن السورة السابقة للكافرون والتالية لها كلتيهما جاءتا دليلاً على صدق دعاويها.

ثالثًا: ثم إن آخر آية من سورة "الكافرون" جاءت أيضا دليلاً على دعاويها هي كما سنبين لاحقا.

هذه خصوصيات تتميز بها هذه السورة دون غيرها من السور، وبالتالي لا جرم أنها رُبْعَ القرآن، وهي حقيقة يمكن أن يدركها كل إنسان.

سأقوم الآن بشرح هذا الموضوع بشيء من التفصيل.

يقول الله تعالى في هذه السورة: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾.. أي: أيها الكفار لن أعبد أنا ولا أتباعي الأصنامَ التي تعبدونها، ولن أتعبد أنا ولا أتباعي بالطريقة التي تتعبدون بها، ولن تعبدوا الإله الذي أعبده أنا، ولن تعبدوا بالطريقة التي أتعبد بها أنا.

هذه الدعوى تنمّ -على ما يبدو- عن استعلاء واستكبار لا يتفق وقداسة القرآن الكريم، إذ نقرأ فيه أن شعيبًا ﷺ لما هدده معارضوه بأنهم سيعيدونه في ملّتهم أجابهم: ﴿ومَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾(الأَعراف: ٩٠).. أي لن نرتدَ عن ديننا إلا أن يشاء الله، فما قيل هنا في سورة "الكافرون" يتنافى مع سنة شعيب ﷺ على ما يبدو، إذ قيل هنا: من المحال قطعًا أن أعبد أنا أو أتباعي آلهتكم، أو نتعبد بطريقة عبادتكم، ومن المستحيل أيضا أن تعبدوا إلهي وتتعبدوا بطريقة عبادتي.

وفيما يتعلق بأحداث التاريخ، فصحيح أن الصحابة لم يعبدوا الأصنام، و لم يتعبدوا بطريقة عبادة الكفار، ولكن الجزئية الثانية من هذه الدعوى لا تتفق مع شهادة التاريخ، لأن آلاف الكافرين آمنوا بالله الأحد وعبدوه وتعبّدوا بطريقة عبادة المسلمين. فهذا المعنى باطلٌ على ما يبدو، وقد حاول المفسرون دفْع هذا التناقض فقالوا بأن هذه السورة إنما تتحدث عن رؤساء الكفار. ولكن هذا خطأٌ كما سبق أن بينت من قبل في تفسير هذه السورة. الحق أن هذه الآيات تبيّن موضوعا آخر، إذ يتحدث الله تعالى هنا عن فطرة المسلمين والمشركين، ويخبر أن المسلمين مائلون إلى التوحيد بفطرهم، وأن الكافرين قد أصبحت فطرهم ممسوخة مشوهة لطول عملهم بتقاليدهم وطقوسهم الوثنية، فأصبحت فطرهم وثنية مشركة؛ فلا يميلون إلى التوحيد، وإنما إلى الشرك.

لقد قال الله تعالى في سورة الكوثر لرسوله ﷺ: يا محمد، قد أعطيناك الكوثر، أي أكثرَ الكثيرِ، في الدين والدنيا؛ وهذا الأمر ذو علاقة بالفتوحات الروحانية والمادية، حيث أخبره الله تعالى أنَّ نسله ﷺ.. أي التابعون حقًا لدينه.. سوف

يوجدون في كل زمان إلى يوم القيامة، وهذا في الواقع هو نفس الموضوع الذي قد بيّنه الله تعالى في قوله ﴿لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾.. أي أن أتباعه ﷺ المتبرئين من الشرك سيظلون موجودين إلى يوم القيامة. فثبت من ذلك أن إعلانه ﷺ: ﴿لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ليس من قبيل الاستكبار والاستعلاء، إنما هو إشارةٌ إلى البُشرى التي زفّها الله تعالى لرسوله في سورة الكوثر، وهو لا يتنافى مع سنة شعيب عليه السلام بل مطابق لها تماما، لأن شعيبا إنما قال إني لن أحيد عن سبيلي إلا أن يشاء الله.. أي لن أتخلى عن ديني ما دامت مشيئة الله تعالى تطالبني بالثبات عليه، أما نبينا ﷺ فكان قد أُخبرَ بالمشيئة الإلهية في سورة الكوثر، وهي أنه وأتباعه سيظلون متمسكين بالتوحيد دائما؛ إذن، فقوله تعالى ﴿لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ تفسير لهذه المشيئة الإلهية، وأن سورة الكوثر هي الأساس لهذه الدعوى.

ثم أخبر الله تعالى رسوله في آخر سورة الكوثر: ﴿إِنَّ شانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾، أي أن ذرية أعدائك لن يعودوا ذرية لهم.. أي أنهم يقطعون عنهم صلتهم الروحانية ويدخلون في دين محمد ﷺ. وهذا المعنى يبدو متعارضًا مع الإعلان الوارد في قوله تعالى ﴿وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾، لأن أولاد الكفار إذا دخلوا في الإسلام وأصبحوا أبناءً روحانيين للرسول ﷺ، فلا بد أن يتعبدوا بطريقة عبادته، كما فعل عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل وأبو سفيان نفسه. فالحق أن إسلام كفّار مكة لم يُبطل النبوءة القرآنية الواردة في قوله تعالى ﴿وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾، لأنهم لم يسلموا بإرادتهم، بل الله تعالى دفعهم إلى الإسلام بقدرته تحقيقًا لنبوءته ﴿إِنَّ شانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾، فإسلام هؤلاء لا يتنافى مع هذه الدعوى القرآنية بل هو تصديق لها.

أما ما قلت بأن سورة النصر -وهي التالية لسورة "الكافرون"- تشكّل دليلا على الدعوى التي تمت في أوائل سورة "الكافرون"، فأشرح هذا الأمر فيما يلي:

قال الله تعالى في سورة النصر: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾، وإن قوله تعالى هذا هو في الواقع دليل على صدق قوله تعالى ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لا

أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾؛ ذلك أن الله تعالى إذا كتب الغلبة لمحمد ﷺ على أعدائه مع ضعفه وقلة حيلته، وأدخل أفواجًا من العرب في الإسلام، فكيف يمكن لمسلم بعد رؤية هذه المعجزة البينة أن ينضم إلى الكفار؟ هذا من الناحية الروحانية، أما من الناحية المادية، فالقاعدة أن الإنسان لا ينضم إلى أي فئة إلا بسبب بعض المصالح، وما دام الإسلام قد انتصر وأصبح الكفار تابعين للمسلمين، فأيّ غبي من المسلمين سينضم بعد ذلك إلى الكافرين المقهورين المغلوبين تاركًا الغالبين الفاتحين؟ فثبت أن سورة الكوثر وكذلك سورة النصر تشكّلان الدليل على صدق ما أُعلنَ في أوائل سورة "الكافرون" في قوله تعالى ﴿لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾.

كما أن سورة النصر تزيل الإشكال الذي يحصل في الظاهر من قوله تعالى﴿وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾، حيث تبين أن الكافرين كانوا قائمين بالشرك بسبب فطرهم الممسوخة، ولكن عند انكشاف صدق الإسلام نتيجة غلبته، ساقَتْهم الظروف إلى حظيرة الإسلام، فإسلامهم لم يكن تكذيبًا لقوله تعالى ﴿وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾، بل كان تصديقًا لسورة الكوثر وسورة النصر وسورة الكافرون كلها.

لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٧﴾

شرح الكلمات:

دينكم: الدين يعني: ١- الطاعة؛ ٢- السلطان والمُلْك والحُكم؛ ٣- السيرة؛ ٤- التدبير؛ ٥- اسمٌ لجميع ما يُعبد به (فأداء المسلمين للصلاة والحج والزكاة بنصاب معين من أموالهم من أجل الفقراء والمساكين، كلها عبادةٌ لله تعالى وتسمى في العربية دِينًا. كذلك طريقة عبادة الهندوس واليهود والزرادشتيين وغيرهم، أيا كان شكلها، أيضًا ستسمى دينًا)، ٦- الملة؛ ٧- الورع؛ ٨- المعصية؛ ٩- الحال؛ ١٠- الشأن.. (والشأن له معنيان: أوّلهما: الحالة الخاصة، علمًا أن الشأن يفيد

الحال أيضا، ولكنه يدل على حال أفضل، وثانيهما: الأمر الهام جدا)؛ ١١- العادة. (الأقرب)

التفسير: في الآيات السابقة من هذه السورة، قد أمر الله تعالى رسولَه والمؤمنين أن يعلنوا أن اتحادهم مع الكافرين في العبادة مستحيل، أما قوله تعالى هذا: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ فذكر فيه سبب هذا الإعلان، فبيّن ﷻ أن محمدًا وأتباعه لا يقومون بهذا الإعلان عنادًا، إنما سببه أن دين الكفار يعلّمهم طريقة عبادةٍ تتنافى مع طريقة العبادة التي يعلِّمها محمد وأتباعه، فشتان بين طريقتي عبادة الفريقين، فاتحادهما في العبادة مستحيل.

لقد أعلن الله تعالى في الآيات الأولى من هذه السورة عن قراره المبدئي، أما الآن فأتى عليه بالدليل وقال: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾. وهذا الأسلوب متّبع في لغتنا (الأردية) أيضا، حيث يبين الكلامُ الأخير سببَ الكلام الأول، ويكون الكلام الأول مبنيا على الكلام الثاني، كقولنا: هذا الأمر هكذا، لأن فلانًا قال هكذا. واللغة العربية تمتاز بالبلاغة والإيجاز، فتؤدي هذا المفهوم من دون هذه الوصلات، وهذا هو الأسلوب الذي اتبعه الله تعالى في الآيات قيد التفسير، حيث قال أولاً: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾...أي نأمر كل مسلم في أي زمن أن يقول لكفار عصره أن من المستحيل عليه أن يعبد الآلهة التي يعبدونها، ولا يمكن أن يعبدوا الإله الذي يعبده، كما يستحيل عليه أن يتعبد بطريقة عبادة الكافرين، ولا يمكنهم أن يتعبدوا بطريقة عبادته، فنشأ على ذلك سؤال طبيعي: ما الداعي لهذا الإعلان؟ هل سببه العناد والعداء الذي يكنّه المسلمون للكافرين أم هناك مبرر آخر؟ فردَّ الله على ذلك بأن ليس هناك عداء ولا عناد، وإنما سبب هذا الإعلان هو ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.. أي أن دين المسلمين يعلّمهم طريقة عبادة تختلف جدًّا عن طريقة العبادة التي يعلّمها دين الكافرين، فلا سبيل لاتحاد الفريقين؛ وهكذا فإن قوله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ قد زاد مفهومَ الآية السابقة إيضاحا وردَّ

بكلمات جامعة مانعة على السؤال الذي اختلج في الطبائع بأنه ما الداعي لإعلان البراءة هذا.

لقد ذكرْنا أحد عشر معنى لكلمة الدين عند شرح الكلمات، وكل هذه المعاني تنطبق هنا، مما يبين كيف أن الله تعالى قد ردَّ بهذه الآية على السؤال الطبيعي الذي اختلج في القلوب بعد الإعلان الذي تمّ في الآيات السابقة، حيث بيّن الله تعالى أن محمدًا ﷺ وأتباعه مضطرون للإعلان أنه يستحيل عليهم أن يتخلوا عن مبادئ العبادة التي يعلِّمها دينهم ويتحدوا مع الكفار في أمر العبادة، فهناك أسباب قوية لذلك وقد ذُكرت بإيجاز في كلمة الدين، وفيما يلي بيانها:

١: إن المسلمين يرون أن مبادئ طاعتهم لإلههم القادر القيوم تختلف عن مبادئ طاعة الكفار لآلهتهم؛ فالدين هنا بمعنى الطاعة.

٢: إن طريقة عبادة المسلمين تختلف عن طريقة عبادة الكافرين، فالدين هنا بمعنى ما يُعبد به الله.

٣: إن أصول الحكم عند المسلمين مختلفة عما هي عند الكافرين، فالدين هنا بمعنى السلطان والمُلك والحُكم.

٤: إن تعريف التقوى والحسنة والسيئة عند المسلمين مختلف عمّا هو عليه عند الكافرين، كما أن مبادئ الحلال والحرام عند المسلمين تتصادم مع مبادئ الكافرين بهذا الشأن، فالدين هنا بمعنى الورع والمعصية.

٥: إن مبادئ معاشرة الناس عند المسلمين مختلفة عما هي عليه عند الكافرين، فالدين هنا بمعنى السيرة.

٦: إن تدابير المسلمين مختلفة عن تدابير الكافرين، فالدين هنا بمعنى التدبير.

٧: إن عادات المسلمين مختلفة عن عادات الكافرين، فالدين هنا بمعنى العادة.

٨: إن مبادئ الأعمال اليومية عند المسلمين مختلفة عما هي عليه عند الكافرين، فالدين هنا بمعنى الحال.

لقد اتّضح من هنا أن الله تعالى قد بيّن في قوله ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ أن هناك بونًا شاسعًا بين المسلمين والكافرين فيما يتعلق بالمبادئ وفي طريقة العمل؛ لذا

فالمسلمون مصيبون تمامًا في إعلانهم أن اتفاقهم مع الكفار في العبادة محال. غاية ما يمكن أن يقوله الكفار هو أن المبادئ وطريقة العمل التي يتّبعها المسلمون باطلة، ولو أثبتوا ذلك لبطلت دعوى المسلمين، ولكن لو ثبت أن المبادئ وطرق العمل التي يقدّمها الإسلام هي الصحيحة، فاختلاف المسلمين عنهم في العبادة كان في محله وضروريا، ولا يمكن الاعتراض عليه واعتباره عنادا ومكابرة.

أتناول الآن بالتفصيل ما ذكرته مجملاً، لأبين أن قوله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ هو السبب وراء الإعلان الذي تم في الآيات السابقة، وأن هذه الآية قد جاءت تبيانًا وتدليلا على موضوع الآيات السابقة.

لقد ذكرْنا عند شرح الكلمات أن أول معنى للدين هو الطاعة، وعليه فقوله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ يعني: أيها الكافرون، إن طريقة الطاعة ومبادئها مختلفة عندي عما هي عندكم، فمن المحال أن أعبد آلهتكم وتعبدوا إلهي. إن طاعة الأصنام محال بحسب مبادئي، وطاعة الإله الأحد محال بحسب مبادئكم.

إن مبادئ الطاعة التي كان الرسول ﷺ والمسلمون يتمسكون بها والتي هي مستنبطة من القرآن الكريم هي كالآتي:

١: إنّ خالق هذا الكون ومالكه إله واحد، ولا بد للجميع من طاعة أوامره، قال الله تعالى: ﴿فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ واحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾(الحج:٣٥). والسؤال الآن: كيف يمكن طاعة الله تعالى، إذ إنه تعالى لا ينزل إلى الناس ليؤتيهم تعليماته؟ والجواب: لا شك أنه لا ينزل إلى الناس، ولكنه يبعث رسله، ومن خلالهم يصدر أحكامه للناس، كما قال تعالى: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾(الأنعام:١٠٤).. أي أن العقول لا تقدر على الوصول إليه، بل هو يصل بنفسه إليها من خلال طرق شتى. فإذا ما قام مدّع بين الناس، فإما أن يكون كذّابًا لم يُنْزِل الله عليه وحيًا ولا شرعًا، وإما أن يكون صادقًا، فإذا كان صادقًا، وقد نزل عليه الوحي والشرع، فمَن كفر به فلا يمكن أن يكون مطيعًا لله تعالى. فالذين يؤمنون برسوله هم المطيعون لأحكام الله تعالى، وأما الذين يكفرون به فهم المعرضون عن صراطه المستقيم. وحيث إن الله تعالى قد أنزل هدْيَه للناس على محمد ﷺ، فلن يُعَدّ الآن

مطيعًا لله تعالى إلا مَن يتّبعه. وهذا ما بيّنه الله تعالى في قوله ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا * مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾(النساء:٨٠-٨١).. أي: يا محمد، قد أنزلْنا على يدك أسباب الهدى للناس، فمن أراد الآن أن يطيع الله تعالى، فعليه أن يطيعك؛ لأن في طاعتك، طاعة لله.

وقد أعلن الله تعالى ذلك في قوله: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ﴾(آل عمران:٣٢-٣٣).. أي: يا محمد، أعلنْ بين الناس بأنكم إذا كنتم تحبّون الله وتريدون أن يحبّكم، فإنما سبيله أن تتّبعوا أحكامه التي أنزلها على يدي وأن تطيعوني، فسوف يحببْكم الله متغاضيًا عن ضعفكم وتقصيراتكم، وسوف يتجلى عليكم بتجليه، ويستركم بفضله. وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ﴾ يعني: أيها الناس، أطيعوا الله مِن خلال طاعة الرسول، لأنه يأتيكم بأحكام الله تعالى، فمَن آمنَ به فقد أطاع الله. ومِن هنا لزم على المرء أن يطيع أحكام الله تعالى وفقًا لتفاصيلها التي بيّنها محمد ﷺ، وإلا فلا يمكن أن تسمّى مطيعًا لله تعالى. فالحق أن الذي يتّبع ما أنزله الله في وحيه من أحكام وشرائع، هو الذي يستحق أن يدّعي طاعة الله، وهو الذي يمكن أن يشترك معه الإنسان في عبادة الله. أما منكر الإسلام؛ فلأنه لا يعمل بتعاليم الرسول ﷺ، فلا يمكن أن يطيع الله تعالى حقًا، وبالتالي فمن أطاعه في الأمور الروحانية واشترك معه في عبادة الله تعالى فقد خالفَ مشيئة الله.

٢: إن الذي ليس في قلبه عاطفة حب الله تعالى، أو الذي لا يتمسك بالتوحيد الكامل، فلا تجوز طاعته أيضا، قال الله تعالى: ﴿وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾(الكهف:٢٩).. أي: أيّها المخاطَب، لا تُطِعْ مَن خلا قلبه من حُبّنا واتّبع أهواءه، لأن طاعته ستُبعِدك عن الله الأحد. إذن، فلزم ألا يطيع الإنسانُ إلا مَن يخاف الله تعالى ويعتاد ذكْرَ الله ويعمل على نشر وحدانيته، أما الذي ليس متحليًا بهذه الخصال، فإن صحبته وقيادته تُبعد الناس عن الله تعالى وتقضي على عبادة الله بدلاً من إرسائها. ولما كان الكافرون لا يؤمنون بوحدانية الله تعالى وقلوبهم تخلو من حب الله، فاتحاد المؤمنين معهم في العبادة محال.

٣: إن الذي يحاول إثبات صدق دعواه بالأيْمان بدلاً من إثباتها بالأمر الواقع، فالتعاون معه لن يؤدي إلى الفلاح، قال الله تعالى: ﴿وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ﴾(القلم:١١). فالإسلام يأمر بأن يكون كل شيء مبنيًّا على الحقائق والواقع، ولذلك قال الله تعالى لرسوله: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾(يوسف:١٠٩).. أي أعلِنْ بين الناس أني وأتباعي نبني دعوانا على الشواهد والبينات والحقائق.

إذن، فيجب أن يكون كل شيء مبنيًّا على الواقع وليس على الحلف فقط. لا شك أن القرآن الكريم قد أقسم بأشياء كثيرة، ولكن كل تلك الأقسام هي بمنْزلة الشهادة، فقال الله تعالى مثلا: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ (البروج:٢).. أي: نقدّم شهادةً السماءَ التي هي ذات مدارج، على أن السماء الروحانية أيضا ذات مدارج، بمعنى: أن الترقيات الروحانية أيضا ذات درجات مختلفة، ولو وضعتم هذا الأمر في الاعتبار لانكشفت عليكم الحكمة وراء إنزال الله تعالى شرائع مختلفة في عصور مختلفة. لو أدركتم ذلك لسهُل عليكم فَهْمُ ما نزل على إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ من هدي وشريعة. أما إذا لم تأخذوا هذا الأمر في الحسبان و لم تفهموه، لانتابت قلوبكم الشكوك، وقلتم: ما الداعي لمجيء موسى بعد إبراهيم؟ وما الحاجة لأن يظهر عيسى بعد موسى؟ ولماذا بُعث محمد ﷺ بعد عيسى عليه السلام؟ وحيث إن محمدًا ﷺ وأتباعه يبْنون موقفهم على الواقع والبرهان، فاتحادهم مع الكفار في العبادة محال، لأن هؤلاء لا يبنون موقفهم على الواقع، وإنما على الأيْمان الباطلة التي لا علاقة لها بالحقيقة والواقع.

٤: إن الذي ينكر ضرورة الشريعة الإلهية لن يطيع الله تعالى، وإنما يطيع نفسه، ومَن اتّبع مثل هذا الإنسان فهو أيضًا لن يعبد الله وإنما ينحرف عن عبادته؛ قال الله تعالى ﴿وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾(الإنْسان:٢٥).. أي: أيها المخاطَب، إذا أطعتَ مَن يكفر بشرع الله تعالى ويخالف أوامره، فلا بد أن يبعدَك عن الله تعالى. لما كان الكفار يخالفون شرع الله تعالى، فلن تكون نتيجة اتحاد المسلمين معهم في العبادة إلا أن يُلقوهم بعيدا عن الله تعالى؟

٥: إن بعض الناس يصدّقون بالحق أولاً، ثم يغيّرون موقفهم مرة بعد أخــرى، ومثل هؤلاء أيضًا لا تكون طاعتهم طاعة لله ولا عبادتهم عبادة حقيقيــة بحــسب مبادئ الإسلام، إذ لا إيمان لهم في الواقع، إذ لو كان عندهم إيمان لما غيّروا موقفهم في كل مرة. قال الله تعالى في مثل هؤلاء: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾(النور:٤٨).. أي أن بعــض الناس يقولون آمنا بالله وبالرسول وصدّقنا بالحق، ثم يغيّرون موقفهم دائما، فاعلموا أنهم ليسوا من زمرة المؤمنين الصادقين -ورد في الروايات السابقة أن بعض الكفار كانوا يرتكبون مثل هذه الحماقة، أو كانوا يقولون للمؤمنين: تعالوْا نعبد كعبادتكم بعض الوقت- وبما أن الإسلام يرفض هذا التصرف، فمن المحال أن يتَّحد المؤمنون معهم في العبادة، لأنهم ليسوا مخلصين في العبادة، وليس المؤمن الحق عند الإسلام إلا مَن هو مخلص في العبادة ومداوم عليها ويؤديها عن قناعة تامة.

٦: ومن أطاع في بعض الأمر، فلم يُطِعْ حقيقةً. والمراد من الطاعــة في بعــض الأمر أن يطيع المرء فيما يتفق مع رغبته، ويرفض الطاعة فيما لا يرغب فيه. والذي يطيع في بعض الأمر، فإنه لا يبتغي رضا الله، بل يتبع رضا نفسه؛ مما يدل بوضوح على أنه ليس مستعدًّا لطاعة الله طاعة كاملة، وإنما يريد طاعة نفسه فقط. ويخبر الله تعالى عن الكافرين بأنهم يقولون أنهم سيؤمنون ببعض، أي أنهم يريدون أن يطيعوا فيما يتفق مع رغباتهم وطبائعهم.

باختصار، إن الذين يطيعون الله تعالى فيما يتفق مع أهوائهم لا يسمَّوْن مطيعين لله تعالى، فكيف يمكن أن يتَّحد معهم في العبادة قوم لا يطيعون الله تعالى لمجرد أنّ أوامره تتفق مع طبائعهم ورغباتهم، بل يظلون مطيعين له وإن كانت أوامره خلاف رغباتهم؟

٧: يجب ألا يطيع المرء أحكام الله تعالى من أجل منافع مادية. فمثلا يجــب ألا يؤدي الزكاة لتقوية علاقته مع القبيلة، وإنما عليه أن يزكّي ماله ابتغاء مرضــاة الله تعالى، وإلا فلن يُعَدّ كاملا في إيمانه. قال الله تعالى ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَــاةَ وَيُطِيعُــونَ اللَّهَ﴾(التوبة:٧١).. أي أن الكاملين في إيمانهم إنما هم أولئك الذين يزكّون أموالهم

طاعةً لله تعالى وابتغاء مرضاته، لا طمعًا في فوائد مادية ولا من أجل تقوية أواصر القرابة وتحسين علاقات الصداقة.. أي سواء كان الأمر متّفقًا مع رغباتهم أو محققًا لمصالح قومهم، إلا أنهم لا يفعلونه إرضاءً لأنفسهم أو لقومهم، بل لمرضاة الله تعالى. فالذي يبتغي مرضاة الله في أعماله، كيف يتفق في العبادة مع قوم لا يعملون بأحكام الله تعالى إلا من أجل مصالحهم الشخصية أو مصالح قبيلتهم؟

ثم اعلمْ أن لفظ الطاعة لا يعني الإذعان فقط، بل يعني ذلك الإذعان الذي يكون ببشاشة القلب ورضا النفس. يقال: جاء فلان طوعًا، أي غير مكرَهٍ؛ والطوع: ضده الكَرْه وهو ما أكرهتَ نفسَك عليه (الأقرب).. أي أنك لا ترغب في عمل ما، ولكنك تقوم به مكرها بسبب الضغط الخارجي، ومثل هذا العمل لا يتم ببشاشة القلب أبدا.

ومشتقات الطوع المختلفة توضّح مفهوم الطاعة أكثر، يقال: طاوَعَه فيه وعليه مطاوعةً: وافقَه. وطاوعَ له المرادُ: أي أتاه طائعًا سهلاً. وأطاعه المرتَعُ: أي اتّسع وأمكنَه الرعي؛ وهذا مجاز، كأن المرعى قدَّم نفسه للأنعام لكي تشبع. (الأقرب)

فالطاعة لا تعني -لغةً- مجرد الإذعان، بل الإذعان المقرون بالرضا والبشاشة والمنزّه عن الجبر والإكراه. أما الطاعة التي تكون بتكلُّف - أي حين لا ينشرح صدر المرء لفعل شيء، فيُكرِه نفسه على القيام به متظاهرًا بالبشاشة- فتسمى تطوُّعًا، قال الله تعالى ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾ (البقرة: ١٨٥).. أي أن الذي لا يستطيع أن يعمل الخير بشوق ورضا وانشراح صدر، فعليه أن يعمله تكلّفًا ويُظهِر البشاشة تصنعًا على الأقل، حتى لا يبدو وكأنه يعتبرها عبئا، ولو فعل ذلك لانفتحت عليه أبواب الخير التي تنفتح لمن يعمل الخير ببشاشة وانشراح صدر. فقد قال الإمام الراغب في مفرداته: "التطوّع في الأصل تكلُّفُ الطاعة، وهو في التعارف التبرعُ بما لا يلزم كالتنفّل".

وعليه فقوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾ يعني أن مَن فعل الخير نفلاً فهو خير له. ونظرًا إلى هذا المفهوم للطاعة -التي هي أحد مفاهيم "الدين"- فسيعني قوله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾: أيها الكافرون، إن مفهوم الطاعة عندكم هو

خلاف ما هو عندي، إذ تعتبرون القيام بالآداب الظاهرة طاعة، أما أنـا فالطاعـة عندي القيام بأحكام الله تعالى ببشاشة قلب، بحيث يجد فيها المرء لذة وسرورا.

والمرء لا يعمل بالأحكام ببشاشة إلا إذا توفّرت الشروط التالية:

١: أن يفهم فلسفة الأحكام.

٢: أن يكون جانب الرحمة غالبًا في الأحكام.

٣: أن يكون في العمل بها منافع أكثر من المشقة.

٤: أن تكون مفيدة بحق الإنسان بحيث يصل إلى غايته.

وهذه الأمور الأربعة لا تتوفر إلا في أحكام الإسلام دون الأديان الأخرى.

الحافز الأول: إن الإسلام هو الدين الوحيد الذي كل أحكامه مبنية على حكمة وفلسفة، أعني أنه لا يأمر بحكمٍ إلا ويبين معه سببه وفائدته وغايته، لكي يجد العامل بها متعة في قلبه ويدرك أنه لا يقوم بعمل عبث، وأنه لا يطيع أمرًا فقط، بـل فيـه كثير من المنافع الفردية والجماعية.

و لم تنـزل على الرسول ﷺ الأحكام فحسب، بل قد نزلت مع فلسفتها أيضا. قال الله تعالى ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾(النساء:١١٤).. أي: يا أيها الرسول، لقد أنزلنا عليـك كتابًا كاملا مشتملا على الأحكام، كما أنزلنا عليك فلسفتها، وعلّمناك ما لم تكن تعلم من قبل، وكان فضل الله عليك عظيما.

ثم بيّن الله تعالى أنه لم يُنـزِل فلسفة الأحكام من أجل رسوله فقط، بل أنزلهـا لكي يعلِّمها أتباعَه، فقال الله تعالى ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(آل عمران:١٦٥). فقوله تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ يعني أنه يطهِّر قلوبهم ويعلِّمهم طرق ازدهار أمتهم.

فالإسلام يتميز على الأديان الأخرى بأنه يذكر غاية أحكام الشرع وفلسفتها أيضا، لكي يعمل بها المرء ببشاشة وسرور واستمتاع. وهذه الفلسفة لا توجد في واحد أو اثنين من أحكام الإسلام فحسب، بل في جميع أحكامه.

إن إحصاء أحكام الإسلام وبيان فلسفتها يستغرق وقتا طويلا جدا، فلا أستطيع الخوض في هذا الموضوع بالتفصيل، غير أني أضرب هنا بعض الأمثلة تبيانًا للمراد.

١: الزكاة: لقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(التوبة:١٠٣).. أي: يا أيها الرسول، خُذْ جزءًا من أموال المسلمين زكاةً، لكي تُطَهِّر قلوبهم بذلك، وتمهّد السبيل لازدهار أموالهم، وتدعو لهم برؤية تضحياتهم هذه، لأن دعاءك مدعاة لسكينتهم، وإن الله تعالى يستمع لدعائك، ويعلَم أحوال هؤلاء المضحين.

لقد قال الله تعالى هنا أولاً: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾.. أي: يا أيها الرسول، خُذْ من أموال المسلمين زكاةً. ثم بيّنَ الغاية مِن وراء هذا الحُكم فقال: ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾. فأوّل هدف للزكاة: ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾.. أي أن تتطهّر أموالهم من حقوق الآخرين؛ ذلك أن الناس كلهم يكسبون المال بمساعدة الآخرين، ولهم حق فيه، وهذا الحق لا يزال موجودا في أموال الأثرياء مع دفْعهم أجرة العاملين؛ فمثلا لو أدى الثري الذي يكسب من منْجم للأجراء أجرهم، فلا يزال لهم حقٌّ في ثروته لأن الله تعالى أعلن في القرآن: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾(البقرة: ٣٠) .. أي أن الله تعالى خلق جميع كنوز الكون لفائدة الناس أجمعين، لا لشخص معين؛ فثبت أن حق الأجراء في مِلْك هذا المنجم لم يصل إليهم حتى بعد أداء أجرهم لهم، وليس سبيل أدائه لهم إلا أن يعطيهم شيئا زائدًا على أجرهم. ولكنه ما أدى بعدُ حق الآخرين كاملا، إذ أدى للأجراء فقط حَقَّهم في مِلْك المنجم، ولكنه لم يؤدِّ لغيرهم من الناس حَقَّ مِلْك المنجم، لذلك قد أمَرَ الإسلام أن يدفع هذا الثري للدولة نصيبا معينا من هذه الأموال لكي تنفقها على الناس كلهم إنفاقا مشتركا.

أما المزارع الذي يكتسب الرزق من أرض يملكها غيره، فلا شك أنه يأكل ثمرة جهوده، ولكنه ينتفع بلا شك من الأرض التي خُلقت للإنسانية جمعاء، ولذلك فيأمره الإسلام بدفع جزء من دخله للدولة لكي تنفقه على مرافق الناس جميعا، وبحسب هذا القانون يدفع المزارع عُشْرَ دخله للدولة.

أما صاحب الأرض فهو أيضا يدفع الزكاة على ما تدرّ عليه أرضه.

أما التاجر فلا شك أنه يكتسب باستثمار أمواله في الظاهر، ولكن تجارته تتوقف على أمن البلاد الذي يساهم في إرسائه كلُّ مواطن، فلكي يدفع نصيب الآخرين في أمواله، فقد فرض عليه الإسلام الزكاة لتتطهر أمواله من حقوق الآخرين.

والغرض الثاني لإخراج الزكاة هو ﴿تُزَكِّيهِمْ﴾: أي أن يفتح الرسول أبواب الرقي والازدهار للأفراد وللأمة والبلد، لأن التزكية تعني التنمية والترقية أيضا. وحيث إن قوله تعالى: ﴿تُزَكِّيهِمْ﴾ قد ورد إزاء قوله: ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾، فعلينا أن نأخذ من معاني التزكية ما يختلف عن التطهير حفاظًا على فصاحة القرآن الكريم. ويتضح من القواميس أن من معاني التزكية التنميةَ بالإضافة إلى معنى التطهير، وعليه فمن معاني قوله تعالى ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾: خُذْ زكاةَ أموالهم من أجل تطهير قلوبهم وتطهيرِ أموالهم بإخراج ما فيها من حقوق الآخرين، ومن أجل تمهيد السبيل لازدهار الأمة والبلد. مما يعني أن الزكاة ليست عبادة فحسب، بل هي سبيل لأداء حقوق العباد أيضا.

ثم إن القرآن الكريم قد ذكَر مصارف الزكاة أيضا ليبين بوضوح تام كيف تُسَدُّ أهمّ حاجات الأمة بأموال الزكاة. ولولا إنفاق هذه الأموال على سَدّ هذه الحاجات لأصبحت الأمة بلا حيلة ولا قوة. قال الله تعالى ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(التوبة: ٦٠). فالزكاة لها ثمانية مصارف: ١- الْفُقَرَاءِ، ٢- وَالْمَسَاكِينِ، ٣- وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا.. أي الذين يجمعون أموال الزكاة، ٤- وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ٥- وَفِي الرِّقَابِ.. أي تحرير العباد أو إنقاذ

المعرَّضين للشدائد، ٦- وَالْغَارِمِينَ، ٧- وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ.. أي في الأمور التي أمر الله بالإنفاق فيها أو فيما يرضي الله تعالى، ٨- وَابْنِ السَّبِيلِ.

فأول مصرف للزكاة هو الفقراء، أي الذين هم بحاجة إلى مساعدة الآخرين - جزئيا أو كليا- من أجل لقمة العيش، مثل المعوّقين والمعتوهين واليتامى والأرامل. فمسؤولية هؤلاء كلهم تقع على الأمة، وإذا لم تهتمّ بهم لقيت الخزي والهوان. لقد أصدر هذا الحكم ليَتِمَّ به مساعدة المحتاجين بشكل دائم ولا تصاب الأمة والبلد بالضعف.

لا شك أن الله تعالى قد ذكَر الفقراء هنا أولاً، ولكن هذا لا يعني أن الإنفاق عليهم مقدَّم على كل مَن ذكرتْهم الآية في كل حال، وإنما المراد أنهم مقدَّمون على الآخرين في الظروف العادية، وإلا فقد تطرأ ظروف تدفع الحكومة نفسها إلى الخطر، وعندها يُطالَب الفقراء أيضا -مهما بلغ فقرهم- بالتضحية من أجل الأمة، فقد كان الرسول ﷺ يدعو الفقراء والأثرياء كلهم للجهاد، وما كان يعطيهم شيئا. فثبت أنه إذا هُدّدَ استقلال البلد وحرية الأمة، فيمكن أن يطالَب الفقراء أيضا بالتضحية. فترتيب مصارف الزكاة هذا لا يعني أن الإنفاق على الفقراء قبْل غيرهم فرض في كل حال، بل هو مرجَّح.

ثم ذُكر المساكين في الآية. والمسكين يعني الفقير في الحقيقة، والفرق أنه فقير ساكن، فقد قال الرسول ﷺ في تفسير المسكين: هو مَن يجلس في بيته ولا يسأل الناس حياءً، وإنما يُعرف من حاله أنه بحاجة إلى المساعدة. ومع أن كلمتي الفقير والمسكين تدلان على نوع واحد من الفقر، إلا أن الله تعالى قد ذكرهما منفصلين لحكمةٍ، وهي أن مِن واجب الدولة الإسلامية ألا تعتني بالفقراء فحسب، بل عليها أن تبحث عن الفقراء الذين لا يدَعون الآخرين يطّلعون على فقرهم، وتمد إليهم يدّ العون.

والمصرف الثالث هو ﴿الْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾، أي الموظفون الذين يعملون على إدارة نظام الزكاة، فيجب أن يُعطَوا رواتبهم من أموالها. الواقع أن قوله تعالى ﴿وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾ ذو مفهوم واسع، إذ يندرج فيه جيش الدولة أيضًا، إذ لولا الجيش لما كان

استقرار في البلاد، و لم تكنْ فيه تجارة ولا زراعة، ولولاهما فمِن أين تُجبى أمـــوال الزكاة؟ فالحق أن للجيش دورا كبيرا في جمع الزكاة، غير أن العاملين علـــى إدارة نظام الزكاة هم أول من يندرج تحت قوله تعالى ﴿وَالْعَامِلِينَ عَلَيْها﴾.

والمصرف الرابع هو ﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾.. أي الذين قلوبهم مؤلَّفة، مما يشير إلى أن قلوبهم مع المسلمين وظاهرُهم غير ذلك. فالمراد من المؤلفة قلوبهم قـــوم مائلـــةٌ قلوبهم إلى الإسلام أو إلى الدولة الإسلامية، ولكنهم لا يستطيعون إعلان إسلامهم أو تعاطُفهم مع الإسلام بشكل كامل لإقامتهم في بلاد الكافرين، فيمكن إنفـــاق مال الزكاة لمساعدتهم لنقْلهم إلى الدولة الإسلامية أو للحفـــاظ علـــى ولائهـــم للإسلام. أو المراد منهم قوم قد آمنوا بصدق الإسلام، ولكنهم لو أظهروا إسلامهم تعرضت وظائفهم للخطر، و لم يجدوا سبيلاً للرزق، فيمكن إنفاق أمـــوال الزكـــاة عليهم أيضا.

ولكن ﴿الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ لا يعني إنفاق هذه الأموال على أحد لاســـتمالته إلى دين الإسلام، لأن الإسلام لا يسمح بذلك ألبتة، فإن محاسنه الذاتية كافية لانتشاره.

والمصرف الخامس هو ﴿وَفِي الرِّقَاب﴾، أي: إنفاق أموال الزكاة على تحريـــر العبيد. كان الرق شائعًا في العرب في بداية الإسلام، ولذلك أمـــر بتحريـــرهم، إذ حرّم الرقَّ الذي يتم بالبيع والشراء تحريما مطلقا.

غير أن قوله تعالى ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ يعني أيضًا أنه إذا اجتاحت أمةٌ ظالمـــةٌ أمـــةً ضعيفة واستولت عليها عدوانًا وظلمًا، وعاملتْها معاملة العبيـــد، فيجـــب علـــى المسلمين مساعدة هؤلاء المستضعفين وتحريرهم من الظالمين.

وكذلك من معاني ﴿فِي الرِّقَابِ﴾ مساعدة شخص لإنقاذه من الدَّيْن الذي لا يستطيع دفْعه.

والمصرف السادس هو ﴿الْغَارِمِينَ﴾، ويندرج فيه قوم يتحتم عليهم أحيانًا دفـــعُ مال ليسوا مسؤولين عن دفعه بشكل مباشر، كأن يعطي المرء ضمانًا لغيره، فيتوفى هذا أو يختفي، فلا يستطيع الضامن دفع مال الضمان، فيمكن مساعدته من مـــال الزكاة.

وكذلك يندرج فيهم أولئك التجار الذين تجارتهم نافعة للبلاد، ولكنها تضررت وتهددت بالكساد لحادث، فمن واجب الحكومة مساعدتهم لترويج تجارتهم لتنتفع بها البلاد.

والمصرف السابع هو ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، وهذا يشمل كل الأعمال التي تساعد على نظام البلد والأمة واستحكامه وحمايته وازدهاره. فيندرج في مصطلح ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الجيش والتعليم والطرق والمشافي وغيرها من المشاريع التي لا تنفع فردا واحدا، بل تنفع الأمة كلها.

الواقع أن المصارف السابقة أشارت إلى المساعدة الفردية أساسًا، أما مصرف ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فهو إشارة إلى أنه تطرأ أحيانًا حاجات لا تُنسب إلى الأفراد، بل تنسب إلى الأمة أو البلد، فيتحتم عندها الإنفاق مِن أجل أمن البلد والملة وازدهارها، ولأنها نفقات كثيرة، فلم يفصّلها الله تعالى، وإنما استخدم لها كلمةً مجملة جامعة، لكي ينفِق المعنيون عند هذه الحاجات.

والمصرف الثامن هو ﴿ابْنِ السَّبِيلِ﴾.. أي أن مِن واجب الدولة مساعدة المسافرين بمدّ الطرق ورصْفها وبناءِ النُّزُل لإقامتهم، وإنشاء المرافق ونشر المنشورات لتسهيل المعلومات للمواطنين وللسيّاح الغرباء من مسلمين وغير مسلمين الذين يأتون لزيارة الدولة الإسلامية والاطلاع على أحوال المسلمين، مما يزيد في دخلها، وتقوية علاقات الأجانب معها وذيوع صيتها وتحسين العلاقات الدولية بها. وكل هذه الأهداف تنصبّ في ﴿ابْنِ السَّبِيلِ﴾ .

لقد تبين من هذا أن الإسلام لا يأمر بأداء الزكاة فحسب، بل يبين أن وراءها فلسفة عظيمة، وأن الأمة لو عملتْ بهذا الحكم بشكل سليم لانفتحت عليها أبواب الرقي والازدهار على مصارعها باستمرار.

٢: الصيام: كذلك أمر الإسلام بالصيام في قول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾(البقرة: ١٨٤). ثم أخبر الله تعالى أن هذا الصيام لشهر كامل على التوالي، فيجب أن تصوموا الشهر كله. ثم بين أنه ليس الغرض من الصيام أن تُعانوا من الجوع والعطش طول النهار، بل فيه

حِكَم عظيمة نافعة لكم، فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(البقرة: ١٨٤).. أي أن الصوم يزوّدكم بالتقوى. وكلمة ﴿تَتَّقُونَ﴾ قد وردت في القرآن الكريم لثلاثة معان: النجاة من الآلام، والتخلص من الآثام، والوصول إلى الدرجات الروحانية العلى، وهكذا فقد ذكر الله تعالى ثلاثة من حِكَم الصيام.

أ: أما الحكمة الأولى بأن الإنسان ينجو من الآلام بالصيام، فتبدو غريبة، لأن الصائم يزداد عناء ببقائه جائعًا عطِشًا كل النهار، ولكن إمعان النظر يكشف أن الصوم يعلّم درسين: أوّلهما أن الأغنياء الذين يتناولون أشهى الأطعمة المتنوعة ولا يذوقون الجوع والفاقة هم أيضا يعرفون من خلال الصوم ما الجوع والفاقة وما هي معاناة الذين يضطرون له. وبتعبير آخر، إن الصوم يُطْلِعُهم على حالة إخوانهم الفقراء، فيتحمسون لمواساتهم، بما يساعد على ازدهار الأمة وحمايتها. ولا شك أن حماية الأمة تضمن حماية الفرد أيضا.

والدرس الثاني هو أن الإسلام يريد ألا يركن أبناؤه إلى الغفلة والكسل، بل يريد أن يعتادوا تكبُّدَ المشاقّ، والصوم يدرّب المسلمين كل سنة على تحمّل المشقة، وبتعبير آخر إن الذين يعملون بحكم الصيام لا يميلون إلى حياة البذخ والغفلة، فينجون من الدمار.

ب: والمعنى الثاني للتقوى أن المتقي يتقي من الآثام. والإثم في الحقيقة هو التكالب على المُتع المادية، والقاعدة أن المرء إذا اعتاد شيئًا لم يستطع الإقلاع عنه، ولكنه إذا تمكّنَ من ترك شيء بإرادته فلا تتغلب عليه الأهواء. فالصائم في رمضان حين يترك لله تعالى كل اللذات والمتع التي تدفعه إلى الإثم أحيانًا، ويعتاد ضبط النفس شهرا كاملا على التوالي، فهذا يسهّل عليه حتمًا مكافحةَ المغريات التي تدفع إلى الإثم.

ج: ثم إن الصيام يساعد على التقوى من حيث إن الصائم يواظب على صلاة التهجد في ليالي الصوم، مما يهيّئ له فرصًا أكثر للدعاء والعبادة. ثم إن العبد حين يترك راحته لله تعالى فإن الله تعالى يجذبه إليه ويقوّي روحه.

وقد بين الله تعالى حكمة أخرى للصيام في قوله ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(البقرة:١٨٦).. أي أن من منافع الصوم أن الصائم يجد فرصة أكبر لذكر الله لتفرُّغه من مشاغل الأكل والشرب طول اليوم. ومن منافعه أيضًا أن معاناة الجوع تولّدُ فيه عاطفة الشكر لله تعالى، فيقول: الحمد لله الذي ينجيني من ويلات الجوع السنة كلها.

٣: الحج: وأهداف هذه العبادة التي فرضها الله تعالى مشابهة لأهداف الصوم، أي أن الحج يعوّد صاحبه على ترْك وطنه لله تعالى وأقاربه وأعزّته ويخلق فيه الإحساس بالأُخوّة العالمية ويقوّيه. ومِن حِكم الحج التي بيّنها القرآن الكريم أيضا؛ تعظيمُ شعائر الله، وإحياءُ ذكراها. فالحج في الواقع إحياءٌ لذكرى الحادث الذي ترك فيه إبراهيم ابنه إسماعيل في البرية.

ثم إن الله تعالى قد قال عن الكعبة إنه أوّل بيتٍ بُني لعبادة الله الأحد؛ والمؤمن عندما يذهب للحج هناك يتراءى أمام عينيه كيف أن الله تعالى ينقذ عباده الذين يضحّون في سبيله ويعزّهم ويكرمهم، فيزداد يقينًا بذات الله وجلاله.

ثم إن الحاج عندما يرى نفسه في هذا البيت الذي بناه الله تعالى منذ بدء الخليقة لذكْره وعباداته، فيشعر بعلاقة روحانية غريبة بينه وبين الذين لا يزالون ينخرطون منذ آلاف السنين في هذا السلك الروحاني.. سِلْكِ ذِكْرِ الله وحبِّه.

باختصار، إن الإسلام لا يأمر بالعبادات فحسب، بل يبين حِكَمَها أيضا ويذكّرنا أنها كلها لفائدتنا، وليس أن الله تعالى قد فرضها تحكُّمًا، فكيف لا يمتلئ قلب العابد بشاشةً؟ ولماذا لا يعمل بكل حكم فرحا مسرورا؟ إن دراسة الكتب السماوية الأخرى تكشف أنها تُقدِّم الشريعة كغرامة؛ فالفيدا مثلاً مختفٍ تحت الحجب إذ لا تعثرُ فيه على أثر للشرائع والأحكام، أما التوراة والزندافستا؛ فيتضح لك بدراستهما أن فيهما شرائع، ولكن يبدو أنها ليست لمنفعة الإنسان، وإنما أمر الله بها العبادَ لأنه أراد هكذا، مما حال دون تحقُّق الغرض الحقيقي للشريعة، وهو إصلاح النفس. لا شك أن فيها أحكامًا ورد فيها أنها منافع للعباد، ولكنها على

سبيل الشاذ والنادر، أما القرآن الكريم فهو وحده الذي يبين أن كل الأحكام الإلهية إنما هي لفائدة الإنسان.

والحافز الثاني الذي يولّد البشاشة عند العمل بأحكام الله تعالى هو أن يكون جانب الرحمة فيها غالبًا، لأن المرء إذا صدر منه ضعف أو تقصير في العمل بحكم من أحكامه تعالى، فرحمتُه ﷻ تتغاضى عن هذا الضعف. وهذه الميزة توجد في شريعة الإسلام دون شرائع الأديان الأخرى.

فالهندوس مثلاً يؤمنون بالتناسخ، والمراد من عقيدة التناسخ عند أهلها أن الله تعالى لا يستطيع أن يغفر لعبد ذنبه، ولا يمكن أن يجزيَه على عمله الحسن أكثر من عمله، فيمرّ مرتكبو الآثام بولادات متكررة يبلغ عددها ثمانية ملايين وأربع مئة ألف ولادة، بمعنى أنه يولد مرة بعد أخرى بقالب حيوانات مختلفة بدلاً من قالب الإنسان، عقابًا على إثمه. وليس منشأ هذه العقيدة إلا أنهم يرون أن جانب الرحمة ليس غالبًا في جزاء الله وعقابه.

والتدبر في الفلسفة الفيدية الهندوسية يكشف ألاّ سبيل لنجاة أي إنسان في الحقيقة، لأن من المحال أن تتيسر معرفة الخير والشر للإنسان بشكل صحيح من دون دراسة الكتاب الهندوسي "الفيدا"، ولا يمكنه تجنُّب الشرّ من دون هذه المعرفة الصحيحة، كما أن الفترة التي تستغرقها دراسة الفيدا هي ٣٦ عامًا على الأقل، وهذا ما ادعاه البانديت ديانند مؤسس فرقة "آرياسماج" الهندوسية، حيث قال ما تعريبه:

تبدأ دراسة "الفيدا" بعد السنة الثامنة من العمر على الأقل، وتستغرق دراسة أجزاء "الفيدا" كاملةً ٣٦ سنة، وإذا أضفنا إليها السنوات التي سبقت الدراسة (أي ٨ سنوات) لصار عمر الدارس ٤٤ سنة، أما إذا تمت دراسة "الفيدا" في ١٨ سنة كحدٍ أدنى، وأضفنا إليها ٨ سنوات أو ٩ –حسب العمر الذي ابتدأت فيه الدراسة– فيصبح عمره ٢٦ سنة على الأقل وقت انتهائه من الدراسة. باختصار،

إن الإنسان يظل طالبًا ما لم يكمل دراسته للفيدا. (ستيارتهـ بركاش، الباب الثالث ص ٤٦)◈

أما السؤال: ماذا عن الذنوب التي يرتكبها دارس الفيدا في فترة دراسته، أتغفر له أم لا؟ وهل يغفر "برروميشر" -أي الإله- ذنوب عباده الذين يحاولون التقرب إليه بالعبادة، فقد ذكره "الباندیت دیانند" في كتابه هذا وأجاب عليه، حيث ورد:

"هناك سؤال: هل يغفر "برروميشر" ذنوب عباده الذين يتقربون إليه بالعبادة أم لا؟ فالجواب: لا، لأنه إذا غفر الذنب فلا يبقى عادلاً، وأصبح الجميع آثمين جدا، لأنهم إذا سمعوا عن عفو "برميشر" عن ذنوب العباد، تجاسروا على ارتكابها من دون هوادة، لأن المِلِك إذا غفر للناس جرائمهم تجاسروا عليها وارتكبوا جرائم كبرى، لأنهم يعرفون أن الملك سوف يغفر لهم، وأنهم إذا مثلوا أمامه رابطي الأيدي نادمين خائفين خاشعين فسوف يعفو عنهم، وهكذا فمن لم يرتكب الجرم من قبل فهو أيضًا يرغب في ارتكابه، ولذلك فإن عمل "إيشور" (أي الإله) أن يرتّب على أعمال الناس نتائجها الملائمة، وليس أن يعفو عنهم سيئاتهم. (ستيارتهـ بركاش، الباب ٧، ص١٨٧).

وهذا يعني أن "إيشور" لا يغفر ذنوب عباده المقربين أيضًا، فهل يبقى بعده سبيل لنجاة الإنسان؟ إن الإنسان معرض للخطيئة والإثم، ولا سيما إذا لم يكن عنده علم كامل بتعاليم "الفيدا". ثم إن الإنسان إذا خُلق في قالب حيوان، فلا يبقى عنده شعور إنساني، فإذا رجع إلى القالب الإنساني.. أي إذا خُلق بعد هذه الولادات المتكررة بقالب إنسان.. فسوف يعود إلى الولادات المتكررة مرة أخرى، فيستحيل عليه نيل النجاة في أي مرحلة.

علمًا أنه بحسب العقيدة الهندوسية إذا نال الإنسان النجاة، فلا تكون نجاته أبدية، بل إنه يُخرَج من دار النجاة بعد فترة ليعود إلى الدنيا في دورة الولادات

◈ العبارة الأصلية غامضة ومبهمة جدًا، وقد ترجمتُ ما فهمته بمساعدة بعض الأساتذة الزملاء. (المترجم)

المتكررة المتنوعة، مما يعني أن "إيشور" يستبقي -على ما يبدو- بعض آثام ذلك الناجي ليعاقبه عليها، فيُخرجه من دار النجاة ليُلقيه في دورة الولادات المتكررة عقابًا على آثامه الباقية، إذ لا عفو لأي إثم عند الهندوسية، ولا يمكن أن يُجزى أحد على عمله الحسن جزاء زائدا أو غير محدود، ومن أجل ذلك تكون النجاة محدودة الزمن بحسب العقيدة الهندوسية.

وهذا هو حال الديانة المسيحية، إذ يؤمن المسيحيون أن آدم ﷺ وقع في الإثم، فصار نسله كله آثما بسبب إثمه، وكل مولود يولد بعده يكون ملوَّثًا بإثمه، لأنه وارثُ آدم، وهذه الخطيئة الموروثة لا يمكن أن يسترها الله تعالى برداء عفوه، بل لا بد من أن يعاقِب الإنسان عليها. وما دام المسيحيون يرون أن نسل آدم كلهم آثمون، فيرون أيضًا أن أنبياء الله ومرسليه -عليهم السلام- ليسوا بمعصومين، بل آثمون. ولما كان نسل آدم ﷺ كلهم آثمين، ولا يمكن أن يترك الله تعالى أي ذنب من دون عقاب، فاضطر أن يرسل ابنه إلى العالم ليحمل عن كل الآثمين آثامهم، ويعاقَب مكانهم.

هذه العقيدة المسيحية بعيدة عن العفو والرحمة كليةً، بل هي غير عادلة مطلقا، لأن إنزال العقاب بابن الله المعصوم مكان أبناء آدم الآثمين ليس من العدل في شيء (التكوين ٣: ١٧). باختصار، إن عقيدة الفداء والكفّارة تكشف بوضوح ألا رحمةَ ولا عفوَ عند الله تعالى بحسب عقيدة المسيحيين.

أما الإسلام فيعلِّم خلاف ذلك، إنه يعرض على العالم ذلك الإله الذي من صفاته أنه الغفور الودود الرحيم.. أي إذا بقي هناك ضعف وتقصير في عمل الإنسان، فإن الله تعالى يتغاضى عنه ويعامله بالمحبة والرأفة فاتحًا له طرق الرقيّ، شأن الأب المشفق الذي لا يريد أن يضيع ولدُه مهما بلغ تقصيره. إنما يريد الله تعالى لعباده أن ينالوا النجاة، وإن كان في أعمالهم بعض الضعف والتقصير. ومثل هذه التعاليم هي التي يعمل بها الإنسان ببشاشة القلب. وعلى سبيل المثال، إذا لم يستطع الإنسان أن يصلّي بتركيز وخشوع كما ينبغي، فإنه يعلم أن الإسلام لا يعتبر

صلاته باطلة، بل لو بقي في صلاته شيء من التقصير، فإن الله تعالى سوف يغض الطرف عنه ولن يغلق عليه أبواب أفضاله إذا ما ندم وأناب إليه تعالى.

وبناءً على ذلك يقدّم الإسلام مبدأ التوبة، أي أنه إذا صدر من الإنسان تقصير، فلا يعاقب الله تعالى عليه بالضرورة، بل لو أنه ندم على تقصيره، وأراد إصلاح خطئه مستقبلا بعزيمة صادقة، فإن الله تعالى سيفتح عليه أبواب الرقي التي قد سدّها بيده بتقصيره، فلن يسقط في الحضيض، بل سيظل يسمو إلى الأعالي. وقد ذكر الله تعالى هذا المبدأ في قوله ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾(آل عمران:١٣٦-١٣٧).. أي أن الذين يخالفون أمرًا من أوامر الله تعالى، وهكذا يظلمون أنفسهم، ثم يذكرون الله تعالى ويتداركون خطأهم طالبين المغفرة من الله تعالى -﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾- ثم لا يصرّون على فِعْلتهم، ويعلمون أن الله تعالى قادر على غفران ذنوبهم وفتح أبواب رحمته لهم، فجزاؤهم أن الله تعالى سيستر عيوبهم، فلن تُغلَق عليهم أبواب رحمته، بل سيفوزون بقرب الله تعالى، وينالون النجاة والمغفرة والجنات التي تجري من تحتها الأنهار، وهذا الجزاء لن يكون مؤقتا، بل سيعيشون في هذه الجنات للأبد، فما أروعَ جزاءَ العاملين!

يا له من تعليم عظيم! إذ إنه يفتح أمام الإنسان باب الأمل على مصراعيه، ويجعله يوقن أن بوسعه المضيّ قُدُمًا في سبيل الرقيّ، كل ما في الأمر هو أن يولّد في نفسه إحساسا سليما.

قد يفكّر المرء أن الله تعالى يمكن أن يغفر لمن صدر منه خطأٌ أو خطآن، ولكن ما بال الذي قد ارتكب خطايا كثيرة، فظن بسببها أن باب النجاة قد سُدّ في وجهه بعدها؟ ولاطمئنان هذا الإنسان قال الله تعالى لرسوله ﷺ ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾(الزمر: ٥٤).. أي: يا أيها الرسول، أعلِنْ بين الناس بأن الذين

يظنون أهم يرزحون تحت أعباء الخطايا وأنْ لا خلاصَ لهم منها، وأنّ باب النجاة مسدود أمامهم، عليهم ألا ييأسوا من رحمة الله، فإنه قادر على فتح باب النجاة أمام عباده مهما كثرت ذنوبهم وخطاياهم، لأنه تعالى أكثرُ مغفرةً مما يتصوره العباد، وأوسع رحمةً من أن يقدِّرها الناس.

فالله تعالى قد ركّز على رحمته مرة بعد أخرى، ونهى العباد عن اليأس والقنوط، وبيّن أن كل إنسان يمكن أن يحظى برحمة الله تعالى، لأن الرحمة أصل صفاته.

ورد في الحديث عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَالَ: كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ، فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ فَأَتَاهُ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: لا، فَقَتَلَهُ، فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً. ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ، فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ، فَاعْبُد اللَّهَ مَعَهُمْ وَلا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ. فَانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلائِكَةُ الْعَذَابِ، فَقَالَتْ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلاً بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ، وَقَالَتْ مَلائِكَةُ الْعَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ. فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ، فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَ الأَرْضَيْنِ، فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ. فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ، فَقَبَضَتْهُ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ.

وفي رواية "فَكَانَ إِلَى الْقَرْيَةِ الصَّالِحَةِ أَقْرَبَ مِنْهَا بِشِبْرٍ، فَجُعِلَ مِنْ أَهْلِهَا" (مسلم: كتاب التوبة).

وفي رواية: "فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى هَذِهِ أن تَقَرَّبِي، وَأَوْحَى إِلَى هَذِهِ أَنْ تَبَاعَدِي، وَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَهُمَا، فَوُجِدَ إِلَى هَذِهِ أَقْرَبَ بِشِبْرٍ، فَغُفِرَ لَهُ." (البخاري: كتاب الأنبياء)

لقد بيّن الرسول ﷺ في هذا الكلام التمثيلي أن على المرء ألا ييأس أبدا، لأن رحمة الله أوسعُ من تصوُّر الإنسان، وأن الإسلام وحده الذي يقدِّم أمام العالم ذلك الإله الذي رحمته تستر الإنسان دائما. قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَرَحْمَتِي

وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾(الأعراف:١٥٧)، وقال: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾(الأنعام:١٣)، وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (هود:١١٩-١٢٠).

وقوله تعالى: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ يعني للرحمة خلقهم. فقد نقل ابن كثير قول ابن عباس: "للرحمة خلقهم، و لم يخلقهم للعذاب".

فثبت أن جانب الرحمة غالب في تعاليم الإسلام، ومن آمن بهذه التعاليم فلن ينقبض قلبه في العمل بها، بل سيحدوه الأمل دائما وسيعمل بها مدركًا أنه لو كان في أعماله نقص أو تقصير، فإن الله تعالى سوف يستره برحمته. ولكن الأديان الأخرى لا تعلّم ذلك، فلا يمكن أن يجد المرء بشاشة قلبية عند العمل بأحكامها.

والحافز الثالث الذي يولد بشاشة في القلب عند العمل بأحكام الشرع هو أن تكون فوائدها أكبر من الجهد المبذول فيها. وهذه الميزة لا تتوفر إلا في تعاليم الإسلام فقط. فمن صفات الإله الذي يقدّمه الإسلام "الرحيم"، والرحيمية تعني أن العبد يقوم بعمل، فيرتب الله ﷻ عليه نتائج كثيرة جدا. فمثلا: إذا أكل المرء، فلا تكون نتيجته الشبع فحسب، بل يتولد من طعامه الدم الذي ينفع جسده شهورا وسنوات، فيقوي به دماغه وبصره وعقله وأذنه، فيعمل مستعينا بها، ثم إن عملُه هذا يؤدي إلى نتائج تنفعه شهورا وسنوات أخرى، ثم مِن دمه تتولد النطفة التي تساعد على استمرار نسله، ثم يتولد من نسله أجيال بعد أجيال. مما يعني أن الله تعالى يرتّب على عمله نتائج كثيرة على التوالي. هذه هي الرحيمية. لو ترتب على عمل الإنسان نتيجة فورية واحدة لسميناها جزاءً، وهو يُشبِهُ الأجرةَ التي يعطاها الأجير مرة، ولكنها لا تسمى رحيمية، إنما مثل الرحيمية كمعاش التقاعد؛ إن الموظف يعمل عمله فيتلقى عليه جزاء فوريا، إضافةً إلى جزاء آخر يترتب على عمله من دون انقطاع، ويتلقاه بعد التقاعد. فالرحيمية أن العبد لا ينال جزاء عمله نقدًا فقط، بل إن رحيمية الله تضع أساسًا لنتائج طيبة أخرى لعَمله تظهر في المستقبل.

فالرحيمية تعني أن المرء يعمل عملاً بسيطا ويرتب الله عليه نتائج لا نهاية لها. والعبد إذا أدرك أنه سينال على أعماله جزاء أكثر بكثير من جهده، فمن الطبيعي أن يحبّ العمل بوصايا الله تعالى، لكي يُجزى عليه جزاء بلا حدود. ومن أدرك حق الإدراك أن الله تعالى عندما يجزي على عمل فلا ينقطع جزاؤه، فسيفرح في نفسه، ويبذل كل ما في وسعه لفعل الصالحات لينال من الله تعالى جزاء غير محدود.

ولقد بين الله تعالى مرارا في القرآن الكريم أن جزاء أعمال المؤمنين أكبر من جهودهم بكثير. قال الله تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾(التين:٧). فقوله تعالى: ﴿أجرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ يعني: أجرا غير مقطوع.

وقال الله تعالى ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى إلا مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾(الأنعام:١٦١). فقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ يعني أنه لا يُظلم بنقصان جزاء حسنته، ولا بزيادة عقاب سيئته.

وقال الله تعالى ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(البقرة:٢٦٢).

لقد بين الله تعالى هنا أن الذين ينفقون في سبيله، أي في حاجات الدين والأمة، فإنه تعالى يزيد جزاءهم إلى ٧٠٠ ضعف بل أكثر؛ لأنه يجزي العبد بالنظر إلى نوعية تضحيته وظروفها. ومَن علِم أنه يمكن أن يُجزى على عمله ٧٠٠ ضعف، فلِمَ لا يعمل بأحكام الله تعالى ببشاشة قلبية؟

والحافز الرابع الذي يولّد البشاشة عند العمل بأحكام الله تعالى أن يدرك المرء أنها نافعة له، وأنه إذا عملها فاز بالمطلوب. ومن أدرك ذلك عمل بأحكام الشرع بطيب نفس، لا باعتباره غرامة. وإن وصايا الإسلام وحده التي يفوز الإنسان بالعمل بها برضى الله، كما يجلب بها منافع شخصية وقومية أيضا. خذوا الصلاة مثلا: فإن المصلي لا يفوز بها بلقاء الله تعالى، بل ينتفع بها منفعة شخصية، إذ يُحفظ من عيوب ومعاصيَ كثيرة. قال الله تعالى ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ

وَالْمُنْكَرِ﴾(العنكبوت: ٤٦).. أي أن الذي يؤدي الصلاة حق أدائها فإنها تنفعه نفعًا ذاتيا بأن يُحفَظ من شتى المنكرات التي لا يُحفظ منها الآخرون، وكأنه يتحصن بحصن لا يستطيع الشيطان اقتحامه. ثم هناك في الصلاة منافع للأمة، إذ يضع المصلي في الحسبان دائمًا أن علينا الحفاظ على شمل أمتنا، وأنه لا بد للمسلمين من إمام واجب الطاعة دائما تجتمع على يده الأمة كلها لرفع لواء الإسلام عاليا. ثم إنه إذا ذهب إلى المسجد للصلاة، اطّلع على أحوال إخوانه، مما يحقق للمسلمين تلقائيًا الهدف الذي تصبو إليه كل أمة متيقظة.

والحال نفسه فيما يتعلق بالصوم والزكاة؛ فليست فيهما مصلحة الصائم والمزكّي فقط، بل إنهما يساعدان المسلمين على تنظيم الأمة وتماسكها.

أما الحج، وهو من أهم العبادات الإسلامية أيضا، فيجلب لصاحبه منافع شخصية وجماعية وسياسية أيضا، حيث يجتمع جماعة من أهل النفوذ كل سنة، ويطّلعون على أحوال مسلمي العالم كله، فيزدادون أخوّةً وحبًّا واطلاعًا على مشاكلهم، فيزدادون تعاونًا فيما بينهم، كما ويتحلَّون بمحاسن إخوانهم. فالحج فرصة سانحة لمسلمي العالم للتشاور لمصلحة الأمة.

فكل الدوافع التي مِن شأنها أن تولّد البشاشة والحماس لطاعة أحكام الله حقًا، متوفرةٌ في تعاليم الإسلام دون تعاليم الأديان الأخرى، لذا فيمكن أن يذعن الناس لتعاليم أهل الشرك أو الأديان الأخرى في صورتها الحالية، ولكن من المحال أن يطيعوا فيها طاعة حقيقية. إن ما يسميه أهل الأديان الأخرى طاعةً، فهو ليس بطاعةٍ، إنما هو انقياد فقط. خذوا مثلا المشركين -مع العلم أن هذه السورة لا تتحدث عن المشركين فقط، بل عن الكافرين جميعًا بمن فيهم المشركون- فإنما أساس دينهم على ثلاثة أشياء، التقاليد والطقوس، والأوهام، وإنكار الحياة الخالدة، ومن المستحيل أن يتوق المرء شوقًا وبانشراح الصدر للعمل بأحكامها في ظل هذه الأمور الثلاثة. فالذي لا يقوم بعمل إلا لأن آباءه كانوا يفعلون هكذا، فإنما يقوم به نتيجة الجبر والضغط في الحقيقة؛ إذ يظن أنه إذا لم يقلّد آباءه فسيُعتبر عاصيًا لهم ومسيئًا لقومه. فالحق أن العمل بالتقاليد والطقوس المجردة لا يتم ببشاشة.

كذلك فإن الذي يقوم بشيء بناءً على وهْم فلا يمكن أن يقوم به ببشاشة، إذ من الممكن تماما أن يساوره وهم آخر غدًا، فيخالف ما يعمله اليوم، ثم يفعل خلاف ما يعمل غدًا، ومن أجل ذلك نجد المشركين يغيّرون مواقفهم دائما، ويعبد بعضهم صنمًا، والآخرون صنمًا آخر، ويتّبع هؤلاء طريقًا، والآخرون طريقا آخر.

ثم إن إنكارهم للحياة الخالدة يجعل تأثير أعمالهم محدودا جدا، ولا تجد فيهم – عند قيامهم بعملٍ– روحَ التضحية والبشاشة التي يتحلى بها المؤمن بالحياة الخالدة.

أما الإسلام فيخالف كل هذه الأمور الثلاثة.

١: فهو أولاً يحارب التقاليد والطقوس بشدة، لأن كثيرًا منها تمهّد للسيئات، لأن المرء يرتكب كثيرًا من المساوئ لكونه مصفّدًا بالتقاليد، فمثلا إنه لا يملك مالاً كافيا، ولكن تقاليد قومه تفرض عليه أن يلبس لباسا خاصا، فلا يستطيع أن يخالف هذا التقليد، فيضطر لكسب المال بطريق الحرام. ومن أجل ذلك ينهى الإسلام بشدة عن اتّباع التقاليد، ويعلن أن المرء يعمل بالتقاليد خوفًا من قومه، ولكنها أعباء ثقيلة تفوق قدرة الإنسان، إذ لا تفرق التقاليد بين الفقير والغني والمدين والحرّ، فيضطر الناس لارتكاب المعاصي والآثام، حفاظًا على كرامتهم الزائفة كيلا يُفضحوا أمام الآخرين.

ولقد بين الله تعالى في القرآن الكريم أحد أهداف بعثة النبي ﷺ بأنه جاء ليحرر الناس من قيود التقاليد، فقال سبحانه وتعالى ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾(الأعراف: ١٥٨).. أي أنه سيحظى برحمة الله الخاصة قومٌ يتّبعون هذا الرسول الموعود طاعة كاملة، الذي يجدون بشارة بعثته عندهم في التوراة والإنجيل. لقد ظهر هذا الرسول بينهم في أوانه وإنه يأمرهم بالصالحات ويحرّم عليهم الخبائث، ويحرّرهم من أعباء التعاليم القاسية، وأصفاد التقاليد التي قد ضيّقت عليهم الخناق.

ولما كان من أهداف بعثة الرسول ﷺ القضاءُ على التقاليد والطقوس الفارغة، فلم يكافحها الإسلام فحسب، بل ساق لاجتثاثها من جذورها دلائل شتى. قال

الله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾(المائدة:١٠٥).. أي أن أصحاب التقاليد الفارغة هؤلاء إذا دُعوا إلى اتّباع شريعة الله التي أنزلها قالوا: تكفينا تقاليدنا وعاداتنا وطقوسنا التي وجدنا آباءنا يتبعونها. ألا يفكر هؤلاء أنه من الممكن أن يكون المروِّجون لهذه التقاليد لا يملكون علمًا ذاتيا بصددها، ولا يكون بحوزتهم أيّة تعليمات ربانية بشأنها، وإنما تكون تقاليدهم نتاج الجهل فقط؟ فهل يظلون -والحال هذه- يتّبعون آباءهم تقليدا أعمى؟

فالإسلام يعتبر اتّباع التقاليد والطقوس الفارغة جهالةً، ويوصي بتأسيس كل شيء على أساس الوقائع والحقائق والبينات والشواهد. لقد أمر الله تعالى رسوله أن يعلن: ﴿أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾(يوسف:١٠٩).. أي ليست عقائدي أو عقائد أتباعي مبنية على التقاليد والطقوس الفارغة، بل هي مبنية على الحقائق والبينات، لأن النجاح ليس في اتّباع التقاليد والطقوس الفارغة، إنما النجاح في اتّباع الهدي النازل من الله تعالى.

باختصار، إن الإسلام يعارض التقاليد الفارغة ويقضي عليها، ويعدُّ من يتّبعها ويروّج لها جاهلا، ويدعو إلى اتّباع ما نزل من الله من الهدى، لأن الهدي النازل من الله تعالى هو الذي يدفع صاحبه إلى الطاعة بصدق وبشاشة، أما اتباع التقاليد والطقوس الفارغة، فيتم بجبر وإكراه لا ببشاشة قلب.

٢: ثم كيف يمكن لمسلم صادق أن يطيع آلهة المشركين الباطلة ما دام كل ما ينسب إليها من أفكار ليس إلا نتاج أوهام. فمثلا يظن عَبَدةُ هذه الأصنام أنهم ستصيبهم بضرر إذا لم يعبدوها. وهل هذا إلا محض وهْم؟ فبناءً على مثل هذه الأوهام كان هؤلاء يذبحون أولادهم أمام أصنامهم التي نحتوها بأيديهم، ولكنهم قوم لا يفقهون.

كان حضرة المولوي نور الدين ﷺ -الخليفة الأول للمسيح الموعود ﷺ- قد عمل طبيبًا ملكيا عند مهراجا "كشمير" فترة من الزمن، فقال له المهراجا يومًا: يمكنك أن لا تعبد أصنامنا الأخرى، ولكن يجب أن تعبد صنمنا المشهور باسم

"كالي ديوي".. أي الإلهة السوداء، فإنها إلهة جبّارة قاسية جدًا. فقال حضرته: أيها الملِك، إن هذه الإلهة لا تقدر على أن تضرّنا شيئا. فقال الملك بعد تفكير قليل: صدقتَ أيها الشيخ، لقد فهمتُ قصدك؛ فإن مَن لا يعيش في مُلْكي لا أستطيع أن أعاقبه، فأنتم لا تسلّمون بحُكم الإلهة السوداء عليكم، بل تعتبرون أنفسكم خارج مُلْكها، فلا يمكن أن تضركم شيئًا.

فالحق أن ما يُنسب إلى الأصنام ليس إلا نتاج الأوهام، ومن المحال أن يقع العاقل المتدبر فريسة للأوهام.

كانت هند زوجة أبي سفيان -رضي الله عنهما- تكنّ للمسلمين أشد العداء، حتى إنها بقرتْ بطْن حمزة ﷺ عمّ الرسول ﷺ وأخرجت كبده ومثّلتْ به (السيرة النبوية لابن هشام: غزوة أحد)، ولكنها يوم فتح مكة حضرتْ متنكرةً بين النساء وبايعت النبي ﷺ. كانت شجاعةً، وعندما أمرهن النبي ﷺ أن يقلن إننا لن نشرك بالله، فلم تملك هند نفسها -إذ كانت شجاعةً- وقالت: كيف يمكن أن نقع في الشرك بعد أن تبين لنا أن لا حول ولا قوة لأصنامنا، وقد كتب الله لك النجاح والانتصار ولنا الذل والهوان؟ (السيرة الحلبية: في ذكر فتح مكة)

فثبت من هنا أن ما يُنسب إلى الأصنام مِن تعليمات وأحكام إنما هو مجرد أوهام. لقد ذكر الله تعالى في سورة الأنعام بالتفصيل أنه قد راجت في المشركين في زمن الرسول ﷺ أمور لم تكنْ إلا أوهاما، ومنها قولهم بأنه يجوز لفئة معينة من الناس أن يأكلوا مِن أَنعامٍ معيّنة، ولكن لا يجوز لهم أن يأكلوا من غيرها، وإلا أصابهم الضرر. كما كانوا يسيّبون بعض الأنعام بناء على الأوهام ويقولون يجب ألا يركبها أحد. أما الأنعام التي كانوا يحتفظون بها للتضحية بها على مذابح الأصنام، فكانوا يُحِلّون للرجال أكل لحم ذكورها أو إناثها أو ما في بطنها مِن وَلَد، ويحرّمونه على النساء، ولم يكن أساسه إلا الوهم، إذ لم يكن عندهم أي دليل عقلي عليه. قال الله تعالى إشارةً إلى تقاليدهم هذه: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ

الأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنعام:١٤٤-١٤٥).

لقد اعتبر القرآن الكريم هنا تقاليد المشركين كومةً من الأوهام. والحق أن اتّباع الأوهام لم يكن خاصًا بالعرب، ولا بزمن الرسول ﷺ، بل يتبع الناس في كل بقاع العالم تقاليد أساسها الأوهام فقط. والقرآن الكريم يكافحها كلها، لأنه يدعو إلى أن يكون كل حكم وكل أمر مبنيًا على الحكمة، لكي تتولد في قلب الإنسان بشاشة للعمل به، أما الأمور المبنية على الأوهام فلا يتّبعها إلا جبرًا وكرهًا، لا ببشاشة.

٣: ثم إن الإسلام يعلن خلافًا لعقائد المشركين أن الحياة ليست هذه الحياة الدنيا فقط، بل سوف نحيا بعد الموت حياة خالدة غير منقطعة، إذ ليس الموت إلا انتقالاً من هذه الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة، وأن الدنيا مزرعة الآخرة، فما نزرعه هنا نحصده هناك، وكيفما تكون أعمالنا نُجزى عليها في الآخرة. ولكن الذي لا يؤمن بالحياة بعد الموت، فتكون أعماله ذات نطاق محدود، ولا تتولد البشاشة في قلبه عند القيام بها، أما المؤمن بحياة الآخرة فتتّسم أعماله بالتضحية والإيثار والبشاشة. فالحق أن عقيدة الحياة بعد الموت تساعد المؤمنَ على عمل الصالحات ببشاشة، ولذلك قد أكد القرآن الكريم هذه العقيدة مرة بعد أخرى. قال الله تعالى ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ (التوبة: ٧٢). فقوله تعالى ﴿فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ يعني أن هذه البساتين والأنهار لن تكون مؤقتة أو عابرة، بل تبقى للأبد.

فالإسلام يعلم أن الحياة لا تنحصر في هذه الدنيا، بل هناك حياة بعد الموت، وهي الحياة الحقيقية، وعلى المرء أن يعمل من أجلها في هذه الدنيا. قال الله تعالى ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت: ٦٥).

إضافةً إلى ما ذكرت آنفا، فإن الإسلام يقدّم إلهًا كلُّه محبةٌ. إنه يستجيب لدعاء عباده العابدين، ويكشف عنهم السوء، ويُطَمْئنهم عند الكروب ويُنـزل عليهم السكينة بكلامه المفعم باللطف. قال الله تعالى ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ (النمل: ٦٣).. أي ليس هنالك من يستجيب للمضطر ويفرج عنه كربه إلا الله.

ثم قال الله تعالى ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (البقرة: ١٨٧). فالعبد إذا كان على علم أن معبوده يستجيب أدعيته ويقدر على تنفيس كروبه، عمل بأحكامه فرِحًا، وخرّ على أعتابه مسارعًا. أما الأصنام التي يعبدها المشركون فلا تستجيب لدعائهم ولا تكلّمهم ولا تفرّج همومهم، والإيمان بها كعَدَمه، ناهيك عن أن تُعبَد.

وهذا هو الدليل الذي برهن القرآن الكريم به على أن الأصنام ليست بآلهة، فلما ذهب سيدنا موسى عليه السلام إلى الطور، وصنَع السامريّ مِن حليّ القوم عجلاً، وادعى أنه إلههم فأضلّ فريقًا منهم، رجَع موسى عليه السلام وحطَّم العجل، وكشف عليهم خطأ اتخاذهم العجل معبودا بقوله ﴿أَفَلا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا﴾(طه: ٩٠).. أي ألا يرى عَبَدةُ هذا العجل أن الإله الحق هو ذلك الذي يستمع لأدعية عبده ويكشف كروبه ويعبّر لهم عن حبّه، أما هذا العجل فلا شيء فيه من هذه الخصال؛ فلا يستمع لأدعيتهم، ولا ينفعهم ولا يضرهم شيئًا، فاتخاذ مثل هذا الشيء العديم الحيلة والجدوى إلهًا، خطأ فادح.

فالحق أن النظرية التي يقدّمها الإسلام عن الله تعالى تحمِّس المؤمن كي يسارع إلى الخرور على عتبة الله تعالى، ويستمتع بالعمل بأحكامه ووصاياه، أما الكافرون فالحق أنهم يعتبرون عبادة آلهتهم عبثًا، والعمل بأحكامها وتقاليدها غرامة.

أما المسيحية فأحكامها أيضا تخلو من الحكمة، بل إن أساس المسيحية يقوم على اعتبار الشريعة لعنة، حيث ورد "اَلْمَسِيحُ افْتَدَانَا مِنْ لَعْنَةِ النَّامُوسِ، إِذْ صَارَ لَعْنَةً لأَجْلِنَا" (رِسَالَةُ بُولُسَ إِلَى أَهْلِ غَلاَطِيَّةَ ٣ : ١٣). وإذا كان الشرع لعنةً فلا بد من اعتبار أحكامه خاليةً من أي حكمة، إنما فرضها الله على العباد تسلطًا عليهم، ولا

فائدة فيها لهم. فإذا أمرهم بالصيام، فإنما لكي يعانوا قرصات الجـوع وويـلات العطش، وليس لأن فيها منفعة روحانية. فالمسيحية ترى في الواقع أن أحكام الشرع تخلو من أي منفعة فردية أو جماعية، وبالتالي إن العمل بها لعنة ومصيبة بالفعل. إنما تكون الأحكام رحمةً إذا كان في العمل بها منفعةٌ للفرد أو الجماعة، مثل أحكـام الإسلام مِن صلاة وصوم وحج وزكاة، فكلها تحتوي على فلسفة عميقة، فهـي لا تمكِّنُ العبد من وصال الله تعالى وقربه فحسب، بل تهيـئ أسـباب رقـي الأمـة وحمايتها.

باختصار، هناك بون شاسع بين طرق عبادة المسلمين والكـافرين! إن طريقـة عبادة المسلمين تشحن قلوبهم بالبشاشة، لأن أحكام شريعتهم كلها مليئة بالحكمة والمعقولية، فلا تشابُهَ بين عبادتهم وعبادة الكافرين المبنية على الأوهام. فعدم اتحـاد الفريقين في العبادة أمر طبيعي. فالمسلم الذي اعتاد العملَ بالبصيرة، كيـف يقـوم بعبادة لا تتأسس على البصيرة؟ والكافر الذي اعتاد العبادةَ من دون بصيرة، كيف يمكنه أن يقوم بعبادة مبنية على البصيرة؟

باختصار، فإن الذي يتمسك بالمبدأ القائل ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِـي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (إبراهيم: ٩).. أي أنه يؤمن بأن الله تعالى في غنى عن طاعة العباد، وإنه لا يُنـزل لهم الأحكام إلا لمنفعتهم الفردية أو الجماعية، ثم إنـه يؤمن بأن الشرك يتنافى مع جلال الله تعالى، فأنّى له أن يتّحد في العبادة مع قـوم ليس عندهم مبدأ حقيقي أولاً، ثم إن مبادئهم ليست إلا مما اختلقوه بأنفسهم؟

ملخص الكلام أن الله تعالى كان قد أمر رسوله ﷺ والمـؤمنين ألاّ ينـصاعوا للكافرين، وإنما عليهم أن يعلنوها مدوّيةً: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لا أَعْبُـدُ مَـا تَعْبُدُونَ﴾، أي: يا أيها المنكرون، لا تتوقعوا أنكـم تنجحـون في اسـتمالتنا إلى أديانكم، إنها أمانٍ زائفة، فاقطعوا أي أمل من جانبنا، إذ من المـستحيل أن نتّبـع طريقة عبادتكم، ولسنا مستعدين للعبادة بحسب مبادئكم. أما قوله تعالى ﴿لَكُـمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾، فبيّن فيه سبب هذا الإعلان، وقال بأنكم تنكرون ما بيَّنه محمد من طريق للطاعة التي تتم عن طيب خاطر، مع أنها هي التي تولّد البشاشة في القلب

عند العمل، وكل إنسان سليم الفكر يجبّ أن يتّبع هذه المبادئ لأنها تبيّن علّة الأحكام وما فيها من أهداف ومنافع فردية وجماعية للعاملين بها، بالإضافة إلى فوزهم برضا الله. أما أحكام العبادة عند الأديان الأخرى، فلا يستطيع المرء العمل بها ببشاشة وطيب خاطر، إذ لا تذكر علّتها، ولا ما فيها من منافع فردية وجماعية لمن يعمل بها، فكيف يمكن أن يعمل بها مَن يُعمِل عقله وفكره؟ اللهم إلا أن يعطِّل عقله وقوته الفكرية. إذن، فكيف يمكن للمسلم أن يتّبع أحكاما غير معقولة معرِضًا عما عنده من أحكام سامية حكيمة بشأن العبادة، وأَنَّى له أن يفكّر في اتباع الأديان الناقصة تاركًا دينه العظيم؟! هذا هو معنى قوله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.

والمعنى الثاني للدين: السلطانُ والمُلك والحكم. والسلطان كما ورد في القواميس يعني الحجة والتسلط (الأقرب)، أي الدليل والغلبة، وعليه فقوله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ يعني: يا أيها النبي قل للكافرين:

١: أيها المنكرون، إن أدلتكم لإقناع الآخرين بعبادة آلهتكم وطرق عبادتكم تختلف عن الأدلة التي أحاول بها إرساء وحدانية الله تعالى وعبادته وحده.

٢: إن نتائج غلبتكم هي غير نتائج غلبتي.

٣: إن طريقة حُكمكم تختلف عن طريقة حكمي. ومبادئ الحُكم عندكم لا تتفق مع مبادئ الحكم عندي.

وهذا يعني أن هذه المعاني الثلاثة للدين تُقدّم ثلاثة أدلة قوية أخرى على صحة موقف المؤمن الصادق الذي ينكر الاشتراك مع الكافر في العبادة، حيث بين الله تعالى لماذا يعلن المؤمن بأعلى صوته في كل مرة ﴿لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾.. أي لا أستطيع أن أتحد معكم في العبادة.

إذن، فمن معاني الدين السلطانُ.. أي الحجةُ، وعليه فقوله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ يعني أنه ليس بيد خصوم الإسلام لجعْل الناس يعبدون آلهتهم ويتبعون طريق عبادتهم إلا الجبر والإكراه، فإذا أنكر أحدٌ عبادة آلهتهم أو رفَضها، حاولوا

قهره على عبادتها، وهذا الطريق لا ينجح أبدا، إذ يمكن أن يقبل الإنسان أمرًا نتيجة الجبر، ولكن قلبه لا يقبله، فلذلك يسعى جاهدا للتحرر منه مرة بعد أخرى. إنما يطيع المرء طاعةً حقيقية إذا اقتنع بالأمر بناءً على دليل وبرهان، فيطمئن به قلبه وعقله. أما منكرو الإسلام فلا يقدِّمون على عبادة آلهتهم والترويج لها دليلاً يطمئن به العقل والقلب، وإنما يبدأون في تعذيب وإهانة مَن انحرف عن دينهم قليلا، وإذا لم يخضع لهم حاولوا اغتياله. هكذا كانت معاملة الكفار مع المسلمين حين كانوا تحت رحمتهم في بداية الإسلام، فالثابت تاريخيا أن كفار مكة قد صبّوا على المسلمين الفظائع لإرجاعهم لعبادة أصنامهم ثانية بعد أن تخلوا عنها نتيجة إيمانهم بوحدانية الله تعالى. كان بلال بن رباح ﷺ عبدا لأمية بن خلف، فأسلم وآمنَ بعبادة الله الأحد تاركًا عبادة الأصنام، فكان سيده أُميّة يلقيه تحت الشمس المحرقة في منتصف النهار عاريَ الظهر على الأرض الحجرية الحارقة، ثم يأمر بوضع صخرة كبيرة على صدره ويهدّده بأنه إذا لم يعبد اللات والعزّى فسوف يقتله بهذا التعذيب. وكان بلال لا يعرف العربية كثيرا، فكان يردّ على ظلمه قائلا: أحد أحد.. أي أن الله أحد. فكان أمية يزداد غضبًا، فيربط في عنقه حبلاً ويسلّمه للأولاد الأشرار، ليجرّوه في شوارع مكة الحجرية، فكان جسده ينزف دمًا، ومع ذلك كان لا يقول إلا: أَحد أَحد. فلما رأى أبو بكر ما يُصَبُّ عليه من تعذيب اشتراه من أمية وأعتقه (البداية والنهاية: ج٣، باب مجادلة المشركين رسول الله).

وكان خبّاب بن الأرتّ أيضا عبدًا، فأُعتقَ. كان حدّادًا، فلما أسلم أخذ الكفار في اضطهاده، وفي إحدى المرات أخرجوا الفحم من كيره وألقوه عليه، ثم صعد أحدهم على صدره حتى لا يتقلب، فلم يزل ظهره يحترق حتى برد الفحم الحارق وصار جلده كجلد البقر (الطبقات الكبرى: ج٣: في ذكر خبّاب ابن الأرتّ).

باختصار، قد صبّ الكفار على المسلمين أنواع الاضطهاد لكي يتركوا وحدانية الله ويعبدوا أصنامهم، حتى سلبوهم أموالهم وعقاراتهم واضطروهم للهجرة إلى المدينة من بلدتهم المحبوبة مكة. ثم إنهم لم يكفّوا عن مطاردتهم، بل جهّزوا جيشًا

وأغاروا عليهم في المدينة حتى استُشهد عدد غير قليل من المسلمين في تلك الحروب.

و لم يصُبّ المشركون كل هذه الفظائع عليهم إلا لأنهم كانوا يريدون فرض طريق عبادهم على الآخرين بالقوة، معتبرين كثرهم وقوهم دليلاً على صدقهم. أما المسلمون فكانوا يدعون إلى عدم اللجوء إلى استخدام القوة لإجبار الناس على طُرق عبادهم وإلزامهم بها، بل يجب أن يُمنح كل إنسان الحرية التامة في الدين، ويجب محاولة إقناعه بالأدلة والبراهين لاتباع طريق عبادة معينة؛ فإذا اقتنع بالأمر عمل به، وإلا فهو حرّ. وكان المسلمون يتّبعون هذا المبدأ في تبليغ دينهم أيضًا، فكانوا يقولون للكافرين بأن هذه الأصنام ليست إلا أحجارًا قمتم بنحتها بأيديكم، لا تملك ضرا ولا نفعا لأحد، ولا تجيب دعاء أحد، فما الفائدة من عبادها؟ إنما يجب أن يعبد المرء مَن يقدر على إجابة دعائه وكشف سوئه ونفْعه والإحسان إليه، ولا يتصف بهذه الصفات إلا الله. كان المسلمون يعملون تمامًا بمبدأ ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾(البقرة: ٢٥٧)، أي: لا جبر ولا قهر في العبادة، بل يجب أن يسعى المرء لإقناع الآخرين بالأدلة، لأن القرآن الكريم يعلّم مرة بعد أخرى ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾(الأَنْفال: ٤٣).. أي أن المعجزة التي أريناها في معركة بدر إنما هدفها ألا يهلك الهالك بضربة سيف فقط، بل يهلك بالدليل والبرهان، وأن الحيّ لا يحيا بنجاته من ضربة سيف فحسب، بل يحيا بالدليل والبرهان. ولقد بيّن الله تعالى في هذه الآية أن الفتح أو الهزيمة يجب أن يكون من خلال الأدلة والبراهين، فالهزيمة الحقيقية هي ألا يملك الإنسان الأدلة، والغلبة الحقيقية أن يملك الأدلة التي يقنع بها الآخرين.

وقال الله تعالى لرسوله ﷺ ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ * قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ (الأنعام ٥٧-٥٨)، أي: أيها النبي، أعلِن بين الكافرين أنني قد نُهيت عن عبادة أصنامكم. إنكم لا تعبدونها إلا تحقيقا لأهوائكم، وليس بحوزتكم دليل،

ولو اتبعتُكم لانحرفتُ عن الصراط المستقيم. وأعلِن أيها النبي بينهم أن عندي براهين ساطعة على سداد طريق التوحيد الذي أتّبعه، ولكنكم تنكرونها.

وبعد تقديم الأدلة والبراهين، يعلن ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف: ٣٠).. أي من استوعب هذه الأدلة فليؤمن بتعاليم الإسلام، ومن لم يستطع استيعابها فهو حرّ في اتباع الطريق الذي يسلكه.

وإذ كان الكفار قد حاولوا إكراه المسلم الذي يقع في أيديهم على عبادة أصنامهم بدلاً من عبادة الله الأحد، فقد أمر الله المسلمين: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ (التوبة: ٦).. أي إذا أعطاكم الله القوة واستجاركم أحد من المشركين، فعليكم أن تهيئوا له الجِوار والأمان، وتقدّموا له أفضل ضيافة، أي أن تَعرضوا عليه تعاليم القرآن، ولا تُجبروه على الإيمان بها، بل أَبْلِغوه إلى دياره بأمان.

وكان المسلمون يعملون بحرص على إرساء الحرية الدينية، فعندما انتشر الإسلام في المدينة ونالوا القوة والسلطة لم يلجأوا إلى الجبر والإكراه ألبتة. قبْل وصول الإسلام إلى المدينة كان الرجل مِن قبيلتي الأوس أو الخزرج -وكانوا مشركين وقتها- إذا لم يُنجب ولدًا ذَكَرًا نذر أنه لو رُزق ابنًا فسوف يُهوِّده، وهكذا صار كثير من أبنائهم يهودًا، وعندما أُجليَ يهود بني النضير من المدينة بسبب شرورهم، رفض الأنصار أن يبعثوا معهم أولادهم هؤلاء الذين صاروا يهودًا، ولكن الرسول ﷺ نهاهم عن ذلك عملاً بقول الله تعالى ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (السيرة الحلبية: ج٢، في ذكر غزوة بني النضير، وتفسير الخازن: تفسير الآية: لا إكراه في الدين).

وعندما جاء وفد نصارى نجران إلى المدينة وحان وقت عبادتهم، سمح لهم النبي ﷺ بعبادتهم في مسجده، فاعترض بعض الصحابة على ذلك، ولكنه ﷺ رفض رأيهم، فقام هؤلاء بطقوس عبادتهم في المسجد النبوي متوجهين نحو الشرق. (شرح الزرقاني على المواهب اللدنية: حالات وفد نجران)

فالإسلام يدعو إلى الحرية الدينية، ويعرض تعاليمه وعبادته على الناس بأدلة قوية، ولكنه لا يرضى بإكراه الناس على العمل بها، وإذا تخلى أحد عن هذه التعاليم

بعد قبولها أيضا فلا يفرض عليه أي عقاب. أما المشركون فكانوا يفرضون عبادهم على الآخرين بالعصا، ويُكرِهونهم على الالتزام بها، وإذا كره أحد طريق عبادهم وأراد ترْكها، سعوا لقتله.

ومن معاني السلطان التسلّطُ، وعليه فقوله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ يعني: أيها المنكرون، إن طريق تسلُّطكم خلاف طريق التسلّط عندي. إن تسلُّطكم على الآخرين يقضي على حرية الضمير، أما تسلّطي فيرسيه، فكيف يمكن أن نتفق في العبادة؟ ستدعون الله تعالى أن يهبكم الغلبة على خصومكم لتغيّروا دينهم قهرًا، أما أنا فأدعو الله تعالى أن يهبني الغلبة على الخصوم لكي أضرب لهم أروع مثال لإرساء حرية الضمير.

قال الله تعالى ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ (الحِجر: ٤٣)، مما يعني أن الشيطان يتسلّط على غير المؤمنين، والبديهي أن الذي يكون تحت تسلُّط الشيطان فإنه إذا نال الغلبة فلا بد أن يرسي على الآخرين تسلط الشيطان، وعليه فقوله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ يعني: أنني أريد إرساء سلطان الله في الأرض، أما أنتم يا منكري الإسلام، فتريدون إقامة سلطان الشيطان، فكيف يمكن أن نتحد في العبادة؟

ومن معاني الدين المُلك والحكم، وعليه فقوله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ يعني: يا منكري الإسلام، إن طريقة الحُكم ومبادئه عندكم تختلف عما هو عندي، فأرى أن لكل فرد الحق في إبداء رأيه في الحكم وأن اختيار الحاكم بالانتخاب جائز، أما أنتم فتبيحون الاستبداد بالناس، وتحاولون الوصول إلى سدّة الحكم باللجوء إلى القوة والتحزب والاستعانة بالأعوان والأنصار. إن حكومتكم لا تكون نيابيةً أولاً، وإذا كانت نيابية فلا تمثّل الشعب كله. ولا تحافظون في حُكمكم على حقوق العاملين تحت مسؤوليتكم، وهو السبب دائما وراء أحداث التمرد ضدكم بكثرة، والخصومات بين الحاكم والرعية. إذا تولى أحدكم الحكم استكبر على الآخرين، وإذا عقدتم معاهدة مع دولة أخرى لم تفوا بها، بل نكثتموها إذا لم تحقّق مصالحكم. ليس عندكم قوانين ومبادئ سليمة تضمن الاستقرار في بلدكم والسلام مع الدول المجاورة. أما نحن فنخالف الحكومات الغاشمة، ونريد تحرير الناس منها،

وإرساء حكومة تابعة لمرضاة الله.. ممثلة للشعب كله، تهتمّ بسدّ حاجات العاملين في ظلّها، ويعتزّ رعاياها بالعيش تحت حكمها، ولا يكون فيها شُقّةٌ بين الحاكم والمحكوم، وتحافظ على الاستقرار والسلام داخل البلاد، كما ترسي السلام مع الدول المجاورة. فكيف يمكن مع هذا الاختلاف أن نتحد معكم في العبادة؟ إن عبادتكم تفتح طرق الظلم في العالم، أما عبادتي فتحول دون الظلم وترسي السلام.

وهنا ينشأ سؤال بأن المسلمين في مكة كانوا ضعفاء جدا عند نزول سورة الكافرون، وكانوا عرضةً للأذى والإساءة، فما كان ليخطر ببالهم أنهم سيقدرون على إنشاء دولة يسودها السلام والاستقرار وتكون نموذجا للجنة.

والجواب: لا شك أن المسلمين كانوا عندها في ضعف شديد وكان المعارضون ذوي قوة ومَنَعَة، وكانت في الجزيرة حكومةٌ قَبَلية، بينما كان على أطرافها قوتان كبيرتان: كسرى فارس، وقيصر الروم، ولكن الله تعالى قد بشّرهم بلسان رسوله ﷺ منذ البداية أنه سيبدِّل ضعفهم قوةً عن قريب، ويجعلهم غالبين على العالم كله، فكانوا موقنين بتحقُّق وعد الله تعالى وواثقين بقرب اليوم الذي تقوم فيه هذه الدولة القوية التي ستقضي على الجبر والاستبداد وتُرسي الأمن في العالم. وقد ذُكر هذا الوعد الرباني بكلمات صريحة في سورة النور التي نزلت في المدينة في قول الله تعالى ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (الآية:٥٦).. أي أن الله تعالى قد وعد الذين آمنوا بمحمد ﷺ ويعملون الأعمال الصالحة، أنه سيجعلهم ملوكا عظماء في العالم، كما جعل ملوكًا في الأمم التي أنعم الله عليها من قبل، وسوف ينفّذ على أيديهم أحكامَ الإسلام السامية العظيمة، وسيبدّل خوف المسلمين السائد الآن -أو الذي سيحيط بهم في المستقبل- أمنًا، سوف يقيم هؤلاء الملوك عبادة الله في الدنيا، فمَن كفر بعد ذلك بمِننه سبحانه وتعالى واتبع طريقًا خاطئا معرضًا عن هذه الحكومة الحقّة، فسيُعَدّ من الفاسقين.

لقد وعد الله المسلمين هنا أنه سيجعلهم خلفاء في الأرض، والخليفة:

١: هو مَن يخلُف غيرَه ويقوم مقامَه

٢: السلطانُ الأعظم

٣: وفي الشرع: الإمامُ الذي ليس فوقه إمام (الأقرب)

أما الخلافة فمن معانيها:

١: الإمارة

٢: النيابة عن الغير، إما لغيبة المنوب عنه أو لموته. (الأقرب)

وعليه فقوله تعالى ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ﴾ يعني:

١: أيها المسلمون، سيجعلكم الله تعالى خلفاء وملوكا عظاما في الأرض.

٢: أن هذا المُلْك يكون نيابةً عن محمد ﷺ، أي أن من واجب هؤلاء الخلفاء أن يُنجزوا ما أنجزه الرسول ﷺ، إذ هم ينوبون عنه.

باختصار، قد وعد الله هنا المؤمنين بالحُكم، وأن هذا الحكم سيكون تابعًا للمشيئة الإلهية. ثم بين الله تعالى في قوله ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.. أن هذه الخلافة ستكون نيابة عن الله تعالى في الحقيقة، كاشفةً لصفاته تعالى، فمَن كفر بها فقد قطَع عهد المودة مع الله تعالى.

ورد في الحديث أن الرسول ﷺ بشّر بعده بالخلافة، أي بشخصيات تكون مظاهر لصفات الله تعالى، ولكن الأوضاع ستتغير بعدها ويميل المسلمون إلى ظلم الناس والاستبداد بهم تقليدًا للأمم الأخرى، ولكن الله تعالى سيقيم بعد فترةٍ الخلافةَ الحقة التي تحقّق مشيئة الله مرة أخرى. فقد قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "تَكُونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًّا فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا جَبْرِيَّةً فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلافَةً عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ. (مسند أحمد: أول مسند الكوفيين، حديث النعمان بن بشير)

وبالفعل قد تحقق هذا الوعد الإلهي، ونال المسلمون الحكم في زمن الرسول ﷺ، واستمرّ حكمهم بعده أيضا، ولكنه أصبح مثل الحكومات الدنيوية الأخرى فيما بعد. والآن قد بعث الله المسيح الموعود ؑ، وهناك نبوءات أن الله تعالى سيضع الأساس على يده لحكومات لن تجري وراءَ متع الدنيا وزخرفها، بل ستسعى لإرساء المُثل الروحانية والأخلاقية، وستقضي على الظلم والاستبداد.

كانت هذه الوعود من الله تعالى، فكان لا بد أن تتحقق، وكان المسلمون واثقين من تحققها كل الثقة، ومن أجل ذلك أمرهم الله تعالى منذ البداية أن يعلنوا: أيها المنكرون، ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.. أي: هنيئًا لكم حكومتكم المستبدّة الجائرة، أما نحن فلا نُجيز الظلم والجور، بل لقد جئنا للقضاء عليهما. فحكومتكم لا تمنح الحرية الدينية، ونحن لا نريد التحرر من ربقة حكمكم الغاشم فقط، بل نريد تحرير الآخرين منه وإرساءَ حكومة عادلة مباركة. وبالفعل فإن اليهود والنصارى أنفسهم كانوا يريدون أن يكونوا من رعايا الحكومة التي قامت من خلال الإسلام، كما هو ثابت من التاريخ. ورد في التاريخ أن المسلمين لما استولوا على حمص خلال انتصاراتهم في بلاد الشام، توجسوا خطر هجوم العدو ثانيةً، فأخلوا المدينة وردّوا لأهلها المسيحيين ما أخذوا منهم من جزية قائلين: لقد أخذناها منكم على وعد أن نقوم بحمايتكم، ولكنَّا أصبحنا الآن في وضع حرج فلا نقدر على حمايتكم، فخذوا ما أخذْناه منكم. وكان هذا المبلغ بالملايين، فتأثّر المسيحيون من موقف المسلمين هذا أيما تأثر، فوَدَّعوهم وهم يبكون ويقولون في حماس: ليتَ الله يُعيدكم مرة أخرى. أما اليهود فكانوا أشدَّ تأثرًا من المسيحيين، فقالوا للمسلمين حالفين بالتوراة بأن قيصر لن يقدر على الاستيلاء على حمص إلا على جثثنا (فتوح البلدان للبلاذري ص ١٣٧، والخراج للإمام أبي يوسف ص ١٨١).

لقد ثبت من هنا ومن أحداث أخرى مسجلة في التاريخ أن الحكومة الإسلامية كانت تغزو قلوب الناس، قاضيةً على الظلم والاستبداد في الأرض، ومرسيةً الحرية

الدينية، ومحافظةً على المعاهدات، مما كان يرسي السلام في البلاد، فكان أهلها يحبّون الحكومة الإسلامية من أعماق قلوبهم.

ثم إن الإسلام قد قدَّم للحكم مبادئ سامية جدا، والحكومة القائمة على تلك المبادئ هي التي تضمن رقيّ العالم وسلامه. وهذه المبادئ كما يلي:

١: أن تكون الحكومة انتخابية، بحيث يُنتخب الحاكم بناءً على جدارته.

٢: أن الحكم ليس خاصًّا بأحد، بل هو أمانة.. أي أن الإسلام لا يرى أن المُلك وراثي.

٣: من واجب الدولة أن تحافظ على أعراض الناس وأنفسهم وأموالهم.

٤: لا بد للحاكم أن يعدل بين الأفراد والأقوام.

٥: أن تتم قضايا الأمة بالتشاور.

٦: أن الحكومة مسؤولة عن توفير الغذاء والكساء والسكن لكل مواطن.

٧: ألا تنظر الدولة إلى الدول الأخرى بجشع، وأن تكون حروبها دفاعية فحسب.

٨: أن تعامل المغلوبَ بعدل.

٩: أن تعطي أسرى الحرب تسهيلات خاصة.

١٠: أن تلتزم بالمعاهدات.

١١: أن ترسي الحرية الدينية في البلاد.

هذه هي مبادئ الحكم في الإسلام، وقد ذُكرت بعضها في قول الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (النساء: ٥٩).. أي: أيها الناس، إن الله يأمركم أنه إذا أتيحت لكم الفرصة لأداء أمانة الحكم، فأدُّوها دائمًا إلى مَن ترونه أهلاً للحُكْم، وجديرًا بإدارة الحكم على ما يرام. ويا أيها الحكام، إذا حكمتم فاحكموا بالعدل، فإن ما يعظكم الله به خير لكم.

فالمبدأ الأول الذي قد بينه الله تعالى هنا مخاطبًا عامة الناس هو: أنّ اختيار الحاكم هو مسؤوليتهم هم، ولا يحقّ لأحد سواهم أن يختار حاكما لهم، فلا يمكن

أن يستولي أحد على الحكم بنفسه ثم يجعله وراثيا في أهله. هذا لا يجوز، كما لا يحق لأحد أن يحكم الناس لمجرد أنه ابن حاكم.

والمبدأ الثاني هو أن حقوق الحكم هذه أمانة ثمينة غالية، فأدّوا حق هذه الأمانة، مترفعين عن مشاعر العِرق أو الدين، فلا تضعوها في يد مَن ليس أهلاً لها، ولا تترددوا في وضْعها في يد شخص هو أهلٌ لها ولكنه ليس من حزبكم، بل ضَعوها في يد مَن يحافظ عليها بصدق.

والمبدأ الثالث هو أن الحكم ليس شيئا خاصّا دائما، إنما يعني الحكم وضْع حقوق مشتركة للناس في يد أحدهم؛ لأن وضْعها في أيديهم جميعا محال، فالحُكم أمانة لأنه عبارةٌ عن حقوق وفرائض للناس، فهو ليس مِلْكًا لأحد، بل هو ملك للمجتمع كله.

والمبدأ الرابع يتعلق بالحاكم، حيث قيل له: إن السلطة التي توهب لك إنما هي أمانة فحسب، فعليك أن تردّها عند موتك كما هي، مِن دون أن تفسدها أو تدمّرها. بمعنى أن على الحاكم أن يحافظ على الحكم وأن يحمي الدولة ويحافظ على حقوق المواطنين تماما، ولا يحق له أن يضيّعها.

والمبدأ الخامس المذكور هنا هو أن على الحكام أن يؤدوا حقوق المواطنين ولا يضيعوها ولا يهضموها، فلا يحق لهم أن ينحازوا لأحد فيقدّموه على الآخر، ولا أن يرفعوا قومًا ويضعوا آخرين، ولا أن ينشروا التعليم بين فئة ويحرموا منه أخرى، ولا أن يسدّوا الحاجات الاقتصادية لفئة ويهملوا حاجات فئة أخرى. بل كلما آتوا حقوق الناس، فعليهم بالعدل والإنصاف دونما انحياز ومحاباة لأحد.

باختصار، يأمر الإسلام أن تكون الحكومة انتخابية ونيابية أيضا.. أي يجب أن يكون الحاكم ممثّلاً للشعب كله وليس لفئة معينة. ثم لا يجوز للحاكم المنتخب أن ينقل الحكم إلى أولاده باعتباره إرثًا، بل يجب أن تنتقل هذه الأمانة عند وفاته للأمة، لتختار مَن تراه أهلاً لهذا المنصب.

والنُّظم السائدة في أوروبا وغيرها من بلاد العالم في هذا العصر، إما دكتاتورية أو ملَكية وراثية أو ديمقراطية خالصة، والإسلام يخالف الدكتاتورية والملكية

الوراثية، ويقدم النظام الديمقراطي، ولكن الديمقراطية الإسلامية تختلف قليلا عن الديمقراطية الحديثة التي تعتبرها الدول المتقدمة اليوم دليلا على تفوُّقها. ففي تلك البلاد يوجد نظام الأحزاب، وكل حزب يريد أن يُنتخب رئيسه حاكمًا للبلاد بغض النظر عما إذا كان هو الأكفأ للحكم أم رئيس الحزب الآخر. أما الإسلام فيعارض هذا المبدأ ويقول بأن انتخاب الحاكم يجب أن يكون على أساس الكفاءة والجدارة فقط، لا على أساس الحزبية.

ثم إن انتخاب الحاكم في هذه البلدان يكون لبضع سنوات فقط، ثم يُزال هذا العاقل الحكيم الأكفأ للحكم، ولكن دستور الإسلام يعلن أن الحاكم يُنتخب حتى مماته، فمِن واجبه أن يقضي عمره في العمل لخير البلد وليس للكبرياء والاستعلاء. وهذا محال إلا إذا كانت هناك خلافة روحانية، وكانت السلطة في يد شخص واحد. أما إذا لم تكن هناك خلافة روحانية، وكان الحاكم يملك سلطة البلد فقط، فيمكن انتخاب الرئيس لفترة محددة، ولكن يجب أن لا يتم انتخابه على أساس حزبي كما هو الحال في دول الغرب، بل يجب انتخابه على أساس الكفاءة فقط، وتُبذَل الجهود دائما لإتاحة الفرصة لأفضل العقول لخدمة الأمة.

الحق أن مبادئ الحكم في الإسلام مختلفة عما هي عليه عند الدول المتقدمة اليوم، بل هي أفضلُ مما عندها. ونحن نرى أن نظام الحكم المتداول في هذه الدول ليس صحيحًا.

ثم يذكر الإسلام مبدأ آخر معلنًا: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾(الشورى: ٣٩).. أي يجب أن تتم أمور الحكم بالشورى.. أي أن مِن واجب الحاكم المنتخب أن يعرف من خلال مجلس الشورى الرأيَ العام السائد في البلد، وإذا تطلبَ الأمر فيمكن أن يقوم باستفتاء عام لمعرفة رأي كل الشعب؛ حتى إذا خالف الرأيُ العام رأي الممثّلين المنتخَبين كان على علمٍ بذلك.

وأما إذا كانت السلطة الروحانية والدنيوية في يد فردٍ واحدٍ منتخَبٍ ممثّل عن الأمة، فمِن حقه أن يرفض رأي الأكثرية من مستشاريه؛ ذلك لأنه يكون إنسانًا مؤيَّدا بنصر الله بوجه خاص بحسب القرآن الكريم، ويكون أسمى من أي انتماء

سياسي، ويؤمن الناس أن رأيه يكون منـــزَّهًا عن أي تعصب وانحياز، وأنـــه لـــن يعمل إلا لمصلحة الأمة والبلد. أما إذا كان الحاكم المنتخَب لا يمتلك إلا الـــسلطة المادية فقط، فهو رئيس بلد فقط، وبالتالي فهو ملزم بالدستور الذي انتُخب بحسبه.

ثم يعلن الإسلام أن الدولة الإسلامية مسؤولة عن توفير الطعام واللباس والسكن لكل مواطن، وهذه أدنى حاجات المواطنين التي على الدولـــة أن تـــسدها، لأنهـــا مسؤولة عن حمايتهم، وهم لا يستطيعون العيش بدون توفُّر هذه الأشياء، لأن الحياة الجسدية محال من دون طعام وسكن، والحياة الأخلاقية والمدنية محـــال مـــن دون لباس. وقد ورد هذا الحكم في قوله تعالى ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَـــا وَلا تَعْـــرَى * وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى﴾ (طه: ١١٩-١٢٠). لقد جاءت هذه الآيـــة في سياق قصة آدم عليه السلام حيث قال الله له بأننا قد قرّرنا إقامتك في جنة لن تتعـــرض فيها للجوع والعري والظمأ والحرّ.

يظن الناس خطأً أن هذه الآية تتحدث عن جنة الآخرة، وتصف حياة الإنسان فيها، مع أن الواضح من القرآن أن آدم عليه السلام قد خُلق في هذه الدنيا، قال الله تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(البقرة:٣١)، والبديهي أنّ مَن يولد في هذه الدنيا يتعرض للجوع والعطش والعري وحرّ الشمس، ولا يمكن أن يكون في غنى عـــن المأكل والماء والملبس والمسكن. وما دام الحديث في هذه الآية عن الحياة الدنيا فـــلا بد من تفسيرها بمفهوم آخر، وما هو إلا أن الله تعالى يخبرنا هنا أنه لما أنزل قانونـــه الأول في الدنيا قال لآدم: إننا نسنّ لك قانونًا يُدخلك وأُمّتك الجنة. وملخص هذا القانون الإلهي توفير الماء والغذاء والكساء والسكن لكل إنسان؛ فيجب في المستقبل ألا يظلّ أحد منكم جائعا، بل من واجب المجتمع توفير الغذاء لكل فرد، ويجب ألا يبقى أحد بينكم عاريا، بل من واجب المجتمع أن يوفر له اللباس، وينبغي ألا يبقـــى أحد بينكم ظمآنا، بل من مسؤولية المجتمع توفير الآبار والترع للناس، وينبغـــي ألا يبقى أحد بينكم بلا مأوى، بل من واجب المجتمع تدبير المأوى لـــه. وكأنهـــا أول حضارة في العالم أقيمت بيد آدم عليه السلام، حيث كشف الله لأهل الدنيا أن الله تعالى

رب الناس كلهم؛ غنيِّهم وفقيرِهم وضعيفِهم وقويِّهم، وأنه لا يرضى أن تعيش طبقة معينة من الناس في رخاء وراحة، بينما لا يتوفر للآخرين حتى الطعام واللباس.

ولما كان النبي ﷺ آدمًا ثانيا، فأنزل عليه هذه الآيات في القرآن، وأمره بإنشاء حضارة مماثلة لحضارة آدم عليه السلام، فيتوفَّر فيها لكل مواطن اللباس والسكن والماء والغذاء. أسلم والي البحرين في عهد الرسول ﷺ فكتب إليه ﷺ: افرِضْ لكل رجل ليس له أرضٌ أربعةَ دراهم وعباءةً (الإصابة في تمييز الصحابة: المنذر بن ساوى). ولكن هذا لا يعني أن نساعد فقط مَن ليس عنده أرض، بل الحق أنه إذا كان أحد يملك أرضًا، ولكنها دُمِّرت، أو دُمِّر محصولها، فهو أيضا يُعامَل كَمَنْ لا أرض له، لأنه مشابه له في المحصلة.

ثم لما اكتمل هذا النظام الإسلامي في عهد سيدنا عمر رضي الله عنه أصبحت الدولة الإسلامية مسؤولة عن توفير الطعام واللباس لكل مواطن عملاً بتعاليم الإسلام، فقامت بهذا الواجب على أحسن وجه. وتحقيقًا لهذا الهدف، قام سيدنا عمر ﷺ بإحصاء سكاني، ففُتحت السجلات ودُوِّنت فيها أسماء جميع المواطنين. ويعترف المؤرخون أنه أول إحصاء سكاني في تاريخ الإنسانية، فسيدنا عمرُ هو الذي فتح نظام الدواوين والتسجيل أول مرة. ولم يكن الغرض من هذا الإحصاء إلا توفير الطعام والثياب لكل مواطن، إذ كانت الدولة مسؤولة عن معرفة أوضاع السكان. يقال اليوم أن روسيا السوفيتية قامت بتوفير الطعام واللباس للفقراء، مع أن الإسلام هو الذي بدأ بهذا النوع من النظام الاقتصادي، ففي عهد سيدنا عمر رضي الله عنه دُوِّنَ -في السجلات- اسم كل شخص مع زوجته وأولاده في كل قرية ومدينة، ثم تمَّ تحديد الغذاء الذي لا بد أن يوفّر لهم، لكي يعيش به مَن يأكل قليلا ومن يأكل كثيرا (تاريخ اليعقوبي: ج ٢، أيام عمر ابن الخطاب).

ورد في التاريخ أن سيدنا عمر رضي الله عنه لم يضع في الاعتبار المواليد الرُّضَّع في أول الأمر، بل لم يكن هؤلاء يتلقوْن هذه المعونة من الدولة إلا بعد الفِطام. وفي إحدى الليالي خرج عمر رضي الله عنه يتفقد أحوال رعاياه، فمرّ بخيمة يبكي فيها وليد، فتوقف عندها بعض الوقت، فوجد أن الوليد لا يزال يبكي وأُمّه تحاول أن تنوّمه. وطال

هذا المشهد، فدخل عمر في الخيمة وقال للمرأة: لماذا لا تُرضعين ولدك حتى ينام، فهو يبكي منذ وقت طويل؟ فقالت وهي لا تعرف أن عمر هو الذي يكلّمها: أيها الرجل، إن "عمر" قد قرّر عدم توفير الطعام للرضّع من قِبَل الحكومة، ونحن عائلة فقيرة نعيش بصعوبة، ففطَمتُ ولدي هذا لكي أتلقى له المعونة من بيت المال، فابني لا يبكي إلا بسبب خطأ عمر الذي سنّ هذا القانون. فعاد عمر ﵁ أدراجه وهو يقول من شدة الحزن: كمْ مِن ولدٍ للعرب تسببتَ في فطامه يا عمر، وجعلتَ ذراريهم ضعيفة؛ بسن هذا القانون الظالم، فأنت المسؤول عن هذا الإثم عند الله! ثم توجّهَ إلى بيت المال وأخذ كيسًا من الدقيق وحمَله على ظهره، فقال له بعض خَدَمه: دَعْني أحمل عنك هذا الكيس يا أمير المؤمنين. فقال: كلا، أنا المخطئ، ويجب أن أتحمل أنا تبعات ذنبي، ثم حمَل الكيس إلى المرأة. وفي اليوم التالي أصدر الأمر بتقديم المعونة لكل وليد بدءًا من يوم ولادته، لأن أُمّه التي ترضعه بحاجة إلى غذاء أكثر (تاريخ ابن خلدون).

فالإسلام قد أقام هذا النظام منذ أول يوم. لا شك أنه لم يستمر طويلا، ولكن القاعدة أن كل الإنجازات العظيمة تبلغ ذروتها على شكل موجات صعودا وهبوطا؛ فإذا قام أمرٌ مرةً فهو يندثر أيضا بعد فترة بتأثير التقاليد القديمة، إلا أن ذكراه لا تزال خالدة في الأذهان، ويبذر بذرة طيبة في العالم، وكل نبيل عادل يعترف بكونه حسنا، ويرى أنه من واجبه إحياءه في العالم ثانية. لا شك أن هذا النظام قد اندثر من العالم، ولكن الله تعالى قد غرس غراس الأحمدية لإقامة هذا النظام من جديد في العالم، وليس بعيدا حين تقطف الدنيا ثمارها الحلوة وينمحي الجوع والبؤس والآلام من العالم، وتصير الدنيا نموذجا للجنة، إن شاء الله.

ثم من واجب الدولة الإسلامية ألا تنظر إلى البلاد الأخرى نظرة جشع وطمع. قال الله تعالى ﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (طه:١٣٢).. أي أيها المسلم، لا تتطلع إلى النعم المادية التي مَنَنّا بها على الأمم الأخرى، واعلمْ أن ما أعطاك الله هو خير لك

وأبقى.. أي أن هذا سوف ينفعك بعد الممات أيضا، وليس المال الـذي يُجمـع بالعدوان على الشعوب الأخرى.

مما يعني أن الإسلام يعارض التصرفات التي تمارسها مختلف الدول في هذه الأيام، فينهى المسلمين عن الهجوم على دولة أخرى للاستيلاء على أراضيها، غـير أنـه يسمح لهم بالدفاع إذا ما تعرضت الدولة للهجوم أو كان هناك خطـر الهجـوم (الحج: ٤٠-٤١)، كما أمر المسلمين بالرباط وتحصين الثغور. (آل عمران: ٢٠١)

وإذا انتصرتْ الدولة الإسلامية على المعتدي عند دفاعها فلا يسمح لها الإسلام بما تفعله الدول المنتصرة في هذه الأيام بالمغلوبين، بل يأمر بالعدل والعفو، قـال الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة:٩).. أي: أيها المؤمنون، اعملوا أعمالكم كلها لمرضاة الله تعالى، وأنصِفوا الناس، ولا تدفعنّكم عداوة قوم إلى ألا تعدلوا معهم، بل اعدلوا في كل حال، فهذا أدعى للتقوى، واتخِذوا الله سترًا لكم، إن الله عليم بما تعملون.

فالإسلام يأمر هنا بالآتي:

١: ألا يهاجم المسلمون دولةً أخرى لغصْب أراضيها

٢: إذا اضطروا للحرب الدفاعية فليعامِلوا العدو المنهزم بالعدل

ثم أمر أنهم إذا خاضوا حربًا دفاعية فيجب ألا يتّخذوا الأسرى إلا بعد حـرب دامية. (الأنفال: ٦٨)

وإذا اتخذوا الأسرى فعليهم ما يلي:

١: إما أن يطلقوا سراحهم مَنًّا عليهم (محمد: ٥)، وهذا لا يمكن إلا فيما يتعلق بالأسرى الذين يعترفون بخطئهم ويتعهدون بعدم قتال المسلمين مستقبلا. فهنـاك قصة أسير اسمه أبو عزّة، كان النبي ﷺ قد خلّى سبيله يوم بدر علـى ألاّ يحـارب المسلمين بعدها، ولكنه جاء لقتالهم في غزوة أحد، فقُتل في معركة حمراء الأسـد (السيرة النبوية لابن هشام: غزوة أحد).

٢: وإذا لم تستطع الدولة الإسلامية لضُعْفها اقتصاديا إطلاقَ سراح الأسرى، فمن حقهم أن يتحرروا مقابل فدية يدفعونها. أما إذا لم يقدر الأسير على أداء الفدية فعلى الدولة الإسلامية أن تفتديه بأموال الزكاة. وإذا تعسّرَ ذلك فيعطى خيار المكاتَبة، أي أن يعاهد على دفع الفدية بالأقساط مما يكسبه بعد إطلاق سراحه، فيخلى سبيله بعد عقد المكاتبة فورا ويدفع فديته بالتقسيط.

وليكن معلوما أن الأفراد في الماضي كانوا يخوضون الحروب على نفقاتهم عادةً، فما كانت حكومات الدول المحاربة تُطالَب بدفع فدية أسراها، بل كانت الفدية تُفرض على الأسرى أنفسهم، أما اليوم فقد أصبحت الحروب قومية، والدول تنفق على جنودها الذين يخوضون الحروب، وبالتالي فلا بد من تغيير هذا النظام نظرًا لتغيُّر الأوضاع، فلا تؤخذ الفدية من الأسير، بل من الدولة التي يحارب في صفها.

٣: يمكن تسخير الأسير في شتى الأعمال إلى أن يدفع الفدية، ولكن الإسلام قد اشترط على المسلمين في هذه الحالة ما يلي:

أ: عدم تكليفه فوق طاقته.

ب: إطعامه مما يُطعمون منه أنفسهم.

ت: كسوه مما يكسون به أنفسهم.

ث: عدم ضربه.

ج: إذا كان صالحًا للزواج ولا يعرف مدة أسره فيجب تزويجه.

هذه الأحكام عادلة وسامية جدا. إن الدول "المتحضرة" المعاصرة تعامل أسرى الحرب معاملة سيئة جدا مقابل تعاليم الإسلام، فهي مثلاً لا تُطلِق سراح الأسرى منةً وإحسانا، وإنما تفضِّل أخْذ الفدية والغرامة، وكذلك لا تهتم بغذائهم ولباسهم، ولا تُطعمهم مما تأكل منه، ولا تكسوهم مما تلبس، ثم لا تسمح لهم بالاقتراب من زوجاتهم، ناهيك أن تقوم بتزويج العُزَّب منهم. باختصار، إن أحكام الإسلام أفضل من جميع الأحكام الأخرى بهذا الخصوص أيضا.

ثم إن الإسلام ينهى عن التعرض في الحرب للأطفال وكبارالسن والنساء ورجال الدين، ويأمر بحماية المعابد (البخاري، كتاب الجهاد)، كما يأمر الإسلام بمنح حرية تامة في أمور الدين، وينهى عن إكراه أحد في أمر الدين.

ثم إن القرآن يحثّ مرة بعد أخرى على الالتزام بالمعاهدات. إن الدول في هذه الأيام تعقد اتفاقيات ومعاهدات مع الدول الأخرى بنوايا شريرة، ولكن الإسلام يأمر المسلمين بالالتزام بالمعاهدة، وإذا كان هناك خطر أن تلجأ الأمة المعاهدة إلى الشرّ، فينهى عن الهجوم المباغت ويأمر بإخطارها بإلغاء المعاهدة لأنهم نقضوها أولاً، فإذا لم يرتدعوا، فيمكن عندها شنّ الحرب عليهم، لا قبْل ذلك. قال الله تعالى ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ (الأنفال: ٥٩).. أي إذا توجستم خطر الخيانة من قبل الأمة المعاهِدة وخفتم أن يهاجموكم غير مبالين بمعاهدتهم، فانبذوها إليهم على قدم المساواة، لأن الله تعالى لا يحب الخائنين الناكثين للمعاهدات.

ثم قال الله تعالى بأنه إذا أرادت أُمة عقد الصلح معكم، فعليكم الصلح، ولا تصرّوا على الاستمرار في القتال، إذ قال الله تعالى ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ (الأنفال:٦٢).

ثم إن الإسلام يأمر الدولة الإسلامية ألا تحتقر أي أمة أخرى، كما تفعل اليوم الدول التي تسمى متحضرة، حيث تقول بأن الشعب الفلاني أسود اللون، فهم عبيد لنا وليس لهم أي حقوق إنسانية، فقال الله تعالى ﴿لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ (الحجرات:١٢).. أي عسى أن يصبحوا أفضلَ منهم غدا.

ليس ضروريا أن يكون في العالم نظام واحد في وقت واحد، ولذا فقد أمر الإسلام: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الحجرات:١٠).. أي إذا ما تحاربت أمّتان، فمن واجب الأمم الأخرى أن تتدخل في الأمر لإيقاف الحرب بينهما، وتسعى لإزالة سبب الخلاف بينهما، وتردّ الحق لصاحبه، ولكن إذا لم تتوقف

إحداهما عن الحرب، فعلى جميع الأمم أن تتحد وتحاربها معًا إلى أن ترجع إلى أمر الله.. أي إلى أن تتوقف عن الاعتداء؛ فإذا رجعتْ فعلى الأمم الأخرى أن تعقد بينهما صلحًا عادلا، فإن الله يحبّ أهل العدل.

يُستنبط من هذه الآيات المبادئ التالية:

١: إذا كانت في الدنيا دول كثيرة، ونشب الخلاف بين اثنتين منها، فعلى الدول الأخرى أن تتعاون فيما بينها وتشكل لجنة تسعى للهدنة بينهما.

٢: فإذا تصالحتا فبها، وإلا فإن على لجنة التحكيم أن تحكم بينهما بالعدل، ثم تجبرهما الدول الأخرى على العمل بهذا القرار.

٣: وإذا رفضت إحداهما هذا القرار أو رفضت العمل به بعد قبولها، فمن واجب الدول الأخرى كلها أن تحاربها معًا لإجبارها على الانصياع لقرار لجنة التحكيم إرساءً للسلام العادل.

٤: وإذا مالت هذه الدولة المعتدية إلى الصلح نتيجة ضغط لجنة التحكيم أو نتيجة شن الهجوم عليها من قبل الجميع، فعلى الدول الأخرى تنفيذ قرار اللجنة في القضية التي كانت سبب الخلاف مِن دون أن تجني من الدولة المغلوبة أية منافع أخرى؛ لأن هذا سوف يثير فتنًا أخرى.

هذه هي المبادئ الذهبية التي إذا عملت بها الأمم تضاءلت إمكانية الحروب في العالم جدًّا، وساده السلام.

ثم إن الإسلام حثّ على الحرية الدينية، وقال: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة:٢٥٧).. أي يجب ألا يكون في أمور الدين قسر ولا جبر، بل يجب أن يتمتع الجميع بالحرية الدينية التامة، لأن المرء يمكن أن يدخل بالجبر في الدين ظاهريًا، ولكن لن يقتنع بعقائده بقلبه وروحه. أما الإسلام فيأمر بإقناع الناس وفتح قلوبهم بالبراهين، ولذلك فإن الإسلام يشجب مَن لا يؤمن بقلبه ويتظاهر بإسلامه، ويسميه منافقا. فالإسلام يركّز على الحرية الدينية جدا ويعلن مرة بعد أخرى أن الانتصار الحقيقي يكون بالبراهين لا بغزو الأجساد.

باختصار، هناك بون شاسع بين نظام الحُكم في الإسلام ونظام الحُكم عند الكافرين؛ ففي مبادئ النظام الإسلامي ضمان لسيادة السلام في العالم، أما النظام الثاني فلا ضمان فيه للسلام، ومن ثم يستحيل اتحاد الفريقين في العبادة مع هذا البون الشاسع بين مبادئهما.

والمعنى الثالث للدين هو السيرة، وقد ورد في المعاجم أن المراد من سيرة الإنسان: "كيفية سلوكه بين الناس" (الأقرب). وعليه فقوله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ يعني: أيها المنكرون، إن طريقة معاشرة الناس عندكم مختلفة عن طريقة معاشرة الناس في الإسلام. وهو اختلاف هام بين الفريقين، فكيف يتحدون في العبادة؟ إن الإسلام يرى أن حسن معاملة الناس عبادة، فقد ورد في الحديث أن الرسول ﷺ قال بأن وضْع الزوج لقمة في فم زوجته ابتغاء مرضاة الله تعالى صدقةٌ يثاب عليها (البخاري، كتاب الوصايا). إذن، فحُسْنُ سلوك المرء مع الآخرين عبادة في الإسلام. وما دام تعليم الإسلام يختلف عن تعاليم الكافرين فيما يتعلق بمعاملة الناس، فمن المحال أن يشتركوا معهم في هذه العبادة، لأن الكافرين لا يؤمنون بتعاليم الإسلام في حسن معاملة الآخرين.

والمعنى الرابع للدين هو التدبيرُ، وعليه فقوله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ يعني: أيها المنكرون، إن اتحادنا معكم في العبادة مستحيل، لأن هناك بونا شاسعا بين تدابيركم وتدابيرنا.

الواضح أن كل فرد في الدنيا يبذل الجهد ويتخذ التدبير، حينًا للفوز برضا الله تعالى وتنفيذ مشيئته، وفي هذه الحالة يُعَدّ تدبيره عبادةً، لأنه تابعٌ للمشيئة الإلهية، وحينًا يتخذه لفائدة الناس بما فيه نفعه ونفع أسرته، فقد قال الرسول ﷺ: "وإنّ لنفسِك عليك حقًّا" (البخاري، كتاب الصوم).. أي أن الله تعالى قد فرض على المسلم أن يحسن إلى نفسه وإلى زوجه وجاره أيضا؛ فسواء عمِل المسلم معروفا لنفسه أو زوجه أو جاره فإن عمله يُعتبر عبادةً عند الإسلام، ولكن تعاليم الكافرين تختلف عن تعاليم الإسلام هذه، فمن المحال اتحاد الفريقين في العبادة.

والمعنى الخامس للدين هو: "ما يُعبَد به الله"، أي طرق عبادة الله كلُّها، كالصلاة وحج البيت وغيرهما من طرق العبادة عند المسلمين، وعليه فقوله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ يعني: أن طرق عبادتكم، أيها الكافرون، تختلف عن طرق عبادتي. إن طرق العبادة الإسلامية كلُّها ذات حكمة، وأما طرق عبادات الأديان الأخرى فلا حكمةَ فيها، فكيف يمكن للمسلمين أن يتركوا طرق عبادتهم ويتخذوا طرق عبادة الآخرين؟ وأَنَّى لغير المسلمين أن يتبعوا طرق عبادة الإسلام ما داموا يكفرون به؟ فالمسلم لا يشترك في عبادتهم بناءً على مبرر معقول، أما هؤلاء فلا يشتركون في عبادة المسلمين عنادًا ومكابرة. فثبت أن إعلان المسلمين للكفار ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ صحيح تماما.

والمعنى السادس للدين هو المِلّة. والمِلّة لها معنيان: الأول: الشريعة والدين، والثاني: السنّة والطريقة، أي نظام الأمة؛ وعليه فقوله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ يعني: أيها المنكرون، لكم شريعتكم ولي شريعتي، ولكم نظامكم القومي ولي نظامي القومي، فكيف نتّحد في العبادة مع هذا الخلاف؟

أما نظرًا إلى المعنى الأول للملة -وهو الشريعة- فواضحٌ أن المشركين لم يكن عندهم أي شريعة أصلاً، إنما كانت عندهم بضعة طقوس وتقاليد فارغة، أما الكافرون الآخرون من أتباع الأديان الأخرى فأحكام شريعتهم التي كانت بأيديهم كانت ناقصةً جدا وغيرَ قادرة على تقديم الحلول الشافية لمشاكل الحياة وقضاياها المختلفة، أما الإسلام فيقدّم شريعة كاملة من كل النواحي. يقول الله تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾(المائدة:٤). فالإسلام يعلن أنه قد أتى بشريعة كاملة مقابل شرائع الأديان الأخرى، وقد بين حتى كل تلك القضايا التي لم تتطرق لها الأديان الأخرى، وقد بيّنها بكل جزئياتها، وقد أرشد المسلم بكل تفصيل إلى كل الأمور التي كان بحاجة إلى إرشاد فيها، وهكذا أغناه عن كافة الشرائع الأخرى إلى يوم القيامة. فكيف يمكن للمسلم مع وجود هذه الشريعة السامية الكاملة أن يتحد في العبادة مع قوم

يتبعون مجرد التقاليد والطقوس الفارغة، أو يفتقرون إلى شريعة كاملة، وكيف أن يجد الطمأنينة عندهم؟

أما المعنى الثاني للملة – وهو السنّة والطريقة أي نظام الأمة- فاعلم أنه مهما كان الإحساس بالمسؤولية عظيما عند أهل بلد أو أمة، إلا أن جهودهم لا تأتي بنتائج عظيمة ما لم يقوموا بأعمالهم بشكلٍ جماعيٍّ موحَّدٍ منظَّمٍ. وقد ركّز الإسلام على هذا الأمر مرارًا، ونبّه الأمةَ إلى ضرورة الاتحاد على يد واحدة، لكي يبذلوا جهودهم بشكل موحد منظم لأداء المسؤولية الملقاة عليهم من عند الله تعالى. فصلواتنا تذكير بهذا الدرس نفسه، إذ لا صلاة من دون إمام. وقد قال الله تعالى حثًّا على ضرورة النظام والاتحاد ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا﴾(آل عمران:١٠٤).. أي: أيها المسلمون، استمسكوا بقوة بالشريعة التي أنزلناها، ولا تبرحوا مجتمعين على يد واحدة ولا تَفرَّقوا، لكي تأتي جهودكم بثمار طيبة. فالإسلام يركّز على النظام والاتحاد في كل حال.

بيد أن الله تعالى يأمرنا أيضا: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾(المائدة:٣).. أي: ابذلوا جهودكم معًا لنشر الخير، واعملوا معًا على زرْع التقوى في القلوب، ولكن لا تساعدوا أحدًا في نشر الإثم والظلم والمعصية. إن أتباع الأديان والشعوب الأخرى لا يهتمون بهذا المبدأ ولا يعملون به، بل يساعدون إخوانهم بكل ما أوتوا من قوة وإنْ كانوا ظالمين. أما الإسلام فينهى عن التعاون مع الظالم أبدا، بل يفرض على المسلم أن يمنع الظالم من ظلمه ويساعد المظلوم. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا. فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قَالَ تَحْجُزُهُ أَوْ تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ، فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ (البخاري: كتاب الإكراه). أي امْنَع الظالم من ظلمه لتنقذه من النار، وانصُر المظلوم لتحظى برضا الله تعالى.

إن الناس لا يعملون بهذا المبدأ عادة، بل يعملون بما فيه منفعتهم، ولكن الإسلام يقدم هذا المبدأ العظيم الجديد بأن يُكتب بأحرف من نور، فيقول بأن من واجب المسلمين -بالإضافة إلى حفاظهم على النظام- أن يسعوا لنشر الخير والتقوى

والتعاون مع الحركات التي تنشر الخير، وأن يبذلوا الجهود لضم الناس كلهم إليها، ولكن يجب ألا يتعاونوا مطلقًا مع حركة تريد الإضرار بالناس. فكيف يمكن لمسلم إذنْ أن ينضم إلى الفريق الذي يظل يغيّر موقفه نظرًا إلى مصلحته الشخصية، وإنْ أدى ذلك إلى ظلم العباد.

والمعنى السابع للدين هو الورع، **والمعنى الثامن للدين** هو المعصية، والورع يعني التقوى، والمعصية تعني عدم الطاعة ومخالفة الأمر؛ إذن، فالورع والمعصية ضدّانِ، ولكن لما كان من معاني الدين الجزاءُ والعقابُ أيضا، والجزاءُ يكون على فعل الخير، والعقابُ يكون على فعل الشر، ولذلك قد فسّروا الدين بالورع والمعصية أيضا. وعليه فقوله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ يعني: لكم طريق تقواكم ولي طريق تقواي.. أي أنني أتقي الله تعالى، أما أنتم فتتقون أصنامكم، إذ تنكرون وحدانية الله تعالى؛ وما دام هناك خلاف بين الفريقين فيمن يخافونه أو فيمن يعقدون عليه الآمال، فكيف يتّحدون في العبادة؟ أي أنكم تريدون إرضاء أصنامكم بأعمالكم متبعين عقائد آبائكم الباطلة بأن على المرء أن يخاف الأصنام في كذا وكذا، ويعقد عليها الآمال في كذا وكذا، أما أنا فأقوم بما يرضي الله تعالى وأجتنب ما يُسخطه، فكيف يمكن أن نتّحد في العبادة؟

والمعنى التاسع للدين هو الحال، وعليه فقوله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ يعني أن حالي خلاف حالكم، أعني أن مشاغلي اليومية ومبادئي هي على عكس مشاغلكم ومبادئكم. قال الرسول ﷺ: "كلُّ أمرٍ ذي بال لم يُبدَأ باسم الله فهو أبترُ"✸.. أي كل أمر هام لا يبدؤه المرء باسم الله لا تكون عاقبته حسنة، بمعنى أن على المرء أن يتوجه إلى الله تعالى في كل أمر صغير أو كبير، إذ لا يستطيع أن يتقدم

✸ أقرب ما وجدناه هو: "كُلُّ كَلامٍ أَوْ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لا يُفْتَحُ بِذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَهُوَ أَبْتَرُ أَوْ قَالَ أَقْطَعُ". (مسند أحمد، مسند أبي هريرة رضي الله عنه)

خطوة واحدة من دون عون الله تعالى، أما إذا شمله عونه تعالى عمل كثيرا مع ضعفه.

ثم إن الأمر ببدء كل عمل باسم الله فيه تنبيه للمسلم أن تكون أعماله كلها لوجه الله تعالى، ذلك أنْ لا أحد يسمي الله تعالى عند ارتكاب معصية، وإنما يذكر اسمه عند عمل يمكن أن يُعينه الله فيه، وهكذا فإن هذا الأمر سيحول دون وقوعه في السيئات التي يرتكبها الناس. عندما يهمّ المسلم بارتكاب سيئة ويقرأ باسم الله، فسوف يتذكّر أن الله تعالى قد نهاه عن ارتكابها، فلا بد أن يرتدع عنها، فلا تتقدم خطواته إلى السيئات.

كما أن المسلم سوف يعامل الناس بالعفو والرحمة، لأن صفتي الله "الرحمن والرحيم" تفرضان عليه أن يعامل خلق الله بالرحمة.

ثم إن الرسول ﷺ قد علّمَنا أدعية شتى قبل البدء في أي عمل، وذلك لكي يظلّ المرء دائم التوجه إلى الله تعالى، فتكون يده مشغولة بعمله، وقلبه مشغولا بذكر حبيبه سبحانه وتعالى. هذا أولاً.

وثانيًا، إن في ذلك درسًا للمسلم ألاّ يفعل ما هو خلاف أوامر الله، لأنه إذا أراد فعْل شيء خلاف أوامر الله تعالى، فلا يمكن أن يدعو اللهَ من أجله.

فالحق أن المبادئ التي يقوم المسلم بأعماله اليومية بحسبها تتنافى مع مبادئ الأديان الأخرى. فهؤلاء يحاولون تحقيق أهدافهم بأي طريق؛ مشروع وغير مشروع، ومهما زُهقت في سبيله من أرواح، ومهما تعرض فيها خلْق الله للتعذيب والأذى، أما الإسلام فينهى عن ذلك. يقول الرسول ﷺ: "المسلم مَن سلِم المسلمون مِن لسانه ويده" (البخاري، كتاب الإيمان). فالمسلم يقوم بأعماله اليومية بحيث لا يؤذي أحدًا، أما الكافر فلا يبالي بذلك، فثبت أن قول المسلمين للكافرين: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ كان في محله تمامًا.

والمعنى العاشر للدين هو الشأن، ومعناه الخَطْب العظيم (الأقرب). وعليه فقوله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ يعني: أيها المنكرون، أنتم تصْبون إلى تحقيق خطة،

ونحن أيضا نصبو إلى تحقيق خطّة، وهناك فرقٌ هائـــل بـــين أهـــداف الفـــريقين وخططهما، فاتحادنا محال.

فما هو أهم هدف للكافرين؟ إنما هو اتّباع التقاليد والطقوس الفارغـــة، لكـــن القرآن الكريم لا يقيم لها قيمة، ويعتبر اتّباعها جهالة، أمـــا المـــسلمون فهـــدفهم الأساسي نشر وحدانية الله في العالم وتوطيد ملكوت الله في الأرض تماما، وأن يتّبع الناس شريعة الله تعالى، وأن يتّحدوا كلهم على مركز واحد، فيكون لهم إله واحد ورسول واحد وشرع واحد، وأن يصطبغوا كلهم بصبغة الله تعالى، لكـــي ينجـــو العالَم من ويلات الحروب ويسوده السلام، ولكي يسعى الناس جميعـــا لتحقيـــق المصالح العالمية بدلاً من تحقيق مصالح أنفسهم وقبيلتهم وشعبهم وبلدهم، فيكـــون لهم علاقة متينة كاملة مع الله تعالى من ناحية، ومن ناحية أخرى يـــؤدوا حقـــوق العباد حق الأداء.

إن اليهودية والمسيحية وغيرهما من الديانات كانت مختصة بشعوبها، أما محمد ﷺ فقد بُعـــث للعـــالم أجمـــع، إذ قـــال الله تعـــالى: ﴿وَمَـــا أَرْسَـــلْنَاكَ إِلا كَافَّـــةً لِلنَّاسِ﴾(سبأ:٢٩)، وقال الرسول ﷺ" أعطيتُ خمسًا لم يُعْطَهنّ أحد قبلي؛ نُصرتُ بالرعب مسيرةَ شهر، وجُعلتْ لي الأرضُ مسجدًا وطَهورًا، وأحِلَّت ليَ الغنـــائم، وأُعطيتُ الشفاعةَ، وكان النبي يُبعَث إلى قومه خاصةً وبُعثتُ إلى النـــاس عامـــة". (مصنف ابن أبي شيبة، ومسند أحمد، والبخاري). وفي رواية: "بُعثـــتُ إلى النـــاس كافةً الأحمر والأسود "(مسند أحمد، مسند عبد الله بن عباس رضي الله عنهما).

وقوله ﷺ: "وأُحلّت لي الغنائم" يعني أن موسى عليه السلام قد أُمر بحرق كل ما يقـــع في يده من مال العدو (التثنية ١٣: ١٧)، أما أنا فقد خيّرني الله تعـــالى في أن أوزع غنائم الحرب على جنودي الذين يدافعون عن بلدهم دون مقابل، أو أن أُرجع هذه الأموال إلى العدو.

فالخُطّة المحمدية تهدف إلى جمْعِ الإنسانية كلها على منصة واحـــدة، والعـــودةِ بالناس في كل أقطار العالم إلى أعتاب الله الأحد، لتكون لهم وجهةٌ واحدة وغايـــةٌ واحدة، فيسيروا في درب الرقي على قدم المساواة. لقد قال الرسول ﷺ: "لا فضْلَ

لعربي على عجمي" (مسند أحمد: مسند الأنصار، ومجمع الزوائد: كتاب الحج)، وإنما قصد النبي ﷺ من قوله هذا أن من واجبنا رفْع مستوى الأمم الأخرى أيضا، لكي يمضي العربي والأعجمي كلاهما قُدُمًا على درب الرقي، لأن خطّة المسلمين هي جمْع الناس كافة على محطة واحدة. أما منكرو الإسلام فخطّتهم اتّباعُ التقاليد والطقوس الفارغة أو السعيُ لجلب المنافع لقومهم أو قبيلتهم، وما دام الفريقان يعملان على تحقيق خطتين متعارضتين، فكيف يمكن اتحادهما في العبادة؟

والمعنى الحادي عشر للدين هو العادة. والحق أن العادة والسيرة بمعنى واحد، إنما الفرق أن المرء يقوم ببعض الأعمال باندفاع داخلي، وبعضها بتأثير الدوافع الخارجية، وما يفعله باندفاع داخلي يسمى السيرة، وما يقوم به باندفاع خارجي يسمى العادة. وعليه فقوله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ يعني: أيها الكافرون، لكم عاداتكم ولي عاداتي، أي: شتّانَ بين عاداتكم وعاداتي؛ فعاداتكم خاضعة لتقليد الآباء الذين مبادئهم لا تتفق مع العقل والمنطق، أما عاداتي فهي ثمرة للعمل بالأحكام التي أنزلها الله الحكيم بناءً على حِكَم عظيمة. أنتم عبيد التقاليد والطقوس، واتبعتم ما وجدتم عليه آباءكم وأصبحتم معتادين عليها، وإنْ دفَعَتكم إلى هوة الدمار بدون شك، أما عاداتي فمنبعُها صفات الله تعالى الذي أمرَنا وقال: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾(البقرة:١٣٩).. أي عليكم أن تصطبغوا بصبغة صفات الله؛ فصَبَغتُ عاداتي بصفاته تعالى، فهي تتفق مع الفطرة السليمة التي قال الله تعالى عنها ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾(الروم:٣١).. أي أن الله تعالى قد خلق الإنسان بفطرة سليمة، فتنمو هذه الفطرة نماء صحيحا في المحيط الإسلامي، وعندما ينزل عليها ماء التعاليم الإلهية، فتؤتي أطيب ثمار ينتفع بها أقاربه وأصدقاؤه وغيرهم، فيصبح عضوًا نافعا جدًّا في المجتمع. أما أنتم فيولَد الوليد فيكم بأفضل فطرة، ولكنّ أبويه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه (مسند أحمد: مسند أبي هريرة، والمعجم الكبير للطبراني: ج١ رقم الحديث ٢٨٥)؛ بمعنى أنه إذا وُلد في بيت اليهود اصطبغ بعاداتهم، وإذا وُلد عند المجوس تأثر بعاداتهم، وإذا وُلد وترعرع بين النصارى أخذ

عاداهم؛ وإذا وُلد في بيت المشركين تأثر بهم وأخذ بعبادة الأصنام واتّبع طقوسهم وتقاليدهم، مما يعني أن دينه هو دين آبائه، وأنه متأثر بمحيطه.

إذن، عاداتكم خلاف عاداتي، والحق أن اتفاق الفريقين في العادات أيضًا قد يصبح من دواعي اتحادهم، ولكن هذا السبب مفقود هنا، فسبيلكم غير سبيلي، فكيف يمكن اتحادنا في العبادة. فإعلاننا لكم ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ حقيقة واضحة ليس وراءها أي بغض ولا عناد.

باختصار، قد أوجزَ الله تعالى في قوله ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ كلَّ الأسباب التي كانت وراء نهيه للمسلمين عن الاشتراك مع الكافرين في العبادة. لقد بينتُ من قبل أن العبادة عند الإسلام لا تعني الصلاة فقط، بل إن كل الأعمال الأخلاقية والروحانية التي تتعلق بالمَدنية والسياسة والمعيشة، والتي إذا قمنا بها ابتغاء مرضاة الله ورقينا الروحاني تصبح عبادةً. فالعبادة المذكورة في هذه السورة -والتي قد أُمر النبي ﷺ بأن يُعلن عدم اشتراك المسلمين فيها مع الكافرين- تشمل كل أمور الحياة، سواء ما يتعلق منها بالمعيشة أو السياسة أو المدنية أو غيرها. وقد أعطى الإسلام بشأنها تعليمات أساسها الحب والوئام والعدل والنظام ورضا الله تعالى، أما الأديان الأخرى فإما أنها تعطي تعليمات جبرية أو تدعو إلى تقليد الآباء في عاداتهم وطقوسهم؛ لذا فاتحاد المسلمين معهم في العبادة محال، سواء تلك العبادة التي تتعلق بالصلاة والدعاء، أو التي تخصّ أمور المعيشة والمدنية والسياسة وأريدَ بها وجه الله؛ ذلك لأن مبادئ الأحكام عند الفريقين متباينة ومتعارضة تماما.

باختصار، إن الإسلام قد أمر أولاً أن يعلن كل مسلم جهارًا ونهارًا أن من المحال أن يتّحد مع الكافرين في العبادة، ثم أوجزَ أسباب هذا الإعلان في قوله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾. فانظر إلى إيجاز قوله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾، ثم انظرْ إلى معانيه الواسعة، فكأنما حصر البحر في كوب. الحق أننا لو أردنا بيان هذا المفهوم بكل تفاصيله لألَّفْنا كتابا ضخما؛ فمِن مزايا اللغة العربية أنها تبيّن أحيانًا في كلمة واحدة موضوعا واسعا يستحيل بيانه في اللغات الأخرى في كتاب ضخم. وهذا دليل ساطع على أن العربية أُمُّ الألسنة.

الخلاصة أن الله تعالى قد علّم المسلمين في سورة "الكافرون" أن عليهم أن يتذكروا دائمًا أنهم أكمل شرعًا، وأمثلُ عبادة، وأفضلُ معاشرةً وسلوكًا، وأروع حُكمًا ونظامًا وأسمى هدفًا من أتباع الأديان الأخرى؛ لذا فمن واجبهم أن يتصدّوا للكافرين في كل مناسبة ويثبتوا فضل الإسلام، فلا يتأثروا من الكفر ولا يرتعبوا منه بأي شكل أبدا، لأنهم إذا فعلوا ذلك هلك العالم كله، و لم يتيسر لهم نظام كامل. فانفصال المسلمين عن غيرهم في أمر دينهم ليس راجعًا إلى العناد أو المكابرة، إنما سببه أن فيه خير الإنسانية وازدهارها. أما الخصوم فإنما يرفضون هذا النظام المبارك بسبب عنادهم وعدم اكتراثهم لرقي العالم وازدهاره.

سورة النصر

مدنية وهي أربع آيات مع البسملة

سورة النصر مدنية بلا خلاف؛ فجميع المفسرين متفقون على ذلك (فتح البيان). غير أن التفاسير ذكرت ثلاث روايات مختلفة عن زمن نزولها، أُولاها: أنها نزلت عند مُنْصَرَفه ﷺ من خيبر (روح المعاني). وغزوة خيبر وقعت في السنة السابعة الهجرية، وهكذا فإن هذه السورة نزلت في تلك السنة بحسب هذه الرواية. والرواية الثانية هي عن ابن عباس قال: "لما أقبل رسول الله ﷺ من غزوة حنين أنزل الله عليه ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ (الدر المنثور). وقد وقعت غزوة حنين بعد فتح مكة في رمضان من السنة الثامنة للهجرة حين بلغ النبي ﷺ وهو لا يزال في مكة الأخبار أن ثقيفا وهوازن مصرّون على الفساد، فسار ﷺ إليهم، ووقعت المعركة في مكان يُدعى حنين. لم يستطع المسلمون الثبات في أول المعركة، ولكن الله تعالى كتب لهم الفتح بنصره في نهاية المطاف، ونالوا نصرًا عظيمًا. فيرى ابن عباس أن هذه السورة نزلت عند عودة النبي ﷺ من حنين؛ أي في السنة الثامنة للهجرة.

والرواية الثالثة هي: عن ابن عمر: قال نزلت على النبي ﷺ أوسط أيام التشريق بمنى وهو في حجة الوداع. (الدر المنثور، وفتح البيان). وعاش النبي ﷺ بعدها ٨٠ يوما أو ٧٠ يوما عند البعض (البحر المحيط).

والتدبر في هذه الروايات يكشف أن الأصح أن هذه السورة نزلت عند حجة الوداع. وهناك روايات أخرى تدعم ذلك أيضا، فعن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ قال رسول الله ﷺ: نُعيتْ إليّ نفسي أني مقبوض في تلك السنة (الدر المنثور، وجامع البيان).. أي أنه ﷺ أدرك أنه ما دام قد بُعث

لإقامة وحدانية الله ونشر الإسلام في العالم، وقد بدأ الناس يدخلون في دين الله أفواجا وأخذ الإسلام ينتشر في العالم، وقد أنجز الله تعالى على يده مشيئته، فإنه قد حان وقت عودته إليه، واقترب أجله. وبالفعل توفي ﷺ إلى رحمة الله تعالى في السنة نفسها.

لقد تبين من هنا أن القول بنزول سورة النصر في السنة السابعة أو الثامنة لا يتوافقَ مع قول النبي ﷺ "أني مقبوض في تلك السنة"؛ إذ تُوفي في السنة الحادية عشرة، فهناك فارق ٣ سنوات أو ٤. ولا يصح قوله ﷺ هذا إلا إذا كان قد قال ذلك في السنة العاشرة.

فثبت من الناحية الحسابية أيضا أن هذه السورة نزلت في حجة الوداع (روح البيان). كما ثبت من هذه الرواية أن ما نُسب في الرواية السابقة إلى ابن عباس أنه قال بنزول هذه السورة عند منصرف النبي ﷺ من غزوة حنين قول باطل، إذ لا يمكن أن يقول ابن عباس قولين متعارضين في وقت واحد.

والرواية الأخرى التي تحسم أن سورة النصر نزلت عند حجة الوداع هي كالآتي: لما نزلت هذه السورة، خطَب رسول الله ﷺ فقال: "إن عبداً خيّره الله بين الدنيا وبين لقائه، فاختار لقاء الله"، فأدرك أبو بكر ؓ قصد النبي ﷺ فقال في قلق بالغ: "فديناك بأنفسنا وأموالنا وآبائنا وأولادنا" (روح البيان، والكشاف).

فسيدنا أبو بكر ؓ فهِم هذا الكلام التمثيلي، فبلغ منه القلق كل مبلغ، فجعل يقدّم نفسه وأقاربه كلهم فداءً للنبي ﷺ كمَن يذبح كبشًا فداءً لشفاءِ قريبٍ له، متمنيًا أن يتقبل الله قربانه هذا، ليعيش النبي ﷺ طويلا.

هذه الخطبة قد وردت في البخاري بشيء من الاختلاف في الكلمات كالآتي: إن النبي ﷺ قال: إنَّ اللَّهَ خَيَّرَ عَبْدًا بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فاخْتَارَ ذَلِكَ الْعَبْدُ مَا عِنْدَ اللَّهِ. قَالَ: فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ، فَعَجِبْنَا لِبُكَائِهِ أَنْ يُخْبِرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ عَبْدٍ خُيِّرَ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هُوَ الْمُخَيَّرَ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ أَعْلَمَنَا. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: إِنَّ مِنْ أَمَنِّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبَا بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلاً غَيْرَ رَبِّي لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الإِسْلامِ وَمَوَدَّتُهُ. لا يَبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ بَابٌ إِلا سُدَّ

إلا بَابَ أَبِي بَكْرٍ (كتاب المناقب، باب قول النبي ﷺ سُدُّوا الأبواب إلا بـــاب أبي بكر).

لم يستطع الصحابة فهْم هذا الكلام التمثيلي، ولكن أبا بكر فهمـــه فأخـــذ في البكاء. يقول الصحابة: لقد ظننا أن النبي ﷺ يتحدث عن عبد آخر خيّره الله تعالى بين البقاء في الدنيا والاستمتاع بلذاتها وبين أن يختار رِفْقته، فـــأيّ داع للبكـــاء؟ فالحديث هنا عن فتوحات الإسلام وانتصاراته، ولكن أبا بكر أدرك بفراســـته أن النبي ﷺ يتحدث عن نفسه، وأنه قد اختار لقاء الله، فكان بكاؤه في محله، فلما رأى النبي ﷺ قلقه عليه طمأنه قائلا: إن أبا بكر أسبق الناس إلى خدمتي بماله ونفـــسه، وإني أحبه بسبب تضحياته وفدائه، وأنه لو جاز لأحد إعطاء مقام منتـــهى المحبـــة لأحد دون الله تعالى، لأعطيته أبا بكر، غير أنه صديقي ورفيقي، وتجمعنـــا قرابـــة أخوة الإسلام ومحبته. ثم أمر أن تُسدّ كل الأبواب إلى المسجد إلا باب أبي بكـــر. وهكذا قد أشاد النبي ﷺ بحب أبي بكر له، لأن حبه الكامل هو الذي نبّهـــه إلى أن وراء نبأ الفتح والنصرة خبر وفاة النبي ﷺ، ومن أجل ذلك لم يلبث أن قال: فديناك بأنفسنا وأموالنا وآبائنا وأولادنا يا رسول الله.

وقد ورد في "إرشاد الساري" (شرح العسقلاني على البخاري) في شرح هـــذا الحديث أن النبي ﷺ ألقى هذه الخطبة قبل ثلاثة أيام من وفاته. مما يعني أنها آخـــر خطبة له ﷺ. ولما كانت سورة النصر هي السبب وراء هذه الخطبة، فلا بد مـــن القول أنها نزلت قبيل وفاته ﷺ، فمن غير المعقول أن تنـــزل في السنة الـــسابعة أو الثامنة، ويعرف من خلالها باقتراب أجله، ومع ذلك يلقي هذه الخطبة بعد أربـــع سنوات من نزولها ثم يتوفى!

لقد ثبت من هذا أن سورة النصر قد نزلت قبيل وفاة النبي ﷺ، أي عند حجة الوداع، فأدرك النبي ﷺ بها أن أجله قريب، كما أكد ذلك الوحيُ أيضا، فـــأخبر النبي ﷺ صحابته بذلك بعد وصوله إلى المدينة، ففارقهم إلى الله تعالى بعد أيام.

وفي التفاسير روايات أخرى تؤكد هذا، فقد ورد في "روح البيان": قال عليّ ﷺ: لما نزلت هذه السورة مرض رسول الله عليه السلام، فخرج إلى الناس فخطَب فيهم وودّعهم، ثم دخل المترل، فتوفي بعد أيام.

لقد تبيّنَ من هذه الرواية أيضا أن هذه السورة نزلت في أواخر حياة النبي ﷺ. إن معظم المفسرين قد أعرضوا عن هذه الحقيقة الواضحة مقلّدين بعضهم بعضًا، واعتبروا هذه السورة مما نزل في السنة الثامنة أو قبلها قليلا. فقد كتب الرازي: "الأصح هو أن السورة نزلت قبل فتح مكة." وقال صاحب روح البيان: "إن السورة نزلت قبل فتح مكة، كما عليه الأكثر."

والحق أنهم لم يفضِّلوا الروايات القائلة بنزول سورة النصر قبْل الفتح على الروايات الأخرى بعد تفحّصها وتمحيصها، وإنما قالوا بذلك لأنهم واجهوا مشكلة لم يستطيعوا حلّها؛ ذلك أن من قواعد العربية أنه إذا دخل "إذا" على الماضي أفاد معنى الاستقبال عادة، وقد قال الله تعالى هنا ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، فاعتبر المفسرون هذه الآية تتحدث عن فتوحات الإسلام المستقبلية حيث يدخل الناس فيه أفواجًا. ولما كان ضروريا أن تسبق النبوءةُ الحادثَ الذي تنطبق عليه، فاعتبروا قوله تعالى ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ نبوءةً تشير إلى فتح مكة، وفسروا قوله تعالى ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ بدخول الناس في الإسلام بكثرة بعد هذا الفتح. ولو أن المفسرين اعتبروا هذه السورة قد نزلت قبل حجة الوداع، لما كانت فيها أية نبوءة عندهم، لأن حادث الفتح قد سبَق حجة الوداع، إذ كانت هذه الحجة في السنة العاشرة بينما كان فتح مكة في السنة الثامنة. فما كان أمام المفسرين سبيل لحلّ هذه المعضلة إلا أن يعتبروا نزول سورة النصر سابقًا لفتح مكة؛ إذ إن الفتح المذكور فيها هو فتح مكة عندهم (فتح البيان). إذن، فكانوا مضطرين للقول بنزولها قبل الفتح، وإلا لم يصحّ تفسيرهم.

مع أنه ليس ضروريا أن يراد بالنصر والفتح هنا فتح مكة، لأن القرآن الكريم قد أنبأ عن هذا الفتح بوضوح تام في آيات عديدة أخرى، فما كان بعدها حاجة لإنزال سورة بعينها للإشارة إلى فتح مكة خاصة. فمثلا قد أنبأ الله تعالى عن فتح

مكة بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾(القصص:٨٦).. أي يا محمد، إن ربك سيعود بك إلى مكة ثانية. والبديهي أن الرسول ﷺ ما كان ليرجع إلى مكة -التي كان العدو مستوليا عليها- إلا بفتحها.

كذلك قال الله تعالى لرسوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ (الإسراء: ٨١). وهذا دعاء قد علّمه الله رسوله ﷺ بالوحي، واللهُ لا يعلّم بوحيه دعاء إلا إذا كان سيأتي موافقًا للأحداث. لقد علَّمه الله تعالى أن يقول رب اجعلْ خروجي من مكة سببًا لنجاحي وآية خالدة، واجعلْ دخولي مكة سببًا لنجاحي وآية خالدة.

فما دام الله تعالى قد أخبر رسوله ﷺ بفتح مكة قبل نزول سورة النصر بفترة طويلة، فليس هناك مِن داعٍ لاعتبار أن سورة النصر تنبئ عن فتح مكة، ثم لا يمكن اعتبارها دليلاً على فتح مكة، لأن الثابت من الروايات أنها نزلت قبيل وفاة الرسول ﷺ كما بينت آنفًا.

فالحق أن قول الله تعالى ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ كان نبوءةً تتعلق بالزمن اللاحق لوفاة الرسول ﷺ لا بفتح مكة، حيث أخبر الله تعالى أن الفتوحات التي يحرزها محمد ﷺ ليست محصورة في حياته، بل سوف تستمر بعده أيضا. وبالفعل قد بدأت الحرب بين المسلمين وقيصر الروم في عهد أبي بكر، حتى اكتملت هزيمة قيصر الروم وكسرى فارس في عهد عمر رضي الله عنه. فالحق أن الله تعالى قد تحدث في سورة النصر عن الفتوحات التي كانت بعد الرسول ﷺ في عهد أبي بكر وعمر وعثمان -رضي الله عنهم- لأنها هي التي يمكن أن تجلب السكينة له ﷺ وتشفي صدره، لأن الإنسان إذا اقترب أجله قلق بشأن نجاح مهمته واستمرارها بعده، فطمأنَ الله رسوله ﷺ في سورة النصر بألا حاجة للقلق، لأن الفتوحات الإسلامية لن تنتهي بوفاته، بل ستستمرّ بعده، وسوف يصبح الإسلام غالبا في العالم. غير أن الله تعالى أمره ﷺ أن يدعو من أجل المسلمين الجدد الذين يدخلون في دين الله أفواجًا لكي تتم تربيتهم بأحسن وجه، ولا يسبّب دخولهم في الإسلام إلى وضْع أساسٍ للفساد، وإذا حصل خللٌ، هيّأ الله الأسباب لإصلاحه.

قال القسيس "ويري" في تفسيره للقرآن الكريم أن سورة النصر قد اختُلقت في مكة -كما تذكر بعض الروايات أنها نزلت بعد غزوة حنين- وإنْ كانت تشبه السورَ المدَنية أسلوبًا. ثم إن هذا القسيس ينقل رأي المستشرق "نولدكه" بأن سورة النصر قد لُفّقتْ حين كان محمد (ﷺ) قد أعدَّ عُدّته للإغارة على مكة، وكان واثقًا بقوته، ويرى آثار انتصاره، ولذلك نجد هذه السورة تكشف أمل نجاح دينه. ثم يقول "ويري" أننا نتوصل بهذه الأمور إلى أن هذه السورة قد نزلت في السنة الثامنة للهجرة.

إن المستشرقين والقسيسين يرون أن القرآن الكريم ليس من وحي الله تعالى، بل هو من اختلاق محمد -والعياذ بالله- ولذلك يحكمون على كون سوره مكيةً أو مدنيةً بناءً على أسلوبها (تفسير القرآن للقس "ويري"). والواقع أن هؤلاء لا يعرفون من العربية ما يساعدهم على التوصل إلى نتائج سليمة بالنظر في عبارة القرآن الكريم، دَعْ عنك أن يعرفوا من أسلوب سوره أنها مكية أو مدنية. إنما هو مجرد ادعاء فارغ. عندهم معيار واحد لاعتبار السور مكيةً أو مدَنية بناءً على أسلوبها، وهو أن السور التي آياتها قصيرةٌ ومسجّعة هي مكية عندهم، والسور التي آياتها طويلة وغير مسجّعة هي مدَنية عندهم. مع أن القرآن نفسه يبطل معيارهم هذا، فسورة "نوح" مكية، ولكن آخر آية فيها طويلةٌ نسبيًا. ثم إن سورة الدهر (الإنسان) مدَنية، ولكن آياتها مسجّعة وليست بطويلة أيضا. ثم إن سورة الأنفال مدَنية يقينا، بل قد نزلتْ قريبا من فتح مكة، ولكن فيها آيات يجب اعتبارها مكيةً بحسب مَبدئهم المزعوم هذا، كقوله تعالى ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ (الأَنْفال:٤٣).

فالحق أن زعمهم بمعرفة زمن السور القرآنية بأسلوبها زعمٌ باطل، فهو ليس بقاعدة سليمة، كما أنهم لا يعرفون من العربية ما يجعل قولهم هذا معقولا. الحق أن القسيس "ويري" حين لم يجد سورة النصر موافقةً لمعياره المختلق، قال إنها لُفِّقتْ في مكة، وإن كانت تشبه بأسلوبها السور المدنية.

الحق أن القرآن الكريم كتاب أنزله العليم الخبير، وليس من اختلاق بشرٍ، كما أن أسلوب بيانه لا يتغير بنزوله في مكان معين. الواقع أن تقدير سوره مكيةً أو مدنيةً بالنظر في أسلوبها لطريقةٌ خاطئة يتّبعها المستشرقون.

لقد نقل "ويري" قول "نولدكه" أيضا بأن هذه السورة قد لُفِّقتْ حين كان محمد (ﷺ) قد أعدَّ عدّته للهجوم على مكة، وكان واثقا من نجاحه، وكأنه يريد أن يقول بأن محمدا (ﷺ) قد أعلن نجاحه برؤية الظروف المواتية. الحق أن رأيه هذا منشؤه التعصب فقط؛ فإذا كان النبي ﷺ قد قام بتأليف هذه السورة من عنده برؤية الظروف المواتية -والعياذ بالله- فكيف علم حتى في أوائل الفترة المكية أن معارضته ستشتد وتبلغ الذروة حتى يضطر للهجرة من مكة، ثم يدخلها فاتحا بعد فترة، ولكنه لن يتخذها مركزا له، بل سيرجع إلى المدينة ثانية ليقيم فيها؟ إن الإنسان لا يعرف هل سيعيش غدًا أم لا، فكيف استطاع محمد رسول الله ﷺ أن يتنبأ -بهذا التحدي- عن تلك الأحداث التي لا يمكن أن تخطر بالبال؟ فمثلاً قال الله تعالى في سورة البلد -وهي مكية، ويعتبرها المستشرقون من أوائل ما نزل في مكة-: ﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾(البلد:٢-٣) (تفسير القرآن للقس "ويري")، فأنبأ الله تعالى هنا عن هجرة محمد ﷺ من مكة، ثم عودته إليها فاتحا، وإقامته فيها مؤقتا. كذلك قد أنبأ الله تعالى في سورة القصص -وهي مكية- عن هجرة الرسول ﷺ ثم قال مباشرة: ﴿إِنَّ الذي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ (القصص:٨٦).. أي أن ربك سيعود بك إلى مكة فاتحا.

وكل هذه أمور غيبية من المستحيل أن يعرفها الإنسان بالقياس والتخمين، ولا يمكن أن تخطر ببال أحد. وعليه فلا بد من القول إن رسول الله ﷺ كان على صلة بالله العليم الخبير، وهو الذي قد أخبره بها. والأمر لا ينحصر في نبأٍ أو اثنين، بل هناك عشرات النبوءات التي ذكرها القرآن الكريم، وكل من لم يُعْمِه التعصب إذا تدبر فيها قليلاً فلا يملك إلا الاعتراف بأن محمدا ﷺ هو رسول الله حقا.

خذوا مثلاً غزوة الأحزاب، حيث جاءت فيها كل القبائل العربية للهجوم على المدينة بعدد هائل، ولم يكن المسلمون يساوون مقابلهم شيئا، ولكن الله تعالى

حماهم، حتى هرب الأعداء بأنفسهم دون أن يضرّوا المسلمين شيئا. وكان الله تعالى قد أخبر النبي ﷺ بكل هذه الأمور سلفًا وهو في مكة، حين لم يكن ليخطر ببال أحد أنه ﷺ سيهاجر منها، ثم ستقع الحروب بين الطرفين، حتى يجتمع العرب كلهم بكل قواهم للقضاء على المسلمين، ولكنهم سيُهزمون. وقد أخبر الله تعالى رسوله ﷺ بذلك في سورة القمر -هي سورة مكية- فقال: ﴿سَيُهْزَمُ الجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾. عندما كان المسلمون يحفرون خندقًا حمايةً لهم قبيل غزوة الأحزاب، ظهرتْ صخرة عند الحفر و لم يستطيعوا كسرها، فأُخبر النبي ﷺ، فجاء لكسرها، فضربها بالمعول، فخرجت شرارةٌ فكبَّر، فضرَبها ثانيةً، فخرجت شرارة أخرى فكبّر ثانية، ثم ضربها مرة ثالثة، فخرجت شرارة فكبّر. فسأله الصحابةُ: يا رسول الله، لماذا كبّرت في كل مرة؟ قال ﷺ: لقد أُريتُ في المرة الأولى قصورَ كسرى، وأخبرَني جبريل أن أمتي ستستولي عليها، وأُريتُ في المرّة الثانية القصورَ الحمراء للرومان والشاميين، وأخبرتُ أنها ستقع في قبضة أمتي، وأُريتُ في المرة الثالثة قصورَ صنعاء، وأُخبرت أن الله تعالى سيعطيها المسلمين. (الكامل لابن الأثير: الأحداث في السنة الخامسة من الهجرة، والبداية والنهاية: ج٤، عزوة الخندق)

قد أخبر الله تعالى نبيه ﷺ بهذه الفتوحات حين لم يكنْ بوسع أحد أن يتصورها. ثم وقعت بعد ذلك أحداث يستحيل فيها انتصاره ﷺ حتى قال المنافقون ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إلا غُرُورًا﴾(الأحزاب:١٣)، وقالوا للمسلمين ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾(الأحزاب:١٤).. أي قد ضاقت عليكم الأرض وانتهى أمركم؛ إذ لا قِبل لكم بقبائل العرب كلها، فارجعوا إلى دين آبائكم. ومع ذلك تحقق ما قال الرسول ﷺ وبطل ما ظنّه الظانّون؛ إذ هربت القبائل العربية من أرض المعركة، و لم يستطيعوا أن يضرّوا المسلمين شيئا. ثم وقعت أحداث أدّت إلى فتح مكة وازدهار الإسلام واستيلاء المسلمين على قصور كسرى وقيصر.

فليخبرنا القسيس "ويري" وأمثاله: أهذه الأمور كلها هي مِن قبيل التخمين والقياس؟

ولندَعْ هذه النبوءات جانبًا، إذ قد يقول معاند أنها من اختلاق محمد (ﷺ)، ولكن ماذا سيقول هؤلاء عن الأنباء التي أدلى بها النبي ﷺ عن الزمن الأخير؟ فمثلاً قد أنبأ ﷺ أنه سيأتي على المسلمين زمان يكونون فيه مسلمين بالاسم فقط، وتنتهي حكوماتهم، وتنتشر المسيحية في العالم، ولكن الله تعالى في النهاية سيبعث المسيح والمهدي ليجعل الإسلام غالبًا مرة أخرى (انظر: مشكاة المصابيح، كتاب العلم وشعب الإيمان للبيهقي). فليخبرْنا القسيس "ويري" وأنصاره كيف عرف محمد ﷺ هذه الأمور الغيبية؟ فثبت أن كل ما ذكره الرسول ﷺ من نبوءات، إنما كانت من تعليم علام الغيوب، وما كانت تخمينًا وتلفيقًا منه. فقولهم بأن محمدا ﷺ قد لفَّق سورة النصر بالنظر إلى الأحوال السائدة آنذاك، ليس إلا نتاج التعصب أو سوء الفهم.

لقد قال "ويري" إن زمن سورة النصر هو السنة الثامنة من الهجرة، ولكنه قول غير صائب بحسب تحقيقنا. ولو سلّمنا جدلاً أن هذا هو زمن نزولها، فلا بد من التسليم بأن ما قاله محمد ﷺ قد تحقّقَ فعلاً، وأن ما ذكرتْه سورة النصر بأن الناس سيدخلون في دين الله أفواجًا، قد وقع في السنة التاسعة والعاشرة للهجرة، مما كان دليلا واضحا على أن محمدا ﷺ كان رسول الله حقًّا.

الترتيب والربط: وليكنْ معلوما أن سورة النصر لها صلة خاصة بعصر الرسول ﷺ طبقًا لترتيب مواضيع السور الذي ذكرته من قبل. لقد قلت مرارًا أنه يتضح من مضامين السور الأخيرة مِن جزء (عم) أن سورةً منها تشير إلى البعثة الأولى للنبي ﷺ، بينما تشير السورة التالية لها إلى بعثته الثانية، وقد بدأ هذا الترتيب من سورة "البيّنة"، التي تشير إلى البعثة الأُولى للنبي ﷺ، بينما تشير السورة التي تليها -وهي سورة الزلزلة- إلى بعثته الثانية، وهلمّ جرًّا. ولكن هذا لا يعني أن السورة التي تتحدث عن الزمن الأول للإسلام لا تتحدث عن الزمن الأخير له مطلقا، أو أن السورة التي تتحدث عن الزمن الأخير للإسلام لا تتحدث عن الزمن الأول إطلاقًا.

كلا، بل كل سورة تتحدث عن العصرين عمومًا، غير أن إحداها تركّز على الفترة الأولى للإسلام خاصة، والأخرى على الفترة الأخيرة له.

وقد قلت من قبل إن سورة "الكافرون" تتحدث عن البعثة الثانية للرسول ﷺ خاصة، أي أن مضموها أكثرُ انطباقا على الزمن الحالي، وعليه فموضوع سورة النصر يجب أن ينطبق على عصر الرسول ﷺ أكثر.

إن أول صلة لسورة النصر بسورة الكافرون هي أن الله تعالى قد أمر رسوله ﷺ وأتباعَه في سورة الكافرون أن يعلنوا للكافرين بأن من المحال أن يعبدوا آلهة الكافرين ويتّبعوا طريقة عبادهم، كما أن الكافرين لن يتركوا طريقة عبادهم. وقد جاءت سورة النصر بعد سورة الكافرون لتشير إلى موضوع لطيف؛ بيانه أن الإسلام سوف يحرز فتوحات عظيمة عن قريب، وسيرى محمد ﷺ وأتباعُه بأُمّ أعينهم أن الله تعالى قد أيّد موقفهم، فكيف يمكن بعدها أن يتّبعوا الطريق الذي لا يؤيّده الله؟ ثم إنه طريق ثبت فشله. كذلك حين يرى الكفار بأم أعينهم أن حزبهم قد تشتّتَ، وأن رجالهم الأكفاء قد انضموا إلى محمد ﷺ، فسيدفعهم ضميرهم للدخول في الإسلام، وإن كانوا يحبون الشرك بطبيعتهم. سيضطرون لاتّباع طريقة عبادة المسلمين في الظاهر، ولكنهم سيفعلون ذلك نتيجة معجزة يُريها الله تعالى، وليس عن رضا وطواعية، إذ لو أهم خُيِّروا لاتّباع ما يرضيهم فما كانوا ليتبعوا طريقة عبادة الإسلام، بل لآثروا تقليد ما وجدوا عليه آباءهم.

وهناك علاقة أخرى بين آخر آية من سورة الكافرون وسورة النصر، وهي أن الله تعالى قد قال في آخر سورة الكافرون ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.. أي أيها الكافرون، إن مفهوم الدين.. أيْ الغلبة.. عندكم، هو أنّ مَن حادَ عن دينكم قليلا حملتم عليه السلاح أو العصا لضربه بل وقتْلِه، لتقهروه على عبادة أصنامكم وآلهتكم. ولكنها ليست غلبةً عند الإسلام، بل هزيمة، إنما الغلبة عند الإسلام تقديم براهين تفتح القلوب وأدلةٍ تقنع العقول، حتى يستسلم العاقل أمامها ويرضى بالطاعة والانقياد عن طيب نفس إلى الأبد، وبدلاً من اللجوء إلى الجبر والإكراه في أمر الدين. فيجب تقديم الأدلة والبراهين، ويجب أن يعطى المرء حرية كاملة في

اعتناق ما يشاء. لقد استخدمتم أيها الكافرون سلاحكم، واستخدم المسلمون سلاحهم، وستظهر النتيجة بعد أيام، حيث ترون أن قومكم كلهم سيتركونكم ويُقبلون على محمد أفواجًا مع لجوئكم إلى الجبر والإكراه. وواضح أنه إذا دخل قومُكم في الإسلام، فلا حاجة للمسلمين أن ينضموا إليكم، وهكذا يعرف الجميع صدق ما ادعاه القرآن في آخر سورة الكافرون بأن نظرية المسلمين تختلف عن نظرية الكافرين، وستثبت الأيام صدق نظرية المسلمين التي تقول أن الذين ينتصرون بالدليل والبرهان هم المنتصرون، وأن الذين يلجأون إلى السيف والعصا هم المنهزمون.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

نصْر: نَصَرَ المظلومَ نصرًا: أعانَه؛ ونصَر فلانا على أعدائه ومِن عدوّه: نجّاه منه وخلّصه وأعانه وقوّاه عليه. (الأقرب)

الفتح: فتَحَ الحاكمُ بين الناس: قضى؛ وفتَح السلطان دارَ الحرب: غلب عليها وتملَّكَها؛ وفتَح: جَدَّ وأقبلت عليه الدنيا؛ وفتَح الله على نبيّه فتحًا: نصَره.

وقال الإمام الراغب: "الفتح إزالةُ الإغلاق والإشكالِ" (المفردات).

وعليه فقوله تعالى ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ يعني: إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وعونه، سيزيل الله كل عائق يحول دون اتّباع الكفار لطريقة العبادة في الإسلام، فيدخل الناس في الإسلام أفواجا؛ لأن طبائع الكفار ستُبدَّل ويفتح الإسلام قلوبهم.

التفسير: لقد ذكرتُ من قبل أن هذه السورة نزلت قبل وفاة الرسول ﷺ بسبعين يوما فقط، وأن الله تعالى قد أخبره مع نزولها أن أجله قريب. والإنسان إذا عَلِم أنه على وشك أن يغادر هذه الدنيا تاركًا وراءه أقاربه وأعزّته، أصابه القلق

بشأنهم، ولكنْ ما كان الرسول ﷺ ليحزن بشأن ذوي القرابة المادية، لما بوّأه اللهُ مِن مكانة روحانية عظيمة، وإنما كان يخاف على أمته أن تُصاب بفتنة، وإذا أصيبت فما السبيل لخلاصها منها. ثم إن من الطبيعي أن أتباع النبي يصابون بالهلع عند وفاته عادةً ويعتبرونها في غير أوانها، وأعداء النبي أيضا يقولون أنه تمكّنَ من إدارة أموره في زمنه، ولكن هذه الغرسة التي غرسها سوف تموت بموته. فأنزل الله سورة النصر ليُطَمْئن نبيَّه ﷺ بأن لا داعي للخوف على أمته، لأن الفتوحات والانتصارات التي وقعت في زمنه لن تتوقف بموته، بل سيتسع نطاقها باستمرار، وإذا كان الناس قد دخلوا في الإسلام بالمئات الآن، فسوف يدخلون بعده بالآلاف، وسيرتوي الناس من نبْعه فوجًا بعد فوج، وسيقيم الله تعالى بعده رجالا ينهضون بأمته، ولن تقضي عليها الفتن، وأن الله تعالى سيدمر فرحة المعارضين الذين يظنون أن جماعته ﷺ ستموت بموته، كلا، بل سوف يكتب الله للإسلام ازدهارًا تلو ازدهار، وسيزيل العراقيل كلها كلية.

إذن، فإن الله تعالى قد ربط على قلب رسوله ﷺ في سورة النصر من ناحية، ومن ناحية أخرى هدّأ مِن رَوع أتباعه ﷺ بأن لا يصابوا بالهلع والذعر عند وفاته، فإن الله الذي كتب لنبيه ﷺ النجاح هو إلهٌ حيّ لا يموت، وسيحافظ على أمته بعد وفاته، بل سوف يؤيد بنصره أصحابَه -الذين يصيرون بوفاته كالأيتام- أكثر من ذي قبل، ويفتح لهم أبواب عونه على مصراعيها، حتى يدخل الناس في الإسلام أفواجا برؤية تأييد الله ونصرته هذا، وسيقوم ملكوت الله في العالم، وتشرق الأرض بنور وحدانية الله، كما أن الله تعالى سوف يقضي على فرحة المعارضين الزائفة.

وقد تحقَّق هذا الوعد الربانيّ بما لا يجد بعده شخص غير متعصب إلا الاعتراف بأن محمدا ﷺ رسول الله حقا. فإننا نرى أنه لما توفي النبي ﷺ انهار صحابي شجاع مثل عمر رضي الله عنه أيضا، من شدة الصدمة والخوف، إذ ظنّ الصحابة أن وفاة النبي ﷺ قد سبقت أوانها. ثم ظهرت بوادر الفتنة عند انتخاب خليفة الرسول ﷺ أيضا، لأن الأنصار أرادوا الخليفة منهم، بينما رأى المهاجرون أن العرب لن يرضوا بخليفة إلا من قريش. ففرح المعارضون من يهود وغيرهم برؤية هذا المشهد، وظنوا أن

الإسلام قد انهار وانتهى، ولكن الله تعالى نهض بالأمة الموشكة على الانهيار، وأقام بينهم سيدنا أبا بكر ﵁ ليأخذ زمام أمورهم بيده، وأمال إليه قلوب الأنصار مع أنهم أرادوا أن يكون الخليفة منهم.

وما كاد شمل المسلمين أن يلتئم حتى ارتدت بعض القبائل وأعلن رؤساؤها استقلالهم عن الدولة الإسلامية، وظهر العديد من المتنبئين، كما رفضت بعض القبائل أداء الزكاة، بالإضافة إلى اختلاف الصحابة في بعث جيش لمحاربة الروم، إذ كان الرسول ﷺ قد أراد في مرضه الأخير بعْثَ جيش تحت إمرة أسامة بن زيد ليأخذ ثأر أبيه زيد بن حارثة وغيره ممن استشهدوا في غزوة مؤتة، ولكنه ﷺ توفي قبل خروج الجيش. والحق أن الشجاع قوي القلب أيضا يصاب بالهلع برؤية هذه الظروف الحرجة والأخطار المحدقة والأهوال الهائلة، ولكن الله تعالى أنزل سكينته على أبي بكر ﵁، فلم يصبْه خوف ولا هلع، بل ظلَّ واثقًا كل الثقة بتحقق وعد الله تعالى؛ وبأن السماء والأرض يمكن أن تزولا، ولكن لا تبديل لكلمات الله، ذلك لأن قوله تعالى ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ كان يرفع من معنوياته ﵁. لقد أشار عليه الصحابة ألا يبعث جيش أسامة لمحاربة الروم في هذه الظروف الحرجة، بل يقضي أولاً على الفتن الهائجة داخل البلاد من قبل المرتدين ومانعي الزكاة والمتنبئين الكذابين، ولكنه ﵁ رفض رأي الصحابة بشدة قائلا: كيف يحقّ لأبي بكر أن يمنع الجيش الذي أمر الرسول ﷺ ببعثه؟ سيسير هذا الجيش حتى ولو أغار العدو على المدينة وجرّت الوحوشُ جثثَنا في شوارعها. (البداية والنهاية: ج ٦ فصل في تنفيذ جيش أسامة بن زيد)

هذه الكلمات لا يمكن أن تخرج إلا من فم إنسان قد غمر قلبَه اليقينُ بأن غلبة الإسلام قدَر مقدور لن يزول وإنْ عارضته قوى العالم كله.

من أين نال أبو بكر ﵁ هذا اليقين والثبات والشجاعة؟ إنما أنزل عليه هذه السكينةَ ربُّ السماء الذي طمأنَ نبيه ﷺ عند وفاته ألا يحزن، لأن ملائكة الله ستنزل بعده بالنصر والفتح دائما إلى أن ترفرف راية الإسلام عاليةً في العالم كله.

لقد أرسل سيدنا أبو بكر ﷺ جيش أسامة إلى الشام معارضًا بذلك رأي الصحابة، فرجع الجيش بعد ٤٠ يوما منتصرا، ورأى المسلمون بأعينهم نصر الله نازلاً من السماء. ثم بعدها انصرف أبو بكر إلى المتنبئين الكذابين وقضى على فتنتهم نهائيا. ولقي المصير نفسه أهل الردة أيضا. أما الذين رفضوا أداء الزكاة فكان عددهم كبيرا، وكان الصحابة يخالفون رأي أبي بكر في محاربتهم قائلين: كيف يمكن محاربة قوم يؤمنون بوحدانية الله والرسالة لمجرد إنكارهم أداء الزكاة؟ فقال أبو بكر بكل شجاعة: واللهِ، لو منعوني عقالَ بعير كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لحاربتهم عليه. فلما رأى عمر إصرارَ أبي بكر على ذلك، اعترف بصحة رأيه، وأدرك أنه لو سُمح لهؤلاء بعدم أداء الزكاة اليوم، فإن الناس سيتجرَّءون على الدعوة إلى ترك كل أحكام الإسلام من صلاة وصوم شيئا فشيئا، فلن يبقى من الإسلام إلا اسمه* فحارب أبو بكر ﷺ منكري الزكاة في تلك الظروف الحالكة المخيفة، وخرج من هذا الموطن أيضا فاتحا منتصرا، ورجع المنحرفون كلهم إلى الصواب.

الواقع أنه لولا أن الإسلام من الله تعالى ولولا أن محمدا ﷺ من رسل الله المصطفَيْن الصادقين، لقضت هذه الأحداث على المسلمين، وإلا فكيف خرج المسلمون من النيران الملتهبة ومن فم الموت سالمين؟ وكيف حالفَهم الفتح والنصر في كل موطن؟ إنما سببه ذلك الوعد الذي وعد به رسوله ﷺ بألا يخاف على قومه من بعده، لأنه تعالى سوف يأخذ بأيديهم ويجعلهم غالبين في كل موطن.

ولم تنته الفتن الداخلية حتى نشبت الحرب بين المسلمين وبين دولة الفرس التي كانت قوية ومتقدمة جدا، وكان لديها الكثير من الجيوش المدربة والعدة والعتاد، وكان المسلمون إزاءها كالعصفور مقابل الصقر، ولكن ما إنْ بدأت المعارك في

* كان القصد مِن تركهم لتأدية الزكاة إلى الخليفة إعلان التمرد عليه وعدم الإقرار بشرعيته؛ وهذا كان مقدمة لنقض الإسلام ومحاربته وتحريض الناس على تركه. (المترجم)

العراق حتى مُني الفرس بهزيمة بعد هزيمة في كل موطن. و لم ينتهِ المسلمون من قتال الفرس حتى نشبت الحرب بينهم وبين الروم في الشام ومصر، فاضطروا لتوزيع جنودهم إلى دمشق والأردن وحمص وفلسطين، إذ اضطرمت نيران الحرب في كل جبهة. ومرض أبو بكر ﷺ وتوفي إلى رحمة الله في مثل هذه الظروف الحرجة، فأخذتْ نصرة الله بيد عمر ﷺ وبوّأته مقام الخلافة، وظلت الحروب محتدمة في كل مكان في عهد خلافته، حتى اضطر المسلم الواحد أحيانًا لمحاربة ألف من الأعداء. لقد داست جيوش المسلمين البالغة عدةَ آلاف فقط جيوشَ الأعداء البالغة مئات الآلاف، وخرجوا من كل معركة منتصرين، وقضوا على الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية القويتين، رافعين راية الإسلام مرفرفةً عاليًا في مصر والشام وفلسطين وحتى ثغور الهند وشمال إفريقيا. وفي عهد عثمان ﷺ لم يزل المسلمون يتقدمون كالسيل الجارف حتى فتحوا خراسان وأفغانستان والسند ومناطق شمال إفريقيا كطرابلس وتونس والمغرب والجزائر وغيرها، حتى بلغوا ثغور البلاد الأوروبية وداست خيولهم كل هذه الأقطار.

الحق أن هذه الانتصارات كلها كانت تحقيقًا لوعد الله تعالى ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، فلولا أن محمدا ﷺ هو رسول صادق لما استطاع المسلمين لَمَّ شملهم، دَعْ عنك أن يحرزوا المزيد من الانتصارات بعده ﷺ. إنهم لم يظلّوا بعده ﷺ متحدين على يد واحدة فقط، بل حالفهم الفتح في كل موطن. لقد وقع كل ذلك بحسب ما وعد الله رسوله قبيل وفاته ﷺ.

والجدير بالذكر هنا أن لفظ الفتح قد جاء هنا معرفًا باللام، ومن قواعد العربية أن اللام تفيد التعريف.. أي أن المخاطَب يعرف الأمر المذكور، فإذا قلتَ مثلا: رجلٌ، فتعني أي رجل، ولكن إذا قلت: الرجل، فتعني شخصا معينا تعرفه والمخاطب أيضًا، وعليه فقوله تعالى ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ يعني أن محمدا ﷺ يعرف هذا الفتح الذي يوعد به جيدا. وهذا المعنى صحيح تماما، لأن الله تعالى قد أراه مشاهد هذا الفتح في الكشف، وبشّره أن المسلمين سيفتحون بلاد الفرس والروم عن قريب. فمثلاً عندما خرج الرسول ﷺ مهاجرا من مكة كان "سراقة"

يطارده بنية شريرة، ولكن الله تعالى حفظ رسوله إذ غاصت قوائم فرس سراقة في الرمال مرة بعد أخرى، فناداه النبي ﷺ وقال: يا سراقة، إني أرى في يدك أسورة كسرى مَلِكِ الفرس. وسراقة لم يؤمن عندها بل آمن فيما بعد، وقد كانت أسورة كسرى من بين الغنائم التي أتت في عهد عمر ، فألبسها سراقة.

ثم عندما كان المسلمون يحفرون الخندق لحمايتهم من العدو في غزوة أحد، ظهرت صخرة لم يستطيعوا كسرها، فأُخبر النبي ﷺ فجاء بمعوله وضربها ثلاث مرات، وفي كل مرة كبّر حتى انكسرت، فقال لصحابته: أتعلمون لماذا رفعتُ هتاف التكبير في كل مرة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: عندما ضربتُ الضربة الأولى تراءت لي قصور كسرى وأُخبرت أن أمتي ستفتحها فكبّرت. ثم لما ضربت الضربة الثانية ظهرتْ لي قصور الروم والشام الحمراء وأُخبرت أنها ستقع في قبضة أمتي، فكبرتُ. ثم في المرة الثالثة أُريت قصور صنعاء، وبُشّرتُ أن أمتي ستستولي عليها.

فالحق أن رسول الله ﷺ كان على علم بكل هذه الفتوحات التي وقعت في عهد أبي بكر وعمر وعثمان -رضي الله عنهم- إذ رآها في الكشف، ولذلك قد أُدخلت لام التعريف على "الفتح" هنا، حيث قال الله لرسوله يا محمد، عندما يأتي نصر الله الخاص وتقع هذه الانتصارات الموعودة التي رأيتَها في الكشف، سيدخل الناس عندها في دين الله أفواجا.

ويمكن أن تكون اللام في ﴿الفتح﴾ للكمال، والمعنى: إذا جاء الفتح الكامل.

وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٣﴾

شرح الكلمات:

رأيتَ: رأى يرى رؤيةً: نظَر بالعين أو بالقلب. (الأقرب)

أفواجًا: الفوج: الجماعةُ من الناس؛ أو الجماعةُ المارّة السريعة. ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾.. أي طائفة بعد أخرى. (الأقرب)

التفسير: قوله تعالى ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ يعني أنه عندما يأتي نصر الله والفتح المعهود وترى الناس يدخلون في الدين طائفة بعد طائفة.

والسؤال هنا: ما دام النبي ﷺ قد تُوفّي، فكيف رأى الناس دخلوا في دين الله أفواجا في عهد خلفائه؟

والجواب: لقد ذكرنا عند شرح الكلمات أن الرؤية لا تعني الرؤية بالعين فحسب، بل تعني أيضا رؤية الشيء بالقلب، أو العلم بالشيء، أو رؤيته في الكشف، كما يراد بالرؤية الخبرُ اليقين؛ إذ قال الله تعالى لرسوله ﷺ ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾(الفيل:٢)، مع أن واقعة أصحاب الفيل قد وقعت قبل ميلاده ﷺ؛ فالرؤية قد وردت هنا بمعنى العلم القطعي اليقيني. وعليه، فقوله تعالى ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ يعني أن الله تعالى سيريك بالكشف حتمًا مشهد دخول الناس في الإسلام أفواجا عندما يأتي نصر الله وفتحه، أو سوف يخلق مقدمات الفتوح القادمة، ليزيد قلبك يقينًا بأن الإسلام غالب حتما.

فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٤﴾

شرح الكلمات:

فسَبِّحْ: سبَّح اللهَ: نزَّهه (الأقرب). فسَبِّحْ يعني: أعلِنْ براءة الله تعالى من كل عيب ونقص.

وَاسْتَغْفِرْهُ: غفَر الشيء غفرًا: ستَره؛ وغفَر المتاع في الوعاء: أدخله وستَره؛ وغفر الله له ذنبه: غطّى عليه وعفا عنه (الأقرب).

وورد في المفردات: الغفرُ: إلباس ما يصونه عن الدنس، ومنه قيل: اغفرْ ثوبك في الوعاء.

وعليه، فقوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ يعني: اسأل الله تعالى أن يغفر ضعفك البشري، أي ادعوه ﷻ ألاّ يتطرق أي فساد في أمتك، بل تظل سائرة على الصراط المستقيم.

التفسير: التسبيح يعني تنزيه الله تعالى من كل عيب ونقص، والحمد يعني الإقرارُ بأن الله تعالى جامعٌ للمحاسن كلها. وعليه، فقوله تعالى ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ يعني: لو توقفَ نصرنا وفتحنا بوفاة محمد، لَحُقَّ للمسلمين أن يقولوا إن الله تعالى لم يكن وفيًّا معنا، كما حُقّ للكفار أن يقولوا إن الفتوحات والانتصارات التي وقعت في زمن محمد إنما كانت تعود إلى عبقريته الشخصية، وتوقُّفها بعد وفاته دليلٌ ساطع على أن الإسلام ليس بدين حق. فتبرئةً لساحته ﷻ من هذين الأمرين، قد أخبر الله تعالى رسوله أنه لن يخذل المسلمين بعد وفاته، ولن يتيح للأعداء فرصة فرحة بإيقاف سلسلة الفتوحات والانتصارات هذه. وما دام الله تعالى قد نزّه ذاته عن هذه التهم المتوقعة بإنزال آيات سورة النصر، فمِن واجبك يا محمد أن تُعلن بين الناس جهارًا براءة الله تعالى من كل عيب ونقص، فلا هو يخذل عباده ولا يتركهم بلا ناصر ولا معين، ولا يخلف وعده. وحيث إنه تعالى قد كتب الغلبة للمسلمين رغم الظروف الصعبة وسوف يجعلهم غالبين في المستقبل أيضا، فحريٌّ بكم أن تتغنّوا بحمده وتعلنوا بين الناس أنه جامع للمحامد والمحاسن كلها.

لقد قال الله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، و لم يقل: "فسبِّحْ بحمد الله"، ذلك أن "الرب" يعني مَن يطوِّر الشيء مِن حالة أدنى إلى حالة الكمال، فكأن الله تعالى قد بين باستعمال كلمة ﴿رَبِّكَ﴾ أنه يستحق الحمد، إذ نهض بالمسلمين مِن ضعفهم وجعَلهم سادة العالم؛ فمَنْ تفضّلَ عليهم لهذه الدرجة يستحق الحمد بلا شك.

ثم أشار الله تعالى بلفظ "الحَمْد" إلى أمر هام آخر، وكأنه قال: أيها المسلمون، لا يصيبنكم الزهو برؤية هذه الانتصارات، فلا تظنُّنّ أنكم أحرزتموها نتيجة كفاءاتكم الذاتية، بل كلّ هذا من فضل الله تعالى، فعليكم أن لا تبرحوا تخرّون على أعتابه دائما حامدين له، لكي يزيدكم الله تعالى فضلا على فضل نتيجة شكركم.

باختصار، قد أمر الله تعالى بقوله ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أنْ أيها المسلمون، عليكم أن تعلنوا أن الله تعالى قد أنجز وعْد نصرته لنا، وهكذا أكد براءته من كل نقص، وأثبت أنه الأحقّ بالحمد والثناء.

أما قوله تعالى ﴿وَاسْتَغْفِرْهُ﴾، فاعلمْ أن الغفر هو التغطية أو الصيانة، فالاستغفار يعني الدعاء لطلب الحماية، فكأن المستغفِر يدعو الله تعالى أن يستره بحمايته، فلا ينكشف ضعفه البشري، أو أن يحميه الله تعالى بحيث لا يصدر منه الإثم.

لقد استخدم القرآن الكريم لفظ الاستغفار بمفاهيم واسعة، منها أن يسأل العبد ربه ﷻ أن يحميه من عقوبة ما صدر منه من المعاصي، وقد ورد الاستغفار بهذا المعنى بكثرة في القرآن الكريم، وهذا استغفار عامة المؤمنين. أما المؤمنون الكاملون فاستغفارهم يعني أنه إذا صدر منهم تقصير في إصلاح القوم فيغضّ الله عنه النظر ويعوّضه.

لقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ هنا بالاستغفار قائلا: ﴿وَاسْتَغْفِرْهُ﴾، بينما قال له في مواضع أخرى: ﴿واسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾، فينشأ هنا سؤال: بأي معنى كان استغفار الرسول ﷺ؟ فهل كان ﷺ يستغفر لأنه صدر منه بعض الآثام، فأمره الله تعالى أن يدعوه أن يقيه من عقوبتها؟ أم أن لاستغفاره مفهوما آخر؟

ما زال المسيحيون يعترضون على المسلمين مستدلين بهذه الآيات قائلين: انظروا إن رسولكم، فهو كان آثما ولذلك أُمر بالاستغفار، بينما لم ترِد أي كلمة بهذا المعنى في حق المسيح، فثبت أنه لم يكن آثما (تفسير القرآن للقس "ويري").

وقد واجه المسلمون في الردّ على طعنهم هذا مشكلة كبيرة. لقد حاولوا كثيرا الرد عليهم، ولكنهم لم ينجحوا في ذلك قبل المسيح الموعود عليه السلام، ومن أجل ذلك قد تنصر الآلاف منهم، حتى كان من السادات (الأشراف) من ارتدّوا وتنصّروا. لقد خدعهم المسيحيون بورود لفظ الاستغفار بحق الرسول ﷺ في القرآن الكريم، فوقعوا فريسة لخداعهم، بدلاً من أن يردّوا عليهم.

ولمعرفة مفهوم الآيات التي ورد فيها لفظ الاستغفار بحق الرسول ﷺ، ينبغي أن نضع في الحسبان دائمًا أن الرسول ﷺ قد بُعث لهداية العالم وليجعل الضالين

المنحرفين الذين لا دين لهم أناسًا ربانيين، ولكي يطهر العصاة والآثمين من ذنوبهم ومعاصيهم. وقد بيّن الله تعالى مكانته السامية بقوله ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (آل عمران ٣٢).. أي: أيها الرسول، أعلِنْ بين الناس أنهم إذا كانوا يحبّون الله فعليهم أن يتّبعوك، فيصبحون من أحبّاء الله.

ثم قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾(الأحزاب ٢٢).. أي: أيها المسلمون، إنَّ لكم قدوة حسنة في رسولنا هذا، فإذا أردتم أن تكونوا من عبادنا المقبولين المقربين، فأسهلُ سبيل لذلك أن تتّبعوا هذا الرسول في أقواله وأفعاله وحركاته، لأنها أقوال الله وأفعاله وحركاته؛ فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾(الأنْفال: ١٨).. أي يا محمد، لم ترمِ تلك الحفنة من الحصى، بل إن الله رماها.

ثم وصف الله نبيه ﷺ وقال: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى﴾ (النجم: ٤-٥).

فالنبي الذي يحظى الناسُ باتّباعه بلقاء الله وحبّه تعالى، وجعله الله أسوة حسنة لهم، واعتبر أقواله وأفعاله بمترلة أقوال الله وأفعاله سبحانه وتعالى، يستحيل أن يعني استغفاره أنه قد ارتكب إثمًا، فأَمَرَه الله تعالى أن يدعوه ليقيه من مغبة إثمه؛ ذلك أن الرسول إذا كان هو عرضة للإثم والمعصية، فكيف يأمر الله الناس باتّباعه؟ وكيف يجعله أسوة حسنة لهم؟ مما يدل دلالة واضحة على أنه ﷺ كان متزّهًا عن كل معصية وإثم، ولم يكن استغفاره ليحميه الله تعالى من مغبة الآثام، وإنما كان بمفهوم آخر.

والسؤال هنا: ما هو ذلك المفهوم الذي أُريدَ من استغفار الرسول ﷺ هنا؟

اعلمْ أنّ الله تعالى قد أخبر في أوائل هذه السورة (سورة النصر) أنه سيظل ينصر المسلمين بعد وفاة النبي ﷺ أيضا، وسيفتح عليهم أبواب الفتوحات والانتصارات، وسوف تتبارك الأمم منه ﷺ بعد وفاته، كما كانت تحظى ببركاته في حياته؛ أي قد أخبر الله تعالى نبيّه أن الناس سيدخلون في الإسلام ألوفا مؤلفة في وقت واحد. والبديهي أن قومًا إذا أحرزوا الانتصار، فتنشأ بينهم وبين الأمة المهزومة صلات، وتتسرب سيئات المغلوبين إلى الغالبين، ومن أجل ذلك نجد أن الأمم الغالبة تتأثر

دائمًا بمظاهر الترف والبذخ في البلاد التي تمرّ بها. ثم إن الفتوحات العظيمة تأتي بقوم هم أكثر عددا من الفاتحين بكثير، فيصعب تعليم هذه الأفواج الجديدة ورفْع مستواهم الديني بسرعة، بل إن الأمم المنتصرة تتأثر من سيئات الشعوب المنهزمة عند الاختلاط بها، بدلاً من أن تنفعها بما عندها من خلُق ومُثُل، مما يؤدي بالتدريج إلى نتائج مدمرة. والحق أن زمن تقدُّم أُمة وانتشارها وكثرتها، هو زمن انحطاطها وزوالها أيضا. فكان طبيعيا أن يصاب النبي ﷺ بالقلق عند خبر الفتوحات الإسلامية، فخاف أن تؤدي إلى بداية انحطاط أمته، وأخذه القلق على تربية هؤلاء المسلمين الجدد على ما يرام؟ إذ لن يتيسر لهم أستاذٌ كامل وهادٍ كامل ومزكٍّ عظيم مثل محمد ﷺ. فجوابًا على أفكاره هذه أمَر الله تعالى رسوله ﷺ: ﴿وَاسْتَغْفِرْهُ﴾.. أي يا محمد، لقد أدّيتَ واجب تربية المسلمين وتزكيتهم على أفضل وجه، ومسؤوليتك هذه ستنتهي حينما تعود إلينا الآن، وسنتكفل بأمتك، فلا داعي للقلق. نعمْ، يمكنك أن تعمل ما بوسعك، فادعُ الله تعالى وتوسّلْ إليه بأن لا يحفظ المسلمين ولا ينصرهم فقط، بل يهيئ الأسباب لتربية الجدد منهم، فيجتنب كلهم الزلّةَ والعثار، وإذا تطرّقَ إليهم فساد أو خلل أصلحه الله برحمته.

مما يعني أن استغفار النبي ﷺ ما كان لنفسه، بل كان لأمته، فكان يدعو الله تعالى أن يحفظها، فلا يقع فيها أي فساد روحاني، وإذا وقع، هيّأ الأسباب لإصلاحهم.

ويتضح من الروايات أن الرسول ﷺ كان قد بدأ الدعاء بحسب هذا الأمر الرباني (الدر المنثور)، وقد أكدت الأحداث فيما بعد أن الله تعالى قد استجاب دعاءه، وأصلح كل خللٍ، وقضى على كل فتنة في أمته بُعيد وفاته، كما هيأ الأسباب للقضاء على كل فتنة تقع في المستقبل. فإننا نرى أنه لما وقعت فتنة الردة ومنكري الزكاة قضى الله عليها قضاء لا نظير له، وعاد الإسلام كما كان، ولولا القضاء على تلك الفتنة لما عاد الإسلام إلى نقائه وصفائه.

ثم عندما دخل النصارى بكثرة في الإسلام في زمن انتصاراته وأتوا معهم بعقيدة أن المسيح حي، وأنه البريء الوحيد من الإثم، أما سائر الناس بمن فيهم الرسول ﷺ

فهم آثمون! وقد انتشرت هذه العقيدة المسيحية الخاطئة بين المسلمين على نطاق واسع، حتى انتهزت المسيحية سوء فهمهم هذا للهجوم على الإسلام، مما جعل المسلمين يتنصَّرون، إلى أن أقام الله تعالى سيدنا المسيح الموعود عليه السلام للقضاء على هذه الفتنة الصمّاء ولحماية الأمة بعد الرسول ﷺ بأربعة عشر قرنا، فاستردّ للإسلام مجده الغابر، حتى إن الإسلام -الذي لم يقدر على الدفاع من قبل، بل كان أهله يرتدّون عنه- قد شنّ هجوما مضادا على المسيحية والأديان الأخرى، فانهزمت في هذه المعركة، وأخذ أتباعها يدخلون في الإسلام بكثرة. ويوشك أن يرى كل شخص بأم عينيه غلبة الإسلام المادية، ويرى ضُعْفه قد تحوّلَ إلى قوة. وليس كل هذا إلا نتيجة استغفار الرسول ﷺ ودعائه.

بقي سؤال آخر وهو: إذن، ما هو مفهوم الآيات التي ورد فيها لفظ الذنب مع الاستغفار بحق النبي ﷺ؟ لأن معنى الذنب -كما ورد في القواميس- هو الجُرم، وعليه، فقوله تعالى ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ (غافر:٥٦، ومحمد:٢٠) سيعني: يا محمد، استغفرْ لجريمتك.

أما الجواب: فيجب ألا يغيبنّ عن البال بهذا الصدد ما قلته من قبل بأن رسول الله ﷺ هو النبي العظيم الذي لا يحظى الإنسان بوصال الله نتيجة اتّباعه فحسب، بل يصبح محبوبا عند الله تعالى، ثم إنه ﷺ النبي الذي قد جعله الله تعالى قدوة للعالم، واعتبر أقواله وأفعاله أقوالاً وأفعالاً لله؛ وعليه فمن المحال أن يكون القرآن قد قال في أي مكان إنه آثم. إنه ﷺ قد جاء لإنقاذ العالم من الإثم، ولو كان آثمًا بنفسه، فكيف يخلص الآخرين من الآثام؟ فثبت أن الآيات التي ورد فيها لفظ الذنب بحق الرسول ﷺ، لا يمكن أن تعني -على ضوء ما ذكره القرآن من مكانته ﷺ العليا- أن يكون الرسول ﷺ قد أُمر بالاستغفار بسبب آثام ارتكبها، وإنما كان استغفاره بمفهوم آخر.

ولمعرفة ذلك المفهوم هلمّ ننظر في الآيات كلها التي ورد فيها لفظ الذنب بحقه ﷺ.

والآية الأولى هي قول الله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾(غافر:٥٦).

والآية الثانية هي قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾(محمد:٢٠)

والآية الثالثة هي قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ (الفتح:٢-٣)

وهناك فرق بين ما ورد في آيات سورة الفتح وما ورد في سورتي محمد وغافر، وهو أن الله تعالى قال في سورتي محمد وغافر: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾، بينما قال في سورة الفتح: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ﴾.. أي أن الله تعالى قد غفر لك كل ذنوبك.

ولفهم هذه الآيات، يجب أن نتوجه أولاً إلى المعاجم التي ورد فيها: "الغَفْر هو التغطية"، بينما ورد عن الذنب: "ذَنَبَه ذنبًا: تلاه فلم يفارق أثره. وذنَّب العمامةَ: أفضلَ منها شيئا وأرخاه." (الأقرب)

إذن، فالذنب: هو ما يأتي فيما بعد، أو هو الشيء الزائد، وعليه، فغَفْرُ الذنب يعني تغطية الشيء الزائد أو تغطية مفاسد الأحداث الآتية، ومن ثم فإن استغفار الرسول ﷺ لذنبه يعني: أن يدعو الله تعالى بالتوفيق لحمل أمور النبوة التي تفوق طاقته البشرية، أو أن يستر الله على مفاسد الأحداث الآتية.

والتدبر في آيات هذه السور الثلاث -التي ورد فيها الذنب بحق الرسول ﷺ- يكشف لنا أمرًا عجيبا يحلّ ما في هذه الآيات من إشكال حلاًّ لا يُبقي هناك أي اعتراض. ذلك أن كل هذه الآيات تتحدث عن هلاك أعداء النبي ﷺ وانتصاره عليهم.

فأُولى هذه السور هي سورة غافر -وهي مكية- وقال الله فيها: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾.. أي يا محمد، اصبرْ على أذى العدو وانتظرْ اليوم الذي تنتصر عليهم، فيصبحون نادمين، واعلمْ أن وعد الغلبة هذا يتحقق حتمًا، وسوف تفتح مكة أيضا، فاستغفرْ لذنبك.

وسبق هذه الآياتِ قول الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ * وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ * هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (غافر:٥٢-٥٥).

وكما قلت من قبل، فقد نزلت هذه الآيات في مكة حين كان المسلمون عرضةً للتعذيب الشديد، فقال الله لهم: أيها المسلمون، لا تضيقوا ذرعًا، واعلموا أننا ننصر رسلنا والمؤمنين بهم في هذه الدنيا، وسننصرهم يوم الفصل حين يقوم الشهود للإدلاء بشهاداتهم، يومئذ لن تنفع العصاة معذرتُهم شيئا، وسوف يُبعدون عن الله تعالى وسوف يدخلون دار السوء، ويعيشون فيها. واعلموا أننا قد آتينا موسى الهدى، وأورثنا بني إسرائيل التوراة التي كان فيها هدى وتذكير للناس.. أي كما أن بني إسرائيل ورثوا الأرض المقدسة ببركة التوراة، وأوتوا حظًّا من نعم الله تعالى، كذلك سيُعطي الله المسلمين كتابا كاملا، ويكتب لهم الغلبة المادية على العالم، فيستولون على مكة التي هي مكانهم المقدس، والتي هي في قبضة أعدائهم حاليا. وبعد نبأ الغلبة هذه يقول الله تعالى ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾.. أي: أيها الرسول، لا تستعجلْ في تحقُّق وعد الغلبة هذه، بل اصبرْ، فإنه سيتحقق لا محالة، إنما عليك أن تستغفر لذنبك.

فتجد هنا أن الله تعالى قد أخبرَ نبيه ﷺ بهلاك أعدائه أولاً، ثم بغلبته وفتح مكة، ثم أمَره بالاستغفار.

أما سورة محمد، فقد سبق فيها آيةَ الاستغفار قولُ الله تعالى ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ (محمد:١٩). إن موضوع سورة محمد كله يدور حول هلاك أعداء الإسلام، حيث أخبر الله تعالى أنهم سيُهزمون على أيدي المسلمين وسينتصر الإسلام، ثم قال الله

تعالى ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾.. أي أن أعـــداء الإســـلام إنمـــا ينتظرون تلك الساعة التي تفصل بين الصادق والكاذب من الفريقين، أما قبْلها فلا يحاولون التدبر في براهين صدق الإسلام. لقد ظنوا أنهم سيؤمنون إذا انكشف الأمر جليًا. فليعلمْ هؤلاء أن ساعة فتح مكة ستأتي بغتةً، غير أن علاماتها قد ظهرت بلا شك، فما الذي ينفعهم إيمانهم بعد حلول تلك الساعة؟ وبعد بيان هذا الموضـــوع، يقول الله تعالى لنبيه ﷺ: فاعلمْ أن الله القادر واحدٌ أحَدٌ، وبإشارته يتحـــرك كـــل شيء في الكون، وإذا جاءت تلك الساعة ستنزل ملائكة الله وتستميل قلوب الناس إليكم، وتمهّد لهم طريق الدخول في الإسلام، فعليك أن تستغفر في ذلك الوقـــت، ليس لنفسك فقط، بل للمؤمنين والمؤمنات، فإن الله تعالى خبير بأحوالكم.

وهنا أيضًا تجد أنه قد سبق هذه الآيةَ موضوعُ هلاك أعداء الإسلام، ثم بشّر الله تعالى بانتصار المسلمين، ثم أمر رسوله ﷺ بالاستغفار.

والآية الثالثة التي ورد فيها لفظ الذنب بحق الرسول ﷺ وأخبره الله أنه قد ستره هي أوائل آيات سورة الفتح، حيث قال الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًـــا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْـــدِيَكَ صِـــرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾. أي: أيها النبي، سنكتب لك فتحًا واضـــحا يدرك به الجميعُ أن دين الإسلام حقّ، وأنكم على الصراط المستقيم. ثم قـــال الله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.. أي أن من نتائج هذا الفتح أن الذين قد آمنوا بك قبل الفتح ستتم تربيتهم ويتطهرون من نقائصهم، ويُسَدّ أي خلل بقي في تربيتهم بسبب ضعفك البشري، أما الذين يدخلون بعـــد الفـــتح في الإسلام فلو حصل في تربيتهم نقص نتيجة ضعفك البشري فأيضا يتداركه الله تعالى ويتم نعمته عليك بسبب أدعيتك.. أي سيقيم بين المسلمين دائما أُناسًا يقومـــون بمهمة إصلاح الأمة، ويصلحون مفاسدهم ليظلوا سائرين على الصراط المـــستقيم،

كما أن الله تعالى سيقيم حكم المسلمين في الدنيا ويهديهم إلى طريق الفلاح والازدهار، فلا يزالون يحظون بنعم الله تعالى، وسينصرك الله نصرا لن يبقى بعده مانع ولا معارض.

وهنا أيضا ترى أن الله تعالى قد ذكر أولاً الفتح والنصر، ثم أردفه ببشرى هلاك الأعداء، ثم وعد رسوله ﷺ بمغفرة ذنبه.

بعد التدبر في هذه الآيات ينشأ سؤال تلقائيا: ما هو الشيء الذي هو ذو علاقة بانتصار الرسول ﷺ وهزيمة أعدائه، وأُمِرَ بالاستغفار له وأُخبِرَ أنه قد غفره له؟

فاعلم أن النبي إنسان على كل حال، ومهما اتسع نطاق أعمال الإنسان فهي محدودة في كل حال. فالأستاذ مثلا، مهما كان عبقريًا، يستطيع أن يعلِّم في وقت واحد ٣٠ أو ٤٠ حتى ١٠٠ طالب أو أكثر قليلا، ولكنه لن يقدر على تعليم ١٠٠٠ أو ٢٠٠٠ طالب. والرسول ﷺ أيضا معلِّم، وقد قال الله تعالى عنه ﷺ: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾(آل عمران:١٦٥)، وهو لا يقدر إلا على تعليم قدر محدود من الطلاب، فمتى يستطيع الإنسان أن يعلِّم ملايين البشر، ثم يحفِّظهم دروسهم أيضا، بل لا بد أن يحدث نقص في تعليمهم، فبعضهم يدرسون جيدا، وبعضهم يظلّ تعليمهم ناقصا، وبعضهم يظلون جهلاء كما كانوا من قبل. فلما بشّر الله رسوله ﷺ بفتح مكة وغيرها من الفتوحات ودخولِ الناس بعدها في الإسلام أفواجًا، أصاب قلبَه الطيب قلق شديد بأنه كان قادرًا على تعليم أتباعه القلائل القرآن، ولكن كيف سيعلم هؤلاء البالغين مئات الآلاف؟ فما هو علاج هذا التقصير الذي سيقع بسبب الضعف البشري في تعليمهم؟ فطمأنَه الله تعالى بأنه مما لا شك فيه أن هذا الفتح سيعقبه إسلام الناس أفواجًا، وسيأتون معهم بنقائصهم وعيوبهم، ولا شك أنهم لا يستطيعون أن يتعلموا كلهم على يدك، ولكن هذا النقص يمكن أن تتلافاه بأن تدعو الله تعالى قائلا:

رب، إنني لا أقدر على تعليم كل هؤلاء الجموع الغفيرة، فإني بشرٌ، فاسترْ ضعفي، وعلِّمْهم من عندك، وزَكِّهم بنفسك. فقوله تعالى ﴿واسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ تنبيه رباني لرسوله ﷺ إلى أن يتوسل إلى الله تعالى لأن يتولى تعليم وتربية هؤلاء الذين يدخلون في دين الله أفواجا، ويحميه من مغبّة التقصير في تعليمهم، ويسد هذا الخلل برحمته.

والواضح أن عدم قدرته ﷺ على تعليم هذه الأفواج من المسلمين الجدد في وقت واحد ليس إثمًا، بل هو نتيجة ضعفه البشري، ومن أجل ذلك استخدم الله تعالى لفظ "الذنب"، بدلاً من الجُناح أو الإثم أو الجرم، لأن الإثم معناه أن يعصي المرء أمْر الله تعالى مع قدرته على العمل به. أما إذا لم يقدر على شيء لأن الله تعالى لم يعطه القدرة عليه، فهذا ليس إثما، وإنما يسمى ضعفا بشريا. فمرض المرء مثلاً ليس إثما، بل هو ضعف ناتج عن بشريته. فعدم قدرة النبي ﷺ على تعليم وتزكية هذا الكم الهائل من المسلمين الجدد لم يكن إثما، إذ لم يمنحه الله القدرة على ذلك، وكان أمرًا فوق طاقته، ولذلك أمره الله تعالى بالدعاء لسدّ النقص الحاصل في تعليمهم.

إذن، فكل الآيات التي ورد فيها كلمة ﴿واسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ لا تشير إلى أي إثم للرسول ﷺ، وإنما علّمه الله تعالى بذلك سبيلَ الاتقاء من نتائج ضعفه البشري، حيث أخبره أن الأعباء التي ستُلقى عليه تفوق طاقته، فعليه أن يدعو الله تعالى أن يعينه على حملها ويسدّ أي خلل حاصل.

وبالفعل نجد أن الذين آمنوا بعد الفتح ولم تتيسر لهم التربية على يد الرسول ﷺ وقتًا كافيا، ما ضاع إيمانهم أيضا، وما حُرموا نعمةَ الإسلام في زمن الفتن والابتلاءت. لا شك أن بعضهم قد ارتدوا بعد وفاة النبي ﷺ، ولكنهم سرعان ما عادوا إلى حظيرة الإسلام، ثم لم يشتركوا في الفتن التي أثارها الأشرار للقضاء على الإسلام فيما بعد؛ فالفتنة الكبرى التي حصلت في عهد سيدنا عثمان ﵁، قد

اشترك فيها أهل العراق ومصر والكوفة والبصرة ممن آمنوا بعد وفاة الرسول ﷺ، ولكن لم يشترك فيها أهل اليمن والحجاز ونجد، وهي البلاد التي قد فُتحت في عهد الرسول ﷺ، مما يدل على أن الله تعالى قد قام بتطهير أهلها الذين أسلموا في عهده ﷺ مما كان فيهم من ضعف وسيئات. يزعم البعض أن أهل الشام لم يشتركوا في هذه الفتنة بسبب ما كان يتمتع به معاوية من قوة ومنعة، ولكن الحقّ أن عدم ثورة أهل الشام على عثمان رضي الله عنه إنما كان من كرامة النبي ﷺ وتأثير دعائه. لا شك أن هذا البلد لم يُفتح في عهد الرسول إلا أنه ﷺ قد خرج لغزوه كما أشير إليه في سورة التوبة● في قصة الصحابة الثلاثة الذين لم يخرجوا في تلك الغزوة. فالحق أن عدم تورُّط أهل الشام في هذه الفتنة لم يكن عائدا إلى قوة أو ذكاء معاوية، إنما كان سببه أن بذرة الإسلام كانت قد بُذرت في تلك الأرض في عهد الرسول ﷺ، إذ وطأها قدمه المباركة، ولذلك استجاب الله تعالى دعاءه بحق أهلها أيضا.

ونعرف من التاريخ أنه لم يشترك في هذه الفتنة الكبرى من أصحاب الرسول ﷺ إلا ثلاثة، ولكن ذلك كان نتيجة سوء التفاهم، ثم إنهم قد تابوا بعدها.

إذن، فهذه من خصوصيات الرسول ﷺ التي يتميز بها على سائر الأنبياء، ذلك أن الله تعالى كلما ذكر في القرآن انتصاره ﷺ ودخول الناس في الإسلام بكثرة قرنَه بالأمر بالاستغفار، تذكيرًا له ﷺ بأنه سيكتب له العز والغلبة، وسينضم عدد هائل إلى أتباعه، فإذا كثر تلاميذه فعليه أن يخرّ أمام الله تعالى داعيا إياه: رب، قد فاق الأمر طاقتي، فأصلِحْ هؤلاء الجدد بنفسك. وقد وعده الله تعالى أنه سيستجيب دعاءه ويصلحهم ويطهرهم من ضعفهم وسيئاتهم.

● الآية: ١١٨. (المترجم)

فالحق أن الآيات القرآنية التي أُمر فيها النبي ﷺ بالاستغفار لذنبه لا تقصد أبـــدًا أنه صدر منه إثم أو معصية، إنما المراد أن الناس سيدخلون في الإسلام بكثرة نتيجة الفتوحات الآتية، فتتعاظم مسؤولية تربيتهم وتفوق طاقته، فليسأل الله تعالى التوفيق لأداءِ هذه المهمة الصعبة على ما يرام، وإذا حصل فيها تقصير نتيجة ضعفه البشري، فيستره بفضله ورحمته، ويسدّ الخلل ويصلحه بحيث لا تظهر عليه نتـــائج ســـيئة. وحيث إن الصحابة والصحابيات أيضا كانوا سيقومون بمهمة تربية المسلمين الجدد بتوجيه من الرسول ﷺ، لذلك أُمر ﷺ في سورة محمد بألا يدعو لنفسه، بل يـــدعو لهؤلاءِ الذين يقومون بتربية الجدد تحت إمرته بأن يقوموا بهذا الواجب بشكل سليم، ولو حصل نقص في ذلك فيستره ويحفظ من نتائجه السيئة.

ملخص القول أن قوله تعالى لرسوله الكريم ﷺ: ﴿وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ في سورة النـــصر يعني أن يدعو اللّهَ تعالى أن يصلح المفاسد التي يمكن أن تقع في أمته نتيجة الفتوحات والانتصارات. أما الآيات الأخرى التي ورد فيها ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾، فـــالمراد أن يدعو النبي ﷺ ربَّه ﷻ بالتوفيق في تربية الناس الذين يدخلون في دين الله أفواجـــا نتيجة الفتوحات في زمنه، وإذا حصل نقص في تربيتهم فيستره ويحمي الأمة مـــن مغبّته.

أما قوله تعالى ﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾، فاعلمْ أن "تابَ الله إلى العبد" يعني رجع عليه بفضله، والتوّاب صيغة مبالغة، ومعناه: الذي يرجع على العباد بفضله مـــرة بعـــد أخرى، وعليه فمعنى هذه الآية: أنك يا محمد، إذا دعوتَ الله فسوف يستجيب الله دعاءك حتمًا، وسوف يرجع على أمتك بفضله مرة بعد أخرى. والقرآن يخبرنا أن النبوة والصديقية والشهادة والصالحية أربعة إنعامات روحانية وعـــدها الله تعـــالى للأمة، ولكن ذلك فضل الله يؤتي من يشاء، فقد قال الله تعالى ﴿وَمَنْ يُطِـــعِ اللَّـــهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِـــيِّينَ وَالـــصِّدِّيقِينَ وَالـــشُّهَدَاءِ

وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا * ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ (النساء ٧٠-٧١). وقوله تعالى ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾.. أي أن الذي يطيع الله ويطيع رسوله ﷺ طاعة كاملة يدخل في زمرة قوم أنعم الله عليهم.. أي في النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. والفوز بهذه المكانات الروحانية يتوقف على فضل الله تعالى العليم الذي يعلم جيدا من هو أهله. فبقوله ﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾، قد طمأنَ الله رسوله ﷺ أن أمته كلما كانت بحاجة إلى الحماية أو الإصلاح، فإن الله تعالى سيهيئ الأسباب لذلك، وسيقيم شخصًا كفئًا لإصلاح الفساد الذي يتسرب إليها. وتؤكد الأحداث أن الله تعالى قد استجاب دعاء النبي ﷺ هذا، وكلما تطرق إلى أمته فساد أقام الله تعالى بينها أحدا لإصلاحه. لقد ذكرتُ من قبل أنه لما تُوفي النبي ﷺ استولى الهلع على كبار الصحابة بمن فيهم الشجاع القوي مثل عمر (البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ)، فأقام الله تعالى أبا بكر على مقام الصديقية وجمع المسلمين على يد واحدة، ووفّق أبا بكر للتصدي لكل الفتن التي رفعت رأسها. كان ﷺ حليم الطبع جدا، ولكنه قضى على هذه الفتن بما يحير العقل. فالحق أن خلافة أبي بكر كانت نتيجة استجابة أدعية الرسول ﷺ التي قام بها امتثالاً لأمر الله هنا.

ثم بعد وفاة أبي بكر ﷺ أقام الله سيدنا عمر ﷺ، وكانت الحروب قد نشبت بين المسلمين والفرس وأهل الشام في عهده، فظن الناس أن وفاة أبي بكر ﷺ قد سبقت أوانها (تاريخ أبي الفداء، ج١ ص ٢٢٢)، ولكن الله تعالى وفّق عمر ﷺ لقيادة المسلمين بأحسن وجه، حتى خضعت في عهده مصر والشام وفلسطين كلها لحكم المسلمين، وحُطِّمت إمبراطوريتا كسرى وقيصر، وقامت دولة قوية للمسلمين من جهة، ومن جهة أخرى اتحد المسلمون على يد واحدة، ولم يبق فيهم خلل ولا فساد، بل كتب الله تعالى للإسلام من الهيبة ما جعل المسلمين لا يكترثون

بكبار الملوك الجبابرة. فظهر تأثير أدعية الرسول ﷺ في شخص عمر ﷺ. وكذلك كان عثمان وعلي ﷺ ثمرة دعائه ﷺ، بل إن قيام سيدنا عمر بن عبد العزيز وغيره من المجددين -الذين ظهروا في الأمة في مختلف الأقطار والعصور لحماية الإسلام والحفاظ على صورته النقية- قد كان ببركة دعاء النبي ﷺ.

ثم بعد انقضاء ١٣ قرنًا، ولما ترك أتباع النبي ﷺ العمل بالإسلام من جهة، ومن جهة أخرى شنّت الأمم الغربية هجومًا شرسا على الإسلام لمحو اسمه، أقام الله تعالى المسيح الموعود عليه السلام، وأسس على يده جماعةً من المسلمين تقدّم النموذج الصحيح للإسلام من جهة، ومن جهة أخرى تضحّي في سبيله بأنفسها وأموالها، فقام بإحياء الإسلام من جديد. في الماضي كان القسس يأتون من وراء المحيطات إلى بلاد المسلمين للهجوم على الإسلام، أما اليوم فقد وصل جنود محمد ﷺ إلى بلادهم للهجوم عليهم في عقر دارهم، حتى بدأ عشاق النبي ﷺ يخرجون من بين تلك الأمم المعادية للإسلام، وليس ببعيد ذلك اليوم الذي تجتمع فيه جميع شعوب الغرب تحت راية محمد ﷺ، فيكون في الدنيا رسول واحد وشريعة واحدة، ويقوم ملكوت الله على الأرض كما هو قائم في السماء. فالحق أن ما وعد الله به رسوله ﷺ بأنه سيستجيب أدعيته ويرجع إلى أمته بفضله مرة بعد أخرى قد تحقّقَ بكل روعة، وسيظل يتحقق إلى يوم القيامة، لأن الإسلام دين الله إلى يوم القيامة، ووعود الله مستمرة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ورد في الروايات أنه لما نزلت سورة النصر وأخبر النبيُّ ﷺ صحابته بنزولها قال: "ليخرجُنَّ منه أفواجا، كما دخلوا فيه أفواجا" (المستدرك للحاكم، والدر المنثور، وكنز العمال، وتفسير فتح القدير).. وقد تحقق ما قال الرسول ﷺ تماما؛ فعندما هجمت المسيحية على الإسلام في العصر الحاضر، خرج الناس من الإسلام أفواجا وتنصروا، وكذلك وقعوا فرائس لحركات أخرى معادية للإسلام، فانحطاط

المسلمين في هذا العصر هو دليل بيّن على صدق النبي ﷺ؛ إذ أخبر بذلك في وقت كان الإسلام يحرز فيه انتصارا بعد انتصار، وما كان لأحد أن يتصور أنه سيصاب بالانحطاط وسيودّعه الناس ويخرجون منه أفواجا، ومع ذلك قد وقع ما قال ﷺ، مما يثبت أن ما قاله النبي ﷺ إنما قاله بناءً على إعلام من علام الغيوب؛ فما دام الجزء الأول من نبوءته ﷺ قد تحقق، فلا بد أن يتحقق جزؤها الآخر أيضا بأن الإسلام سيحيا من جديد وستسطع شمسه في كبد السماء عند بعثة المسيح الموعود، وستدخل الأمم في الإسلام وتصلي وتسلم على محمد ﷺ، وما ذلك على الله بعزيز.

ورد في الروايات أن الله تعالى لما أمر النبي ﷺ في سورة النصر ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾، أخذ يُكثِر من الدعاء التالي:"سبحانك اللهم وبحمدك ، أستغفرك وأتوب إليك". وتقول أم سلمة: فسألتُه عن سبب ذلك، فقال ﷺ: لقد أمرني الله بذلك، ثم قرأ آيات سورة النصر (الدر المنثور). لقد ثبت من هذا أن النبي ﷺ قد أكثرَ من الدعاء لأمته بناءً على أمر الله هذا، لكي لا تحيد عن الصراط المستقيم، وليتولى الله تعالى تربيتها، وإذا تطرقَ إليها فساد أقام الله تعالى أفرادا منها لإزالته؛ فاستجاب الله دعاءه، وكان نتيجته ما نقرأ في صفحات التاريخ، وسوف يظل الله تعالى في حماية أمته، وكلما كان الإسلام بحاجة إلى حفظه سوف يهيئ الأسباب إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

سورة المسد

مكية وهي ست آيات مع البسملة

مكية بلا خلاف، فقد نقل ابن مردويه عن ابن عباس وعائشة وابن الزبير أنها نزلت بمكة (فتح القدير). وقال العلامة السيوطي في "الإتقان" إن سورة "المسد" هي خامس سورة نزلت على الرسول ﷺ بحسب روايات مختلف الرواة. وترتيب نزول السور الأوائل بحسب بحث السيوطي كالآتي: العلق، ن والقلم، المزمل، المدثر، اللهب. (الإتقان، النوع الأول في معرفة المكي والمدني). إذن، فهذه السورة من أوائل ما نزل من القرآن الكريم. ويرى القسيس "ويري" نزولها في السنة الخامسة أو السادسة للبعثة (تفسير القرآن للقس "ويري").

الترتيب والترابط: إنها آخر سورة في القرآن الكريم بحسب مضمونها، لأن مواضيع القرآن تنتهي عند هذه السورة بحسب ترتيب مواضيع السور الذي تحدثتُ عنه مرارًا، أما السور الثلاث الأخيرة، فهي خلاصة القرآن الكريم.

إن ما يربط سورة المسد بالتي قبلها هو أن الله تعالى قد طمأنَ رسوله ﷺ في السورة السابقة أن الفتوحات التي يحرزها لن تنحصر في حياته، بل سوف تستمر بعد وفاته أيضا إلى أن يصبح الإسلام غالبا في العالم، وأنه كلما كان الإسلام بحاجة إلى رجل يُخرج سفينة أمته ﷺ إلى بر الأمان ولا يدَعُ رايته تسقط، فسوف يقيمه الله تعالى من عنده وينصر الأمة الإسلامية. أما سورة "المسد" فهي تكملةٌ لموضوع سورة النصر، حيث بيَّن الله فيها أن هذه الفتوحات لن تستمرّ بعد وفاته ﷺ حتى يصبح الإسلام غالبا فحسب، بل سوف يُهلك الله العدو الذي يقوم لمهاجمة الإسلام ويدمِّر أعوانه وأنصاره أيضا. وقد سُمِّي هذا العدو "أبا لهب" في هذه

السورة، أما أنصاره وأعوانه فسُمّوا امرأته. والمراد من "أبي لهب" أئمة الكفر، ومِن امرأته أتباعهم وأنصارهم، كما أُريدَ مِن زوجة آدم أتباعه أيضا. إذن، فسورة اللهب قد أجابت على سؤال نشأ تلقائيا من مضمون سورة النصر، وهو: حتى ولو استمرت فتوحات الإسلام بعد وفاة الرسول ﷺ وأصبح الإسلام غالبا، فمن الممكن أن يخرج في المستقبل عدوٌّ قويّ فيهاجم الإسلام ويقضي عليه، فما الفائدة من غلبته العابرة؟ وردًا عليه قال الله تعالى في سورة اللهب لرسوله ﷺ: يا محمد، اعلمْ جيدا أن الإسلام لن يكون غالبا فحسب، بل ستكون غلبته دائمة، وإذا حاول عدوٌّ القضاءَ عليه، فسوف يدمره الله تعالى بقدرته تدميرا، ويجعل الإسلام غالبا بعد ضعفه، فالضعف الذي يصيبه يكون عابرًا فقط، وسوف تضيء شمسه العالم كله ثانيةً.

وإن لسورة اللهب (المسد) صلةً بسورة الكوثر أيضا، إذ وعد الله نبيه ﷺ فيها بوعدين: كثرة جماعته، وهلاك أعدائه؛ فكأن سورة النصر تتحدث عن تحقق الوعد الأول، أما سورة اللهب فعنْ تحقق الوعد الثاني.

لقد أنزل الله تعالى سورة اللهب في أوائل البعثة شدًّا لأزر المسلمين، حيث أخبرهم أنهم ضعفاء لا يملكون قوة ولا حيلة، ولكن الإله القوي ناصِرهم، ولا تتحرك ذرة في السماء والأرض إلا بإذنه، فمن قام لعدائهم خاب وخسر. ونظرًا إلى موضوع سورة اللهب، قد وضعها الله تعالى في آخر المصحف، وذلك رفعًا لمعنويات الأجيال القادمة، مذكِّرًا المسلمين في كل عصر ألاّ يخافوا الكفر برؤية قوته، بل يجب أن يوقنوا أن إله الإسلام إله قوي غالب، وسوف يدمِّر أعداءهم بنفسه. وكأن سورة النصر واللهب تحملان رسالتين للأمة، إحداهما لتقوية إيمانهم، والأخرى لتذكيرهم بهلاك الكفر.

هناك روايات شتى في كتب التفسير عن سبب نزول هذه السورة أُولاها:

"عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يكتم أمْرَه في أول المبعث ويصلي في شعاب مكة ثلاث سنين إلى أن نزل قوله تعالى ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء:٢١٥)، فصعد الصفا ونادى: يا آل غالب، فخرجتْ إليه غالب من

المسجد. فقال أبو لهب: هذه غالب قد أتتْك، فما عندك؟ ثم نادى يـــا آل لـــؤيّ، فرجع مَن لم يكن مِن لؤيّ، فقال أبو لهب: هذه لؤي قد أتتك، فما عندك؟ ثم قال: يا آل مُرّة، فرجع من لم يكن من مُرّة، فقال أبو لهب: هذه مُرّة قد أتتـــك، فمـــا عندك؟ ثم قال يا آل كلاب، ثم قال بعده يا آل قصيّ، فقال أبو لهب: هذه قـــصي قد أتتك فما عندك؟ فقال: إن الله أمرني أن أُنذر عشيرتي الأقربين، وأنتم الأقربون. اعلموا أني لا أملك لكم من الدنيا حظًّا ولا من الآخرة نصيبا إلا أن تقولوا لا إلـــه إلا الله، فأشهد بها لكم عند ربكم. فقال أبو لهب عند ذاك: تَبًّا لك، ألهذا دعوْتَنا؟ فنـــزلت السورة." (تفسير الرازي، وكنـــز العمال)

والرواية الثانية تقول: "عن ابن عباس قال: لما نزلتْ ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ صعد النبي ﷺ على الصفا، فجعل ينادي: يا بني فهر، يا بني عديّ، لبطون قريش، حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرُج أرسلَ رسولاً لينظر ما هـــو، فجاء أبو لهب وقريشٌ، فقال: أرأيتُكم لو أخبرتُكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغـــير عليكم أكنتم مُصَدِّقِيَّ؟ قالوا نعمْ، ما جرّبْنا عليك إلا صدقًا. قال: فإني نذير لكـــم بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب: تبًّا لك سائر الأيام، ألهذا جمعتَنا؟ فنـــزلتْ. ويروى أنه، مع ذلك القول، أخَذ بيديه حجرًا ليرمي به رسول الله ﷺ (البخاري: كتاب التفسير، باب وأنذر عشيرتك، وروح المعاني).

هاتان الروايتان وردتا في نزول هذه السورة. ولكن يجب أن نعلم أنـــه لم يُـــروَ شيء من الرسول ﷺ في نزول السور، إنما هي روايات عن الصحابة، لذلك نجـــد فيها اختلافا كبيرا أحيانا، إذ تذكُر أحيانًا عدّة أسباب نزول للآية الواحدة. ورواية ابن عباس هذه التي تذكر سبب نزول هذه الآية، لم توجد في التفاسير أية روايـــة أخرى كهذه، مع أن هذه السورة من أوائل السور، وكان ابن مسعود وعلـــيّ - رضي الله عنهما- من كبار الصحابة الموجودين في ذلك العصر، ولكـــن لم يُـــروَ عنهما شيء بشأن نزولها، أما ابن عباس ﷺ فلم يكن قد وُلد وقت نزولها، وإنمـــا بلغ سن الرشد في المدينة المنورة، فمعرفتُه عن السور المكية ليست إلا سماعية، وعليه فلا نستطيع الجزم أن ما ذُكر من شأن نزول هذه السورة يقيني وقطعي. لا جرم أن

أوّل مصداق لكل سورة هو الرسول ﷺ وأهل عصره، ولكن -كما قلتُ عند تفسير السور السابقة- قد جاءت السور الأخيرة من القرآن بترتيب خاص، إذ تركّز إحداهما على زمن النبي ﷺ خاصة، والأخرى على الزمن الأخير للإسلام خاصة؛ وبحسب هذا الترتيب تتحدث سورة اللهب عن الزمن الأخير للإسلام خاصة، لأن السورة السابقة لها (سورة النصر) تتحدث عن زمن الرسول ﷺ خاصة.

يقول المفسرون: كان للنبي ﷺ عمٌّ اسمه عبد العُزّى، وكان يكنى "أبا لهب" لحُسنه وإشراق وجهه، وقد تحدث القرآن في سورة اللهب عن معارضته ومناصبته العداء للرسول ﷺ (البحر المحيط).

ولكن كان أبو جهل -الذي كان اسمه أبو الحكم- أشدَّ معارضة للنبي ﷺ مِن عبد العُزّى هذا، ويتبين لنا من دراسة القرآن أنه لم يذكر أي عدو أو منافق باسمه، وإنما لّمح إليه بكلمات مجملة يمكن أن تنطبق على أكثر من شخص. فمثلا: قد ذكر القرآن الكريم عدو آدم عليه السلام باثنين من ألقابه، الشيطان وإبليس (سورة البقرة: ٣٧، الأعراف: ١٢، طه: ١١٧، ١٢١).. أي أنه كان بعيدًا عن الحق ومبلسا، أي يائسا من رحمة الله. كذلك ذكر القرآن الكريم أحدَ ألدّ أعداء الرسول ﷺ الذي كان يحرّض الناس على محاربته باسم الشيطان، دون ذكر اسمه الحقيقي (الأنفال:٤٩). وهنا في سورة المسد أيضا لم يستخدم القرآن كلمات تشير إلى شخص معيّن، بل يمكن أن تنطبق على أكثر من شخص. فيمكننا القول -آخذين في الاعتبار هذا الأسلوبَ البياني، وكذلك كوْنَ عبد العزى أقلَّ عداءً له من غيره- أن هذه السورة إنما تتحدث عن بعض أعدائه ﷺ الذين كانوا يحرِّضون عليه القوم، وليس الأمر كما ظن المفسرون بأنها تتحدث عن عمٍّ للرسول ﷺ كان حسن الوجه مشرقه. فوصْفه "أبو لهب" ليس إشارة إلى حُسنه وإشراق وجهه، إنما هو إشارة إلى تأجيجه النار، كما يدل على ذلك قوله تعالى ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾. إذا كان لقبه "أبو لهب" إشارةً إلى حُسنه وإشراق وجهه، فما علاقة كوْن زوجته تجلب الحطب لإضرام النار؟ هل كان حملها للحطب يزيد وجهه حُسنًا وإشراقا؟ فالحق

أن هذه السورة تتحدث عن ألدّ أعداء النبي ﷺ الذين كانوا يوقدون نيران الفتنة ضده، فأخبره الله تعالى بفشلهم في مكائدهم. لقد بينت هذا المعنى باعتبار هذه السورة تتحدث عن زمن النبي ﷺ.

أما فيما يتعلق بترتيب هذه السور بحسب مواضيعها -وهو الأهم عند التفسير- فهذه السورة تتحدث عن الزمن الأخير للإسلام، وعليه فهذه السورة تخبر بالتحديد عن أمة ستوقد نيران الحرب الشديدة ضد النبي ﷺ والإسلام، مستعينة بالشعوب المجاورة لها، فتكون هذه الشعوب بمنزلة يديها، أي أنصارها.

وبالفعل إننا نجد في هذا العصر كتلتين في العالم قد اتحدتا ضد الإسلام والرسول ﷺ، إحداهما كتلة القوى الغربية وأنصارها، والأخرى كتلة القوى الشرقية وأنصارها، وهما المراد من أبي لهب هنا: فهما أبو لهب في ظاهرهما، إذ إن هذه الشعوب حسنة الوجوه وحمرُها في الظاهر، كما أنها أبو لهب بالمعنى الباطن، إذ تعدّ العدّة للحرب النارية بصنع القنابل النووية والهيدروجينية وغيرها. ثم حُقّ لها أن توصف بأبي لهب لأن كتلةً منهما تُعدّ شتى المطبوعات والمنشورات ضد النبي ﷺ وتتآمر على الدول الإسلامية، أما الكتلة الأخرى فتحارب الله تعالى وتنشر الإلحاد والدهرية.. أعني كتلة الدول الشرقية التي قلبَتْ الدول الإسلامية العظيمة رأسًا على عقب، واستولت على سمرقند وبخارى وسنكيانغ، ولا تزال تنسج المؤامرات ضد تركيا والعراق وإيران. فحري بهاتين القوتين أن يطلق عليهما تسمية "أبي لهب" لمكائدهما المادية وعداوتهما الدينية للإسلام.

لقد بين الله تعالى هنا أن هذه الأمم التي ستوجد في الزمن الأخير، سيكتب الله لها ولأنصارها الخيبة والفشل. أما السؤال: ما هما تلك الدولتان اللتان هما بمنْزلة يدين للكتلة الشرقية وتساعدانها في استعدادها الحربي؟ وما هما تلك القوتان اللتان تؤيّدان الديمقراطية الغربية وتناصرانها في حربها؟ فهو قضية سياسية بحتة لا نريد الخوض فيها، غير أنه ليس خافيًا على أحد أن كلتا الكتلتين تسعى لزيادة أنصارها، وتعدّ العُدّة للحرب. ولكن هذه الاتحادات لن تنفعهما شيئا كما يخبر الله تعالى هنا، بل سوف يشلّ يديهما اللتين هما معقد آمال الطرفين.

ثم بيَّن الله تعالى أنه -بالإضافة إلى القوى الخارجية التي هي بمثابة الأيدي للكتلتين- توجد في داخل هذه الدول فئات تحرّض حكوماتها على شنّ الحرب على الله ورسوله. وأي شكّ في وجود مثل هذه الفئات في الكتلتين الغربية والشرقية؟ ومن أجل ذلك سُميت هذه الفئات المحرضة هنا امرأةً، وأخبر الله تعالى أن امرأة أبي لهب ستهلك أيضًا، أي أن الفئات الموجودة داخل تلك الدول، والتي تزيد نيران تلك الدول قوةً بإلقاء الوقود فيها، أيضًا ستصاب بالضعف وخيبة الأمل. والمراد من حمل الحطب تحريض هذه الفئات حكوماتِها على عداء الإسلام وحربه، وبالفعل توجد في الدول الغربية فئات تقوم بتحريضها على نشر المنشورات ضد الإسلام ودعْم دولة إسرائيل، كما توجد في الكتلة الشرقية أيضا فئات تحرّض شعوبها وحكوماتها على تأييد الإلحاد ومحاربة توحيد البارئ تعالى.

ويتضح من هذه السورة أن الله تعالى سيقضي على الفتنتين في نهاية المطاف، فلن ينعم بالسلام هؤلاء الفتّانون من الكتلتين كلتيهما.

ثم أخبر الله تعالى بأن هؤلاء سيخوضون حربًا ملتهبة حتمًا، رغم اتخاذهم كل التدابير لتجنُّبها -حفظ الله العالَمَ منها- مما يعني أن الحرب الذرية والهيدروجينية قد تنشب، غير أنه يتضح من القرآن الكريم أن العذاب قد يُلغى أيضا، لذا فمن الممكن أن يلغى هذا العذاب لو رجع هؤلاء إلى الله تعالى وتابوا واستغفروا بصدق. فليس ضروريا أن تقع الحرب الذرية، فقد تتحقق هذه النبوءة في صورة حرب المبادئ والنظريات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

تَبَّتْ: تَبَّ يَتِبُّ تَبًّا: هلَك وخسر. وتبّتْ يداه: ضلّتا أو خسرتا (الأقرب). وورد في "المفردات": التبّ والتَّباب: الاستمرار في الخسران: و﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾: أي استمرت في خسرانه. (المفردات للإمام الراغب)

يدا: اليدُ: الكفُّ؛ الجاه والوقار؛ القوة؛ والقدرة والسلطان والولاية؛ والجماعة؛ النعمة والإحسان. (الأقرب)

أبي لهب: الأبُ: الذي يتولد منه آخَر مِن نوعه؛ مَن كان سببا في إيجاد الشيء أو إصلاحه أو ظهوره. (الأقرب)

لَهَبٍ: لهِبَت النارُ: اشتعلتْ خالصةً من الدخان. ولَهَبُ النار: لسانُها (الأقرب).

فمعنى "أبو لهب": أبو ألسنة النار، أو مخترع المواد المؤجِّجة للنار.

التفسير: مِن أقوى البراهين على صدق النبي ﷺ أنه أعلن بناءً على وحي الله تعالى أنه سينجح في هدفه ولو عارضته الدنيا، ولن يضره أحد شيئا، وأنه حجر الزاوية الذي إذا سقط أحد عليه ترضّضَ، ومَن سقط هو عليه تمزّق، والتاريخ يؤكد صحة دعواه ﷺ. لقد جرت عليه ﷺ زوابع المعارضة، وحاول الناس اغتياله والقضاء على أتباعه بشتى المكائد، ولكنه ظل يعلن في هذه الظروف التي لم يكن فيها بارقة أمل لنجاحه أن الإسلام سيصبح غالبًا في الشرق والغرب، وأن العالم كله سيجتمع تحت رايته. ثم إنه ﷺ لم يبشر بقيام دولة قوية للإسلام فحسب، بل أخبر أيضا أنه سيأتي على الإسلام زمان يتخذ أهله القرآن مهجورا، ويصابون بالتردي والانحطاط، وتنتهي دولهم، وسوف تحتلّ القوى المعادية بلادهم، ويصبح الإسلام غريبا بلا معين ولا حيلة؛ عندها يرسل الله تعالى روح نبيّه ﷺ إلى الدنيا ثانيةً،

فيُحيي الإسلام ثانيةً ويقضي على أعدائه. هذه الأخبار نجدها في القرآن الكريم بكثرة، وقد بين النبي ﷺ تفاصيلها لصحابته، وقد صارت محفوظة في كتب الأحاديث ووصلت إلينا، ثم تحققت كلها بدقة. فإخباره ﷺ عن رقيّه وغلبته في وقت لم يكن فيه أية آثار لنجاحه، ثم إخباره عن انحطاط أمته بعد الغلبة، ثم غلبتها بعد ذلك الانحطاط.. كلها أمور لا يمكن أن تكون مجرد خيال، بل الحق أن الله تعالى هو الذي أخبر رسوله ﷺ بكل هذه الأنباء، لذلك تحققت في ظروف غير عادية. فتحققُّها برهان ساطع على أن النبي ﷺ كان من عند الله تعالى.

لقد بلغت البلاد الأوروبية اليوم ذروة التقدم، حتى بهرت العالَم كله بحضارتها ومدنيتها ومخترعاتها، بل إن أهل الغرب يقدّمون هذه الأمور دليلاً على تفوُّقهم. فكل دولة تنظر إلى الغرب وتعتبره منبع العلوم كلها. أما الدول الإسلامية التي كان العالم يرتجف رعبًا منها، وكان الأوروبيون يتتلمذون على يديها، وكانت خيولُها قد داست بلادهم، فقد انكمشت وتقلصت في مناطق محدودة جدا. إنّ ذلك الأسد الذي كانت هذه البلدان كالفئران أمامه، قد ضعف جدًا، حتى أخذت هذه الفئران تمرح على جسده وتنهشه، ولكنه لا يقدر على منعها. لقد بلغ اليأس من المسلمين كل مبلغ، ويظنون أن الإسلام هالك لا محالة اليوم أو غدا. وكل مَن زار منهم بلاد الغرب ورأى تقدُّم الغربيين وازدهارهم، أخذ منه اليأس كل مأخذ، ويرجع إلى أهله برسالة واحدة بأن لا أمل في بقاء الإسلام الآن. ذلك لأن الأعداء قد قضوا على قوته السياسية من جهة، ومن جهة أخرى قد ودّعه أهلُه، واتخذوا الغرب إمامًا لهم متفاخرين بالاقتداء به. لقد نسوا أنهم لم يُعطَوْا هذا الكتاب الذي هو منهج كامل للحياة ليعرضوا عنه ويبحثوا عن هدي آخر، إنما أُعطوه ليستنيروا بنوره، وينتفعوا باتّباعه في دينهم ودنياهم.

الحق أن انحطاط الإسلام وتقدُّم الغرب دليلٌ ساطع على صدق النبي ﷺ، لأنه ﷺ قد أدلى قبل ١٣ قرنا بهذه الأنباء مع تفاصيلها بشكل مذهل، وكأنه كان يشاهد على شاشة عرضٍ هذه الأحداثَ التي كان سيمر بها الإسلام. إن تحقُّق هذه

الأحداث قد أكد على صدقه ﷺ، لأن هذا الكم الهائل من علم الغيب الذي بيّنه الرسول ﷺ، لا يمكن أن يطّلع عليه أحد إلا بتعليم عالم الغيب سبحانه وتعالى.

فلا داعي للقلق والقنوط والخوف بما آل إليه الإسلام من ضعف وقلة حيلة، ذلك لأن الله الذي أخبر رسوله ﷺ بانحطاط الإسلام، فبلّغ صحابتَه به، ثم تحققَ بكل دقة؛ هو نفسه سبحانه الذي أخبرَ نبيه ﷺ أيضا أن الإسلام سيسترد مجده الغابر ويصبح غالبًا على أعدائه، وأن كل من يصطدم به يتمزق إربًا، وأن رايته سوف ترفرف على العالم كله ثانيةً. غير أن الله تعالى قد أخبر أيضا أنه بنفسه سينجز كل هذا، فكما حدث في عهد محمد ﷺ، فإن روحه ﷺ ستنْزل إلى الدنيا في الزمن الأخير ثانيةً وتستنزل فضلَ الله ونصرته، فينزل جُند الملائكة من السماء ليجعل هؤلاء الضعفاء أقوياء وورثة البلاد مرة أخرى. لذا فلا مجال لليأس لأي مسلم، إنما عليه أن يظل متمسكا بأهداب النبي ﷺ بكل قوة، ساعيًا لاتخاذ شتى التدابير لتحقيق هذا الهدف سريعًا، وينتظر مع كل ثقة ويقين ذلك اليوم الموعود الذي قد أخبر به النبي ﷺ.

ونسجل فيما يلي بعض الأخبار التي وردت في القرآن الكريم والحديث النبوي عن هذا الزمن، والتي هي وثيقة الصلة بموضوع سورة اللهب، كي يقرأها المسلم ويزداد إيمانًا مع إيمانه، ويرى كيف أن أنباء انحطاط الإسلام التي أُدليَ بها قبل ١٣ قرنًا تتحقق الآن، فيزداد يقينًا أن الأنباء الأخرى المتعلقة بغلبة الإسلام أيضا ستتحقق مثلها.

اعلمْ أن القرآن الكريم قد ركّز خاصة على اثنتين من الفتن والمصائب التي ستظهر في الزمن الأخير، وذلك لأن الإسلام كان سيتضرر بهما خاصةً، إحداهما الدجال، والأخرى هي ذات مظهرين: أحدهما يسمى يأجوج والآخر مأجوج. فقد ورد في حديثٍ عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ الْغِفَارِيِّ قَالَ: اطَّلَعَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْنَا وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ فَقَالَ: مَا تَذَاكَرُونَ؟ قَالُوا نَذْكُرُ السَّاعَةَ. قَالَ: إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ؛ فَذَكَرَ الدُّخَانَ، وَالدَّجَّالَ، وَالدَّابَّةَ، وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَنُزُولَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﷺ، وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَثَلاثَةَ خُسُوفٍ: خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ

وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِن الْيَمَنِ تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ (مسلم، كتاب الفتن، باب في الآيات التي تكون قبل الساعة).

فمن هذه العلامات فتنة الدجال ويأجوج ومأجوج. ولو أمعنا النظر وجدنا أن هاتين الفتنتين متشابهتان، أو شعبتان من فتنة واحدة في الواقع، ولذلك نجد القرآن الكريم قد ذكر يأجوج ومأجوج، ولا ذِكْرَ فيه للدجال، مع أن الرسول ﷺ قد حذر من فتنة الدجال كثيرًا، إذ ورد في الحديث أن رَسُول اللَّهِ ﷺ "ذَكَرَ الدَّجَّالَ فَقَالَ: إِنِّي لأُنْذِرُكُمُوهُ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ إلا وَقَدْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ. وَلَقَدْ أَنْذَرَ نُوحٌ قَوْمَهُ" (الترمذي، أبواب الفتن عن رسول الله ﷺ). فخُلُوُّ القرآن الكريم من ذكر هذه الفتنة الكبرى وذِكْرُه فتنة يأجوج ومأجوج، لدليلٌ بيّنٌ على أهما اسمان لفتنة واحدة، أو شعبتان لفتنة واحدة. ومما يدعم ذلك أكثر أن زمن الدجال ويأجوج ومأجوج واحد، وورد أن كليهما سينال الغلبة في العالم كله. فثبت أهما ليسا فتنتين منفصلتين، بل هما مظهران لفتنة واحدة. وقد سمِّيت هذه الفتنة دجالا من منظور ديني، و يأجوج ومأجوج من منظور مادي، إذ الدجال هو المموِّه والخدّاع. فالحق أنّ فتنة آخر الزمان التي ما زال أنبياء بني إسرائيل ينذرون منها ذات شعبتين؛ إحداهما تشير إلى إفساد العقائد والأفكار الدينية وهي الدجال، والأخرى تشير إلى إشعال الفتن السياسية لتدمير أمن البلاد، وهي يأجوج ومأجوج. علمًا أن يأجوج ومأجوج مشتق من الأجيج وهو النار، يقال: أجَّت النار أجيجًا: تلهَّبتْ، وأجّجتَ النارَ فتأجَّجَتْ: ألهبْتَها فالتَهَبَت (الأقرب). فلفظ يأجوج ومأجوج إشارة إلى القوى القوية التي ستغلب على العالم باستخدامها الأسلحة النارية.

بعد هذا الشرح نتوجه أولاً إلى أخبار القرآن المتعلقة بيأجوج ومأجوج. قال الله تعالى ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ (الأنبياء:٩٧).. أي أن الله تعالى سيُبقي يَأْجُوج وَمَأْجُوج منعزلين محصورين في أطراف العالم إلى زمن، ثم يتهدّم الجدار الذي يمنعهم.. أي ستسقط الحكومة الإسلامية وتنكسر شوكتها وتضعف قوهّا الروحانية وينسى المسلمون دينهم.

وقد قال الله تعالى في تحديد هذا الزمن: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ (السجدة: ٦).. أي أن الإسلام سيزدهر في زمن النبي ﷺ ثم يضعف بعد ثلاثة قرون كما ورد في الأحاديث، فيظل يضعف ويضعف لألف سنة (البخاري: كتاب المناقب، باب فضائل أصحاب النبي). مما يعني أن زمن ظهور يأجوج ومأجوج هو بعد ١٣ قرنا من الرسول ﷺ.

ويتضح من الآية السابقة (الأنبياء: ٩٧) أن يأجوج ومأجوج شعوب تعيش وراء البحار والجبال، حيث قال الله تعالى ﴿وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾. والحدب هو الموجُ، والغِلَظ المرتفع من الأرض (الأقرب)، وعليه، فالمعنى أن شعوب يأجوج ومأجوج المقيمة وراء البحار والجبال ستحلّ في آسيا من فوق الأمواج وقمم الجبال عندما يأتي الوقت الموعود. لقد قلت إنهم سيحلون في آسيا، لأن الحديث هنا عن النبي ﷺ وأعدائه، وأمة النبي ﷺ كانت تقيم في آسيا.

كذلك قال الله تعالى في سورة الكهف ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً * قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا * قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا * آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا * فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا * قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا * وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا * وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا * الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا * أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً * قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾(الكهف:٩٤-١٠٥). هذه الآيات وبضع آيات قبلها تتحدث عن بعض الأحداث التي وقعت في زمن ذي القرنين-

وهو المِلِك قورش- حيث ذكرتْ أن شعوب يأجوج ومأجوج التي تعيش في شمال آسيا وشرق أوروبا كانت تغير على أهل آسيا لخصوبة أراضيها، فقام ذو القرنين بصدّ هجماتها بكل قوة حتى أصبحت هذه الأمم محصورة في المناطق الواقعة في أقصى شمال غرب آسيا وشرق أوروبا، فبنى سدًّا لمنع هذه الشعوب عن الهجوم على آسيا. فأخبر الله تعالى أنه لما بلغ ذو القرنين بين جبلين وجد وراءهما قومًا لا يكادون يفقهون كلامه، فقالوا: يا ذا القرنين إن يأحوج ومأجوج يعيثون الفساد في هذه البلاد، فهل نعطيك خراجًا على أن تبني بيننا وبينهم سدًّا؟ قال: إن ما آتاني الله تعالى من قوة للقيام بمثل هذه الأعمال هي أكثر مما عند الأعداء من قوة، فأعينوني بقدرِ وسعكم حتى أجعل بينكم وبينهم سدًّا منيعًا، ائتوني بقطع حديدية لأصنع بها هذا السد. ولّما بناه وساوى بين قمتي الجبلين قال: آتوني الآن النحاس المذاب لكي أقوّي به السدّ. ولّما حال السد دون هجمات يأجوج ويأجوج و لم يستطيعوا عبوره وعجزوا عن ثقبه، قال ذو القرنين: كل هذا قد تمّ بفضل ربي وإحسانه، ولكن عندما يحين وعد ربي عن العذاب العالمي، فسوف يَهدم هذا السدّ ويسوّيه بالأرض، ولا بد أن يتحقق وعد ربي.. أي عند حلول الوقت الموعود تتقدم هذه الشعوب نحو الجنوب والشرق ثانية، فلن يمنعها هذا السد من زحفها، إذ إنها ستأتي عبر البحار، فلن يحول دونهم هذا الجدار. ثم يقول الله تعالى أنه إذا حان هذا الميعاد فسوف تهاجِم هذه الشعوب بعضها بعضًا، ويُنفَخ في الصور فيقع اضطراب شديد في العالم، عندها سوف نجمعهم جميعًا، ونعرض جهنم على الكافرين الذين أعينهم محجوبة عن ذكري.. أي عن القرآن الكريم، ولا يستطيعون سمعًا. أيظن هؤلاء الكافرون مع رؤية كل هذا أنهم سيتخذون عبادي أنصارا لهم من دوني؟ لقد أعددنا لهم جهنم ضيافةً. قُلْ لهم: هل أنبّئكم بقوم هم أكثر الناس خسارة في أعمالهم؟ إنهم قوم قد انصبّت جهودهم كلها في التكالب على الدنيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

لقد تبين من هذه الآيات بجلاء أن شعوب يأجوج ومأجوج ستخرج من بلادها في الزمن الأخير وتستولي على بلاد العالم، ثم تقع العداوة بين كُتْلَتَي يأجوج

ومأجوج، فتتحاربان فيما بينهما في النهاية، فيُمطر كل طرف منهما الطرف الآخر بالنار، ويهلكان. كما أخبر الله هنا أن كلتا الكتلتين تحرز تقدمًا صناعيا مدهشا وتخترع مخترعات مذهلة، ولكن كلا منهما تكون غافلة عن الدين، فلن ينفعهما تقدمهما المادي والعلمي ولن ينقذهما من الدمار.

هذه الأنباء تنطبق على العصر الحاضر تماما، فقد بدأ انحطاط الدولة الإسلامية في بداية القرن السابع عشر الميلادي، وبعدها بدأ شدّ الحبل بين القوى الغربية في حلبة السياسة والتقدم العلمي. وبدأ الإلحاد والفلسفة يهجمان على الدين حتى أصبح بلا حول ولا قوة ولا جدوى، وقدّم الإلحاد من خلال الأدلة المنطقية البحتة أشكالاً للنُظم الاقتصادية أذهلت العالم، ومنها الشيوعية. لا أظن أبدًا أن الدنيا يمكنها -بعد إعراضها عن خالِقها وعن النظام الاقتصادي الذي قدّمه- أن تقبل أي شيء غير الشيوعية أو النازية. فبعد الإعراض عن الله تعالى وتعاليمه، لا بد أن يقول المرء: إن الناس سواسية، ويجب توزيع خيرات الدنيا كلها بينهم على السواء بالقوة، أو يقول: يجب العمل بمبدأ "الدنيا لمن غلب"، فمَن امتلك القوة، فهو الأجدر والأكفأ والأحق بما في العالم من ثروات وخيرات. يا ترى، هل هنالك نظرية أخرى يمكن أن يقدمها العقل الخالص؟ كلا، فالدين هو الذي يتحدث عن الله والأخلاق، ويقدّم طريقًا وسطًا بين النظريتين، وإلا فإن العقل المجرد لا يقدم إلا هاتين النظريتين.

هناك أنباء عن يأجوج ومأجوج في الكتاب المقدس أيضا، حيث أخبر أن العداء بين هاتين القوتين سيشتدّ في الزمن الأخير حتى يؤدي إلى الحرب بينهما، وكل منهما ستستخدم الأسلحة النارية، فقد ورد: "وَيَكُونُ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ، يَوْمَ مَجِيءِ جُوجٍ عَلَى أَرْضِ إِسْرَائِيلَ، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، أَنَّ غَضَبِي يَصْعَدُ فِي أَنْفِي. وفي غَيْرتِي، فِي نَارِ سَخَطِي تَكَلَّمْتُ، أَنَّهُ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ يَكُونُ رَعْشٌ عَظِيمٌ فِي أَرْضِ إِسْرَائِيلَ. فَتَرْعَشُ أَمَامِي سَمَكُ الْبَحْرِ وَطُيُورُ السَّمَاءِ وَوُحُوشُ الْحَقْلِ وَالدَّابَّاتُ الَّتِي تَدُبُّ عَلَى الأَرْضِ، وَكُلُّ النَّاسِ الَّذِينَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ، وَتَنْدَكُّ الْجِبَالُ وَتَسْقُطُ الْمَعَاقِلُ وَتَسْقُطُ كُلُّ الأَسْوَارِ إِلَى الأَرْضِ. وَأَسْتَدْعِي السَّيْفَ عَلَيْهِ فِي كُلِّ جِبَالِي،

يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، فَيَكُونُ سَيْفُ كُلِّ وَاحِدٍ عَلَى أَخِيهِ. وَأُعَاقِبُهُ بِالْوَبَــاء وَبِالــدَّمِ، وَأُمْطِرُ عَلَيْهِ وَعَلَى جَيْشِهِ وَعَلَى الشُّعُوبِ الْكَثِيرَةِ الَّذِينَ مَعَهُ مَطَرًا جَارِفًا وَحِجَــارَةَ بَرَدٍ عَظِيمَةً وَنَارًا وَكِبْرِيتًا."(حِزْقِيَال ٣٨ : ١٨-٢٢)

وورد أيضا: "فَتَسْقُطُ عَلَى جبَالِ إِسْرَائِيلَ أَنْتَ وَكُلُّ جَيْشِكَ وَالشُّعُوبُ الَّــذِينَ مَعَكَ، أَبْذُلُكَ مَأْكَلاً لِلطُّيُورِ الْكَاسِرَةِ مِنْ كُلِّ نَوْعٍ وَلِوُحُوشِ الْحَقْلِ. عَلَى وَجْــهِ الْحَقْلِ تَسْقُطُ، لأَنِّي تَكَلَّمْتُ، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ. وَأُرْسِلُ نَارًا عَلَى مَاجُوجَ وَعَلَى السَّاكِنِينَ فِي الْجَزَائِرِ آمِنِينَ" (حِزْقِيَال ٣٩ : ٤-٦)

لقد تبيّن مما ذكرنا من آيات القرآن الكريم وفقرات الكتاب المقدس أن كليهما يخبران عن اندلاع حرب بين يأجوج ومأجوج، غير أن القرآن الكريم قد ذكر أمرًا إضافيا وهو أن ما تدعو إليه هاتان الكتلتان من نظريات سياسية أيضا ســتُدمَّر في هذه الحرب، فلن تستمر هذه النظريات طويلا بعد هذه الحرب.

ويتضح من الحديث أن الله تعالى سيُنــزل المسيح الموعود لحماية الإسلام عنــد ظهور فتن يأجوج ومأجوج وضعْف الإسلام، وأنه سيَظهَر في الشرق، وأن الدجال سيهلك بعد ظهوره، وأن المسلمين لا يملكون عندها قوة ماديــة، إلا أن جماعــة المسيح الموعود ستواصل عملها بالدعاء والتبليغ، وأن يأجوج ومأجوج ســيدمَّران بعذاب السماء، وأن الله تعالى سيجعل الإسلام غالبا ثانية، ويقــول لــلأرض أن بركتك سترجع إليك، فيكفي القليل من الرزق كثيرا من الناس، ولن يبقى لــديهم طمع ولا جشع، ويميلون إلى الروحانية بدلاً من المادية، إلى أن يصبح الإسلام غالبا (أبو داود، كتاب الملاحم).

خلاصة القول إن الله تعالى قد أخبر في قوله تعالى ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَــبَّ﴾ عن الفتن الكبرى التي ستحاول القضاء على الإسلام في الزمن الأخير، وأخــبر أن هذه الشعوب التي ستظهر في الزمن الأخير لتؤجج النيران ضد الإسلام، ســيدمّرها الله مع أنصارها تدميرًا.

لقد ذكرتُ عند شرح الكلمات أن تَبَّ يعني هَلَكَ، وأيضا خاب وخــسر في هدفه، وقال المفسرون في تفسير ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾: صَفِرتْ من كــل خــير

(البحر المحيط). ومن معاني اليد: العزةُ والمكانة والقوة والغلبة والمُلك والجماعة؛ وعليه فقوله تعالى ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ يعني:

١: دُمِّرت يدا أبي لهب، ٢: هلَك حزبا أبي لهب وخابا في سعيهما، ٣: قُضي على عزة أبي لهب وقوته وملكه وغلبته، ٤: حُرم حزبا أبي لهب من كل نفع وخير.

وأبو لهب يعني حرفيًا: صاحب النار الملتهبة، ويعني عرفًا مخترع الأشياء النارية الملتهبة، أو مَن كان مصيره الاحتراق في لهب النار. أما المفسرون فيقولون أن تسميته بأبي لهب راجع إلى حُسنه وإشراق وجهه. لقد بيّنت من قبل إنه لا يراد من أبي لهب شخصٌ معين، بل هو إشارةٌ إلى أمة تصبح غالبة في الزمن الأخير، وتؤجّج النيران ضد الرسول ﷺ أو الإسلام، أو تخترع مخترعات نارية مشتعلة وتضم إليها الشعوب المجاورة لتناصرها، فتصبح كأنها يدان لها. ونلحظ في الزمن الحاضر أن هناك كتلتين متآمرتين على الإسلام والرسول ﷺ؛ إحداهما تضمّ بعض القوى الغربية، والأخرى تضم بعض قوى الشرق وأنصارها. ثم إن هذه الشعوب يمكن أن تستحقّ أن تسمى "أبا لهب" من حيث ظاهرها، فهم بيض الوجوه (حمرٌ) حِسانها، وهي "أبو لهب" مِن حيث باطنها، إذ تخترع القنابل الذرية والهيدروجينية التي تنتج النار واللهيب. ثم إنها يمكن أن تسمى أبا لهب لأن مصيرها الاحتراق في نيران الحرب، وأيضا لأنها قد أوقدت النار في العالم بنشر منشورات خطيرة ضد الإسلام والرسول ﷺ.

ومع أن الحديث في قوله تعالى ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ قد جاء بصيغة الماضي، إلا أن من المعروف في قواعد العربية أن يرد الماضي بمعنى المستقبل للتأكيد والقطعية، وكأن الأمر قد تحقّقَ سلفًا، وعليه فقد استعمل الله تعالى فعل الماضي ﴿تبّتْ﴾ و﴿تَبَّ﴾ للإشارة إلى أن فشل هذه الأمم في القضاء على الإسلام وهلاكَها، أمرٌ قطعي ويقيني.

والجدير بالتدبر هنا أن الله تعالى قد ذكَر هنا هلاك يدَيْ أبي لهبٍ أولاً ثم هلاكه هو؛ مما يعني أن هاتين الكتلتين من قوى الشرق والغرب ستسعيان بكل ما في وسعهما لضم البلاد الأخرى إلى صفوفهما، وستنضم إليها فعلاً، وتصير لها بمثابة

اليد حتى تفتخر كل منهما بأنصارها، ولكن الله تعالى سيهيئ من الأسباب ما يدمر أنصارهما أولاً، ثم يدمّرهما نفسيهما.

وهناك أمر لطيف جدير بالذكر، وهو أن الأحاديث التي تحدثت عن ظهور الحركات المعادية للإسلام في الزمن الأخير تكشف أيضًا أن الله تعالى سيُنزل المسيح الموعود عند ظهور تلك الفتنة ليتصدى لها، ولكنه يحاربها بالدعاء، إذ ورد: "لا يدانِ لأحدٍ بقتالهم" (مسلم: كتاب الفتن، باب ذكر الدجال).. أي أن مواجهة المسلمين لهذه القوى المعادية للإسلام بالأسلحة المادية مستحيلة، إذ سيكونون في حالة ضعف، غير أن الله تعالى سيستجيب لأدعية المسيح الموعود، فيهيئ أسبابًا تدفع هذه القوى كي تتحارب فيما بينها وتهلك وتذوب ذوبان الملح في الماء. والقرآن أيضًا قد أطلق على الشعوب المناصرة لعدو الإسلام هذا تسمية: ﴿يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾، والحديث أيضا يذكر لفظ (يدانِ) في سياق فتن الزمن الأخير، مما يدل أن الله تعالى قد أعطى النبيَّ ﷺ علمَ الفتن في الزمن الأخير، وأخبره باستحالة محاربة الشعوب التي تخرج في الزمن الأخير بالأسلحة المادية، ولذلك قال النبي ﷺ: "لا يدانِ لأحد بقتالهم".

باختصار، إن قوله تعالى ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ يتضمن نبوءةً بأن كل الشعوب والأفراد الذين يهبّون للهجوم على الإسلام في الزمن الأخير، سوف يدمَّرون ويبادون ولن يستطيعوا القضاء على الإسلام.

مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٣﴾

شرح الكلمات:

ما أغنى عنه: أغنى عنه غَناءَ فلانٍ ومغناه أي: نابَ فلانًا؛ ويقال: ما يغني عنك هذا؟ أي ما يجدي عنك. وأغنى عنه كذا: نحّاه عنه وبعّده. وما أغنى فلان شيئا: أي لم ينفع في مُهِمٍّ و لم يَكْفِ مؤونةً. (الأقرب)

كسب: كسب الشيءَ: جمعه، وكسَب مالاً وعلما: طلَبه وربِحــه. وكــسَب لأهله: طلَب المعيشة. (الأقرب)

وفي "المفردات" للراغب: "الكسبُ ما يتحراه الإنسان مما فيه اجــتلابُ نفــعٍ وتحصيلُ حظٍّ، ككسب المال."

التفسير: إن "ما" في قوله تعالى ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ﴾ قــد تكــون نافيــة أو استفهامية، وفي حالة اعتبارها استفهامية يكون المعنى: ماذا سيجديه مالُه وكــسبُه؟ أي لن ينفعه ماله ولن ينقذه من الهلاك.

وقال المفسرون إن "ما" في قوله تعالى ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ قد تكــون موصــولة أو مصدرية (البحر المحيط).

لقد بيّن الله تعالى في الآية السابقة أن الأمم المهاجمة للإســلام ســتهلك، بــل سيهلك أنصارها الذين يدورون في فلكها جلبًا للمنافع، وسيرجعون خائبين، أمــا الآن فقد بيّن الله تعالى أن هذه الأمم المعادية للإسلام ستكون غنية جــدا، ولــن تكسب مالاً كثيرا بمخترعاتها وصناعاتها فحسب، بل ستستولي على خيرات البلاد الأخرى بل أراضيها، من خلال استثمار أموالها فيها بحجة التجارة. وقد جاء لفظ المال هنا نكرةً من أجل التعظيم والتفخيم (علم المعاني: التنكير)، ففيه إشارة إلى أن أموالها الطائلة أيضا لن تنقذها من الدمار. ثم قال الله تعالى ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ أي: أن مالها المكسوب أيضًا لن ينقذها. وكأن الله تعالى قد قسم أموالها قسمين؛ أحدهما ما تربحه ببيع مخترعاتها وصناعاتها، والآخر ما تكسبه باســتثمار أموالهــا في الــبلاد الأخرى. والواضح أن هذا الرسم القرآني ينطبق على الأمم الغربية كل الانطباق، إذ إنها تجمع الأموال نتيجة تقدُّمها الصناعي من ناحية، ومن ناحية أخــرى تــستثمر أموالها في البلدان الأخرى لسلب خيراتها، بل للاستيلاء على أراضيها.

إذن، فقوله تعالى ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ دليلٌ آخر علــى أن القــول بنــزول هذه السورة من أجل "عبد العُزّى" لا يصحّ بحال من الأحوال؛ لأن قوله تعالى ﴿مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ يشير إلى أموال طائلة، بينما لم يملك عبد العُــزّى مــالا

كثيرا، وما كان يُعتبر من الأثرياء، فمَن ملك عددًا من الإبل لا يُعتبر ثريا. فالحق أن قوله تعالى ﴿مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ ينطبق على الأمم الغربية حق الانطباق، فهي التي تعتبر أغنى شعوب العالم.

وقال المفسرون أن قوله تعالى ﴿وَمَا كَسَب﴾ قد يكون إشارة إلى أعمالهم وجهودهم وأولادهم، وعليه فالمراد من الآية أن هذه الشعوب ستتباهى بأموالها ومخترعاتها وأنصارها، ولكنها لن تنقذها من الدمار، بل ستدفعها إلى هوة الدمار.

سَيَصۡلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٤

شرح الكلمات:

سيَصلَى: صَلِيَ بالنار: قاسَى حرَّها واحترق بها ودخل فيها. (الأقرب)

نارًا: النار تقال للهيب الذي يبدو للحاسّة، وللحرارة المجردة، ولنارِ جهنم، ولنارِ الحرب (المفردات). وعليه، فالمراد من ﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ أنه سيدخل النار حتمًا، أو سيُدفع إلى الحروب يقينًا.

التفسير: كما قلنا آنفًا، إن من معاني النار الحرب؛ وقال الله تعالى ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ (المائدة:٦٥)، وعليه فقوله تعالى ﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ يعني: أن كل هذه القوى المسمّاة بأبي لهب، ستُلقى في نار حرب مروعة ذات لهب لا مثيل لها، ذلك أن النار قد وردت هنا نكرةً للتعظيم والتضخيم، وأيُّ نار في الدنيا هي أشدُّ حرًّا ولهيبًا من نار القنابل الذرية والهيدروجينية! فهي تلتهم المدن تلو المدن في دفعة واحدة. إذن، فهذه الآية تتضمن نبوءة بأن هذه القوى سوف تواجه حربا مروعة، وسوف تدمَّر بالتحارب فيما بينهما. لقد قال الله تعالى هنا ﴿سَيَصْلَى﴾، والسين وسوف؛ تدخلان على المضارع لتحديد الفترة المستقبلية التي سيقع فيها الفعل، فالسين للمستقبل القريب، أما "سوف" فللبعيد، وعليه فقوله تعالى ﴿سَيَصْلَى﴾ إشارة إلى أن هذه الشعوب ستوقد

نارًا للحرب ضد الرسول ﷺ بنيّة القضاء على دينه، وعندما تبلغ جهودها الذروة، فلن تلبث أن تُلقى في نار الحرب. وبالفعل نرى أن هذه القوى قد بلغت ذروة قوتها وعدائها للإسلام في عام ١٩١٤م أولاً، فما لبثت أن دخلت في حرب مخيفة انتهتْ في عام ١٩١٨. أما في المرة الثانية فقد اندلعت بينها الحرب عام ١٩٣٨ وانتهت في عام ١٩٤٥، وفي هذه السنة (١٩٤٥) بالذات اختُرعت القنابل الذرية والهيدروجينية التي دفعت بالعالم إلى حافة الدمار. وقد تزامنت الحرب العالمية الثانية أيضًا مع بلوغ جهود هذه الأمم ذروتها في عداء الإسلام.

وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٥

شرح الكلمات:

الحطب: ما أُعِدَّ من الشجر شبوبًا للنار؛ النميمةُ (الأقرب).

فقوله تعالى ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ يعني: القوى التي ستحمل الوقود لإيقاد النار، والتي تُكثر النميمة.

التفسير: لفظ المرأة معروف، ولكنه يعني هنا أُناسا تابعين يتأثرون ممن فوقهم، ومثاله قول الله تعالى لآدم: ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾(البقرة :٣٦، والأعراف:٢٠)، فالزوج هنا لا يعني الزوجة فقط، بل أتباع آدم الذين كانوا يطيعونه فيما يأمرهم به، وعليه فقوله تعالى ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ يعني أنه لن تنضم إلى صفوف "أبي لهب" جلبًا للمنافع الأممُ التي سُميت هنا "يداه" فقط، بل سينضم إليه قومٌ من مواطني تلك الدول، فيحرّضونها على اتخاذ التدابير والمكائد للقضاء على الإسلام والمسلمين. بمعنى أنهم سيعملون على إعداد ونشر المنشورات المعادية للإسلام والمحرّضة على حربه، وكأنهم يحرضون دولها على إشعال هذه الحرب ضد الإسلام بإمدادها بالوقود، وبالنميمة عليه، وبنشر الأباطيل ضده.

فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٦﴾

شرح الكلمات:

جيدها: الجيد: العنق. (الأقرب)

المَسَد: حبلٌ مِن ليفٍ؛ وقيل: الحبلُ المضفورُ المحكَمُ الفتلِ؛ المِحورُ من الحديد، مِرْوَدُ البَكْرة الذي تدور عليه. (الأقرب)

التفسير: قوله تعالى ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾ يعني: ستكون حبال مُحكَمة الفتل في أعناق الأمم التي تكون بمنزلة المرأة للشعوب المسماة بأبي لهب، بمعنى أنها ستعادي الإسلام عداءً شديدًا لن يزول. كما أن فيه إشارة إلى أن تلك الأمم ستُدعى حرةً في الظاهر، ولكنها تكون مصفّدة بتقاليد عصرها وعاداتها، ولن تتمتع بالحرية حقًّا إلا أن يحررها الله منها.

سورة الإخلاص

مكية وهي خمس آيات مع البسملة

هذه السورة مكية عند ابن مسعود والحسن وعطاء وعكرمة وجابر، بينما يرى ابن عباس وقتادة والضحاك والسدي أنها مدنية، إلا أن هناك قولا لابن عباس أنها مكية. (فتح البيان)

وقال السيوطي في "الإتقان" أن بعض المفسرين قد حكموا بسبب هذه الروايات المتباينة أن سورة الإخلاص نزلت مرتين، مرة في مكة وأخرى في المدينة، ويرجّح السيوطي أن تكون مدَنية. أما نحن فنرى أنها نزلت مرتين، ذلك أن ابن مسعود من أوائل الصحابة، وله مكانة عالية في التفسير، ولا يمكن رفض روايته من دون دليل. أما ابن عباس فقد بلغ أَشُدَّه في المدينة، وليس علْمه عن أوائل السور نزولاً إلا سماعيا، غير أن له أيضا مكانته، فلا يمكن ردّ قوله من دون دليل، لذا نتفق مع المفسرين الذين يرون أن سورة الإخلاص نزلت مرتين، بدلاً من أن نرفض قول صحابي من دون دليل قويّ.

أما القسيس "ويري" فقال أن "وليام موير" يرى أن سورة الإخلاص هي من أوائل السور نزولاً، بينما يرى "نولدكه" أنها نزلت في السنة الرابعة. ويرى "ويري" أن رأي "وليام موير" أقرب إلى الصحة، لأن أسلوبها يدل على أنها من أوائل السور نزولا. (تفسير القرآن للقس "ويري")

لقد قلت مرارًا إن المفسرين يحدّدون زمن نزول السور بناءً على الروايات، أما المستشرقون فلا يبنون رأيهم على شهادة التاريخ، بل على مضمون السور وأسلوب عبارتها. والحق أنهم لا يقدرون على فهم مضامين القرآن الكريم فهما صحيحا، كما أنه ليس لديهم إلمام كاف بالعربية يمكّنهم من أن يستنتجوا من أسلوب

عبارات الآيات استنتاجًا سليما. إن معرفتهم بالعربية ضئيلة جدًا، فادعاؤهم بتحديد زمن نزول سور القرآن بناءً على أسلوبها ليس إلا مغالطة وتزييفا.

أسماؤها: لقد وردت في التفاسير أسماء عديدة لهذه السورة، تدلّ على ما فيها من مفاهيم عديدة. وهذه الأسماء -كما ذكرها الرازي في تفسيره- هي:

١: سورة التفريد: لأنها تركّز على أن الله أحد، وتفنّد الثالوث وغيره من العقائد الباطلة.

٢: سورة التجريد: لأنها تقول أن لا ندّ لله تعالى.

٣: سورة التوحيد: إذ إنها تبيّن وحدانية الله تعالى بيانًا لا مثيل له في أي كتاب آخر.

٤: سورة الإخلاص: لأنها تزوّد الإنسان بالإخلاص وتنشئ وتوطد علاقته بالله تعالى.

٥: سورة النجاة: لأن من أيقن بالله الأحد نال النجاة.

٦: سورة الولاية: لأنها تزود الإنسان بالعلم الكامل والعمل والمعرفة، فتوصله إلى درجة الولاية.

٧: سورة المعرفة: لأنها تساعد على معرفة الله، فعن جابر أن رجلا صلّى فقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فقال النبي ﷺ: إن هذا عبدٌ عرَف ربه، فسميت لذلك سورة المعرفة.

٨: سورة الجَمال: ورد في الحديث أن الله جميل يحب الجمال، فسألوا النبي ﷺ عن ذلك، فقال: أحدٌ صمدٌ لم يلد و لم يولد.

٩: سورة المَقَشْقِشة: أي المبرِئة من المرض. تقول العرب: تقَشْقَشَ المريض عما به: أي شُفِيَ. وسميت بذلك لأنها تبرِئ العبد من الشرك والنفاق، وتجعله عبدًا خالصا.

١٠: سورة المعوِّذة: ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ دخل على عثمان بن مظعون وقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وسورة الفلق وسورة الناس، ونفخ عليه، ثم أمره أن يستعيذ بالله بها.

١١: سورة الصمد: لأنها تذكُر صفة الله الصمد.. ومعناه: من تحتاج إليه كل ذرة من الكون.

١٢: سورة الأساس: قال رسول الله ﷺ: أُسِّست السموات السبع والأرضون السبع على ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، وهذا يعني أن عقيدة الثالوث سببٌ لدمار السماوات والأرض، كما قال الله تعالى ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾(مريم: ٩١-٩٢). أو فيه إشارة إلى قوله تعالى ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء: ٢٣)، فكأن عقيدة التوحيد أساس لعمران هذا الكون.

١٣: سورة المانعة: لأنها تنجي من عذاب القبر، فعن ابن عباس أن الله تعالى قال لرسوله ﷺ حين عرج به: أعطيتُك سورة الإخلاص وهي من ذخائر كنوز عرشي، وهي المانعة تمنع عذاب القبر ولفحات النيران.. أي أن مَن تمسّكَ بالتوحيد الخالص لم تمسّه النار.

١٤: سورة المحضِرة: لأن الملائكة تحضر لاستماعها إذا قرئت.

١٥: سورة البراءة: أي التي تبرئ من النار والشرك، ؟لأنه روي أنه ﷺ رأى رجلا يقرأ هذه السورة فقال: أمّا هذا فقد برئ من الشرك، وقال ﷺ: مَن قرأ سورة ﴿قل هو الله أحد﴾ مئة مرة في صلاة أو في غيرها كُتبتْ له براءةٌ من النار.

١٦: سورة المذكِّرة: لأنها تذكِّر العبد خالص التوحيد.

١٧: سورة النور: لأن رسول الله ﷺ قال: إن لكل شيء نورا، ونور القرآن ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾.

١٨: سورة الأمان: لأن رسول الله ﷺ قال: إن مَن آمن بالتوحيد فكأنه دخل الحصن. فلأن هذه السورة تركز على توحيد البارئ تعالى، فهي أمان من العذاب.

١٩: سورة المنفِّرة: لأن الشيطان ينفر عند قراءتها.

فضائلها:

لقد اعتبر النبي ﷺ هذه السورة تساوي ثُلُثَ القرآن، فقال: مَن قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فكأنما قرأ ثلث القرآن. وعن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن. (الدر المنثور، وكنز العمال وفتح القدير، وتفسير الرازي،)

الواضح أن هذا لا يعني أنها تساوي ثلث القرآن حجمًا، إنما هذا إشارةٌ إلى أهمية مواضيعها. يتضح من دراسة القرآن الكريم والحديث أن هناك فتنتين تظهران في الزمن الأخير؛ فتنة الدجال وفتنة يأجوج ومأجوج، وكلتاهما ستحاول القضاء على الإسلام، واحدة بعد الأخرى. فإحداهما تدعو إلى ثلاثة آلهة؛ الإله الأب والإله الابن والإله الروح القدس، بدلاً من الإله الواحد، والأخرى تدعو إلى الإلحاد والدهرية. وقد قام القرآن الكريم بتفنيد العقيدتين وتبيان العقائد الصحيحة، وهو مليء بحمد الإله الأب، ويعلن أن الإله الأب هو الرب وهو الإله الأحد، وليس هناك أي إله آخر باسم الإله روح القدس والإله الابن. فالقرآن الكريم يرسي ألوهية الإله الأب، ويبطل ألوهية الإله الابن أو الإله الروح القدس. ولما كان ثلث القرآن قد نزل دعمًا لعقيدة ألوهية الإله الأب، فتبين أن سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن. الحق أن القرآن الكريم قد جاء لإثبات توحيد البارئ وتفنيد العقائد الباطلة، ولما كانت هذه السورة قد أبطلت العقائد الزائفة وبيّنت حقيقة التوحيد بكلمات جامعة مانعة، فقد عدلت ثلث القرآن، بل صارت مثله. فثبت أن قول النبي ﷺ إنها تعدل ثلث القرآن ليس مبالغا فيه، إنما يبين أهمية مضمونها، ولذلك سماها النبي ﷺ أعظم سور القرآن الكريم. (روح المعاني)

ورد في الروايات أن سبعين ألفا من الملائكة نزلت مع هذه السورة (روح البيان). وفي هذا أيضا دليلٌ على أهمية موضوع هذه السورة.

وليكن معلومًا أن نزول الملائكة مع بعض السور لحراستها لا يراد منه حراستها وقت نزولها، بل حراستها بعد نزولها؛ ذلك أن كل سورة تحتوي على موضوع معين، وتتضمن أحيانًا أنباءً يكون في تحقُّقُها دليل على صدق السورة، وتتعلق هذه الأنباء بالتغيرات الطبيعية حينًا، وبأعمال الناس حينًا، والأنباء المتعلقة بالناس تكون بالغة الأهمية من حيث إن القوم الذين تنذرهم هذه الأنباء بنزول العذاب عليهم يسعون جاهدين للحيلولة دون تحققها، ولأن الظروف المادية لا تكون مواتية لتحقّقها في أغلب الأحيان إلا أن يهيئ الله الأسباب من الغيب، فلذلك يأمر الله تعالى ملائكته المسخَّرين لتدبير شتى أمور الكون أن يهيئوا الأسباب لتحقيقها كما أراد. لا شك أن سورة الإخلاص لا تحتوي على أي نبوءة، ولكنها تتحدث عن توحيد البارئ تعالى، وكان من المقدر ظهور فتنتين خطيرتين ضد التوحيد الإلهي في الزمن الأخير ما كان بوسع الدول الإسلامية التصدي لهما والقضاء عليهما من دون نصرة الملائكة؛ فلذلك أمر الله تعالى سبعين ألف مَلَكٍ بحماية توحيده، حتى إذا هجمت هاتان الفتنتان (الدجال، ويأجوج ومأجوج) على توحيد البارئ بكل عدّهما وعتادهما، نزلت ملائكة السماء للقضاء عليهما وإقامة التوحيد واستئصال الشرك والدهرية من العالم، ليقوم ملكوت الله في الأرض كما هو قائم في السماء.

ومما ورد عن فضائل هذه السورة ما أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك قال: كان رجل من الأنصار يؤمّهم في مسجد قُباء، وكان كلما افتتح سورة يقرؤها لهم في الصلاة، قرَأ ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ أولاً ثم قرأ بسورة أخرى معها، وكان يصنع ذلك في كل ركعة، فكلّمه أصحابه، فقالوا: إنك تقرأ بهذه السورة، ثم لا ترى أنها تُجزيك حتى تقرأ بسورة أخرى، فإما أن تقرأ بها، وإما أن تَدَعَها وتقرأ بسورة أخرى. قال: ما أنا بتارِكِها وإنْ أحببتم أن أؤمكم بها فعلتُ، وإن كرهتم تركتكم. وكانوا يرونه أفضلَهم، وكرهوا أن يؤمّهم غيره، فلما أتاهم النبي ﷺ أخبروه الخبرَ، فقال: يا فلان، ما يمنعك مما يأمر به أصحابك؟ وما يحملك أن تقرأ هذه السورة في

كل ركعة؟ فقال: يا رسول الله، إني أحبّها. فقال رسول الله ﷺ: إن حُبَّها أدخلَك الجنة (القرطبي، وفتح البيان).

لقد تبين من قول الرسول ﷺ أن المرء إذا تمسك بالتوحيد الخالص وتوكل عليه تعالى حقًّا، دخل الجنة.

كذلك ورد في رواية أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ وشكا إليه الفقرَ فقال: إذا دخلتَ بيتك فسلِّمْ إنْ كان فيه أحد، وإن لم يكن فيه أحد فسلِّمْ على نفسك واقرأْ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ مرة واحدة. ففعَل الرجل ذلك، فأدرَّ الله عليه رزقًا حتى أفاض على جيرانه. (روح البيان)

الحق أنه إذا علِم المرء أن هناك إلهًا قادرًا تمام القدرة على أن يبارك في أعماله، فإنه عليه يتوكل وإليه ينيب، وإذا اجتمع الجهد والدعاء زالت المشاكل. فهذه الرواية تعلِّمنا الاجتهاد والتوكل والدعاء.

وعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَّيْهِ، ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا فَقَرَأَ فِيهِمَا ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ... يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ (أخرجه البخاري، وأحمد، وأصحاب السنن الأربعة).

لقد نبّه النبي ﷺ بقراءة هذه السور معًا والدعاء بها إلى أن هناك اشتراكًا عميقًا بين هذه السور الثلاث الواردة في آخر المصحف؛ فسورة الإخلاص دليل على التوحيد الكامل، أما المعوذتان فتشتملان على الأدعية، والواضح أن الإنسان إذا علم أن هناك إلهًا قادرًا على سدّ حاجاته كلها وإعطائه كل خير وحمايته من كل شرّ، فلا بد أن يتوجه إليه بالدعاء. فمثلا إذا حاول كلبٌ شرس الهجومَ عليك، فلا تستطيع أن تتخلص منه إلا إذا عرفتَ صاحبه، فإذا علمتَه دعوتَه بأن يمنع كلبه، كذلك إذا علِمنا أن هناك إلهًا كل أمورنا منوطة به، وهو قادر على سد حاجاتنا كلها، فلا بد أن ترغب قلوبنا في دعائه تلقائيا. فثبت أن هناك ترتيبا طبيعيا في هذه السور الثلاث، فسورة الإخلاص تخبرنا عن الإله القادر، وسورة الفلق تعلِّمنا أن

ندعو الله تعالى بأن كلّ مخلوق في قبضتك، فنَجِّنا من شرّ كل شيء. والواضح أن الإنسان لا يستطيع أن يعدّد كل الأشياء التي يريد أن يحميه الله من شرورها. خُذْ مثلا المرض، فهناك آلاف الأنواع من الأمراض، بل إن الصداع وحده أنواع كثيرة لا يعرف الأطباء كُنْهَ كثير منها؛ إذ لو علموا لعالجوها أيضا. كذلك الحمّى أنواع كثيرة، ولكن لا يعرف الأطباء كثيرا منها، إذ لو علموا كل أنواعها لتمكنوا من علاجها. كان الطبيب في الماضي يقول لك إن هذه حمى الملاريا مثلاً، لكن البحوث الطبية قد كشفت الآن أن الملاريا أيضًا أنواع كثيرة، والبعوض الذي يسبب الملاريا أيضا صنوف كثيرة؛ فما دام الأطباء لا يستطيعون علاج أنواع كثيرة من الحمى، فهذا يعني أنهم لم يكتشفوا أنواعا كثيرة منها (الموسوعة البريطانية تحت: Malaria). أما أطباء العلاج بالمثل (الهوميوباثي) فيقولون إن الحمى تختلف من شخص إلى آخر، فحمّى زيد ليست كحمى بكر، وأن المصاب بالملاريا يختلف مرضه بها في الصباح عنه في المساء، بل يقولون إنه إذا أكل الخضار فتصبح الملاريا عنده مِن غير النوع الذي يصيبه إذا أكل الكباب. فثبت أن الإحاطة بالأمراض بل بأي شيءٍ مستحيلٌ، ولذلك أمرنا الله تعالى في سورة الفلق أن ندعوه بأن لا علم لنا بكل الأشياء، فاحمِنا من كل شرّ كان. أما سورة الناس التي تلي الفلق، فلم يأمرنا الله فيها بأن ندعوه أو نستعيذ به من شر زيد أو بكر، بل أمرنا بالاستعاذة من شر الجميع من قويّ أو مسئول أو دولة. ولكن لا يمكن أن ينبع هذا الدعاء من القلب إلا إذا كان المرء مؤمنا بالله الأحد. فثبت أن هناك علاقة قوية بين هذه السور الثلاث، حيث بين الله تعالى أن عليكم أن تفهموا توحيد البارئ أولاً، وبعدها سوف ينبع من قلوبكم دعاء كامل يقضي على الشرّ بكل أنواعه.

وليكن معلومًا أن هذه السور الثلاث تشتمل على مضمون سورة الفاتحة، بحيث يخيل لك وكأن الله تعالى قد بدأ القرآن بسورة الفاتحة وختَمه أيضا بها، أعني أن الله تعالى قد أعاد مضمون الفاتحة عند ختام القرآن، شأن الأستاذ الذكي الذي يبدأ الدرس بتلخيصه للطلاب قائلا: اليوم سوف ندرس كذا وكذا، ثم عندما يبلغ النهاية يلخصه مرة أخرى قائلا: قد درسنا اليوم كذا وكذا. فكأن المواضيع التي نبّه

الله تعالى إليها في سورة الفاتحة بصورة موجزة، قد ناقشَها القرآن الكريم مفصلا، ثم عندما بلغ نهايته لخصها مرة أخرى وقال: هذا ما علّمناكم فاحفظوه.

سبب نزولها: هناك ثلاثة أنواع من الروايات بشأن نزول هذه السورة، تقـــول أوّلها أن مشركين قالوا للنبي ﷺ يا محمد، انسبْ لنا ربّـــك؟ فـــأنزلَ الله ســـورة الإخلاص، فأخبر أنه ليس له أب وليس هو أب لأحد، ولا شبيه له ولا ندّ. (الدر المنثور)

وقد وردت هذه الرواية بمتون متشابهة، فقيل في بعضها أن أعرابيا سأل النبي ﷺ هذا السؤال، بينما ورد في بعضها أن قريشًا سألتْه إياه.

وبطلان هذه الرواية واضح، إذ من المحال عقلاً أن يثيروا هذا السؤال إلا إذا كان للآلهة التي يعبدونها نسبٌ أيضًا، وحيث إنه لم يكن لها نسبٌ، فكيف يحقّ لهـــم أن يقولوا للنبي ﷺ انسبْ لنا إلهك. فهذا السؤال من قِبل كفار قريش مستبعد عقلا.

والرواية الثانية تقول بأن يهود خيبر جاءوا إلى النبي ﷺ فقالوا: يا أبا القاســـم، خلق الله الملائكةَ من نور الحجاب، وآدمَ مِن حمأ مسنون، وإبليسَ من لهب النـــار، والسماءَ من دخان (أي من غازات)، والأرضَ من زبد الماء، فأخبرْنا عن ربك، فلم يجبْهم النبي ﷺ، فأتاه جبريل بهذه السورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فردّ النبي ﷺ علـــى سؤالهم. (الدر المنثور)

والتدبر في هذه الرواية يكشف أن من المحال عقلاً أن يوجّه اليهود هذا السؤال إلى النبي ﷺ، فهم يؤمنون بالله، ويعلمون أنه هو الخالق، فلا يمكن أن يسألوه: مِن أي شيء خُلق ﷻ. أجلْ، كان بإمكانهم أن يسألوا عن صفات الله المختلفة.

ثم من غير المعقول أن يسكت النبي ﷺ عند سؤالهم، إذ كان معظم القرآن قـــد نزل عندها، وكان بوسعه ﷺ أن يردّ عليهم على ضوء ما نزل منه. فمـــا كـــان سؤالهم صعبا حتى يلزم النبي ﷺ الصمت وينتظر الرد من الله تعالى. فثبت أن مـــا ذُكر هنا من شأن نزول سورة الإخلاص باطل عقلاً.

والرواية الثالثة تقول بأن هذا السؤال قد وجّهه نصارى وفد نجران لما وفدوا إلى المدينة، فقالوا للنبي ﷺ: صِفْ لنا ربك، أَمِنْ زبرجدٍ أم ياقوت أم ذهب أم فـضة؟ فقال: إن ربي ليس من شيء، لأنه خالق الأشياء، فنـزلت ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. (تفسير الرازي)

وهذه الرواية أيضا لا تصح عقلاً، لأن المسيحيين أيضا يؤمنون بالله. لا شـك أنهم يشركون معه ﷻ الإلهَ الابن والإله روح القدس، غير أنهم يعلمون جيـدا أن الإله الأب ليس من ذهب أو فضة أو ياقوت أو زبرجد. فتوجيه هذا السؤال مـن قِبلهم محال عقلا.

إذن، فهذه الروايات كلها عن سبب نزول سورة الإخلاص ظنّيّة فقط، فلـيس أي من الأسباب المذكورة فيها يستحقّ أن يكون سببًا لنـزول هـذه الـسورة العظيمة. الواقع أن الله تعالى قد أعلن فيها عن وحدانيته بشكل موجز لكي يفهمه كل مسلم صغير وكبير ويحفظه، ثم لا يزال يعلنه في كل مجلس. وأغلب الظـن أن ورود كلمة ﴿قُلْ﴾ في بدايتها هو الذي جعل هؤلاء يظنون أنها نزلـت ردًّا علـى سؤال، مع أنه ليس ضروريًا أن ترد كلمة ﴿قُلْ﴾ في القرآن الكريم ردًّا على سؤال دائما، بل قد وردت ﴿قُلْ﴾ -على الأغلب- تنبيهًا للنبي ﷺ إلى أن مِـن واجبـه وواجب كلِّ فرد من أمته أن يظلّ يعلن بين الناس عن الأمر المذكور هنـاك، ولا يقصِّر في ذلك أبدًا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

هو: الضمير ﴿هُوَ﴾ في هذه الآية هو ضمير الشأن، كأنه قيل: قل: الشأن هذا، وهو الله أحدٌ لا ثاني له.

الله: هو اسمٌ لتلك الذات المقدسة الأزلية الأبدية، الحي القيوم المالك الخالق ورب المخلوقات كلها، وهو اسم ذاتي له ﷻ.. أي أنه عَلَمٌ له سبحانه وتعالى وليس صفةً. علمًا أنه لا يوجد لهذا الخالق المالك أيُّ اسمٍ ذاتي في أي لغة غير العربية. وهو اسم جامد ليس مشتقا.

أحد: هناك لفظان في العربية لأداء هذا المعنى: الواحد والأحد؛ فقد ورد: "الواحد أوّلُ عدد، يقال: واحد اثنان ثلاثة" (الأقرب). ولكنك تقول "أَحَد" حين لا يكون في ذهنك أيّ تصوُّر عن الثاني والثالث. ويماثله في لغتنا الأردية لفظ (أكيلا).. أي الأوحد، وفي الإنجليزية لفظ: Oneness. وقد ورد في القاموس: "الفرق بين الأَحَد والواحد أن الأَحَد اسمٌ لِمَنْ لا يشاركه شيء في ذاته، والواحد اسمٌ لمن لا يشاركه شيء في صفاته" (الأقرب).. أي أن الأَحد يُستعمل لله تعالى بمعنى التأكيد على وحدانية الله في ذاته.. أي لا تُتصور ذاتٌ أخرى معه، أما الواحد فيُستعمل تأكيدا على وحدانية الله في صفاته.. أي أنه كامل في صفاته ولا يوجد غيره هو كامل في صفاته.

فقوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ يعني أعلنْ بين الناس أن الحق والصدق هو أن الله أحد في ذاته.

التفسير: لقد سبق أن ذكرتُ عند تفسير سورة اللهب أن مضمون القرآن ينتهي عندها؛ وعليه فهي آخر سورة قرآنية بهذا المعنى. والبديهي أنه ليس بوسع

كل إنسان أن يفهم معاني القرآن الواسعة ويحيط بها إحاطة كاملة ويحفظها، فاتّبع الله تعالى -تسهيلاً على الناس- أسلوبًا خاصا بأنْ ذكَر ملخص القرآن الكريم عند ختامه وذلك في السور الأخيرة الواردة بعد سورة اللهب، شأن الكاتب القدير الذي يوجز موضوع تأليفه في بدايته، ثم يلخصه عند نهايته أيضا. لقد افتتح الله تعالى القرآن بسورة الفاتحة التي احتوت ملخص مفاهيمه ومطالبه، ثم في النهاية بيّن ملخص القرآن في سور الإخلاص والفلق والناس. لا شك أن سورة الإخلاص في حدّ ذاتها خلاصة القرآن الكريم، فإننا إذا دقّقنا النظر في مضامين القرآن وجدنا أن جوهر القرآن هو إثبات وحدانية الله تعالى وبيان صفاته وعظمته؛ وأيُّ شك في أن سورة الإخلاص قد قامت ببيان كامل لتوحيد البارئ تعالى وصفات الله وعظمته بشكل موجز؟ غير أننا لو أخذنا في الحسبان مضامين هذه السور الثلاث معًا لتبينّ لنا أنها بمنزلة سورة الفاتحة. إذن، فقد استهلّ الله تعالى القرآن بالفاتحة، وختمه أيضًا بها، وكأنه تعالى قال لنا عند ختام القرآن الكريم: ها قد قدّمنا لكم ملَخّصه، فمن واجب كل مسلم الآن أن يستوعب هذا الملخص ويحفظه ويوصي ذريته ألا يبرحوا يعلنون عنه بين الناس إلى أن تجتمع الدنيا كلها على مركز واحد. وتذكيرًا بهذا الواجب قد ابتدأ الله هذه السور الثلاث بقوله ﴿قُلْ﴾.. أي يجب أن تبلّغوا رسالتي هذه إلى الآخرين، ومن واجب هؤلاء الآخرين أن يبلّغوها لمن بعدهم، إذ قيل لهم: ﴿قُلْ﴾، وذلك كما يفعل البعض في هذه الأيام حيث يبعثون رسالة إلى الآخرين قائلين: مَن بلغتْه هذه الرسالة فليبلّغها غيرَه. إذن، فإن الله تعالى قد بيّن في السور الأخيرة ملخص تعاليم القرآن والإسلام وأوصى قائلا: أيها الإنسان، لقد قرأتَ القرآن كله، وهو للعالم كله، فعليك الآن تبليغه إلى الآخرين. ولما كان من المحال أن يستوعب كل إنسان مفاهيم القرآن كلها ويحفظها، فقد لخّصها الله تعالى تسهيلاً على الناس في السور الثلاث الأخيرة قائلا في مستهلّها: ﴿قُلْ﴾.. أيْ مِن واجبك أيها القارئ، أن توصل الآن هذه المفاهيم للآخرين، ومَن سمعها منك فليبلغها مَن بعده، وهلمّ جرّا، إلى أن تصل إلى العالم كله.

إذن، فكلمة ﴿قُلْ﴾ قد ألزمتْ كل مسلم بإيصال هذه الرسالة إلى الآخـــرين، ولكن ليس أن يبلّغها لهم مرة في حياته، بل يبلّغها في كل مجلس وفي كل مكان. ثم مَن سمعها فليبلّغها الآخرين حتى تنتشر فحوى هذه الرسالة في العالم كله. ولعـــلّ العادة الموجودة عند بعض المسلمين والمسماة بـــ "قُلْ" قد سُمِّيت بهذا الاسم نظرًا إلى قوله تعالى ﴿قُلْ﴾، حيث يجتمعون بعد وفاة قريب لهم ويقرأون القـــرآن بنيّـــة إيصال ثواب قراءتهم للميت. أتذكَّر جيدًا أن أحد أقاربنا غير الأحمديين تُوفّي وأنا صغير، فذهبتُ إليهم للعزاء بدعوة منهم، فلما اجتمعوا في المجلس رأيتُ شيخًا ردّد دعاءً، ثم ناولَه أهلُ الميت مصحفًا، فناولَه الشيخُ مَن كان قاعدًا بجنبه، فناوَلَني إياه، وكنت لا أعرف عن هذه الأمور شيئا، ولا أعرف ما إذا كانت تجـــوز أم لا، وإنْ كنتُ أكره ذلك في قلبي، فأخذتُ منه المصحف ووضعتُه أمامي، إذ لم أعلم ما هو المطلوب مني. فأخذَ أحدهم المصحف من أمامي وناولَه شخصا آخر، أو لعلّه أمرني أن أناوله إياه. فسألتُ أحد الحضور: ما هذه القصة؟ فأخبرَني أنهم ابتـــدعوا هـــذه العادة لإيصال ثواب القراءة للميت. لقد فكّروا أنهم لو أخرجوا صـــدقة لإيـــصال ثوابها إلى الميت فلن يكون المبلغ إلا قليلاً، وبالتالي يكون ثوابها محدودا، ولا يكفي للتكفير عن ذنوبه، فلمَ لا نتصدق بالقرآن الذي لا يُقدَّر بثمن؟ وتنفيذًا لهذه الفكرة يناول أحدهم الجالسَ بجنبه المصحفَ قائلا للميت: أعطيتُك هذا القرآن. وهكـــذا كل واحد منهم يناول صاحبَه المصحفَ ويتصدق بالقرآن للميت، ظنًا منه أن هذا سيكون كفّارةً لذنوبه. فكما قلت: لعلّ هذه العادة سُميت بـــ "قُلْ" لأن المصحف الذي يتصدقون به ينتقل من واحد إلى آخر.

لو أن المسلمين عملوا بما أوصاهم الله به في كلمة ﴿قُلْ﴾ لما بلغوا مـــن الـــذل والهوان ما بلغوه في هذا العصر، ولكان العالم كله تحت قدمي المؤمنين بوحدانية الله ورسالة محمد رسول الله ﷺ. كم كان العمل بهذه الوصية سهلاً! ولكن المـــسلمين أهملوها. لقد قال رسول الله ﷺ للمسلمين في حجة الوداع: "إن أموالكم ودماءكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا. ألا فليبلّغ الشاهدُ الغائبَ." (البخاري: كتاب الحج). وكنتُ قد نصحتُ أفراد جماعتنا

ذات مرة أن مَن يسمع هذه الوصية النبوية فعليه أن يوصلها إلى غيره، لأن هذا أمرُ الرسول ﷺ. والحق أن هذه الوصية النبوية تماثِل ما أمَرنا الله تعالى به في قوله ﴿قُلْ﴾، لأنها إذا وصلت من واحد إلى الآخر، خلقتْ بين القوم صحوة.

باختصار، لقد قال الله تعالى في قوله ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَد﴾ أيها المسلم المؤمن بذاتنا وكلامنا ولا سيما بقرآننا، إننا نأمرك أن تذهب وتعلن بين الناس أن فحوى تعاليم الإسلام هي أن الله أحد.

لقد أشرتُ من قبل أن هذه السور الثلاث الأخيرة تشتمل على مضمون سورة الفاتحة، وبيانه كالآتي: فقول الله تعالى في هذه السورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يحتوي على ما ورد في قوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ... إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ* صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، لأن هذه الآيات تعلّم التوحيد الكامل والتوكل الكامل. والحق أن التوكل الكامل هو نتيجة التوحيد الكامل؛ ذلك أن الإنسان إذا أدرك أن كل ما سوى الله زائف وباطل، فلن يثق بغيره تعالى أبدا. ذلك أن المرء إذا مرض، وكان في القرية أكثر من طبيب، فهناك طبيب يعالج حسب الطب الغربي، وطبيبُ أعشاب وطبيب هوميوباثي، فهذا المريض يذهب إلى الطبيب العادي مثلاً، وإذا لم يُشف من دوائه يذهب إلى طبيب الأعشاب، وإذا لم ينفعه دواؤه يتوجّه إلى الطبيب الهوميوباثي، وإذا كان هناك أطباء كثيرون في تخصص واحد، فإنه يتوجه من واحد إلى آخر ثم ثالث، ولكن إذا لم يوجد هناك أي طبيب، فلن يتوجه إلى أحدهم. فثبت أن قوله ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .... إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ تعلّم التوحيد الكامل. ويمكن القول أيضًا إن قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .... إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يعلّم التوحيد الكامل، أما قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فيعلّم التوكل الكامل. وهذا هو فحوى قوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ أيضا. فالأَحَد مَن لا يوجد سواه، والله تعالى واحدٌ وأَحَد؛ إنه واحد بمعنى أنه منبع المخلوقات كلها، وإنه أَحدٌ بمعنى أن كل الأشياء تختفي أمامه.. أي لا تساوي مقابله شيئا. وهذا هو معنى قوله

تعالى ﴿الحَمْدُ لِلّهِ﴾.. أي أن بعض الناس يقول مثلا: إن هذا الأمر كان بفضل أبي، أما نحن فنقول: إننا لا نرى أحدًا سوى الله، ولذا نقول: الحمد لله. ويقول البعض: إن هذا كان بفضل أستاذي، أما نحن فنقول: نحن لا نرى أستاذًا إلا الله، فنقول: الحمد لله. ويقول البعض: إنما كان هذا بفضل جاري، أما نحن فنرى أن المِنن كلها من عند الله تعالى ولا نرى سواه، فنقول: الحمد لله. فثبت أن قوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ يتضمن مفهوم قوله تعالى ﴿الحَمْدُ لله﴾.

والمفهوم نفسه يوجد في قوله تعالى ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾، أي: لا نرى قبْله أَحَدًا ولا بعده أَحَدًا.

أما قوله تعالى ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ فهو أيضا بالمفهوم نفسه. فهو ردٌّ على قائل يقول: ما دام ما سوى الله موجودًا، فكيف يقال أننا لا نرى شيئًا سوى الله. فأجابه الله تعالى: صحيح أن هناك ما سوى الله من الموجودات، ولكن لا أحد منها كفوٌ له تعالى، بمعنى أنه يعطيك كلَّ شيء مِن عنده، أما الآخرون فإنما يعطونك مما أعطاهم الله لا من عندهم، وكل ما سوى الله عَزَّ وَجَلَّ من المحسنين إليك، فليسوا إلا وسائط بينك وبين الله؛ فما يضع الله في يدهم يوصلونه لك. فهو الله الذي يخلق اللبن في ثدي الأم التي تصبح واسطةً لنقله إلى ولدها، وهو الله الذي يعطي الأب المال، فينفقه على أولاده. فثبت أن موضوع ﴿الحَمْدُ لله﴾ و﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ واحد.

أما قوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فقد تضمّنَ مفهومَه قولُه تعالى ﴿اللهُ الصَّمَدُ﴾، لأن الصمد هو من لا يحتاج لأحد، والجميع يحتاجون إليه، وهو يسدّ حاجاتهم أيضا. فقوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أشار إلى احتياج الجميع إلى الله، وقوله تعالى ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعينُ﴾ أشار إلى أن الله تعالى يعين الجميع ويحقّق مرادهم. وما دام ليس هناك مَن يقدر على سدّ حاجات الناس سوى الله تعالى، فالجميع مضطرون للعودة إليه عَزَّ وَجَلَّ. فثبت من هنا أن سورة الفاتحة والإخلاص تشتركان في المعنى.

إن سورة الإخلاص -مع إيجازها- تبيّن التوحيد الكامل، حيث بيّن الله تعالى فيها ثلاث حقائق:

١: أن الله حق.

٢: أنه فريد في ذاته، بمعنى أنه أَحَدٌ، وليس هناك إلهانِ أو ثلاثة.

٣: أنه واحد في صفاته، أي لا ندَّ له فيها.

يقول الله تعالى ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾.. أي: قُلْ إنكم تقدّمون عن الله تعالى شتى الأقوال والأفكار والنظريات والفلسفات، ولكن الأمر اليقين الأكيد عنه تعالى إنما هو: ﴿اللهُ أَحَدٌ﴾.. أي أنه وحيد فريد في ذاته بكل معنى الكلمة، لا بداية لـــه ولا نهاية، لا مثيل له ولا هو شبيه لأحد.

اعلمْ أن لفظ ﴿أَحَدٌ﴾ ذو خصوصية عجيبة، إذ لا يوجد معه مفهـــوم الـــشيء الثاني، بينما يوجد مفهوم الثاني مع كل الأرقام الأخرى حتى الواحد والأول أيضا. فالواحد يعني الأول بالنظر إلى الآخر، والنسبة تستلزم مفهومَ الثاني بعـــده، وإلا لا يمكن أن يوجد هناك معنى النسبية؛ إذ لا نستطيع أن نقول اليمين من دون فكـــرة اليسار، ولا يمكن أن نقول الشَّمال من دون فكرة الجنوب، أما الأحد فينفي وجود الثاني معه كليةً، إذ لا يُتصوَّر معه الثاني، وأداء هذا المفهوم بلفظ آخر مـــستحيلٌ. فصفة "الأحد" تُنـــزِّهُ الله تعالى عن المخلوقات كلها. والحق أن عظمة الله تعالى إنما تتجلى في أحديّته، لأنه كلما نزل الله تعالى للتعلّق مع مخلوقه فلا بد أن تبدو صفاته محدودةً، شأن الشمس التي يبلغ قُطرها ٨٠٠ ألف ميل (الموسوعة البريطانية تحـــت: Sun)، ولكنها تبدو صغيرة للعيون كونها بعيدة؛ أما إذا اقتربت كثيرًا فلن تقـــدر على رؤيتها، فكما أن الشمس إذا لم تظهر للعيون أصغرَ من حجمها، فلن تقـــدر على رؤيتها لكون العيون محدودة القدرة، كذلك فإن الله الذي صفته الأحد -وهي صفته الأساسية العظمى- عندما يتجلى على العباد فإنما يتجلّى بتجلٍّ ضئيل يستطيع العباد رؤيته؛ ولا شك أنه تجلٍّ غير كامل. فثبت أنه ليست هناك صفة من صفات الله تعالى أدلَّ على عظمته من صفته الأحد.

والواقع أن الله تعالى ربٌّ من منظورين: فهو ربٌّ مِن منظورِ أَحَدِيّته، وربٌّ من منظور مخلوقه، أما ربوبيته من المنظور الأول فهي أعظم من أن يقدّرها أحد، وأما ربوبيته من المنظور الثاني فهي محدودة. كذلك فهو رحمان من منظورين، فرحمانيته

التي تتعلق بأحديته تفوق التصوّر والتقدير، أما رحمانيته المتعلقة بعباده فـيمكن أن يلمسها كل عاقل. والحال نفسه بالنسبة إلى مالكيته وعلْمه. مما يعـني أن صـفاته المتعلقة بالعباد محدودة، أما صفاته المتعلقة بأحديته فغير محدودة؛ ولعدم فهْمِ هـذا الفرق بين هذين الأمرين قد وقع جدال كثير بين الناس، فقال بعـضهم أن الله لا يُرى، وقال غيرهم: بل إنه يُرى، مع أن كلا الفريقين مصيب فيما يقول. فمَن قال إن الله يُرى، فإنما قال ذلك نظرًا إلى تجلّي صفاته المتعلقة بعباده، أما مَن قال إنه ﷻ لا يُرى، فإنما قال ذلك نظرًا إلى صفاته المتعلقة بأحديته. فالحق أن الله تعالى لا يُرى ما لم ننظر إليه من منظور الصفات المتعلقة بعباده، فمَن قال إنه قد رأى الله تعالى، وهو يعني أنه قد رأى صفاته من منظور أَحَديّته، فقد أخطأ، إذ ورد في الحديث أن عائشة -رضي الله تعالى- سألت النبي ﷺ: هل رأيتَ ربَّك؟ قال: نورٌ أَنَّـى أراه؟ (مسلم، كتاب الإيمان)، أما الذي قال إن الله تعالى لا يُرى في أيّ تجلّياته فهو مخطئ أيضا. الواقع أن كلا الفريقين يتكلم من وجهة نظر مختلفة.

باختصار، إن أحدية الله تعالى نوعان: أحدهما ما لا نستطيع إدراكه إلا بأسلوب النفي، ولذلك قال الله تعالى ﴿اللهُ الصَّمَدُ﴾.. أي: هو الذي يـستحيل أن يعمـل الإنسان من دون الاستعانة به شيئًا. وكأنه تعالى يتحدث هنا عن أحديته المتعلقـة بالعباد، فيقول: أنا ذلك الإله الذي لا تستطيعون فعْل شيء من دون عونه ونصرته، فالإعراض عن بابي لن ينفعكم شيئا، وإذا توجهتم إلى غـيري لـسدّ حاجـاتكم فاعلموا أن الجميع محتاجون إليَّ، فمن الغباء أن يؤْثر الإنسان الكأس على الينبوع، فأنا ذلك الينبوع الذي يملأ الناس منه كيزانهم. فما دام الواقع أن كل ما تجدونه إنما تجدونه مني، فلماذا لا تتقربون إليّ وإيايَ تسألون؟

لقد سبق أن ذكرنا عند شرح الكلمات أن من صفات الله الأحـد والواحـد، وبينهما فرقٌ؛ ذلك أننا إذا قلنا واحد، فلا بد من الإقرار بوجود الثـاني والثالـث والرابع وهلمّ جرًا، فكأننا نقرّ أن الأشياء الأخرى قد نبعت منه سبحانه وتعـالى. وكما أن الأرقام ٢ و٣ و٤ وغيرها تنبع كلها من الواحد، كذلك كل ما في الكون قد خرج من عند الله تعالى، وكل شيء بحاجة إلى الله لبلوغ كماله. وكما أنـه لا

نور من دون ضوء الشمس، كذلك من المحال أن يوجد شيء آخر من دون فضل الله وعونه. هذا هو مفهوم كون الله واحدا.

أما صفة الأحد، فمفهومها أن الله أحد فريد في ذاته. فالأحد يفيد النفي بنوعين، أحدهما أنه تعالى لم يصبح من الاثنين واحدًا، والثاني أنه لا يمكن أن يكون من الواحد اثنين. أما الواحد فيمكن أن يكون اثنين إذا عددنا تصاعديا، ويمكن أن يكون من الاثنين واحدا إذا عددنا تنازليا، إذ يوجد بين الله تعالى وغيره من المخلوقات نوع من الاشتراك فيما يتعلق بصفات الله تعالى، حيث نجد في الأشياء الأخرى انعكاسًا لصفاته إلى حد ما، مما يعني أن قولنا: إن الله واحد، إقرار منا بوجود أشياء أخرى معه تعالى. أما لفظ الأحد فلا ثاني معه، لأننا نقول: واحد اثنان ثلاثة، ولا نقول: أحد اثنان ثلاثة. إذًا، فالمخلوق مشترك مع الله تعالى في صفاته إلى حد ما، ولكنه ليس مشتركًا معه في ذاته؛ فمثلاً: إن الله يسمع، ونحن أيضا نسمع نتيجة انعكاس صفاته هذه علينا. يقول بعض الجهلة أن قولنا بأن الله يسمع ونحن نسمع أيضا قولٌ فيه شرك ووثنية، والحق أنه ليس فيه أي شرك، لأن قدرتنا على السمع إنما هي انعكاس لصفة الله السميع. المهم أننا عندما نقول إن الله واحد، فكأننا نقرّ بوجود مخلوقات أخرى تعكس صفات الله تعالى بعونه وقدرته، لأن هناك ٢ و٣ و٤ و٥ بعد الواحد في العد التصاعدي، أما إذا عددنا تنازليًا فنرجع إلى الواحد مرة أخرى، ولكن لفظ الأحد يدلّ أننا لا نستطيع أن نعدَّ أكثر منه فلا نقول: ٢، ٣، ٤، ولا يمكن أن نرجع من الأكثر إلى الأحد.

والحق أن هذا هو أساس الخصام، فكثير من الأمم تقول بأن الله اثنان أو ثلاثة أو أكثر، ثم يرجعون من الكثرة إلى الوحدة ويقولون إنه واحد، كما هو حال المسيحيين الذين يقولون إن الأب والابن وروح القدس كلهم صاروا واحدا. ولكن سورة الإخلاص تبيّن أن هذه الأقانيم الثلاثة إن دلت على وحدانية الله تعالى فإنها لا تدل على أحديته التي يقتضيها التوحيد الكامل. ولما كان من المقدر أن يتفاقم خطأ عقيدة الثالوث في الزمن الأخير خاصة، فنبّه إليه القرآن الكريم عند ختامه وقال ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾.. أي قُلْ إن الله فريدٌ أحد، فلا يمكن أن ينشأ من هذا

الأحد ابن ولا روح قدس، كما لا يمكن أن يصير هؤلاء الثلاثة واحدا. من المحال أن يتنوع هو سبحانه وتعالى، أو يرجع من التنوع إلى الأحد. باختصار، قد أنزل الله تعالى سورة الإخلاص لإثبات أحديته تعالى في الزمن الأخير خاصة.

في هذه السورة الوجيزة، إذ برهن الله على وجوده تعالى، فإنه قد استأصل الشرك كلية أيضًا. والشرك نوعان: أحدهما الاعتقاد بوجود آلهة عديدة وإن كان بعضها أكبر من بعض، وثانيهما: اعتبار كل ما سوى الله مخلوقًا، مع إعطاء بعض هذه المخلوقات درجةَ الألوهية. فالنوع الأول هو شركٌ في ذات الله، والنوع الثاني هو شركٌ في صفات الله، وقد فنّد الله تعالى بقوله ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ عقائد كل أولئك الذين يؤمنون بإلهين أو ثلاثة، أو يتخذون له ابنًا أو بنات، أو يعبدون الأصنام. فبقوله تعالى أولاً ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، ثم بقوله ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾، ثم بقوله ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ قد بين الله تعالى أن الذين يشركون الأشياء الأخرى في صفات الله هم على الباطل، فإن الإنسان مهما كان عظيمًا فهو محتاج إلى الله تعالى في كل حال، إذ من المحال لمخلوق أن يبلغ درجة الله، ولا أن يشترك في فعله تعالى.

ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٣﴾

شرح الكلمات:

الصَّمَد: هو السيّد الذي لا يُقضى دونه أمرٌ؛ الدائمُ؛ الرفيع (الأقرب).

وفي المفردات: "الصَّمَدُ: السيّدُ الذي يُصمَد إليه في الأمر."

التفسير: كان قوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ دعوى، وقد أتى عليها الآن بالدليل فقال: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾. والصمد مَن لا يحتاج إلى شيء، وكلُّ شيء محتاجٌ إليه.

يظن المفسرون أن قوله تعالى ﴿اللهُ الصَّمَدُ﴾ قد جيء به للسجع فقط. وهذا زعم باطل، والواقع أن كل آية في هذه السورة جاءت دليلاً ساطعًا على مضمون

الآية السابقة. لقد أعلن الله تعالى في الآية السابقة أنه أَحَدٌ فريد، والآن قد دلّل على ذلك بقوله ﴿اللهُ الصَّمَدُ﴾.. أي: ما دام كل شيء محتاجا إلى الله تعالى، وما دام سبحانه تعالى يحقّق لنا مرادنا، فأيّ حاجة إلى ربّ سواه؟ إن الاعتقاد برب سوى الله تعالى، يستلزم القول إنه إله عبث -والعياذ به- والعابث لا يكون إلهًا أصلا، فالماء العابث أو الهواء الرديء لا قيمة له، كذلك لا قيمة للإله العابث. إن الله تعالى هو خالق الأشياء كلها وهو يسد حاجات الجميع، وعليه، فالتوجه إلى غيره لسد حاجاتنا عبثٌ ولغوٌ. فثبت من ذلك أن قوله تعالى ﴿اللهُ الصَّمَدُ﴾ قد جاء دليلاً على أحدية الله تعالى.

رُبَّ قائلٍ يقول هنا: القول بأن الله ليس بحاجة إلى أحدٍ إنما هو دعوى دليلها ليس بظاهر أمام الناس، لأن الله لا يُرى بهذه العيون المادية.

ولا يمكن الردّ على هذا السؤال إلا بطريق واحد، وهو أن نبرهن على أن كل ما سوى الله تعالى محتاج إلى غيره، فيتبين تلقائيا أن الله تعالى ليس محتاجا لأحد. ومن الحقائق الجلية جلاء الشمس في كبد السماء أنه ليس في الدنيا شيء هو كامل في ذاته، بل كل شيء بحاجة إلى أشياء أخرى من أجل بقائه. فكل ذرة في الكون تؤثر في الذرة الأخرى، فحينًا يؤثر فيها النور وحينًا الأثير (Ether) المكتشف حديثا، والإنسان الذي يُعتبر أكمل مخلوق فهو محتاج إلى الماء والغذاء، والشمس بحاجة لبقائها إلى أشياء أخرى من غازات وكواكب ونجوم وغيرها، وأما الأرض فهي بحاجة لبقائها إلى أشياء كثيرة من هواء وأثير وجاذبية الكواكب والنجوم الأخرى. فكل شيء -مهما كان كبيرًا وضخمًا- بحاجة إلى غيره، وهذا الاحتياج دليل على أن الكون ليس قائما بذاته، بل هناك مَن يديره ويحافظ عليه، لأن المحتاج إلى غيره لا يكون خالقًا لنفسه، ولا يكون أزليًّا.

قد يقول قائل هنا: إن احتياج الأشياء بعضِها إلى بعض قد اكتُشف حديثًا، فلعلّ البحوث في المستقبل تؤكد أن الكون بمجمله ليس بحاجة إلى أحد من أجل بقائه!

والجواب: أولاً: لعل البحوث المستقبلية تؤكد بشكل أكبر أن الكون بحاجة إلى أحد لبقائه، وهكذا يتضح أكثر أن هناك خالقا له. فهذا الاعتراض لا قيمة له؛ فكم مِن مرة قد تغيّرت البحوث والاكتشافات، ولكنها لم تخالف هذه الحقيقة في أي مرحلة، بل أكدها دائما، فتأكيد كل بحث جديد لها دليلٌ على أن البحوث التالية أيضًا لن تبطلها بل تؤكدها أكثر. ومع ذلك لو افترضنا جدلاً أن هناك ذرة هي كاملة في حد ذاها، فأيضا سيبقى هناك حاجة إلى مَن خلقها على ما هي عليه. غير أنه من المحال عقلاً أن توجد أية ذرة كاملة في حد ذاها، إذ لا يتصف بهذه الصفة إلا مَن يملك الإرادة والقدرة المطلقة.

ثم هناك سؤال آخر وهو: إن المادة التي تُعتبر مكتملةً في حد ذاها يستحيل أن تغيِّر شكلها، لأن التغير يحدث بالتركيب والتفاعل مع شيء آخر، ولا يتفاعل مع شيء آخر إلا ما هو غير مكتمل، أما الشيء المتكامل فلا يقبل التغير ولا يمكن أن يتفاعل حقيقةً مع شيء آخر، إنما مثل تفاعُله مع شيء آخر كمثل خلط السكر بالماء، فإذا جَفَّ الماء عاد السكر إلى حاله. فإذا كان هناك ذرة أو مادة كهذه في الواقع، فلا يمكن أن يُخلق منها هذا الكون، لأن هذا الكون هو محلٌّ التغيرات التي لا نهاية لها.

باختصار، إن التدبر في كائنات العالم يكشف جليًا أن كل شيء هنا عرضة للتغير، وبحاجة إلى شيء آخر لبقائه، لذا فلا بد من التسليم بأن هناك مَن خلق هذه الأشياء المحتاجة وأخضعَها لقانون.

يقول البعض هنا: إن الكون يُدار بقوة خفية.

ولكننا نسأل: هل هذه القوة الخفية ذات إرادة أم لا؟ إذا كانت بلا إرادة فهي مخلوقة من أشياء أخرى، لأن كل قوة في الكون تتولد بحركة الأشياء الأخرى أو بتركيب بعضها ببعض، أما إذا كانت هذه القوة الخفية ذات إرادة، فقد ثبتت دَعْوانا؛ إذ نحن أيضا ندعو إلى الاعتراف بقوة كهذه.

باختصار، قد قدّم الله في قوله تعالى ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ دليلاً رائعًا على وجوده.

ومن معاني الصمد الرفيعُ، وعليه فقوله تعالى ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ يعني أن تلك الذات التي تتميز بالأحدية هي رفيعة الدرجات وغير محدودة، وهي أسمى مـــن القيـــاس. وكأن الله تعالى يخبرنا أنكم مهما صعدتم في تحليقكم إلى الله، فهو تحليق محدود لأن إلهكم رفيعُ الدرجات وغير محدود، وسبل قربه غير محدودة، فمهما صعد أحد فهو سيظل دونه، وليس هناك مقام يقول الواصل إليه إن رحلته إلى الله قد انتهت.

ومن معاني الصمد التي وردت في التفاسير: الغنيُّ، أي: مَن لا يحتاج إلى أحـــد. ولكن هذا المفهوم يؤدي مفهوم الصمد بشكل ناقص، لأن معنى الصمد مزدوج.. أعني أنه يعني: مَن لا يحتاج إلى شيء، وكلُّ شيء محتاجٌ إليه. فثبـــت أن الغـــنيّ لا يؤدي مفهوم الصمد تماما، وإنما يؤدي نصف مفهومه. إن الصمد يماثـــل الـــرحمن معنى، لأن الرحمن يعني مَن يقوم بربوبية المخلوق من دون عمل منه، فإذا قلنـــا إن كل شيء محتاج إلى الله تعالى، فهذا يعني: أن الجنين في رحم أمه أيضا محتاج إليـــه وهو الذي يقوم بربوبيته في الرحم، وأن الغنم والإبل والخيل كلها بحاجة إليه تعالى وهو الذي يسدّ حاجاتها كلها، وأن الآثم أيضًا بحاجة إليه، لأن رحمانيتـــه تربّيـــه، وهكذا تبطل عقيدة الكفارة والفداء. ولعدم فهْم هذا الأمر قد اختُرعـــت عقيـــدة التناسخ الهندوسية التي تفنّدها أيضًا هذه الآيات. ثم عندما نقول إن كل شيء محتاج إلى الله تعالى، فهذا يعني أن ذرات الشمس والقمر والنجوم والأرض بحاجة إلى الله تعالى، فكل شيء -مفردا كان (وهو ما يُسمّى في المنطق بسيطا) أو مركبا- فهـــو محتاج إليه تعالى، وبالتالي فهو ﷻ خالقُ المادة والناس والروح أيضًا. فثبت من ذلك أن الصمدية تتضمن الرحمانية.

الحق أن التوحيد منبع الرحمانية؛ إذ لولا التوحيد لما كانت هناك رحمانية. وخير مثال على ذلك أن الأمم التي لا تؤمن بالتوحيد، لا تؤمن بالرحمانية أيضا، فالهندوس المنكرون للتوحيد، ينكرون رحمانية الله أيضا، إذ يؤمنون أن الإنـــسان لا بـــد أن يعاقَب على ذنوبه، ولا يمكن أن يغفرها الله له. كذلك المـــسيحيون لا يؤمنـــون بالتوحيد، ولذلك يؤمنون بضرورة الفداءِ لغفران ذنوب العباد. فلا خفاءَ ولا مِراءَ في أن الأمم المنكرة للتوحيد تنكر الرحمانية أيضا، وأنه بقدر مـــا تكـــون مؤمنـــة

بالرحمانية، تكون مؤمنة بالتوحيد أيضا، وكلما ابتعدت عن التوحيد ابتعدت عن الرحمانية أيضا، فنجد اليهود يؤمنون برحمانية الله إلى حد ما في هذا العصر، وسببه أنهم يؤمنون بالتوحيد أيضا إلى حد ما. أما الأديان الأخرى فلا تؤمن بالرحمانية ولا بالتوحيد.

لقد أعلن الله تعالى في بداية سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ﴾.. أي أن الله فريدٌ، وفيوضه جارية مستمرة، وأن كل شيء ينتفع برحمانيته ومحتاج إليه. وكأن الله تعالى قد ذكر هاتين الآيتين معًا، ليبين أن التوحيد والرحمانية متلازمان، وأن الصمدية تتضمن الرحمانية، مما يدل على أن الله أحد.

ومن معاني الصمد الدائمُ، أي الأبدي. وقد بين الله تعالى بذلك أنه حق، وأنه أحد، وأنه منذ الأزل وسيظل إلى الأبد. لم يكن قبله أحد ولن يكون بعده أحد، بل هو الأول والآخر.

لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٤﴾

التفسير: لقد أعلن الله تعالى في قوله ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أنه تعالى حق، ولكنه أحد، ثم برهنَ على هذه الدعوى بقوله ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾.. أي أن الدليل على وجوده تعالى أنه ليس في الكون شيء هو كامل في حد ذاته، بل كل شيء بحاجة إلى الأشياء الأخرى، إنما الله وحده الذي لا يحتاج إلى شيء. فاحتياج كائنات العالم كلها دليل ساطع على وجود البارئ تعالى.

ثم قال تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾، وهذا دليل على صمديته تعالى، حيث بيّن أن الاحتياج يكون لسببين: العلاقات الابتدائية (السابقة)، والعلاقات المستقبلية. والمراد من العلاقات الابتدائية أن يتسبب شيء في وجود شيء من العدم. والشيء الذي وُلد وظهر من العدم إلى الوجود بسبب شيء آخر، لا بد أن يكون محتاجا؛ إذ لولا ذلك المسبب لما وجد هذا الشيء. أما المراد من العلاقات المستقبلية فهو أن يكون لذلك الشيء أولاد، لأن وجود الأولاد دليل على حاجة ذلك الشيء إلى

الأنثى، بل دليل على فنائه، لأننا نرى في الدنيا أن الشيء الذي يحقق الغاية مِن خلقه قبل انقراضه، لا يكون له أولاد؛ خذوا مثلا الشمس والقمر والجبال والأنهار والأرض وغيرها، فإن هذه المخلوقات باقية لا تفنى إلى أن تحقّق الغاية من وجودها، ولذلك لا نرى لها نسلاً ولا أولادا، أما الإنسان والحيوان والنبات فتفنى قبل تحقيق الهدف من خلقها، ولذلك يكون لها نسل وأولاد. فثبت أن مَن لم يكن له أب ولا ابن فهو غير فانٍ، وأنه مكتمل في ذاته وأنه أحد.

فبقوله ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ قد نفى الله تعالى العلاقاتِ بنوعيها، وهذا دليل على صمديته من ناحية وعلى أحديته من ناحية أخرى. وكأن هاتين الآيتين معًا تشكّلان برهانًا على الدعوى التي وردت في الآية السابقة.

ثم دفع الله تعالى بقوله ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ شبهةً قد تساور أحدًا هنا بشأن صفته الصمد، فيقول: لو سلّمنا جدلاً أن لا شيء يمكن إنجازه من دون عون الله تعالى، ولكن ألا يمكن أن يفقد الله قدرته في يوم من الأيام؟ إذ نرى في الدنيا أن بعض الناس يملكون سلطة بلا حدود، ثم يُسلَبونها في النهاية، فيصبحون مقهورين ذليلين تماما. ألا يمكن أن يحدث هذا مع الله تعالى؟

قال الله تعالى ردًّا على ذلك: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾.. أي: لو كانت قدرته عُرضةً للفناء لوُجد مَن ينوب عنه، ولكنه ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ ولدًا، والشيء لا يكون في غنى عن النسل والأولاد إلا إذا كان باقيًا حتى تحقيق غايته. فقوله تعالى ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ أكد أنه لا نهاية لقدرة الله وقوته، وأن صمديته قائمة إلى الأبد.

وهناك أمر آخر جدير بالانتباه هنا، وهو أن الله تعالى قد قدَّم قوله ﴿لَمْ يَلِدْ﴾، وأخَّر قوله ﴿ وَلَمْ يُولَدْ﴾، مع أن ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ يدلّ على الأبدية، وقوله ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ يدل على الأزلية، والأزلية قبل الأبدية، فلماذا عُكس الترتيب؟

والجواب: أن الأزلية لا يمكن أن يعلمها أحد، لأن الإنسان وُلد بعدها بكثير، وإنما يمكن أن يعلم الأزلية من خلال الأبدية. وحيث إن تاريخ العالم يدل دلالة واضحة -أولاً- على أن الدنيا لم تُحرَم من عون الله تعالى قط، وأنه -ثانيًا- لم

يكن له ولدٌ قط، فثبت أنه أبديّ، وبالتالي فهو أزلي حتمًا؛ إذ من المحال أن ينجو أحد من الفناء في المستقبل إلا إذا نجا من عيب الولادة في الماضي.

وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴿٥﴾

شرح الكلمات:

كُفُوًا: الكُفؤ: المماثِل يقال: هذا كُفؤه أي مماثله (الأقرب).

وفي "المفردات": "الكُفْءُ في المنزلة والقدر."

فالكفء هو النظير والمماثل في الدرجة.

التفسير: قال المفسرون إن قوله تعالى ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ قد جاء إعادةً وتأكيدًا لما ورد في الآية السابقة. وهو قول غير سليم؛ وإنما الواقع أنه جاء درءًا لشبهة، وذلك أنه حتى وإذا كان هناك مَن صفته أنه لم يولد و لم يلد، إلا أنه تظل هناك شبهة بأنه قد يكون هناك كائن بهذه الصفات، فقال الله تعالى بأن الأمر ليس هكذا؛ إذ ليس الله ابنًا لأحد وليس له ابن، بل لا نظير له ولا مُشابهَ أيضا.

أما السؤال: ما هو دليل على أنه لا نظير له ومماثل، فهو قول الله تعالى ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾(الأنبياء:٢٣).. أي لو كان هناك إلهانِ مماثلان لفسدت السماوات والأرض، لأن وجود إلهين متماثلين (متساويين) يعني أن أحدهما عاطل، إذ لو كانا متساويين في عملهما فما الداعي لوجود الآخر؟

فقوله تعالى ﴿لَفَسَدَتَا﴾ يعني أن غاية خلق السماوات والأرض ستصبح عبثًا. هذا أولاً. وثانيًا: لو وُجد إلهانِ متماثلان متناظران لعمِلا بخطتين متوازيتين، ولانضمّ جزء من الكون إلى أحدهما، والجزء الآخر إلى الآخر، ولكن الواقع يبطل هذا، إذ نجد في الكون كله قانونا واحدا، فالقانون الذي يعمل على الشمس هو نفسُه يعمل على الأرض وما وراءهما من أجرام وكواكب وغيرها. فما دام القانون الجاري في الكون واحدا، فثبت أنه ليس هناك إلهان متماثلان في القوى والقدرات.

ثم إن قوله تعالى ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ يكشف حقيقة أخـــرى بأســـلوب رائع، وهي: مع أن العباد يتصفون بصفات مشابهة لصفات الله تعالى، إلا أنه مـــن المحال أن يكون له ندّ ومثيل في صفاته، لأن الناس لا يتصفون بتلك الصفات اتصافًا يجعل أحدًا منهم كُفوًا لله تعالى. فعلى سبيل المثال إن الإنسان يُبصر ويسمع، ولكن سمعه وبصره محدود وناقص بحيث لا مقارنة بينه وبين الله تعالى فيهما. والحيـــوان يشبه الإنسان في الرؤية والأكل والمشي، ومع ذلك فلا يمكن أن يُعتبر كفوًا ونـــدًّا للإنسان، لأن الإنسان ينجز ببصره وفمه ورجليه ما لا ينجزه الحيوان بها، فالإنسان يرى بعينه الأشياء ويقدِّم نظريات جديدة بناء على ما رأى، ولكـــن الحيـــوان لا يستطيع ذلك، والإنسان يأكل بفمه ولكنه يحرص على ألا يأكل ما يضرّ صـــحته، أما الحيوان فلا يفعل ذلك، والإنسان يمشي برجله مثل الحيوان، ولكنه يمكـــن أن يستعمل بقدميه الدوّاسة فيسوق بها الدرّاجةَ وبعضَ أنواع القوارب، لكن الحيـــوان لا يقدر على ذلك، لأن حركة قدميه محدودة، فلا يمكن أن يكون كفوًا للإنسان. هذا ما يبيّنه الله تعالى هنا، ويقول بأن سمع الله وبصره لا يمكن أن يقاســـا بـــسمع الإنسان وبصره، إذ شتان بينهما؛ فإن الله تعالى يرى ما وراء الوراء ولا تخفى عليه خافية، ولكن الإنسان لا يستطيع أن يرى ما وراء الجدار. كذلك إذا تكلم الإنسان سمِعَه الآخرون، ولكن الله تعالى لو كلّم رسوله في مجلس لم يستطع مَن حوله سماع كلامه، فيخبرهم سِرَّ السرِّ وأخفى الأخفى، من دون أن يعرف الآخرون. فثبت أن الإنسان لا يمكن أن يكون كفوًا لله رغم كونه يسمع ويُبصر. وهكذا دفع الله تعالى الشبهة الناشئة بوجود التشابه بين صفات الله وصفات الإنسان.

لقد بيّنت من قبل أن هذه السورة قد أنزلها الله تعالى للقضاء على الفتن المروعة التي كانت ستنشأ في الزمن الأخير من إلحاد ومسيحية منحرفة، وللتـــدليل علـــى وجوده ﷻ وأحديته ولجمْعِ الأمم على مركز واحد. كانت الأمم قبل بعثة النبي ﷺ تدعو الله بأسماء مختلفة، مثل (God) و(بَرْمَيشور) و(يَزْدان) و(إلوهيم)، وكـــانوا يظنّون لجهلهم أن فلانًا إلهُ الهندوس، وفلانا إلهُ الزرادشتيين، وفلانا إلـــهُ اليهـــود، وفلانا إلهُ النصارى، بل لقد ورد في كتب بعضهم أن إلههم "برميشور" أو إلههـــم

"إلوهيم" يأمرهم بكذا أو كذا؛ مما يعني أن الناس اعتبروا الله تعالى إلهًا قوميا، إلى أن كشف الله عليهم بواسطة النبي ﷺ اسمه الذاتي -وهو ﴿الله﴾- وأخبرهم أن هـــذه الأسماء المختلفة من برميشور ويزدان وإلوهيم وغيرها كلّها تشير إلى الله، وإلا فإن الإله واحدٌ أحدٌ، واسمه العَلَم ﴿الله﴾. وقد أشار الله تعالى إلى هذه الحقيقة بقولــه ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾(لقمان:٢٦)، ولا يعـــني ذلك أنهم سيذكرون اسم الله عند الجواب، بل المراد أنهم بأيّ اسمٍ دعوْه فيكـــون ذلك إشارةً إلى الله تعالى. فالحق أن الإله واحد، وهو خالق الـــسماوات والأرض، وإنْ سمّاه الهندوس بيرميشور والنصارى (God). إنه تعالى ليس إلهًا قوميا، بل هـــو رب العالمين، وكل الأمم تؤمن به باسم أو بآخر.

سورة الفلق

مدنية وهي ست آيات مع البسملة

هذه السورة مكية في قول الحسن وعطاء وعكرمة وجابر. وهي مدنية في قول ابن عباس، وهذا ما قال قتادة أيضا (روح المعاني). ويقول جلال الدين السيوطي في كتابه "الإتقان" أن المختار أنها مدَنية.

والذين اعتبروها مدَنية دليلهم أنها والسورة التالية لها نزلتا في مرض النبي ﷺ الذي قالوا أنه أصيب به نتيجة سحر اليهود له، فكان يدعو بهما وينفث على جسمه. ولما كان هذا الحادث قد وقع في المدينة، فهما مدَنيتان (روح المعاني).

هذا هو استدلالهم على أنها مدنية، وليس معه أي شهادة تاريخية. وليس بأيدينا أيضًا شهادة تاريخية يقينية على أنها مكية، غير أن الاستدلال الذي قاموا به واهٍ جدا؛ إذ من الممكن أن تكون هذه السورة قد نزلت في مكة، وكان النبي ﷺ يقرأها في مرضه في المدينة وينفث في يديه. وحيث إن الله تعالى قد اختتم القرآن الكريم بهاتين السورتين، فيمكن أن نستدلّ من ذلك أن سورة الفلق إما مكية ومدنية معًا، أو هي مدنية، لأن القرآن اختتم في المدينة.

أما حادث مرض الرسول ﷺ الذي ظنّ الناس أنه كان بسبب سحر اليهود (مجمع البيان)، فقد ذُكر في الرواية التالية:

عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: سُحر رسول الله ﷺ حتى إنه ليخيَّل إليه أنه فعَل الشيء و لم يكن فعَله، حتى إذا كان ذات يوم أو ذات ليلة دعا الله ثم دعا ثم دعا، ثم قال: أَشَعَرْتِ يا عائشةُ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَفْتَاني فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ؟ قلت: وَمَا ذَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ جَاءَنِي رَجُلانِ فَجَلَسَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي وَالآخَرُ عِنْدَ رِجْلَيَّ، فَقَالَ الذي عند رأسي للذي عند رجلي أو الذي عند رجلي للذي عند رأسي: مَا

وَجَعُ الرَّجُلِ؟ قَالَ مَطْبُوبٌ. قَالَ: مَنْ طَبَّهُ؟ قَالَ لَبِيدُ بْنُ الأَعْصَمِ. قَالَ: في أي شيء؟ قَالَ: فِي مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ (وهو ما يسقط من الشعر عند مشطه) وَجُفِّ طَلْعَةٍ ذَكَرٍ. قَالَ: فَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ فِي بئر ذي أروان. قَالَتْ: فَأَتَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ في أناس من أصحابه. ثمَّ قال: يا عائشةُ، وَاللَّهِ لَكَأَنَّ مَاءَهَا نُقَاعَةُ الْحِنَّاءِ ولَكَأَنَّ نَخْلَها رُءوسُ الشَّياطين. قالت فقلت: يا رسول الله، أفلا أحرقتَه؟ قال لا، أما أنا فقد عافاني الله تعالى، وكَرِهْتُ أَنْ أُثِيرَ عَلَى النَّاسِ شَرًّا. فأمرتُ بها فدُفِنَتْ. وهذان الملَكان على ما تدلّ عليه روايةُ ابن مردويه عن طريق عكرمة عن ابن عباس هما جبريل وميكائيل- عليهما السلام- ومن حديثها في "الدلائل" للبيهقي بعد ذكر حديث الملكين: "فلما أصبح رسول الله ﷺ غدا ومعه أصحابه إلى البئر، فدخل رجلٌ فاستخرج جُفَّ طلعةٍ من تحت الراعوثة (حجرٌ في أسفل البئر)، فإذا فيها مشط رسول الله ﷺ ومِن مشاطة رأسه، وإذا تمثالٌ مِن شمعٍ، تمثالُ رسول الله ﷺ، وإذا فيها إبرٌ مغروزة، وإذا وتَرٌ فيه إحدى عشرة عقدة. فأتاه جبريل عليه السلام بالمعوذتين فقال: يا محمد ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾،

وحلَّ عقدةً، ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ وحلَّ عقدة، حتى فرغ منهما وحلَّ العُقَدَ كلها، وجعَل لا ينزع إبرة إلا وجد لها ألمًا، ثم يجد بعد ذلك راحة. فقيل: يا رسول الله، لو قتلتَ اليهودي. قال: قد عافاني الله تعالى، وما يراه من عذاب الله تعالى أشد. وفي رواية: أن الذي تولى السحر هو لبيدُ بن الأعصم وبناته، فمرض النبي ﷺ، فنزل جبريل بالمعوذتين وأخبره بموضع السحر وبمن سحره وبمَ سحره. فأرسل ﷺ عليًّا -كرم الله تعالى وجهه- والزبير وعمارًا، فنزحوا ماءَ البئر وهو كنقاعة الحناء، ثم رفعوا راعوثة البئر، فأخرجوا أسنان المشط ومعها وترٌ قد عُقِدَ فيه إحدى عشرة عقدة مغرزة بالإبر. فجاءوا بها النبي ﷺ، فجعل يقرأ المعوذتين عليها، فكان كلما قرأ آية انحلت عقدة ووجد عليه الصلاة والسلام خفةً، حتى انحلت العقدة الأخيرة عند تمام السورتين، فقام ﷺ كأنما أُنشِطَ مِن عقال. الخبر والرواية الأولى أصح من هذه. (روح المعاني)

أما قول النبي ﷺ: "وَاللَّهِ لَكَأَنَّ مَاءَهَا نُقَاعَةُ الْحِنَّاءِ" فمعناه أن ماء البئر كان أحمر يشبه الماء الذي وُضع فيه الحناء فاحمرَّ. ويبدو أنه كان من عادة اليهود أنهم إذا سحروا أحدًا ألقَوا الحنّاء أو ما شابهه في الماء، إيهامًا للناس بأن الماء قد احمرّ بقوة السحر.

وأما قوله ﷺ: "ولَكَأَنَّ نَخْلَها رُؤوسُ الشَّياطين"، فيعني أن النخل حول البئر كانت ذات طلوع كأنها رؤوس الشياطين.

أما قول عائشة رضي الله عنها: أفلا أحرقتَه؟ وقول النبي ﷺ لها: "لا، أما أنا فقد عافاني الله تعالى وكَرِهْتُ أَنْ أُثِيرَ عَلَى النَّاسِ شَرًّا"، فالمراد أن عائشة قالت: لماذا لم تحرق الأشياء التي حاولوا سحرك بها؟ فقال ﷺ: ما دام الله قد شفاني، فلا أريد أن أتيح لليهود فرصةً لإثارة ضجة بأننا أحرقنا ممتلكاتهم.

إن ما روته عائشة -رضي الله عنها- هنا يعني فقط أن الله تعالى أخبر نبيه ﷺ عن طريق ملائكته أن اليهود قد حاولوا أن يسحروه، ولا يعني ذلك أن سحرهم كان قد أثَّر في النبي ﷺ بالمعنى التقليدي الشائع للسحر، بل الواقع أن المرء إذا عادى غيره عداء شديدا أو كرهه كرها شديدا، ركّز عليه كل التركيز للإضرار به، وكما أن السحر يؤثر على الآخر كذلك عملية التركيز هذه تؤثّر على الآخر تأثيرًا كبيرًا، وتسمى "المسمريزم"*، وكأن اليهود سعوْا للتركيز على النبي بهذا النوع من

* المسمريزم: طريقةٌ منسوبة إلى الطبيب الألماني "فرانز أنطون مسمر" (**Franz Anton Mesmer**) (١٧٣٤-١٨١٨) تبحث في الوسائل العلمية -بعيدًا عن السحر والشعوذة- في إمكانية التأثير في عقول وأبدان الآخرين؛ إذ يرى "مسمر" أن كافة الكائنات الحية غارقة في بحر من سائل أو أثير، ويمكن لها من خلاله أن تتواصل عن طريق ما سمّاه " المغناطيسية الحيوانية". وكما أن الشيء المعدني يمكن أن ينقل تأثيره المغناطيسي إلى غيره، كذلك يمكن للكائن البشري أن يركز السائل الأثيري وينقله إلى داخل جسد شخص آخر. (المترجم)

المسمريزم الذي يحاول به البعض التركيزَ على خصمه، فلما أخرج النبي ﷺ من البئر ما حاول به اليهود سحره، ودَفَنَه، ظنّوا (أي اليهود) أن سحرهم المزعوم قد بطُل، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى شفى الله نبيه ﷺ أيضا. خلاصة الكلام أن اليهود كانوا يوقنون أنهم قد سحروا النبي ﷺ، فكان طبيعيا أن يركّزوا على أن يمرض، فكان لتركيزهم هذا تأثيرٌ على جسده، ولكن حين كشف الله تعالى الحقيقة على رسوله ﷺ ودفَن تلك الأشياء، زال أثر تركيز اليهود عليه ﷺ وشفاه الله.

هذه الرواية إذ تدل على ما كان اليهود يكنّونه من عداء شديد للنبي ﷺ، فإنها تبيّن أيضًا أن النبي ﷺ كان رسول الله حقًا، ذلك لأن الله تعالى قد أخبره بمكائد اليهود ضده، فاطّلاعه على هذا الغيب وفشلُ اليهود في هدفهم الخبيث، لدليلٌ ساطع على أنه ﷺ كان نبيًّا صادقًا.

فضائلها: أخرج مسلم والترمذي والنسائي: "قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ آيَاتٌ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾."

ولأن هاتين السورتين ملخّص القرآن الكريم، ثم إنهما تشتملان على مواضيع واسعة عميقة وأنباء مستقبلية، فلذلك اعتبرهما النبي ﷺ أن لا نظير لهما، إشارةً إلى فضائلهما وسعة مفاهيمها.

وقد ذكر صاحب روح المعاني أن البخاري وأبا داود والنسائي قد أخرجوا عن عائشة: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَّيْهِ ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا فَقَرَأَ فِيهِمَا: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ؛ يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ، يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ. (البخاري: كتاب فضائل القرآن)

وجاء في الحديث أن مَن قرأهما مع سورة الإخلاص ثلاثًا حين يمسي وثلاثا حين يصبح كَفَتْه من كل شيء. (روح المعاني)

والمراد من قوله ﷺ: "كفته من كل شيء" أن العمل بتعاليم القرآن الكريم ينجي الإنسان من الآلام والآفات، لأن الذي يقرأ المعوذتين صباحا ومساء لا بد أن يظل

مُلَخَّصُ تعاليم القرآن نصْبَ عينيه صباحا ومساء، وبالتالي لا بد أن يفكر في العمل به، وهكذا سينجو من الآلام والآفات والبلايا.

وكذلك أخرج ابن مردويه عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: اقــرءوا بالمعوذات في دُبر كل صلاة (الدر المنثور). وكذلك أخرج ابن مردويه عن أم سلمة قالت: قال رسول الله ﷺ: مِن أحبِّ السورِ إلى الله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾. (الدر المنثور)

وفي رواية أن النبي ﷺ كان يقرأ في الركعة الثالثة التي يوتر بها بـــ: قل هـــو الله أحد، والمعوذتين. (الدر المنثور).

هذه الروايات كلها تدل على فضائل هذه السورة، وتنبّهنا إلى ضرورة النظر إلى الله كل حين، والدعاءِ الدائم بأن يعيذنا في كنفه. ولما كانت صلاة الـــوتر آخـــرَ صلوات اليوم، فكان النبي ﷺ يقرأ المعوذتين في آخر ركعة فيها. أما قوله ﷺ بـــأن مَن قرأهما صباحا ومساء نجا من الآفات، فمعناه أن على المرء أن يبدأ يومه بتعاليم القرآن وينهيه بها أيضا.

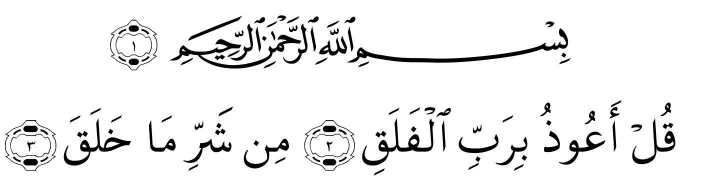
يظنّ البعض أن سورتي الفلق والناس ليستا من القرآن الكريم، وإن كانوا يُقرّون بأن النبي ﷺ قد أملاهما مع القرآن الكريم، وكان يقرأهما عنـــد نهايتـــه، ويـــأمر بقراءتهما. هذا رأي عبد الله بن مسعود -وهو من الصحابة المقربين للرسول ﷺ- ولكنه لا يستند إلى دليل، ذلك أنه لا يؤخذ -فيما يتعلق بالأحداث- إلا بـــشهادة مَن رأى الحدث بأم عينه، أو قال إنه سمعه من الرسول ﷺ، ولكن عبـــد الله بـــن مسعود لا يقول إنه سمع النبي ﷺ ينفي أنهما من القرآن الكريم، كل ما يقوله إن الله تعالى قد أمَر نبيّه بالاستعاذة بهما، فثبت أن القرآن قد انتهى قبلهما! والواضـــح أن هذا مجرد ظنّ. وما دام كبار الصحابة قد أخبروا أن النبي ﷺ قد أملى عليهم هاتين السورتين جزءًا من القرآن الكريم (روح المعاني) فلا قيمة لما يظنـــه عبـــد الله بـــن مسعود، لا سيما مع اعترافه أنهما كانتا تُكتبان مع القرآن وتُقرآن معه، فثبت أنهما جزء من القرآن الكريم يقينا، وقد اختارهما الله تعالى ليَختم بهما القرآن.

الربط والترتيب: لقد بينتُ عند تفسير سورة الإخلاص أن هذه السور الثلاث الأخيرة في المصحف معًا تقدم خلاصة القرآن الكريم، كما تقدم سورة الفاتحة خلاصته في بدايته. فسورة الإخلاص تتناول نفس ما ورد في العبارات التالية من سورة الفاتحة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ و﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ و﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

أما سورة الفلق فتتناول ما ورد في العبارات التالية من سورة الفاتحة: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ و﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾؛ ذلك أن سورة الفلق تبتدئ بـ ﴿قُلْ أَعُوذُ﴾، فكلمة ﴿أَعُوذُ﴾ تشير إلى شرّ، وأُمِرنا بالدعاء للاتقاء منه، فقال الله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾.. أي أعوذ بخالق كل شيء من شرّ كل شيء؛ فبقوله ﴿رَبِّ الْفَلَقِ﴾ أشار إلى قوله ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، في الفاتحة، وبقوله ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ أشار إلى قوله ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾. أما قوله تعالى ﴿مِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ فمعناه: عندما يسود الظلام في كل مكان. وقد بيّن هنا أن صفة ربوبية العالمين لا تنكشف للدنيا أحيانًا، وإنني أستعيذ بالله تعالى من شرّ ذلك. أما قوله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ ففيه إشارة إلى عدم انكشاف الربوبية في حالة معيّنة، ذلك أن الحاسد يحسد الآخرين عندما ينزل الإنعام على بعض والعقاب على بعض. إذن، فقد علَّمنا الله في سورة الفلق أن ندعو: ربّ، احمِنا عند نزول غضبك العام في الدنيا، وأيضا عند نزول غضبك الخاص، حتى لا نكون من الحاسدين ولا من المحسودين الفاشلين. ذلك أن المحسود يفشل أحيانا نتيجة حسد الحاسدين.

فثبت من هنا أن جزءًا من مضامين سورة الفاتحة قد ورد في سورة الإخلاص، وجزءًا منها في سورة الفلق، وجزءًا منها في سورة الناس. وهكذا أُعيد موضوع الفاتحة كله في هذه السور الثلاث الأخيرة. ومما يربط هذه السورة بسورة الإخلاص أن الله تعالى قد علمنا في الإخلاص درس التوحيد الكامل، وأخبرنا أن خلاصة القرآن كله أن الله أحد لا شريك له. أما سورتا الفلق والناس فأمر فيهما

كل مسلم أن يرفع راية توحيد البارئ في زمنه، غيرَ خائف مِن أيّ طاغية جبّار عدوٍّ للإسلام، موقنًا أن الكون كله يتحرك بإشارة الله الأحد وحده، وأنه تعالى قادر على إعطاء كل خير، والحماية من كل شرّ؛ فلا داعي للخوف من المخلوق عند إعلان توحيد البارئ سبحانه وتعالى، لأنه يتولى حماية مَن يسعى لإشاعة توحيده، ولا يستطيع الجبابرة مقاومته عز وجل. ولسورة الفلق علاقة بسورة النصر، ذلك أن الله تعالى قد أخبر رسوله في سورة النصر برقيّ الإسلام وازدهاره الذي لن يحول دونه أي قوة. أما سورة الفلق فنصح الله فيها المسلمين أنهم إذا أصبحوا غالبين بحسب هذه الأنباء الإلهية فعليهم أن ينيبوا إلى الله ويدعوه بألا يُصابوا بضعف وألا تغيب شمسهم، بل تظلّ ساطعة في كبد السماء، وألا يصيبهم شرّ، ولا يختلّ نظامهم، ولا يتشتت شملهم، ولا يستطيع حاسدٌ القضاءَ على حكمهم أو غلبتهم.



شرح الكلمات:

أعوذ: عاذَ به مِن كذا: لجأ إليه واعتصمَ. تقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: أي ألتجئ إلى الله وأعتصم من الشيطان. وعاذ بالشيء: لزمه. ومنه: عاذت بولدها: قامت معه. (الأقرب)

فالمراد من ﴿أَعُوذُ﴾: ١: أعتصم بالله، ٢: أريد أن ألتزم بالله.

الفَلَق: الفلقُ: الصبحُ؛ الخَلْقُ كلُّه؛ جهنمُ؛ المطمئنُّ من الأرض بين ربوتين؛ مقطرةُ السجّان، وهي خشبة فيها خروق على قدر سعة الساق، يُحبس فيها الناس على قطار؛ ما يبقى من اللبن في أسفل القدح؛ والفلقُ من اللبن: المتقطعُ حموضةً؛ الشِّقُّ في الجبل (الأقرب).

وفي "المفردات": "الفلْقُ: شَقُّ الشيءِ وإبانةُ بعضِه عن بعض. وقولُه ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾.. أي الصبح، وقيل: الأنهار المذكورة في قوله ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا﴾".

ويسمى الصبح فلَقًا لأن ظهور بياض النهار يقسم الفضاء شقيْن، وتسمى الأنهار فلقًا لأن مياهها تشق الأرض.

فقوله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ يعني:

١: أعوذ بالرب الذي يخلق الضوء بعد الظلام.

٢: أعوذ بالرب الذي خلق كل شيء، أو خلق جهنم، أو خلق الأرض المستوية أو سهلاً مستويا بين ربوتين.. أو أنزل دين الإسلام الذي هو معتدل بين الإفراط والتفريط.

٣: أعوذ بالرب الذي له السلطة على السجون.

٤: أعوذ برب الأنهار.

٥: أعوذ بالرب الذي له ما بقي في الإناء من لبن.

التفسير: تسمى سورتا الفلق والناس بالمعوِّذتين.. أي السورتان اللتان يُطلب بهما ملاذ الله، وسببُ تسميتهما ابتداؤُهما بكلمة ﴿قُلْ أَعُوذُ﴾، أي أن الله يأمر قارئهما أن يعلن أنه يعتصم برب الفلق ورب الناس من كل شر، فرديًّا كان أو جماعيًّا.

والملاحظ هنا أن الله تعالى قد أمر المؤمن في القرآن أن يلوذ بملاذه ﷻ عند البدء بقراءته إذ قال: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ (النحل:٩٩)، ولكنه تعالى لم يُنْزِل الاستعاذةَ في بداية القرآن؛ إذ لم يبدأه بكلمةٍ مثل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بل استهلّه بقوله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾؛ هذا من جهة، ومن جهة أخرى لم يأمرنا بالاستعاذة به بعد ختم القرآن، وإنما أنزلَ الاستعاذة نفسها عند ختامه في سورة الفلق والناس اللتين لا بد لكل قارئ من قراءتهما عند وصوله إلى نهاية القرآن. وإن في ذلك حِكَمًا عديدة منها:

١: عندما ينوي الإنسان القيام بعمل صالح، فلا يرث أفضال الله تعالى الكاملة بمجرد نيّته، بل حين يريد فعل الخير يرشده الله تعالى إلى الطريق السليم، أي إلى ما يحقق مراده هذا، ولذلك ما أنزل الله تعالى كلمات الاستعاذة في وحي القرآن، إنما اكتفى بقوله إنكم إذا أردتم قراءة القرآن فاستعيذوا به ﷻ، وكأنه تعالى دلّنا فقط على ما يقوّي إرادتنا. أما بعد أن ختمنا القرآن وعمِلْنا به، أنزل الله تعالى آيات الاستعاذة عند ختامه.. أي أنه تعالى علّمَنا الاستعاذة بعونه دون خيار منا. فثبت من ذلك أن الإنسان لما قام بإرادة، أعانه الله أيضا بالإرادة، ولما عمل بالقرآن، أعانه الله أيضًا عمليًا.

٢: إن المسلم عندما يبدأ بقراءة القرآن، سواء من أوّله أو وسطه أو آخره، فلا يكون عندها مطّلعا على تفاصيل أحكامه، إذ لم يكمل قراءته بعد، ولكن عندما يختم القرآن ويصل إلى نهايته، فيكون قد اطّلع على شتى معارفه وأحكامه المفصلة، ويعرف ما عليه فعْلُه وما عليه تجنُّبه، ويتيسر له العلم بأنواع العثرات التي يمكن أن يتعرض لها، أعني أن قراءته القرآن من أوله إلى آخره توسِّع آفاقه؛ فيعرف مسؤولياته وواجباته، فيصيبه القلق مخافة التقصير في أداء واجباته، وقد علّمه الله الاستعاذة نظرًا إلى حالتيْه هاتين، فأمَره بالاستعاذة قبْل البدء في تلاوته، والكلماتُ التي علّمها الرسول ﷺ للبدء في التلاوة وجيزة جدًّا، وكأنها موافقة لعقل القارئ الذي يبدأ القرآن، أما الاستعاذة التي أنزلها الله تعالى عند ختام القرآن الكريم، فمفهومها واسع؛ وقد علّمه الله فيها دعاء كاملا لتجنُّب الأضرار، وهو دعاء يتفق مع حالة ذهن الإنسان الذي قد أنهى القرآن كله، واستوعب مفاهيمه، واطّلع على كل صغيرة وكبيرة منه، وعلِم ماذا عليه فعْلُه، وماذا عليه تجنبه.

فثبت من ذلك أن في كلا النوعين من الاستعاذة حِكَمًا بالغة. إن مثال الاستعاذة في بداية القرآن وفي نهايته، كمثل شخص يريد بناءَ بيت، فيطلب من بعض الصلحاء وضْعَ أساسه، وعندما يكتمل بناؤه يطلب من الصالحين الدعاءَ بالبركة. وهذا هو حال الحسنات أيضًا، فعندما يريد المرء رفع صرح الحسنات، فلا بد أن يضع حجر أساسه بيد الله، وإذا أوشك تشييده على أن يكتمل، فيضع لبنته

الأخيرة بيد الله أيضا. فإنهم حين يستعيذون بالله تعالى قبل البدء في قراءة القرآن، فكأنهم يسألون الله تعالى أن يضع حجر أساس صالحاتهم، وحين يستعيذون بالله تعالى عند ختام القرآن الكريم فكأنهم يسألونه تعالى أن يقوم بافتتاح بيت تقواهم. والحق أن بناء الإيمان لا يكتمل من دون هذين الأمرين. هذه هي الحكمة التي نبّهنا الله إليها حين أمرنا بالاستعاذة عند البدء في قراءة القرآن وعند ختامه في المعوذتين.

٣: هناك إشارة أخرى في الأمر بالاستعاذة قبل البدء في تلاوة القرآن وفي إنزال المعوذتين في ختامه، وهي أن على الإنسان أن يبدأ أمور دينه -فضلاً عن أمور دنياه- في ملاذ الله تعالى ويكملها أيضا في ملاذه تعالى؛ ذلك أن من المحال أن يستغني الإنسان عن نصرة الله وحمايته مهما تقدّمَ في أمور الدين ومعرفة الله تعالى. كان النبي ﷺ أفضل البشر، بل سيد الأنبياء، بل كان الغاية من خلق الكون، أي أن الله تعالى قد خلق الإنسان ليخلق في النهاية محمدا ﷺ، كما أشار إلى ذلك الحديث القدسي: " لولاك لما خلقتُ الأفلاك" (كشف الخفاء للعجلوني: حرف اللام، رقم ٢١٢٣)*، ولكنه ﷺ مع بلوغه هذه الدرجة العظيمة في قرب الله تعالى، كان يطيل القيام في صلاة التهجد حتى تتورم قدماه، حتى قالت له عائشة -رضي الله عنها- ذات مرة: يا رسول الله، لقد غفر لك الله ما تقدّمَ مِن ذنبك وما تأخّرَ، فلماذا ترهق نفسك في صلاة التهجد هكذا؟ فقال: أفلا أكون عبدا شكورا؟

* قال الصغاني: إن هذا الحديث موضوع، ويقول العجلوني: لكن معناه صحيح وإن لم يكن حديثا. غير أن ما يؤكد صحة هذا الحديث هو أن الديلمي قد أخرج عن ابن عباس: أتاني جبريل فقال: يا محمد! لولاك ما خلقتُ الجنة، ولولاك ما خلقت النار. (كنز العمال: ج١١، رقم ٣٢٠٢٥). وقد قال صاحب هذا التفسير رضي الله عنه في تفسير سورة الشعراء: "لا شك أن هذا الحديث إنما هو من طائفة الأحاديث التي قد رواها الصوفية فقط، ولا يعتبره المحدّثون صحيحًا، ولكن الوحي الذي نزل على المسيح الموعود - عليه السلام- قد أكد صحته حيث أوحى الله تعالى إليه أيضًا: "لولاك لما خلقت الأفلاك" (التذكرة ص ٥٢٥ يوم ٤ مايو/أيار ١٩٠٦، وحقيقة الوحي، الخزائن الروحانية المجلد ٢٢ ص ١٠٢). (المترجم)

(البخاري، كتاب التهجد) يعني: لقد منَّ الله عليّ بكل هذه المنن، لذا تضاعفَ واجبي، وصار لزامًا عليّ أن أعبده وأشكره أكثرَ من ذي قبل.

وكذلك روت عائشة -رضي الله عنها- أنها قالت للنبي ﷺ: يا رسول الله، إننا بحاجة إلى العمل من أجل نجاتنا، أما أنت فقد كتب الله تعالى لك النجاة، فلماذا تشق على نفسك بفعل الخيرات؟ فقال: كلا، لن أنجو بعملي، إنما أحظى بالنجاة بفضل الله فقط●.

فثبت أن الإنسان لا يمكن أن يستغني عن حماية الله، مهما فعل الصالحات ومهما بلغ في الروحانية. فما دام النبي ﷺ يقول: إنني لا أنجو إلا بفضل الله تعالى، فمَن ذا الذي يدّعي بعده أنه في غنى عن رحمة الله تعالى، وليس به حاجة لفضله، وإنما يرتقي في الروحانية بقوة أعماله؟

ومع أن المسلمين قد أُمروا أن يظلّوا عاكفين على عتبة الله تعالى مستعينين به، إلا أن أحدهم إذا عمل الصالحات بضعة أيام، أصابه الكِبْر والزهو، وإذا صلّى بضعة أيام أخَذ يمنّ على الله تعالى، وإذا صام أيامًا ظنّ أنه قد أحسن إلى الله تعالى، وأن مِن واجب الله ﷻ أن يحقّق له الآن كل ما يريد، وإذا تبرع قليلاً ظنّ أنه قد صار له على الله حقّ، فيجب أن يخصّه بمعاملة مميزة، وإلا فهو ﷻ مخطئ -والعياذ بالله. هذه هي الأمور التي تدمر الإنسان، ومَن أُصيب بهذا المرض -مهما كانت مكانته عالية- حبطت أعماله وسقط في الحضيض. لذا فعلى المرء أن يستعيذ بالله دائمًا لكي لا يصاب بالكِبْر ولا يُحرَم نِعَم الله تعالى. الكبر يحرمه في البداية، بمعنى أنه إذا عُرض عليه شيء من الخير لم يُطِقْ سماعه، كما يهلكه في النهاية أيضًا، إذ يظنّ أنه قد بلغ من الروحانية ما أغناه عن عون الله تعالى.

● ورد في البخاري: كتاب المرضى، باب نهي تمنّي المريض الموت، عن أبي هريرة قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: "لن يُدخِل أحداً عملُه الجنة". قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: "لا، ولا أنا، إلا أن يتغمَّدني الله بفضل ورحمة". (المترجم)

كان "هُمايون" من الملوك المغول الشهيرين في الهند. وذات مرة كـــان عائـــدًا برفقة جيش عظيم بعد إلحاق الهزيمة بأسرة "سُوري" الأفغانية الحاكمة في البنغـــال، فنـــزل بجيشه على شاطئ نهر في منطقة "بِهار"، فرأى جنوده منتـــشرين في كـــل مكان فقال لغبائه: إذا أراد الله تدمير هذا الجيش، فيستغرق ذلك وقتًا. وكان جيش الأفغان المهزوم قادمًا وراء جيشه ببطء، ولكنهم ما كانوا يريدون الانتقام منـــه؛ إذ كانوا مرهقين ليس بهم قدرة ولا همة، وإنما كان بِنِيّتهم أن يقتلوا من وجدوه مـــن جنود "همايون" مشردًا هنا وهناك، كما يفعل رجال الكوماندوز المسمّون الغوريلا -والغوريلا في الأصل نوع من القرود التي تُغير على حين غرّة- فهؤلاء أيضا كانوا يتّبعون جيش همايون متخفين، ولكن لم يكن عندهم قائد، فما كان بوســـعهم أن يغيروا إغارة واحدة. وكان همايون قد أخذ مَلِكَ الأسرة الأفغانيـــة "شـــير شـــاه سوري" أسيرًا معه، وما إنْ تفوّهَ "همايون" بهذا الكلام السخيف حتى ثارت غيرتـــه "شير شاه"، فقطع الحبال بقوة، وهرب ولحق بالكتيبة الأفغانية. لقد وجد الأفغـــان الآن قائدا، فتشاوروا ثم فاجأوا جيش "همايون" بغارة ليلية، فتشتّتَ جيشه وتبدّد، حتى نجا همايون بصعوبة. وكما يعلم المطّلعون على التاريخ أنه ألقـــى بحـــصانه في النهر، ولكنه وقع في دوامة فغرق، فأشرف "همايون" على الغرق، فأنقـــذه أحـــد السقّائين على وعد منه أنه يعطيه الحُكم لنصف يوم. ثم لم يستطع همايون البقاء في الهند، بل لاذ بالفرار إلى إيران (تاريخ هندوستان (بالأردو): همايون اور شير شـــاه سوري).

فسواء تقدّمَ الإنسان في الدنيا أو الدين، فإذا أصابه الكِبْر هَلَكَ، ولذلك قد أمرنا الله تعالى بالتعوذ في آخر القرآن، فكأنه تعالى قد أوصانا إنكم الآن قـــد ختمـــتم القرآن وتدبرتموه واستوعبتم معارفه وتقدمتم في الروحانية، فلا يـــصيبنّكم هـــذا بالشعور بالتفوق على الآخرين، لأنكم إذا استكبرتم هلكتم. لذا، إذا بدأتم أي عمل من أعمال الدنيا أو الدين، فضَعوا الله تعالى نصب أعينكم دائمـــا، وإذا أتممتمـــوه فانظروا إلى الله أيضا.

وإن في ذلك نبأً أن المسلمين سيصابون بالكبر في الزمن الأخير نتيجة الانتصارات التي يكتبها الله لهم، فتصيبهم أنواع البلايا والدمار، لذا فعليهم الإكثار من قراءة سورتي الفلق والناس، لكي يحميهم الله من الزهو والتباهي ووساوس النفس، فيحميهم من هجمات الأعداء.

وهناك أمر لطيف آخر، وهو أن الله تعالى قد وضع لفظ ﴿قُلْ﴾ قبل ﴿أَعُوذُ﴾، ويقول بعض من لا يتدبرون القرآن: لماذا جيء هنا بلفظ ﴿قُلْ﴾؟ كان يجب أن يقال مباشرة: "أعوذ بربّ الفلق". وحجتُهم أن القارئ إذا قال ﴿قُلْ﴾، فلا يتولد في قلبه حماس كما لو قرأ "أعوذ برب الفلق" مباشرة.

وكان حضرة المولوي عبد الكريم السيالكوتي* ﵁ إذا قرأ هذه السور في الصلاة جماعةً بالناس، يتوقف قليلا بعد ﴿قُلْ﴾، ثم يقول ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾.

والحق أن كلمة ﴿قُلْ﴾ لا تقلّل حماس القارئ، بل تزيده؛ ذلك أن إيراد ﴿قُلْ﴾ هنا يبين أن الرسول ﷺ هو أول المأمورين بالاستعاذة هنا، فلولا ﴿قُلْ﴾ هنا لظن القارئ أن الأمر بالاستعاذة موجَّه إليه فقط، لا إلى الرسول ﷺ. فكلمة ﴿قُلْ﴾ تنبيهٌ للذين قد يستهينون بحكم الاستعاذة هذا، فما دام الله تعالى يأمر رسوله ﷺ بالاستعاذة قائلا له: ﴿قُلْ﴾- أي: أعلنْ للناس أنني أستعيذ برب الفلق رغم بلوغي هذه المكانة السامية مِن قرب الله تعالى، ولست في غنى عن الاستعاذة به تعالى، بل أخرُّ أمام الله تعالى ليعيذني بملاذه دائمًا- فكم بالحريّ بأفراد أمته ﷺ أن يستعيذوا بالله تعالى. فثبت أن إضافة ﴿قُلْ﴾ هنا لم تقلّل الحماس بل تزيده، لأنه ما دام الله تعالى قد أمر أفضل البشر الذي بلغ ذروة الكمالات الروحانية أن يستعيذ به، فكم بالحريّ أن يستعيذ الآخرون بالله ﷻ؟

* كان ﵁ ثاني كبار صحابة المسيح الموعود ؑ، وقد سماه الله تعالى في وحيه للمسيح الموعود ؑ: "زعيم المسلمين". وهو الذي كان له شرف قراءة محاضرة حضرته ؑ في مؤتمر الأديان العظمى بلاهور، التي قد نُشرت فيما بعد باسم "فلسفة تعاليم الإسلام". (المترجم)

وهناك سؤال آخر وهو: إن الاستعاذة بالله تعالى تعني: إلهي، إن الشيطان يتغلب عليَّ بسبب ضعفي وتقصيري فاحمني منه، وهذا المفهوم يماثل مفهوم الاستغفار، وكأن المستعيذ يعترف بذنوبه، ويسأل الله تعالى أن يغفرها له، أما النبي ﷺ فهو معصوم، وقد أعلن أن شيطانه قد أسلم. (مسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب تحريش الشيطان)، فما معنى استعاذته ﷺ بالله إذنْ؟

الجواب: أن الإنسان العادي إذا قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فلا شك أنه يقرّ بذنوبه، أما استعاذة الرسول ﷺ فليست بهذا المعنى ألبتة، لأنه معصوم عن الخطأ، ولذلك قد بدأ الله المعوذتين بـ ﴿قُلْ﴾، تبيانًا أن محمدًا لا يستعيذ بالله تعالى بسبب آثامه، وإنما امتثالاً لأمر الله تعالى، حتى لا يستطيع الشيطان الكيدَ به وبجماعته في المستقبل.

اعلمْ أن كل نبي حريصٌ على أمته حِرْصَ الراعي على غنمه، وكما أن الراعي يلقي نفسه في الخطر أحيانًا لإنقاذ غنمه، كذلك يفعل النبي لغنمه أيضًا، فيستعيذ بالله تعالى كي يحميها من هجمات الشيطان. إن الشيطان لا يشكّل الخطر على النبي، ولكنه يهدّد غنمه حتمًا. فالنبيّ يستعيذ لرد هجوم الشيطان عليه بطريق غير مباشر، لأن الهجوم على أمته هو بمثابة الهجوم عليه؛ فثبت أن استعاذة النبي ﷺ مختلفة عن استعاذة الآخرين.

لقد وردت كلمة ﴿أَعُوذُ﴾ في بداية سورتي الفلق والناس، مما يعني أن كلتيهما تعلّم الإنسان الاستعاذةَ بالله تعالى. وهنا ينشأ سؤال تلقائي: ما دامت كل من هاتين السورتين تشتمل على موضوع واحد، فلماذا لم يجعلهما الله تعالى سورة واحدة؟

اعلمْ أن سورة الفلق تعلِّم الاستعاذة من شرّ المخلوقات الأخرى غير الإنسان عمومًا، أما سورة الناس فتعلّم الاستعاذة من شرور تبدأ من الناس عموما، وواضح أنهما موضوعان منفصلان، ولذلك ذُكِرا في سورتين منفصلتين.

قال الله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾. والرب مَن يربّي الإنسان ويطوّره حتى الكمال، أما الفلق فقد ذكرنا له سبعة معانٍ عند شرح الكلمات وكلها تنطبق هنا.

١: وأوّل معاني الفلقِ الصبحُ، وعليه فقوله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ يعني: قل أعوذ برَبِّ الصبحِ.

لقد بيّنتُ في بداية تفسير سورة الفلق أن لها علاقة بسورة النصر، التي قد بيّن الله فيها أن أساس فتوحات الإسلام وانتصاراته الذي وُضع بيد الرسول ﷺ، سيظلّ يرتفع حتى يكتمل، وإذا حال عائق في طريقه فسوف يزيله الله تعالى كليةً. أما سورة الناس؛ فقد نبّه الله فيها المسلمين أنْ يا أيها المسلمون، ادعوا الله تعالى أن يكمل صرح غلبتكم ويديمها، فلا يقدر عدو على الضرر بهذا الصرح، أو أن تصابوا بالفُرقة، فلا تستطيعوا حماية هذا الصرح.

لقد مكث النبي ﷺ في مكة بعد الدعوة ١٣ عاما، وكانت تلك الفترة تشبه الليلة لما فيها من مصائب وعقبات. وبعدها هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، فبدأ فجر نجاحه، حيث أخذت آثار غلبة الإسلام تنجلي من جهة، ومن جهة أخرى قلّت الصعاب والشدائد. لا شك أن بياض هذا الصبح لم يكن واضحا تماما، وما كان بوسع ضعيف البصر أن يراه، إلا أن حديد البصر كان يراه ويستبشر بطلوع ضوء الشمس بعد قليل، فيراه الجميع وهو ساطع في كبد السماء. لقد طلع فجر المسلمين بعد الهجرة من المدينة، وكانوا يرونه ويدركون أن ضوءه سينتشر في الأفق، ولكن عيون المعارضين كانت قاصرة عن رؤيته، وأخيرًا أخذ هذا الضوء في الظهور، وبدأ المسلمون ينالون الغلبة حتى فُتحت مكة في السنة الثامنة من الهجرة، ونوَّر الإسلام العرب بنوره، ورأى الجميعُ صبحه. وإشارةً إلى ذلك الوقت، يأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يستعيذ ﴿بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ويأمر كل فرد من أمته أن يستعيذ به ﷻ، أي أن من واجبه ﷺ أن يدعو الله تعالى من ناحية أن لا تزال شمس الإسلام ترتفع وترتفع حتى تضيء في كبد السماء وتبهر العيون، ومن ناحية أخرى أنْ يحميهم الله تعالى في زمن الازدهار هذا، لكي لا يصابوا بالانحطاط. لما كان القرآن يخاطب المسلمين من ناحية، والكافرين من ناحية أخرى، فهذه الآية إذ كانت تبشيرًا للمسلمين، فإنها تحذير للكافرين -إذ كانوا يقولون دائما إذا كان محمدٌ شمسًا فأين ضياؤه- بأن

ضياء شمسه على وشك الانجلاء، وسوف يتسبب في انكشاف كل العلوم الروحانية والمادية التي كانت في طيّ الكتمان من قبل، وظهورِ شتى عيوب الناس الخفية تحت حجب الظلام، وسوف يحرز الناس الرقي المادي الذي لم يحرزوه من قبـل. فإننـا نرى أن الشمس عندما تطلع يتولد عند الناس إحساس بالصحوة، فيشتغلون بشتى أعمالهم من أجل رقيهم، كما تنكشف للعيون عيوب الأشياء ومحاسنها، إذ لا فرق بين جميل ودميم في ظلمة الليل، ولا تستطيع أن تفرّق بين الأحمر والأسود والأصفر والأزرق وغيرها من الألوان، أما إذا طلعت الشمس فترى دمامة الـدميم وجمـال الجميل، وتُميِّز بين الأحمر والأسود وغيرهما من الألوان. فالله تعالى ينبّه هنـا أنـه باكتمال القرآن الكريم سوف تطلع الشمس الروحانية الآن، فتزداد العقول ذكـاء وينكشف للناس حسن الأشياء وقبحها، فتُفتح أبواب الرقي على مصاريعها علـى الذين ينتفعون بهذه الشمس، وينال المسلمون الحُكم والعزة والجاه، ويحرزون الرقي في التجارة والصناعة والحرف وغيرها من مجالات الحياة. غير أن على المسلمين أن يتذكروا أنه إذا كان الضوء مصحوبا بالبركات، فإنه يجلب بعض الآفات أيـضا، فهو لا يجلب للإنسان النفع فقط، بل يجلب الضرر أيضا، إذ يغريه زخرف الحيـاة ويحاول إغواءه، فطلوع شمس غلبة الإسلام قد يكـشف كـثيرًا مـن نقائـصهم وعيوبهم؛ لأن الرقي المادي يدفع إلى الركون إلى أسباب الراحة والرخاء والتـرف، فيميل الإنسان للاستمتاع بها بشكل خاطئ، كما أن إحرازه العلوم الروحانية مـع حرمان الآخرين منها قد يصيبه بالكِبْر والعُجب؛ مما يعني أن أخطـارا روحانيـة ومادية أيضًا تهددكم إبّان الغلبة، فالرقي في العلوم الروحانية قد يدفعكم إلى الزهو والعجب، والرقي المادي قد يدفعكم إلى البذخ، لذا نأمركم: ﴿قُلْ أَعُـوذُ بِـرَبِّ الْفَلَقِ﴾.. أي أن الصبح سيطلع حتمًا، وسيحرز المسلمون الرقيَّ ماديًا وروحانيًـا، وستطلع شمس غلبتهم يقينًا، ولكن هناك خطر أن يؤدي هـذا الرقـي إلى نتـائج مدمرة، فليس السؤال كيف يحرز المسلمون الرقيّ، وإنما نخاف عليهم أن يقعـوا في شتّى البلايا نتيجة الازدهار، ولذلك نعلّمهم أن يستعيذوا بالله تعالى مِن شر كـل هذه الأشياء التي خلقها.

إذن، فقوله تعالى ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ إشارةٌ إلى أن المسلمين سينالون كل هذه النعم، إذ إن الله تعالى قد حثهم هنا على الاستعاذة من شر كل شيء، والواضح أن المرء إنما يحتاج الاستعاذة من شر كل شيء إذا كان ميسَّرًا له، فالـذي لا يأكـل اللحم مثلاً فهو ليس بحاجة إلى تناوُل ما يحميه من ضرر اللحم، فثبت أن قوله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ يعني أن المسلمين سينالون كل ما خلق الله من نعمة في الدنيا، ويكون رقيهم واسعًا متنوعًا، ولذلك أمَر الله تعالى رسـولَه ﷺ أن يبدأ في الدعاء لهم من الآن لكي يحميهم الله تعالى مما تكتنفه هذه النجاحات والترقيات والنعم مِن شرور وبلايا.

واعلمْ أن قوله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ دعاءٌ من أجل الكمال الفـردي، بالإضافة إلى الكمال الجماعي أي كمال الأمة؛ ذلك أن الرب هـو مَـن يطـوِّر الإنسان تدريجيا حتى الكمال، وعليه فقوله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ يعـني أن يدعو الإنسان ربه قائلا: يا ربي الذي يأتي بالضوء بعد الظلام، أَخرِجْني من الظلمة إلى النور، ذلك أن الضوء يسطع في الظلام مبدِّدًا حجبه، ثم يزداد إنارةً حتى تطلع الشمس لتصل إلى كبد السماء. إذن، فإن الله تعالى قد علّم هنا الإنسان أن يدعوه: يا ربي الكامل في ذاته، ويا مَن زوّد الإنسان بكل الكفاءات اللازمة لرقيّه، وعلّمـه كيف يكمل نفسه باستعمال هذه الكفاءات في محلّها، وَفِّقْني لإحراز الكمال بفضل ربوبيتك، حتى أضيء في الدنيا كما تضيء الشمس في نصف النهار، واحفظْني من كل مصيبة وشرّ، فلا يمنعني مانع من إحراز الكمال.

٢: ومن معاني الفلق الخَلْقُ كله، وعليه فقوله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِـرَبِّ الْفَلَـقِ﴾ يعني: قُلْ إني أستعيذ بالله، الذي هو رب المخلوقات كلها.. أي أنه خالق كل صغير وكبير من الأشياء.

لقد استعمل الله تعالى هنا كلمة ﴿الفَلَق﴾ بمعنى المخلوقات بدلاً من "الخَلْـقِ"، لأن الفلق أشمل معنى من الخَلق، فالخَلق يدل على إيجاد الشيء فقط، أما الفلق فيدل على إيجاده وتطويره، ثم إن من معاني الفلق أَخْذ الشيءِ من الظلام إلى النور، ومنه

سمي الصبح فَلَقًا؛ فلو استعمل الله تعالى هنا "الخَلْق" مكان ﴿الفَلَق﴾ لما تمّت الإشارة إلى هذا المعنى الإضافي، ولكن الله تعالى قال ﴿الفَلَق﴾، فبيّن أن الإنسان يكون في حالة أدنى، فيطوّره الله تعالى ويجعله أعلى. إذن، فقوله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ قد أدّى مفهومين، أوّلهما: أن الله تعالى أمَرنا بالاستعاذة به، وثانيهما: أنه تعالى بيّن لنا سبب الاستعاذة به.. أي أنه تعالى بيّن لنا أنكم ستستعيذون بمن هو خالق الأشياء ومالكها، والقادر على حمايتكم من ضررها وعلى تطويركم إلى أرقى مقام، إذ هو الرب الذي يطور الأشياء من حالة أدنى إلى الكمال.

وقوله تعالى ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ إشارةٌ إلى أنه ليس في الدنيا شيء لا يمكن أن يتولد منه الشرّ. يظن الناس عمومًا أن بعض الأشياء جيدة وبعضها حسنة، لكن القرآن الكريم يبطل هذا التصور، فيخبر أن كل شيء حَسَنٌ وسيئٌ أيضا، وليس هنالك ما هو حسنٌ خالٍ من الشر، ولا ما هو سيئ خالٍ من الخير. خُذْ مثلا الفقر والغنى، فالغنى يصبح شرًّا من دون فضل الله تعالى، والفقرُ لا يصبح شرًّا مع فضل الله تعالى؛ فكم كان سليمان عليه السلام يملك من أموال وخيرات، حتى أعلن بنفسه أن الله تعالى قد رزقه بغير حساب، ومع ذلك ظلتْ ثروته خيرًا له ولم تسبّب له شرا، كذلك كان عديد من الصحابة أثرياء جدا، فقد ورد أن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ترك عند وفاته مالاً وعقارا بلغ ٢٥ مليون روبية -مع أنه لم يكن أثرى الأثرياء بينهم كما قالوا- إلا أن ثراءه لم يسبّب له أي شرّ. ثم كان الصحابة من قبل في فقر شديد، ولكنه لم يسبب لهم الشرّ، مع أننا نرى أن الفقر هو الذي يجعل الناس لصوصًا وقطاع طرق. فالحق أن الشيء يصبح شرًّا للإنسان إذا خرج من حماية الله وحفظه، ولذلك علّمنا الله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾، أي: لا تقولوا رَبِّ هذا شرّ فادفَعْني عنه، أو هذا خير فائتني إياه، لأنه ليس في الشيء السيّئ من سوء ولا في الشيء الحسَن من حُسْن، إلا بسبب بُعْده عن ملاذ الله تعالى أو قرْبه منه؛ فإذا لم يدخل الإنسان في ملاذ الله تعالى صار الشيء الحسن شرًّا له، وإذا كان في ملاذ الله تعالى أصبح الشرُّ خيرا له. فكم هو جميل أن يكون الإنسان عالمًا بكتاب الله! ومع ذلك قد قال الله تعالى عن علماء اليهود إن مثلهم ﴿كَمَثَلِ

الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ (الجمعة: ٦). وكم يبلغ الشيطان من الشر! ومـــع ذلـــك أعلن الرسول ﷺ أن شيطانه قد أسلم، فلا يأمره إلا بخير. وليس معنى قوله ﷺ إلا أن كل ما يلقيه الشيطان في قلبه ﷺ يتحول خيرًا بعد دخوله فيه.

إذن، فقوله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ تنبيهٌ للإنـــسان إلى ضرورة الاستعانة بالله تعالى وطلب حفظه، حيث علّمَنا أنكم إذا أردتم النجاة مما في المخلوقات من شرّ، فإن الله وحده سوف يحميكم منه، لأنه رب هذه المخلوقـــات كلها، وهو الأعلم كيف يَنتج الخير من كل شر؛ إذ لا يتحرك أي مخلوق من دون إذنه.

ومن معاني قوله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ قُلْ إنني أستعيذ بخالق المخلوقات من العيوب التي يُصاب بها أي مخلوق عند خلْقه، فتعيـــق رقيّـــه وكماله. إننا نرى أن هناك ثلاثة أسباب لفساد الشيء وشرّه: ١: العيـــب الـــذي يصيبه عند ولادته، ٢: العيب الذي يصيبه عند نهايته، ٣: العيب الذي يصيبه بفساد الأحوال التي تمر بها حياته ما بين خلقه ونهايته. فبقوله تعالى ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ قد علَّمنا الاستعاذة من العيب الذي قد يصيب الإنسان عند ولادته؛ لأن العيب الذي يصيبه عند خلقه قد يدمره، ويحول دون تحقيق بُغْيته. فالقلم مثلاً إذا لم يُصْنَعْ جيدًا فلن يستطيع أحد أن يكتب به كتابة رائعة، كذلك البيت الذي لم يُبنَ سقفه جيدًا، سيقطر منه المطر ولن ينعم ساكنه بالراحة، والثوب إذا صُنع دافئا مكان البـــارد أو باردا مكان الدافئ، فلن تستفيد منه شيئًا، والفرس إذا كان ضالعًا فلن تكمل بـــه السفر. فثبت أن العيب الذي يصيب الشيء عند خَلْقه يمنعه من تحقيـــق الهـــدف المرجوّ منه، ولذلك علّم الله ﷻ الإنسانَ أن يدعوَه: رب، إني أعوذ بك من كـــل عيب أو نقص أصابني عند خلقي؛ ذلك أن الإنسان يرث سوء أعمال الوالدَين عند ولادته، فيميل طبعه إلى ما كان آباؤه يرتكبون من منكرات، ولذلك أمر الرســـول ﷺ كلاًّ من الزوجين أن يدعو عند لقائهما: "اللهم جَنِّبْني الشيطانَ وجَنِّب الشيطانَ ما رزَقتنا" (البخاري: كتاب النكاح). فالإنسان يصاب ببعض المساوئ وراثةً، كما نرى أن الأولاد -عادةً- يرثون من قامة الوالديْن وعِلْمهم وهمّتـــهم وأفكـــارهم،

فأولاد السارقين يميلون إلى السرقة عمومًا، والكاذبين إلى الكذب، وأولاد المسلول يصابون بالسلّ. والتجربة تؤكد أن الأسَر التي يبقى فيها العلم طويلا يتعلم أطفالُها العلم بسرعة، وأن الذين يطالعون كثيرا تكون عيون أولادهم واسعةً نسبيًّا، وما هو إلا تأثير علم الوالدين وعادة مطالعتهم. فثبت أن المرء يرث كثيرًا من العيوب والمحاسن من أبويه. وإذا ورث الولد بعض العيوب من والديه سببتْ له عراقيل كثيرة في سباق الحياة، ولذلك علمنا الله تعالى أن نقول ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ* مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ .. أي يا مَن خلقتَني وتربّيني، احْمِني من مغبة أي عيب بقي في خلْقي بتأثير الأبوين -أو بأي سبب آخر- لكي أفوز برضاك وقربك.

باختصار، إن هذه الآية تعلّمنا الاستعاذة من النقائص التي يرثها الإنسان خَلْقًا.

ثم إن الله تعالى قد بيّن بقوله ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ* مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ أن الإنسان جزءٌ من المخلوقات الأخرى.. أعني أن الله تعالى قد ركّبه من كلّ ما يوجد في الكون من جماد ونبات وحيوان، وأن جذوره متشعبة في هذه الثلاثة كلها وإنما هو خلاصتها وثمرها؛ فإذا لم يستمدّ غذاءه من هذه الثلاثة لما عاد إنسانًا. فالعنب مثلاً ينبت من التراب، وإذا قلعتَ جذوره من التراب لم يعُدْ عنبًا، إذ لا بد لنموّه وازدهاره مِن نَبْتَتِه ومن تراب، فإذا لم يوجد التراب لم يعُد للعنب وجود، وإذا كان هناك تراب فقط دون نَبْتَةٍ العنب لم يعُد للتراب قيمة. كذلك لولا خَلْقُ الإنسان من خلاصة هذه النباتات والجمادات والحيوانات لم تعُدْ ذات قيمة، مثل التراب الذي يصبح عبثًا بلا قيمة مِن دون ثمار العنب والشمام والمانجو وغيرها. فالذين يظنون أن بوسعهم الارتقاء بالناس في الروحانية بتحريم الطيبات عليهم ومنْعِهم من سدّ حاجاتهم الفطرية التي جُبلوا عليها، فهُمْ ينسوْن أن الطيبات هي التربة التي تنبت فيها شجرة الروحانية وتنمو وتزدهر وتثمر. إن هذا ما يعلِّمه الإسلام، إنه يعلن أن الإنسان ثمرة الخلاصة التي أُعدَّت من الجمادات والنباتات والحيوانات؛ ومن المحال أن تنمو شجرة الإنسانية إلا بالأخذ في الاعتبار أن جذورها متأصلة في هذه الثلاثة كلها، أما بدون ذلك فلن تبقى الشجرة الإنسانية مخضرّة. لقد نبّهَنا الله بقوله ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ* مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ إلى أن

الإنسان جزء من المخلوقات، وليس في معزل عن الجمادات والنباتات والحيوانات، وإلا لما أَمَرنا الله تعالى بالاستعاذة به من شرها. فقوله ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ يكشف أن من الممكن أن يصيبنا شر أو خير من كل هذه الأشياء التي جذورنا متأصلة في تربتها، فإذا أردنا الرقيَّ فعلينا أن ندعو الله تعالى أن يحمينا من شرها، وأن نضع في الحسبان دائمًا وجودنا هذا الجمادي والنباتي والحيواني، فكما أن الشجرة لا تبقى مخضرة مثمرة ما لم تُسْقَ جذورها بالماء، كذلك لا يمكن أن يصل الإنسان أعلى درجات الروحانية من دون أن يستعمل الطيِّبَ من الجماد والنبات والحيوان، وما لم يتّقِ ما فيه من شرّ. لقد علّمنا الله تعالى هنا علاج الأمراض التي يمكن أن تصيبنا من الجذور، ذلك أن الشجرة تُصاب بالأمراض من جذورها حينًا ومن أوراقها حينًا.

باختصار، لقد أُمرنا هنا أن نستعيذ بالله الذي خلق المخلوقات كلها لكي نستمتع بخيرها ونتقي شرّها، وهذا محال لنا من دون أن يساعدنا خالقها.

ثم إن الله تعالى قد نبّه بقوله ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ كلَّ فردٍ من الأمة إلى أمر هام آخر، وهو أن الله تعالى قد أعطى المسلمين في السورة السابقة (الإخلاص) درْس التوحيد الكامل، أما في هذه السورة فكأنه تعالى قال: يا مَن آمنتَ بنا وبكلامنا ولا سيّما بقرآننا، اذهبْ وأعلِنْ إيمانك بين الناس، وقُلْ ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾.. أي: أيها الناس، إنكم تثقون بآبائكم وأقاربكم وأصدقائكم وعشائركم وأحزابكم وجيرانكم وزعمائكم وحكوماتكم وجيوشكم ومعلّميكم الذين ينقذونكم من الجهل، وأطبائكم الذين يعملون على الارتقاء بمستواكم الصحي ساعين لحمايتكم من الأمراض، ولكني لا أثق بأيٍّ من هؤلاء، بل ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، فقد أعرضتُ عن كل هذه الأشياء، وإلى رب الفلق توجهتُ وعليه توكلت. إذن، فقوله تعالى ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ قول وجيز، إلا أن قائله يتحدى العالم كله، جاعلاً الناس كلهم مراقبين لأعماله؛ فإذا حضر مجلسًا قال: إني لا أكترث ولا أثق بالدولة ولا بالآباء ولا بالإخوان والأخوات ولا بالأقارب والأصدقاء، ثم إذا حضر في مجلس آخر أعاد الكلام نفسه -إذ هو مأمور بترديده دائمًا كما تدل عليه كلمة ﴿قُلْ﴾- فيعلن للحضور: ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾.. أي:

أنني قد سلّمت نفسي لخالق المخلوقات كلها، فلم أعُدْ أتوكل على الأسباب المادية، ثم يعيد الكلام نفسه في المجلس الثالث والرابع وهلمّ جرّا، فيصبح كل إنسان مراقبا لأعماله بعد قيامه بهذه الدعوى الكبيرة، فلو ذهب بعدها إلى مسئول حكومي وسلّم عليه واستعان به على مشاكله، فلا بد أن يعاتبه القوم قائلين: لقد قمت بتحدٍّ كبير، وها قد فشلتَ في العمل به. فكأن الله تعالى قد علَّم كل مسلم بوضع كلمة ﴿قُلْ﴾ هنا أنك قد تعلمتَ منا التوحيدَ الخالص، فاذهبْ الآن وأعلِنْ في كل نادٍ أنك قد أصبحت في غنى عن الدنيا وأهلها، ودخلتَ في ملاذ الله تعالى، ليصبح كل إنسان رقيبًا على تصرفاتك، حتى إذا خالفتَ قولك بعملك كذّبك الناس ولاموك بأنك تقول ما لا تفعل، فقد كنت تدّعي بتسليم نفسك إلى ملاذ رب الفلق، ولكنك حين مرضتَ أو مرض قريبٌ لك، أو تراكمَ الديْن عليك، أو غضب المسئول عليك، أو سخط الأستاذ عليك، أصابك الهلع وأخذت تصرخ وتبكي. لقد كنتَ تدّعي أنك مؤمن بتوحيد الله الخالص، ولا تبالي بأحد سواه ﷻ، فلماذا تخاف الآن عند حلول مصيبة من مصائب الدنيا؟ هذا هو الهدف من إيراد كلمة ﴿قُلْ﴾ هنا؛ ذلك أن الإنسان إذا توجّهَ إلى الله تعالى وقال له: ربّ، قد ألقيتُ نفسي على بابك قاطعًا علاقتي مع كلّ الناس من أقارب وغيرهم، وأصبحتُ في غنى عن كل ما سواك، فإن الله تعالى يقول له: لا تقُلْ لي هذا الكلام، بل اذهبْ وقُلْه للناس واجعَلْهم شهداء على ذلك، حتى إذا تصرفتَ خلافه كذبوك لائمين بأنك تقول ما لا تفعل.

فكأن الله تعالى يقول للمؤمن هنا بأنك قد قرأت الآن القرآن كله، وقد رسخ الإيمان في قلبك بقوة، فلا يجوز لك الآن أن تبقيه خفيًّا، بل لا مناص لك من أحد الاثنين: فإما أن تعلن على الملأ ما تقوله لنا، وتجعل الناس شهداء بل قضاةً عليك، حتى إذا تصرفت خلافه عاتبوك، وإما أن تتخلى عما تدّعي به أمامنا في انفراد قائلاً في صلاتك: ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، فإن دعواك هذه تعني أنك قد قطعت صلتك عن كل مخلوق، وأصبحتَ على صلة مع الله تعالى، فلا تعتمدُ الآن على الوالدين والإخوة والأخوات ولا الأصدقاء ولا المعارف والأقارب ولا القبيلة ولا الحكومة،

ولكن مصداقية هذه الدعوى لن تتضح عليك إلا إذا جعلتَ الناس شاهدين عليها. ومن بلغ هذا المقام العظيم فعلاً، فأَنَّى له أن يقرّ له قرارٌ ما لم يصدِّق دعواه بفِعاله؟

يأتيني بعض الناس ويقول: ادعُ لي ليحقّق الله لي كذا، وأنجح في عمل كذا، ثم يقول أيضا: وأرجوك أن تشفع لي عند فلان بهذا الصدد إنْ أمكن. والحق أن مثل هذه الشفاعة مع الدعاء تتنافى مع التوكل على الله، بل إنّ المؤمن يتمنى أن يذوب خجلاً في مثل هذا الموقف؛ لأنه إذا صار على صلة مع الله تعالى فينبغي ألا يعتمد بعدها على حاكم أو برلمان أو جيش أو دولة أو مسئول.

فالمؤمن يمكن أن يدّعي أمام الناس أن يده في يد الله، ولكنه لو توسّلَ بعدها إلى أحد سواه بإصرار كي يساعده في تحقيق مطلبه، فليس هناك مَن هو أكثر منه ذلاً وهوانًا. لا شك أنه إذا استعان بمن له عليه حقوق، عملاً بأمر الله بالأخذ بالأسباب، فهذا ليس إثما، إنما الإثم أن يتَّكل على شفاعة شافع ويطلبها بإصرار، وإذا لم يتحقق له ما أراد، أصابته صدمة.

كان "المولوي إمام دين" -والدُ القاضي ظهور الدين أكمل- شديدَ الشغف بالتصوّف، وكان مريدًا لبعض الصوفية قبل انضمامه لجماعتنا، وكان كلما وجد فرصة قال لي: إن فلانًا من الصوفية قد أخبره أنه قد سجد على العرش، وفلانًا قد سجد على السماء، وفلانا رأى الله تعالى في السجود، ولكن لا نرى هذه الكرامات في الأحمدية! فكنتُ أجيبه بأدلة كثيرة، ولكنه يأتيني بعد كل سنة أو نصفها ويعيد السؤال نفسه، حتى فهّمني الله تعالى جوابه، فقلت له: ألا ترى أن هؤلاء الذين يزعمون أنهم يسجدون على العرش أو على السماء هم أقلُّ درجة من المسيح الموعود عليه السلام؟ قال: إني أؤمن أن في الأحمدية كل بركة، ولكن السجود على العرش شيء عظيم! قلت: إذا كان هؤلاء يسجدون على العرش، فيجب أن يكون هناك دليل على علاقتهم بالله تعالى؛ فإن المرء لا يخذل صاحبه وإن لم تكن بينهما صداقة حميمة؛ ألا ترى كم كان المسيح الموعود عليه السلام مثقلا بالأعباء، فكان يأكل من دار ضيافته عشرات من الضيوف يوميا في أول أمره، وفي الأخير مئاتٌ، حتى بلغت نفقات الضيافة ما بين ١٥٠٠ إلى ٢٥٠٠ روبية شهريا، ولكن لم يكن

عنده مورد دخل ثابت. لا شك أن أبناء الجماعة كانوا يتبرعون، ولكنه لم يكن دخلا ثابتا، ومع ذلك انظر كيف كان توكُّل المسيح الموعود عليه السلام على ربه، وكيف كان الله تعالى يسدّ حاجاته التي تكلفه أموالاً كثيرة. هل ترى أن هؤلاء المتصوفة الذين يسجدون على العرش قد بلغوا هذا المقام من التوكل؟ فبدأ يفكر لبعض الوقت ثم قال: اليوم فهمتُ الأمر، فادعاؤهم بالسجود على العرش خدعة كله، لأنه عندما يأتي وقت الحصاد يقول هؤلاء الساجدون على العرش لأصحاب الزروع: لا تنسَ أن تبعث لي نصيبي من المحصول. فقلت: هذا هو الفرق بين المتوكل الصادق والمتوكل الكاذب.

فالمؤمن يتوكل على الله في كل حال، وعندما يقول للناس إنني ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، فلا ينظر بعدها إلى العباد، بل يثق بالله تعالى وحده. وأمامنا مثال المسيح الموعود عليه السلام، إذ لم يكن يدري أيأتيه المال غدًا أم لا، ولكنه كان ينفق بلا تردد، والله تعالى لم يضيّق عليه بفضله. فالحق أن المؤمن لا ينظر إلى العباد، بل يتوكل على الله وحده، ثم الأمر متروك لله تعالى الذي يختار في أن يمتحن عبده بالجوع والفاقة، أو بالرخاء. ورد عن الشيخ عبد القادر الجيلاني -رحمة الله عليه- أنه كان يتناول أفضل الأطعمة ويلبس أفخر الثياب، إذ كان ثمن ثوبه الواحد يبلغ ألف دينار أحيانًا، وكان بعض الحمقى يعترضون عليه، فكان يجيبهم: إني لا ألبس أي ثوب إلا بعد أن يأمرني الله تعالى قائلا: يا عبد القادر، أستحلفك بوجهي أن تلبسه. (گلدسته كرامات، ص٨٠)

فالتوكّل يعني أن يصبح العبد لله تمامًا، ولذلك يأمرنا الله تعالى هنا ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾.. أي قُلْ: لقد أصبحتُ الآن لله تعالى تمامًا، فلا أبالي بالناس، فإذا عارضوك وآذوك فقُلْ لهم: إنني لا أبالي بأذاكم وأستعيذ منه بربي.

٣: ومن معاني الفلق جهنمُ، فعليه فقوله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ يعني: أطلب ملاذ اللهِ تعالى خالِقِ جهنمَّ من شدائدها.

لقد قال الله تعالى ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾(الرحمن: ٤٧).. أي أن لعباد الله جنتين؛ جنة في الدنيا وجنة في الآخرة.

ثم إن النظام الذي يقيمه الله تعالى على يد نبيه في الدنيا يسمى جنة أيضًا، كما قال الله تعالى ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾(البقرة:٣٦).. أي: عليك أن تعيش أنت وأتباعُك بحسب هذا النظام الذي أمركم الله به، فتصبح هذه الدنيا جنّةً لكم. ولقد نبهنا الله تعالى بذكر قصة آدم عليه السلام في القرآن إلى أن محمدا ﷺ أيضا آدم عصره، وأنه تعالى قد أقام على يده ﷺ نظامًا مَن عمل به دخل الجنة في هذه الدنيا وعاش براحة وسكينة. فقوله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ تنبيه للمسلمين بأن الله تعالى قد أدخلهم -أفرادا وجماعةً- في الجنة بإنزال القرآن وبعثة محمد ﷺ، كما قال الله تعالى ﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾(آل عمران: ١٠٤)، أي: لقد أنزل الله عليكم السكينة والطمأنينة، وجمعكم على يد واحدة، وجعل بينكم وُدًّا حتى أصبحت الدنيا جنةً لكم، وفزتم بوصال الله تعالى واطمأنت به قلوبكم، فاذكروا هذه النِّعم الربانية، واستعيذوا بربّ جهنم من شدائدها حتى لا تمسّكم.. أي حتى لا تُحرموا السكينة أفرادًا وأمةً.. فلا تنشب بينكم الخصومات والحروب، ولا تُعرضوا عن أحكام القرآن الكريم، فتصبح الدنيا لكم جحيما، وتروا في الآخرة أيضا جحيما.

٤: ومن معاني الفلق: المطمئنُّ من الأرض بين ربوتين؛ وفيه إشارةٌ إلى أن بعض الأمم تميل إلى الإفراط وبعضها إلى التفريط، مع أن الطريق الحقيقي للفوز بقرب الله والأمنِ والسكينة في الدنيا هو الاعتدال والوسطية، ومن أجل ذلك قد سمى الله المسلمين أمةً وَسَطًا.. أي أُمّةً لا إفراط في تعليمها ولا تفريط. ولا جرم أن مثل هذه التعاليم هي الأفضل، وفيها ضمان السلام في الدنيا، ولذلك يأمرنا الله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾، أي: قولوا أيها المسلمون، إننا نستعيذ بالله الذي خلق بين الجبلين سَهْلَ الإسلام الجميل، لكي تنعم الدنيا بالراحة والسكينة. وكأن الله تعالى قد أمرنا أن نقول: نستعيذ بالله الذي أنزل لنا أفضل دين

كالإسلام، وأرسل لنا أفضل رسول كمحمد ﷺ، الذي أعطانا بواسطته أكمل تعليم كالقرآن الكريم، فندعو الله تعالى ألا يصيبنا شرٌّ بشأن هذه التعاليم الرائعة، فننحرف عنها معرضين عن الإسلام، تاركين أهداب محمد ﷺ، فندفع أنفسنا إلى المصائب والشدائد، فتصبح علينا الحياة صعبةً.

ثم إن قوله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ إشارةٌ إلى أن أفضل سبيل لوصال الله والاستفاضةِ من فيوض ربوبيته هو الاعتدال، ومن المحال أن يحظى بوصال الله تعالى بالإفراط أو بالتفريط، نعمْ، إذا اتبع الطريق الوسط بينهما أمكنه وصال الله تعالى. غير أن هناك آلاف العقبات في طريق الوصال الإلهي، بل الحق أن كل ذرة في الدنيا تقف عقبةً في هذا السبيل. إن الذين يفشلون في الوصول إلى الله تعالى إنما يفشلون لأنهم يظنون أنهم قد تخطَّوا كل العقبات في طريقهم، مع أنه يوجد هناك عقبات أخرى لم تخطر ببالهم بعد. إنما يحظى بوصال الله تعالى من يدرك أن كل ذرة في الدنيا تسعى لإغوائه عن الله تعالى، فيأخذ الحذر كله في هذا الشأن من كل شيء؛ من زوجته وابنه وأستاذه وتلميذه وماله وعقاره ومكانته وعزته وما فعله وما لم يفعله، ذلك أن الإنسان يفشل حينًا بسبب ما فعل وحينًا بسبب ما لم يفعل، وتارةً بسبب ما يعلم وتارةً بسبب ما لا يعلم. فطالب الفلاح إنما هو ذلك الذي يخرّ على أعتاب الله تعالى قائلا ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾.. أي: رب، إني لا أعلم أين يتربص بي الهلاك في سبيلي إليك، وما هي العراقيل التي تنتظرني في سلوكي إليك، فأسألك يا خالق الأشياء كلها أن تقيني شرها كلها، فإنك تعلمها وتعلم شرَّها. فأول درجة في سلّم الارتقاء إلى الله تعالى أن يخاف الإنسان كل ذرة في الكون، بل يخاف نفسه هو ويستعيذ بالله من شرها.

ثم إن المؤمن لا يخاف فقط على إيمانه الكِبْرَ الذي يهلك صاحبه، بل يخاف قرب الله أيضا، لأن فيه أيضا مقتل الإنسان، كما حصل مع بلعام بن بعور، وقد نبّه النبي ﷺ إلى هذا الخطر إذ دعا ربه وقال: "لا مَلْجَأَ ولا منجا منك إلا إليك" (البخاري: كتاب الوضوء).. أي: رب، لا ندري ما إذا كان الهلاك سيحلّ بنا في الطريق الذي سلكناه للوصول إليك، فلا سبيل لنجاتنا إلا أنت، فاحمِنا بملاذك.

باختصار، إن قوله تعالى ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ يكشف لنا أن على الإنسان أن يخاف كل ذرة من الكون، إذ لا يعلم ما الذي سيهلكه، وعليه فيجب أن يستعيذ بخالق الأشياء كلها.

٥: ومن معاني الفلق: مقطرةُ السجّانِ.. وهي خشبة فيها خروق على قدر سعة الساق، تُدخل فيها أرجل المسجونين، فيتمّ حبسُهم على قطار واحد، وعليه فقوله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ يعني أنني أستعيذ بمالك السجون مِن أن أُسجَن وأكابد شدائد السجن. وكأن الله تعالى قد علّمنا هنا دعاء جماعيا وفرديا.. فالدعاء الجماعي هو أن يحمي الله أمة الإسلام من التخاصم والتحارب حتى لا يُلقي بعضهم بعضًا في شدائد السجن، أو يزحفَ على الدولة الإسلامية عدو فيدمرها ويذيقَ المسلمين ويلات السجن والقيد ويسلبَ راحتهم وسكينتهم. أما من الناحية الفردية فقد أمرنا الله تعالى أن يدعو كلٌّ منا دائمًا ألا يرتكب -عمدًا أو سهوا- ما يدفعه إلى مكابدة شدائد القيد والسجن؛ إذ لا يمكن أن يُنقِذه منها إلا الله المتصرفُ في القلوب والحاكم الحقيقي، فلو تعرض الإنسان -لا قدّر الله- لمثل هذا الموقف، صرَف الله قلوب مسئولي السجن، فيعاملوه برفقٍ بدل القسوة.

٦: ومن معاني الفلق: ما يبقى من اللبن في أسفل القدح، وعليه فقوله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ يعني: رب، قد آتيتني مِن خلال القرآن هديًا كاملا يشبه القدح المليء لبنًا؛ فأعوذ بك مِن أن أفقد هذا اللبن بسبب تقصيراتي فلا يبقى عندي منه إلا القليل، فأُصاب بالفقر الروحاني بعد الغنى. ورد في الحديث أنه عُرِض على النبي ﷺ ليلة المعراج اللبن والماء والخمر، فتناول اللبن، فقال له جبريل: لو أخذتَ الماء أو الخمر لهلكتْ أمتك، ولكنك قد عملتَ بالفطرة، فأخذتَ اللبن (البخاري: كتاب التفسير). فثبت أن اللبن هو الهدي القرآني، وهو يتفق مع الفطرة الصحيحة. إذن، فالله تعالى قد علّمنا بقوله ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ بأن ندعو الله تعالى بالتوفيق للعمل بهدي

القرآن الكريم كما ينبغي، وللحفاظ عليه، فلا يأتي عليهم زمان يتركون العمل به، فيصبحون كشخص لم يبق في قدحه إلا قليل من اللبن. والمعروف أن الغنيّ إذا صار فقيرًا عانى عناء كبيرًا وشقّتْ عليه الحياة. فالله تعالى قد علّم هنا كل مسلم دعاءً فرديًا بألا يفقد النِّعم التي أُعطيَها والتي ينعم بها بهناء وسكينة، فتشق عليه الحياة. كما علّم المسلمين دعاءً جماعيًّا بألاّ يتحول الرخاء الذي يتمتعون به بسبب غلبة الإسلام إلى معاناة نتيجة زوال غلبتهم وانتهاء حكمهم، فتصبح الحياة صعبة عليهم، بل لو أتى عليهم وقت عصيب كهذا، أخذ الله بأيديهم وهيّأ الأسباب كي تتحول أيام ضعفهم إلى قوة.

٧: ومن معاني الفلق الأنهارُ، وعليه فقوله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ يعني: أستعيذ بك يا خالق الأنهار مِن أن يصيبني أو قومي شرٌّ بسبب الأنهار. والواضح أن الأنهار تروي الأراضي، وبها تخرج الزروع والغلال، فلو جرت المياه في الأنهار على ما يرام وشُقّت منها القنوات لِريّ الأراضي، لنفعت البلاد نفعًا عظيمًا، ولكنها لو جاءت بالفيضانات لأهلكت الزروع وأغرقت الناس. فثبت أن الأنهار مع كونها نافعة جدا، وسببًا للحياة، إلا أن فيها جانبَ الشرِّ أيضا، فإذا ظهر شرها قضت على الحياة بدلاً من أن تكون سببًا في استمرارها. والحق أن هذا هو حال كل شيء، إذ فيه جانب الخير وجانب الشر أيضا، لذلك يعلّم الله تعالى المسلمين هنا ألا يبرحوا يدعون الله تعالى بأن يجعل كل ما أعطاهم من نعمة مادية أو روحانية نافعًا لهم، ويحميهم من شرّه وضرّه، فلا يصابوا بالكبرياء لما آتاهم من علوم غزيرة ومعارف عظيمة، فيحتقروا الآخرين، وعليهم ألا يعتبروا ما آتاهم الله من فضله هو نتيجة كفاءاتهم الذاتية.

وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٤

شرح الكلمات:

غاسِق: غسَقَتْ عينُه غُسوقًا: دمعتْ، وقيل: انصبّتْ، وقيل: أظلمتْ. وغَسَقت السماء غَسْقًا: انصبَّتْ وأَرَشَّتْ. وغسَق اللبنُ: انصبَّ من الضرع. وغَسَق الجرحُ: سالَ منه شيءٌ أصفر. وغسق الليلُ غَسْقًا وغَسَقًا: اشتدّت ظلمتُه. والغاسِق: القمرُ؛ أو الليلُ إذا غاب الشفق واشتدت ظلمتُه، ومنه ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾، قيل: الليلِ إذا دخل، أو الثريا إذا سقطتْ لكثرة الطواعين والأسقام عند سقوطها (الأقرب).

ومن معاني الغاسق: الشمسُ إذا غربت. (تاج العروس)

وفي "المفردات": "غَسَقُ الليل: شدةُ ظلمته. قال: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ وذلك عبارة عن النائبة بالليل كالطارق. وقيل: القمرُ إذا كُسف فاسوَدّ."

وَقَبَ: وقَبت الشمسُ وغيرُها: غابت. وقَبَ الرجل وقْبًا: دخل في الوَقْب؛ غارت عيناه. ووقَب الظلامُ على الناس: دخل وانتشرَ، ووقَب القمر: دخَل في الكسوف. والوَقْبُ: نُقْرةٌ في الصخرة يجتمع فيها الماء، والوقبة: الكُوّةُ العظيمة فيها ظِلٌّ (الأقرب).

وعليه فقوله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ يعني:

١: أعوذ مِن شرّ ظلمة الليل إذا اشتدت.

٢: أعوذ مِن شرّ الوقت الذي تغيب فيه الشمس.

٣: أعوذ مِن شرّ كسوف القمر والشمس.

٤: أعوذ مِن شر الضيق بعد الرخاء.

٥: أعوذ مِن الحوادث التي تقع في الليل.

٦: أعوذ مِن شرّ الوقت الذي يسقط فيه الإنسان في الحفر.

التفسير: لقد بيّنت عند تفسير قوله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ أن هذه الآيات أنبأتْ أن غلبة الإسلام التي بدأت في عهد الرسول ﷺ ستكتمل حتمًا، وأن الله سيعطي المسلمين النعم بكل أنواعها، ثم أَمَر الله المسلمين أن يدعوه أن يعجّل لهم هذه الغلبة من ناحية، ومن ناحية أخرى أن يستعيذوا به سبحانه مِن أن يُصابوا بالمساوئ التي تُصاب بها الأمم الغالبة الحاكمة عادةً، وألا ينغمسوا في الملذات جرّاء الرخاء وكثرة الأموال، وأن لا يتحاربوا فيما بينهم طمعًا في العزّ والجاه. وبعدها يقول الله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾، وقد ذكرنا آنفًا أن الغاسق يعني الليل، والوقوب يعني اشتداد الظلمة، ومن معاني الغاسق الشمسُ إذا غربت، ومن معاني الوقوب الاختفاءُ، وعليه فقوله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ يعني:

١: إنني أستعيذ بالله تعالى من شر الزمن الذي تغيب فيه الشمس ويشتد الظلام.

ويقول الله تعالى للنبي ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ (الأحزاب: ٤٦-٤٧).. أي: لقد بعثناك قدوةً للناس، ومبشرًا للمؤمنين بالرقيّ، ومنذرًا للمنكرين بالعذاب، وداعيًا إلى الله بأمره، وشمسًا مضيئة للعالم. فهنا قد سمّى الله النبي ﷺ شمسا مضيئة، وأنبأ أنّ نوره سينوّر العالم. فبقوله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ قد أشار الله تعالى لرسوله أنه من المقدّر أن ينتشر هَدْيُه في العالم كله وأن يضيء العالم كله كالشمس في كبد السماء، ثم أمره الله بقوله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ أن يدعوه تعالى ألا يختفي وجهه المضيء عن الأنظار في وقت من الأوقات، كي لا يُحرم الناس نورَه، فيخيم الظلام على العالم، كما أمر الله تعالى كلّ فرد من أمته ﷺ أن يدعو الله تعالى ألا يُصابوا بالانحطاط بعد كل ما يعطيهم الله على يده ﷺ من الرقي الروحاني والماديّ، ولا يتخذوا القرآن مهجورا، فيُحرموا نور محمد وضوء القرآن، فيخيم عليهم الظلام، وألا يكون هناك ما يدفعهم إلى هوة الدمار بعد الرقيّ الماديّ،

أما إذا حصل ذلك بسبب أخطائهم فيأخذ الله بأيديهم ثانيةً ويهيئ الأسباب لكي يروا وجه نبيهم المضيء، وتتحول أيام الانحطاط إلى أيام الرقي مرة أخرى.

٢: ومن معاني الغسق الكثرةُ والغزارة، يقال غسقت السماءُ غَسْقًا.. أي انصبّت وأَرَشَّتْ، وغَسَقَت عينُه: دمعتْ، وعليه فقوله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ يعني: أستعيذ بالله من الضيق بعد الرخاء. وواضح أن زيادة المال يضرّ حينًا وقِلّته حينًا، تمامًا كما نرى أن زيادة النور تضرّ العيون تارة، وتارةً تتضرر العيون من شدة الظلام؛ فمن صوَّب نظره إلى الشمس فقَدَ بصره، ومن عاش في الظلام طويلا ضاع بصره أيضًا. فثبت أن الإنسان لا ينعم بالراحة والسكينة إلا باتّباع الطريق الوسط، وقوله تعالى ﴿مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ﴾ دعاءٌ لتجنُّب شرّ كثرة المال. وأما قوله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ فدعاءٌ لتجنُّب شرّ قلّة المال؛ لأن هذه الحالة أيضا خطيرة جدا حتى قيل: "كاد الفقر أن يكون كُفرًا" (شعب الإيمان للبيهقي، والجامع الصغير للسيوطي).. أي أن قلة المال تتسبب في ضياع إيمان المرء في بعض الأحيان، ومن أجل ذلك قد علّمنا الله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾، أي: أن نتوسل إليه تعالى بألاّ يصيبنا الفقر بعد الرخاء؛ ذلك أن الفقير لا يشعر بفقره كثيرا، ولكن مَن رأى ضيق اليد بعد بحبوحة العيش والغنى، صارت حياته أشدَّ عناء.

٣: ومن معاني الغاسق: القمرُ، والشمسُ إذا غربت، ومن معاني الوقوب الخسوفُ والكسوف، وعليه فقوله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ يعني: إنني أستعيذ بك يا رب من شرّ الزمن الذي تُكسف فيه الشمس والقمر.

ولكسوف الشمس والقمر مفهومان:

الأول: أن تختفي الأنوار التي لا بدّ منها لرقي المسلمين، وأن تصبح الأشياء التي تستمد هذه الأنوار من مصدرها غيرَ قادرة على استمدادها؛ فضوء الشمس مثلاً ذاتي، ويستمدّ القمر ضوءه من ضوئها وينير المعمورة، فإذا لم يستطع الاستنارة منها وأظلم، فهذا أيضا يندرج تحت قوله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾. فمع أن هذه الآية دعاءٌ علّمَنا الله إياه، إلا أنها تتضمن نبوءةً أنه سيأتي على الناس زمان يختفي فيه نور الرسول ﷺ عن أنظارهم؛ فلن يستطيع العامة منهم فحسب رؤية

نوره، بل لن يوجد بينهم الصلحاء والأولياء الذين هم بمنـــزلة أقمـــار لـــه ﷺ ويقتبسون من نوره وينشرونه في العالم، ويخيم الظلام على الدنيا، فأمرَنا الله تعـــالى أن نستعيذ به من شرٍّ يمكن أن يصيب الأمة الإسلامية في تلك الحالة.

الثاني: كما يمكن أن يؤخذ الكسوف هنا بالمعنى المادي أيضا، أي تكون هـــذه الآية إشارةً إلى كسوف الشمس والقمر، حيث أمرنا الله تعالى أن نستعيذ من شرّ الزمن الذي يحصل فيه الخسوف والكسوف. فقد ورد في الحديث بكل وضوح أنه سيأتي على أمة النبي ﷺ -بعد رقيها المادي والروحاني- زمانٌ يـــسقطون فيـــه إلى الحضيض، ولن يبقى من الإسلام إلا اسمه، ولا من القرآن إلا رسمه، وتنتشر فـــيهم المساوئ بكل أنواعها، وتنتهي دولتهم وقوهم التي تمتعوا بها ببركة القرآن الكـــريم (مشكاة المصابيح: كتاب العلم، والجامع لأحكام القرآن: سورة النور)، ولكن الله تعالى سوف ينصرهم في ذلك الوقت العصيب ويبعث مِن عنده شخـــصًا باســـم المسيح والمهدي، فيجعل على يديه الإسلام غالبا من كل النواحي، ويستردّ له مجده الغابر، وستظهر عند بعثته آيات كثيرة منها آية كسوف الشمس والقمر في شـــهر رمضان، فقال النبي ﷺ: "إنَّ لِمَهْدِينَا آيَتَيْنِ لَمْ تَكُونَا مُنْذُ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ تَنْكَسِفُ الْقَمَرُ لأَوَّلِ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ وَتَنْكَسِفُ الشَّمْسُ فِـــى النِّـــصْفِ مِنْـــهُ." (الدارقطني: كتاب العيدين، باب صفة صلاة الخسوف).. أي: عندما يُبعث مهدينا لإرساء عظمة الإسلام، تظهر لتصديق دعواه آيتان لم تظهرا لأي مدّعٍ من قبـــل.. وهما أن القمر سينخسف في أُولى ليالي خسوفه في شهر رمضان، ثم في الشهر نفسه تنكسف الشمس في منتصف أيام كسوفه.

فهذا الحديث يتضمن نبوءة معينة عن خسوف الشمس والقمر، وعليه فـــإن الله تعالى قد علَّمنا في قوله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ أن ندعوه أن يحمينا من شر ذلك الزمن الذي يضعف فيه الإسلام، ويقيم الله تعالى المسيح والمهدي لتوطيد عظمة الإسلام ومجده ثانية، فندعوه تعالى أن يجعلنا من أعوانه وأنصاره، ويحفظنـــا من العذاب الذي يحلّ بأعدائه.

٤: لقد ذكرتُ عند تفسير قوله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ أن الله قد علّمنا أن نستعيذ به من النقائص والعيوب التي قد تصيب الإنسان عند خَلْقِه، فتحول دون وصوله إلى الكمال، والآن قد علّمنا الله تعالى في قوله ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ الدعاء أن يحمينا من سوء العاقبة، ذلك أنه في بعض الأحيان تكون البداية جيدة، ولكن العاقبة تكون سيئة؛ إذ تنتهي الحياة بالبعض في غير أوانها، حيث لا يستمرّ خيرُه بل يدمَّر كل شيء، ومن أجل ذلك قد أشار الله تعالى أولاً إلى بداية حياة الإنسان في قوله تعالى ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾، ثم ترك حياته الوسطية وأشار إلى نهايته وقال ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾، فعلّمه أن يدعو: رب، أعوذ بك من شرّ الوقت الذي يسقط في الحفرة الشيءُ الذي قُدِّر له أن يختفي عن الأنظار.. أي حين يموت الإنسان ويُدفن في التراب؛ وبتعبير آخر قد أمر الله تعالى الإنسان أن يدعو: رب، أستعيذ بك من عيوبي الخَلْقية التي قد تحول دون تقدّمي، وأستعيذ بك مِن أن يؤدي موتي إلى ضرر بالدين، أو أن تظل أعمالي غير مكتملة، فتكون عاقبتها شرًّا بدل الخير. والواقع أن موت البعض يُعقِب شرًّا، إذ يموت دون إنجاز عمله، فتكون عاقبة عمله شرًا بدلاً من أن تؤدي إلى خير، لذلك علّمنا الله تعالى أن ندعوَه بأن يحمينا من الشرور التي قد تقع بعد الموت.

ومِن فضل الله عليَّ أنه قد بشَّرني أنّه سينجز أعمالي، وستكون عاقبتي حسنة جدًّا؛ فقد أوحى إليَّ في عام ١٩٤٢ "موتُ حَسَنٍ موتٌ حسَنٌ في وقتٍ حَسَنٍ". فالله تعالى قد اعتبرني في وحيه هذا بُروزًا (مثيلاً) للحسن عليه السلام، وأخبرني أنه سيحقق كلّ النبوءات المتعلقة بشخصي، ويجعل عاقبتي الحسنى، ولن يقع في الجماعة أي فساد. فالحمد لله على ذلك.

لقد قلتُ عند تفسير قوله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ أن للفلق معاني عديدة منها: جهنم، والخشبة التي فيها ثقوب ويقيَّد فيها السجناء، والقليل من اللبن الذي يبقى في أسفل القدح، وهكذا علَّم الله تعالى المسلمين أن يدعوا أن يحميهم مما يدفع الأمم أو الأفراد إلى الجحيم والسجن، وأن يستعيذوا به تعالى من أن يُرفَع القرآن من بينهم فلا يبقى بيدهم منه إلا القليل، فكل هذه الأمور تدل على معنى الزوال

والانحطاط والظلام، أما هنا في قوله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾، فقد علّمنا الله تعالى دعاءً جامعًا لتجنُّب هذه الشرور، فأخبر أن من واجب كل فرد من الأمة أن يتوسل إلى الله تعالى أن يحميهم من الخصام بعد عيشهم في سكينة وطُمأنينة، ومن عيش الذل بعد أن كانوا حكامًا، ومن العيش في الظلام بعد أن كانوا في نور.

لقد بينتُ عند تفسير قوله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ أنه دعاءٌ فردي -بالإضافة إلى كونه دعاءً جماعيا- لإحراز الكمال، وعليه فقوله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ يعني: أن الإنسان لو خيَّم عليه الظلام بعد اهتدائه إلى سبيل الرقي ورؤيته منارة النور نتيجة دخوله في ملاذ الله تعالى، لكان أشدَّ معاناة، إذ مثله كمثل مَن يمشي في النور، ثم دخل في الظلام فجأة، فلم يرَ شيئا. والحق أن المؤمن يمرّ بمثل هذه المراحل في سلوكه الروحاني، إذ يتضح من القرآن الكريم أنه تطرأ عليه حالات مختلفة من القبض والبسط الروحاني، فحينًا يبدو له أنه قد وجد الله تعالى وكأنه في يده، وهي حالة البسط، ثم تطرأ عليه حالة أخرى يشعر فيها أن هذا النور الذي قد رآه قد غاب عنه، وكثير من الحمقى يصابون باليأس عندها ويفشلون بعد أن يكونوا قد أوشكوا على بلوغ غايتهم المنشودة، فيظنون: أن ما رأوه لم يكن نورًا، ولذلك يقول الله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾.. أي: أيها المسلم، عليك أن تدعو الله تعالى: ربّ، إذا تمتّعتُ بنورك، فلا تجعل حالةَ القبض تسبّب لي موتًا روحانيا، بل تدفعني إلى الرقي باستمرار، فلا أرى بعد الكمالِ زوالاً، ولا أموت ميتة حسرة.

ومن معاني قوله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ أن المؤمن بالتوحيد الكامل عندما يعلن -امتثالاً لأمر الله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾- أنه لا يثق بأحد سوى الله تعالى، فلا بد أن يواجه المعارضة، فيصبح الأصدقاء أعداء، والمتعاطفون معارضين، فيخيِّم عليه الظلام، فأمره الله تعالى أن يستعيذ به وحده عندها.

كما أن الله تعالى كان قد علّمه الدعاء لإحراز الكمال في قوله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، وعليه فقوله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ يعني: أن على

الإنسان أن يتوسل إلى الله دائما بأن يحفظه -خلال جهوده لإحراز الكمال- من شرّ ما يمكن أن يؤثّر فيه وهو غافل، أو يضرّه على حين غرّة منه.

وهنا ينشأ سؤال وهو: ما دام من المقدَّر أن يخيّم الظلام على المسلمين فما الداعي للقيام بهذه الأدعية؟

والجواب: لا شك أن هذه الأدعية لم ينتفع منها كل المسلمين و لم ينجوا من الشرور، إلا أن الله تعالى قد حافظَ ببركة دعاء الرسول ﷺ والمسلمين الآخرين على بذرة الإسلام في كل زمن، فلم يزل هناك في كل عصر قبسٌ من ناره، توقد منه النيران ثانيةً. إذن، لقد أمر الله رسوله أن يقوم بهذه الأدعية لكي ينجو ببركتها مِن المسلمين في زمن رقيهم مَن كان على علاقة صادقة مع الرسول ﷺ، وهكذا أصبح النبي ﷺ شفيعًا لأهل كل عصر. ولما كان الشر الذي أخبر الله عنه هنا في قوله ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ ذا صلة بالأمة كلها، فمَن نال نصيبًا من أدعية الرسول ﷺ بسبب علاقته الصادقة به ﷺ من أهل القرن الأول، فكأنه قد نجا نتيجة شفاعته ﷺ المتمثلة في دعائه، وأصبح النبي ﷺ شفيعا لهم، كذلك كل من كان على صلة مع الرسول ﷺ من أهل القرنين الثاني والثالث وما بعدهما، فقد استحق شفاعته وحُفظ ببركة دعائه من الشرور الروحانية، وهكذا قد نجا مئات الآلاف في كل عصر ببركة صلتهم الصادقة مع النبي وانسجام أدعيتهم مع أدعيته ﷺ. ومع أن الشرّ ما زال يتفاقم والظلام ما فتئ يشتدّ، حتى إذا اختفى نور محمد ﷺ عن الأنظار، وتحقق قوله ﷺ: "لا يبقى من الإسلام إلا اسمه، ولا يبقى من القرآن إلا رسمه" (شعب الإيمان للبيهقي: ٣١١/٢ رقم ١٩٠٨، ومشكاة المصابيح: كتاب العلم، والجامع لأحكام القرآن: سورة النور)، واتخذ المسلمون القرآن مهجورًا، أقام الله تعالى ببركة دعائه ﷺ رجلاً فارسي الأصل لإنقاذ الإسلام، فجاء بالقرآن من السماء إلى الأرض ثانية، فتحولت ليالي المسلمين أيامًا مشرقة. فثبت أن أدعية الرسول ﷺ وأدعية أفرادٍ من أمته لم تذهب سدى، بل ببركتها قد قرّر الله تعالى طلوع قمر في سماء الإسلام ليُرِيَ الناس وجهَ محمد ﷺ، كما يُري البدرُ في ليلته الرابعة عشرة وجهَ الشمس.

وليكن معلومًا أيضا أن القرآن لا يختتم بالمعوذتين، بل كما هي العادة عند المسلمين فإن أحدهم إذا بلغ نهاية القرآن عاد وقرأ شيئًا من أوله فورًا لكي لا تنقطع سلسلة التلاوة القرآنية هذه. والواضح أن القرآن يبدأ بقول الله تعالى ﴿الحَمْدُ للهِ رَبِّ العالمين﴾، وإذا كان من سنة الله تعالى أن يتلو كلَّ رُقيٍّ انحطاطٌ، كذلك من سنته تعالى أن يَطلع بعد كل ليل نهارٌ حتمًا، ومن أجل ذلك تطلع الشمس المحمدية ثانيةً ببركة الاستعاذة التي قام بها النبي ﷺ. إن شمس الأنبياء السابقين إذا غربت، قامت أمة جديدة، ولكن من خصوصية القرآن أن الحمد يعود ثانية ببركة الاستعاذة في ختامه، فتُعاد العملية نفسها ثانيةً. وكأن الله تعالى قد بيّن بذلك أن مَن عمل بهدي محمد فلا بد أن يترقى، ثم يمر بهذه الظروف الصعبة، فينقذه الله تعالى ببركة استعاذة محمد ﷺ، فيبدأ الفلق المحمدي في الظهور مرة أخرى. فالحكمة في إيراد الاستعاذة (المعوذّتين) في ختام القرآن الكريم هي الإشارة إلى أن الدين المحمدي لن ينتهي. إن الكتب السابقة بدأت بالتعوذ، فانتهت، أما القرآن فقد أُمرنا بالتعوذ في بدايته، كما أنزل الله الاستعاذة عند ختامه أيضا، وأمَر كل فرد من الأمة بدعاء الاستعاذة، فكأن ذلك إعلام بأن دين محمد ﷺ لن ينتهي، بل سيبقى إلى يوم القيامة.

وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلْعُقَدِ ﴿٥﴾

شرح الكلمات:

النفّاثات: جمعُ النفّاثة، ونَفَثَ مِن فيه: رمى به. ونفَث الجرحُ الدمَ: أظهره. ونفَث: بزَق؛ وقيل بَزَقَ ولا ريق معه، أو هو كالنفخ وأَقَلُّ من التفل. ونفث فلانا: سحَره. ونفثت الحيّةُ السمَّ: نكَزتْ. ونفَث القلمُ: كتَب. ونفث الله الشيءَ في القلب: ألقاه. (الأقرب)

فالمراد من النفاثات: ١: الجماعات أو الفئات أو النفوس التي تبزق كثيرا، ٢: أو تنفث السمّ، ٣: أو توسوس في القلوب. ٤: أو تكتب كثيرا.

العُقد: جمعُ العُقْدَة، ومن معانيها: الولايةُ على البلد؛ الضيعةُ؛ العقارُ الذي اعتقده صاحبُه مِلْكًا، أي اقتناه؛ موضعُ العَقْد؛ ما يمسك الشيءَ ويوثقه؛ البيعةُ المعقودة لهم أي للولاة؛ المكانُ الكثير الشجر والنخل والكلأ الكافي للإبل؛ ما فيه بلاغُ الرجل وكفايته؛ كلُّ أرض مخصبة؛ والعقدةُ مِن كل شيء: وجوبُه وإحكامه وإبرامه. (الأقرب)

وفي "المفردات": العَقْد: الجمعُ بين أطراف الشيء... ثم يستعار ذلك للمعاني نحو: عقد البيع والعهد وغيرهما."

وعليه، فقوله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ يعني:

١: أستعيذ من شرّ النفوس التي تفسد صداقات الناس ومعاهداهم.

٢: أستعيذ من شرّ الفئات التي تحرّض على محاربة الخلفاء ونقض بيعتهم.

٣: أستعيذ من شر النفوس التي تدمّر وحدة المسلمين وتقضي على حكوماهم.

التفسير: ١: كما ذكرنا آنفًا أن من معاني العُقدة الولايةُ على البلد والبيعة للولاة، والمراد من النفث في العقد محاولةُ قطع العلاقات، ذلك أنه كان من عادة العرب فَتْحُ العُقَد في الخيوط والنفثُ فيها عند قطع العلاقة مع الآخر، كما يفعل السحرة اليوم للتفريق بين الناس، يقال: فلان ينفث في العقد، أي يحاول قطع علاقات المحبة بين الناس، وعليه: فقد أمر الله تعالى المسلمين بقوله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ أن يدعوه أن يحفظهم من شرِّ قومٍ يحاولون نقض بيعتهم وتشتيت شملهم.

لقد أنبأ الله تعالى في الآيات السابقة عن انحطاط المسلمين، أما الآن فأشار إلى أحد أسباب انحطاطهم، حيث أخبر ﷻ أنه بعد وفاة النبي ﷺ ستقوم الخلافة في الأمة لجمْعهم على يد واحدة، فيتمتعون ببركاها الكثيرة، ولكن سيفتر ولاءهم للخلافة وتنتهي بعد فترة، فيتشتتْ شملهم وتنقطع الصلات بين الراعي والرعية، إذ

تهبّ مِن كل قطر من الأقطار التي فتحها المسلمون فئةٌ تعادي الإسلام وتعمل بمنتهى المكر والخداع ضد أهله، فتنشر بينهم أفكارا تبثّ في قلوب ضعفائهم مشاعرَ التمرد والعداء، فيقطعون صلة ولائهم عن خلفائهم، حتى يخرجون على خلفائهم ويحاربونهم، وتحدث الفوضى بين المسلمين وينتهي ولاؤهم للخلفاء، ويتشتت شملهم، وتنقلب أيامهم إلى ليالٍ حالكة، ويتوقف رقيهم وازدهارهم، ويتحاربون فيما بينهم ويسعّرون بأيديهم جحيما لهم، وتغيب من بينهم الروحانية والطهارة، إذ يقطعون صلتهم عن الجذور التي تجلب لهم هذه البركات، ولذلك قد علّمهم الله تعالى أن يدعوه أن يُدخلهم في كنفه وينقذهم من شر تلك الأيام.

ومن معاني النفث الكتابةُ، وعليه فالنفاثات هي النفوس أو الفئات التي تكتب كثيرا، وعليه فقوله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ إشارة إلى نشر المنشورات المعادية لله ورسوله في الزمن الأخير على نطاق واسع، مما يثير فتنةً عظيمة وشرًّا مستطيرًا في العالم، وقد علَّم الله المسلمين أن يدعوه تعالى بأن يُعيذهم بملاذه من تلك الفتنة الصمّاء، ويحميهم من شر ذلك الزمن الذي تُنشر فيه الكتب بكثرة ضد الله ورسوله.

كما فيه إشارة ضمنية إلى إعداد المنشورات لإفساد العلاقات بين الحكام والرعايا في الزمن الأخير.

٢: لقد بيّنتُ عند تفسير قوله تعالى ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ أن الله تعالى قد علّمنا فيه دعاءً للنجاة من شر المساوئ الخَلْقيّة لكي لا تقف حائلا في رقينا، كما أمرنا بالاستعاذة من المساوئ التي قد تنشأ بموتنا في غير أوانه، وبعد أن علّمنا الله تعالى الاستعاذة من شر المفاسد التي قد تصيبنا في بداية حياتنا ونهايتها، علّمنا الآن الاستعاذة من شر المفاسد التي قد تصيبنا في المرحلة الوسطية من الحياة، فقال ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾، فبيّن أن الإنسان قد لا يكون مصابًا بمساوئ خَلْقية، كما لا يموت موتًا في غير أوانه، غير أنه يصاب ببعض المساوئ في حياته الوسطية. وهذه المساوئ أيضا نوعان: أوّلهما ما يتعلق بزمن خَلْقه، والثاني ما يتعلق بزمن موته، وقد أشير إلى النوع الأول منهما هنا فقال

تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾.. أي أن الإنسان في حالته البدائية يستمدّ غذاءه من أمه كالشجرة التي تستمدّ غذاءها من أصولها، مما يعني أنه يكون على علاقة مع أبويه فيما يتعلق بالربوبية الظاهرة، وعلى صلة مع الله تعالى فيما يتعلق بالربوبية الروحانية، فيكون ابنا روحانيًا لله تعالى الذي يخلقه ويربيه وينمّيه، فهو يستمدّ كلّ قوته وغذاءه ونماءه من هذه العُقدة، أو الصلة، الموجودة بينه وبين الله تعالى، ولكن يسعى الأشرار أن يوسوسوا في قلبه ليقطع هذه الصلة بينه وبين ربه، فينصاع العبد الجاهل لهم ويُعرض عن ربه أحيانًا، وذلك كما يفعل الجهال من الأولاد في الدنيا إذ يتركون آباءهم ويقطعون كل صلة معهم؛ ولذلك قد أمرنا الله تعالى أن ندعوه كي لا تنقطع هذه العقدة التي تربطنا به تعالى، والتي مِن خلالها نستمدّ فيوضه، بل تتقوى هذه الصلة التي تربطنا بأبينا الروحاني كيلا نُحرم ما نستمده منه من غذاء، فنكون من الهالكين.

باختصار، فقوله تعالى ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ دعاءٌ لتجنُّب الشرور الخَلْقية، وقوله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ دعاءٌ بشأن الشرور المتعلقة بالموت، وقوله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ دعاءٌ بشأن الأمور التي إذا ابتعد عنها الإنسان ضعُفت فيه القوى التي تساعده على إحراز الكمال، فيظل محروما منه.

٣: وكان الله تعالى قد أوصى المسلم في قوله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ *وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ بأنه إذا كان قد آمن بالتوحيد الكامل فعليه أن يعلن عن وحدانية الله في كل مكان، وإذا ثارت زوبعة المعارضة ضده، وأظلمت الدنيا في وجهه، فلا يُصاب بالهلع، بل عليه ألا يبرح رافعًا راية التوحيد عاليةً. أما قوله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ فبيّن ﷻ فيه أن المؤمن بالتوحيد الكامل حين يعلن أنه قد صار لله تعالى مستغنيًا عمن سواه، فلا بد أن يظل بعض أصدقائه أوفياء له، مشيدين بموقفه هذا، بينما سيسعى الآخرون إلى بثّ السموم ضده في قلوب من يوالونه، ليخذلوه ويكونوا له أعداء، لذلك يأمر الله هذا

المؤمنَ أن يعلن في هذه الحالة بأنه يلوذ بملاذ الله تعالى من شرّ هؤلاء الموسوسين في قلوب أنصاره ليخذلوه ويعادوه ويعرقلوا سبيله.

٤: لقد علّمنا الله في قوله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ دعاءً لإحراز الكمال، أما في قوله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ فعلّمنا الدعاء بألا يأتي علينا الزوال بعد الكمال، ولا تحيط بنا المصاعب والنوائب، أما في قوله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ فبيّن أن الإنسان حين يصير هدفا للبلايا والنوائب، يسعى البعض ليزيدوه فشلاً وذلاً، ويفسد علاقته مع مَن بقي من أصدقائه، وذلك كما نلاحظ في البيوت عادةً بأنه إذا سخط الوالدان على بعض أولادهما فسرعان ما يشكوه إليهما الآخرون، فيقول أحدهم: أماه، إنه قد فعل كذا وكذا، ويقول الآخر: يا أبت، إن هذا قد ضربني في وقت كذا. فمن عادة الناس أنه إذا سقَط المرء وذلَّ حاولوا أن يزيدوه سقوطًا وذلة، ويرفعوا ضده المزيد من الشكاوى، ولذلك قد علّمنا الله تعالى هنا أن ندعوه بأن يعيذنا ممن يسعوْن لإفساد علاقاتنا، لأن الإنسان لا يستطيع الحفاظ على علاقته بالله تعالى وعباده الصالحين وأقاربه وحكامه إلا بفضل الله تعالى فقط، إذ لا علم له بمَن ينفث السم في قلوب الناس للقضاء على علاقته معهم.

وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٦﴾

شرح الكلمات:

حاسد: حسَدَهُ الشيءَ وحسَدَه عليه: تَمنَّى زوالَ نعمته إليه. (الأقرب)

التفسير: لقد ذكر الله تعالى في قوله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ أحد أسباب الانحطاط، موضحًا أن الأمة إذا تشتّت شملها وتفرقتْ وحدها هلكتْ، فمن واجب المسلمين ألا يبرحوا يسألون الله تعالى حمايته لهم من هذا المصير، وإذا

أصابهم فساد، فلينقذهم من نتائجه الوخيمة، أما هنا فبيّن الله تعالى سببًا آخر لهلاك الأمم، وهو أن يهبّ العدوّ من خارج الأمة للهجوم عليها لسلبِ ما خوَّلها الله من نعم وراحة ورخاء، لأنه إذا غلَبها توقّفَ تقدُّمها وازدهارهـا، وانقلبت جنتها جحيمًا، وأحاطتها مِحَنٌ شتى. فقوله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ يعني: أيها المسلمون، سنكتب لكم الغلبة، حتى تضيء شمس ازدهاركم في عنان السماء، وتصبح بلادكم جنة على الأرض، فادعوا الله تعالى دائمًا أن لا يحسدكم حاسد أيام غلبتكم، ولا يتمكن مِن سلْبكم هذه النعمَ.

باختصار، إن الله تعالى قد بشّر هنا بغلبة المسلمين بأسلوب رائع، ثم أمرهم بأن يأخذوا حِذْرهم من الانحطاط، داعين الله تعالى أن يحميهم منه دائما، كما نبَّههم إلى مسببات الدمار الذي سيحلّ بهم، لكي يجتنبوها.

ثم إن من المواضيع التي بيّنتْها سورة الفلق؛ أن على المؤمن أن يتّكل على الله وحده، ويعلن عن وحدانيته في كل مكان، وإذا واجه معارضة في هذا السبيل أو حاول البعض إثارة أقاربه وأصدقائه وأهله وأولاده ضده، فعليه ألا يبالي بأحد، وبعد بيان هذا الموضوع يقول الله تعالى الآن ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾، أي: أن الإنسان إذا توكّل على الله تعالى توكّلاً لا يبالي بعده بأحد، فقد صار لله حقًّا، وعُدَّ صادقًا في دعوى التوكل عليه، ومَن بلغ هذا المقام حسده الناس برؤية تقدّمه وطعنوا فيه بأنواع المطاعن، كأن يقولوا مثلاً بأنه لم يحرز هذا الرقي إلا صدفة، وما إلى ذلك من أقوال سخيفة، ولذلك يأمره الله أن يعلن بأنه لا يبالي بمكائد الحاسدين، بل يتوجّه إلى ربه ويعوذ بملاذه؛ لأنه رحيم كريم، ولا يضيع المتوكلون عليه.

ثم إن الله تعالى قد علَّمَنا بقوله ﴿رَبِّ الْفَلَقِ﴾ في بداية السورة، دعاءً لإحراز الكمال، ثم أمر أن ندعوه ألا نرى الزوال بعد الكمال، أما قوله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ فعلّمنا به أن الإنسان لا يخلو من

أحد حالين: حال الرقي، أو حال الانحطاط، ومن الملاحظ أن المرء إذا ضعُف أو تعرّضَ للانحطاط، قام كثيرون لإسقاطه أكثر، أما إذا ارتقى، قام كثيرون يحسدونه، وليس هناك حالة ينجو فيها الإنسان من شر الناس، فهو عرضة للخطر في ضعفه أو في رقيه أيضًا. فهو في حالة ضعفه مهدَّدٌ مِن قِبل قوم يجدون المتعة في إسقاط الساقط وإهلاك الهالك أكثر، وهو في حالة ازدهاره مهدد من قِبل الحاسدين الذين يريدون أن يضرّوه. فهو ليس في مأمن في أي حال، وبالتالي ليس في غنى عن نصرة الله بحال من الأحوال.

ثم إن قوله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ إشارةٌ إلى بعثة مبعوث سُمِّيَ في الحديث النبوي: المهديّ والمسيح، حيث بين الله تعالى أنه سيظهر في زمن يكون فيه المسلمون مشتتين متفرقين، يعوزهم الاتحاد والمركزية. فإذا بعثه الله تعالى لإصلاح العالم عارضه الناس بشدّة وحسدوه. فقوله تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ إشارةٌ إلى أن على المسلمين أن يدعوا الله تعالى أنه إذا بُعث هذا المبعوث، فلا يكونوا من حساده وأعدائه، بل من أنصاره وأعوانه، ليرثوا أفضال الله ونِعمه.

إنّ مفاهيم هذه السورة التي بيّنّاها بإيجاز تدلّ على أنها ذات أهمية قصوى من حيث مواضيعها، وأن الله تعالى قد علَّم فيها المسلمين -أمةً وأفرادًا- دعاءً كاملا، محذرًا إياهم من أسباب هلاك الأمم والأفراد، وبيّن أن الإنسان لا يكون في مأمن من الآفات والبلايا إلا إذا دخل في كنف الله، فالطريق السليم للأمن والسلام أن يظلّ المرء عاكفًا على عتبة الله، ويسأله الحماية دائما.

سورة الناس

مدنية وهي سبع آيات مع البسملة

هذه السورة من السور التي اختُلف في زمن نزولها، ويرى الباحثون أنها مدنية (فتح البيان)، غير أن هناك روايات تقول إنها نزلت في مكة، وروايات أخرى تقول إنها نزلت في المدينة. فبدلاً من أن نأخذ بعض هذه الروايات ونترك بعضها من دون دليل نقول: إما أنها نزلت في مكة، ثم نزلت في المدينة، أو أنها مدَنيّة فقط، لأن القرآن اختتم في المدينة المنورة.

لقد بينتُ عند تفسير سورتي الإخلاص والفلق أن السور الثلاث الأخيرة تقدّم في مجموعها خلاصة القرآن عند ختامه، كما أن سورة الفاتحة تقدم ملخصه عند بدايته. ولدى تفسير سورتي الإخلاص والفلق قد ذكرت بالتفصيل ما تحويانه من موضوع مشابه لمضمون آيات الفاتحة، أما سورة الناس فموضوعها يشابه مفهوم كل من: الرحمانية، والرحيمية، ومالك يوم الدين، ولا الضالين. فكلمات ﴿رَبِّ النَّاسِ﴾ و﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ تشير إلى صفة الله الرحمن. لقد بيّن سيدنا المسيح الموعود عليه السلام أن الرحمانية هي الإحسان الذي يكون بدون مقابل من عمل. ولا شك أنها صفة واسعة النطاق جدا، وفيضها يصيب كل مخلوق، ولكنّ تجلّيها الكامل يتم في الإنسان، لأن كل ما يُنـزله الله على المخلوقات الأخرى من فضل، لا يزال يرتقي ويرتقي حتى يظهر في ذروته وكماله في الإنسان. فالحق أن سعة الرحمانية إنما تنكشف في الإنسان، إذ إنها لا تنكشف حقًا في كون الله تعالى يُنعم على الإنسان من دون عمل، وإنما تنكشف في كونه تعالى يُحسن إلى عدوِّه أيضا. إن سعة رحمانية الله تعالى لا تنكشف من خلال تربيته لكبش أو ثور أو حصان، وإنما تنكشف من خلال تربيته لشخص مثل أبي جهل الذي يعارضه ويكفر به، أو

فرعون الذي يسبّه ويشتمه ﷻ. لا شك أن الإنسان أيضا يحسن إلى الآخرين، ولكن رحمانية الله تعالى تشمل أعداءه أيضا، كما قال الله تعالى ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾(الإسراء:٢١).. أي: أننا نساعد المؤمنين والكفار جميعًا، فعطاء ربك ليس محظورا على قوم أو طائفة. فثبت أن الإنسان هو المظهر الكامل لصفة الله الرحمن. كم كان أبو جهل يعادي الله تعالى! ومع ذلك لم يزل الله تعالى يحسن إليه. وكم كان فرعون يعادي الله تعالى! ومع ذلك شملته رحمانية الله. فقد تقبّل الله دعاءهما في آخر لحظاهما أيضا، فإن فرعون آمن وهو مشرف على الموت.. أي أنه دعا لنجاته، وكانت رحيمية الله تقتضي ألا يستجاب دعاؤه، ولكن رحمانيته اقتضت استجابة دعائه، فقال الله تعالى ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾(يونس: ٩٣)، أي: اليوم ننقذ جسدك. أما أبو جهل فقد دعا الله تعالى: إنْ كان ما يقوله محمد هو الحق مِن عندك فأَمْطِرْ علينا حجارة من السماء (الأنفال:٣٣-٣٦)، فقال الله لملائكته: حسنًا، أَمْطِروهم بالحجارة. فترى أن الله تعالى قد استجاب دعاءهما الذي دعوا به عند الموت لغبائهما بحيث لا ينفع الدعاء، فما الذي ينفع أبا جهل أن يُمطر بحجارة من السماء؟ أو ما الذي ينفع فرعون أن يُنقذ بدنه فقط؟

فثبت أن رحمانية الله تعالى تتجلى حقًا من خلال الإنسان فقط، مع أنها تشمل المخلوقات كلها من حيوانات وحشرات وديدان، حيث يسبّ الإنسانُ ربَّه ﷻ، ومع ذلك يمدّ اللهُ بالدم لسانَه الذي يسبّه به. فثبت أن الإنسان هو المظهر الكامل لرحمانية الله.

أما كلمة ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ فتشير إلى صفة الله ﴿الرَّحِيمِ﴾ في سورة الفاتحة، لأن الملِك هو الذي ينعم إنعامًا متتاليًا مستمرًا لأمد بعيد، فإننا نرى بأعيننا أن البعض لا يزالون يعيشون حتى اليوم على ضيعات وهبهم إياها الملوك المغول في الهند. دَعْ عنك الملوك المغول جانبا، فزمنهم قريب جدا، فإن البعض لا يزالون يعيشون على ضيعات منحهم إياها الملوك الأفغان الذين سبقوا الملوك المغول، بل هناك من يعيشون على ما تدرّ عليهم ضيعات قد منحهم إياها الراجات الهندوس قبل ألف

سنة، بل ألفين. فثبت أن الرحيمية تشبه فيوض الملِك. لقد قال داود ؈: "كُنْتُ فَتىً وَقَدْ شِخْتُ، وَلَمْ أَرَ صِدِّيقًا تُخُلِّيَ عَنْهُ، وَلاَ ذُرِّيَّةً لَهُ تَلْتَمِسُ خُبْزًا" (المزامير ٣٧ : ٢٥)، مما يعني أن الله تعالى يحفظ ذرية عباده الصالحين من ذُلّ السؤال. فثبت أن قوله تعالى ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ يشير إلى صفة الله ﴿الرَّحِيمِ﴾ المذكورة في الفاتحة.

أما قوله تعالى ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ فهو إشارة إلى قوله تعالى ﴿مالِكِ يَوْمِ الـــدِّينِ﴾ في سورة الفاتحة، لأن المالك الأخير هو المعبود الحقّ.

ثم إن محتوى سورة الناس كلها وثيق الصلة بالموضوع المذكور في قوله تعـــالى ﴿وَلا الضَّالِّينَ﴾.. أعني أن مضمونها يشير إلى الفتنة المسيحية وحماية الله للإســـلام منها. لقد بيّن المسيح الموعود ؈ بناءً على حديثٍ نبوي أن المسيحية هي أكـــبر مظهر للضالين (التحفة الغولروية، الخزائن الروحانية ج١٧ ص٢٢٩). والفرقُ بين ﴿الضَّالِّينَ﴾ و﴿المَغضُوب عَلَيهِمْ﴾ أن المغضوب عليهم يحاولون إكراه الناس علـــى قبول شيء بقوة العصا، أما "الضالين" فيحاولون إغواءهم بالنقـــاش والمحاججـــة، وذلك كما يفعل القسيسون اليوم، إذ يقومون بدعاية أن المسيحية ديانـــة جميلـــة ورائعة، وأن الإسلام يقسو على المرأة وما إلى ذلك من مطاعن. إنهم يأتون إلى أهل الإسلام كالخنّاس ويوسوسون في قلوبهم، دون اللجوء في الظاهر إلى جبر أو قسوة. وهذا ما يشير إليه لفظ الخنّاس إذ معناه: مَن يوسوس مختبئا. إن الفيلسوف الأوروبي مختفٍ عن أنظار الناس، ولكنهم يفسُدون بمطالعة كتبه. إنه لا يمارس الجـــبر، ولا يضرب الأعناق بالقوة، بل يوسوس في صدور الناس، من الجِنّة والناس.. أي سواء كانوا من الكبار أو من البسطاء. فالكتب التي تُنشر في أوروبا ضـــد الرأسماليـــة، يقرأها فقراء المسلمين، فتُنفِّرهم من الإسلام، وتُكرِّهُه إليهم، إذ يظنون بالفعـــل أن الإسلام قد حافظ على حقوق الأغنياء أكثر من حقوقهم. كل هذا ليس إلا مشهدًا لتحقُّق قول الله تعالى ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾.

فثبت أن فحوى سورة الفاتحة قد أُعيد ثانيةً في السور الثلاث الأخيرة من القرآن الكريم، مما يعني أن القرآن قد خُتم على الأساس الذي بُدئ به.

والعلاقة الثانية لهذه السورة هي مع سورة المسد. لقد أخبر الله تعالى في سورة المسد عن خروج عدو للإسلام ومصيره، أما سورة الناس فبيّن الله تعالى فيها علامات هذا العدو والوسائل التي يهاجم بها الإسلام.

والعلاقة الثالثة لهذه السورة هي مع آخر آية من سورة الفلق، حيث أخبر الله تعالى في قوله ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ أنه سيظهر حاسد كبير للمسلمين، لذا عليهم أن يدعو الله تعالى أن يحفظهم من شرّه، أما سورة الناس فتخبر أن هذا الحاسد الخطير هو الأمة المسيحية، وأنها ستهاجم الإسلام بكذا وكذا من الطرق والوسائل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿٢﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٣﴾ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴿٤﴾

التفسير:

١: لقد بينتُ عند تفسير سورة المسد أنها تنبئ عن خروج أمة تحارب الإسلام في الزمن الأخير للقضاء على هذا الدين الذي جاء به النبي ﷺ، بينما قد علَّم الله تعالى المسلمين في آخر آية من سورة الفلق الدعاءَ لحمايتهم من هجمات هذه الأمة، فأخبر الله تعالى أن حاسدا كبيرا سيظهر في الزمن الأخير بُغْية الاستيلاء على بلاد الإسلام بالقضاء على الحكومات الإسلامية، بل يتمنى ألا يبقى في الدنيا مسلم، وأنّ هذه الأمة الحاسدة ستملك كل قوة، بينما يكون المسلمون عاجزين عن التصدي لها، لما هم فيه من ضعف وانحطاط، فأَمَرهم الله تعالى عندها أن يستعيذوا به ليحميهم من هذه الفتنة الداهية، فيهيئ من الغيب أسبابا لحماية الإسلام من هجمات هؤلاء الأعداء، ولكي يستردّ مجدَه الغابر بعد ضعفه. والآن قد ذكر الله تعالى في سورة الناس ثلاثا من صفاته ﷻ لنستعيذ بها من تلك الفتنة، فقال ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ﴾.. أي: قولوا: نستعيذ بالله الذي

هو رب الناس ومَلِكُهم ومعبودهم. وواضح أن ما ننسب إلى الرب عند الاستعاذة به منه هو ما نريد اتقاء شرّه. فمثلا إذا هاجَمَك كلبٌ فتستصرخ قائلا: يا صاحب الكلب، أي: أنقذني يا صاحب الكلب من شرّه. أو إذا كان أحد قد ربّى أسدًا مثلا، فخفتَ هجومه، ستصرخ قائلا: يا صاحب الأسد، أي: أنقذْني يا صاحب الأسد من أذاه، وبالمثل عندما نقول: ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ﴾ فإنما نعني: نستعيذ بالله تعالى من خصال الناس التي لها علاقة بالربوبية والمالكية والإلهية. وربوبية الناس تنكشف بالديمقراطية، التي هي موصومة ببعض المساوئ، وملوكيتهم تظهر بسلطتهم على بعض البلاد الأخرى، وفيها أيضا بعض المفاسد، وألوهيتهم تظهر بالتيار اللاديني العام الذي يتولد في الأمة الملحدة والذي ينشر الإلحاد في الأمم الأقلّ تقدمًا من الأولين. ومعروف أن الله تعالى وحده المتصف بالربوبية والملوكية والألوهية حقًا، أما الناسُ فيتصفون بها على سبيل الظلّية فقط. فالأمر الرباني بأن نستعيذ برب الناس وملك الناس وإله الناس، يتضمن إشارةً إلى تعرُّضنا لبعض الشدائد التي تتعلق بالربوبية والملكية والألوهية، وبتعبير آخر؛ إن بعض الأمم ستستغلّ هذه الصفات استغلالا مشينا، وتُلحِق الضرر بالناس سيّما المسلمين، فلذلك قد ذكّرنا الله تعالى هنا أنه هو رب الناس وملك الناس وإله الناس حقيقة، فعليكم أن تستعينوا به بواسطة صفاته الثلاث هذه قائلين: يا رب، إن الذين جعَلْتَهم رب الناس وملك الناس وإله الناس على سبيل الظلّيّة، يستغلّون هذا المنصب استغلالا مشينا، ويضرّون الناس بدلاً من أن ينفعوهم، فاحْمِنا من ربوبيتهم وملوكيتهم وألوهيتهم.

والآن إذا درسنا الواقع وجدنا أن هذه السورة ترسم لنا صورة شعوب الغرب اليوم، فهذه الأمة الحاسدة لا تطيق رؤية قوة المسلمين، وتريد محو اسم الإسلام من وجه الأرض، فاتقاءً من فتنها قد علّمَنا ﷻ هذا الدعاء، فأمَرنا أولاً أن نقول ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾. وصفة الربوبية تغطّي كل ما يتعلق بحاجات الناس، وما يُسمّى اقتصاد البلاد، فقوله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ إشارة إلى أن هذه الأمة الحاسدة إذا خرجت، فإنها تُدمِّر أولاً اقتصاد المسلمين وتجاراتهم. إنها لا تهاجمهم

بجنودها أولاً، بل ستصل إلى بلاد الإسلام ببضائعها وتجارها، فتفتح هناك البنوك وغيرها، وتستولي على اقتصادها أولاً. وبالفعل نجد أن الشعوب الأوروبية قد وصلت إلى كل البلاد بهذا الطريق أولاً، فقد ذهبت إلى البلدان الأخرى بالسلع التجارية، ثم استولت على اقتصادها بالتدريج. لقد عرضتْ على الدول الإسلامية قروضًا رِبَوية، وهكذا أضعفتْها باستمرار، وبتعبير آخر إنها قضت على نظام الربوبية الذي أقامه الإسلام. فقوله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ تعليم رباني لنا بأنكم إذا أردتم النجاة من فتنتهم الاقتصادية، فادعوا الله تعالى أن يحميكم من شرهم هذا.

ثم علَّمنا الله تعالى أن نقول: ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾، وفيه إشارة إلى أن الشعوب الغربية ستثير في بلاد العالم فتنة الملوكية والحُكم بعد إثارة الفتن الاقتصادية. وبالفعل نجدها قد دخلت في أراضي الأمم الأخرى باسم التجارة أولاً، ثم أرستْ حُكمها فيها واستولت عليها. هذا ما فعلوه في كل البلاد الإسلامية؛ في مصر وإفريقيا والهند وغيرها. لقد ذهب هؤلاء إلى إفريقيا في أول الأمر بالأَساور والسُّبْحات الزجاجية الملوّنة اللامعة البرّاقة، فظنَّها أهل إفريقيا السذّج ثمينةً، واشتروها مقابل الذهب والأحجار الكريمة من ألماس وغيرها. ثم بعدها استولى هؤلاء على أراضي تلك البلاد. هذا ما فعلوه في الهند وإيران وبلاد العرب وتركيا وغيرها، حيث أقاموا هناك أولاً مراكز تجارية لمدّ نفوذهم، وكانت خطوتهم التالية استعمار تلك البلاد وإرساء حكمهم فيها، وهكذا قضَوْا على الحضارة السياسية الإسلامية.

ثم قال الله تعالى ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾، وفيه إشارة إلى أن شعوب الغرب بعد استعمار مختلف البلدان ستخرج منهم فتنة أخرى، وهي الفتنة الدينية، حيث يبدأ هؤلاء دعاية مسمومة لزعزعة إيمان المسلمين، ويقدّمون فلسفة جديدة وتعليمًا جديدا للقضاء على الدين. سوف ينخرون عقائد الطلبة المسلمين من خلال التعليم الذي يروِّجونه في كلياتهم وجامعاتهم، وينشرون منشورات تُري الإسلامَ على أنه دين غير معقول لكي ينفر الناس منه.

إذن، إن الله تعالى يقول هنا: أيها المسلمون، عندما تتعرضون لهذه الأحوال فعليكم أن تستعيذوا بالله الذي هو رب الناس وملك الناس وإله الناس، أي عليكم

أن تدعو الله قائلين: ربِّ، إنهم يريدون القضاء على الربوبية والملوكية والألوهية الصحيحة التي تريد نشرها في العالم، فهيِّئْ من عندك أسبابًا تقضي على فتنتهم، لتقوم في العالم الربوبية والمالكية والألوهية الصحيحة ثانيةً.

٢: لقد بيّن الله تعالى في قوله في السورة السابقة ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ أنه في زمن ضعف الإسلام في الزمن الأخير، سيقيم الله شخصًا لإصلاحه واسترداد مجده، ويُظهر لتأييده آيات سماوية، منها كسوف الشمس والقمر، أما هنا في سورة الناس فأخبر الله تعالى أنه ستخرج في زمن هذا المصلح ثلاثة فتن كبرى: الفتنة العائلية، والفتنة الحكومية، والفتنة الدينية. والحق أن العائلة والحكومة والدين إذ تؤدي إلى رقي الناس فإنها تؤدي إلى دمارهم أيضا، ولذلك قال النبي ﷺ: "كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ" (البخاري: كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين). فالأمّ التي تفدي ولدها بروحها وحياتها وتسهر على راحته كي لا يصاب بالبرد والزكام وغيرها من الأمراض، مضحية براحتها ونومها، يمكن أن تقتله ببثّ الأفكار الوثنية في قلبه. والأب الذي يكدح في الخارج ليكسب لقمة العيش لابنه، حتى لا يتردد في إلقاءِ نفسه في التهلكة من أجله، يمكن أن يسبّب له الدمار الأبدي بتعليمه إياه ما يُبعِده عن الله تعالى. والعائلة التي تعمل جاهدة لعلاجه عند مرضه، والأُمة التي تفخر به وتساهم في توعيته وتربيته، هي نفسها يمكن أن تهلكه بإفساد دينه. والحال نفسه بالنسبة إلى الملوكية، فالمَلِكُ الذي يحافظ على نفوس الرعايا وأموالهم وعزتهم، أو الدولةُ التي تسعى جاهدةً لراحة المواطنين وتوفير المرافق لهم، يمكن أن تهلكهم دينيًا. والحال نفسه بالنسبة للألوهية أيضًا، إذ إن آلهتهم -أعني زعماءهم الدينيين- الذين يفكّرون ألف مرة لمصلحتهم الدينية، ويسعون لتفوّقهم وإصلاحهم في الظاهر، يمكن أن يدمروهم في الحقيقة. فالقسس والكهان الهندوس وغيرهم من القادة الدينيين الذين يعلِّمون قومهم كثيرًا من الحسنات، ويوصونهم بالعمل بها -فينهونهم عن الكذب والغشّ والخداع والقتل والخيانة، ويحثّونهم على الالتزام بالصدق والأمانة، إذ يسعون لإصلاح بعض منهم- فإنهم يدمّرون آخرين في الوقت نفسه. ومع أنهم يبنون صرح

الحسنات في الدنيا -بحَثِّهم على العفو قائلين: مَنْ لَطَمَكم عَلَى خَدِّكم الأَيْمَنِ فَحَوِّلوا لَهُ الآخَرَ أَيْضًا، وحَثِّهم على حَمْلِ أعباء الفقراء، وعلى التحلّي بطِيب القلب ودماثة الأخلاق، ويأخذون التبرعات من أثريائهم وينفقونها على فقرائهم- فإنهم يدمّرون صرح الخير هذا بقولهم أن يسوع المسيح هو ابن الله؛ ومن أجل ذلك قد علّمَنا الله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ﴾، أي: ربّ، إن زعماء الدين يقومون بتربية القوم بلا شك، إلا أن ربوبيتهم سيف ذو حدين؛ يقطع أعداءك، ويقطع عنقي أيضا، ويا رب، إن ملوك الدنيا يحافظون على حياتي ومالي وعزّي وكرامتي، ويعملون على راحتي ورخائي، ولكنهم قد يدفعونني إلى الحضيض ويدمّرونني ببعض جهودهم الخفية، ويا رب، هناك قادة دينيون لا بد لي من أن أطيعهم -لأن القرآن يبين أن بعض الناس يتخذون قادة دينهم أربابًا من دون الله- وإنهم في الواقع يخدمون الإنسانية، إذ ليس في الدنيا قائد ديني لا يعلِّم قومه ما ينهض بهم، فالناس ليسوا أغبياء حتى يتخذوا لهم قادة دين لا يعلّمونهم أي خير، ومع ذلك قد يصيب المرءَ الشرُّ من قبل القادة الدينيين فيدمرونه. ولكن من هو الرب الذي يأتيك منه الخير دون الشر؟ ومَن هو المَلِكُ الذي يصيبك منه الخير دون الشر؟ ومن هو الإله الذي يأتيك منه الخير دون الشر؟ إنما هو الله وحده، فعليك أن تقول ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ﴾.. أي: أنني أتوجه إلى الله تعالى وحده ﴿رَبِّ النَّاسِ﴾، معرضًا عن إخوتي وأخواتي ووالديَّ وأقاربي وقبيلتي وقومي. ثم إنني لا أقدر على العيش من دون حكومة، ولكن قد يصيبني الضر منها، لذا أتوجه إلى ﴿مَلِكِ النّاسِ﴾ الذي كلُّ هؤلاء الملوك أظلالٌ له ﷻ. ثم هناك مَن يسمَّوْن أظلال الله في أمور الدين الذين اتخذهم بعض الناس أربابا من دون الله، فيمكن أن يصيبني النفع منهم وقد يصيبني الضرّ منهم، ولذلك أتوجه إلى ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ الذي لا يصيبني منه إلا الخير.

ولو أن المرء قام بهذا الدعاء آخذًا في الحسبان هذا المفهوم للسورة، فلا يمكن أن يتعرض لفتنةٍ من قِبل عائلةٍ ولا مَلِكٍ ولا قائدٍ ديني.

فالله تعالى قد أمرنا بقوله ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ﴾ أنه إذا هدّدتكم الحكوماتُ و لم تسمع لقولكم، بل ظلمتكم وأضرَّت بكم، فعليكم أن تتوجهوا إلى بلاطي لأني أنا مَلِكُكم الحقيقي. وإذا ظلمكم أهلُ بلدكم أو قبيلتكم وعائلتكم، فعليكم أن تعودوا إلى بلاطي فإني ربكم، وليست قبيلتكم وعائلتكم إلا في يدي. وإذا حاولتْ القيادة الدينية إضلالكم، فعليكم أن تنيبوا إليَّ لأني إلهكم، وأنا المسئول عن هدايتكم، فلو جئتموني فلن يصيبكم شيء من أضرار الربوبية ولا أضرار الملوكية ولا أضرار الألوهية. فكما أن الأمهات تقول لأولادها: إذا ضايقك أحد فتعال وأخبِرْني، كذلك يعلّمنا الله تعالى ويقول: إني أرسلكم إلى الدنيا، لتعيشوا بين الأقارب والأصدقاء وأهل قبيلتكم وبلدكم، وإنّ هؤلاء يمكن أن يصيبوكم بخيرهم وشرهم أيضا، ولكن إذا أصابكم منهم شر فتعالوا إليّ. ثم تكون هناك حكومات تصيبكم بخير وقد يصيبكم منها شر، فإذا أصابكم منها شر، فتعالوا إلي. ثم يكون هناك قادة روحانيون يسعون لتربيتكم الدينية بحيث قد يضرونكم ويقتلون روحانيتكم بدلاً من أن ينفعوكم، فإذا حدث ذلك فلا تحزنوا، بل تعالوا إليّ، فإني قائدكم الروحي الحقيقي، فإذا جئتموني فلن يلحق بكم ضرر.

باختصار، لقد علّم الله تعالى أمة الإسلام في قوله ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ﴾ دعاءً جامعًا للنجاة من شرّ كل الفتن التي كانت ستنشأ في الزمن الأخير حول الربوبية والملوكية والألوهية.

٣: لقد بيّنتُ عند تفسير سورة الفلق أنها تعلّم الإنسان -إضافةً إلى الأمور الأخرى- دعاءً بأن يحميه الله تعالى من شرٍّ يتعلق بمرحلة خَلْقه أو موته أو خلال الفترة بينهما، أما الآن (في سورة الناس) فقد ذكر الله تعالى مقابل هذه الأزمنة الثلاثة، ثلاثا من صفاته: الربّ والمَلِك والإله، والتي لها صلة بهذه الأزمنة. فصفة الرب تتعلق بزمن الخَلق والولادة، وصفة المَلِكِ تتعلق بزمن الموت، وصفة الإله تتعلق بزمن الحياة، فقال الله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ إزاء قوله في سورة الفلق ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾، وقال تعالى ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ مقابل قوله

﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾، وقال ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ مقابل قوله ﴿مِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾. فالإنسان من حيث ولادته يكون ذا صلة بصفة الربوبية، وهي صفة تعمل باستمرار، لأن عملية خَلْق الإنسان جارية في كل وقت وإنْ تمّتْ ولادته من نطفةٍ أول الأمر، فهو يتغذى كل يوم كي يتولد فيه الدم وتستمر حياته بـه، حـتى إن الأطباء يقولون إن جسم الإنسان يتجدّد كلية بعد سبع سنوات. فثبت أن عمليـة خَلْقه مستمرة كل وقت، ولذلك تستمر ربوبية الله له أيضا كل آن، ولذلك أمـره الله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾.. أي: أستعيذ بالله- الذي تعمل ربوبيته في الناس كلهم ولا تزال تُحدث في أجسادهم تغييرات بعضها تؤدي إلى الشر، وبعضها إلى الخير- من هذا التغيّر الجاري باستمرار مِن أن يدفعني إلى الشر بدلاً من الخـير. ثم أمره أن يقول إني أستعيذ بـ ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾، ذلك أن عملية الموت أيضًا تعمل في الإنسان كل حين، فليس البول والبراز والعرق والشعر والأظافر التي نتخلص منها إلا أجزاء ميتة من أجسامنا؛ إنه موت مؤقت وجزئي يمر به الإنـسان. فثبـت أن عملية الموت مستمرة في الإنسان، ولذلك قد أمرنا الله تعالى بالاسـتعاذة بمَلِـكِ الناس.. أي نستعيذ به مِن صفة جزائه وعقابه، حتى لا يأتي علينا زمن الفشل، بل يخصنا دائما بنِعَمِه وفضله من دون عائق. والحالة الثالثة أن تسوء نية المرء، فيـؤثر مصلحته الشخصية، ولذلك قد علّمنا الله تعالى أن نقول ﴿إِلَـهِ النَّـاسِ﴾.. أي: أستعيذ بالله الذي هو معبود الجميع مِن أن يصيبني خلل كهذا، وإذا أُصبتُ به فلا يدَعني الله تعالى أخرج مِن كنف ألوهيته، فإن هذا يتنافى مع عظمته، فلذلك أتوسل إليه بألوهيته: إلهي، لا تجعل صلتي تنقطع عنك، بل اجعلها قائمة باقية على الدوام. فقوله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ﴾ دعاءٌ للاستعاذة بالله تعالى في هذه الحالات الثلاث أيضا.

مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٥ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٦ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٧

شرح الكلمات:

الوَسْواس: اسمٌ مِن وَسوسَ إليه الشيطانُ، أي حدَّثه ما لا نفع فيه ولا خير؛ الشيطانُ؛ هَمْسُ الصائد والكلابِ؛ صوتُ الحُلْي؛ مرضٌ يحدث من غلبة السوداء ويختلط معه الذهن؛ ويقال لما يخطر بالقلب من شرّ ولما لا خير فيه وسواسٌ. (الأقرب)

الخنّاس: مبالغةٌ مِن خَنَسَ عنه، أي رجع وتنحّى؛ تأخَّرَ؛ انقبضَ. وخنست النخلةُ: تأخرتْ عن قبول التلقيح فلم يؤثّر فيها ولم تحمل في تلك السنة؛ وخنَس القولَ: أساءه؛ وخنَس الشيءَ عنك: ستَره؛ وخنَس إبهامَه: قبَضها. وخَنَس بين أصحابه: استخفى. وخنَس بفلان: غاب به. (الأقرب)

فالخناس ١: الكثيرُ التنحّي والانعزالِ، ٢: الكثيرُ التأخر، ٣: مَن لا يخضع للتأثير مطلقًا، ٤: مَن يخفي الشيء كثيرا، ٥: مَن يختفي عن أصحابه.

الجِنَّة: طائفة من الجِنِّ. والجنُّ خلافُ الإنس، وأصل معنى الجن الاستتار والاختفاء، ومنه الجنين.. أي الولد ما دام في الرحم. والجَنان القلبُ، لاستتاره في الصدر (تاج العروس).

فالجِنّ يعني المخلوقات الخفيّة، وكل ما يختفي عن الأنظار. ومن هنا يُطلق الجن على كبار الناس الذين يعيشون مستترين في بيوتهم ويصعب الوصول إليهم.

التفسير: قوله تعالى ﴿مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ إما أنه متعلق بقوله ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾، وعليه فالمعنى: أنه يوسوس في قلوب الناس صغيرهم وكبيرهم

جميعًا، أو أنه متعلق بقوله تعالى ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾، وعليه فالمعنى: أنـــني أستعيذ بالله تعالى من شر الذين يوسوسون في قلـــوب النـــاس ثم يتـــأخرون، أو يوسوسون مختفين عن أعين الناس، سواء كان هؤلاء الموسوسون مِن عامة الناس أو من كبارهم، وسواء كانوا ظاهرين أو خفيّين.

لقد بيّنا من قبل أن الجنّ يُستعمل مقابل الإنس، ويراد به الذين لا يُرَوْن عادةً، بمعنى أنهم يختفون في بيوتهم أو يعيشون في بيوتهم تحت حراسة الحراس، ولا يقابلون العامة. أما الإنس فهم الذين يقابلون الناس عادة. فالجن هم كبار الناس، والإنـــس عوام الناس أو الذين يختلطون بالعامة. ومن أجل هذه الحكمة كان سيدنا عمر ﷺ قد أمَر وُلاته ألا يأخذ أي منهم حراسًا، لكي يصل إليه الناس بحريّة (تاريخ الطبري ج٥ ص ٦٣)، وذلك كي يظل إنسانًا ولا يُعتبر من الجنّ.

يقول الله تعالى هنا أن الشعوب الغربية ستهاجم الإسلام في الزمن الأخير وتدمّر اقتصاد بلاد المسلمين وتستولي عليها، وتقوم بذلك بمنتهى المكر والخـــداع، فهـــي ستقول لهم في الظاهر لقد جئناكم لنعلِّمكم الحضارة وننشر العلوم بينكم، والواقع أنها تريد بثّ الوساوس في قلوبهم، لتنفيرهم من الله ورسوله. وكذلك إنها ستستولي على حكم بلاد الإسلام تحت غطاء مصلحة أهلها، وهي تريد في الحقيقة أن يكره المسلمون دينهم ويتبعوا حضارتها ودينها، ثم إن هذه الشعوب لن تحـــاول إغـــواء بعضهم، بل تستهدفهم كلهم، صغيرهم وكبيرهم، ويكون سلاحها هذا ناجحًـــا لدرجة أن المسلمين سيقعون ضحية لدعايتها حتى يُقضى على حضارتهم.

إن كثيرًا من الأشرار يفعلون بك الشرّ واقفين أمامك، ولكن كـــثيرًا منـــهم يختفون بعد مكرهم بك، أو يكيدون بك سرًّا، وهذا هو دأبُ الشعوب الغربية في السياسة وغيرها من الأمور؛ إذ تحتال على أهل البلد الآخر من حيث لا يفطنـــون

لشرّهم فيهلكون. إنها تؤلّف كتبًا بحجة نشر العلوم، مع أنها تريد بها نشر الكراهية ضد الإسلام أو نشر الإلحاد، وهكذا تُهلك الآخرين وهي جالسة في بلادها.

ومن معاني الوسواس صوتُ الحُليّ، وعليه فقوله تعالى ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ يعني: أن شعوب الغرب في الزمن الأخير تقوم بإغواء الناس بإغرائهم بالأموال، ثم إنها ستعمل كالخنّاس.. أعني أنها لن تعطيهم هذه الأموال علانيةً، تحقيقًا لمآربها، بل تبعثها إليهم من حيث لا يعرف الآخرون بها. فعلى المؤمن أن يدعوَ في هذه الحالة أن يحفظه من فتنة هذه القوى الشريرة.

ثم إن الله تعالى قد بيّن بقوله ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ أن هذه الأمم سوف تغوي الناس بالمال حينًا عن طريق كبار القوم، وحينًا عن طريق عامتهم، أو أن هذه الأمم ستملك أموالا طائلة تمكّنها من إغراء الأثرياء أيضًا ناهيك عن عامة الناس.

كما أن هذه الآيات تتضمن نبوءة أن هذه الفتن ستُنشَر بتخطيط منظَّم، فلن يشترك الناس في نشرها فردا فردا، بل يحرّض بعضهم بعضا، ويضم إلى صفهم من يحمل أفكارا مماثلة. فالأجير لن يترك عمله وحده عند صاحب العمل، بل يحثّ زملاءه أيضا على ترك العمل عنده، وأصحاب المصانع لن يكتفوا بطرد بعض العمال من مصانعهم فقط، بل ينهون أصحاب المصانع الأخرى عن توظيفهم عندهم، مما يعني أن الأسياد أيضا ينشئون نقابات لهم، والعمال أيضا ينشئون نقابات لهم. ثم إن الحكّام أيضا ينشئون منظمات خاصة لهم، والموظفون أيضا يقيمون تنظيمات خاصة بهم، وكل تنظيم يكون على صلة بتنظيمات مماثلة في البلاد الأخرى.

ثم إن مثيري الفتن ضد الدين أيضا سيعملون في تنظيمات، فإذا كان أحدهم يحمل أفكارا إلحادية مثلاً، فلن يُخفي أفكاره، بل يجمع معه الملحدين الآخرين

فيكوّنون منظمات معلنين أنّ من واجبنا الآن محو العقيدة الباطلة القائلة بوجود إله. كان الملحدون موجودين في الماضي، ولكنهم كانوا يعلنون عن إلحادهم بشكل فردي، ولم يكن لهم منظمات ولا جرائد ولا منشورات، أما في هذا العصر فهناك منظمات لهم في كل البلدان. ثم هناك منظمات لأعداء الإسلام من قسس وغيرهم، بل هناك منظمات للمشايخ الذين لم يستطيعوا أن يتحدوا في الماضي، فيعقدون مؤتمرات واجتماعات. وهذا كله تحقيق للنبأ القرآني المذكور في آخر سورة الناس.

وكما ذكرت من قبل أن الله تعالى قد ذكر في بداية هذه السورة ثلاثا من صفاته تتعلق بثلاث مراحل يمر بها الإنسان، أي ولادته وحياته وموته، حيث أمره الله تعالى أن يدعو دائما أن يظل في كل حالة مستمتعًا بإحدى هذه الصفات الإلهية فلا ينقطع فَيْضُها عنه، أما الآن فأشار بقوله ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ إلى الوساوس والشبهات التي يمكن أن تنتاب الإنسان في هذه الفترات الثلاث، فتقطع صلته عن الله تعالى. فمثلا: يمكن أن يفكر أنه ليس هناك ربٌّ خلَقه، وأنه لم يُخلَق لغاية، أو توسوس له نفسه عن ملوكية الله فيقول: ليس هناك مَن يعاقب ويجزي، أو توسوس له نفسه عن ألوهية الله فيقول: ما الحاجة إلى عبادة الله؟ فهناك وساوس شتى يمكن أن تساوره فتقطع صلته عن الله تعالى؛ ويمكن أن تكون وراءها أسباب مختلفة؛ حينًا بتأثير الكائنات الخفية، أو الأرواح الشريرة، أو بعض الأمراض، أو بعض الأماكن التي تثير الشبهات في القلوب، أو بعض الناس الذين يوسوسون في القلوب، ولذلك قد علّم الله تعالى الإنسان الدعاء بأن يستعيذ به ليحميه من كل هذه المسببات للشكوك والشبهات قائلا: رب، اجعلْ صلتي مع ربوبيتك وملوكيتك وألوهيتك قائمةً على الدوام، فتكون بدايتي جيدة، ونهايتي جيدة، وكل التغييرات في حياتي جيدة. إذن، فهذه الآيات تعلِّمنا دعاءً جامعًا بالفعل.

إن سورة الناس آخرُ سور القرآن الكريم، وهناك احتمال أن يصاب المرء بغرور عند ختْمه لقراءة القرآن فيظن أنه قد صار الآن محفوظا من هجمات الشيطان ومن أي عثرات، ولما كانت هذه أفكارا مدمرة، لذلك قال الله تعالى في ختام القرآن: يا عبدي، لا شك أنك قد نلتَ شرف قراءة القرآن وختمه، ولكن لا تظن أنك صرت الآن محفوظا من براثن الشيطان، كلا، بل لا يزال هناك احتمال لعثارك مع تشرُّفك برؤية رب العالمين وتمتُّعك بفيوض ربوبيته. اعلمْ أن فضل الله ينزل على كل إنسان وفي كل حين، فحذار أن تُصاب بالغرور والعثرة بما حُزْتَه. إذا ختمتَ القرآن الكريم ورأيتَ أفضال الله نتيجة ربوبيته، فاعلم أنه ليس ربك فقط، بل هو رب العالمين، وفيوض ربوبيته تشمل أبسط إنسان أيضا، فإذا أنزل عليك فضلاً من عنده فلا تتكبر ولا تتعثر، بل عليك أن تدرك أنك حين رغبتَ في بركات الله وفيوضه فإنه قد مَنَّ عليك بشيء منها نتيجة ربوبيته لك، ولكنك قد لا تكون قد تطهرتَ طهارة كاملة، لذا عليك أن تدعو الله تعالى دائما: أستعيذ بالله الذي هو رب الناس جميعا، وأن تقول له دومًا: رب، لقد أنزلتَ عليَّ نِعمَك ناقصةً بسبب حالتي الناقصة، ومن الصعب -والحال هذه- أن تصير عاقبتي الحسنى للأبد، فأتوسل إليك أن تتغمدني برحمتك الكاملة، وتنقذني من كل عثرة.

ثم إن مِن قرّاءِ القرآن مَن ينالون عند ختْمهم إياه درجةً أسمى من درجة العامة، فيصبحون من خدّام الله.. أي يتحلون بالصلاح والورع بحيث يشبهون الموظفين الحكوميين حالةً ومكانة، ومع ذلك تظل هناك إمكانية عثارهم، ولذلك أمر الله مثل هذا الإنسان أن يدعوَ قائلا: ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾.. أي: ربّ، أستعيذ بك من أن أُصاب بالغرور وأبتعد عنك حين تمنّ عليّ بأفضال خاصة، كما يخصّ الملوكُ مدراءَ أمورهم بأياد خاصة، فأتوسل إليك أن تصلحني ببركة صفة ملوكيتك، وتوفّقني لأن أعامل الرعايا كما تريد، حتى لا أكون من المغرورين الظالمين المتمردين.

ثم إن العلاقات بين الملوك وموظفيهم محدودةٌ مقارنةً مع العلاقات التي تكون بين الخالق والمخلوق، إذ لا حدود لها، وحيث إن قارئ القرآن إذا دخل في عداد عباد الله الخواص، ونزلت عليه أفضاله أكثر من الآخرين، كان هناك احتمال أن يُصاب بالكبرياء، فينحرف عن هدي القرآن الذي بسببه نال هذا المقام، فيُحرَم فضل الله تعالى، ولذلك قد أمره أن يستعيذ بإله الناس؛ أي: إلهي، أتوسل إليك بألوهيتك وعبوديتي، ألا تدَعني أُعرِض عنك، بل اجعلْني دائما من عبادك. آمين.

ملحقات

وَضَعَ الأصلَ الأردو: الأستاذ سيد عبد الحي شاه
ناظر التصنيف بالجماعة بباكستان

(١)

فهرس الموضوع

الله ﷻ

اسمه الذاتي

صفاته ﷻ

فكرة الله ﷻ في الأديان الأخرى

الآخرة (انظر في القيامة)

الآريا (انظر في الهندوسية)

إبليس

الإثم/ الخطيئة

الاحترام

الإحصاء السكاني

الأحمدية الجماعة الإسلامية

عقائدها

مسؤولياتها وواجباتها

تقصيراتها

معارضتها

الأخلاق/ الخُلق

الأرض

الأرملة (انظر في الزواج)

الاستغفار

الاستغناء

الإسلام (انظر أيضًا المسلمون)

خصائصه

عقائده

العبادات الإسلامية

مقارنته مع الأديان الأخرى

النظرية الإسلامية عن الحُكم

الإسلام والعلاقات الدولية

معارضة الإسلام

أمور متفرقة عن الإسلام

الاشتراكية/ الشيوعية

الإصلاح

الإكراه

الإلحاد/ الدهرية

الإلهام (انظر في الوحي)

الأمّة/ الأمم

الأمة المحمدية (راجع أيضًا الإسلام والمسلمون)

أفضليتها

وعدُ حمايتها

بعثة المجددين والمسيح الموعود عليه السلام

الإنجيل

الإنسان

أهل الكتاب

الأولاد

الآية/ الآيات (انظر المعجزة أيضًا)

آيات القرآن (انظر أيضًا القرآن)

التعليم والتدريس

التفسير

التقرب إلى الله ﷻ

التقوى

التناسخ/ التقمص

التهجد

التوبة (راجع أيضًا الاستغفار)

التوحيد

الجنون

الجهاد (راجع الحرب والغزوات)

جهنم (راجع الجنة أيضًا)

الحج

الحجر الأسود

الحديث

الأحاديث الواردة في هذا المجلد

أحاديث مترجمة

الحرب

الحسد

الحق/ والحقوق

الحكمة

الحكومة (راجع أيضًا الاشتراكية والديمقراطية)

حِلْفُ الفضول

الحواري

الحيوان

أدعية الأنبياء

الدعوة والتبليغ

الدنيا

الديمقراطية (راجع أيضًا الحكومة)

الدين

الذبح العظيم

ذِكْر الله تعالى

الرابطة الإسلامية الهندية ٩٢

الرؤيا

الرؤية

الربا

الرحم

سورة الفلق

سورة الناس

السياسة (راجع الحكومة)

السيخية

السيرة

الشر (راجع أيضًا الخير)

الشرك

الشريعة

الشمس

الشهادة

الشيطان

الشيعة ٤٦١

الصابئة

الصحابة ﷺ

أخلاقهم وسلوكهم

الصحبة

الصحة (راجع الطب أيضًا)

الصديقية

الصلاة

الصليب

الصوم

الضمير الإنساني (انظر في الإنسان)

الطاعة

الطاعون

الطب (انظر الصحة والطاعون أيضًا)

العادة

العبادة

الإسلام والعبادات

مقارنة عبادات الإسلام مع الأديان الأخرى

العبرانية

العذاب (راجع أيضا الثواب والعقاب)

العربية

خصائصها

قواعدها

الغرب

الغزوات

غزوة أحد

غزوة الأحزاب

غزوة بدر

غزوة بني المصطلق

غزوة حنين

غزوة خيبر

الفطرة

الفقه

الفقير

الفكر

الفلسفة

الفيدا (كتاب الهندوس)

القانون

القدر/القضاء

القرآن الكريم

القمر

القنبلة النووية

القيامة/ الآخرة

الكِبر

الكتاب المقدس (راجع التوراة والإنجيل)

الكشف (راجع الوحي أيضًا)

الكفر

كلام الله تعالى (راجع الوحي)

الكوثر

الكون (راجع أيضًا الخَلْق)

لقاء الله جل جلاله

عقائدهم وتقاليدهم الخاطئة

نصائح للمسلمين

المسيح الموعود عليه السلام

المسيحية/ المسيحيون

تعاليمها وعقائدها

مقارنتها مع الإسلام

عداؤها للإسلام

مستقبلها

المعتزلة

المعجزة

المعراج

الملائكة

الملة

الملَكية (راجع الحكومة أيضًا)

المهدي (راجع المسيح الموعود أيضًا)

النبأ/ النبوءة (راجع النبوة أيضا)

أنباء الأنبياء السابقين

أنباء القرآن الكريم والنبي ﷺ

النبوّة

خاتم النبيين ﷺ

النجاة

النسخ

النصيحة

النظام

النفس (راجع أيضًا علم النفس)

اليقين

اليهودية

تاريخها

عقائدها وتعاليمها

حسن معاملة المسلمين معهم

عداؤهم للإسلام

(٢)

فهرس الأعلام

شعوب وشخصيات

آدم عليه السلام

عمر بن عائذ

عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه

عمرو بن العاص رضي الله عنه

عيسى ابن مريم عليه السلام

أحواله

مقامه عليه السلام

نبوءاته

أقواله عليه السلام

نزول المسيح

غرض بعثته

إقامته ﷺ للتوحيد

مقامه ﷺ

خاتم النبيين وآخر الأنبياء ﷺ

إفاضة النبوة المحمدية

فضائله ﷺ

خصائصه ﷺ

خُلقه ﷺ العظيم

عباداته ﷺ

صدقه ﷺ

إلهاماته وكشوفه ورؤاه ﷺ

أدعيته ﷺ لأمته

أحاديثه ﷺ *(راجع أيضًا "الحديث" في "المواضيع")*

دحض المطاعن ضده ﷺ

نبوءاته ﷺ

(٣)

فهرس الأعلام

أماكن

عكاظ

(٤)

المراجع والمصادر

المراجع العربية

القرآن الكريم

كتب التفسير وعلوم القرآن

* الإمام فخر الدين الرازي، التفسير الكبير
* العلامة أبو حيّان محمد بن يوسف، البحر المحيط
* العلامة أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، جامع البيان
* الإمام الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم
* الإمام جلال الدين السيوطي، الدر المنثور في التفسير المأثور
* عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن
* محمود بن عمر الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنـــزيل
* أبو الفضل بن حسين بن الفضل الطبرسي الطوسي، مجمع البيـــان في تفـــسير القرآن
*علاء الدين بن علي بن محمد البغدادي، تفسير الخازن
* محمد بن علي بن محمد الشوكاني، فتح القدير
* الشيخ إسماعيل حقي البروسوي، روح البيان
* أبو محمد الحسين الفراء البغوي، تفسير البغوي

* العلامة أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي، روح المعاني
* أبو الطيب صديق بن حسن القنوجي، تفسير فتح البيان
* ابن تيمية، التفسير الكامل
* الإمام الرّاغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن
* أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري، إملاء ما منّ به الرّحمن
* محيي الدين الدرويش، إعراب القرآن
* جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن

الحديث وشروحه وعلومه

* الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري
* الحافظ أحمد بن عيسى بن حجر العسقلاني، فتح الباري
* أبو العباس شهاب الدين، إرشاد الساري شرح صحيح البخاري
* الإمام مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري، صحيح مسلم
* الإمام الحافظ محمد بن عيسى الترمذي، جامع الترمذي
* الإمام أبو داود سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود
* أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، سنن النسائي
* الإمام الحافظ محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجه
* الإمام أحمد بن حنبل، مسند أحمد بن حنبل
* عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، مصنف ابن أبي شيبة
* الحاكم أبو عبد الله محمد بن عبد الله، المستدرك على الصحيحين للحاكم
* الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، المعجم الكبير

* الشيخ ولي الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب، مشكاة المصابيح، دار الفكر بيروت لبنان ١٩٩١م
* الحافظ نور الدين علي، مجمع الزوائد ومنبع الفرائد، دار الكتب العلمية بيروت ٢٠٠١م
* العلامة علاء الدين المتقي الهندي، كنـــز العمال
* الإمام علي بن عمر الدار قطني، سنن الدار قطني
* الإمام يحيى بن شرف النووي الدمشقي، رياض الصالحين
* جلال الدين السيوطي، الجامع الصغير
* الملا علي القاري، الأسرار المرفوعة في الآثار الموضوعة، قديمي كتـــب خانـــه كراتشي
* الدكتور صبيحي الصالح، علوم الحديث ومصطلحه

السيرة والتاريخ

* محمد بن عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، تراث الإسلام ٢٠٠١م
* أبو الفداء الحافظ إسماعيل بن كثير، البداية والنهاية، دارالكتب العلمية بيروت ٢٠٠١م
* العلامة علي بن برهان الدين الحلبي الشافعي، السيرة الحلبية، دار الكتب العربية، بيروت
* أبو عبد الله محمد بن عبد الباقي الزرقاني المالكي، شرح العلامة الزرقاني علـــى المواهب اللدنية للقسطلاني، دار الكتب العلمية، بيروت

* الإمام أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله، الروضُ الأُنُفُ، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٧م
* تقي الدين أحمد، إمتاع الأسماع بما للنبي ﷺ من الأحوال والأموال والحفـــدة والمتاع، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ١٩٩٩م
* نور الدين علي بن أحمد، وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، طبعة مصر ١٩٥٥
* العلامة أبو الحسن علي بن محمد المعروف بابن الأثير، أُسْدُ الغابـــة في معرفـــة الصحابة، دار المعرفة ٢٠٠١م
* محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، دار إحياء التراث العربي لبنان، ١٩٩٦م
* أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي، مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، دار الكتب العلمية بيروت لبنان
* أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري، دار الفكر للطباعة والنـــشر والتوزيع ٢٠٠٢م
* الإمام شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي، معجم البلدان، دار الكتـــاب العربي، بيروت
* محمود شكري الألوسي، بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب، دار الكتـــب العلمية بيروت
* أبو عمر يوسف بن عبد الله القرطبي، الاستيعاب في معرفة الأصـــحاب، دار الكتب العلمية لبنان
* الحافظ أحمد بن علي بن الحجر العسقلاني، الإصابة في معرفة الـــصحابة، دار الكتب العلمية لبنان
* الشيخ عز الدين ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، لبنان

* شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة لبنان

* الدكتور جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبـــل الإســـلام الطبعـــة الأولى ٢٠٠٧م

* أبو الحسن أحمد بن يحيى، فتوح البلدان، دار الكتب العلمية بيروت لبنان الطبعة الأولى ٢٠٠٠م

* العلامة عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي المغربي، تاريخ ابن خلدون، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان طبعة ١٩٧١م

اللغة والأدب

* إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح في اللغة، دار العلم للملايـــين بـــيروت ١٩٧٩م

* العلامة ابن منظور محمد بن مكرم الأنصاري، لسان العرب

* محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس

* أحمد بن محمد بن علي المقري، المصباح المنير

* سعيد الخوري الشرتوني اللبناني، أقرب الموارد

* المنجد في اللغة والأعلام

* الشيخ مصطفى الغلاييني، جامع الدروس العربية، المطبعة العصرية للطباعة

* حسن سعيد الكرمي، المغني الأكبر

* أبو محمد عبد الله جمال الدين، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، دار إحيـــاء التراث العربي بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠١م

كتب متفرقة

* عبد الوهاب الشعراني، اليواقيت والجـــواهر، المطبعـــة الأزهريـــة المـــصرية ١٣٢١هـــ

* الكتـــــاب المقـــــدس، الترجمة العربية المشتركة من اللغات الأصـــلية مـــع الكتب اليونانية من الترجمة السبعينية، تصدرها دار الكتاب المقدس في الـــشرق الأوسط جمعية الكتاب المقدس في لبنان، العهد القديم - الإصدار الثاني ١٩٩٥م، الطبعة الرابعة، العهد الجديد - الإصدار الرابع ١٩٩٣م، الطبعة الثلاثون

المراجع الإنجليزية

- Afzal ul Rehman, "Muhammad" Encyclopaedia of Seerah published by The Muslim School London, July 1981
- *Encyclopaedia* Britannica, Cambridge University Press, 11th Edition, 1911
- *Encyclopaedia* Britannica (The New) Vol:8 Publisher, William Benton,1943-1973, 15th Edition
- *The New Webster's International Encyclopaedia*, Michel D. Harkvey, Trident International.
- *The New Encyclopedia Britannica,* USA 2003
- *Encyclopaedia of religion and Ethics*, Edited by James Hastings, Book craft ltd. Great Britain.
- *Funk & Wagnalls company, The Jewish Encyclopaedia, New York and London, 1916*
- Sir MUIR, W., *The life of Mahomet,* Smith, Elder & Co. Waterloo London,1878
- Sir MUIR, W, *The Coran*, Its composition and teaching, Society for promoting Christian knowledge London
- WHERRY, E.M., 1896. *A comprehensive commentary on the Quran (comprising Sale's translation and preliminary discourse by E M Wherry)* London: Trubner & Co.Ltd.
- Apocrypha
- Gordon Stowell, The Book of Knowledge, Published by The Waverly Book Company LTD London
- John Bonker A Dictionary of World History Oxford University Press 2nd edition ,2000
- A.H.M jones and Elizabeth Monroe, A History of Abbeysina, Oxford Clarendon Press
- *Glynnis Chantrell, Encyclopaedia of World religions, Oxford University Press*
- *J.M.Thompson, Basil Blackwell, Napoleon, Rise and Fall Publishers London 1952*
- *Edward Gibbon, The Decline and Fall of Roman Empire, The Modern Library Edition*

المراجع الأردية والفارسية

کتب حضرت مرزا غلام احمد قادیانی علیہ السلام، (طبعہ روحانی خزائن) پبلشر نظارت اشاعت ربوہ، ضیاء الاسلام پریس ربوہ، پاکستان

- ازالہ اوہام
- تحفہ گولڑویہ
- الحق، مباحثہ لدھیانہ
- دافع البلاء
- قادیان کے آریہ اور ہم
- کشتی نوح
- تذکرہ (مجموعہ الہامات، کشوف ورؤیا حضرت مرزا غلام احمد قادیانی) الشرکۃ الاسلامیہ لمیٹڈ ربوہ پاکستان
- درثمین مع فرہنگ، شعبہ اشاعت لجنہ اماء اللہ ضلع کراچی

دیگر کتب واخبارات سلسلہ

- حقائق الفرقان ، حضرت مولانا نور الدین خلیفۃ المسیح الاول، الشرکۃ الاسلامیہ لمیٹڈ ربوہ

- نورالدین
- خطبات نور
- تذکرۃ المہدی ، پیر سراج الحق نعمانی ۱۹۱۵ء ، مطبع ضیاء السلام پریس قادیان
- رؤیا وکشوف سیدنا محمود رضی اللہ عنہ، فضل عمر فاؤنڈیشن ربوہ پاکستان

دیگر کتب، رسائل واخبارات

- تفسیر القرآن مع اصول تفسیر، سر سید احمد خان، دوست ایسوسی ایٹس 2004
- معجم القرآن، ڈاکٹر غلام جیلانی برق، شیخ غلام علی اینڈ سنز پبلشرز، لاہور
- تفہیم القرآن، ابوالاعلیٰ مودودی، ادارہ ترجمان القرآن لاہور
- انبیائے قرآن ، محمد جمیل ایم اے، شیخ غلام علی اینڈ سنز پبلشرز ، کشمیری بازار، لاہور
- تاریخ ارض القرآن، جلد اول ، دوم، مولانا سید سلیمان ندوی، نیشنل بک فاؤنڈیشن، طبع اول 1992، طبع دوم 2000ء
- تاریخ مکۃ المکرّمہ، محمد عبدالمعبود، مکتبہ رحمانیہ، اردو بازار لاہور
- سیر الصحابہ، سید سلیمان ندوی، ادارہ اسلامیات، انارکلی لاہور

۔ فقہ حضرت عمرؓ، (اردو ترجمہ) ڈاکٹر محمد رواس قلعہ جی، ادارہ معارف اسلامی، منصورہ، لاہور 2002ء

۔ مثنوی مولوی معنوی، جلال الدین رومی، مترجم قاضی سجاد حسین، ناشر اسلامی پبلشنگ کمپنی لاہور

۔ تذکرۃ الاولیاء تالیف فریدالدین عطّار، تصحیح مبارک علی قادری، شبیر برادرز اردو بازار لاہور

۔ حکایات اولیاء، شاہ اشرف علی تھانوی، مکتبہ رحمانیہ، اردو بازار لاہور

۔ خزینۃ الأصفیاء، مفتی غلام سرور لاہوری مترجمین مفتی محمود عالم و اقبال احمد، مکتبہ نبویہ لاہور

۔ گلدستہ کرامات در ذکر کرامات حضرت شیخ محی الدین عبدالقادر جیلانی، مطبع افتخار دہلی

۔ امریکہ کے ڈاکٹر جان الیگزینڈر ڈوئی کا عبرت ناک انجام، چوہدری خلیل احمد ناصر، ناشر شرکۃ الاسلامیہ لمیٹڈ

۔ عرب دنیا، بخلاعزالدین، مکتبہ جدید لاہور

۔ حرم عرفات، عبدالرحمٰن عبد، جنگ پبلشرز

۔ دور مغلیہ مع دستاویزات، صلاح الدین ناسک، عزیز بک ڈپو، چوک اردو بازار، لاہور

۔ پنجاب کے مغل قبائل، غلام اکبر ملک، العقاب پبلیکیشنز اردو بازار لاہور

۔اردو دائرہ معارف اسلامیہ، زیر اہتمام دانش گاہ پنجاب، لاہور 2004ء

۔ تمدن ہند، مترجم سید علی بلگرامی، زاہد علی شیخ پرنٹرز لاہور

۔ تاریخ ہند، سید ابوظفر، مطبع معارف اعظم 1947ء

۔ دنیا کا منجی، ماسٹر برکت علی خان، مصنف پبلشر، سیالکوٹ

۔ انجیل برنباس اردو، مترجم محمد حلیم انصاری، ناشر ادارہ اسلامیات کراچی

۔ستیارتھ پرکاش، رشی دیانند۔ترجمہ از چمپوتی ایم۔اے۔مطبع سوامی ویدانند تیرتھ ادھشٹا تا چمپوتی ساہتیہ و بھاگ آریہ پتی ندھی سبھا پنجاب گوردت بھون لاہور۔